إسحق ماشباش

خان جري

رواية تاريخية

ترجمة: وليد حافظ تحقاخه

لكتاب الأول

العام 1818

في مساء متأخر من يوم خريفي.

منذ زمن بعيد وصل الضيوف إلى ضفة نهر بشزة وأوَوا إلى بيوتهم. غير أنَّ محمد جري الذي لا يعرف طعم الراحة يذرع أرض الغرفة وفي رأسه تتصادم الأفكار وتتداعى. الورقة التي جاءته من روسيا تسودّ في الظلام حيناً وتلمع حيناً. يمر عليها بطرف عينه فتمنحه الدفء برهة ثم تنشر البرد في أوصاله. يتساءل: أيمكن للأديغة أن يفهموا ما فيها ؟ ويجيب نفسه: لا أظن ذلك؛ بل إن أكثرهم سيتحولون إلى أعداء لي.

ومع الخطا التي يخطوها محمد جري سلطان على أرض الغرفة تمر أمام عينيه صور كثيرة. وليس قليلاً ما يتذكره في سنوات عمره الستين من أفراح امتزجت بأحزان. ولكن ذكرى أخيه الأصغر الذي مات في ريعان شبابه هي التي طفت على غيرها من الذكريات. فإثر معركة خاسرة خاضها الجنرال الروسي بيبيكوف لاحتلال الحصن التركي المطل على نهر أنابا، أوصى أبوه أسلان جري وهويلفظ أنفاسه بأن يُضمَّ ابنه هذا إلى الجيش الروسي، وقد نُفِّذت الوصية بحضور الجنرال غودوفيش. وبعد هذه الوصية مر الأخَوان بأحداث كثيرة: عاشا في فاسيورينسك على الضفة اليمنى لنهر بشزة، غيرَ بعيدٍ عن حصن إيكاترينودار،متحالفَين مع روسيا. وبعدما خضع البجدوغ للروس تحرك ما في قلبَي الأخوين محمد جري وقبلان جري من شعور قومي فانتقلا إلى الضفة اليسرى للنهر. وأصبحت قرية لوستان حبله موطنهما الجديد. واستطاعا، وهما يسوِّغان تحالفهما مع الروس ويحافظان عليه ويبرئان نفسيهما، أن يندمجا في الحياة الأديغية المضطربة. نحن الشراكسة _ قال محمد جري في نفسه _ نشبّه أنفسنا بالطيور البرية. لا يجوز أن نتشبه بالطيور التي تهاجر إلى بلاد دافئة إذا برد الجو، ثم تعود مع تباشير الربيع؛ لا يجوز أن نقلد من ليس له عش في بلاد محددة. يا أسفي يا قومي البائسين! كم قال لكم أمير الناتخواي زانه سَفَرْبي هذا الكلام، وأنا ثقبت آذانكم بهذه النصيحة. هذا الذي تتشوّفونه مكانٌ غريب وراء البحار، وسيكون السبب في خراب بيوتكم." الجار كالبنطال ، لاغنى عنه. إن فزعت ساندك ". لماذا تتطلعون إلى ما وراء المدى. لا أكتمكم: لا خبرة لنا بروسيا، ولا نعرف شيئاً عن تركيا. ولكن كوننا مسلمين لا يعني أن كل من يدينون بدينٍ آخرَ أشرارٌ لا إحساس فيهم بالألم. لا نسمح لعيوننا إذ نحصرها بين حواجبنا، ونلصقها بأنوفنا، أن ترى على راحتها. نحن الشراكسة نخطئ، نحن نخطئ. فالأتراك الذين يرتسمون أمام عيونكم الزائغة إن حاولتَ يوماً أن توجه تفكيرك نحو بلاد القرم التي خرجتْ منها أسرتي في وقت من الأوقات أقربُ إليّ مما هم إليكم من جهة اللغة والعادات. ولكن ماذا أفعل بكم؟ فأجدادي وجداتي وأبي وعمتي، وأنا طبعاً، أنتم من ولدتموهم. أعيش حياتي وأنا أعتقد أنه لا شيء أفضل من شِرعة علاقاتنا الاجتماعية[1]، وإن كنتم ترموننا أحياناً بأننا من

[1] أديغة خابزه. المترجم. وكل حاشية على امتداد الرواية لم يُشَر إلى مصدرها هي للمؤلف .

النغوي[1]، فأنا أعيش حياتي، وأربي أولادي على هذه الشرعة (خابزة) الأديغية. وعندما يصطدم الطريق الثقيل بالضفتين العاليتين وتبحث أنت عن المخرج تفكر بالجانب الأقرب إليك والأسهل منالاً وترتمي عليه. نحن الأديغة أمامنا اليوم جداران عاليان، ونوايا الطرفين نحونا واحدة وأسلحتهما مُشهَرة، وكلامهما على السلام معسول، ويغنيان لنا أغنية واحدة. والدولتان اللتان بينهما عداء أزلي تتجاذباننا. وحين تكون على ضفة الموت فأي جانب تختار؟ ستختار من يمسك قبل الآخر بيدك الممدودة، فيبقيك حياً وإن كنت ستبقى مديناً له أومخاصماً. هذا هو المخرج الوحيد الذي أعرفه لنا نحن الأديغة وإن كنتم لا توافقونني على أفكاري وعلى سلوكي. ولا تظنوا أن الخبر الذي حملته هذه الورقة إليّ هومن أطلق لساني، فالأتراك عرضوا عليّ سلطة أعلى، وأنتم تعرفون هذا، ولكني لم أقبل.

وفجأة توقف محمد جري على أرض الغرفة كما لوأن أفكاره المتلاطمة لجمته قائلاً:

_ ما أشد ظلمة هذه الغرفة! ألم يبق في البيت من يشعل مصباحاً ؟

جاء من جهة الباب صوتُ خطوات البواب وإن لم يكن قد سمع صوت السيد:

_ أيها المحترم طلبت مني عمتك أن تعرّج عليها.

حين اجتاز محمد جري ساحة بناء الإمارة واتجه إلى الرواق الذي تقيم فيه عمته تراءت له أنوار حصن إيكاترينودار على الضفة اليمنى لنهر بشزة خافتةً. ذكّرته هذه الأنوار، وإن لم يكن يشاهدها للمرة الأولى، بأن عليه أن يقابل أتامان القوزاق ماتفييف[2]، ولكن كان الأفضل أن يذهب قبل ذلك إلى إقليم الشابسغ ليتابع أخبار ابنه الصغير هناك. والأفضل أن يلتقي بالأتاليك[3] مربي ابنه خورلوقوه حَمْرِزة الذي ينادونه حَمْرزة مرجان لأنه يقيم في قرية مرجان، ويمكن أن يتم اللقاء في مضافة أباته بسلني المقيم في قرية مجاورة، آملاً أن يتسلى عن أيامه المقلقة الأخيرة.

شيء ما عصر قلب محمد جري وهو يتقدم فيمسك بعمود المصطبة.نظر خلفه، تأمل حزيناً أرض الدار المغمورة بضوء القمر. وسمع في الوقت نفسه أذاناً رقيقاً يحوم فوق القرية يشهد أن لوستان حبله ليست خاوية, وسمع أيضاً كلاباً انتفضت. ثم سكتت فجأة.

قالت قانتات سيدة البيت الكبرى مفعمة بروح الأديغة، وباحترامِ كلِّ مَن يلبس قبعة وهي تربت على كتفيه:

_ تعال يا محمد جري! تعال! لم نتقابل طوال اليوم لانشغالك بواجباتك نحوالضيوف.

---

[1] أي التتر، وستتكرر لاحقاً. وكانت الكلمة نوعاً من المداعبة إلى أواسط القرن الماضي رمزاً للبخل، يقولون: دعوة إلى الطعام على طريقة النغوي، أي لمرة واحدة فحسبُ. المترجم.

[2] الأتامان: زعيم محلي عند القوزاق. المعجم الروسي .

[3] كان من عادة الأمراء والنبلاء تربية أولادهم في أسرٍ ممتازة ولكنها أقلَّ منهم شأناً لينشؤوا على شيء من خشونة العيش بعيداً عن حنان الأم، ولينشئوا علاقات قرابة غيرِ قرابة الدم. المترجم .

حقاً يا قانتات سبقتِني هذه المرة أيضاً على عادتك. ما أخبارك؟ كأنك لم ترتاحي إلى الضيوف الذين أرسلهم إليّ أتامان القوزاق.

ــ يا حسرتي! ليس، خلافاً للمثل، كلُّ ضيف يحمل خيراً. ضيوف اليوم، وأنت أدرى بهذا، لم يحملوا خبراً ساراً. لم أكن مسرورة في داخلي. فما نقلوه لا يُفرح أياً من الطرفين المتجافيين.

وبشعور مَن تحرص على راحة محدثها تنهدت وأضافت بسرعة:

ــ حقاً؛ كل أحوالنا وأخبارنا مما يحتاج إلى تفكير؛ ومع ذلك فما العمل؟ نحن في هذه الدار الفانية التي توسّع على بعضهم وتضيّق على الآخرين. والخير والشر فيها متجاوران. نفرح بعودة من يخرج من الدار. وما أكثر ما يخطر لنا من وساوس إن تأخر أحدهم! ومع ذلك، سواء أكانت الدنيا واسعة أم ضيقة، فنحن نسعد بأن نرى نور يوم جديد. وهل أسعدُ من أن ترى الشمس ثانية وأنت بصحة جيدة وعلى أرض دارك؟ والأسوأ أن تنظر إلى ما وراء نهر بشزة، لا تنس ما أقوله لك: لا تتخلّ، تحت إغراء أمور أخرى، عن قوميتك وعن إسلامك.

ــ لا تخطرْ لك وساوسُ من هذا القبيل يا عمتنا الغالية!

ورغم أن هذه الأفكار المتناقضة كانت هي نفسُها أفكارَ محمد جري فقد هيّجه كلام عمته، غير أنه تابع موحياً بأن لا شيء يدعو إلى اليأس:

ــ مع أن الدروب تضيق أمام الأديغة فسنفكر في ما هو أفضل، سنبحث عن " مخاض في نهرنا".

ــ طبعاً يا محمد جري، طبعاً يا بن أخي، الخير لا يخفي نفسه، ولكن لا تنس أن الخير والشر ملتبسان!

ارتجّ جسم محمد جري الذي بدأت الشيخوخة تسري فيه لما سمعه؛ غير أنه استفاق سريعاً فنظر إلى عمته نِظرة حنان محدثاً نفسه: " هذه المسكينة لا تستطيع أن تصرح بكل ما في قلبها، ولكنها أخت أبي ونشأنا في أسرة واحدة؛ لا تعرف، من لهفتها، كيف تتصرف معي، فتقلق منذ سنين عديدة لمشاغلي. وأنا كذلك؛ كيف أتصرف معك؟ ما إن مضت ثلاثة أشهر على زواجك حتى عاد إليك حصان زوجك خاويَ السرج؛ وكيف كنت تستطيعين أن تعيشي مع أسرتك الجديدة شابة وحيدة وأنت التي لم يتسن لها حتى أن ترث من زوجها جنيناً، فعدتِ إلى بيت أبيك لتعيشي في كنفي أباً وأماً وأختاً وشريكةَ دار وحامية لموقد أسرتنا. ومن لي غيرُك أحمل إليه فرحي وحزني؟!

ــ لم تعقِّب على ما قلت لك يا محمد جري. قالت قانتات وكأنها غير مبالية بالموضوع، ثم سألت:

ــ ألم يعجبك؟

ــ لا أذكر أني سمعت منك ما لا يعجبني. أجاب محمد جري دون مجاملة وعلى وجهه ابتسامة خفية.

ــ حسناً! سرت ابتسامة على طرفي شفتي قانتات دون أن يهتز لها وجهها النحيل المتطاول الجميل. ثم بانت الابتسامة في عينيها صامتة دافئة، وبان التعجب من طريقة سؤالها، ودون أن تُفصح عما حمله إليها قلبها اختتمت بمزاح لطيف مفهوم، دون الإفصاح عما خطر لها:

_ ما أسعدني! ضعفي وقوتي وما يحسبه الأغراب عليّ جنوناً،كل هذا يعجب أخي الصغير. وأين كنتَ ستذهب بي وأنا الوحيدة بجنوني وتعقلي وأنا أقيم على مرأى منك منذ سنين؟ حتى لأعذرُك إن مللت مني.
وفجأة انفجرت قانتات، فانتزعت منديلاً حريرياً صنعته بيديها من جيب صدارها المخملي الأسود القصير الملتفّ على جسم نحيل هرم، وفركت به عينيها، وأردفت:
_ لم أهنأ برجل حياتي الوحيد. ولا استمتعت بمودة الأسرة التي انضممت إليها، فوجدت نفسي وحيدة تعيسة يلاحقني النحس،عالة على أسرته قبل أن يتاح لي الوقت لاختبار طيبتها.
انتفض محمد جري من مكانه، واقترب منها وضمها إليه:
_ يا عمتنا يا قانتات ماذا جرى لك، مِمَّ تشكين؟
وكما انفجرت قانتات بالبكاء فجأة، سكتت فجأة، وقالت خجلةً من جزعها، مبدية تجلّدها:
_ سامحني يا محمد جري؛ ما كنتَ تستحق أن أفضح لك هشاشتي؛ هذا ما يجعلهم يقولون في المثل: الفرح يجلب الحزن. لم أستطع أن أكبت ما في قلبي.
_ أتفهّمُ موقفك يا قانتات، أتفهّم. وأتحمل جزءاً من هذه المسؤولية: لا أدري أكان الأفضل لو تبنّيت مطالب الأتراك؟
_ ولماذا لم تفعل؟ وهل ندمت على ما قلته لمن يتدخلون في شؤوننا؟
_ لا، لم أندم. ما جدوى أن تأخذ من الأتراك الذين لست من رعاياهم ما ليس لهم؟ لوأن الأديغة اعترفوا لي بالسيادة على ضفة نهر بشزة لاختلف الأمر. ولكن ثارت في وجهنا مسألة أديغية أخرى أصعب : إلى أي جانب من الجانبين سنميل؟ منذ زمن بعيد فهمت جواب هذا السؤال؛ ولكن لا أمل في أيٍّ من الجانبين. وهذا السؤال الذي بلا جواب قسَّم الأديغة إلى ثلاث شيع: الأكثرية يفكرون في إنشاء دولة لم يعهدوها طوال تاريخهم، والشيعتان الأخريان متدابرتان تنظر كل منهما في عكس اتجاه الأخرى: إحداهما تنظر إلى جهة تركيا، والأخرى من أمثالي نحو روسيا.
قالت قانتات وقد رفعت رأسها فبدت قَبّتها المخملية العالية على نحو أوضح:
_ الآن اقتربتَ مما يُهمُّني؛ تُذكِّرني يا محمد جري بأخي الأكبر المرحوم أسلان جري الذي هو الآن في جوار ربه. يبدو لي أنك واثق بالخيار الروسي وراضٍ بما تحقق لك اليوم.
قال محمد جري وهو ينظر إلى عمته نظرات أكثر لطفاً مشفوعة بابتسامة:
_ أكذب عليك إن قلت إني مقتنع بكل ما أفعل وإن عيني غير معصوبة ولا قيد على رجليّ. أفهم أن الطريق الذي اتخذتُه ليس الطريق الأمثل؛ ولكني واثق أنْ لا مخرج للأديغة غيرُه.
_ أسمعك يا محمد جري، أسمعك.
_ أخشى أن أكون مبالغاً إن قلت إني متأكد _ قال وقد أعاده الصوت الجاف الذي سمعه إلى وعيه ولو أنه قطع أفكاره ولكنه صوت واثق _ غير أن قلبي يقول لي.

ـ يُثلج قلبي أنك تعي صعوبة الطريق الذي اخترته يا أخي الصغير؛ فإن كان هذا رأيَك ـ قالت قانتات وابتسامة مجاملة تسري على وجهها الذي لم يختلج منه شيء ـ وأكملت:

ـ لم أتأكد من صدق الأخبار التي تحدثتْ عن الجسر الخشبي الذي كنت نصبتَه على نهر بشزة؛ هل جرفته المياه حقاً؟ ما الذي جرى؟

ـ سامحيني؛ ما كنت أريد أن أجلب لك همه؛ هذا مِن فِعْلِ من يكرهونني.

ـ أهم الذين قتلوا كثيراً من أغنامنا هذا الخريف؟

ـ وهذا من تدبير مَن يكرهوننا.

ـ أهم مجرد كارهين لنا أم أعداء؟

ـ من لا يقبل الطريق الذي اخترناه فهو عدو.

ـ صحيح يا محمد جري، مع أننا تركنا الضفة اليمنى لنهر بشزة وانتقلنا إلى اليسرى فما لم يغفروه لوالدك لن يغفروه لك أيضاً. مهما قلنا ومهما فعلنا فلن يقتنع الأديغة بأننا نفعل خيراً. " يُعرِضون عن أقاربهم ويتشوقون لرؤية الغريب " فإن كنت تحسب حساب هذا وتفهمه فهذا يُسعدني.

ضحك محمد جري وقال بين العتب والهزل:

ـ نفذت إلى ما في أعماق قلبي يا قانتات.

ـ الطريق الذي اخترتَه يا أخي الأصغر ليس خالياً كما أفهم. علّقت قانتات مرتاحة إلى المكاشفة التي جرت بينهما. ثم بلهجة ألطف:

ـ متى صدر أمر الإمبراطور الروسي بشأنك؟

ـ منذ زمن بعيد.

بعد تردد قالت قانتات بنبرة يغلبها العتاب:

ـ تأخروا في إيصاله إليك.

قال محمد جري ناطقاً بعنايةٍ الاسمَ الروسي للمدينة[1] :

ـ وهل سان بطرسبورج هنا؟! يأخذون الورقة أولاً إلى حاكم القوقاز المقيم في تفليس. ثم ينقلون ما يتعلق بستافروبول وإيكاترينودار إلى هذه النواحي.

وبعد انقطاع قصير تابع:

ـ الحق أقول: وأنا أيضاً،كما يقول الشابسغ، لا أستعجلهم عليها، ولا هم.

[1] الاسم الأديغي للمدينة كما سبرد كثيراً هو بتربف، وواضح أن محمد جري يستعمل هنا الاسم الروسي لغاية في نفسه يكتشفها القارئ. المترجم

ـ حقاً ليست مسائل الدولة سهلة كما نظن؛ قالت قانتات معلقةً على البطء الذي تجري به أمور الدولة، متجاهلةً الكلمات الأخيرة لمحمد جري.

ـ صحيح يا قانتات، ليست قضايا الدولة سهلة، وروسيا بالقياس إلى بلادنا كبيرة، وسكانها كثيرون، وفيها أقوام متنوعون.

ـ وتركيا؟

ـ وتركيا ليست دولة صغيرة.

ـ ربما لهذا السبب قالت قانتات كأنها تجيب بنفسها على السؤال الذي يقلقها ـ لا تتوقف روسيا وتركيا عن الاقتتال.

ـ ليس هذا فحسب، بل لأن بينهما ما تتنازعانه ولا تتسامح إحداهما مع الأخرى في شأنه. ما الفائدة في أن يحارب أحدٌ روسيا التي هزمت نابوليونَ فرنسا؟ لن نكون شيئاً بالنسبة إليها.

ثم بطّأ محمد جري كلامه وسأل، ليس بحثاً عن ذريعة للانصراف، بل إشفاقاً على عمته العزيزة:

ـ أظنني أمللتك يا قانتات من همومي التي لا تنتهي.

ـ لا. أمَا قلت لك إني مستعدة لأن أسمع أفراحَك،كما أحزانك ؟ إذن يا أخي الصغير أين هذه الورقة التي كانت موضوع كل هذا الحديث بيننا؟ لم تُرني إياها!

ـ هناك في الغرفة؛ سآتيك بها. هب محمد جري ناهضاً غيرَ منتبه إلى شروده.

ـ ليس أمراً مُلِحاً. حسمت سيدة البيت الكبرى النقاش قائلة: أمامنا أيام أخرى إن كان الله سبحانه سيفهمنا. ولماذا لن يفهمنا؟ إن توجهنا صوب روسيا فلن نعتنق ديانتهم ولن نصبح كفاراً. سأبارك ورقتك بيدي وأدعو لك من أجلها. ولكن لا تنقل الخبر إلى أحد إلا بعد أن يشيع بين الأديغة من تلقاء نفسه! لا تتكلم في شأنها، ولا تنس أنها ستزيد من أعدائك، دون أن يعني هذا أن عليك المحافظة عليها في الخفاء.

ـ وهم ليسوا في عجلة من أمرهم. يقولون: عشْ من أجل الأديغة ما استطعت، واعمل معهم، واعمل على أن يصالحونا.

ـ أمَا كان الأفضل أن يحتفظوا بهذه الورقة مزيداً من الوقت؟ لن تبقى سراً مادامت قد وصلت إلى المدينة

ـ قالت قانتات متنهدة بشدة ـ ما كنت لأسمح لأخي المسكين، أبيك، أن يفعل ما فعل لو أطاعنا.لم يسمعنا.

قالت سيدة البيت الكبرى قانتات هذا بصوت منكسرٍ. وبعد أن جلست مدة غير قصيرة تفرك عينيها الجافتين تابعت:

ـ يا حسرتي! كأن الله كتب على جبين أخي الأكبر أن يموت برماح الأتراك. ولولا أن أباكم أوصى بما تفعلونه لما سمحتُ لكم بما تفعلون. امض يا أخي الصغير، ولنصبحْ على خير.الكَنّة مهمومة طوال النهار ـ أليست أماً ـ بما سيجري لأولادها. ما إن انصرفتْ من عندي حتى بعثتُ إليك نافدةَ الصبر. يا إلهي

لا تحرمنا من رحمتك ولتشملنا عينُ عطفك ! لستَ غافلاً عما يحدث لنا. لِتُلن لنا قلوب الأديغة والروس، ولا تبغِّضنا إليهم!

II

تبدأ قصة علاقة سلطان محمد جري بروسيا تخز من يسمعها في إقليم القوقاز وتؤلمه، وتتضح الآن أكثر فأكثر. ارتدّ إلى محمد جري في الأيام الربيعية الماضية كثير من الأخبار وقد زيد فيها الكثير ونقص منها القليل، ولا تخلو مما يضحكك وما يُغضبك، وما يجعلك تتأمل وما لا تأبه به. ولكن الصيف غزا ضفاف نهر بشزة دون أن يعبأ بعديد الذين سمعوها رغم أن بعضهم لا يغيب عن وجهه، ودون أن يعبأ بأي ضفة يبدأ: بالضفة الروسية أم بضفة الأديغة.

ركب محمد جري حصانه في الصباح اللطيف متذرعاً بضرورة مقابلة أباته بسلني، متهللاً للقاء الصبي خان جري الذي يشتاق إليه دائماً، إلى قرية أَبْنَه الواقعة في إقليم الشابسغ، وعلى يساره مولاه الشاب[1]. الطبيعة التي أعقبت الربيع جميلة، والخُضرة التي لم تهزمها بعدُ الشمسُ الحارقة: الأعشاب وأوراق الأشجار والحقول المزروعة والأراضي التي تُحشُّ أعشابها فحسبُ، والسماء التي لا تنوي أن يبهت لونها، تسلبك عينيك وتزرع نفسك بالأمل. وعلى يسار الفارسين، غير بعيد ولا قريب، غابةُ (غواغا*)[2] الواسعة التي يمر بها هادئاً نهر بسه قوبسه، تبدو جاثمة جهة الشرق. وما على يمينهما من أجمات الغابة ترفد غابة تغورغوي، تنهض حيناً، وتقف على رؤوس أصابعها حيناً، فتستلقي على الضفة اليسرى لنهر بشزة. وعلى الضفة اليمنى، على مدخل قرية كوزيت، تُطلّ القلعةُ المدينةُ القوزاقيةُ إيكاترينودار على البيوت البيضاء ذات السقوف القصبية التي طُلي بعضها بالجير، تطل كما تريد بمراصدها العالية الكثيرة من فوق القلعة على الحشد الفوضوي لبيوت الأديغة.

الجبال المتراصة التي تلوح لعيون الفارسين من جهة البحر الأسود لا يقلقها شيء، عاليةٌ بيضاء القمم، غفت عليها بعض مجموعات السحب الباهتة الكسلى.

_ ما لك يا شواي لا تقول شيئاً؟ قال محمد جري معجباً بالشاب المولى الفارس ذي القامة الممشوقة المتينة والثلاثين ربيعاً،والذي يعرف مكانه فيقف على يسار الكبير:

_ ماذا أقول أيها المحترم؛ قال شواي ذو اللحية والشاربين الكثين، المتناسقة مع وجهه. ثم أردف على مهل وبابتهاج:

_ الطبيعة جميلة!

---

[1] لم أجد، على مضض، أقرب من هذه الكلمة لترجمة من يعرَّفون بالفلاحين الأحرار، أو الشعب الحر، كما تشرح الموسوعة الفرنسية: (فقولأ = tfokolt)، غير أنهم هنا تابعون للسيد المالك خلافاً لقبائل أخرى كالأبزاخ. المترجم.

[2] تعني بالأديغية: الرعد. المترجم

ـ تمام يا شواي، تمام! وهذا رأيي أيضاً. انظر هناك! ما أودع هذه الجبال ذات القمم البيضاء! والبراري الخضراء الفسيحة والغابات المتنوعة... والسماء وشمسها الدافئة!

ـ ها هي الشمس الحارقة تعبث جهة غوغوابشه من أرض الشيشان. قال شواي موافقاً.

ـ حقاً. وكذلك في وشبشي أسقلاي، ووراءها جبال الأبزاخ والإقليم الذي نتوجه إليه الآن، إقليم الشابسغ، والماخوش ـ الجمكوي كذلك، الطبيعة جميلة وهادئة. يا ليت قلوب الأديغة كانت مثلها! وتنهد محمد جري تنهداً ثقيلاً لا يتناسب مع الطبيعة اللطيفة التي يسافران فيها: يا حسرتي من أين نأتي بهذا؟! القلب الأديغي ينبض باثني عشر لحناً[1]

ـ لوكانت هذه فحسبُ مشكلتَهم! ولم يفصح شواي عما في قلبه.

ـ ومن تضيف إليهم؟ سأل محمد جري بعد لأي.

ـ القلعة الروسية التي تنتصب على الضفة اليمنى لنهر بشزة تسلب قلوب الأديغة الاطمئنان. وكلُّ ما في حياتهم من مزعجات يأتي من تلك الناحية.

ـ ألم تكن تلك النواقص فينا قبل أن يبني الروس تلك القلعة ؟

وأجاب محمد جري مبتسماً دون أن ينتظر جواب محدثه:

ـ ليس الشقاق الأديغي وليد اليوم. وإن كان هذا رأيَك فقد سمحنا للترك أن يبنوا قلعتهم في أرض الأديغة؛ لا تنس قلعة أنابه، فهذه ليست بريئة من المسؤولية.

ـ نحن على ما يبدو أيها المحترم بين نارين وكلتاهما تحرقاننا.

ـ هكذا كما تفهم أنت.

ـ إذن ما رأيك أنت أيها المحترم؟

قال محمد جري لنفسه: أظن أن رفيقي لا علم له بقضاياي مع الروس. قليلاً ما أختلط بقوزاق إيكاترينودار، وكذلك هم. أنا لا أكتم صلتي بهم، وإن كتمتها فلن تكون سراً. وكيف لا نختلط وكل من الفريقين يرى قبعات الفريق الآخر إن تشوّفوا، وإن صِحْنا اختلطت أصواتنا. وألحان أغانينا متشابكة. نأكل من خيرات نهر واحد. لست وحدي في هذا؛ فكثير من الأديغة يختلطون بهم في مشاغل متنوعة، في الأسواق والمقايضات. وحتى لوتبادلوا التهديدات فالمصالح تجمع الطرفين وترقق قلوبهم وتسلحهم بالصبر. ومتى دبّ الشقاق بينهم أدار كلٌّ وجهَه إلى دينه كما يفهمه، وإلى أرضه حريصاً عليهما، فيتدابرون ويتهاجرون، ويجعلهم العداء يشهرون سيوفهم. وليس سكان الضفة اليمنى لنهر بشزة فحسب من ينطبق

[1] إشارة إلى مكونات العرق الأديغي الاثني عشر: القبرتاي والبجدوغ والأبزاخ والشابسغ والناتخواي والجمكوي والحكوف والجان والبسلني والمخوش والحاتيقواي...) القاموس الشركسي، مادة: أديغة، وقد أغفل القاموس واحداً هو اليجرقواي. المترجم

عليهم هذا الوصف، فالأتراك الذين يعبرون البحر الأسود يحملون في قلوبهم الشعور نفسه. وليس هذا الطبع عند الأديغة وليد اليوم؛ فكذلك كانوا تحت حكم خان القرم. وحين هاجمهم الأفاريون[1]. وكانت هذه حال الأديغة من جهة أرضهم. وهذا الشعور نفسه هو ما قابلونا به حين عاشرناهم. حتى لو اعتبرت نفسك واحداً منهم لما عاملوك بالمثل. ستبقى مدموغاً بلقب" الغريب " تعيش عمرك وهم يعيرونك به لأي جفاء بينك وبينهم، والمولى شواي لا أعرفه اليوم فحسب، وموقفه منا لا يختلف عن أولئك. شواي المعتدّ بقوميته ورجولته، خلافاً لما أظن،أفكارُه الخفية التي لا يفصح عنها بعيدة، يبحث عن أجوبةِ أسئلةٍ لا يعرفها. لا أظنه يخلو من الشك فيّ وإن لم يسأل عن سفرتي الأخيرة إلى القوزاق. لا يسأل عنها بسبب وضعه كمولى: عفارم[2]، أحسنت، فهذه رجولةٌ منه لا ضعفٌ. صحيح ما يقولونه " لا تتعجل في معرفة ما تريد معرفته فتلحَّ في السؤال عنه حتى يتهرّأ فمك" ستعرفه في مناسبة ما.

_ لست بلا موقف مما تقول يا شواي. _ خرج محمد جري من خواطره _ حقاً إن الأديغة اليوم بين نارين؛ ولكن أيُّ نار تحرق الآن؟ هذه مسألة أخرى. في النار خير وشر؛ نار الموقد ونار الحريق مختلفتان؛ إحداهما تدفئك والأخرى تحرقك. هل النيران اللتان نتكلم عليهما نارُ موقد بالنسبة للأديغة؟ تصبح نار موقد حسب ما ينوي الطرفان: إن وجدت وسيلة عاقلة لإطفاء إحدى النارين وجدت حلاً للنار الأخرى، أي النارين تشرع بإطفائها؟ لوكنت أنا...

منع ظهور ثلاثة فرسان من قلب الأجمة محمد جري أن يكمل كلامه. وثب شواي وتصدى لهم:

_ أيها المولى _ صاح الفارس الأوسط الملتحي _ ابتعد عن طريقنا!

_ لن أخطو خطوة قبل أن أعرف نواياكم! قال شواي ويده على مقبض سيفه.

_ إن كنت رجلاً يا ذا الوجه "النغوي" الكافر فلا تحتَمِ بمولاك! قال دون أن يعبأ بما قال شواي.

_ لست ممن ينسى أديغيته ورجولته، همز محمد جري حصانه ووقف إلى جانب مولاه، وقال: أنا أستمع إليك.

_ لماذا لا تحمل رتبتك الروسية على كتفيك يا من يدنّس أديغيته بمعاشرة النغوي " الأغراب " _ وأضاف ساخراً _ لن يقبل بهذا أتامانك القوزاقي.

_ أهذا ما يقلقكم؟

_ لا جلب الله للأديغة هماً أكبر من هذا الهم! قال الرجل الملتحي ضاحكاً. هذا هو همنا اليوم.

_ لوعرفت أني سأصادفكم لارتديت الشارة وأرضيت أتامان القوزاق ماتفييف، هكذا جلبت لنفسي العيب.

---

[1] جزء من الشعب الداغستاني. المترجم

[2] بالتركية في الأصل. المترجم

ـ لا فائدة في كلماتك الجوفاء هذه. بل نقول لك: البس رتبتك الروسية نستأصلْ كتفيك. ولن تقع عيناك ثانية على ابنك الذي يربيه لك خورلوقوه مرجان.

ثم تراجعوا ببطء واختفوا دون استعجال في الأجمة التي خرجوا منها.

وتابع الفارسان طريقهما كأن شيئاً لم يحدث. ثم سأل محمد جري:

ـ من هم هؤلاء المهرجون الثلاثة؟

ـ والله لا أعرفهم أيها المحترم، قال شواي منتشلاً نفسه من أفكاره المضطربة. ولكنْ، كائناً من كانوا، ليست نواياهم حسنة. أحدهم ذاك الشاب الذي كان على يسارهم كأني أعرفه بالوجه، ولكن لا أستطيع تذكُّر المكان الذي رأيته فيه.

ـ هؤلاء، بغضِّ النظر عن هوياتهم، فقدوا كل روح إنسانية وقومية، دمدم محمد جري كاظماً غيظه، ثم قال بصرامة: فكِّرْ يا شواي فتذكَّرْ أين رأيت هؤلاء العديمي الإيمان. ما تغفره لهؤلاء اليوم سيرتد أذاه عليك غداً؛ ليس لأننا نخاف منهم، ولكن الله نفسه يوصي بالحرص؛ الأفضل أن تكون حذراً.

ولكن المولى شواي لم يكن يسمع ما يقال له فقد كان يفكر في شيء آخر: حدّث شواي نفسه: على ما أظن انكشفت أسرار محمد جري الروسية اليوم؛ حقاً ما يقولون: " لا يهتز عود دون ريح"، ولا أظن ما عيروه به من الشارات الروسية تهمةً سقطت من السماء، والجسر الخشبي الذي نصبه على نهر بشزة أفلتوه للموج فحمله، والخراف؟ والآن يهددون حياته وحياة ابنه. ولكن بشأن الشارة الروسية؛ أيعقل أن يسمح محمد جري لهم بأن يُلبِسوه إياها ونحن الذين نقول: إنه تخلى عن صلات أبيه. وإن كان هذا حقاً فكيف تنظر عيونُنا في عيون قومنا الأديغة؟ ما معنى أن تبدّل انتماءك في مثل هذا الزمان الحرج؟

ـ لماذا لا تسأل يا شواي عن الشارة التي عابوها عليّ؟ قطع سؤال محمد جري المفاجئ أفكار شواي.

ـ لا يليق أيها المحترم أن أتدخل في ما لا يعنيني. قال شواي بصوت يفضح عدم رضاه. ونفّس عن قلقه بأن شد لجام الحصان بقوة.

ابتسم محمد جري محاولاً إخفاء هواجسه وقال:

ـ يبدو أن هموم السيد لا تشغل بال المولى!

ـ لا أقول هذا يا محترم؛ هؤلاء يتقولون أشياء كثيرة.

ودون أن يدعه محمد جري يكمل كلامه قال:

ـ إن كان رأيهم صحيحاً فما رأيك أنت؟

ـ لا أظنه صحيحاً يا محترم.

ـ وإن كان صحيحاً؟

ـ أنت تحرجني يا محترم.

ـ أريد أن أعرف، قال محمد جري فاقداً السيطرة على صوته.

ـ إذن نحن نستحق ما عيرونا به اليوم يا محترم. ولكن صوت شواي انتكس.

ـ وأنت ما علاقتك بما عيرونا به، أنا وحدي المسؤول.

ـ أعتبر ما يسيء إليك يسيء إليّ.

ـ شكراً[1] يا شواي.

ـ ولكن؛ إن كان ما لمّحوا به صحيحاً ـ لماذا أخفي هذا ـ فلن أكون سعيداً.

ـ إذن؛ ولو قبلت بالمهمة التي أوكلها إليّ سلطان الترك حين دعاني؟

ـ لو فعلت هذا ـ وارتفع صوت شواي لا إرادياً ثم خفضه خجِلاً ـ والله لا أعرف، لا تؤاخذني، ما كنت لأقف في صفك.

ـ إذن ماذا تنوون؟ لا تريدوننا هنا ولا هناك، قال محمد جري مغلوباً بأفكاره.

انتظر شواي قليلاً ثم قال مع كثير من اللباقة والثقة:

ـ أنا في صف الذين يريدون أن يحموا بلادهم من نار الطرفين أيها المحترم.

ـ هكذا إذن! قال محمد جري ثانية بصوت منكسر شبه أصمّ، ولكنه سرعان ما وافق مولاه:

ـ إذن ألا نحمي نحن بلادنا؟ ألسنا أديغة؟

ثم قال بعد برهة شاهداً على ثبات رأيه ومعرّضاً برفيقه:

ـ يجب أن نفكر بطريقة حمايتها!

تداعت أفكار محمد جري مرة أخرى: " من أين جئت أيتها المصيبة؟" كما يقولون. وجدنا أنفسنا في مصيبة لم تخطر لنا قط ونحن نجوب على أحصنتنا الجامحة أرضنا التي بلا دولة. نحن مفرّقون: البجدوغ والأبزاخ والشابسغ والجمكوي والقبرتاي والبسلني والأدميه والحاتقواي والمخوش واليجرقواي، دعك من كل هؤلاء: حتى نحن البجدوغ شيعتان، نميز أنفسنا بين ششناي وخمشي، وكل منهما تنظر شزراً إلى الأخرى. تتنازعان أيهما الأعقل؟ نعيش حياتنا يسخر أحدنا بالآخر. وكذا الأبزاخ والشابسغ. وكذلك مزق صراعُ الأسر ومجابهاتُها القبرتايَ والبسلني. وليسوا وحدهم في هذا الصراع فالأباظة والنغوي القاطنون بيننا يتنازعون على القيادة. وينظرون إلينا نحن كمن يحتاجون إلينا ولا يحتاجون. عندما لا تكون عندك دولة سيحدث كثير من هذا القبيل ومن غيره، أمور ما كانت لتخطر ببالك لو فكرت العمر كله بين الأديغة الذين يعيش كلٌّ منهم حياة فردية دون انصياع لقيادة ما.

من يستحق القيادة بين كل أولئك الذين يلبسون القبعات، مضافاً إليهم من يلبسن الحجب؟ أليس مؤسفاً أن يعيش الأديغة في هذه الأرض الجميلة الخصبة ثم لا تكون لهم دولة؟ ومؤسف أكثر أن تضيع في النزاع العنيد الذي تخوضه دولتا روسيا وتركيا عليك. أتفهّم يا شواي، أتفهّم أيها المولى ما تريد أن تمنحه أديغيتَك

[1] حاشية: الترجمة الحرفية لعبارة الشكر: لِيُعيِّشكَ اللهُ!

ورجولتك. نحن لا تنقصنا الروح القومية ولا الرجولة، وقد ربّانا آباؤنا على هذا الناموس، ونربي أطفالنا على أن يحبوا أرض الأديغة ويعملوا الخير لأجلها. ولكننا لا ننسى أن كبارنا علمونا الحذر من التهور ومن التصدي لمن لا تستطيع مجابهته. ونستفيد من هذه الوصية في الظرف المناسب. وماذا نطلب أبعد من الحرية التي ورّثها لنا أجدادنا؟ وأنا لا أدير ظهري اليوم لوطني فهو في وضع صعب. ولا أريد أن يشك أحد في أني من جملة الذين يضحون بحياتهم في سبيله فحسب؛ بل لا أسمح لنفسي أن يساورني أدنى شك فيه.

من بين الطرفين اللذين يواجهاننا، مع أنك لا تريدني أن أقف إلى صف الروس، وجدتُ أنه لا مخرج لنا ولا مجال لأي حراك غيرِه، ودفعتني مقابلة سلطان الترك إلى اتخاذ هذا الموقف الذي لا تريده، بل حتى لو كانت نوايا الطرفين واحدة نحو الأديغة فالأسهل عليك أن تتعرف نوايا الأغراب الجيران من نوايا الأباعد. ولكن الأفضل من كل هذا أن تعايش الطرفين بصفتك دولة مستقلة دون أن تعاديهما. يا حسرتي! أيها الأديغة يا سيئي الحظ! ليس مثلُ هذا الموضع موضعَنا اليوم. أخطئ إن اعتبرت أن طموحاتي قد أُنجزت. وإن تحقّق ما أريده وأصبح الروس سنداً لنا بقي الخطر التركي، غير أن الترك لن يستطيعوا العبور إلينا من البحر؛ بل لن يجرؤوا على التدخل في شؤوننا. صحيح ما كان يقوله دائماً والدي المرحوم: في القرن الماضي، إلى أواخره، كان الترك يحمون خان القرم، وكانوا يتدخلون في كل شيء. ولكن مهما فعلوا فالروس انتزعوا القرم منهم وضموها إليهم. لا يجوز لنا أن نسلك الطريق الذي مشى فيه خان القرم. إن لم نتعلم درساً من الخطأ الذي اقترفه ولم يَسُدِ السلام بيننا فإنّ مَرَضَنا،نحن الأديغة، وهو عدم التفاهم داخل الأمة الواحدة، سيفتك بنا بين الدولتين. فإن سمحنا بأن يفعلوا هذا أمام ناظرينا فلن تغفر لنا الأجيال القادمة.

في هذه اللحظة هوى نسر من نسرين كانا في السماء،وقد ضم جناحيه إلى جسمه فانقض على الأرض قريباً منهما، واختطف بمخالبه الحادة فأرة وطار بها، فرفع محمد جري رأسه فجأة:

_ ما هذا بحق السماء؟! وتعجّب شواي: هوى أمامنا دون أن يعبأ بنا!

_ هذا ما جعل الناس يقولون: النسر يضرب بصدره _ وما كاد محمد جري يكمل جملته حتى هوى النسر الآخر على جانب الطريق مثيراً الغبار، ثم حلّق.

_ وهذا الآخر لم يعد بلا صيد، قال شواي متابعاً النسر الذي يمم شطر الأجمة. ثم أضاف بصوت مرتفع:

_ ما أعجب أن يلمح مَن مجالُه قبةُ السماء فأرةً بين الأعشاب!

_ وسلطان تركيا ليس قريباً منا _ قال محمد جري وهويقارن الخاطر الذي دار في خلده بطريقة صيد النسرين، بالدولتين اللتين يقف الأديغة بينهما _ ورغم ذلك يرانا وهو في اسطنبول.

_ وقيصر روسيا أبعد منه _ لم يدعه شواي ينتظره _ يبسط نفوذه علينا وهو في بطرسبرج.

حدّث محمد جري نفسه " لا تسمح لتابعيك أن يرافقوك، ولا تصحبهم معك إلى مخالطة الناس، ولا تطلِعهم على سريرة نفسك! " هذا ما كانت عمتي تقوله، وأظنني الآن في موقف أقتنع فيه بهذا الرأي. ولكن من الصعب أن تُشعر شواي بأنه مولى. لا شيء أفضل من أن يرافقك من يمد جسمه سُلّماً على

طريقك. إنه خير من شخص بليد منطوٍ على نفسه، نَزْرِ الكلام، وأفضل من ثرثار مجنون. وربما لهذا كلما سافرت فكرت في شواي. عمتي امرأة لبيبة؛هل تسمعين يا عمتي المحترمة ماذا يقول شواي؟ " يقول محمد جري لنفسه:" قيصر روسيا يبسط نفوذه علينا وهو في بتربف[1] وما تقوله لا يخلو من الصواب؛ فمنذ عهد الجنرال سوفوروف ذي الوجه الأمرد الجاف يرابط الجيش الروسي مقابلنا على ضفة نهر بشزة اليمنى. يقولون ليس الأديغةُ هدفَ هذا الجيش بل الأتراك؛ ولكني لم أفهم علاقة الأديغة بالترك البعيدين. إن كان الأمر يتعلق بالقلعة التركية في أنابه _ لتمحقها الكوليرا! _ سأهدمها إن طلبتم في يوم واحدشريطةَ ألاّ تدخلوا أرضهم. لا يثق الأديغة بكم لأنهم يعرفون أنكم تتذرعون بالأتراك ولكنكم في الحقيقة تطمعون بأرضهم. ولكن تبيّن أن الأتامان ماتفييف يتصرف بحكمة؛ فلا يسمح لجنود القوزاق مهما حرضوه، أن يعبروا إلى ضفة نهر بشزة اليسرى لملاحقة لصوص الليل الأشرار من الأديغة لا يسمح أن تنشب حرب بين الشعبين المتخاصمين. يضغط على الأبرياء ليهدئهم أكثر مما يضغط على المذنبين. وشكراً لموفد القيصر ديسكاسي الذي ينشر السلم بين الأديغة والقوزاق بمبادرته الشخصية.

ليس المولى شواي دون تفكير. عندما تتجاوز الثلاثين من العمر، وبين يوم وآخر أمامك مشروع زواج، فليس قليلاً ما سيثور في رأسك من أفكار. ولكن ليس هذا ما يُقلق شواي اليوم _ بدأت قضية الأديغة تطغى على أفكار المحترم محمد جري دون أن يعي نفسه في السنتين اللتين يرافقه فيهما ، ويلومها في الوقت نفسه. تكلمُني وأنت بين الواثق بي وغير الواثق. ومع أنك تختبرني أيها المحترم فما يقلقك هو نفسه ما يقلقني. والحاكمان اللذان قدمتهما لي، وإن كنت لا أعرف عنهما الكثير، هما كالنسرين الجامحين، أفهم أنهما ليسا منصفين معنا. أهذا ما كنت تريد أن تُفهمني بمثال النسرين؟ إن كنا سنسلّم أنفسنا لكل من يهاجمنا كالفئران التي لا أمل لها فأيُّ حياة نحياها حاملين اسم الإنسان؟ أنحن دون شرعة اجتماعية حتى لولم تكن عندنا دولة؟ أليس اسم الأديغة هكذا بلا فائدة في الدنيا؟ أنا أفضّل الحرية التي يتمتع بها الأديغة الذين بلا دولة على الدولتين اللتين ذكرتهما. أنت تسمح للآخرين أن يُعرّضوا بشارتك الروسية وتلومني على أني لا أسأل عنها. وماذا أقول لك إن كنت أشك فيك؟ لم أُخْفِ عنك رأيي فيها. والشيء الوحيد الذي بقي لي الآن سيظل رهن ما عيّرك به الفرسان. لا تظنَّ أني أسمع هذا للمرة الأولى، ليس اليوم، بل منذ زمن ليس قصيراً، يتحدث الأديغة في هذا. وحتى إن لم يجابهوك بالموضوع كما فعل الفرسان فهذا لا يعني أنهم غافلون. ونحن نقول لك: نحن راضون عنك لرجولتك وشعورك القومي أمام سلطان الترك، وننسى ما كانوا يعيرونكم به من أصلكم النغوي؛ ولكن إن تأكد سلوككم السري مع الروس فالأديغة، وإن لم يبق

[1] الاسم الذي كان يطلقه الأديغة القدامى على بطرسبورج، وظل رمزاً للبُعد والمهلكة في كلامهم " ليأخذك اللهُ إلى بتربف!".المترجم

منهم غيري، لن يدَعوك حياً. ولكن ماذا لوثبت أن مشروعك خير على الأديغة؟ إن كان هذا فسامحني! أتراجعُ عن كلامي. من أين نأتي بمثل هذا الحظ؟ إن من تأتي على سيرتهم ليسوا أحسن من النسور.

_ أنِمْتَ على سرج حصانك؟ مزح المحترم بصوت عال مع المولى.

_ ليس من عادتي أيها المحترم.

_ إذن لماذا لا تسمعني؟

_ كنت شارداً مع أفكاري.

_ معك حق؟ كل ما في الدنيا يستحق أن تفكر فيه، يكفي التفكير في ما رماني به الفرسان الثلاثة، قال محمد جري هذا وسأل بسرعة:

_ وأنت أيضاً أظن هذا الموضوع يكفيك ليشغل فكرك!

_ والله أيها المحترم لن نستطيع أن نحكم على ما هو غير صحيح بأنه صحيح عن طريق تكرار الكلام في ما يُهمك... ولكن، كما تعرف، عندما ترتاح إلى صوت حوافر حصانك وهدهدة سرجه تغزوك الأفكار.

_ هكذا إذن! نطق محمد جري بما كان يقوله عندما يكون معكر المزاج. ولكن المحترم الذي أخرجه عن طوره تصرفُ الفرسانِ الثلاثة الذين قابلوه ارتفع صوته رغماً عنه:

_ أظنني أنا الذي لا تني تفكر فيه.

_ ما شأنك أنت بهذا الموضوع؟ أجاب شواي متعجباً دون أن يفهم مغزى الكلام الذي رماه به المحترم.

_ ولماذا لستُ موضوع تفكيرك؟ أأنا أديغي؟ لا، أنا نغوي!

_ أيها المحترم _ أوقف المولى شواي حصانه نادماً على حضور فكرة النغوي بين أفكاره،شاعراً بالعار مما عيروه به _: أي عيب يا محترم خطر لك؟ أنت تظلمني بهذا الكلام؛ لو أنك أدرت ظهرك لي وتحالفت مع قوزاق الضفة اليمنى لنهر بشزة لدعوتك بالكافر، وما دعوتك بالاسم الذي جرى على لسانك.

_ هكذا إذن! لم يتمالك محمد جري أن نطقها ثانية.

_ هكذا أيها المحترم. لا أعرف ماذا جرى لنا اليوم.

_ لِنمضِ يا شواي! لا تدع صوتك يخفت من أجل كلمة سمعتها. مزحت معك فحسبُ لأني أريد أن أعرف ما في أعماق قلبك نحوي فسامحني إذ رميتك بأشد الكلمات جفاء عندي. تعال نُروّض حصانينا!

_ وهمز حصانه _ ولْننفضْ عنا ما عيرنا به الأوغاد!

ومع أن شواي كان قد توقف فقد لحق المحترم به بلجامه المرخى وكأن أحداً لم يُلحِق به عاراً.

III

عندما اعتليا مرتفع الشابسغ بدت قرية مرجان الرابضة أمام الضفة غير العالية لنهر أبنه , وبدا المرج الممتد أمامها مغطى بالعشب الكثيف الواسع، وقطعان الغنم المتناثرة، وقطعان الخيول المتجمعة، والبيوت البيضاء المرتفعة المسقوفة بالقصب، وسرب من الصبيان يلعبون مقابل السور الحجري.

مشى محمد جري مدة مفكراً في الوجهة التي عليه أن يوجه إليها حصانه، وتوقف عند مفرق طرق، واستشار رفيقه دون أن يرفع نظره عن القرية:

_ ماذا علينا أن نفعل يا شواي؟ أندخل قرية مرجان أم نلتف حولها؟

قال شواي وقد فهم ما يشغل بال محمد جري في هذه اللحظة:

_ كما تريد أيها المحترم. وأردف ممهلاً نفسه بعض الوقت للتفكير:

_ إن كنا سنذهب إلى أباته بسلني فطريقُ أبنه بعد أن نتجاوز قرية مرجان أسرعُ وأقرب لنا ولخيلنا. وإن عرّجنا على قرية مرجان فلن تهرّئ هذه المسافة الإضافية حوافر خيلنا. وسيعتب علينا الأتاليك مرجان إن عرف أننا مررنا بقربه ولم نتوقف عنده، وسنظلم المحترم خان جري الذي أظنه بين الصبيان.

قال محمد جري وهو يحاول إلقاء اللوم على حصانه مبرئاً نفسه:

_ هذا الولد البَيْتَمال[1] هو الذي لجم حصاني. خورلوقوه مرجان أحد رجال الشابسغ المعتبرين. لنذهبْ إلى الأتاليك؛ لن يتهمنا بأننا نكثر من زيارة الصبي ونشتاق إليه، ولن يجعل هذا الأمر الناس يسخرون منا.

_ عندما يُذكر اسم خورلوقوه مرجان _ وأنت تعرف أيها المحترم _ يقف من في المضافة احتراماً له. إنه إنسان لبيب، ليس ذاك الرجل الذي يهين رجولته لأي سبب.

_ لا شك في ما تقول. كان ما في قلب محمد جري شيئاً آخر وإن ساير مولاه. كان كلما ابتعد عن الطريق الهابط من الجبل تناهت إليه أصوات الصبية الذين يلعبون بالكعوب: يا ترى أيكون خان جري الصغير بينهم؟ أليس ما يسمعه صوتَه؟ يذهب الحصان المترنح تحت وطأة الجسم المثقَل باللهفة يميناً ويساراً، وما تلبث أفكاره الجذلى المبعثرة أن تخرج عن سيطرته:

_ إذن بمناسبة الحديث الذي بدأناه سأقول لك يا شواي ما في نفسي تجاه هذا الصبي. صحيح أن من المعيب أن تميز بين من خرجوا من صلبك صغاراً أم كباراً،ولكني أقرب إلى خان جري؛ لا أدري ربما بسبب نباهته. لا أنكر هذا، أقلق عليه. أتعشم فيه الرجولة إن لم يخيّب ظني. حسناً إن لم أخطئ فإنه صاحب ذاك الرأس المتطاول الصغير؛ أليس كذلك؟

_ بالضبط أيها المحترم. بان على صوت شواي فرحه وهو يقترب من الصبية الذين يلعبون لعبة الكعوب. كان في عنقه قلادة مما ربحه منها، وفي يده رزمة.

قال محمد وهو يلجم حصانه:

_ حقاً إنه هو، أظن أنها صارت كلها له إن لم يربحوها منه فيسترجعوها؛ انظر كيف يسدد بالكعب الفحل[2] على الكعوب الصغيرة. لا تهتم أكثر مما ينبغي يا بيتمال، ستتعب يدك فتنبو عن الهدف.

---

[1] آثرنا الاحتفاظ بها دون ترجمة لِما لها من مفهوم خاص في اللغة الأديغية. وتستعمل كثيراً في الحوار بمعنى: المسكين، البائس، المنحوس. المترجم

الكعب الكبير الأملس الذي داعبته أشعة الشمس وقد مالت إلى الانحدار وراء الجبل الغربي بدد الكعوب الصغرى. ودون أن يعبأ بأقرانه المندهشين من براعته في التسديد فأكسبته كل هذه الكعوب، خطف خان جري قبعته من رأسه وألقاها داخلها.

قال شواي مثنياً على براعة خان جري في التسديد وطريقته في جمع الكعوب:

ـ أحسنت يا خان جري!

ـ لنمضِ يا شواي؛ لا أريد أن نشغل الصبي عن لعبه، ولا أريده أن يترك أصحابه الذين ربح منهم كل هذه الكعوب بحجة لقائنا. قال محمد جري دون أن يلتفت إلى صغيره، ولكنْ ضابطاً قلبه ولاجماً حصانه، وأضاف:

ـ وإن تركهم جلب لنا عاراً.

رفع خان جري رأسه فجأة نحو الفارسين واستدار نحو والده ضاماً قبعته الملأى بالكعوب في حين غاب عن عينيه المولى شواي:

ـ على مهلك يا بيتمال! ألأوَّلِ مرة تراني؟ لا تجلب لي العيب.

و كتم رغبته مع أنه كان بوده أن يهوي بيده فيرفع صغيره إلى صهوة حصانه، وأكمل:

ـ اذهب وسلِّم على شواي! ألست رجلاً؟ ولا تنس أن تلبس قبعتك!

انغرز خان جري كعود ممشوق أمام الفارسين، وأعاد الكعوب إلى جيوب بنطاله بسرعة. وقال بعد ما ارتدى قبعته اللبادية متوجهاً إلى شواي وإن كان سلامه إلى الفارسين:

ـ سلاماً أيها الكبيران! ما أخبارك يا شواي؟ ومن فارقتَهم أليسوا بخير؟ أليسوا في صحة جيدة؟

أجاب شواي متجاهلاً أن من يخاطبه مجرد صبي، مبرزاً أنه يخاطب سليل أسرة إمارة:

ـ شكراً لك يا خان جري! من فارقناهم بخير وصحة جيدة أيها المحترم. وآل سلطان يبعثون بسلامهم إليك، وأقرانك لا ينسونك.

كل الصبيان صبيانٌ سواء كانوا سليلي نبلاءَ أم سليلي موالٍ؛ فقد بدت الفرحة على خان جري عندما سمع ذكر أقرانه، ونظر نحو والده مبدياً له رضاه بما يسمع. ومع أنه كان يود أن يسأل عنهم فإن امتثاله لرجولته جعله يصرف النظر عنهم إلى أقربائه. وتغافل عن أمه وإخوته فسأل أولاً عن عمته:

لم يملك محمد جري نفسه فرحاً بما يسمع فقال:

ـ حياك الله يا ولدي!

ثم انتبه إلى أنه ما كان مناسباً أن يناديه أمام رفيقه بـ " ياولدي "، فأضاف مصححاً:

---

[2] الكعب من الخروف هو العظمة المستديرة بين الفخذ والساق، والكعب الفحل، هو الذي تُرمى به الكعوب الأخرى، يُفرّغُ وسْطُه ويُملأ بالرصاص ليثقل. وكانت اللعبة معروفة في قرى الجولان حتى أواسط القرن الماضي. المترجم

ـ شكراً يا محترم! فهمُك ينمو. العمة قانتات بخير ولا تنساك ساعة. وأمك وأخواك سعيد جري وعادل جري كذلك. عد يا محترم إلى أقرانك الذين كنت تلعب معهم لعبة الكعوب؛ لا تدعهم يُخسِّروك! نحن سننزل عند مرجان.

ـ لماذا توقفت أيها: " النغوي " ؟ ضع كعبك في المرمى!

الصوت الذي صدر عن أحد الصبية اللاعبين جعل الرجلين يرفعان رأسيهما دهشةً:

ـ وَيْ وي! كنت أخشى هذا. صرخ محمد جري وتابع:

ـ أي لقب هذا الذي ناداك به؟!

سحب شواي قدمه اليمنى من الركاب متهيئاً للترجل:

ـ أي ثرثار هذا؟ سأترجل وسأخلع طرف أذنه.

ـ توقف يا شواي! لن ننزل بعقلنا إلى عقل الصبي.

قال خان جري مستديراً ببطء نحو الصبية:

ـ إن كان الأمر هكذا فسأعلمك يا بفوق[1] كيف يلعبون!

ثم استدار إلى الفارسين وقال:

ـ لا تعبأا بهذا النبز، ألم تسمعاني أناديه بـ " ذي الأنف السائل "؟ سأعود بعد أن أخسّره كل كعوبه.

عصرت الكلمات الأخيرة قلب محمد جري " ما أسوأ أن لا يحترمك أبناء جِلدتك فينسبوك إلى الأصل القبيح الذي يُطلق على من نُسِي أصلُه ! ألن ينسى هؤلاء لقب " النغوي" يوماً ما؟ لا تُجدي معهم الحسنى ولا السوءى؛ لا يردعهم شيء. ما ذنبنا إن كنا من عرق الخانات؟ ألأنّ زوجة الخان تحاملت على أصلنا فالتجأنا إليكم؟ صرنا تحت سقف الأديغة وأكلنا من خبزهم وملحهم.لم يبق فينا من الأصل النغوي إلا اسم الأسرة. ألسنا أديغة لأننا نحمل اسم أسرة سلطان؟ حتى إن غيّرنا هذا اللقب فلن نستطيع أن ننتزع من قلوب الشراكسة اسم " الغريب". هذا النبز في أفواه الناس، مِن هذا الولد الذي ناداه خان جري بـ" ذي الأنف السائل "، مروراً بالفرسان الذين كمنوا لنا في أجمة شاتوقوه، وانتهاء بكل من يكرهوننا. ما الفائدة في أن نلوم هؤلاء؟ ولكن ليتهم عيروني بـ " ذي الأنف السائل " و" ذي العقبين المشْعِرتين كالدجاج"، لكان خيراً من هذا " الغريب " والنغوي ".

ـ هذه هي المسألة يا شواي؛ أسمعت؟ سأل محمد جري بعدما قطعا مسافة، ليس في منطقة البجدوغ فقط بل في الشابسغ أيضاً، ينادوننا بهذا اللقب. ما الفائدة في أن تخلع أذن ذلك الصبي ؟ ما يسمعه الصغار من الكبار يرسخ في أذهانهم. أتستطيع إجبار أحد على أن يحبك؟

قال شواي محاولاً تخفيف الصدمة على محمد جري:

---

[1] الكلمة نبـزٌ، أي لقب سيئ يعني ذا الأنف السائل. المترجم والمعجم الشركسي.

ـ لا تبخع نفسك من أجل كلمة رماها صبي! ليس في لوستان حبله من يستطيع أن يقول إن آل الخان ليسوا أديغة.

ـ لا يساورُ قلبي أي شك في هذا يا شواي. كل ما يمكن أن أخدم به أمي وجدتي وسلالتيهما أخدم به نسل الأديغة. ولكني أكره هذا اللقب. لن أغفر لمن يرميني به كائناً من كان. يا ربي أيعرف الأتاليك مرجان ما ينادي به الصبيان خان جري؟

ـ وأنّى لمرجان أن يعرف ما يدور بين الصبيان أيها المحترم؟

ـ ولماذا؟ إن يُهَنْ ربيبه فقد أهين هو أيضاً، لسنا وحدنا من نهان.

ـ ولكن، ومع ذلك...

ـ اسكت قليلاً يا شواي! ـ قال محمد جري بعدما اجتازا زاوية أحد الإسطبلات ـ أليس هذا القادم نحونا هو مرجان نفسه؟

رغم أن المساء كان صيفياً لطيفاً فقد كان خورلوقوه حامرزه مرجان الأتاليك يرتدي فروة قصيرة من جلد الذئب، وقبعة سوداء عالية من اللباد، ويداه على عصاه المتصالبة مع فروته. ومن بعيد يمكن أن ترى الندبة العميقة تحت ذقنه، وترى طرفي بنطاله مضمومين بجوربين صوفيين أبيضين يبرزان من أعلى حذائه المخيط دون مسامير. والجسم الستيني الذي يأبى أن يذوب يُخيّل إليك أن جدار الإسطبل الذي يقف إلى جواره واطئ بالقياس إليه.

انتصب رأس خورلوقوه مرجان ببطء لسماع صوت الحصانين دون أن يحرك العصا التي يسند بها ظهره. ونادى الفارسين اللذين أدركاه ونظراته المتمهلة تشع فرحاً:

ـ وَيْ وي؛ ماذا أرى؟ قال خورلوقوه مرجان بصوت أصم لا يتناسب مع جسمه الضخم. ما كنت لأصدق ما أرى حتى في المنام. تفضّلا، تفضلا يا محمد جري!

وحين سحب خورلوقوه مرجان العصا من فوق فروته انتصب ظهره المحني فخُيِّل لشواي أن قامة هذا العجوز الشابسغ قد تضاعفت. وزاد في ضخامة جسده المرصوص أصابعُه الطويلة الغليظة وكفاه الضخمتان.

ـ كيف ظهر هذا العملاق بين الشابسغ المعروفين باعتدال قاماتهم؟ قال شواي الممسك بلجامي الحصانين متعجباً. ولم يملك نفسه أن أعاد النظر إلى كتفيه المرتفعتين المكورتين وهو يقيس طول المحترم الواقف إلى اليسار، والذي ليس قصيراً، إلى طول خورلوقوه.

وقبل أن يصلوا إلى الباب نادى خورلوقوه الرجلَ الضخم الخارج من الدار، وقال له وهو يُدخل الضيفين إلى الدار:

ـ أيها الفتى تعال سلّمْ على الضيوف، والدُ ربيبنا ضيفُنا. ثم اذهب واستدعِ أخاك. أنا كنت أنوي أن أناديه، هو بين من يلعبون بالكعوب. أنتم مررتم بهم ولكن خان جري مولع بها، لعله لم ينتبه إليكما.

قال محمد جري بعد أن جلس كلٌّ في المكان الذي تحدده العادات:

ــ ليس تماماً؛ انتبه إلينا واستقبلَنا بالتحية.

ــ صحيح ــ قال مرجان باسماً مرتاحاً لما يسمع ــ إنه يعتبر نفسه رجلاً فلا يحبِّذ أن يظهر في حضرتكم كما العادات.

ــ والله لم نر فيه هذه الرجولة تماماً ــ قال محمد جري ملتفتاً إلى شواي، مخفياً اغتباطه بما سمع عن ابنه ــ وأضاف بسرعة:

ــ لاعب الكعوب هذا حسب ما رأيناه مسلوب العقل باللعب.

قال مرجان وعلى وجهه المربع العريض تطوف ابتسامة:

ــ وكيف يدَعونه صاحبَ قراره وهو يربح كعوب أقرانه في القرية؟ أظنك قلتَ الحقيقة، لم يتركه أقرانه؛ ولذا أنا قريب منه، أقول له: يا بيتمال اسمح لهم أن يربحوا منك أحياناً فلا يرضى. أحسنت! أنا راض عن ربيبي إنه رامٍ وسباح ماهر.

ــ ما أسمعه مدهش ــ صاح محمد جري ــ ماكان ليقبل أن يقف على ضفة نهر بشزة، دعك من أن يغمس قدمه في الماء.

ــ ربما كان ماء نهر أنابه أعذب إليه، إنه يذرعه جيئة وذهاباً.

استعجل شواي معبراً عن قلق الأب:

ــ أليس خان جري صغيراً بعدُ على هذا يا مرجان؟

ــ ممّ تخاف يا شواي؟ أمن السهل أن تصبح في العاشرة؟ أنا في عمره كنت أعرف كم حصاة في قاع النهر. كنت أغطس في إحدى الضفتين وأرفع رأسي في الضفة الأخرى دون أن يعرفوا أين أنا. ما ستتقنه هو ما يربونك عليه طفلاً. وربيبي الآن في السن التي يهجر فيها الطفولة. ما لا أغرسه فيه اليوم لن يجد له مكاناً غداً، وعلى كل حال ــ وضحك مرجان والندبة بارزة تحت ذقنه ــ لا تظنوا أني أكلف خان جري بما لا يطيق.

قال محمد جري وما في قلبه غيرُ ما على لسانه؛ أليس أباً! محاولاً أن يخفي انتشاءه بثناء الحضور على ابنه:

ــ والله لم يخطر لنا هذا على بال يا مرجان. أنا سعيد لأن خان جري يترعرع شاباً نشيطاً. إلا أني لا أظنه يخلومن عيوب.

ــ لا أحد يفتح عينيه على الدنيا أو ينزل من على ظهرها دون نواقص يا محمد جري. ثلاثتنا وربيبي وأفراد أسرتي لا يخلو أحدهم من عيب؛ ولكن العيوب متفاوتة: إن خلقك اللهُ أقطعَ اليد أو أعرجَ أو أحوَلَ فهذا شأن. وإن حدث لك في حرب فهذا شأن آخر. وإن سقطت من شجرة أو رماك الحصان فجعلك عاجزاً فهذا شأن ثالث. وكل هذه العيوب لا شفاء لها؛ سواءٌ رَقَيتها أم مسّدتها أم لاطفتها، والمثل القائل " الله

يفعل بك والناس يعيّرونك " صحيح. ولماذا نذهب بعيداً؟ ها أنتم ترون الندبة التي خرجت بها من حرب " بزيقوه زاوه[1]" جعلت الناس ينادونني بـ " ذي الوجه القبيح "

والذين ذكرتهم يمكن أن تسميهم أصحاب عيوب ظاهرة، وفي هؤلاء أنفسهم وفي غيرهم من الأصحاء عيوب خفية ولكن لا يمكنك أن تحملهم على أن يطرحوها: العناد والحسد والكذب والسرقة والسخرية. وأحد هذه العيوب التي عددتها تجدها في خان جري، وهو الولع بلعبة الكعوب، يمكن أن تحسبه على ربيبي زيناً وشيناً.

_ كل مُبالغ فيه عيب تلهّف محمد جري بسبب ما قيل في حق ابنه، ودمدم وكأنه ينسب ما قال الأتاليك لنفسه، وانتصب أمام وجهه بعض لاعبي الورق الذين يقاومهم دائماً:

_ والله صحيح يا محترم _ قلق شواي موافقاً.

_ انزعوا الفكرة التي خطرت لكم _ قال مرجان مخلخلاً الهواء بيده اليمنى _ لوعرفت أنكم ستجعلون من هذا الموضوع مشكلة... _ قال مقاطعاً الحديث،قاصداً إفهامهما ندمه على ما قاله، وبصوت واضح:

_ مع أن خان جري يلعب مع كثيرين إلا أنه لا يسيء إلى أحد، وما كسبه منهم يعيده إليهم في اليوم التالي، ولا يسمح للجفاء أن يفرق بينه وبينهم.

قال محمد جري في نفسه: لماذا ينادونه بالنغوي؟ كنا نحن أيضاً أطفالاً نتشاجر ونربح ونخسر، ولكن أحداً لم ينادنا بهذا النبز. والآن لا أستطيع أن أقول إن ما سمعته يخلو من الحقد. إن لقب الإهانة هذا الذي أطلقه ذلك الذي رد عليه بـ" ذي الأنف السائل " لم يكن موجهاً إلى الصبي بل إلينا جميعاً، كان يريد أن يُسمِعنا.

مع أن الأتاليك يكاد يعجز عن تعداد فضائل ربيبه لم يكن يعرف أنهم ينادونه بأمرِّ الألقاب:

_ مهلاً _ ومد جسمه الضخم على المقعد الخشبي والفرح يسري على وجهه _ ها هوخان جري يعود لا تسعه الدنيا من الفرح؛ أتسمعون طقطقة قلادة الكعوب؟ ها هو يعلقها على جدار الشرفة ليوزعها غداً على من يأتون للعب معه.

علق شواي:

_ وهل هناك ما هو أجمل من أيام الطفولة؟

_ الطفولة سعيدة حين لا حرب ولا محْلَ _ عمّق محمد جري أفكار المولى مؤيداً. ووجد طريقاً للإفصاح عما كان يقلقه فقد أمسك الآن بطرف خيط:

_ ولكني لا أعرف أن أحدد ماذا سيجري لنا، لا سلام في منطقة الأديغة. ما إن تجاوزنا حرب "بزيقوه " حتى وقعنا من جديد بين براثن الدولتين.

---

[1] حدثت عام 1796 بين الفلاحين الأحرار من القبائل الشركسية الغربية كالأبزاخ والناتخواي وأمراء البجدوغ.المترجم

جعلت الذكريات المريرة مرجان يتنهد:

_ أتظن أن هذه المشكلة وليدة اليوم يا محمد جري؟ جعلت الذكريات التي انتصبت أمام وجهه يتنهد عميقاً _ الموفد الروسي الذي أرسلته القيصرة كاترين في غمرة تلك الحرب كان خورلوقوه يود أن يقول: " بناء على رجاء زعماء البجدوغ " ولكنه غلّب مشاعر ضيوفه فلم يكمل _ بدأت الحرب من المدفعين اللذين أرسلهما " يرمولوف "[1] مع مئة فارس قوزاقي.

حاول شواي أن يُفهِم المحترمَ دون أن يصرّح بأن أباه، ثم هو وأخوه، كانوا حلفاء لهذا الجيش:

_ جيوش الجنرالين بيبكوف وغودوفيتش مزقت أرض الأديغة، وتوجهتْ إلى حرب " أنابه ".

ولكن ظنه خاب، فقد اهتاج محمد جري غير أنه كظم غيظه فقال:

_ ما الفائدة في الكلام على ما مضى؟ من الصعب أن تعرف أين نتوجه اليوم.

أجاب مرجان باختصار:

_ لماذا تُدوّخ رأسك محتاراً أين تتجه؟ أنتم _ إن كنت تتذكر _ أدرتم ظهركم للترك مرة واتجهتم صوب الروس لولا أن قلبكم الأديغي أنقذكم. لا عجب في هذا. تنفيذكم لوصية أبيكم أسلان جري، ثم تراجعكم عنه ليس عيباً. لوكنت مكانكم لما سلّمتُ نفسي لأحد الفريقين، أعمل في أرضي وأربي فيها أبنائي، وعند الضرورة أحميها. ما رأيك أنت يا شواي؟

_ وأنا أيضاً يا مرجان.

_ إذن نحن متفقان؛ ومحمد جري ماذا بإمكانه إن لم يوافقنا؟

كان بوُدِّ محمد جري أن يشارك جليسيه أفكارهما وهمومهما ولكن صوت الباب الذي انفتح قطع حديثه، وكأن هذا الصبي الذي دخل ليس ذاك الذي رآه قبل ساعة: السيف الفضي المتوسط الحجم على جنبه، وكذا الزنار الفضي على الثوب المائل إلى الرمادي، القبعة الشقراء والجزمتان الرقيقتان المناسبتان. دخل خان جري بكل هذه الأُبّهة وسلّم على الجلوس:

_ مساء الخير يا مَن أُجلِّهم.

ثم ابتعد عن مكان أبيه، واتجه إلى المقعد الخشبي الذي يجلس عليه مربيه، ووقف إلى جانبه بيدين مسبلتين وجذع منتصب.

وفي غمرة فرح الجلوس بالصبي الذي يعبّرون عنه بنظراتهم، قطع مرجان الصمت الذي ملأ الغرفة، فقال فرحاً بوقوف ربيبه إلى جانبه:

_ قطعوا حديثك يا محمد جري؛ كنت تريد أن تضيف شيئاً؟

_ ما كنت سأقوله واضح يا مرجان.

---

[1] الجنرال الروسي الشهير بقسوته، وسيتردد اسمه كثيراً في الرواية. المترجم

وقال في نفسه: أي نفع الآن في أن تجادلهما أمام الصبي؛ حدث ما حدث، فختم:

_ أتفق معكما في أن أي إنسان يحمي بقدر استطاعته وطنه بعقله ورجولته وحدسِه.

_ ماذا تقصد يا محمد جري بالعقل والحدس والرجولة والوضوح؟ سأل مرجان، لا عن عدم ثقة بكلام ضيفه، بل غيرَ عارف لماذا لم يعجبه الكلام.

_ أريد بهذا يا مرجان أن أقول _ ولم يتراجع المحترم عن رأيه وإن لم يفصح تماماً عنه _ " لن يرى البصرُ إلا إذا سألتَ البصيرة "

_ هذا كلام صحيح، كلام مناسبٌ، أيها الزعيم المبارك، يقولون " إن لم تنظر العين لم ينظر القلب"

_ ليس التعبير صحيحاً يا "تات "[1]

_ وما الصواب؟

_ يقولون " إن لم ينظر القلب لم تنظر العين "

_ أحسنت يا ولدي، أنقذتني أمام الضيوف.

وسُمِع من الغرفة المجاورة أصوات صحون تشير إلى أنهم يُعدّون الغداء. ووضع مرجان يده على ظهر ربيبه الواقف إلى جانبه:

_ اذهب يا ولدي، لم تنس أديغيتك، لِيُطِلِ الله عمرك! اذهب إلى جانب والدك لعله يشم على الأقل رائحة رجولتك. ضحك مرجان من أعماق قلبه.

تعقب مرجان مسروراً الصبي الذي، وإن لم يكتسب هيئة الرجولة بعدُ،لا ينسى أن جسد الرجل يجب أن يتحلى بطباع الرجولة، والذي يتجه إلى والده. ثم ألقى نظرة على المولى.

***

لم يذق محمد جري من النوم إلا إغفاءة في ليل الصيف القصير الثقيل على الصدر. كل ما رآه وسمعه أمس جدير بالتفكير. خرج فجراً من الغرفة عازماً على أن لا يُمضيَ ليله مغمض العينين صاحي العقل، فاجتاز فناء الدار الصامتة، واتجه جهة القرية محاذياً السور الحجري إلى حيث يُسمع صوت النهر، فأصبح على الضفة غير العالية دون أن يجد وقتاً لمراقبة المشهد. وحين نظر إلى وجه الماء غير العريض وغير الضيق، الجاري متكاسلاً، خطر له خان جري الذي لم يفارق ذهنه طوال الليل: كيف تقطع هذا النهر سباحة وأنت مجرد صبي، فارتاع له.

اقترب محمد جري من جانب الماء ورشق وجهه به بضع مرات، ثم جلس حين وجد، فيما هو يدور حول الضفة، صخرة مرتفعة مناسبة. ومع أنه كان يسرّح نظره في الأوراق المتنوعة لأشجار الغابة الصيفية المنتصبة على الضفة الأخرى كان عقله مشغولاً بما يمنع عينيه من رؤيتها.

---

[1] نداء احترام للأب، وللأب غير المباشر خصوصاً. المعجم.

والتفت كما لو سمع صوتاً خفياً في الطبيعة الخالية إلا من خرير نهر " أبنه "، ولم يطل به الأمر حتى رأى خان جري على الضفة نفسها التي كان يقف هو عليها، فقال له دون أن يسمح لصوته بفضح وساوسه:

_ هذا أنت يا خان جري؟ لماذا أنت هناك على الضفة؟ تعال إلى هنا!

وحين اقترب منه الصبي أنهى كلامه بلا مبالاة رغم أنه مشتاق إليه جداً:

_ أنت تفيق مبكراً جداً يا ولدي!

_ يا أبي ألستَ من يقول " من ينهض باكراً يولدْ له عِجل " ؟

امتلأت جوارح محمد جري بنسغ دافئ تدفق من قلبه المطمئن:

_ أنا، شكراً على أنك لم تنس.

ولكنه سأل للتو وقد فضحه قلقه:

_ أأنت وحدك؟

_ نعم وحدي. قال لي الأتاليك مرجان: والدك ذهب إلى الضفة؛ اذهب وآنِسْه!

_ لا بأس! إذا كان الأمر هكذا، الأشرار كثيرون، وأعداؤنا ليسوا قليلين. أفهمَ محمد جري الصبيَّ محدثاً نفسه.

_ إن كنت تتحدث عن أشرار ذلك اليوم فلا تقلق! _ قال الصبي فجأة _ مرجان ذو قوة هائلة، رفع في وجوههم المذراة وطردهم.

جعل الخبر محمد جري ينتفض، وسأل:

_ ماذا كانوا يريدون؟ ماذا قالوا له؟

قال خان جري مصطنعاً أسلوب الرجال في الحديث:

_ لست نمّاماً إن سردت لك ما سمعته: قالوا له: أنت تربي ابن الخائن الذي وقف إلى صف الروس. ولكن مرجان لم يقبل منهم هذا الكلام.

ثم نظر الصبي بحزن إلى والده وسأل:

_ أصحيح ما يقوله الأشرار يا أبي؟

_ إذا كان الأتاليك لم يصدق ما قالوه له فكيف يكون صحيحاً؟ أعداؤنا سيقولون عنا الكثير؛ لا تشغل بالك بهذه الأقوال!

قال محمد جري في نفسه: على ما يبدو،صِرنا، ونحن نحاول أن نحمي سرنا، في أفواه الناس. وتعقّبَنا من يعرف حقيقتنا ومن لا يعرف. كنت أفكر في الفرسان الذين لحقوا بنا في نواحينا، وأتعجب في الوقت الذي يعدّنا فيه الروس من البجدوغ المسالمين فإذا بي أسمع الأعجب. وقد وصل الأمر إلى الصبي وانتهى! يا ترى لماذا يكتم عني مرجان الخبر؟ إن تسبب هؤلاء في شر فلن يصيبني وحدي بل سيتعداني إليه أيضاً. لن تستطيع اعتماداً على قوتك مواجهة مَكْرِ من يضمر لك الشر. تباً لي إن اعتدوا على الصبي وأنا أظن

نفسي أحميه. لا أفهم سلوك الأتاليك مرجان. أقول ليس الوقت مناسباً ليوضح لي، ولكن مثل هذا الموضوع لا يؤجل.ربما يفتح الموضوع عندما نرجع إلى البيت. وإن لم يستطع البوح به فسأكاشفه. يبدو أن القادرين على أن يحمونا قليلون إن لم نحمِ أنفسنا.

_ يا ولدي كيف تستطيع اجتياز هذا النهر سباحة؟

وكأن صوتاً خفياً نبهه إلى أنه نسي الولد فقال منتشلاً نفسه من أفكاره ومموهاً غفلته عنه:

_ ماذا نفعل إذن؟ الأديغة الذين ننتمي إليهم لا يحترموننا رغم زعامتنا الشكلية كلابس قبعة عالية لا يُعتَدُّ بها. لِنمضِ يا ولدي! مضيفنا ينتظرنا. لن نسمح لهم أن يقولوا: الأب وابنه اختفيا بين ضفتي النهر. ولن نفوّت الصلاة.

حين عادا إلى المنزل مزح مرجان مع محمد جري خلافاً لما يتوقعه الأخير:

_ تأخرتما يا محمد جري. وأنت يا خان جري، حين التقيت بوالدك، شغلتم فكرنا.

أجاب محمد جري بطريقة يظهر فيها اللوم أكثر من المزاح.

_ لم يخطر لنا شيء من هذا يا مرجان. لا تجعلنا نفكر بما ليس في أذهاننا. سرّني ما قال لي الصبي من أنك طلب منه أن ينضم إليّ.

_ حقاً يا محمد جري. لا يخطو خان جري خطوة دون علمي.

_ حتماً؛ الوضع سيئ مخيف غيرُ آمِنٍ. وظن محمد جري أنه وجد مدخلاً للحديث عن الفرسان الثلاثة الذين أقلقوه ولكنه لم يستطع أن يناوِلَ محدثه طرف الخيط.

وكأنما حدس مرجان ما في قلب ضيفه فقال:

_ لو كانت الدنيا كلها حلوة،لا غيوم ولا رعود ولا صواعق ولا ريح، لأصبحت الحياة مملة يا محمد جري. هيا نتوضأ؛ حان وقت الصلاة!

وفي أثناء صلاتهم وإفطارهم، وحين صارا على الطريق، كان هذا القلق لا يفارق محمد جري غير أنه لم يكن يريد أن يقحم الصبي من خلال الأقاويل في السر الذي بينه وبين شواي، فكظم، وهو يرزح تحت هذا الصبر، غيظه في هذا اليوم.

دمدم مرجان بعد أن ودع ضيفيه دون أن يفصح عن سر عدم رضاه:

_ هذا الذي تتوجهون لزيارته، أباته، لا أعرف بِمِ ستعودون منه؟

ثم لما نفّس عن شعوره دعا لهما، وخان جري إلى جواره يقف وقفة الرجل:

_ ليُثبّتِ الله حوافر خيلكم، ولتكنْ سروجكم وثيرة، ولترافقكم السلامة!

IV

قال محمد جري حين خرجا من القرية وعلَوَا الرابية:

_ ليس من السهل أن يغير الأتاليك مرجان رأيه أويتراجع.

تساءل شواي مع أنه أمسك بلب الموضوع:

_ عمّ تتحدث أيها المحترم؟

_ أنا مهموم بالجفاء الذي حدث بين خورلوقوه مرجان وأباته بسلني. من الأفضل في هذه الظروف أن نتحابّ لا أن نتخاصم.

_ ولكن أيها المحترم أليس أباته بسلني أصغر من خورلوقوه مرجان عمراً؟

_ طبعاً أصغر بعشرين عاماً أوأكثر.

_ على ما يقولون: على الأصغر أن يحترس في حضرة الأكبر.

_ أتسأل عن هذا؟ هو طبع وشِرعة أديغيان.

_ ولهذا أنا متفق مع مرجان.

_ أيُدان كل من يقول: أنا رجل، لا أخلو من المروءة؟

_ إذا سأل سلطان الترك: مَن بين الأديغة يمكن أن يكون زعيماً عليهم برجولته وفطنته فمن العيب أن تقول: لن تجد غيري.

_ من الصعب أن يقول أحد هذا يا شواي.

لم يكن محمد جري جاهلاً بما جرى لخورلوقوه مرجان وأباته بسلني في حضرة سلطان الترك. ولكن ابتسم عارفاً بما يقال عن أن " الكلام يلد الكلام ". لا شك أن الناس زادوا شيئاً فشيئاً في الحديث ما لم يقله. خورلوقه مرجان أحد رجال الشابسغ المعتبرين، ولولم يكن هكذا لما انتزعت الولد من حضني وكلفته تربيته. ولكن أباته بسلني _ ولوأنه أصغر عمراً _ معروف في كل أرض الأديغة بطبعه ورجولته ونفعه. وإن أشرتَ إليه تريده لأمر نافع فلن يختبئ وراء أحد. ولولم يكن معتداً بنفسه لما قال الكلام الذي يعاتبه عليه الناس. لا يجوز الكلام بسوء على رجل لم ينكر رجولته وطبعه أمام العدو. هذا السلوك _ ليسامحني الأتاليك _ لا يليق به. أظن أن عيني المكوي وعيني الكاوي التقت لمعرفة من عيناه أَثبتُ. ربما دخل في الموضوع أن الكبير وهو ينتظر الصغير سمع منه كلاماً لم يعجبه فلم يرض بما حدث.

_ لماذا توقفت عن الحديث يا شواي؟

_ ماذا أقول؟ ظننت أن الخبر انتهى.

_ كيف ينتهي الخبر بأن تصُفَّ إلى جانب مرجان؟ لم تُفحمني ولم تقنعني. ائتني من غير هذا الباب!

_ لا أعرف أيها المحترم. ألم تسمع مرجان يصف بسلني بالنفّاج؟

_ سمعت دمدمته، لو كان واثقاً بكلامه لرفع صوته.

_ ربما استحى منك يا محترم. أليس يربي الأمير الشاب؟ ألا يعرف ما بينك وبين أباته بسلني من صداقة؟ ولكن قلب مرجان كان نحو بسلني حين كنتما غائبين على ضفة النهر .

قال محمد جري مبتسماً:

ــ على ما يبدو" الكلاب تأكل حمار الغائب ". وهكذا أنا أصفّ مع أباته.

قال شواي فرحاً بأنه وجد فجأة مخرجاً من الورطة التي هو فيها:

ــ على ما يبدو يا محترم " نضج لحمنا دون أن يسودّ سيخنا "؛ نحفظ لكلٍّ فضله.

ــ لن أستطيع هذا يا شواي.

ــ لماذا أيها المحترم؟

ــ في كل نقيصة فضيلة ما، والفضيلة لا تنأى عن النقيصة.

لم يُطق المولى شواي صبراً. قال في نفسه: ما أشد اهتمامه بما بين هذين الرجلين! ما إن أتى على ذكر خبر استدعائه إلى تركيا لتنصيبه زعيماً على الأديغة حتى نشره من كانوا يشكون في الأمر. إن أردت الحق ــ ولماذا نحمّل المرء ما لا يستحق ــ لم يلمه أحد من الأديغة على أنه لم يجدهم يستحقون ما قرره الترك بشأنهم فرفض المنصب. ضحك من سمع الخبر. ومن لم يسمع لم يأسف على جهله به. هو مستاء من مواطنيه لأنهم يدعونه بـ"النغوي "، ولولا أنه جعل من نفسه محجاً للقوزاق ما كنت لأقول ما أقوله. عندما يغيظوننا نقول ما نقول عنهم رغماً عنا، ولكنهم في المواضع الأخرى صاروا أديغة أكثر من الأديغة أنفسهم فأين نذهب بهم؟ ما إن قلنا: فتح الرجل قلبه لنا حتى تحول هذا القلب إلى ضفة نهر بشزة اليمنى. هذا الكلام رماه لي مرجان بلا تمهيد ولا خاتمة. ودون أن أحدثه بخبر الفرسان الذين اعترضوا طريقنا. روى مرجان لي خبر الفرسان الذين هاجموه ". الفرسان ليسوا مشكلة، بل ما أضافه: كيف أكون مربي من سيدير وجهه إلى عدوي؟ " ولولا أن الأب والابن رجعا إلى الدار لكان ينوي أن يروي لي سراً آخر. وإن كنت لم أخبره بخبر الفرسان الذين اعترضونا في شاتوقه فلماذا لم يخبره مرجان بخبر الفرسان الذين هاجموه؟ أليسا على مودة؟ كيف يكون بينكما خير وقلباكما غير متصافيين؟ أيُعقل أن يكون لأباته بسلني ضلع في المشكلة؟ مرجان احتدّ عندما سمع أننا ذاهبان إلى أباته.

ــ ارفع رأسك يا شواي! شيء ما يقلقك.

ــ لا يا محترم، ما الذي يجعلك تقول هذا؟

ــ منذ البارحة أنت شارد عما أقول.

ــ أيها المحترم أفكر كيف أوفق بين الفضيلة والنقيصة ــ أجاب شواي متسائلاً: لماذا لا يتركني؟ إن تعمقتُ في الموضوع فما تقوله ليس دون جذور، ويمكن أن تقيّمه حسب الزاوية التي تعالجه منها ــ حين استضافوك في تركيا في إحدى السنوات لم تقل لهم: أنا نبيهٌ وأنا طافح بالرجولة ولا أحد على أرض الأديغة أعظم مني رجولةً؛ فكيف تعاتب مرجان على موقفه من بسلني؟

ــ وما أدراك بما قلت للأتراك ذوي السراويل القصيرة؟

ــ لا تقل هذا يا محترم! بين الأديغة من دانك ومن برّأك.

_ " لا تفوّت من يدك رأس الحصان وتلحق بذيله " قال محمد جري، وأنهى بلهجة عتاب:

_ إذن لماذا لم يرني الأديغة أهلاً لما رآني له الأتراك؟

_ لو صدر التكليف من الأديغة أكنت رضيت به أيها المحترم؟

_ ليس جواب هذا سهلاً.

_ لماذا يا محترم؟

_ لأنه يتعلق بأي اتجاه سيميل الأديغة: إلى روسيا أم تركيا؟

_ ألا يجوز ألا نميل إلى اتجاه ما؟

_ لماذا لا يجوز إذا كنت دولة مستقلة؟

_ وهل سنحني رؤوسنا لكل من يطرق بابنا لأننا لسنا دولة مستقلة؟

_ سنقف إلى جانب من سنبقى في حمايته قبل أن نصل إلى هذا الوضع .

_ هذا أيها المحترم سلوك من هو مسلوب الرجولة _ على مستوى عموم أرض الأديغة ستجد كثيرين يؤيدونك. إن كنت تفكر كما فعل جدكم حين ترك أرض القرم والتجأ إلى أرض الأديغة _ قال شواي في نفسه ما لم يستطع أن يقوله بلسانه _ واختتم بسؤال أشد مرارة:

_ لماذا عشنا إلى الآن دون دولة؟

_ هذا سؤال يهمنا جميعاً بصفتنا أبناء هذه الأرض يا شواي؛ لماذا بقينا هكذا؟

_ إن لم تعتب علي يا محترم جاوبتك على قدر ظني.

_ لماذا أعتب عليك إذا كنا نتكلم في مصير الأديغة _ ضحك محمد جري في سره _: ما الذي يعرفه مما لن يعجبني؟ _ قل لي ماذا في قلبك ولكن لا تطلق علي مسدسك!

وضحك المولى كما المحترم، وما في قلبه غيرُ ما على لسانه:

_ كيف تبدد رصاصة والبارود عزيز في حين أننا نستطيع أن نتكلم؟ ولكني لن أسحب كلامي: عشنا هكذا دون دولة لأنكم جعلتمونا نعيش.

_ ما أسمعه عجيب _ أوقف محمد جري حصانه ثم همزه _ أنحن من تحملونه المسؤولية؟

_ أنتم أيها المحترم: الأمراء والنبلاء والأسر النافذة ومن تَقدموا صفوفنا باسم زعماء.

_ اسمع ماذا يقول! ارتفع صوت محمد جري دون إرادته.

_ ألم نتعاهد على ألا يعتب أحدنا على الآخر أيها المحترم؟

_ نعم، نعم، لا تشكَّ فيّ لأن صوتي مرتفع. أصغي إليك، أكملْ ما بدأته . قولُهم:" رأيان خير من رأي واحد " في محله . قد نخرج بفائدة ما من نقاشنا.

_ لا أعرف إن كان نافعاً ولمن أيها المحترم، ليس لأعلّمك: بما أنكم تقودوننا، وبما أننا على ظهر البسيطة، ألا يكفي أن الأديغة عاشوا بآرائهم الفردية؛ لماذا لم تفكروا في دولة مستقلة، ولماذا لم ترفعوا وعينا نحن إليها؟

ألستم أنتم المالكين المربَّين القائمين على أمور الموالي؟ وما حاجة الأمراء والنبلاء إلى دولة للأديغة؛إنهم يعيشون في مدنهم وبلدانهم في صراع دائم على أيُّهم أغنى وأيهم أفقر، محاطين بحُماتهم النبلاء. نعيش ونحن نتناحر مشتتين، عِرقاً عرقاً، وقرية قرية، وأسرة أسرة. ومن يرانا هكذا يُكشِّر عن أنيابه مصمماً على أن يضمنا تحت جناحيه. ونحن نستحق أي مصير ينوونه لنا. ولهذا ترفع روسيا وتركيا رأسيهما علينا. ولكننا لن نكون لقمة سائغة لمن لا يفهمنا كائناً من يكون.

" أظنني نزعت اللجام عن فم من ينظف أوساخ حصاني فجعلته يتعالى " احتد المحترم الآن أكثر. أليس هذا الذي على يساري هو من اشتريته بثمن قماش بنطال من سوق " طوابسه "، ورُبِّي في دارة آل سلطان مطيعاً لكل ما يُطلب منه ؟ أليس هو من كان يلُمّ ما يسقط منا؟ أسمعه الآن فإذا هو مسكون بفكرة الحرية ! لا يستطيع أن يخفي هواجسه فتكادُ تخنقه. وبدلاً من أن يشكرنا يعدُّنا مذنبين، والحال أنه لا يطيقنا. من يوم ما جئنا به لا نذكر أننا أسأنا إليه؛ بل لم نعامله إلا بكل خير، وربَتْنا على رأسه وربيناه مع أولادنا. وهل كانت عمتنا تقبل أن نوجه إليه كلمة جارحة في لحظة غضب أونتصرف معه تصرفاً غير لائق؟ وإلى الآن تتلهف عليه هذه المسكينة المحرومة من الولد كأنه ابنها، تَرْقيه وتقرأ عليه الأدعية ناسية أنه مولى وأنه خادم على الباب، تناديه: يا ولدي، يا شبيه روحي، كما تنادي أولادي. تكسوه حتى بملابس الخروج الرسمية. لم يبق ما تقدمه له إلا أن تختار له أتاليكاً يربيه! من حسن حظنا أن عمتنا لم تسمع هذا النقاش،إذن كان لسانها انعقد " جرو الذئب مهما دللته وربيته وهذبته يبقى يشم رائحة أصله "

_ على ما تقول أيها المولى شواي _ قال محمد جري متأثراً بنكران الجميل، محتاطاً لما يقول وإن كان فقد اتزانه _ أنت تحمِّل الأمراء والنبلاء المسؤولية، ونحن آل سلطان تضعنا في طليعتهم، لم توفر شيئاً يمكن أن تصِمنا به!

_ أنا يا محمد جري لست كما رميتني به أيها المحترم. لست أذمّ الأمراء والنبلاء والأسر المتنفذة، بل أقول إنهم مقصرون.

_ والموالي؟ من يتحمل عنهم واجبهم؟

_ لا أحد معصوم من الخطأ أيها المحترم. ولكن حرمانهم من الحرية _ لماذا تُصرّ على أن أقول هذا الكلام _ يعفيهم من المسؤولية.

_ إذن ضاعت حرية المولى شواي مع آل سلطان لأنهم أسرة أمراء.

_ وأنا من الموالي المحرومين من الحرية أيها المحترم!

_ أيها المولى شواي _ أفزع صوت محمد جري المتفجر حصانه _ أحاول ألا أقول هذا من البارحة، ولكن "أيُّ كلب أطلقته عليّ؟ "

أجاب شواي بصوت ليس أخفض من صوت المحترم بعدما شد لجام الحصان بقوة جعلته يثب في مكانه:

_ إنه كلب القوزاق الذين وضعوا على كتفيك شارتهم أيها المحترم!

ـ إذن أنت تعرف ما في بيتنا من أسرار!

وبين لهجة عتاب ولهجة انتقاد حاد، ومع أن أعضاء محمد جري تداعت؛ فكما يحدث أمام الأعداء عاد إلى تماسكه بسرعة، وتابع:

ـ ولماذا صاحبتني بمثل هذا القلب؟

ـ لأنك طلبت مني ذلك.

ـ لا أحتاجك بلسانك المبطن هذا. وتقدَّمَه بضع خطوات.

ـ كما تريد أيها المحترم!

وبعد لأي عطف شواي رأس حصانه وأكمل:

ـ وعلى كل حال هذه آخر رفقة بيننا.

وبعد حوالي مئة خطوة، وفي المنعطف، فوجئ محمد جري بفارسين، وللتو تعرّف فيهما الأخوين أباته: بسلني ووبيخ.

ـ لستَ ممن يستحق السلام يا محمد جري. قال بسلني يتقدمه عتابه ـ من لا ننفك نذكره ولا نرى شخصه ـ قلنا لأنفسنا: حتى لوكان خورلوقوه لن يسمح لنا أن نقترب من سياج داره فسنلقي رغماً عنه ولو نظرة واحدة على ضيفه، فركبنا أنا وأخي الأصغر للقائك. أأنت حقاً وحدك؟ ومن هذا الذي ينصرف مديراً لك ظهر حصانه؟ إنه، وإن كنت أعرفه ولا أعرفه، خورلوقوه مرجان. كان نحساً علينا استقبال سلطان الترك لنا. قوّلني ما قلت وما لم أقل. وقبل أن أعتب عليه جعل الناسَ يتكلمون علي بالسوء، ليس في أرض الشابسغ فحسبُ بل في كل منطقة الأديغة. انظر إلى عجرفته! لا يتنازل أن يلتفت!

ـ أنت مخطئ يا بسلني!

سأل بسلني بعينيه الزرقاوين الحادتين:

ـ أقلتُ شيئاً لا يستحقه؟

ـ الفارس الذي تتكلم عليه هو المولى شواي.

ـ ولماذا يدير ظهره لك؟

ـ حدث بيننا سوء تفاهم على مسألة تتعلق بالأديغة فتدابرنا.

ـ يا وبيخ أعدْ هذا الرجل ذا العنق القصير!

ـ لا ضرورة، دعه يا بسلني!

ـ الرفيق لا يترك رفيقه أيها المحترم!

قال بسلني بفمه الأحمر الذي يبرز من وجهه الضيق المستطيل النحيف المكسو بلحية وشوارب شقراء غير كثيفة منسجمة معه ومع أنفه الأقنى، قال بلهجة صادقة، وبصوت أقوى أكمل:

ـ الفرسان يعودون إلى حيث انطلقوا ثم يفترقون. كائناً من كان السبب فكلاكما على خطأ أيها المحترم. ما جرى بيني وبين خورلوقوه مرجان خارجٌ عن شرعة الأديغة. إن تصرف كلٌّ على هواه فمن سيكون قدوة الشباب؟

أدار بسلني حصانه مبدياً احترامه للرجل الذي تعقّبوه عندما سُمع وقع حوافر الخيل، سواء كان بريئاً أم مذنباً، ثم لجمه ووجّهه إلى حيث يتجه محمد جري الذي يقف إلى اليمين بصفته الأكبر سناً.

ـ نهارك سعيد يا بسلني! ألقى شواي السلام كأن شيئاً لم يحدث.

ـ ليحبَّك الله يا شواي!

رد بسلني كأنه لا يعرف شيئاً عن الموضوع. وعبّر عما كان يريد أن يقوله للضيوف عبْرَ أخيه الأصغر:

ـ يا وبيخ اسبقنا أنت وصديقك! وعندما نصل إلى المضافة ستكون المكانَ المناسب لفهمِ ما حدث بينهما.

وعندما ابتعد الفارسان قليلاً لم يتمالك بسلني أن يقول:

ـ هؤلاء ما يزالون شباباً. كل ما يخطر لهم يفعلونه. أقول هذا ولكن خورلوقوه أكبر مني. ما إن صرنا على الجانب الأديغي من البحر الأسود حتى قال لي دون مناسبة: أنت نفّاج. لا أعرفك، وتركني. أحرج من يودني، وشمَّت بي من يكرهني.

ـ أظن الناس نسوا هذه الحادثة التي تذكرها يا بسلني.

ـ لا يا محمد جري. لا فرق بين أن ينظم الناس بحقك قصيدة هجاء وبين أن يصفوك بمادح نفسه. لا تنصحني في هذا الشأن.

ـ صحيح. ولكن مع ذلك... قال محمد جري وسكت. وبعد قليل عاد يفكر ثانية بما حصل لهما على الطريق. ثم أنهى تفكيره مغلّباً ما يوافق هواه، متجنباً أن يصبح موضوعاً لحديث هؤلاء الناس:

ـ يا بسلني لا يمكنك أن تمنع الناس من الكلام. مرجان مخطئ في ما قال وما فعل. ولكن أقدِّر لك أنك غفرت لمن لم يفهمك، واعتبرتُه رجولة منك. وما حصل لنا أنا والمولى على الطريق ليس في الحقيقة شيئاً مهماً. ما الذي لا يُهم القلب الأديغي الآن؟ وسنفصّل الكلام في هذا،كما اقترحت، حين نصل إلى المضافة. الشيء الوحيد الذي أعرفه اليوم في ما يخص الأديغة هو أنه لا يحسن بنا أن نتعادى وأن نتنازع. وإن لم نفهم هذا كان فيه نهايتُنا.

***

أسرّ المحترم لشواي حين بقيا وحيدين في المضافة:

ـ لا تأت على ذكر الشارة!

وفيما كان شواي جالساً منطوياً على نفسه، لا تدري أتفهّمَ ما قاله المحترم أم لم يتفهّم، دخل أباته بسلني الغرفة.

V

الجو لطيف، والصباح هادئ.

هو وقت اشتداد حر الشمس التي تلفح من وراء أشجار الأكاسيا المجاورة العالية مرجةَ الحشيش أمام الباب، وأفراخ الديك الرومي تنبش أرض هذه المرجة. والغبار استقر في ليل الصيف الهادئ على الشارع، ومجموعات القُرَّيص نبتت هنا وهناك لِصْقَ أسيجة الاسطبلات.هو وقت لم يتسنّ فيه للنسيم اللطيف أن يتعب.

يجلس خورلوقوه مرجان على مصطبة تلاصق السور المتين المنفتح على بابين صغيرٍ وكبير. والظهر المتين العريض الممسك بالأوتاد الثلاثة: اليدان والعنق، مستند إلى السور المبني من عيدان متلاصقة بحيث لا يُرى شيء من بينها. والعصا القصيرة الغليظة التي يسند بها ظهره حيثما ذهب لا تفارقه.

ومرجان الجالس وكفاه الضخمتان إلى فخذيه، وجفناه الثقيلتان مسبلتان، يعْلِمك بحذره، ولو أنه يبدو لك مأخوذاً بالصباح اللطيف، أنه لم يسهُ عن عالمه الذي ينتمي إليه مهما طعن في السن.

تنهد مرجان عميقاً دون أن يفتح جفنيه قائلاً في نفسه: ليس ما عشته وما رأيته قليلاً. أكثر أقراني الذين عاشوا لأجل حرية الأديغة حرمتْني منهم ضرباتُ السيوف ورصاص البنادق والجراح القديمة. وكثير من الذين كنت أعرفهم أُسبلت جفونهم قبل أوانهم. وأخي الأكبر مات منذ زمن بعيد في معركة بالرماح. وأخي الأصغر ما يزال أسيراً عند الروس لا أعرف إن كان حياً. تأملنا بعد حرب بزيقوه أن ينتشر السلام في أرض الأديغة، ولكن وقعنا من جديد بين الروس والأتراك قبل أن نرتب أمورنا الداخلية. وكل عام تزيد فرقة الشعب الأديغي. يتنازعون قيادة الأديغة، وكلٌّ يدّعي أنه الأكثر والأقوى والأعقل. ولا يكفي هذا فبيننا مَن عواطفُه نحو إحدى الدولتين الغريبتين المتنافستين علينا. والذين لا يعرفون أين يتجهون ليسوا قليلين. ولكن أكثر الأديغة، لحسن حظنا، وهم الموالي، مخلصون لأرضهم ووطنهم. كنت عتبت على أباته بسلني في تركيا ولكنه،وقد تسلح بالرجولة، لم يدَع اللسانَ المعسول، لسانَ السلطان، يخدعه. وافقني، وسواء بإرادتنا أم لا، لم نكن سبباً في مصادرة حرية الأديغة. ومن هم الأتراك حتى يفرضوا علينا ما يريدون؟! ألا يكفي كم حكمَنا خاناتُ القرم الذين انتهت دولتهم؟ كانوا يريدون أن يتدخلوا فينا بأسلوب ملتوٍ، لا علنيٍّ. أمسكوا علينا واحدة فقط وهي الأرض التي باعها لهم، لسوء حظنا، أمير الناتخواي زانه قوه والتي بنوا عليها قلعة أنابه. والروس لا شأن لهم بنا كما الأتراك. أعجيب أن زوّجوا القيصر إيفان ابنة الأمير تيمرقوه؟ ما شأننا بهذا؟ إن كان العرقان تقاربا فليعضدْ أحدُهما الآخرَ بالخير، ولكن أن يأتوا بجيوشهم إلى أرضنا كما قال ذاك المساء محمد جري فهذه حجة مضحكة. محمد جري الذي أربي ابنه تكلم على الأديغة والروس والترك ولكن لم يُفصح عن حقيقة موقفه. أسمَعَنا الأخبارَ التي أصبحت كالحكايات القديمة، وانطلق في طريقه وكلٌّ ظنه أن أباته سيشاطره أفكاره أحسن مني. وأنا يحاربني الناس متهمين إياي بأني أربي ابن الخائن. لماذا هُرِع إليّ مخالفاً للعادات ومهيجاً قلب الصبي في زيارة لا مناسبة لها ولا فائدة. ما وصلني خبراً عن خبر، وما

صارحني به المولى شواي مبدياً استياءه منه، يصبان في نهر واحد. إذن إن كان محمد جري اتجه ثانية نحو الروس فإنه لم يأت خالي الذهن من نية ما، ولكنه لم يجرؤ على مكاشفتي، وبدا لي أنه لا يريد أن يرى نفسه في هذا الموقف. أكان يريد ألا يُدخل مولاه شواي في قضاياه؟ ولكن كيف تكتم سرك عن مولاك الذي على عتبة بيتك طوال النهار، وفمه وسمعه دائماً معك.ثم إن السر الذي يعرفه الناس عنك لا يبقى سراً. يا ربي أيكون خان جري أخبر والده بما حدث أمام باب دارنا ذاك اليوم؟ وإن أخبره فلا بأس؛ لم يعد هذا سراً، أظنه سافر قبل أن يجد نفسه في موقف لا يجد فيه بداً من أن يخبرني بسره. ولكن إن صدق ما يقولون فلن يبقى بيني وبين محمد جري أي علاقة، لا قولاً ولا عملاً. وفي هذه الحال ما العمل مع الصبي الذي تعلق به روحي وقلبي؟

أيقظه من أفكاره صوتُ تفكيره أكثرَ مما فعل صوت الباب الذي انفتح، فسوّى ظهره المستند إلى السور. وحيّا خان جري مقنعاً إياك بما يقول أكثر مما يوحي به عمره:

_ صباح الخير يا مرجان!

_ لِيحدثْ معك كل الخير يا ولدي، تفضّلْ!

عبّر مرجان عن احترام لا يتناسب وعمرَه للصبي الذي ألقى التحية. وتجلّى احترامه في أن همّ بالقيام، ثم اكتفى بأن انزاح نحو اليمين ليُفسح مكاناً للصبي، فأجلسه على يساره، وقال له:

_ أنت الآن تصرفت تصرفاً صحيحاً؛ لوجلستَ على يميني لسخر منك من يراك قائلاً: احتل مكان الصدارة من قبْلِ أن يولد، وعتب علي أيضاً.

_ أعرف هذا _ قال خان جري بعد قليل وهو يتخذ مكانه _ لن أسمح لهم بمؤاخذتك!

_ من نبّهك إلى هذا؟ لم يستطع مرجان إلا أن يسأل الصبي إذ كان يعتبر نفسه صاحب الفضل في تربيته.

_ أنت يا مرجان. ثم أضاف بعد قليل:

_ وتعلمت هذا من حكايات الأديغة.

_ جاوبني إذن: إن كان هنا ثلاثة أشخاص فما مكان كل منهم؟

_ إن كانوا ثلاثة أوثلاثة فرسان _ انطلق خان جري في الجواب والارتياح للسؤال بادٍ عليه: الأكبر في الوسط، والتالي على يساره، والأصغر على اليمين.

_ أحسنت! أرحتني بجوابك؛ ولكن لماذا الأصغر على اليمين؟

_ لماذا الأصغر على اليمين؟ أعاد السؤال وهو يفكر في الجواب. ثم حسم خان جري الجواب وعيناه السوداوان الصغيرتان تدوران في محجريهما، غيرَ راض عن نفسه لجهله:

_ أفحمتني يا مرجان؛ لا أعرف.

ابتسم مرجان كأنه يقول: حقاً أمسكت بك وقال:

_ أتظن أن شرعة الأديغة كلعبة الكعوب؟

_ ولعبة الكعوب لها قانون يا مرجان.

_ لا أقول إنها بلا قانون. حتى عندما تصفّ بضع كلمات فإنّ تتابعها يجري بنظام؛ وإلا ما فُهم كلامك. ولكن لأكسبْ أنا الجولة مرةً ولأقلْ: أمسكت بك يا خان جري!

_ قلت لك: لا أعرف يا مرجان. وقد بدا عليه حزنه لجهله بالجواب.

_ اسمعني إذن وافهم ما أقول: الأديغة طوال عمرهم يكرّمون كبيرهم وصغيرهم، يقدّرونهم ويحترمونهم. وعلى سبيل المثال إن قابلت ثلاثة فرسان أمكنك أن تعرف كبيرهم وصغيرهم من ترتيب نسقهم.

_ الأصغر على يمين الثلاثة؛ أنسيت يا مرجان أننا تكلمنا فيه؟

_ لا، لم أنس، لا تستعجل! ثم إن الأديغة عندهم حسنة أخرى: عندما يتكلم الكبير لا يقاطعه الصغير.

_ سامحني يا مرجان _ أبدى خان جري أسفه، وأراح رأسه المتطاول الصغير على كتف العجوز.

_ استوعبْ ما أقوله، وهو ليس حملاً ثقيلاً، وسيفيدك في حياتك: إن غادر الأصغر الذي على اليمين رفيقيه أو أُرسِل لمهمة ما فلن يختل الترتيب؛ أفهمت مغزى هذه العادة؟

_ فهمت؛ ولكن إذا تركهم الثاني في الترتيب؟

_ وهذا له إجراء آخر: قال الأتاليك مرتاحاً لما سمع: يجب أن يدور الأصغر وراء الكبير ويأخذ مكانه الجديد .

_ أعند الأقوام الأخرى مثل هذه الشرعة التي تتكلم عليها يا مرجان؟

لم يستطع مرجان إلا أن يندهش للسؤال الذي فاجأه. أدار رأسه الضخم الثقيل إلى اليسار على مهل، ونظر إلى الصبي بوجه طلق وقال:

_ طبعاً يا ولدي. كل قوم يختارون عاداتهم المميزة في الحياة، يصبغون بها حياتهم ويمتّنونها. أعتقد أن علاقة الاحترام متجذرة في عادات الأقوام الأخرى ولكن لا أعرف تحديد اسم قوم. وبالمقابل لدى غيرنا عادات ليست فينا. إن كنت تعيش وتعمل في هذه الدنيا فلا بد أن تكتسب عادات حسنة وأخرى سيئة. والأفضل أن تحتفظ بالحسنات وتتخلص من السيئات. هكذا ربانا آباؤنا وأجدادنا وعلّمونا أن نربيكم أنتم عليها " الناس يقدّرون من يُحسن إليهم " قال آباؤنا؛ أسمعت هذا المثل؟

_ " لن يلاقي خيراً من ليس في قلبه خير " سمعتُ قانتاتَ الجدةَ تقول هذا الكلام كثيراً. قال خان جري ما في نفسه دون أن يجيب عن السؤال.

_ هذا كلام مأثور حسن. سررتني بحفظك له.

_ الجدة تحفظ كثيراً من هذه الأقوال. قال فجأة بصوت حاد.

_ مثل ماذا؟

_ " من تُرَبِّه على الشر تشاركْه ذنْبَه "

_ أحسنت! ما أعظم ما يحفظ هذا الصبي من كلام مأثور!

_ أأقول لك غيره؟

_ أسمِعني إن كنت تعرف!

_ " ما ليس أوله خيراً ليس آخره خيراً "

_ وهذا، إن كنتَ فهمته، مبدأ مهم في الحياة.

_ ما الذي لا أفهمه؟ يعني: " اعمل خيراً تلق خيراً "

_ تماماً يا ولدي تماماً. لم يكن فرحه يسعه. أجبت المأثور بمأثور آخر من نوعه؛ إذن هل تستطيع أن تقول لي ماذا يريد هذا المأثور أن يقول: " لا تقبل أن تترك عملاً حسناً ولا طريقاً مستقيماً ".

_ أتسألني عن هذا يا مرجان؟ سأل خان جري بطريقة تنسيك أن عمره اثنا عشر عاماً، ثم أضاف خائفاً أن يتراجع مرجان عما يريد قوله: ما كنت تريد أن تقوله أفصحتَ عنه. سمعت شواي يقول هذا الكلام كثيراً.

_ هل المولى شواي بارع في حفظ الكلام المأثور؟ وفيما يقول في نفسه: أي إنسان هذا الولد ربيبي، سأل دون تركيز مانحاً نفسه وقتاً للتفكير ومنهياً سؤاله بالتعجب:_ والله ما كنت أعرف هذا!

_ لا تسألني كم من الحكايات يعرف! هز خان جري رأسه المتطاول الصغير، ولمعت عيناه السوداوان كخطين من نار.

_ لو عرفنا أن المولى شواي بارع في الحكايات هكذا يا بيتمال لكنا سمعناه في ذلك المساء. قال مرجان دون أن تستطيع أن تكتشف من صوته إن كان صادقاً أم لا.

_ وأنا انتظرته حتى هدّني النعاس _ قال وقد غلبه العتاب، ولكن لم تتركوا له المجال غارقين في حديثكم عن الروس والترك والأديغة.

هذا الولد الذي أربيه منذ ثلاث سنين _ قال مرجان _ يكشف لي يوماً بعد يوم شيئاً جديداً لم أعرفه قبل البارحة . وخلافاً لعمره لو اتّخذت منه محدّثاً لك طوال النهار ما مللت منه كأنك تجلس مع رجل ناضج. بل هناك كثير من الرجال لا أساويهم به. كثير من الرجال في قريتي لا يمكن أن تسمع منهم، ليس الكلام المأثور فحسب،بل لا يمكن أن تسمع منهم كلاماً عاقلاً، فهم مشغولون بالبقر والغنم والدجاج. أستطيع أن أعدد كثيراً من الناس لا يعرفون ما ذكره الصبي في شأن " الروس والترك والأديغة ". " لا يعرفون إن كانوا يعلقون الأمور برأس الإبرة" ولا يعرفون مغازيها. هناك كثيرون لا يعرفون ما يسأل عنه هذا الصبي من مقام الكبير والصغير سواء أأوقفتهم أم أجلستهم أم أركبتهم الخيل. هذا الصبي إن كبر – الله يحميه – عيّروه بكونه من النغوي، ولكن سيخرج من إهابه رجل حقيقي. لا أظن أن محمد جري لم يفهم هذا. وربما هو متلهف عليه لهذا السبب. ألهذا يا ترى رجع وانحاز إلى الروس؟ والأتراك لا تنقصهم التربية ولكن لم يتجه إليهم. لماذا هذه الأسرة بوجوه روسية منذ ترك كبيرهم خان القرم؟ أقول " هذه الأسرة " ولكن كيف أعُدّ هذا الصبي النبيه ذا القلب الأديغي فيهم؟ سأقوي قلبك الأديغي وأدعمه ولولم يبق غيري يا ولدي. أتظن

أن الأديغة سيعيشون على البسيطة اليوم فقط؟! سنحتاج إليك وإلى أمثالك. لا تهتمَّ بما يعيرونك به من لقب " الغريب " التافه. نحن تجاوزنا أموراً كهذه. وما نزال نحمل ما ثبتوه علينا من ألقاب إلى الآن.

_ هكذا إذن! طفا خورلوقوه مرجان من الماء العميق الذي سبح فيه وهشّ للصبي. وسأل متمنياً أن يبقى وحده مع أفكاره، باحثاً عن ذريعة:

_ ربما تفوّت فطورك يا خان جري.

_ يا مرجان _ قال خان جري متعجباً مما سمع _ أفطرنا أنت وأنا معاً!

_ ها.. أمسكت بي. ثم سأل وهو يود أن يصرفه:

_ أما حان وقت المدرسة؟

_ لا دروس اليوم!

_ ولماذا؟

_ اليوم هو الجمعة؛ أنسيت؟ ضحك خان جري من أعماقه.

_ لم تترك لي شيئاً اليوم إلا هزمتني فيه. صرتُ مديناً لك يا خان جري.

_ هكذا! _ وقف الصبي أمام الأتاليك العجوز وقد سمع ما يهواه _ إذن أجبني على ما لم يعرفه زملائي في لعبة الكعوب؛ سنرى إن كنت تعرف. ولكن فكّرْ!

_ إذن لا تقف في مواجهتي كأنك تصارعني! اجلس بجانبي ودعنا نفكر دون استعجال أو مماطلة.

التصق خان جري بالعجوز وسأل بخبث:

_ كيف تعبر نهراً بكومة من حشيش وخروف وذئب دون أن يتأذّى أحدها ؟

كرر مرجان السؤال كمن يفكر تفكيراً عميقاً. وبكلمات ممطوطة قائلاً في نفسه: لن أعكِّر عليك لذة سرك:

_ إن عملت هكذا لم يستقم، وإن عملت ذاك لم أقترب من الحل. لا أعرف كيف ستحل المشكلة؟ قل لي الحل يا خان جري إن كنت حريصاً على سلامة رأسي!

_ هل استسلمت يا مرجان؟

_ بالتأكيد.

_ ما لم تعرفه ليس عسيراً. لم يقفز خان جري فرحاً رغم أنه لا يتحمل فرحه. ثم ها هو يروي لمرجان متوجهاً إليه بوجهه الصغير:

_ أولاً تعبر النهر بالخروف وتُقعده وحده. ثم تعبر بالحشيش وتعيد الخروف معك. وتترك الخروف حيث انطلقت. وتأخذ الذئب إلى حيث الحشيش، فتترك الذئب والحشيش معاً لأن الذئب لا يأكل الحشيش. ثم تعود إلى الخروف فتعبر به. لهذا أقول لك: يا مرجان فكِّر! مالم تكن تعرفه ليس عسيراً.

ضحك مرجان مجاملاً الصبي وقال:

_ ماذا نفعل إذن؟ لهذا يقال: أنت عالم في ما تعرفه. تقول لي: ليس صعباً؛ ولكنه يصدع الرأس. ومن علّمك هذه؟ شواي؟

_ لا، الجدة قانتات.

_ بما أنك نبيه هكذا فسأسألك أنا أيضاً.

_ لا يا مرجان! لا يحق لك أن تسألني ما لم تعرف الجواب.

_ أتنوي أن تسألني أيضاً؟

_ نعم. كيف نقسم ثلاث فطائر على زوجين وأختين ؟

_ وهل الجدة من علمتك جواب هذا السؤال؟

_ هذا تعلمته من جماعة "ذي الأنف السائل".

_ إن كان مصدرها هذا الولد فهو سهل حتماً؟

_ مرجان! لا تستعجل؛ فكِّرْ!

_ إن ذكروا الفطائر _ يضحك مرجان _ لا أفكر مثل ذي الأنف السائل. أجيب وأفوز بالفطيرة: إذن اسمعني: لن تستطيع أن تفصل بين الزوجين فهما اثنان، فإن كانت أخت الزوجة معهما صاروا ثلاثة، والفطائر ثلاث؛ وهكذا لا مشكلة.

_ حسناً يا مرجان؛ عرفت الجواب. الآن حان دورك في السؤال.

_ ألا يكفي؟ الآن تعادلنا.

_ واحدة أخرى يا مرجان.

_ وإن فزتُ أنا؟

_ إن فزتَ فستبارى في مسألتين لتحديد الفائز وننتهي.

_ إن كنت مصرّاً فاسمع: كان لعجوز ولدان يحبهما ولا يريد أن يجلب لهما أي سبب للحزن. فأوصى عندما دنت منيته بما يلي: لا أقسم مالي بينكما ولا أريدكما أن تقسماه. ولكن إن أردتما الانفصال فأقيما سباقاً لحصانيكما؛ ومن يتأخرْ حصانه يربحِ المال. وبعدما توفي حاول الولدان تنفيذ الوصية: يذهبان إلى ظاهر القرية ويبدأان السباق، ولكن ما إن يبدأا حتى يشد كل منهما لجام حصانه فيوقفه. لا أحد منهما يريد أن يسبق أخاه. وذات يوم مر بجانبهما فارس ورأى ما يفعلان فسألهما، فلما عرف الموضوع قال لهما كلمتين، وأكمل طريقه. أقام الأخوان السباق بعد تلك النصيحة، وآل الملك لمن تأخر حصانه؛ فما الذي قاله ذلك الفارس للأخوين؟ أوبطريقة أخرى: أي من الأخوين فاز بالميراث؟

لمعت عينا خان جري، وأبعد رأسه المتطاول الصغير عن الحائط ثم عاد فاستند إليه. لم يكن يكف عن التفكير مع أنه كان يائساً من الجواب. لم يكن أي من أسئلة الأتاليك يفارق رأسه فيكرره بينه وبين نفسه فيقارنه بأجوبته هو، ولكن دون جدوى.

_ ماذا يا خان جري؟ أما وجدت "مخاضاً للنهر "؟

_ مهلاً يا مرجان مهلاً! ماذا قال لهم؟ _ يحك خان جري رأسه _ ثم يطلق بلسانه الجواب الذي نبع من رأسه: أيمكن أن يكون قال لهما: ليأخذ الأصغر الملك لأنه ما يزال شاباً؟ ولكن الأكبر له احترامه!

_ ليس في المسألة كبير أو صغير _ يتدخل مرجان في أفكار ربيبه _ لا تجعل المسألة تحرفك عن الصواب؛ قلت لك، إن انتبهت، إن الوالد لم يفرق بين ولديه.

_ مهلاً مرجان، مهلاً! لا يستسلم خان جري، ثم:

_ أيتعلق الأمر بسرعة حصانيهما؟

_ بدأت تقترب من الجواب؛ فكِّرْ أيضاً!

_ أفكر ولكن لا أجد مخرجاً. تنهد خان جري وارتدّ بظهره إلى الحائط خائباً أمله، وقال غاضباً:

_ لم يكن العجوز الموصي عاقلاً.

_ لماذا تعاتب العجوز الذي رحل عن الدنيا؟

_ لماذا إذن لم يوزع ثروته بالتساوي على ولديه؟ أجاب خان جري بلهجة يغلبها اللوم، ثم دمدم: ليس ولداه فحسب بل نحن أيضاً، كما تقول، نصدع الرأس به.

_ لهذا قلت لك: دعنا ننهِ مباراتنا! إليكَ ما قاله الفارس اللبيب للأخوين: قوما بالسباق بعد تبديل فرسيكما!

_ أي عجيب قال لهما؟! صاح خان جري متوقفاً عند لب الكلام _ هكذا سيظهر عيب الحصان الأضعف. غلبتني يا مرجان وربحت مني كعبين.

_ غلبتك حقاً ولكن لا بد أنك جنيت فائدة ما من هذا السباق.

_ نعم وحفظتها في قلبي _ شهد خان جري بسرعة على ما قيل له _ ثم رجا بأسلوب صبياني جداً: مرة أخرى يا مرجان دعنا نتسابق في حل الألغاز. مرة واحدة فقط. إن غلبتني تكون فزتَ حقاً، وإن فزتُ تعادلنا.

ضحك مرجان في نفسه:

_ هذا الصبي لن يسكت على غُلب. هذا حسنٌ، يُفرحني هذا الإصرار فيه، فإن اجتمع إليه العقل والرجولة كان قوياً في الدنيا. نعرف أنْ ليس كل العنيدين ناجحين، وأنا اختبرت هذا الأمر شخصياً أكثر من مرة. ولكن أن تقاسي كل صعوبة خير من أن يشبهوك بالإنسان الرخو الإمّعة، لا شيء يعدل أن تعيش عمرك مدعوماً بصدقك، معروفاً بين الناس بعلمك وفعلك.

_ الآن أفهم يا خان جري كيف تكسب لعبة الكعوب _ قال مرجان بلهجة لا تعرف أهي عتاب أم مديح _ إن كنت ترجوني فسنلعب لعبة أخيرة؛ هل أنت ماهر في الحساب؟

ـ كيف لي أن أزعم أني عاجز في عدِّ الكعوب، قال فجأة ثم أصلح صوته خجلاً من امتداحه نفسه ـ ولكن جوابي سيكون على قدر سؤالك.

ـ اسمع إذن: احفظ في ذاكرتك كل عدد أذكره ولا تشرد عنه: اقترب عشرة فرسان من شجرة تفاح: قطف الفارس الأول تفاحة، والثاني تفاحتين، والثالث ثلاثاً... والعاشر عشراً؛ لماذا أنت فرح يا ولدي قبل أن أتم سؤالي؟

ـ كم قطف الفرسان العشرة؟ هذا هو السؤال. لم يتمالك خان جري أن قال.

ـ من أين تعرف؟ سأل مرجان.

ـ هذه مسألة علمتني إياها الجدة من زمان، لن تستطيع جمع ثروة وأنت لا تعرف الحساب.

ـ تقول لك الحق؛ ما جواب السؤال؟

ـ خمس وخمسون تفاحة.

ـ أحسنت لم تخطئ.

ـ ولكن لم يقدموا لنا ـ كما كانت جدتي تقول ـ تفاحة واحدة. اختتم خان جري بمزحة سمعها، وضحك الاثنان من قلبيهما.

ومع أن الأتاليك وربيبه كانا جالسين يتمازحان ويتشاركان الأحاجي بحرارة وود، فإن مرجان لا ينسى الأشرار الذين هاجموا بيته والذين قطعوا طريق ضيفيه؛ فإن أضيفَ إلى هذا كله شاراتُ محمد جري الروسية لم تعد هواجسه المتضاربة تطيق الانحباس في صدره. يشفق على ربيبه الذكي الذي ينزّهه عن أن يسلك سلوك والده، ولا يعرف كيف سيتصرف مع أحداث المستقبل الغامض الذي بانتظاره.

نعيش ونحن لا نعرف أين سنتجه في العالم ولا ماذا سيصيبنا. في حرب بزيقوه كان العدو الذي أشهرنا في وجهه السلاح واضحاً وهو سلوك الأمراء والأسر المتنفذة. وقد بقيت هذه الحرب ندبةً في قلوبنا حتى بعد أن انتهينا منها. صحيح ما يقولونه " لا تعرف الخير ما لم تجرب الشر " وأصحُّ منه قولهم " لا يُحشُّ العشب من جانب الطريق المغبرّ " و" الشجرة التي تصيبها آفة لا تحمل ورقاً ". ما أعجب تركيبتنا نحن الأديغة! نحل قضايا ليست بقضايانا، وقضايانا يحلها لنا غيرنا. يجتمع ثلاثة منا فنمدح أنفسنا، وحين يبقى اثنان يغتابان الثالث. وقد يكون هذا وراء عدم امتلاكنا دولة وسلطاناً، والسببَ في أننا نعيش قرية قرية وأسرة أسرة، ولا يتفق عرق مع آخر، ولهذا ربما تتنازع علينا الدول الغريبة. يكفي كيف استقبلَنا السلطان التركي في العام الماضي أنا وأباته بسلني لتعرف أن كل ما يصيبنا جدير بالتفكير. رجانا قائلاً: لا تدَعوا روسيا تدخل أرضكم كما فعل البجدوغ المسالمون؛ جابِهوها ولا تسمحوا لها أن تخدعكم. وحين سألناه: ماذا ستقدمون أنتم لنا؟ همس لنا بلسان معسول وابتسامة متملقة: سنساعدكم خِفية بالسلاح والأفكار. والأعجب من هذا كله هو أن هذا الذي لا علاقة له بنا والذي يرجونا ألا نفشي سره يطلب منا أن نبحث له عن شخص مناسب يكون سلطاناً علينا، ويدفع أباته أن يقول: لن تجد عند أحد رجولة كالتي

عندي. ويجعلني أعتبر هذا مديحاً بالنفس من جانب صديقي الأصغر، فنسمح للسلطان التركي أن يدخل بيننا ونصبح نحن عدوين. حسناً؛ لنقل إني كنت متوتراً وإني كنت السبب في ما حدث! ألست الأكبر عمراً؟ لماذا لا يسامحني بعد أكثر من سنة على ما فعلته وأذعته عنه؟ هذه مشكلتنا نحن الأديغة: لا تسامُح بيننا. نقف حجر عثرة في طريق من يتفوق علينا. لا نستطيع أن نتقبّله، ننظر إليه كما لوأنه أعرج أوأحول أو أشلّ اليد. نقول: من،بالقياس إليّ، هذا الذي ساندوه فسفّروه ؟ إنه ضيّق التفكير فقير مغلوب على أمره، فنهمس من وراء ظهره نتصيّد اليوم الذي سيسقط فيه لنشمت به.

ــ يا مرجان انظر إلى قمة الجبل!

ــ أرى يا ولدي؛ هل أفزعك الفرسان؟

ــ ولماذا؟ أراهم ينزلون إلى السفح.

قال مرجان كأنه غير مهتم:

ــ وأنا أظن ذلك.

ولكن قلقه بدا مما أضاف إلى كلامه:

ــ إن قلت إنهما والدك المحترم وشواي فهم ثلاثة. ثم إنهما لم يكونا ينويان العودة.

ــ ليس بينهم المحترم محمد جري ــ قال خان جري وقد وضح من صوته سروره بذكر اسم والده وشهد على غيابه: ثم إن حصانه الكستناوي ليس بينهم.

قال الأتاليك متعجباً مما سمع ومحاولاً ألا يُحرج ربيبه الذي نطق اسم والده صريحاً، ومصدقاً كلامه، ومتظاهراً بأنه يسأل هو أيضاً:

ــ صحيح. عيناك أحدُّ من عينيّ، وملاحظتك دقيقة؛ من هؤلاء يا ترى؟

ــ الفارس المتوسط هو أباته بسلني.

فضحت لهجة عتاب مرجان ارتياحه لما سمع ولو أنه كان جازماً:

ــ هذا مستحيل يا خان جري. أباته بسلني لم يعرّج على حائط بيتي، بل لم تطأ قدمه قريتي منذ سنة. إنه يقاطعنا. إن كان حقاً هو من ذكرت اسمه فالبيت الذي سيتجه إليه ماراً من أمام بيتي... ألم يكف يا بيتمال ما كان بيننا من جفاء...

VI

تبدأ دار الأمير الواسعة التي خدعتها شمس الصيف الحارة تقف على قدميها مع انحدار الشمس. ومع أنها تحتاج إلى ما يقرب من نصف ساعة لتستعيد وعيها فإن سيدة الدار الكبرى قانتات تكسر هذا الخدر. تفتح قانتات التي تفترش بساطاً رقيقاً على الأرض الباردة عينيها في الموعد الدائم لها. تُهوِّي بضع مرات بالمروحة.ثم تنادي الخادمة بلهجة تخلو من أي خشونة أو عتب:

ــ يا سيسور افتحي مصراع النافذة؛ متِّعينا بشيء من أشعة الشمس!

وحين تفتح سيسور المصراع ترفع الإبريق والطشت النحاسيين اللامعين، وبعد أن تبرِّد الوجه الأسمر النحيف القوي الخالي من التجاعيد تسألها كما في كل مرة:

_ أليست دارة الأمير في سلام يا سيسور؟

_ بسلام وراحة. تجيب الفتاة التي تمشط لها شعرها الخفيف.

_ والقرية والطبيعة والعالم؟

_ والقرية في سلام، والطبيعة لطيفة.

_ أضيفي إلى ما تقولين دائماً يا سيسور: بفضل الله. لا تنسي فضله!

تكرر سيسور جوابها:

_ بفضل الله القرية في سلام، والطبيعة لطيفة.

_ هكذا يجب أن تقولي يا سيسور! نحن أمّة الله، فضله علينا كبير. الله الكبير هو من جعل الناس يقولون: من ينوِ خيراً يلقَ خيراً. والآن لفّي لي ضفيرتي الخفيفة على رأسي لأتوضّأ. سأقف أمام الله الكبير الذي سينظر إلينا بعين الرحمة، وأعملُ الخير له. شكراً يا سيسور، يدك لطيفة عليّ، وأنا راضية عنك. لا يمكن أن يُصدِّق أحد أنك رُبِّيت في بيت فلاح: لسانك مهذب، ويدك ماهرة ورشيقة. هنيئاً لمن ستكونين من نصيبه وتؤلفين معه أسرته!

_ شكراً يا سيدة الدار على تقديرك لي. قالت سيسور التي انحنت بقامة ممشوقة لتلتقط الإبريق والطشت بخدين مورَّدين _ يُخجلني الإطراء الذي لا أستحقه.

_ أنا مرتاحة لخجلك،ولكني لا أدّعي ما ليس فيك يا سيسور.

وما إن تجاوزت الخادمة عتبة البيت حتى نادتها قانتات وقد اعتصر قلبها:

_ لوكان عندي ولد، ليس عندي لسوء حظي، لكنت أوصيته بكِ دون اعتبار لما سيقوله الأمراء والنبلاء. ولكني لن أدع شواي يفكر في غيرك سواء أطاعني أم لم يطعني. وإن لم يطعني تبرّأت منه منذ ذلك اليوم.

حين وقفت سيسور على مصطبة البيت كانت دارة الأمير الواسعة هادئة مصداقاً لكلامها. وهناك باتجاه الحديقة في جناح المواشي المطل على الشارع بضعة موالٍ يجولون: أحدهم يجلس في موقع القيادة العالي من العربة، والثاني يشرف عليه، والآخر يلمُّ ما تناثر من الحشيش إلى الكومة. ومن ورشة الحدادة المطلة على الطرف البعيد للإسطبل تسمع أصوات طَرْقٍ، ودخان الفحم الخشبي يتصاعد من فوقه رقيقاً بحيث لا تكاد تراه. واللون الأخضر يتصاعد من حقل الذرة الذي يبدأ من مهجع المولى العازب المقابل لغرفة الأمير. ونسيم العصر الرفيق يداعب أوراقها كلها. ومع أن القرية هادئة فلغط الصبيان المستغرقين في اللعب يرتفع من القريةِ المجاورة وبابِ المدينة القريبة من الجبل. وتسمع أصداء أصوات العجول المتلهفة إلى عودة أمهاتها من المرعى. والجبال المتعايشة بصمت في الطبيعة تبدو من جهة البحر الأسود. والغيوم الخفيفة التائهة في كبد السماء لا تريد إزعاج الشمس المنحدرة إلى مغربها.

تبدو أشعة الشمس بقعاً كأكف الكلاب من خلال عناقيد العنب التي تسلقت قضبان الحديد الممدودة على الأعمدة، وغطت السقيفة الأمامية للبيت. وخيّمت على المقعد الملاصق للسور من الخلف.

ألقت سيسور نظرة على ما أنجزته من عمل راضية: الأرض تحت العريشة نظيفة تماماً، والردهة التي تفوح منها رائحة البرودة المنعشة مزينةٌ ببقع من ماء الإبريق متداخلة على نحو جميل.

عناقيد العنب الوليدة التي ستمتلئ حلاوة بعد شهر أو اثنين لا تنوء بها الأغصان الدقيقة. وعندما يحين موسمها فتثقل سيعلّقها شواي. قالت سيسور في نفسها. ما أخبار شواي وصاحبه الآن يا ترى؟ سافر مع المحترم محمد جري وفي ذهنه أن يكاشفه بما لا يسره من سيرته. لا ترو خبراً لست متأكداً من صحته! ستتسبب في خصومات وأحزان! قلت له: ستفقد المحترم الذي يعاملك بحسنى، ولكن لا أعرف إن كان سيسمع كلامي. إن حاولت أن ترتب الأمور التي عجز عنها غيرك مأخوذاً بغيرتك القومية التي لا فائدة فيها لك والتي فُقِدت فلن ينوبك إلا العيب. ليست هذه الأفكار وليدة معاملة سيئة لأني مثلُك خادمةٌ على عتبة بيتهم منذ طفولتي، لا أتذكر أنهم أهانوني طوال عمري دون سبب، ولم يوجهوا إلي كلمة لا أستحقها. وأنت ترعاك سيدة البيت قانتات كأنها ولدتك، وحين لا تراك تشتاق إليك. انظرْ، ولو لم يمض على خروجكما إلا ثلاثة أيام، بدأت تتحدث عنك قبل أن تتجاوزا ظاهر القرية حتى ليُخيَّل إلي أنها تحبك أكثر من ابن أخيها الأكبر.

_ ماذا يا سيسور؟ أنت مرتاحة لِما فعلتِ؟

سألتها بيكا السيدةُ الصغرى للبيت أمُّ خان جري التي ظهرت من ورائها وطلاقةُ وجهها تشرح القلب. مدحتها " بما يجري على اللسان وليس في القلب ": قالت لها: " طرّزتِ الأرض تطريزاً جميلاً بماء الإبريق ورسمت به صوراً جميلة. أثبتِّ أنك ماهرة في فن التطريز الذي درّبتكِ عليه السيدة الكبرى.

_ وأنت أيضاً لك حصة في هذا الفضل. شهدت وجنتاها المتوردتان على سرورها بما سمعته، وقالت مبرزة أن فضلها لم يكن بلا ثمن.

_ وما شأني أنا بهذا يا سيسور؟ لم تكوني أكبر من خان جري الآن حين دخلتُ هذا البيت زوجة، وكنتِ وقتها صبية ماهرة في التطريز.

_ لم تخطئي يا بيكا _ قالت سيسور وقد نسيت موضوع التطريز حين سمعت اسم الصبي _ أنا أكبر من خان جري باثني عشر عاماً. عندما يعود المحترم سيطلعنا على أخبار خان جري الغالي الصغير. اشتقنا إليه ولو لم يمض الكثير على آخر زيارة له إلينا.

_ يا حسرتي! نكلف الأغراب بتربية أولادنا مغْضين عن حلاوة الحياة بهم. والمشكلة هي أن مكانيَ خان وسعيد بعيدان جداً. فضحت كلماتها ما يعتمل في صدر الأم.

_ لا أفهم ماذا يقصد الأديغة بالأتاليك، قالت سيسور.

ـ إياك أن تسمعك السيدة الكبرى! قالت بيكا ملتفتة بسرعة إلى الوراء. لن تقبل هذا الكلام. ثم همست لها مفرغة كل ما في قلبها:

ـ لولا السيدة الكبرى لكان محمد جري استرجع خان الصغير منذ زمن بعيد. لا أظننا سنتحمل بُعده سنة أخرى.

ونظرت باتجاه الباب:

ـ يا سيسور انفضي الغبار عن المقعد الذي بجوار الباب الصغير فالسيدة الكبرى تريد الخروج من الغرفة، والشمس لم تعد مؤذية الآن.

خرجت قانتات السيدة الكبرى من الغرفة حاملة العصا الموشاة بالفضة والتي تلامس الأرض بخفّة، ووطئت المصطبة متمهلة حريصة ألا تحني قامتها. وسألتها:

ـ هل مسحوا لي المقعد يا كَنّتي؟

ـ أجل أيتها السيدة الكبرى، والشمس لطيفة.

ـ وأنا قلت: لن أحرم نفسي من حلاوة المساء فخرجت. يا سيسور اذهبي وائتيني بمروحتي الملونة، نسيتها، المروحة المرقّطة. وليوقفِ الحداد طرْقَه! يكفي أنه يعمل طوال النهار فلا يُصِمَّنا بضجيجه في هذا المساء الجميل! نحبس أنفسنا في النهار بالنوافذ المغلقة، فنقطع الماء والهواء عنا، ونحرم أنفسنا من كل رَوح. طلبت منك أن تحضري المروحة يا سيسور. أهناك ما هو أحلى من نسيم المساء؟ عذوبة نهر بشزة تهزم أشعة الشمس الغاربة. لا تقفي في حضرتي، اجلسي! ما الفائدة في أن أُسعد نفسي الآن، سعدت خلال حياة أمي وأبي. لا أقول إني تعيسة. المحترم محمد جري قلبه ملهوف دائماً علي، ارتحت إليه في شيخوختي. وأنا راضية عن الزوجة التي اختارها أخيراً بيكا. ليسعدهما الله معاً، وليحفظ حياة أولادهما الثلاثة، وليكثر نسل الأسرة بهما! أمّا من لم أتفق معها ولم أجد طريقة للتصرف معها فهي أم قرم جري الولد الأكبر التي عاشت معنا بضع سنين، وإلى الآن ما تزال تحمِّلنا الوزر. ومهما فعلنا لأجلها ومهما قلنا ووضعناها في عيوننا وقلوبنا فقد استطاعت أن تنتزع منا قرم جري. ومن عام إلى عام، ومع تباعُد زياراته لنا، تمكنتْ من أن تبعده عنا.

قالت سيسور لنفسها: كيف انحلّ اليوم لسان قانتات السيدة الكبرى من عقاله على غير عادتها؟ هذه المرأة التي تتحدث عنها، لا أريد أن أنطق اسمها، بالقياس إلى بيكا لم تكن تهتم إلا بنفسها ولا تحترم أحداً. كانت متعجرفة وعنيفة، معي ومع كل الموالي وكل الناس، قاسية دون رحمة. ليس معنا فحسب، بل كان يبدو من اهتمامها بأناقتها أنها لا تحترم زوجها. تجلس إلى المرآة دائماً تعتني بحاجبيها، تنتفهما وتحدّ حوافهما، لا تدَعُني أُخرج يدي من شعرها. تقضي النهار كله وهي تطلب مني أن أضفره ثم أن أحله. ثم تعتب علي لأني لا أدلك ظهرها جيداً، تتهمني بأني آلمتها فتُبرِمني. وكم مرة ضربتني على ظهري وكم قرصتني! ولكنّ مَن لم تقدر عليها كانت السيدة الكبرى. لم تكن قانتات تسمح لها بأي تهرُّب من واجباتها

مهما حاولت. ثم أرسلتها إلى بيت أهلها مع أنها استولت منهم على كثير من المال. ولهذا فمهما كانت طباع هذه العجوز فليست أسوأ من تلك التي طُلِّقت. أحبها وألبّي كل ما هو مطلوب مني وما ليس مطلوباً.

_ ماذا يا سيسور؛ ألا تحبين ما أرويه؟ لا تقولين شيئاً! سألت قانتات وهي لا تعرف سبب امتناع الفتاة التي صارت في سن الزواج عن الإسهام بخير أو بشر في ذكرياتها _ وأنتِ وجدَتْكِ فتاةً صغيرة فذقْتِ معها المرّ. ثم اختتمتْ ووجهُها يهشّ بما تعدّه بديهياً عند من تحدّثه: لحسن حظكم أني كنت سنداً لكم جميعاً. ما الذي جعلهم يقولون " الكنة الشريرة تقهر الحماة" و "من لا تصلحْ كنة تبقَ بلا منزل" و"العود الذي لن يشعل ناراً يلمع رأسه فحسبُ "؟ لحسن حظنا أننا خلصناه من هذه العنيدة قليلة التربية التي تخرب،لا بيت الأسرة فحسب، بل بيوت مواليها أيضاً. كانت امرأة تستحق بنطال رجل وقبعته. ليغفر لي الله ما أذنبت بحق قرم جري ولو أننا لا نظلم أمه بكلامنا. أين نذهب بهذا السيئ الحظ قرم؟ هو في دمنا، ولم تفارقه ملامحنا، ويحمل اسم عائلتنا وشارتها.

_ لماذا لا أريد حديثك أيتها السيدة الأم، أعرف الكثير مما أستطيع إضافته ولكني لا أريد أن أتذكر من سببت لي العذاب في طفولتي. سامحيني!

_ حقاً أتفهّمك يا بنتي!

خرج الصبي الصغير الذي بين السابعة والثامنة من عمره مسرعاً من باب الدار على حصان خشبي. ودون أن يلتفت إلى المرأتين وضع كفه على جبينه بحيث تحميه من أشعة الشمس، نظر إلى قمم الجبال المتجاورة التي تكتسي حمرة من الشمس الغاربة، وهرب هامزاً حصانه الخشبي.

_ انظروا كيف يفعل! قالت قانتات. ثم صاحت وراءه: يا عادل جري أين تذهب؟

_ يا جدتي لا تناديني! أنا ماض إلى الحملة الحربية!

_ قل لي أين تذهب؛ أبوك لا يسافر دون أن يخبرني إلى أين.

_ سأقطع نهر بشزة سباحة، ومنه إلى عند القوزاق.

_ وأنت أيضاً هل هواك في ذاك الاتجاه يا بيتمال؟ قالت قانتات الآن دون مزاح. ارجع حالاً سأعطيك من الحلوى.

ولما أعطوه حلوى ملفوفة بورق جميل رجع الصبي والتحق بالدار.

_ وهذا أيضاً يجب أن يربيه أتاليك ما. قالت قانتات بعد قليل. وإلا أصبح فوضوياً عديم التربية.

_ خان جري وسعيد جري يربيهما الأتاليك ونحن مشتاقان إليهما،لم تستطع سيسور كتم قلقها، فإن سلّمنا عادل جري أيضاً إلى مربٍّ لا أعرف...

_ ما الأمر يا سيسور؟ أصففت أنت أيضاً إلى جانب من يعارضونني؟ أعرف ما يريد محمد جري وبيكا والموالي.

إن كنتم تريدون أن تلعبوا معه أوتلاطفوه، تريدون التخفيف عما في نفوسكم من الشوق، ففي الحوانيت يبيعون الدمى فاشتريا‌ها أوخيطاها بأنفسكما.من يلبسون القبعات أو يلبسن أغطية الرأس، أعني أولاد الأمراء والنبلاء وبناتهم، في السن التي يتعلمون فيها كيف يأكلون وحدهم ويلبسون ويتدبرون أمورهم، يربونهم على عادات وتقاليد صارمة لا مكان فيها للمجاملة والتسامح، في أسرة أتاليك، بعيدين عن ألسنة آبائهم وأمهاتهم الحلوة، وهكذا يصبحون بشراً بمعنى الكلمة، وهذا قرار لا نقاش فيه بالنسبة للأولاد. ولو كنت واثقة أنهم سيسمعون كلامي لكلفت الأتاليك بأن يربوا البنات أيضاً متخلية عن عواطفي، ولكن قلوب الأمهات والآباء في هذه الأيام رقيقة. هذا ما رُبّينا عليه في شأن العادات والتقاليد الأديغية. ولم يختطفنا أحد أو يأكلنا لأننا غائبات عن رعاية آبائنا وأمهاتنا.

_ ولكن إن انتزعت طفلاً من حضن أمه وأبيه...

_ لن يحدث له شيء _ بترت قانتات السيدة الكبرى كلام سيسور _ كما يقال " قائمة البقرة لا تقتل العجل " سيحبونك أكثر. انظري إلى عادل جري، لشدة ما دللناه،لم يعد يسمع كلامنا. لو كان لهذا الولد الطائش أتاليك لما تصرف هكذا.

_ وهل يمكن أن يعبس الأتاليك في وجه الطفل المكلف بتربيته؟

_ إن كان ربيبه عاقاً فلماذا لا يعبس في وجهه؟ لا ضير أن يصفع قفا رأسه أومؤخرتَه إن دعت الضرورة.كانت مربيتي أنا المرحومةُ شَمْسَت – ليُسعدها الله في رحابه!– عجوزاً ممتازة،رحيمة وقاسية وعادلة معاً. لم يكن يندر أن تضرب يدي مراراً، بل ورأسي، عندما أذهب بخيط القصب يميناً ويساراً على اللوحة فلا أجيد تطريزي. ولكن هذا لم يتسبب –كما ترين – في أن أصبح شلاَّء اليد أوعوجاء الرأس.

_ ولكن لن تكون يد الأم ويد الغريبة سواء. لم تسكت سيسور.

_ نعم، نعم. أفهم ما تريدين أن تقولي يا سيسور.لم أنس اضطهاد كنَّتنا لك في طفولتك. وأفهم أنك لهذا السبب قلقة على الأولاد. وإن أنت لم تقلقي عليهم فمن يقلق؟ نشأتِ معهم كإخوة صغار لك. لن يصل الأمر إلى ما تخافين منه يا بنتي. لن أقبل أن يمد أحدهم يده على أولادي دون ذنب. كوني على ثقة بهذا! ولا نتخذ أتاليكاً لا يودُّنا. اغفري لي يا سيسور؛ أتذكرين أمك وأباك؟

_ لا أذكر أماً أو أباً غيركم. تنهدت سيسور مخطوفة اللون.

_ نعم يا للحسرة! كيف لك أن تتذكري أمك وأباك! كنت رضيعة حين غرقا في نهر بشزة. وحسب ما يروون رمتك أمك من ظهر القارب حين انقلب بكم. ومن وقتها أنت تعيشين معنا يا بنتي. أظن أن أمك وأباك كانا يأتيان بك من مكان بعيد. ورحلا عن الدنيا دون أن نعرف اسميهما أواسمك أو اسم الأسرة. وحين أوصلوك إلى بيتنا انتظرنا طويلاً أن يسأل عنك أحد من أقاربك , وحين لم يحدث شيء من هذا سميناك سيسور، وصرت ابنتنا وربيبتنا. ربما كان الله قد قضى بما حدث.

_ شكراً لكم ورضي الله عنكم! لن أنسى فضلكم علي طوال عمري. اعتصر الحزن قلب سيسور وأسرعت بيدها إلى عينيها.

_ يا سيسور يا بنتيلا تبكي! لن أتحمل بكاءك. الإنسان يعيش على الأرض وهو يقول إن كان غنياً أم فقيراً: "الحزن يصبح اثنين والاثنان يصبحان ثلاثة". وهذا ما كان يقوله أبي وأمي. لا يحسبِ الإنسان نفسه على قيد الحياة إن لم تكن عنده ذكريات، سواء كانت سارة أم حزينة. ولا يحبسِ الإنسان فرحه أوحزنه في صدره. وإن لم يجد من يبوح له به فليجلس قبالة المخدة وليكاشفها! انظري يا سيسور! انظري هناك! أليس محمد جري ورفيقه هما العائدين؟ اذهبي وأخبري الكنة وحضِّرا للعائدين من السفر ماء الإبريق والطشت والطعام. رجعا بسرعة؛ لم أنتظرهما اليوم، ولا توقعتُ غداً.

نهضت قانتات السيدة الكبرى دون أن تهتز قامتها الرشيقة المستقيمة، وخطت بضع خطوات لتستقبلهما. وقالت لمن ترجلا أمامها ببضع خطوات ويدها على مقبض عكازتها الفضية:

_ السلام يا محمد جري. تفضلا! ما أخبار بلاد الشابسغ؟ ودون أن تنتظر الجواب، وحتى لا تحُرج الأب بسؤاله عن ابنه سألت شواي: ألم تقابلا خان جري يا شواي؟

_ طبعاً رأيناه طبعاً. كلمناه وكلَّمنا، وسأل عنك، وحمّلَنا سلامه إليك. ولم يبق أحد في دارة الأمير لم يسأل عنه.

_ طبعاً لا بد أن يسأل. وكيف حاله، أما يزال نحيفاً؟

_ لا، ليس هكذا _ ابتسم محمد جري بوجه متعب _ ليت أننا لا همّ لنا غيره!

VII

مع أن الوقت كان مبكراً بالنسبة لأسرة الأمير فإن صوت محمد جري دفع قانتات السيدة الكبرى إلى الخروج. لم يكن صوتاً يدعو إلى القلق، ومع ذلك فالحذر الذي تعلمته من الحياة في السنوات الأخيرة لم يسمح لها إلا أن تفعل هذا؛ فمن يدري من أين تأتي المصيبة؟

حين وطئت قانتات مصطبة الغرفة الطويلة رأت محمد جري وشواي واقفين بجانب الحصان الوحيد، غير بعيد عن الباب الصغير. تابعت محمد جري بعينيها مقدِّمة،كعادتها، عصاها الفضية، شاعرة بالحرج من مناداة الأمير الواضع إحدى قدميه في الركاب. وانتظرتهما عسى أن ينتبه إليها أحد المعتمرَين قبعةً. ولكنها لم تجد تفسيراً لسفر محمد جري وحده على غير العادة، بحثت عن حصان شواي، ونظرت صوب المربط وإلى إسطبل خيول الموالي فلم تجده.

كانت سيسورُ الوحيدةَ التي ترى ما يجري أمام الباب، تنشر الغسيل في الطرف الآخر من الدار متظاهرة أنها لا تعرف شيئاً مما تراه.

عندما تبوأ محمد جري سرج حصانه قال:

_ سأصل إلى مكان ما، لن أغيب طويلاً.

قلقت قانتات وأطلقت سعلة .

_ أنتِ يا قانتات؟ _ لجم محمد جري الحصان ناوياً الترجل _ لم أعرف أنك خرجتِ من الغرفة.

_ لا تتوقف يا محمد جري، تابع سفرك!

_ كيف حالك يا قانتات؛ كأنك قلقتِ الليلة؟

_ ليس إلى هذا الحد _ سمعت صوتك فخرجت من الغرفة _ وأنهت، دون أن تتريث، بلهجة عتاب خفيف: يقلقني أكثر أنك تسافر دون رفيق.

_ ليس بعيداً. لن أتجاوز قرية تغرغوي، سمعت أن حصاناً جيداً يباع هناك،لا أريد أن يفوتني _ ولم يفصح عن مقصده الحقيقي، لا لعمته ولا لمولاه_ واختتم مسرعاً بذريعة: سأنزه الحصان وأريد أن أخلو إلى نفسي لأنجز عملاً من أعمالي.

وعندما غاب محمد جري في منعطف الشارع توجهت قانتات إلى المصطبة. واستقبلها شواي بسرعة ليساعدها. توقفت قانتات أمام السلم العريض وقالت بلطف:

_ يكفي يا شواي، لا تجعلني أستعجل. لا أزال أعتمد بفضل الله على قوتي. إيه يا شواي، أمامي كثير من المهام لم أنجزها. أريد أن أكون مع محمد جري في طريقه وإن كنت وراءه. ويسرني أن أشهد فرح أحد أولاده، وإن كانوا الأربعة فهو الأفضل. أنت يا شواي لست غريباً عنا، أنت ابننا، ربيت بيننا، وأنت تتقاسم معنا أفراحنا وأحزاننا. وأفهم أن زمان زواجك يفوت. ما عليك إلا أن تخبرنا، ونحن حاضرون للتلبية. لن نجلس على مدخل الباب قبل طلوع النهار؛ اطلب منهم إخراج مقعدين فنجلسَ قليلاً في الهواء الطلق. أتسمعين يا سيسور؟ مقعدين!

لمحت قانتات السيدة الكبرى لشواي حين أحضرت سيسور المقعدين:

_ لماذا أنت واقف؟ خذ من الفتاة حِمْلَها!

نادت قانتات الفتاة ذات القوام الرشيق التي أُخذ منها المقعدان: يا بنتيهاتي لي غطاءَ رأسي الصوفيَّ الواسع وغطّي به ركبتيّ! البرد لا يفارقهما صيفاً وشتاءً، حماها الله. لماذا يقولون إذن "من يهرم يشعر بالبرد حتى في موسم الحصاد". قالت هذا وهي تعني نفسها بهذا المثل وتنهدت: قالوا هذا في من هو أو هي مثلي. لا تقل شيئاً يا شواي، تحاول أن تواسيني ولكن الإنسان لا بد أن يرضخ أخيراً للشيخوخة التي لا تستشير أحداً في قدومها. العجوز ونار الجذع العفن متشابهتان. أسمعت مثل هذا المأثور؟

_ سمعت. ولكن يقولون أيضاً: "من لا قديم له لا جديد له "

_ كأنك تريد أن تقول " آخر القديم أول الجديد "

_ وأظن قولهم " شرف الكبير وحظ الصغير " من هذا الباب.

_ لم تخطئ. أقسم بالله لقد فرّجتِ عني. وذكّرتني خان الصغير بسرور. يا ربي كم يحب هذا الصغير الكلام المأثور وتمارين النطق والأحاجي. كان في الثالثة عندما بدأ يعيد ما أقوله. يا ربي كنت رجوت الأتاليك

مرجان ــ ولا أظنه ينسى ــ وإن نسيها فسأحزن. سيصبح من الصعب عليك معرفة عالمك إن لم تعرف لغةَ قومِك وجوامعَ كَلِمِه وأفكارَه وأمانيَّه وآلامَه. أنا قلقة على الصبي الذي هو مع مربيه من هذه الناحية. وبالنسبة لخان جري فستكون هذه نقطة ضعفه.

ــ ثقي بالأتاليك مرجان يا قانتات! ــ قال شواي مبتسماً في نفسه ــ وأنت تعرفين هذا، يختتم مرجان كل كلمتين من حديثه بقول من هذا النوع. هذا ليس مدعاة للقلق، ليُبعدِ اللهُ عنا الأعظم ! ــ قال لنفسه وهو ينهي فجأة الحديث الذي دار بينهما مختتماً الكلام: لا يبدو أن لديها فكرة عن الفرسان الأشرار، كتم محمد جري الموضوع.

ــ ما الذي يجعلك تقول هذا الكلام يا شواي؟ أهناك ما يمكن أن يجلب لنا القلق؟ اعتدلت قانتات واقفة دون أن تبعد يديها النحيلتين عن العكازة الفضية، ورمته بنظرة حذرة.

ــ كنت أريد أن أقول إن الدنيا مسرح للأشرار، لا أنّ شراً بانتظارنا. لمح شواي إلى هاجس الأشرار دون أن يفصح عما في ذهنه.

ــ لا بأس إذن! لا تُخفِ عني شيئاً يا شواي! عالمنا عالم ثقيل وغامض. ليتك تعرف أين تتجه، أوبِم تصطدم، ومن سيهش في وجهك!

أنا سِري واضح. أما من يخفي سراً فهم أنتم ــ حدّث شواي نفسه ــ أيَّ طريقٍ قصدتِ بقولك: "كنت أود أن أرافق محمد جري في طريقه ولومشيتُ وراءه". إن كنتِ تقصدين ما لمّح لي إليه محمد جري بعد أن اصطدمنا بالأشرار في طريقنا إلى بلاد الشابسغ فقد اختلف طريقانا منذ زمان بعيد. ولكن لا أدري لماذا لم يخبرك المحترم محمد جري بالكلمات التي تلاسنّا بها. احتفظ كل منا بأفكاره. وإن كنت أيضاً تقولين هكذا فإن رأيي ورأيكم، ولو أنه سيسبب الحزن، ليسا متباعدين فقط بل هما متعارضان حقيقة. لا أريد أن أظلمك ولكن ليس لأول مرة يسافر المحترم وحده منذ عام. ولا أظنك دون أي فكرة عن المكان الذي يقصده. وإن كنت تتظاهرين بذلك فأنت تشكّين فيه. لا يليق بي أن أتكلم بسوء على الناس الذين أعيش في دارهم، وأجلس إلى مائدتهم، وأقيم في كنفهم.ولكن حين يصل الأمر إلى حرية الأديغة ومسألة البلاد فلن أراعي حرمة أحد مهما كان قريباً مني بروحه وبقلبه. ألا يكفي ما تسببتْ به صداقتكم مع قوزاق ماوراء نهر بشزة. ودفع جدكم أسلان جري حياته بسببهم. فإن كنتم ستسيرون على وصيته فالأرجح أن خراب بيتكم مرة أخرى ينتظركم. صحيح ما قالوه " من يخرج عن قومه لا يسند أحداً ".

اقتربت سيسور بخطا صامتة من الجالسَين قرب الحائط وقالت:

ــ فطورك جاهز أيتها السيدة الكبرى.

ــ حقاً يا سيسور! ــ هشّت قانتات في وجه سيسور، ثم نظرت بشيء من الخبث إلى شواي وقالت ما تريد قوله بسرعة حتى لا تسبب الحياء للشابين المتحابين روحاً وقلباً:

ـ يا سيسور أنا مرتاحة جداً في هذا الصباح الرائع فجيئيني بشاي القالمق[1] الذي أشربه عادة.

سُمع صوت عادل جري من الحديقة من جهة غرف الموالي. ركض من وراء البيت راكباً حصانه الخشبي يتبعه جرو كبير البطن، ووقف فجأة أمام البيت. لجم "حصانه " فأوقفه. وعوى الجرو فزعاً من رجل الصبي المرتفعة في الهواء، فمزحت معه قانتات:

ـ ما هذا؟ أجمح بك "الحصان "؟

ـ أجل يا جدتي! ألا ترين أيُّ حصان شموس هذا؟ ومرة أخرى جعل الصبي " حصانه " يقفز فوجدت قانتات شاهداً: أليس هكذا يا شواي؟ أنت خبير بالخيل؟

ـ إن كنت واثقة بي إلى هذا الحد فسأجيب ـ ابتسم شواي ـ أظن أنك قسوتَ عليه في شد اللجام، يعلّمون الحصان أن يقف بشَدّةٍ واحدة للّجام.

ـ هذا صحيح ولكني فوجئت بكم حين خرجت من وراء البيت. لم أعرف أنكم هنا.

ـ لم يكن تصرفك صحيحاً. عندما تركب الحصان انظر أمامك! ولا تنس جانبيك، وتحكّم في اللجام!

ـ ولكن يا شواي...

ـ يا عادل ـ لم تدع قانتات الصبي يكمل ما بدأه ـ العيب يحرقني. لا أعرف أين أذهب بنفسي.

ـ ماذا يا جدتي؟ هل أحزنك أحد؟ سأل فارس الحصان الخشبي مكتسياً طابع الرجال.

ـ طبعاً. لم تلق علينا ـ نحن الأكبرين ـ تحية الصباح. لو كان أخوك الأكبر خان جري مكانك ما نسي. وأنت لم يكن النسيان من عادتك، لا أعرف لماذا هذه المرة.

ـ صباح الخير ! نطق عادل جري فجأة كمن كان ينتظر هذا العتاب.

ـ أحسنت يا ولدي. لِيحقق الله لك كل خير في العالم! هذه طريقة ممتازة للسلام.

جلبت سيسور الإبريق والطشت أولاً لتغسل قانتات يديها، ثُم جاءت بالطعام.

ـ أظن أن موعد فطورك أيضاً قد حان يا شواي. لا تفوّته! قالت قبل أن تغسل يديها.

ـ ألن تسوق الخيول للشرب إلى نهر بشزة يا شواي؟ صاح عادل جري وراء المولى شواي.

ـ سأسوقها قبل أن تحمى الشمس.

ـ خذني معك!

ـ نعم إن أكلت جيداً.

ـ صبي على يدي قليلاً من الماء يا سيسور ـ يشمر عادل جري عن ساعديه كالرجال مسروراً بما سمعه.

ـ ألا يمكنك أن تخدم نفسك دون أن تطلب إلى أحد؟ سألت قانتات الصبي راضيةً عما سمعت، ملاحِظةً أن نبرة صوتها عالية بعض العلو، وكأنها خجلت من كلامها قليلاً ـ سألت قانتات السيدة الكبرى الصبي.

---

[1] شاي يتخذ من نبتة الحمّيض الجافة مع الحليب والبهارات، يبعث في الجسم الدفء. المترجم.

ـ يا جدتي من يقول لي: أنت من سلالة أمير؟

ـ أتذكَّر أني قلت شيئاً من هذا ـ ابتسمت قانتات وكأنها تقول لسيسور: أتسمعين ما يقوله؟

وأكل عادل جري ممسكاً باليمنى بملعقة عميقة من خشب البقس[1]، وباليسرى شلامه[2] ساخنة دون أن يرفع رأسه. ثم ختم طعامه بالحمد لله، ووضع ملعقته في الكأس المصنوعة من القصب. ولكنه لم يقم من المائدة بانتظار أن يقوم عنها الأكبر سناً رغم انشغال تفكيره بسقاية الأحصنة.

ـ الآن أنا راضية عنك، أكلت جيداً ـ قالت قانتات مبتسمة له، ولكن إن أردتَ أن آذن لك بالانصراف فعليك أن تلبي لي طلباً.

ـ وما هو؟

ـ تمرينُ النطق الذي لم نستطع حفظه ذلك اليوم؛ أعده علينا!

ـ يا جدتي إن كنت تقصدين " الشوك الشائك، الكشك الكاشش... " ـ قال عادل جري فجأة واختتم بذريعة للتملص ـ فالماهر في هذه التمارين وفي الأحاجي هو خان جري. وأنتم أرسلتموه إلى مكان بعيد؛ فتطلبون مني أن أنطقها لكم!

ـ يا حسرتي! من أين آتي الآن بخان جري؟ يربونه في أرض الشابسغ. كم اشتقت إليه؟ تنهدت قانتات السيدة الكبرى ناظرة إلى البعيد دون أن يهتز قوامها المعتدل ودون أن تحرك وجهها النحيل المتطاول المنسجم مع قامتها، ناسية الصبي الجالس أمامها والذي كانت تجاذبه الحديث، ثم مسحت دموعها بمنديلها الصغير.

واهتاج حزن عادل الصغير أيضاً فقام وعانق جدته:

ـ إن كنت تريدين يا جدتي حكيت لك التمرين المتعلق بالحصان الأبيض.

ـ أما قلت لي إنك لا تحب هذه التمارين؟ قالت قانتات مسرورة بما سمعت.

ـ لا أحبها ولكن يمكن أن أقولها: حصان صبوح صهل في الصباح...

ـ ما أشد سعادتي! أحسنت أسمعه لأول مرة. من علمك إياه يا ولدي؟

ـ خان جري ـ حين زارنا علمني إياه.

ـ صحيح، صحيح ـ وافقته العجوز ـ خان جري داهية في هذه التمارين وفي الأحاجي. ما حكيته لي أظنه من عند مرجان الأتاليك. صحيح ما يقولون " حتى من يصوغ السروج الذهبية يستشير الصبي الواقف على درّاسة الذرة ". انظر يا ولدي علمتَني ونحن نتجادل ما لم أكن أعلمه.

ـ إذن هل يمكنني أن أذهب مع شواي؟

---

[1] شجر من نوع الآس، صلب، تُصنع منه بعض الأدوات: المعجمان الشركسي والعربي

[2] طعام يتخذ من العجين المقلي بالزيت للمناسبات المستعجلة. (المترجم)

_ اذهب؛ ولكن لا تقترب من حافة النهر، ولا تفكر في الاستحمام!

بقيت قانتات السيدة الكبرى في الفناء، وأجفانها الهرمة المسدلة تختلج، ويداها النحيلتان المعتمدتان على العصا الفضية غاب عنهما الدم، والأصوات التي كانت تتتبّعها ابتعدت باتجاه نهر بشزة. والشمس التي تجاوزت الصباح بدأت تطل من بين أوراق الدوالي التي تغطي فناء دار الإمارة.

تملأ قريةُ لوستان حبله مكانها من الدنيا بأصوات متنوعة؛ من جهة الباب المفتوح على القرية يُسمع صوت سنّ المِحشات بالمطارق الخفيفة استعداداً للعمل، وأصوات أولاد يتلاعبون. وتتناغم معها أصوات بعض الكلاب. وصدرَ صوتُ احتجاج امرأة من القرية الجديدة ثم توقف. أما صوت الأكورديون فهو الذي لا يتعب في ذلك الاتجاه. وأصوات العجول اللهفى إلى أمهاتها ترتفع فجأة من حين إلى آخر من ضفة النهر، فتجيبها أصوات أخرى من ظاهر القرية. وليست قليلةً الديكةُ التي لم تنس طبيعتها فتصيح بأصوات متناغمة وغير متناغمة.

والأصوات المتنافرة للقوزاق الذين يعيشون على ضفة نهر بشزة اليمنى يحملها الجسر وإن لم تكن مفهومة.فإن أضيفت إليها أصوات البنادق والأغاني وسباقات الخيل أيام الآحاد فكأن قرية لوستان حبلة برمُّتها تحتشد على الضفة اليسرى للنهر. وليست قليلةً التهديداتُ المتبادلة عبر النهر بالقبضات، وأكثرُ منها التلويحاتُ بالسيوف والقامات[1]. وأحياناً مناوشات بالرصاص بين الضفتين وإن تباعدت الطلقات. ومثل هذه التوترات يحلها المسنون من الطرفين. ولا يعني هذا أن مُسِنّي الطرفين لا يتبادلون الكراهية، ولكنهم يغلّبون جانب العقل.

الجو اليوم جميل مسالم مهما كانت أفكار قانتات مضطربة متوترة. وليس عندها اليوم همّ إلا سفر محمد جري إلى البلدة القريبة وبقاء الولدين في رعاية الأتاليكين. ولا يعني هذا أنها لا تتألم لمصير قرم جري ولكنه الآن اتخذ مظهر الرجولة، وصار بإمكانه أن يعتمد على نفسه. ويتطلع إلى الجيش الروسي.

يا إلهي من سحرَنا حتى نصفّ إلى جانب الروس ليصبحوا أمل أسرتنا الذي لا يتزحزح؟ قالت قانتات السيدة الكبرى. كبارنا اتخذوا هذا الاتجاه فصار حلم صغارنا. إن كنا أخطأنا فاغفر لنا يا ربي. فإن قضيت علينا به فلن نتجاوز حكمك. ارحمنا ولا تحرمنا من رعايتك! ولكن لا تنتزعْنا من الأديغة الذين صرنا جزءاً من نسيجهم. فإن لم تكن ضرورةٌ فاترك في أحد الصبيان الأربعة شيئاً منا. ولمّا كان من ينشأ من بيننا بقلب أديغي صاف هو خان جري فامنحه العمر لخدمة قومه. ولمّا كنتَ يا إلهي من كتب على جبين الإنسان مصيره فلا تجعله يندم على ما يفعله مهما كتبت له! محمد جري متردد في ما فعل وأنا شاهدة عليه. هو مهموم وأنا كذلك. أخاف أن يكون جزاؤه وبيلاً في الوقت الذي يعتقد أنه يفعل ما فيه خير للأديغة.

[1] نوع من الخناجر المستقيمة أقصر من السيف، يُستعمل كثيراً في الرقص أيضاً. آثرنا المحافظة على الاسم في لغته: المترجم.

سُمعت أصوات خيول من الشارع. كان عادل الصغير في حجر شواي، وعند الباب قفز إلى الأرض واندفع إلى الدار.

ـ ما العجيب الذي رأيته يا عادل؟

ـ رأيت فرسان القوزاق ولوحت لهم بقبضتي.

ـ ولماذا يا حبيبي تتعرض لهم؟

ـ إذن لا يلوّحوا لنا هم أيضاً!

ـ وماذا تضرك تلويحاتهم؟

ـ لا يخيفونا! شواي كذلك بادلهم التهديد.

ـ ما كان يجب أن تردوا عليهم.

ـ لا يصفّروا لنا إذن!

ـ وهل صفّروا لكم؟

ـ نعم.

ـ يقولون " إن اعترضك المجنون فأعطه قبعتك وامضِ! "

ـ لن أعطيه.

ـ إن كنت عنيداً هكذا يا ولدي قتلك عنادك.

ـ لن أموت بسببه؛ أنا قوي.

ـ نعم يا ولدي نعم؛ أنت رجل طيب، قالت قانتات من أجل أن تموه كلامها، ثم أتبعت: ـ إذن لماذا كنت تقول قبل أيام " سأعبر نهر بشزة وألتحق بالقوزاق ".

ـ لن أقولها ثانية ـ غضب عادل وبدأ يبحث عن حصانه الخشبي ـ أين سرج حصاني؟ أريد أن أسافر إلى خان جري في الشابسغ.

كم يتشابه لابسو القبعات! كأنهم صُبّوا في قالب واحد؛ قالت قانتات ولاحقت الصبي الذي ركب حصانه الخشبي. ولكنها بدلاً من أن تبتسم له شعرت بحزن خفي، وبدأت الأفكار القريبة والبعيدة تتسابق إلى مخيلتها. وفوق كل هذه الأفكار كلها كان عميد آل سلطان الآن محمد جري.

***

لم يظهر محمد جري لا مع الفطور ولا الغداء ولا العشاء. ولم تُظهر قانتات التي لم تعد ترتاح في مكان، لا أمام الباب الصغير ولا في البيت ولا في الفناء، على حالها القلق، بل وجدت ما تشغل به نفسها إلى الغروب. وربما كان منظر الشمس الحمراء الكبيرة التي انحدرت هو ما هيّج وساوسها، فخرجت من الفِناء نافدة الصبر، ووقفت منتصبة إزاء الباب الصغير مستندة على عصاها الفضية. لم تقف طويلاً فقد خرج

محمد جري من وراء المنعطف. ولم يكن معه شواي الذي أرسلته وراءه. ولم يكن الحصان الذي سافر لشرائه مربوطاً إلى سرجه. ولم تتحرك قانتات حتى وقف الفارس أمام الباب ولم تحرف عنه نظرتها القلقة.

بعثت وِقفة عمته ونِظرتها القلقَ في نفس محمد جري، فقال مبرّئاً نفسه بعدما أبعد المولى الذي فوجئ بالمحترم الحصانَ:

_ شغلتُ بالكِ اليوم، سامحيني!

_ لم أكن وحدي؛ بل كل الأسرة. قالت هذا واستدارت قانتات ببطء وانصرفت، ودخلت غرفتها دون أن تهتم بمن يتبعها.

وبسرعة نفض محمد جري غبار السفر واغتسل. ثم دخل غرفة قانتات.

ما إن رأت ابن أخيها الأكبر واقفاً بين دفتي الباب حتى قامت قانتات عن مقعدها نصف قيام لمن يلبس القبعة وقالت:

_ تعال يا محمد جري تعال! اجلس قبالتي. ثم بصوت أشد جفافاً جزمت:

_ لن أسمح لك بعد اليوم أن تسافر وحدك!

_ لم يكن ما فعلتُه صواباً يا عمتنا الكبرى؛ اغفري لي! برّأ محمد جري نفسه أمام المرأة الموقَّرة في البيت التي بدأ قلبها يعود إلى هدوئه بفضل الكلمات التي يبرئ بها ذمته. والتمع وجهه المتعب بشيء من الطلاقة. ماكنت أريد، ولكن حدث ما لم أحسب حسابه، خدعتكم.

_ لم يكن هذا طبعك _ قالت قانتات السيدة الكبرى متعجبة مما تسمع، ورفعت من جديد وجهها النحيف المتطاول إليه مستعدة لما سيقال لها خيراً كان أم شراً. ونظرت إليه ثم سألته بسرعة _ أهناك شيء خطير؟ أسمعك يا محمد جري.

_ بحمد الله يبدو كل شيء هادئاً _ قطع محمد جري جوابه قبل أن ينهيه تماماً وصرح بما دفعه لأن يسافر وحده _ سافرت وحدي لأني لم أكن أريد أن يعرف أحد، لا شواي ولا غيره، خبر زيارتي للأتامان ماتفييف.

_ جفلت قانتات مرة أخرى وحسمت:

_ وهل أنا من بين من تسميهم " أحد "؟

_ لا يا عمتي؛ ما شأنك بهؤلاء؟ قصدت شواي وغيره من الموالي، وآخرين لا يطيقون أن ينظروا إلى الضفة الأخرى للنهر.

_ وهل ينطبق هذا على شواي أيضاً؟

_ من يدري؟ _ لم يصرح محمد جري لعمته بما في نفسه نحو شواي في الشهور الأخيرة، ليس هذا فحسب بل لم يجد من المناسب التلميح إليه _ إن احتفظتَ بسرك كان خيراً من أن يشاركك أحد في معرفته.

ـ هذا صحيح ولكن لا أريد أن تُدخل شواي في عداد هؤلاء ـ تنهدت قانتات السيدة الكبرى ـ يا بُؤْسَ أن لا يثقوا بك، أو لا يحترموك! إن كنا ننظر إلى شواي وإلى الموالي الآخرين في الدار هكذا فماذا سنقول لكل هؤلاء الناس المحيطين بنا الذين ينظرون إلينا شزراً؟ من الأفضل ألا يكون عندك أعداء، ولكن عالَمنا ليس هذا العالم؛ فما العمل؟ فعلتَ خيراً بأن ذهبت إلى قوزاق ما وراء النهر وحدك. ولكن لا تُخْفِ عني بعد اليوم ما تنوي فعله! والدك المرحوم، ولو أني كنت أخته الصغرى، لم يكن يفعل شيئاً دون إخباري. حين قرر أن يتجه إلى الجيش الروسي كنتُ أول من يستشيره رغم معرفته بمعارضتي. يا حسرتي! أصبح هذا بالنسبة لأخي المرحوم شيئاً من الماضي. عاش أجدادنا كقبعة كبيرة، ولكن فارغة:سلطان القرم النغوي متحامل علينا، وسلطان الترك حاقد، والأديغة لا يعترفون بنا. أين كان سيتجه جدك يا محمد جري ـ تهز قانتات رأسها متشنجة بين أفكارها، ناسية أنها ليست وحدها ـ ولكن أي أمل لنا يا بيتمال؟ نحن في دنيا مشؤومة، دنيا ثقيلة. نقول هذا فلا يحترموننا، ونقول ذاك فلا يفهموننا. هكذا يا محمد جري، هكذا! ثم ماذا قال لك القوزاق؟

ـ لا ضير فيهم؛ استقبلوني بترحيب. ظلت مائدتهم مفتوحة طوال النهار وما كان عندهم شاغل غيري.

ـ ليس هذا إلا عادة في استقبال الضيوف ـ قاطعت قانتات السيدة الكبرى كلام المحترم ثم سألت بصوت أشد جفافاً ـ لماذا زرتهم وماذا قالوا لك؟

ـ ألا يجب أن تزور حلفاءك أحياناً يا قانتات؟

ـ إن كنت جاهزاً لهذا فهو مناسب يا محمد جري.

ـ لا تلتفت إلى الوراء حيث لا إمكان للرجوع؛ ألستِ من تقول هذا يا عمتنا الكبرى؟

ـ يسرني أن تكون مقتنعاً به.

ـ ليس من السهل هدم أسس رجولة الأديغة.

ـ شكراً لك يا أخي الأصغر.

ـ وسأطلعك على ما قالوه لي وسألتِ عنه. قالوا لي: نحن نحتاجك لأنه ستكون أحداث مهمة في إقليم الشابسغ والأبزاخ قبل نهاية الشهر الأول من الخريف؛ فارجع إلى حيث يخدم جيشك. ثم إنهم مستاؤون من عصابات الأديغة التي تهاجمهم في الليل، ويهددوننا بأنهم سيردون عليهم بالمثل. ولأن الأتامان ماتفييف لا يسمح للقوزاق بهذا فإنهم يتجابهون، هو وهُم، سراً وعلانية. وليسوا قليلين من يتوجهون في هذا الموضوع إلى قائد الجيش يرمولوف. ويبدو امتعاض هذا الأخير من موقف الأتامان ماتفييف من خلال الأوامر التي يرسلها إليه.

اهتز طرف العصا الفضية التي تعتمد عليها يدا قانتات النحيلتان. وبدا كما لو أن خصرها النحيل قد انحنى قليلاً. ودارت أسئلتها المتلاحقة في رأسها غير عابئة بدقات قلبها المتسارعة. ولكنها لا تسأل عما هو أبعد

من هذه الأحداث. لا تسمح بأن يظهر في عينيها الضيقتين الحذرتين يأسُها مما سمعت. وتصبّر نفسها كأنها اعتادت سماع مثل هذه الأخبار. وتبدأ ما يقلقها بفكرة بعيدة:

_ ماذا تفعل إذن غير هذا يا محمد جري؟ ما الذي جعلهم يقولون " أنت مطيع لمن يمتلكك ". بل أتعجب كيف لم يطلبوا منك شيئاً إلى الآن. لا أفهم هذا الموعد الذي حددوه لك في الخريف وليس غداً أو بعد غد؛ أهو من قبيل إنسانيتهم؟ ربما ليسوا محتاجين إليك. وأضافت قانتات: وأنا لست مرتاحة إلى طريقة عبور نهر بشزة، ربما كانت أحد أسباب المصيبة الأخيرة لنا.

قال محمد جري في نفسه: لا أستطيع أن أقول هذا. لو حكيت لك كيف سألوا عما رأينا حين زرنا إقليم الشابسغ لزدت همومك يا عمتنا. والعجيب أنهم سألوا عما أعرف وما لا أعرف. يبدو أن جواسيسهم بين الأديغة؛ وإلا من أين يعرفون أن الأشرار هاجموا خان جري. ليس هذا ما يدهشني؛ فما الذي أوصل إلى المدينة أخبار الذين هاجمونا في الطريق؟ لا أحد غيري وغير شواي يعرف الخبر. أيكون شواي أخبرهم؟ كنت أكّدت عليه ألا يأتي على ذكر هذا الحادث. وحتى لو لم يكن راضياً عن قوزاق ما وراء النهر فهو موثوق لا يفشي سراً. ومع ذلك لا أستطيع أن أتكهن بما يمكن أن يفعل.

_ لا أستطيع أن أقول يا قانتات إنهم لا يحتاجونني _ صحا محمد جري من شروده _ ولكن إن لم يوقف الأديغة غاراتهم الليلية على القوزاق فلن تنتهي أمورنا بسلام على ما أظن. لا يخفي من اجتمعت بهم اليوم، وإن لم يكونوا واثقين مني تماماً، أنهم يستعدون بحجة العابرين لنهر بشزة.

_ كيف تكون بينهم إذن وهم لا يثقون بك ؟ لماذا إذن حالفوك؟

_ ربما كُرمى لوالدي... سأبقى معهم ماداموا يثقون بي. فإن انتهت ثقتهم بي فهو شأن آخر.

_ والأديغة؟

_ ألا يقولون " الله يقبل التائب "؟

_ يقولون، ولكن هذا سيكون صعباً على الأديغة _ جزمت قانتات السيدة الكبرى ثم أضافت بسرعة _ ما قلته لا يعجبني؛ أظن أنك تخفي عني شيئاً.

_ إن كنت تنظر إلي هكذا...

_ لا تقاطعني يا محمد جري _ قالت قانتات بصوت حازم وهي تسوي ظهرها شبه المنحني _ أنت تخفي عني شيئاً من يوم ما رجعت من أرض الشابسغ. وكذلك شواي.

_ ما به شواي؟ _ اضطرب محمد جري _ أيقول زوراً ؟ أيتصرف على نحو غير صحيح؟

_ لو كان الأمر هكذا...

_ ماذا إذن؟ أيكون السبب هو عدم اصطحابي له اليوم؟

_ أيظل تابعاً لك دائماً؟ _ وافقته قانتات على موضوع بقائه دون رفيق سفر ثم سحبت كلامها بسرعة: لا أعرف؛ منذ رجوعكما من الشابسغ لا تعجبني حالكما.

_ شواي أمامه أمور كثيرة تُهمه _ قال محمد جري ملمحاً إلى موضوع زواجه دون الإفصاح _ لماذا سيهتم برحلة الشابسغ؟ ولكن إن حكى لك شيئاً لم يعجبه في أرض الشابسغ فلا تخفيه عني!

_ لا أعرف يا حسرتي! لا أريد أن أدخل بينكما يا محمد جري.

VIII

مضى شهرا الصيف في حر لا ينتهي، حتى الليل أشدُّ وطئاً من النهار. وحين اقترب الخريف صار الصباح والمساء ألطف وأروح للنفس. وإذا صُبّ ماء البئر من أمام البيت إلى المقعد أمام الباب أصبح المكان مريحاً للنفس.

الطبيعة جميلة تشرح النفس. وأرض آل سلطان كباقي الجيران هادئة. تشهد أصوات كثيرة على نشاط قرية لوستان حبله وضجيج حياتها: صوت السندان يرتفع، والديكة تصيح مزهوة، وصهيل حصان شموس عبر الباب المطل على القرية، وصراع كلاب بحت أصواتها قرب النهر، وطفل يقطّع نياط القلب ببكائه على كتف أحدهم.

_ يا سيسور _ صاحت قانتات السيدة الكبرى من الغرفة _ بالله عليك، تكسبين ثواباً إن أعطيت هذا الطفل شيئاً من الحلوى؛ لا أطيق سماع صوته؛ أسكتيه!

" الفقير من له أولاد كثيرون، صِفْرُ اليدين كثُّ الشاربين" ربما شخص مثل المولى جارنا هو أصل هذا المثل _ قالت قانتات _ وأتبعته بعد قليل بقولهم " الفقير مغرم دائماً بالأولاد " يا ربي ما أخبار أولادنا نحن؟ من يُطلعني عليها؟ كلّفْنا أغراباً، وفي بلاد غريبة، بتربية خان جري وسعيد جري من أجل أن يعتمدا على نفسيهما. تجادلتُ مع سيسور في موضوع الأتاليك ولم نهتدِ إلى الصواب في المسألة؛ ولكنّ في رأيها بعضَ الحقيقة. فأيُّ بؤس أشدُّ من الوحدة؟ أضف إلى ذلك أنه ليس من السهل أن تحيا في أسرة غريبة. وعندما بقيتُ وحيدة في أسرة غريبة فهمت ماذا تعني القضية. ولكن ما العمل لا بد من تحمل ما قدّر الله. يا سيسور، يا بنتيلا تحكمي بسرعة! أنت أيضاً لن تهربي مما ينتظرك من القدر. نادرات هن ذوات الحجاب اللاتي لا ينتظرهن هذا المصير. وماذا سيتلو هذا؟ أخير أم شر؟ هذا هو الأصعب. ما أسعد من ستكونين من حظه! أنا واثقة من أن الأسرة التي ستؤسسينها ستنجو من كل ذمّ. لو كانت الأتاليكُ النساءُ اللواتي يربين أولادنا مثلَك ما خشيت أن يصيبهم أي سوء. صحيح أن الولدين من لحمي ولكن لا أعرف لماذا أشفق على خان جري؟ أيكون بُعد الشِّقة بيننا وبين أرض الشابسغ حيث يربى خان جري؟ وإذا كانت المنطقة التي يربون فيها سعيد جري هي منطقة البجدوغ القريبة فما العجيب؟ أليست الأسرة التي يعيش فيها غريبة عليه؟ حسناً لنقل: لا أعرف. مهما تألمت للاثنين فأنا لا أستطيع إلا أن أفكر في خان جري أولاً. ناهيك عن أن العلاقة بين محمد جري وشواي اللذين أوصيتهما بتفقده لا تعجبني؛ رجعا " وكأن سِحْلية مرّت بينهما ". أتعجب لِمَ يتجنبني شواي؛ لا يقترب من جواري إن لم أناده أو أطلبه. وإن سألتُ سيسور ابتسمتْ وغيرت الحديث:

_ يا كنتي بيكا _ نادت قانتات دون خشونة _ لماذا ليس في البيت أحد؟ أين أنتم طوال النهار؟

_ دخل عادل جري بسرعة:

_ هل ناديت يا جدتي؟

_ نعم يا ولدي _ أجابت قانتات راضية _ وتأملته فرحة مشبّهةً نظراته البريئة بنظرات خان جري، وطريقةَ سؤاله بأسئلة سعيد جري وهي تقول في نفسها: ما أسرع ما كبر خلال شهري الصيف، ، وكلمتْه كما تكلم أكبر الناس _ كنت أريد أمك، ولكن يمكن أن ينقضي طلبي بك، قولي للخدم أن يأتوني بكأس ماء.

_ ألا أستطيع أن آتيك به أنا ؟

_ ولماذا لا؟ أنت أحسن، ستكون أطيب لي.

شربت قانتات الكأس التي أحضرها عادل جري، ودَعَتِ اللهَ:

_ ليُطل الله عمرك يا ولدي! ليمدَّ الله في عمري حتى أراك رجلاً يُعِزُّك الناس كما الماء. والآن ابعث لي أمك _ تعالي يا كنتي تعالي! _ استقبلت قانتات السيدةُ الكبرى كنتَها بالفرح الذي كان يغمرها في هذه الساعة مسبوقاً بالعتاب: لم يطلّ أحد منكم طوال النهار؛ لحسن حظي عندي عادل الصغير، صار معتمدي الوحيد؛ كأن الحر أرهقكم فحبستم أنفسكم في الغرف المنعشة.

_ لا أيتها السيدة الكبرى! _ تجاهلت ملاحظة قانتات _ أخيط ثوباً جديداً لخان جري فحسب.

_ لا بأس إذن. ما الأخبار اليوم بإذن الله؟

_ القرية بسلام وراحة يا حماتي.

_ حسنٌ؛ ولكن ليس موضوع القرية ما يهمني _ ثم لم يطل بها الأمر أن قالت وقد غلب البرودُ الرقةَ التي كانت على وجهها وصوتها _ أسأل عما داخل الأسرة. يجب أن تكون الأسرة اهتمامكم الأول كما ربيتكم. إن كانت الأسرة مرتاحة وفي سلام كانت القرية وظاهرها والأقربون والأبعدون بخير. لماذا في رأيك يقولون " أن تعاديك قريتك أهون من أن تعاديك امرأتك "؟ لا أقصد _ لا سمح الله _ أنك امرأة سيئة ولكن الزوجة الجيدة هي مبدأ سلام الأسرة. كنت أسمع هذا المثل يقوله والدي كثيراً لوالدتي _ ليس لأنها لم تكن صالحة _ ليجعل الله مثواها الجنة! ما الأمر يا كنتي؟ لماذا أنت واقفة بجانب الأريكة؟ ألا تجلسين!

سرتْ ابتسامة رقيقة على وجه بيكا تعبّر بها، دون أن تقول شيئاً،عن أنها لا يجوز أن تجلس في حضرة السيدة الكبرى:

_ هذا هو طبعاً! قالت قانتات لنفسها تعقيباً على أفكارها _ أنا راضية عنك يا كنتي؛ ونحن أيضاً ربتنا شرعة الأديغة على هذا وكأنها تختبر صلابة سيقاننا. ما تفعلينه أمامي ستفعله كنّاتُكِ أمامك. إن شاء الله ترين خيرهم وتزوجينهم في حياتك. أين هو محمد جري يا كنة؟

_ فارقني صباحاً متوجهاً إلى حقل القمح لتفقده.

_ وحده؟

_ معه شواي.

_ وهو أيضاً أنا راضية عنه، إنه يسمع كلامي. في هذه الدنيا المضطربة لا يجوز أن تسافر وحدك حتى ضمن قريتك؛ " الشرير سيمزق طرف ثوبك ". ياكنتي ضعي المخدة الصغيرة وراء ظهري! ظهري المشؤوم _ ليحمه الله من المصيبة _ يتشنج. لم يكن هكذا في العام الماضي، العامَ فحسْبُ يؤلمني جداً. شكراً لك! ريّحْتْني يداك. الآن ستتحسن حالي. ياكنتي أريد أن أسألك: هل لاحظت في الأشهر الأخيرة شيئاً مريباً في سلوك شواي؟

_ إن لم يكن أوان زواجه يفوت _ قالت بيكا _ لا أرى في سلوكه شيئاً جديداً.

_ هكذا _ لم تكشف قانتات إن كان ما سمعته سَرّها _ فسألت من جديد:

_ أقبْلَ أن يسافرا إلى بلاد الشابسغ أم بعده لاحظت عليه هذا؟

_ لا أعرف، ولكن ليس شواي وحده بل أظن أن سيسور أيضاً تشعر بهذا.

_ آه ياكنة _ صرخت السيدة الكبرى الآن دون تصنُّع وهي تضع عصاها الفضية التي تعتمد عليها يداها النحيلتان _ ألا ذنب لنا ولو قليلاً في هذا الأمر؟ ما مضى كثيره سيمضي قليله. عندما تنتهي أعمال الريف على أبواب الخريف سنشهد خيرهما إن شاء الله. أقول هذا ولكن لا يعجبني اكتئاب شواي هذه الأيام. بعد عودته من الشابسغ حصراً لاحظت عليه هذا. ألم تسمعي شيئاً من محمد جري في هذا الموضوع على نحوٍ غيرِ مباشر؟

_ أخوك الأصغر أيتها السيدة الكبرى _ لم تنطق بيكا اسم زوجها حسب شرعة الأديغة _ وأنتِ تعرفين، لا يبوح بمثل هذه الأمور. أظن أن مصدر قلقه الوحيد الآن _ وهذا مجرد ظن _ هو التحاقه بالجيش الروسي.

_ لا فائدة ياكنتي في مناقشة ما لا يمكن التراجع عنه _ حسمت قانتات الموضوع ولكنها لم تستطع أن تخفي قلقها هي أيضاً _ أعرف ما يحرم محمد جري من الهدوء. نحن وابنه، ليتنا لم نغادر قريتنا الأصلية "غريفن "! ما الذي جاء بنا إلى لوستان حبله؟ رائحة قومنا التي كنا نشمها من بعيد؟ ولكن تلك الرائحة الأديغية تتنوع اليوم أنواعاً كثيرة. آهٍ كم كنا سعداء في قريتنا القديمة! كنا نعيش هناك دون أن ننسى روحنا القومية ولو أننا بعيدون عن الأديغة، مشتاقين إليهم. لم يسألنا أحد: أأنتم أديغة أم روس؟ لم يحتقرنا أحد.لم يهتم أحد بالشارة الروسية التي لبسها والدنا؛ أمن الحرير أم من الذهب. والآن نحن لسنا أديغة ولا نغوي ولا روساً. لا يغفرون لنا ما فعلنا، ولا يدَعون لنا الحرية لنفعل ما نشاء.

سُمع صوت عادل جري من المصطبة، ثم دخل البيت دون استعجال وبيده السوط مطوياً، وقال متوجهاً إلى أمه أكثر من جدته:

_ لا أفهم لماذا شواي غائب؟

_ ماذا يا ولدي _ ابتسمت قانتات _ هل اشتقت إليه؟

_ الخيل دون سقي والظهر اقترب.

_ صحيح يا حسرة! وأنا أيضاً قلقة لغيابهما.

_ لأنك مهمومة بغيابهما يا جدتي. لو كنت كبيراً مثل خان جري لأوردت الخيل.

_ أعرف أنك مشتاق إلى خان جري يا ولدي. ولا تنس سعيد جري! أخوك الأكبر الذي ولدته أمك. انتزعناهما منك وجعلناك تشتاق إليهما.

_ وعندي أخ أكبر منهما. قال عادل جري فجأة.

_ آه... _ رفعت قانتات السيدة الكبرى صوتها دون أن تفهم ما تسمع ناظرة إلى كنتها. ثم سرعان ما وعت إلى نفسها أمام الصبي _ صحيح عندك قرم جري أخوكم الأكبر وإن لم يعد يسكن معنا، وهو من الأسرة. ما الذي يجعلهم يقولون " القبر واسع حيث الإخوة كثيرون " يسعدني أنك لا تنسى إخوتك.

الآن فقط تذكرتْ قانتات التي كانت اكتسبت شيئاً من الأمل الذي تبعثه رابطة الأسرة، تذكرتْ ما كان يشغل الطفل. وتظاهرت بنوع من العتاب الصاخب كي تخفي انفعالها: يا صغيري المسكين ألم يبق في الدار من هو أكبر منك ليسقي الخيول؟

_ ولماذا لم يبق غيري؟ _ قال عادل جري وكأنه ينتظر هذا السؤال _: ولكن شواي لا يثق بالسائسين الأربعة.

_ أيأخذ معه الحصانين الآخرين بيده إن سافر مع والدك ؟

_ ماذا تقولين يا جدتي؟ عندما يركب شواي إلى مكان ما يترك الخيول للمولى قايمت.

_ وماذا ينتظر المولى قايمت إذن؟ أراحت قانتات السيدة الكبرى قلب الصغير. لماذا لا يوردها؟

_ المولى قايمت ذهب لبيع الملح يا جدتي.

_ صحيح، أرسلناه أمس _ وافقَتْه ثم سألت متعجبة _: وأنت تعرف هذا؟

_ نعم يا جدتي؛ كيف لا أعرف من يخرج من دارة الأمير؛ ألستُ من الأسرة؟

_ أحسنت يا ولدي، أرحتَ قلبي. هكذا يجب أن تحمي أسرتك ومُلكك وماشيتك. لحظة! أسمع صهيل حصان. أظن أن محمد جري ومن معه رجعوا.

_ قد يكونون جماعة شواي؟ قال عادل جري خارجاً من الغرفة مسرعاً: سنأخذ الخيول للشرب.

_ انظر كيف يتصرف هذا الدعيّ الصغير؟ _ قالت قانتات وحبها له يغلب عتابها الذي لخصته في قول مأثور " إن ابتسمت في وجه الصبي رأى في فمك قطعة جُبن ". دلّلناه حتى صار متعجرفاً. أنا أعرف إلام يحتاج؛ إلى أتاليك حازم مثل خورلوقوه مرجان. فجأة حنّت قانتات إلى خان جري. وعندما سُمع وقع أقدام محمد جري من جهة المصطبة أسرعت بيكا إلى الغرفة لأنها لا تجتمع بزوجها في حضرة السيدة الكبرى.

كان وجه محمد جري الذي دخل الغرفة، متكلفاً الرجولة، لابساً قناعاً من السرور، وكأنه شخص آخر، يخفي مأساة حدثت معه:

_ ماذا حدث لك يا محمد جري ليكن الله في عوني _ جفلت قانتات _ أأهانك أحد؟

_ والله لا أعرف كيف أصف لك ما جرى.

_ وأين شواي؟

_ انتهت علاقتنا أنا والمولى شواي _ قال محمد جري مهوِّناً ما حدث مع ابتسامة مصطنعة، ولكن كان واضحاً أن الكلام من خارج قلبه.

_ ماذا حدث لكما يا حسرتي؟

_ "البلسان يزهر، وكل إنسان يعود إلى أصله " هذا ما جرى بيننا. مضحك مبكٍ معاً أن يتصرف معك مولاك هكذا. قال لي " لن يجتمع قلب روسي وقلب أديغي " وولّى تاركاً إياي في البرية.

_ توقعت هذا _ تنهدت قانتات _ ولكن ما كنت أتوقع هذا من شواي البتة.

_ أتظنين يا عمتنا أن شعوره هذا نحونا وليدُ اليوم ؟

_ متى شككت فيه _ سألت قانتات غير مصدّقة.

_ كان قد كشف لي عن اعتراضه ونحن في طريقنا إلى الشابسغ.

_ لماذا لم تقل هذا إلى الآن؟ _ لمعت عينا قانتات _ ماذا ينقصه حتى يتدخل في شؤوننا؟

_ ما أهميته؟ _ تنهد محمد جري غير قادر على كظم حزنه رغم تظاهره بعدم الاهتمام به _ هذا الذي أحسنّا له كل هذا الإحسان أنكرَنا. لهذا يقولون " الكلب العاق والإنسان العاق سِيّان".

مسحت قانتات دموعها بمنديلها:

ولم يستطع محمد جري أن يتحمل ما رآه:

_ لا يستحق هذا الناكر للمعروف أن تذرفي دمعة واحدة يا عمتنا.

جلست قانتات بعض الوقت لا تحرك قامتها المنتصبة ثم قالت محركة رأسها:

_ يا حسرتي يا محمد جري؛ أتظن أني أبكي على شواي وحده؟ أبكي نفسي معه. منذ زمن بعيد أتوجس ما يحدث لنا الآن، لم يخطر شواي ببالي. حين كنا نسكن غريفين كان الذين يستغربون تحالف والدنا مع الروس قليلين. كانوا تكلموا في الموضوع ثم نسوه. والآن لا يقبلون منك ما تفعله. وستراهم في المستقبل يعيرونك بجدك. وما العمل إن كان زمان جدنا وزماننا مختلفين؟ بالنسبة لشواي وجدْتُني محرجة. قلت إنه يتيم ولو خرج من رحم امرأة غريبة فلا يجوز أن نتركه في العوز؛ فصار جزءاً من روحي منذ جئتَ به من سوق طوابسة في حضنك. لم أعرف إن كان سيتصرف معنا هكذا _ ثم غيرت ما قالته عن شواي بسرعة _ يا محمد جري أخي الأصغر، كما يقولون " قائمة البقرة لا تقتل العجل " لا تلُمْ شواي! إنه أحد المهمومين بحرية الأديغة. أين سيذهب؟ ربما يعود صباحاً وقد هدأت سَورة غضبه.

_ لن يخطو خطوة في دارة الأمير!

_ يا محمد جري يا أخي الأصغر..

_ تعرفين ماذا قال لي؟

_ ماذا قال لك؟

_ سأستأصل كتفيك اللتين تحملان الشارة الروسية.

_ ما أتعسني! صرخت قانتات السيدة الكبرى _ ألستُ أنا من ربى القاتل هكذا في حضنه ؟!

IX

انقضى الصيف وأقبل الخريف وثلاثة أشخاص فقط: محمد جري وقانتات وبيكا، يعرفون سر دارة الأمير. ولكن هذا الوقت الكئيب لم يفت على آل الخان دون أحداث: استطاع محمد جري في الشهر الذي سيلبس فيه شارته الروسية أن يسترجع ولديه خان جري وسعيد جري من المربيين استباقاً منه لأي جفاء محتمل بينه وبينهما. ومع أن محمد جري الذي لم يفصح لأقرب الناس إليه عن الهاجس الذي يجعله يفعل هذا احتفظ بالسر لنفسه فإن قانتات السيدة الكبرى للبيت لم يهدأ لها بال، وكأنما كانت على اتفاق غير معلن مع ابن أخيها حتى أعادت الصبيين إلى دار الأمير. كان ما تخاف عليه قانتات سراً؛ ولكن الموالي ظلوا يحرسون الصبيان متظاهرين، مع ذلك، بأنهم لا يفهمون ما يجري. وظل مسدس والدها المحشو على جنبها، وكذا سيفه قائلةً: من يعرف بمن تثق الآن؟

وبالقياس إلى أيام الخريف القلقة كانت قانتات اليوم مرتاحة. ولكن ما يقض مضجعها من هموم الدنيا شخصان: محمد جري والمولى شواي. أما الصبيان، كما تقول هي، فقد ضمتهم في كنفها واطمأنت. لم تكن مطمئنة تماماً كما تقول ولكنها كانت تصبّر نفسها؛ وكيف تطمئن وأنت مهموم بكون دار الأمير خالية، ويجعلك صوت الباب تجفل، والضجيج الذي يتصاعد من القرية يجعلك تفزع إلى مسدسك وسيفك؟! ومع ذلك فالاثنان اللذان يلبسان القبعة هما فوق كل هذه الأمور. فإن أضيفت مشكلة سيسور إليها زاد الهم هماً في قيامك وقعودك.

في الحقيقة لم تكن قضايا محمد جري كما توقعت قانتات، وكما يقولون" إن ظللت تتكلم في الموضوع نفسه تقرّحَ فمك" فهناك من تعجّب من شاراته ومن لم يتعجب. ومنذ أكثر من شهر يذهب في مهمته إلى إيكاترينودار يومياً ويعود. وأحياناً يغيب في الأسبوع ليلتين أو ثلاثاً هناك. وغالباً لا يضع شارته. لماذا بهذه الشارات تؤذي عيون " البجدوغ المسالمين " _ هكذا يدعوهم القوزاق _ وتقلق قلوبهم دون سبب ؟ هكذا تحاكم قانتات _ في رأيها _ مهمة محمد جري. ولا يخلو الأمر من أن تخطر لها أفكار أخرى. ولكن لم يعرف إلا المحترم والمولى شواي موضوعَ ابن أخيها الأكبر على حقيقته، وخبرَ الأشرار الذين تعرضوا لهما على الطريق، اللهم إلا إن قلنا إن عند الأتاليك مرجان شكاً ما، فلا أحد يعرف. ومن حسن حظ قانتات السيدة الكبرى أنهم لم يتخذوها مستودعاً لسرهم.

ومع ذلك قالت قانتات وقلبها على الصبية الذين استراح بعضهم إلى بعض: ماكان يجب أن نعود إلى أرض الأديغة في الوقت الذي نعرف فيه أننا تحالفنا مع الروس. ليتنا بقينا على الضفة الأخرى لنهر بشزة! وأنا أتحمل قسطاً من المسؤولية في هذا؛ ألححت على أسرتي بحجة أننا أصبحنا خارج مجتمع الأديغة، وأن لا حياة لنا ولا أمان دونهم.

أما المسكين محمد جري فقد أنسيته في السنتين الأخيرتين الأمر الذي أصدره بشأنه قيصر روسيا ناصحةً إياه بعدم الاستعجال. ماذا رأينا من سعادة في أرض الأديغة برجوعنا إليها؟ تُقتل أغنامنا وتُحرق حقولنا، ناهيك عن الجسر. وإن تجاوزت هذه الأمور فما أسوأ ما انكشف عنه شواي المولى الذي قدمت له روحي وقلبي! أقول هذا ولكن إن لم يكن الأمر كما أظن؟ فمحمد جري سريع الانفعال خلافاً لما يقتضيه عمره، لم يستطع كظم غيظه. أليس أميراً؟ أليس أكبر عمراً؟ استفزه كلام الأصغر منه عمراً , هل وصل تفكير شواي إلى المقارنة بين " القلب الروسي والقلب الأديغي "؟ خسرنا المولى الوحيد الذي كنت أثق به. أين هو الآن، أي سقف يُظلّه وأي حضن لجأ له؟ أيكون يغير مع عصابات الأديغة عبر نهر بشزة؟ هذا مستحيل! أن لا تنسى فورة غضبك في شهرين، أن لا تتذكر بشيء من العاطفة الدار التي ربيت فيها... لِننسَ هذا كله، ولنقلْ: نحن لسنا مشكلة؛ ولكن لا أعرف كيف يخون سيسور التي تبكيه بقلبها ليلاً ونهاراً. لا تهتمَّ بما قاله محمد جري من أنه لن يسمح لك أن تطأ أرض داره! أظنه ندم على ما قاله وإن كان يخجل أن يصرّح به " قائمة البقرة لا تقتل العجل ". لولم يبق غيري لما أغلق باب دارنا في وجهك. وتهديدُك بأن تجتثّ كتفيه اللتين تحملان الشارة لن يطاوعك قلبك على تنفيذه. ربما كانت فورة غضب أو زلة لسان. ولكن إن كنت تقصد حقاً كلامك وصدر من قلب عدو فلن أقبل منك. حرام عليك ما فعلتُ من معروف لأجلك.

ارتفع صوت الصِّبية في الغرفة المجاورة؛ فنادت قانتات:

_ يا سيسور أين أنت؟ لماذا حبس الأولاد أنفسهم في الغرفة؟ ليُنزّهْهم قايمت!

دخل عادل جري مسرعاً إلى الغرفة وعيناه تفلتان من محجريهما بدلاً من سيسور:

_ أناديتِ يا جدتي؟

_ ناديت لأنكم تصمونني بأصواتكم.

_ لستُ أنا _ قال فجأة مبرّئاً نفسه.

_ من إذن؟

_ أتعرفين يا جدتي ماذا يقول خان جري؟

_ إن قلت لي عرفت.

_ يقول: أنا أكبركم؛ أطيعوني!

_ أحسنَ القولَ إن قال هذا. لا ضير في كلامه!

_ ولكنه يطلب منا أن نسمع الحكاية دون أن نتحرك!

_ أيروي لكم حكايات؟

_ نعم. ويطلب منا تمارين نطق؛ وإن لم أعرف أجوبة أحاجيه ضربني على جبيني ثلاث مرات.

_ وكيف يتصرف سعيد جري؟ تتمنى قانتات أن تضحك ولكنها تصبر.

_ وكذلك سعيد جري يقول أنا أكبر منك فيتأمّر عليّ _ حنى عادل جري رأسه وفرك عينيه بقبضتيه يجفف دموعه. ثم بكى بكاء مصطنعاً بشفتين مختلجتين _ لماذا يا جدتي أعدتِهما إلى المنزل؟ خذ هذا وأعِدْ ذاك! لا يدَعونني أهدأ.

_ سأعرف ما أفعل بهما، لا يجوز هذا! سأنهرهما، تعال يا ولدي، اتركْ جانب الباب! _ حين ضمت قانتات الصبي إليها ارتفع بكاؤه بصوت أخشن _ صحيح يجرح أخواك مشاعرك. اسكت يا ولدي! لا تبكِ! لا تُرِهم ضعفك وإلا تسلطوا عليك أكثر وأكثر! دعني أجفف لك دموعك. حسناً الآن بدوتَ أقرب إلى الرجولة. لا تدع أحداً _ كائناً من كان _ يطّلع على تأثرك ! احرص على دموعك حتى لو جرحوك! ومهما كنت في موقف صعب... خذ هذه الحلوى! لن أطعم خان جري وسعيد جري منها شيئاً. أين هما الآن؟ يا سعيد جري...

دخل خان جري وسعيد جري الغرفة وعليهما قميصان ملونان، وبنطالان عريضان،كالذي يرتديه عادل جري، وزناران رفيعان، وقبعتان مدورتان من اللباد، وفي رجليهما حذاءان قماشيان رقيقان. وجلسا على السرير المنخفض مراعيين ترتيب العمر دون أن يعيرا اهتماماً للورقة المملوءة بالحلوى بيد عادل جري:

_ عادل جري عاتب عليكما _ دون أن يسمي أحداً منهما مع شيء من المزاح المصطنع في عينيها.

_ إن كان لا يعرف نفسه مذنباً فليعاتبْنا! _ قال خان جري متظاهراً بعدم الاهتمام.

_ نعم، نعم؟! قفز عادل جري من مكانه مستمداً الشجاعة من كنف جدته.

_ كفى يا عادل! يا لَسوء حظي؛ ما أقل صبرك! قالت الجدة.

_ ماذا يا جدتي؟ ألا تسمعين ما يقول خان جري؟

_ لم أسمع خان جري يقول ما لا يليق.

_ أما سمعت يا جدتي؟ يحمّلني المسؤولية!

_ سمعت ولكن أحب أن أعرف أيَّ مسؤولية يحمّلك؟

_ ليقلْ إن كان يعرف! دمدم عادل جري خافضاً رأسه.

_ أمن التهذيب أن تردّ على من يكبرك سناً؟ سأل خان جري برأسه الرفيع الشامخ.

_ ليُجبْ عادل جري على هذا! يا ولدي أمِنَ الأدبِ أن تناكد الأكبر؟

_ لا، قال بصعوبة مسمِّراً عينيه على أرض الغرفة.

_ أن لا تفعل ما يأمر به الأكبر؟! قال سعيد جري موافقاً أخاه.

_ أوامر الأكبر متنوعة _ لم تسكت قانتات على ما سمعت _ إن حاولتَ تنفيذ الأمر لاقيت ما يعمر بيتك وما يهدّه فأيّها..؟

تعثّر عادل جري غير عارف ما يقول.

_ هل فهمت الآن؟ جعلتِ الشماتةُ عادل جري يقفز.

_ مهلاً! لا تفقد صبرك! يا عادل جري _ قال خان جري بهدوء مستعملاً تعبير الشابسغ " لا تفقد صبرك " _ إن كان هذا هدفك أيها العنيد فسأريك ذنبك. لماذا لم تحلب كأس الماء حين طُلبت منك؟

_ هذا موضوع آخر _ قالت قانتات ونظرت إلى الصبي بجانبها وهي تلاطفه وتُفهمه أنها تسحب كلامها _ إن كنت فعلتَ شيئاً مثل هذا فلا تُعِدْه!

_ ولكن يا جدتي أمِن أجل كأس ماء يُصفع أحدٌ على قفا رأسه؟ _ وجد عادل جري ذريعة _ يدُ سعيد جري ثقيلة كالحديد!

_ يحق للأكبر إن لم تحمل كلامه محمل الجد أن يصفعك، هكذا شرعة الأديغة. والأفضل أن لا تتجاوز هذه الشرعة. ومن أجل ألا يدخل بينك وبين إخوتك الكبار شيء من هذا القبيل لِيحافظْ كلٌّ على ترتيبه في سلّم العمر! ولْيُذكِّرْ كلٌّ الآخرَ بما نسي! أتوقع منكم هذا، أن تتعاضدوا. إن لم تتكاتفوا فسيكون عالمنا الثقيل صعباً عليكم. يقولون "الأخوان حدان للقامة " وأنتم بحمد الله أربعة. فإن كبرتم كانت شيخوخة أبيكم سعيدة. وعن طريقكم سيكثر نسلُ آل سلطان بعون الله ورعايته، ويزيد عدد الأديغة. أما أنا فيا حسرتي! فإذا متُّ أرحْتموني في ضريحي. لِيُرِنِي اللهُ إياكم وقد صرتم رجالاً وتزوجتم في ظلي! وأي سعادة في الدنيا أعظم في عالم الأديغة من هذا يمكن أن أراه في هذه الدنيا المضطربة؟ انخفض صوت قانتات السيدة الكبرى فجأة وقد ملأ الحزن قلبها فتداعى، ثم رفعت رأسها خجلة مما جرى لها أمام الصبيان، وربتت على رأس الصبي الجالس بجانبها وقالت لهم:

_ اذهبوا إلى الهواء الطلق، العبوا! لا فائدة أن تبقوا إلى جانبي. لا تحرموا أنفسكم من هذا اليوم الخريفي الجميل. ولكن لا تبتعدوا عن الطريق كثيراً! واسمعوا كلام قايمت أو غيره! قِفا يا خان جري وسعيد جري لحظة! لن أحرمكما من هذه الحلوى التي جاءني بها والدكما من المدينة.

جمد عادل جري عند جانب الباب، ونظر إلى قانتات السيدة الكبرى نِظرة مداهنة، وعاتبها بصوت يظهر منه ارتياحه بتقديمها الحلوى لأخويه الكبيرين:

_ ألم تقولي يا جدتي إنك لن تطعميهما من هذه الحلوى؟!

_ إن لم أعطهما وأعطيتك أنت فكيف ينزل الطعام إلى جوفي؟ هنيئاً لكم! " خرج من هُري أبيكم العتيق ويرجع إليه "، لِيجعلِ اللهُ يومكم مئة يوم!

عندما خرج الفِتيان من الغرفة وبقيت وحدها أمسكت بالعصا الفضية التي اشتاقت إليها والتي تنفّس بها عن همومها، ومثلما تفعل عندما يغلبها التفكير، وضعت يديها النحيلتين على المقبض، ودخلت في شرودها الذي لا نهاية له.

إنها متشوقة دائماً إلى زاوية هادئة تعيد فيها التفكير في تعاسات سنوات الشيخوخة. ليست من النوع الذي ملّ الحياة وتتجنب الأشخاص الأصغر منها سناً الذين ما يزالون على أرجلهم المتينة، شاعرة بالحسد والإعجاب،يغلبها العتاب والثرثرة. مهما كانت الشيخوخة واحدة على الناس فإن تحمُّلها متفاوت؛ فإن أضيفت الوحدة إليها يئس القلب وبقي الإنسان كأنه زائد على حاجة الناس.

ليست قانتات في وضع يقال فيه إن أمراض الشيخوخة وعزلة الوحدة تفنيها. لا أحد يصدّق أنها دخلت الثمانين، وإلى الآن ما يزال ظهرها الضيق الذي يأبى الانحناء متناسقاً مع كتفيها المدورتين الرشيقتين، سواء كانت جالسة في السرير أم تتمشى على أرض الغرفة. ولا يُلحظ في عينيها أن الزمن والأحزان ذهبت بنضارتهما فتاهت نظراتهما. إن السيدة التي تحافظ على دار الإمارة الواسعة، لا تدع يأس الوحدة الذي يحاصرها يفتُّ في عضدها مهما حاصرتها، ومهما بلغت من العمر. وابن أخيها الأكبر المحترم يرعاها ويطيعها في كل ما يفعل. وكنّتها سلسة الطبع حلوة اللسان، والأحفاد الثلاثة يحيطون بها، يسعدونها.

قالت قانتات: لن أحرم نفسي من شمس الخريف الدافئة فخرجتْ، ولكن ليس لهذا السبب فحسبُ خرجتْ، فهي ترتاح حين تجلس على المصطبة تسمع لغطهم يتلاعبون حتى وإن لم يكونوا تحت ناظريها دائماً. وستحاول أن تكتشف من خلال استعادة طريقة عمل شواي في الدار أن تفهم لماذا هرب شواي من الدار،فلا تشعرُ بالراحة إلى الآن، وتريد أن تعرف من خلال مراقبة حركات سيسور وسلوكها، دون أن تتحدث إليها مباشرة، إن كان استجدّ طارئ على علاقتها بشواي. وقبل هذا وذاك فهو موعد عودة محمد جري برفقة حارسين من القوزاق طبعاً، ولكنها لن تدعه يدخل دار الإمارة وحيداً بل ستستقبله بوجه بشوش.

ومع أن قانتات كانت تحب أن تجلس على مصطبة البيت صباحاً ومساء ويداها النحيلتان معتمدتان على عصاها المدورة فإن كثيرين ممن في الدار سيقولون: لماذا تجلس هذه المرأة وعيناها تحدّقان بنا، أتريد أن تعرف ماذا نعمل؟ وليسوا في هذا التساؤل وحدهم فبيكا وسيسور، ولو أنهما لا تتحادثان في هذا الشأن، ليستا مرتاحتين لجلوس قانتات الدائم هنا. ما العمل؟ هذا أحد مظاهر الشيخوخة والوحدة. ولكن مع أن اتهام قانتات بهذا صعب فوضعهُا يسوّغ كل اتهام من هذا القبيل. هي لا تغتاظ في داخلها لهذا. هي سعيدة بشيخوختها المباركة ولو أنها سيئة الحظ في شبابها. وعِمادتُها لأسرة الأمير ــ من البديهي أن تدخل في الموضوع بعض المنغصات ــ تجعلها تعيش وهي تتفاءل بالخير وتحلم به وتُبعد الأسوأ.

لا يمكن وصف جِلسة قانتات اليوم بهذه الصفة.لم يكن سهلاً على قانتات ما مضى من هذه السنةِ وهذا الخريفِ الحزين بالقياس إلى العام الذي قبله؛ فأسرتُها تُوتّرها مشكلاتُ الأديغة الغامضة كما تُوتِّر آلاف

الأسر من البجدوغ. ويا ليتها كانت مشكلة البجدوغ وحدهم؛ فالشابسغ والأبزاخ والوبيخ والجمكوي والماخوش والبسلني في اجتماعات لا نهاية لها. وكل منهم ينقض كلام الآخر. وكما يقال " لم يكفِ القيح حتى زادت عليه دُمّلة "، ففي كثير من القرى المجاورة والقرى البعيدة، بل في منطقة الأديغة كلها، كان موقف آل سلطان والخطوة التي خطاها محمد جري باتجاه الروس كالقذى في العين. ولم يكْفِ كل هذا بل بدأت الحياة المسالمة لأسرتنا تتقوض، وأثار شواي فينا فتنة. ألم يسمع الناس سيرته وإن لم يُثر ضجة حوله وجعلَنا حديثَهم؟ كنت أفضّل ألا تفعل هذا على أي شيء آخر. وإذا كان الخلاف بينك يا شواي وبين محمد جري مسألة تتعلق بالأديغة فما شأني أنا به؟ يا حسرتي يا شواي! ماذا فعلتَ بي وأنا متأملة عونك في هذه الدنيا القلقة؟ وإن كان رأيك هكذا فقلْ ما تريد وافعل شريطة ألا تضرّنا. ولكن إن وخزتنا ولو بإبرة فلن أبقيك على وجه الأرض ولو لم يبق غيري. ماذا فعلنا بك يا صغيري المسكين لتُفرغ علينا حقدك؟ لا أفهم ما الذي أثارك إلى هذا الحد ضدنا؟ لا يعرف أحد مكانك إن لم تكن الأرض انشقت وابتلعتك. اللهم إلا إذا كانت سيسور تعرف؟ إنها فتاة كتوم ولذا لن تبوح بشيء يتعلق بشواي ولو كانت تعرف. دفعتُ الكنّة وغيرها تسألها بطريقة غير مباشرة فربما كانت تخجل مني ولكنها قالت لهم إنها لا تعرف شيئاً. ماذا أفعل ــ الله حمّلني قَدَري وانتهى ــ سأسألها بنفسي في مرة أخرى.

ــ يا سيسور ــ نادت قانتات الفتاة التي تقّلب حزم الفلفل الأحمر واقفة في الشمس أمام الهُري ــ هاتي لي المقعد الصغير، رجلاي انتفختا. يا للراحة! أرحتِ قلبي. ثم ضعي شيئاً على كتفيّ! إن جلست طويلاً تشنجتا. أكانت الشيخوخة مرادفةً للقِدم لو كانت خيراً ؟ قفي لحظة يا سيسور! سأسألكِ ولو أرهقوك بالسؤال فأنا مهمومة بشواي المسكين؛ أتعرفين عنه شيئاً؟ لا تكتمي عني! قولي دون حياء! أنا واثقة أنه لن يتركنا أنا وأنتِ إن بقي فيه روح.

ــ كما قلت في ذلك اليوم ــ قالت بحياء شديد ــ لا أعرف عنه سوى أنه شوهد في أرض الأبزاخ.

ــ يا للحسرة يا صغيرتي يا سيسور ــ تنهدت قانتات والإشفاق غالب عليها ــ اذهبي وتابعي عملك يا صغيرتي. ولكن إن أطلّ عليك فلا تتركيني دون خبر!

تورّد وجه سيسور بسبب الكلام الذي سمعته وهي منصرفة. وتابعت طريقها إلى ربطات الفلفل وهي تقول: لا أظن يا سيدتي أن لا علاقة لك بالسبب الذي دفع شواي يرحل. ومدت يدها إلى الفلفل وقد زادت حزناً على حزن، ودمعت عيناها كأن قرناً من الفلفل الحار أحرقهما, ولكنها استعادت رباطة جأشها دون أن تسمح للضعف الأنثوي أن يغلبها.

ما الذي جعل شواي ينضم إلى الأبزاخ الشرسين الذين يهاترون البجدوغ. غضبت قانتات من جديد. ربما كان أصله من هناك؛ وإلا فلماذا لم يتجه إلى الشابسغ أو الوبيخ أو الجمكوي؟ لو كان ينوي أن يفارقنا إلى الأبد لابتعد أكثر وأكثر: إلى البسلني أو القبرتاي. ألا ترى إلى أين ارتمى؟ ارتمى في كنف الناس الذين يظلون يناكدوننا، أصحاب اللحى والشوارب الكثة والعيون اللامعة، هؤلاء هم الذين يعكّرون صفو حياتنا

وحياة الروس. يخرجون علينا من تحت الجبل فيغيرون علينا؛ لا بأس! نحن بصفتنا أديغة هناك ما يلجمنا إن سرقونا أو حاربونا، ما يمنعنا من الرد، ونبقى لبعضنا. ولكن أيسامحك سكان الضفة اليمنى لنهر بشزة الذين تُغير عليهم ليلاً؟ تنشب الحرب بينهم لأن السلاح يجر السلاح. ستجعلون جيش القوزاق يقتحم أرضنا بهذه الحجة. ستدمر حياتك يا شواي إذا التحقت بهؤلاء الأشرار مأخوذاً بحماستك القومية. والأحسن لك أن تعود إلى ديارنا قبل أن يحدث ذلك. ثم ارتعبت قانتات فجأة وغضبت على نفسها قائلة: لماذا أحتفظ في قلبي بذلك الذي جلبه عليّ عدم سكوتي؟

وفيما هي تحاول أن تُنسي نفسها المشكلة جلبت لها ساعة الغروب مأساة أخرى: نبّهها تأخُّر محمد جري عن موعد رجوعه إلى نفسها بعدما انشغلت بمكالمة من في الدار وملاطفة الصغار.

_ لماذا لا تقول شيئاً يا خان جري؟ _ قالت للفتى الذي يتأمل الشمس الحمراء القانية التي تنحدر وراء جبال الشابسغ البعيدة.

_ صبراً يا جدتي! دعينا نتأمل الشمس _ صرخ عادل الصغير جالساً على فخذ خان جري.

_ أتتأمل الشمس يا بيتمال وقد فات وقت رجوع والدك؟ _ قامت قانتات متوكئة على العصا الفضية _ ما يوم الخريف؟ إنه ساق دجاجة سريعة، ستُظلم الدنيا. مُدَّ يدك يا سعيد وساعدني في النزول من المصطبة. في مثل هذا الوقت يكون والدكم قد رجع وانتهى من طعامه وغيّر ملابسه. وأين أنت يا قايمت؟

صوت حوافر الحصان الذي سمعته قانتات قبل أن تنزل من المصطبة جعلها تتوقف. وظهر محمد جري من وراء الإسطبل الطويل وحيداً على حصانه. وركض الصبي لاستقبال والده.

قال محمد جري لأولاده الذين هبوا لاستقباله وهو يرى أن من غير اللائق أن يلاطفهم بالكلام أمام عمته:

_ اذهبوا وساعدوا المولى قايمت في خدمة الحصان!

والآن ما يُقلق قانتات سؤال آخر:

_ يا محمد جري أأنت وحيد؟ أين حارساك القوزاقيان؟

_ ألا يكفي يا قانتات كم أتعبتهما وهما يصاحبانني ذهاباً وإياباً ؟ _ ابتسم محمد جري لعمته ليبرّئ نفسه رغم أنه يعرف ذنبه _ الناس الذين يروننا لا يطيقون هذا المنظر، والذين يسخرون بنا ليسوا قليلين. طلبت منهم أن يصحبوني إلى ضفة النهر ثم صرفتهم.

_ ولماذا تهتم بمن تصفهم بأنهم لا يطيقون هذا المنظر ويسخرون بك؟ الذين يُضمرون لنا الشر أكثر من الذين يُضمرون الخير. الله حريص على عباده فكن أنت أيضاً حذراً!

_ لا يجوز أن تظهر أمام من لا يحبونك بمظهر الجبان يا عمتنا _ ومع أن محمد جري قال هذا مؤكداً أن الشجاعة لم تفارقه، وأشهَدَ طلاقة وجهه على كلامه، فقد سمع شيئاً آخر:

_ تعال إلي بعد طعامك! _ سنتكلم في موضوعات أخرى أيضاً.

***

_ يا قانتات يا عمتنا _ بعد أن جلس محمد جري لأياً أجاب: ألستُ أديغياً فلا أعرفَ طباع الأديغة؟ لا قلق ولا شيء مخيف. ثقي بي من هذه الناحية وارتاحي! أأضع رأسي تحت إبطي من أجل كلمة قالها شواي؟ لم أصرح بتهوره لغيرك ولا أريد أن يعرفه أحد.

_ من هذه الناحية ثق بي يا محمد جري _ ما قاله المولى شواي لا يعرفه أحد إلا نحن والله ثالثنا إن لم يُفشِ به هو لغيرنا.

_ لم يصلني مثل هذا الخبر في هذين الشهرين _ كتم محمد جري عن عمته الأخبار السيئة التي نقلها إليه أكثر من مصدر عن الناس الذين لم يرضوا بتحالفه التام مع الروس، والذين لا يعرف أصلهم.

_ يا محمد جري ما أقلَّ فطنتك! يا أسفي بعدما عشتَ كل هذه السنين! _ تعجبت قانتات مما سمعت _ من يقف إليك ويقول لك كلاماً سيئاً ؟ ! ولكن إن كنت لا تريد أن يراك أهل القرية محاطاً بفرسان القوزاق فاتركهم كما قلتَ في الضفة الأخرى. ولكن من ضفتنا فالمولى قايمت ورهطه سيستقبلونك. هؤلاء رجالٌ وسيحرصون عليك.

_ أتثقين في هؤلاء يا عمتنا؟ ابتسم محمد جري وهو يتذكر المولى شواي.

_ لا أعرف _ زفرت قانتات بثقل _ كما يقولون " من لا يثق بالناس لا يصدُق "كيف نعيش ونحن لا نثق بهم؟

_ والله هذا صحيح.

_ صحيح، الله حريص على العباد فكن أنت أيضاً يا محمد جري حذراً _ لم تستطع قانتات إلا أن تبوح بما يقلقها. ثم أردفت بعد قليل _: أريد أن أقول لك أيضاً شيئاً آخر، وهو شيء من قبيل الحذر والثقة: لا تدَعِ الناس يقولون: تحالف مع الروس فأصبح بقلب كافر؛ تردّدْ على المسجد صباحاً ومساء وكلما وجدت وقتاً، واختلط بالموالي المصلين. سيلقى هذا السلوك قبولاً منهم. إن شاركتهم دينهم فهم ليسوا مجانين. سيفهمون أنك لم تصبح بقلب روسي. وها هو المؤذن يدعو إلى الوقوف أمام الله.

_ والله يا قانتات صحيح ما تقولين عن أن القلب والروح يتحمل أحدهما الآخر. ابتسم محمد جري من بين شاربيه ولحيته الشقراء، كنت أنوي هذا بالضبط. سأختلط بهم، سأبقى معهم، سأقول لهم كل ما في قلبي وسأعرف ما في قلوبهم.

_ صحيح يا محمد جري صحيح _ بدا فرحُ قانتات من صوتها الحاد _ أبسبب أننا تحالفنا مع الروس الآن هجرْنا الأديغةَ أهلَنا زمن وقف والدك في وجه الأتراك؟ ها نحن نقيم معهم ونربي ونعمل ونقلق ونحزن. لن يقول لنا أحد إننا مدينون لهم.

_ لن تستطيع أن تكمّ أفواه الناس _ فتح محمد جري لكلمات عمته قانتات الحازمة فتحة أمل ملطّفاً إياها.

X

بالقياس إلى الأيام اللطيفة السابقة فاليوم ثقيل رطب. والسماء التي هبطت تكاد تبكي، لا تهطل فتنفس عن كربها. جعل المطرُ الكسول الأخضر الطبيعةَ التي يوشوش لها تنكمش عند الظهيرة دون أن يترك مكاناً لم يصل إليه، وليس هذا فحسبُ فقانتات لم تُحرم من هذا المنظر: جلست على السرير الدافئ ينفطر قلبها بسب بكاء حبات المطر على زجاج النافذة. ولحسن حظها وجدت من التطريز ما يُلهيها عن ضجرها وحزنها اللذين لا نهاية لهما.

تتعجب بيكا من طريقة قانتات في تمرير الإبرة وهي جالسة توشّي بخيط ذهبي ما يتدلى من كُمَّ القميص الذي خاطته لها سيسور قبل أيام. قانتات تعمل دون نظارات، وبحركات سريعة من يديها، والإبرة والخيط يلعبان فوق القماش، تنفخ الروح في الشكل. وبيكا نفسها ماهرة أيضاً على الأشكال المخططة على الورق، ولكنها تتخلف عن قانتات في غرز الإبرة، والكُشتِبان الفضي يعصر إصبعها.

ــ يا كنتي أقول: ما الذي يلاحقنا حتى نستعجل كل هذه العجلة؟ تُوقِفُ قانتات التطريز وكأنها لاحظت بطء حركات الكنة الجالسة مقابلها ــ أيفوت قطار الزواج سيسور؟ وكانت تريد أن تضيف: وأين حبيبها شواي؟ ولكنها لم تجد من المناسب أن تتساءل أمام كنتها.

ــ يا حسرتي! لا أعرف أيتها السيدة الكبرى ــ ومَنِ الفتاة التي لن يحين وقت زواجها؟ وسيسور مثل ابنتنا، حلوة الطباع، جميلة كالصورة. لِيُسعدها الله! مهما تعبتُ عليها فأنا راضية ــ لا أعرف إن كنت أثرثر أمام السيدة الكبرى. ثم غيرت الحديث وهي تنهي كلامها على الخادمة: أظنني استعجلت قليلاً في عملي وأنا غارقة في تأمل طريقتك في التطريز؛ انظري إليها!

ــ وأنا لا شيء أبخل به عليها يا كنتي. توافقها قانتات ــ ليمدَّ الله في عمري لأراها همّت بزواج سعيد وتخطت عتبة بيتنا بخير! ولكن لا أعرف لماذا لا تتزوج. حقاً هذا هو يا كنة. تطريزك جميل جداً لا أرى فيه أي عيب. يدك اعتادت. هذا يوم ثقيل. أما حان لهذا المطر الرطب أن يتوقف؟

ــ أظن السماء الداكنة ثقيلة عليك أيتها السيدة الكبرى.

وأردفت:

ــ أليس الأفضل أن تستلقي أيتها السيدة الكبرى؟

ــ لا. ضعي المخدة وراء ظهري، وغطّي ركبتيّ بغطاء الرأس العريض. يا كنتي أبعْد غدٍ موعدُ عودة محمد جري؟

ــ يقضي ليلتين هناك ويعود في الثالثة. ــ قلقت بيكا ــ ماذا أيتها السيدة الكبرى؟

ــ لا يا كنتي. لا أعرف لماذا ازدحم قلبي بوساوس غير مألوفة؛ اسقيني قليلاً من الماء لتنطفئ! الحمد لله، شكراً، رُدَّت الروح إليّ. الماء دواء.

ثم سألت بعدما شربت بقليل:

ــ يا كنة أين الصِّبْيان؟ لا أسمع صوتهم.

ـ خان جري في غرفته يتصفح الكتب. والأصغران صحبهما إلى المشغل قايمت المولى قائلاً لهما: سأريكما كيف يسقي حاج قسي الحديد.

ـ وهل يريان المشغل لأول مرة؟ تحجّجا بأن لا أحد في البيت فخرجا. لا يلتئمان بنا إن هطل المطر أو أشرقت الشمس. يا خان جري يا صغيري لا تجلس وحدك! تعال إلى هنا!

ظهر خان جري من بين دفتي الباب بحذاء عالٍ وخصر نحيل كأن قامته ارتفعت هذا الخريف، ونادته جدته:

ـ يا خان جري ضع يدك على جبيني وسكِّنْ حزني! نعومة يديه يا كنة تفرج عن القلب وتسحب منك المرض. شكراً يا ولدي كنت شفاء لي. أي كتاب يا صغيري تطالع ؟

ـ الكتاب الذي جلبه لي الوالد من المدينة قبل أيام.

ـ وهل تستطيع قراءته؟ أتفهمه؟

ـ إذا كنت تعرف الروسية فما الذي لا يمكن فهمه فيه يا جدتي؟

ـ حقاً يا ولدي. لم تنس ما علموك في غريفن أثناء طفولتك، واللغة الأديغية يا ولدي، الأديغية؟

ـ ما مشكلة اللغة الأديغية يا جدتي؟ ألا أعرف الأديغية أيضاً؟

ـ ليس مجرد أن تعرفها بل أن تقرأ بها وتكتب يا ولدي.

ـ لو كان هناك مثل هذا الكتاب لقرأت وكتبت!

ـ يا حسرتي! من أين يأتي الأديغة بمثل هذا الحظ؟! إنهم في جدال لا ينتهي لأنهم يتنازعون على من هو الأمير الأول ومن هو المولى الأول، ومن حالفتم ومن صادقتم. اقرأ يا ولدي وتمرّنْ ! إن تعلمت؛ أفلن يعود قومك يوماً إلى وعيهم فتنفعهم فيه. يا إلهي لحظةَ أقولُ آمين اجعلْ لساني مباركاً فلبِّ دعائي، ولبِّ لهذا الفتى كل ما يتمنى! وأنت يا كنة ادعي أيضاً إلى الله!

ـ ليبارك الله لسانك يا سيدتنا الكبرى!

وبعدما دعت بيكا لابنها لفّت ولدها ذا الرأس المتطاول بعينين دافئتين وقالت:

ـ إن كنت لا تحتاجينني فسأكمل أعمال البيت.

ـ اذهبي يا كنة اذهبي! لا يجوز أن يبقى فناء الأمير خالياً تماماً. سنؤنس بعضنا خان جري وأنا. وابعثي إليّ بالآخرَين صاحبي السيقان الطويلة! سأروي لهم حكاية. وسنلعب لعبة الأحاجي. ارو لي يا خان جري إن كنت ماهراً في الحكايات!

ـ ابدئي أنت أولاً يا جدتي! ارتاح خان جري على مقعده.

ـ ممكن أن أبدأ. اسمع إذن أحد الأخبار التي روتها لي جدتي!

ـ خبر أم حكاية؟

_ يمكن أن تسميه خبراً. وإن لم يكن قصيراً جداً فليس خطأ أن تسميه حكاية. ومهما سميته فهو لا يخلو من الحكمة.

_ كان الأتاليك مرجان يقول لي: إن الحكاية التي لا مغزى لها هي صفِّ كلام فحسبُ.

_ صحيح يا ولدي هذه هي الحقيقة. ما الذي يجعلهم يقولون "كلُّ ما لا لبَّ فيه بذرةٌ مسوِّسة " اسمع ربما تجني منه فائدة: "مرض الأسد ملك الوحوش مرة فعادته جميعُ الوحوش كبيرُها وصغيرها وسألتْ بلهفة عن صحته. ولكن الثعلب لم يكن معها إذ أنه مشغول جداً: يتقاضى الدجاجاتِ ديونَه. وفي أحد الأيام زار الذئب الأسد وقال له: أيها المحترم كلُّ الوحوش تحبك وتحترمك، وكلُّهم حزانى لمرضك؛ ولكن واحداً لم يهتم بك ولم يعُدْك؛ بل لم يسأل عنك مجرد سؤال. قال الأسد: ومن هو؟ قال: الثعلب. قال الأسد غاضباً: سأريه قَدْرَه.سمع الغرير كلام الأسد والذئب فأخبر الثعلب، فذهب لزيارة الأسد. انتهره الأسد: أي شاغل عندك أهم مني؟ لماذا تأخرت في زيارتي؟ "

يمكن أن تقدّر إعجاب خان جري بما ترويه جدته من طلاقة وجهه المتحفظة ورأسِه المتطاول المنتصب بحيث غدا جزءاً حقيقياً من الخبر فلا يتحرك له عضو؛ بل يخشى أن يتنفس أكثر من حاجته. ولما كانت قانتات الجدة تلاحظ هذا كانت تمنحه أحياناً شيئاً من الراحة بين مقطع وآخر مضفية على الحكاية بعض الطراوة.

يا إلهي احمِ حياة ولدنا، وأبلغه سن الرجولة، ولتجعله سعيداً! دعت قانتات إلى الله. ما أسعدني بطريقة جلوسه وإصغائه ونظراته وابتسامته! إن لم يكن شبيه والدي المرحوم فشبيهَ من يكون؟ حقاً ينتمون إلى جدهم في تربيتهم وأشكالهم، ومن والدتنا فيه شيء لا أدري أهو جبينه أم ضِحكته. ومن جهة انتصاب جسمه وشمم رأسه قد يكون شبيهي. وأمه؟ أليست والدته؟ لا بد أن يحمل شيئاً منها. ولكن بالإجمال هو لأبيه؛ ما شاء الله!

" يا ملكنا العظيم، أيها المحترم! _ قال الثعلب للأسد الملك _ خرجت قانتات من أفكارها وأكملت حكايتها _ إن لم أهتمّ بك فبمن أهتم؟ أليس اهتمامي بك ما حبسني عن زيارتك إلى الآن؟ كنت أستطيع أن أزورك كسائر الوحوش وأتظاهر بالاطمئنان عليك ولكن فضّلت أن أبحث عن دوائك فقابلت الأطباء. " أوجدت الدواء " سأل الأسد. قال: وجدته، إنه كعب الذئب. أوصى الأسد حالاً بأن يأتوه بكعب الذئب... اعترض الذئب على ثلاث قوائم طريق الثعلب. سأل الثعلب الذئب كما لو كان مندهشاً مما يرى: ماذا حدث لك أيها الذئب؟ "

_ ماذا يا خان جري؟ _ سألت قانتات _ إن كنت أمسكتَ بِلُبِّ الحكاية فماذا تتوقع أن يكون الذئب أجاب؟

_ إن كان الذئب معترفاً بنميمته _ وكأنه كان ينتظر السؤال _ فسيدين نفسه.

_ أيستطيع الذئب النمام أن يفعل هذا يا ولدي؟

_ وماذا يفعل؟ من يحفر حفرة يقع فيها.

_ ما أسرع ما فهمت مغزى الحكاية! _ تدخلت قانتات _ لهذا قالوا " لا تفعلِ الشر وتنتظرَ الخير! " ثم سألت بعد قليل: أسمعت هذه الحكاية قبلُ؟

_ لا يا جدتي لا _ ابتسم خان جري لجدته مع شيء من الخبث _ ولكن مرجان كان قد روى لي حكاية مشابهة لم تكن الوحوش أبطالها.

_ هكذا إذن _ أحبطت عدمُ جِدة الحكاية على خان جري جَدَّتَه فانكسر صوتها. ولكنها سألته: ومن كان أبطالها؟

_ حكاية ولدين، سأرويها لك إن أردتِ.

_ ولماذا لا يا ولدي؟ سأسمعها بكل طيب خاطر إن كان فيها مغزى وفطنة.

دخل سعيد جري وعادل جري مع كثير من الجلبة.

_ مهلاً، مهلاً! ماذا حدث لكما؟ قالت قانتات للصبيين _ توقفا واجلسا! خان جري يروي حكاية.

_ يا جدتي _ نظر عادل جري بطرف عينه مستاء مما قيل له _ توقف المطر.

_ حسناً! _ يريحني أن يتوقف أخيراً. اجلسا ولنسمع ما سيحكي لنا خان جري!

_ يا جدتي _ قال عادل جري دون أن يكف عن الحركة _ كنا في المشغل.

_ هذا جيد.

_ ورأينا كيف يحمّون الحديد ويصنعون منه السيوف.

_ فعلتما خيراً. لنسمع ما يرويه خان جري!

_ ما أعجب أن يصبح الحديد أحمر قانياً بالحرارة!

_ ألست أنت من قالوا له: كفى! عنّف سعيد جري الذي جلس على يسار خان جري أخاه الأصغر وقد نفد صبره.

_ ماذا يا سعيد جري، ماذا؟ أردف باختصار وكأنه يلوم أخاه الأكبر الذي كان محتفياً به في الصباح.

_ إن كان أمرك هكذا فسأجلس أنا أيضاً إلى جانب جدتي. أليس كذلك يا جدتي؟

_ صحيح، يبقى الأصغر أقرب إلى القلب. ومن لي غيرك يجلس بجانبي؟

_ أفهمتما الآن؟ تكبّر عادل جري على أخويه.

_ كفى يا ولدي _ تضم قانتات الصبي إليها وتمسح على رأسه _ لا تكن صعب المراس! ما يحكيه خان جري _ إن لم أكن أعرفه _ أفضّله على السيوف الحديدية القبيحة. وما السيف؟ أليس" بلا أخلاق، يسلب الحياة، ويفاجئك وهو نائم؟ " أما الكلام فهو طيب ومصوغ بحيث لا يصدأ ". ابدأ يا خان جري، احك لي ولإخوتك!

قال عادل جري فجأة منفساً عن غضبه على أخيه " الحرير القصير خير من الكلام الطويل " ثم التصق بجدته عالماً بذنبه.

_ ألم تسمعي يا جدتي ما رماني به هذا الـ...؟ _ غضب خان جري _ إن وصل بك الأمر إلى هذا أيها الثرثار فلن أحكيها.

_ أتسمعين يا جدتي ما يقوله لي خان؟ _ يصفني بالثرثار , ويوافقه سعيد جري _ دمدم عادل جري متظاهراً بالبكاء ماسحاً أطراف عينيه _ ثم تقولين لي يا جدتي: الأصغر أحبُّ!

_ أقول لأنك حبيب إليّ. اسكت يا ولدي؛ لن نسمح أن يناديك أخواك بمثل هذا اللقب. أصبح صوت قانتات الآن أشد حزماً _ لن أسمح بأن أسمع مثل هذا. في أسرتنا _ احفظوا ما أقول جيداً _ نتواصل بالأسماء التي سمانا بها آباؤنا وأمهاتنا فحسبُ، لم نستعمل في الأسرة أسماء تحبُّبٍ ولا أسماء نبزٍ. وأنتم لا تفعلوا غير هذا! ثم قالت في نفسها: ليت الناس لا ينادوننا أحياناً باسم النغوي " الغريب "

_ إن كان الأمر هكذا يا جدتي _ قال سعيد جري مركّزاً على اسم عادل جري، ومع شيء من الدعابة _ أعرف ماذا أفعل به.

_ تباً لي! ماذا تنوي لأخيك الأصغر؟ _ قالت قانتات كأنها قلقة وضمت الصبي إلى جانبها.

_ سأوقفه على درفة الباب وسأعاقبه بخمسة تمارين نطق.

_ هذا هو؟ قالت قانتات بلطف _ هكذا أنا موافقة.

_ لا يا جدتي! الأفضل أن أبقى بجانبك على أن ألوي لساني بهذه التمارين القاسية.

_ اختلف الأمر إذن يا ولدي _ ونظرت إلى الصبيين مقابلها بما يشبه نظرة التزلف وكأنها تريد أن توحي لهما ألا يزعجا أخاهما _ أعتبرُ ما قلتَه كلمة رجل، أسمعت يا خان جري؟ احك لنا إن لم تغير قرارك.

_ ولماذا أغير؟ نصب خان جري ظهره المستقيم وبدأ وكأن شيئاً لم يحدث:كان لملك صديقان. قرر أحد الصديقين أن يبعد الآخر عن الملك ليصفو له الجو معه. وفي أحد الأيام، وفيما هما يهمان بزيارة الملك، احتال على صديقه فجعله عن طريق الإطراء عليه يأكل كثيراً من الثوم. وعندما نادى الملك من أطعموه كثيراً من الثوم حادث الملكَ وهو يبعد وجهه عنه ويلويه هنا وهناك من أجل أن يصرف رائحته عن الملك. تعجب الملك مما رأى وسأل الصديق المتآمر عن سبب هذا السلوك. أجاب الصديق: يقول صديقي إن رائحة فم ملكنا كريهة لا يتحملها محادثه. قال الملك غاضباً: " أهذا تصرَّف ابن الكلب هكذا؟ " واستدعى الصديق المظلوم وأعطاه ورقة مغلقة وكلفه بحملها إلى قصره. قابله المحتال على الطريق وسأله: إلى أين أنت ذاهب؟ أخبره الصديق فأخذ منه المحتال الورقة قائلاً: " سأساعدك في حمل هذه الورقة لأن كبير حراس الملك شرس الطباع ولا نعرف كيف سيتصرف معك. وبما أنه صاحبي فسأسلمها له باليد " قال الصديق " نعم، سلّمها وأنا لا فرق عندي، المهم أن تصل الورقة إلى المعني بها " سلّم المحتال الورقة إلى

الحارس قاصداً إبراز شخصه أمامه. فلما فتح الحارس الورقة وجد فيها: " اقتلوا حامل هذه الورقة حالاً! " ألا ينفذ الحارس طلب الملك؟ وهكذا قطع رأس حامل الورقة.

_ أي مصير هذا؟! قال سعيد جري.

_ لم يملك خان جري أن يسأل نفسه: أجرى له أم فعل بنفسه؟

_ أليس من أجل هذا يا جدتي يقولون " من لا خير في قلبه لا يلق خيراً " أجاب سعيد جري بسؤال وإن لم يكن سمع سابقاً الحكاية. ونظر في وجه محدثه وكأنه يقول له: أتوافقني الرأي؟

_ قاربت الجواب يا سعيد جري، قاربت. أجابت قانتاتُ الصبيَّ بوجه طلق، ونظرت جهة راوي الحكاية: ولكن لا أعرف ما سيكون تعليق خان جري؟

_ ماذا أعلق؟ _ ابتسم خان جري مزهواً وكأنه ازداد عقلاً بعدما روى الحكاية _ كما يقول مرجان: أنا قلت ما يجب علي قوله والفعل عليكم الآن.

_ من أجل هذا قالوا " من حفر حفرة وقع فيها " رويتَ لنا حكاية ملأى بحكمة أعمق مما في حكايتي أنا. ليرض الله عن الأتاليك مرجان، وليجعل شيخوخته سعيدة! وأنت يا ولدي لماذا لا تقول شيئاً؟ تذكرت عادل جري المتجمع على نفسه: أأرعبتك عاقبة النمَّام؟

_ بكى عادل جري.

_ لماذا يا ولدي؟ ماذا جرى لك؟ ارتعب الفتيان وقانتات.

_ لست نماماً يا جدتي.

_ يا ولدي، يا صغيري، ما شأنك أنت؟ ليست الحكاية موجهة إليك. أنت ما تزال غراً سليم الطوية، لا خُبث في صدرك. هيا يا سعيد نلعبْ لعبة الأحاجي! من يسأل أولاً؟

_ أنا _ انتفض عادل جري وكأن شيئاً لم يحدث له _ احزروا: " قاوقاو وسريع، ويظل يركض في أرجاء القرية، ومن يعرف فمكافأته خمس قرى "

ولكن بيكا قطعت على المتبارين مباراتهم:

_ موعد الغداء يفوت يا سيدتنا الكبرى.

_ وهل حان وقت الظهر؟ استدارت قانتات نحو النافذة. شمس الخريف التي أشرقت من جديد من خلال السحب تطل على الغرفة. مُريهم أن يجهزوا لي المائدة الكبيرة، سأغدي الأولاد معي. أنا اليوم مرتاحة رغم أن الجو ثقيل، الأولاد نفّسوا عني كربتي، سلَّوني.

_ لن تهنئي معهم بما تأكلين أيتها السيدة الكبرى.

_ لا، لا. سيكون أطيب معهم.

_ سُمع صوت سيسور يمزق القرية من وسط دار الإمارة.

_ يا مصيبتي ماذا جرى؟ _ استمدت قانتات من الرعب قوة رفعتها، واندفع الصغار والكبار من البيت، واجتمع الموالي.

كان حصان محمد جري واقفاً على عتبة الدار يصهل نوع صهيل بمنخاريه المتعبين، والمحترم المقتول ممدداً على سرجه.

الكتاب الثاني

ليست الأيام السبعة بالنسبة للإنسان ثقيلة إن عاشها بما منحه الله من قوة. ليست سبع ساعات بل حتى ليست سبع دقائق. ثم إنه إن مات قبل أوانه فلا نهاية للمصيبة على أهله وأصدقائه . وبالنسبة إلى من كانوا يعرفونه فمحاسنه ومساوئه، إن قيست بمواقفهم منه، ذكريات متنوعة وأخبار غير متطابقة.

ما العمل؟ هذا نظام الطبيعة: نهار أو ليل، صحو أو مطر، شمس أو مطر مرعب. والحياة كذلك: أفراح وأتراح، وأحزان ووعي للذات. كلٌّ يحمل في دنياه ما كتب على جبينه حتى يتحقق. الفارس يسقط من حصانه والراجل يمتطي حصاناً. والذين يطيرون على الأرض بقلوبهم ليسوا قلائل وإن لم يستطيعوا التحرر منها. ومن يعيش عن طريق الحيلة والمهارة كثيرون. والذين يعيشون بعرق جبينهم وبجهدهم العضلي أكثر وأكثر.

يوم التشييع كل البجدوغ تقريباً، كلُّ مَن عليه واجبُ التعزية نساء ورجالاً، جاؤوا كالسيل إلى دارة آل سلطان. ومن المناطق البعيدة، من الأبزاخ والشابسغ والناتخواي والبسلني والجمكوي والقوزاق الذين عبروا نهر بشزة جاءت مجموعات كثيرة. وبينهم كثيرون تظاهروا بأنهم يشاركون آل سلطان أحزانهم مطأطئين رؤوسهم؛ والحق أنهم جاؤوا لتتبع الأخبار. ولم يتوقف الأمر عند هؤلاء بل كان بين المشيعين أعداء المرحوم. وأحد القتلة أنفسِهم كان متولياً قيادة مراسم العزاء.

ومع أن العرس والمأتم مختلفان جداً فإنهما متشابهان في أنهما بداية حكايات الفرح والحزن، والصدق والكذب. يبكي في المأتم المتألمون من أهلٍ وأقرباءَ وأصدقاءَ ويلتزمون الحداد، فالناس الذين جمعهم المأتم يجب أن يصبروا كي يحتفظوا بجهامة وجوههم. يمسح الناس عن وجوهم طلاقتها، ومن تنطلقْ منه ضحكة مفاجئة يجفلْ منها فيكتمْها. البؤس والإنسانية والرحمة والطيبة تنذر الناس، حتى أشدهم استهتاراً وظلماً، وتدعو كل إنسان إلى أن يتأمل نفسه ويفكر، وتنشر بينهم اللين، وتغير نظرة بعضهم إلى بعض. وأما في مناسبات الفرح فالموسيقى تُعزف، والناس يمرحون ويغنون ويرقصون ويغازلون. وحين ترفع الأنخاب فإنهم يدْعون للحي أن يعيش طويلاً في صحته، على رجليه، يرافقه الحظ، لا ينقصه الفرح. وللأموات أن يكون مثواهم الجنة وأن يعيش أهله طويلاً سعيدي الحظ.

لا يختلف يومُ جمعِ ملابس المرحوم في لوستان حبله عن أي يوم مماثل في عالم الأديغة. منذ البارحة وإلى الصباح تجري أعمال لمِّ الملابس، وتُحضَّر الذبائح وحصص الصدقات.ويدورون بها على الأسر القريبة والبعيدة، يُدخلون الموائد التي سيأكل عليها المسنون إلى الغرف، ويصفّون موائد الأصغر سناً في الفناء. ولا ينسى القائمون على الطعام حصة النساء.

مجموعة المسنين التي يترأسها الشيخ، والشباب منهم على رؤوسهم لخدمتهم، تتبوأ المصطبة تحت العريشة. ويقرؤون بصوت غير عال سورة ياسين على روح المرحوم. وغيرَ بعيد عن هؤلاء، وعلى امتداد تلك المصطبة، تجلس قانتات مع أميرتين من عمرها تقريباً أو أصغر قليلاً في ملابس الحداد السوداء. وكعادتها،

يداها النحيلتان على مقبض عصاها الفضية. قامتها النحيلة منتصبة، والمرأة المعزَّزةُ عميدةُ الأسرة المفجوعة،تمسك برأسها الشامخ الذي عليه غطاء أسود علامةَ قيمةِ صاحب العزاء، تقرأ معهم سورة ياسين في قلبها وتستمع. وغيرَ بعيد عنها تقف سيسور المستعدة لكل طلب. والمولى قايمت بين رفاقه على أهبة الاستعداد.

وعلى طرف المصطبة غير بعيد عن قانتات أولاد المرحوم الأمراء الصغار: خان جري وسعيد جري وعادل جري يصطفون على ترتيب أعمارهم. وأخوهم لأبيهم قرم جري ذو العشرين ربيعاً يقف منفرداً وعلى وجهه تعبير البؤس واليُتم.

نظرت قانتات السيدة الكبرى نحو سيسور:

_ يا سيسور _ همست لفتاة الخدمة التي مدت عنقها نحوها _ بلِّغي عني المولى قايمت أن يطلب من قرم جري الوقوف على يمين إخوته.

التقت نظرات قانتات بنظرات قرم جري فيما قايمت يحدثه، فأشارت له بعينيها أن يقف على يمين إخوته، فنفّذ على مضض ما طلبته.

_ قالت قانتات وقلبها يتمزق: يا إلهي لماذا لم يظهر في هذا الأمير الشاب شيء من صفاتنا؟ برودة عواطفه ورثها من أمه. ما ذنبنا؟ عجرفة أمك هي الحاجز بيننا وبينك. عندما بدأتْ تمزق أواصر الأسرة بالكلام لم نقبل منها سلوكها؛ ومن يقبل هذا؟! لماذا تحمّلنا أنا وإخوتك المسؤولية من أجل كرامة أمك الشرسة ؟ أمك التي كرهْتَنا من أجلها كل هذه السنين ما تزال حية في كامل صحتها كالأرملة المرشحة للزواج،في حين أن والدك المسكين رحل قبل أوانه، أفلا نستحق ولو كرمى له فقط أن تتنازل لأجلنا اليوم؟

سقطت دمعة من عين قانتات اليمنى بعدما عصرت أحزانُها الغليظة قلبَها، وأضيف إليها اليوم سلوك قرم جري نحوها والحزن الذي يعيشون فيه،فلم تصبر العين الأخرى. وحين رأتها إحدى الأميرتين الجالستين إلى جانبها اغرورقت عيناها أيضاً فلم تقبل قانتات:

_ كفى يا كلثوم! لا بكاء في يوم جمع الملابس!

حين مد أكثر الرجال المشاركين في قراءة القرآن أعناقهم نحو الباب الكبير المفتوح والقراء المسنون منهمكون في القراءة ظهر من وراء الإسطبل الذي على زاوية الشارع فرسان القوزاق. وسط الفارسين المتقدمين كان المقدم تابانيس. وقد تعرفه الناس الذين في الفناء بسرعة لأنه ترأس الوفد الذي أرسله الأتامان ماتفييف في يوم الدفن للتعزية. وكذلك الذي على يمينه النقيب بيريكريستوف. أما الملازم الذي على اليسار والفرسان الثلاثة الآخرون الذين يحملون على ظهور خيلهم أكياساً فلم يعرفوهم.

لم يتوقف المسنون عن قراءة سورة ياسين، بل ربما ارتفعت أصواتهم عندما ظهر الضيوف القوزاق على الباب، وعندما دعوهم لدخول الفناء، وبعدما أفرغوا ما في الأكياس الثلاثة من الحلوى.

لم يقبل ضيوف إيكاترينودار الجلوس، واختلطوا بمجموعات الرجال الواقفين. والرجال المنتمون إلى أعراق مختلفة والذين لم يتسنّ لهم إلى الآن أن يتقاربوا بالحديث نظر بعضهم إلى بعض يتقاسمون الحزن بقلوب لينة. وكثيرون منهم ابتسموا لرجال الأديغة سواء كانوا صادقين أم لا. ولم يكن الذين مالوا بأوجههم أو حنوها قليلين. ودمدم أحد الموالي في جانب ما:

_ ماذا يريد هؤلاء؟ أتَّخذوا منا مزاراً!

نظر أباته بسلني نحو بامبت الذي كان أدار ظهره. اقترب بسلني من القوزاق الذين لا يفهمون ما يقال بلغة الأديغة وكأنه يريد أن يموّه على كلامهم وقال لتابانيس وهو يدله على المقعد:

_ اجلسوا لا فائدة في وقوفنا _ ابتسم له ثم أضاف _: لا صِدق في الوقوف كما تقولون أنتم.

_ هذا صحيح _ قال تابانيس من بين لحيته وشاربيه الأشقرين، وأشار إلى رفيقيه الضابطين أن يجلسا. وبعدما جلس قليلاً هز رأسه علامة حزن: الأمير محمد جري كان إنساناً حقاً، حزنّا لمقتله. أما أتامان القوزاق غريغوري كوندراتيفيتش ماتفييف فإنه لا يعرف تفسيراً لما حدث لعميد الأسرة: كان محمد جري في ذلك اليوم عند الأتامان، وأنا كنت معه، وقبل الظهر بقليل تفقدنا معاً عدداً من المراصد على الضفة ثم افترقنا.

_ في ذلك اليوم نفسه _ شهد أباته بسلني _ على ما يقولون، عند الظهيرة رجع الحصان بمحمد جري مقتولاً.

_ على ما يروي حارساه القوزاقيان _ نظر المقدم تابانيس إلى أباته بحزن _ في ذلك الوقت عبر محمد جري النهر. كان الوقت ظهراً ولم يكن هناك أيُّ خطر فما الذي حدث له؟ لا أعرف.

_ _ ما حدث له واضح _ قال أحد الموالي بلغة الأديغة _ جاء الحصان بجثته؛ أتظن أن من الممكن أن تثق بحراسه القوزاق؟

_ ما الذي لا يرضى به هذا الصديق؟ سأل تابانيس كأنه غير مهتم ثم أردف: _ أيشك في أحد بشأن المأساة؟

_ لا. قال أباته ما يريده هو، مخفياً ما سمع الضيوف القوزاق بلغة الأديغة _ بامبت المولى حزين لما جرى للمسكين محمد جري، بمن يمكن أن يشك؟

_ لا أحتاج إلى مثل المترجم أباته _ لم يقبل تامبت كلام أباته، وانطلق فجأة بالروسية، ثم بصوت أنعم _ بما أنك سألت أيها الضيف سأعرّفك ماذا قلت بلغتي: أتثق بحارسيه القوزاقيين؟

_ أنا واثق بهما. ولكن لا أدري لماذا تقول هذا؟

_ لن أكتمك _ احتللتم ضفة نهر بشزة اليمنى وأقمتم على كُره منا.

_ بامبت! _ دون غضب وبصوت قوي، قال توغوظقوه قازبك الواقف غير بعيد _ هذا ليس المكان المناسب للبحث في علاقات الجفاء بيننا وبين جيراننا القوزاق.

_ سامحوني أيها الكبار، وأنت أيضاً يا أيها الضيف _ انتبه بامبت إلى نفسه _ لم أستطع إلا أن أقول ما في قلبي.

وفجأة انقطع الجدال كما بدأ. ولما كان القراء انتهوا من تلاوة سورة ياسين فقد رفع الحاضرون باستثناء القوزاق أيديهم بالدعاء. ثم اختتموه بمسح وجوههم براحاتهم.

دُعي الضيوف القوزاق مع بسلني وتوغوظقوه قازبك وبعض الموالي إلى غرفة أخرى غيرِ التي فيها المسنون قراءُ القرآن.

_ على ما يبدو _ يا بامبت مائدتنا أرْوَحُ للنفس _ قال قايمت المولى _ حين ناداك توغوظقوه قازبك لم تتوجه نحو الضيوف.

_ والله لم أكن أستحق أن يدعوني الزعيم قازبك. والضيوف كائناً من كانوا اهتموا بالأمر وزارونا، وليسوا أعدائي. ولكن مع ذلك لا أرى من المناسب أن أجلس على مائدة واحدة مع من لا يودنا من أمثال أباته. لا أحب أن أكون في جيشِ أمثالِ هذا الذي نحن في مناسبة لمِّ ثيابه، ليغفر الله له، وليرحمه.

_ إذن ماذا سيحدث لتوغوظقوه قازبك؟ _ سأل أحد الموالي.

_ ما شأنه توغوظقوه قازبك؟ _ ابتسم بامبت بخبث _ رجع قازبك من حيث كنت منذ زمن بعيد، أتظنه مثلي؟ إنه يوازن بين مروءته وشعوره القومي. لن يلين قلبه للقوزاق بجلوسه معهم على المائدة. هو مستعد في هذه اللحظة وهو جالس مع القوزاق إلى المائدة لأن يتركهم ويعبر معك نهر بشزة إلى أرضهم.

_ كفى! _ لم يقبل المولى الأكبر سناً الجالس في صدر المائدة كلامه _ بهذا السلوك ستدفعون القوزاق إلى عبور نهر بشزة إلينا من وراء غاراتكم الليلية. اسمعوا! لنقرأ على هذه المائدة المنصوبة لرحمة محمد جري الفاتحة على روحه! لندعُ إلى الله أن يغفر خطاياه ويجعله من أهل الجنة _ وبعدما انتهى من الدعاء اختتم _: تفضلوا إلى الطعام كلكم! لا يخجلْ أحد ويقمْ قبل أن يشبع!

وبعدما ألقى الشيخ الكلمة الختامية في هذه المناسبة بدأ الناس ينصرفون، وبعض الذين أتوا من مناطق بعيدة انطلقوا في طريقهم. وبقي الأهل والجيران وغيرهم في دار الإمارة.

_ يا قايمت، ضيوفكم القوزاق _ نفد صبر بامبت _ ألا ينوون الانصراف؟

_ من لن يروح ويغدو بعد اليوم هو محمد جري _ لم يتأخر قايمت في الجواب ما المشكلة في هؤلاء؟ سينصرفون مثل ما أتوا. ألا تراهم مجتمعين عند قانتات، واستدعوا خورلوقوه مرجان.

_ وهذا ما أقوله. مفهوم أن مرجان أتاليك لآل سلطان _ دعك من أباته بسلني الذي يدس أنفه في كل شيء _ ولكن ما شأن توغوظقوه قازبك بهم؟ سيحل علينا الليلُ في الطريق إلى أرض الشابسغ بتأخره. وفي مضافة قرية أبنه سينتظرنا كثير من الموالي. أفكر في أن أناديه ولكن عميدة آل سلطان لن تغفر لنا خروجنا على شرعة الأديغة. وسيعتبر توغوظقوه قازبك الأمر إهانة له.

ـ إن كنت تفهم كل هذا من شرعة الأديغة ـ قال له رفيقه المولى من الشابسغ ـ لماذا نفد صبرك؟ لننتظرْه! ربما يحتاج إليه مجالسوه.

ـ هذه هي الحال يا قايمت، إنهم لا يصدقونني إن تكلمت ولكن صاحبي " أغوي" حارس على فمي: لن يدعني أتكلم إن استطاع. سننتظره طبعاً يا أغوي بشه ماف. لهذا يقولون " من يقود الجماعة يساوي الجماعة ". وإن لم ننتظر توغوظقوه قازبك فمن يستحق في إقليم الأديغة الانتظار؟!

عندما رأى بامبت خصر سيسور الدقيق وهي تأخذ الصحون الفارغة من المائدة التي على المصطبة، ثم عندما أدارت وجهها الأسمر الشاحب، تداعى قلبه لا يدري ماذا يحدث له. وبدا له كأن أحداً يسلبه الفتاة الجذابة التي يمتلكها طوال عمره. وبدأ يسمع نبض قلبه الذي رجع إلى وعيه. وبدون اكتراث، ودون أن يُسمع مجالسيه سأل قايمت:

ـ من صاحبة تلك الأرداف المدورة والشعر الطويل هذه؟

ـ أعرض قايمت المولى بوجهه ممتعضاً مما سمع بشأن الفتاة. ونظر باتجاه الباب متظاهراً بأن أحداً ناداه.

ولكن بامبت لم يدعه:

ـ أما سمعت كلامي يا قايمت؟

ـ وماذا قلت لي؟

ـ من هذه القريبة من القلب التي ترفع المائدة؟

ـ ولماذا تسأل؟

ـ وهل أسأل بدون سبب.

ـ ألا يكفي يا بيتمال؟ كُفَّ عن هذا!

ـ أليس لي الحق أن أسألك؟ هو مجرد سؤال.

ـ ولماذا لست حراً ؟ ـ ابتسم قايمت ـ ولكن اسمعني يا بامبت: هذه التي تسأل عنها خادمة الغرف في دار الإمارة، ابنة الدار.

ـ خادمة غرف؛ هذا أحسن ـ ابتسم بامبت من بين أسنانه المتباعدة ـ أحسن لي لأنها لن تسبب لي أي مشكلة.

ـ لا تخطرْ لك أفكار جنونية! اكتفِ بما عندك!

ـ القرآن يسمح بأربع.

ـ لا تجلب إلى الأديغة ما ليس من عاداتهم!

ـ ليس الإسلام ملكاً للأديغة. بل دخلَ فيهم.

ـ يا بامبت! لا تقل، ولا تجعلني أقول، كلاماً فارغاً!

ـ وهل من العجيب أن أفكر فيها؟ أليست الدنيا كلها نوايا؟

ـ يا بامبت المولى ـ قال قايمت وهو يضغط على أسنانه ـ أنا أعدُّ هذه الفتاة أختي الصغرى، ثم إن لم تكن تعرف فاعرفْ! شواي وسيسور تعاهدا؛ إن مددتَ إليها إصبعك مسحتُك من على ظهر الأرض.

ـ والله هذه الدنيا نظامها عجيب؛ قال بامبت دون اكتراث وبابتسامة مصطنعة دون أن يتراجع عن أفكاره التي لا أساس لها ومرتاحاً إلى أن كلامه يغيظ محدثه ـ أيدّخر آل سلطان فتاتهم لشواي المولى بعدما فعل بهم ما فعل؟

ـ ماذا تقول؟ ـ انتفض قايمت مما سمع.

ـ لا تتظاهر أمامي بأنك هبطت من السماء!

همّ قايمت أن يقول شيئاً ولكن الضيوف القوزاق الذين صعدوا المصطبة أنسوه. وانضم بامبت الذي انصرف بطريقة مفاجئة مسروراً بأنه نفّس عن حقده إلى رفاقه الموالي، ملقياً نظرات خبيثة على قايمت. ثم وقف قبالة توغوظقوه قازبك ولامه:

ـ يسرني أنكم تذكرتم.

نظر إليه قازبك غير عابئ بعتابه. وفهم بامبت معنى نظرته فقال لا يَسمعُه غيرُه، لائماً نفسه:

ـ لأني أخاف أننا نكرّم أعداءنا أكثر مما يستحقون.

وكما تفعل قانتات مع الضيوف المنصرفين الآخرين صعدت إلى المصطبة بعد نحو نصف ساعة لتودع ضيوفاً آخرين. ثم قدمت أمامها عصاها الفضية واعتمدت عليها بيديها النحيلتين وألقت نظرة على من بقي في أرض الدار وقالت لهم:

ـ باسم آل سلطان وباسمي أشكركم على أنكم تحملتم معنا كربنا وحزننا وخففتموهما عنا وصرفتم عن قلوبنا الأسى. لِيرض الله عنكم، ولْيجعلنا قادرين على أن نجزيكم خيراً على مواساتكم! أقول لمن ينوي السفر: رافقتكم السلامة!

ونادت السيدة الكبرى أحد الموليين اللذين كانا في وداع المنصرفين بإيماءات الرأس بدلاً من المصافحة:

ـ يا بامبت لا تؤاخذني! لي عندك رجاء: إن التقيت بالمصادفة مع شواي فأبلغه باسمي أن يعود.

ـ سأبلغه إن لاقيته. ولكن من أين نأتي به الآن؟

لاحظ الواقفون الرعب الذي سببه كلام بامبت لقانتات السيدة الكبرى من ارتجاف يديها النحيلتين على عصاها. ولكنها انتبهت إلى نفسها بسرعة وأكملت بصوت منكسر:

ـ هكذا إذن.. لوكان حياً لأعاده إليّ حزني. ـ ثم أردفت تبرّئ نفسها ـ: أقول: ربما، من يدري؟

ـ لا، لا. تكفي مأساة واحدة. تجنبوا هذا الخاطر...

***

خرج الفرسان الذين يترأسهم قازبك من لوستان حبله دون أن يتبادلوا أي حديث، وتجاوزوا ظاهر القرية. وقبل أن يصلوا إلى مفرق (شْتقوه) أداروا رؤوس أحصنتهم ببطء نحو قصب الأجمة بدلاً من أن يتجهوا إلى أرض الشابسغ.

الريح الخفيفة تغري أوراق القصب الخريفي اليابسة أن يشكو بعضها إلى بعض. وقوائم الخيل التي تسلك الطريق الصامت بين صفي القصب تُفزع طيور المستنقع التي تحط سريعاً كأنما لا تريد أن يسمع أحد أخبارها. ويسمع من المستنقع صوت حزين منهك رفيع لا تدري أهو صوت الطيور أم الضفادع أم أفعى أم أي كائن حي آخر، وبصوت أشد اختناقاً يجيبه صوت آخر. وكلما أوغل الفرسان في المستنقع ثقلت عليهم رائحة الماء الآسن والعشب المتعفن. وببقبقة الماء الموحل يهذي المستنقع. ولكن ليس هذا ما يفكر به: إنه صمْتُ قازبك وطريقةُ امتطائه السرجَ؛ ليقلْ شيئاً! لماذا هو صامت؟

_ وماذا بعدُ يا بامبت؟ _ قال قازبك فجأة وكأنه لاحظ قلق رفيقه _ لماذا لا تهدأ على السرج؟ أأصبحتَ هدفاً لبراغيث المستنقع؟

_ لا يا قازبك. لا شيء من هذا _ ونظر بامبت إلى جاره أغوي بشه ماف.

_ ماذا إذن؟

_ أنا مسرور بأنك تكلمت أخيراً وحسبُ.

_ إن كنت مهموماً بهذا فأنا أيضاً أريد أن أسألك.ما أكثر ما ثرثرت اليوم مع عميدة آل سلطان بشأن شواي! أتكون تعرف شيئاً من أخباره؟

_ لا. آخر مرة رأيته فيها كان في الصيف في أرض الأبزاخ.

_ لماذا إذن تسببت أخبارك في خطف البريق من وجه العجوز المسكينة؟

_ لا شيء. من يعرف ماذا حدث لشواي، وماذا يمكن أن يحدث له.

_ لا تتكلم في ما لا تعرف!

_ هذا صحيح ولكن لا أستطيع.

استغل أغوي بشه ماف لحظة الصمت وقال:

_ يقولون: كان شواي بين الفرسان الأبزاخ المئة الذين عبروا نهر لابا في الشهر الماضي. ولا أظن أنه رجع.

_ ومن قال هذا؟ _ لجم قازبك حصانه.

_ كانوا مجتمعين قبل أيام في مضافة خورلوقوه مرجان.

_ ولماذا لم يقل هذا لأهل ربيبه؟ قال بامبت فجأة. ثم دمدم لنفسه: يجعلني أثرثر من أجل ألا ينقل إليهم بنفسه الخبر المشؤوم. أستحق هذا.

_ والله لا يستحق هذا الشاب الممتاز ما حدث له. قال قازبك الذي رجع إلى مكانه أمام الفارسين _ أي أخبار عن غياب شواي؟

ـ وأي أخبار ستكون؟ ـ ناب بامبت عن المسؤول ـ قد يكون حدث له ما حدث لبقية رجال الأديغة. إن سقط ووجهه نحو أعدائنا فليرحمه الله حيث استقر!

ـ يقال إنه سقط أسيراً في أيدي القوزاق.

ـ هذا مستحيل ـ قال بامبت فزعاً، وللتو ارتسمت صورة سيسور في عينيه ـ أفضل الموت والرصاص على أن أعيش في إسطبل خنازير القوزاق.

ـ لو كان كل ما في الدنيا يسير بك كما تريد... ـ قال قازبك، وحث حصانه وتبعه أصحابه.

لم يطق بامبت صبراً بعدما مشوا لأياً:

ـ يا قازبك ألا اسمَ للمكان الذي تأخذنا إليه؟

ـ لا ضير. لا تخف!

ـ لو لاحظوا علي الخوف لفضلت الموت.

ـ لم نلاحظ عليك الآن مثل هذا يا بامبت ـ ضحك قازبك بصوت خشن عال. ثم أفصح عن مراده ـ حسناً، مرادي أن نلتف على نهر بشزة ونصل إلى أرض الشابسغ ونرصد في الوقت نفسه نقاط الضعف في مرابض مدافع القوزاق.

ـ قل هذا من البداية يا قازبك! من زمن بعيد لم نطرق هذه الناحية. هذه مراصد القوزاق واضحة على الضفة اليمنى. وما إن تظلم الدنيا حتى تلمع مصابيحهم على ظهر المرتفع. قل لي بربك يا قازبك إن لم يكن سراً: ماذا حدثكم ذاك القوزاقي الأبرص ؟

ـ لا يسافر معاً من يكتم أحدهم سره عن الآخر يا بامبت. هذه عادة من زمن أجدادنا. لذا سأقول لك: سمعتَ ما قلنا ونحن في دار الإمارة. وعندما دعينا إلى المائدة دعونا إلى الله،وأكلنا، ثم شربنا الماء الزلال،ثم ابتهلنا إلى الله ثانية وانصرفنا.

ـ والقوزاق؟

ـ وهؤلاء، وإن سميناهم كفاراً، بشر. يُعزّون دينهم. رسموا إشارة الصليب وأكلوا.

ـ ماذا تقول يا قازبك؟ ـ لجم بامبت الحصان ووقف جاحظ العينين ـ الله الأحد الذي يتضرع إليه الجميع ولا يتضرع هو إلى أحد لن يغفر لكم، اقترفتم ذنباً؛ هذا حرام، حرام.

ـ وما ذنبُنا؟ نحن عملنا ما علينا أمام ربنا، وأمام ربهم عملوا ما عملوا. لا ضير في هذا. إن كانت نيتك خيراً قبِلَ اللهُ عملك.

ـ هذا صحيح ولكن... صعب أن تأكل مع من يرسم الصليب.

ـ اسمعوا ماذا يقول! ـ ضحك قازبك مرة أخرى بصوت خشن جهير ـ كيف إذن تستطيع أن تأكل الملح والسكر الذي تتبادله مع القوزاق؟ وكيف تلبسون ما يُصنع من قماشهم؟

ـ إذن قل لي لماذا تكره القوزاق يا قازبك!

_ إن كنت تظن السبب ديننا المختلفان فأنت مخطئ يا بامبت. نحن لا نسمح للأتراك أن يدخلوا أرضنا حتى وإن كنا على دين واحد.لا أقول إن علاقتنا بالقوزاق لا تدخل فيها مسألة الدين، ولكن من ينوي أن يسلبنا أرضنا وحريتنا، كائناً من كان، لا أقبل منه سلوكه. أتتذكر زمن حرب بزيقوه ماذا فعل بنا الفرسان القوزاق والمدافع التي أرسلتها قيصرة الروس إيكاترينا؟ من ذلك الزمان هؤلاء طامعون في أرضنا. والآن أحاطوا بنا تماماً.

_ صحيح يا قازبك، صحيح. لا ضير في كلامك ونحن معك. ولكن لا أوافقكم على سماحكم للقوزاق أن يرسموا الصليب على مائدة المسلمين. ادعوا ربكم يغفر لكم ذنبكم! وأنا سأدعوه من أجلكم. وأنت يا أغوي _ كان ينوي أن يناديه بلقب البطين الذي أطلقه عليه ولكنه أحجم _ لا تنس! واللهِ ما يحدثُ عجيبٌ. ولكنك يا قازبك لم تأت على ذكر السبب الذي استدعتكم من أجله عميدة آل سلطان؟

_ وهذا لن أخفيه. ولكن ثبتوا أنفسكم جيداً في سروجكم!

_ الله حامينا. ماذا يجري الآن؟ ارتعب أغوي.

_ قرؤوا عليهم الوصية الرجاء التي أرسلها محمد جري سلطان إلى الأتامان ماتفييف.

_ ماذا يقول في الوصية ؟ _ ابتسم بامبت _ واللهِ يعيشُ آلُ سلطان الأمراءُ هؤلاء حياةً عجيبة.

_ يتوسل إلى الجنرال يرمولوف أن يلحقوا أولاده بالجيش الروسي إن حدث له مكروه.

_ أستغفر الله! ما أسمعه عجيب، صرخ بشه ماف.

_ لا عجيب في هذا يا أغوي _ قال بامبت دون استعجال وكأنه كان يعرف الوصية _ "البلسان يزهر وكل واحد يعود إلى أصله ". على ما يبدو كان هذا النغوي الخائن يتوقع قتله. لأجل هذا يا قازبك يقولون " مهما أطعمت الذئب عاد إلى الغابة "... ماذا قالت عجوز آل سلطان الوقحة لمبعوثي القوزاق؟

_ ماذا كنت ستقول لو كنت مكانها؟ قالت: شكراً،سنفكر في الأمر.

_ لو كنت أنا _ جحظت عينا بامبت الباردتان _ لقلت: لما كان القوزاق يحبون التهديد بالقبضات كنت لوّحت لهم بيديّ. هكذا إذن، انظروا بمَ يفكر مع أنهم يقولون له لماذا سيقتلونه. ثم دمدم بصوت أخفض وهو يتذكر مخرج الغابة في ذلك اليوم: حسناً، هذا إن جعلوكم تحققون نيتكم.

II

مضى على بناء قلعة إيكاترينودار القوزاقية على ضفة نهر بشزة أكثر من خمس وعشرين سنة، وفي خلال ربع قرن _ بدءاً من شيبيغيه زاخار، وكوتلياريفسك، وتيموفي بورساك فيدور، وانتهاء بماتفييف غريغوري المعاصر _ تغير كثير في القلعة المرصد التي بُنيتْ في مواجهة الأديغة. وبالقياس، لا إلى عصر شيبيغيه بل إلى بوراسك الأتامان[1] الأول، لن تتعرف المدينة التي سموها باسم القيصرة إيكاترينا: في أرض القصب ارتفعت أبنية عالية مسقوفة بالقصب والقش أو بيوت مسقوفة بالعيدان أو بالطين الممزوج بالتبن ترى

[1] زعيم محلي عند القوزاق. المعجم الروسي

مكان الأقباء التي ترتفع منها مداخن رفيعة. وهذه البيوت مفصولٌ أحدها عن الآخر بالحدائق الفسيحة أو بالأشجار المثمرة. وبينها مراع للماشية وفسحات للدجاج. وتبدو من كل مكان الكنيسة التي بنوها في القلعة من الأخشاب. ومن جهاتها الأربع مكاتب الجيش. ووراءها شوارع عريضة تفصل عائلات القوزاق المحيطة بالقلعة. أبواب القلاع من جهة تامان وستافروبول والدون والأديغة عالية محكمة عريضة. ومن أي جهة جئت لا يمكنك أن تخطو خطوة خارج رقابة الحرس القوزاق. وكلما أوغلت في اتجاه الضفة العالية للنهر صوْبَ الأديغة ازداد عد الحراس القوزاق فرساناً ومشاة، موزعين في مجموعات من خمسة رجال إلى عشرة. وإن استنجد أحدهم بالآخر فكلهم ينتظرون إشارته. وعلى المصاطب الخشبية العالية يقف القوزاق ليلاً ونهاراً. وتحتهم عدد من رماة المدافع.

لا يحمي الرصاد القوزاق الجانب الأيمن من الضفة فحسبُ بل يتعدونها إلى نهر قراسو الصغير الذي يجري إلى الجنوب الشرقي من قلعة إيكاترينودار. وليست غابة البطم المتطاولة شمالهم بعيدة عن عيونهم. والجسر الترابي الوحيد عليه محروسٌ بمدفع جاهز دائماً. وحين تتجاوز ناحية باشكه إلى نهاية نهر لابا، وإلى الشمال منه، وإلى أبعد من بروشنوكوب وصولاً إلى ستافروبول، يتكرر المشهد. وإذا مشيت على الضفة اليمنى جنوب إيكاترينودار إلى أن تصل إلى تامان فلن تغيب عنك طلاقات القوزاق. والقبعات القوزاقية المتوَّجة برقعة حمراء وذؤاباتِ على الجباه كثيرةٌ في كل مكان. والهواء محمل بلغة " الخوخول[1]".

يجري نهر بشزة متعرجاً بين القوم المختلفين عِرقاً كأنه لا يريد أن يؤذي أحداً. ولا يسأل أحداً عن أصله أو دينه أو أفكاره أو نواياه أو لغته. وكما الشمسُ كريمة فوقه فالنهر كريم مع الجميع بمائه. يهطل عليهم المطر نفسه، ويهب عليهم الهواء نفسه. ويهدر فوقهم رعد واحد، ويملكون قبة السماء معاً. وهم متشابهون في الفرح والحزن، وإن اختلفوا في أعراسهم ومآتمهم وأغانيهم.

اليوم وصل الأتامان ماتفييف إلى مقر عمله قبل نصف ساعة. ولا يذكر أحد أنه فعل هذا منذ تولى زعامة القوزاق. وهو أيضاً تعجب من نفسه، وفتحَ الساعة الفضية على مهل وأطبقها. كان صباح الخريف تجاوز السابعة بدقائق.

لام ماتفييف نفسه: كنت أخرج في هذا الوقت فحسبُ من البيت. إرضاء القوزاق صعب مهما فعلتَ من أجلهم، حتى لو أطعمتَهم روحك. أكان الأتامان السابق فيدور ياكوفليفيتش بورساك هو المقصر في الإحسان إليهم؟ امتدحوه مادام على ظهر حصانه وعلى رجليه، وعندما غلبته الشيخوخة وثقلت حركته قال له الذين كانوا يحنون ظهورهم له " فعلت خيراً بأن انصرفت عنا " ولا أزال أتذكر كيف سلكوا معي حين قرروا اختياري مكان فيدور ياكوفليفيتش. لم أكن أريد تماماً زعامة القوزاق ولكن حين يُتداوَل اسمُك فمن الصعب أن ترفض، فرضيت بما كلفوني به. ولا أندم على ما فعلت ولو كان هناك من لا يريدني.

---

[1] تعني الخوخول ضفيرةَ شعر وحيدةً كان القوزاق يتركونها في الرأس الحليق.

منعت الشر بين القومين: القوزاقِ الذين أتزعمهم، والأديغةِ الذين تمتد أرضهم أمامنا. لا أقول إنهم لا يشتبكون أحياناً ولا يتقاتلون ولا تحدث بينهم فتن. ولم تبدأ عصابات الأديغة في الإغارة عبر نهر بشزة في عهدي بل من عهد الجنرال سوفوروف، نتصدى لهم ونعاقبهم بما يستحقون. ولكننا لا نفعل مثلهم فلا ندخل أرضهم. لم أصغِ إلى من يقولون: ونحن يجب أن نرد عليهم بالمثل، وليس هذا فحسب بل لم أوافق من وضعونا تحت قيادته: الجنرالَ يرمولوف. والجنرالُ القوزاقي فلاسوف، الذي أتونا به من الدون وسلطوه عليّ وإن لم أعارضه تماماً،يرسل لي أوامر شفهية وكتابية أنْ هاجِموا من يهاجم أرضكم واحتلوا أرضه ! ولكن ما لا يفهمه هو أمر واحد، وهو أن أرض الشيشان حيث هو، تختلف عن أرض الأديغة. صحيح أني لا أبرّئ قطاع الطرق الأديغة، هؤلاء تجاوزوا حدهم واستضعفونا... الرجل الذي جاءنا من سان بطرسبرج ديسكاسي رجل عاقل ومنصف. لا غبار على كلامه ولا على سلوكه " لا يجلب السلاحُ المشهر من الجانبين الخيرَ، بل إن وجد بين القومين بيع وشراء فسيقرب هذا بينهم وسينشر السلم "

الأتامان ماتفييف كهل ربعة قوي البنية، لحية شقراء وشاربان غير كثيفين ورأس مستدير وعنق غليظة. ويداه القصيرتان لا تناسبان جسمه الممتلئ. يرفعه عن أرض الغرفة قبعته التي يعلوها غطاء أحمر وجزمته العالية الكعبين. تنمُّ طريقة وقوفه على أرض الغرفة عن أنه رجل وقور وإن لم يكن طرف سيفه يصل إلى الأرض، ولا قامته إلى الركبة. أحياناً يقترب من النوافذ ويقف إلى جانب كل منها. وحين لا يجد مخرجاً من المشكلة التي يفكر فيها يترك النافذة ويتمشى بهدوء في أرض الغرفة. تتجاوز أفكاره مكتب عمله، تعبر حدود باشكوفسك وفاسيورينسك، بل طرف نهر لابا. تترك بروشنوكوب وراءها وتصل إلى ستافروبول. ولا تستقر هناك بل تسلك طريق الشيشان وتتجاوز أرض القبرتاي فتتوقف عند الجنرال الذي سلموه قيادة الجيش القوزاقي للبحر الأسود قبل سنة وهو قائد الجيش القوقازي المستقل الجنرال يرمولوف.وعندما لا يستطيع لجم أفكاره في حضرته يرجع بقلبه إلى ناحية تامان محاذياً الجانب الأيسر من أرض الأديغة. ولكنه لا يجد راحة في هذه المنطقة أيضاً. فالقضية الروسية والقضية الأديغية تطفوان على ما عداهما. ومع أن الجانب الأديغي هو بداية القلق فلم يعد هذا الأمر مهماً فالهمُّ الذي لا يدع له مجالاً للراحة هو الجنرال يرمولوف.

قال ماتفييف في نفسه: أرسل إلينا كثيراً من التعليمات المتعلقة بمجابهة الأديغة رغم أنه لم يمض أكثر من سنة على إلحاقنا به. يقسو علينا قائلاً " أنتم ساكتون؛ لا تُرون عصاباتِ الأديغة رجولتَكم، لا تغزون قراهم، لا تعاقبونهم بما يستحقون ". وحين زارنا لاختبار جيشنا القوزاقي لم يترك شيئاً لم يلمنا عليه: ما نستحق وما لا نستحق. وأجبرنا على أن نقتل ثلاثة أسرى من الأديغة في حضرته، وأرانا مع الأسير الرابع أن سيفه ليس مثلوماً. رصد الأديغةَ ثلاث ليال قائلاً: إن عبر الأديغة النهر فسنرد عليهم بالمثل، ولكن ضفتي النهر بقيتا هادئتين لحسن حظنا. ولم يكف هذا فقد أصر على أن ينقل قلعة إيكاترينودار إلى ناحية ميدفيدوفيسك بحجة أنها غير حصينة. ليس مُسِنّو القوزاق،ولا الأصاغر منهم، ولا شبابهم، مجانين فلم

يقبلوا منه مهما حاول حتى عندما كتب إلى القيصر. حتى لو لم يبق غيري فأنا مستعد أن أبني عدداً من القرى الروسية العمالية الصغيرة ولا أقبل له هذا. لن يصيبنا من هذا العداء القوزاقي ــ الأديغي الذي يحرضنا عليه إلا الشر. لا يتعادى الجيران بسبب أن دجاجاتهم تختلط أحياناً أو مواشيهم، أو لأن أولادهم يتشاجرون. نحن ننفذ تعليمات قيصرنا حماةً لأطراف الوطن الروسي. ولو كان بيننا وبين الأديغة حرب لكان لنا دون جدال تصرف آخر.

وقف غريغوري كوندراتيفيتش أمام النافذة المطلة على الجانب الأديغي. الشمس تبزغ ثم تختفي وراء السحب الرقيقة الضاربة إلى السواد. الطبيعة تتبع خطوات الشمس فتنير مرة وتخضرُّ أخرى. وأغلب الأشجار تخلصت من حملها رغم أنه بقي على ميعاد الشتاء أكثر من شهر، تجابِهُ الهواءَ بأغصانها العارية كأنها تريد أن تقول مع شيء من الحياء: نحن مستعدات للشتاء. وتظهر شجرة غير عادلة في نثر أوراقها اليابسة في الحديقة المجاورة أمام البناء المسقوف بالقصب. وإزاءها شجرة أخرى عارية دون حياء. تذكر الأتامان الحديقة الواسعة والبيت فيها والأشجار المثمرة وصاحبها المقدم تابانيس.

قال الأتامان: عجيب تأخُّرُ تابانيس، ليس من عادة سميّي غريغوري كوندراتيفيتش. كان يأتي قبل موعده بساعة. لا أعرف ماذا حدث معه اليوم. أمن المحتمل أنهم لم يرجعوا؟ لا يمكن أن يحدث مثل هذا. لماذا نتهم الأديغة بما ليس فيهم بحجة أنهم أعداؤنا؟ لا يمكن أن يعاملوا أبناء قومنا بما لم يكن من عاداتهم طوال عمرهم. أهذه أول مرة يأتوننا أو نأتيهم؟ لم يمض غيرُ أسبوع على زيارة قوم تابانيس لآل سلطان في جنازة محمد جري. رجعوا مثلما أرسلناهم مندهشين مما رأوا. ولا أظن أنه حدث لهم سوءٌ أمسِ. ما يقلقني، جزءٌ منه من مسؤوليتي: لم أقل لهم " ابحثوا عني متى عدتم من مناسبة لِمّ ثيابِ المتوفَّى مهما كانت الظروف وأخبِروني بما جرى"،أشفقت عليهم كي لا أُتعبهم؛ جلبتْ لي طيبتي قلقاً في غير أوانه. وطيبتي هذه هي التي يعتبرها خصومي في قضية القوزاق مَثْلبة وتراخياً. يُصوّرونني عجوزاً مضعضعاً خائفاً من امتطاء حصاني، متسامحاً مع الأديغة أكثر مما ينبغي، وكأني من أصل أديغي. أقليلٌ مَن سقط برصاصي أوبسيفي أوبقامتي من بين لصوص الأديغة الذين عبروا نهر بشزة؟ لم أسمح لأحد أن يعيّرني بالجبن في شبابي، ولن أفعل في شيخوختي. ولكن عندما يضعون في تصرفك جيش البحر الأسود القوزاقي كاملاً تنتصب مهمات كثيرة أمامك يجب أن تفكر فيها. لم أصل إلى سن أعجز فيها عن امتطاء الحصان ولكن عقلي يلجمني. والوحيد من بين قيادات القوزاق الذي لا يسمع كلمتي هو فلاسوف الذي ضمه يرمولوف ألكسي بيتروفيتش إلى ولائه. لا يصدِّقُ المرء أن فلاسوف ويرمولوف لم يخرجا من رحم واحدة في مسألة الأديغة؛ قد يختلف الأخوان في الرأي ولكن هذين لا يختلفان.

قال الأتامان في نفسه وقد تنفس الصعداء: وأخيراً تحركتَ! عندما رأى المقدم تابانيس يحثّ الخطا من وراء السور، ترك النافذة بسرعة، وجلس على المقعد الكبير المصنوع من البطم، وعقد زرّ قميصه العلوي، وثبّت

قبعته، ووضع أمامه عدة أوراق وفوقها ما يخص يرمولوف والقلم الذي جفت ريشته. وقرع الجرس أمامه بتشفٍّ،وقال لقائد المئة الذي استدعاه:

ــ من المقرر أن يأتي إليّ المقدم تانابيس فلينتظرني! يجب علي أن أجيب حالاً على هذه الأوراق التي وردتني

ــ وقرّب الأتامان الأوراق إليه، وقال لقائد المئة الخارج من الغرفة: وإن وصل ديسكاسي فأدخله فوراً!

وما إن خرج قائد المئة من الغرفة حتى ضحك الأتامان بصمت من بين الشوارب واللحية غير الكثيفة قائلاً: لا بأس أن يجلس بعض الوقت على بابي ينتظرَني! يكفي أنه ظل مشرعاً أمام الجميع كل هذه الأيام. صدق من قال " يضرُّك أن تعمل الخير دائماً ". إنّ هوى تابانيس مع الجنرال فلاسوف وإن لم يستطع التصريح. وإن سُمح له فهو مستعد أن يحرق القرية الأديغية التي أرسلتُه إليها عن بكرة أبيها دون أي اعتبار. ومع أني أشهدتُه جنازة المسنّ الذي انضم إلى جيشنا القوزاقي فلم تعد إليه رحمته. استاء مما رآه؛لا يجوز أن يعيش الإنسان بمثل هذا القلب.

والأديغة ليسوا طيبين. وماأكثر ما فعلنا أنا وديسكاسي من أجلهم حتى لا يغِيروا علينا. أقمنا قراهم قريباً من نهر بشزة قاصدين مزيداً من الصلح والجوار المسالم بيننا، وفتحنا لهم من جهتنا الأسواق. ولكن لم يثنهم ما فعلنا لأجلهم، فما أكثر ما أغاروا العام الماضي وما قبله على القرى العمالية الصغيرة، وقتلوا وأسروا وعبروا النهر بمئات الماشية. وفي شتاء هذه السنة وربيعها أغاروا ثلاث أو أربع مرات على قرى مختلفة. لا يخلو كلام فلاسوف من حقيقة: أذاهم يفوق ردود أفعالنا. كان توجيه القيصر الكسندر الأول ومندوبه ديسكاسي هو ألا ندخل أرضهم مهما فعلوا بنا، ونكتفي بأن نرد على غاراتهم ونعاقبهم، لأن دول العالم وعلى رأسها تركيا وانجلترا ستثير لنا المتاعب. والعجيب أن هؤلاء لا يعرفون أنه لا وجود لمظاهر تدخل تركي في أرض الأديغة. وحين عاتبْنا باشا الأتراك المقيم في قلعة أنابه بشأن غارات الأديغة كان ردُّه مضحكاً " الأديغة قطاع طرق؛ إذا أغاروا عليكم فأمسكوا بهم وطوّقوهم بالأحجار وارموهم في نهر بشزة، وأنتم احموا حدودكم بكل ما تستطيعون " وهذا يُظهر أن الأديغة لا يقيمون اعتباراً للترك، ولا شأن لهم بقضيتهم، في حين نخدع أنفسنا بأن نعتقد أن لنا عملاً مشتركاً مع باشا قلعة أنابه. ومهما كان فسنحمي حدودنا بكل ما نستطيع، ولا شأن لنا بالضفة الأخرى لنهر بشزة فلن نعبره. سأطيع أوامر القيصر وأحرّكُ من أجله جيشي كله، ولكن لن أتصرف تبعاً لأهواء يرمولوف وعناده. وأما ديسكاسي ــ وليس رأي منتقديه خطأ ــ فعليه أن ينتقد نفسه في ما أبدى للأديغة غير الأوفياء من طيبة في التعامل؛ وإلا سببوا لقيصرنا الحرج أمام الدول المعادية. من جهتي كنت صادقاً مع قائد الجيش بوتيمكين وكنت في عداد الذين احتلوا أوجاكوفي وإيزمانلي وبيريزاني، وحاربت مع غولوفات في بيرسيمي. وكنت إلى جانب بورساكي. وحين قُتل بوليفاد كنت أحمي إقليم نهر الدوناي قائداً للمشاة. وحصلت على وسام الصليب في روشكا وجورجيا. وخرجت من حرب نابليون برتبة مقدم.. وعندي وساما فلاديمير وآن حصلت عليهما في الحرب. أأنا من يفتقر إلى الرجولة والصدق؟ ولكن حيث لا حرب ولا يلمْني أحد ! ــ لا أستطيع أن أكون بطلاً.

نهض الأتامان بسرعة على غير عادته، ومد قامته المتينة أمام صورة الرب، وقبّلها ثلاث مرات متتالية، ورسم إشارة الصليب، وتوسل إليه أن يغفر له خطاياه إن فعلها. ورجع إلى مقعده مرتاح الضمير، ربما بسبب وقوفه أمام الرب. وبعد أن أهدر بعض الوقت الإضافي رن الجرس بمؤخرة قبضته السمينة، وارتاح بجسده الثخين القصير على مسند كرسيه. ونظر إلى الساعة.

قال لقائد المئة الذي دخل الغرفة:

ــ أدخل إليّ المقدم تابانيس! وبعده من ينتظرني؟

ــ ثلاثة قوزاق جاؤوا من ناحية فاسيورينسك أيها الأتامان.

ــ ماذا يريدون؟ ومن أيّ أُسرٍ هم؟

ــ لم يكشفوا لي ما يريدون، وقالوا إنهم سيقولونه للأتامان عند مقابلته. أحدهم كاشورا والثاني بادينكو والثالث تكاشينكو.

ــ من ذكرتَ أسماءَ أُسرِهم هم من معارفي، من القوزاق الرجال حقاً. هؤلاء لن يقفوا على باب أحد إلا في حال الضرورة القصوى. يبدو أن مشكلةً ما جعلتهم يركبون إليّ. ليدخلوا مع تابانيس!

حين ظهر القوزاق استقبلهم ماتفييف متجاوزاً تابانيس، وصافحهم مردداً اسم كل منهم ومرحباً به. ثم جاء دور الرجلِ الأشقر الجسيم الكثِّ اللحية والشاربين المقدمِ. لم يقبل الأتامان من ضيوفه القوزاق أن يجلسوا في المقاعد القريبة من الباب:

ــ لا تفعلوا هذا أيها القوزاق! البيت بيتكم. ومن قصدتموه هو أتامانكم. ارتاحوا هنا حيث جلس سمِّي غريغوري كوندراتيفيتش!

قال تابانيس في نفسه: انظر كيف يتصرف الأتامان المنافق أمام القوزاق؛ أنت فتحت الباب للأديغة لينهبونا بحجة أنك تؤلّف قلوب هؤلاء في حين لا تصغي إلى شيء مما نقول لك عن أعدائنا. أنت تحتمي بديسكاسي منفذاً أوامره بحجة أنه مندوب القيصر. وجعلت من مقتل أمير أديغي خدم في جيشنا متردداً قضيةً خطيرة. وبدلاً من أن نقتِّلهم جعلتنا نزورهم مرتين، وحملتنا على أن نعلن الحداد عليه. إن كان أحدهم قتل عميد آل سلطان على الطريق فما العجيب في هذا؟ وهل الذين نخسرهم كل يوم أقل منه شأناً ؟ لم نثأر لأخي الأكبر ولعمي الأصغر ولمئات غيرهما من القوزاق. كم من أسرانا رجالاً ونساء يحتفظ بهم الأديغة وراء النهر؟ وبدلاً من أن تنتقم لهم تقول للضيوف بنفاق واستمالةٍ لقلوبهم: "البيت بيتكم، ومن قصدتموه هو أتامانكم، تفضلوا اجلسوا! " لوكنت مكان هؤلاء لرميتك خارج هذه الغرفة منذ زمن بعيد. أهملوا الحدود التي خطها لنا قيصرنا لأنك سمحت لعامّةِ القوزاق والأعلى مرتبةً وقادةِ جيش القوزاق أن يفعلوا ما يشاؤون ويديروا شؤونهم بأنفسهم، ويتصرفوا بالمال ويُغنوك منه. وهذا ما جعل الأديغة يتجاوزون حدودهم. وهذا ما لا يقبله يرمولوف وفلاسوف، وليسا وحدهما فنحن أيضاً...

_ ما أخبار ناحيتكم فاسيورينسك؟ _ سأل أتامان القوزاق _ أما انتهيتم من جني محاصيل بساتينكم وحقولكم؟ كم بوداً[1] من القمح والشوفان ودوار القمر محصولكم؟

_ لا بأس بمحصول قمحنا وكذا الشوفان ودوار القمر _ قال كاشورا القوزاقي ولكن الأتامان لم يدعه يكمل ما بدأه:

_ والبطاطا يقال محصولها جيد هذا الموسم.

_ القمح والبطاطا والشوفان ودوار القمر والفواكه كانت خيراً علينا السنة. ولكن عيشتنا صارت صعبة.

_ ما الذي يزعجكم؟ _ قال الأتامان حادساً ما سيقولون.

_ الأديغة استضعفونا، يسطون علينا دائماً، يحرموننا من وسائل العيش.

_ ماذا يفعل بكم الأديغة؟ _ سأل الأتامان لكسب الوقت وعلى وجهه عدم ارتياح للجواب.

لا يريد ما يقولونه.ابتسم تابانيس خِفية وكأنه يقول: صارِحوه! لا تُخْفوا شيئاً، قولوا أكثر! تجرَّؤوا عليه! إنه غير مهموم بمشاكلكم، بل يجلس في دلال معتدّاً بنفسه كعجوز وسيم. قولوا له ونحن أيضاً نقول له نفس الكلام. لا يعتدّ بنا. يتهمنا بالظلم المفرط، بل يلومنا متذرعاً بحكمة قيصرنا.

ما الذي لا يجده هؤلاء؟ ضاق صدر الأتامان. محاصيلهم أخصبت ومواشيهم لا يعرفون عديدها. وأشجارهم المثمرة كانت كريمة معهم... إن كان الأديغة تسلطوا عليكم فاحرسوا حدودكم ليلاً ونهاراً، ولا تغفلوا عنها. لا تهجروا مراصدكم وتناموا إلى جانب نسائكم في الليل، ولا تنسوها وأنتم تغازلونهنّ . لو كنت أعرف أن هذه هي شكواكم ما سمحت لكم أن تفشوها في حضرة تابانيس، في الوقت الذي يبحثون فيه عن أي وسيلة لاتهامي وإيذائي. يفرحون بأي شيء يتحججون به. ولكن مهما انتقدوني فأنا أنفذ الأوامر ومخلص لقيصري.

بدا للأتامان ماتفييف أنه شرد بأفكاره فقطع كلام القوزاقي بادينكا:

_ أسمعك، أسمعك _ انتبه الأتامان إلى نفسه وبدأ يوافقهم خلافاً لما في نفسه _ أفهم ضيقكم وأفكر فيه وأبحث عن حلول له. الأمكنة التي تضعف فيها الحراسة القوزاقية يستغلها الأديغة. لن يفوّت القُطّاع من أمثال توغوظقوه قازبك هفوات كهذه. أليس صحيحاً ما أقول يا غريغوري كوندراتيفيتش؟

وافق تابانيس بإيماءة من رأسه دون أن يقول شيئاً.

_ في الأسبوع القادم سنأتي إليكم إلى فاسيورينسك _ قال الأتامان محاولاً ألا يصرف مزيداً من الوقت في مسألة الأديغة _ وكنت أنوي هذا من قبل. لست مرتاحاً إلى الأخبار التي تأتي من طرفكم. والرائد بروكودين وقائد المئة ناليبايكا وغيرهما من القوزاق لا تعجبني أعمالهم. سنتفحصها ونقوّمها، وسنعقد اجتماعاً للناحية.

---

[1] مقياس روسي = 16،3 كغ.المترجم

ـ شكراً يا غريغوري كوندراتيفيتش، أرحتنا ـ قال القوزاقي كاشورا ما إن وجد منقطعاً للحديث. ـ ولكن لم نأت من أجل الشكوى. زعماؤنا لا يدَعوننا نشكو من شيء.

ـ ماذا إذن إن كنتم راضين عن زعمائكم؟ ـ ابتسم ماتفييف دون أن يرفع رأسه الثقيل ـ لماذا ركبتم إلى ناحيتنا؟

ـ وهي الأخرى تتعلق بالأديغة يا غريغوري كوندراتيفيتش ـ ساهم في الحديث تكاشينكا الذي كان صامتاً إلى الآن كأن فمه مَخيط.

ـ منذ أكثر من شهرين يا غريغوري كوندراتيفيتش ـ أكمل كاشورا حديثه ـ بأيدينا أسير من الأديغة. وجاري هذا بادينكاسافيلي بيتروفيتش ابنه أسير عندهم، عبروا به النهر. يسرنا، إن كنت تحب أن تساعدنا، أن نبادل أسيرنا به.

ـ أتعرف أين ساقوا ابنك؟ ـ سأل المقدمُ تابانيس وهو ينظر إلى بادينكا بإشفاق، ثم سأل الأتامانَ:

ـ لو كانت الأمور تجري كما نريد ـ مع أن الأتامان ماتفييف فهم أن المقدم كان لطيفاً معه، فقد دمدم معبراً بعينيه الخضراوين المتعبتين عن عدم ارتياحه لما قاله في حضرة القوزاق ـ لو كان يعرف أين ذهبوا بابنه لافتدوه هم دون حاجة إلى تدخلنا.

ـ سألنا عنه عند الأبزاخ والبجدوغ ـ استعجل بادينكا بصوت أجش، ومد أصابعه المتشققة إلى عينيه ـ انشقت الأرض وابتلعته، لو ضمنت عودته لبعت كل ما عندي لافتدائه.

ـ طبيعي أن تفتديه ـ لمعت عينا كاشورا السوداوان من بين لحيته وشاربيه الأسودين.

ـ قل لي ما اسم ابنك وما عمره؟ ـ أمسك ماتفييف القلم وسأل.

ـ بانتالي ـ وكأنه كان ينتظر هذا السؤال ـ أجاب كاتشينكا العجوز مسرعاً.

ـ بانتيلي سافيليفيتش اسم الفتى يا غريغوري كوندراتيفيتش وعمره ثمانية عشر عاماً فحسبُ .. لم يكتمل نموه بعدُ، وهو ابني الوحيد ـ انفجر بادينكا مرة أخرى نافد الصبر.

ـ كفاك يا سافيلي بيتروفيتش ـ نصح الأتامان الأب القوزاقيَ بصوت شفيق ـ نحن نتفهم مأساتك، وليس بيننا من لا أولاد له، ومن هو محروم من الشفقة. اليوم سنخبر معارفنا الأديغة الذين يسكنون وراء نهر كوبان. وسنطلب منهم أن يبحثوا عنه. ثقوا بنا من هذه الناحية! وخبروا القوزاق جماعتكم بهذا.

عندما انصرف القوزاق الثلاثة الآتون من فاسيورينسك من مكتب الأتامان قال تابانيس:

ـ ليس من عادة الأديغة أن يتأخروا في الإخبار؛ كيف لم يخبروا بادينكا إلى الآن؟

ـ ربما لم يجدوه! ـ قال الأتامان دون اهتمام غارقاً في أفكاره.

ـ انتظروا وقتاً طويلاً؛ من عادتهم أن يخبروا في اليوم الثالث.

ـ ما المهم إن كان هذا موعدهم أم لا؟ ـ أزاح ماتفييف الأوراق التي أمامه ـ لا يجوز أن نتغافل عن مأساة بادينكا سافيلي بيتروفيتش، لن يتفهمنا القوزاق.

ـ هذا كلام منصف يا غريغوري كوندراتيفيتش ـ وافق تابانيس الأتامان مرتاحاً إلى كلامه.

ـ إذن ابحث عنه أنت أيضاً! وأنا سأكون عند كلامي، وسأطلب من ديسكاسي أن يتدخل لأن الأديغة أصدقاؤه ـ هذه شِرعة الدنيا، ليست الحياة سهلة، ولهذا كان أجدادنا يقولون "ليس من السهل الحياة في عالم اليوم " ثم ما الأخبار حيث كنتم؟

ـ ماذا سيكون في المأتم من أخبار يا غريغوري كوندراتيفيتش؟ المسلمون قرؤوا القرآن وأكلوا ودعوا إلى الله بأذرع مرفوعة ثم تفرقوا... مهما فعلنا من أجلهم وحزنّا لحزنهم وأحسنّا إليهم فهم يكرهوننا. ينظرون إلينا شزراً ولو ابتسموا في وجوهنا.

ـ ربما عرفك بعض من اعتاد أن يعبر نهر بشزة ـ ابتسم ماتفييف ثم رفع رأسه الثقيل وسأل ـ أيمكن أن يكون أحد أهانكم؟

ـ لا يا غريغوري كوندراتيفيتش! الأديغة يحترمون الضيف، وقد تعاملوا معنا وفق هذه العادة. ولكنهم يكرهوننا رغم ذلك.

ـ ـ هذا شأن آخر ـ قال الأتامان بعد وقفة قصيرة ـ ثم أضاف محدثاً نفسه مُسمِعاً جليسه: ـ يعاملوننا كما نعاملهم.

ـ ولكننا لسنا الذين يعبرون نهر بشزة، إنهم هم.

ـ في عهد الأتامان كوتليافيرسك والأتامان بورساك تذكَّرْ؛ أنحن الذين لم يكونوا يعبرون نهر بشزة؟ أنحن، وأنت أولهم، من كان لطيفاً مع الأديغة؟ ها هي النتيجة. لا يفعلون بنا ما لم نفعل بهم. ولكن هذا أمر آخر. ثم ماذا قالت لكم عمة محمد جري سلطان في ما يتعلق بوصيته عميد أسرتهم القوزاقي؟

ـ شكرتْنا. وقالت " سنفكر في رجاء محمد جري، وسنتباحث فيه، وسنسلك الطريق الذي نراه مناسباً ". ولكن حين بقينا وحدنا قالت إنها ستنقل إليك وجهة نظرها الخاصة، في زيارة إليك، يا غريغوري كوندراتيفيتش؛ فوجب أن أبلغك.

جلس ماتفييف مدة تعبث أصابعه الغليظة القصيرة بالأوراق التي أمامه. ومرت من أمام مخيلته متراكضةً متزاحمة وصيةُ محمد جري عميد آل سلطان ، والقوزاق الثلاثة الذين رجعوا إلى فاسيورينسك، وعدوه الذي يخفي عداوته الجنرال فلاسوف، وابن بادينكا الذي عبروا به النهر أسيراً، والأسير الأديغي عندهم. ثم اختتم:

ـ على ما تقول ستكون عندنا ضيفة. حسن، سنسمعها، سنسمع منها ما تريده بالضبط. ولكن أتعجب كيف ستزورنا دون أن تحسب حساب قومها. الواضح أن كلاً من الطرفين يحتاج إلى الآخر مهما تعاملوا معنا أوتعاملنا معهم.

III

في اليوم التالي حمل الفارس الذي أرسلوه إليه من إليزابيتينسك خبراً سيئاً:

_ هاجم المغيرون الأديغة الليلة الفائتة إليزابيتينسك أيها الأتامان!

_ أهناك قتلى أوجرحى؟ _ قال الأتامان وهو يركب حصانه.

_ قُتل اثنان وجرح ثلاثة _ أجاب المبعوث المرافق له باختصار.

_ وأين كان الرصاد القوزاق؟

_ كان القتلى والجرحى على المرصد الأول العالي. وهناك قوزاقي آخر مفقود. وهناك من يقول إنهم خطفوه إلى ما وراء النهر.

ولما كان من عادة القوزاق أن يلحقوا ببضعة الفرسان الذين يفزعون في مثل هذه المناسبات، ولأن قائد الجيش القوزاقي للبحر الأسود على رأس الحملة لهذا الغرض، فقد هب كثيرون من الناس إلى خيولهم على وقع حوافر الخيل التي عبرت إيكاترينودار وعلى أصوات الأجراس في السَحَر.

رأى الأتامان ماتفييف عندما التفت زهاءَ مئة فارس. وكان آخرون يلتحقون بهم من شوارع مختلفة. وفجأة أوقف الأتامان حصانه، ولو أنه كان سعيداً للاستجابة الفورية من الفرسان للمأساة التي حدثت، وتوجه إليهم وقال في عتاب هادئ لا يترك في النفس جرحاً:

_ شكراً لكم أيها القوزاق على سرعة تلبيتكم؛ ولكننا إن فزعنا بعد المأساة بهذا العدد فإن أهالي الضحايا لن يعتبروه لنا من قبيل الشجاعة. لا نجعلْ من قلعتنا نقطة ضعف فمن يدري ما يحدث؟ ليخرجْ منكم عشرة فرسان وليعدِ البقية إلى أماكنهم! لن نتركك بلا أخبار عن الكارثة التي حلت بإليزابيتينسك. وسنجعل المذنبين يدفعون الثمن. وسنقدم للقتلى والجرحى ما يستحقون.

_ من تحُمّله المسؤوليةَ أيها الأتامان؟ _ صرخ زابرونا العجوز القوزاقي من بين الفرسان وهو يلوّح بطرف السوط،موجهاً إياه إلى جهة النهر. ثم سأل بصوت أحزم _ أتحمّلنا نحن القوزاقَ المسؤوليةَ أم اللصوص الأديغة؟

تبين أن الأمر غيرُ ما توقع الأتامان؛ قال كلاماً واضحاً ولكن دون انفعال. قال: هذا أيضاً ممن يكرهونني، من صف تابانيس، يماريني دائماً. تعرف الإنسان من مظهره. أكله الحقد ويبّسه. لن يشكرك مهما فعلت من أجله. لن أجعل منه موضوع اهتمامي اليوم، كما فعلت في الأيام الأخرى، في حضرة القوزاق. ستجد من يتصدى لك يوماً ما وأنت مشغول بمشاكستي.

_ يا تروفيم كوندينوفيتش _ قال الأتامان دون خشونة _ نحن لا نغير على أحد، نحمي حدودنا. ننفذ ما كلفنا به قيصرنا. أكنّا نعجز عن عبور نهر بشزة لو كلفنا باجتيازه؟_ وحين بدأ الأتامان بذِكر القيصر سكت بعض القوزاق الذين كانوا يصيحون من الجمع، واطمأن قلب الأتامان أيضاً، وشحن كلامه بمزيد من التصميم. ورفع ساعده الغليظ ورأسه الثقيل وكتفيه المدورتين _ ولذا نحن رجال القيصر، تجمعنا إنسانيته ولا تسمح لنا أن نفعل ما لا يجوز فعله. أيها القوزاق قلت لكم وأكرر ما قلت: لن أقبل من أحد، بمن فيهم شخصي، ألا يطيع أوامر القيصر ولن تقبلوا مني. لست جاهلاً بالمذنب والبريء، والمهمة التي ألقوها

على عاتقي تجعلني أتطلع إلى ما هو أبعد ممن يصيحون منكم. أزعيمكم الأتامان من لا يتألم لما يحدث؟ ولهذا افهموني، ولا تجرحوا قلبي! _ ثم أمسك منديله الأبيض الصغير وتظاهر أنه يمسح دموعه. ثم اختتم: لِيتبعْني، كما طلبت منكم، نحوُ عشرة فرسان، وليرجع الآخرون! وأنت يا تروفيم كودينوفيتش امضِ معي إلى إليزابيتينسك. وسنفكر معاً في ما حدث لأن الجنرال فلاسوف و المقدم تابانيس في تلك الناحية.

لم يقف قائد المئة زابروين الذي اصطحبوه معتداً بشارات كتفه إلى جانب الأتامان. ولم يميز نفسه بين الفرسان العشرة الذين معه وإن كان أَوجَهَهم. كانت أفكاره متلاطمة في الخفاء مع أنه فهم الكلمة المداهنة التي ألقاها الأتامان، وتمنى الرد عليها، ولكنّ ذِكْر القيصر منعه.

ليس أتامانناكما نظنه تماماً، قال زابروين، وصهري تابانيس مخطئ. وندع الجنرال فلاسوف يخدعنا. إنه يتملص منا كالسمكة مهما تصرفنا معه، وإن ضبطناه في موقف غير صحيح، ولو حصرناه في أعمق أعماق الماء. وهاهو الآن استطاع أن يطوّع كل هؤلاء القوزاق. وغيَّر نظرتهم إليّ. ما الخطأ الذي قلته؟ أيمكن أن تسحق كل هؤلاء الأديغة الذين يعبرون النهر؟! ألا تسمع ما يقوله إذا قلنا له سنعبر النهر ونفعل بهم مثل ما يفعلون بنا ؟ ملجؤه دائماً هو القيصر. من هذه الناحية لا اعتراض لدي؛ هو صادق في هذا. لا أستطيع أن أقول إنه يقدم معبراً للآخرين، ولكن حياتنا ليست مجموعة أوامر فحسبُ. يحدث فيها ما لا نوده وتجبرنا أن نفعل ما لا نريد. وما يقوله عن أنه يجب أن يُذكَّروا بأن ميخائيل غريغوروفيتش فلاسوف دخل أرض الأديغة مرة صحيح. وعندما أحرقنا في عهد الأتامان بورساك بعض القرى في إقليم الشابسغ والناتخواي استرحنا سنوات عدة بما عبرنا به من قطعان المواشي ومنهوبات البيوت. لا أقول إنه لم يغر علينا بعدها جماعات من اللصوص، ولكن حالنا اختلفت عن هذه السنوات القليلة التي نكّدوا فيها حياتنا. أخبِروا القيصر، لوموه! إنه الآخر إنسان سيفهمنا وسيبرر سلوكنا. لن نستطيع أن نعيش بتوجيهات ديسكاسي الذي ليس من عرقنا. إن كنا محظوظين كتب، كما قال ألكسي بيتروفيتش يرمولوف قبل أيام، إلى القيصر وحكى له مأساتنا نحن القوزاق. وإلا فبحجة أننا لطفاء مع المسلمين دمرنا أنفسنا على أيديهم.

صرخ الأتامان إلى الفرسان وراءه وقد لاحت إليزابيتينسك من بعيد وهم يمشون إلى جانب النهر: _ يا قائد المئة زابروين لماذا لا تقف إلى جانبي؟ أفي قلبك عتبٌ عليّ يا تروفيم كودينوفيتش؟

_ لماذا أعتب عليك؟ _ قال زابروين معتداً بنفسه عندما حث الحصان فأصبح إلى جانب الأتامان. _ لو ادّعيتَ أنك حرٌّ في ما لست حراً فيه لعاتبتك. أنت غير مسؤول حسب ما شرحت.

_ يسرني أنك تتفهم هذا جيداً ولكن لا شك في أن من نذهب إليهم من أهالي الضحايا سيحملونني المسؤولية. ما يجعل الناس يقولون:" القوزاق قوزاق" هو فردانيتهم في الحياة وطريقة تفكيرهم وطريقة كلامهم. ما لمحتَ به إليّ _ سترى _ سيتهمونني به. ثم توجه إليه برأسه الثقيل الضخم وابتسم في وجهه وأردف _ لو لم يكن القوزاق هكذا لما كانوا قوزاقاً؛ أليس صحيحاً؟

_ هذا صحيح _ بدا من صوت زابروين أنه مسرور لما سمع وشهد عليه _ لو لم نكن هكذا أكنا تركنا زابوروج[1] وجئنا إلى هذا المكان البعيد !

_ ونحن تحثنا الحرية _ قال ماتفييف بين المزح والجد _ اصطدمنا على ما أظن بالأديغة العنيدين الذين كانت الحرية دائماً في حوافر خيولهم.

_ وهذا فيه جانب من الحقيقة.

_ ما يجعلني أقول هذا هو أن القوزاق والأديغة يبدون متكافئين في هذا المجال.

_ لو لم يكونوا مسلمين _ دمدم زابروين _ لانسجمنا أكثر.

عندما خرج الفرسان القوزاق من وراء غابة البرقوق البري اندفعوا في الطريق الوحيد المؤدي إلى إليزابيتينسك، وتركوا وراءهم بضعة بيوت مسقوفة بالقصب والقش، وتوجهوا إلى المرصد الذي أحاط به الناس.

رأى الأتامان بين الناس والفرسان المتجمهرين الجنرال فلاسوف والمقدم تابانيس.ومن طريقة تفقدهما للجثتين بدا أنه لم يمض طويل من الوقت على وصولهما. وجريح معصوب الرأس يروي للحضور ما حدث. أفسح الناس الطريق للأتامان. ورفعت النساء اللواتي كنّ على رأس الميتَين عقيراتهن عندما رأين زعيمهن. وصافح فلاسوف وتابانيسا الأتامان مع إيماءة ترحيب من الرأس.

_ ثم ماذا حدث الليلة معكم أيها القوزاقي؟ _ قال الأتامان بصوت تغلبه الحدة للقوزاقي المعصوب الرأس، ولكنه سرعان ما لطّف صوته شاعراً بالذنب ـ ارو، ارو ما حدث معكم! أجُرحُك بليغ؟

_ لا، ليس جرحاً عميقاً، مجرد خدوش.

_ لماذا عصابتك سميكة جداً إذن؟ _ بدا من صوت فلاسوف عدم ارتياحه لما سمعه، ونظر إلى تابانيس.

_ هذه؟ هذه وضعتها لي ماروسا زوجتي رغماً عني _ ولام زوجته وهو يزيل العصابة عن رأسه وقد عاد إليه الأمان _ ألم أقل لك يا ماروسكا: لا تدعي الناس يضحكون منا؟!

_ مَن بين هؤلاء عنده من الرجولة ما يكفي ليضحك منك يا غريشكو_ صاحت امرأة نحيفة من وراء الناس المتجمعين.

_ اسكتي ماروس، اسكتي _ لم يقبل الرجل الضخم الذي تجمد على جانب رأسه شيء من الدم _

لا يقال مثل هذا أمام الأتامان قائد الجيش القوزاقي للبحر الأسود.واخجلوا من رفيقيّ اللذين ماتا _ وتكسر صوته عندما نظر إلى رفيقيه الممددين أمامه.ولكنه سرعان ما انتبه إلى نفسه فاستعاد توازنه _ ماذا أقول يا غريغوري كوندراتيفيتش؟ كما ترى، في منتصف الليل حدثت المأساة؛ هاجمَنا الأديغة وغلبونا.

_ كم شخصاً كانوا؟ لم يطق تابانيسا صبراً.

---

[1] منطقة في أوكرانيا. المترجم

ـ ومن عدّهم؟ في حدود العشرين.

ـ وأنتم؟ ـ لم يسكت تابانيس إلى الآن.

ـ نحن كنا ستة.

ـ وأين الباقون؟

ـ هؤلاء، لأنهم لم يزوروا بيوتهم منذ أسبوع، أرسلناهم ليبيتوا فيها ـ قال غريتشكو الحقيقةَ عارية.

توقف تابانيس عن استجوابه بعدما أفهمه الأتامان بنظراته عدم رضاه. وفي هذه اللحظة وصلت عربات نقل الجثث. وأفسح المتجمعون الطريق لها، وسرت همهمة فوق رؤوسهم.

تبع الأقارب الأقربون عربات الجثث. فقل عدد المتبقين وخصوصاً من النساء. وانصرف عدد من المسنين الذين حضروا بسيوفهم المشهرة ومذاريهم يلغطون بشتائم على الأديغة، ولا يوفرون الأتامان من لومهم سراً وعلناً. ولحقت بهم النسوة اللواتي كن يؤشرن بأيديهن باتجاه الأديغة مع الأطفال. التفتت عجوزٌ عاليةُ الحذاء عبوسٌ إلى الوراء مرة ثم مرة، ثم توقفت ورمتهم:

ـ هذه عاقبة إهمالك أيها الأتامان غريغوري كوندراتيفيتش. ألا تُعرّفُ المسلمين قَدْرَهم ولو مرة! إن كنت خائفاً فسأركب معك بصحبة عجوزي الأعرج الذي قطع الأديغة رجله.

وانصرف العجوز يظلع، يرمي قادة القوزاق بنظرات ذئبية دون أن يقول شيئاً لزوجته.

التفت الأتامان إلى قائد المئة زابورين قائلاً له: أما قلت لك ونحن قادمون إنهم سيحملونني مسؤولية ما ليس لي فيه قرار. ونظر إلى مرافقه يقول له بنظراته: وهذا ما في قلوبكم أنتم أيضاً ولو أنكم لا تستطيعون الإفصاح. ولم ينس كذلك الجنرال فلاسوف. ونظر نظرة تأنيب واحتقار إلى غريتشكو أحد الرصاد القوزاق الذين لم يقدروا على حماية أنفسهم. تجرون علينا أفدح المصائب بحجة أنكم لم تناموا مع نسائكم طوال أسبوع، وتسكَرون وتغنّون. وتجعلوننا مسبة للمسنين وللعجائز اللواتي لا تتورع ألسنتهن عن أي كلام يخطر لهن. سلوك الأديغة سواء وافقْنا القوزاق أم لم نوافق غير مقبول. لا ينسون إلى الآن كيف كنا نغير على قراهم ونحرقها. صحيح ما يقال إن السوء يستتبع السوء. هذا العجوز الأعرج أندريوشينك تحمّل زوجتُه الآخرين مسؤوليةَ ما جنى عليه سلوكه الأخرق. أنسيتِ أيتها الثرثارة الوقحة أننا افتدينا من الأديغة زوجك وأخاه القتيل بثورين وحصانين؟ لا أتكلم على فلاسوف فقد جلبوه إلينا من منطقة الدون، ليس من زمن بعيد دخل وسطنا فلا يعرفنا، ولا يعرف الأديغة جيداً على ما أرى، ولا يريد أن يعرفنا. ولكن لا أستطيع أن أقول إنه "يتعامل باليمين ما يجب أن يتعامل معه باليسار " لأنه لا يميز بين الأديغة والنغوي والترك؛ دعه يحارب ويشم رائحة الدم، واحرِمْه الطعامَ إن شئتَ ! انظر إليه كيف انطوى على أفكاره ولم يقل شيئاً. يضرب جزمته بسوطه ويحبس أفكاره التي تتناحر في صدره. لنقلْ إن فلاسوف أتانا من الدون ولكن ما مشكلتك يا تابانيس؟ لماذا قلبك ينضح بالحقد فتقول ما يخطر لك دون مراعاة كبير أو صغير، ودون أن تسمح لأحد بالكلام؟ أكنت تريد أن تظهر أمام الجنرال فلاسوف وكأنك مفجوع أكثر مني، أم عينُك

على منصبي؟ إن كان الأخير فلن أسمح لك أن تقترب منه ولو لم يبق غيري رغم أنه لا يغريني. لا يجوز أن تسلّم من عنده ثأر أو أعماه الحقد، ليس منصبَ الأتامان، بل منصبَ رئيس الرصاد.

_ أيها الأتامان غريغوري كوندراتيفيتش _ قال غريتشكو حين أصبح جمع القوزاق خفيفاً بعدما انصرفوا واحداً تلو الآخر، ففزع لبقائه أمام القادة وحده: _ إن لم يكن وجودي هنا ضرورياً فاسمح لي بالانصراف، ولا سيما أن رأسي يدور، وزوجتي تنتظرني.

_ غريتشكو يا روحي ويا مُنْيَتي _ استعجلتْ ماروسكا وأسرعت إلى زوجها وسندته من إبطه _ ليس عجيباً أن تدوخ؛ أنسيت أنك جريح؟! نزعتَ العصابة عن جرحك مبكراً. دعني أعصبه من جديد!

_ اسكتي يا ماروسكا! الناس يراقبوننا _ أفلت غريتشكو نفسه من أَسْرِ المرأة الضامرة، وابتعد عنها في كبرياء.

قال الأتامان بصوت أرق بعدما نفّس عن مشاعره: حقاً يا غريتشكو. إن كنت دائخاً وجب أن تعود إلى البيت. شكراً لك، أبديتم شجاعة، لم تسمحوا للصوص الأديغة أن يتجاوزوا المرصد ويقتحموا القرية. من أي أسرة هذا الذي اصطحبوه أسيراً قلت لي؟

_ بورونشوك أندريه أيها الأتامان _ فال غريتشكو_ ابن القوزاقي سيمان. حين أغار الأديغة علينا كان يرصد من عند هذه الصخرة. وبعدما سمعنا استغاثته، وريثما اشتبكنا مع الأديغة، انكفؤوا إلى سهل النهر، لم نلمحه.

_ أليس له أهل أو جيران؟ _ سأل الأتامان مستغرباً _ لماذا لم يظهر أحد من أسرته؟

أعاد السؤال الذي لم يخطر لأحد حتى الآن، لا للجنرال فلاسوف، ولا المقدم تابانيس، ولا زابروبينا قائد المئة، ولا للآخرين من القوزاق، وعيَهم. ونظر الحضور بعضهم إلى بعض خجلين من أنهم نسوا الموضوع.

_ لا تبحثوا عنه _ قال العجوز القوزاقي الواقف مسنداً ذقنه إلى المذراة _ إنه ليس في أرض الأديغة بل تحت ثوب امرأته.

_ كيف نفهم هذا أيها القوزاقي _ سأل الجنرال فلاسوف مستغرباً.

_ افهمه كما تريد يا جنرال. الجبان يستحق ما يوصم به. ليس لأشِيَ به، بل أقول ما أنا متأكد منه.

توقف بعدما وضع المذراة على كتفه الضيقة وقال بجلافة:_ ليس قوزاقياً من يترك القوزاقي في قلب المعركة.

_ إن كان صحيحاً ما سمعتموه بشأن القوزاقي بورونشوك، ولا يمكن إلا أن يكون صحيحاً _ نظر الأتامان ماتفييف بغضب نحو فلاسوف وأكد على تابانيسا: أجلسوه الآن على مرأى من كل أهل إليزابيتينسك، ودعوا المحكمة العسكرية تؤدي واجبها. الآن، ولا تؤجلوا ولو ساعة.

حين ابتعدت مجموعة الفرسان الخمسة التي يقودها زابورينا والمقدم تابانيس تقدم الجنرال فلاسوف إلى الجهة التي يقف فيها الأتامان، ومسح الرأس الحليق الذي تعرّق تحت القبعة الشعثاء بمنديل أبيض. وقال بلا مبالاة مصطنعة بعد أن أحكم لُبْسَها:

_ هذا ما حدث لنا يا غريغوري كوندراتيفيتش: القوزاق إن صرحوا أم لم يصرحوا صارت حياتهم مستحيلة، ونحن قاعدون مكتوفي الأيدي.

_ مسألة القوزاق _ الأديغة يا ميخائيل غريغوروفيتش _ أجاب الأتامان بصوت قوي مُسمعاً الحضور، لا كما يلمّحون به إليه _ أهذا مكان مناقشته؟ عندي عندما تأتي إلى أتامان الجيش القوزاقي للبحر الأسود _ مُظهراً بقوة أنه أتامان القوزاق _ سنحلل مهمة كل منا فيها... اقضوا حوائج القتلى والجرحى! نفذوا ما كُلّفتم به من مهام كي لا يتكرر مثل هذا الحادث! هيا ، أين حصاني؟

ابتسم الجنرال فلاسوف وهو يتبع بنظره الأتامان المنصرف قائلاً في نفسه: يبدو أن أوامر الجنرال يرمولوف لم تصل بعدُ إلى هذا الرجل.

***

حين رجع الأتامان إلى مكتبه لم يفهم سبب وجود العربة التي يقف إلى جوارها رجلان مسلحان من الأديغة. وحين التقت نظراته بهما لم يستطع _ ولو أنه تكلف عدم الاهتمام بهما _ إلا أن يبادلهما تحية خفيفة بالإشارة. كان الحراس القوزاق الثلاثة مشغولين بحماية الأتامان، اثنان وقفا مقابل الرجلين، والثالث سبق الأتامان إلى مكتبه. ثم لحق به الآخران كأن شيئاً لم يكن.

قال حاج قَسَيْ

_ كيف يتصرف هؤلاء؟

_ ألا تراهم يحمون الأتامان _ أجاب قايمت.

_ هذا والله عجيب. ابتسم حاج قسي _ حراس أمرائنا لا يرتبون هذه الترتيبات. أمَن جئنا إليه أهمُّ من المرحوم محمد جري؟

_ أأنت وليد اليوم يا حاج قسي فلا تفهمَ من الدنيا أكثر من هذا؟ لا أعرف ما تقول. لو لم يكن أهم من أميرنا لما أرسلتنا السيدة الكبرى إليه.

_ والله هذا صحيح يا قايمت. هذا الذي كنا نسمع سيرته ولا نراه هو قيصر القوزاق ذوي السراويل الفضفاضة.

_ ليس تماماً بل هو زعيمهم.

عندما دخل لأتامان المكتب تذكر االمرأة التي تجلس عند الباب والتي لم يرها بعد ما تركت قرية غريفينسكا. استقبلها بيدين ممدودتين وملابسُ حدادها تكظم طلاقة وجهه.

_ أنت قانتات أسعد غيريفنا إذن!

_ أنا هي يا غريغوري كوندراتيفيتش _ حاولت قانتات أن تقوم من مقعدها وهي تتكلم بلغة روسية صافية، ولكن الأتامان لم يقبل.

_ اجلسي، اجلسي يا قانتات أسعد غيريفنا _ جلس إلى يسارها دون أن يدعها تقوم، ونظر إلى الفتى ذي الرأس المتطاول الجالس إلى الجهة الأخرى _ من هذا الفتى الأمير؟

_ هذا الفتى الأمير يا غريغوري كوندراتيفيتش هو خان جري , أحد أبناء المرحوم محمد جري الأربعة الذين أوصى بهم. هذا الزعيم القوزاقي _ قالت قانتات السيدة الكبرى بالأديغية _ خدم مع والدك، ألق عليه تحية احترام يا ولدي! _ وبلغة ليست أدنى من لغة جدته، نهض خان جري وقام بما طُلب منه بطلاقة.

_ أنتم ونحن يا قانتات أسعد غرييفنا لم يكن ما حدث لمحمد جري خيراً علينا في قيادة الجيش ولا عليكم. ليكن فقدانه خاتمة المآسي في حياتكم! ولتهنئي بحياتك مع أولاد المرحوم!

_ سأكون سعيدة إن أوقفتُهم على أرجلهم، لا أطلب أكثر من هذا.

_ سنساعدهم إن توجهوا إلينا، إلى روسيا. وسنساعدهم قدر ما نستطيع كرمى لوالدهم ولجدِّهم. وهذا نفسه جواب الجنرال ألكسي بيتروفيتش يرمولوف.

_ وهذا ما جئنا لأجله إليك، وهذا الفتى الأمير يرجوكم أن تدخلوه المدرسة في إيكاترينودار.

_ إن كان ينوي شيئاً من هذا القبيل فسندرسه في المدرسة الثانوية. ولماذا نحن هنا؟ تعالوا وتفضلوا إلى عندي!

استعجل ماتفيفُ الأتامانُ بعدما تكلموا على موضوع دراسة خان جري، وقرروا ما قرروا، وقد تذكر شيئاً مما لم يأتوا على ذكره خجِلاً من نسيانه الموضوع. نظر إلى خان جري ثم إلى قانتات نظرة لا تحمل جواباً:

_ نسينا أصعب ما في الأمر يا قانتات أسعد غرييفنا.

_ وما هو؟ تعجبت قانتات مما سمعت _ قلت إن الشتاء سيكون صعباً ولذا سنستأجر له بيتاً في هذا الفصل. وأنا سأكون مع هذا الفتى لا يغيب عن ناظري. وبالنسبة لتكاليف الدراسة فقد ترك لنا المرحوم ما يكفي إن شاء الله.

_ موضوع "الله" الذي قلت لأجله " إن شاء الله " هو ما لم نتكلم فيه. تعرفين أن المدرسة الثانوية تعلم الدين الروسي.

_ قلت: الدين الروسي؟ _ لم تُظهر قانتات على نفسها الدهشة كأنها تحدث نفسها، وأفهمت محدثها دون لوم _ هذا لن يناسبنا، بأي حجة نغيِّر إسلامنا يا غريغوري كوندراتيفيتش؟ لا أريد أن أحمّل الفتى مثل هذا الإثم؛ إنه لا يزال في مقتبل العمر.

_ هذا صحيح _ قال ماتفييف مفكراً في المعضلة التي هم فيها _ لا تطلبْ ما لا تستطيعه من غيرك! هذا لا يقبله منا، لا دينُنا ولا دينُكم. هذا حرام.

_ لا يكون حراماً عندما يعتنق الإنسان بعقله وبقلبه _ كان الأمر محسوماً مع قانتات في موضوع حفيدها ولو أنها كانت توافق الأتامان. وأنهت وهي تدعو ربها أن يغفر لها ما يراه ذنباً _ ولكن ليعشْ كل امرئ على دينه الذي آمن به.

_ ليت الأديان المتعددة للناس لم تكن تتصارع _ قرّب الأتامان وجهة نظره من المسألة القوزاقية _ الأديغية التي تقلقه _ ثم نظر إلى خان جري وكأنه يقول له: أليس ما أقول صحيحاً؟

_ لو اعتنق الناس كلهم ديناً واحداً لما كان في حياة الإنسانية شيء مثير يا غريغوري كوندراتيفيتش.

تعجب الأتامان من عمق تفكيرها. حقاً لو ظلت السماء زرقاء دائماً لبعثت الملل. والبرية الواسعة تتعب العين. والرمل اللا منتهي يسبب اليأس. إننا نصفهم بالأديغة المتمردين ولكنهم يعيشون على غير ما نعتقد، فقد منحتهم الدنيا أفكارهم الخاصة بعرقهم. ومع أننا نقول لهم " أنتم بلا دولة وبلا سلطان" فإنهم يهبّون على نداء واحد يقدّرون مصدره. وإن قلت لهم أنتم أحرار كالريح وكالعصفور، وأمَّنت لهم السيوف والقامات والرصاص، وتركتهم على صهوات خيلهم، فسيتصورون الدنيا الفانية جنتهم الأبدية. وهذه المرأة أتشذُّ عنهم؟ تقول " ليعمل كلٌّ بدينه ". أتت بالفتى الأمير إلينا وإن كنا مختلفين عنهم ديناً. ولكن حتى لو اعترضتْهم عقبات غير محسوبة فلن نحرمهما أملهما. لن يعاتبنا أحد إن لم يدرس الفتى الأديغي الوحيد في المدرسة ديننا.

_ بدلاً من دينهم ألا يمكن أن أقويّ لغتي الروسية؟ همس خان جري لجدته.

_ ما الذي يقلق الفتى الأمير؟ _ ابتسم الأتامان ثانية للفتى.

_ ما قاله فيه شيء من الحقيقة يا غريغوري كوندرا تيفيتش _ يقول ألا يمكن أن يدرس الروسية بدلاً من درس الدين؟

_ ولماذا لا يمكن إن كانت عندك هذه الرغبة؟ _ رفع ماتافييف رأسه الثقيل مرتاحاً للحل الذي انفتح فجأة للمشكلة _ إن كان متعلقاً بنا هكذا فلن نكون عثرة في طريقه. ولن ننسيك دينك وأصلك.

_ شكراً يا غريغوري كوندراتيفيتش؛ فهمتنا. وأنا إن شاء الله سأظل أرعى الفتى الأمير الذي اتجه إليكم. ولن أنسيه دينه وأصله كما تقول. حققت لنا رجاءنا؛ شكراً مرة أخرى. لن نهدر مزيداً من وقتك. ومن الغد سنبدأ الدراسة في إيكاترينودار. وسنتصرف حسب ما تنحل أمورنا وما يمليه علينا قلبنا _ كانت قانتات تريد أن تضيف إلى كلماتها الأخيرة " إن شاء الله "، ولكنها لم تر من المناسب أن تكرر هذا أمام من ليس من دينها.

_ وأنا هناك موضوع يقلقني يا قانتات أسعد غريفينا _ قال ماتفييف حين انتهى حديثهما _ إن سمحت أن تخدمينا _ قاصداً خدمة مقابل خدمة، اختتم بنصف الكلام.

قالت قانتات السيدة الكبرى متعجبة مما يمكن أن تفيد به القوزاق، وبوجه طلق لئلاّ تُشعر جليسها بارتباكها المفاجئ من هذا الطلب:

_ أسمعك يا غريغوري كوندرا تيفيتش، إن كنتم تأملون فيّ القدرة فلن أقصّر.

_ شكراً يا قانتات أسعد غريفينا، نتأمل منك _ لم يستطع ماتفييف إلا أن يبرئ نفسه رغم ما في صوته من التصميم _ ما يُهمنا مسألة رجل، لا تؤاخذيني! أقول لك لأني أتوقع أن يخجلوا منك ويراعوا مكانتك.

الشاب ابن بادينكا من ناحية فاسيورينسك _ على ما قالوا _ قد يكون أكبر من هذا الفتى الأمير بنحو خمس سنوات _ " ليست الثمانية عشر ثلاثين ولا أربعين "كما يقولون في ناحيتكم _ والآن أصلح من هيئته _ أسروه إلى منطقة الأديغة. وهذا الأمر أفجَعَ، ليس بادينكا فحسب، بل كل ناحية فاسيورينسك. وهم في حيرة. وأمس كان عندي ثلاثة مبعوثين. أتستطيعين بطريقة ما يا قانتات أسعد غيريفنا أن تساعدينا؟

_ يا غريغوري كوندراتيفيتش نهر بشزة يعبره الأسرى من الطرفين _ قالت قانتات ما في قلبها _ كان الأفضل ألا تكون بيننا مشكلات من هذا النوع. وكان المرحوم محمد حري مهموماً بها. وأنا لا يرضى قلبي بهذا، وأعرف أن أغلبية الأديغة لا يريدونه. أليس من الواجب أن تكون نهاية لكلِّ ما لَه بداية ؟ ولكن لا أستطيع أن أحدد من يستفيد من هذا. كأن محمد جري الأمير كان يقول هذا لنفسه. ولكن ليس كل ما تظنه صحيحاً. وأنت لا تؤاخذني يا غريغوري كوندراتيفيتش _ تعود قانتات بسرعة إلى وعيها _ لماذا أتدخل في ما لا يعنيني، كلُّ امرأة يجب أن تبقى في حدودها كامرأة. ولكن لم أستطع وقد بدأ الحديث إلا أن أساهم فيه. إن كنت تتأمل فيّ فلأنهم يقولون " الآمل يُستقبل بالأمل " إن كنت تعرف أين أخذوا الفتى القوزاقي، ومن أخذه، فسيراعي كرامتي عنده إن كانت فيه بقية من إنسانية.

_ لو كنا نعرف من أخذه وأين لكانت مشكلتنا أسهل يا قانتات أسعد غيريفنا _ ولكن هناك ما يسهّل أمرنا. فحسب ما ذكر مبعوثو القوزاق هناك أسير أديغي تحتفظ به أسرة بادينكا سافيلي بيتروفيتش. وهم مستعدون لمبادلته مهما دفعوا من زيادة.

_ من هذا الأسير يا ترى؟ _ سألت قانتات بطريقة لا يعرف أحد غيرها سبب اهتمامها بخبره.

_ كان رفيق الذي أسر الفتى القوزاقي. لا يقول لهم اسمه ولا أصله ولا المنطقة التي جاء منها. يعرفون أنه من الأديغة فقط.

_ هكذا يا غريغوري كوندراتيفيتش لا مشكلة. سيظهر رفيقه إن عاجلاً أم آجلاً لأنه ليس من عادة الأديغة أن يتخلوا عن رفيقهم. ولكن بخير أم بشرّ؟ لا أعرف.

_ من تأتي على ذكره يا قانتات أسعد غريفينا لا أظنه سيظهر.

ارتعبت قانتات كما حرك خان جري رأسه المتطاول الصغير:

_ ما الذي يجعلك تقول هذا يا غريغوري كوندراتيفيتش؟

_ لأنه رفيق بلا إنسانية. طعن رفيقه الجريح طعنة قاتلة. ثم حمل الفتى القوزاقي على صهوة حصانه ومضى.

_ ولماذا إذن لا يذكر اسم هذا الذي أجرم بحقه؟

_ اتركوني حتى أفعل به مثل ما فعل بي وسأعثر لكم على فتاكم. يقول لنا ولكن لا نثق به.

_ هذا الرجل،كائناً من كان، صادق _ قالت قانتات مع شيء من الانقطاع _ أنا واثقة أنه سيفي بوعده إن نفذوا له رجاءه. ولكن سألبي طلبك يا غريغوري كوندراتيفيتش ولو لم تكن مسألة نسائية. سأسأل عمن ظلم رفيقه وظلم الفتى القوزاقي. وأبلغك حالما أجده. مثل هذا الرجل يستحق أي شيء يفعلونه به.
جعلت كلمات الجدة رأس خان جري يقفز مرة أخرى ولكنه لم يقل شيئاً. ولاحظ ماتفييف معنى حركات رأس الفتى وإن لم يلاحظ هو على نفسه. ولم تعدم قانتات من ملاحظتها.

***

عندما عبروا بالعربة نهر بشزة وصعدوا الضفة سأل جدته عن الموضوع الذي شغله جداً:

_ من يا جدتي الأسير الذي عند القوزاق؟

_ من أين لي أن أعرف يا خان جري. ما سمعتَه أنت هو ما سمعتُه. أيّاً كان فقد غضب الله عليه. لماذا تسأل عنه يا ولدي؟ أتتألم لأجله؟

قال خان جري فجأة:

_ نعم يا جدتي _ ثم أردف بعد قليل _ ليس فقدان الحرية سهلاً.

_ صحيح يا ولدي، صحيح _ ثم سألت بعد تفكير _ أأشفقت على الأسير الأديغي فقط؟ أما تألمت للأسير القوزاقي؟

_ أشفق على الاثنين يا جدتي، ومع ذلك...

_ ماذا يا ولدي؟ _ جفلت قانتات _ أتشك في أحد؟

_ لا يا جدتي ولكن أقول ربما كان شواي؟ قال بحذر شديد.

_ أنّتْ قانتات السيدة الكبرى، ولعنت:

_ أيكون شواي من فجعنا بوالدك كما يقول الناس؟ ليخلِّدْه اللهُ الأحد في نار جهنم! لا تُسمعني اسمه! وإلا أذنبتَ بحقي يا ولدي. _ وبعدما قطعا مسافة بالعربة تذكرت قانتات التي هاجمتها أفكارها حفيدها وندمت على كلامها فقالت:_ لا أعرف إن كنت أتكلم في موضوع لست واثقاً منه يا ولدي؟ قل لي بم تفكر بِغضِّ النظر عما يعجبني وما لا يعجبني. بقيتَ أنت لابسَ القبعة الوحيدَ الذي يمكن أن أسأله. لا تيأس ! إن شاء الله لا داعي لليأس. هناك ما يزعجك يا خان جري. لا تكتمني ما في قلبك! أتكون مهموماً بدراستك في المدرسة القوزاقية؟

_ لا يا جدتي!

_ ماذا إذن؟

رفعت نصائح الجدة من معنويات خان جري:

_ أتنفذين للأتامان رجاءه في موضوع الأسير القوزاقي؟

_ إن استطعت فلا شك. ثق بي من هذه الناحية. ولكن لماذا تسألني يا خان جري؟

_ لأنك كنت قلتِ: من الأفضل أن تبقى كل امرأة في حدود أنوثتها.

_ قلت هذا ولكن المأساة لا تفرق بين ذكر وأنثى _ ثم أردفت بعد قليل _ أنت من طريقة سؤالك تبدو مهموماً بالمسألة ولكن لا أعرف ماذا سيكون موقف المتباهين برجولتهم.

لم يعقّب خان جري تعقيباً يمكن أن يُفهم منه ما في قلبه. ولم تجد قانتات من المناسب أن تعيد السؤال لأن العربة كانت قد وقفت على الباب.

IV

_ يا كنتي بيكا لِمَ أغلقت على نفسك الغرفة فالتزمت الصمت _ في مساء متأخر، وكما تفعل قانتات عادة عندما يتملكها الضجر _ أتخلد إلى الصمت أسرة الإمارة كلها لأن سيسور يأتيها الخُطّاب؟! وإذا كان الإخوة الصغار ناموا فلماذا لا ترسلين خان جري إليّ لينام؟ أنسي أنه سيذهب غداً للدراسة في الأكاديمية؟

_ لا دراسة غداً يا سيدتنا الكبرى _ ضحكت بيكا في قلبها _ غداً الأحد.

_ هكذا إذن _ قالت قانتات وقد هدأ قلبها _ نسيتُ، وإن لم يذهب غداً فما الذي يجعله يرفع صوته؟ ليرجع إلى غرفته وليسترح! ومن جهتي أنا وحيدة. لماذا تبتسمين يا كنة؟

_ خان جري يا سيدتنا الكبرى في مشكلة.

_ أي مشكلة؟ يا لهفتي!

_ هو حارس سيسور!

_ توقعت هذا _ تستحق ما حدث لها، لهذا لا تتركه سيسور؟! من يزورها؟ هلاّ انتظروا بعض الوقت على مأساتها، أصحاب الشوارب هؤلاء! إن كانوا هم لا يفهمون فلماذا لا تُفهمهم سيسور؟

_ قالت لهم يا سيدتنا الكبرى ولكنهم قالوا لها: جئنا لنسهر فحسبُ.

_ جنس الرجال هؤلاء بلا إيمان! يا لوقاحتهم!_ صاحت قانتات بلهجة لا تعرف منها أهي غاضبة أم لا.

_ ومن أوصل إليك هذه الأخبار؟

_ عادل جري سمعهم حين اقتحم جلستهم.

_ هكذا؟ وأين المولى قايمت؟

_ وهو الآخر دخل إليهم.

_ لا بأس إذن. من قلتِ لي جاؤوا ليسهروا؟

_ بامبت شابسغ، ومعه رجل يلبس قبعة كبيرة.

_ ماذا يا حسرتي؟ ولماذا لا يكفُّ بامبت عن هذه الحركات؟ ألا يكفي كم غازل وكم تزوج؟ كم بنتٍ تسبب شارباه الكثيفان في مأساتها! الخير والشر متلازمان في دنيانا الفانية. وكل منا يطوّعهما كما يريد. قلت لي بامبت يا كنة. إن كان هؤلاء جاؤوا يسهرون عندها فأنا المحتاجة جداً إلى بامبت. أحتاج إلى

محادثته في أمر مهم، ابعثي إليه أحد الخدم. يكفي جلوسهم هنا، وليحرروا خان جري المأسور بسببهم. وسنسدي معروفاً لسيسور. أَوصيه أن يدخل إلى الغرفة المجاورة.

قالت بيكا: ماذا خطر لها الآن؟ إن كان من أجل مأساة محمد جري؛ أفلم نتفق على ألا نأتي على ذكر هذا الموضوع في حضرة الصديق، أو في حضرة العدو؟ من فعل بنا هذا كائناً من كان فهو عدونا. لن ننسى مأساته أبداً، ولكن من الأفضل أن يبقى أولادنا تحت رعايتنا ولا يغيبوا عن عيوننا. أنتِ تذهبين بخان جري إلى القوزاق فتسلّمينه إليهم. أعجيب أن يقول الفتى إنه يريد أن يدرس؟! إن لم يدرس عند هؤلاء فلن تنقص فطنته إن كان فطيناً. انظر كم من الرجال الممتازين المستعدين لأي مهمة تكلفهم بها يعيشون في منطقتنا . والذين لا يعرفون الروسية ولا التركية أكثر ممن يعرفون. ألا يكفي ما أصابنا من مآسٍ من الناس الذين أرسلتِ إليهم طفلي الأكبر. ولا يكفي هذا بل تخططين لاستئجار بيت عند القوزاق فتقيمان هناك. أيُّ أفكار تخترعينها؟ ألا تهدئين يوماً ونرتاح نحن؟

ــ ياكنة أتريدين أن تقولي لي شيئاً؟

ــ لا يا سيدتنا الكبرى! ارتعدت بيكا خجلة من أفكارها.

ــ ياكنة اجلسي! أريد أن أقول لك كلمتين.

ــ لا ياسيدتنا الكبرى؛ أيصح أن أجلس في حضرتك؟

ــ عندما أقول لك: اجلسي فاجلسي. اجلسي مقابلي كي أرى في عينيك ما يعجبك وما لا يعجبك. نعم هذا يرضيني. لا تقولي لي" المِسِنُّ يتحول إلى راوي حكايات، وإن لم يسمعوه يحرد " وأعرف لماذا يقولون " عندما يكبر الثور ألحِقْه بالعجول ".

ــ " آخر المسن أول الشاب" يا سيدتنا الكبرى!

ــ شكراً ياكنتي. لو لم تكن علاقاتنا أنا وأنت هكذا ما استطعنا أن نعيش معاً في البيت. ولكن لا أستطيع أن أقول إنه في ظل المرحوم محمد جري عشنا في سلام أسري. " حتى أنشوطة السوطُ تحبس الهواء" على حد قولهم فقد كنا نعيش تحت ظله. ونحن الآن في موقف اختبار تظهر فيه الكنة الطيبة والعجوز الطيبة. " من الصعب أن تتحلي عن قبضة المغرفة[1] ولكن من الصعب أن تمسك اثنتان على رأسيهما غطاء بمغرفة واحدة ". بودي أن أُفهمك دون أن يدخل بيننا سوء تفاهم أن من المستحيل، بغياب لابس قبعة ،التنازل عن طرف المغرفة.

[1] في الأصل" البلاغ " حافظنا على اسم الآلة في لغته الأصلية لأنها آلة خاصة بالأديغة تشبه مجرفة الخباز ولكنها أسمكُ منها وأقصرُ ،تستعمل لتحويل الطعام الذي يسمونه " الباسته، والتي تشبه إلى حد ما الرز المطبوخ، تتحوّل بهذه القطعة الخشبية إلى ما يشبه العجين .

_ يا سيدتنا الكبرى سامحيني إن قاطعتك؛ أأنت عاتبة علي في موضوع ما؟ نظرت بيكا بحزن في وجه حماتها.

_ لا سمح الله! وأنا ما كنت لأقبل منك لو علمت شيئاً كهذا. لا أريد أن يدخل بيننا أي جفوة، بل لا يجوز أن يخرج من البيت حتى نظرة شزر طارئة بيننا لأن البيت يُسقَّف من أجل أن يتسع للعتاب فلا يخرج منه. يجب ألا يشك، ليس خدمنا فحسبُ، بل حتى الذين خرجوا من رحمك. نحن الآن في موقف تمزّقُ فيه المأساةُ الأسرةَ، ولذا، كما أن الله حريص على عباده، فنحن أيضاً يجب أن نكون حذرتين كي نخزو عيون أعدائنا ونقرّ عيون أحبابنا. الله شاهدي؛ ليس في قلبي أي عتب عليك. ولكن يبدو لي أن إرسالي خان جري للدراسة _ لا أريد أن أظلمك _ لا تتقبلينه.

_ عرفتِ همّي الوحيد يا سيدتنا الكبرى، ولكن الأمر ليس في يدنا.

_ وما الذي لسنا أحراراً فيه؟ _ سألت قانتات مع نظرة باردة _ أ لأنني سلّمت خان جري إلى القوزاق؟

_ لا، ليس هذا قصدي، بل وصية ابن أميرنا الأكبر.

_ هذا؟ لا بأس إذن _ قالت قانتات وقد اطمأن قلبها ثم سألت بعد توقف مؤكدة الكلام لنفسها: لوكان المرحوم محمد جري حياً لجعلته يفعل هذا ولو لم يبق غيري. ولكن ثقي يا كنة إن عاجلاً أو آجلاً، لا أقول اليوم ولا غداً، سيأتي اليوم الذي يضمنا فيه الروس تحت جناحهم نحن الأديغة؛ أفليس من الأفضل أن نستعد لهذا؟ يا حسرتي يا كنتي، يا حسرتي! هذه حال هذا الشعب الصغير. كان والدنا يقول، وكذلك محمد جري رواه كثيراً: نعيش أحراراً نملأ صدورَنا بالعالَم كله، ومقيدين! كل ما في عالم الأديغة يستحق التأمل. الإنسان يعيش على الأمل متفائلاً بأن الغد سيكون أفضل من اليوم. ونحن سنعيش كما تفرض علينا الظروف وسنربي أولادنا. أيستمر طريقنا الروسي وبيلاً دائماً؟ ألا يمكن أن يكون الغد أفضل؟ أدعو الله أن نرى خان جري والصغار الآخرين في حال أحسن من حالنا. أنا يا حسرتي لا أعرف إن كان الزمان سيسمح لي. ولكنك أنت سترين. حسناً اطلبي لي هذين اللذين أتكلم عليهما!

هجمت الأفكار التي لا نهاية لها على قانتات عندما بقيت وحيدة في الغرفة كما كلُّ المسنين. ولم ينفعها أنها فرّجت عن نفسها في حضور الكنة. واختلطت رغماً عنها أفكارها المستقبلية مقيَّدة بما ستكلم فيه الرجلين اللذين طلبت مقابلتهما؛ تهجم على فكرة لتتخلى عن أخرى. ولكن موئل أفكارها المتضاربة أمر واحد: طريقها الروسي، موضوع خان جري، الوئام في دار الإمارة، وإن مدت نظرها إلى ما وراء سور بيتها: الصراع الأديغي _ القوزاقي.

يا حسرتي؛ لا أعرف. قالت قانتات لا نعرف، وإن كنا نتفاءل بالغد، ما سيحدث فيه. خان جري فتى نبيه ولكنْ أخواه الصغيران؟ والأخ الأكبر الذي يتجنبنا؟ الأصغران سأتحكم فيهما كما يُلوى العود وهو طري. ليسا ساذجين؛ يتقبلان ما أقول لهما. والكنة مشكورة لا تعصيني وإن لم يعجبها الأمر دائماً. ولكنّ مَن لا ترتدع لشيء هي أم قرم جري المرائية الكبرى، إنها جشعة؛ ترسل لي أوامر بأن أتقاسم معها تِركة

والده؛ هذه المدببة الرأس المحرومة من الحياء. كيف أتقاسم معك يا معدومة الكرامة؟ ألا يكفي كل ما سلبتِه معك؟ بحجة قرم جري تريدين أن تستحوذي على كل ما يملك آل سلطان. في أسوأ الأحوال، كما يقال " قائمة البقرة لا تقتل العجل " سنضم قرم جري إلينا، إلى الأسرة، ألا يجري في عروقه دماؤنا؟ ولكن ما يضحكني هو أنك تربطين نفسك به. كفى، اتركينا لترتاح الكنة التي منحت الأسرة ثلاثة أطفال. لا تعلم بيكا عن الموضوع شيئاً ولكن الأفضل أن أهيئها له حتى لا ينقل أحد إليها الخبر فجأة. وكذا خان جري على أبواب الرجولة؛ من الأفضل أن يعرف. أتريدين أن يُقاسم لابسُ قبعة وحيدٌ ثلاثةً مثلَه لتبقى الأسرة دون أملاك؟ لن يقع نظرك على خروف واحد ولا عجلة عربة ولا إصبع أرض ولا شجرة واحدة منا.

قطعت أصوات الأقدام التي صدرت من جهة المصطبة أفكار قانتات. مشت بقلبها مع الرجال مع أنها تعرف أنهم سيأتون إلى الغرفة المجاورة. انتظرتهم حتى انقطعت قرقعة المقاعد. جلست مزيداً من الوقت وهي تعلم أنهم بانتظارها، معتبرة الأمر اعتداداً بنفسها. ثم قامت على مهل وقد انشرح صدرها. ارتاحت واقتربت من الغرفة التي فيها الضيوف تلمس عصاها الأرض ولا تلمس.ودخلت بعدما قرعت عتبة الباب بضع مرات.

وما إن رأى الرجال الثلاثة قانتات على الباب حتى هبوا لها:

_ تفضلوا، تفضلوا! تجاوزَتهم وهي تدلّهم أين يجلسون فاتخذوا أماكنهم ريثما احتلت مكانها على المقعد الذي في صدر الغرفة. حاول المولى قايمت الخروج بداعي أنه أنهى مهمته مع حضور السيدة الكبرى فلم تقبل قانتات. أين أنت ذاهب يا قايمت؟ اجلسْ! لا سِرَّ في مجلسنا.

_ لا بأس أن أبقى واقفاً، ووقف بين قائمتي الباب.

_ لا تخذلني أمام هذين الرجلين يا قايمت! اترك الباب واجلس! ودَعِ الضيوفِ يعرفون أنك منا. ما الأخبار عندكم في الشابسغ يا بامبت؟

_ وأي جديد سيكون هناك يا قانتات؟ _ قال بشيء من الاعتداد، محاولاً الحفاظ على بقية من تقاليد _ أحوال الشابسغ والبجدوغ متشابهة. نحن في تنافس دائم، نحسد من قبعته أعلى.

_ هكذا! أضافت قانتات بعد قليل وهي تبتسم: _ ولماذا لا تتشابه أحوالهم؛ ألسنا جميعنا أديغة؟ وهذه مسألة من أسباب دمارنا.

_ أصبت الحقيقة يا قانتات _ انطلق لسان بامبت وقال في نفسه: ماذا تنوي لنا هذه العجوز الجِنّية. لم تدعنا نشبع من الاستمتاع بالجلسة مع سيسور _ وأنا أيضاً تنهكني هذه الفكرة. أقولها لمن في عمري، وأصرّح بها للأصغر وألمِح للأكبر ولكن لا أحد يسمعني؛ بل إن مزحتَ معهم فسيغضبون ولن يفهموا. من حسن حظنا أن القوزاق جيراننا، ولو لم يكونوا متنفساً لنا لأفنينا بعضنا.

_ حقاً؟ قالت قانتات في نفسها: ما أشد ثرثرته! ظننته أشد اتزاناً. ثم مالت إلى الرجل الآخر مُخفيةً امتعاضها وسألته: _ وأنت أيها الضيف من أي أسرة أنت وما اسمك؟

_ وأنا آتي من الشابسغ. من قرية ناشحه، قرية توغوظقوه قازبك. وينادوننا آل آغوي. وأنا جار قازبك، حتى لَتتداخلُ أسوار إسطبلاتنا.

_ دعك من قازبك، وقل أيها البطين (نْباج) اسمك لقانتات!

_ الله،الله! عندك اسم أديغي أصيل. التفتت قانتات إلى الرجل، وابتسمت له.

_ وكيف عرفت أن له اسماً أديغياً أصيلاً يا قانتات؟ قال بامبت معجباً بما سمع، كاشفاً عن قواطعه العريضة.

_ أَبَعْد ما سميتَه تسأل عنه؟ أجابت قانتات على السؤال بسؤال.

_ هذا هو_ كشر بامبت مرة أخرى عن أسنانه الصفراء ووجد مخرجاً _ والله صحيح. من يعزّ صديقه يناده باسمه... _ لماذا تتركيننا نثرثر؟ قال في نفسه _ كان الأفضل أن تقولي لنا ماذا يفعل أميركم الفتى ذو الرأس المتطاول الصغير عند القوزاق؟ وكيف تتمسحون بهم؟ هذا العنيد التصق بسيسور كالقُراد، ويرفض أن يفارقها، يرفض أن يخرج من الغرفة. وهذا قايمت ذو الوجه المفلطح ملازم لنا يتفحصنا ويبتسم لنا. لماذا خائفون إلى هذا الحد على خادمة الغرفة؟ أيدَّخرونها لشواي؟ إذن ستنتظرون طويلاً! الآن أفهم لماذا استدعتنا إلى هنا. إن كان هذا تصرفكم فأنا أعرف ماذا أفعل معكم. مهما يكن فقد استدعتنا هذه الحصيرة الملفوفة أمامنا؛ سأسألها عن نيتها الحقيقية نحونا. وسأجيبها حسب ما تقول لنا. ثم تقولين إن اسمَ نباج، يعني البطين، اسمٌ أديغي صميم، وهو يراه قبيحاً معبراً عن الاحتقار.

_ لا يا بامبت. أنت مخطئ؛ اسمي الحقيقي غير هذا.

_ ما أسمعه عجيب. ما اسمك إذن يا نباج؟

_ أمي وأبي سمياني بْشه ماف. ولكن إن كان المقصود معنى اسمي الحرفي وهو الأمير المبارك _ وضحك من نفسه _ فلأني كنت أكولاً في صغري ثبّت عليّ رفاقي اسم البطين. والآن من يهمه الاسم؟ مهما كان فالمهم أن تفهم أنك المقصود به.

_ والله يا بطين منذ عرفتك لم تقل كلاماً أصوب من هذا.لا تبتئس! وأنا أيضاً ينادونني بالقوزاقي _ قال بامبت يغلبه الامتداح. ثم أفصح عما يقلقه:_ يا قانتات لا أظنك استدعيتنا من أجل أن تعرفي أسماءنا. قولي لنا ما يقلقك! سنفعل ما بوسعنا لأجله. ما رأيك أنت يا بطين؟ اغفر لي سأناديك منذ اليوم باسمك الحقيقي.

_ صحيح يا بامبت _ قالت قانتات مستعجلة وموافقة له في موضوع تدقيق الأسماء _ من الأفضل ألا تغير الاسم الذي أتى من الأسرة. بشه ماف اسم أديغي أصيل، اسم جميل، اسم خيّر، اسم يعجز الفم عن استيعابه.ولكن كما أن لتبديل اسم بشه ماف سبباً فإن بغيتي أقرب إلى اسمك الآخر:قوزاق.

_ نسمعك يا فانتات _ نضح من صوت بامبت فرحه برجاء قانتات.

_ قيل إن فتى من فاسيورينك عبروا به نهر بشزة _ قالت قانتات دون مماطلة، وبجواب محدد يتفق مع السؤال _ لماذا أخذوه إليه، وماذا حدث له؛ لا يزال في الثامنة عشرة، إنه شاب جداً.

_ أيجوز أن تقلقي لهذا يا قانتات لولا أنك رقيقة القلب طيبة؟ نحن نتصيد الشباب الصالحين للعمل الذين أثمانهم مغرية. وماذا نفعل بمن سقطت أسنانهم من المسنين؟ لم يُبد بامبت فزعه مما سمع، بل سأل كأنه يُظهر اهتماماً أكبر قائلاً في نفسه: لن تعثري إلى الأبد على من تسألين عنه، وكذلك على من كان معي في الغارة، لن تري حتى عظامه _ أتعرفين اسم الفتى واسم أسرته؟

_ وكيف لا أعرف؟ _ لم تكشف قانتات سراً _ هو ابن بادينكا القوزاقي الذي تعرفته عندما كنا نعيش في فاسيورينسك. اسمه بانتالي وكنا علمناه بضع كلمات أديغية، شاب طيب.

_ أقلت بادينك؟ بانتالي اسمه؟

_ هو يا بامبت. إن سمعتما بالمصادفة،أو ذكر أمامكما خبره فأخبراني، هذا رجائي. أهله مستعدون لأن يقدموا كل ما يطلبه الخاطفون. وأنا سأساعدهم.

_ اسمه بانتالي _ نطق بامبت اسم الفتى ثانية متظاهراً بأنه لا علم له، حاكّاً قفا رأسه. ثم استدار إلى رفيقه وسأله _ أسمعت يا بشه ماف مثل هذا الاسم؟

_ والله أول مرة أسمع به _ قال أغوي بشه ماف بكل صدق.

_ اللعنة! أي مصيبة حلت بالأسرةِ القوزاقية صديقتِكم! شكراً لك يا قانتات على إطلاعنا على ما يشغلك. ليس في الأمر عجيب مع أننا نقول إنهم قوزاق فهم بشر مثلنا. سنجد هذا الصبي لأهله إن كان لا يزال حياً حتى لو شقوا الأرض وخبّؤوه. لن نعود دون صالحات إلى حضرة الله الذي يتضرع إليه الناس ولا يتضرع هو إلى أحد _ عجيب أنها لا تسأل عن شواي. ضحك بامبت في سره. لا نستطيع أن ننُسي سيسور شواي إن نظرنا إليها نظرة عطف أو ابتسمنا لها أو لمناها. إنها تترك الولد الذي كان في خدمتها والذي ربي في بيتها لتسأل عن ولد غريب. ما أسرع ما جروك أنت أيضاً إلى طريق الخيانة! ولكن وإن لم يبق غيري لن تري خيراً على هذا الطريق،لا أنت، ولا هذا الولد الضيق الرأس.

V

ينام شواي في الإسطبل المسقوف. وأفكاره تُظلم مع الظلام. لم يعد يشكو من الرِّجل التي جرحها القوزاقي، ولا من الكتف التي غرس فيها بامبت "قامته".

الندبة على الجلد تُشفى ولكن أثر الإهانة لا يشفى. ما يُفني شواي هو القيد الذي على حريته وانعدام الإنسانية في نفس بامبت. سؤال بعد سؤال، وجواب ينقض جواباً.وعندما يخلو الرأس من سؤال " من البريء ومن والمذنب؟ " يتنهد ليخفف عن كربه. ولكن عندما تخطف منه الأصوات المفاجئة في الطبيعة أفكاره يفرح كأن قيده سقط عن رجله.

مساء البارحة، ومساء قبل البارحة، وقبلهما منذ الشهر الماضي، ارتفع الغناء القوزاقي من جهة النهر. وساهم آخرون في الغناء من طرف المدينة. وجاوبهم رجلان ثملان بصوتين أجشّين.

قال شواي في نفسه: هؤلاء القوزاق حياتهم عجيبة خلافاً لما نتصور. حياتهم الخاصة وحياتهم العامة متلازمتان على راحتهما. احرمهم من الطعام على أن توفر لهم الخيل والغناء والسلاح مع شيء من الخمر. لا أقول إنهم كسالى عن العمل؛هم يربون الماشية ويشتغلون ويحمون حدودهم. وليسوا عديمي الرحمة بالقياس إلى أمثال بامبت المحرومين من الإنسانية. لم أسمع منهم كلمة نابية ريثما طاب جرحي باستثناء احتقارهم لنا. مَن أغرنا عليهم واختطفنا ولدهم _ لا أؤاخذهم وأستحق ما جرى لي فأي طاعون دَفَعنا إلى ما فعلناه؟! _ بأي عين تتوقع أن ينظروا إليك؟ ولكن في الأسبوع الماضي لا أعرف ماذا جرى لبادينكا القوزاقي العبوس فقد ضايقني إلى أبعد الحدود _ لم أعد أهتم بنظراته القاتلة فقد أصبح يؤذيني بحركاته وكلامه، وأحياناً يضربني على وجهي بسوطه. ولا يكفيه هذا إذ يأتيني برجال سكارى من القوزاق ليستمتعوا بمنظري، ويسخروا مني ويبصقوا في وجهي. وكما يخِزون الكلب المحبوس في جحره بطرف القضيب، يخِزون مؤخرة عنقي أنا بطرف السيف القاسي. ليسوا كلهم؛ فهناك من يتألم لي ومن لا يهتم بي ولكن مع ذلك...

قطع الصوت الذي أتى من جهة باب الإسطبل أفكار شواي. وناداه بالروسية من يتفقده عادة وقت أذان العشاء:

_ أ أنت هنا أيها الأديغي العاري الرأس؟

_ هنا، هنا _ صاح شواي بالأديغية من الإسطبل _ ثم أضاف بصوت خفيض ينتقم به من بادينكا: هنا،يا آكل لحم الخنزير.

_ " هنا، هنا " _ غمغم بادينكا مقلّداً أسيره بالكلمة الأديغية التي اعتادها. ثم التفت إليه وهو منصرف: أقول لك مرة أخرى لا تفكر بالهروب!

أصغى شواي بعنق مُشْرَئِبٍّ إلى الخطوات الحرة التي تبتعد، دون اكتراث بالكلمات التي يرميها إليه بادينكا، حتى عجزت أذناه عن التقاطها. وعندما غاب عنه وقعُ الخطا الحرة الحبيبُ إلى قلبه استوى جالساً عسى أن يخترق الجدار بأذنيه. ولكن هذا الوقعَ، وصوتَ الغناء الذي كان يصله قبل قليل، وصوتَ الرجلين الثملين الأجش، كل هذا، اختفى ليحل محله طنين في الرأس فحسبُ، فجلس مدة يُصمه هذا الطنين وعيناه اللامباليتان مغمضتان.

كم كنت سعيداً دون أن أعرف! تنهد شواي. منذ شهرين لم أعد واثقاً بأني سأسمع ثانية وقع أقدامي أو وقع حوافر حصاني. ما أخبار منطقة البجدوغ يا ترى؟ دارنا في لوستان حبله خاوية عادة في مثل هذه الساعة. وأظن سيسور الآن تجهز، بخطوات غير مسموعة، سرير قانتات للنوم. ولا أظن خان جري نام، ولا سعيد جري، ولا عادل جري. ولا ترضى قانتات السيدة الكبرى إلا أن يأووا إلى الفراش في وقتهم

المحدد. ثم ستحبس سيسور نفسها في الغرفة الصغيرة المنعزلة مقابل غرفة الطباختين، فلا تتأخر في إطفاء مصباحها، فتنام لأنها تفيق باكراً. ما يُدري سيسور ماذا حدث لي؟ هي الوحيدة في دار آل سلطان التي يمكن أن تتلوع لأجلي. وقايمت وحاج قسي المولیان؟ إنهما ليسا سيئين ولكنهما ليسا مجنونين مثلي. لا يعصيان محمد جري أو قانتات. لا أقول إنهما غير مهمومين بقضية القوزاق _ الأديغة التي تؤرقني، فكم ليلة سهرنا ونحن نتكلم في هذا الموضوع. وبدلاً من أن أصب حقدي على من يأسرونني اليوم صببتُه على محمد جري، واتخذتُ من بامبت اللعين الذي حاول قتلي رفيقَ طريقٍ، فقيدت نفسي بنفسي بهذا القيد. لم يكن عندي ما أفعله وراء نهر بشزة. ولكني ائتمرت بأمر بامبت فسمحت له أن يخدعني. من عندي الآن في الدنيا كلها غير سيسور يمكن أن تقلق عليّ؟ أقول هذا ولكنها ليست أختي ولا أمي فأي قرابة تربطها بي؟ ألأن بيننا عاطفة ما؟ حتى امرأتُك تقلق عليك بصعوبة! فكيف بمن لم ترتبط بك؟ كيف تذكُرك من لم ترزقها ولداً؟ إن ابتسمتْ لأول من يبتسم لها قُضي الأمر. أجميع النساء مخلصات لأزواجهن كقانتات؟ وحتى هذه لو وَجدت بعدما ترملت خاطباً من أسرة نبيلة يعجبها فمن يدري كيف كانت ستتصرف؟ لا تجوز الثقة بالنساء، وكذلك بالرجال. يا شواي، يا شواي المولى! يعي نفسه بنفسه فيعنّفها. "كلبُ مَن كان عضك " حتى لا تثق بأحد؟ من العيب أن تحمّل غيرك كَربك لأنك اليوم في ضيق. الله لن يرضى بهذا وأعداؤك سيشمتون بك. ومن فقد الثقة بالجميع لا أمل له فلا تعدَّه في عداد الأحياء.

أثار نباح كلب كاشورا جارِ بادينكا، وكذلك كلب من هو أسيرهم، كلاباً أخرى فأجابتهما من شمال القرية ومن جنوبها. وتبعتها أصوات بضع طلقات بنادق. وخيّل إليه أنه سمع وقع حوافر أحصنة.

أيمكن أن تكون عصابة من الأديغة أغارت على القوزاق؟ جعل الأمل القريب في الحرية رأسه ينتفض، ولكن كاشورا نَهَرَ كلبَه فتبدّد هذا الأمل العذب:

_ ما هذا يا بورزوي؟ "صرعْتَ " القرية بنباحك؛ اسكت! صاح بادينكا الذي خرج من البيت.

_ أهذا أنت يا إيفان كفيدوروفيتش؟

_ نعم يا سافيلي بيتروفيتش. لا شيء؛الكلاب تتعاوى فحسب.

_ الكلاب ليست مشكلة إن لم يُغر علينا الأديغة.

_ لا شيء من هذا؛ القرية هادئة _ دارَ كاشورا من وراء الإسطبل ثم فكّر من جديد _ أتخاف أن يختطفوا منك أسيرك؟

_ أسيري ليس مشكلة إن لم يُرفقوه بغيره.

_ لا تفكر في مثل هذه الوساوس يا جاري مادمنا أحياء ومادام عندنا كلبانا. لولم يكن بانتالي يرعى الأحصنة قرب النهر ما استطاع المسلمون أن يُحلّوا بنا هذه الكارثة. وها نحن أمسكنا بأحدهم.

_ أمسكنا به لأن رفيقه ضربه ناوياً قتله _ تنهد بادينكا بقوة _ لندخنْ سيجارة!

تبادل الجاران التبغ، وبعد أن سحب الدخان أجاب:

ـ أليست رصاصتنا هي التي أصابته؟

ـ نعم، رصاصة قوزاقية.

ـ لماذا إذن يا جاري تنسب إلى الأديغة فضل الإمساك بأسيرنا؟

ـ لو لم يطعنه رفيقه لاستطاع أن يعبر نهر بشزة. وهذا ما يقوله هو؛ تُحرقه نار الإهانة التي ألحقها به رفيقه.

ـ لماذا إذن يا سافيلي بيتروفيتش لا يبوح لنا باسم رفيقه؟

ـ وأظنه يكذب علينا في اسمه هو.

ـ هذا غير ممكن؛ ألا يقول إن اسمه إبراهيم؟

ـ يقول إبراهيم ولكن يُخيل لي أنه يخفي اسمه الحقيقي.

ـ آه من هؤلاء الأديغة! لن تحصل منهم لا على صدق ولا على كذب إذا قرروا كتم أسرارهم. أين هو؟ هيه يا قاطع الطريق المسلم! ضرب كاشورا باب الإسطبل المغلق بقبضته ـ لماذا لا تقول شيئاً؟ ألا تزال تخاف من جريمتك ؟ انظر إليه! أسمع صوت قيده ولا يقول شيئاً. أيها الأديغي الحاسر الرأس! ألستَ من أناديه؟ انظر كيف يُصم أذنيه! أرجوك يا سافيلي افتح لي باب الإسطبل ودعني أضربه في الظلام.

ـ اتركه يا إيفان كفيدوروفيتش! لن يسمعك.

ـ لماذا؟

ـ لأنه يصلي في مثل هذا الوقت.

ـ وإن كان يصلي؟ هل فقد أذنيه؟ ألستَ من ينادونك أيها المسلم؟ لماذا تتظاهر بالصمم؟ ـ ومع غضبه ألقى كاشورا سيجارته وشرع يخبط الباب بيديه ورجليه.

ـ يكفي يا إيفان كفيدوروفيتش! لا تحملْ إصرَ من يبتهل إلى الله أيّاً كان! دعه يكفّر عن ظلمه ـ نادى بادينكا جاره بصبر.

ـ أأنت هذا يا سافيلي؟ ـ تعجب كاشورا إيفان مما سمع وبصوت خشن: ـ أليس هذا الذي ترأف به ممن خطفوا بانتالي؟

ـ نعم منهم ـ قال بصوت منكسر ـ لا أريد أن تقع عليه عيني، بلْهَ أن أرأف به. ولكن حياة ابني متعلقة به. ثم ألسنا بشراً؟ ألسنا مسيحيين؟ من الأفضل ألا نقاطع من يصلي حتى لو لم يقف أمام إلهنا. لا تُدخل القسوة إلى قلوبنا؛ الله لا يرضى بهذا.

ـ ما تقوله يا بيتروفيتش فيه جانب من الحقيقة ـ قال كاشورا لإيفان، ولو من خارج قلبه، مبتعداً عن باب الإسطبل. ثم تمتم بصوت لا يسمعه غيره: " الآن أفهم لماذا تشفق على عدو ديننا. لستَ من ابتدع المبدأ القائل: الأولادُ مَجْهَلة مَجْبَنة مَبْخَلة؛ ما العمل؟ ولكن لو حدث هذا مع ابنتي الصغيرة أنفيسكا لما عرفتُ ماذا سيحل بي " ـ لندع إلى ربنا أن نصبح على خير؛ مسنونا يقولون " الصباح خير من المساء " فلتصبح على خير يا سافيلي بيتروفيتش!

ـ وأنتم يا إيفان كفيدوروفيتش ـ قال بادينكا، وتوجه إلى البيت مرتاحاً إلى أنه لم تحدث بينهما مشكلة بشأن أسيره.

ودار كاشورا حول جدار الإسطبل ودخل البيت وفي ذهنه فكرة أخرى. ولما استدار وراء الإسطبل قال لكلبه الذي رحّب به على طريقته:

ـ خدعتنا يا بورزوي، هل استرحتَ الآن؟ كن صادقاً في نباحك وعوائك ولعبك! وإلا فقدت ثقة الناس. لا أظنك نبحت بلا سبب فالأوراق لا تهتز دون هواء ـ لفّ كاشورا سيجارة وأشعلها ثم عبّ الدخان حتى امتلأ صدره ثم نفثه. نفّس عن صدره ساخراً بكاشورا وأسيره: يتركونه يصلي! يدارونه بدلاً من أن يجرّوه من صلاته ويقتلوه. يقولون لي "كفى لا نريد أن نذنب بحقه ". " ابنك الوحيد الذي كنا نتأمل أن يصبح صهرنا تساويه بأسير من الأديغة " غضب إيفان كاشورا في نفسه. أي ذنب تتكلم عليه يا بيتروفيتش؟ أنت تُطعم هذا الأسيرَ، سليلَ الوسخِ،وتداوي جرحه وتعامله بالحسنى في حين أننا لا نعرف إن كان الأديغة قتلوا ابننا بانتالي " باتيوخا". لا فائدة من رجاء الأديغة واستعطافهم. أأنا الذي لا يعرفهم؟! يكفي آل كاشورا كلَّهم العذابُ الذي عذبوه جدَّنا حين أسروه حتى افتديناه. وبالقياس لما كان يرويه لنا فهذا الأسير يحمله سافيلي بين راحتيه. ويمنعني أن أُفسد صلاته. لا أعرف إن كان الأسير لم يعد في الإسطبل. ظننت أني أسمع صوت قيده ولكن ربما كان يُخيَّل إليّ فقط؟ والكلاب لا تنبح دون سبب وجيه. وكذا طلقات البنادق المتجاوبة.

تسلل كاشورا القوزاقي إلى الحفرة التي في جدار الإسطبل والتي كانت تتفحصها أنفيسكا قبل أيام، فأغلقها، وأنصت. وحين لم يصدر أي صوت قال في نفسه " لا أعرف ربما هرب " وتذكر أن بادينكا كان قد قال " لو وثقت أنه سيعيد إلي ابني لما احتفظت به ساعة واحدة " " لو تأكدت أنه لن يخدعك تصرفت هكذا، ولكن أن تثق بهؤلاء كأنْ تنتظر المطر في موسم الحش "

ـ أنت هنا أيها الأديغي الحاسر الرأس؟ صاح كاشورا كما يصيح بادينكا على أسيره ـ وفيما كلبه ينبح استند إلى جدار الإسطبل ونهر كلبه ـ ابتعد يا بورزوي! دعني أسمع! سألتك أأنت هنا أيها الأديغي اللعين الحاسر الرأس؟

ـ أين أذهب إن لم أكن هنا أيها اللعين،آكل لحم الخنزير ؟ ـ دمدم شواي ـ أي ضجة أثرتها الليلة حولي؟ !

ـ هو هنا! ـ ابتسم كاشورا وهو لا يعرف أيفرح أم يغضب. ثم قال وهو يدخل بيته: لا تغفل يا بورزي عن هذا الأسير المِضْحَكة!

وعندما أغلق الباب وراءه هدأت دارُ القوزاقي والقريةُ والجوارُ في ذهن شواي. وأنصت عبر الإسطبل المظلم غير مصدق. ومع أنه مقيم في إسطبل مغلق بإحكام فقد بدأ ليل الخريف يؤثر فيه، وبدأ يلحظ بقلبه ما لا تراه عيناه.

حدّث شواي نفسه: اليوم بعد الظهر تقريباً، مع أن السحب كانت تتجمع في السماء، فمِن أصوات الكلاب ومن وقوف الرجلين في أرض الدار، فلا أظنها جلبت المطر، لم توحِ جروحي إليّ بمثل هذا التوقع، لا اليوم ولا أمس ولا أول من أمس. المطر الذي كرهناه هو ما هطل في الشهر الأخير من الصيف. لم ينقطع طوال نصف شهر؛يحوم فوقنا ثم يطير عنا. ليست المشكلة في مطر الصيف بل في أيام الخريف الرطبة لأن أيام الشتاء الباردة ستتلوها. ماذا سيجلب لي الشتاءُ غيرَ المطر والثلج البارد. آل بادينكا وغيرهم مشغولون بابنهم الذي آذيناهم به ويبحثون عنه، وما سيدفعون من أجله جاهز. وأنا مَن لي في الدنيا يهتمُّ بي فيدفعَ فديتي؟ الوحيد في الدنيا الذي يعرف ما حدث لي هو بامبت. وماذا تتأمل من مثله؟ لا وفاء لمن لا مبدأ له. يقضي وقته يعوي قائلاً:لا شاهد على ما فعلتُ، ولن يعرفني أحد. وابن بادينكا لا يعرف اسمي ولم ير " مقتلي ".، ولا يعرف ما حلّ بي. كان سيروي خبري إن عاجلاً أم آجلاً لو رأى " مقتلي " حتى لو لم يعرف اسمي. يا ربي لا أريد أن يموت هذا الفتى على يد بامبت الخبيث. بامبت الجشع يقول إنّ إزهاق روح الكافر يفتح باب الجنة ولكنه لن يفعل هذا؛ سيغريه ما سيجنيه من مال من وراء الفتى أكثر مما تغريه الجنة التي يشتهيها. يا إلهي أنا واحد ممن تسبب في مأساة هذا الفتى فاغفر لي. وإن لم يكن حياً فاجعل جنة المسيحيين مأواه، وإن كان حياً فاشمله برعايتك. هؤلاء، وإن لم يكونوا مسلمين، مؤمنون برب لهم، ليسوا عديمي الشفقة؛ فنوِّلهم ولدهم! وإن جنيت على المسلمين بهذا فسأكفر عن ذنبي مادمت في دنياك الفانية.

لوى شيء ما قلب شواي. وحين غاب الألم بدأ ينبض على نحو أقوى، وسال جبينه عرقاً وهو يشعر بضيق في التنفس. استند إلى جدار الإسطبل مغمض العينين كما يفعل عادة عندما يدور رأسه. وأراح رأسه البارد على جدار القصب والطين. لا ينسى قلبه الأغلال التي على رجليه وإن خفّت عليه الآن، والساقان المرتعشتان تهزان حلقات القيد، وصليلُها الأصم يرنُّ في جنبات الإسطبل. حين يضع راحتيه على ركبتيه ينقطع صوت الأغلال الذي لا يطيقه القلب، وبعد أن يجلس هكذا نصف ساعة تقريباً يلوم نفسه ويعظها فيعود الوعي إلى أوصاله. وتعود إليه شيئاً فشيئاً الأفكار التي كانت هربت منه.

قال شواي في نفسه: إن لم تمطر ولم تغطِّ السحب السماء فهي تزخر بالنجوم. نجوم الصيف ونجوم الخريف مختلفة في دفئها وإن لم يكن بينها فرق كبير، وكذا القمر الذي تتناثر حوله. لا أظن أنه بقي الكثير على اكتمال القمر، يبدأ ينقص عندما يبلغ مداه فيستدير ويهل وجهه وهو يرش ماءه الفضي على سطح الأرض. وإذا قست الوقت إلى صلاة العشاء أظن أن القمر وقف الآن على سطح الإسطبل. وبعد قليل سينحدر باتجاه الغياب وينزل في جهة بلاد البجدوغ، ويقف فوق لوستان حبله وسيطل على داري السابقة. وسيلقي نظرة عبر النوافذ بضوئه اللطيف. سيبتسم لسيسور، وسيداعب النومَ الهادئ لخان جري وسعيد جري وعادل جري. وسيشرق على قانتات الجدة. وسيلمع فوق شارتي كتفي محمد جري اللتين على معطفه المعلق بسنادة المقعد. ما أعندني وما أطول لساني لأتدخل في ما لا يعنيني. لماذا ناقشت محمد

جري في علاقته بالقوزاق؟ ولماذا قلت له ما لا يجوز؟ من كنت أحمي بهذا؟ أهم الأديغةَ الذين من شاكلة بامبت؟ من بقي عندي الآن يستقصي خبري؟ أهُمُ الأديغةُ الذين أسأت إلى آل سلطان جري من أجلهم؟ انتظرهم إذن إلى أن يتذكروك ويتتبعوا أخبارك! مهلاً، مهلاً! ما الذي جعلني أفكر فيهم؟ أي علاقة بما فعلنا أنا وبامبت بحماية حرية الأديغة؟ محمد جري يعتقد أنه يعمل خيراً من أجل الأديغة وحريتهم. وأنا ماذا؟ أنا أنستني جاهليتي القوميةُ حريةَ الأديغة وجاءت بي إلى هنا فقيَّدوني حسب عادات كلِّ قوم؛ ومع ذلك فأنا عاتب على بادينكا ناسياً ما فعلته به، وأحتقر القوزاقي كاشورا، وغاضب على الأتامان ماتفييف، وأُلحق بهم محمد جري.أحنّ قائلاً "داري السابقة " أأحفظ سرَّ بامبت قاتلي؟ لا أبوح لهم بمصدر الشر، بمن خطف الفتى، بل أكتفي بالقول إني سأعثر لكم على فتاكم. وماذا فعلت بمحمد جري إن اعترضته، إن قلت له رأيي؟ ــ يكفي أن أُلمح لهؤلاء مجرد تلميح أني مولى له... أأقضي وقتي في إسطبل القوزاق مكبلاً لا شيء يبعث الفرح فيّ إلا أنفيسكا التي تنظر إليّ من ثقب الجدار، والتي يطردونها دائماً، قانعاً بأنهم يطعمونني ويحافظون على حياتي؟! عليّ أن أفقأ عين من كان ينوي أن يخطف روحي. سأعبر نهر بشزة متخذاً من بامبت جسراً وسأعود إلى قريتي. يقولون "من يتب يقبل الله توبته " ولذا إن قبلني أهلي رجعت إليهم. وهكذا سأعرف ما سأقول وما سأفعل وما سأرتب بشكل أفضل الآن. وسأصل رجمي على نحو أفضل.

غفا شواي حيث هو جالس مرهقاً بالأفكار الثقيلة التي كان فيها. لم ير أي حلم كما كان يرى في الليالي السابقة، ولم يوقظه أي ضيق. ولكنه قفز عندما دخل شعاع الشمس المنساب من ثغرة الجدار. وانتبه إلى أنه فوّت وقت صلاة الصبح. قام بسرعة ناسياً القيد الذي عليه وتوضأ ووقف أمام الله متخذاً من فروته سجادة للصلاة. وحين انتهى منها بدأ يدعو باللغة الأديغية جالساً،كما صلى، على ركبتيه رافعاً إلى الله ذراعيه. " يا إلهي يا من يضرع إليه كل الناس ولا يضرع هو إلى أحد، أتوسل إليك أن تغفر لي ذنوبي. إن قلتُ سوءاً أو فعلت فلأنك أنت الحاكم؛ ارفعه عني! سأفعل الصالحات ما حييتُ لا أحيد عن أمرك وقضائك. أنت أدرى بما حصل لي، كنتُ جئت إلى هذه الأرض متحمساً ولكن ربما تصرفتَ معي حسب نواياي أو على نحوٍ آخر. لا أفعل ما ليس لي به علم. ولأن الاختبار الصعب الذي وضعتَني فيه جعلني أعي نفسي اغفرْ لي واشملْني بعطفك لتعيدني إلى المسلمين الذين أبعدتني عنهم. إن حققت لي رجائي كان دَيناً في رقبتي إلى الأبد. ولكن لا تؤاخذني بالشر الذي نما في قلبي؛ إنه ليس ذنبي ولا ذنبك؛فلا تحاسبني عليه بسبب بامبت. لست كمن على لسانه الصَّبِرُ فنسي طعم الحلو. لا تقف في طريقي دون هذه الأمنية، اغفر لي، لن يثنيني عن عزمي منعُك لي عنه.

ما إن أنهى شواي دعاءه إلى الله ونهض حتى ابتسم للعين الزرقاء التي تنظر من خلل جدار الإسطبل الممتد إلى دار كاشورا. وقال لها بلغة خليط بين الأديغة والروسية:

ــ أنتِ يا أنفيسكا؟

ـ أنا يا إبراهيم. جئتك بالخبز ـ ومدت من الثغرة قطعة كبيرة من الخبز ملفوفة على قطعة من اللحم ـ خذْ مني!

ـ لن يقبل منك أبوك هذا يا صغيرة ـ قال وهو يستلم ما مُدَّ إليه.

ـ أبي وأمي ليسا في البيت؛ هما في سوق الأحد.

ـ هكذا طمأنتِ قلبي يا أنفيسكا.

ـ وكذلك أسرة بادينكا.

ـ يبدو أننا بقينا وحدنا.

ـ لا، معنا باسكي.

ـ وأين هو؟

ـ ها هو. على عتبة الباب؛ يخاف منك.

ـ وأنت لا تخافين مني يا صغيرة؟

ـ أنا؟ ـ سألت أنفيسكا وقد لفّ الدفء عينيها، ثم أردفت بلهجة يلفّها الحياء ـ أنا أشفق عليك.

ـ شكراً!.. أعرف يا صغيرة منذ زمن أنك تشفقين عليّ.

ـ أنا لست صغيرة ـ أبعدت أنفيسكا عينيها الزرقاوين غير راضية عن لقب " الصغيرة ".

وقبل أن يفهم شواي ما جرى له رجعت العينان الزرقاوان أنفسهما، وسمع منها ما لم يسمعه خلال الشهرين اللذين عرفها فيهما.

ـ لا تنظر إلى نحافتي يا إبراهيم، أنا دخلت في السادسة عشرة. وإن لم تصدّق فانظر إلي وأنا أبتعد عن الثغرة ـ صاحت أنفيسكا التي أبعدت العينين الزرقاوين النديتين: ـ ولماذا لا تنظر إليّ؟ ها أنا هنا!

وقف شواي لأياً وقد فهم معنى كلامها، ولكن دون أن يدري لماذا تقول هذا. ثم غلبته ذكورته فقادته إلى الثغرة.

ارتسم لعيني شواي أولاً حذاؤها الأسود بالكعب العالي، ثم الركبتان المدورتان والفخذان القويتان. ولكن لما عجز عن رؤية ما هو أعلى منهما وعجزت يداه عن إبعاد القضبان التي تحد الفجوة ناداها:

ـ ابتعدي أيضاً، أيضاً، أيضاً... يكفي! الآن أراك جيداً.

ـ لم يفهم الجار كاشورا حين ظهر من وراء حائط الإسطبل وبيده سطل غير كبير تحركاتِ أنفيسكا فتوقف وتفقد الدار وسأل:

ـ مع من تتكلمين يا أنفيسكا؟ ما أعجب ملابسك؟

ـ ألعب مع فاسيك نتقاذف الكرة ـ وجدتْ أنفيسكا مخرجاً بسرعة.

ـ هكذا؟ حسنٌ أنك تلاعبين أخاك الصغير وترعينه ـ ثم اقترب من باب بادينكا كأنه نسي شيئاً وسأل كمن يحدّث نفسه على الأغلب إبراهيم لم يأكل منذ الصباح؛ ألم يحتجَّ؟ ودخل يغمغم ـ يرجوني سافيلي

أن أطعمه لأنه سيغيب، بدلاً من أن يدعو عليه بالموت في مجاعة. الأديغة يستحقون أن تقتلهم، تحرقهم، لا أن تطعمهم؛ إنهم حشرات!

VI

_ يا خان جري يا ولدي قم يا صغيري _ قانتات أمام باب الغرفة التي ينام فيها خان جري في الأيام الأخيرة وحيداً _ حان وقت الذهاب إلى المدرسة ألا تحتاج إلى أن تغسل وتلبس؟

_ ادخلي يا جدتي! _ صاح خان جري من الداخل بصوت حاد _ صحوت منذ وقت طويل _ ترك مقعده وهبَّ لاستقبال جدته. وكما اعتاد عانقها.

_ متى استيقظت يا ولدي؟ وكيف لم أسمع؟ _ نظرت قانتات إلى الكتاب المفتوح _ ما هذا؟ كأنك لم تجده مساء أمس؛ فقرأته الآن؟

رفع خان جري رأسه المتطاول ونظر في وجه جدته، وأجابها جواباً يريحها:

_ كنت مشغول البال لعدم استيقاظك _ فاغفري لي _ فتحت باب غرفتك واطمأننت من خلاله.

_ هكذا يا ولدي؟ ربما غلبني النوم لأن الأحلام المزعجة حرمتني النوم ليلاً. لو كانت هذه الدنيا الفانية كما نريد! ندمت قانتات على تنهدها العميق أمام الفتى فحاولت أن تقول شيئاً آخر، ولكن خان جري لاحظ فقاطعها:

_ حفظت دروسي أمس يا جدتي. أتعرفين من كتب هذا الكتاب؟ _ لمعت عينا خان جري _ روسينسكي كيريل فاسيليفيتش. إن حفظت ما في هذا الكتاب جيداً أفادك في اللغة الروسية. يحميك من الخطأ في القراءة والكتابة. لما حصلت أمس على جيد جداً في القراءة امتدحني كيريل فاسيليفيتش على مسمع من الجميع وقدم لي هذا الكتاب. ما أعجب محتوياته يا جدتي! ومدرِّسُنا في الروسية واللاتينية توماتشيف فاسيلي إميليانوفيتش يمتدحه. يقرأ خان جري عنوانه بالروسية. ويسألها بنوع من الخبث: أفهمت يا جدتي؟

_ فهمت معنى الكلام _ أجابت بنفس الخبث _ بفضل الله ولدت في قرية أديغية _ قوزاقية. ولكن إن حفظت أنت ما فيه ورويته لي فهمت أكثر.

_ إن تعلمت ما في كتاب فاسيليفيتش _ قال خان جري فجأة _ أفتعرفين أين سأرويه لك من أجل ألا نصرف عليه كثيراً من الوقت: طريق إيكاترينودار.

_ حسناً يا ولدي _ قالت مسرورة ومتعجبة لما سمعت _ هذه فكرة جيدة منك على طريقنا، وكذلك تراجع دروسك معي. كما يقال " عقلان خير من عقل واحد " سيهُون عليك الأمرُ أمام معلمك.

فهمت قانتات حين خرجت من البيت فقط أن الوقت مبكر. تظهر العربة الواقفة أمام البوابة بصعوبة من غبش الصباح. ويسمع صوت مناخير الحصانين. يقف قايمت وحاج قسي أمام العربة، وتتابع بيكا وسيسور

من المصطبة. لا يظهر رأس خان جري الصغير من وراء صندوق الكتب الذي على ظهره. وكل من يراه يشفق عليه.

كل ما يُهم قانتات الجدة وبيكا الأم وسيسور، وحتى قايمت وحاج قسي وحصاني العربة، شيء آخر مختلف جداً عن الصباح الخريفي الندي وعالم خان جري المضطرب. يقولون: إنه يفيق باكراً ولا يشبع من النوم، ويمضي سحابة نهاره في المدرسة ولا يأكل جيداً، ولكن لا يرى شيء من هذا على وجه الفتى الأمير النازل من المصطبة إذ يبدو من سلوكه أنه شديد الرغبة في المدرسة التي يذهب إليها.

_ لا تستعجل يا ولدي! _ تتلهف قانتات على الفتى _ لا يزال الوقت مبكراً وأمامنا متسع منه . يا قايمت ويا حاج قسي خذا منه صندوق الكتب! ما أثقله يا صغيري! يجعلك أحدب هذا الذي على ظهرك.

_ أما قلت لك يا جدتي أن الصندوق ليس ثقيلاً علي؟ _ لم يسمح خان جري الذي يفخر برجولته للموالي الذين اعترضوه أن يحملوا عنه الصندوق.

_ أعطهم يا صغيري أعطهم! _ لا تكفُّ قانتات _ يقولون " الحطب يستريح ريثما ترتفع عنه الفأس" استرح ريثما تصل إلى العربة.

لا يعبأ خان جري بما تقوله قانتات بل يقف محاذياً الموليين على مصعد العربة. ثم يبتعد قليلاً ويقول لها باحترام:

_ اركبي يا جدتي!

_ يا إلهي! هذا الفتى يفعل ما يريد هو، ولا يهتم بما يقول غيره _ كانت قانتات، رغم نبرة العتاب في صوتها، راضية بما سمعت ومسرورة. ثم ارتقت العربة حذرة متثاقلة.

قال خان جري لقانتات التي لم تقل شيئاً حتى اللحظة التي مشتْ فيها العربة بهدوء على ضفة النهر يتبعها قايمت وفارس آخر:

_ يا جدتي ليس مزاجك اليوم حسناً.

_ هيه ؟ انقطعت سلسلة أفكارها في هذه اللحظة، ونظرت في وجه الفتى مستغربةً فطنتَه _ ما الذي يجعلك تقول هذا؟

_ لا تقولين شيئاً، وشاردة.

_ أهذا هو يا ولدي؟ _ نظرت نحو خان جري وهشّت له _ يحدث لي أحياناً مثل هذا. بحمد الله لا داعي لليأس. بديهي أن يفكر المرء في ما ينتظره حين يتقدم في العمر. لم يعد أمري مهماً؛ أنتم الآن همي. أتمنى أن أوقفكم على أرجلكم فحسب. سأتحمل ما كتبه الله علي مهما كان ثقيلاً.

عند معبر النهر كان أربعة من الرجال الأديغة ينتظرون العبّارة التي ستُقلّهم مع عربتين محمَّلتين بالخشب:

_ مع السلامة يا قانتات _ ترك بامبت رفاقه واقترب منها، وترجل عن حصانه تعبيراً عن احترامه للمرأة، وقال للسائسين:

_ ابتعدوا وقدّموا _ لم يقل " عربة الأمير " بل _ "العربة التي تُقِلّ المرأة".

_ كفى يا بامبت _ لم تقبل قانتات، بعدما ردت السلام، المزيدَ من مظاهر الاحترام من جانب بامبت قائلة: _ لا تزعج عربات النقل؛ ربما ذاهبون لمقايضة الملح.

_ لا أعرف يا قانتات ماذا ينوون، أعرف فقط أنهم سدوا الطريق أمام عينيك. إن لم أقدّرك فمن يفعل هذا؟ إن فقدنا شعورنا القومي فسننفرط كالعِقد حبةً حبةً. الشِّرعة التي أورثنا إياها أسلافُنا تجمعنا. إن لم نعلّمها للفتى الأمير الجالس بجانبك ولصغارنا فسنضيع تماماً. أليس صحيحاً يا قانتات... ويا خان جري؟ أسيعلمنا هذا كيف نربي أولادنا؟! قالت قانتات في نفسها ولكنها أخفت مشاعرها فلم تترك السؤال بلا جواب.

_ حقاً شرعة الأديغة تتضمن الكثير. وبيننا من يتحملها ومن لا يتحملها. ما العمل؟ ليت الأمور كانت تجري بإرادتنا!

_ ولكن العربات سدّت طريقنا يا جدتي _ قال خان جري باستعجال، وبصوت أعلى مما يجب.

_ نعم يا ولدي؛ لم تقل إلا الصواب. من ولد أولاً فهو الأكبر، ومن ولد تالياً فهو الأصغر. ولكن إن تعاليت على الحياة نبذتك.

_ هذا صحيح يا قانتات. تقولين الحق، وتربين الأمير الفتى تربية حسنة. وهو يعجبني بفطنته العميقة. والمرحوم محمد جري كان إنساناً عاقلاً. الفتى لم يضيع أصله. ولكن الأفضل أن يعرف كلٌّ موقعَه. أنت من أمراء البجدوغ. ألستِ امرأة؛ كنت أريد أن أفرض احترامك على من تفوح منهم رائحة الزبل _ ونطق الكلمات الأخيرة بصوت أخفض _ أريد أن يحترموك ولو لم تكن فطنتهم كافية.

_ شكراً يا بامبت _ يكفيني ما كنت تريد أن تعمله من أجلي _ ولكن دعنا من مناقشة نظرتك إلى من وصفتهم بأن رائحة الزبل تفوح منهم. ما يقلقني الآن شيء آخر يا بامبت. أظنك نسيت رجائي إليك في ذلك المساء.

_ لا يا قانتات، لا تنظري إلي على هذا النحو! ليس شابسغ بامبت من الذين تخالف أفعالهم أقوالهم. لم يكن عندي شاغل غيرُه في الأيام الماضية. ولم يبق من لم أتصل به في إقليم الأديغة كلِّه. لا أعرف إن لم تنشقَّ أرض الأديغة وتبتلع الفتى بانتالي. لم يعرفه أحد ممن سألت. تعرفين القوزاق يقولون الكثير؛ قد يكون قُتل في ما بينهم. واتهموا الأديغة به.

_ هذا مستحيل يا بامبت!

_ ولماذا؟

_ لأنهم يحتجزون من كان مع الذي اختطف بانتالي.

_ هه؛ هه _ موّه بامبت بالعتاب ما سمعه ولو أنه جاءه كطعنة سكين _ لماذا لم تخبريني بهذا من قبل؛ كانت مهمتنا ستقصر _ انتصبت أمامه صورة شواي برجله المجروحة، والذي أوصله إلى ضفة النهر ثم طعن كتفه من الوراء يقصد قتله. ثم سأل وكأنه بريء من فِعلته:

_ ومن هو الذي يحتفظ به القوزاق؟ أأخبروك باسمه؟

_ قالت قانتات متأسفة إنها لا تعرف اسمه: لو كنا نعرف...

قال بامبت في نفسه: يبدو أن ابن الكلب هذا، شواي الذي جرحه القوزاق، بسبعة أرواح. لهذا يقولون "الشفقة توقِعك في الهم" لم أستطع إزهاق روحه حين ضربتُه. والآن صار علي أن أفعلها ثانية. سأعرف إن كان هو.

قال لهم وهو مرتاح لما يراه من تحرك الناس لاستقبال العبّارة المربعة الضخمة التي تقترب من الضفة:

_ مع السلامة!

_ لماذا أنت واقف؟ اذهب معنا _ قال قايمت لبامبت الواقف وراء العربة.

_ انطلقوا، انطلقوا _ أجاب بامبت يأكلُ نفسه من الغيظ _ نحن لا أقارب لنا مثلكم من القوزاق.

نظرت قانتات إلى خان جري الذي ظل جالساً دون كلام طوال ارتقاء العربة الأميرية الطريقَ المؤدي إلى باشكا، وطوال اجتيازهم غابة البطم، ولم يكن الصمت من طبعه. وابتسمت ولو أنها لا تعرف فيم يفكر، ولم تسأله. وتذكرت ثانية جارها الفتى بعدما جرت العربة مدة وهي غارقة في أفكارها، ولكنها أشفقت عليه أن تكدِّر صفوَه.

بلونا هذا الفتى _ قالت قانتات في سرها _ من قبل أن يولد ونحن نلاحقه بالأوامر: لا تلعب؛ ادرس! لا تتصرف دون لباقة بل ادرس! لا تتكاسل بل ادرس! سواء كان ما تقوله بيكا وسيسور صحيحاً أم غير صحيح فنحن فرضنا على هذا الصبي أن يُحرَم من عذوبة حضن الأم ودفء منزل الأسرة. أأكرّه الأولاد فيّ بإفراطي في حناني فألاحقهم مسببةً لهم الإحباط: اجلسوا هكذا، قفوا هكذا، وهذه نباهة، وهذا جنون؟ وهذا جزء من شخصية الأديغة، وهذا عار؟ فيم يفكر الآن؟ فكّر يا ولدي فكر! " اجمع ما لا يجتمع ووفِّق بين ما لا يتفق ". ونحن أنفقنا عمرنا في هذا. يزيدنا في اكتشاف جهلنا، ولو أنه يشيّب شعرنا، فيوسّع أفق معرفتنا. حقاً يا ولدي؛ بدل أن أدعك تلعب في دار والدك وبين أقرانك رميتك بين أولاد القوزاق. أيكون هذا ما تفكر فيه؟ أقول هذا ولكن لو لم يكن منسجماً معهم لما اختار المدرسة وجاء إلى هنا. أي همٍّ في هذه الساعة في رأس خان جري؟ أيكون بامبت؟ لم نتبادل كلاماً غير لائق، احترمَنا ونحن احترمناه. تكلمنا في همومنا. أيكون الفرسان ذكّروه بوالده؟ يا حسرتي يا ولدي! من أين نسترجع لابس القبعة الوحيد الذي كنا في رعايته؟ إن كان هذا همك فسيفنيك.

_ يا ولدي يا خان جري _ عجّلتها همومها _ أتسمعني؟

_ ماذا يا جدتي؟ _ انتشل خان جري نفسه من أفكاره كالرجال.

_ لم نحقق وعدنا اليوم.

_ إن كانت دروسي فقد أعدتها عليك؛ ولكن أتعرفين فيم كنت أفكر؟

_ أتمنى لو أعرف. قالت قانتات الجدة بتصميم.

_ أسمعت جواب بامبت حين دعاه قايمت أن يسافر معنا؟

_ ماذا قال له؟ أأهانه؟

_ كل يفهم هذا كما يريد يا جدتي. أجابه: " ليس عندنا أقارب من القوزاق مثلكم "

_ أهذا ما كنت تفكر فيه؟

_ بامبت شابسغ ليس إنساناً مستقيماً يا جدتي. أجاب خان جري ولو لم يكن الجواب على السؤال بالتحديد. ثم أضاف بسرعة: لم تعجبني طريقة كلامه في تلك الليلة عند سيسور ولا اليوم. هؤلاء يسميهم الأتاليك مرجان " أصحاب الألسنة المعسولة ". ثم إن صوته؛ أتتذكرين ما رويته لك عن الفرسان الذين ذهبوا لإرهاب مرجان؟ أظنه كان بينهم.

_ يا ولدي، يا خان جري يا روحي _ خافت قانتات _ أتكون مخطئاً؟ _ من السهل أن تظلم الإنسان.

_ قلت: أظن.

_ نعم نعم. تظن وحسب، توافق قانتات الفتى الأمير بلهفة _ ثم تموه بكلام ألطف: فيم سيجعل منا نحن محدثين له؟ ما لا تعرفه، وإن كنت تشك فيه، لا تدعه في رأسك! أتعرف ماذا سنفعل أنا وأنت بعد المدرسة؟ يقولون إن البيت الذي استأجره لنا غريغوري كوندراتيفيتش بناءً على تكليف من الأتامان ماتفيف بيت جيد، وليس بعيداً عن المدرسة، سنتفقده. إن أعجبك سننتقل إليه أنا وأنت وسيسور وقايمت وحاج قسي والطباخة.

_ ما أكثر من عددت يا جدتي! _ قال بعد أن تمعن في الموضوع كالمسنين _ أليسوا كثيرين؟ ألن يكونوا حملاً ثقيلاً علينا؟ وماذا سيقول القوزاق الذين سنعيش بينهم؟

_ إن كانت التكاليف فلا تخف! ورّثنا جدنا ما يكفينا العمر كله. والمرحوم والدك زاد فيه، من بَلْهِ أن يبدده. ويسرني أنك أيضاً تفكر فيه. هذا أولاً. ومن جهة ثانية لنا الحق بناء على توجيهات من قيصر روسيا أن نعيش بين القوزاق، أو نذهب بعيداً حتى سان بطرسبورج. احفظ هذا في قلبك! لا تدع أحداً يمس حريتك! وثالثاً نحن بحاجة إلى حراس من الرجال.لا خوف علينا ولكن أريد أن تفهم _ نفّست قانتات عن كربها وإن لم تكشف كل همومها. ثم كررت بصوت ألطف ما تخاف منه _: لا خوف يا ولدي ولكن أريد أن أُفهِمك...

_ لا تهتمي يا جدتي فهمت _ سأل خان جري الذي اصطنع قبل قليل نبرة الرجال بطريقة تفكير صبيانية _: ولكنْ يا جدتي القريةُ وأمي وإخوتي الصغار والأديغة؟ أسنعيش عمرنا هنا؟

_ يا حسرة، لا أعرف يا خان جري _ ارتعبت قانتات من السؤال المفاجئ ثم عاد إليها الوعي: ولماذا؟ في أيام استراحاتك في الصيف والخريف والشتاء والربيع سنعود إلى القرية.

***

فيما يفكر بامبت في نهاية للخبر المزعج الذي لم يتوقعه وجد حجة ليترك رفاقه الفرسان. ولفت انتباهه صوت حوافر الحصان وراءه. وقال لأغوي بشه ماف الذي لحق به:

_ اليوم طريقي غيرُ طريقك يا بطين.

_ ألم نتفق على ألا تدعوني بهذا الاسم يا بامبت؟

_ زلة لسان.

_ لا يعجبني برنامجك اليوم.

_ ما أكثر ما لا يعجبني لو فكرت في سردها!

_ عجيب؛ ماذا حدث لك؟ أسحرتك عجوز آل سلطان؟

_ لا تتكلم في ما لا تعرفه!

_ حقاً لا أتكلم في ما لا أعرفه يا بامبت ولكن ما أقرؤه على وجهك لا يبعث على الاطمئنان. أتكتم عني شيئاً؟

_ كفى يا أغوي! أوقف بامبت حصانه فجأة فدار في مكانه. ثم لجمه بعنف مع سورة غضبه فوثب الحصان: اتركني!

_ أيها الشابسغ؛ ما كنت أريد أن أقول ما أقوله ولكن _ انفجر أغوي بشه ماف _ كُفَّ عن نزقك! أتظنني طفلاً؟ إن كنت تبعتك من قبيل فعل المعروف فلا حق لك أن تأمرني أن أتركك، ولا حق أن تجعل من يتابعنا بعينيه يسخر مني. حين نصل إلى مفرق تغرغوي فلكلٍّ الحقُّ في أن يدير رأس حصانه إلى حيث يشاء.

أطلق بامبت حصانه دون أن يرد بخير أو بشرٍّ على رفيقه الغاضب. ولم يدعه بشه ماف يسبقه، وبعد أن جريا مدة ووصلا إلى مفترق طريق الغابة قال بامبت: لا تؤاخذني يا بشه ماف يجب أن أذهب إلى مكان ما. بعد قليل لن يكون لي ما أكتمه عنك. سأطلعك على الموضوع.

_ قل لي هكذا إذن يا بيتمال! قال بشه ماف وقد هدأ غضبه. ثم غمغم وراء من يختفي ظهر حصانه في الغابة: لا تظن أني لا أعرف من أي نوع من البشر أنت! لا شك أن مشكلة ما تروح بك وتغدو.

مع أنك يمكن أن تعرف من طريقة ركوب بامبت أنه من النوع الذي يخاف أن يفقأ دملته فإن سلوكه اليوم وطريقة حديثه يكشفان أنه في مأزق يجد فيه نفسه وحيداً كما قال له رفيقه " مشكلة ما وراء هذا السلوك المضطرب ". لا يعبأ بأغصان الأشجار التي تصدم كتفيه ورأسه ووجهه. يختار طريقاً يسلكه اللصوص عادة مسابقاً الوقت لأن همه الآن هو الابتعاد ما أمكن إلى حيث لا يراه أحد. حدث معي ما لم أتوقعه في

حياتي. أخطأت في نصف السنة الماضية مرتين بشأن شواي: ما كان ينبغي أن أُشعره بما أنويه للخائن محمد جري، وتملّص مني بعدما نويت أن أُشركه في دم محمد جري بحيث يُضطر أن يكتم السر طوال عمره، بحجة أنه رُبِّي في داره، وأنه لم ينس الخبز والملح، وأن عمته بمثابة أمه، فوجد مئة ذريعة ليتملص مني. فمضى بعدما سمع مني سري. ولكن الناس لم ينسوا أنه تعادى والأمير،فكنت أريد أن أجعله يرحل إلى الآخرة موصوماً بلقب قاتل الأمير. ولكن لم يتحقق لي. مهلاً يا بامبت، لا تبكِّتْ نفسك إلى هذا الحد! "لم ينقطع رِكابك بعد، ولا انكسر حافر حصانك " ولا انتهت مهارتك في الرمي. أأنا الذي لا يستطيع أن يصل إلى قوزاق ناحية فاسيورينسك؟ إن كان الأسير الذي يحتجزونه هو شواي فلا أسهل من أن أُجهز عليه بضربة قاضية. ولن أدعه يسمع اسم سيسور الذي يحتفظ به في قلبه. ليس هذا فحسب بل سأُلحق به راكبَي عربة اليوم، العجوز التي يقول إنها مثل أمه، والصبي الذي بمثابة أخيه الصغير.

رجع بامبت إلى نفسه حين خلع غصنٌ قبعته. فتدلى والتقطه بطرف قامته. ونظر بحقد إلى طرف السيف الذي نبا عن صدر شواي ثم أعاده إلى غمده.

مهلاً، مهلاً! صرخ بامبت في نفسه بعدما مشى مسافة: إن كان من يتحدثون عنه هو شواي فلماذا سمى نفسه إبراهيم؟ هناك ما لا أعرفه في هذه المسألة. لا يخطئون في اسم بادينكا بانتالي، أنا أعرف اسمه واسم أسرته. أنا مَن أَسَرَه وأنا مَن بادله في اليوم التالي بالسرج المريح الذي تحتي. ينتظرني بادينكا وقوزاق فاسيورينسكا أن أعيد إليهم بانتالي وأقايضه بـ" إبراهيم "هم! وهذه العجوز المهترئة التي حقها أن تلبس قبعةً كالرجال لا غطاءَ رأس تدس أنفها في ما لا يعنيها. تتوسل إلي واعدة بأن تلبي كل ما أطلب من أجل أن ترسلني مبعوثاً وباحثاً في أرض الأديغة. ابحثوا وابحثوا فسنرى ما سيحدث! وأي بلبلة وقعت فيها اليوم من أجل أن أعرف حقيقة هذا " الإبراهيم "؟ لجم بامبت حصانه ودار إلى الوراء ببطء.

VII

بالإضافة إلى ما حدث الليلة في أسرة بادينكا من مفاجأة،حدثت أحداث أخرى قُبَيل الظهر في ناحية فاسيورينسك. الأول: أن أسير آل بادينكا نجا من الموت بفضل بورزوي كلب جارهم كاشورا. وهذا الخبر وإن لم ينتشر بعدُ في القرية فقد وصل عن طريق الروايات إلى القرية المجاورة وإلى غيرها. وبسبب هذا الخبر والقضايا الأخرى التي ستظهر مع الحدث الثاني، وبسبب مجيء الأتامان ماتفييف إلى إيكاترينودار، فقد التمّ قوزاق ناحية فاسيورينسكا.

في طرف القرية، أقربَ إلى نهر بشزة، عند المرعى، اجتمع كثير من الناس والفرسان، وليسوا قليلين من يخرجون من القرية أُحادَ ومَثْنى وجماعاتٍ. والنساء، صغيراتٍ أوكبيراتٍ، لسن أقلّ من الرجال. ويخيل إليك أن أصوات هؤلاء تأتيك من كل اتجاه. الرجال قبعاتهم سوداء وبيضاء وأعاليها حمراء، والأشرطة العمودية لسراويلهم الحمراءبلون أعلى القبعة. والفضة التي تكسو أغماد قاماتهم وأغماد سيوفهم وأغلفة مسدساتهم تشعّ أشعة شمس الخريف المنقضي فوقها فاترة. وسروج الخيل المتنوعة الألوان تتلامع، وتختلف الخيل في

أعرافها وأذيالها ورؤوسها العالية وظهورها الممدودة. وإن كان بعضها يعرف الآخر أم لا فإنها تصهل صهيلاً خفيفاً معتدّةً بقوتها وسرعتها. وأغطية رؤوس النساء وأثوابهن المتنوعة تنسيك لون حقول الخريف الباهت. والنساء اللواتي في منتصف العمر أكثرُ من المسنات ومن الشابات. والممشوقات القوام بينهن أكثر من البدينات الثقيلات. والرجال والنساء ينتمون إلى مختلف الأسر والعلاقات والقرابات.

الأتامان ماتفييف ومعاونه العسكري الجنرال فلاسوف ومندوب القيصر الروسي ديسكاسي والمقدم تابانيس وأتامان ناحية فاسيورينسكا كاشورا القوزاقي ومساعده تكاشينكا وبضعة من المسنين المحترمين مجتمعون في جماعات متناثرة.

_ افتتحْ اجتماع القوزاق يا إيفان كفيدوروفيتش _ قال الأتامان ماتفييف لكاشورا عندما شعر أن أصوات المجتمعين هدأت.

_ نعم، نعم، يجب افتتاح الاجتماع _ أسهم فلاسوف في الاجتماع كأنه غير عابئ بكلام الأتامان ثم اختتم:

_ لماذا نضيع الوقت؛ أمامنا أعمال كثيرة، افتتح أيها الأتامان!

شهد الخطاب المسهب الذي ألقاه ماتفييف بعد الكلمات التي افتُتح بها الاجتماع على شكه الزائد، وشهد على هذا الشك نظرته لديسكاسي والتي حكت أفكاره لموفد القيصر.وديسكاسي الذي يصلُ شعر صُدغيه الأسود المضفور الطويل إلى ذقنه لم يُظهِر على نفسه شيئاً تجاه ما رآه وما سمعه، مبتسماً من قلبه، متقنعاً بقناع أزرق على عادته.

_ صحيح يا ميخائيل غريغوريفيتش نحن القوزاق إن بقينا مجتمعين هنا فلن يخاف الأديغة منا فيهدؤوا. _ كلمات المقدم تابانيس جعلت ديسكاسي يرفع رأسه _ يجب أن نعبر النهر ونلقنهم درساً فلا يعودوا إلى غاراتهم.

_ لا ضرورة لهذا يا غريغوري كوندراتيفيتش _ لم يقبل الأتامان ماتفييف هذا الرأي ثم همس له بصوت أحزم _ لماذا تؤلب القوزاق الثائرين؟

أصغى القريبون والبعيدون إلى كلام تابانيس أكثر مما أصغوا إلى كلام الأتامان ماتفييف، ووافقوه من خلال الضجة التي أثاروها. ولكن يد الأتامان كاشورا المرفوعة هدّأت القوزاق.

_ افتتح اجتماع الناحية يا كفيدوروفيتش، افتتح! _ قال أحد مسني القوزاق المحترمين _ لا تجعل موضوع الأديغة أولاً، لنتكلم على أعمال الخريف! وأعطني الكلمة بعدك!

عندما دخل كاشورا الساحة سكت الواقفون فقال لهم:

_ أفتتح اجتماع قوزاق ناحية فاسيورينسكا باسم الله وبمعرفته. قائد جيش قوزاق شيرنومور غريغوري كوندراتيفيتش ماتفييف ضيفنا. لنرحّب به من كل قلوبنا! يا قوزاق لتتحابُّوا جميعكم !

ـ إلى الحبّ ! ـ قال القوزاق ليس بصوت واحد تماماً. وارتفعت أصوات نسائية رفيعة من هنا وهناك. ولم يتأخر بعض الأولاد والبنات عن آبائهم.

ـ اليوم نعقد هذا الاجتماع لسببين ـ أكمل كاشورا كلامه ـ الأول: أعمالنا الخريفية، والثاني علاقاتنا نحن والأديغة. وما أريد أن أقوله في ما يتعلق بالموضوع الأول...

ـ مهلاً يا كفيدوروفيتش مهلاً! ـ خرج من بين الجمع عجوز قوزاقي وهو يلوح بالعصا فوق رأسه ـ عندي سؤال يتعلق بجدول أعمال الاجتماع.

كان بعض الحضور يتضاحكون من نظرات العجوز وحركاته، وكثيرون كانوا ينهرونه أو يمزحون معه. دخل العجوز الملوّح بعصاه ووقف أمام الأتامان منتحياً قليلاً، غير مستهين بنفسه، معتداً بأنه سيظهر أمام قائد الجيش القوزاقي وأمام مندوب القيصر والجنرال القوزاقي وسكان فاريورينسكا والآخرين، وبأنه سيستعرض نفسه أمام الناس الذين يراهم كل يوم. ثم أسند ذقنه إلى طرف عصاه دون استعجال.

ـ أسمعك يا بارادراميش أسمعك ـ نادى الأتامانُ كاشورا العجوزَ راغباً في أن يعيده إلى موضوعه.

ـ بديهي أن تسمعني مادمتَ أذنتَ لي ـ أجاب العجوز كأنه غير مهتم بكلام كاشورا ـ هاهم رجال أهم منك، وعلى رأسهم غريغوري كوندراتيفيتش قائد الجيش يسمعونني. ألست أنا شوغايلو نيكيكفور الذي حارب مع أكثر من أتامانٍ لجيشِ شيرنومور القوزاقي. وإن لم أكن أنا فمن جُرح بالرمح في الحرب ضد الأتراك ذوي السراويل الفضفاضة عند قلعة أنابه.

ـ يا بارداديميش ـ صاح قوزاقي أصغر سناً ـ أين جاءت طعنة الرمح؟ في صدرك أم في مؤخرتك؟

ـ اسكت يا وقح! ـ يستدير العجوز بسرعة نحو مصدر الصوت القاسي ويهز العصا ـ الحرب، المكان الذي تحمي فيه بلادك من عدوك، ليست مدعاة للسخرية ـ لا أكتم، اختبرنا شجاعتنا نحن القوزاق كثيراً برماحنا، وكثيراً ما هزمتنا أسنّةُ رماح العدو. وإن كنت تريد أن ترى جروحي أمكنك أن ترافقني غداً إلى حمّام الناحية. سترى هناك صدري وظهري ومؤخرتي. لن تسمح لك جروحي أن تكرر ما قلته لي اليوم.

ـ يا نيكيكفور بارادراميتش ـ سأل كاشورا وقد رق قلبه ـ كان عندك سؤال لي، أسمعك.

ـ كان عندي ـ قال العجوز الذي وُجّهت إليه الكلمات الجارحة، وقد نفّس عن غضبه ولجمته ذكرياته بعدما انتظر قليلاً، للاجتماع الصامت ـ كان عندي، ولكن الآن ليس عندي ـ ثم استدار وهو يخرج من بين الناس ـ لو تكلمنا اليوم في موضوع الاحترام بين الكبار والصغار، وتَبَعاً لما فعله كلٌّ لوطنه لما كان خطأ.

ـ صحيح يا بارادراميتش صحيح ـ وافقه القوزاق الذين يفارقهم، ومن يقفون في أماكن أخرى ـ ما يقوله نيكيكفور صحيح، إن لم نحترم أنفسنا فمن يحترمنا؟ـ وصدرت صيحات من أمكنة أخرى.

قال الجنرال فلاسوف في نفسه: ليس صعباً أن تخرب الأمور. كان العجوز شوغايلو بدأ الكلام بطريقة تعبر عما في نفسي. وكان ينوي أن يستمع إليهم في شأن أعمال الخريف. ليس من أجل أعمال الخريف

أُستُدعينا إلى هنا. بل من أجل الاعتداءات التي يشنها الأديغة على القوزاق. لم يكن هذا الموضوع في نية كاشورا الذي يتكلم في مهمات الخريف والشتاء الذي يتلوه. لا يستطيع ماتفييف الثعلب الخبيث أن ينهي ما جناه له حديثه الموارب وكلامِه المهموس سواءٌ كنت أعرف أم لا أعرف. لا شأن لنا بما يفعله كلٌّ ببستانه؛ أينظفه أم لا، وبأرضه؛ يحرثها أم لا، أهناك ما يجب أن يحرقه أم لا... أتسمع ما يعالجه الآن؟ إنه مشغول بتصنيع العرق. أيقبل القوزاق أن يعيشوا دون أن يصنعوا العرق ويشربوه؟ أتعجّبُ من حِلم قوزاق فاسيورينسك وصبرهم. ألا يقاطعونه؟! والآن يناقش موضوع تنظيف الشوارع! لا يرضى أن تستلقي الخنازير في أرض الشوارع الموحلة. لا تُخرجوها من دوركم! وعمروا أسيجة دوركم. ونظفوا مصاطب بيوتكم.

_ ما أكثر ما يتفوه به هذا _ همس فلاسوف لتابانيس.

_ ينوي أن يدفع القوزاق إلى أن يفعلوا كل ما لم يفعلوه طوال العام _ أجاب تابانيس.

الجنرال فلاسوف خلافاً لطبع قوزاق ناحية فاسيورينسكا لا يزال يشتم في سره. ما أشد حِلمهم مع هذا الرجل! يبدو كأنهم يستحسنون كل ما يقوله لهم. والحال أنهم ركضوا إلينا بزعامة أتامان ناحيتهم، ولم يقل إنه موفد من قِبل القوزاق. وقد نسي الذين أتوا والذين أرسلوهم الموضوع بسرعة. أتعجب لماذا لا يعترضه أحد القوزاق متسلحاً بشيء من الرجولة. وأين القوزاقي بادينكا الذي فجعه الأديغة في ولده؟ أأهمله؟ هاهو واقف صامتاً. انظر إلى ديسكاسي؛ إن الدنيا لا تسعه. تكلم في أي موضوع تريد ولكن لا تتكلم على الأديغة بسوء فيسمعك! قلت إن العجوز شوغايلو بدأ الحديث جيداً ولكنه أتى بأحاديث من هنا وهناك لا قيمة لها ولا موضوع فلم يدع القوزاقَ يقولون ما يريدونه. كان الأفضل أن يبقى في بيته من أن يهتم بموضوع الأكبر والأصغر.

تكلم ثلاثة من القوزاق بعد الأتامان كاشورا. لم يضف الثاني والثالث منهما شيئاً إلى ما قال الأول. ولكن الحضور استمعوا إلى كل من تكلم بكل أدب. لم يكن من الضروري أن يتكلم الأتامان ماتفييف في الموضوع الأول.ولكن إن كان زعيمَ كل قوزاق شيرنومور، وجاء من إيكاترينودار، فليس من المقبول ألا يتقبلوا كلامه ولو نكاية بفلاسوف الذي يقف إلى جانبه. وفيما هو يتكلم في أعمال الخريف والصيف ومشكلات الحياة بين القوزاق دخل في الموضوع الثاني، موضوع الأديغة _ القوزاق.

_ يسرني _ قال غريغوري كوندراتيفيتش بعد تمهيد قصير _ أن يتحلى قوزاق فاسيورينسك بالحِلم. كنا نثق دائماً بقوزاق هذه الناحية. وسنظل نثق بهم. منذ ربع قرن، منذ أوفدني قيصر روسيا إلى هذه المنطقة أنفذ بكل اعتزاز ما كلفني به. أن تكون في جيش القوزاق، أن تحرس حدود بلادك، وأن تعمل في الوقت نفسه واجباتك نحو أسرتك ونحو حديقتك وحقلك، ليس سهلاً. ثم إن كان جيرانك لا يدعونك ترتاح فهذا أصعب ما في الأمر. صحيح أنا لا أنكر _ ولم يستطع ماتفييف إلا أن ينظر جهة فلاسوف وتابانيس _ الأديغة لا يدعوننا نرتاح، يعبرون نهر بشزة ويغيرون علينا ليلاً، ويسرقون مواشينا عبر النهر، ويخطفون الناس...

_ لا تنقصنا نحن الرجولة _ صاح أحد القوزاق _ لا تقيّدوا حريتنا، لنفعل بالأديغة في أرضهم ما يفعلون بنا!

_ أجل، أجل ما تقوله أيها القوزاقي لا يخلو من الحقيقة _ أكمل ماتفييف كلامه دون أن يظهر عليه الغضب _ ليست نادرةً تلك الحوادث. ها أنتم تعرفون مأساة بادينكا سافيلي بيتروفيتش ونحن نعرف. ونحن مشغولون بأمر ابنه وجاهزون لدفع أي فدية إن كان حياً في أي مكان في الدنيا.

_ وإن كان المسكين بانتالي لم يعد حياً؟

صرخ قوزاقي آخر في وجهه.

_ سنقطّع أسيرنا الأديغي.

_ لا تدعونا نصل إلى الانتقام _ أجاب الأتامان دون أن يبدو في صوته أي قلق _ نحن القوزاق لم يكن عندنا طوال تاريخنا انتقام. العدو بالنسبة إلينا عدو، والجار جار. إن تعامَلْنا بحقدٍ لم يكن من عاداتنا أسأنا إلى كبارنا الراحلين. ولن يقبل كبارنا المحترمون الذين معنا. إن وضعْنا هذا طيَّ عِلْمِنا فلن نتفانى نحن الخصمين المتقابلين. ومع ذلك لا أقول إنه ليس بينا، سواء الأديغة أم نحن، أناس أشرار. ليس هناك عرق سيئ بل إنسان سيئ. فإن نسينا هذا فالشر حاضر. وسيتسيدنا هذا الشر. هذه ليست فكرتي، ليست فكرة ماتفييف قائد جيش قوزاق شيرنومير، بل نحن ننفذ أوامر قيصرنا الذي جعله الله سلطاناً علينا. ومن أجل تنفيذ هذا الأمر اهتم وأرسل إلينا مندوبه ديسكاسي. وبيننا من لا يقبل تصرفات ديسكاسي. ولكن كيف تتجاوز أوامر القيصر؟ ونحن نرى رأي العين عمله. افتتح محلات المقايضة في مختلف نواحي أرضنا. خيرٌ أن يتلاقى الناس في البيع والشراء من أن يتعادوا. نحن القوزاق تأتي حاجاتنا من أرض الأديغة وحاجاتهم عندنا. وبالإضافة إلى ذلك يتابع ديسكاسي علاقات الأسر القوزافية _ الأديغية. ومثل هذه العلاقات تؤسس السلام بيننا، وتزيد من اختلاطنا وتجعلنا نفكر في علاقات الجوار الحسنة. خير من الحرب ومن المطاعنة بالرماح أن يسود بيننا التفاهم. أناشدكم باسم منصبي أتاماناً للقوزاق أن تتحلوا بالصبر والفطنة. جئت إلى اجتماعكم لأني أريد أن تتأملوا ثانية رقة قلوبكم وجَلَدها. ولصبرك ولفطنتك أنت يا سافيلي بيتروفيتش مغزى في فتنة اليوم. كن حذراً ولا تتأثر بكل من يوشوَش لك. وأنا أتعهد أمام هذا الاجتماع بأن نعثر على ابنك، وأعرف أن الأديغة لا يقتلون أسراهم.

كان الجنرال فلاسوف طوال كلمة الأتامان ماتفييف واقفاً لا يهتم لشيء مما يقوله وقلبه يغلي غضباً. وقال في نفسه: لا فائدة أن تتكلم بعده فقد أقنع القوزاق في مسألة الأديغة وغيرها برأيه. ثم وقف في قلب الاجتماع بلا مبالاة، معتداً بنفسه، والسوط مطوي بيده:

_ لن أقول الكثير. وكان الأفضل ألا أتكلم بعد غريغوري كوندراتيفيتش. في كلام أتامان القوزاق كثير من الحقيقة.ولكن لأني لا أوافقه في شأن واحد أرجو ألا يؤاخذني كبيرنا.نحن _ قوزاق شيرنومور _ ننفذ ما

كلفنا به قيصرنا. نحن نحمي زهاء ألف فرسخ[1] من حدود روسيا ستافروبول وبروشنوكوب، ووست _ لابا وإيكاترينودار، وحتى تامان. وقوزاقُنا فدائيون في هذا. ولكن اعذرني يا غريغوري كوندراتيفيتش إن ما يفعله الأديغة الذين تعاملهم بلين يهين سلام قوزاقنا. لا تمضي ليلة دون أن يغير علينا عصابات منهم. نحرس حدودنا ونحن نقول: أيهاجموننا أم لا. لا أقول إن إرسال المحترم ديسكاسي بلا فائدة. وهو ينفذ شيئاً مما عليه. ولكن يُخيَّل إليّ أنه لا يُطلع القيصر على حقيقة ما يفعله الأديغة. لم يقل قيصرنا: لا تردوا على من يعتدي عليكم، ولا تُزهقوا أرواح من يزهق أرواحكم، ولن يقوله أبداً. يكفي ما أمضينا من وقت مكتوفي الأيدي.تذكروا في عهد الأتامان بورساك أنه أوقفهم عند حدهم خائفين حتى أن ينظروا في اتجاهنا، كان يطرد عبر النهر من يغيرون علينا ويحرق قراهم. وبغير هذا لن يدعونا نعيش بسلام. ليغفر لي اجتماعكم إن قلت ما في نفسي بصراحة!... ثم حياهم بإيماءة خفيفة من رأسه، ويدُه اليمنى على صدره الأيسر ورجع.

لم يتحقق ما توقعه فلاسوف وتابانيس من الاجتماع بشأن الأديغة. وتكلم بعد الجنرال القوزاقي عدد من الحضور. ولم يوافق فلاسوفَ إلا واحدٌ منهم كان مهموماً بمراعاة مشاعر الضيف وعدم إشعاره بإهانة ما، ولم يقل شيئاً في ما يُقلق الجنرالَ في موضوع الأديغة. أما الآخرون فكأنهم كانوا متفقين على مما لأة ماتفييف. واهتموا بتخفيف الهم عن بادينكا وتليين قلبه وعدم إفقاده الثقة بسلامة ابنه. ولم ينسوا أن يشيدوا بصدق الأتامان وثباته على موقفه. ولم يستطيعوا إلا أن يذكروا اسم ديسكاسي مع أنه كان صعباً على أكثرهم نُطقُه.

"مرة أخرى غلبني الخبيثُ ماتفييف" قال فلاسوف. لا أريد أكثر من أن أرى مرة على طرف طاولته الكتابَ الذي ذكره لي يرمولوف ألكسي بيتروفيتش. لو حدث هذا لكان لي معه كلام آخر. سأخفي ما لا يعجبني كما فعلت في الأيام السابقة. لو وجدتُ ذريعة لافتراقنا لكان أمراً حسناً، ولا أريد أن أجلس معه على طاولته لأننا ما إن نذوق شيئاً من العرق حتى يفضح اللسان ما في القلب. سأسبقه لأني أصغر منه عمراً ورتبة. وسأرى ماذا يقول وكيف سيتصرف معي.

_ انتهى اجتماع القوزاق بسلام يا غريغوري كوندراتيفيتش، قال للأتامان.

_ لست مع من يقول إن بين القوزاق فوضى يا ميخائيل بيتروفيتش _ ابتسم الأتامان بوجهه المدور ابتسامة خفيفة _ ثم اختم بسرعة مع خبث ودعابة شديدين:

_ ولكن لا تظن أنك المقصود بهذا الكلام، بل أمثال تابانيس. ثم ما مرادكم هذا اليوم؟

_ كما تريد يا غريغوري كوندراتيفيتش _ لم يدعه الجنرال فلاسوف ينتظر _ جئنا معاً وسننصرف معاً. ولكن إن سمحت لنا فسنعود إلى إيكاترينودار ونحن نتفقد في الطريق مراصد القوزاق على امتداد نهر بشزة. نحن رهن أمرك.

---

[1] وحدة طول تساوي1 , 6 كم. المترجم

_ موضوع القوزاق فوق كل الموضوعات الأخرى يا ميخائيل غريغوروفيتش _ كان الأتامان مرتاحاً لأن حجةَ تـرْكِهم أتت من جانبهم. ستطلعونني غداً على أوضاع المراصد. ونحن لن نطيل مُقامنا في فاسيورينسك. سنعرّج على مكان ما، ثم نستأنف طريقنا؛ وموّه هكذا نيته في مقابلة أسير بادينكا. وأتبعه بمزحة: ألا يقول لنا مضيفونا: تفضلوا ؟ منذ الصباح ونحن في إيكاترينودار وأنتم، أظنهم لن يسمحوا لكم أن تسافروا جائعين. ما رأيك يا إيفان كفيدوروفيتش؟

_ شكراً لكم _ قلق الجنرال فلاسوف _ نحن اعتدنا على الأسفار، وسنتغدى في أحد المراصد.

***

حين بقي ماتفييف وديسكاسي وحدهما قال الأتامان:

_ قبل أن تدعونا إلى الغداء أريد أن أرى الأسير الأديغي.

_ هذا ليس بعيداً يا غريغوري كوندراتيفيتش. _ أجاب كاشورا _ هو في دار من دعانا إلى الغداء سافيلي بيتروفيتش.

_ حقاً؟ هذا يسهّل أمرنا _ قال الأتامان وهو يركب : لا ضرورة لأن يتبعنا كثير من حراسنا.

وحين ترجل الضيوف أمام بيت بادينكا خفّت أنفيسكا لاستقبالهم:

_ أرجوك أيها الأتامان؛ إبراهيم رجل طيب.

_ اسكتي يا أنفيسكا! _ لم يقبل والدها هذا الكلام _ ماذا حدث لك؟ ابتعدي! هذه ابنتي الصغيرة يا غريغوري كوندراتيفيتش. اعتادت على الأسير الأديغي. لا تؤاخذها؛ إنها تتألم لأجله.

_ لماذا أؤاخذ البُنيّة يا كفيدوروفيتش؟ إنها رحيمة. شكراً لك أنفيسكا. ليُسعدك الله! فهمت ما تريدين أن تقوليه لي _ ثم ناداها عندما أسرعت لتفتح له قفل الإسطبل فلاحظ أنها ستفتح للأسير_ يا سافيلي بيتروفيتش؛ ليس هنا. أدخلوه إلى البيت! لنعاملْه بإنسانية!

وعندما سمع بعد وقت غير طويل صوت القيد فهِم الأتامان أنهم يأتون بالأسير، وأفهم ديسكاسي بنظرته أنه غير راض عن جلبه بقيوده.

_ هاتوا له مقعداً _ قال الأتامان _ ثم سأل من جلس على طرف المقعد _ ما اسمك؟

_ إبراهيم.

_ وما اسم أسرتك؟

_ بَرَقَت[1] _ هذا ما خطرَ لشواي في هذه اللحظة.

_ من أي قبيلة أنت؟ من البجدوغ أم من الشابسغ أم من الناتخواي؟

_ من الأبزاخ _ ابتعد أكثر عن ضفة نهر بشزة.

[1] الذي يغيب وقتاً طويلاً. المترجم

هزّ ديسكاسي رأسه معبراً عن أنه يعرف أن بين الأديغة مثلَ هذه القبيلة.

ــ من كان معك؟ من الذي خطف ابن بادينكا؟ من كان يريد قتلك؟ سأل الأتامان ماتفييف دون أن يترك لشواي الفرصة ليستجمع أفكاره.

ــ هو من هاجمني الليلة ــ لمعت عينا شواي ــ كان يريد الإجهاز عليّ، شابسغ بامبت.

ــ أتظن أن بانتالي بادينكا ما يزال حياً؟

ــ حيّ.

ــ ومن أين تعرف؟

ــ الأديغة لا يقتلون أسيراً.

ــ نعرف هذا ــ كان الأتامان ماتفييف قائد جيوش القوزاق مرتاحاً لأن الأسير أكد كلامه اليوم في الاجتماع. ثم عبر صراحة عما كان يدور حوله: ــ إن وثق بك آل القوزاقي بادينكا وأطلقوا سراحك؛ أتعثر لهم على ولدهم؟

ــ سأعيده إليهم بيدي ــ تنهد شواي من بين ذكرياته الثقيلة، ولم يُخفِ ما سيفعل ــ لن أُبقيَ حياً من كان يريد أن يقتلني.

ــ أنا أثق في هذا الرجل ــ قال بعد قليل غريغوري كوندراتيفيتش ــ أطلِقوا سراحه يأتكم ببانتالي!

***

بعد أن ركب الضيوف مع بداية الظلام أخرج بادينكا وكاشورا شواي من الإسطبل. ونزعوا قيد الحديد من رجليه وقالا له:

ــ هيا سنعبر بك النهر!

أمسك شواي دفّتي الباب غيرَ واثق بالرِّجلين اللتين أرهقهما الحديد ونظر إليهما.

ــ أعيد لك حريتك ــ قال له بادينكا ناصحاً ــ ستعود الروح إلى رجليك بعد بضع خطوات.

ــ تعال يا إبراهيم تعال ــ يقول له كاشورا إيفان يشجعه، والعبّارة تنتظرك على النهر.

خطا شواي خطوة واعياً أنه حر. وأطاعته رجلاه. وحين خرج من باب الدار توقف ورجاهم:

ــ ادعوا لي أنفيسكا!

ــ وفيم تحتاج أنفيسكا؟ سأل كاشورا وهو لا يفهم سبب طلبه.

ــ ستعاتبني وتعاتبكم إن لم أودعها. لا تبخلوا علي بهذا الطلب!

ــ ما أسمعه عجيب ــ غمغم إيفان فيدوروفيتش، ونظر نحو سافيلي غيرَ فاهم ما وقع فيه ــ لن أجعلها تجتاز المصطبة.

ــ لا بأس!

ــ أنفيسكا! ــ صاح إيفان فيدوروفيتش نحو البيت ــ اخرجي من الغرفة!

وكأنها كانت تنتظر نداءهم خرجت من الغرفة مسرعة، وأكد الأب لابنته:

ــ اِبقي في مكانكِ! ــ ثم استدار إلى شواي: ــ ودِّعها الآن!

ــ يا أنفيسكا ــ صاح شواي ــ وداعاً أنا مغادر شكراً لك. أُطلِق سراحي.

ــ إبراهيم! صاحت أنفيسكا ونزلت عدْواً من أمام باب الغرفة، وتجاوزت أباها كأنها ستصرعه، وارتمت على شواي:

تجنب شواي أن يلمس الفتاة المراهقة وإن أحس بارتعاشها. وفي هذه اللحظة نهر إيفان كاشورا ابنته:

ــ انفيسكا؛ يا عديمة الحياء! ادخلي البيت فوراً!

عندما عبّروا شواي النهر صاح كاشورا وراءه:

ــ أتسمعني أيها الأديغي؟ لا تدعني أرى رجلك عبرت النهر بعد الآن!

انتبه الجار لما سمعه. واحتار في أن يجيب جواباً صريحاً جافاً ولكنه صاح في قلبه: إذن من سيعيد إلينا ابننا بانتالي؟

VIII

عندما مزق الكلب بورزوي بامبت الذي ذهب في الليل إلى إسطبل بادينكا ليقتل شواي، عبر بامبت النهر يشكو من صدره وقلبه. ووجد مربط حصانه بصعوبة.

لم يبحث بامبت طويلاً عن الدواء الذي يشفي مؤخرته التي مزقها بورزوي، غير أن شفاءها استغرق أسبوعاً كاملاً. ولكن لحسن حظه كان سرجه الأديغي ناعماً. مضى بامبت رافعاً شِقه عن السرج دون أن يتجه إلى أرض الشابسغ بل إلى أرض الحاتِقواي. وتوجه إلى الباب المفتوح لمضافة ينبعث منها دخان الموقد. وبعدما قضى ليلة من الراحة ودّع الأسرة وداعاً حاراً، وتوجه إلى (آدَميه). وأمضى هناك نهاراً وليلة. ثم التحق بأرض البجدوغ عبر الغابة التي تمر بجانب بشقواي حابله. إن نظر يساراً بدت من بعيد جبال الشابسغ، وعلى اليمين بمقدار بضع وثبات للحصان[1]، تبدو قرية فاسيورينسكا القوزاقية على الضفة العالية لنهر بشزة.

نظر بامبت إلى جهة فاسيورينسكا واعتصر قلبه، ليس إشفاقاً على شواي الذي كان هدف غارته، بل لأنه اعتبر ما حدث له عاراً.

لو أن الكلب لم يثر حولي هذه الضجة ــ نصح نفسه ولامها ــ لكنت أزحت قش السقف ودخلت منه. وكنت استهدفت بقامتي عنقه خلافاً للمرة السابقة. ما كان أشرس هذا الكلب! لم يقبل أن يذوق قطعة اللحم التي رميتها له. وهاجمني دون أن يعطيني الفرصة لأستل قامتي. الآن أعرف ما سأصنع بهذا الكلب: في ليلة ما سأقتله , وفي التالية سأستل روح شواي. وإلا فلن يغفر لي الأديغة ما فعلت برفيقي.

---

[1] ويقال في العربية: الغلوة، أي المسافة التي يقطعها الحصان في وثبة، وتساوي كيلومتراً تقريباً. المترجم

كان بامبت يريد الآن شيئاً واحداً: أن يصل إلى بيته الفارغ ويأوي إلى فراشه. ثم لا شيء أفضل من أن يجد الفرصة للتفكير والراحة. ولكن صباح الخريف جميل وصاحٍ. إن عاد وحده إلى بيته فليس عنده من ينتظره أويهش له. نساؤه الثلاث نجون منه ومع كل واحدة منهن رضيع. والمرأة الأخيرة التي هي من الناتخواي تركته وهي حامل وبيدها صبي لم يتجاوز سنة ونصف.

الله أعلم ــ ابتسم بامبت ــ ربما حملت لي مولوداً آخر. أهو صبي أم صبية؟ لا بأس أن يكون ولداً أو بنتاً. وما الضرر؟ في كل الأحوال سيزيد عدد الأديغة واحداً. وسنفوق القوزاق عدداً بفرد. ماذا كان ينقص تلك المرأة المسنونة الرأس؟ ولماذا تركت بيتي؟ أبخلت عليها بالطعام؟ أم باللباس؟ أم لم تختبر فحولتي في الفراش؟ جنس النساء تركيبه عجيب على عكس الرجال، ولن تفهمه ولو فككته ثم ركّبته. الرجال الحقيقيون يقولون وقولهم الحق: " لا يجوز أن تعطي الفرصة للمرأة لتبطر " إن ابتسمت لهن اعتلين رأسك. لا حياء لهن في حضرة الرجل ولا خوف في عيونهن. ألم تسمعها تقول لي قبل أن تهجرني: رائحة فمك قبيحة. عندما يلدن ينتشين من الفرح. وعندما يلدن الثاني والثالث يصبح جنونهن على طول أذيال أثوابهن. لا أعرف لماذا لم أبقر بطنها الذي كانت تتباهى به، هذه المرأة التي هربت مختفية؟ والله ليست العزوبية سيئة مهما قلت. تفيق متى أردت وتنام متى أردت. ولا ينعرك أحد إن شخرت. تتقلب على أي جنب تشاء. تأكل ما عندك وتبحث عما ليس عندك. ها هو ذا العصفور يعيش وحده. وما كان ليغنّي لو كان محتاجاً إلى شيء. وأنا مثله؛ أركب إن شئت وأستريح متى شئت. أضحك إن أردت وأبكي... الدنيا التي منحها الله لنا سعيدة. الشمس تشرق فيها والريح تهب. العشب ينمو والثلج يسقط. وأنت ما رأيك يا حصاني الأشقر الصغير؟ أنت من أسأله يا ذا القوائم البيضاء.

يلتف طريقُ العربات قليلاً ويدخل في الغابة. يبدو المرعى على أقل من مسافة غلوة. لولا أن صلاة الظهر تقترب لربما ماكان بامبت لينزل للراحة. وغابات الشابسغ والناتخواي غنية بمثل المراعي التي في أرض البجدوغ. وأحلى منها غابات الأبزاخ الجبلية. ولكن أن تقف أمام الله الذي أعطاك هذه الدنيا الفانية يريح القلب أكثر من أي شيء آخر.

عندما رأى بامبت الجدول الذي يمر عند جذع شجرة البطم الهرمة توضأ وكأن سيسور جلبت له ماء الإبريق فلا تفارق خياله. وفكر ريثما جفف يديه ورجليه وذؤابته في الهواء. وقال لنفسه قبل أن يقف في حضرة الله وهو يمد صداره سجادةً للصلاة: آه لوضممت إلى جسمي العاري خصرها النحيل ونهديها المدورين الصلبين ولو مرة واحدة! كنت فضلته على هذا الخريف الجميل.

خيل إلى بامبت أنه يسمع وقع حوافر وهو يكاد ينهي ركعته الأولى. ولكن لما كان من في حضرة الله ممنوعاً من قطع الصلاة لم يتحرك. لاحظ بامبت، رغم انهماكه في حركات الصلاة والدعاء، أن فارسين جاءا من خلفه. ولما لم يكن من عادة المسلمين كائناً من كانوا أن يقتلوا رجلاً يصلي فقد أنهى ركعته الثانية والثالثة وهو ينصت إلى ما يجري وراءه. ثم نهض وعرف أحدهما:

_ بشه ماف أهذا أنت؟

_ هذا أنا، لم تخطئ _ ثم أردف: _ بحثنا عنك شهراً كاملاً؛ أين أنت؟

_ لو كنتم تحتاجونني لوجدتموني؛ أي نفع لي معكم؟

_ هات البشارة!

_ لماذا؟ قل لي!

_ هات أولاً!

_ والله عجيب ما يقول هذا! _ ابتسم بامبت ثم غمغم _ لا أعرف أن بانتظاري فرحاً يستحق أن أدفع له.

_ عندك ولد يا بيتمال !

_ وعندي ثلاثة قبله _ قال باعتداد أكبر.

_ الولد الرابع من المرأة الثالثة.

قال بامبت في نفسه: أتسمع هذا التلميح؟ " الله يبلوك والناس يعيرونك به ". عند الضرورة تتزوج ليس من واحدة ولا اثنتين... بل العاشرة حتى تجد بغيتك. يجب أن تتحمل ما يبلوك به الله. لا أعرف لماذا لم أفعل شيئاً إلى الآن حيال سيسور؟ سيصل خبر مولودي الرابع _ ليحفظه الله _ ويخرج من بيت ويدخل في بيت حتى يغادر أرض الشابسغ إلى أرض البجدوغ. سيسمع به كل الناس وسيعرفني بسببه الجميع. لن أستطيع إفهام الموضوع لسيسور مهما قلت ومهما فعلت. حتى لو كت أقنعتها وتبادلنا المواثيق فستتملص. وستهز عجوز آل سلطان العجفاء عصاها في وجهي، وتستنفر ضدي كل من في دار الإمارة. لو طلبتَ مني تعويضاً عن الحزن بدلاً من البشارة، لوقلتَ إنها ماتت في المخاض لكان أفضل. وهذا الذي يقف إلى جانب البطين أهو أخرس؟ كأن فمه مملوء بالماء. يتفحصني بعناية. أيكون يشك فيّ لسبب ما؟

_ حسناً يا أخي الأصغر ما اسمك؟ _ سأل بامبت وقد وجد حجة لتغيير الموضوع وأضاف بتكلف ظاهر _ أظنني أراك للمرة الأولى؛ من أي أسرة أنت؟

_ أنا أسمي نفسي " أديغ " أيها الكبير المحترم _ قال الفتى ذو الكعب العالي الرفيع. كانت أمي تناديني في صغري " بسَه زاج"[1] ولكن بورساك القوزاقي اللعين أحرق قريتنا وبقيت يتيم الأبوين، وأنا أسمي نفسي من ذلك الوقت، أعني من وقت ما وعيت على نفسي، هذا الاسم: أديغ. وليس من الأديغة فقط بل أطلب من القوزاق أن ينادوني به. ومن جهة الأسرة فأنا من أسرة " تازه" ويمكن أن تعتبرني أبزاخ وشابسغ وبجدوغ وجمكوي معاً.

[1] تعني: كلّه روح. المترجم.

_ أوَلا تريد أن تكون بسلني أوقبرتاي؟ _ ابتسم دون أن تعرف أيسخر به _ سأل بامبت الشابَّ الفخور باسمه.

_ كما تريد أيها المحترم _ لم يغير تازة أديغ كلامه _ أقبلُ أن أكون قبرتاي وبسلني ومخوش؛ فأنا أديغ،ويسوؤني أن تناديني باسم آخر _ قال جازماً.

_ يبدو من كلامك _ وابتسم بامبت من جديد _ أنك قاسٍ.

_ أيها الكبير المحترم سامحني أنت تهينني. _ غضب أديغ _ اسحب كلامك!

_ وإن لم أسحب؟

_ أيها الكبير ما تزال تهينني.

_ لا بأس، لا تثُرْ ! _ قال بامبت بلطف _ كنت أنوي اختبارك لا إهانتك.

_ هذا شيء آخر يا كبير. وأنت سامِحني على نزقي.

_ اذهبا وتوضأا! _ قال بامبت مغيراً الموضوع، راغباً في أن يفعل الرجلان المسلمان ما يطلب منهما.

أسرع أغوي بشه ماف إلى الجدول مستعداً لما طلب منه. ولم يلتفت إلى تازة أديغ الذي لم يتحرك. وسأل بامبت بدفء أكبر:

_ لماذا أنت واقف؟ الوقت ينفد.

_ لست ممن يصلون يا كبير.

_ هيه ماذا أسمع؟ ألست مسلماً؟ ألست أديغياً؟

_ أنا أديغي يا كبير. ولكن لا غرابة في ما قلت. لا أريد إسلام الأتراك ولا مسيحية القوزاق.

_ لماذا ؟ستعيش دون إله ودون إيمان!

_ لا تحكم علي هكذا! لست دون إله.

تعجب بامبت قائلاً: أي إنسان هذا الذي قابلت؟! كلامه قاطعٌ حتى قبل أن يولد. ولكن لا أعرف ماذا سيفعل في ساحة المعركة؟ أفكر أن أسألك: أوجدت نفسك في موقف اختبار لرجولتك، ولكني أخشى أن يخرجَ من فمه ما لا يليق، فيهينَني، وأنا لن أقبل منه. أخمن أنه شاب ولكنه يعرف ما لا يعرف جدي. من مظهره يمكن أن يصغرني بعشر سنوات. من أين جاء أغوي به خلال هذا الشهر الوحيد الذي لم أقابله فيه؟ هذا ما يحدث لك إن همت على وجهك متمرداً. أنا أقضي وقتي هنا مشغولاً بشواي وسيسور وعجوز آل سلطان العجفاء والصبي ذي الرأس المستطيل الذي يربيه لهم القوزاق، ولا أعرف ماذا يجري في العالم ومع أصدقائي وأقراني.

_ لا أعرف يا أخي الأصغر _ خرج بامبت من أفكاره وعاتبه _ كيف تكون أديغياً وليس في قلبك إسلام؟! مَن إلهك إذن؟

_ الشمس إلهي، والسماء إلهي، وشجرة البطم الكبيرة حيث يُتضرَّع إلى الله في غابة تحاشاغ، وكل أرض الأديغة إلهي.

_ إذن أنت يا بيتمال شابسغ _ صرخ بامبت مرتاحاً لما سمع. وأضاف باختصار: _ أنت شابسغ حقيقي.

_ ربما كنت شابسغ _ قال تازة دون اكتراث _ ولكني كما سبق وقلت لك. أنا أديغي.

_ والله كل ما قلتَه صحيح يا أخي الأصغر _ نظر بامبت إلى ظهر بشه ماف الذي يصلي. وابتسم مُشككاً محدِّثه _ وأنا شابسغ حقيقي واسم أسرتي يشهد لي. ولكن _ وإن سلّمنا أنفسنا لإله الإسلام الكبير _ لا أنسى إلهَ شمسنا الكبير، وإلهَ سمائنا الكبير. وهذه الآلهة وإن كانت لا تفيدني كثيراً في هذه الدنيا فرجائي منها في الآخرة عظيم. ولذا فمن أجل هذه الآمال أقضي على الكفار، وعلى الأديغة الذين يومئون برؤوسهم للكفار إشارةَ احترام. ومن هذه الوجهة أظننا أنا وأنت متفقين يا أخي الأصغر. فإن اتفقنا فُتحت لنا أبواب الجنة عبر إزهاق أرواح الكفار.

_ أنا وأنت يا أخي الأكبر _ أجاب بحذر شديد ولكن بثقة _ لا أظننا سنتفق على ما تعرضه.

_ ما الذي يجعلك تقول هذا أيها الأخ الأصغر؟

_ أنت تنطلق من غزوات الدين الإسلامي، أما آلهتي العظمى فتقول لي: لا تجرم بحق الأبرياء. أنت لا تميز بين من أذنب ومن لم يذنب. هذا ما لم تكن أمي المرحومة تقبل به، ولا أنا.

" ما أسمعه شيء عجيب ، قال لنفسه بامبت ولكنه لم يستطع أن ينهي كلامه هنا _ لا أقول إن كلامك يخلو من الصحة ولكن... "

ترك أغوي سجادة الصلاة، وعاد إليهما بنفس راضية. ثم قال تازة أديغ بلهجة عجائزية تماماً:

_ بامبت الكبير وأنت يا بشه ماف أظنكما وجد أحدكما الآخر. أنا تكفيني هذه الساعة والنصف التي ترافقنا فيها؛ نبهتني إلى أمور كثيرة كنت أجهلها. شكراً ووداعاً. أنا الآن راحل.

_ لا أعرف يا أديغ إن كنا سنلتقي من جديد أنا وبامبت. وكما التقينا اليوم فجأة، التقيت بصديقي القديم هنا. إن كنت قررت السفر فمع السلامة. الدنيا مضطربة فلا تكن نزقاً. وأَحْوَفُ المخيفاتِ من يختبئ في الغابة ووراء الشجر وفي الخلاء. انتظر قليلاً يا أديغ! بما أنك صرت شاهداً لي فليعطني بامبت شابسغ البشارة أمامك. كنت تنوي أن تتهرب مني بذريعة جيدة.

_ يا بشه ماف أرجوك لا تفضحني أنا العجوز. ليس عندي ما أعطيك بشارةً إن لم أقدم لك قامتي الوحيدة وزناري الوحيد وقبعتي الوحيدة ونعليّ.. عندما أقتل قوزاقياً سأعطيك كل ما أسلبه منه. لن أبقى مديناً لك. دعنا نعبر بشزة إلى الضفة الأخرى فقط.

_ أنا أعرف أن أياً منكما لن يسامح أحداً في شيء من دَينه _ قال تازة غير معجب بهذا الجدال السخيف بين الصديقين _ وداعاً أيها الكبيران _ ثم التفت: _ خذ يا بشه ماف بشارتك تواً من بامبت!

_ ستنتظر طويلاً إلى أن يفي هذا النصّاب به _ ابتسم بشه ماف ولكنه تابع بسرعة كأنهم سيقاطعون كلامه _ المكان الذي ستفي فيه بوعدك حقاً، إن كنت رجلاً أيها الشابسغ، يقترب.

_ أين، ومتى؟ قال فجأة بامبت.

_ لا تستعجل! ما يزال عندنا وقت _ ما يزالون في غمرة تجميع الجيش.

_ ومن سيكون قائدنا؟

_ شروخقوه توغوظ.

_ هذا جدير حقاً؛ أنحن كثيرون؟

_ لن نكون قليلين هذه المرة؛ حوالي ألفين على قولهم. سنكون معاً : الشابسغ والناتخواي والجان.

لمعت عينا بامبت الذئبيتان وانطفأتا. ثم اشتعلتا بحرارة شديدة تحرق أغوي بشه ماف. هجمتْ عليه من جديد، وبإهانة أشد مرة أخرى، الإهانةُ التي لحقت به في فاسيورينسكا والتي ماكان يجد الفرصة لينساها. وقبل أن تفارق هذه الإهانة ذهنه ارتسمت في ذهنه صورة سيسور الهيفاء. ووقف كل من قايمت وحاج قسي وراء الفتاة لا يدري من أين هبطا. وانضمت إليهما قانتات ويداها الضامرتان على عصاها. لم يستطع بامبت إلا أن يتابع الفارس الذي ودعهما قبل قليل رغم انشغاله بكل هذه الصور. ماذا قال لنا؟ ألقى علينا ،نحن البالغين، درساً من لا يزال الحليب الطازج يسيل من بين شفتيه، وتركنا! أظنه من عداد الذين ينشؤون برؤوس أديغية عنيدة. أي ثرثار هذا الذي يعتدّ بهمومه ويرى كلامنا نحن كالطعام بلا ملح؟ بمن يذكّرني هذا الشاب؟ ليساعدني الله على تذكره! يا خراب بيتي؛ ذاك الذي بسبعة أرواح؟! إنه هو بطريقة كلامه وتفكيره وضحكه كأنهما خرجا من رحم واحدة. كيف أسمح لمثله أن يتكلم في حضرتي؟ كان عليّ أن أصفعه.

_ يا شابسغ بامبت ألستَ من أناديه. _ قطع أغوي بشه ماف أفكار صديقه بامبت _ عُدْ أخيراً إلى عالمك! ماذا حدث لك؟ هناك ما يقلقك على ما أرى.

_ أصبت والله يا أغوي _ ابتسم بامبت، وخرج من أفكاره نحو الفارس الذي فارقهما دون أن يفصح عما كان يقلقه _ أقول الحق أنا مهموم بتصرف هذا الفارس الذي ما زال أنفه يسيل. أين وجدته بالله عليك؟

_ لم أر فيه ما يعيب فلماذا تقول هذا يا بامبت؟ قد لا تتطابق أفكار هذا الجيل مع أفكارنا نحن. ولكنه هو الآخر مهموم بقضايا الأديغة. أفضّل أفكاره وطبيعته على أن يبقى في بيته" يلتهم الكوسا" إن صار عندنا المزيد من هذا النوع من الرجال وتحلوا بالرجولة والصبر فستجد أرض الأديغة مزيداً من الراحة تحت أقدامهم.

_ يا أغوي أراك إنساناً عظيماً ,

_ أتراني للمرة الأولى؟

_ تغيرت أفكارك. منذ شهر لم نتقابل. لا أعرف، أعثرت على مطلوبك شواي قاتل محمد جري سلطان فصاحبته حتى تغيرت أفكارك!

_ يا بامبت قلت لك قبل أيام، وأقول لك الآن _ لم يستطع بشه ماف إخفاء قلقه وإن أجاب بنبرة لا مبالاة _ أفكاري في ما يتعلق بمسألة الأديغة في مكانها. لا أكتمك، كما رجتنا قانتات عجوز آل سلطان قانتات بحثت عن شواي ولم أجده. لا أحد يعرف أخباره. ولكن أظنك تظلم شواي. الأفضل ألا تتهم أحداً قبل أن تعرف حقيقة الأمر.

_ عجباً يا أغوي _ صاح بامبت راضياً وإن كان الحديث يدور على من يمتلئ قلبه غضباً عليه _ لهذا السبب أقول: أنت إنسان عجيب. كيف أظلم شواي وهو الذي روى لي، إن كان صادقاً، كيف قتل الخائن محمد جري من آل سلطان في غابة لوستان حبله؟ كل البجدوغ تكلموا في الحادثة، وانتقل الخبر إلى الأبزاخ والشابسغ والجمكوي فملأها. وربما وصل إلى البسلني. حتى شواي لم يكتم هذا الخبر فلماذا لا تقتنع به؟

_ أعرف أن " أحدهم" قتل محمد جري سلطان. ولكني أسمع ما قلته عن شواي للمرة الأولى.

_ كيف يا بيتمال للمرة الأولى؟لم يوافق بامبت على ما قاله رفيقه، ولكنه سرعان ما قوّم وضعه: كنت قلت لك في مطلع هذا الخريف صراحةً ولكنك لم تفهمني.

_ هذا شيء آخر يابامبت _ قال بشه ماف مبدياً عدم رضاه عن تعبير " الخبر الصريح" ولكن بلهجة ألطف الآن _ ليس واحداً ما قلتَه وما لمحتَ إليه.

_ أأنا الكاذب ؟ _ غلب الانفعال بامبت _ إذن في ما يتعلق بهذا الموضوع ؟ إن كنت لم تسمع لم تسمع، وإن كنت لم تفهم لم تفهم، لا يهمّ! أأكون نماماً أو كذاباً إن قلت لصديقي أغوي ما كان قاله لي شواي بلسانه؟ إذن يا صديقي العزيز كيف سنعيش على هذه الأرض لا يثق أحدنا بالآخر؟ أينما توجهنا ونظرنا تعثّرْنا بقلة الشرف وفقدان الثقة واليأس. لا يحترم بعضنا بعضاً، ولا يحمي أحدنا الآخر، ما يقوله أحدنا يدحضه الآخر.

_ رجاء، لا تُبكِّتْ نفسك إلى هذا الحد يا بامبت. لا أصدّق ما قلتَه لأن شواي ليس ممن يفعل هذا. ليس أنت بل حتى لو أخبرني هو بنفسه لما صدقته.

_ إذن يا بيتمال أأنا قتلت أمير آل سلطان إن لم يقتله شواي؟ يقولون لك فلا تصدِّقُ، يثقون بك فلا تقدِّر. اسأل إذن عجوز آل سلطان عن سبب هروب شواي وهي تخبرك. إياك أن تظن أني ألوم شواي على فعلته! هذا رجل خرج من بين ظهرانينا نحن الموالي يا أغوي. أحسنَ صنعاً! كافأ الخائن بما يستحقه. امض معي لنسأل قانتات السيدة الكبرى للبيت، ونرى في الوقت نفسه سيسور الصغيرة ونهدِّئ خاطرها.

_ والله يا أيها الشابسغ لو "نعلت حصاني بالذهب" لما طرقت باب آل سلطان.

_ ماذا حدث لك يا بيتمال؟ هل "عضَّك كلبهم "؟

_ ليتني أريتك اليوم قانتات التي عبروا بها نهر بشزة وأركبوها العربة وهي في منتهى الغضب!

_ " أيُّ ذبابة قوزاقية لسعتها "؟

_ أراك لا علم لك بما حدث بين جيراننا القوزاق.

_ ماذا جرى بينهم؟ لمعت عينا بامبت.

_ أخذوا منصب قيادة جيش شيرنومير من ماتفييف، وأبقوا له منصب الأتامان الأكبر.

_ عجيب هذا الكلام. ومن استلم قيادة الجيش؟

_ فلاسوف ذو الرقبة الثخينة، الجنرال الذي تعرفه.

_ انظر ماذا فعل القوزاق!

_ ليس القوزاق. يُقال إنه من فِعْلِ الجنرال يرمولوف قائد الجيش الروسي.

_ "لا تعرف خيره ما لم تجرب غيره". من المحتمل أن يصطدم الأديغة بهذا المثل. على ما يبدو يا بشه ماف أن عصر الأتامان اللعين بورسكا يرجع إلينا.

_ لماذا إذن يجهّز شروخقوه توغوظ الجيش في رأيك؟ الجيش القوزاقي عبر النهر من جهة إليزابيت، ويقطّعون الغابة التي في الطرف الأديغي على امتدادها. يعرّون معابر الماء من طرفنا. ويكشفون أسرارنا.

_ عجباً عجباً! ماذا يفعلون بنا وأنا مشغول بالبحث عن بانتالي الفتى القوزاقي. لن يحدث هذا يا أغوي ولو لم يبق غيري. لماذا نحن هنا؟ لنذهب إلى القرية، ولنصُفّ مع شروخقوه توغوظ.

IX

المكان هو حقول الشابسغ _ الناتخواي.

امتلأت حدود قرية أبنه بالناس والخيل. وليس من يغادرون المكان بحجج مختلفة قليلين، سواء كانوا فرساناً أم مشاة. وأكثر منهم من وصل متأخراً مثل بامبت شابسغ وأغوي بشه ماف. يصل إليهما صوت المتحدث أوضح كلما اقتربا من ساحة الاجتماع المحاطة بالناس. ولكن بامبت مشغول بمن رجع إلى القرية من فرسان ومشاة أكثر من انشغاله بما يقال في الاجتماع.

وسأل نافداً صبرُه أولَ فارسين لقيهما:

_ لماذا أنتم مستعجلون أيها الكبار؟ ألا يعجبكم ما يُحكى في الاجتماع؟

_ لماذا تنظر إلينا بهذا المنظار؟ قال الرجل القصير النحيل الذي يرتدي قبعة سوداء منفوشة دون أن يوقف حصانه لأن الكلام الذي سمعه لم يعجبه، واختتم بسخرية واضحة: _ امش معنا إن كنت رجلاً إلى هذا الحد ، الحقْ بنا!

_ من هذا الذي لا يحرص على حنجرته فيمزقها؟ لجم بامبت الحصان وغيّر اتجاهه.

وأمسك أغوي بشه ماف اللجام.

_ كفى يا بامبت لا تتشاجر معهما!

_ لماذا يسخر مني ؟

_ عاملك الكبار بمثل ما عاملتهم.

_ يغادران الساحة وعجُزا حصانيهما ومؤخرتا رأسيهما إلى الاجتماع. تكلف بامبت الشجاعة أمام صديقه ولو أنه لم يكن ينوي ملاحقة الفارسين. يتظاهر كأنه لو لم يمسك بشه ماف لجام فرسه لكان لحق بالفارسين وأوقفهما _ القوزاق أشعلوا النار في عالم الأديغة، إنه يحترق؛ أيجوز ألا نبالي بما يحدث؟

_ كفى يا بامبت! ليست مهمتنا محاكمتهما. أنظار أهل القرية علينا.

_ هذا صحيح. _ تراجع بامبت بذريعة ممتازة عن رجولته.

وقف بامبت وبشه ماف وراء فرسان الاجتماع.

يتكلم خورلوقوه مرجان بكل ضخامته في الساحة. ليس مستعجلاً، ولايتكلم جزافاً، يوصل كلامه إلى مستمعيه باختصار. انضباط الاجتماع يشهد على احترامه للمتكلم. لا أحد من المجتمعين يصرخ من هنا وهناك، ولا أحد يطلق الرصاص في الهواء، ولا أحد يستل سيفه، ولا مناحرات بينهم. ورغم أن بامبت لا يجد مأخذاً على ما يسمع فإنه يقول لنفسه: ما هذا الهدوء الذي يلف الاجتماع في الوقت الذي يحترق فيه عالم الأديغة، ويعبر القوزاق النهر، ويدمرون غابة الضفة. يتفحص وجوه جيرانه في الاجتماع، ويدور بعينيه عسى أن يجد من يتفق معه فلا يجد نظرة توافقه. وشروخقوه توغوظ الذي عقد اجتماع الناتخواي مرتاح، وجاره أباته بسلني غير مبالٍ كأن لا علاقة له بالمجتمعين. والواقفون إلى يمينهما ويسارهما كذلك. أتساءل ماذا حدث لهؤلاء؟ أهم في جنازة أم يساهمون في اجتماع يشهد على رجولتهم؟! من الذي لا أراه بين من يتصدرون الاجتماع؟

_ عجيب يا أغوي؛ لا أرى توغوظقوه قازبك؟! لماذا لا يحضر الاجتماع؟ يرفع بامبت رأسه فجأة ويسأل بشه ماف.

_ الزعيم الكبير مجروح جرحاً بالغاً، يلازم البيت. أجاب أحد الفرسان الواقف بجانب المسؤول.

_ ولماذا لم تقل لي هذا يا أغوي؟ أما كنت تعرف؟ لام بامبت صديقه.

_ كنت أعرف؛ وكيف لا أعرف؟ وحضرت أكثر من مرة حفلة "جابشه"[1] أقيمت له. أجاب بشه ماف باختصار. لم أخبرك لأنك لم تسأل عنه.

_ وكيف لي أن أعرف ماذا حدث لقازبك، الزعيم الكبير؟ والله غيابه عنا اليوم ليس في وقته. أين جرحوه؟

_ لأنه لم يقبل ما يفعله القوزاق بالغابة... قال بشه ماف.

_ وهل كنت معهم؟ سأل بامبت، وكأنه لا يرى بشه ماف يستحق أن يكون معهم، مع أنه سمعه.

---

[1] حفلة سمر ليلية طويلة منوَّعة تُعرض فيها ألعاب وأغانٍ ومقاطع تمثيلية أحياناً. كانت، ولاتزال، تُقام للمجروحين جرحاً بليغاً، أو من تعرّض لكسر في العظم، لتخفيف الألم عنهم ودعم روحهم المعنوية. المترجم

_ طبعاً كنت معهم _ أجاب بشه ماف معتداً بنفسه واختتم بصوت أعلى: _ أنقذت حياته.

_ يا للحسرة! مم حُرمت في غيابي الوحيد؟!

_ اسكتا، كفاكما! استدار الفارس الواقف أمامهما ونهرهما _ دعانا نسمع الزعيم الكبير!

" أتريدنا أن نسمع مَن ربى ابن حليف القوزاق "كان بامبت يود الرد على من لامه، ولكنه كظم غضبه. قال: ما الفائدة من مماحكة صاحب القبعة المهترئة هذا؟ سألفت نظر المجتمعين بتوجيه سؤال إلى المتحدث. ليس بيني وبينه شيء مهم، ولكني سأتشفى من مربي ابن الخائن. أتسمع مع ذلك ماذا يقول عن القوزاق؟ تكلم! قل لهم ماذا فعلت بصديقيّ اللذين أرسلتهما لمقاضاتك بشأن تربية ابن الخائن واللذين قتلا فيما بعد بسيوف القوزاق؛ لن أسامحك على طردك لهما من أمام باب دارك بمحور العربة. هذان جاءا ناصحين لا سارقين. والآن بعدما انتهيت من خدمة آل سلطان تقف أمامنا تذم القوزاق.

_ مرة أخرى أيها الحشد أكرر_ لم يكن خورلوقوه مرجان على عجل ولم يكن في حديثه حشْوٌ_ ما يفعله بنا العابرون القوزاق لنهر بشزة عيب ولا يدل على انضباط بشِرعة. رجعوا مرة أخرى إلى سلوكهم القديم أيام بورساك. عبروا نهر بشزة، ودمروا غابتنا على ضفة النهر. والجنرال فلاسوف يحضّر نفسه لقتالنا. فإن لم نجابه القوزاق متحدين فسيستضعفوننا. لا يتوانَ توغوظقوه قازبك وشوروخقوه توغوظ عن حشد محاربي الشابسغ! وأنا ولدت في يوم ما وسأموت في يوم آخر فإن وثقتم بي دون اعتبار لتقدمي في العمر فكما يقولون " حتى أنشوطةُ السوط تحبس الهواء " أقف إلى جانبكم. وأنت أيضاً يا بسلني، وإن اختلفنا مرة في موضوع يتعلق بالأديغة، فأنا أغفر لك أمام الجمع، لا تفتقر إلى الرجولة. تعال وقف إلى جانبي! وسلام لكم مرة أخرى يا من أحترمهم الشابسغ _ الناتخواي _ الجان.

_ مهلاً، مهلاً! يا من جعل الله يومه مئة، أيها الزعيم المبارك! نادى بامبتُ مرجانَ الذي يخرج من الساحة قائلاً لمن أمامه: أفسحوا لي أيها الفرسان! دعوني أسأل الزعيم الكبير مرجان سؤالاً واحداً. أيمكنني أن أسألك أيها الزعيم الكبير؟

_ أسمعك، ولماذا لا أسمعك ؟ _ توقف مرجان حيث وصل، غير مرتاح للسؤال، ولكن مع إخفاء حقيقة شعوره. وقال: هذا أنت يا بامبت؟!

_ أنا يا من أدعو الله أن يجعل يومه مئة. سامحني! _ وقال مُسمعاً الحشد بصوت صارخ ومؤكداً على اسمه واسم عائلته _ شابسغ بامبت. ما قلته عن القوزاق صحيح، أساندك فيه. والذين تكلموا قبلك في هذا الاجتماع لم يقولوا ما هو غير صحيح. أوافقهم الرأي. ومن ينو أن يتكلم أوافقه سلفاً. ثم هاهو تعليقي على ما جرى...

_ السؤال _ صرخ أحد الموالي دون أن يسمي بامبت _ الزعيم الكبير مرجان ينتظرك _ ترجّلْ من حصانك وابتعد عنه !

_ حسناً حسناً أيها الزعيم الكبير، سامحني! _ جعلته الملاحظة التي أبديت له حول الاحترام يترجل ويمسك لجام الحصان _ لا يمكنني أن أتخلى عن هذا السؤال، كنت نذرته، أرجوك حررني من نذري: ألم تندم على أنك ربيت خان جري ابن أسرة الخونة سلطان؟

عمّت الفوضى الاجتماع، فرفع شروخقوه توغوظ يده إيعازاً بالهدوء.

_ لا تلم نفسك يا بامبت؛ لم تقل ما هو عيب. ضحك مرجان، ثم أجاب دون مواربة: _ بيننا من يسمي أسرة سلطان من لوستان حبله بالنغوي، ولكني لا أوافق من يفعل هذا. هؤلاء لم يبق فيهم من أصلهم ومن دمهم إلا الاسم؛ هذا أولاً. وثانياً: بدءاً من كبيرهم سلطان إلى محمد جري لم يكن سراً على أحد أن عواطفهم متجهة إلى روسيا غير أنهم يُلامون على كتمانهم هذا الميل. وليس سراً كذلك أننا كنا نعرف موقف محمد جري المتردد حيال هذا الموضوع، وقد دفع حياته ثمناً لموقفه. ولا أظن أن السبب الوحيد لمقتله هو ميله إلى القوزاق. إن كنتم تتذكرون أظن أحد الأسباب هو رفضه الامتثال لما طلبه منه السلطان التركي. إن سألتموني فأنا أعتبر رفضه تنفيذ ما طلب منه السلطان التركي موقفاً رجولياً. كان قد توجه إلى القوزاق بقلب أديغي، وفارق الحياة بهذا القلب. لتكنْ آخرته خيراً! وليس لنا أن نحدد مصيره يوم القيامة نيابة عن الله. وثالثاً: كان محمد جري يعرف أني على اطلاع على هذه المعلومات عنه حين توجه إليّ راجياً أن أكون مربي ابنه، فقبلت رجاءه بكل سرور. وقد منحت الصبي كل ما عندي، وربيته إلى أن استعادوه. ولن أقبل أن يسيء إليه أحد كائناً من كان، وأولهم أنت يا بامبت، بحجة أنه يدرس في قلعة القوزاق. وأما جواب سؤالك الأخير فقصير: لم أفعل في حياتي ما أندم عليه، ولن أدعك تفعل أنت أيضاً إن استطعت؛ فافهم هذا الكلام يا بامبت!

_ فهمت يا مرجان، فهمت _ تلهّف بامبت خائفاً من أن لا يسمحوا له بالإجابة _ قد أزحت عن ظهري صخرة كبيرة وثقيلة أيها الكبير؛ شكراً!

_ ولكن لا يُفهمْ من كلامي أننا لن نستلّ أرواح من يمدون أصابعهم إلى عيوننا أيها الجمع! ثم عاد إلى مكانه غير عابئ بكلام بامبت.

سمح شروخقوه توغوظ لعدة أشخاص بالكلام بعد مرجان. وأعطى الكلام للشابسغ والناتخواي والجان دون تمييز بين قبيلة كبيرة أوصغيرة. ولم يسمح لأمثال بامبت ممن يريدون الوقوف في ساحة الاجتماع مرتين أوثلاثاً _ وعندما بدأ المتحدثون يكررون الكلام نفسه أجمل توغوظ كل ما قيل بتعقيب ختامي مبرزاً نماذج من مداخلة خورلوقوه مرجان:

_ صحيح ،كما قال مرجان، لا شك سنستل روح من يمد إصبعه إلى عيوننا. لا تغيروا على القوزاق بجماعات صغيرة ودون علم هيئة الشابسغ. إن كانت أفعالنا تطابق أقوالنا فلن يغلبنا أحد. كونوا أنتم

وخيولكم على استعداد للركوب متى صحنا "مارج!"[1] وبهذا ننهي اجتماعنا اليوم. أتمنى لكم جميعاً، الآتين من بعيد ومن قريب، السعادة. رافقتكم السلامة!

***

اتخذ كلٌّ طريقه بعدما أنهوا الاجتماع. كان أكثر أهل القرية مشغولين بدعوة الضيوف؛ ماكان يصح أن يُترك سكان الجبال يسافرون فتَقاسَمَهم أهل القرية ضيوفاً. ولم يكن الضيوف من أماكن أخرى قليلين.

وكان بودّ بامبت أن يضيف أحد القادمين من بعيد؛ ولكن كيف تستقبل ضيفاً في بيت لا امرأة فيه؟ فانصرف يكلم أغوي بشه ماف مطرق الرأس. وحين وصل إلى بابه المغلق قال:

_ أدعوك جدياً يا أغوي أن تمضي ليلتك عندي. وغداً تسافر إلى قريتك؛ أنت تعرف حالي. لا يليق بك أن تلحق بالأخوين أباته وكأنك مربوط إلى ذيلي حصانيهما.

_ دارك عامرة يا بامبت! أرى قريتي من تلك التبة. لا حاجة الليلة إلى ضيافة.ربما لو دعتني ذاتُ حجاب أحرجتْني. بل أنت تفضّل معي. ماذا ستفعل في بيتك البارد المغلق الذي دعوتني إليه؟ سنطلب من ربة البيت طعاماً ساخناً. خمّنت أن تلبي دعوتي فلم أدعُ أحداً ممن كانوا معي. امشِ معي، ماذا ستفعل في البيت؟ يكفي أنك تفقدته.

_ شكراً يا صديقي العزيز. وأنا لن ألبي دعوتك. وسلامي إلى ربة بيتك "ساسه" المباركة. أكلتُ من طعامها واستمتعت به. " لو لم يكن في بيتي إلا ذبابة واحدة لما تجاوزته إلى غيره ". مع السلامة إن قررت الرحيل حقاً. إن أصبحنا على خير أتيت إلى توغوظقوه قازبك لعيادته.

صاح بامبت وراء الفارس وهو يرميه بنظرات حسد:

_ بشه ماف! توقفْ لحظة _ استقبله وهو على حصانه وعيناه تلمعان _ وهمس له بشيء من الرياء:

_ لم تقل لي شيئاً يا أغوي؛ ألم أُفنّد خورلوقوه مرجان في الاجتماع؟

_ لا أعرف ماذا أقول لك في هذا الشأن يا بامبت _ قال بشه ماف وعدم الارتياح للسؤال بادٍ عليه:_ سنفكر الليلة ونتكلم غداً.

_ فكّر إن أردت ولكني فعلت فعلتي _ أدار بامبت رأس حصانه وهو يضحك، ثم صاح وراء رفيقه الذي أسرع بحصانه وابتعد: هكذا أيها المسكين؟! أغضبتك غير أنه يجب أن تُطلع من لا يعرف عيوبه عليها. ثم قال لحصانه: تعال أيها المحجَّل! أنت الوحيد الذي يفهمني في هذه الدنيا. ليس من الضروري أن آكل أنا، أما أنت فسأقدم لك من الحشيش اللذيذ.

وبعدما أدى للحصان خدماته ومسّح عنقه خرج من الإسطبل،ودار في الفِناء مرتين أو ثلاثاً،دخل الغرفة دون رغبة؛ فإلى أين يذهب؟! وقبل أن يظلم الليل بحث عن المصباح. تلمّس المخدة الوحيدة على المصطبة

[1] نداء الاستغاثة والدعوة إلى الحرب وما شابهها عند الأديغة. المترجم

وكأنه يتفحص برودتها، ثم تجاوزها. فتح مزلاج الموقد وملأه باليد التي صارت ماهرة نتيجة عيشه وحيداً، وأشعل النار. فانطلق ضجيجها، وبدأ الدفء يسري في الغرفة.

لم ينتظر بامبت أن يغلي ماء الشاي؛ أشعل سراج الزيت وكنس أرض الغرفة بعدما رشّها بأصابعه دون أن يثور الغبار. ومسح المائدة والمقاعد القليلة. وحين بدأ يمسح أعالي النوافذ تراءت لعينيه أولى الذبابات النافقة في الخريف. قال مبتسماً: من أجل هذا قلت: لو لم يكن في بيتي إلا ذبابة واحدة لعدت إليه فلحقت بكنّ " أنتن نفقتن من برودة الزجاج. هذه حال الدنيا الفانية. واحد يموت وآخر يخلق، ومن يسلبونه روحه مثل محمد جري فلا عودة له. ومثل شواي الذي لم يستطيعوا قتله لا يزال يتنفس ولو بفضل الكلب القوزاقي! آه يا شابسغ بامبت! أنت تعد نفسك رجلاً ولكنك لست محظوظاً. لم تستطع أن تصبح حتى مثل أغوي البطين. عندما يأوي إلى بيته تستقبله امرأته متلهفة: أجئت يا بشه ماف؟ ويتسابق أولاده الثلاثة إلى استقباله. لو أعدتُ المرأة التي ولدت لي آخر ولد إلى عصمتي ما كان خطأ. ولكن لا يمكن العيش معها. مهلاً، مهلاً يا شابسغ! بعد ما تفحّصتَ جمال سيسور تأكدت أنها ستكون زوجة ممتازة. ليس من الصعب أن يخدعك جنس النساء؛ يخدعنك بالابتسامات والضحكات ثم يركبن ظهرك! وإن لم تكن سيسور كما توقعت؟!

دفّأ نار الحطب القاسي الغرفة، وصار شاي القالمق جاهزاً. أخرج قرصاً من الجبن المجفف من قلب الوجاق[1] على عادته في حل مشكلة الطعام بسهولة. ومن الكيس الصغير المعلق بسقف الفرن قطعاً مجففة من الخبز. وأكل متمهلاً، تغلبه أفكاره، مرطباً الخبز والجبن بالشاي،. وحين أذّن لصلاة العشاء توضّأ ومد سجادة الصلاة المصنوعة من جلد الماعز. ثم وقف في حضرة الله. وحين أوى إلى الفراش جافاه النوم رغم تعب النهار.

ستعيش قليل الحظ لا سند لك عندما تبقى وحيداً منحوساً _ قال بامبت: يتمنى الإنسان ما يسر قلبه رغم أن الدنيا دار فناء. أظهرُ أمام الناس أمزح وأضحك وأتكلف الرجولة والرشاقة، ولكن حين أعود إلى البيت لا يبقى عندي ما هو أمتع من جوار الموقد. بالإضافة إلى ما يخزني وما يسخر بي ويقرصني: لماذا أسأت إلى ذلك الرجل الممتاز خورلوقوه مرجان في حين لم يتناوله غيري بهذا النقد. وأي شأن لي بكونه أتاليكاً؟ ولماذا أنا مهتم بآل سلطان وعلاقتهم بالقوزاق؟ لا، لا ياشابسغ! اطرد هذه الأفكار من رأسك! لا تسمح لها بأن تغزوك. إن ارتعشت أنت أمام الكفار فماذا سيفعل الآخرون؟ إلى من ستكِلُ الذود عن الإسلام؟ ولكن هل أستطيع أن أتصدى لكل هؤلاء وأحمي كل أولئك؟ ألا أحتاج إلى دفء بشري، إلى حياة ناعمة، إلى من يسندني آخر العمر، ففي النهاية ليس قلبي محروماً من العاطفة؟ لا، لا يا شابسغ؛ لا تضعف! أليس الله الرحيم سندك؟... استغرق بامبت في النوم وهو يواسي نفسه حيناً ويغضب حيناً.

---

[1] الموقد الأديغي وهو مخروط خشبي يرتفع عن النار متراً تقريباً ويُجفَّف في قلبه الجبن ويُدَّخر. المترجم

وكما اتفقا أمس اجتمع بامبت وبشه ماف في قرية ناشحة. وبعدما شربا الشاي توجها لعيادة توغوظقوه قازبك.

لا أحد في غرفة قازبك. وحين رآهما على الباب نهض من على السرير غير العالي. وتعجب بامبت مما رأى:

_ الحمد لله على السلامة يا زعيمنا المبارك! يا من أدعو الله أن يجعل يومه مئة؟ ظننتك في الفراش. والله كان جرحك مصيبة على كل الشابسغ؛ أيجوز أن يهيننا القوزاق هكذا؟ _ يمسح بامبت على كتف قازبك اليمنى السليمة ويفني نفسه حزناً. يتخذ المقعد الذي أشاروا به عليه. ثم يغضب من جديد _ لولم يبق بين الأديغة من يلبس قبعة غيري لما غفرت للقوزاق فِعلتهم!

_ لا سمح الله أن تبقى هكذا يا بامبت! _ ابتسم قازبك من بين الأنف الأقنى المائل إلى الطول، والشفتين المعتدلتين، واللحية الشهباء، وأجاب ضيفَه:

_ اجلسا، لا تقفا! وأنت يا أغوي لا تجلس قرب الباب بحجة أنك جاري؛ اقتربا إلى هنا!

_ والله ما فعله بنا القوزاق مأساة. _ قال بامبت ما في باله غير عابئ باهتمام قازبك بجاره، وغير مسرور للاهتمام به _ أهانونا. صحيح أني لم أكن معك، ولكن أما كان وراءك من يحمي ظهرك؟ لهذا قالوا "كل امرئ يبحث عن سلامته! "

_ ما لن يناسبني هو ما تقوله يا بامبت _ تغيرت سحنة قازبك ولكنه استطاع أن يخفي من صوته امتعاضه _ إن كانوا سيحمونك فلماذا تركب إلى الحرب يا بيتمال، ولماذا تهدر سلاح عدوك. ولكن إن كان قصدك التعاون في ساحة المعركة فهذا شأن آخر. ومن هذه الناحية أنا راض عن بشه ماف _ والتفت بعين راضية إلى من ذكر اسمه _ فقد أسقط من رماني من خلفي عن حصانه، وانتشلني من قلب المعركة على صهوة حصانه.

_ هذا واجبه _ صرخ بامبت _ أيُترك قائدٌ عسكري كبير مثلُك في أرض القوزاق؟ _ ثم برّأ نفسه وقد خجل قليلاً من ارتفاع صوته، غير عابئ بمضمون كلامه _ أصابني البرد في جبال الأبزاخ مشغولاً بما لا يعنيني. وأعطى طرف الحديث لجليسيه وإن لم ينويا ذلك: _ ولا فائدة في ذكر ما كنت أسعى وراءه. وأنت يا قازبك _ أتكلم على بانتالي _ ربما سمعت عنه؛ ألم يحدثك صديقي العزيز جارك بشه ماف؟

_ إن كنت تتحدث عن بانتالي فقد سمعت به. أسِفنا أنا وبشه ماف، وسألنا عنه ولا نزال. وأسأل عوّادي، ولكننا لم نمسك بعدُ طرف الخيط.

شحب وجه بامبت ولكنه تمالك نفسه:

_ أوَصَلَك أنت أيضاً أيها الزعيم الكبير رجاءُ عجوز آل سلطان؟ انظر ماذا تفعل تلك المرأة! لسنا وحدنا يا أغوي على ما يبدو، لم يبق أحد لم تترجّه.

_ لا _ ابتسم قازبك وقاطع بامبت ثم قال له بصوت أهدأ _ بعدما دفنّا محمد جري لم تقع عيني على قانتات , ولكن هذا ليس مهماً. من جهتي يعجبني اهتمامها بفتى أصدقائها القوزاق. ومع أنها لم تسألني أنا، فلولا أن جرحي يحبسني في البيت لبحثت عنه بنفسي. وما إن أستطيع وضع رجلي في الركاب حتى أبدأ البحث.

_ ماذا؟ _ قال بامبت فجأة مرتعباً من سرّه الذي يخفيه أكثر من حزنه المزعوم وقد وجد ذريعة _ أتستطيع وقد جرحك القوزاق هذا الجرح البليغ أن تفعل هذا يا قازبك؟ _ والله لا أعرف. إن كنت تقول هذا أيها الزعيم الكبير _ قلب كلامه موجهاً إياه إلى وجهة أخرى، مع شيء من اللوم _ ونحن لسنا محرومين من الرحمة؛ ولأننا، أنا وأغوي، أولُ مَن توجهت قانتات إليه بالرجاء. يسرنا أن نقف معك؛ ما رأيك يا بشه ماف؟

رفع بشه ماف جسده قليلاً عن المقعد مبدياً احترامه الزائد لزعيم الشابسغ وقال موافقاً السائل.

_ ما يقوله الزعيم الكبير قولي.

_ شكراً لكما _ قال قازبك.

_ ليس هذا ما يشغل بالي اليوم _ ليس ما يشغل بال بامبت إلا أن يمدح نفسه _ أينما كان هذا القوزاقي التافه فسنجده إن كنت ستبقى معنا _ ولكن يحزنني غيابك عن الاجتماع وعن هجومنا على قوزاق فلاسوف وأن لا يكون معك شروخقوه. ليس لأننا نجبن، لا، نحن لا نفكر بهذا، كان يسرنا جداً أن تكون معنا؛ ولكن أيها الزعيم الكبير سأنتقم لك، كن واثقاً، وإن لم يبق غيري. لن يرضى سيفي بجرح الكفار فحسبُ بل سيقطع رؤوسهم.

_ لا تبالغ يا بامبت في ثورتك بهذه الحجة! فالقوزاق ليسوا دون أسنان أو دون رجولة. في ساحة الحرب لا تجتمع الحَمِيّةُ والشجاعة _ نصحه قازبك دون أن تستطيع أن تميز: أيمزح معه أم هو جاد حقاً؟ _ أيها الشابسغ مهلاً أريد أن أسألك فتُنسيني _ قال قازبك محاولاً إفهام بامبت أنه يثرثر، مخفياً لومه ونصحه معاً

_ لم أر شواي في هذين الشهرين أو الثلاثة الماضية، ولم أسمع أخباره؛ أين هذا الفتى الممتاز؟

ارتخى بامبت ولكنه تماسك وابتسم:

_ ونحن اشتقنا يا زعيمنا الكبير إلى شواي _ " لِمَ أتيتَ على سيرته الآن؟ " _ غمغم بامبت في سره، وجفل ولكن لم ينفك يلمّح إلى ما يريده هو:_ الأرجح أنه شريك في قتل الأمير، فبعد الحادثة يقال إنه يختبئ عند الأبزاخ. وقانتات السيدة الكبرى لا تكتفي بالشك فيه،بل تتهمه. البيتمال نسي البجدوغ والشابسغ _ نظر بامبت إلى جهة بشه ماف عارفاً أنه يبتعد الآن أكثر عما قال أمس بشأن شواي وكأنه يقول له: سامحني لأني لم أقل لك أمس الحقيقة كاملة، وأكمل بصوت مختلف متماسك: إن بقي فيه شيء من الرجولة _ أخبرت الأبزاخ بهذا _ أظنه سينضم إلينا في هجومنا على القوزاق.

X

في المساء غزا نحو ألفين وخمسمئة من الشابسغ بيتروفسك شرق إيكاترينودار دون أن يمروا بأرض البجدوغ المسالمين، من طريق مختصر عبْر الغابة، وقبل أن يتمكن الخونة من بين الأديغة من التحرك.

تلبّد مساء الخريف فلم تعد تظهر رؤوس الخيل بسبب غيوم المستنقع حيث ينمو القصب. كان الفرسان الذين سيقتحمون نهر بشزة ما يزالون على الأرجل، وأنوف الخيل معصوبة، والجميع ينتظرون إشارة شروخقوه توغوظ. لا صوت في الجوار إلا بعض الأسماك التي تقفز في النهر. وضفتا النهر من الجانبين القوزاقي والأديغي يلفهما صمت حزين.

خلال عبورهم للنهر كان الفرسان موزعين هنا وهناك كي لا يتصادموا، ولكل مجموعة قائدها ومساعده.

كان بود بشه ماف أن يكون ضمن الفرسان الذين سيكون توغوظقوه قازبك على رأسهم، ولكن بامبت وشوش له حين جرى توزيع الفرسان: " لا تستعجل لأن المتقدم عادة ما يقتحم النار أولاً " فوقف في المئة التاسعة عشرة.

ومن بعيد، جهةَ مدخل الغابة، سُمع البوم المرعب ينوح بضع مرات ثم اختنق الصوت. ولم يجبه كائن حي. كانت السماء تهبط شيئاً فشيئاً. ولم يعد الفرسان والخيول يظهرون من بين السحب السوداء.

_ ماذا ننتظر يا ترى؟ يهمس بامبت في أذن بشه ماف وقد مال عليه.

_ ربما لم يئن الأوان _ يجيب بشه ماف على طريقة صديقه.

_ لا تبلل نفسك عندما نعبر النهر؛ اجعل حصانك يعبر بك جاثياً على ركبتيك فوق السرج!

_ أتظنني أجتاز نهر بشزة للمرة الأولى يا بامبت؟

_ صحيح والله ولكن مع ذلك...

وفي هذه اللحظة سمعت أصوات اقتحام الماء، واستعدا هما أيضاً. كان من المستحيل كتم أصوات أنوف الخيل مهما حاول الفرسان. قفز صوتُ شقِّ جيشِ الأديغة إلى الضفة القوزاقية المقابلة الماءَ فنبّه بعض القناصين، وانضم إليهم آخرون من مسافات أبعد. وتنادى الرصاد في المرتفعات القوزاقية بالمدافع منذرين بالخطر القادم.

في ذلك الوقت، أي في حوالي التاسعة والنصف، في الموقع الذي عبر منه الأديغة النهر، وعلى مسافة بضع غلوات في المرصد الرابع لبيتروفسك، اتفق أنْ كان الجنرال فلاسوف في جولة تفقدية.

توجه فرسان الأديغة يقضون على كل من يقف في طريقهم باتجاه قرى بيتروفسك.

_ أسرعْ! _ قال الجنرال فلاسوف لجورافل رئيس العرفاء، اصحب قوزاقك والحقوا بالأديغة واضربوهم! وسيعترض قوزاق تابانيس طريق الأديغة من الأمام ومن الأطراف بعد قليل. أوهموهم أنكم خفتم فاهربوا. ونحن سنترصدهم من الطرف الآخر.

نفذ رئيس العرفاء جورافل المهمة التي أوكلوها إليه؛ فلحقوا بالأديغة بعد 5 ـ 6 غلوات[1]، وبدؤوا يطلقون النار عليهم من الخلف. وفي موقع سلافيانسك اعترض قائد المئة زايسكي محاذياً جنود تابانيس مع ثلاثة مدافع وقصَفَ المهاجمين بها. وبالتنسيق مع هذه المدافع أشعل الحراسُ القوزاقُ المتناثرون في السهل النار، وأضاء لهيب مدافعهم الظلام. وارتفعت أصوات المدافع والبنادق ووقع الحوافر وأصوات الرجال المتصايحين، وفي كل الجهات ألسنة النار تتصادم، وأصوات الرعد تتقارع، وأزيز الرصاص.

ـ أي جهنم وقعنا فيها؟! سمع شروخقوه توغوظ صوتاً يائساً من ورائه.

ـ اسكت يا عديم الإيمان! ـ عنّفه ـ ألست رجلاً لتقول هذا؟ اضرب الكفار، اقصم ظهورهم!

مهما حاول القادة تشجيع جنودهم فقد أرعبت النار التي يصبها القوزاق في وجوههم، والرصاص الذي يَصْلونهم به الفرسان الأديغة. ودون أن يكملوا جولة واحدة، ودون أن يعرفوا من كان البادئ، رجعوا أدراجهم.

وهذا ما كان يريده الجنرال فلاسوف؛ فقد واجههم جنودٌ قوزاق أتوا من أماكن أخرى يجرّون مدافعهم، ومشاةٌ، ناشرين الرعب في قلوب الأديغة. فاستدار الفرسان الأديغة الذين تفتك بهم طلقات المدافع والبنادق إلى اليسار. وفي ليل الخريف المظلم سقطوا في مستنقع قلشتوك المتعفن، والآتون من الخلف يصدمون المتراجعين. ومن ينتشل نفسه من المستنقع الفائر تتكسر عليه سيوف القوزاق وقاماتهم. والقناصون بنادقُهم على رؤوس الذين يلتمسون الخلاص سواء يرونهم أم لا يرونهم، لا يبخلون بالرصاص يتشفَّون ممن يتحركون، ويضربون بأخامص البنادق من يمد يده من الماء الموحل مستنجداً، وبضربة سيف يقصون رأسه ثم يرمونه بأرجلهم في المستنقع.

والخيول تصهل، والناس يتصايحون، يتشبث بعضهم ببعض. يتسلق بعضهم رؤوس بعض. وكلما انفرج ليل الخريف اتضحت المصيبة.

والجنرال فلاسوف يتقدم القوزاق بجسمه الصغير القوي، يركض حول المستنقع شاهراً سيفه يحرض القوزاق الخارجين عن طورهم على الأديغة الفاقدين كل أمل:

ـ اضربوهم أيها القوزاق، اقتلوهم! أغرقوا في المستنقع هؤلاء المسلمين!

خرج شروخقوه توغوظ من المستنقع بيده سيفه قافزاً بحصانه الذي يسقط فلا يلبث أن يقوم من جديد. ورجل ضخم متمسك بذيل حصانه يمنعه من التقدم، والقوزاق وقد رأوا هذا يلوّحون له بسيوفهم المشهرة ويسخرون منه ويصيحون:

ـ تعال، تعال! لتصلوا إلى حافة المستنقع فحسبُ أيها الأديغة ذوو الرؤوس الحاسرة!

ـ اقطعوا طريق هذا الفارس الهارب!

---

[1] سبق التعريف به .

وهناك قوزاق آخرون على ضفة المستنقع يقولون ساخرين: لماذا نستهلك الرصاص عبثاً على الأديغة الذين يخرجون من الوحل يشد بعضهم بعضاً ويسحب بعضهم الآخر؟ والفارس الذي يمتطي حصانه جاثياً على ركبتيه، والوحل يسحب حصانه يصيح بالعربية من أعلى السرج بيديه المرفوعتين، غير عابئ بما يجري داخل الماء الآسن:

_ الله أكبر، الله أكبر!

_ اصرعوا هذا المصلي! ينتزع زاليسكا قائد المئة البندقية من أحد القوزاق.

_ لا حاجة يا قائد المئة _ لا يقبل المقدم تابانيس _ سيشده الوحل بعد قليل. احذروا من هذا الفارس الخارج...

_ وهذا لن يذهب إلى أي مكان يا غريغوري كوندراتيفيتش _ يرد عليه زاليسكا، ويصيح متعجباً مما يرى:

_ انظر كيف يستقبل هؤلاء الموت!

يغطس الأخوان سنجال، وأبوهما وسْطهما،دون صوت في الوحل وعندما يصل ماء المستنقع الفائر إلى ذقونهم يقول الأب لهما:

_ لا تؤاخذاني يا ولديّ _ لا تُظهرا جبناً أمام العدو!

_ لماذا نحن واقفون نراقب بسالة هؤلاء المسلمين؟ أشعلوا النار في القصب وأحرقوهم! قال أحدهم.

نهرَ بشه ماف الرجلَ الممسك بذيل حصان شروخقوه توغوظ:

_ اترك ذنب حصان الزعيم، دعه يخرج من المستنقع!

ماكان الرجل الضخم الذي غشّى الاحتضار عينيه بالدم ليسمع ما يقال له. قفز حصان توغوظ مرة أخرى؛ لا يستطيع الحركة، يسقط على صدره، ويلوّح له القوزاق الواقفون على ضفة المستنقع ويسخرون:

_ إن كان الأمر هكذا، ليغفر لي الله! من يُعثِرْك فهو كافر: قطع شروخقوه توغوظ رأس الرجل المتعلق بحصانه بضربة سيف فتحرر الحصان. والقوزاق الذين يراقبون المشهد مبهوتون.

يتعرف الجنرال فلاسوف هوية قائد الأديغة شروخقوه:

_ هاهو شروخقوه؛ هاتوه حياً!

_ ما أبعد هذا عنك يا فلاسوف اللعين! صاح توغوظ بالأديغية وقد زرع الحقد فيه وفي حصانه وفي أغوي بشه ماف قوة هائلة: تعال يا أغوي وليحدثْ ما كتب الله لنا! هؤلاء القوزاق يريدون منا أن نقع عزلاً في أيديهم، لنهاجمهم بصدور أحصنتنا وسيوفنا!

انتشل شروخقوه وأغوي جسديهما فجأة، وبقفزة واحدة خارج المستنقع، وتجاوزا القوزاق الذين فوجئوا بما حدث، واتجها نحو النهر. لحق بهما الفرسان القوزاق وتعقبوهما بالبنادق. وعندما نظر توغوظ إلى الوراء رأى فارساً أديغياً آخر والفرسان القوزاق يجرون وراءه يكادون يمسكون به ولا يكادون.

_ ارجع إلى اليمين يا أغوي، وأنا سأجري باتجاه الضفة؛ سنفرق بينهم، سننقذه منهم.

انتحى أغوي بشه ماف يميناً، وفي اللحظة نفسها عرف الفارسُ الأديغي الذي وراءه الخطة، فقفز إلى النهر من الضفة غير العالية. كان بضعة الفرسان الذين توقفوا فجأة عند الضفة يرمونهما بالبنادق، غير أنهم رجعوا إلى الضفة الأخرى قلقين على قائدهم.

آتت خطة شروخقوه توغوظ أُكُلها كما صممها؛ فبعدما جرى مدة وهو يسحب وراءه فرسان القوزاق بقيادة زاليسكا قائد المئة، ورجع رئيس العرفاء جورافل بسرعة؛قفز في النهر من الضفة المنخفضة وسبح إلى جانب حصانه حتى وصل إلى ضفة الأديغة. وما إن وطئ الأرض حتى نظر إلى جهة مستنقع قلوشتوك المتعفن، دون اعتبار للقوزاق، فلاحت له النار الهائلة والأديغة يحترقون فيها، فعصر اليأس قلبه.

ولما صار تحت الغابة اختبأ وراء شجرة آملاً أن يجد رفيقيه، غير مهتم بملابسِه التي تسيل ماء ورأسِه الحاسر. لا أثر لإنسان ممن يبحث عنهم في فجر الغابة الهادئ إلا أصوات بعض طيور مالك الحزين الخريفية أحياناً. قال: ليتني وجدت بعض من كانوا معي! وفي هذه اللحظة أجاب صوت من الغابة وكأنه عرف ما في قلب توغوظ: أنا أغوي بشه ماف.

عرف توغوظ صوته فسأله:

ــ أين من كان وراءك يا بشه ماف؟ ألا يزال حياً؟

ــ حي يا توغوظ، حي. تبين أنه شاب نشيط، إنه يوقد النار.

ــ ومن هو؟

ــ وأنا لا أعرف، لم يسبق أن تعارفنا.

ــ قلت إنه يشعل ناراً؟ من أين سيأتي بالنار في هذه الرطوبة المهيمنة على كل شيء؟

ــ وأنا قلت له هذا الكلام ــ جرت ابتسامة خفيفة على وجه بشه ماف المتعب ــ ولكنه أخرج من قبعته قطعتين من حجر الصوان، وبضربة واحدة أشعل النار في قطعة قطن. وفي هذه اللحظة أجبت نداءك.

ــ والله نحن بحاجة إلى نار ولكن... ــ لم يفصح توغوظ عما يقلقه. وبعدما مشيا مدة قال: ــ لم أتوقع طوال عمري مثل هذه المصيبة. لم يوفر القوزاق شيئاً ضدنا. ليغفر الله لي ذنبي نحو من ماتوا أواحترقوا في المستنقع! استعددنا للغارة الليلية طويلاً، ولكن أظن الخونة سبقونا إليهم بأخبارنا. لو كان توغوظقوه قازبك الزعيم الكبير قائدنا لربما لم يحدث لنا مثل هذا. بأي عين سأنظر في وجوه الناس، في أطفال القتلى وأمهاتهم وزوجاتهم؟ كان علي أن أترك رأسي حيث تركت قبعتي.

ــ لا تلم نفسك يا زعيم! لسنا وحدنا من تحدث له مثل هذه المآسي الفظيعة. ما العمل؟ كان حظنا سيئاً. حين يكون عديدك قليلاً فأنت ضعيف. الجميع طامعون فينا يأكلوننا... ثم لم تكن القائد الوحيد للحملة؛ الشابسغ، الناتخواي، الجان... كل مجموعة كان لها قائد يتقدمها وإن كانوا في المؤخرة بداية الحملة.

ــ ولكن ألا تعي يا بشه ماف أن قيادة الجيش كاملاً كانت مسؤوليتي؟

ـ أفهم يا كبير، أفهم أيها الزعيم الكبير، ولكن المسؤولية ليست عليك وحدك. نتحملها كلنا. أليس من المحتمل أننا لم نخسر هذا العدد في هذه الليلة الخريفية المظلمة؟ ها نحن نجونا. وأرى غيرنا فرساناً ومشاة خرجوا منها.

توغوظ الذي لم يعد قلبه يتقبل مواساة الفارس إلى يساره جعلته الإهانة والعزة الأديغية يتنهد. ولام نفسه وكأن لم يبق غيره:

ـ يا توغوظ لم تفعل أي خير. ثبت أنك بلا عقل ولا شجاعة. كان من البديهي أن تنجو بقبعتك إذ نجوت بروحك. كيف ستدخل القرية دون قبعة؟ كيف ستمثُل أمام زوجتك حاسراً؟

سمّر بشه ماف فجأة حصانه، وصرخ معتذراً عن نسيانه:

ـ أيها الزعيم الكبير لا أعرف إن كان القوزاق سلبوني عقلي اليوم؟ سامحني؛ هاهي قبعتك مربوطة إلى طرف سرجي.

لجم شروخقوه توغوظ الحصان حتى اضطره أن يقفز:

ـ يا من أدعو له بالنماء، بأن يصبح يومه مئة، يا بشه ماف، ولدَتْك أمك رجلاً! افتديتني يا أخي الصغير! ليحمك الله !

لبس توغوظ قبعته وهي ما تزال مبلولة بعدما مسحها بصدره الأيسر وخده ناسياً فجأة مأساته. ونظر إلى من جلبها له نظرة رضا. وحين دخلا أجمة الكستناء شما رائحة النار ففرحا بها. ولما رأى الشابُ الذي يجفف جسمه بملابسه الداخلية الرجلَ الأكبر منه ارتمى وراء الشجرة على عجل لا يسأل عن شيء.

ـ لا تفعل هذا يا ولدي ـ قال شروخقوه قائد الجيش ـ شكراً على احترامك لعمري وعلى أديغيتك، أنت ابن أسرة عريقة. ولكن مأساة اليوم وحدت مقامنا نحن الثلاثة. وما تلبسه يا ولدي سروال وإن كان داخلياً فاخرج من وراء الشجرة. دعني أرَ وجهك الباسل! وجب عليك أن تنتشل نفسك من نار جهنم التي وقعنا فيها. أحسنت!

ـ لا أستحق هذا الثناء يا كبير. ـ خرج الشاب ذو الأنف الكبير، والذي يمكن أن تقدر عمره بين السابعة عشرة والثامنة عشرة من وراء الشجرة متخذاً من ملابسه حجاباً. ـ لأني كنت أسبح إلى جانب حصان نشيط، ولأني خفيف انتشلني الحصان من المستنقع والقوزاق مشغولون بكم. فلحقت بكما ونجوت لأنكما فرقتما جموع القوزاق. شكراً يا كبير!

ـ أتعرف بتبديد الفرسان؟ سأل بشه ماف مستصغراً عمر الشاب بالقياس إلى ما سمعه منه.

ـ لو لم أكن أعرف يا كبير أكنت لحقت بك عندما تبع الفرسان القوزاق قائدنا الكبير. ـ ثم أكمل ارتداء ملابسه بعد تفكير قصير.

ـ من نبّهك إلى ما تروي يا ولدي؟ سأل توغوظقوه قازبك وهو يتدفأ على النار مرتدياً ملابسه المبللة.

ـ خورلوقوه مرجان؛ ليجعل الله يومه مئة!

_ حسنٌ إذن، شكراً لك، رفعت من روحي المعنوية. والآن عرِّفنا نفسك!

_ أنا من قرية خورلوقوه مرجان، واسم القرية مرجان، واسمي (قَغَزَج) يعني حرفياً: عُدْ،ولا أكتمكم ما ينادونني به في القرية: بفوق، يعني من يسيل أنفه دائماً، ومن ثبّت عليّ هذا النبز هو خان جري الأمير الصغير من آل سلطان، والذي يدرّسونه الآن في القلعة القوزاقية إيكاترينودار. إن شاء الله ألتقي به في ساحة حرب أومفرق طرق لأعرفه سيلان أنفه وخيانته وأحطمه له، كما فعل المولى شواي بوالده الخائن.

الكلمات الأخيرة الحزينة للشاب الثائر جعلت شروخقوه توغوظ وأغوي بشه ماف يتبادلان النظرات. ولكن بشه ماف لم يتمالك نفسه أن سأله:

_ أتعرف حقاً بامبت شابسغ؟

_ وكيف لا أعرفه؟! _ أجاب فجأة مستغرباً السؤال _ كان من بين الذين عبروا النهر أمس وتسلق معي ضفة النهر حريصاً عليّ. ثم ضاع عن عيني حين هاجمنا المركز القوزاقي؛ إنه رجل شرس وتحته حصان ممتاز.

_ كنت معكم في تلك اللحظة، ولكن لم يعرف أحدنا الآخر. وكنا نتنادى كي لا يضيع أحدنا عن الآخر.

_ أأنت يا كبير من كان يردد " بامبت "؟

_ أنا والله، حزرت! أيكون ذلك المسكين حياً يا ربي؟

_ لا أعرف عنه شيئاً، لا أريد أن أكذب عليك.

الرجل الذي كانوا عليه قلقين، بامبت، كانت ملابسه جافة تماماً ونظيفة ليس عليها وحل المستنقع ولا بارود المعركة. كان مقيماً في عمق الغابة لينضم إلى رفاقه عندما يعودون وهو يقول: وأنا أيضاً حاربت وسفكت الدم، ونجوت من تحت السيف، غيرَ عارف ماذا حدث للأديغة في قلشتوك. وابتسم وهو يسخن قطعة اللحم البارد على النار مسروراً بما فعل مساء البارحة: ما الذي يجبرني على أن أكون بين هؤلاء، ليسوا اثنين ولا عشرين، هم كالجراد لا يسمعون أصوات حوافر خيولهم. قلت لنفسي لن أسمح لهم أن يصفوني بالجبان فمشيت معهم لأن الأديغي الساذج يدفع ثمن رجولته طوال عمره. الله يعلم كم سيترك وراءه هذا الحشد من الجراد الذي كنت معه في سهول القوزاق من بشر وخيل؟! لا أعرف لماذا لا يبقى أغوي بشه ماف بقبعته المترجرجة مع أطفاله ولا يختبئ وراء تنورة زوجته الضخمة؟ وبجريرته سحبني من سجادة الصلاة وأنا لا أعرف غير الله، ورماني في هذا الحشد. ألم يحم هذا الرجل المعتبر حياة توغوظقوه قازبك من سيوف القوزاق وعاد به جريحاً على حصانه؟! آه يا للباسل! ألم يكن إلى جانبي يرتجف ونحن نستعد للعبور؟ أيحوز أن تذهب إلى غارة ليلية مع أمثال هؤلاء الجبناء؟ ليحمِ _ إن كان رجلاً _ قائده شروخقوه توغوظ! لن يكون في مقدوره اجتراح مثل تلك البطولة. دعه يتكلم ويأكل ويجلس إلى زوجته! أين هو الآن؟ ربما في مزبلة الخنازير بعدما قُتل في بيتروفيسك القرية العمالية الروسية؟ لا يحدث للإنسان إلا

ما يجنيه على نفسه؛ فلماذا أنا مهتم بمصيره؟! ولما كان من جملة الناس المهتمين بمصير شواي فقد نقص عددهم واحداً!

أفطر بامبت متمهلاً مستمتعاً بلذة اللحم المقدد المبلل فالمسخن، موجهاً أفكاره حيث يشاء. وشرب بعد اللحم ماء دافئاً يطرد به برد الصباح الخريفي. وبعدما جلس قليلاً يصطلي بالنار استولى عليه خوف صامت من هدوء الغابة وراحة نهر بشزة. ودون أن يلمح خيالاً أمامه نهض منتصباً واستمع دون أن يتنفس حتى داخ فلم يسمع ما يشك فيه. ثم بدا له أن أصواتاً تأتي من المستنقع جهة النهر البعيد فأوجس شراً.

ـ لنمضِ يا حصاني المحجّل ونستطلعْ ناحية النهر! كأن شراً حدث لنا! هذا رأيي؛ ولا يحكموا علي بالجنون لأجل هذا!

كلما اقترب من ضفة نهر بشزة سمع مزيداً من أصوات البنادق والنداءات الأديغية ـ القوزاقية. أتى بامبت إلى ضفة النهر دون أن يعبأ بأغصان الأشجار التي تصفعه، حاثّاً حصانه من حين إلى حين، إلى حيث يتجابه الأديغة والقوزاق، ولكن بعيداً عن الطرفين. قفز من على ظهر الحصان وربت على قائمتيه وصدره فاستلقى الحصان، ووقف هو بين أشجار الصفصاف المتشابكة ينصت.

ـ أيها القوزاق ـ أصوات باللغة الروسية على الجانب الأديغي ـ لن نغفر لكم ما حدث في المستنقع!

ـ إن كنتم تريدون أن تتجرعوا الماء الآسن والرصاص فاعبروا مرة أخرى!

" من هؤلاء "؟ صرخ بامبت عندما رأى زهاء عشرين رجلاً من الأديغة يسوقهم القوزاق مقيدين.

ـ إن عرفتمونا فأخبروا أهلنا أننا بسلام؛ نحن وقليل ممن حوصروا في المستنقع فقط نجَوْا ـ صرخ رجل ذو صوت أجش من بين الأسرى، وتلقّتْ رقبته تواً ضربة من أخمص بندقية.

أجابت أصوات لهفى من الضفة الأخرى:

ـ عرفناك يا أحمد.

ـ اصمد يا إسماعيل!

ـ سنخلصكم منهم يا شعبان!

وخرج فجأة من بين الأسرى رجل قصير القامة ضئيل الجسم مقيد اليدين:

ـ لأغرقْ في الماء خيرٌ من أن يأسرني القوزاق!

وما إن خطا بضع خطوات حتى صرعه سيف أحد الجنود بضربة واحدة. واستطاع رجل ضخم أن يقفز في النهر قبل أن يلحق به الجنود، ولم يخرج من الماء! والقوزاق يحاصرون الأسرى ببنادقهم وسيوفهم المشهرة.

امتطى بامبت حصانه بقفزة واحدة، فابتعد عن ضفة النهر متأكداً أن أحداً لن يستطيع البقاء في مكانه مزيداً من الوقت، لا يدري أيفرح بنجاته من بين الذين كانوا معه أمس، أم يبكي أغلبَ رفاقه الذين قضوا في المستنقع.

وحين وصل إلى المكان الذي يلجأ إليه في الضائقات مال قلبه إلى الهدوء وهو يجلس إلى أرومة ملساء لشجرة بطم، وليس على الأرض المحفورة. ولكنه قفز يحك رأسه حين انتصبت أمامه مشاهد ضفة النهر. ركض إلى حصانه وأرخى حزام السرج ثم شده ناوياً الركوب، فربت على رأس حصانه الذي نظر إليه نِظرة حزينة، وعلى عنقه، فسأله:

_ ماذا نفعل يا حصاني المحجل؟ ورّطتُ نفسي في مشكلة مدّعياً المكْر _ ارتفعت كتفا بامبت المتدليتان فجأة _ أقول هذا ولكن لو لم أتصرف هكذا البارحة لكنّا أنا وأنت جثتين في المستنقع الآسن. افرحْ يا مسكين بسلامتنا! متى كان صاحبك عاجزاً عن أن يجد منجاة لنفسه؟ نجونا من أهوال كثيرة كهذه. قدم بامبت لحصانه ما تبقى من الشوفان. سنعتني بالنار أولاً. ولا يحسبوا أننا لم نكن في معركة المستنقع! استمتعْ بالطعام ريثما أحضّر النار يا مسكين! أترى ذلك المستنقع؟ ستأخذني إليه وتدور بي بضع دورات تغمرني بالماء وتنتشلني ثم نجفف جسدينا. وسنفكر في غيره، وستتحمل بعض هذه الإزعاجات ما دمت نجوت من المعركة.

بعد أن أشعل بامبت النار بصق في كفه وقفز إلى الحصان بوثبة واحدة، ثم اخترق المستنقع يلوّح بالسيف بيده، وحث الحصان بعنف ودار بضع دورات. ثم خرجا يسيل منهما الوحل. ولم يكْفِ هذا بل نزل وحده حتى غمر الماء وسطه. ولما صار الماء يشده خرج بصعوبة يشكو صدره وقلبه:

_ أتعرف ماذا سأفعل الآن يا حصاني؟ قال بعدما استراح. لستُ رجلاً ولا يثقْ بي أحد إن لم أفعل هذا بنفسي! لا ضرورة أن ترى ما سأفعل، وإن شئت فانظر. ليت كل أعدائي كانوا بُكماً كما أنت! سأمسح فخذي الأيسر قليلاً من أجل ألا يتلوث، وسأعصبه كي لا ينزف كثيراً. وبِمَ أضمد الجرح؟ خلع ما يستر جذعه ومزق القميص الداخلي، ثم عاد فلبس الخارجي. وربط الفخذ بالزنار. ثم قسا على نفسه: هنا، عند هذه الشامة السوداء.

مزقت صرخة بامبت الغابة، ثم صمتت كما ارتفعت تحت السماء في أنحاء الغابة والمستنقع. وحين ارتمى إلى الأسفل إلى الأرومة الملساء دار في الأرض بضع مرات ممسكاً الفخذ الجريح. ثم حملها وهو يقفز على الرجل اليمنى. استند بظهره إلى الأرومة، وعصب الجرح وهو يسب ويلعن. ثم ارتفعت روحه المعنوية لأن جرحه لم يكن بليغاً. ظل جالساً إلى جذع الشجرة يعض شفتيه، مسبل الجفنين،ريثما توقف النزف. ثم ظل يضع الطين ويرفعه عن الجرح المعصوب حديثاً حتى توقفت شمس الظهيرة فوق الأشجار. ولما اقترب من سرج حصانه ليقفز اكتشف أنه أخطأ: يا للحسرة! ماكان يجب أن أجرح الرجل التي أضعها في الركاب. أدعو الله أن يكون آخر مشكلاتي. وهذا ليس دون مخرج: تعال يا حصاني الطيب اقتربْ من جذع الشجرة.

كان بامبت متعجباً من أن الطريق إلى الضفة مقفر. قال: أين ذهب الأديغة الذين نجوا من القوزاق والذين كانوا هنا صباحاً. ألم يتخلف عنهم أحد التائهين من أمثالي؟ توقف وأنصت: الغابة خالية، ثم نادى:

ـ هيه، أيها الشابسغ أتسمعونني؟ أين أنتم؟

ـ من هذا الذي يملأ الغابة صراخاً؟ خرج رجلان على حصان واحد وقد امتلأا وحصانهما بوحل المستنقع.

ـ أنتما بكمز وغزالي ـ استقبلهما بامبت ورجله الجريح خارج الركاب كأنه يعرضها.

ـ نحن يا بامبت، نحن ـ جمعنا الله على خير! وأنت كيف حالك؟

ـ أنا كما ترونني يا إخوتي الطيبين , نجوت من مستنقع قلشتوك؛[1] كان هذا جهنم!

الكتاب الثالث

مأساة قلش جَأي[2] حامت على منطقة الأديغة كطائر أسود.

عندما سمع شواي الخبر وهو في الأبزاخ، في مضافة تازة أديغ، تذكّر أولَّ ما تذكر الفتى القوزاقيَّ بانتالي قائلاً في نفسه: من أين آتي به الآن؟ ثم ارتسم سببُ مأساته بامبت أمام عينيه: إن كان هو أيضاً قد مات في تلك المعركة فقد فقدت فرصة انتقامي، وضاع من أبحث عنه، وذهب وعدي للقوزاق، والذي هو دَين عمري، سُدى.

صعد الدم الحار إلى جبين شواي، وارتفعت حرارته، وسرى الألم في ندبة كتفه. وتذكر كيف جاء في ظلام الليل ليقتله، وكيف أنقذه كلب الجيران. وارتسم وجه أنفيسكا أمام عينيه.

جلس شواي قرب الوجاق محاولاً إخفاء توتره أمام مضيفه الشاب بإشعال التبغ. سحب جذعاً نصف مشتعل وجلس برهة ممسكاً بالجذوة يتأملها رغم أنه انتهى من إشعال التبغ. ثم أعاد الجذوة التي نفّست عنه كربه إلى مكانها فارتفع اللهب.

---

[1] في عشرينيات القرن التاسع عشر كانت المأساة التي حدثت للشابسغ في مستنقع قلتشوك إحدى أعظم مآسيهم. حدثت هذه المصيبة في ليلة الثاني من تشرين الأول عام 1821. جاء في كتاب "عهد ماتفييف أتامان قوزاق شيرنومير "ما يلي: في صباح مأساة الأديغة كان مئات من الشابسغ مكدسين في مستنقع قليتشوك المتعفن. المستنقع يتموج والماء يفور. في ذلك اليوم مات الكثير من أعدائنا في المستنقع. وحسب روايات الشابسغ أكثر من 1200. وكثير من غير الشابسغ ماتوا في القرية العمالية بيتروفيسك. ولم يرجع 20 من قادتهم إلى ديارهم.وأسر القوزاق خلال بضع ساعات مجموعتين للشابسغ، وقائد مجموعة و42 أسيراً. وغنموا 516 حصاناً وأسلحة جاهزة أخرى. وفي الأيام والأشهر التالية ظلوا يستخرجون من المستنقع السيوف والقامات والبنادق والدروع الجلدية والسروج.و تكتب قيادة الأركان العليا للقوقاز إلى الجنرال يرمولوف مثمنةً نصر الجنرال فلاسوف: من أجل أن تمنحوا للجنرال فلاسوف وسام آن. وعنده أوسمة أخرى كثيرة. وقد منحوه وسام جيورجي من الدرجة الثالثة وهو يستحق الآن ما أرجوكم منحه إياه. ومن وقت نهاية هذا الكتاب لم يحصل جيش قوزاق شيرنومير منذ عسكر في تامان على انتصار ضد الأديغة من هذا المستوى. وقد تجاوز القيصر الروسي الكسندر الأول وسام آن،ومنح فلاسوف وسام فلاديمير من الدرجة الثانية.

[2] يعني: سهل قلش. المترجم

ـ يا ضيفي شواي ـ قال تازة أديغ ـ سامحني ياكبير، قطعت تفكيرك. منذ الصباح حين تعارفنا على تخوم قريتنا يقلقك شيء ما ويُثقل عليك. أفهم أن ما حدث لنا في قلشتوك مأساة عظيمة ولن تخفّ مهما تكلمنا فيها، ولكنك تنوء بحمل شيء آخر.

ـ والله يا أخي الأصغر ـ سرت بصعوبة ابتسامة على وجه شواي النحيل الحليق حديثاً ـ دنيانا مشوشة وكلها مآسٍ. لا أقول إنها تخلو من فرح ومن فَرَج ولكن الظلم غالب عليها ـ وقال في نفسه: صحيح أني آكلُ من طعامه، ولكن لم نتصادق إلا منذ ساعات، فيجب ألا أُطلعه تماماً على حكايتي. فغيّر الموضوع سريعاً: ـ أفكر كثيراً في الحطب والنار والأرض والماء. وفي الشمس والسماء والهواء والريح، وفي إقبال النهار وإدبار الليل. وأظن أن طيبة الإنسان وظلمه وسِرّه وعلنه تَبَعٌ لها. ـ طبعاً يا شواي ـ عقّب أديغ سريعاً مرتاحاً لتقارب قلبيهما، هو وضيفه ـ ونحن من هذه الدنيا، نفرح فيها ونحزن، ونتقاتل. نحن الأديغة لا أظننا وحدنا يا شواي، فالروس والترك كذلك، والقوزاق والنغوي الساكنون وسطنا بينهم عِداء. ولا يعني هذا أن كل رجلين أو عرقين يجب أن يتجابها ويتقاتلا.

ـ وأنت هذا رأيك يا أديغ؟

ـ نعم يا شواي.

ـ إذن نتفق أنت وأنا في هذه الفكرة ـ لاح الفرح الآن على وجه شواي النحيل ـ أن تتفق آراء اثنين ويقلقا للموضوع نفسه ليس عجيباً. ولولا هذا لعاش الناس ينقض أحدهم كلام الآخر، وحلّ الكره بينهم. والحطبة التي أعدتُها إلى النار ليس فيها هذه الميزة. هذا ما كنت أفكر فيه. كنت أتعجب من كرَم الشجرة التي آلموا لحمها؛ ها هي تحترق لتدفئنا، تشعل تبغنا ونطبخ عليها.

ـ ولكن أيها الصديق ـ سامحني؛ أليس هذا الحطب نفسه سبب الحريق؟

ـ النار تأتي من مصادر كثيرة ـ قال شواي كأنما يحدث نفسه أكثر مما يحدث غيره وتنهد، ثم بعد قليل قال بمزيد من الحزم ـ النار تأتي من الحطب ومن القش ومن التبن، بل من الإنسان نفسه. إنها حسب المكان الذي يُستفاد فيه منها، وحسب من يجعلها مفيدة. تنشأ النار كذلك من تصادم السيفين. بل جاءت مأساة قلش جي منها.

قال تازة أديغ كرجل ناضج هادئ عاش سنين طويلة، وليس ابن عشرين.

ـ لا أوافق الطرفين على مأساة قلش جي، وأحمّل الأديغةَ الذين عبروا النهر القسطَ الأعظم من المسؤولية، والقوزاقُ تجاوزوا الحدود. لوكان الأمر بيدي لوزعت قطرات نهر بشزة المسالمة على الطرفين بالتساوي، وما سمحت لهم بتبادل التهديد بالقبضات من الطرفين.

ـ نسيت بسرعة يا أديغ أن أباك وأمك وأخاك الأكبر قتله قوزاق الأتامان بوراسك ـ طرح شواي هذا السؤال القاسي، ولو أنه لم يقصده تماماً، متعجباً مما سيعلق به المضيف الشاب، ومختبراً إياه مرة أخرى.

ـ لم أنس ميتة أبي وأمي وأخي الأكبر، وأننا بقينا وحدنا أنا وخالتي ـ انتكس صوت أديغ رغماً عنه ولكن سرعان ما عاد إلى قوته ـ من أجل ألا تحدث لنا نحن الأديغة مثل هذه المآسي أريد أن أنساها وغيرها من المآسي.

ـ ولكن ـ لم يستسلم شواي ـ حدث لهم الآن أيضاً.

ـ لأني توجست هذا لم أوفر جهداً، واجتمعت بعدد من الناس، ولكن لم يتفهموني.

ـ بمن اجتمعت؟

ـ أولهم شروخقوه توغوظ.

ـ ماذا قال لك إذن؟

ـ ماذا يقول لي؟ ـ ابتسم أديغ،واحترام الصغير للكبير يلجمه، رغم أنه اعتبر تصرف شروخقوه إهانة ـ لم يقل شيئاً؛ ألهب وجهي بسوط حصانه!

ـ هذا غير معقول! أين فعل بك هذا؟ أزرته في بيته؟

ـ لا يمكن أن يتصرف معي الزعيم الكبير بهذه الطريقة على باب داره. بين ناش وجنجبس في منحدر التل قابلته ومعه فارسان. سأل عن أخبار الأبزاخ ووصلنا إلى موضوع الأديغة ـ القوزاق (كان ذكر اسمك ولكن لن أذكر هذا الموضوع) (الأقواس من المؤلف). وحين قلت له رأيي في موضوع القوزاق سمعني وسمعني، ثم قال: " لا تُعِدْ على مسمعي مثل هذا الكلام! "، وضربني على وجهي وتابع طريقه كأن شيئاً لم يكن! ـ لا أعتب على توغوظ ـ ضحك من أعماقه ثم تغير لونه فجأة وتابع وهو يهز رأسه: ـ أهانني عدم تقبُّله لشيء مما قلته... انظر ما حدث له الآن! تسبب في غرق ألف من الشابسغ في المستنقع ـ بأي عين سينظر إلى الناس، وكيف سيعيش على ظهر البسيطة؟ ثم تقول لي مع ذلك يا شواي: يمكن أن يكون في العالم رجلان تتطابق أقوالهما وأفعالهما.

ـ إن كان موجهاً للخير أقول هذا ـ أجاب شواي على الملاحظة دون خبث ـ وإن كان للشر فأقول الرأي نفسه. لا تندم على مافعلت وما قلت إن لم يوافقك إلا من لم تسئ إليه أو بينك وبينه مودة يا أخي الأصغر ـ لأجل هذا قلت: تخرج من الإنسان نار كما تخرج من الحطب. شفقة الإنسان وظلمه متجاوران.

ـ نعم يا شواي كالماء: تشربه ويُغرقك!

ـ تماماً يا أديغ تماماً!

ـ الأرض التي تكلمت عليها يا شواي ـ أردف أديغ وقد توهّج وجهه الجميل الطلق الذي يقرّبه من القلب منها غذاؤنا، نسعى إليها ونشعل عليها النار... ثم نُدفَن فيها ـ واستعجل مرة أخرى وكأنه خائف أن يُقاطَع كلامه: ـ الشمس تحرقنا ولكنها تمد الأرض بالحياة. والصاعقة، ولو آذتنا، تحمل المطر. والليل فيه فائدة ـ لا أتكلم على وقت السرقة يا شواي ـ شفتا تازة أديغ الأنثويان الحمراوان تضحكان حتى

لتصلان إلى ذقنه وشاربيه الغضين. وعيناه الدافئتان تتكلمان من محجريهما _ لو كانت الدنيا كلها نهاراً لتعبنا عليها.

_ تمام يا أديغ، تمام! _ لا يزال شواي يوافق صاحب البيت _ يسرني أنك تفهم الظلم والشفقة _ ليس ولداً أبله هذا، ولكن لا أدري من أيقظ فيه هذه الفطنة؟ _ قال شواي لنفسه.

ضحك أديغ في سره: إن كانت نظرتي إلى الحياة تعجبك هكذا فلماذا أوقعت الضيم على آل سلطان؟ لماذا قتلت أميرهم؟ أعجيب إن كان تحالف مع القوزاق؟ أهو الوحيد في المنطقة الذي فعل هذا؟ حلفاؤهم في السر أكثر منهم في العلن. ولا تخلو قريتنا قاي حبله من هؤلاء. ولكن كيف تتهمه بالسرقة مالم تضبطه بالجرم المشهود؟ من يدقون على صدورهم بقبضاتهم هم أول من سيبيعونك. أألمح إلى الموضوع لأن كثيرين رأوا في سلوكه مع محمد جري بطولة؟! إن كنت ستتصرف مع كل من يتحالف مع القوزاق هكذا أيها الضيف فلا أعرف ماذا ستفعل بخان جري الذي يعلّمونه وراء نهر بشزة؟ حسناً، لن أقول شيئاً الليلة؛ هناك يوم آخر.

تصدر من غرفة خالتي رائحة طيبة، المسكينة يسرها أن يدخل مضافتي لابس قبعة. ولا أعرف لماذا تأخر جاري عمر؟ ولو اصطحب شخصاً آخر لكان إكراماً لي ولضيفي. لا يزال الوقت بداية العتمة المسائية. وانتهت تواً خدمة المواشي. هناك وقتٌ بعدُ. أنا استعجلت في خدمة أبقاري لأجل شواي. عندي ثلاث وحصان الضيف، كلها أربعة. كم تستغرق هذه من الوقت؟ وخالتي تحتكر خدمة الدجاج والديك الرومي والخراف؛ لا تسمح لي أن أقترب منها بحجة أني ذو قبعة.

_ مهما حمّلت الأديغة المسؤولية يا أديغ فالقوزاق ظلموهم. من العيب أن تستمر، وأنت على الضفة، في محاربة من أغرقتهم وأشعلتهم في المستنقع، وأن تُعمِل السيف في مَن نجَوا من الغرق. يعيد شواي الخبر الذي لا يفارق القلب.

_ هذا صحيح! ولكن ماذا يقول المثل القديم " من يمدَّ يده إلى عينك فمدَّ يدك إلى روحه" بما أن هذا المثل ينطبق على الجانب القوزاقي فأنا منحاز إلى هذا الجانب. لأنه ليس عندي محاباة للأديغة أو القوزاق أو النغوي...مبدئي ألا أصفَّ مع من يحمل السلاح أولاً. وسأقول لك شيئاً آخر يا كبير: لا تعجبني الفُرقة بين الأديغة؛ نحن نمزق بلاد الأديغة بالكراهية المتبادلة بيننا. كل منا انعزل في ركنه وأقام في عشه. الدجاجة ما إن يحدق خطر بفراخها حتى تضمها تحت جناحيها، ومن لايستقرَّ يخطفه النسر. نستحق بالتأكيد _ نحن الشابسغ _ ما فعل بنا القوزاق. لا أريد أن أقول ما يعيب ولكن أقول الحقيقة.

من أين جاء هذا الولد البيتمال؟ قال شواي في نفسه. لم أصادف مثله في كل منطقة الأديغة، مع كثرة من قابلت، إلا اثنين أوثلاثة. وهؤلاء النوادر شيوخ عقلاء حنكتهم تجارب الحياة، وهذا بالقياس إليهم لا يزال طفلاً. لا أستطيع أن أحدد ما أيقظ فطنته. كثيرون في العالم يقولون: نحن أديغة ولكنهم تائهون في الوقت نفسه، ولست بعيداً عن هؤلاء من زاوية ما حدث لي. ولكن هذا الشاب قبل أن يولد بدأ إنساناً خارقاً

بتفكيره. هيه يا أخي الأصغر؛ أتُراك تخدع نفسك بأن " تبرعم في الربيع البعيد قبل أن يمضي الشتاء؟!" تألم قلب شواي، ولم يُخْفِ عن جليسه ما يقلقه:

ــ يا أخي الأصغر لا تدعْ أحداً يسمعك في زمان هلاك الأديغة. لن يتقبلوا رأيك إن كانوا على حق أم على باطل. الدنيا متوترة، سيلاحقونك، ولن يدَعوك تعيش في بلاد الأديغة.

ــ وأنا فكرت في هذا، ولكن الصدق والعدالة فوق الجميع عندي.

ــ على ما تقول ــ سرى الفرح إلى شفتي شواي غير الرقيقتين ولا الغليظتين. " الصدق سندٌ والكذب مَزْلَقة".

ــ هكذا يا كبير هكذا. " الصدق ينتصب رغماً عنك وإن ظننت نفسك صرعته، والكذب ينهار أمامك وإن ظننت نفسك نصبته ". هذه الكلمات تمنحني الحياة والقوة، وتُريني عالم الأديغة بعين أخرى.

ــ أصدّقك يا أخي الأصغر، وأوافقك عليه " الصدق دواء والكذب شرّ ".

ــ ومع ذلك يا شواي لا أستطيع أن أُفهِم خالتي التي لا أولاد لها هذه الأفكار؛ تخاف عليّ أن تكون نهايتي فيها. ولذا أرجوك ألا تفتح هذا الموضوع في حضورها. لماذا نجرح قلب من لا فرح لها في الدنيا غيري؟!

ــ هذا صحيح؛ ثقْ بي!

ــ شكراً يا شواي ــ قال أديغ، ثم أضاف ــ وما قلته عن عدم تمييزي بين الأعراق سيكون السبب في طردي من بلاد الأديغة؛ أتفهّمه ولكن...

أوقف الصوت القادم من مصطبة المضافة تازة عن الكلام، ونظر نحو الباب مرتاحاً لقدوم أحد الجيران لمؤانسة الضيف.

ــ مساؤكم سعيد! توقف الرجل الخمسيني الضخم وهو يعبر الباب، وقال بصوت ثخين ولم يكمل سلامه ــ أيها الضيف يا من نسمع به ولا نرى شخصه، شواي! جئتُ نافد الصبر حين سمعت أنك ضيف جاري أديغ. أنا اسمي عمر، ومن آل باجوق.

ــ تفضل يا عمر، تفضل! ــ استقبله أديغ بوجه طلق ــ يسعدني جداً أن تزور ضيفي. تفضل هنا إلى صدر المجلس!

ــ لماذا يا جاري تدفعني إلى الخطأ؟ لم يقبل عمر بالمجلس الذي اختاره له أديغ ــ أراني أكبر عمراً من ضيفك. ولكني لن أنقض العادة التي تعطي الضيف صدر المجلس دون اعتبار للسن. اجلس يا شواي، اجلس! يسعدني أنك حللت ضيفاً علينا، خالطتنا. ثم ماذا في بلاد البجدوغ من أخبار؟ أظنكم رضختم تماماً لجيرانكم القوزاق. لماذا سمحتم لأصحاب القبعاتِ المتوَّجة بالأحمر أن يُفزعوكم؟

ـ والله يا عمر ليس موضوع البجدوغ كما تقول تماماً ـ أجاب شواي عندما استقر في مجلسه قلقاً. هؤلاء لا يعرفون ما حدث لي ـ قال لنفسه، ربما يقصدون أنه عندما تعيشون في جوار ـ وإن لم تكن قلوبكم متوادة تماماً ـ فالأفضل أن تتعايشوا. أنا في الحقيقة يا عمر لست في بلاد البجدوغ منذ مدة طويلة.

ـ ونحن نعرف هذا يا شواي. ونعرف أنك حمّلت الخائن محمد جري شارته الروسية إلى الآخرة. أحسنت! فعلت به ما يستحق.

ـ نعم؟ ماذا تقول يا عمر؟ امتُقِع وجه شواي لما سمعه، وجعله يصرخ: أي آخرة تتكلم عليها؟!

ـ والله يا شواي لا أفهم صراخك. ـ رفع عمر حاجبيه الأسودين الكثّين، وسأل أديغ هذا السؤال الصامت نفسه ـ أقلتُ شيئاً غير صحيح؟ هل اتهمتك بما لم تفعل؟

ـ هل مات المحترم محمد جري؟

ـ والله يا شواي مات ـ تفرّس وجهَي جليسيه دون جواب. ثم قال للمضيف وقد عدّل موقفه بصوت آخر: ـ هذا موضوع فيه التباس ما يا أديغ، اغفر لي يا شواي إن اتهمتك ظلماً. لست إلا راوي ما سمعته. فإن كان الأمر اتهاماً ظالماً فهو عيب. ولكني سمعت صاحبك نفسه يرويه!

ـ ومتى حدث هذا؟

ـ منذ زمن ليس قريباً ـ قال عمر، وغضب بحيث لا يدري أيتنفس الصعداء أم يتنهد ـ والله إذن خدعَنا بامبت شابسغ.

ـ كنت أخمن هذا يا عمر. ولكن لم تقبل كلامي. قال أديغ.

ـ والله من المعيب أن تتهم أحداً بما لم يفعله. ـ لان صوت عمر ـ ولكنه لم يستطع إلا أن يثمّن قتْل محمد جري ـ هذا الذي يجعلهم يقولون: "من لا يهدأ يجد نفسه خارجاً " الخائن لِيقتلْه من يشاء. أردتْه خيانته.

ـ ليجعل اللهُ آخرة محمد جري خيراً، لا أستطيع أن أوافقك يا عمر. لا أظن أحداً في بلاد الأديغة يعرفه خيراً مني. لا أستطيع أن أسمي من يتصرف حسب قناعته خائناً. ما العمل؟ كان محمد جري قد اتجه صراحة إلى الروس والقوزاق، ولكن لم يدَعوا قناعته تتحقق. أليس بيننا من توجه نحو الترك؟ نعم، أوَ ليس بيننا من لا يقبل الطرفين التركي والروسي؟ نعم. وهاهو أديغ تازة لا يخفي موقفه، واحد من هؤلاء.

ـ نعم يا شواي، أنا منهم.

ـ ولذا يا عمر معنى الخيانة واسع. إن أردت الحق فكثيرون في كل قرية يشاركون في الاجتماعات بسيوف مشهرة على القوزاق، وفي الليل يبيعوننا بحفنة من المال، يشون بنا. ثم يقتلون محمد جري الذي لم يكن عنده سرٌّ يخفيه.

ـ مهلاً، مهلاً يا شواي! ماذا أسمع الآن؟ ارتفع صوت عمر رغماً عنه ـ ألست أنت من لم يقبل موقف محمد جري من القوزاق أولاً؟

_ نعم أنا.

_ أوَ لست يا شواي من قال إنه سيقطع كتفيه اللتين تحملان الشارة الروسية؟

_ نعم، ولكن لم أمدَّ يدي على المحترم، لم أقتله.

_ أصدقك يا شواي _ ولكني أتعجب من تحول قلبك نحو القوزاق _ ثم أضاف دون أن يُعرف هدفه تماماً: _ حالنا عجيبة نحن الأديغة بحجة أننا نقاتل...

_ ليس الأمر يا عمر هكذا تماماً _ دون أن يُفهَم إن كان المقصود هو نفسه أم الأديغة _ شرد شواي، وانتصبت أمامه دار آل سلطان التي شب فيها وقانتات وبيكا وسيسور وقايمت وحاج قسي، والأولاد الذين تيتموا، وأولهم خان جري، تدافعوا في أفكاره. آخر خلاف بينه وبين سيده في آخر شهر من الصيف. وعدم وجوده معه حين قُتل، وغيابه عن مأتمه، وعدم انتقامه له، وتسميته بالقاتل، وما حدث له في أرض القوزاق. كل هذا آلمَ من جديد قلبه فأوشك على البكاء.

قام متكلِّفاً الصبر _ سأخرج قليلاً من الغرفة.

وبعدما جلسا قليلاً قال عمر:

_ أظن أني سببت للضيف الحزن، تفقّدْه يا أديغ!

عندما نزل أديغ من مصطبة البيت رأى شواي مستنداً بصدره إلى السور الفاصل بين البيت والفناء الخارجي. واستنتج من حركة كتفيه أنه يبكي صامتاً. أصدر أديغ سعلة تنبئ ضيفه بقدومه، واستند هو أيضاً إلى السور. وبعدما ارتجّت كتفاه مدة رفع شواي جسمه عن السور، ومسح عينيه وقال:

_ سامحني يا أخي الأصغر؛ هدّني الخبر المفاجئ، امضِ لا يجوز أن نترك الكبير ينتظرنا.

***

لم يذق شواي طعم النوم طوال الليل، وظل يذرع أرض الغرفة ويقف إلى جانب النافذة. وخطر له أكثر من مرة أن يركب ويرحل، ولكنه لم يجد من اللباقة أن يفعل هذا دون توديع المضيف. مساء أمس، بغضِّ النظر عن مشكلته، لم يتركوا خبراً في أرض الأديغة لم يطرقوه. وكانت الأحزان أكثر من الأفراح. وأي خبر يبدأ كان ينتهي بمأساة الشابسغ في قلشتوك. وكانت أفكار شواي تبدأ فوضوية ثم تطفو أفكاره التي ينوء بها على غيرها.

تألم قلب شواي مرة أخرى وقال في نفسه: اتهموني بقتل محمد جري، ولكن قاتله وناشر الخبر لم يعد سراً: بامبت. ماذا كان يريد بامبت أن يفعل بي؟ حدثت الجريمة في أواخر الصيف حسب ما روى عمر، ومضى عليها أكثر من ثلاثة أشهر. مهلاً مهلاً! أليس في ذلك الوقت تقريباً ذهبنا معاً للإغارة على فاسيورينسكا؟ الآن أفهم لماذا ضربني بهدف القتل، ولماذا رجع إليّ في الليل ثانية. يا حسرتي يا قانتات كيف نجوت من هذه المأساة وقد وصلت إلى هذه السن؟ لو كنت إلى جانبك لساندتك ولخففت عنك. لماذا أنا في مضافة أحدهم ولا أتحمل مع هذه المسكينة مصابها؟ وكذلك سيسور ليس سهلاً ما عانته.

سُمع صوت باب:

ـ صباح الخير يا شواي ـ حمل أديغ المائدة إلى الغرفة ـ نمنا الليلة متأخرين؛ عسى أن تكون ارتحت!

ـ صباح الخير يا أخي الأصغر، لم أتحرك مرة واحدة؛ ارتحت. ولم يفصح شواي أمام المضيف عن أرقه طوال الليل فماذا بوسعه أن يساعده؟ حسناً فعلتُ إذ لم أكشف له أسراري.ـ الآن إن سمحت لي أستأذنك في الرحيل بعد الفطور.

ـ ظننتك أمس لا تنوي مثل هذا يا شواي... ربما كان الخبر السيء الذي بلغناك إياه سبب سفرك يا كبير

ـ إذن والحال هذه أتمنى أن أسمع جواب سؤال عمر الذي تجاهلته أمس. ما سأقوله لك بخصوص آل سلطان يتوقف على جوابك: لماذا لم يصلك شيء من خبر المأساة التي حدثت في أرض البجدوغ؟

ـ سأقول لك ـ نظر في وجه المضيف الشاب كأنه كان ينتظر هذا السؤال ـ بعدما تهاترنا أنا والمرحوم محمد جري توجهت نحو قبيلة الماخوش والبسلني، ثم لما كانت المسافة المتبقية قريبة ذهبت إلى القبرتاي، إلى صديق لي.

ـ إذن، وقد طفت كل هذا يا شواي من أين كنت ستعرف ما يحدث في البجدوغ! ولكن إن كنت تفكر في تعزية آل سلطان أقول لك: لا تقصد بابهم قبل أن تتبين الحقيقةُ لأنك متهم، وسمعت أنهم أطلقوا وراءك ثلة من الفرسان قد يؤذونك.

ـ شكراً، وأنا فكرت في هذا.

ـ إن قبلتني رفيقاً صحبتك، ولكن ليس قصدي من الكلام أن أصفّ مع آل سلطان وأنحاز إليهم.

ـ ولماذا يا أديغ لا أقبلك رفيقاً؟ سأحل مشكلتي مع آل سلطان كما تقول، وأخبرك قبل أن أطرق بابهم.

ـ هذه رجولة منك ـ قال أديغ واثقاً بنفسه ـ أنا حاضر في أي وقت.

ـ جارك عمر رجل ممتاز ـ قال وهو يركب ـ يؤسفني أنه لم تتح لي الفرصة لأقضي معه وقتاً أطول؛ بلّغه سلامي.

ـ وعليكم السلام (بالعربية في الأصل). بكل سرور ـ ابتسم أديغ وهو يتذكر الجدال الذي دار أمس بين شواي وعمر حول القوزاق ـ وعمر ليس موقفه من القوزاق تماماً كما يقول.

ـ وأنا خمّنت هذا ـ اكتفى شواي بموافقته دون أن يسأله لماذا اتخذ هذا الموقف من القوزاق.

II

فرح شواي عندما سمع أن بامبت لم يقض في المستنقع كما لو أنه هو نفسه الذي نجا. وخيل إليه أنه عثر على بانتالي. ولكنه قرر أن يقابل أغوي بشه ماف قبل ملاحقة القاتل. سيلاحق بامبت براحة أكثر بعد أن يعيد الفتى القوزاقي إلى أهله.

عندما تجاوز شواي جبال الأبزاخ ومشى ساعتين أو ثلاثاً على يمين بسه فابه[1] ورأى إيكاترينودار على الضفة العالية هاج قلبه فجأة. حطّ قلقُه في لوستان حبله المحاذية للضفة اليسرى ولو أنه بدأ في قلعة القوزاق. ثم استقر في لوستان حبله غير البعيدة على الضفة اليسرى. حث قلبُه الفائر الخطا على شوارعها الضيقة.استدار وراء سور الإسطبل. وحطّ على مصطبة البيت. تجاوز نوافذ غرفة قانتات إلى غرفة سيسور، ثم طافت أمامه صورة سيسور بخصرها النحيل حاملةً حزمة الحطب المقطّع. وطرق باب ورشة حاج قسي فتلوى القلب، ورأى فيها قايمت. وخيل إليه أنه سمع أصوات سعيد جري وعادل جري وبيكا. ولكن لم تشخص أمام عينيه صورة قانتات وخان جري.

أوقف شواي الحصان. سهلُ الخريف أصفر ذابل وخاو، ولا أحد غيره في غابة البرقوق البري الواسعة.

الشمس تجاوزت الظهيرة متجهة إلى العصر، وهي تلعب مع الغيوم المتناثرة لعبة " الطميمة ". والريح الخضراء الخفيفة عندما تهب باردة تقفز من فوق أشجار البرقوق البري، وتقرع الثمرات الجافة. وطيور مالك الحزين تلتصق بالأرض إيذاناً بقدوم الثلج وتصمت.

وجّه شواي حصانه نحو اليمين مصمماً أن يلقي ولو نظرة على الدار التي ترك فيها سيسور. وقانتات المسكينة؟ وخان جري وأخواه الصغيران؟ يتذكر أيام ولدوا وكأنها البارحة وليسوا وحدهم، وقرم جري ابن المرأة الأولى. الشتاء يقترب فمن سيقلم الآن عرائش العنب؟ ومن سيصفّها على الأرض؟ بإمكان قايمت وحاج قسي والموالي الآخرين في الدار أن يفعلوا هذا؛ غير أن عناقيد العنب كالأطفال لا تناسبها أي يد.

حثّ شواي حصانه بضع مرات راغباً في الخروج من هذه الأفكار المتلاطمة، ولكن تردده في أن يسلك الاتجاه الذي اختاره كان يلجم الحصان. ألن تفهمني قانتات والآخرون؟ أنا بريء من دم المرحوم، ليس بيننا إلا الصدام الوحيد بسبب قضية القوزاق، ولا شاهد في هذه المسألة إلا الله. لماذا تصرفت بنزق في ذلك اليوم، وقبله، نحو محمد جري؟ ولماذا تدخلت في ما لا يعنيني؟ شدتني نحوها قضايا الأديغة _ القوزاق غير الواضحة فسمحتُ لها أن تخدعني. وتازة، ولو أنه شاب غض، أظنه على حق حين يحاول تحييد الأديغة بين الروس والترك. وأنا كان هذا قصدي، وهذا ما دفعني إلى أن أقول لمحمد جري ما لا يليق. من الخطأ أن تقف في وجه أفكار إنسان مقتنع بها وتحبطها، وهذا ما لم أكتشفه حتى اصطدمت بما حدث لي.ها هم الآن عارضوا محمد جري واتهموني بقتله. ثم من هذا الذي اتهمني؟!

هيّجت الإهانةُ التي ألحقوها به قلبَه مرة أخرى، خرج من الأجمة وعدا باتجاه المستنقع مدة. وحين لاحت من بعيد غابة (جتوك) فوجئ بأن لوستان حبله لم تعد بعيدة. وبعدما بحث هنا وهناك وتسلق المرتفع غير العالي جعلت القرية المنتشرة على التخوم اليسارية للغابة قلبه يتعثر.

---

[1] المياه الدافئة. المترجم

قال شواي: هناك قريباً من حقل الشوفان أسأت إلى محمد جري. ماذا كان يهمني أنا أن أجعل من شارته القوزاقية موضوع نقاش؟ مضى على هذا أربعة أشهر، وخلال هذا الوقت جرى لي ما لا يجري لإنسان عاقل في حياته بحضور بامبت اللعين الذي اتخذته صاحباً. وقعت في يد القوزاق وعاينت إنسانيتهم ولا إنسانيتهم. حقاً لماذا أقول " لا إنسانيتهم "؟ ألأني رحت أسلبهم؟ لم يفعلوا بي مثل ما كنت سأفعل لو كنت مكانهم. أعجيب أني كنت مقيداً ومحبوساً في الإسطبل؟ أطعموني، لم يدَعوني أموت. وثقوا بي وأطلقوني لأعثر لهم على ولدهم. حتى لو من أجل أنفيسكا وحدها فالقوزاق الذين لا نحبهم من قلوبنا عجيبون. لا أظن أن بعض تقاليدهم الأسرية وعاداتهم الاجتماعية تتطابق مع ما عندنا لمجرد أنهم قلّدونا في لباسنا القومي، وكذا في توقير الصغار للكبار قومانا متقاربان. شكراً لكم على معاملتكم لي بالحسنى، وسأجد لكم ابنكم بانتالي مقابل حريتي، وسأجازي من أهانني وأهانه بعد أن أزور أسرة قانتات. أأدخل دار قانتات حقاً؟ لا شيء يتورع صاحب الثأر عن فعله. أيهينونني بنظرات الاحتقار فماذا أفعل؟ لن أقبل أن يتهموني ظلماً. إن لم تفهمني قانتات فلا أظن أحداً في الدنيا يفهمني... وسيسور؟ هذه البائسة أملي، ماذا تفعل بي؟ أمن الأفضل أن يصحبني صديق يمهد لزيارتي خير من أن أزورهم وحيداً؟ كان تازة أديغ وعدني أن يسافر معي ولكني أفضّل رجلاً أسنَّ؛ ليكنْ أغوي بشه ماف. ولكن من أين آتي به الآن؟ أأدخل اليوم إلى عند قانتات أم أؤجل؟ سأزورهم وقلبي مرتاح حين أجد بامبت وبانتالي. أأكون تأخرت إلى حين أحل مشكلتهما؟ لا، ليكنْ ما يكون! الآن.

بعد ما مشى بعض الوقت صادف عجوزاً مع بضعة خراف ففرح لأنه وجد ذريعة. ترك الطريق وترجّل وسلم عليه:

ــ نهارك سعيد يا كبير!

ــ وأنت يا شواي، غبتَ طويلاً، تفضّل!

ــ أتعرفني يا كبير؟

ــ مَن في بلاد البجدوغ يجهل الآن شواي؟ ــ ابتسم الراعي العجوز ــ بعضهم يمدحك وبعضهم يذمك، بعضهم يدعون الله لأجلك، وآخرون يلعنونك.

ــ فهمت يا كبير، فهمت ــ كتم شواي شعوره ولو أنه لم يُسرَّ بما سمعه، ثم سأله: ــ وأنت مَن يا كبير؟ لم أعرفك.

ــ أنا لست من لوستان حبله، أنا من التغورغوي، من عائلة لَوباجه. واسمي بَرَقَت[1]

ــ اسم أديغي جميل يا كبير!

ــ أتشتهيه أم تستكبره عليّ؟

[1] وهو نفسُه اسم الأسرة الذي انتحله شواي في الأسر. المترجم.

_ أشتهيه، ولكن لا أنكر ما خطر لي نحوك. لا أظن مهنة الراعي تليق بعمرك؛ ألم يجد آل لوباجه أصغر منك ليعمل راعي غنم؟

بعدما ضحك برقت من أعماق قلبه أجاب:

_ ما لمحت به إلى آل لوباجه ذكّرني بقازان قوه جباغ[1]؛ أسمعت سيرة هذا الرجل الحكيم؟

_ أيمكن ألا أسمع سيرة جباغ يا برقت؟

_ اسمع إذن! ولكن أقول لك سلفاً: أنا لا أقارنك بجباغ ولا بأحد الفارسين: جاء فارسان من مكان بعيد إلى قازان قوه جباغ ليكتسبا بعض الحكمة. وعندما وصلا إلى بيته وسألا عنه قيل لهما " هو مع المرأة في الحديقة يشتل البصل " قال أحدهما:" والله لن أقابل، بداعي اكتساب الحكمة، رجلاً يزرع البصل مع امرأته" أما الفارس الآخر فدخل، وعندما أُخبر جباغ أن عنده ضيفاً ترك الحديقة وجاء إلى المضافة. وبعدما جلسا وتحادثا سأل جباغ: ألم تكونا فارسين أيها الضيف؟ أين رفيقك؟ لم يكتم الضيف عن جباغ أن رفيقه رجع. قال جباغ: أنا في طفولتي كنت مع أصدقائي أركب الحصان الخشبي, وعندما كبرت قليلاً عملت مع رفاقي على صهوة الحصان. وحرثت بالمحراث، وحصدت بالمنجل، وحششت بالمحشة. وبعدما هرمت أزرع البصل مع المرأة لأن جسمي لا يستطيع غيره؛ ليس هناك عمل صغير إن لم يصبح الرجل صغيراً.

_ الإنسان العاقل يتميز في كل مكان يا برقت. ظهر من صوت شواي البريء أنه نادم على ما بدر منه. صحيح ليس هناك عمل صغير بل رجل صغير.لم يكن قصدي أن أسيء إليك يا كبير فسامحني! " فكِّرْ ثم تكلَّمْ، وفتِّش المكان ثم اجلسْ " صدق من قاله. لم أستطع أن أطبق هذا المثل والحال أني أضمر لك الخير.

_ لا يا شواي! ليس لأن ما في قلبك نحوي لم يظهر في استيائك من مهنتي. بل يسرني أنك حرصت عليّ وأشفقت. عندما تُمضي يوماً كاملاً في الريف وحيداً يجب أن تتكلم، ولذا رويت لك هذه الحكاية التي استتبعها سؤالك. ولكن لا أظن أنك عرّجت عليّ من أجل أن تلقي التحية. على ما أرى أنت مهموم بأمر ما؛ إن كنت أنفعك في شيء فقل لي وأنا أجيبك.

_ أكذب عليك إن قلت ليس في الأمر شيء من هذا. بل عرّجت وأنا مرتاح لفعلي وسلّمت، اكتسبت منك حكمة " ليس هناك عمل صغير بل رجل صغير ".كنت أنوي إن كنت من لوستان حبله أن أسألك عن أخبار أسرة قانتات.

_ إن كان هذا فعندي أخبار عن آل سلطان ولو لم أكن من لوستان حبله. أنا راضٍ عنك لما فعلته بمحمد جري ذي القلب القوزاقي. ولكن لم يعتبروا بما حدث لهم فلا تزال عيونهم نحو معبر النهر وظهورهم إلينا. أرى أنهم مسرورون لما حدث للشابسغ في الشهر الماضي.

[1] شخصية شهيرة بالحكمة وجُمعت أقواله ومواقفه. المترجم

_ عيب أن تشمت بمأساة أحد حتى لو كان عدوك نفسه _ أجاب شواي وقلبه يقطر ألماً مما قاله العجوز المسرور.

_ سواء أكان عيباً أم حراماً فالأمور تجري هكذا. ويدرّسون صبياً لهم ذا رأس مدبب اسمه خان جري في تلك القلعة القوزاقية. والعجوز التي سألتَ عنها تقيم في تلك القلعة إن لم أخطئ. ماحاجتك إليهم يا شواي؟ اشحذْ رجولتك وسُنَّ سيفك وقوِّ قلبك الأديغي؛ فالقوزاق، أصحاب آل سلطان، الذين أقاموا قبالتنا؛ لن يدعونا نهنأ بالعيش!

بعدما مشى قليلاً قال شواي في نفسه: لو عرفت الراعي العجوز سيكلمني هكذا لما تكلّفت وعرّجت عليه. هكذا الأمر: على قَدَر الأشخاص تتعدد الآراء. وكلٌّ يعكّر الدنيا برأيه. أحدهم قوزاقي والآخر تركي، والثالث فقير والآخر غني، وهكذا يصبح من الصعب أن تحدد اتجاهك واعتمادك. يقتلعون قبعة من يعلوهم، والمغمورون يضيعون بين أمثالهم. يفارق الدنيا بطعام بطنه دون اسم ولا شهرة. وهذا الراعي العجوز من آل لوباجا من هذا الصنف الأخير. وأنا لا أطنني خارج هذا التصنيف؛ أحمل نصيبي من الاعوجاج في هذه الدنيا.

انتبه شواي من لحظة دخوله إلى لوستان حبله إلى نِظرة الناس له ومتابعتهم لحركاته , وبينهم من ألقى عليه التحية في الشارع، ومن أدار له ظهره، ومنهم من كان مهتماً بكيفية استقبال آل سلطان له إن وطئ عتبة دارهم. وليسوا قلائل من قالوا: كيف رجع هذا إلى هنا؟!

ترجل شواي وقلبه يخفق. وما إن فتح الباب حتى شرع ينتحب بصوت يرجّ الدار ويسمعه الجميع. خطا بضع خطوات وناح وقد لفّ العمود بذراعيه دون أن يطأ المصطبة..." من أين آتي بك أيها المسكين محمد جري؟ جعلوك تترك أسرة من الأطفال أيتاماً؟! "

كان أول من خرج من البيت عادل جري ثم سعيد جري فخان جري، ووراءهم سيسور تكمّ شفتيها بيديها عاجزة عن الكلام. وأسرع قايمت وحاج قسي نحو الفناء. وأطلت طباخة من شباك المطبخ القائم في ركن قصيّ، وتوقعت ألا يكون هناك خير فأسدلت الستارة. وجيران الشارع عيونهم على الدار لا يعرفون ماذا يقولون أو يفعلون.

وقفت قانتات السيدة الكبرى للبيت أمام عتبة الباب وقالت لمن أمامها:

_ ابتعدوا لحظة عن هذا الذي ملأ الدار صياحاً!

_ شواي يبكي يا جدتي _ قال عادل جري فجأة.

_ لأنه يعرف نفسه، يعرف جريمته _ اغرب عن وجهي أيها الشرير!

صرخت سيسور من بين كفيها وأسرعت إلى داخل الغرفة.

صحا شواي وكأن الكلمات الجارحة التي أمطروه بها حررت العمود من بين ذراعيه، فكفّ لحظة عن النحيب وصرخ:

_ أنت تظلمينني يا قانتات!

_ أنت من زمان تتحمل وزر هؤلاء الصبية؛ أين كنت إلى الآن؟

_ يتهمونني بما لم أفعل يا أمي؛ انفجر صوت شواي.

_ لستُ أمك. ولا " قانتاتك "؛ لا تنادني بهذه الألقاب!

_ لا تقولي هكذا يا جدتي _ لم يطق خان جري صبراً _ ومشى إلى الجهة التي يقف فيها شواي فاعترضته قانتات:

_ ارجع يا خان جري!

قال شواي الآن بصوت ألطف:

_ لا ألومك مهما قلت لي يا قانتات _ ثم التفت عندما وصل إلى باب الدار _ ولن أستطيع إلا أن أناديك باللقب الذي تمنعينني منه، ولكني سآتيك بمن جعلني أغيب حيث كنت هذه المدة، وافترى عليّ ما لم أقترفه ظلماً، وسأجعله يمثل أمامك.

لم تفارق قانتات السيدة الكبرى المصطبة حتى ركب شواي ورحل. ثم بعدما وقفت لأياً تهز رأسها قالت للصِبية:

_ ادخلوا الغرفة! وعاتبت الكنة التي توسع الطريق إلى السقيفة منفِّسة عن ضيقها _ يا كنتي يا بيكا ألم يتألم قلبك حين حدث في الدار كل هذه الجلبة ؟ أين كنت؟

_ كنت وراءك، ولكنك لم تريني أيتها السيدة الكبرى.

_ أي مصيبة هذه التي جاءتنا يا كنة؟! ألم تسمعي ما قاله شواي عند الباب؟

_ سمعت أيتها السيدة الكبرى.

_ أظن أن طارئاً حدث في هذا الموضوع..

_ لا أعرف يا حسرتي أيتها السيدة الكبرى، لا أعرف...

عندما دخلت قانتات غرفتها دخلت معها بيكا والأولاد إلا سيسور.

جلس خان جري وسعيد جري، على عادتهما، على المقعد المقابل للسرير الكبير. وعاد عادل جري الذي لم يتحرر بعد من تأثير الأحداث فرجع أصغر مما كان، فاختبأ وراء جدته قائلاً أنت حاميتي الوحيدة. ولم تجلس بيكا في حضرة السيدة الكبرى للبيت فوقفت بجانب الفرن.

كسرت قانتات الوجوم:

_ أي مصيبة وقعنا فيها يا كنتي؟ اغفر لي يا إلهي إن قلت ما لا يجوز أن يقال! تمزَّق صوت قانتات ولكن سرعان ما عاد إليها وعيها فقالت دون سبب واضح: _ اجلسي يا كنة! كنت خرجت اليوم من القلعة مرتاحة القلب... كنت أنوي أن أُطلع خان جري على أرض والده القديمة وأُسعده بمؤانسة إخوته في يوم الراحة الوحيد. ولكن ليت الدنيا كما تريد... يا كنتي أيمكن أن يكون كلام شواي صحيحاً؟

قال خان جري نيابة عن والدته:

_ يا جدتي شواي لا يخدعك.

_ نعم يا خان جري ؟ ! _ جعلها الكلام الذي سمعته ترفع رأسها فجأة.

_ نعم يا جدتي، نعم. شهد خان جري على كلامه بنبرة أقوى وأحزم.

_ إن كان الأمر هكذا _ قالت قانتات بصوت لا لُبس فيه _ أين كان إلى الآن؟

_ لا تشهدْ على ما لا تعرف يا خان جري! _ تدخلت بيكا في الحديث بسرعةٍ ناصحةً ابنها، لينةً معه، وإن كانت توافق حماتها ظاهراً _ لا تظن أن كل رحمة صادقةٌ!

_ حقاً ياكنة، حقاً _ وافقت قانتات جزعة من أن يقول خان جري كلاماً غير مناسب_ يستوي شاهد الزور والكذاب.

_ ولكن يا جدتي _ أفلت من عادل جري ما كان يُهمه _ شواي بكى!

_ بكى يا صغيري بكى _ لاطفت قانتات الصبي وقد أجهشت بالبكاء، ثم أردفت وقد رجع شواي وارتسم أمامها يهمّ بالبكاء فغدا صوتها ألطف _ أليس هذا ما يمنعنا أن نقرر؟ لم يكن من عادة شواي السخاء بالدموع حتى في صغره. ولكن من أجل هذا قالوا "كذبة واحدة تصدأ بسببها مئة صَدْقة ".. وأنت يا سعيد جري لماذا لا تقول شيئاً؟

_ أنا ؟ _ جفل سعيد جري من السؤال غير المنتظر.

_ أنت يا صغيري؛ يقولون " إن لم تجد من تستشيره فضع قبعتك قبالتك واسألها "؛ وأنت ذو قبعة؛ أسألك.

_ أنا ماذا ؟ أوافق على ما يقوله خان جري.

_ لا أعرف يا حسرتي، لا أعرف... _ هزت قانتات رأسها وكأنها ترضخ.

_ أنا يا جدتي، أنا ؟ _ هجم عادل جري على يد جدته وأمسك بها كأنهم يحرمونه من شيء يوزَّع.

_ اسكت يا عادل جري! لم تقبل الأم _ لا تقلل الأدب!

_ أنت ماذا يا ولدي؟_ نظرت قانتات إلى بيكا بِوُدٍّ، وسألت الصبي ومسحت على رأسه _ وأنت لم تقل ما هو عيب يا عادل جري _ ودون أن تتوقف لا تكتم إلى من توجه كلامها لامت نفسها: _ أنا الوحيدة الشكاكة بينكم... سننتظر ما يحدث. ياكنتي أين سيسور؟ هذه البائسة وقعت في مشكلة.

_ أأستدعيها لك يا سيدتنا الكبرى؟

_ لا.. لا أريد أن أتدخل بينهما على نحوٍ مكشوف؛ ماذا أقول لها؟ ما يزال أمامنا وقت. هذا هو الواقع. تنهدت مرة أخرى عميقاً _ من أجل هذا قالوا " أحدهم راجل والآخر فارس " أظن ياكنتي أن الأمل قد رجع إلى هذين؛ وأنتِ والمرحوم محمد جري هما اللذان فقدا كل أملٍ لهما إلى الأبد.

عندما انصرفت بيكا والأولاد وبقيت قانتات وحيدة غلبتها الدموع التي قاومتها خلال الساعات الماضية فبكت بصمت حتى ابتل منديلها. ظنت قانتات أنها فرّجت عن ضيقها، ولكن الأفكار التي هاجت من جديد هاجمتها: ما لا يفارقها هو بكاء شواي وعناقه للعمود. وعندما تُنحّي جانباً ما قالت له وقال لها وتفكر من جديد يعتصر الألم قلبها ويلد السؤال سؤالاً.

عندما كان شواي ينتحب ماذا كان يقول؟ مرة أخرى شيء ما عصر قلب قانتات " إيه يا محمد جري المسكين من أين أسترجعك؟ جعلوك تترك أسرة من الأولاد يتامى... من أجل كلمة خرجت من فمي في وقت ما يتهمني قاتلك بما ليس ذنبي... لوعرفتَ ما حدث لي لكنتَ أول من يمد لي يد العون. " مهلاً مهلاً! ما المصيبة التي كان يبكي لها شواي؟ كان محمد جري ما يزال حياً بالنسبة إلى شواي؛ ألا يمكن أن يكون هذا هو السبب في أنه لم يزرنا إلى الآن؟ أنا أحاسبه على هذا دون أن أعرف خبره... كل شيء يمكن أن تدفعك المأساة إلى فِعْلِه. طردتُه من داري التي ربي فيها،لم يردعني رادع عن هذا التصرف، وأمام أولادي؛ وأنا العجوز الهرمة. وإن لم يكن هو فمن قتل المرحوم محمد جري؟ يا إلهي إن كان الأمر هكذا، وكرمى لشواي الذي بكى من أعماقه كل هذا البكاء، فدُلَّنا على من فعل هذا _ كائناً من كان _ ولو كان إحدى عينيّ. ليس نحن فحسب؛ بل ليعرف كل من يود آل سلطان ومن يكرههم. كنت أنت مَن يشْبهُه محمد جري ببراءة قلبه. وبعدك أنا من كان يعرفه. لا أقول: لم يكن له أعداء، ولكني متأكدة أنه لم يكن عنده عدو معين. أيمكن أن يكون لأنه اتجه نحو القوزاق؟ لا أظنك كنت تجهل ما كان في قلبه.

سقطت فجأة يدا قانتات المعتمدتان على العصا. وغطى عرق بارد جبينها بسبب الضيق والحمى اللذين انتاباها. ولكنها صبرت ولم تتحرك مهما داخ رأسها أو تألم صدرها.

وسمع صراخ من جهة الدار:

_ جدتي، سعيد جري يضربني!

_ لا تُهن أخاك الصغير يا ولدي _ صاحت قانتات من النافذة.

_ لا يكسرْ غصن الشجرة إذن! أجاب سعيد جري مبرّئاً نفسه.

_ ألم أقل لكما أن تكفّا؟ ألا تريان ما تعاني الجدة؟ لام خان جري أخويه.

_ تركت قانتات النافذة وهي تردد " يا ولدي اللبيب الصغير أنت الوحيد الباقي لي لأعتمد عليه " فتشتِ الغرفة بنظرات قلقة ورجعتْ إلى موضوع شواي الذي ما كان يدعها تستريح. أكان مجبراً على ما فعل يا تُرى؟ لا، لا، من يحتاج إلى هذا؟ ليس أميراً ولا نبيلاً ولا صاحب ملك على حد تعبيرهم؟ إن انقطعت طريقة عيشه التي اعتادها وظن قلوبنا نحن هدأت، فالفقير لا حدود لما يلجأ إليه. أكان يريدنا أن نشفق عليه ويعود يأكل من خبزنا ويتآمر علينا في داخله؟ هذا هو؛ وإلا، فأينما كان،هل قَطَعوا عليه الطريقَ كل هذا الوقت ؟ لم يبق صغير أو كبير في بلاد الأديغة لم يسمع بمصيبتنا. مهلاً، مهلاً! ماذا قال بخصوص محمد جري؟ هذا هو" لو كنت تعرف ما حدث لي لكنت من يمد لي يد العون " إيه أيتها العجوز المجنونة؛

لم تدعي المسكين يقول ما يريده. كفى الآن! ومن أجل مَن أفني نفسي؟ الجرح الذي في قلبي انتكأ من جديد. وهذا ليس دون سبب. الله عادل وسيميز البريء من المذنب، وسيظهر إن كان شواي ظالماً أم مظلوماً.

III

حين فارق شواي باب دار الإمارة تتقاذفه الإهانة والمصيبة، متهماً بما حملته إليه شفقته واستقامته كانت شمس الخريف الراكدة بدأت تغيب وراء السماء التي بلون الأرض العارية.

لم يكن شواي مهتماً، وإن كان على صهوة الحصان، بالبيوتِ التي يتركها وراءه والناسِ الذين يتعقبونه بنظراتهم. خلال نصف ساعة يترك القرية التي أمضى فيها طفولته وصباه كإنسان، ويترك فيها حبه الأول وهو لا يريد إلا أن يسلك طريقاً لا يراه فيه أحد من الناس الذين صاروا له أعداء أغراباً يلاحقونه بمئات العيون. خفف سرعة حصانه على تخوم غابة تغرغوي، ولم يعِ أنه ما يزال حياً وأنه أسير الإهانة التي بلا جواب إلا عندما بدأ يتصبب عرقاً. عرف ظلمه للحصان المرتعش من الرعب عندما نظر إليه الأخير بعينين واسعتين وذكيتين. لان قلبه قليلاً وقد خجل من نفسه. مسح على رقبته بكف حارة ناعمة عدة مرات يرجو منه العفو. ثم أمسك عُرفه باليدين وحضن جبينه. وظل إلى جانبه بعينين مغمضتين صامتتين حتى هدأ نبضه. فقال له:

_ هذه هي الحال! لنمضِ فتستريحَ أنت،وأغسل أنا وجهي بشيء من الماء البارد!

لم يبحث شواي طويلاً في مخرج الغابة؛ اقترب مع الحصان من الشجرة الكبيرة المائلة إلى السواد التي نفض الخريف المتأخر أوراقها النحاسية، والتي تنتصب مقابل قصب المستنقع. استقبله ماء الجدول الفضي بالضحكات. رفع السرج عن الحصان، وحين رأى البخار يتصاعد منه غطاه بكسائه. ثم جثا أمام الجدول على ركبتيه وأخرج الأوراق المتراكمة أمام النبع والتي تلجم الماء.

رشق شواي وجهه ببعض الماء البارد، وملأ راحتيه منه مرتين. وتابع بعينيه الأمواج الفضية التي تتناثر مبتعدة، وتنهد.

قال شواي " أنت وأنا متشابهان؛ كم أنت قليل الصبر، تصدم الصخور في طريقك ويوقفك ما يطفو على سطحك. ولا ينقص معروفك وإن هشّمتْ أنفك وضللتك عن الطريق. ولا يتوقف جريُك. وكل من ينظر فيك تُشعره أنك حي. لا تضر أحداً بل تنفع. وأنا؟ الآن أنا ربما أضُرُّ من أحسنوا إلي منذ طفولتي. يعتقدون أني قاتل محمد جري. والخبر الذي نشروه في الشارع وفي المضافات صدّقته قانتات... وظل قايمت وحاج قسي يراقبانني واقفين لِصْقَ سور الإسطبل... وسيسور؟ أظنها الوحيدة التي كان موقفها صادقاً مني... وخان جري؟ كان قد لام قانتات وتوجه إليّ لولا أنه لم يُسمح له "

قطع صوتُ الحصان المِكِبِّ على الماء الجاري، يشرب منه، أفكارَ شواي. ارتشف مزيداً من الماء ثم نهض. وركب كما ترجل بسرعة. وحين خرج من الغابة خبباً هبّتْ في وجهه أفكاره من جديد.

قال شواي لنفسه: كم كبر خان جري هذه السنة على نحو ملحوظ! مظهره ونِظرته وطريقة كلامه تشهد على تحوله. أفَهِمَني أم أشفق عليّ؟ من أين لخان جري أن يعرف إن كانوا يتهمونني ظلماً؟ ومع ذلك كان مفيداً لو قابلته. يُخيل إلي أنه سيفهمني ويقتنع ببراءتي. لست بريئاً تماماً مما حدث لمحمد جري. وضعتُ كلماتي إليه التي لا معنى لها حججاً في أيدي أعدائه. ومحمد جري ــ ليوجهه الله إلى الخير حيث رحل ــ ألم يربّني على مكاشفتي بأفكاره؟ لو أنه أطلعني على أفكاره بشأن القوزاق وأقنعني بصحتها لوعيت إلى نفسي في ما يتعلق بقضايا القوزاق! لا أنكر أن أشهُرَ الأسْر الثلاثةَ جعلتني أفكر في كثير مما لم أفهمه في سنوات عمري الثلاثين. ولكن هذا لا يعني أني توجهت كلياً نحو من أسروني. الأمر الوحيد المتأكد منه هو أن من الأفضل ألا نتعادى ولا نتجابه ولا ينظر أحدنا شزراً إلى الآخر. مهما قال طرف بحقِّ الطرف الآخر فنحن أبناء ضفتي نهر واحد. لا يسألنا النهر حين يسقينا ويبقي على حياتنا، بل حتى عندما يُغرقنا، من أي دين أنت ولا من أي عرق، ولا ما نواياكم. ولذلك حين تلاسنّا أنا ومحمد جري حدث معي ما يحدث لمن يلعق الصَّبِرَ المرَّ فينسى أنه بقي في الدنيا شيء حلو. نسيت أن الشجرة المريضة لا تورق، وشرعت" أحش الحشيش من رصيف الطريق المغبرّ ". حقاً نحن نعيش في هذه الدنيا المعقدة نتصارع. ما إن أنتهي من قضية ابن بادنكا حتى أسافر إلى جهة القلعة القوزاقية وأروي لخان جري ما لم ترض قانتات أن تسمعه مني. لن أرضى إلا أن أحضر إليهم قاتل محمد جري.

رفع حصان شواي أذنيه من الظلام فجأة وهو ينزل من سفح المرتفع. قابله في المنعطف فارسان يغطيان رأسيهما بغطاء قماشي، ولما كان شواي مستعداً للمفاجأة قال وهو يفسح لهما الطريق:

ــ رافقتكما السلامة!

ــ ورافقتك! ــ أجاب الفارس الذي على اليسار، ثم عطف مؤخرة الحصان وقال بصوت شاب: أي فارس وحيد يتجول في منتصف الليل؟

ــ اتركه؛ لا تُحادثه! قال الفارس الأيمن دون أن يوقف حصانه.

ــ يقول كبارنا إن فرسان نصف الليل لا يتعارفون في الطريق ــ أجاب شواي بإتقان.

ــ إن كنت تقول هذا لأنك تخاف على نفسك فأنا أعرّفك بنفسي: أنا من قرية مرجان، وإن كنت سمعت اسمي فأنا قَغَزَج.

ــ ها! ــ تعجب شواي وقال: والله سمعت باسمك.

ــ قلت لك امشِ ــ لم يقبل الفارس الذي لم يتوقف، وخيل إليه أن صوت الفارس الذي أجاب ليس غريباً

ــ لا تعاند فارساً لا تعرف هويته في منتصف الليل.

ــ أعجيب إن كان منتصف الليل؟ أجاب رفيقه ــ منتصف الليل مختبَر للرجولة. ــ وأجاب الفارس الآخر الذي يناقشه بصوت أشد إحكاماً: إن كنت سمعت فهذا هو، وأنت لماذا لا تكشف عن شخصك؟

_ إن كان خورلوقوه مرجان يسمح لك أن تقترب منه _ لم يتمالك شواي رغم أنه يكظم مشاعره إلا أن يجيب بفوق الذي يستفزه _ فسلم عليه.

_ وكيف لا يسمح لي مرجان أن أخالطه... أنت تهينني.. ومع ذلك أسامحك كرمى له؛ بأي اسم أبلغه سلامي؟

_ قل له: شواي، وسيعرف.

وحين سمع الفارس الثاني الذي كان يشك في شخصه من خلال صوته اسم شواي حث حصانه، وكما يفعل اللصوص أمر الحصان أن يركض خبباً.

وبعدما مشى شواي مدة لم يستطع إلا أن يعود إلى ما كان يقلقه. لماذا تصرف الفارس الذي مع بفوق بهذه الطريقة القبيحة؟ ظل يتصرف كأنه مهتم بي وغير مهتم معاً إلى أن سمع اسمي فأسرع في مغادرة المكان معبراً عن عدم احترام لي. أقول إنه لا يعرف اسمي، ولكن بعد مقتل محمد جري يقال إن كل بلاد الأديغة صارت تعرفني. أيكون اسمي أفزعه؟ بامبت شابسغ؟ ما الذي يجعله يرافق بفوق؟ لماذا لا؟ "الذئب مولَع بتربية جروه ".

كان الصبح بدأ ينبلج عندما لاحت ناشحة، قرية أغوي بشه ماف، متناثرة على المرتفع. مشى أمام الحصان حوالي نصف ساعة كي لا يدخلها مع الفجر ولا يُفزع الأسرة. ثم نزل به منحدر المشاة القاسي ممسكاً بلجامه. وارتقى الطرف المرتفع دون صعوبة تذكر، مجتازاً السهل الذي تخف فيه الغابة؛ فبدت القرية على المنحدر وقت احتساء الناس للشاي.

ولحظة دخول القرية التقى بعربة يجرها حصان وحيد ،يركبها كهل بقبعة منخفضة مهترئة. سلم عليه الكهل برفع مؤخرته قليلاً وقال:

_ يقال: "ضيف الصباح يأكل القشدة "؛ تفضل أيها الضيف!

_ دارك عامرة يا كبير _ وسأل شواي الرجل وهو يرد السلام _ ما أخباركم، عسى أن تكون القرية التي تأتي منها في سلام.

_ يا حسرتي أيها الضيف! من أين نأتي بالسلام الآن؟ ما إن قلنا إننا انتهينا من مأتم الأحد عشر رجلاً من قريتنا الذين سقطوا في سهل قلش حتى توفي أحد جرحى المعركة أمس. وهو الابن الوحيد لأمه. نصحوه ألا يذهب إلى المعركة فرفض البيتمال قائلاً: ألا أكون جباناً إن لم أذهب حيث تذهب القرية؟ أمه أرملة، لا أعرف من أين ستعيش الآن بعدما بقيت وحيدة. والآن تتردد في القرية إشاعة تقول إن القوزاق سيغزوننا وسينهبوننا. أنا لا أستغرب هذا أيها الضيف فإن من تغزوه لا بد أن يرد عليك إن عاجلاً أم آجلاً. هذا ما يحدث. ما جعل الناسَ يقولون: " إذا قابلت المجنون روى لك أخباره " هو واحد من أمثالي.

_ لم أسمع ما يعيب أيها الكبير! رافقتك السلامة.

ـ شكراً لك. ولكن طريقي ليس بعيداً. أذهب إلى جانب المرتفع حيث التراب الأحمر لأن ربة البيت تريد منه لإصلاح فرنها، ليس ما أذهب لأجله ضرورياً، سأغير طريقي، تفضَّلْ معي!

ـ شكراً لك يا كبير. لا أريدك أن ترجع لأجلي؛ نلتقي على الخير إن شاء الله. وأنا عندي شاغل ما في هذه القرية.

ـ ربما تقصد توغوظقوه قازبك العظيم.

ـ والله ياكبير قازبك ممن أريد رؤيتهم، ولكني الآن متوجه إلى أغوي بشه ماف.

ـ وأغوي بشه ماف لا يُعاب بشيء، يذكره الناس بالخير. ولكن لا أعرف كيف أقول لك؛ صاحَبَ رجلاً قميئاً من قرية "جنج بسنه" اسمه بامبت، هو في الحقيقة لم يتصرف معي بسوء ولست من محدثيه ولكن يذكرونه بالسوء، فأربأ بهذا البيتمال بشه ماف أن يصاحبه. وأنت حبذا لو تلمّح له عندما تقابله.

تغير لون شواي حين سمع اسم بامبت، وأخفى اضطرابه بمشقة، وأجاب كأنه يجهله:

ـ إن كان من ذكرتَ اسمَه سيئاً إلى هذا الحد فسألبي رجاءك يا كبير. وأنا لا أحب أمثال هؤلاء الأصحاب.

أولُ مَن لمح الفارسَ الذي ربط فرسه بمربط البيت هو بشه ماف. خيل إليه أن الفارس المدير ظهره هو أحد ضيفيه أمس. بامبت؟ لا، لأن كتفيه ضيقتان ليستا ككتفي من يراه. رفيقُه الشاب قغزج؟ ما أبعد الفرق بينهما! لا يساوي نصف جذعه. ولكن تخمينَ بشه ماف الآن جعله يقفز بتفكيره، وما رآه أطلق صُراخَه:

ـ شواي؟.. هيه يا من نمّى الله نسله! هذا أنت؟ يا مسكين! ظننتك بامبت.

ـ أعرف يا بشه ماف، أعرف.

تعانق الرجلان بنظرات الفرح، وصاح بشه ماف:

ـ لم أتوقع أن أراك في ما تبقى من عمري.

ـ وكنتُ حقاً في وقت من الأوقات في مثل هذا الموقف.

ـ قال لي بامبت إنه استلم جثتك من القوزاق ودفنك بيديه، وعلى شاهدة قبرك قرأنا الأدعية لك وصلينا.

ـ إذن ـ ضحك شواي ـ سأعيش طويلاً[1]

ـ يا للعجب ما يحدث نوع من المعجزة! لنمض إلى الغرفة، لماذا نحن واقفان هنا؟ ـ أمسك بذراع شواي كأن أحداً سيسلبه منه ودخل به.

ضحك شواي مرة أخرى وهو يجلس:

ـ من منا يقول الحقيقة الآن يا بشه ماف؛ بامبت أم أنا؟

---

[1] عند الأديغة أن من يُشاع خبرُ موته يعيش طويلاً. المترجم.

_ وتسأل عن هذا؟

_ اسمع إذن ما حدث لي...

قال بشه ماف بعدما جلس قليلاً مغضياً وكأنه يحمّل نفسَه مسؤوليةَ ما عاناه ضيفه:

_ إيه يا شواي يا أيها البائس! أي مصيبة كنت فيها؟ _ تنهد عميقاً وأضاف: _ الآن فهمت، عرفت مَن قتلَ محمد جري وحمّلك ما لم تفعله. كان إلى البارحة في مضافتي ورفيقه ذو الأنف السائل صدع رأسي بثرثرته. يا للأسف كيف لم أشكّ في شر بامبت إلى الآن؟ جعل الحزن عيني بشه ماف تتعكران _ عارُك عاري ياشواي، وسلاحي سلاحك، وثأرك ثأري. وإن قلت: الآن،فأنا حاضر.

سكت شواي عن الجواب قليلاً ثم قال:

_ أمامي مهمة أشد إلحاحاً من بامبت. لابد أن أجد الفتى القوزاقي؛ أعطيتهم كلمتي.

_ والله يا شواي ونحن أيضاً بحثنا عن هذا الفتى القوزاقي الذي تتحدث عنه.

_ من رجاكم أن تفعلوا؟

_ بحثنا عنه أنا وبامبت بناء على رجاء قانتات السيدة الكبرى. والآن فهمت لماذا لم نجده، لا في الشابسغ ولا البجدوغ.

_ على ما يبدو_ ابتسم شواي _ "كان الذئب راعيكم ". كيف عرفت قانتات بموضوع الفتى القوزاقي؟

_ يقال إن أتامان القوزاق ماتفييف رجاها.

تنهد شواي:

_ وأنا الذي كانوا قد نسوه!

_ لا أريد أن أتهم أحداً باطلاً، لو كانت قانتات تعرف شيئاً عنك لأخبرتنا.

_ هذا صحيح، ولكني أتحمل جزءاً من المسؤولية.

_ كيف؟

_ لم أخبر القوزاق بأصلي حتى أفرجوا عني.

_ لم يكن تصرفاً صحيحاً. لا أظن قانتات من النوع الذي يمكن أن يهملك.

_ من حسن حظي أني كتمت اسمي، لم أكن أعرف أني قاتل محمد جري؛ أظن إخفاءه حماني.سُرّ شواي في داخله بما فعله.

_ هذا حق _ قال بشه ماف، ثم سأل بما ينمُّ على أنه تذكر شيئاً _ يا شواي أكنت في نواحي توبا في بلاد الأبزاخ؟

_ إن كنت تتكلم على بانتالي فقد بحثت في أرجاء الأبزاخ ولكن لم أصل إلى توبا البعيدة؛ لماذا تسأل؟

_ لأني سمعت بامبت يقول في نبرة دعابة: لا أعرف، لم يبق إلا أن نبحث عنه في توبا البعيدة. بامبت مثل الزئبق؛ لا مكان لا يصل إليه شره.

إن كنت تخمِّن مثل هذا _ قلق شواي وتفرس في وجه مضيفه وكأنه هو الذي يمارَس معه الخبث. ثم قال متلهفاً بعدما قضى بعض الوقت كالغائب عن المضافة _ لا بدّ من أن نصل إلى توبا قبل أن تثلج، لو صاحبتني!

_ لا حاجة أن ترجوني يا شواي. استرح أنت وحصانك اليوم وغداً ننطلق مع الفجر.

IV

لم يكن بامبت مهموماً بأنه يترك رفيقه الفارس في الظلام . ليس في ذهنه إلا أن يبتعد بقدر ما يستطيع. همه الكبير الآن أن يعرف: أهرب شواي من القوزاق أم أطلقوا سراحه.

لم يتعرفني؛ قال بامبت متأثراً بما يجري خلفه. لو شكّ فيّ لكان لحقني. صحيح ما يقولون "لا تُفْشِ سرك في الغابة ولا في الليل " حسناً فعلتُ حين غيرت صوتي قليلاً. ليس لأني أخاف منه ولكن الأفضل أن تتجنب الخنزيرَ البري الجريح. مثل هذا يستحق أن تكمن له وراء شجرة، لا يعرف من أين ستأتيه الضربة، ثم تفاجئه وتكسر له ظهره ما إن يعرِض لك. لماذا لا يكف عن السفر ليلاً كأن لا نهار بعده؟ أكان يفعل هذا لولا أنه يبحث عني؟ لا يجري لي من مصيبة إلا بجريرتي. لا شك الآن في أنه لن يدعني أعيش. ولكني أنا أيضاً " لا أشرب الماء من أنفي ".

سأله بفوق الذي حاذاه من اليسار:

_ كيف لم تتوقف عندما نطق شواي اسمه؟ ألم تكونا صاحبين؟ أفترقتما؟

لم يجب بامبت.

وبعدما جريا مدة سأل بفوق ثانية:

_ أيكون شواي أساء إليك؟

لا يُسمع بين الراكبين إلا صوت الحوافر.

لماذا متكتم على أمره هذا الرجل؟ قال بفوق. لم يكن عنده همٌّ في الأيام الثلاثة الأخيرة غيرُه. كأن مشكلة حدثت بينهما. عندما يبدأ بأخبار شواي ليس قليلاً ما يغتابه وفي الظاهر يمدحه. يقول عنه: إنه اجترح بطولة بحق الخائن محمد جري آل سلطان ثم نجا بروحه. ولهذا نصحه أمس بشه ماف في مضافته. لِمَ اتخذ بامبت هذا الموقف من شواي؟ وقد أثبت هذا الموقف قبل قليل على طريقنا. أيكون لا يثق بي؟ إن كان يعتبرني ما أزال شاباً فهو من لحق بي ولم أرجه أنا في شيء. إن كنتَ قبلتني رفيقاً فلستُ ممن يخرق قانون الأكبر والأصغر. ألبس قبعة وأتقلد سلاحاً فعاملني كإنسان. وإن قلتَ لا فأمرنا سهل جداً: كما رافقتك أفارقك. ولكن لن أدعك تتهرب من جواب سؤالي:

_ والله يا كبير لا أفهم سكوتك.

لا يزال بامبت الصامت يحث حصانه. ويطلق بفوق العنان لحصانه فيلحق به.

وعندما تجاوزا طرف الغابة سأله صراحة:

_ بامبت؛ أأسأت إليك؟

وسمع جواباً قاسياً:

_ أغلق فمك يا ولد!

صرخ بفوق وراءه وهو يسمّر الحصان مكانه:

_ يا كبير؛ ما قلتَه لي ليس من حقك؛ اسحبه!

وأوقف بامبت حصانه مجبراً إياه أن يميل على جنبه:

_ أأنا من قال لك ما لا يجوز؟ ألست من جعل من فارس الليل محدثاً له؟

_ أهذا ما أساء إليك يا كبير؟

_ لا تعاند بعد الآن فارساً في منتصف الليل!

_ هذا صحيح والله يا كبير. _ سحب بفوق كلامه غيرَ منكر رياءه _ لأني لم أُطق الفارس الذي خرج من الظلام فجأة. هو وحيد ونحن اثنان.

_ لا يندر أن يشتت فارس واحد مئة، هذا ليس مقياساً. لان صوت بامبت _ سلِّمْ على من لا تعرفه وامض. امش الآن! أنا قلت لك ما يجب عليّ،وأنت اعمل ما عليك.

_ والله هذا حق يا بامبت _ كرر بفوق كلامه كعجوز،وتبعه كأن لم يكن بينهما شيء. وبعدما وقف إزاءه أضاف: _ ثم يا بامبت أي مصادفة جمعتنا بشواي؛ كنت أتعجب من عدم توقفك.

_ سأجيب على هذا السؤال وأنا أشد رضا يا قغزج _ سُمعت ضحكة خفيفة من بامبت وقال بصوت أكثر إقناعاً: _ لأني اعتبرت هروبه بعدما قتل محمد جري آل سلطان جبناً. حتى لو ولدته أمي لم أكن أريد، ليس أن أكلمه، بل حتى أن أسلم عليه _ كل بلاد الأديغة تشيد بشجاعته في حين لاذ هو بالفرار إلى عمق الغابة.

كما يقول جاري خورلوقوه مرجان ليس كل من لبس قبعة رجلاً. هذا المسكين مرجان كل ما فعله لأجل خان جري وأنفق عليه وكلُّ تعبِه ذهب سدى. يا ليتني لمحت هذا الولد التافه. ولو مرة. لم يسمحوا له أن تقع عينه عليه منذ استرجعوه من بيته. لو رأيته مرة، لو صفعته مرة؛ ماكنت أطلب غيره. ما أكثر ما ربح مني من كعوب! وما كان يربحه كان يرجعه في اليوم التالي إلى أصحابها إلا أنا. أنا من كان مضحكته ومحط سخريته... والآن هذا " الرجل الخطير" يدرس في قلعة القوزاق. ألا عِلْمَ له بما فعلوا بنا في المستنقع؟

_ بلى.

_ إذن ماذا يقول؟

_ اسأله حين تقابله.

_ وكيف أقابل وجه النحس هذا؟

_ إن أردت أمكنك مقابلته في واحد من ثلاثة. مكان دراسته في قلعة القوزاق، ومعبر نهر بشزة، وداره في لوستان حبله.

_ لا أعدك بقلعة القوزاق _ قال بفوق بعدما مشيا مسافة _ لن أستطيع دخولها ولكن إن وعدتني أن تكون معي فسأدفنه هناك.

_ ولماذا أكون معك؟ _ ضحك بامبت، وقال في نفسه: أنا من يجب أن أرافقه وليس هو من يرافقني! _ أنت من هدد بأن يصفع خان جري!

_ لم أهدِّد فقط _ قال بفوق بنزق: _ سأفعل ما فعله شواي: سأُلحق الخائن بأبيه. دارُهم على ضفة النهر غير محروسة، ولكن ألا يقولون إن هذا المغرور أقام هو وجَدَّتُه في قلعة القوزاق؟

تعجب بامبت: من أين يعرف بفوق هذه الأخبار قبل أن تحدث؟ ندمت على أن جعلت منه رفيقاً، ولكن لا مثيل له في دفعه إلى مهمة ما. كل العنيدين حساسون للإهانة. "أرِه إبهامك فحسبُ ينفذْ لك ما تريد ". وإن شجعته أغار على قلعة القوزاق. لماذا يا ترى يحارب آل سلطان؟ لا أظن لأن خان جري كان يربح منه كعوبه فحسب! أيمكن أن يكون قلبه الأديغي قد انتفض إلى هذا الحد ضد القوزاق الذين يجابهوننا؟ ألا تسمع ما يقول: أنا حاضر دائماً ضد أعدائنا.

_ مهلاً يا قغزج، مهلاً _ خرج بامبت من أفكاره _ لا تستعجل؛ سيأتي هذا اليوم الذي تفعل فيه ما نويت. صحيح أن من سألت عنهم يعيشون في قلعة القوزاق في بيت مستأجر، ولكنهما يعودان عدة مرات في الشهر، في أيام السبت أو الأحد بعد الظهر، إلى القرية.

_ هكذا؟ إذن اختلف الأمر. ولكن إن لم يكن غير لائق سألتك سؤالاً.

_ هذا يتعلق بما تسأل عنه وبطريقة سؤالك يا قغزج _ لم يدع بامبت سائله ينتظره فأجاب بنبرة يختلط فيها الثقة والشك والابتسام وكأنه يقول له: لا تغير رأيك _ قل؛ أسمعك.

_ أود يا بامبت أن أعرف لماذا تكره آل سلطان النغوي وما مأخذك عليهم.

استغرب بامبت ما سمع. وأنا كنت أريد أن أسألك السؤال نفسه ولكنك سبقتني. سأقول لك سِرّي، سواء أكان سؤالك خبيثاً أم بريئاً. سألني أمثالك ومن هم أبلغ رجولة منك. ولكن بما أني لم أصرح به لأحد فما حاجتك أنت إلى معرفته؟ إن كنت تريد أن تعرف فسأطلعك عليه بناء على رغبتك.

_ إن أردت الحق يا أخي الصغير أقول لك كي تفهم. آل سلطان لم يخسّروني كعوبي، ولا دينَ لهم علي. وإن كان الموضوعُ أصلَهم النغوي فلولا أنهم يعيشون في أرضنا ولولا أن فيهم دماً أديغياً لما صدعتُ رأسي بهم. يعيش على الأرض كثير من الناس لا نعرف أصولهم، ولا نهتم بهم. لا يحاربوننا ولا يطمعون فينا.

ولكن ألم نحسن إلى آل سلطان حين لجؤوا إلينا في ضيقهم ؟ ألم نقاسمهم الملحَ والباستا[1] وقطرةَ الماء وأرضنا؟ أمنعْنا عنهم بناتنا بحجة أنهم ليسوا منا؟

_ ألا ندين بدِين واحد يا بامبت؟ _ سأل بفوق بنوع من الخبث وكأنه يعرف ولا يعرف مغزى سؤاله.

_ أعجيب أن نكون من دين واحد؟ صرخ بامبت من بين الأفكار التي كانت تنتثر من فمه رغماً عنه _ والأتراك من ديننا، ولكن لا أسمح لهؤلاء أصحاب السراويل الفضفاضة أن يقتربوا مني. أعلينا أن نتقاسم أرضنا مع كل من هو من ديننا؟ ألا ترى ما فعله بنا آل سلطان هؤلاء الذين تهتم بهم؟ سمحنا لهم أن يخدعونا بابتساماتهم، ثم أرَونا أقفاء رؤوسهم.

_ أتقول إنهم اعتنقوا دين القوزاق؟ سأل بفوق عما كان يقلقه.

_ أتظن من انكبوا على موائدهم بصدورهم يتورعون عن أن يتقبلوهم بقلوبهم؟

_ أكيد لا أعرف ما سيفعلون.

_ أقول لك إن كنت لا تعرف ! _ ارتفع صوت بامبت القاسي رغماً عنه ثم تعجب هو نفسه من أفكاره المفاجئة. أيُّ سِرٍّ خطر لي وكنت أنوي إخفاءه عنه؟ أهو أني انتزعت روح محمد جري؟ من يكشف هذا السر سيلاحقني خطوة خطوة وإن لم أصرح أنا. ولكن أعدك أنه لن تقع عينه عليّ كما لا يرى هو قفا رأسه إلا وقد رحّلته من الدنيا. خير أن تعيش مُقْنعاً الناس أنك مظلوم من أن يثبت عليك لقب القاتل ويتجنبك الناس. أنا قتلت كثيراً من الناس بأجرٍ ودون أجر. إن قلت إني قتلت بقدر ما فرّجت عن همي فليس عجيباً. ولن أورِّط باشا الأتراك في أنابه حسن باشا الذي يحميني، من أجل شواي الذي سأجعله يفارق الحياة حاملاً لقب القاتل. لقد منحني من المال ما كفاني وكفى زوجاتي اللواتي سلبنني مالي. والآن إن سدد لي ما بقي بذمته فسيكفيني أنا وسيسور إلى آخر العمر. ولكن لا بد أن أفهم موضوع شواي. ثم إن رضيت بي سيسور الصغيرة دون حاجة إلى العنف، وأنا إنسان ألم يكف ما رموني به من نظرات الشزر، أأبقى إلى الأبد ذئباً؟ تخلصت من كل ما يشين حياتي واعتزلت بقية حياتي فرحاً بما تحقق لي راضياً بنصيبي. ما شأني أنا بالترك والقوزاق؟ لا أريد إلا ملء بطني وكفاف عائلتي المقبلة. يكفيني أن تلد لي من يستقبلني حين أدخل البيت، ومن يودِّعني،سواء كان لابس قبعة أم لابسة حجاب؛ كنت اعتبرت نفسي عشت حياتي سعيداً لم أمارس القتل ولا السرقة في حياتي.

_ يا بامبت يا كبير _ قال لرفيقه بحذر وهو يظن أن رفيقه الذي كلمه بقسوة قد هدأ قلبه _ لماذا لا تقول شيئاً؟

[1] طعام شهير عند الأديغة،قريب من(pâte) في الفرنسية التي تعني العجين؛ لاحِظ أن â تساوي في اللاتينية as ، يُتَّخذ من طحين الذرة الصفراء أو من بعض الحبوب كالأرز. المترجم

ـ سماء الجبل تتحول إلى الانفراج، كأن الجو سيصحو. نظر بامبت الذي صحا من أفكاره إلى السماء وقد وجدها ذريعة ممتازة.

ـ ولكن الليل ما يزال مظلماً.

ـ إن كنت تظن هذا فانظر إلى الجبل الشرقي ثم إلى الجبل الغربي.

ـ صحيح والله؛ الشرق شاحب والغرب مظلم.

ـ حسنٌ أنك لاحظت هذا ولكنك تخادع.

ـ ماذا يا بامبت؟

ـ جعلتني أنا البيتمال أكشف أفكاري في ما يتعلق بآل سلطان ثم لم تطلعني على أفكارك.

ـ أهذا ما تقصده؟

ـ لم تخطئ ـ ضحك بامبت وحده ثم أضاف: ـ أرى أن عدم رضاك على آل سلطان ليس بسبب الكعوب فقط.

ـ ما أهمية الكعوب يا بامبت؟ ـ قال بفوق مسترجلاً ـ إن ربحوها منك اليوم ربحتها منهم غداً، المشكلة في الافتقار إلى الإنسانية. على رأي مرجان هي التي لا تُعوَّض.. وأنا ماذا؟ ما لا يعرفه الناس عنهم لا أعرفه أنا. ليس همي آل سلطان الخونة يا كبير...

ـ قل لي إن كنت تعرف هماً أكبر ـ قال بامبت بلا اهتمام،غير مقتنع تماماً بما سمع.

ـ يُقال: إن جاسوساً للقوزاق يقيم في قرية أديغية.

ـ لا تتكلم في ما لا تعرفه! ـ همز بامبت الحصان وجعله يقفز جانباً.

ـ ولماذا لا أعرف؟ نادى بفوق بصوت مهان وراء الفارس ثم لحق به.

ـ أيها الشاب لا أحب القال والقيل.

ـ وأنا أكرهه ـ اهتاج بفوق للإهانة ولكنه كظم غيظه وأضاف: ـ إن أردت أخبرتك باسمه واسم أسرته. وإن كانوا كذبوا عليّ أكذب عليك.

حث بامبت الحصان مرة أخرى وأضاف: ـ لا ألومك إن كذبوا عليك، وأنا سأسمح لك أن تكذب عليّ .

ـ القرية هي أبنه، والاسم الذي يذكرونه أباته.

ـ أي أباته منهما؟ بسلني أم وبيخ؟ صرخ بامبت من قلب ضوء الفجر الوليد.

ـ لا أحد منهما.

ـ من إذن؟

ـ الكبير؛ الأب.

ـ أهو نَمر قمشري؟ سأل بامبت بصوت أصم غير مصدق ما يسمع.

***

كان بامبت مرتاحاً لمفارقته بفوق في مرتفعات أبنه بعد ما دار به يومين، ولبقائه وحيداً مع أفكاره المتنافرة. عندما رأى الشمس التي تنير سماء الجبل الشرقي لم يبادر بامبت، رغم وساوسه الخفية،إلى القفز من على الحصان والتضرع إلى الله كما كان يفعل أجداده قبل أن يعتنقوا الإسلام، بل وقف وراقب الشمس قليلاً. ودون أن يعرف لماذا يعصر قلبَه ما يسرُّه قال: وهذه الشمس تحمل إلينا يوماً جديداً. كيف سيكون طريقي اليوم؟ لتكن بدايته خيراً ونهايته! دعا إلى الشمس بدلاً من الله. ثم ارتعب من الفكرة فأصلح موقفه: اغمرني برضاك يا إلهي لأن هذه الشمس العظيمة تجري بأمرك، واجعل حياتي وطريقي سهلتين. واحمني من كل من يبغضني، وانصرْ حظي على حظِّ شواي الذي يلاحقني!

ولما كان بامبت اعتاد على الحذر فقد ترك الطريق إلى عمق الغابة، ووقف في دغل الخوخ البري يراقب الأفق بحيث يرى الناس ولا يرونه.

قال: من يعرف؟ لا يجوز أن تثق بأحد إلا بنفسك. درت ببفوق مقدراً إياه، معاملاً له على أنه يصغرني، أحترمه وأحمل الناس على احترامه. ومع أني عرّفته بالناس ودفعت به إلى المجتمع فلا يبعد أن يلحق بي لأني فارقته وليس راضياً جداً بهذا الفراق، ولن يردعه أني أودعته بعض أملي. وخلال رفقته لي لم ينج أحد من لسانه من تُرك ونغوي، سواء بخير أم بِشَرّ. وفارس الليل.. آه ليتني عرفت أن ذاك الفارس كان شواي! ما كنت قلت له لا تشتبك به!؛ كنت استفدت من قتالهما فقتلتهما كليهما دون شاهد عليّ! الآن أجري وراء ذنب الحصان بعدما فوّتُّ رأسه. لا أرى في الجوار ما أشك فيه فأظنني أظلم بفوق. ولكن لا يمكن أن تعرف ما يخطر له. أتثق أن من وصل بأذاه إلى آل " نَمر" لن يصل إليّ؟ إن فعل هذا قطعت رأسه، ومن ارتمى عليّ بنفسه دفعته عني بيدي. وإن كان لأني لا أصحبه إلى حسن باشا في أنابه فهذا شأني أنا وحدي.

عندما اقترب بامبت من حدود أنابه رأى مجموعات من فرسان الأديغة مثنى وثلاث على الطريق المؤدي إلى القلعة التركية. قال في نفسه مستاء منهم: وماذا يريد هؤلاء؟ ومع أنه حاول تجنبهم فقد التقى في طريق جبلي لا محيد فيه بمجموعة منهم عرف منهم اثنين خورلوقوه مرجان وأباته بسلني:

_ أين تذهب وحيداً أيها الشابسغ؟ سأله بسلني.

_ الهمّ لا يدعك تسأل عن الوحدة يا بسلني _ قال بامبت مخمناً سبب ركوب كل هؤلاء الناس الطريق، وكان ظنه في محله _ وأنا ذاهب إلى حسن باشا الذي كنتم عنده، أذهب لمعاتبته.

_ وماذا ستقول له أيها الشاب؟ _ سأل مرجان الأكبر المحتل مكانه إلى اليمين بصوت ثخين يخلو من العجلة، ثم أجاب نفسه: لن تحصل منه على شيء.

ـ والله لا أعرف إذن أيها الزعيم الكبير ـ يا من جعل الله يومه مئة! ـ ماذا أقول لمن لم تحصلا منه أنتما على شيء. هذا الذي نحن في ذِكْره يناسبه أن تهدده بقبضتك أكثر من أن تلومه. إن لم يفهم مأساتنا التي تسبب بها القوزاق في المستنقع فلا أعرف وقتها أين نتجه.

ـ كنت لا أريد أن أقول ما أقوله يا بسلني ـ احتدّ مرجان وقال بصوت عالٍ ـ مَن حسن باشا إلينا، إلى الأديغة؟ والأتراك الذين يمثلهم. نتوسل إلى القادم من وراء البحر، ولا نعرف من هو، أن يحمينا لأننا لا نستطيع حماية أنفسنا!

ـ صحيح يا مرجان ـ وافق الفرسانُ كبيرَهم.

ـ هل تتذكر يا بسلني ـ بعد وقفة قصيرة أنهى مرجان كلامه عندما أوفدَنا الاجتماعُ الأديغي إلى بلاد الترك. ما قاله لنا السلطان يومها كرره علينا مندوبه اليوم. متى ذهبنا إلى تركيا؟ بضع سنين. يقولون لنا إلى الآن: لا تسمحوا للروس أن يتغلغلوا بينكم، حاربوا القوزاق، ونحن سنساعدكم.يرموننا في مواجهة دولة عظمى... لم يبق لنا إلا أن نذهب بشكوانا إلى ممثل القيصر الروسي ديسكاسي.

ـ هذا في جميع الأحوال يا مرجان ـ وافق بسلني صاحبه الأكبر ـ يقف بيننا وبين القوزاق محاولاً مصالحتنا، يفتح لنا أسواقاً لتبادل الأغذية والملابس.

ـ وهل تعتقد أن مَن تذكُرُ اسمه صالحٌ يا بسلني؟ لا يأتينا أحد إلا باحثاً عن مَغْنم له منا.

ـ إن كان رأيك هكذا يا كبير ـ قال بامبت المهتم بنفسه ـ فأنا سأكون رفيقكم إن قبلتموني.

ـ كما تريد أيها الشابسغ ـ قال مرجان هذا وغمغم من تحت شاربيه ـ كثيرون من أمثالك رافقونا ولكن لم ينفعونا في قضيتنا قضية الأديغة.

ـ إن كان رأيك هكذا أيها الزعيم الكبير ـ وجد بامبت حجة جيدة وكأنه لم يشعر بالإهانة لما رماه به مرجان ـ سأعبس في وجه حسن باشا. لستم وحدكم المهمومين بالمأساة سأحاول أنا أيضاً إفهامه. وسيعيده إلى وعيه العددُ المتزايد للأديغة الذين يطرقون بابه. وكما قلتَ سيوصل الخبر إلى سلطانه. مع السلامة!

***

كان بامبت واحداً من فرسان الأديغة الذين وقفوا من الصباح إلى المساء على باب حسن باشا المغلق. ولم يتأخر عمن طرقوا الباب العالي المغلق أو هزوه أو حاولوا خلعه. وافقهم في ما يقولون، وفعل معهم ما يفعلون. ولكنه اختفى مع حلول الظلام من بين الناس الذين جهد معهم. التف من وراء السور العالي وتوجه إلى الباب المفتوح على البحر، ودفع طَرْفُه السري على الباب، وهو على ظهر الحصان، الحرسَ إلى فتح الباب الضيق الذي سيعبره مع حصانه. وكما في كل مرة استقبلوه ممسكين بلجام حصانه. واجتازوا به بضعة النسور المختبئة في الظلام، إلى الغرفة ذات المصابيح السرية. ثم اختفى الجنديان اللذان كانا أمامه ووراءه فبقي في الغرفة وحيداً.لم تكن أولَ مرة يرى فيها بامبت الغرفة. كان فيها العام الماضي مرتين أو

ثلاثاً. وهذه المرة الثانية هذا العام. وهذا هو المكان الذي قصده يوم قَتَلَ محمد جري. ولم يكن إبلاغُ حسن باشا الخبر الذي كان له علاقة به السببَ الوحيد لمجيئه، بل قطعتا الذهب اللتان بقيتا بذمة حسن باشا من أصل ثلاث. ولكن لما لم يكن حسن باشا متأكداً من صحة الخبر فمن يعرف إن كان الأديغة الكذابون يخدعونه؛ فأحياناً يوهمونك أن الأسود أبيض؛ بهذه الحجة لم يعطه وقتها من الذهبتين إلا نصف ذهبة. والآن ينتظر بامبت أن يكملوا له المبلغ فيعطوه ذهبة ونصفاً.

لن أكتفي بسداد دينه لي فقط، قال بامبت وهو يتفحص الغرفة الواسعة التي يشعر فيها بالصَّغار، فقد جعلني آتي مرتين وراء المبلغ. عليه أن يعوِّضني عن إهانته لي بعدم الثقة كما لو كنت من الترك الكذابين. إجباره لنا على الوقوف طوال النهار أمام بابه يساوي وحده ذهبة كاملة. ولكن لا أستطيع أن أفتح معه هذا الموضوع إذ سيجيبني: وقفتَ لأنك مجنون. سيُصِرُّ التركي ذو السروال القصير على ألا أميز نفسي من بني قومي. ولكني وإياه مرتبطان برباط غير مرئي. المضيف يؤخر نفسه.. هذا هو الواقع. من يحتاجك يُهرع إليك ومن تحتاجه يجعلك تنتظره. لا أظنني أكره الذهبة والنصف... أيُخرجها حسن باشا من جيبه؟

خُيل لبامبت أنه سمع صوت باب ينفتح. ولكن لم يظهر من ينتظره. البيت والدار هادئان غير أن أصوات المصابيح الخفية تكسر حاجز الصمت. والرقاص المدور لساعة الحائط لا يعرف الوقوف.

ما الذي في هذه الغرفة ولم أعرفه خلال هذه السنة؟ الساعة والمقاعد وشجرة الأسرة وقواعد المصابيح الخفية البرونزية المطلية بماء الذهب، وحوامل المصاحف المرصَّعةُ أجنابُها. والمقعدان الوثيران اللذان يغور الجالس فيهما كانا غير بعيدين عن النافذة. الجديد الوحيد هو البساط الذي يغطي الجدار الذي تزينه صنوف الأسلحة. البساط الجديد يساوي سابقه مساحة غير أن ألوان القديم كانت أفتح في حين يغلب على هذا اللون الأحمر الذهبي. وإن لم أخطئ فقد أضيف إلى مجموعة السيوف والقامات والمسدسات سيف آخر. الله يعلم مَن كان صاحبَه؟ وفي الأسفل السيف والقامة اللذان انتزعتهما من محمد جري. ومن عجلتي لم ألحق أن أنتزع المسدس فتركت حصانه يمضي بجثته. كنت سأربح فيه نصف ذهبة أيضاً!

دخل أخيراً إلى الغرفة الرجلُ الخمسيني القصير القوي ذو العمامة البيضاء المرتفعة حسن باشا، فهب بامبت لاستقبال مَن له دَينٌ عنده كأن "سوماته"[1] الذهبية رفعته. اكتفيا بتحية من الرأس دون مصافحة. وبإشارة من يد حسن باشا اليسرى أخلى حارساه الغرفة.

_ تفضل! تأخرتَ في المجيء _ قال حسن باشا بلغته الأديغية الركيكة بنبرة تفوح منها البرودة. وابتسم من خارج عينيه وشفتيه.

_ من تنتظرْه طويلاً يكنْ أحبُّ إليك _ ما الذي لا يرضى عنه هذا التركي ذو السروال القصير كأني مدين له؟ بعدما حققت له طلبه يجلس بعيداً عني! قال بامبت.

---

[1] السومة هي الروبل الروسي. المعجم الشركسي

_ لا تبقى متعةٌ في ما انتظرته طويلاً، أجاب حسن باشا.

_ لا أعرف إن كان في نفس حسن باشا عتاب عليّ؟

_ الخبر الذي سمعته يُفقدني ثقتي فيك.

_ لا أفهم أخبرني صراحة!

_ لا يطالبون بالذهب الذي لم يتعبوا فيه.

_ أأنا من لا يستحق ثلاث ذهبات؟

_ لا، لست أنت.

_ من إذن؟

_ شواي. _ ثم أضاف حسن باشا بنبرة ألطف: _ الذهبة التي أخذتها والذهبة التي ما تزال معي هما ثمن شواي، إن تصرفنا هكذا كان أكثر عدلاً.

عندما بدأ بامبت يضحك من أعماق قلبه سأل حسن باشا لا يعرف تفسيراً لضحكه:

_ لماذا تضحك؟

_ والله يا حسن باشا _ قال بامبت دون أن يتوقف تماماً عن الضحك _ "ضربتَ قفا رأسي برئة رطبة " أنا من أشاع هذا الخبر عن شواي. ولم أُفش هذا السر لأحد؛ أرجو أن يبقى بيننا.

_ ولكن لا أعرف لماذا أصدقك؟

_ ولماذا لا تصدق _ مع أن بامبت كان يكظم غيظه فقد ارتفع صوته ثم خفضه _ ها هو سيف محمد جري وقامته معلقان بالبساط واسمه عليهما.

_ أعرف يا بامبت؛ اطمئنّ!.. أدعو الله العزيز العلي ألا يغفر ذنوب الكفار.

_ ربما يكون هذا... _ وأكد بامبت كلام حسن باشا، ثم نهض واثقاً من عدالة موقفه وقال بصوت أشد ثقة: _ إن لم تعد في حاجتي فرُدَّ لي ديني واترُكْني أرَ طريقي. _ لا تزال مجموعة من الفرسان ينتظرونني عند سور قصرك.

_ ولماذا لا أحتاج إليك يا بامبت؟ _ غيّر حسن باشا موقفه _ لن أبقى مديناً لك، ليذهبْ إلى من ناله بتعبه. اجلس! أنا وأنت لم ننته بعد من قضايانا. صحيح أننا حرمنا محمد جري الذي لم يحترم رغبة سلطاننا العظيم حياتَه، غير أن أولاده ما يزالون أحياء. ليعرفْ وهو في نار جهنم أننا لن نتركهم أحياء. كم ترك؟ ثلاثة أولاد أم أربعة؟

التمعت عينا بامبت.

_ من المرأة الأولى واحداً ومن الثانية ثلاثة.

_ ومَن مِن هؤلاء يدرس في القلعة القوزاقية؟

_ خان جري أكبر الثلاثة.

V

_ كأن منطقة الأبزاخ أبرد من منطقتنا! _ قال أغوي بشه ماف بعد أن ربط اللجام بطرف السرج ونفخ في راحتيه وفرك أذنيه _ لا مطر ولا ثلج ومع ذلك يحرق البرد ما يصل إليه.

_ لأننا نتسلق جبال الأبزاخ المنعزلين المتخلفين. ابتسم شواي وفرك أنفه _ أظنها تنوي أن تكتشف رجولتنا وتجعلنا نحن أيضاً نحس بها. أعدك يا بشه ماف أن الجو سيتغير ثلاث أو أربع مرات حتى نصل إلى توبا البعيدة،كما الأبزاخ أنفسهم. أين ستذهب الطبيعة تاركة الأبزاخ الهائجين؟

_ بحق من خلق هذه السماء الواسعة لن تقول ما هو أصدق من هذا _ وافقه بشه ماف راضياً. وأدار نحوه عينيه مع شيء من الخبث: _ ولكن أظن ما قلته عن الأبزاخ المتوحشين من خارج قلبك.

_ ولماذا؟

_ الأبزاخي لا يغتاب أبزاخياً.

_ أأنا الأبزاخي؟ _ بدا من لون شواي ارتياحه لما سمعه ثم قال بسرعة: _ ماذا يقولون " أبوك ليس مَن ولدك بل مَن ربّاك " إن ولدني الأبزاخ فقد انتهى أصلي الأبزاخي حين سرقوني في سِنِّ السادسة إلى ساحل البحر. شكراً لك يا محمد جري المسكين، رباني البجدوغ وتعبوا علي _ وأنت تعرف ما حدث لي في أرض البجدوغ... لم يبق، على ما يظهر، أحد في بلاد الأديغة لم يتكلم عليّ.

_ والله هذا صحيح يا شواي. وأنا كنت من هؤلاء حتى عرفت أصل مشكلتك. لا أريد إلا أن نعثرَ على هذا الفتى القوزاقي وينتصرَ حظك على من اتهمك ظلماً. ولكن لا يعني هذا أني أبرئ محمد جري وأدين بامبت.

_ ليس لأن محمد جري رباني _ تنهد شواي ثانية _ حين رفعت رأسي وأصبحت أحاكم أفكاري وأميزها بنفسي كانت نظرتي إليه اختلفت _ نحن الأديغة عندنا عادة سيئة وهي أننا نحارب من يَنبه شأنه منا، وأثبتنا هذا بما فعلناه بمحمد جري، ويتّمْنا أسرته. وأتحنا الفرصة ليتكلم علينا بالسوء من لا يعرفنا.

_ مهلاً، مهلاً شواي لا تتعجل! _ تدخل بشه ماف بسرعة _ لنفكرْ في ما تقول: أليس ما فعله بنا القوزاق حلفاء محمد جري في المستنقع ظلماً؟ رأيت بعيني، ونجوت منهم بأعجوبة.

_ نعم ظلم، هذا لا يحتاج إلى سؤال _ قال شواي وسَرَتْ ابتسامة باردة على وجهه _ ما حدث لي في فاسيورينسك حدث لكم في المستنقع مع مزيد من الظلم. ما جابهتم به القوزاق من الظلم ردوه عليكم. ليس في هذا ما يدعو للاستغراب يا بشه ماف. ولو أنهم غزَونا هم لتصرفنا معهم كما تصرفوا معنا.

_ ألم يكونوا يغزوننا أيام الأتامان بوراسك اللعين؟ _ صاح بشه ماف رغماً عنه.

_ نعم كانوا يغزوننا وينهبوننا، ونحن كنا نغزوهم.

_ ماذا إذن يا شواي؟

_ ماذا سيكون؟ _ احترس شواي في إجابته _ أرى أن من الأفضل ألا نتحارب، وأن نحمي مسنينا وأسرنا وأطفالنا، وينشؤوا في الجانبين معاً في سلام.

_ هذا شأن آخر. ولكن لا يطمعِ القوزاق في أرضنا! نحن لم نذهب ونحطّ الرحال أمام بيت أحد.

_ هذا فيه شيء من الحقيقة ولكن...

_ لم أسألك يا شواي إلى الآن _ لم يدع بشه ماف رفيقه يكمل ما بدأه _ أكنت مستعداً لمرافقتنا ليلة عبرنا بشزة؟

_ لا أعرف لماذا تقول هذا يا بشه ماف _ قال شواي منكسر القلب خائفاً ألا يثق به رفيقه، وأفكاره القوزاقية تهرب منه في كل اتجاه، فأكمل بسرعة _ أين كنت سأذهب يوم يقول الأديغة: مارج! كان المستنقع خيراً من المكان الذي كنت فيه. على الأقل كنت قاسمتهم مصيبتهم. الموت موت، ولكن لا ميتة أشد بؤساً وأسوأ حظاً من ميتة الأسر.

_ ومع ذلك ألم يطلق القوزاق سراحك؟ _ قال بشه ماف مشدداً على الكلمات الأخيرة بطريقة لا تعرف أهي موجهة قصداً إلى شواي أم لا. ثم أصلح: _ ألا تقوم بعمل خير؟ إن كان هذا ما تريده فسنجده ونعيده إلى القوزاق. ولكن من لا عودة لهم هم المئات من الأديغة الذين قضوا في المستنقع.

ألا تسمع ما يلمّح إلي به أغوي من مدة إلى أخرى؟ قال شواي لنفسه. مع أنه ركب معي تحت شعار "سلاحك سلاحي وحزنك حزني " فإنه لا يستطيع أن يكتم ما يهمه. يسحب تلميحاته إلي ثم يلمِّح إلى ما سحبه. لا شك أني قبل الأسر كنت ركبت معكم، ولكن ربما ما كنت أستطيع هذا اليوم أو غداً. لا شك أني سأعيد ذلك الفتى القوزاقي إلى آل بادينكا إن وجدته. لا يجوز أن تظل مديناً لأحد سواء كان صديقك أم عدوك. ليس عندي شك في بشه ماف نحوي ولا يشك هو فيّ؛ ومع ذلك لا أستطيع أن أبعده عن التفكير في شكّه في القوزاق. حسناً، هؤلاء لم تلدهم أمي ولكن أتحملهم لأني يجب أن أفعل هذا. أيكون قد رافقني حرجاً؟ لا أريده أن يفعل هذا. أأسأله؟ لماذا أفرض عليه أن يكشف لي عن أفكاره؟ لا أحد يكتشف الحقيقة في نفسه إلا بعد أن يتخلص من انفعاله. وأنا كنت هكذا، وسبب مصيبتي ماثل أمامي. ولذا سأخفي في داخلي ما أريد وما لا أريد.

_ والله يا بشه ماف _ خرج شواي من أفكاره _ أنا حزين لما حدث للأديغة وإن لم أوافقهم على ما فعلوا في المستنقع... ولم يقبل الأبزاخ الذين نحن في أرضهم ما فعل القوزاق، ولا القبرتاي، ولا البسلني، ولا الماخوش.

_ ليس عجيباً ألا يقبل من ننتمي إليهم؛ بل بين الروس والقوزاق من لم يقبل.

_ مَن بين هؤلاء مِن هذا الموقف؟

ـ ديسكاسي المبعوث الروسي إلى القوزاق. هناك خبر عن أنه كتب إلى القيصر بيده يعبر عن استنكاره لما فعل الجنرالان يرمولوف وفلاسوف بالأديغة. حسناً لنرَ ما سيحدث! وإن توسط بيننا أحد من هذا القبيل كان أفضل كما تقول. الباشا المقيم في أنابه هو الوحيد الذي لا نستطيع التأثير فيه خيراً أم شراً.

ـ صحيح والله ـ قال شواي متصنعاً أنه يسمع للمرة الأولى نشاط ديسكاسي ـ إن توسط بيننا أمثاله فلن يضرونا بل سينفعوننا. أما من لا نستطيع أن نؤثر فيه بخير أوشر فهو الباشا الذي في أنابه.

ـ لا تأت على ذكره! الحق يا شواي أعندكَ أملٌ ما في ذلك الجذع الهرم؟

ـ لم أتأمل منه طوال عمري ـ جواب شواي مختصر ـ لا يُحوِجْني الله إليه!

ـ هذا جيد، هناك من يتأملون منه.

ـ مَن يا بشه ماف؟

ـ لا سر أخفيه عنك: بامبت.

ـ هذا عجيب! ما الذي يجمع بين هذين؟

ـ أهناك موضوع لا يدس فيه بامبت أنفه؟!

ـ أنا مقتنع بهذا الجواب. قال شواي هذا وفي اللحظة التي همت فيها أفكاره أن تتوجه إلى أنابه ضحك أغوي بشه ماف من أعماقه:

ـ انتبه يا شواي نكاد نصل إلى قبرك؛ لا نتجاوزْه!

ـ وأين هو؟

ـ ليس بعيداً عن شجرة البطم تلك.

مع أن شواي يعرف أنه ليس في القبر الذي أخذوه إليه أحدٌ، كائناً من كان، ألم يحفروه لإنسان ما؟ لم يكن أول مرة يرى فيها قبراً تائهاً غفلاً. هؤلاء المجهولون كانوا منتشرين في أصقاع بلاد الأديغة الأربعة. وإن كان لهم في يوم ما اسم فكما عاشوا في الدنيا مغمورين فارقوها. فلذلك هم الآن بلا أسماء ولا أسر. وشواي من هذا النوع من بعد ما فارق محمد جري. عاش هذا النمطَ من الحياة على الأرض في أثناء مصاحبته بامبت. غابات الجبال أُسْرَتُه ومكانُ طعامه ومكان إقامته. كل من مات على ضفة نهر بشزة، كائناً ما كان السبب، كان من الممكن أن يكون هذا قبرَه، أو كانت الحشرات التهمته. جلس شواي إلى جانب القبر الذي نبت الحشيش عليه،ولا شاهدة له، ونظفه هو وبشه ماف وهو ينظر من طرف عينه إليه، ولما نهضا قال:

ـ لنقرأ عليه يا بشه ماف!

ـ أمتأكد أن صاحبه من ديننا؟

_ لا نفكرْ بهذه الطريقة! إنه إنسان مهما كان انتماؤه. لا نعرف كيف كان هذا الإنسان الذي أضحى هذا القفر مستراحه. ولكن لن يرضى الله عنا إن لم نقم بواجبنا نحوه. ولن يهدأ لنا بال: بسم الله الرحمن الرحيم...

حين أنهى الرجلان المتجهان إلى القبلة دعاءهما رافعين الأيديَ به سأل شواي:

_ أيكون هذا غيري؟

_ ومن الذي هو غيرك؟ لم يفهم بشه ماف.

_ الفتى الذي كان يورد الحصان عندما أغرنا أنا وبامبت على القوزاق بانتالي. ضربني أنا ضربة قاتلة وخطف الفتى القوزاقي؛ أفهمت الآن ؟

_ أيمكن أن يفعل هذا؟! _ صاح بشه ماف عندما استوعب المعنى _ ماذا خطر لك؟ أيفعل بامبت مثل هذا؟ أليس هذا ظلماً. ثم علق بعد قليل:_ من يدري مايمكن أن يخطر له؟ إنه لا يتورع عن شيء.

_ هذا ما جعلني أطرح هذا الاحتمال _ قال شواي _ إن كان الفتى القوزاقي مدفوناً هنا لا أعرف حينها.. امشِ نكمل طريقنا، ونحمل ما كتب الله علينا.

ليست قليلةً الأفكارُ التي لا يتفق عليها الفارسان مع اتفاقهما على هذه الفكرة الأخيرة. ظهر هذا التباين في نقاشاتهما السابقة. وحين وقفا على القبر، وحين قرأا عليه الفاتحة، وحين ركبا كانت مسألة العداء الأديغي القوزاقي تزرع بينهما شيئاً من الريبة فيتفقان حيناً ثم يفترقان.كانت دنيا القوزاق _ الأديغة التي يعبرها نهر بشزة الذي لا يعرف التمييز بين الأعراق، موزّعاً الماء على الضفتين بسخاء مثالاً لتناقض قلبي الفارسين. تغطي الضفتين سماءٌ واحدة وشمس واحدة، ويتنفسان من هواء واحد؛ ولكنهما لا يستطيعان إلا أن يتبادلا نظرات الشك وانعدام الثقة ويتحاربا. عندما يجتمعون في الأسواق التي افتتحها ديسكاسي فيجدون ما ليس عندهم يبتسم أحدهم في وجه الآخر ويساومه، ويتفقون ويعلنون الاتفاق بصفقة بالكفين. وعندما يتدابرون يغمغمون، وإذا وجد أحد الطرفين نقطة ضعف في الآخر يتقاتلان حتى يسيل الدم بينهما.

قال بشه ماف وهو ينظر خفية إلى يساره: ليس شواي الذي ركبت معه اليوم هو من كنت أعرفه قبل سنوات. كان موضع ثقة في الربيع والصيف الماضيين، يوافقنا في آرائنا ونوافقه وإن لم يخالطنا كثيراً. وعندما قالوا إنه ومحمد جري يتجابهان في مسائل الأديغة _ القوزاق، وعندما قيل إن الأمير كان ضحية هذه المجابهة اعتبرنا الأمر رجولة منه ولم نستغربه. وما يجري له الآن عجيب. أفهم أنه ليس من العدالة أن يتهمك الناس بما لم تفعل وتصبح في أفواه الناس، ولكن إن وجد الخائن جزاءه كائناً من كان القاتل فلا أراه ناقص الرجولة. والآن، وإن لم يبُح بما في قلبه، يجعلنا نبحث عن الفتى القوزاقي وهو يبكي سيده السابق. بدا لي أنه لم يجبني إجابة واضحة حين سألته عن رأيه في ما حدث لنا في المستنقع. أيغلب القلب القوزاقي قلبه

الأديغي؟! لا يَستبعد أن يكون الفتى القوزاقي في ذلك القبر. أوقفنا لنقرأ عليه الفاتحة. لا أعرف، لا أعرف؛ قلتَ لي افعلْ ففعلت! لا أريد أن أكسب وزراً.

ـ أهو سرّ القبر ما يقلقك؟ خرج شواي من أفكاره وسأل رفيقه الواقف إلى يمينه متفهماً عدم ارتياحه.

ـ أليس كل ما في عالمنا يدعو إلى التفكير؟ ـ أجاب بشه ماف كمن كان ينتظر السؤال ـ أُضيف إلى موضوع الأديغةِ والقوزاقِ والتركِ وبامبت موضوعُ قبر مستنقع قلش فزاد تمزُّقي بينها. وما نبحث عنه، حسب ما يجري الآن، أظنه سيصبح موضوعاً عسير المعرفة والفهم.

ـ لا تساوِرْك الوساوس يا بشه ماف!

ـ وهل أستطيع إلا أن أكون في بَلبال؟! في موضوع القبر بامبت يقول لي شيئاً ويطلعني على شيء، وأنت في ذهنك شيء آخر. لماذا إذن نذهب إلى توبا؟

ـ ألأنك تظن أن من في القبر هو ذلك الفتى القوزاقي؟

ـ لست أنا؛ أنت من زرع في قلبي الشك!

ـ قلت فحسب: من يعرف؟ ـ قال شواي وسكت ثم سأل: ـ أريد أن أقول: لماذا يدفن بامبت الأسير في الغابة دون أن يستفيد منه؟

ـ هذا صحيح ـ قال بشه ماف دون حماسة واضحة وأنهى بكلام يدعو إلى مزيد من الشك: ـ لا أحد في الدنيا يعرف بامبت كما أعرفه... ولكن ما يخطر بباله على رأس حربته.

ـ ولكني واثق أن بامبت لن يبعد عنه المال برأس حربته.

كانت الظهيرة تقترب والشمس تبزغ من وراء الغابة:

ـ ما رأيك يا كبير في أن نتناول فطورنا؟ قال شواي مبرزاً كون أغوي بشه ماف أسنّ منه.

ـ إن كان رأيك هكذا فسنريح حصاننا ونطعمهما بعض الشوفان،ونعتني بأنفسنا بما وضعته ربة البيت في كيس الزاد. توبا التي نقصدها لن نصل إليها اليوم. والسفر في الطرق الجبلية صعب ليلاً. فمن المناسب أن تقصد مضافة ما مع حلول المساء. فماذا تريد؟

ـ إذن نتخلى عن وجبة الفطور. عندما ننزل من قمة الجبل سندخل قرية قاي حبله. هناك صديق لي شاب من آل تازة يسمي نفسه أديغ، وسيكون سعيداً باستقبالنا؛ ولذا سنحل في ضيافته. وعنده جار طيب اسمه باجقوه عمر. أسمعت عنهما شيئاً؟ واختتم كلامه محاولاً تشجيع رفيقه على فكرته: ـ ألن يؤاخذاني إن ظنا أني غيرت طريقي كي لا أمر عليهما؟!

ـ لا أعرف أحداً ممن ذكرتهما. ولكني سمعتهم يذكرون باجقوه عمر في الأبزاخ كثيراً. والمكان الذي سمعت فيه هو رُكن توبا الذي نقصده، طرف الأرض الذي هجره الله، كما يسميه الأبزاخ على سبيل السخرية. لنمض إن كان هذا رأيك! سندخل قاي حبله، ونسلم على معارفك.

خرج الفارسان من طرف الغابة ومشيا بموازاة ضفة قوجوبس مدة، ثم عبرا النهر من مخاضه، وعند مدخل غابة الجبل قال بشه ماف:

_ لا أظن القوزاق يزعجون الأبزاخ الآن.

_ ما الذي يجعلك تقول هذا؟

_ عندما جئت العام الماضي، وهذا العام لاحظت أن أرضهم بالقياس إلى أرض البجدوغ والشابسغ أهدأ. لا تعرف وأنت في هذا الإقليم إن كان في الدنيا قوزاق، ولا تهتم بهم. وجبالهم وغاباتهم ومراعيهم في سلام.

_ ضفة نهر بشزة بعيدة عن الأبزاخ _ ابتسم شواي في سره، ثم أتبع منتظراً التعليق على كلامه _ ولكن هذا لا يمنعهم من الوصول إلى النهر وعبوره.

_ هذا شأن آخر _ جزم بشه ماف سعيداً بما سمع، وغمغم: _ صحيح أن من في قلب المشكلة هم البجدوغ والشابسغ.. عندما ننظر عبر النهر نرى على الضفة اليمنى أعالي قبعاتهم الحمراء وذؤاباتهم تبرز منها، وشواربَهم التي تشبه القضيب الذي يحملون به دلوَي الماء على الكتفين، ترتجّ. ومراصدهم العالية تطل علينا، وأفواه مدافعهم القبيحة مسددة إلينا. والأبزاخ لا يرون شيئاً من هذا. إنهم سعداء ولكني أخشى أن يزحف هؤلاء إلى هنا.

_ لم أعد أخاف هذا _ قال شواي.

_ هيه يا شواي! _ نظر بشه ماف إلى شواي واجماً وسأل: _ أتكون تعرف خبراً لا نعرفه؟! قله، لا تكتمه عنا!

_ كيف لي أن أعرف ما لا تعرفون؟! ولكن بما أنك سألت فسأبوح لك بما يحملني على هذا الاعتقاد: كل من تُغير عليه سيكون حذراً منك، وسيتبع أثرك، ويفعل بك ما فعلتَ به.

_ ألهذا تقول ما تقول؟

_ لا أعرف عن نفسي شيئاً آخر.

_ إن كان هذا فليست المرة الأولى التي نسمع فيها أو نرى هذا الرأي.

عندما انحدرا من مراعي الجبل الواسعة التي تضيؤها الشمس رأيا محراثاً من النوع الذي تجره أربعة ثيران ووراءه حرّاثان، الأكبر منهما يمسك طرف المحراث، والأصغر يوجه الثيران. وبيوت قاي حبله المتناثرة على المنحدر تظهر. وقطيع الأبقار يحتل الجانب الآخر من السهل المحاذي للجبل.

أوقف شواي حصانه فجأة وقال:

_ أظن هذا الذي يمسك طرف المحراث هو باجقوه عمر. وهبّ للقائه وسلم عليه: لتكنْ غلالك وافرة!

_ شكراً،وغلالك كذلك! رد عمر التحية _ تفضلا أنتما ضيفان! أأنت يا شواي من لا أتعرّفه؟ ليبارك الله في نسلك! تفضل يا شواي، تفضلا! وفي غمرة السرور نادى الشاب الذي معه بمزيج من الأديغة والروسية:

_ يا بانتالي توقف عن الفلاحة !عندنا ضيف.

نظر شواي والعرق البارد يغطي وجهه باتجاه الولد الأشقر. لم يبق عنده الآن شك في أن هذا الشاب الذي يلبس ثوباً قديماً وقبعةً ذَهَبَ لونُها هو بانتالي.

_ الثيران يا بانتالي يا ولدي أعِدْها إلى البيت. ونحن سنعود _ أخبر أمك أن عندنا ضيوفاً _ قال عمر وهو يشد حزام سرج حصانه، وقال وراء الفتى الذي يسوق الثيران إلى البيت: _ يا إلهي لولا أنه قوزاقي لكان شاباً ممتازاً. نحن مرتاحون معه، ولأننا بلا أولاد يفرّج عني وعن العجوز.

أخفى شواي كل انفعال مع أنه عثر على الفتى الذي يتعلق به دَينه وحياته. وكان بشه ماف يتعجب من هذا الصبر. هز شواي رأسه مجيباً على نظرة بشه ماف التي تقول: هذا من تبحث عنه، فلماذا أنت واقف هكذا؟ وهمس له شواي وهما يتهيأان للركوب:

_ لا تستعجل! ألم تسمع ما قاله عمر؟ لا نريد أن نهجم عليه.

وعندما دخلا دار من صار مضيفهما باجه قوه عمر، سأل بشه ماف ثانية بشأن ما كان يقلقه:

_ ألأنك تخاف ألا يعطونا الفتى القوزاقي؟

نظر شواي إلى بشه ماف نظرة تفاؤل ولم يجب.

وفي هذه اللحظة سمعا صوت المرأة الضخمة التي كانت تنزل من المصطبة:

_ تحية أيها الضيفان! تفضلا، تفضلا! وجفل شواي من الكلمات التي أعقبت ترحيبها بهما: _ يا بانتالي، يا ولدي، ساعد الضيفين، قدم لهما الإبريق والطشت، خذهما إلى الغرفة التي في الحديقة.

والتحق بهما عمر الذي كان في خدمة الحصانين:

_ يا ولدي، بعد أن تنتهي من طلبات والدتك تعال لنمسك خروفاً سميناً.

عندما بقي شواي وبشه ماف وحدهما في المضافة قال شواي الذي تكلف الصبر إلى الآن:

_ أترى يا بشه ماف ما يحدث لنا؟ اصطدمنا بما لم نتوقعه البتة، لا أعرف كيف سنتفق مع هؤلاء.

_ والله وأنا لا أعرف _ نظر بشه ماف نحو الباب وخفض صوته _ لا أستطيع أن أكوّن رأياً، القوزاقي يا بيتمال يعدّانه ابناً لهما _ ولمعت عيناه بحيث لا تعرف أهذا هو أغوي بشه ماف، ثم سأل: _ وأنت كيف نسيت معاملة القوزاق لك؟

_ لا تقِسني إلى بانتالي... أنا ذهبت إليهم مغيراً ليلياً، أما هذا فما ذنبه؟ خطفوه.

كان عدم ثقة بشه ماف بشواي في مسألة القوزاق تزيد رغم أن عينيه لانتا عن ذي قبل. ليس لأنه يرى فيه خائناً بل لوجوده عند القوزاق أسيراً، أما وشوشوا له بشيء؟ أما أوحوا له نحونا بما يسوء؟ مثل هذه الوساوس كان لا بد أن تتقافز إلى قلبه، ولكن لم يفقد اهتمامه بكيفية استلام الفتى القوزاقي من الأسرة.

_ أفهم يا شواي ما يعتمل في قلبك، لا تُفن نفسك في الموضوع! _ بدأ بنصيحة ناعمة وأنهى بصوت محتدٍّ وعالٍ: _ ما كنت أريد أن أصل إلى هذا الموقف؛ ولكن أهُما من ولدا الفتى القوزاقي؟! إن رفضا إعطاءنا إياه أعدناه كما وصل إليهما.

_ ماذا ؟ _ بدا على صوت شواي عدم رضاه بما سمع.

_ أقول على سبيل الافتراض إن لم نستطع الاتفاق معهما _ سحب بشه ماف سريعاً تهديده وتمتم: _ إن طلبت ما ليس لك لم تسمع كلاماً حلواً.

قطع صوت الباب ماكان يريد شواي أن يقوله. وظهر من بين الدرفتين تازة أديغ وعلى وجهه علامات انزعاج من أمرٍ يريد أن يخفيه. وسلم على الضيفين اللذين يكبرانه ومع ذلك نهضا لاستقباله.

_ نهاركما سعيد _ بدأ بالسلام على من يحتل مكان الصدارة، ثم عانق صديقه شواي بارتياح. وقال: _ يسرني يا شواي أن نلتقي مرة أخرى في هذا العالم المضطرب، ولكن يا كبير _ توجه إلى بشه ماف ولم يستطع إلا أن يعبر عما في قلبه: أنا عاتب على شواي.

فهم بشه ماف أصل الموضوع فساند صديقه:

_ لا أعرف لماذا تقول هذا؟ أول ما ذكره، منذ دخلنا أرض الأبزاخ، هو اسمك.

_ ومع ذلك أيها الكبير بدّل مضيفه... ولكن لما كان ضيفُ جاري عمر ضيفي أيضاً غفرت له ما فعله، ولك ما دفعك لفعله.أرحب بكما ثانية؛ كيف حالكما؟ ومن فارقتموهما أليسوا بخير؟ أليسوا في سلام.

_ كلهم بحمد الله بخير. أجاب بشه ماف على السؤال. أما من جهة السلام فناحيتنا بسلام ولكن جيراننا القوزاق لم يتركوا شيئاً لم يفعلوه. أظنكم سمعتم ما فعلوه بنا في مستنقع قلشتوك.

_ طبعاً سمعنا! _ أسرع تازة في الجواب، ليس في أرض الأبزاخ خبرٌ غيرُه. ولكن إن كان عليك أن تحكم بعقلي الناقص فالطرفان على خطأ. ليس بيننا حِلم ولا رَويّة. نعيش كما اتفق، كصاحب الزرع يقنع بما ينبت له _ نظر نحو شواي نظرة خبث أديغي وأضاف لمن لا يستمع إليه: ما أقوله ليس أول مرة يسمعه شواي.

لم يكن شواي معنياً بالحديث حتى إن نظر إليه تازة أو ذُكر اسمه. بل أمام عينيه صورة المرأة الضخمة الخيّرة التي تنزل من مصطبة البيت تنادي بانتالي: " يا ولدي "كأنها ولدته حقيقة وتهشُّ له. وإذا أضيفت معاملة عمر اللطيفة لبانتالي زادت أفكاره ثقلاً. ما العمل؟ سأحمل ما حمّلنيه الله. يقول: لا بد أن يُحلّ هذا الموضوع ودياً. كيف انسجم بانتالي مع هؤلاء؟ أنسي أن له اسماً وأصلاً قوزاقياً، ومن قرية قوزاقية؟ يعيش في الأسرة كما لو ولد فيها، لا يميزه إلا أنه يتكلم لغة مختلفة اختلطت ببعض الكلمات الأديغية. هذا في الظاهر؛ ولكن ماذا في الباطن؟ يجب أن أحدثه على انفراد لمعرفة هذا. ويستغرق الأمر ليس يوماً أو يومين بل أياماً. ونحن لا وقت عندنا إلا هذا المساء والغد. لن يعطينا بامبت الوقت لنفعل ما لم نفعله. وبما أن أمامنا ليلة فسأصارح عمر بما جئنا لأجله مهما كانت المصارحة محرجة. أرى أنه إنسان يمكن أن يفهمك.

بعد صلاة العشاء، وبعدما انصرف الرجال الذين أتوا للترحيب بالضيوف، وبعدما رفع بانتالي المائدة، قال شواي:

ـ سامحنا يا عمر ولكن سأكاشفك بالموضوع الذي لم يكن في بالنا ولا بالك، والذي نتابعه أنا وبشه ماف. ولن نخفي عنك يا أديغ فاسمع: الموضوع ثقيل عليك وعلينا؛ ما نبحث عنه وجدناه عندك.

امتُقع عمر ولكنه أخفى انفعاله وقال:

ـ يا حسرتي! في حين أفرح بضيوفي اقتلعوا هم كبدي ـ وأضاف بسرعة: ـ توجست من هذا. لو قلتما لي إن ما ليس لك ليس لك لما تأثرت. ومع ذلك فمَن لم يخرج من صلبك ليس ابنك. والدجاجة التي لا تقفز من على سلَّمك ليست لك. أخذناه من الفارس الذي جلبه لأنه قال إنه يتيم فقلنا نربيه، ونزوجه، ولا سيما أننا بلا أولاد، وفي شيخوختنا يرعانا.

ـ أأعطاكم أم باعكم؟ ـ قال ظناً منه أنه سيخفف الحمل عن عمر، وآملاً أن يجد جواباً لما يشغل باله، سأل بشه ماف.

ـ والله من تسأل عنه أيها الضيف لم أر فيه إنسانية ولا طيبة. قال لي أعطني حصانك مع سرجه وبجانبهما قامتك الفضية. فلم أمنعها عنه.

ـ ألم يقل لك اسمه، من أين هو؟

ـ والله لم أفكر في اسمه ولا في أصله. ولم يقبل أن يترجل عن حصانه. وإن لم أخطئ فمن لهجته هو من الشابسغ.

ـ بامبت، شابسغ بامبت! ـ صاح بشه ماف.

ـ ولم يقل شواي شيئاً.

واستعجل عمر:

ـ أنتم لماذا تبحثون عن الفتى؟ ماذا تنوون أن تفعلوا به؟ ـ ثم استرد مزيداً من الوعي: ـ لا تؤاخذاني! أسمعكما.

روى شواي دون إطناب موضوع الفتى القوزاقي الذي في بيت باجقوه عمر، ومعه خبره هو وبامبت. ثم اختتم:

ـ لا أبرئ نفسي يا عمر... إن كنت ستفهمنا فهذا خبرنا أنا وبانتالي.

ساد الوجوم الغرفة، والثلاثة ينتظرون الجواب. قال عمر:

ـ المهم من يفهمني أنا، لماذا لا أفهمكما؟ ـ وشهد على حزنه بصوت متقطع: ـ أنا سأتدبر أمري؛ بل اعتبراني تدبرت وانتهى، ولكن المشكلة في العجوز... أي مصيبة جاءتنا؟... ومع ذلك فلماذا نظلم الإنسان الذي له أب وأم وأسرة تنتظره، بل قريةٌ. إن وافقت العجوز، وهذه المسكينة ستتفهم الموضوع، سأعيد الفتى إلى أهله، وأنا سأذهب معك.

ـ شكراً يا عمر! لم أكن أتوقع منك غير هذا الجواب ولو أني كنت مهموماً. قال شواي مغموراً بالفرح.

ـ حقاً يا عمر شكراً! ـ وافقه بشه ماف. ـ تفهمتَ الإهانة التي لحقت بشواي. ولبيت طلبنا دون إحراجنا.

ـ وكيف لا يفهمكم أحد رجال قاي حبله المحترمين؟ ـ قال أديغ الذي التزم الصمت إلى الآن ـ إن كنت تذكر ياكبير كنت قلت لك ما سيحدث بشأن الفتى القوزاقي. ما ليس لك سيسترده الله منك. ولكن إن أردت الحق يا شواي، فحين كنت تروي قصتك اتهمتك كثيراً في داخلي ولا أزال. اغفر لي ياكبير ولكن مأساتك ومأساة من نحن في سيرته ومأساة عمر وزوجته بابونا ليس سببها شابسغ بامبت وحده، بل أنت أيضاً. لو لم توافق بامبت الذي حاول قتلك فيما بعد لما رافقته في غارة إلى ما وراء النهر. هذا أولاً. وثانياً: سامحني يا عمر على ثرثرتي: من أجل هذا أقول: أنا لن أذهب إلى مكان لا شاغل لي فيه، وأنتم افعلوا كما أفعل. ليس القوزاق والترك أعدائي ولا أصدقائي. كلما تناحرنا قام العداء بيننا، وبردت علاقاتنا. وشاع عدم الثقة. ليعشْ هؤلاء وغيرُهم فالسماء واسعة وعالية، والشمس منيرة ودافئة. تسعنا وتكفينا كلنا.

تنحنح عمر، فرجاه أديغ:

ـ دعني ياكبير أكمل كلامي. دعني أقول أمراً واحداً فقط. وهو موجه إليك وإلى شواي. شواي يحل مشكلة بانتالي على سبيل رد الجميل للقوزاق الذين عاملوه بالحسنى لأنه يعرف أنه مذنب بسبب عبوره نهر بشزة. والآن لا أريد أن يضيع معروفك مع مُلكك يا عمر. لا أحد ساق إلى دارك حصاناً مع سرجه، ولا أتاك بقامة فضية.

ـ يا جاري، يا أخي الأصغر...

ـ نعم نعم يا عمر. أريد أن أُفهم ضيوفنا أنك لست غنياً بالمال،لا تملك إلا الرجولة والإنسانية.

ـ يا جاري ـ أتم عمر كلامه وهو يبتسم ويتأمل وجه الضيفين ـ لا أوافقك على ما تقول في شأن ملكي مع أن كلامك لا يخلو من معنى. لو كنت أضمن أن لا يؤذوا هذا الفتى الذي عانى كل هذه القسوة لكنت أعطيت، لا بضع البقرات التي في داري، ولا حصاني المسرج، ولا قامتي الفضية فحسب، بل فوقها حزامي الفضي. علامَ تتكلم؟ إن كان الأمر يتعلق بالحصان والسرج فإن إحدى أفراسي الثلاث ستلد السنة مهراً. وإن كانت القامة فسأعوضها بأحسن منها. من لن يدخل داري أبداً ـ وانكسر صوته ـ فتى مثل بانتالي. وعندما صدر صوت من مصطبة المضافة رفع عمر رأسه الضخم: ـ أحلفكم بالله لا تحسسوه بشيء؛ إنه وقْعُ خطوات بانتالي. دعوه يهنأ الليلة فحسب بالنوم في بيتي.. وإلى صباح الغد سأفهم العجوز بكل إمكاني. فإن لم نتفق أوكلت هذه المهمة إليكم أنتم الثلاثة. وإن أخفقنا فلا ضرورة لأن أعلّمكم: من أتوا به على صهوة الحصان سأعيده على صهوة الحصان.

ـ لن نصل إلى هذا ـ لم يقبل شواي.

ـ لا أعرف إذن ـ تنهد عمر عميقاً ـ سنتصرف غداً حسب الظروف.

مع أن الوقت كان مبكراً فقد أفاق شواي وبشه ماف وجلسا ينتظران تعليمات مضيفهما. يصغيان إلى ما يجري في الفناء والغرفة المتطاولة المقابلة للمضافة والشارع. ولكن لا يُسمع صوتٌ مريب، ولا ما يحمل خيراً أو شراً من أي مكان. ثم جعل الصوت الصادر من المصطبة الرجلين يرفعان رأسيهما. وجاء بانتالي بالمائدة لا يظهر شيء من جسمه وراء كتفي عمر العريضتين. لا يزال يلبس ملابس البارحة نفسها. أما شواي وبشه ماف فخُيِّل إليهما أنه يلبس ملابس نظيفة. ولم يخطئا إلا في القميص المزرر تحت الكساء الخارجي؛ فإن دققت النظر فيه اكتشفت أن يداً امتدت إليه بالمسح. وعلى أعلى القبعة خيط قماش أحمر وعندما رأيا الشريط الأحمر الذي زُيِّن به جانبا السروال تبادلا نظرة تعني أن مشكلتهما حلت. وبدا من حركات بانتالي أن صبره ينفد،وأن هناك ما يقلقه.

نظر شواي وصديقه إلى عمر نظرة أمل مع أن الخبر كان واضحاً لا يحتاج إلى سؤال:

ــ عملت ما أستطيع وما لا أستطيع ــ قال عمر لهما ــ والعجوز المسكينة في الفراش.

ــ هذا خبر محزن ــ قال بشه ماف، وأغضى عارفاً دوره في حزنها.

ــ لا يمكن أن نغيِّر شيئاً في هذا ــ قال عمر يائساً ــ هذا ضعف الأمهات، ولكنها تعهدت أن تقدّم إليكما الفتى.

في دار باجقوه أربعة خيول جاهزة، وهم ثلاثة رجال: عمر وشواي وبشه ماف، ورابعهم هو بانتالي الذي ينتظرونه في الغرفة:

ــ غريب؛ لم يظهر تازة أديغ منذ الصباح. سأل بشه ماف الذي استولى عليه القلق.

ــ جلب لي حصانه المسرج منذ الصباح ورجع إلى بيته، وها هو يعود. أجاب عمر.

كان شواي يتمنى أي شيء من أجل ألا يرى نفسه في هذا الموقف: يخيل إليه أنهم سيرمونه من الجدار العالي الذي أوقفوه إليه تراوده الوساوس عاجزاً عن أن يرى باب الغرفة التي تبعد عنه بضع خطوات، والتي ستخرج منها المرأة التي جلبوا لها الحزن وبانتالي: أيمكن أن يغيروا رأيهم فيورّطونا في ما لا نريد أن نفعله. ولا يسمع تحية أديغ ولا ينتبه إلى يده الممدودة لمصافحته.

انفتح باب الغرفة وظهرت بابونا وإلى يمينها بانتالي، وخَطَوا إلى المصطبة. بقي عمر وأديغ إلى جانب الأحصنة في حين تقدم شواي وبشه ماف نحو المرأة.

ــ امشِ يا ولدي ــ قالت بابونا مخفية شفتيها المختلجتين وصوتها المرتعش ــ ليُعِدْك الله إلى أهلك بخير! جعلتني أعرف نعمة الأبناء. لا تنسنا ! سأدعو الله من أجلك مادمت حية ــ وعادت تحبس دموعها أمام الرجال ودخلت إلى غرفتها.

VI

منذ أن سمع بامبت صوت شواي في منتصف الليل دار في كل بلاد الشابسغ مهتاجاً من القلق. كان كلما سأل حذِراً عن شواي خائفاً أن تكون نفسُه خدعته ذاب شيء من الأمل العذب الذي أودعه قلبه. وكان

آخرُ ما قالته له ساسه، زوجة بشه ماف، على باب بيته الضربةَ القاضية على آماله، فسال آخرُ أملٍ عرَقاً بارداً على الجبين.

ضحك بامبت ضحكة باردة: ما أعجب ما حدث لي! والأعجبُ منه مايزال أمامي. اليوم أم غداً أم بعد غد سيقطع شواي طريقي؛ سأجد حلاً لهذا أيضاً. لا أندم على ما فعلته لنفسي خيراً كان أم شراً. هذه الدنيا القبيحة يجب أن تعيشها كما تستطيع، على قدر إمكانك. أحدهم يضحك فيها والآخر يقتله الكرب. وما يحصّله المرء منها هو حظُّه. لن أسمح لرجلي أن تعثر وأنا مفتح العينين رغم أنهم يقولون: الإنسان يعثر بالحجر الذي يرميه. تجنّب الشر واستقبل الخير بالأمل!

همز بامبت بعقب رجله الحصان الذي يسير متمهلاً غارقاً في التفكير الناعم، وحثه على السير رغم أنه كان ينصح نفسه ويطمئنها راغباً في أن يخفف عنها أحمالها. وترك وراءه مرتفع جنج بسنه والهواء البارد يحرق أطراف أذنيه. كان سيصل إلى الغابة السوداء العارية لولا أنه أشفق على حصانِه الأشقر، صديقِه الوحيد، فأوقفه. قفز من على السرج وحل حزامه وسحب الحَكَمة من فمه، ونصحه وهو يمسح عرق جبينه وينظر في عينيه الصافيتين الحزينتين:

_ سامحني ! كما يقولون: ينتقمون للقلب الهائج من شخص آخر،فهذا _ إن كنت تفهم _ ما حدث لي. أخشى أن أكون آذيت نفسي زاعماً أني أنفعها. حقاً أنت تفهمني، نجونا من أخطار كثيرة من هذا القبيل. نحن لا نتصرف دون معرفة الله. وقد نجّانا من مآزق كثيرة. إذا كنا نجونا من مذبحة قلشتوك فما أهمية مشكلتنا مع شواي؟

رفع الحصان طرفي أذنيه، وصهل وأرنبة أنفه ترتجّ. التفت بامبت سريعاً نحو الجهة التي ينظر إليها الحصان؛ فرأى الذئب القصير الرقبة، المائل إلى الزرقة خارجاً من دغل البرقوق البري.

فك بامبت المسدس المربوط إلى السرج بهدوء، وأعاد الحَكَمة إلى فم الحصان وشد الحزام. ارتقى السرج. توقف الذئب والتفت دون ارتباك، وشمّ بأنفه الدقيق رائحة الهواء بضع مرات لا يرى شيئاً وكأنه وحيد في السهل. واختفى في الدغل متمهلاً وكأن الحصان لم يُغره.

ريثما اجتاز الذئب الفسحة الضيقة من الغابة تابعه بامبت بعينيه وهو لا يدري ماذا يصطرع في قلبه. وعندما اختفت مؤخرة الذئب في الدغل وبقي وحده في الفسحة ابتسم محاولاً ألا يفكر في من يحاسب نفسه من أجله. ولوى عنق حصانه إلى اليمين كي لا يذهب في الاتجاه الذي اختفى فيه الذئب. والتفت مرتين أو ثلاثاً حذراً من الوحش؛ ليس لأنه يخاف أن يتبعه، فقد صادف الكثير من ذوي الأذناب ومن ذوي القبعات دون أن يجبره أحد إلى الآن أن يترجل من حصانه. ولم يعجز عن أن يخدعهم ويسيطر عليهم، وفي أحرج المواقف استطاع أن ينقذ نفسه، وأن يكسب مديح الناس عالماً بأنه لا يستحقه.

والآن ؟ ضحك بامبت وهو يسأل نفسه وصورة الذئب لا تفارقه. لن أسبل جفوني ويديّ قائلاً إن هناك "شواياً ما" يبحث عن حتفه يلاحقني. أتظن أن هذا الذئب الأغبر ذا العنق القصير قليلاً ما تعرض

للملاحقة؟ ربما هاجمه بعض أبناء جنسه وبعض البشر ومع ذلك لا يزال حياً لم يؤذوه بشيء. حسن أن تعيش كالذئب تخرج من دغل البرقوق وتدخل، وإن أردت هاجمت مكاناً غير حصين، حراً في ما تفعل، لا ارتباط لك بأحد. لماذا إذن أكلم حصاني أحياناً أريد أن أنفّس عن كربي؟ انظر إنها مجرد طيور ومع ذلك تعيش أزواجاً، والعيدان حتى إن كانت يابسة تعيش متجاورة. والذئب الذي ظننته وحيداً قد يكون له زوج. ربما ليس ما يحثه على السعي وراء الرزق رزقَه وحده بل رزق صغاره. وأنا ماذا أريد؟ ولأجل من أسعى؟ أسست أسرتين بل ثلاثاً، وعندي أطفال، ولكن لا أستقر بينهم... والآن أظنني، إن امتلكت خادمة آل سلطان سيسور، سأستقر في بيتي الخالي. بل قلبي يحدثني، وأعرف من نفسي هذا. ما الذي يجبر هذه الفتاة البيضاء ذات الشعر الأسود أن تربي أطفال آل سلطان وتدلل عجوزهم؟

خُيِّل لبامبت أنه سمع وقع حوافر حصان ولكنه لم ير أمامه أو خلفه ما يشك فيه. كانت الطبيعة هادئة باستثناء النسر الحائم في سماء الجبل حيث يسير. وهو يبدأ ينقض على الأرض كصخرة، وما إن يقترب منها حتى يعلو من جديد. وهاهو الآن يقوم بالحركة نفسها.

ماذا يريد هذا المهرج؟ قال حانقاً على النسر. ليس فرخاً فيتدربَ، وجناحه ليس أصغر من يدي إن لم يكن أكبر. أيكون يسدد عليّ؟ إن كان هذا مرادك صرعتك بطلقة واحدة. ها هو، ها هو؛ اقتربْ مني أكثر، طِرْ فوقي! أمسك بامبت البندقية مستعداً للرمي.

سدد بامبت على النسر الذي أسبل جناحيه وانقض، فتناثر ريشه وسقط على بعد خطوات منه. اقترب منه، وحين قلب الطائر تعجّب مما رأى: كان الطائر أعمى جفت عيناه منذ زمن بعيد.

أذنبت بحقه. تألم قلب بامبت. الآن فهمت لماذا كان النسر الأعمى يخاف عندما يقترب من الأرض. كان البطن الخاوي يجبره على أن يفارق السماء، وحلاوة الروح تحمله إلى الأعلى من جديد. وبدلاً من أن أفيده في شيء قتلته! وماذا كنت أنفعه يا حسرتي؟ يا أيها البائس؛ أقول لك لأن حياتك أعمى آلمَتَيْ. لم تنس انقضاضك المميز، ولم تقدّر الأرضُ عماك، ولكنك ظللت تتأمل طعامك في السماء. هاهي قساوة الحياة؛ ونحن من يدري ماذا سيحل بنا؟

غطى النسرَ بكومة من العشب اليابس ليجد راحته الأخيرة،وقال منصرفاً: ومع ذلك أنا من الذين يقولون إن الدنيا ليست فانية!

وفيما هو يسير بجانب نهر أبنه في مجراه غير العالي خطرت له فجأة سيسور مرة أخرى. قوامها، عيناها، حاجباها. وقبل أن يلتفت إلى شعرها خرج فجأة من وراء الفتاة التي تدفئ قلبَه الذكوري صورةُ شواي بين الابتسام له والعبوس وارتسمت في عينيه. لم يستطع إلا أن يهتم رغم تظاهره بالمشكلات التي عليه أن يواجهها.

على ما أظن _ قال بامبت: أغوي تركني، فإن كان سافر مع شواي على ما قالته لي زوجته، فقد روى له خبري. وكما يتهمون الذئب في ما افترسه وما لم يفترسه فقد اتهموني بما أستحق ولا أستحق. والتهموني لم

يتركوا مني شيئاً. أعرف أني مذنب نحو شواي؛ ومن كان يعرف أن له هذا الروح العنيد؟! ثم كيف تُقدَّم امرأةٌ مثلُ سيسور إلى رجل خدم الأمراء، حنى لهم ظهره حتى احدودب ومالت رقبته. ماذا كنت ستقول؟ أتسمح لهما أن يتشاركا وسادة أمام عينيك؟ مهلاً، مهلاً؛ من يتبع هذان الرجلان؟ أنا؟ إن كنت أنا فلماذا لا أتوجس شراً؟ لم أشعر أن أحداً يلاحقني حين رجعت إلى بيتي، وحين سافرت إلى جنجه بسنه،وفي الطريق الذي أنا عليه الآن. فلماذا لا يهدأ القلب؟

عندما تبرق في رأس بامبت مخافةٌ ما يهرب إلى أشد الأماكن عزلة، إذ اعتاد طوال عمره على أن يتخذ من الحذر حامياً له على مبدأ: إن كان للدنيا مئة عين فلي عينان. أسرع بحصانه والتجأ إلى الضفة، واتخذ طريق العربات. استمع بأذنين مشرعتين إلى كل اتجاه. ترجل وأمسك اللجام ودخل عمق الغابة. لف اللجام على فم الحصان وأمسكه باليدين وأصغى. لم ير في الأفق المنظور ما يشك فيه. ولم يسمع صوتاً غريباً.

يخرج نهر أبنه من مجراه بصوت متكسر، وقرية مرجان تطل من القمة. نظر بامبت باتجاه القرية: أيمكن أن أعثر على بفوق الثرثار؟ إن لم يكن في القرية فأين يكون. لا تدري؛ حبّبتُ إليه السفر فصارت بلاد الأديغة مضافة مفتوحة له، يمكن أن يكون في أي مكان متباهياً بالرجولة. قبل أيام كان مصراً على أن يرافقني إلى قصر حسن باشا إلى أن تخلصت منه بصعوبة. من الأفضل أن أتبع حوافر حصان هذا الصبي من أن يتبعني. إن دخلت القرية فسيتقاطر إلى المضافة من يعرفني ومن لا يعرفني، وسيسهر هؤلاء الكسالى يرتبون أمور العالم ويكرّهونني نفسي. وإن طلبت من أحدهم أن يدعو خورلوقوه مرجان الذي هاجمْنا مرة بيته إلى الخروج دون ضجيج ودون أن يعرفني كان حسناً. ما أبأس أن تبقى ولا أحد تعتمد عليه إلا بفوق! الوقت لم يعد مُلكي؛ هو مُلك شواي اليوم.

_ ماذا يا حصاني ألا تصدقني؟ نظر بامبت في عيني حصانه متعجباً من الخاطر الذي راوده، وغضب من جديد كأن هذه الخاطرة ليست وليدة أفكاره المتصارعة: لا يمكن أن يحدث هذا. الأمرُ لا ينطبق على شابسغ بامبت! نعم نعم يا حصاني، أنت تفهمني؛ لا يأس مادمنا أنا وأنت معاً.

دخل فارس متين ضخم على صهوة حصانه وأمامه ثوران ومحراث، وسبطانة بندقيته ترتفع من وراء ظهره، إلى السهل الذي يجتازه النهر.

صرخ بامبت عبر النهر:

_ أتذهب إلى القرية يا كبير؟

_ إن كان رأس حصاني موجهاً نحو القرية فنعم. _ أجاب العجوز دون مبالاة. وقال بطريقة يَفهم منها هذا الأخرقُ الذي ناداه أنه لا يزال يتمتع بنبله _ مع أنك تكره السلام أقول لك: تفضل!

يجب أن يكون عجوزاً عنيداً. ضحك بامبت في سره. كأني رأيت هذا العجوز مع ثوريه الأعجفين وقامته الضخمة. إنه يركب حصاناً ممتازاً يمكن أن تبيعه بسعر جيد. لا يعرفني ولا أعرفه. من المناسب أن تُسقطه من على ظهر الحصان وتجعله يسوق ثوريه على رجليه.

ورغم أن جواب العجوز على سؤاله كان فيه شيء من السخرية فقد استرجع بامبت سلوكَه غيرَ الصحيح أمام من هو أكبر منه فقابل الاحترام باحترام:

_ شكراً _ ما شأني بك؟ فكر في نفسه، كأنك بَعرة جافة. ولكن الفكرة التي خطرت له جعلته يندم:_ نتفضل بخير إن شاء الله، أنتظر فارساً من قريتكم، ويؤخرني غيابه.

_ من هو؟

_ قغزج.

_ قلت لي: قغزج؟ ونِعْمَ الصاحبُ! " لا يرقص أحد مع من لا يشبهه ولا يترافق شابان ليسا متشابهين " أقول أين رأيت هذا الفارس؟ صوته ليس غريباً، قال العجوز في سره. لا أعرف رجلاً في قريتنا بهذا الاسم. ظهر في قريتنا شاب أخرق ينادونه بفوق، وهو يسمي نفسه قغزج. أيكون هو؟

_ والله أصبت يا كبير. هو نفسه بفوق. ووجد الذريعة بسرعة: _ القضية أنه استعار مني كسائي، ولا أستطيع استرداده، وكما يقولون:" أرسِلِ الولد في مهمة والحقْ به!"

_ سيحدث معك ما هو أسوأ إن رافقت هذا الثرثار _ اختتم العجوز متجاوباً معه _ تفضل معي إلى القرية، تقضِ ليلك وتجدْ كساءك.

_ لولا أن مجموعة من الفرسان ينتظرونني لتفضلت.. تعرف عندما تجد نفسك في مضافة أديغية يا كبير فتقليد عدم سؤاله في ثلاثة أيام يحرمك حريتك.

_ وهذا حق _ وافقه العجوز _ الضيف حر في اختيار وقت مجيئه، وموعدُ انصرافه بيد المضيف. لن أدعك تفعل هذا وعدد كبير من الفرسان ينتظرونك. ولكني سأجعل بفوق يُهرَع إليك الآن نادماً على مافعل، ومتعهداً ألا يسوِّد وجه قرية مرجان مرة أخرى.

وفجأة ابتعد العجوز الحرّاث الذي صار محادثَه إلى الضفة الأخرى دون أن يهتم بمعرفة اسمه مع شك فيه. ليحقق لي ثرثاركم ما أريد! فليقف على رأسه وليشرب الماء من أنفه إن أراد؛ فماذا يهمني؟ ليست مهمتي أن أربي من لم يربّه والداه ولا قريته. إن أفادني في موضوع شواي وآل سلطان والقوزاق فسنرى إن كان يصلح رفيقاً أم لا. لاشأن لك بمن أصاحبه أو لا أصاحبه. إن استطعت أن تعمل في الأرض فاعمل، وإن كانت رائحة الحيوانات تعجبك فاشبع منها، ونحن لسنا بلا حصة من هذه الدنيا. لولا أخلاقي الأديغية لما سمحت لأمثالك، ليس بأن يكلموني، بل بأن يفتحوا أفواههم أمامي. من هو مدين لي في قريتكم هو خورلوقوه مرجان حمرز اللعين. لا يتأملْ أن أسامحه على ما فعل بنا يوم ذهبنا نعاتبه على تربيته ابن آل سلطان فقابَلَنا بمحور العربة وطردَنا من أمام بيته.

حين رأى بامبت الفارس الذي خرج من القرية مسرعاً قال: لم يخدعني العجوز.

صرخ بفوق وقد صار على ضفة النهر:

ـ هذا أنت يا بامبت!

ـ اعبر النهر دون ضجيج!

عبر بفوق النهر من المكان الضيق، وارتمى على الضفة الأخرى يسبقه عتابه:

ـ أيَّ كساء استعرت يا بامبت فجعلت خورلوقوه مرجان يعنّفني؟

ـ ها! جعل الاسم الذي سمعه بامبت يصرخ. ثم سأله متندراً بما حدث له: ـ أهو خورلوقوه حمرز؟ لم أعرف أنه الذي بعثته إليك. ليعتبر خورلوقوه نفسه إذن قد ولد وعليه ثوب الحظ!

ـ لا يليق بك ما تفكر فيه نحو كبيرنا.

ـ كيف فزعت بهذه السرعة؟

ـ لم أخف، أقول لك الواقع.

ـ لم يسمع كلامَ كبارنا في مسألة خان جري.

ـ وأنا لا أسامحه في هذا ولكن..

ـ حسناً تفعل؛ ليس في دنيانا اليوم أمان.. ولكن ما أريد أن أقوله يا قغزج: أسمعت قولهم: حيث يعيش الذئب لا يصيدون.

ـ نعم سمعت.

ـ ارتح إذن! سيظهر من يفعل هذا دون حاجة إلى تدخلك.

ـ ولكن مرجان أحد رجالات الشابسغ...

ـ ليس هذا مشكلة؛ تعال ـ لم يدع بامبت رفيقه يكمل كلامه.

ـ إلى أين؟

ـ حين يقولون: امشِ! لا يسألون يا بيتمال إلى أين. ألست أديغياً ؟ ألست رجلاً ؟ وجّه بامبت حصانه إلى الغابة.

ـ لن أدعك تأخذ عني مثل هذه الفكرة حتى لو كان حتفي حيث تصحبني. يا كبير! ـ لم يجد بفوق ما قاله صاحبه لائقاً به فلحق به.

كانت الشمس المتعَبة التي لا تنوي أن تنظر إلى الخلف تنطفئ في السماء حين أوقف بامبت حصانه فجأة.

ـ ماذا يا كبير؟ أوقعتْ عيناك على منظر مرعب؟ أوقف بفوق كذلك حصانه.

ـ أريد أن أسألك: أليست بلاد الأبزاخ بعيدة؟

ـ جداً.

_ إذن لن نخرج اليوم من حدود بلاد البجدوغ، ولن نتجاوز آل سلطان _ قال بامبت _ ما رأيك أنت؟
_ من يمكن أن يكون بلا مأمن أكثر من سيسور؟ أدار الحصان ببطء قال بامبت لنفسه وأسمَعَ رفيقه: سأقتلع مرارة شواي الذي يلاحقني بما أنويه له.

خيرٌ لي أن أتابع أموري من أن أسافرَ إلى بلاد الأبزاخ البعيدة وأتابعَ قضية ولد قوزاقي يسيل أنفه؛ قال بامبت وهو يقيد حصانه.لا لأن من بعته في قاي حبله لا يهمني بل لأني إذا أعلنت أني مشغول بسيسور فالموضوع الذي يلاحقني من أجله سيتغير في نظر الناس وسيتحول إلى موضوع نزاع عاطفي، وستتنوع رواية الخبر في المجتمع. أأنا سقطت من رأس شجرة؟ لن يكون من يصفّ إلى جانبي قلائل. والله لن أسيء إلى لابس قبعة من أجل لابسة حجاب. هل استشار آباؤنا أحداً حين خطفوا أمهاتنا؟ والقرآن الذي أنزله الله علينا يسمح لنا بأربع نساء. ليس علينا أن نخطف نحن، بل من حقنا أن تلحق بنا كل من نشير إليها. إذا كان القرآن يسمح بأربع فستكون سيسور الرابعة لأنها عصفورة الجنة، وسأكتفي بها وتكون آخر زوجة. وعندما يسمع شواي هذا سيندفع بلا عقل فيصبح مصرعه أسهل عليّ. لماذا أقترف ذنباً بحقه ؟ فمن يتدربُ معي على بعض المهام مستعد تماماً لينوب عني، وهو برفقتي.

خرج بامبت من أفكاره:

_ يا قغزج يا صغير _ ضحك بامبت _ بعد أن تستل السيف لا تفكر! أقول هذا لأنه عندما أجبرَنا القوزاقُ على الخوض في مستنقع قلشتوك لم يكن عندنا وقت للتفكير. وأنا وحدي قتلت هناك أكثر من عشرة _ من كان عنده المزاج ليعدهم؟! _ حسناً يا قغزج قل لي _ غيّر بامبت الموضوع بسرعة: من سمّاك هذا الاسم _ لا تؤاخذني _ لا يعجبني.

_ ولماذا لا يعجبك؟ _ لجم قغزج حانقاً حصانه _ هو اسم ممتاز.

_ كيف يكون ممتازاً يا بيتمال؟! بالنسبة إلى بفوق _ هذا الذي ألصق بك هذا النبز خان جري ذو الرأس المستطيل أليس من سلالة كلاب؟ _ ليس اسم قغزج سيئاً. ولكن أليس أفضل أن يقولوا لك: امشِ إلى الأمام من أن يقولوا " ارجع "؟

أقلع قغزج ضاحكاً بالحصان:

_ إذن يا كبير أنت لا تعرف معنى الاسم الذي سماني به والدي الذي قضى زمن الأتامان اللعين بورسكا: حين تخرج من بيتك إلى الغزو، إلى الحرب، ارجع سالماً إلى من تركتهم!

_ حقاً يا قغزج؟! _ تظاهر أنه تعجّب مما سمع، يجب أن أحرص على رفيقي إذ لن يكون خداعه سهلاً. وأجاب بارتياح: _ والله لم تترك لي شيئاً أقوله في موضوع اسمك.. عجيب أن عقلي لم يستوعب المعنى! لا يجوز أن تسامح من غيّر لك هذا الاسم الرائع إلى بفوق.

_ مهلاً، مهلاً؛ هذا المنحوس سنصل إليه كما نصل إلى اليوم والغد. وسأرسل معه هذا الاسم إلى حيث لن يسمعه إلى الأبد، إلى الآخرة.

ـ يا قغزج ـ الآن قلق بامبت جدياً ـ إن اتفق ووجدنا هذا الرأس الصغير في البيت فإياك أن توقعنا في مشكلةٍ نحن في غنى عنها.

ـ هذا حسب رأيك.

ـ ليس موضوعنا اليوم انتقاماً.

ـ قلت لك يا كبير: الأمر يتعلق بك.

ـ مهمتك هي: عندما أخطف سيسور ستواجه أنت من يأتينا من الخلف.

ـ هذا لا يحتاج إلى كلام يا بامبت؛ ثق بي!

دخل الفارسان إلى لوستان حبله وقت إشعال الأضواء وركون الناس إلى الهدوء. وربطا حصانيهما بالمربط دون أن يلتقيا بالكثير من الناس. ودون أن يذهبا باتجاه دار الإمارة دخلا من باب الموالي إلى غرفة سيسور. وتساءلا لماذا هي مطفأة:

ـ أليس في الغرفة أحد؟ لم يرتح قغزج للغرفة التي دخلاها: باردة ومظلمة.

ـ مظلمة ليس مشكلة ـ قال بامبت ـ أأكون سمحت لشواي أن يستولي على سيسور لأنه شواي فحسبُ ؟ـ سرى القلق فجأة إلى قلبه، ليس اليوم، بل منذ أيام لم يدفئوا الغرفة ـ لا تتحرك! ها هم يأتون بالمصباح.

ـ لم يأتوا بالمصباح من دار الإمارة ـ قال بفوق ـ ربما لم نعجبهم فينيروا لنا الغرفة.

ـ ليأتوا به من أي مكان! المهم أن يسمحوا لمن جئنا من أجلها بالدخول ـ هؤلاء عندهم رجلان من الموالي أحرص من الكلب المربوط، أحدهما قايمت والآخر حاج قسي. انتبه إليهما! احذر منهما... اعمل بهما ما تشاء، أحّرهما وأنا لن أسمح لعيونهما أن تقع على سيسور بعد اليوم.

دخل حاج قسي الغرفة حاملاً بحذر مصباح الزيت الزجاجي المثقوب ممسكه، وسلم عليهما ثم برّأ نفسه:

ـ تركتما تجلسان في الظلام، ما أخبار بلاد الشابسغ؟

ما أضخم هذا الرجل! ـ قال بفوق متأملاً الرجل الجالس مقابله حاج قسي. كان الأفضل أن تطلعنا على أخبار بلادكم من أن تسأل عن أخبار بلادنا. قال بامبت كما رفيقه، ولكن حاج قسي لم يمهله حتى يجيب فسأله:

ـ من رفيقك يا بامبت؟

ـ سأعرّفك على رفيقي يا حاج قسي: هو من قرية أتاليك آل سلطان خورلوقوه مرجان، ليس فقط من قريته بل جاره تماماً.

ـ ربما يكون بفوق؟ ـ قال حاج قسي ـ يظل خان جري يذكره.

ـ ليس اسمي بفوق يا كبير ـ لم يصبر قغزج.

ـ هذا اسمه ـ قال بامبت وقد تحقق ما يريد ـ قغزج.

ـ والله ما كنت أعرف.

ولم يكن بامبت يريد أن يتحول إلى راو للأخبار:

ـ لا أعرف سبب امتناع سيسور التي جئنا من أجلها عن الدخول؟

ـ سيسور وقانتات السيدة الكبرى ـ ضحك حاج قسي في سره ـ عند المحترم خان جري في قلعة إيكاترينودار.

ـ مستأجرين بيتاً؟

ـ يعيشان هناك.

ـ ولا يأتيان؟

ـ أحياناً فيسراننا.

ـ والله عجيب ما تقول ـ تبادل بامبت وبفوق نظرات واجمة كأنهما يقولان: سنعود بخفي حنين.

ـ وسأقول لكما شيئاً آخر: ـ قال حاج قسي للخاطبين أمامه: ـ أنت من أتوجه إليه بالكلام يا بامبت، ولا علاقة لبفوق بالموضوع، بل قغزج، لا فرق كبيراً بينهما. قلت ربما تتسلى على سبيل المزاح فلم أعاتبك، ولا أظنني فعلت ما يعيب. من الأفضل أن تقف عند هذا الحد في ما يتعلق بأختنا الصغيرة سيسور. لا تقف في طريق حظ الفتاة. أنت عشت ما عشت؛ أما سيسور فبدأت حياتها الآن فحسب. لأنها ترى الدنيا بقلب وعين صافيين. ليست من ثوبك، لا تسبب لها الأذى! وستقابل إن فعلت من لا يقبل منك فِعلتك.

ـ أفضتَ في الكلام ـ قام بامبت.

ـ والله صحيح ـ وافقه بفوق.

ـ أنا أقول ما يجب قوله؛ فإن تجاوزتما فأمامنا ما سأفعله!

VII

لا يزال أمام شواي ورفيقيه كثير من الوقت ليصلا إلى معبر نهر بشزة المقابل لفاسيورينسك. وعلى الحدود بين بلاد الأبزاخ وبلاد الابجدوغ قال بشه ماف ما يقلقه من البارحة:

ـ لا تؤاخذاني! لا يزال ما فعله بنا القوزاق في مستنقع قلتشوك ماثلاً أمام عينيّ، لن أستطيع الذهاب معكما. هذا الصبي ما ذنْبُه فلا أشاركه فرحته؟ ولا أعني أني لا أقف معك في السراء والضراء، وأنت أيضاً يا عمر، افهماني اليوم!

ـ والله هذا مؤسف يا بشه ماف ـ قال باجقوه عمر دون عتاب وكأنه كان يتوقع هذا الموقف. لو كنا ثلاثة لكان لنا اعتبار أعظم عند القوزاق. لا أعرف رأي شواي ولكني من جهتي أوافقك. الدنيا ليست كلها جميلة: لبعضهم مأتم ولغيرهم عرس.

قال شواي الذي شحب لونه ثم رجع إليه:

_ ما الذي بيدنا يا عمر؟ _ هذا عالمنا... موقفك من بشه ماف عادل. وأفهم يا بشه ماف أنه لو لم يكن عمر معي ما تركتني وحدي.

_ حقاً يا شواي، حقاً! ما كنت لأتركك وحدك؛ ولكن لماذا أكتم؟ كنت مضيت معك حاملاً في قلبي المأساة التي تسبب لنا فيها القوزاق، قائلاً في نفسي: هذا ما كتبه الله عليّ.

_ شكراً يا بشه ماف بحثتَ معي عن بانتالي، وعمر من جهته تفهّمنا. اختتم شواي فجأة الموضوع الذي ثار. ثم صاح لا يريد أن يأتي على ذكر امرأة أمام عمر: ليتك أبلغت حاج قسي أو قايمت أخباري، وليأخذوا حذرهم من بامبت!

قال عمر بعدما مشى الفرسان الثلاثة ما يقلقه:

_ لا تحزن يا بانتالي لأن بشه ماف تركنا! ذهب إلى البيت فحسبُ، لا تظن أن هناك سبباً، وأنت سمعت _ بشه ماف رجل طيب.

_ أفهم ياعمر_ ابتسم بانتالي لعمر _ إنه إنسان لطيف.

كان شواي يسمع حديث عمر وبانتالي الخليط من اللغتين، ولكن ما يُثقله كان شيئاً آخر، وهو نفسه خليط كلغة الحديث بين عمر وبانتالي: من جهة هو فرِحٌ لمن يعيدون إليهم فتاهم، ومن جهة أخرى بامبت، وقانتات، وسيسور... وإليهم ينضم ما يشبه أن يكون هماً: الصبية أنفيسكا.

المشكلة الأولى ثقيلة: فرحة والدَي بانتالي لا توصف بالقياس إلى ما تكبّده باجقوه عمر وبابونا زوجته لفراقه. وسيجتمع آل بادينكا وغيرهم للاحتفال، وقد ينضم إليهم، وقد ضمنوا أن فتاهم رجع إليهم، من كانوا يلوّحون بقبضاتهم تهديداً عبر النهر. أما قضيتي أنا فهي التي لا نهاية لها، وإن جعلت لها بداية. لو استطعت أن أذهب إلى إيكاترينودار انطلاقاً من فاسيورينسك لكان مناسباً. ولن أستطيع التفاهم مع قانتات دون أن ألتقي أولاً بخان جري على حداثة سنه. وستتعلق قضيتي أنا وسيسور بهذا اللقاء. ولن ينال مني بامبت ما يسره.

خرج شواي من أفكاره ونظر نحو بانتالي: الله وحده يعلم ما يعتمل في صدر هذا الفتى اليوم. من المؤكد أن كثيراً من الأحزان والآلام تجمعت فيه؛ ولكن ألا يعود إلى والديه رغم ذلك! كيف ستتصرف معي ومع بانتالي ابنة جيرانه أنفيسكا؟ آه منك يا أيتها البريئة الجَفول! وعمر؟ أعجَبُ من عمر هذا أكثر مما أعجب من الجميع... بابونا زوجته لازمت الفراش حزناً، ولكنه لم يُبدِ انفعالاً. وهاهو الآن مشغول بحماية بشه ماف غير عابئ بحاله. يجب أن يعيش الإنسان كعمر موزِّعاً خيرَه على من تمسّه بركاتُه. وليس مثل بامبت يدمر حياة من تصل إليه يده، باحثاً عن سعادته في أحزان الآخرين.

حين خرج الفُرسانُ من عمق الغابة لاحت فاسيورينسك على الضفة اليمنى للنهر. نظر شواي خلسة إلى بانتالي وكأنه يقول له: ألم تعرف قريتك؟ وتأمل في وجه عمر الذي يسير بينهما، وهشّ له.

وفي هذه اللحظة هتف بانتالي:

_ انظر ها أنذا أرى أراضينا ومنزلنا القروي وكوخنا !

_ ماذا يا ولدي؟ أرأيت بيتكم؟ _ قال عمر فرحاً لأجل الفتى: _ نعم نعم يا ولدي: منزلكم منزلنا.

_ لا تنسَ ! سنتآخى، تآخينا مع والدك. وافق بانتالي عمر بخدين متوهجين وعينين لامعتين من الفرح.

_ يا ولدي، نحن أهل؛لا تنس أننا تآخينا مع والدك.

_ أتظنان أن القوزاق والأديغة يقبلون منكما هذا الكلام؟ _ لم يستطع شواي إلا أن يقول هذا رغم أنه لم يكن يريد تعكير فرحتهما.

_ يا من أدعو له بالنماء؛ من أجل أن يتقارب شخصان من عرقين مختلفين _ منذ أن تعارف عمر وشواي ارتفع للمرة الأولى صوت عمر محتداً _ أليس من ذكرت أسماءهم بشراً فلا يقبلوا منا؟ ما رأيك أنت يا بانتالي؟

_ نحن الناسَ يجب أن نتفاهم. أجاب بانتالي باختصار.

_ نعم يا ولدي نعم. نحن أصبحنا أقرباء.

_ وهذا رأيي أيضاً _ قال شواي _ ولكن ترون بأعينكم ما جرى بيننا.

_ صحيح والله _ قال عمر وقد هدأت حدة صوته، وبعد وقفة أضاف _ الأديغة ليسوا صالحين، والقوزاق كذلك؛ هؤلاء إن تطلق حريتهم يقلبوا الدنيا رأساً على عقب. وهؤلاء الذين نذهب إليهم لا أعرف كيف سيستقبلوننا.

_ لا تيأس يا كبير!

_ هه يا شواي أترى على وجهي مثل هذا الانطباع؟ _ حثّ عمر حصانه على مزيد من السرعة _ إن داخلكما شيء من الرعب فاتبعاني؛ لن ندعهم يقولون إن الأبزاخ سكان الغابة المتوحشين ارتعبوا.

حين بدأ الفرسان الثلاثة يعبرون نهر بشزة من الجانب الأديغي هرب الصبية بائعو السمك القوزاق إلى الأعلى. وتخلصت امرأتان من حملهما من الماء والتحقتا بالضفة. وظهر عدد من فرسان القوزاق جاهزين ببنادقهم.

صاح بانتالي بالقوزاق:

_ لا تطلقوا النار؛ هذا أنا بانتالي بن سافيلي بيتروفيتش بادينكو !

_ انظر ! _ رمى أحد الفرسان القوزاق الشباب نفسه من سرج الحصان _ هذا هو بانتالي صديقي!

_ اسكت يا ألكسي ! _ نهره أكبر الفرسان القوزاق.

_ يرافقني صديقي الشركسي الطيب _ نادى بانتالي مرة أخرى القوزاق.

_ أي شراكسة طيبين ؟ ! إنه عدو ! _ مرة أخرى غضب الكبير الذي لجم ألكسي صديق بانتالي _ إنه مسلم !

_ ياولدي أنت حيّ ! _ جعل صوت بادينكا سافيلي الذي تعرف ابنه من وراء الفرسان، جعل الحضور يلتفتون. ثم رجع إلى رشده، وبيد ممدودة، هب ليعانق ابنه الذي قفز من على ظهر الحصان. وبعد أن نفّس عن لهفته بشفتين مختلجتين، تعرف أحدَ الفارسين الضيفين:

_ أهذا أنت يا إبراهيم ؟ ! شكراً على أنك لم تخدعني.

ورد شواي بصوت يسمعه الحضور:

_ كان اسمي إبراهيم حين كنت أسيراً، أما الآن فأنا شواي.

ومرة أخرى قال القوزاقي البدين ووافقه رجل آخر:

_ انظروا أيها الحشد إن هذا الشركسي يخدعنا حتى هنا !

_ اللعنة ! أنت ماذا ؟لم يقبل بادينكو سافيلي ما سمعه _ هيا يا "شافاي" _ استعجل بانتالي _ إنه معلمي الطيب عمر الذي هو لي كالأب.

_ ماذا قلت اسمه ؟ آه مفهوم، وأنت يا عمر وأنت يا شافاي شكراً لكما في مساعدتكما من أجل ولدي _ تعثر بادينكو الأكبر وقد نسي الاسم الذي نقلوه إليه _ لماذا لا نزال واقفين ! هيا أيها الضيوف الأعزاء إلى دارنا، أرجوكم بكل لطف. أما أنت يا ولدي فأسرِعْ إلى جدتك. لقد مرضت ولازمت الفراش بسببك.هيا أسعِدها وواسها.وأنتم أيها القوزاق الطيبون يا أهلي إلى دارنا؛ سنطهو لكم خنزيراً، ولضيوفنا الأعزاء خروفاً سميناً، هيا أدعوكم بكل حرارة... ماذا يا إيفان فيدوروفيتش ؟ يا جاري العزيز لماذا لا تزال واقفاً ؟ هيا صاحِبِ الضيوف إلى الدار !

تذكر شواي اسم أنفيسكا حين سمع اسم كاشورا إيفان فيدوروفيتش فحسبُ. حين أطلقوه من الأسر انتصبت أمام عيني شواي كيف عانقته، وكيف عنّفها والدها فأدخلها الغرفة، وكيف كانت تراقبه من شق الإسطبل، وكيف كانت تضع له قطعة من اللحم داخل الرغيف، وكيف أرته ساقيها متراجعة إلى ما وراء الشق مرتدية حذاء لماعاً.

يبحث عن أنفيسكا فلا يراها بين الصبيان ولا الصبايا. لماذا ليست بين كل هؤلاء المحتشدين؟ احتل من يعرف بانتالي ومن لا يعرفه ضفة النهر؛ وأنفيسكا لا تظهر! أتكون في البيت لا تعرف الخبر؟ هذا مستحيل فالقرية بكاملها غزت الضفة؛ أتكون صماء فلا تسمع؟ لولا أن حدثت لها مشكلة لكانت أول من يصل فقد ربيت هي وبانتالي معاً. وليس هذا فحسب؛بل إن الأسرتين تتوقعان أن تتوطد بينهما علاقة قرابة بسببهما.

تهيّأ لشواي أنه سمع أحداً يناديه وهو يقترب من بيت بادينكا. وحين نظر رأى أنفيسكا وغطاء رأسها يغطي كتفيها واقفة على باب الدار تمسك يد أخيها الأصغر. تداعى قلب شواي فجأة لا يدري ماذا حدث له. ولوّح لها. ثم فزع من كونها واقفة وحدها حزينة ليست بين أترابها.

***

_ أتعرف بم فكرت البارحة واليوم يا شواي؟ _ قال عمر عندما بقيا وحيدين على مائدة إفطار بادينكا وقبل أن يصبحا على طريق العودة؟ _ كوننا نحن والقوزاق غير صالحين.

_ كنا تحدثنا في الموضوع أمس؛ لا أعرف لماذا رجعت إلى التفكير فيه؟ _ قال شواي دون مبالاة وهو يريد أن يسمع منه المزيد دون أن يقاطعه.

_ تكلمنا فيه أمس _ أكمل عمر بصوت هادئ _ ألا ترى، نمّى الله أصلك، ما يضطرم في الأسرة القوزاقية أمس واليوم؟ وأكمل بعد انقطاع قصير بصوت يبين منه اللوم: _ حرمناهم فرحة ابنهم إلى الآن؛ من يقبل منك هذا؟ أنا نفسي لا أتحمل.

_ ماكان عليهم أن يدخلوا إلى أرضنا ويقيموا مقابلنا. _ هتف شواي وقد هاجت في رأسه ذكريات أيام الأسر، مجبراً عمر أن يرفع رأسه الضخم عن كأس الشاي.

_ ألا يتبين إذن أن أغوي بشه ماف كان أعقل منا حين رفض المجيء معنا إلى هنا؟ وافقتُه مأخوذاً بما حدث له من مأساة في مستنقع قلشتوك.

_ تعجبتَ مما قلتُ لك يا عمر ولكنك أجبت عنه.

_ وكيف أجبتُ عنه؟

_ لست أتكلم على أسرة بادينكا التي نحن الآن على مائدتها... هؤلاء ليسوا شيئاً. إن قالوا لهم قاتِلوا قاتَلوا، إن قالوا لهم: من ليسوا على دينكم لا دين لهم أعادوا الكلام. هؤلاء سهل اقتناعهم مثلنا. لا أقول ليس بين هؤلاء ناس سيئون، ولكن أتكلم على أمثال الجنرال فلاسوف والجنرال يرمولوف.

_ هكذا صحيح _ يوافقه عمر. ثم كما يقال: "كلّ امرئ هو وما يصدع رأسه " يتنهد ويغمغم: _ لا أعرف والله كيف سأعود إلى البيت، وكيف سأواجه ابنة آل داور؟ أكذب على نفسي فأنصحها ألا تشتاق إلى بانتالي الذي ألحقناه بأمه وأبيه فأكذب عليها. ألم يعش بيننا؟ ألم يكن أمام أعيننا؟ ومع ذلك فلأنه رجع إلى أسرته الطيبة التي خرج منها سأفهِم هذا الوضع للعجوز ونريح قلوبنا. ولا أعرف ما رأي القرية في ما فعلتُ؟ _ رجع عمر إلى وعيه خجلاً من أفكاره الحزينة الملأى بعتاب الذات واختتم: _ أنا مرتاح لأن الفلاحين الشغيلة القوزاق أمثالنا لايقاسُون بزعمائهم يا شواي.

_ أنا سعيد باتفاقنا يا عمر. ستفهمك الأسرة التي رجع إليها بانتالي، وكذلك بابونا والقرية؛ فلا تلم نفسك، سيقدر الجميع معروفك. ولكن لي عندك رجاء قبل أن أعود معك إلى قاي حبله. بما أننا وصلنا إلى هنا فعندي ما أهتم به في إيكاترينودار، لن نطيل هناك؛ يسرني أن تسافر معي إلى هناك.

_ نعم! فزع عمر من الرجاء غير المنتظر، وسأل وعيناه المستديرتان الواسعتان تفضحان شكوكه:_ ما الذي جرى فنقتحمَ أعماق بلاد القوزاق؟

_ سكان قلعة إيكاترينودار وسكان هذه البلدة حيث نحن متشابهون. _ هم بشر، قوزاق _ ماكنت لأترجاك لولا أني مضطر إلى الذهاب إلى هناك يا عمر.

_ أعرف أنك لا تترجى كثيراً... ولكن لا أوافقك على أن قوزاق تلك القلعة مثلُ قوزاق هذه البلدة. سكان هذه _ عمال وكادحون، والقلعة عش للزعماء. يقال إن فيها الجنرال فلاس والأتامان ماتفيي[1] وآخرون من الأشرار. على كلٍّ مادمتُ سافرت معك فلن أجعل من نفسي نصف نبيل. أقول فقط ربما حصرونا في القلعة بقضاء الله. والعجوز تركتها وحدها في البيت .كان بوده أن يضيف الجملة الأخيرة غير أنه أبى على نفسه.

_ لا تقلق لهذا! _ ابتسم شواي ببراءة مرتاحاً لاستطاعته إقناع من ترجاه.

_ لماذا؟ هل تتحكم في القوزاق؟ أهُمْ في قبضتك؟

_ وعدني الأتامان كاشورا الذي كان جالساً إلى جنبك أمس أن يكتب لكلٍّ منا ورقة.

_ ماذا سيكتب فيها؟

_ سيكتب فيها أننا أصدقاء لبادينكا سافيلي.

_ لا بأس بهذا! نتعارف ونؤسس علاقة مودة. ولكن لا أعرف لماذا يجب أن تشهد على هذا بالكتابة.على كل حال إن كنا سنذهب إلى قلعة القوزاق فلا بأس بشاهد إضافي. خذ منه! والله هذا الأتامان كفيدوروفيتش رجل شديد، ما أكثر ما شرب من العرق! أزعجني عندما سكر بإشارات مرفقه المصاحبة لحديثه إليّ. ولم أكن أفهم أكثر ما يقوله لي. وماذا يمكن أن تفهم وأنت لا تكاد تعرف لغتهم! ولكن لا أتهم أحداً ظلماً. الحق أنه لم يعبس في وجهي ولم يقل لي سوءاً. يا ربي إن تراجع عن الورقة التي وعدك بها... والله لا أعرف رأيك أنت ولكن ستنفعنا هذه الورقة إن جئنا إلى سوقهم.

دخل بانتالي فرحاً إلى الغرفة وسأل:

_ شواي ما اسم أسرتك؟

_ سألتني عن اسم أسرتي؟_ في خلال ثلاثين عاماً هي عمر شواي يُسأل أول مرة هذا السؤال _ ووجد جواباً مختصراً رغم أنه وجد نفسه لا يعرف بم يجيب وقلبه يقطر ألماً: _ اكتبْ: سلطانوف.

_ وورقتي أنا يا ولدي؟ استعجل عمر.

_ ورقتك جاهزة منذ زمن بعيد _ نظر بانتالي إليه مرة أخرى وخرج.

_ قل لهم يا ولدي أن يختموه _ صاح وراء الفتى المنصرف ثم قال لنفسه: _ الأتامان لم ينس، يفي كفيدوروفيتش بما يعِد به... _ ثم قال عمر بعد قليل بمزيد من الراحة: _ أسمعت يا شواي؟ يحاول بانتالي ألا ينسى لغتنا رغم عودته إلى أهله!

VIII

قطع شواي المسافة بين فاسيورينسك وباشكوفسك على أمل الوصول إلى المدرسة التي يدرس فيها خان جري في إيكاترينودار قبل أن ينتهي الدوام المدرسي. وقطعا مسافات والعدْوُ أكثر من الخبب. التقى

[1] سيُلاحظ على امتداد الرواية تحوير الأديغة للأسماء الروسية بحذف اللاحقة: "وف" و" يف". المترجم

الفارسان الأديغيان بالفرسان القوزاق وبالمشاة رجالاً ونساء، ومرّا بجانبهم، وخلّفا وراءهما عربات الثيران وعربات الخيول. ولم يوقفهما حراس المراصد ويسألوهما إلى أين يذهبان، ومن أين يأتيان، ربما لم يكونا يتجنباهم مرتاحَين لترخيصيهما. ولم يندر أن يتبادلا معهم تحيات بهز الرؤوس. وكانا يفهمان، وإن لم يلتفتا إليهم، أن بعضهم يرميهما بنظرات حانقة. وفي كل مرة كان شواي يقول لعمر الذي على يمينه: لا تهتم بهم، لا تنظر إليهم.

لم يكن قليلاً ما يعتمل في قلب عمر وإن لم يقل شيئاً. وكان الرجل الضخم الذي لم يعتد على الأسفار الطويلة يفضل أن يفعل أي شيء على أن يترجرج على سرجه.

يعاتب عمر نفسه: لماذا قبلت أن أسافر مع شواي اليوم بدلاً من أن أعود إلى بيتي؟ ألا يكفي ما فعلت لأجله أمس وأول من أمس؟ ثم إلى أين نسرع؟ يقول إن من الضروري مقابلة الأمير الشاب! ألا يكفي _ نمّى الله أصلك _ أنك انتكبت لأجل هذه الأسرة؟ أنظر إليك فأراك كما يقال " لا أنشأت أسرة ولا أنت شابٌّ لتعبث ". ماذا ستقول للأمير الشاب؟ أتتأمل أن يفهمك أكثر مما تفهمك سيدة آل سلطان قانتات، وتحصل منه على التزام ما؟ متحرجاً من شعوري القومي أراني وقعت في شيخوختي في موقف عجيب كما يقول الشابسغ. هناك تركت عجوزي في البيت الفارغ، وحقلي نصف محروث، وأبقاري بلا علف. إن لم تثلج فلن تفوتني الحراثة، ولكن لا أعرف من سيقود ثيراني الآن. من أين جئت يا شواي؟ جلبت لي مصيبة بفقدان بانتالي.

لم يكن شواي مرتاحاً. ولو لم يكن له من همّ إلا عبور ناحية باشكوفسك فقد كان مشغولاً بما سيقابله به من يقصده، والأفكار التي تتسارع إلى الذهن ليست قليلة. تبين أن بانتالي حسن الحظ، قال شواي في قلبه. ولأن قلبه طيب فقد سقط من يد النسر القاتل الذي خطفه ووقع في يد رجل مبارك مثل عمر. وأنا؟ لا أستطيع أن أقول إن الذين كان حظي أن أعيش في أسرتهم سيئون. ولست وحدي؛ سيسور أيضاً وقعت بين أيديهم يتيمة فربيت على بلاط بيتهم. الذنب كله ذنبي. أنا ظلمتها،وليست قانتات وحدها. أسرعت المسكينة إلى داخل غرفتها خائفة من طريقة استقبالهم لي. ولا أعاتب قانتات التي اتهمتني بما لم أفعل. كان خان جري الوحيد الذي يفهمني في ذلك اليوم؛ فإن تقابلنا اليوم تصارحنا أكثر وأكثر.

قطع وقع حوافر الخيول التي سمعها من ورائه عند مخرج باشكوفيسك أفكاره. وقال لعمر: _ لا تزد سرعة حصانك ولا تنقص، ولا تلتفت إلى الوراء!

_ إنهم عدة فرسان ويلحقون بنا.

_ لن نتوقف إن لم يرمونا.

_ لن نجعل الأمر يصل إلى هذا الحد.

_ لا يحب القوزاق من يتكوّر على نفسه.

_ إن كان الأمر هكذا فلن أنكمش على نفسي، بل لن أُظهر على نفسي الفزع.

وكما كان يفكر شواي سمعا صوت إطلاق نار فوقفا.

_ من أنتما؟ وأين تذهبان؟ سأل الأكبر بين القوزاق والمسدس في يده مُوقفاً بصعوبة حصانه المندفع.

_ نحن من الضفة اليسرى للنهر. _ أجاب شواي كاظماً غيظه، قائلاً في نفسه: ماذا يريد منا هذا المهرج، لم نحارب ولم نغزُ؛ لماذا عيناه جاحظتان علينا؟ _ كنا في فاسيورينسك، والآن ذاهبان إلى إيكاترينودار.

_ ماذا لكما في فاسيورينسك لتكونا فيها؟ _ قال الشاب الأسمر الذي يتدلى سيفه على فخذه وغُرَّتُه على جبينه.

_ أرِهِم الورقةَ _ قال عمر بالأديغية مستعداً لكل طارئ ولو أنه يكظم غضبه هو الآخر.

_ أغلق فمك المسلم! لم يتحمل القوزاقي الواقف خلف القوزاقي الأسنّ لغته الأديغية.

_ لماذا تسمح لهذا الواقف وراءك أن يشتمني وأنا الأكبر _ غضب عمر بالأديغية، ثم رجع إلى لغته الخليط غير واثق منها: _ إذن من الواضح أنك لست كبيراً، لا تزال آثار حليب الرضاعة على شفتيك ونحن نؤنب الأكبر منك سناً. أي، أي ! يا لخجلنا كيف لم نحترم الكبير ذا الرأس الأشيب! _ خطف عمر الورقة من جيبه: _ انظر كيف أن عمر باجوق أخٌ بالتآخي لبادينكا وأخ لكاشورا.

_ بانتالي لا يزال حياً، أُعيدَ إلى منزله، أما أنت يا عمر الطيب فتقوم بتقريع هذا العجوز ! أي، أي ! يا لَعَيبِ القوزاق ! _ كان القوزاقي الأصغر قد استأنف غير أن الأكبر لم يقبل.

_ إذن هذا هو الشركسي !

_ أفهمت ما قاله الأكبر؟ على ما يقول أحضَروا لسافيلي بيتروفيتش ابنه بانتالي، اقرأ ما في الورقة!

_ لا، لا، لا أعطي _ لم يعط عمر الورقة للقوزاقي الأصغر بل للأكبر الذي ارتاح له قلبه: _ اقرأ بنفسك أيها العجوز !

قلّب القوزاقي الأكبر الورقة خجلاً من أن يظهر أمياً، ونظر إلى الأصغر بطريقة يبدو منها أنه يريد أن يقرأها له. وكما لو كان يناكد الآخرين الذين كانوا يبتسمون قال وهو ينظر نحو عمر كمن يستأذنه:

_ ليقرأه القوزاقي الكبير باتارشوك!

ومفتخراً بكونه يعرف القراءة، ودون اهتمام بمحتوى الورقة، قرأ باتارشوك بيدين ممدودتين ورقة التصريح. ففرح القوزاق بما تشهد به الورقة. قال عمر وقد عادت إليه ثقته بعدما فارق القوزاقيَّ الأكبر عبوسُه وأصبح في موقع صاحب القرار:

_ يا شواي اسحب الورقة من جيبك بحيث يراها !

_ لا ضرورة _ لم يقبل القوزاقي الأكبر وشدد على رفاقه: _ أفسحوا الطريق لأصدقائنا؟

_ امش يا شواي! _ حثّ عمر حصانه _ هؤلاء ليسوا سيئين.اسمع ! ثم استدار:

_ يا كبير ما اسمك ؟

_ اسمي خارشينكو ماريوس إيبوليتوفيتش

ـ ينادونك باسم جيد؛ أليس كذلك يا شواي !

ـ نعم نعم يا عمر. قال شواي الذي لم يكن نطق بشيء إلى الآن.

ـ ينادونك باسم جيد ! كرر عمر.

ـ وأنت يا أيها القوزاقي الأكبر، أنا من قرية قاي حبله تعال لزيارتنا !

ـ نعم، نعم قريباً سنحضر ـ ابتسم خارشينكو ماريوس. ثم نادى رفاقه: ـ رافِقوا الأديغة إلى قلعة فيليومونوف، ولا تسمحوا لأحد أن ينظر إليهما نِظرة عداء.

عندما أنهى القوزاقيان المرافقان مهمتهما وفارقاهما سأل شواي:

ـ حقاً يا عمر من أين تعلمت القوزاقية؟

ـ لماذا؟ أقلتُ ما يعيب؟!

ـ أودّعونا ومعنا مرافقون لو قلتَ ما لا يجوز يا عمر ؟

ـ هذا حق! ولكني لست من يجب أن تشكره بل الورقة التي زوّدنا بها كاشورا القوزاقي. ألم تر كيف تعامل معنا القوزاق حين قرؤوها؟ أخرسَتْهم، تبين أن كاشورا غيرُ ما توقعته أن يكون. أظنه رجلاً مشهوراً. لهذا طلبت منهم أن يمهروا الكتاب بالخاتم .يا من بارك الله في نسله، وثقوا بنا فاكتفوا بورقتي ولم يطّلعوا على ورقتك أنت. حقاً يا شواي كما يتهمون الذئب بما لم يأكله، ليس هؤلاء بالناس الأردياء.

ـ كنت ستعرفهم على حقيقتهم لو لم تكن الورقة في جيبك ـ قال شواي دون حقد ظاهر مغلوباً بمشاعره أيام الأسر وابتسم، ولكنه ماكان يريد أن يذم الناس الذين صاروا معارف لعمر فيجرح شعوره. فأردف بسرعة: ـ والله يا عمر نَفَذْتَ فيهم عميقاً وبقسوة، مُلزِماً إياهم باحترام الكبار، ففرضت رأيك على كبارهم وصغارهم.

ـ أليس لهذا السبب أقول: ليسوا سيئين؟ فيهم بعضٌ من عاداتنا ونُظُمنا. وقد فهموا، لا مسألة التصريح فقط، بل عتابي لهم. وحتى الوحوش أحياناً تفهمك، فكيف لا يفهم الإنسان؟! وبالنسبة إلى ما سميته "لغة القوزاق ": أقول شكراً لأسواق القوزاق ـ الأديغة، هذا الرجل الذي افتتح لنا أماكن المقايضات تلك، نسيت اسمه؛ ما اسمه؟

ـ ديسكاسي.

ـ نعم هو، هذا الرجل ـ لِيطلِ الله عمره ـ جعلنا نتعلم القوزاقية في أسواقهم. وهم يقابلوننا ببعض كلمات من لغتنا أحياناً. هذه هي دنيانا التي نعيش عليها: يصدف أن تضطر من أجل ألا تسمح للكلب أن يأكلك إلى أن تتعلّم اسمه وتلاطفه. وهذا هو بالضبط ما جرى لنا اليوم. ودّعَنا الناس الذين اعترضونا بمصافحات حارة، ولكن لا أعرف كيف سنتصرف إن وقعنا في مأزق آخر.

ـ إن حدث مثل هذا ـ قال شواي ـ لا يتأمل أحد خيراً من الطرف الآخر! ظهر هذا هنا وفي كل مكان آخر.

ـ والله لا أعرف إذن ـ قبل أن يصلوا إلى جسر كاراسون بقليل سأل عمر: ـ قل لي يا شواي: مَنِ الصبيّةُ التي كانت تنظر إليك واقفة على الباب الضيق لدار كاشورا ؟ تلك التي كنت تلوّح لها البارحة واليوم... لم تكن البيتمال ترفع عنك نظراتها.

ـ ابتسم شواي:

ـ ألاحظت هذا أيضاً يا عمر؟

ـ حتى لو كنت أعمى ـ ضحك عمر ـ لفهمت من نظراتها... لا تظن أنه لم يبق فيّ شيء من آثار الشباب وإن تجاوزت تلك المرحلة. كفّت أن ترى فينا لابسَ قبعة غيرك.

ـ أنت تحرجني يا عمر... سأروي لك حكايتها لأنك سألت. وحين أنهى شواي أخبار أنفيسا صاح عمر:

ـ يا مبارَك النسل ما أعجب ما رويت! تترك بانتالي الفتى الممتاز وتتعلق بك! لم أكن لأصدق هذا. والله جنس النساء هذا تركيبه عجيب. نساؤنا وهؤلاء متشابهات: إن رأين من يعجبهن تخلين عنك! أبوها من رجال فاسيورينسك المحترمين. وإذا كان قد قرر أن يزوجها من بانتالي، ماذا قلت لي اسم هذه البنتِ السمراءِ، البيضاءِ الوجهِ، الأنيقةِ؟

ـ أنفيسا ـ لم يتمالك شواي أن ابتسم.

ـ صحيح نسيت. يجب أن تفرح أنفيسا إن تزوجها بانتالي؛ ثم من هي حتى تختار فتقبل بهذا ولا تقبل بذاك! والله يا شواي ـ ويغضب عمر من جديد ـ سلوك هذه الصبية لا يناسبك. وأنت لست بريئاً يا شواي. أنت الرجل البالغ تلوّح لها بيدك في حين تعرف نفسك لست على حق. أنت تخدعها. لن يقبل منك إيفان كفيدوروفيتش هذا السلوك. وأنا كرمى لبانتالي لن أقبل منك البتّة. لا تضحك، لا تضحك! إن كنت ترى مفخرة في أن تضحك لك الصبيّةُ التي لا تعرف إلا ربها فأنا لا أرى رأيك. انسها! ألا يكفي ما حدث لبانتالي حتى تسلبه حظه من الدنيا؟!

بعدما مشيا زمناً نفد صبر عمر فسأل:

ـ لم تجبني يا شواي!

ـ والله يا عمر ليس الأمر من ناحيتي كما خُيِّل إليك. أحببتُ أكثر مما لا تتخيل تلك الصبيةَ لأنها كانت الوحيدةَ التي تنفِّس عني همّي أيام أسري. ولكن لا شك أن موضوعها هي وبانتالي ناجز سواء دخلت أنا في الموضوع أم لم أكن. اطمئنَّ! إنهما في مطلعِ الشباب، زمنِ قدوم الحظ. أدعو الله ألا يسد طريقي بهمٍّ أكبر من هذا. انظر إلى القوزاق يملؤون المكان لأننا اقتربنا من مدخل القلعة؛ حضِّرْ ورقتك! وأنت تعرف الجواب إن سألوك أين تذهبان.

_ أعرف _ جواب عمر على لسانه _ نحن ذاهبان إلى قانتات آل سلطان. وأنا وأنت عُمّال عندهم في لوستان حبله. وسأسرد أسماء حاج قسي وقايمت وسيسور ووالدة خان جري بيكا وولديها سعيد جري وعادل جري.

_ صحيح يا عمر _ قال شواي محاولاً أن يخفي عن عمر ما يقلقه _ لم تنس أحداً. إن تجاوزنا هؤلاء فأظن مشكلتنا انحلت.

_ نعم يا شواي. لا نقوم بعمل خافٍ عن الله. ثم ليس في نيتنا إلا الخير. ولكن قرّب الورقة التي أعطانا إياها كاشورا القوزاقي. ما إن يقرؤوا اسم عائلتك في الورقة: سلطان،حتى يسمحوا لنا بالدخول فقد كان محمد جري في جيشهم._ وفجأة أوقف عمر حصانه: _ أتسأل لأن في قلبك وسواساً ما ؟

كشف شواي ما كان يقلقه:

_ حين يقرؤون اسمي واسم أسرتي الذي أمليتُه عليهم أخاف أن يتعرفوا علي لأن إشاعة قتلي لمحمد جري منتشرة.

_ والله ما قلتَه مشكلة! لماذا جعلتنا نسافر دون أن تفكر في هذا؟ ولماذا أمليت عليهم غير اسم أسرتك؟

_ الأديغي يأتيه الصواب متأخراً يا عمر.

_ هذا صحيح! لا تضف شيئاً آخر. لم نفكر.

_ لنمض يا عمر! لا نقفْ هكذا كأننا مختلفان على أمر ما، ولا ندع القوزاق يشكّون فينا!

_ إذن إن اعترضنا القوزاق في أمر ما فكن واثقاً بي. رأيت كيف تكلمت مع هؤلاء عند باشكا. لا تيأس مادمت معي! ماذا يريدون وقد جئناهم بفتاهم القوزاقي؟ وما كُتب في ورقتي كتب تماماً في ورقتك. أعجيب أن سجلت اسم أسرتك سلطان؟ إن وصل الأمر إلى هذا الحد فأنا مسؤول أمامهم. سأشاغب عليهم. سأطلب منهم حضور الأتامان ماتفييف. ما ذنبنا غير أن أحسنّا إليهم؟ لم نقاتلهم، لم نعاركهم. امش ورائي! لا تُبرز ورقتك، ورقتي كافية _ ثم أضاف بعد وقت: _ ثم ما سأرجوك بشأنه: إن تريني معتدّاً قليلاً فلا تعتبرني مدّاحاً لنفسي !

_ أآخذ عنك فكرة النفّاج إن كنتَ معتداً بعدلك واستقامتك يا عمر؟! _ تقبّل شواي ما قاله رفيقه على مدخل القلعة،واثقاً من أنه مهما جرى لهما فستحميه استقامته وبراءته.

اجتاز الفارسان الأديغيان مركز البريد الكائن على يمينهما، وتجاوزا سوق المقايضة على اليسار، على مرأى منهما، جهة نهر بشزة _ لم يوقفهما أحد. ونظر إليهما الحارسان على باب القلعة نظرة ودية حين قرأا ورقة عمر، وأضاف أحدهما:

_ إنهم من الشراكسة المسالمين المتآخين معنا.

_ إلى أين تسافرون ؟ _ سأل الثاني.

_ إلى الأتامان ماتفييف _ أجابه عمر معتدّاً.

_ حقاً؛ حقاً ! _ قال القوزاقي: أنتما ذاهبان إلى هناك كي تنضما إلى شراكسة جيش الأتامان!

عندما دخلا باب القلعة الذي فتحه لهما الحراس بسرعة غمغم عمر:

_ أهذا هو ما يسميه الأبزاخ قلعة" كاتارينا" فيشوّقوننا إليها؟ إنها محُكَمة البناء، يصعب الخروج منها عند الضرورة. والآن إلى أين يا شواي؟

_ أترى هذه الكنيسة الكبيرة؟ ضحك شواي وأشار بطرف سوطه _ سنتجه إلى هناك.

_ لا يا شواي، هذا لا يجوز! ماذا سنفعل هناك؟

_ البناء الذي يدرس فيه خان جري ليس بعيداً عنها.

_ قل هكذا من البداية يا مبارك النسل! خطفت لوني. بُنيت هنا بيوتٌ جميلة، هذا بستانه محروث ويحيط به سور جيد، ورحّل كومة تبن؛ ليكن قوزاقياً! لا بأس إنه شغيل عظيم. والآخر؟ انظر يا شواي لحظة إلى تلك الدار! كم هي مهملة لَمَ يمُدَّ أحدٌ يده عليها، امتلأت بالحشيش الكثيف. وتساقط الطين من إسطبلها. ومع ذلك انظر إلى الحصان المربوط أمام بابه ما أحسن تجهيزه!

_ هو مثل بعض الأديغة الكسالى.

_ تمام يا شواي. ونحن عندنا الكثير من أمثاله. من النوع الذي يقولون فيه " اتركه يستمتع بركوب الحصان، ولا بأس أن ينام وسْطَ الشوك والحشيش "

صدر صوت عربة من المنعطف، وقفز قايمت منها.

_ شواي ما الذي جاء بك إلى هنا؟

وقفز شواي من السرج.

لم ير عمر من اللائق ألا يترجل للرجل النحيل ذي الوجه البشوش وإن لم يكن يعرفه، فهذا يتنافى مع شِرعة الأديغة.

قال قايمت عندما فهم مراد الفارسين:

_ ما يزال أمام خان جري كثير من الوقت لينتهي دوامه. إن توجهتم إلى المدرسة _ لا أريد أن أظهر أنا _ يمكنكم أن تقابلوه.

_ ولماذا لا تريد أن تظهر يا مبارك النسل؛ ألست رجلاً ؟ لم يقبل عمر ما سمعه _ لا تُهن أديغيتك! نحن اجتزنا كل هذه المسافة، وعبرنا قرى القوزاق وقابلنا فرسانهم، لم نأت لنخطف الأمير الشاب.

_ أستحق ما قلته لي يا كبير. ولكن افهمني أنت ايضاً. أنا أتكلم حسب المكان الذي أنا فيه. لا أقول إني لن أذهب. ولكني أنا من يوصل خان جري كل يوم إلى البيت. لا أريد أن يقولوا إني أوصلتكم إلى المدرسة.

_ لا بأس هكذا _ سحب عمر احتجاجه دون مناقشة _ ويمكنني أن أخدمك في شيء آخر _ عندما هدأ قلب قايمت أضاف وهو ينظر إلى شواي بشيء كثير من التصنع.

_ أتخاف أن تذهب معنا إلى خان جري _ قال شواي دون أن يكون في صوته أي حقد ونظر إلى عمر بما يعني أنه يمزح وابتسم له _ بِمَ يمكن أن تخدمني ؟

_ ليست سيسور قاصراً كخان جري؛ هي حرة في ما تفعل. من هذه الناحية أستطيع أن أتحمل ما أُكلف به. يمكنني أن أجمعك بها.

_ قلت: سيسور؟ _ أسرع شواي بالقول: أتقيم هي أيضاً هنا؟

_ اسألني: أيمكن لقانتات أن تتنفس الهواء إن لم تكن سيسور على رأسها ؟ _ أجاب قايمت مازحاً واختتم معنياً بمعروفه: _ الوقت الذي يمكنني أن أجمعك فيه بسيسور هو وقت قيلولة قانتات.

***

صحيح ما يقال: " القلب والروح يتخاطران "

عندما نظر خان جري من خلال النافذة تعرف أحد الفارسين فقفز قلبه من صدره. لم يعبأ بالفتيان القوزاق الذين هيّجهم منظر الفرسان الأديغة.رفع يده بهدوء مخفياً ما يعتمل في صدره:

_ خان جري ماذا تريد أن تقول لنا؟ سأل توماشيف الذي يهدّئ من روع الفتيان القوزاق متجاهلاً رؤيته الفارسين.

_ _ يا فاسيلي إيميليانوفيتش هذان الفارسان جاءا لمقابلتي؛ أأستطيع مغادرة القاعة؟

_ من هما ؟ قلق توماشيف.

_ أحدهما وهو الأصغر يمكن أن تقول بمثابة أخي _ فقد خان جري سيطرته على صوته فارتجف _ لم أره منذ زمن يعيد. أرجوك أن تسمح لي.

_ إن كان الأمر هكذا فانصرف! _ وهتف توماشيف وراء خان جري المسرع _ لا تذهب بعيداً!

توقف خان جري فجأة وقد استعاد وعيه. توقف عند الرجل الذي لا يعرفه فألقى عليه التحية أولاً بصفته الأكبر. ثم استدار بسرعة وارتمى على صدر شواي.

وجد عمر ذريعة في سلوك الأمير الشاب المدلل نحو المولى فسأل:

_ خذا راحتكما في الكلام. وأنا سأرخي حزامي الحصانين.

جلس شواي وخان جري في المقعد الملاصق للسور. وسأل شواي:

_ كيف دراستك؟

_ لا بأس، أستطيع مجاراتهم.

_ لا بأس فحسب؟

_ بينهم من يتفوق علي ولكنهم ليسوا الأكثرية.

_ حسناً يا خان جري، حسناً؛ ادرس؛ إن درست وتعلمت _ تنهد شواي _ فسينفعك. _ كان محمد جري طيب الله مثواه يردد هذا الكلام. ما أخباركم؟ وقانتات السيدة الكبرى أليست بخير؟ كيف حالها؟

ـ جدتي والجميع بخير. ـ تنفس خان جري عميقاً ـ لو لم تحدث لنا هذه المصيبة في أبينا ـ لا تؤاخذ جدتي يا شواي، أعرف من قتل والدي، أعرف أنه غيرك.

فوجئ شواي بالحديث الصريح الذي ما كان متوقعاً:

ـ كيف تعرف أنه غيري ؟ من هو إن لم يكن سراً ؟

ـ سأقول لك ولكنك لن تصدّق.

ـ لماذا لا أصدق إن كان حقيقة؟

ـ بامبت، شابسغ بامبت هو قاتل أبي.

ـ لماذا لا أصدق؟ مرة أخرى كرر شواي ـ هو نفسه الذي أتهمه أنا أيضاً. بامبت قاتلُ والدك محمد جري! ـ اختتم شواي بنبرة أوثق، ثم سأل بعد وقفة: ـ ما يدفعني إلى اتهامه يتعلق بوقائع كثيرة، أما أنت فما سبب اتهامك له؟

ـ حين جاء يخطب وُدَّ سيسور واكتشف أن زر كسائه متدلٍّ قال: هذه نتيجة حياة الرجل بلا امرأة. ثم أخرج من جيبه سكيناً حادة فقطعه. هذه السكين هي سكين والدي، عرفتها من الفضة التي تغلفها.

ـ لو رأيت سكين محمد جري لعرفتها فقد استعملتها كثيراً. كان أحد وجهيها من الفضة والثاني من الذهب. أعتقد أن دليلك صحيح. ولكن موعد التحقق من هذه الجريمة اقترب فاصبروا! بلّغْ قانتات الجدة: لا ترجُ أحداً بعد اليوم أن يبحث عن بانتالي الفتى القوزاقي فقد أوصلناه أنا وباجقوه عمر من الأبزاخ إلى أهله. ولذا لستَ يا خان جري مخطئاً في من ذكرت اسمه. إنها جريمة شابسغ بامبت. ثم بلّغ قانتات أني كنت أسيراً لدى القوزاق في فاسيورينسك قبل أن يعود الحصان بمحمد جري الذي مات قبل أوانه.

***

كان قايمت وعمر يتحادثان في الطرف الآخر من السور ممسكين بالحصانين. وكان شواي وسيسور في الطرف المقابل يتبادلان التحية يفصل بينهما جدار عال.

ـ لم أنسك يوماً واحداً،بل ساعة يا سيسور.

ـ وأنا يا شواي. لم أصدق حين اتهموك ظلماً بجريمة محمد جري. صِدْقُك واستقامتك منحاني الحياة. لم تفارق قلبي؛ انتظرتك وسأنتظرك في ما تبقى.

ـ شكراً يا سيسور ـ سقط الصوت من شواي.

احمرت وجنتا سيسور. وانهمرت الدموع من عينيها السوداوين. وفعلتْ ما لم تكن تجرؤ على فعله طوال سنوات تعارفهما: أمسكتْ كفّي شواي وعصرتهما ومسحتهما كأنها تخاف أن يسلبهما أحد منها. وقالت له وهي تلاحقه بقلبها:

ـ اذهب يا روحي الوحيد؛ التحق برفاقك! نفعل ما لا يليق أمام من هم أكبر منا. لا فرحة ولا أمل عندي في الدنيا غيرك.

كان خطر لشواي وهو منصرف أمر سيء متعلق ببامبت، ولكن لم يستطع أن يلتفت فيقول لسيسور شيئاً بعد الكلام الدافئ الذي يفتت قلوب الرجال.

IV

بدأت اجتماعات القرى المتجاورة في الشابسغ تتزايد بعد مأساة قلشتوك رغم أن الهدوء الظاهري يسود محيط القوزاق. وهذه الاجتماعات كلها تنتهي بتوصيات واحدة: المطالبة باجتماع عام حالاً للشابسغ.

ليست المسألة فقدان ألف فارس من الشابسغ وحدها، إذ أنه قبل أن يجدوا الوقت لتقبُّل الإهانة التي لحقت بهم ظهرت مسألة جديدة هي عبور جيش فلاسوف لنهر بشزة والبدء في عملية إبادة للغابات وإحراق للقرى القريبة من النهر. والشابسغ عاجزون عن التعبير أكثر من أي وقت عن الغضاضة التي يحسون بها في استضعاف القوزاق لهم.

لم يتقبّل الأديغة موقف موفد القيصر الروسي ديسكاسي اللامبالي من الموضوع مع أن مواقف هذا الموفد من الأديغة كانت منصفة عموماً. وهم يتحدثون صراحة عن حسن باشا المقيم في أنابه والذي لم تتعدّ مواقفه اجترار الحديث في الموضوع. والأبزاخ والبجدوغ والجمكوي والماخوش والوبيخ يقول فيهم جيرانهم الشابسغ والناتخواي إن القوزاق سيصلون إليهم كما وصلوا إلينا؛ فيلمّحون إليهم بأن تغافلهم عما يجري الآن سينقلب عليهم. ويصل انتقادهم إلى البسلني الذين هم أبعد عنهم وإلى الأباظة. ويعاتبون كذلك سكان ساحل البحر الأسود الجيغيت _ الأبخاز.

كان في المضافات، وفي الشوارع حيث يجلس الناس وراء جدران البيوت والكروم، وفي جماعات الفرسان المسافرة من يقول: سننتقم من القوزاق حين يأتي الشتاء ويتجمد نهر بشزة فيحين موعد الجسر الجليدي. ولم يكونوا قلائل من لا يقبلون موقف المجابهة هذا بين الشعبين.

وكان هناك من يوصل كل الأحاديث التي تدور في اجتماعات القرى أو بين الفرسان في الليلة نفسها أو الغد دون أن يسقط منها شيء، إن لم يزد، إلى الضفة الأخرى للنهر مقابل المال.وكان من الممكن أن ينتقلَ الخبر نفسه إلى باشا الأتراك في أنابه حسن باشا فيباعَ مرتين. ولم تكن الخيانة دأب الأديغة وحدهم إذ لم يخلُ القوزاق أيضاً منها. فكانت القرارات التي تتخذ في ساحة ناحيتهم تصل قبل أن تبرد إلى الضفة اليسرى؛ وكما كان القوزاق يقولون:كانوا يعبرون النهر بالأخبار مقابل سعر جيد.

ولا ينجو الجنرال الروسي يرمولوف قائد جيوش القوقاز من الحديث،وإن كان مقره الشيشان، من قدحهم إذ أنه يساند الجنرال فلاسوف في كل خططه الحربية. فإن كان في كل أرجاء الدنيا المنيرة عدو للأديغة فهم يعدونه العدو الأول الشرس.

دفع وقْعُ حوافر خيلٍ أغويَ بشه ماف إلى الخروج من البيت. نظر فرأى زهاء عشرين فارساً يتقدمهم كبارهم الثلاثة خبباً من أعلى القرية. ارتعب بشه ماف من إمكان وجود كارثة أومصيبة ولكن لم يُسمع في قرية ناشحه مثل هذا الخبر لا اليوم ولا البارحة. وإن خمن أنهم قادمون إلى اجتماع القرية فقد عقد في

الأسبوع الماضي بالتزامن مع اجتماعات القرى الأخرى. وإن فكر في احتمال أن يكونوا ذاهبين إلى اجتماع الشابسغ فقد تجاوزوا المكان الذي يعقدونه فيه مْفوف[1] بمسيرة نصف يوم. وإن قال إنهم آتون لعيادة توغوظقوه قازبك فالرجل وقف على قدميه منذ زمن طويل، ولم يعد بعيداً عن مشكلات الأديغة _ الشابسغ، ودعي إلى اجتماعات عدة قرى مجاورة،وتحدث فيها ونقل إليهم آراءه. أيكون في القرية ما هو غير متوقع؛ فمن يدري ماذا يمكن أن يصدر عن شبابنا المتحمسين؟ ولكن، إن شاء الله، ليس على وجوه الفرسان ما يشير إلى هذا الاحتمال.

تعرف بشه ماف على زعماء الفرسان: خورلوقوه مرجان وشروخقوه توغوظ وأباته بسلني. وكلهم من رجالات بلاد الأديغة المحترمين. وحين اقتربت مجموعة الفرسان كان ما بدا لعيني بشه ماف عجيباً: رأى الفارسين اللذين فارقهما قبل أيام: شواي وعمر في الصف الثاني من الفرسان. يا ربي ما الذي جاء بهذين إلى هذا الحشد؟ أيكون مسعاهما لم يتحقق؟ خطر له بامبت فكرةً باردةً باردةً. ثم فرح في داخله حين لم ير بين الفرسان من خاف منه.

لم يتجاوز جمع الفرسان مرابط دار توغوظقوه قازبك. وحين خرج قازبك من الدار ترجل الفُرسان احتراماً له. ورحب قازبك بالفرسان الأكبر سناً، شاملاً الجميع، رافعاً يده اليمنى، واضعاً إياها على الجانب الأيسر لصدره:

_ أهلاً بكم؛ تفضلوا!

_ شكراً يا قازبك! نتفضل بخير إن شاء الله. _ أجاب مرجان باسم الجميع _ نحن مجموعة كبيرة.

_ ستتسع لكم مضافتي وإن كنتم كثيرين يا مرجان، وستتسع لكم القرية. تعالوا تفضلوا!

_ والله لاننوي النزول يا قازبك. قال شروخقوه، ولكن لن نبقى واقفين على باب دارك فنوهمَ من يرانا أننا لا ننوي خيراً. ولن نكتم عن رفاقنا الأصغر سناً سبب زيارتنا؛ فأقول لك على مسمع الجميع.

_ أسمعك يا توغوظ.

_ لا يعجبنا قعودك يا قازبك _ عندما قال شروخقوه هذا تبادل السامعون النظرات مستغربين ما سمعوا. ووقف بشه ماف وعدد من الموالي الذين وصلوا إلى المكان إلى جانب قازبك. وتوجه إلى هذه الجهة شواي وعمر وبضعة آخرون.

رفع مرجان يده الضخمة:

_ مهلاً مهلاً يا توغوظ! لا تعجبني طريقة حديثك _ جئنا إلى قازبك لاستشارته وليس لمعاتبته ولا لتقديم النصح إليه.

---

[1] تعني الحجر الأبيض. المترجم

_ سامحني إن أسأت التعبير يا مرجان! قال شروخقوه توغوظ، وابتسم في سريرته مخفياً انفعاله. إذن لا يحمّلْني مسؤولية ما حدث لنا في مستنقع القوزاق!

_ كنت قلت لك قبل هذا يا توغوظ _ أضاف مرجان إلى ما سبق، وأقول الآن: اكبُتْ عواطفك قبل أن تتكلم! لا تحاول أن تقاسم غيرنا مسؤوليتنا عما جرى في المستنقع! جرى ما جرى فلنفكرْ في ألا يتكرر مثل هذه المأساة.

كان بين الحضور بعض الذين لم يعجبهم ما قال مرجان. وبدا على وجوهِ آخرين أنهم يوافقونهم وإن لم يقولوا شيئاً. وبعضهم كان ينتظر ما ستسفر عنه هذه المهاترة. وأباته بسلني لا يعرف تفسيراً لما سمع. ولم ير من المناسب أن يسهم في المهاترة التي نشبت بين المسنين مبرئاً هذا الطرف، متهماً ذاك.

همس بشه ماف لشواي الواقف إلى جانبه:

_ ما الذي جمعكما إلى هؤلاء؟

أجاب شواي بين التسويغ والاعتذار:

_ كنا عائدين من حيث كنا كما تعرف حين صادفناهم فقالوا لنا: امشيا معنا فمشينا خجلاً. وقد ورّطت عمر في الموضوع.

_ لست أنا المشكلة _ تمتم عمر _ ولكن صراعات الأديغة هذه تقتلني يا ربي.

قال توغوظقوه قازبك في نفسه: أنظر في هذا الجمع فأستثني منهم ثلاثة: مرجان وبسلني وشروخقوه، فأقول أي خليط غير متجانس هؤلاء؟ ومن هذان الفارسان اللذان صفّا معي عندما وقف أغوي بشه ماف إلى جانبي؟ لا أتذكر أين رأيت الأحدث سناً. يخيل إلي أنه مولى لمحمد جري كان يرافقه. ولكن ألم نسمع أن المولى الذي قتله مات هو الآخر؟ لماذا صفّ هذان إلى جانبي بكل هذه البساطة؟ ومن هذا الرجل الضخم المائل إلى السمرة؟ إن لم أخطئ فهذان هما اللذان تحدث عنهما إليّ بشه ماف قبل أيام. ولا أرى شابسغ بامبت بينهم.

_ سنفكر يا مرجان ولكن _ لم يطق بفوق المنتحي طرفاً صبراً _ نحن قلقون، ليس الزعيم الكبير شروخقوه توغوظ وحده، من أن الزعيم الكبير توغوظقوه قازبك تخلى عن زعامته منذ أن بدأ القوزاق ينغصون علينا عيشتنا.

_ أهذا أنت يا قغزج؟! _ ناداه مرجان باسمه الحقيقي وليس بالنبز الذي ثبّته عليه خان جري.

_ نعم يا مرجان _ أجاب بفوق مرتاحاً بمناداته باسمه _ أنا هو جارك.لا يؤاخذني قازبك الكبير! ننتظر جوابه.

_ على ما يبدو يا توغوظ _ استدار مرجان متمهلاً ورقبته تنوء برأسه الضخم: _ عندما عرّجت عليّ قلت لي شيئاً وفي قلبك شيء آخر؛ جعلتني أغرِّر بأباته بسلني فقُدْتنا إلى من أدعو أن يجعل الله يومه مئة،توغوظقوه قازبك. لو أفصحت لنا عن نيتك وأطلعتنا على استيائك من توغوظقوه قازبك لكُنّا أسهمنا

برأينا في هذه المسألة ــ ولكن ــ لا أعرف موقف أباته بسلني ــ لا أرى من اللائق ما فعلت بي أنا الرجل العجوز. أنهي موضوعنا اليوم بهذا الكلام، ما يسوؤك يسوؤني يا قازبك ــ خرج مرجان من بين رفاقه ووقف إلى جانب قازبك.

ــ وأنا يا قازبك شرفي من شرفك ــ خرج أباته بسلني من مجموعته.

لم يبق من الفرسان العشرين أخيراً إلا ثمانية مع شروخقوه توغوظ، في حين صفّ الآخرون مع قازبك.

قال شروخقوه توغوظ:

ــ والله يا مرجان لم يخطر لي ما تقوله. وأنت يا بسلني لم يكن في ذهني أن أسيء إليك.

ــ يا توغوظ! ــ أعلن فارس عابس من الواقفين قرب بفوق ــ لم نسمع ما يشين؛ لا تلم نفسك!

ــ لا نكتم ما يقلقنا ــ وافقه شخص آخر.

ــ اسكتوا! ــ نظر شروخقوه توغوظ إلى الواقفين وراءه، وصرخ فيهم دون سحنة عابسة.

ــ اسمعوني لحظة! ــ رفع قازبك يده ثم أسبلها: ــ لم أكن أريد أن ينشب خلاف أو سوء تفاهم أمام بيتي أومضافتي. ولكن لما كنتم تعرفون شيئاً من أصل الموضوع فلن أكتم رأيي فيه. الخبر الذي أرسلته لي يا توغوظ أوصله لي كثيرون، لا اثنان أوثلاثة. لماذا أعاتبك إن ثارت المأساة التي حدثت لك فسببت لك المرض؟ يكفينا، أنا وأنت وكل من يلبس قبعة، ما عاناه مَن فقدَ ولدَه أوفقدت زوجها أوتيتّم، دون حاجة إلى أن أزيد المأساة من عندي. ولكن سأقول لك ما يثقل علي: عبرتم بالفرسان الأديغة النهر وهم غير جاهزين. من الأفضل ألا تورط الناس في موضع لا تعرفه بنفسك. أفهم أنك يمكن أن ترد عليّ: ألم تخطئ أنت مرة؟ حدث أن هزمتُهم وأن هزموني، ولكن لم أخلف ورائي ألف جثة للأديغة في أرض غريبة. ثم كيف مات هؤلاء؟!

جعل الفارس القادم من أعلى القرية الجمعَين المتجابهين يرفعون الرؤوس نحوه. أصلح الجميع جلستهم على سروجهم متوحدي القلوب لأنه لا يحمل خبراً ساراً:

ــ النجدة! فلاسوف يحرق قرانا!

ــ هذا ما يجعلني أقول ما أقول ــ قال فجأة شروخقوه توغوظ.

ــ جعلت القوزاق يتنمرون علينا ــ رد عليه أحد الموالي.

ــ لا تتجادلوا! ركب توغوظقوه قازبك الحصان الذي أحضروه له غير موافق على ما سمعه ــ استنفِروا القرى؛ كل من يستطيع وضع رجله في الركاب: مركوتخ، قَزاي، أرغَد... لتركب كل هذه القرى!

لم يكن مضى على الخبر المشؤوم أكثر من ساعة حين خرج من قرية ناشحه التي وصلها الخبر ثلاثمئة فارس أو أكثر مدججون بالسلاح يتسابقون. وتبعهم فرسان متفرقون. ومن القرى التي وصلها نداء " مارج ! "خرج الفرسان كما من قرية ناشحه. ولم يكن عدد الذين يخرجون من الغابات قليلاً. وثلاثة فرسان يجْرون وراء مدفع تجرُّه أربعة أحصنة.

لم يتأخر شواي وعمر عن رفاقهما. لم يكن يُسمع إلا أصوات الخيول تتدافع، و" حُثُّوا الخطا! " فوق الرؤوس تتناقلها رياح الشابسغ. ومن بعيد، من وراء الجبل باتجاه نهر بشزة أصوات بنادق. وأحياناً على نحوٍ متقطع أصواتُ مدافع.

عندما يخيل إلى شواي أن الجو هدأ قليلاً يقول لعمر:

_ أرجوك يا عمر حين ندخل عمق الغابة ارجع إلى بلاد الأبزاخ!

_ يلجم عمر حصانه:

_ ما هذه الفكرة التي خطرت لك؟

_ أنا لست مشكلة يا عمر؛ لا امرأة ولا أولاد. إن حدث لك مكروه فسأجد نفسي أمام بابونا المسكينة لا أستطيع أن أبرئ نفسي...

_ لا تدفنّي حياً يا شواي! لن ترضى العجوز بما تقترحه عليّ. وبأي عين سأقابل الرجال الذين أنا برفقتهم؟ لن نهرب مما كتبه الله. ليس هذا ما أفكر فيه.

_ ما هو إذن؟

_ أول من أمس كنا أصدقاء القوزاق، واليوم يحاربوننا. لماذا يحدث هذا؟ من جهتي لو قلت لي سنعبر النهر ونحاربهم لما قبلت. الآن ليحدثْ ما يحدثُ! " من مد إصبعه إلى عينك فمدّ يدك إلى روحه! " لن أرمي سيفي لبادينكا الصديق وكاشورا وكاشينك في أرضي. دعك من هؤلاء! إن جابهني الفتى بانتالي فلن يتردد ساعدي. تقول لي: عد إلى بلاد الأبزاخ واحتمِ خلف عجوزك! ألستُ أديغياً؟ أليست أرضي _ يا مبارك النسل _ هي التي أحميها؟

_ في الساعة التي ينتكب فيها الأديغة _ صفّ بفوق إلى جانب عمر وقال: _ أي حديث تخوضونه؟!

_ أي ثرثار هذا؟ _ نظر عمر إلى من وقف إلى جانبه دون أن يخفف من سرعة حصانه إن لم يزدها.

_ يا شواي، رفيقك يهينني، لن يثنيني بياض لحيته وشاربيه.

_ أبعد فمك عني يا ولد! أجاب عمر بلا مبالاة _ دعني وشأني، إن تجاوزت حدك رميتك من على ظهر حصانك.

_ أسمعت يا بفوق ما قاله؟_ عندما حاول شواي مجانبته حثَّ بفوق حصانه، وصاح إلى من خلفه:

_ أنا سمعت هذا، ولكن ما سيفعله بك شابسغ بامبت شيء آخر!

_ لماذا لا يفارقنا هذا الثرثار؟

_ هو من جماعة الذي ذكر اسمه.

_ إيه يا دنيا، يا أيها الدنيا المنيرة! _ ما أعجب تركيبك! قال عمر.

حين رقيا ذروة المرتفع ظهرت قرية قزاي التي عمّتها النيران، والناس الذين هربوا منها _ بعضهم راجل وبعضهم بالعربات وآخرون فرسان _ يتدافعون بالاتجاه الذي يأتي منه المَدَد. وأغلبهم من النساء والأطفال.

والكبارُ والشباب يحمون أُسرَهم فلا يبدو أي لابس قبعة. والنساء اللواتي فقدن أحد أفراد الأسرة، أواحترقت بيوتهن أو أمتعتهن أو مواشيهن، عيونُهن إلى ما تركن. والعجائز، وإن كن يهدّئنهن، يتصايحن ويمزقن ملابسهن. وأطفالهن في مناحة. والأبقار التي جفلت من النارِ وأصواتِ الناس تخور، والكلاب تعوي.

تُحرِّرُ العجوز التي كانت تحضن جرو كلب نفسها من أيدي النساء اللواتي يهدئنها، وتسرع باتجاه الفرسان القادمين إلى المأساة، وتعرض:

_ انظروا؛ هذا الجرو هو الوحيد المتبقي لي. عجوزي وابني وكنتي...! _ تصرخ بكل ما أوتيت من صوت:

_ وقتلوا طفليّ يا حسرتي! لماذا أعيش بعد الآن؟ أي مصيبة جلبها لنا القوزاق!

حين اقتحم الفرسان قرية قزاي التي عمتها بأكملها النار لم يكن فيها شيء لا يحترق: البيوت والإسطبلات والأهراء، حتى الأسيجة. والقتلى نساء ورجالاً وأطفالاً أمام بيوتهم، وعلى الأسوار. البطون مبقورة والرؤوس محطمة. ومنهم من فقئت عينه أو قُطعت رأسه. والأبقار التي فقدت رشدها من الرعب تتراكض في الدور والبساتين. والدجاجات والديوك الرومية التجأت إلى أعالي الأشجار. والريح تحمل إلى كل اتجاه رائحةَ الصوف المحترق ورمادَ القصب ورائحةَ اللحم البشري المشوي.

رجلان فقط خرجا من قرية قزاي الكبيرة ليرويا ما جرى فيها من مظالم القوزاق رغم أنها لا تحتاج في الأصل إلى شهادة. وكلاهما مجروح جروحاً بليغة: أحدهما وهو الأسنّ قُطعت ذراعه من مرفقه المعصوب، والآخر ذقنه مربوطة بعصابة سوداء وعاجز عن الكلام، و القامة المشهرة ما تزال في يده.

_ يا توغوظ _ قال قازبك _ أسرعْ! اقطع طريق القوزاق العائدين إلى بشزة من جهة ميركوتك، وأنا وبشه ماف سنكمن لهم في غابة البلوط. وأنتما يا مرجان وشواي ابقيا هنا! واذهب يا بسلني إلى القريتين الأخريين اللتين أحرقتا، وساعدوهما. وإن لم يكونوا في حاجتكم فأنتم تعرفون إلى أين ذاهبون فتتبعوننا. وأنتما أيضاً شواي؛ احرصوا على مرجان الأسنّ فيكم! لا تدعوه يجابه القوزاق دون ضرورة. هذا الجريح المعصوبة ذقنه يحاول أن يقول لنا شيئاً ولكنه عاجز.

ترجل عمر من الحصان وقال للرجل المعصوبة ذقنه:

_ أيها الشاب دعني أنظر إليك! أنظر فيك فأشكُّ في شكواك. عندما رفع عمر الرباط عن الرأس الذي كان يهزه موافقاً إياه سقطت ذقن المولى وأسنانه المكسورة الثلاث. لا أعرف بم أنصحك لإعادة تركيب أسنانك ولكن هذه إصلاحها سهل؛ وبدفعة واحدة إلى الأعلى من كفه الضخمة أعاد الذقن إلى مكانها.

_ يا من أدعو له أن يصبح يومه مئة، ياكبير _ قال من رجعت إليه ذقنه _ شكراً أعدت الأمل إليّ، تركتُ رفاقي وما عندي مشكلة إلا هذه. _ ثم استدار بسرعة إلى قازبك: _ ماكنت أريد أن أقوله لك أيها الزعيم الكبير: كان فلاس هنا، ومعه تابانيسٌ أبرص قوزاقي ضخم. لم يميزوا بين طفل وامرأة، وكبير وصغير. وأعرف مَن كسر ذقني بأخمص بندقيته: زابروينا ذو الوجه الأحمر.

ـ زابروينا حقاً؟ أكد قازبك على الاسم.

ـ نعم أيها الزعيم الكبير. ابن الكلب هذا هو نفسه.

ـ وما اسمك أنت؟

ـ غَزَوات.

ـ عندك اسم ممتاز ـ قال قازبك ـ اركب إذن يا غزوات!

X

حين رأت قانتات من خلال النافذة ديسكاسي الموفد القيصري لشؤون ما وراء روسيا إلى بلاد الأديغة يدخل الدار متمهلاً تعجبت لا تدري سر زيارته:

ـ يا سيسور ـ صاحت قانتات وهي تصلح وضع الوشاح الملون الجميل على كتفيها ـ اطلبي من قايمت أن يستقبل ديسكاسي، أظنه آتياً إلينا. أدخليه الغرفة وحضري السامور[1]، واطلبي أن يَقْلُوا شيئاً من " البَرَك " الناعم.

قالت قانتات مرة أخرى وهي تنفض ملابسها: ماكان ليأتي في هذا الجو المعكر إلا في مهمة. أظن أن أمامه متسعاً من الوقت فقد سرّح العربة. ديسكاسي إنسان عجيب. إنسانٌ لا مُبالٍ. انشغل وقتاً في افتتاح محلات المقايضة بين القوزاق والأديغة والأسواق للجمع بينهم حين لم يكن بين الطرفين حروب. ولا يحرم نفسه من اللهو. ولا ينفك يزداد عدد الذين ينتقدونه قائلين " إنك تقدم للأديغة ما لا يستحقون، وتهمل القوزاق، وتسمح لأعدائنا أن يهينوهم، ولا تحميهم " وأي إنسان يعارضه يُفحِمه بأنه موفد القيصر وينفذ تعليماته. ولكنه لا يستطيع السيطرة على شخص واحد في موضوع الأديغة هو الجنرال فلاسوف.

ما إن رأت قانتات ديسكاسي على الباب حتى استقبلته بترحيب:

ـ تفضل يا رافائيل أفغوستينوفيتش، تفضلْ! عندنا ضيف كبير.

توقف ديسكاسي على أرض الغرفة قبل أن يصل تماماً إلى حيث قانتات. وحياها بيد مسبلة وبإشارة رأس:

ـ أنا سعيد لرؤيتك يا قانتات أسعد غيريفنا ـ ثم أضاف بالتفاتة سريعة من رأسه: ـ سامحيني إذ لم أخبرك بقدومي إليك!

ـ تفضل واجلس؛ أنا سعيدة بقدومك، لا ضير في أن لم تخبرني.

ـ شكراً سأكون سعيداً بالجلوس إليك إن سمحت لي. لم نلتق منذ زمن طويل، وسنتكلم مرتاحاً لحديثنا. أرى بيتك المستأجر فأحكم بأنك وُفِّقْتِ في اختياره يا قانتات أسعد غيريفنا؛ إنه مضيء ويشرح القلب ودافئ، وليس بعيداً عن مدرسة القوزاق.

---

[1] أو الساموفر، جهاز تقليدي يستعمله الأديغة وغيرهم لتجهيز الشاي في المناسبات لسهولة استعمالها ومحافظتها على الشاي ساخناً. المترجم

_ لا أعرف إن كنت أحسنت الاختيار يا رافائيل أفغوستينوفيتش _ بان على وجه قانتات سرورها لما قاله لها _ هذا البيت وجَدَه لنا غريغوري كوندراتيفيتش. ونحن راضون عنه. ويعجب كذلك خان جري الذي استأجرنا البيت لأجله. الغرف واسعة والدار كبيرة. والمدرسة ليست بعيدة. وعندنا جيران ممتازون. وفي الشق الآخر للبيت يسكن أستاذ اللغة الروسية فاسيلي إيميليانوفيتش،وإيفان ماتفيفيتش معلم الحساب. والاثنان رجلان ممتازان. يفزع إليهما خان جري كلما وجد صعوبة في دروسه فيساعدانه. ويعيش ناظر المدرسة كيريل فاسيليفيتش في منعطف الشارع غير بعيد من هنا. وهناك رجل قوزاقي صديق لقايمت وحاج قسي يُعزهما جداً ويسميهما بالصديق الشركسي يعيش على طرف البستان. وكلما وجد إيغناتُ رفيقُ خان جري في الصف فرصةً أسرع إلينا.

_ يسعدني جداً يا قانتات أسعد غريفنا أنكم تعيشون بين القوزاق في القلعة وتتفاهمون معهم بسلام. أراكم نموذجاً للتعايش بين قوميتين متعاديتين.

_ شكراً يا رافائيل أفغوستينوفيتش؛ أيتفهمون موقفنا؟

_ نعم هناك من يتفهم _ لم يشأ ديسكاسي أن يفاجئ السؤالَ الحذر للسيدة بجواب صريح _ وهناك من لا يتفهم.

_ أظن من لا يتفهموننا في بلادنا أكثر ممن هنا.

_ ولا تظني أنهم قلائل في هذه الأنحاء. _ سرت ابتسامة خفيفة على الوجه الأسمر لديسكاسي دون أن تهتز سوالفه _ ولكن في دنيانا المضطربة يجد كلٌّ ما يقول وما يفعل؛ من الصعب إرضاء الجميع.

سواء أقال الأديغة والقوزاق أم لم يقولوا، ضحكت قانتات في قلبها، ديسكاسي هذا رجل فذّ مع أني لا أجتمع به كثيراً، وهذه هي المرة الثالثة، ومهما أشاعوا عنه من أخبار، فإنه لا يخلو من الصدق. مَرآه ومخَبره خاليان من الرياء. لا ينسى أن عليه، بصفته موفداً للقيصر ويعيش بين أقوام متناحرة، التحليَ بهذه الخصال. ليس عنده أحكام نهائية، ويترك لك الوقت لتفكر. وبين القوزاق والأديغة من يقبل بهذا ومن لا يقبل. وليسوا قلائل من يقولون " قلْ لنا ما تشاء "، والأكثر أن يضيع بين الطرفين. ولكن مهما قيل عنه فإنه لا يترك موضوعاً بدأ فيه وعاندوه إلا أن ينتهي منه. يريحني أن يكون للأديغة مثل هذا السند، هذا أمر ممتاز.

_ نعم يا رافائيل أفغوستينوفيتش _ أفهم _ أجابت قانتات وقد انتشلت نفسها من أفكارها المتسارعة _ الناس يختلفون في أفهامهم كما يختلفون في أشكالهم. وبين القوزاق الذين ذكرتهم لك من هو من هذا النوع. يكرهنا، يغمغم بدلاً من أن يلقي علينا التحية. ويرمي إلى خان جري ببعض الكلمات التافهة.

_ سامحيني يا قانتات أسعد غريفينا! _ قال ديسكاسي مبتسماً: _ أظن من لا تذكر اسمه هو حمو تابانيس.

_ نعم يا رافائيل أفغوستينوفيتش، لاحظتَ جيداً. إنه تفوريم كودينوفيتش زابروين.

_ قائد المئة زابورين _ ابتسم ديسكاسي مرة أخرى _ لا يجوز، ليس أن يرى أديغياً، بل أن تذكر اسمه أمامه. كأنه لا يغفر لهم أنهم كسروا رجله حين غزاهم في شبابه.

_ وهذا أمر لا يخفيه تفوريم كودينوفيتش، يحاسبنا على ذنبه _ ثم أضافت بعد قليل: _ مرة واحدة فقط حادثته حين رفض أن يدرس خان جري في المدرسة القوزاقية. قلت له إن أخي قتل وهو يحارب في الجيش القوزاقي من أجل روسيا، وإن والد خان جري، محمد جري قتل لأنه اتخذ موقفاً إلى جانب الروس، حاولت أن أعرّفه نفسه أجابني: إننا لم نتوسل إليكم أن تحالفونا. وانصرف فرحاً بالإهانة التي ألحقها بي. ولكن لا أؤاخذ من لا يفهم، من يكرهنا يا رافائيل أفغوستينوفيتش؛ اختتمت قانتات كلامها باعتداد ناعم، ودون توقف، وبحذر سألت: لا أظن أنك جئت دون أن يكون موضوع محدد في ذهنك؟

جلبت سيسور السماور الساخن إلى الغرفة، ووضعته وحده على الصينية المسندة إلى الجدار. ووضعت البرك وكأسي الشاي على مائدة أخرى بين قانتات والضيف. وصبت لهما الشاي وخرجت من الغرفة.

_ ليس معيباً أن تلاحق الموضوع الذي يشغلك يا قانتات أسعد غريفنا _ دار ديسكاسي حول جواب السؤال من بعيد: _ كل ما في دنيانا مما يجلب الهم. في ناحيتكم عندما كنت قادماً إلى القوزاق والأديغة لم أندم على أني خالطتكم وإن ظهر أن الأمر ليس كما تصورته. الحق يقال صار عندي نوع معرفة بالقوزاق منذ عهد إيكاترين الثانية. وما كنت أعرف عن الأديغة أكثرُ مما كتبه الرحالة الفرنسيون والطليان. والآن اختبرتهم بنفسي. وهم، بالقياس إلى الأقوام الأخرى، رأيت عندهم كثيراً مما يغني الحياة. ليس الأديغة كما يظن،ليس زابروين ولا تابانيس ولا فلاسوف، بل حتى الجنرال يرمولوف. يسمونهم بالمتمردين وقطاع الطرق لأنهم يحمون أرضهم وأنفسهم.

_ لا أوافق من يصفنا بالمتمردين كائناً من كان _ قالت قانتات بصوت راسخ، ثم تذكرت ما فعله الأديغة بضيفها في الشهر الماضي فأضافت بين الجد والهزل _ ربما وافقتك يا رافائيل أفغوستينوفيتش على أنهم لا يسرقون لو أن هؤلاء الأديغة الذين تمدحهم لم يسرقوك.

لم يقبل ديسكاسي كلام قانتات مع أنه كان صحيحاً:

_ والقوزاق ألا يسرقون؟ وهل الفرنسيون والطليان ملائكة؟

_ لماذا يا رافائيل أفغوستينوفيتش نتكلم على أقوام لا نعرفها؟ _ حاولت قانتات أن تغطي عبر أسئلة محدثها عن الفرنسيين والطليان على القوزاق _ يكفي من نعرفهم لنجد ما نصفهم به.

_ أوافقك على هذا ولكن لا تنسي أن واحداً من الذين لا تعرفينهم من الفرنسيين والطليان جالس أمامك عن طيب خاطر _ ضحك ديسكاسي راضياً بعض الرضا عن اغتيابه نفسه، ثم رجع إلى نفسه فأضاف:

_ صحيح أنهم سرقوا مني ولكني أظلِمُ من كنت اتهمتهم. وجدت سيفي وبندقيتي منذ أيام.

_ فرحت لك يا رافائيل أفغوستينوفيتش، أسمعتني خبراً ساراً _ كيف وجدتهما؟

_ الذين اتهمتهم بغير حق أجبروا السارق أن يعيدهما.

ـ ومع ذلك لا تريد أن يتكلم أحد على الأديغة بسوء!

ـ لا أقول: ليس بين الأديغة لصوص. ولكن تبين أن اللصوص من القوزاق. لا تستغربي يا قانتات أسعد غريفنا. ساقوا اللص إليّ على حصانه من السوق حيث كان يبيع بندقيتي. لن تخمّني من مارس هذه اللصوصية. كان سائس خيلي. ولكن سامحيني يا قانتات أسعد غريفنا ليس من أجل هذا الخبر جئت إليك. جرى ما جرى وعثرت على مالي، وطردت سائسي، ورجوت من اتهمتهم أن يسامحوني. ما يقلقني اليوم شيء آخر: لا يعجبني سلوك فلاسوف ومخططاته نحو الأديغة. سنقع في مأساة لا يمكن للطرفين النجاة منها إن لم يتوقف عن عبور نهر بشزة وإحراق القرى. منذ أن أبعد يرمولوف الأتامان ماتفييف عن قيادة الجيش تفاقمت المواجهة القوزاقية ـ الأديغية. يقول إننا انتصرنا على الأديغة في عبور ذلك اليوم، وسننتصر. ولكنه أساء إلينا. فقد ثار الشابسغ والناتخواي، ووقف البجدوغ الذين كنا نصفهم بالمسالمين إلى جانبهم. والأبزاخ لا يقبلون. والخبر وصل إلى الترك والإنجليز. وكانت الأسرة القوية من الناتخواي" شْغوت قَلوبات" من المقربين إلينا، أوصل إليّ كتاب تظلُّم، ليس مجرد كلام شفهي لأن القوزاق أحرقوا قراه ونهبوا أملاكه. وقال لي على مسمع من الشهود إنه سيرسل شكاوى من هذا النوع إلى اسطنبول ولندن وسان بطرسبورج.

ـ كفى يا رافائيل أفغوستينوفيتش! ـ قاطعت قانتات محدثها غير قادرة على تحمل الحديث ولو أنها لا تسمعه لأول مرة ـ كل ما تقوله يقطّع نياط القلب. يا أسفي في أي شيء يمكن أن أنفع في هذا المجال؟

ـ وبعد قليل برّأت نفسها كأنها تقول: من يدري ما نوايا محدثي: ـ الطرفان لا يتصرفان تصرفاً صائباً؛ حين بدا كأن الأديغة توقفوا بدأ القوزاق.

ـ نعم نعم يا قانتات أسعد غريفنا، قوزاق هذه الأحداث، جماعة فلاسوف، مذنبون.

ـ يا حسرتي، لا أعرف! الطرفان مذنبان. كفاهم؛ ليتوقفوا! قالت قانتات بطريقة عجائزية مستسلمة جداً، ناسية أنها سيدة بيت، واختتمت: ـ هؤلاء لا يمكن أنا وأنت أن نفكّ اشتباكهم، لا يمكن أن يتوقفوا إن لم تفصل بينهم اقتراحات من القيصر.

ـ وأنا كان عندي هذا الرأي فقررت أن أكتب إلى قيصرنا ألكسندر الأول شكاوى الأديغة مع رأيي. فإن تفهَّمَنا القيصرُ أمكنه أن يخفف من حدة عداء فلاسوف ويرمولوف نحو الأديغة ـ فرحت قانتات عندما صدر صوت من جهة الباب لأنها كانت قررت ألا تستمر في هذا الحديث عن القوزاق والأديغة ـ أضاءت رؤية خان جري على الباب كل كيانها. ولكنها لم ترتمِ على الأمير الشاب بعواطفها بل طلبت منه أن يلقي التحية على الضيف شاهداً على تربيتها له. وعرفته به بالروسية:

ـ ضيفنا يا ولدي هو رافائيل أفغوستينوفيتش، واسم أسرته ديسكاسي. وهو موفد قيصرنا إلى هذه الأطراف.

ـ سرني التعرف عليك يا رافائيل أفغوستينوفيتش! ـ قال خان جري، وفرحت قانتات بالكلام الذي تلا هذا بعدما أومأ برأسه تعبيراً عن احترامه للضيف: نسمعهم يذكرونك بالخير كثيراً يا رافائيل أفغوستينوفيتش.

ـ شكراً يا خان جري ـ رد ديسكاسي بإيماءة رأس مقابلة. كان بوده أن يمازحه فيقول له " هذا يتبع من يذكر اسمي بالخير " ولو أنه كان راضياً عن هذا المديح، ولكنه لم ير من المناسب أن يتصرف هكذا أمام الأمير الشاب فأجاب بما يجب: ـ وأنا سمعت ذكرك كثيراً ولو أننا لم يسبق أن تعارفنا. قالوا إنك تدرس جيداً وتحظى برضا جدتك وأهلك. ولذا ادرسْ جيداً وتحلَّ بالأدب؛ أحبِبْ بلاد الأديغة وروسيا، واصدُقْ مع الاثنتين!

ـ شكراً يا رافائيل أفغوستينوفيتش ـ مرة أخرى أومأ خان جري إيماءة احترام له ونظر نحو الجدة قانتات.

ـ اذهب يا ولدي وغيِّر ملابسك، وتغدَّ! لا تحرم رفيقك كابوستينكا إيغنات من البرك الطيب الذي جهزوه لنا.

قال ديسكاسي حين خرج خان جري من الغرفة:

ـ أمير شاب ذو تربية عالية. سيكون رجلاً!

ـ شكراً يا رافائيل أفغوستينوفيتش!

ـ ثم يقولون عنكم أيها الأديغة إنكم عصاة! دمدم ديسكاسي، ولم يستطع إلا أن يقول ما في قلبه: سأكتب إلى القيصر الذي أودعني ثقته ما يفعله بكم القوزاق من شرور. هذا لا تردُّدَ فيه. شكراً لك يا قانتات أسعد غريفنا. كانت جلستنا مفيدة؛ تحدثنا. سامحيني إن أفسدت برنامجك! لا تؤاخذيني إن أثقلت عليك بهمومي. قدمتم لي شاياً وبركاً طيبين. اسمحي لي أن أومئ لك إيماءة الاحترام!

حين أنهى ديسكاسي الكلام قالت قانتات:

ـ عندي رجاء لك؛ فافهمني يا رافائيل أفغوستينوفيتش!

ـ أسمعك يا قانتات أسعد غريفنا.

ـ أتمنى أن تبقى موضوعات الأديغة ـ القوزاق التي تناولناها بيننا. لا تفهمْ أن هذه ليست من اهتماماتي ولا مشاغلي. أأستطيع أن أعصب إحدى عينيّ؟ كان بودي أن أساوي بين الطرفين. ولكن سامحني لا يستطيع قلبي إلا أن يتألم لما يحدث للأديغة. سيكون حسناً أن يفهمنا القيصر؛ وإلا فما أملنا؟ ليس أمامنا إلا أن نكتم عواطفنا. أقول هذا ولكن لا أعرف حين يكبر خان جري وينمو إدراكه إن كان سيحاسبنا على ما فعلناه وما جعلناه يفعل. إن لم يسعد الأديغة قومك فلا أظنك ستسعد ـ عادت قانتات إلى رشدها فزعة مما قالته، وأصلحت بسرعة: ـ هذا الفتى الشاب الأمير خان جري كان بودي أن أجعله ينخرط في المجتمع الذي جئت به إليه. وإخوته الصغار على الطريق ويقتدون به.

ـ فهمت يا قانتات أسعد غريفنا. أنا جئت إليكم دون سابق تصميم لأتعرف حياتكم وأطّلع على سير دراسة خان جري. لم نتكلم في أي موضوع ولم نتكلم على أحد!

ربما، مع خروج ديسكاسي من الدار،رجعت أفكار قانتات المتضاربة وداهمتها. تجلس وجسمها النحيل الممشوق متوكئ على عصاها الفضية وليس في الدنيا إلا أفكارها ووجومها. ولم تعد تسمع صوت الساعة التي كانت تصغي إليها دائماً حين تبقى في البيت وحيدة. ولم تشعر بشمس ما بعد الظهيرة المترددة بين البرودة والدفء، والتي هبت من الأبواب فغمرت وجهها بسرعة. ولم تسمع صراخ امرأة أتى من جهة السور الذي يجلس إليه قائد المئة زابروين.

لا أظن أن ديسكاسي زارني وفي نيته أمر سيء نحوي. تريح قانتات نفسها. أفصح لي عما يقلقه، لا أظنه يدور على الجميع مصرحاً لهم بهذه الهموم. ولكن كان الأفضل لو لم يأت إلي في مثل هذا الموضوع. لا يعيش ديسكاسي محروماً ممن يثق به. فإن قال إنه أجابني لأني سألته يكون ورّطني في مشكلات لا مخرج منها. ماذا ينفعني أن أحمي الأديغة بعد ما فعلوا ما فعلوه بمحمد جري وجعلوني أتهم المسكين شواي ظلماً وبرّدوا قلبه نحوي؟ الحجران وإن كانا باردين يقدحان ناراً إن حككتهما. حتى إنه لم يقابلني حين أتى إلى هنا. صحيح ما قالوه " ما يجرحه السيف يلتئم وما يجرحه اللسان يبقى مفتوحاً " الأفضل ألا تقول شيئاً ولا تتدخل في أي موضوع. ولكن الجنرال فلاسوف لا يعفي الأديغة من أي ظلم. أيكفي أن تقول إننا نفعل بهم ما يستحقون فيذهبَ الصالح مع الطالح؟!

نظرت قانتات إلى خان جري بحنان ولو أنها جفلت من صوت الباب فانسلت من أفكارها:

_ تعال، تعال يا ولدي! _ ثم لـمّحتْ، ليس إليه فحسبُ، بعتابها الرقيق _ لماذا لم يدخل أحد منكم إليّ حتى الآن؟ تعال واجلس هنا يا ولدي! لم أرك طوال النهار كما أريد ولم أقابلك. ماذا سألوك اليوم في المدرسة، وأي درجات حصلت عليها؟

_ اليوم سئلت سؤالاً واحداً فقط.

_ ألم ترفع يدك؟ ألم تُرِهم نفسَك؟

_ بلى رفعت يدي وحركتها.

_ لماذا إذن؟ هاج الوسواس الذي يعتمل دائماً في صدرها.

_ ارتاحي يا جدتي! _ أجاب خان جري وقد فهم سبب سؤال جدته: _ كل شيء على ما يرام؛ ليس من الضروري أن تُسأل كلما رفعت يدك وهززتها. كانت الأسئلة اليوم غالباً إلى الطلاب الضعاف، وشغّلوهم جداً.

_ لا بأس إذن _ قالت الآن براحة أكثر _ وأنت ماذا سألوك؟ وعلامَ حصلت؟

_ حصلت من فاسيلي إيميليانوفيتش على جيد جداً في القراءة بالروسية.

_ أحسنت يا ولدي!

_ لستُ وحدي يا جدتي، أيضاً إيغنات.

ـ وله أيضاً أقول: أحسنت! ـ ثم اختتمت بعد قليل تريد رفْع روحه المعنوية: ـ تُفرحني يا ولدي كلما حصلت على " جيد جداً ".

ـ وإن حصلت على " جيد " فقط؟ ـ طرح خان جري بشيء من الخبث السؤالَ الذي لم تتوقعه قانتات.

ـ لا بأس بالجيد ـ لم تُظهر على نفسها أنها ضحكت في سرها ـ ولكن إن ثبَّتَّ نفسك بين أقرانك بالجيد جداً كان أفضل.

ـ أتخافين يا جدتي أن يتفوق عليّ الفتيان القوزاق؟ ـ جعل السؤال المفاجئ لخان جري قانتات ترفع رأسها.

ـ لا تتفاخر يا ولدي بهذه الحجة،ولا ترفع أنفك ولا تتكبر على من معك! لا أحب هذه الطباع. لا أسمح لكم ولأخيكم المنفصل عنكم قرم جري أن تتخلقوا بها. خافت قانتات أن يزل لسانها فتكشف أن أخاه المنقطع عن إخوته يقاضي الأسرة فأسرعت بالسؤال لتغيير الموضوع: ـ أين سيسور؟ لماذا لا تظهر؟

ابتسم خان جري.

ـ لماذا تبتسم يا ولدي؟

ـ لأن سيسور جالسة أمام المرآة تتبرج!

ـ أتجلس حتى الآن إلى المرآة من أجل أن ترى وجهها، وتصف حواجبها بلعابها؟ تعجبت قانتات مما سمعت، ولكن الجواب غير المنتظر جعلها تعود إلى اتزانها:

ـ ألست أنت يا جدتي من اشترت لها قبل أيام ما تزيّن به وجهها؛ فلماذا تتعجبين؟

ـ هذا صحيح يا ولدي ـ هوى صوت قانتات على نحو ملحوظ وقالت لنفسها: ـ يخفق القلب معك في أيام الشباب، وتجلسين إلى المرآة وترفعين الحاجبين وتتبرجين... وأنا من أين آتي بهذا الآن؟ ثم رجت بحرارة بعدما تنهدت: يا خان جري سيسور تثق بك فإن عرّج عليها شواي فلا تكتم عني! أنا محتاجة إلى لقائه. أعدك ألا أقول له كلاماً قاسياً كما في المرة السابقة.

ـ يا نانا! قال خان جري بصوت يتصنع الرجولة والغضب أمام جدته للمرة الأولى: ـ ألم نتفق ألا تسأليني عن أخبار سيسور وشواي؟

ـ نعم يا ولدي ـ موهت قانتات غضب خان جري بإبداء رضاها بصوت خان جري الرجولي ـ لو كانت الشيخوخة تلجم كل ما نقول... ـ ثم سألت بعد وجوم: ـ أراجعت دروسك يا ولدي؟

ـ منذ زمن بعيد. وأنا أريد أن أسألك يا نانا ـ قال خان جري بحذر: ـ ولا أؤاخذك إن لم تجيبي!

ـ لا شيء مما يمكن أن تستوعبه أخفيه عنك؛ فاسأل:

ـ لماذا زارنا ديسكاسي؟

ـ ديسكاسي يقصد أناساً كثيرين غيرنا أيضاً. ولأنك سألت ـ ابتسمت قانتات ـ لن أخفي عنك ولو أننا لم نتفق على هذا: إنه مهموم بقضايا الأديغة.

_ أوَلا تقلقه قضايا القوزاق؟ _ سأل كأنه كان ينتظر هذا الجواب.

_ لا يمكن الفصل بين قضايا الأديغة والقوزاق اليوم. تكلم على قضايا القوزاق ولا يمكن اتهامه بأنه غير مهتم بها. ولكني رأيته أكثر اهتماماً بقضايا الأديغة _ لم تكشف قانتات عما دار بينها وبينه في هذا الشأن.

_ الآن أفهم لماذا يكره القوزاق ديسكاسي _ قال بصوت ألطف.

_ وأنت من أين تعرف هذا؟ قالت قانتات بصوت مرتعب.

_ سمعت فتيان القوزاق الذين في المدرسة. وغمغم قائد المئة زابروين حين رآه يخرج من دارنا. وكان يلاحقه ببعض التعليقات. وقد نهرني أنا وإيغنات.

_ ماذا قال لكما؟ _ جعلت الكلمات الأخيرة له قانتات تنتفض.

_ لست أنا، غضب على إيغنات؛ قال له: لا تدعه يجعلني مزاراً للشركسي المسلم! وطردنا.

_ يا للشرير، الكلب الأعرج! أي كلام قبيح يخرج من فمه! _ ثم أضافت مرتعبة: _ يا ولدي لا يعيبنا نحن هذا الكلام. لنكن مسلمين!

_ أتظنيني أسمع للمرة الأولى يا نانا هذا الكلام؟ ابتسم متكلفاً الرجولة.

_ يا للمصيبة ! من أين سمعت؟ _ ارتعبت أكثر فأكثر.

_ حين كنا نورد الخيل إلى نهر بشزة كانوا ينادوننا، وفي المدرسة أيضاً.

_ ومتى ؟ _ جحظت عينا قانتات السوداوان _ الصفراوان. واحتدت وهي تنقر أرض الغرفة بطرف عصاها:_ لماذا لم تقل لي هذا ؟

_ لماذا أورطك في مشاكل لا شأن لك فيها يا نانا ؟

لم تسمح له قانتات أن يكمل ما بدأ:

_ لا تقارن ما يقال لك في الشارع أو على ضفة النهر بما تسمع في المدرسة! لن أسامح أحداً في هذا؟ من الذي أهانك؟

_ هذا الذي قاله لي منعتُه أن يعيد مرة أخرى طوال عمره؛ صرعته أرضاً يا نانا!

_ يا مصيبتي مرة أخرى! ماذا لو تحالف فتيان القوزاق وانتقموا منك؟

_ لن يفعلوا لأن أكثرهم وقف معي. إيغنات وسيميني و...

_ ومن هو؟ قل لي اسمه واسم أسرته!

_ اتفقنا ألا نقول لأحد ونغلق على الموضوع. وهذا الذي صرعته رجع فقدّم لي احترامه، ويسلم عليّ الآن، ويحوم حولي ولكن لا أهتم به.

_ انظر إلى هؤلاء! _ ضحكت وقد رجع الدم إلى وجهها ثم أكّدت عليه: _ لا تقاطعه!

_ لا أقاطعه ولكن أريد أن يعرف أنه أخطأ بحقي.

_ انظر إلى هؤلاء! قالت مرة أخرى راضية.

الكتاب الرابع

لا يتذكر الشابسغ اجتماعات لا نهاية لها كما في هذه الأيام.

كما أن نار الفرن تشتعل شيئاً فشيئاً فكذلك الخريف الرطب الطويل الذي أعاد الوعي إلى الشابسغ فجعلهم يستنفرون. وجعل المخلصين منهم لبلادهم يرفعون رؤوسهم. وجعل الذين يعيشون وحيدين يفكرون من جديد في عيشتهم، وسبب القلق للمهملين. ودفع مَن حدُّ سيفِه أو قامته مفلولٌ إلى البحث عن المِسنّ، وحوّل قلوب الذين بنادقهم ومسدساتهم فارغة إلى رصاص.

الشابسغ والناتخواي خصوصاً، وزعماء الأديغة عموماً، ينتظرون بلهفة مزيداً من برد الشتاء فيتجمد نهر بشزة. والجانب القوزاقي يتمنى ألا تتحول أمواج النهر إلى جسور من الجليد للأديغة فلا يستطيعوا العبور.

ولكن الطبيعة لا تأتمر بأمر هذا أوذاك؛ فينهي بعضهم عمره إن كان طويلاً أم قصيراً وهو ينتظر أمانيه، فبعضهم تأتيه المفاجأة السارة بما لم ينتظره طوال عمره، وغيره يمضي إلى هدفه راجلاً يتصبب عرقاً.

وليسوا قليلين من لا يتمنون في الجانب الأديغي، شأنهم شأن القوزاق، احتدادَ برد الشتاء. وكما انقسم زعماء الشابسغ والناتخواي فريقين بشأن الحرب ـ السلام فكذلك اختلفت آراء القرى: الموتورون أنظارُهم نحو بلاد القوزاق. والأمهات اللاتي قلوبهن على أطفالهن إن بدأت الحرب، وكذلك من لا يعتدّ بقوته الجسمية من المسنين، يشتهون حياة السلم، ويتمنون أن يكون لمندوب القيصر ديسكاسي وللباشا التركي الذي نصبه السلطان في قلعة أنابه دور مفيد في إقرار السلام.

الذي لا يهدأ في هذه الحملة هو شروخقوه توغوظ ــ طرق باب كثيرين من الناس الذين لهم نفوذ على غيرهم، وأقام في مضافاتهم. وكلف من يثق بهم بأن يدوروا في بلاد الشابسغ والناتخواي. وأرسلهم إلى بلاد البجدوغ القريبة، والبسلني البعيدة. وأرسل رسائل إلى الأبزاخ والماخوش، والجيغيت والوبيخ. ولكن من لم يستطع أن يؤثر عليه البتة هو توغوظقوه قازبك.

لم يكن قازبك حريصاً على القوزاق ولا مشفقاً عليهم في موقفه. عَبَرَ بشزة مراراً؛ فلم يكن هذا ما يلجمه. كان يصعب عليه أن الشابسغ أصبحوا فريقين منذ الخريف الماضي.

وهذا ما قاله قازبك لضيوف هذا اليوم:

ــ لا يليق أن نقسم القوم إلى قسمين. يا توغوظ، ــ قال قازبك لضيفه ــ سيفي ليس أضعف من سيفك." فلاس "يريد أن يطردنا من أرضنا بعدما شجّعه ما حدث لنا في قلشتوك.

ــ وهذا ما يجعلني أقول ما أقول يا قازبك ــ تكلم توغوظ وفي ظنه أن المضيف مُحاصَر بالحُجج ــ إن لم نعرّف فلاس قدره فسيحرق نصف قرى الشابسغ في بضع غارات.

ــ إن كان أحرق عدة قرى في غارة واحدة ــ قال بفوق ونظر نحو بامبت، وابتسم لتوغوظ.

ــ أيها الشاب أنسى اسمك دائماً ــ قال قازبك ــ يستطيع أن يُلحق بنا ضرراً أعظم.

ــ اسمي قغزج أيها الكبير ــ أسرع بفوق بالقول.

_ الجنرال فلاس يقود جيشاً مجهزاً _ أضاف توغوظقوه قازبك إلى كلامه _ لا نستطيع مقارنة أنفسنا به. نحن عندما يقال " مارج! " ننتفض، وحين يزول الخطر ننفضّ. ألا ترون كيف يحمي القوزاق حدود بلادهم. لا يكِلّون ليلاً ونهاراً، صيفاً وشتاء. يقيمون على مراصدهم الحصينة. ولا يفارقون مدافعهم. وخيولهم لا تفارقها سروجها. ونحن يجب ان نرتب أمورنا كما ينتفض الكلب إذا حام عصفور فوق الدار.

_ واجباتنا كثيرة _ دمدم شروخقوه توغوظ _ ولكن لا نعرف بِمَ نبدأ.

_ أولاً يجب اللجوء إلى السلاح _ قال بفوق فجأة.

_ كفى يا بفوق! _ لم يقبل بامبت _ اسمع ما يقول الكبار!

_ أأنا الذي لم يحمل السلاح، لم تنزل به ضربة سيف، يا قغزج؟ _ سرى على وجه توغوظقوه قازبك ابتسامة خفيفة عَبْرَ الندبة التي على وجهه. مهما حملتُ السيف وتشفّيتُ من عدوي لم يُشعراني بالسلم أو راحة القلب، ولم ينقص شيء من الظلم.

_ أنقعد الآن إذن ؟ _ انفجر شروخقوه توغوظ، ثم أتم بلهجة ألطف: _ لن يغفر لنا من قضَوا في المستنقع.

_ والله صحيح _ وافق بامبت _ ما فعله بنا فلاس لن يغفره لهم حتى إلههم.

_ هذا لا يحتاج إلى نقاش _ أطبق بفوق السقف على كلام بامبت.

قال توغوظقوه قازبك في قلبه: من أراهم متلهفون إلى القتال. ولأن فخذ بامبت يحمل ضربة ما من سيف لم يترك فرصة للإشادة بجرحه والتذكير به: أقام لنفسه حفلات " الجابشه "، وحثَّ الناس على أن يعودوه. وحين قام من جرحه أما استعمل العصا؟ أما علّقها بسرجه حيث سافر؟ والآخر الدعيّ بفوق إن فتحت له باب الكلام روى لك بطولاته في قلشتوك، وكيف صرع الجنرال فلاسوف بصدر حصانه، وعبر النهر دون أن يستطيع مئة فارس قوزاقي الإمساك به. وسيروي لك أنه أحضر معه قبعة يعلوها اللون الأحمر رمز القوزاق. وشروخقوه توغوظ الذي يكتم قدر الإمكان تفاصيل ما جرى لهم في المستنقع نكّدت الإهانة التي لحقت بهم عيشته. ولن يهدأ له بال إن لم يثأر. ولهذا يأتي إليّ للمرة الثالثة. وأنا أعرف كثيراً من الأسباب التي تدفعني إلى الثأر لكرامتي غير أني لا أعرف كيف أقارب هدفي. ولكن كما يقال " المغلوب لا يسكت " فمن المحتمل أن يهزموك ثانية في الموضع الذي لست مستعداً له. وأمام الشابسغ لن تستطيع أن تتحمل هزيمة أخرى.

_ من أجل أن نحمي أنفسنا نحن الأديغة _ أضاف قازبك بهدوء إلى الحديث الذي قاطعوه قبل أن يكمله: _ يجب أن نتخلص من الخلافات القبلية التي بيننا. ولن نستطيع تأسيس دولة إن لم ننسها.

_ يقال يا قازبك إن هؤلاء القوزاق الذين أسكنوهم مقابلنا هم من " البولومولو" وليسوا من الروس، قال بامبت مبرزاً أنه يفهم في الموضوع الذي يتكلم فيه، وأكمل بلهجة أشد حزماً: _ بينهم روس، ولكنهم ليسوا روساً.

ـ صحيح، ليسوا روساً ـ وافق قازبك الضيف ـ جاؤوا من أوكرانيا. وعبروا البحر ولكنهم من أصل روسي. وكذلك قوزاق " التنّ ". والجنرال يرمول جاء بالجنرال فلاس من هناك.

ـ لا بأس، هؤلاء كالعرق الأديغي أيضاً ـ لم يستطع شروخقوه توغوظ إلا أن يبدي رأيه ـ يتمايزون مثلنا.

ـ هم مثلنا، ولكنهم مخلصون لبلادهم ـ مسح قازبك لحيته الشقراء بكفيه كأنه يدعو إلى الله ـ أليس هذا ما يدفعني إلى القول إن علينا أن تكون لنا دولة واحدة. وأن يكون لنا سلطان يقودها. وأن نؤلف جيشاً مجهزاً يمكنه أن يحميها. وعلى دولتنا أن تكون لها عُملتها الخاصة بها كما للروس والترك والإنجليز.

ـ أمن أجل أن نستطيع الشراء في الأسواق؟ ـ صاح بفوق حين سمع بموضوع النقود.

ـ ألا تشتري بالسومة الروسية والبارة التركية؟ ـ سأل توغوظ مستاء من تعلقهم بأمل كالسراب؟

ـ هذا يتعلق بالسوق التي تشتري منها يا كبير ـ أجاب بفوق بمهارة، وأضاف بوجه أكثر انفتاحاً: لوكنت أعرف أنه سيكون لدي نقود أديغية ما كنت في حاجة إلى ما تذكرون من عملات.

ـ أيها المجنون، يا بيتمال! العملة ليس لها رائحة ـ ثم سأل قازبك مباشرة: ـ ألن يكون للدولة رجال دولة إلى جانب السلطان؟

ـ طبعاً.

ـ والله يا كبير ـ قال بامبت مبتسماً: ـ لا تؤاخذني لن نستطيع تأسيس دولة من هذا النوع ولا إدارتها.

ـ ولماذا؟ تعجب توغوظ مما سمع.

ـ سنصطدم بالنزاعات القبلية. سنوقع بلاد الأديغة في شد وجذب.

ـ لن ندع الأمور تصل إلى هذا الحد ـ قال توغوظ دون حزم واضح.

ـ إذن اعتبر الأديغة كأنهم لم يوجدوا قطُّ يا توغوظ!

ـ يا قازبك ـ استعجل بفوق ـ ألا تقول شيئاً لجماعة بامبت؛ يدفعوننا إلى اليأس.

ـ أتعدُّ ما يقولونه غير صحيح؟

ـ لا أقول إنه يخلو من أي صحة يا كبير، ومع ذلك لا أرى من اللائق أن نبكّت أنفسنا.

ـ أمن الأفضل أن نمدحها؟

ـ لا يا كبير، ليس إلى هذا الحد؛ فالكمال لله وحده.

ـ لم تخطئ يا بفوق. احفظ الله في قلبك، لا تنسه! ـ قال بامبت وندم على عدم مناداته باسمه الحقيقي ولكن بفوق أكمل دون أن يجعله يلاحظ:

ـ نعم يا بامبت. إن لم يكن الله في قلوبنا فمن يكون؟ ما أريد قوله هو أنه مهما كنا نحن الأديغة؛ ألم نخرج من رحم امرأة ولدتنا ومن صلب رجل؟!

اسمع ماذا يقول هذا المفلسَف! يتعجب بامبت مما يسمع. أأنت الذي ولدتك أم وخرجت من صلب رجل؟ لولا أني في أشد الحاجة إليك ما سمحت لك أن تقترب مني مقدار غلوة. مع أنك سرقت مني في

الطريق المسدس الذي كان في جرابي فقد جعلتنا نبحث عنه زاعماً أنك لم تره. ومن سِواك سرق مني السومة الفضية الوحيدة التي بقيت لي مما ربحته من ملابس محمد جري ؟ لم يرافقني غيرك في الشهر الذي كانت فيه في جيبي،وفي النهار الذي اختفت فيه. أتجد بَرَكةً في ما يعطيك حسن باشا؟ المسدس والنقود كانت من عنده. لولا أني محتاج إليك في ما أبيّت للفتى الأمير لجعلتك تتقيّؤها منذ زمن بعيد. لماذا يحبسنا توغوظقوه قازبك مُسمعاً إيانا أخبار الأديغة؟ لِيُجبنا على ما جئنا لأجله ويطلق سراحنا! أتظنني مهموماً جداً بأخبار بلادك، بترتيب أمور الأديغة والأفكار المتعلقة بها؟ حتى أنت لست مهموماً بها. وأشدُّ الناس زهداً فيها هذان الجالسان أمامك. لا تخدع نفسك متوهماً أنهما يتابعان حركة شفتيك! تريدون أن تجمعوا العِرق المشتت فتؤلفوا دولة؛ تجعلوننا نكره أنفسنا. لماذا تلحون على حرية الأديغة؟ والله لن يعطيكم أحد ــ وأنا أوّلهم ــ هذه الحرية. ومن يفعل هذا فهو مجنون.

قال بامبت وعيناه إلى النافذة محاولاً استدراج الجالسين في المضافة إلى حديث آخر:

ــ لم يظهر أغوي منذ الصباح.

ــ بشه ماف ليس في القرية ــ قال قازبك ــ هو في عداد الذين ذهبوا إلى أنابه، إلى حسن باشا.

ــ على ما يحدث ــ ضحك توغوظ ــ لا أعرف إن كانوا أرهبوا أغوي؛ يود مصالحة القوزاق!

ــ إن كنت من أصحاب شواي فسيجعلك تفعل أشياء أخرى ــ رد بامبت على الموضوع الذي يحبه جداً والذي وجههوه إليه: ــ وهو أحد الذين يخدعهم ديسكاسي بلسانه المعسول.

ــ لم أر ديسكاسي من هذا النوع ــ قال بفوق.

ــ رجاء يا بفوق أبعِدْ عنّا فمَك لحظة! ــ لم يتحمل بامبت ــ لم تعطنا الفرصة طوال النهار لنتكلم؛ أنت في حضرة من هم أكبر منك سناً.

ــ إن كان رأيك هكذا فلن أضيف كلمة!

ــ نعم، أقول. حافظ على المركز اللائق بعمرك!

ــ لا تتجادلا ــ قال توغوظ للرفيقين دون مبالاة، ثم أضاف إلى ما يهمه: ــ الشابسغ إن تأملوا في حسن باشا سنداً لهم فهم مخطئون.

ــ صحيح، وافق بامبت.

تهيأ بفوق ليقول شيئاً، ولكنه أفاق على نفسه فانكمش.

ــ لو كنت مكانك يا قازبك ــ أضاف شروخقوه إلى كلامه: ــ ما كنت سمحت للأديغة أن يجعلوا من حسن باشا حليفاً فيغترَّ بنفسه. من فكر بهذه الطريقة لم يكن ذكياً.

ــ إن كنت تلمّح إليّ بهذا الكلام فأنت مخطئ أيها الضيف ــ اشتعلت عينا قازبك السوداوان شرراً ولو أنه يكظم غيظه. ولكنه أكمل كلامه بتعقُّل: ــ لهذا أقول إن الشابسغ أصبحوا فريقين.لا يكفي ما أقوله أنا وتقوله أنت. يجب حساب ما يقول الآخرون. خورلوقوه مرجان وأباته بسلني، وذاك الذي ذكرتموه بالسوء،

شواي، ليسوا أقل منكم شأناً، سيوفهم ليست مفلولة، ولا رجولتهم منقوصة. ديسكاسي يفعل ما بإمكانه. قيل إنه كتب إلى القيصر يشرح مظالم فلاس نحونا. سنرى ما يحدث؛ ولا نأخذْ منه موقفاً سلبياً!

_ ولكن يا قازبك _ لم يستسلم شروخقوه _ الله بعث إلينا شتاء جليدياً، تجمد نهر بشزة بحيث يتحمل ألف فارس، أخاف أن ينقضي الشتاء ونحن لم نتجاوز الكلام.

_ أتظنها آخر مرة يتجمد فيها بشزة ؟ _ قال قازبك بصوت أكثر لطفاً: _ الأفضل أن نفكر في السلم لا في الحرب. إن كان الجنرال فلاسوف والأتامان ماتفييف سيفهماننا استفدنا من ديسكاسي وحسن باشا؛ دون أن يعني كلامي أني غير مستعد إذا دعا الأديغة: " مارج! ". سنصبر أسبوعاً آخر.

لم يكن الجنرال فلاسوف والأتامان ماتفييف على اطلاع على ما يجري في بلاد الأديغة.

كان الموفد الذي أرسلوه قبل حلول العام الجديد إلى الجنرال يرمولوف قائد الجيش الروسي في القفقاس قد رجع مزوداً بتعليمات تناسب طبيعة الأديغة. ولحقتها فوراً الذخيرة والمدافع وأسلحة أخرى إلى المنعة القوزاقية على رأس نهر بشزة وقطعات من الفرسان والمشاة.

واتخذ فلاسوف من جديد إجراءات تكفل تحصين ضفة النهر: جاء بالعقداء بيزكروفن وغافريوش وفيربيسك وبيلر، من أماكن مختلفة، وكلهم يتحلون بالشجاعة والحيوية. وزوّدهم بتعليمات متنوعة لمجابهة العدو الذي يجهز نفسه. وحُصّن الموقع الرابع على الضفة من كوبل إلى سموليان بأربعة جيوش من الفرسان. ونُشر جيش من المشاة في مدينة ستانيسا الحاضرةِ القوزاقية الكبيرة ببولتافسك، وهُجّرت الأسر القوزاقية التي تعيش في النواحي القريبة إلى تيمرقوه حيث الدفاع أقوى.

الطرفان المتعاديان متجابهان ينتظر أحدهما حركة الآخر. والقرى المتاخمة لأنهار أفبس وأرغد وأبنه مستعدة للحركة بمجرد النفير. وناشحه وجنجبسنه وسمن وقوتاق محشوة بالسلاح، وخيولهم لا تفارقها السروج. والجميع ينتظرون الخبر الذي سيأتي من أنابه. وكل من سمع أن حسن باشا سيأتي من أنابه إلى إيكاترينودار اعتلوا سروجهم، وتبعوه قادمين من مختلف الطرق. والفرسانُ المئة صاروا ألفاً، والألفُ ألفين. وحين بدأ حسن باشا يقترب من نهر بشزة كان وراءه ثلاثة آلاف فارس من الأديغة.

أرسل فلاسوف ثلاثة مراسلين إلى جيش حسن باشا المؤلف من ثلاثة آلاف، وقال أوسطهم بيريكريستوف:

_ يخبرك الجنرال فلاسوف والأتامان ماتفييف أنه إذا كنت أتيت إلى ضفة النهر بهدف السلام فلتوقفِ الفرسانَ الذين وراءك هنا يا حسن باشا!

_ ألا يعرف من أرسلك أني لن أكون وحدي حيثما توجهت؟

_ لستُ مخوَّلاً بالإجابة على سؤالك يا حسن باشا.

_ كم من الفرسان يريدون أن يكون معي ؟

_ ليس أكثر من مئة.

استنفر الفرسان الأديغة الذين سمعوا الخبر؛ سواء أيفهمون الروسية أم لا يفهمونها، وبينهم من صاح من مكانه، ومن استل قامته، ومن أطلق مسدسه في الهواء.

حين رفع خورلوقوه مرجان يده توقف الجميع.

وأسمعَ حسن باشا مَن وراءَه:

ــ لِيتبعْني مئة فارس !

وبعد أن مشوا مدة وراء المرسَلين القوزاق لمح مرجان لبسلني:

ــ ما قاله توغوظقوه قازبك صحيح. لا يستطيع هذا التركي الذي أحرجناه حتى سار معنا أن يحقق شيئاً. ألا ترى طريقة امتطائه للحصان ؟ سَمِّهِ دميةً وامشِ !

ــ سنرى ما يحدث ــ ضحك أباته بسلني.ثم همس له والعتاب غالب عليه: ــ ألا تعرف عادتنا:

" نُعِزُّ الغريب ونلوي فمنا أمام القريب ".

ساعات ما قبل الظهيرة باردة جليدية. وكأن الشمس التي توسطت السماء بلا دفء تطل على عالم الأديغة الأزرق بوجه أحمر شاحب. وفوق الفرسان تدوّم سحابة من البخار الأبيض السريع. والصقيعُ على فروع الأشجار المحاذية للطريق يهتز اهتزازاً لطيفاً بفعل وقع قوائم الخيل. وليس في الجو ريح تستطيع أن تهز عوداً.

حين عبر الفرسان الغابة ظهرت إيكاترينودار على الضفة العالية الأخرى بين النهر والغابة المقطعة المواجهة لها. والمراصد التي لا يبعد بعضها عن بعض إلا غلوة حصان متراصفة، والمدافع مغروزة في الأرض ووراءها الفرسان والمشاة القوزاق.

استقبلهم،وهم ليسوا بعيدين عن ضفة النهر، ثلاثة فرسان غير الذين لاقوهم على مرتفع الشابسغ. تعرّف أباته بسلني على الرجل الأوسط الضخم فيهم. وتذكر مرجان أن هذا الرجل الضخم كان قد صار صديقاً له يوم توزيع ملابس المرحوم محمد جري، وأنهم دُعوا إلى لقاء قانتات فكلّمه هناك.

رفع حسن باشا مرة أخرى يده فتوقف رفاقه. وسأل الفرسانَ الذين استقبلوه بصوت يفهم منه أكثر من ذي قبل أنه غير مطمئن إلى تعاملهم معه:

ــ وأنتم ماذا تريدون منا؟

وحسم تابانيس بصوت أجشّ:

ــ اترك الفرسان المئة الذين معك قبل النهر واكتف بثلاثة أو أربعة، ويدعوك الجنرال فلاسوف والأتامان ماتفييف إلى لقائهما في سوق التبادل.

ــ لم يكن اتفاقنا هكذا ــ غضب حسن باشا، ولكنه كظم غيظه وقال معتداً بنفسه: ــ أنا مبعوث الدولة التركية؛ قل لمن أرسلوك إني لست ممن يُستقبلون في أسواق المبادلات.

حين بقي الفرسان الثلاثة الأوائل مع الأديغة، وتهيّأ تابانيس ومن معه للعبور على جليد النهر غمغم بعض الأديغة:

_ على نهر بشزة جسر ممتاز لا نستفيد منه _ وحين حاول اعتلاء الجليد لم يقبل بيريكروستوف القوزاقي:

_ لا تفعل أيها الشركسي!

_ ماذا يقول هذا؟ _ جعل الحصان يقفز صاهلاً.

اعترض مرجانُ الفارسَ المتمرد:

_ كفى يا أبرج!

قال حسن باشا في قلبه: ليس الأديغة الذين جئت من أجلهم، ولا القوزاق الذين جئت إليهم ببشر! ما في قلب حسن باشا شيء آخر. ما كنت لأتجشم كل هذا الطريق لو عرفت أنهم لن يعاملوني بإنسانية. سيدعونني إلى سوق المبادلات ويستقبلونني هناك. أيكنّون لنا احتراماً أكثر، أولئك الذين يتبعونني ؟ لا سلطان لهم ولا دولة. يجتمعون في أوقات الأزمات، ثم يتحاربون ويتصالحون. والقوزاق لا يفكرون أعمق منهم. أنا أعرف ما يستحق هؤلاء لولا أن السلطان عبد الحميد لا يقبل: تُفلتهم بعضَهم على بعض ولْيتفانوا!. إن تحَارَبَ القوزاق والأديغة فلن يقعد القيصر الروسي مكتوف الأيدي ويخسرَ مثل هذه الأرض الممتازة. والانجليز الذين يزعمون أنهم لن يتخلوا عن الأديغة نعرف ماذا يتصيدون. والفرنسيون عيونهم إلى هنا، ولكن معرفة نوايا الفرس صعبة. شيء مضحك. أتساءل: أين ديسكاسي؟ لماذا اختفى؟ لم يتركني حتى وضعني على طريق القوزاق.

وصل المرسلون القوزاق، وحسم صوت تابانيس الأمر:

_ مرة أخرى قرروا ألا تدخل إلى سوق التبادل ومعك أكثر من ثلاثة أو أربعة من الشابسغ المشاة.

وقف حسن باشا مدة لا يحير جواباً ثم أرجع الحصان ببطء. وتبادل الفرسان الأديغة المئة النظرات وتبعوا من انصرف.

***

ليس حسن باشا من أُهين على ضفة نهر بشزة.

قبل أن يستعيد الأديغة وعيهم سبقهم الجنرال فلاسوف وعبر بالقوزاق نهر بشزة، ونشرهم على أرض الشابسغ.

وأحرق خلال ثلاثة أيام قرى الشابسغ في نطاق ثلاثين كيلومتراً، ثم سحب جيشه دون أن يسمح لهم أن ينهبوا الكثير.

***

وجرى هذا في 2 شباط عام 1822.

وارتفعت في الشابسغ مرة أخرى المناحات[1].

II

تعجب شواي عندما قيل له إن ديسكاسي يبحث عنك:

_ والله لا أعرف لماذا يريدك _ قال أغوي بشه ماف _ لم أقابله شخصياً. حتى إني لا أعرف إن كان" ذا قرن" فالذي أوفدني إليك هو أباته بسلني قائلاً: ابحث عنه أينما كان، وأحضره معك إليّ يوم الجمعة القادم.

ونظر باجوقوه عمر نظرة خيّرة إلى وجه الضيف غيرَ عارف لماذا يستدعيه. وسأله والقلق بادٍ على صوته:

_ أأرسلك لمشكلة ملحة؟ _ ثم عاد إلى وعيه وأجاب نفسه بنفسه: _ لا فكرة لدي إن كان في الأمر مأساة، ولكن أباته بسلني ماكان ليحدد مهلة أسبوع لولا الضرورة القصوى. _ ثم أردف كلامه بسرعة سؤالاً _ يا بشه ماف قل لي أصحيح ما نسمعه عن هذا الرجل الصالح بسلني من جهة والده؟

_ والله لا أعرف يا عمر بم أجيبك في هذا الموضوع _ لم يجب بشه ماف بصراحة ولو أنه خمّن سبب السؤال _ إن صرّحتَ باسم من سمعتَ أمكننا أن نتحادث، ولكنك لما كنت تسأل عما يحدث في بلاد الشابسغ فإن تعليقي واحد: مهما قالوا ومهما فعلوا فكل ما حدث لنا من مآسٍ يعود في النهاية إلى الجنرال اللعين فلاسوف.

_ هذه ليست مأساتكم وحدكم، إنها تؤلمنا أيضاً. ولكني مهموم بمسألة: أيكون أباته الكبير قمجري على علاقة بالقوزاق؟

من بقي الآن بين الأديغة على غير علاقة بالقوزاق؟ أجاب شواي وهو غارق في أفكاره؟ لستُ وحدي، أنت أيضاً صرت معنياً بالقضية يا عمر. كم مرة ذهبتَ ورجعت إلى بانتالي في فاسيورينسك؟ وهو كان

---

[1] ف. أ. بوتو في كتابه " حرب القوقاز " يكتب ما جرى كما يلي: عبر فلاسوف بجيوش القوزاق نهر بشزة في 2 شباط عام 1822. هاجم ثلاثة جيوش من الفرسان، وجيش من المشاة، وثمانية مدافع قرى الشابسغ. كان الأديغة يهربون تاركين متاعهم ومواشيهم وأملاكهم لا يسألون إلا عن حياة أُسَرهم. أرسل فلاسوف قطعان القوزاق إلى كل الاتجاهات فأحرقوا محاصيل 17 قرية كبيرة و119 قرية صغيرة.

وضمن دائرة 30 فرسخاً أبادوا كل ما وجدوا،وساقوا معهم أكثر من 1000 بقرة ورجعوا إلى الضفة الأخرى في 4 شباط.

عندما عبروا نهر بشزة عمل فلاسوف بحماسة للحصول على مكافآت للعابرين. وهذا جواب فيليامينوف: "كان بود قيصرنا أن تحل الأمور بغير هذه الطريقة،ولو أن أصل المشكلة هم الذين يعيشون على الضفة الأخرى، ورغم حاجتنا إلى ما حدث. ولهذا لا يستطيع قائد جيوش القوقاز أن يطلب مكافآت ثمينة. ويكفي توجيه ثناء إليكم وإلى من تحت قيادتكم. وبالنسبة إلى مكافأة القوزاق بالأموال النقدية فمن الضروري صرف النظر إذ أن هناك نقصاً في المال، بالإضافة إلى أنه ليس من العادة تقديم النقود كمكافآت في الحروب.

أما الجنرال يرمولوف فقد أصدر توجيهاً يعرب فيه عن رضاه عن الجنرال فلاسوف وكل ضباطه، وعلى نحو خاص تابانيس ودوبونوس " إنه يقدر مثل هذا الطبع ويرى فيه خير القوزاق الذين يعرفهم الجميع.

عندك قبل أيام. تعاقب على بيتك خلال الأيام الثلاثة من يضمر لك الخير، ومن يضمر لك الشر، من أجل قضية الفتى القوزاقي. من أين تعرف ماذا في قلوبهم جميعهم؟ ولكن حتى لو لم يكتموا المأساة أمام الفتى القوزاقي لم تخرج كلمة نابية تتعلق به. أظن سبب سؤالك عن أباته قمجري هو بحث ديسكاسي عني. أقول هذا، ولكن لماذا يبحث عني ديسكاسي الذي لم أقابله طوال عمري، وعن طريق أباته بسلني؟ لو كان عن طريق قانتات أوخان جري أو سيسور، بل عن قايمت وحاج قسي لكان الأمر مفهوماً لأنهم يتزاورون.

ـ كل ما في دنيانا يجلب الهم يا عمر ـ بدأ بشه ماف يغير موضوع الحديث غير أنه فهم من نظرة المضيف أنه لن يقبل منه إلا الجواب فقال: ـ والله لا أعرف إن كان القوزاق أصدقاء لأباته قمجري فهو من أوائل الذين يستلون قاماتهم، وابناه بسلني ووبيخ لا مثلبة عليهما، وإن اتهمتَهما ظلماً فلن يقبل من يسمع منك هذا الاتهام.

ـ هكذا إذن! ـ ظهر من صوت عمر أنه نادم على سؤاله، ولكنه لم يترك الموضوع، فرجع وسأل عما يقلقه: ـ لا أعرف ما الذي يجعل أباته بسلني هذا الرجل الطيب من معارف ديسكاسي.

ـ ديسكاسي يا عمر ـ قال شواي وقد تخلص من أفكاره: ـ يحرص على الأديغة؛ ألم تسمع أنه كتب إلى القيصر يروي له مأساة الأديغة؟

ـ وكيف لم أسمع يا شواي؟ ـ ارتفع صوت عمر راضياً بما قيل له ـ أنت يا شواي أول من أطلعني على الخبر وإن كنت لا أعرف النتيجة ـ وقال للضيف بسرعة: ـ أنا لا أثق به يا بشه ماف؛ كيف يتجاهل مصالح روسيا التي أوفدته ومصالح القوزاق ويحرص علينا نحن.

ـ يُتناقل في بلادنا خبر آخر يقول إنه يغتابنا في حضرة القيصر الروسي ويحمّلنا مسؤوليةَ ما يحدث كاملةً.ظهر يا شواي في نواحي أبنه فارس ثرثار اسمه بفوق يقال إنه يلاحق ديسكاسي عن كثب ليقتله.

ـ ما أكثر اهتماماته! ـ ضحك شواي ـ أرسل إليّ أيضاً أكثر من مرة يحذرني من لقائه!

ـ لا تضحك يا شواي! ـ لم يرض عمر ـ قلت لك قبل أيام والآن أقول: يجب أن يكون هناك من يحرضه ضدك. ربما يؤذيك؛ انتبه!

ـ من يحرضه معروف ـ شهد بشه ماف ـ شابسغ بامبت أتذكُر كيف جاءني؟ كان قال لي: هذا رفيقك أصبح كافراً؛ فإن وضعتَ رأسه أمامي أعطيتك سومتين.

ـ والحال أن من يقول هذا تفوح البرودة من موقده ـ أشعلت فكرة الانتقام التي هيجت أفكار شواي عينيه الحادتين ـ منذ عدة أشهر يهرب مني، هذه ليس مشكلة. فيمَ يحتاجني ديسكاسي؟ إن كان أباته يريدني فسأوافيه في اليوم الذي عيّنه. ولكني لا أفهم لماذا موفد روسيا بيننا. ثم ها هو الربيع يقترب؛ كان بودي أن أعاون عمر قليلاً. حين زارهما بانتالي جعل الفرح بابونا تقف على رجليها، ثم رجعت إلى السرير حين ودّعته.

ـ إذن ماذا بوسعنا؟ لسنا أحراراً في شيء من هذه الدنيا ـ زفر عمر عميقاً ثم أضاف: ـ لا يزال أمامنا متسع من الوقت قبل الربيع. لا تخدع نفسك بالأرض التي تظهر بعد ذوبان الثلج. لن يأتي انقلاب الطبيعة إلا بعد أن يتساقط الثلج الناعم الذي يسمى " لقمة العجوز"[1] سيتغير الجو في الأسبوع ثلاث أو أربع مرات في هذا الوقت. لا حظَّ يعدل أن يكون الناس في حاجة إليك. إن كانوا استدعوك فهذا يعني أنهم في حاجتك. لا تقل: ماذا ينوون لي ؟!

أوقف صوت الباب حديث الرجال.

ألقى تازة أديغ السلام حال تجاوزه الباب، وبدأ المصافحة من الضيف:

ـ سلاماً يا بشه ماف! كنتُ في بلاد الشابسغ.وحين دخلت البيت أخبرتني خالتنا أن عندك ضيفاً فجئت إليك لأراك. كيف صحتك؟ وأمور معيشتك يا بشه ماف؟ لم أرك منذ أوصلنا بانتالي إلى أهله في الشتاء الماضي.

ـ حقاً يا أديغ! ـ شهد بشه ماف على كلامه ـ ولكن لم تنقطع أخبارك الطيبة عني.

ـ شكراً لمن يأتون على ذكري ـ ظهر على وجه أديغ الممتلئ اغتباطه بما يسمع، وأضاف: ـ ولكن لا أرى نفسي فعلت ما أستحق أن يذكرني الناس لأجله.

ـ ألستَ لا تدعهم يذكرونك بالسوء ـ قال عمر.

ـ لا سمح الله!

ـ ما الأخبار حيث كنت يا أديغ؟ ـ سأل شواي يريد أن يغير موضوع الحديث.

ـ الشابسغ يشعرون بالعار مما فعله الجنرال فلاسوف بهم، ولكني سمعت شيئاً جديداً.

ـ أي خبر؟ رفع شواي الرأس المثقل بالأفكار ـ أجيد لنا أم سيء؟

ـ من يعرف ماذا يضمرون يا شواي؟ ـ قال أديغ مرتاحاً إلى أن الخبر يأتي من طرفه ـ أرسل القيصر شخصاً اسمه ستريكالوف لتقويم سلوك فلاسوف. كنت أظنكم تعرفون الخبر، ألم يخبركم بشه ماف؟

ـ أسمعه للمرة الأولى ـ قال بشه ماف ثم أصلح وضعه: ـ كنت أعرف أن ديسكاسي كتب إلى قيصره في هذا الشتاء، ولكن من العجيب أن يرسل مندوباً؛ وإن كنت لا أعرف كيف سيكون سلوكه معنا.

ضحك عمر:

ـ " قائمة البقرة لا تقتل عجلاً " ـ هذا ما سيحدث، سيُجمِع باشوات الروس والقوزاق في النهاية على تحميلنا الذنب ويفترقون. وأنت ما رأيك في هذا الموضوع يا شواي؟

ـ تحليل الوضع القوزاقي ـ الأديغي ـ قال شواي دون حماسة: ـ سيعود إلى استقامة المندوب وإنسانيته. ولكن في ما تقوله يا عمر شيئاً من الحقيقة. غير أننا سننتظر ما يحدث.

---

[1] تعبير مألوف في الجولان أيضاً. المترجم.

_ لن يغفر السلطان التركي للقوزاق ما فعلوا بحسن باشا على ضفة نهر بشزة _ أدلى عمر برأيه، وأتمّ كلامه: _ لست من وكلاء تركيا ولكن حزّ في نفسي أن يُهان من توجّهَ إلى القوزاق بنية السلام. ليس الأتامان ماتفييف محروماً من الإنسانية على ما أسمع. لا أستطيع أن أحدد سبب تصرفه على هذا النحو. وأنا ما كنت لأرضى بمثل هذه المعاملة معي.

_ أتظن الأتامان ماتفييف لا يزال حراً في شيء مما يفعل يا عمر؟ _ قال بشه ماف.

_ يا بشه ماف _ رجع شواي إلى ما كانوا يتحدثون فيه وإن كان مهموماً بأشياء أخرى: _ أما حدست شيئاً مما أرسلك لأجله أباته بسلني؟ ماذا يريد؟ أقول هذا خوفاً من أن يكون لبامبت ضلع في الموضوع.

_ أقلتَ: بامبت؟ خُيِّل إلي أني رأيته في غابات بلادنا.

_ متى؟

_ الليلة.

_ خيل إليك أم تعرفته ؟

_ لم أحادثه، حين رآني توغل في الغابة مع رفيق شاب له.

_ هذا هو بفوق _ شهد شواي وكأنه رأى بالعين ما يخمنه، ومد يده إلى الأسلحة والمعدات المعلقة بالجدار الذي يجلس إليه.

وقال عمر بلا مبالاة ظاهرية وإن كان يكظم مشاعره:

_ كفى يا شواي! لن نعلق مصيرنا وسلوكنا بهؤلاء... ما يزال الليل طويلاً؛ أسمعونا حكاية قديمة! ابدأ أيها الجار؛ فإن قلت: لا، فسأروي لكم حكاية الأخوين إيجانوق؛ فاسمعوا: " على كل الألسنة: الأخوان إيجانوق، الأخوان إيجانوق " ألم يبق في الدنيا رجل غير هذين اللذين أدعو عليهما بأن يُهلكهما الطاعون إن شاء الله؟ لا يأتون على ذكر إيجانوق في المنطقة التي فيها جافيش إندار. سأختبر رجولة هذين الأخوين " قال جافيش إندار هذا وسافر.

كان جافيش مولعاً بمديح الناس له ولكن لا يجلب لنفسه إلا العار: يسافر ليجلب لنفسه الثناء فلا يعود إلا بالمثالب.

دخل جافيش ومعه فارسان إلى دار إيجانوق، وترجلوا عند مربط الأفراس. لم يستقبلهم أحد. ففهموا أن ورزمس وتيمرقان ليسا في الدار. دخلوا المضافة، وكان إلى جانب الوجاق قطة هرمة تتدفأ على النار. خلع جافيش سترته وعلقها بالعمود. واستل قامته: " لو لم يكن هؤلاء أولاد كلب لما سمحوا لقطة أن تقيم في مضافتهم كأنها رجل. وقطع رأس القطة. ولما دخل صبي ذو عينين سوداوين المضافة قال له: "خذ هذه إلى جدتك ولتطبخْ لنا منها عصيدة! ".

_ أي سلوك شرير هذا؟ ! قال شواي بصوت محتدّ.

على عادة الأخوين إيجانوق حين يعودان إلى البيت دخلا إلى أمهما أولاً فسألاها: "من ضيوفنا يا أمي؟ " " لا أعرف، ولكن كائناً من كانوا، فهم أشرار؛ ذبحوا القطة وأرسلوها إليّ مع الصبي طالبين أن أطبخ لهم عصيدة "." لم يفعل هذا إلا جافيش إندار " اطبخي لهم ما طلبوا يا أمي " قال الأكبر. لم تقبل العجوز ولكن الابن الأصغر أصرّ أيضاً: " الضيف يقدَّم له ما يطلب، لا بد من هذا ".

_ أحسنتما! ولدتكما أمكما رجلين. صرخ أغوي بشه ماف.

دخل ورزمس إلى الضيوف ورحب بهم. وجهزت المائدة سريعاً فأدخلت إليهم. وحين جلس رفيقا جافيش إليها تراجع ورزمس واستند إلى العمود الصغير. نظر جافيش مدة إلى الطعام يحاول ألا يمد يده إليه. قال ورزمس بخشونة: يا جافيش ستأكل منه ولو كان فيه حتفك!.

ابتسم شواي، في حين حبس أديغ أنفاسه بانتظار ما سيحدث.

جلس جافيش قليلاً لا يستطيع إعادة لقمة العصيدة. ولكن لم يكن بد فأغمض عينيه وابتلعها. "عصيدة أمك قوية الأثر " قال الضيف. لن نستطيع أن نأكل المزيد؛ لا تحرجنا!"

حين أخرجت المائدة نظر جافيش نحو الباب وقال: "قيل: حين يأكل الضيف ينظر إلى الباب، سننصرف نحن " سألهم ورزمس: " ولكن لم تقولوا ماذا تطلبون " قال جافيش " شكراً لبّيتَ لنا طلبنا" ابتسم ورزمس لأخيه تيمرقان وأجابهم " لو لم يكن عندكم غير هذا الطلب لأطعمكم أهلكم قطة "

ازداد أعداء الأخوين إيجانوق هكذا؛ أضيف اسم جافيش إندار إلى أعدائهما من الأمراء _ النبلاء.

وبعد مدة من تقديم عصيدة القطة إلى جافيش التقى عدد من النساء في طريقهن إلى تعزيةٍ بموكب النبيل. وكالعادة ترجلت النساء من العربة. وترجل الرجال، واقتربوا من النساء والأعِنّة في أيديهم.

تعرف جافيش على والدة الأخوين إيجانوق بين المعزيات. فناداها " يا أمنا تقدمي قليلاً! " وحين خرجت العجوز من صف النساء تقدم إليها جافيش وجزّ شعرها. قالت له " أيُّ دَينٍ لك علي يا ولدي؟ " " يقولون: ولداك رجلان ممتازان؛ إن كان فيهما مروءة فلا يغفرا لي! " قال جافيش هذا وركب. وما إن سمع ورزمس وتيمرقان الإهانة التي لحقت بوالدتهما حتى أسرعا لملاحقة جافيش ولكن الأم لم تقبل: " لا، لا تفعلا، ستقابلان من فعل بي هذا إن كنتما رجلين، ولا تصرخا مستنكرين قصّ شعري فتفضحاني فإنّ " من يُهَنْ يجدِ الفرصة للانتقام ".

وبعد أيام من الحادث رجع جافيش إلى بلاد البسلني، ولما صادف الأمير بيسلان بْزابْزه يستعد للسفر سافر معه ضمن موكب الفرسان. وأشرفوا على نهر إينجيج والهواء الشرقي البارد عدوُّهم. كان وسط الماء نظيفاً وجوانبه متجمدة، وسطح الجليد كالصوان. ساط الأمير بيسلان بزابزه حصانه كثيراً يستحثه ولكن الحصان لم يبرح مكانه. غضب جافيش حين رفض حصان الأمير أن يعلو الجليد وخرج من بين أصحابه غير أن حصانه توقف أيضاً على حافة الجليد؛ قال "كسائي لا يساوي مُدَّ قمح وما أركبه ليس موثوقاً؛والله لتعبرنّ! " قال جافيش هذا وخط لهم طريقاً بحصانه. توقف الأمير الذي يجب أن يكون دائماً في المقدمة:"

أرجعوه! أيقول أحد مثل ما قال لي جافيش؟ " أحصاني أنا الذي لا يوثق به ؟ أأنا من كساؤه لايساوي مُدَّ قمح؟ أليست هذه نميمة؟ متى لبست كساء لم أشتره إلا بعبد؟ أأنا من الموالي ليكون كسائي لا يساوي مدَّ قمح؟! لن أخطو خطوة إلا بعد محكمة!

وكُلِّف المحكّمون في المكان نفسه: قالوا له " أتقسم أن كساء الأمير بيسلان لا يساوي مد قمح؟ " أقسم جافيش، ولكن دون شهود. فقرروا إعدامه إن لم يأت بشاهدين. فأعطاه الأمير بيسلان اسم الأخوين إيجانوق.

فهم جافيش أنه وقع في ورطة لا مخرج منها؛ فيئس. قال "كيف أذهب إلى الأخوين اللذين أهنت والدتهما؟ سيقتلانني. ولكن الأمرين سِيّانِ عندي: إن لم يشهدا لي فالآخرون سيقطعون رأسي" لساني بلاني فلأذهبْ! "

صدف الآن أيضاً أن الأخوين إيجانوق كانا غائبين عن البيت. وبعد ما انتظرهما يوماً وليلة رجع الأخوان.

حين دخل الأخوان إيجانوق إلى الضيف أبلغهما طلبه " في الربيع الماضي دخل بائع يحمل حريراً إلى الدار. وحين تفحصت سيدةُ البيت الأقمشة وقع اختيارها على قطعة تصنعها كساء لزوجها؛ فاستدعتني: " أأشتري هذا الحرير الذي اشتهيته لأجل زوجي؟ ولا يطلب البائع أكثر من مد قمح " ولما قلت لها: " حقاً قماش جميل للكساء " اشترته بمد قمح. وفصّلته لزوجها وهاهو يلبسه. وأنا قلت "حصاني ليس موثوقاً " لأن حصان الأمير كان عليه ختم يؤكد أنه غير موثوق، وهذا الحصان من النوع الكسول. ولكن من يعرف كيف ستكون السيدة؛ لم أستطع أن أطلبها شاهدة لأنها امرأة. لهذا جئت "

استشار الأخوان والدتهما. " اشهدا له إذن! " قالت لهما. " يا والدتنا لن نستطيع هذا " قالت " لا، لا أقصد بهذا أن تصالحا عدوكما. أولاً ستهينان جافيش، وثانياً ستهينان معه ذاك الأمير المتحذلق بيسلان ". فإن ذهبتما معه وشهدتما، فسأل الأمير زوجته، قالت له أصل المشكلة. فإن نفذتم هذا فلأن جافيش النبيل عدوكم، فتصرفوا معه كما يُتصرف مع العدو"

رافق الأخوان جافيشَ. وشهدا على ما قاله. صرخ بيسلان بزابزه الأمير: "وا خجلي! بينما أنتظر أن يقتل الأخوان إيجانوق جافيش إذا بهما يقتلانني"

برأ المحكمون جافيش مما أدانوه به. ولكن حرموه من أن يكون نبيلاً مرافقاً للأمير.

قال جافيش للأخوين إيجانوق " عبثاً اتخذتكما عدوين. قتلتماني وأنا حي. اقبلاني خادماً إن سافرتما أمسكت لكما الركاب وإن حللتما ربطت حصانيكما" استشار الأخوان والدتهما فرأت العرض مقبولاً: " ارضيا بهذا فمن يقتلْ،حتى الأميرَ، يكفِه أن يدفع الدية، وأي نبيل وهب نفسه خادماً بثمن الدم؟ إن وهبكم جافيش حريته فخذوها! ولن تكسبوا مكرمة أعظم من هذه يا ولديّ "

قبل الأخوان إيجانوق. وبقي النبيل جافيش خادماً لهما وسائساً لحصانيهما. " هذه يا إخوتي الصغار الأعزاء ولو أني أمللتكم _ أنهى باجقوه عمر حكايته _ حكاية الأخوين إيجانوق "

_ ولماذا تسبب لنا الملل؟ _ قال بشه ماف _ لم يكن الأخوان إيجانوق دون رجولة. وكانت لهما أم حكيمة. جنّبتهما الخطأ وحلّتهما بالرجولة.

_ لهذا يقال: تحلَّوا بالصبر! _ وافقه تازه أديغ ونظر إلى شواي الذي كان مُطرقاً لا يساهم في الحديث، وإلى بشه ماف، وألقى نظرة على عمر: _ نحن الأديغة نرتمي مرة إلى هذا الاتجاه ومرة إلى ذاك. انظروا هاهو نهر بشزة يسخر بنا ضاحكاً بأمواجه المتلاطمة، يجري دون استعجال بين الضفتين الأديغية _ القوزاقية.

_ لا يخلو أن يُخرجوه عن طوره ويوسخوه أحياناً. قال عمر دون اهتمام كبير _ ليس نهراً مرتاحاً هو الآخر.

_ وهذا ما أقوله يا عمر _ سرى الدفء في عيني تازه _ وأنت يا شواي لماذا لا تقول شيئاً؟

_ وماذا أقول يا أخي الصغير؟ _ ابتسم شواي _ لا أظن ما رواه لنا مضيفنا دون جذور؛ أليس صحيحاً يا عمر؟

_ لن يقول أحد أصدق من هذا، كان عمر متهيئاً للجواب، هذه موجهة إلى كثيرين، نبتتْ من حياة الأديغة، سمعت والدي يكررها ويقول: كنت أعرف أبطالها _ وكانت لي بهم صلة ما.

_ الخبر الفارغ من المضمون قصير العمر، وما له لُبٌّ يعيش قروناً _ اختتم أغوي بشه ماف سهرة هذه الليلة.

ونهض تازة أديغ مع نهايتها:

_ والله تأخر الوقت؛ لتكنْ ليلتكم مريحة!

ونهض شواي، وقال عمر:

_ أحب أن أقول للجار شيئاً _ حين وطئا العتبة كشف عن سره: _ الشريران اللذان رأيتهما على تخوم قريتنا لم يعجباني... أطلق كلبك، وسأفعل كذلك. ولا تدع النوم يستغرقك!

III

لم يكن نور الفجر ينوي بعدُ تسلُّقَ أشجار تخوم الغابة الشرقية حين ابتعد الفارسان عن ظاهر قرية قاي حبله، صعدا المرتفع، وحين تجاوزا حدّ الغابة قال شواي:

_ لا أعرف حالك يا بشه ماف، أما أنا فلم يغمض لي جفن طوال الليل.

_ وأنا أيضاً لا أتذكر ليلة ثقيلة علي كالليلة الفائتة.

بشه ماف أيضاً رجل سريع القلق مثلي. قال شواي في قلبه. لم يجعلني أشك فيه يوماً منذ نشأت بيننا هذه الصداقة. كنت أقول إنه رهنُ أوامر بامبت ووكيلُه، ولكن جاء من ديار الأبزاخ البعيدة ليزورني في الشابسغ. يَفهمني حسب الوضع الذي أنا فيه حتى لو لم تكن أفكارنا حول القوزاق متطابقة، ونجد موضوعاً للحديث بيننا. ويسامحني كما أسامحه حين يرى مني شيئاً لا يعجبه. يلمّح لي عمر أحياناً قائلاً:إن

صديقك لم يقبل أن يذهب معنا إلى قوزاق فاسيورينسك؛ ولكن لماذا تحرج الإنسان ليفعل ما ليس مقتنعاً به؟ أليس أديغ مثل بشه ماف؟ أفكاره تختلف جداً عن أفكار بشه ماف؛ لا يريد القوزاق ولا الترك. لا يصرّح بشه ماف برأيه، ولكن إن كان يعتقد أنه سيبقى أخيراً في أحضان الترك فهو مخطئ.

أزاح شواي أفكاره، ورجع إلى أرق بشه ماف.

_ أنا أرسل لي أباته بسلني خبراً يحرمني النوم، أما أنت فما الذي يشغل رأسك؟

_ همّك نفسُه. _ أجابه بشه ماف كأنه كان ينتظر السؤال _ ليس ما أرسلني أباته إليك من أجله. هذان اللذان رآهما تازة سلباني هدوئي. لم يفارق وقع أقدامهما الأخرس أذنيّ طوال الليل.

_ عرفت أن سيحدث هذا _ حث شواي الحصان وجعله يخبُّ زمناً، ولم يتوقف عن الحديث في عدْوه: _ لم أعد أهتم بنفسي بل أخاف أن يشعلا النار في حقل عمر انتقاماً منا؛ قضيت الليل في هذا الوسواس.

_ شواي: أولدتنا أنا وأنت أم واحدة؟ كان هذا الهاجس نفسه ما في رأسي الليلة.

_ أسعدني كثيراً أن تسأل: أولدتنا أم واحدة؟ _ خفف شواي من عدْو حصانه _ ولكن لا أعدل شيئاً بأُخُوَّتك التي تعيشها معي. صدِّقني: أعدّك أخي وصديقي وأملي.

_ ولماذا لا أصدق؟ شكراً، وأنا أُكِنُّ لك الشعور نفسه. ولكني سأقول لك ما لم يقله أحد لك طوال عمرك.

_ نعم... أوقف شواي الحصان.

_ امشِ، امش _ لم يوقف بشه ماف الحصان _ لا تقل إنه ليس في الدنيا من تعدله بي. من هي سيسور التي في دنياك؟

_ أغوي! والله أمسكت بي _ ابتسم ورجع فوراً إلى الجد: _ لا تخلط العواطف نحو الرجل، بها نحو المرأة!

وقال أغوي بلا حماسة:

_ كنت أود ألا أجعلك تنساها.

_ يا حسرتي يا بشه ماف، أكذب عليك إن قلت لك إني إعرف ما في قلب سيسور. ولكن مما أبعدني عنها قضية المرحوم محمد جري. والسبب في كل ما جرى هو هذا اللعين بامبت. يرسل إلي أخباراً وحين أبحث عنه يختفي. رفع شواي جسمه عن السرج مغلوباً بالغضب، وصرخ مُسمعاً الغابة كلها: يا بامبت إن كنت تلبس قبعة وكانت أمك ولدتك، وإن بقي فيك شيء من رجولة، فلا تتبعني مثل ظلي بل اخرج من الغابة وقِفْ أمامي!

_ يا شواي، لجم بشه ماف الحصان _ ماذا جرى لك يا بيتمال؟ إن كنت تظن أنك ستعيد بامبت إلى ضميره فأنت مخطئ.

_ وإن كنت أخطئ _ صرخ شواي بصوت أعلى _ أقول له ما في قلبي _ ليستقبلني في طريقي بصدر حصانه مشهراً سيفه!

ـ كفى يا شواي! ـ لم يوافق أغوي بشه ماف ـ أمامنا طريق طويل فلا تعبث مع هذا المسخ!

ـ والله هذا صحيح ـ رجع شواي إلى رشده، وبرّأ نفسه كأنه نادم على تسرّعه، ففعل ما خطر له دون تَرَوٍّ ـ بُحْتُ بما يقلقني رغماً عني. أحياناً،لا أعرف كيف، أفعل ما لا يجوز. ولكني لن أندم على أي شيء أفعله حيال بامبت. أفقدني كل صبر.

لو كنت تعرف أين ستعثر وبِمَ، قال بشه ماف في نفسه، ما توقعت أن تكون حقيقة بامبت كما تكشّفت الآن. رافقته بقلب أديغي. سوّغْنا أي عمل قمنا به مهما كان سيئاً بأنه في خدمة قضية الأديغة. وكيفما عشنا لم يتصرف معي كما فعل معك. ليس لأننا كنا مخلصين أحدنا للآخر فقد حدث أن تخاصمنا وتصالحنا. ولكن أفكر الآن من جديد وأفهم أنه لم يدعني أعرف ما في قلبه مهما كانت علاقتنا جيدة... مهلاً! في العام الماضي حين أغرقَنا القوزاق في المستنقع ألم نكن معاً؛ فكيف حدث في تلك الليلة أن افترقنا؟ كنا نركض جنباً إلى جنب، وينصحني ألا أتوه. وحين بدأ القوزاق يقابلوننا بسيوف مشهرة ابتلعته الأرض من أمامي. أي فكرة شريرة تخطر لي في حين أنه رجع بفخذ مجروحة؟ بامبت ليس إنساناً سويّاً، ولا يستقر على شيء، ولكن لا أستطيع وصفه بقلة الرجولة. غير أنّ ما يهمني شيء آخر. ما يحاوله الآن يا شواي هو ما ينسيك ما فعل بك. تقول: ليت سيسور تخرج من القلعة وتعود إلى لوستان حبله. ولكن افرح بأن تبقى في إيكاترينودار ريثما تنهي مشكلتك مع بامبت.

ـ إلى أي جهة وصل تفكيرك يا أغوي؟ ـ سأل شواي،مازحاً، صديقَه الصامت فوق السرج.

ـ لم يتركك فيذهب بعيداً ـ كان بشه ماف راضياً بأن عاد إلى أفكاره المشتتة.

ـ أصبت! فكرت في قولك: " دمر حياتي ".

كان الفارسان يتحسسان سر الطبيعة كلما رقيا الجبل مع أن الشمس لم تنو بعدُ البزوغ من وراء الغابة. الهواء الخفيف ينزلق من فوق الأشجار ليتبدد في الطرقات، ويهز عيدان العام الفائت المنفردة. اقترب الربيع، و تنبئك وشوشات العصافير بقرب شروق الشمس من قمة الجبل، وتستقبل الغابةُ النهارَ الذي يغطي شيئاً فشيئاً سماءَها بأصوات مختلفة. من بعيد صاح عصفور كأنه يشكو، وجاوب حزنَه صوتٌ أجش آخر. وعبَر خنزيران بريان طريق الفارسين مع جرائهما. نظر إليهما بشه ماف وشواي نظرة ود، ولم يمدا اليد إلى السلاح: ليعيشا ولْيربيا صغارهما!

لم يملك شواي إلا أن يقول وهما ينحدران:

ـ أظن من يتابعوننا كظلالنا ما يزالون خلفنا.

ـ والله يا شواي لا أرى قلقك اليوم لائقاً بك.

ـ لست قلقاً، بل أنا فرح.

ـ أي فرح جلبه لك الأشرار؟

ـ أخرجنا الشريرين من قاي حابله، وأبعدناهما من أمام بيت عمر، لا أريد أن يُضرّ أحد بسببي.

_ هذا حسن، نوع من الإنسانية. لا ينقص باجقوه عمر وتازة أديغ الرجولةُ. ولكن لماذا تظل تتكلم على من لا نرى أشخاصهم؟

_ إن لم تصدق _ ضحك شواي، ابتعد عن الطريق واختبأ وراء صخرة _ انظر إلى الأعلى، صارا فوق المرتفع وفي ظنهما أننا هربنا منهما، إن لم يتحقق هذا فأنا أسحب كلامي.

_ ها هما! من أراهما ليس لهما فكرة عدوانية.

_ انظر إن لم يكن عندهما. _ عندما خرج شواي من وراء الصخرة انسلَّ بامبت ورفيقه في الغابة.

كان الفارسان في رأي بشه ماف، وإن ضحك، جبانين:

_ أتبقون تلعبون لعبة " الغميضة "؟

_ نتصيد أول من يفقد الحذر.

_ على ما يبدو أنت تشارك بامبت هذه الصفة.

_ ماذا يقول أصدقائي القوزاق؟

_ يقولون الكثير؛ أنت أدرى.

_ " حين تختلط بقطيع الذئاب اِعْوِ مثلهم " هذا هو،كما قال عمر، ما يقول أصدقائي القوزاق _ رجع شواي إلى الطريق خبباً، وبعدما عدَوا زمناً وقف رفيقه بجانبه:

_ الذين وراءنا يرون ظهورنا.

_ لا تقلق _ قال دون قصد إلى إهانة _ لا ينظر أحد إلى ظهورنا الآن.

_ من أخبرك؟ _ سأل بشه ماف دون اهتمام.

_ ليس بامبت من النوع الذي يظهر مرتين في عز الظهيرة. أنسيت أساليبه؟

_ هذا صحيح ولكن نبض قلبه يتغير في النهار ثلاث أو أربع مرات؛ فما يُدرينا أي خاطرة تأتيه؟ لا طريق غير هذا للنزول، مكان مناسب لنصب كمين لهما وقتلهما كليهما.

ضحك شواي:

_ لماذا تضحك؟

_ أتظن بامبت مجنوناً؟ هذا المكان المكشوف هو ما جعله يتخلى عن متابعتنا. ولكن لا يعني هذا ألا نكون حذرين.

لم يكن قضاء الليل والنهار في جبال الأبزاخ يخلو من المخاطر ولو لم يتربص الفرسان بعضهم ببعض. كان من الصعب معرفة من قد يظهر من وراء صخرة أو منعطف طريق أو شجرة ثخينة قاصداً الشر. وكما يرتاح القلب، مهما كان حظك من الرجولة، حين تخرج من الظلام حيث لا ترى من يمد إصبعه إلى عينك، فقد خرج شواي وبشه ماف من الجبل ودخلا أرض البجدوغ المستوية فبدا لهم أنهم عادوا إلى دنيا أخرى.

الجو صاح فليس في السماء أي غيمة، والأرض التي ذاب عنها الثلج منذ زمن ليس بالبعيد تنبئ أشجارها العارية وأعشابها اليابسة وقصبها غير المورق أنها لا تخلو من الأمل. لم يصل الهواءُ البارد الخفيف الذي كان يهب على الجبل إلى هنا حتى الآن كأنه يتسلق الطرق الجبلية القاسية. وإن بقي الجو دافئاً كاليوم بضعة أيام فستتفجر الطبيعة في البجدوغ بشتى الألوان.

_ الجو في البجدوغ لطيف _ قال شواي.

_ لو لم يأتوا بالمأساة إلى الشابسغ... _ ثارت أحزان بشه ماف رغماً عنه.

مهما قلنا ومهما فعلنا، قال شواي لنفسه، عدنا إلى أفكار الأديغة نفسها كأنه ليس على الأرض إلا هذا العرق من البشر _ ندلّله، نرثيه، نرى عيب فلان من الناس، نقْلب له شفاهنا. نصارحه بفجاجة، ولكن لا نرى نواقصنا. نحن شجعان وصادقون وكادحون، والآخرون جبناء وكذابون وعاطلون. وهذا مستحيل. كل أمة تعيش وهي تسِمُ نفسها قدر استطاعتها بالإيجابيات، وتنفي عنها النواقص. ولكن لو كانت الرياح تجري بما تشتهي السفن ! في الحياة يتعايش الخير والشر. حيث تستعمل الملعقة لا بد من السكين. والنار يسخنون بها الماء. والماء يطفئون به النار. و" حياة الإنسان تشبه تقلبات الطبيعة، أحياناً تثلج وأخرى تمطر، وأحياناً تدفأ وأخرى تبرد "كان محمد جري المرحوم يكررها. كان فطِناً خيّراً. لم يكن يميز بين أديغة وقوزاق، ولا بين أتباع الأديان المختلفة. كان يُعزُّ أصله ويحترم من يخالطهم. تحالُفُه مع القوزاق هو ما لم يغفروه له. وأنا كثيراً ما جرحت قلبه لهذا السبب. واستغل بامبت طبيعته الشريرة في هذا الاتجاه. ما لم يستطع أن يفعله السلطان التركي جعلوك تفعله بيدك أنت أيها الأديغي البائس. ثم بعد هذا نحن نتناحر على أديغة وقوزاق.

نظر بشه ماف نحو شواي دون أن يُشعره.

ربما كان في ذهنه كما في ذهني أفكار كثيرة لا تنتهي؛ قال شواي. ما فعلوه بالشابسغ مأساة عظيمة. الجنرال فلاسوف، سواء صدّقنا ديسكاسي أم لا، ليس إنساناً مستقيماً. آن له أن يتوقف؛ فقد عبر بجيشه النهر عدة مرات بحجج مختلفة. إن كان عدد من الأديغة يعبرون إلى الضفة الأخرى فما ذنب الأطفال والمسنين؟ إن جابهت من تستطيع هزيمته فأنت شجاع. في ما يخص مأساة المستنقع عرف الشابسغ أن ما جرى نتيجةٌ لسلوكهم فانكفؤوا على أنفسهم يرثون ويبكون ولم يشْكوا لأحد. وبينهم من قال: القوزاق قتّلونا في المستنقع، دمرونا. ولكن من أي جهة جاءت أصوات هؤلاء فالمنطق أخمدها. ما فعله فلاسوف في المرة الأخيرة وفي مرات أخرى مأساة، أوافقك يا بشه ماف فلا يكنْ في قلبك شيء نحوي في هذه. ولن أقبل غير هذا مِن أحبِّ الناس إليّ. رأيت بعيني أحقاد القوزاق وظلمهم نحونا وعانيته بقلبي. ولكن القوزاق الذين نجافيهم ليست قلوبهم متشابهة كما أن قلوبنا غير متشابهة. ولولم يكن إلا أنفيسا وبانتالي لفضّلتهما على بفوق وبامبت. رحمة قلب أنفيسا وكِسرة رغيفها هما اللتان صبّرتاني على الأسر. ليس من حقي أن أحمل عليهم في قلبي مهما قالوا لي ومهما فعلوا؛ فأهدأُ الكلابِ إن وطئت ذنبه عضك!

قال بشه ماف حين ارتقى الفارسان القمة:

_ أفرح لأجلك يا شواي.

_ ماذا تقول؟ _ قال شواي متخلصاً من أفكاره: _ لا أرى ما يُفرح إلى الآن.

_ أليست قرى قوزاقية تلك التي تبدو على ضفة النهر؟

_ نعم، لم تخطئ _ قال شواي وشد اللجام: _ وإن أردت أخبرتك بأسمائها.

_ لا حاجة لها _ قال بشه ماف الآن دون مزاح.

_ ولماذا لا تحتاجها؟ _ يمزح شواي مع بشه ماف متوقفاً عند جملة " أفرح لك " _ وأنا كنت أقول هذا في وقت ما. أما قالوا " لا ترم الحجر على طريقك فتعثرَ به "؟

_ حسناً لأن القرى القوزاقية تراءت لعيني قلت دون حقد: لن أدعك تنعس مع أفكارك _ حاول بشه ماف التمويه على مزاحه الملغوم _ إن لم تكن تريد فلا تنظر، ليس إلزاماً.

_ لن أستطيع هذا لو توسلت إلي يا بشه ماف _ انخفض صوت شواي واختلج _ إحدى هذه القرى الثلاث التي تراها هي فاسيورينسك التي أمضيت فيها ثلاثة أشهر أسيراً.

_ حيث يسكن أصدقاؤك الآن _ قال بشه ماف دون سوء نية.

_ ليسوا أصدقائي وحدي، هم أصدقاء عمر.

_ ستجعلونهم ينهبوننا وأنتم تقولون: أصدقاء _ قال بشه ماف مغمغماً وحثّ الحصان.

وفيما حصاناهما يركضان خبباً قال شواي:

_ لا يزال أمامنا متسع من الوقت إلى موعدي مع أباته بسلني؛ إن لم يكن صعباً عليك يسرني أن نعرّج باتجاه فاسيورينسك، ها هي ليست بعيدة.

_ أتريد أن ندخلها؟ _ سأل بشه ماف دون أن يوقف الحصان.

_ يكفيني أن أمر بمحاذاة النهر.

_ أظن القوزاق سحروك أيها الرجل. قال بشه ماف بصوت ناعم.

_ إن كنت ترى فيّ شيئاً من هذا فليكنْ ما تريد _ لم يقابل شواي كلام رفيقه بالمعاندة. ولم يكن متلهفاً لما سيرد به عليه.

_ إن كان رأيك هكذا يا شواي فسأرضيك. _ قال أغوي بشه ماف بعد قليل ثم وجه حصانه إلى حيث تبدو القرية القوزاقية _ قبل الآن أيضاً لم أفهمكما أنت وعمر حين كنتما توصلان الفتى إلى أهله. ماذا يستطيع القوزاق أن يضرونا إن عرّجنا على إحدى ضفتي نهرنا؟ وسنقضي الليلة عند صديقي القديم في بشه قوي حبله. امش! لا أريد أن أسبب لك الحزن من أجل هذا. ولن نجعل اللعين بامبت يشعر ببرودة بيننا.

كان الربيع هنا بين الأبزاخ ونهر بشزة مختلفاً ولو أن المسافة لا تزيد على مسير نصف نهار خبباً. تستطيع أن ترى لطف الظهيرة المخيمة على الفارسين في كل مكان: رؤوسُ الحشائش التي بدأت تبزغ في المواضع الضاحية للشمس ضاحكةٌ، والجريان السعيد للنهر. ومن مرأى الضفة اليمنى العالية، وأصوات الصبية والصبايا الذين يمرحون عليها. والعصافير ولا سيما طيور السنونو العائدة حديثاً تلعب فوق الماء دون استئذان، تطير حيث تريد فتعبر نهر بشزة.

توقف شواي وبشه ماف في الضفةِ المستويةِ من الطرف الأديغي المقابلةِ لمعبر النهر عند فاسيورينسك حيث يلعب الصبايا والصبية:

_ إنهم لا يروننا؛ أأناديهم؟ _ قال بشه ماف بعدما وقفا قليلاً.

_ لا، دعهم يلعبون! لم يقبل شواي. وعصر الألم قلبه حين تذكر المكان الذي ضربه فيه بامبت، ولكنه سرعان ما أفاق من شروده، فانتصبت أمام عينيه أنفيسا وهي تحمل إليه الخبز فقال: _ الأولاد متشابهون حيثما كانوا: أبرياء وشفيقون. أترى السطحَ المسقوف بالحور المرتفعَ عن جيرانه؟ هذا هو بيت بادينكا سافيلي. وقريباً منه، ولا يظهر، بيتُ كاشورا إيفان. والاثنان بيتاهما كاملان، وداراهما كاملتان. والقوزاق الآخرون كلٌ منهم أحسن من الآخر، يعيشون في هناء.

_ مهلاً، مهلاً شواي _ قطع بشه ماف حديث صديقه واضحاً من كلامه مزاحُه _ لا تُغرنا بزيارة " قوزاقك " بهذا الكلام! ونحن نعرف دون أن تخبرنا أن أحوالهم جيدة. امش؛ يكفي أنك ألقيت عليهم نظرة!

لم يكن شواي في وضع يستوعب فيه ما يقال له. كان جسمه على السرج وقلبه وراء النهر. توقف قلبه مسروراً عند باب كاشورا إيفان رغم أنه قضى أشهر الأسر في دار سافيلي واستعاد الحرية فيها. كانت الدار هادئة ولا يرى فيها أنفيسا، وكان قلبه سيهدأ لو وقعت عينه على أخيها الأصغر فاسيك ولكن لا يُسمع صوته هو الآخر. وليس بين الصبية الذين يلعبون لعبةً يتبادلون فيها الصفق على الأكف. وكان أعجب ما رآه أن فتحة جدار الإسطبل التي رأى من خلالها عيني أنفيسا الصافيتين قد أغلقت.

_ أقلت شيئاً يا بشه ماف؟ _ سأل شواي.

_ والله قلت، ولكن "إن لم ينظر القلب لم تر العين " _ لم ير بشه ماف من اللائق أن يكرر المزحة التي حملت الآن شيئاً من الجد؛ فأنهى بنوع عتاب: _ أسنبقى واقفين هكذا؟

_ هذا حق _ تنهد شواي _ على قولك يكفي أننا ألقينا نظرة على القوزاق.

_ اسمع ما يقول! _ استغرب بشه ماف ما سمع _ لماذا إذن تسأل عما قلت لك؟

_ لم أجبك حتى لا أدعَك تعتقد أن القوزاق سحروني، ولا أُطمِعَك في مُلكهم. لا أستطيع أن أزعم أني تركت قلبي حيث كنا ننظر. ولكنك عرفتني.

_ أتظنني اكتشفت فيك هذا الآن فحسب؟! _ تظاهر بشه ماف بالضحك. ثم سأل منتهراً: أنت مجنون إن كان قلبك يتوجع على بانتالي. سترى إن عشنا أنه سيحاربنا يوماً من الأيام. الحرب لا تعرف صديقاً ولا رفيقاً... لا تقف أمام سيف بانتالي مسكوناً بهذا الوهم. لن يتورع عن قتلك.

_ لا أعرف إن كان إلى هذا الحد _ قال شواي والتفت إلى الضفة الأخرى _ إن فعل بي هذا فلن يفعله بباجقوه عمر.

_ ألم تسمع أن قلب قلب القوزاقي يتغير سبع مرات في اليوم؟ التفت بشه ماف.

_ نعم _ أجاب باختصار _ ولكن هذا الكلام ينطبق أيضاً على الأديغة. لا أمة إلا فيها أناس أردياء. ولماذا تشير إلى أحدهم؟ هاهو بامبت خير مثال!

_ والله هذا صحيح _ قال بشه ماف _ وفجأة أدار اتجاه حصانه. _ حقاً يا شواي؛ أتكون تشفق على تلك الصبية التي حدثتني عنها؟ _ ماذا قلت لي اسمها؟

_ أنفيسا _ نطق اسمها فجأة وقد بدا عليه الفرح بتذكيره باسمها _ أنا مهموم بها لأني لا أعرف ماذا حدث لها في نصف السنة الأخير. حين سألت عمر: ألم تسأل بانتالي عنها حين زاركم ابتسم ولم يجبني.

_ وأيّ سوء قرأت في ابتسامة عمر؟

_ أفهم يا بشه ماف ما تريد قوله لي بهذا؛ أكنتُ سألت عمر، وهو الأكبر مني، عنها لو لم أكن مهتماً بحياة أنفيسا التي في ريعان شبابها وانفتاح مستقبلها ؟

بعد ما مشيا مدة يعاتب نفسه، أوقف بشه ماف الحصان فجأة فارتفع في مكانه، وخاف أن يكون يظلم شواي فقال بصوت واثق:

_ إن كنت قلقاً عليها إلى هذا الحد فلنمش إلى الضفة الأخرى ولنستدعها فتراها وتسألها.

_ يكفيني أن ألقي عليها نظرة واحدة! _ قال يغلبه الحياء.

رأى أحدُ الصبيان القوزاق الفارسين الأديغيين ونبّه رفاقه إليهما فالتفتوا. فهرب بعضهم، ولم يكن من اجتمعوا على الضفة حولهما قلائل.

_ أنت تعرف الروسية خيراً مني _ قال بشه ماف _ اسألهم، دعهم ينادونها!

_ سأستدعيها ولكن أباها كاشورا إيفان لن يقبل.

_ وما شأنك بكاشورا؟ قل لهم! _ أصبح صوت بشه ماف أشد حدة.

_ استدعوا لي أنفيسكا ابنة كاشورا إيفان، قولوا لها: إبراهيم شواي _ صاح شواي عبر النهر بلغة خليط من الروسية والقوزاقية. واستنفر الأولادُ الذين سمعوا اسمه وتجمعوا على الضفة. وابتعد أحدهم عن الجمع، وصاح أكبرهم:

_ تحياتي يا إبراهيم شواي. كيف حالك هناك مع الشراكسة ؟

_ كله بخير، أنت ابن من؟

_ أنا ابن بيتر كاشينكو هل تتذكر غريشا الذي كان يُحضر لك الأعشاب باكراً ؟

_ عرفتك يا غريغوري، عرفتك..._ سقط من شواي صوته ولكن سرعان ما استعاده: _ شكراً، هنّئ والدَك وبادينكا سافيلي وكاشورا والآخرين الذين يعرفونني على سلامة الوصول.

_ بانتالي يا مبارك النسل _ استعجل بشه ماف.

_ ما أخبار بانتالي أخينا الأصغر؟ عبر شواي عما يريده بشه ماف.

_ بانتالي سافيلي _ أجاب الصبي _ إنه هناك، في الأرض المنخفضة ويخدم في الدورية، ها هي أنفيسكا وصحبها يُهرَعون إلى هنا.

صعدت أنفيسكا إلى الضفة تجر بيدها اليسرى أخاها الصغير المعاند، وتمسك باليمنى غطاء رأسها الملون. وقفت لأياً غير عابئة بأخيها المختبئ خلفها. ثم، وكأنها هي ومن تناديه لا يعيشان في عالم الأديغة _ القوزاق، اخترق النهرَ صوتٌ حنونٌ قلقٌ:

_ تحياتي يا شواي!

_ تحياتي يا أنفيسكا.

لم يتمالك بشه ماف نفسه ولو أنه لا يفهم الكثير من الروسية التي يتحادث بها شواي وأنفيسكا، فإن السر الذي بين الرجل والمرأة واضح له، فقال:

_ كفى يا شواي ما قلتما، هذا حديث لا نهاية له " العظْمة التي لا تقدر عليها أسنانك لا تعضَّها تغرِيك لذّتُها ". لنمضِ قبل أن يستنفر القوزاق!

مضى نصف ساعة ولم يتبادل شواي وبشه ماف أي كلمة منذ غادرا الضفة، يحث بشه ماف جواده، ولا يتأخر شواي عنه. ليس لأنهما متخاصمان، بل لأن لكل منهما ما يفكر فيه.

قال بشه ماف عندما وصلا إلى المفرق:

_ اقترب الوقت من المساء، سندخل "بشه قوي حبله" كما اتفقنا.

_ كما تريد يا بشه ماف _ ثم بعدما مشيا مسافة قال:

_ كان يومنا جميلاً.

_ لم يكن سيئاً.

نظر شواي نحو من يحتل مكان الأكبر وقد فهم أن بشه ماف لا يقاسمه فرحته المفاجئة هذا اليوم، وانتظر قليلاً ثم قال:

_ أظنك لاحظتَ شيئاً لم يعجبك في تصرفي على ضفة نهر بشزة.

_ إن كنت تظن هذا _ أجاب بلامبالاة بعد مدة _ فلم تخطئ. لا أحسدك على أني أتحت لك الفرصة لتنفّس عن همّك اليوم، ولكن لا أستطيع أن أقول لك: إن ما فعلته معك ليس خطأً منك. الآن أفهم لمَ لمْ تعد تأتي على ذكر سيسور المسكينة.

_ يا بشه ماف! _ لجم شواي الحصان بشَدّة واحدة فأوقفه.

لم يكن أغوي بشه ماف ينوي محاكمة ما حدث بين الرجلين.

IV

حين ارتقى شواي ورفيقه تلة قرية أبنه كان الصباح ينسلّ من زمانه دون استعجال.

من بعيد، من جهة البحر الأسود، تنظر جبال الشابسغ المتراصة من بين السحب المبددة، تروي بقممها العارية أن ثلج هذا الشتاء كان قليلاً، وإلى اليمين مقابل القرم وراء البحر، جبالٌ أخفضُ تمتد إلى أنابه بغاباتها المتنوعة. وإلى اليسار ناحية طوابسه، أبعدَ قليلاً عند الأبخاز _ الجيغيت، يبدو لك كأن الصخور المسننة تخِز سماء الربيع، وبداياتُ الجبال وراء البحر، وأراضي الحراثة، والمراعي، وأراضي الحش، تعبر أرض البسلني وتمتد إلى أرض القبرتاي.

_ لماذا توقفت يا بشه ماف ؟ _ توقف شواي أيضاً _ أهناك ما يقلقك ؟ مِن فضلِ الله أن قرية أباته بسلني هادئة ولا أرى فيها مأساة.

_ ليست قرية أبنه فقط ما أمام عيني الآن، نحن نعيش في بلاد جميلة طيبة. دُر فيها بقلبك مرة ترها كيف هي وتفهم. كان مُسِنّونا يقولون هذا فلا أصدّق حتى رأيت بعينيّ.

_ صحيح يا بشه ماف، لستَ على خطأ. بلاد جميلة خصبة _ وافق شواي رفيقه الأكبر الذي يَنشُد لبلاده الحب والارتياح. ودمدم وهو ينظر نحو أنابه المتناثرة على قمة الجبل: _ لا سلام في البلاد الجميلة الخصبة. لنمضِ يا بشه ماف، سيقول من يرانا: ماذا يريد هذان ؟ لا نقفْ مطلّين على القرية! لِندخلْها. ياربي ماذا ينوي لي أباته بسلني؟

_ أما قلت لك يا شواي إنه لو كان أمراً مقلقاً ما أمهلك أسبوعاً. وأنا أتحمل جزءاً من المسؤولية. لم أر من اللائق أن أسأل هذا الرجل الكبير المحترم عن سبب طلبه لك. التقطتُ الكلمة من فمه وأسرعت إليك فرحاً بأنه يطلبك. وكما قال صديقنا القديم الذي كان مضيفنا أمس: لِيجعل الله الجميع في حاجة إليك، لا أنت في حاجتهم.

_ هذا كلام مستقيم. ولكن اجتمعنا أنا وأباته بسلني الأكبر في حياة محمد جري مرة أومرتين. لم نتحادث مرة في حياتي. كنت بالمصادفة في المكان الذي تصالح فيه بسلني مع خورلوقوه مرجان كرمى لمحمد جري، وأنا لا علم لي بالخلاف بين مرجان وبسلني حين ذهبا إلى تركيا. وفي ذلك الزمان كان مرجان مُرَبّي خان جري _ وفي هذه اللحظة ارتسم أمام عيني شواي خان جري الذي رآه في إيكاترينودار في العام الماضي بعد الأسر على الحذاء العالي والقد الممشوق يناسبه زي خليط بين الأديغة والقوزاق، ومن وراء الإشارات الكتفية الحمراء تطلّ قانتات وسيسور تودان أن تقولا له شيئاً ولكنهما تنظران في وجهه ولا تستطيعان الإفصاح. ويبتسم له بامبت الذي لم يكن يعرف لماذا يقف شواي على الجانب الآخر. خيل لشواي أن

المشهد الأخير جعله ينتفض فخرج من أفكاره السريعة، وأكمل كلامه مرتاحاً لحدوث الأمر هكذا _ ربى لنا الأمير الشاب. ولولا اعتراض عدد من الأديغة الأشرار على علاقات محمد جري بالقوزاق...

_ ألهذا أخذ محمد جري ابنه خان جري من مرجان؟ سأل بشه ماف وكأن عيباً من عيوبه هو يبدو من السؤال.

_ لم يكن محمد جري مهتماً بشخصه... كان قلقاً على أولاده. متى ما اعتاد عليك الأشرار تعرف كم يمكنهم أن يؤذوك؟

_ مهما فعلوا به لم يقبل أن يغير طريقه.

_ لم يكن محمد جري من نوع الرجال الذين يغيرون الحصان إذا تعثّر، كان رجلاً خيّراً. وأنا آذيته. وبراءته وقفت أمام نجاحي عقاباً لي. انتكبت بسببه.

كان بشه ماف _ وإن تظاهر بأنه يستمع إلى شواي _ يمتطي ظاهراً حصانه، ساهياً، وقد هاجت أفكاره. بدا له أنه ليس على مرتفع أبنه، بل في عالم آخر. ولم تعد طبيعة الأرض الجميلة جميلة ولا ممتعة.

ألا يكفي كم أفنيت نفسي بذكرياتي غير السعيدة؟ نهرَ بشه ماف نفسه. لم أكشف لأحد إلى الآن تصرفات غير صحيحة لي أحملها معي مدركاً أنها غيرُ صحيحة. ليست أول مرة أسمع فيها هموم شواي، سمعتها مرتين أو ثلاثاً يحكيها فيفرّج عن نفسه. أأكشف له عما دفعني بامبت إلى فعله؟ أيمكن أن يفهمني؟ إن لم يفهمني فقدَ ثقته بي وكفّ عن مصادقتي. بِغضِّ النظر عن أي شيء آخر، يظن الناس حين يسمعون اسمي مع اسم بامبت البغيض أني رفيقه. أنا أعيش لا أمل لي إلا الله، أربي أطفالي، مخلصٌ لوطني؛ ليعرفْ شواي سرّي قبل أن نصبح في حضرة أباته بسلني!

_ أتظن يا شواي أن مقتل محمد جري ليس جريرة الأشرار؟

_ لا! جزم شواي.

_ تعرف جيداً هؤلاء الأشرار الذين كانوا يعترضونه جرى شراؤهم بأموال الأتراك؟

_ وأعرف هذا.

_ إذن أليس عندك فكرة عن أشخاص آخرين مسؤولين عن الجريمة بالإضافة إلى بامبت؟

_ عندي.

_ ماذا تقول إن أخبرتك بشيء لا علم لك به؟

_ سأقول شكراً لصدقك ولو لم يعد مفيداً لمحمد جري.

_ أتتذكر الفرسان الثلاثة الذين اعترضوك أنت ومحمد جري في الغابة؟

_ أتذكر، ولا يزال سلوكهم معنا حاضراً أمام عينيّ، وما رمونا به من كلام في أذني. ويمكنني أن أذكر لك اسم اثنين من الثلاثة.

_ ها! أوقف بشه ماف الحصان _ من قال لك ؟ بامبت ؟

ـ هل بامبت من الذين يُفشون أسرارهم ؟ ابتسم شواي. ثم اختتم بعد برهة:

ـ عرفتكما أنتما الاثنين من طريقة امتطائكما الحصان، أما الفارس الثالث القبيح فلم تقع عليه عيني بعد الحادث.

أخفى بشه ماف شعوره كأنما أرعدت السماء فوق رأسه فجأة:

ـ كيف تقابل أسلانبك ذا الوجه القبيح وقد تركنا جثته وراء النهر في اليوم الثالث. حسناً يا شواي ـ صرخ بشه ماف في هذه اللحظة ـ كيف لم تُعيّرني إلى الآن بما كنت تعرفه عني؟

ـ ولماذا؟ كثير من هذه الأمور يحدث في العالم.

ـ ولكن أخاف أن تظنني أحد قتلة محمد جري!

ضحك شواي:

ـ لماذا تشكك بنفسك في موضوع لا شأن لك فيه؟

ـ شكراً يا شواي. ولكن سأقول لك مادمت بدأت: كنت مع الناس الذين ذهبوا إلى خورلوقوه مرجان من أجل خان جري قبل أن نعترضكما أنت ومحمد جري في بداية طريق شتْقوه. وقد استقبلَنا مرجان في ذلك اليوم استقبالاً عنيفاً. أرجوك ألا تخبر مرجان الزعيم الكبير أني كنت أحدهم. كلما رأيته لعن قلبي لساني ولعن لساني قلبي. كانت نيتنا أن نسرق خان جري ولكن ربما لم يقبل الله منا. ثم أخذه والده بعد ذلك. وأنا فرحت بنجاته.

ـ عندي اطلاع على القصة. ولكني لم أكن أعرف أنك كنت بين الفرسان الأشرار. تستحقون معاملة مرجان لكم في ذلك اليوم. الناس يعرفون، ونحن روى لنا خان جري، أضحكَنا طرده لكم بالمذراة. ولكن ـ وأنا ألبي رجاءك ـ سأقول لك: مع أن القاتل هو بامبت فسأقول لك اسم القاتل الحقيقي غير المرئي الذي يقف وراء بامبت. ما ليس سراً بالنسبة إليّ لا يكنْ سراً عليك! إنه حسن باشا الذي يحتفي به الأديغة، وفتحوا أنابه مقراً له.

ـ صدقت! ـ صاح بشه ماف ـ لن تقول أصدق من هذا! كان بامبت صحبني إليه مرتين أوثلاثاً، يتركني عند السور الحجري العالي ويُمضي بضع ساعات في القلعة بحجة متابعة قضايا الأديغة.

عندما دار الفارسان وراء المرتفع الذي تناثرت عليه الأبقار استقبلهما الراعي العجوز الواقف على جانب الطريق متظالعاً، وسلّم عليهما ورشّهما بسيل من الكلام:

ـ لم أر طوال هذا اليوم، مع أني على الطريق، من أدخن معه لفافة. خذْ! انظرا إلى تبغي، وأنتما أرياني ما معكما!

ـ والله يا كبير أفحمتنا في موضوع التبغ ـ قال بشه ماف للراعي العجوز الذي ترجلا عنده.

ـ ليس مهماً ألا يكون معكما؛ دخِنّا من عندي!

ـ شكراً يا كبير؛ نحن لا ندخن.

_ لا تدخنان إذن. أنا سأدخن وأُسكِتُ به سعالي.

أخرج العجوز الصوّان والفتيلة من جيبه، ووضع طرف القطن على الحجر بيد، وقدح باليد الأخرى مرتين أوثلاثاً، فدبّت النار في القطن وارتفع الدخان. ثم سأل:

_ ما الأخبار في ناحيتكم؟ أليس أهلكم في سلام؟

_ ناحيتنا هادئة وأهلنا بخير. أجاب بشه ماف.

_ شيء عجيب أيها الشباب إن كان الأديغة سيبقون في هذا الوضع. ظهر بين القوزاق جنرال روسي اسمه "ولاس"[1] فحرَمَنا من كل وسيلة للعيش. ما أحلى أيام بورسكا الأتامان اللعين بالقياس إليه! سمعت أنه أحرق منطقة الشابسغ، هذا القبيح!

_ يا أبانا، إن لم تؤاخذنا فسنركب ـ قال بشه ماف وقد تحرر أكثر لكونه من الشابسغ.

_ بديهي أن تركبا، شكراً لكما، فرّجتما عني _ الحقُّ يا أولادي، قال لهما، وقد علَوا سرجيهما _ لا أعرف إن كنتما لم تُعجبا بنطقي لاسم "ولاس" القوزاقي.

_ ولماذا ياكبير؟ لم نفكر بهذه الطريقة.

_ حسناً إذن! _ نفث الراعي العجوز دخان اللفافة مرتاحاً، ثم قال يعاتب نفسه: _ " المجنون يأتيه العقل متأخراً " كنت سأودعكما قبل أن أعرف من أنتما؟

_ أنا من أسرة أغوي، واسمي بشه ماف.

_ وأنا اسمي شواي ياكبير.

_ والله لكما اسمان رائعان. ولكن لم أسمع عنكما. ما زلتما شابين في بداية الطريق. ليجعلِ اللهُ الناسَ يذكرونكما بالخير كما يذكرون خورلوقوه مرجان وتوغوظقوه قازبك وشروخقوه توغوظ!

_ وأنت ياكبير قل لنا اسمك! _ قال شواي للعجوز.

_ أنا يسمونني " بَشْ[2] "

تبادل بشه ماف وشواي النظرات مستغرِبَين هذا الاسم بين الأديغة.

_ لا تستغربا يا ولديّ هذا الاسم _ ناداهما العجوز من ورائهما _ حين تكون راعياً دائماً سيثبّت الناس عليك مثل هذا الاسم. كانت أمي تناديني باسم آخر ولكن أنسَوني إياه!

وبعدما مشيا مدة قال شواي:

_ ألاحظت أن الراعي العجوز أغفل اسم أباته بسلني حين ذكر زعماء الشابسغ؟ أيكون نسيه؟

_ لا أظن _ شهد بشه ماف على ما كان يتوجس منه شواي _ ليس هذا العجوز ممن ينسون!

---

[1] يقصد: فلاسوف. المترجم

[2] يعني العصا . المترجم

_ يُقال: " لا تذهب ضيفاً حيث يعرفونك "؛ أيكون في الموضوع شيء؟

ضحك شواي ولكن بشه ماف لم يقبل:

_ لا يمكن أن يكون هذا! ليس أباته بسلني ممن يُنسى اسمه. في الموضوع أمر لا نعرفه ولكن لا أستطيع تحديده.

_ والله أنا أيضاً أخشى هذا. ولكن لن نغتاب من سيكون مضيفنا بسبب أن الراعي الخبيث أغفل اسمه.

تبيّن أن أباته بسلني ليس في البيت ولا في القرية، فاستقبلهم نيابة عنه أخوه وبيخ بكل ترحيب وأدخلهم المضافة.

_ انتظرَكما اليوم بسلني ولكن _ قال وبيخ للضيفين الجالسين إلى المائدة المستعجلة _ كان الوقت يفوت. أمس مرّ مرجان مع عدد كبير من الفرسان، وذهبوا إلى " ناشحه "، إلى توغوظقوه قازبك على عجل.

_ أهناك خطب ما؟ تلهّف بشه ماف.

_ أظنه خبراً جيداً ذاك الذي ذهبوا لأجله. يحقق ديسكاسي بمساعدة الجنرال ستريكالوف مع فلاسوف في شأن المذبحة التي قام بها بحقِّ الشابسغ. بعد أن تتناولا الطعام نحن أيضاً سنذهب إلى تلك الناحية. ثم أضاف وبيخ بعد قليل: _ كان من المقرر أن يمروا علينا اليوم، ولكن لا أعرف لماذا غيروا الموعد، ووالدنا مهموم بهذا الموضوع.

_ كيف صحة قمجري إن شاء الله؟ سأل بشه ماف.

_ الوالد، لولا أن رجليه ثقيلتان، لا بأس به بالقياس إلى أعوامه الثمانين. ونحن ندعمه وهو يساعدنا.

_ والله يا بشه ماف لم نتصرف على نحو صحيح _ قلق شواي _ نحن جالسان دون أن نسلّم على كبير البيت.

_ لا تبخعا نفسيكما! لم تفعلا ما يسوء _ قوّم وبيخ الموقف، قال لي الوالد: بعد أن يفطر الضيفان المسافران أدخلهما إليّ، فلم أشأ أن أخالفه.

كانت الغرفة التي يقيم فيها واسعة منيرة، ولها نافذتان. والعجوز في وضع الاستعداد للنهوض في أي لحظة، يرتدي لباس الحرب وقبعة ومعطفاً وحذاء. ويتقلّد بالإضافة إلى السيف قامة ومسدساً. واللحية غير الكثيفة تناسب وجهه المتطاول، ويحافظ على قامته المعتدلة بالنسبة إلى عمره جالساً على كرسيه.

_ يا ولد! قال قمجري لوبيخ الذي أدخل الضيفين إليه _ ساعدني على النهوض كي لا أنقض عادات الأديغة _ تفضلا يا ولديّ! ليجعل اللهُ سلامينا يلتقيان على خير! وليحقق الله ما طُلبتما لأجله! أعرف أنكما مستعجلان. اجلسا ولو دقيقة. خورلوقوه مرجان زعيم كبير، ولو لم يرسل بشخصه لابني الأكبر ما كنت سمحت له أن يسافر، كنت جعلته ينتظركما _ كتم كبير آل أباته أن موفدي الروس غيروا مكان الاجتماع وزمانه _ واختتم بمزحة خفيفة: _ ليست دار أباته فارغة وإن سافر الابن الأكبر. ونحن برعاية الأصاغر ممن يرتدون قبعات. لولا أن القوزاق لا يريحوننا لكانت حياة الأديغة جميلة جداً. بشه ماف ولدنا،

وأنت لست غريباً يا شواي. سمعت ذكرك بخير، ليس مرة أو مرتين. ولذا لا تتراجعوا حين تجتمعون بموفدي القيصر! اروا لهم وأرُوهم، ولا سيما أنهم قالوا إنك تعرف الروسية، ما فعله بنا قوزاق الجنرال فلاسوف. لا تخلو الدنيا من قانون ما. وبدون هذا لا أظن هؤلاء يدَعوننا نعيش. ومع ذلك فالقوزاق بشر، ولا أظنهم لا تتألم قلوبهم وأجسادهم. وعند الضرورة؛ أليسوا جيراننا ونراهم ونلتقي بهم، هؤلاء ليسوا أسوأ من الأتراك ذوي السراويل القصيرة الذين يحضوننا على عدائهم.

_ صحيح ولكن القوزاق ياقمجري يطمعون في أرضنا. _ لم يستطع بشه ماف إلا أن يقول.

_ هذا خط أحمر يا أغوي! _ احتدّ قمجري _ من يطمع في أرضك ومن يمد يده إلى عينك سِيّان. _ وأنت ما رأيك يا شواي؟

_ لن يقول أحد أصدق من هذا يا قمجري!

_ هذا إذن ما تقولونه لموفدي القيصر.

***

التقى شواي وصاحباه بعد الظهيرة بمجموعة من الفرسان الأديغة _ القوزاق قادمين من ناحية ناشحه. وحسب العادات انتحَوا جانب الطريق، وأسبلوا أيديهم. ثم تبعوهم.

سأل وبيخ أحد معارفه:

_ ما أخباركم؟ أين تذهبون بالقوزاق الضيوف؟

_ اليوم خبر واحد في بلاد الشابسغ: هؤلاء الذين سميتهم ضيوفاً، لا أعرف إن كانوا ضيوفاً أم أعداء، جاؤوا بسبب المأساة التي تعرفونها.

_ لم يأتوا بأسلحة مشهرة _ قال شواي _ ولذا لن نخالف شرعة كبارنا فهم ضيوف.

_ هذا حق _ وافقه محدثه ذو اللحية والشاربين _ نوصلهم إلى قلعة القوزاق.

_ وهل انتهت مهمتهم بهذه السرعة؟ تعجب بشه ماف، واستاء شواي من أنهم كلفوه أن يقطع هذه المسافة كلها دون ضرورة.

_ إلى البارحة _ أجاب غيره _ لم يتركوا مكاناً في الشابسغ لم يصلوا إليه. وتفقدوا القرى والمراعي وأراضي الفلاحة المحروقة.

وفي هذه اللحظة سمع شواي اسمه، ناداه أباته بسلني:

_ يا شواي اعبرْ صفّ الفرسان وتعال!

أفسح الفرسان الطريق له. وقال أباته بسلني:

_ الجنرال ستريكالوف يريد مقابلتك. قف على يمينه!

حين عبر شواي صفّ الفرسان همس له بشه ماف:

_ ماذا قال لك هذا الجنرال ذو الوجه العريض كل هذا الوقت وماذا قلت له؟

_ إن كنت تعرف كيف ترد عليه فالموضوعات كثيرة. _ مزح مع صديقه وأضاف: _ سأروي لك بعد أن نوصلهم إلى نهر بشزة.

V

لم يكن في قلعة القوزاق في إيكاترينودار خبر أعجب من إيفاد القيصر للجنرال ستريكالوف. ولم يكن الشابسغ والناتخواي الذين كانوا وراء إيفاده والذين نجوا من المأساة جاهلين الخبر. والآن، كبرقٍ لم يمطر، دار خبر الجنرال في الشابسغ، ونسب الناس إليه ما قاله وما لم يقله، وزادوا على كلامه ما يستهويهم. ثم رجع الخبر فعبر البلاد وطار في الاتجاه الآخر، إلى نهر بشزة.

وبلاد القوزاق، بعد أن أرسل الجنرالُ يرمولوف الجنرالَ فلاسوف كانت قد انقسمت إلى مجموعات متنافرة. ومن بين الذين ساهموا في هذه الأحداث يرمولوف وفلاسوف وماتفييف وديسكاسي وتابانيس وزابروين وآخرون.

وعامة القوزاق لم تكن نظرتهم إلى قادتهم واحدة. فعدم إسهام القوزاق الذين يحرسون المراصد ليلاً ونهاراً في أعمال الأرض، وغيابهم عن أسرهم وأولادهم،زاد من بؤس حياتهم. ولهذا السبب تتناقص المحاصيل سنة بعد سنة، والمحاصيل القليلة التي يجنونها لا يعرفون أين يأخذونها وأين يبيعونها فتضيع في أرضها. ولا يستفيدون من تربية الأبقار التي تتطلّب عملاً لا نهاية له. واللصوص الليليون الأديغة يسرقون كثيراً منها. وأُسَرُ أرامل الضحايا القوزاق تتشتت فليس من السهل أن تحافظ على سلامتك وصحتك في أرض غريبة لم تولد فيها. ولا تتحمل أجسادهم الأمراض التي لم تعتدْ عليها _ وإلى جانب أعداء عيشة القوزاق كلها يقف الموت. ولكن، بما أننا نحسبُ للأتامان ماتفييف عدم استئنافه للحروب التي لا نهاية لها زمن الأتامان بوراسك أمراً إيجابياً منه، فنحن قانعون بعيشتنا مهما كانت. وليسوا القوزاقُ الذين يتأملون أن تتحسن الحال يوماً من الأيام قليلين.

وكما يقولون " الغني كل ما تراه عينه مُلكه، والذي لا يبصر قلبُه فقير" فالقوزاق الذين يعدون الحرب مورداً للمُلك يحيطون بالجنرال فلاسوف؛ ولكن من العيب أن تقول إن الجنرال فلاسوف والأتامان ماتفييف جبانان ومحرومان من الرجولة.

في البداية كان يغلب على الجنرال فلاسوف الذي أرسله الجنرال يرمولوف إلى جيش القوزاق في شيرنومور نِظرة الجنرال يرمولوف المحتقرة للشعوب الأخرى بذريعة حماية وطنه، فلم يبق له اهتمام آخر. كان مسؤولاً، كما يقول هو، عن تهدئة _ إرهاب الأديغة. ويبرئ به نفسه مهما فعل. وفي المقام الثاني كانت سياسة الأتامان نحو الأديغة، وإن لم يكن يحبهم كثيراً، مختلفة. فهو يخدم وطنه مخلصاً لقيصره، سواء أكان في ساحة المعركة أم في ظروف السلام. وقد نفذ المهمة التي كلفوه بها طوال قيادته للجيش القوزاقي وهي ألا يدخل أراضي الأديغة كما فعل الأتامان بوراسك، وفي الوقت نفسه يحمي حدود الدولة الروسية. والآن، حتى وإن لم يعد مفوضاً بهذه المهمة، يحاول جهده بمساعدة ديسكاسي أن ينفذها.

والقوزاق الذين يحيطون بفلاسوف وماتفييف، كلٌّ في الموقع الذي وجد نفسه فيه في السنوات القليلة الماضية، كانوا مشغولين. جانب كان يفرح.ما تحقق لهم ثبّتهم في سروج خيولهم، واستوطنوا أحسن الأراضي، وارتفعت أعالي قبعاتهم، وتبدو على تجهيزات خيولهم آثار غنائمهم.

كان وضع ماتفييف، ولو أنه كعجلة عربة مفكوكة، أفضل. بعضهم استطاعوا أن يرفعوا عن وجوههم حجاب النفاق، والآخرون، بحجج مختلفة، وما يخططون له بأفكارهم أكثر، ابتعدوا بوجوه ناعمة مخفية. والقلائل الذين ظلوا معه يبتسمون له في مواجهته، يحاولون حين يديرون ظهورهم له أن يترددوا إلى فلاسوف بحني الظهور وبإشارات الخنوع؛ فكانوا في وضع صعب.

قال ماتفييف وهو يجهز نفسه للذهاب إلى العمل: سنرى الآن ما يحدث. كان بود الكثيرين أن يدفعوني إلى مقارعة فلاسوف، ولكني فعلت خيراً بصبري. فمبارزة فلاسوف ومبارزة من أعطاه سيفه الجنرالُ يرمولوف سِيّان. عيرني كثيرون برجولة ديسكاسي وتصديه لفلاسوف، ولكن ربما فهموا الآن أن وضعه مختلف عن وضعي. لم يكن الموضوع أني لم أعاضد ديسكاسي،وأنه لم يثق بي، وإن لم أُظهِر على نفسي. اصطدم فلاسوف بما كنت لا أقبله منه. سنرى الآن كيف يحميه يرمولوف. أقول هذا ولكن موضوع ديسكاسي مختلف. إن أرسلوه فبإمكانهم أن يرجعوه، وإن أخطأ غيروا مهمته أوعاتبوه أونصحوه. ولكن لو أن ما رفعه ديسكاسي في الشأن الأديغي ــ القوزاقي لم يهمّ القيصر لما أرسل إلينا الجنرال ستريكالوف. وهذا الأخير لا يمكن أن تعرف ما في قلبه. رأسه دائماً إلى الأرض. قيل إنه خضّ الجنرال فلاسوف فنال الأخيرُ ما يستحقه، المهم أن يُرهبه أحد.

حين خرج ماتفييف من البيت جعله صوت حوافر الحصان يلقي نظرة على الفناء. ظهرت قبعة زابروين الضخمة الشعثاء من وراء الجدار العالي. " ماذا يريد هذا الذي كفَّ عن أن يقترب من بيتي منذ جردوني من قيادة الجيش؟ " ــ قال ماتفييف ــ اتخذ من شارعنا مساراً منذ أرسل القيصر مندوبه إلينا. " هل شمّ رائحة شواء ما؟! "

ــ صباح الخير يا غريغوري كوندراتيفيتش ــ سلّم زابروين دون أن يدخل، مخففاً سرعة الحصان ــ لتهنأْ بهذا النهار الربيعي الجميل!

ــ شكراً يا تروفيم كودينوفيتش!، نهار ممتاز دافئ، الأشجار برعمت، وإن كنت لا أعرف ما يحدث غداً.

ــ هذا صحيح، لا أظن أن الربيع قد كشف كل ما عنده إلى الآن. قد يكون خدع الأشجار حقاً كما تقول. فإن خدعها فأوَّلُها خوخ الأديغة الأسمر المبكر. انظر، شجرتُك أيضاً منحنيةٌ. عند الضرورة ليس هذا مهماً عندي، على أن تبقى الدنيا بسلام. سأكون راضياً إن يغفروا لنا آخر ثلاث غارات لنا وراء النهر، وهي ما أرسلوا من أجلها الجنرال ستريكالوف. يا ترى ماذا ينوي ستريكالوف في هذا الشأن؟ يقال إنه لا يحترم إلا ديسكاسي والأديغة. وصهري تابانيس مهموم لهذا الموقف من ديسكاسي. والقوزاق بالهم مشغول بما سيحدث.

الآن هتكتْ همومُك سترَك؛ ضحك ماتفييف في سره. عندما أبطلتُ الغارات وراء النهر التي عوّدكم عليها الأتامان بوراسك سخرتم مني قائلين "ماتيوخا كبّر أذنيه"[1] ولكني أتحتُ لكم أن تعيشوا بسلام بضع سنين وحميتكم. لنفرض أني لم أكن صالحاً ولم أنفذ طلباتكم فلماذا كنتم تسخرون من طريقة تعامل ديسكاسي مع الملف الأديغي القوزاقي؟ لماذا كنتم تؤيدون أغنياء الحرب؟ كنتَ أنت وصهرُك في طليعة من يجاهرون بالعداء لي. أتدّعي الرغبة في السلام بعدما أحرقتم نصف بلاد الشابسغ؟

_ ربما كان شيء من الحقيقة في ما يقلقك وفي سببه يا تروفيم كوندانوفيتش _ ابتسم غريغوري كوندراتيفيتش الآن ابتسامة أوضح _ ولكن بما أن هذا الجنرال الذي تدعي أنه يصدُّك أرسله قيصرنا مدعوماً بثقته فسننتظر حتى نختبره. سيتميز البريء من المذنب. ولكن كان الأفضل لنا ولهم أن نعيش في سلام وطيد.

_ نعم يا غريغوري كوندراتيفيتش نعم _ تظاهر زابروين بموافقته، وأنهى بصوت منكسر: _ من أين نسترجع هذا الآن؟ لا أعرف إن كنت أؤخرك أيها الأتامان _ حث الحصان وتابع طريقه.

نعم، نعم، صرتم عقلاء لأن "زنار سرجكم انحلّ" _ غضب الأتامان من أعماق قلبه، ولم يرض أن يتبع زابروين إلى العمل فغاب وراء جدار البيت، واقترب من شجرة الخوخ الأسمر التي تضحك له بأزهارها، والتي كان قد جلبها له محمد جري آل سلطان. قال بعد لأي: ها أنا وأنت ما نزال أحياء؛ غير أن من جلبك فارق الحياة. أنت منذ أربع سنين تعطينني وتنْمين لي، لا أنسى كَرَمَ من أهداك لي مادمت أدلِّلُك باسمك " شركس ". أطعَمْنا من خوخك اللذيذ خان جري الذي يدرس هنا. كم فرح بك حين جئت به وأريتك له! ... نحن نقول " شركس " و" قزق " ما العمل لأن أعمالنا القبيحة تضعنا في حالة صدام دائم نتجابه بعيون جاحظة. ونمتشق السلاح.

ما إن مرت نصف ساعة على وصول الأتامان ماتفييف إلى عمله حتى استُدعي إلى عند الجنرال فلاسوف باسم الجنرال ستريكالوف.

كان في المكتب ثلاثة يجلسون متقابلين: ستريكالوف وديسكاسي وفلاسوف. كان يبدو على ديسكاسي وستريكالوف الارتياح، ووجه الجنرال فلاسوف المحمرّ يحكي الحديث غير الودي الذي دار بينهم. يظهر من طريقة جلوسه قلقه وإن كان يحاول إخفاءه، وتقرؤه على ملامحه الثقيلة.

قال الجنرال ستيركالوف حين استقر الأتامان على كرسيه:

_ سأكرر الآن مرة أخرى يا ميخائيل غريغوروفيتش. لا سِرَّ في المهمة التي قلَّدَنيها قيصرُنا العزيز كما قلت قبل شهر. كتاب شكوى زعيم الناتخواي قلوبات شحتجري الذي كان أرسله إلى القيصر وتذييل

[1] بالأوكرانية مع مراعاة القافية في الجملة الأصلية للسخرية، وماتيوخا: تحقير لاسم ماتفييف، وهو الأرجح لأن لغة القوزاق لغة أوكرانية. أو: ماتيوخا يُعدُّ حساء السمك، في الروسية. مصادر

ديسكاسي عليه، فصّلتُ رأيي فيه، ليس شِقه الداخلي المتعلق بالأديغة _ القوزاق فحسبُ، بل مراعياً موقف الدول الأخرى. لا أعرف ما سيكون رأي قيصرنا وما سيختم به الموضوع، ولكني سأصارحك بأنك لستَ عادلاً نحو الأديغة. رأيت بعيني المأساة التي سببتها في الأرض التي لا شأن لك بها. وقد شهد عليك زعماء القوزاق المقربون منك وعامتهم.

_ على ما يبدو أيها الجنرال _ سأل فلاسوف _ لسنا مفوضين أن نؤدب من يخترق حدود بلادنا؟

_ أنت حر في أن تؤدبهم عند حدود بلادك. ولكنك لست حراً في أن تُدخل غير جيشك إليهم دون إذن من القيصر. إن كنت تريد أن تسأل عما جرى في مستنقع نهر بشزة _ قال ستريكالوف كأنه قرأ ما في قلبه _ لا أحد في طرفنا ولا في طرف الأديغة يحمّلكم ذنباً؛ فقد رددتم على من عبروا النهر بما يستحقون. وقد اخترقتم أرض الأديغة بهذه الذريعة مرات كثيرة، ونهبتم قراهم وأحرقتموها. وكل الناس يُخيَّل إليهم أن كل ما فعلتموه كان بتعليمات قيصر الروس. والدول التي سمعت بالموضوع احتجت. وتركيا وانجلترا سألتا عن الموضوع.

_ ألم تكن تعليمات القيصر نحو الأديغة قائمة منذ عهد أتامان القوزاق بوراسك؟ _ سأل فلاسوف بحذر رغم أن قلبه يغلي.

_ نعم يا سيد فلاسوف _ قال ديسكاسي بصوت واثق، ثم أعقب بصوت ألطف: _ لم تنفعنا حرية تصرفه نحو جيراننا الأديغة إن لم تضرنا. وهو السبب في إيفادي إلى هذا الإقليم. ولا يمكن أن تتهم عهد غريغوري كوندراتيفيتش الجالس هنا بشيء من هذا. لم يتجاوز حدودَ صلاحياته وإن تطلبت الظروف أحياناً هذا التجاوز.

_ إن كنتم تريدون معرفة حقيقة هذا الموضوع يا سيّد _ قال ماتفييف الذي لم ينبس ببنت شفة إلى الآن _ فجزء من المسؤولية يتحمله ألكسي بيتروفيتش يرمولوف، وإن كنت لا أعرف لماذا لا يتكلم ميخائيل غريغوروفيتش. لماذا تتحمل وحدك الذنب يا ميخائيل غريغوروفيتش؟ لولم تكن عندي معرفة بالموضوع لاختلف الأمر.

_ يكفي يا غريغوري كوندراتيفيتش _ استعجل فلاسوف _ لا حاجة أن نورط ألكسي بيتروفيتش في هذه المسألة. لا أرى من المناسب أن أتقاسم مع أحد مسؤولية ما فعلت. ألكسي بيتروفيتش أرفعُ من هذا. لا أندم على ما فعلت، ولا أعرف نفسي عملت ما أندم عليه. فإن حمّلوني إصْراً لأني أدّبت أعداء وطني فأنا راض بما يراه قيصري. ولكني لن أهين وجه القوزاق ولا بسالتهم أمام أحد. ولْنُنْهِ الموضوع عند هذا الحد ! اجتماع القوزاق في ناحية باشكوفسك بانتظاري؛ ألم يدعوك إليه يا غريغوري كوندراتيفيتش؟

_ لم يصلني مثل هذا الخبر.

_ لا تؤاخذوني إذن يا سادة _ قام فلاسوف _ القوزاق سينتظرونني _ ثم بعد برهة اختتم مع حركات يديه كأنه يقول لهم إنه لا يؤاخذهم: _ سننتظر نهاية ما سترسلونه للقيصر.

***

في أحد الأيام قريباً من وقت العطلة الصيفية أسرع خان جري داخلاً الغرفة:

_ يا جدتي أريد حلواناً على البشرى.

_ أي خبر سار جئتني به، جعل الله فيه الخير!

_ جرى عزل الجنرال فلاسوف[1]

[1] هذا ما كتبه ف. آ. بوتو في كتابه ".حرب القوقاز " في هذا الخصوص: " وضعت اختراقات فلاسوف لبلاد الأديغة حداً قصيراً للعلاقات الروسية _ الأديغية ولخدمة الجنرال.

بسبب اختراق فلاسوف لأرض الشابسغ وقف ديسكاسي رئيس لجنة إقامة السلم مع الأديغة بحزم أمام سلوك فلاسوف. وكان القيصر قد أرسل الجنرال ستريكالوف إلى ساحل البحر الأسود للبت في هذه المسائل.

كان كثير من العاملين في الجيش يغارون من الجنرال فلاسوف بقصد سلبه منصبه سراً. ولم يكن عامة القوزاق راضين عنه؛ فقد كانت الخدمة العسكرية الدائمة تقوّض الأسر القوزاقية. وكثير من الذين بقيت أعمالهم دون يد عاملة كانوا يلغطون. ومع ذلك كان فلاسوف ينحاز إلى القوزاق. وغنائم الحرب كان بينها أشياء ثمينة وموبيليا ممتازة وملابس حريرية مصنعة يدوياً وملابس وأحصنة وأبقار وثيران _ كانت تعطى للأيتام والأسر المنكوبة. ولكن هذا لم يكن يرفع عبء الحرب عن الجميع. ولم يكن يريح الناقمين.

وقد أدانه ستريكالوف بتهمة نقض السلم المؤسس مع الأديغة.

" بالإضافة إلى التهم التي وصلتني سابقاً _ كتب يرمولوف إلى القيصر _ وجدت في مخالفات الجنرال فلاسوف ما أغضبني إلى أقصى حد. وفي ما أرسله الجنرال ستريكالوف يظهر بوضوح أنه نهب الناس الفقراء بقوة وبعجرفة ودون حياء من أجل الحصول على عطايا ثمينة له ولمن يعمل معه "

تقرر عزل قائد جيش ساحل البحر الأسود فلاسوف من منصبه وتقديمه إلى القضاء. وكانوا أكّدوا على يرمولوف. فكتبوا له: "لا يجوز لقوزاق البحر الأسود عبور النهر ولا يجوز أن يتجاوزوا مهمة حماية حدود الدولة " وبعد هذا توقف الأديغة عن غاراتهم الليلية على القوزاق.

وعاد فلاسوف إلى منطقة الدون التي جاؤوا به منها، وعاش فيها ثلاث سنوات ونصف بانتظار مصيره.

ـ نعم يا ولدي! ـ ارتعبت قانتات ـ إياك أن تُسمع زابروين.. من قال لك؟ لا تدع أحداً يرى فرحك ، ولا تخبر احداً !

ـ يا جدتي ما أجبنك! المدرسة كلها تتكلم في الموضوع. فاسيلي إيميليلنوفيتش وتوماتشيفي... أخبَرانا.

ـ حقاً! وماذا يقول روسينك كيريل فاسيايفيتش؟

ـ لا أعرف.

ـ أريد أن أقول لك: كن حذراً! ألا تدرس في المدرسة القوزاقية؟ أخاف أن يعيب علينا كثيرون إن قلنا هذا الكلام صحيح ما قالوا:"من لا يتوقف يخرج عن حده"، شكراً لقيصر روسيا الذي فهمنا.

VI

حين رجع فلاسوف إلى الدون بدأ الأمل في قيام سلام بين الأديغة والقوزاق: فَهِمَ الطرفان، ولو أن بعضاً من هذا الطرف وذاك يتبادلون التهديدات بالقبضات عبر النهر والنظرات الساخطة، أن الغارات الليلية وخِيمةُ العواقب. لا يعني هذا أن بعض الانتهاكات لا تحدث في معبر النهر أو الأسواق أو أماكن أخرى، غير أن امتشاق السلاح والتجابه كما في الماضي توقف ـ كلٌّ، شاء أم أبى، كانت إنسانيته تلجمه. ومن يتعدها، إن كان أديغياً أم قوزاقياً، كان الطرفان يتعاضدان ويعاقبانه بما يستحق.

لا تجري الحياة دائماً كما تشتهي. وكل إنسان له طريقته في التفكير وترتيب أموره الحياتية. وبامبت وبفوق، إن كانا صالحين أم طالحين، هما من جنس البشر المختلفين على الأرض، ويتنفسان هواءها ويحزنان فيها.

ـ يا بامبت ـ أبعد بفوق غصن الشجرة وقال مهموم القلب متعباً: ـ إن لم يظهروا خلال ساعة تقريباً فسيكون جهدنا عبثاً كالبارحة.

ـ لا تفقد الصبر ـ ابتسم بامبت مخفياً ما يتوجس منه ـ أمامنا ساعة كاملة، حين كنت شاباً مثلك، كنت أعبر النهر وأعود بما يكفيني نصف سنة.

ـ أنتم في شبابكم ـ تنهد بفوق ـ كان الزمان ممتازاً. الآن ظهر بيننا ديسكاسي وستريكالوف وجماعتهما، وخربوا دنيانا. حين نقول شيئاً يتعلق بالقوزاق ينظر إلينا مُسِنّونا شزراً.

ـ لا تقل، وكفى! ـ حسم بامبت باختصار.

ـ ولكن أيمكن ألا تقول شيئاً على الكفار؟

ـ لا تقل، بل افعل ما تريد واترك الموضوع!. ونحن لسنا محرومين من كل وازع. ولكن أتظن أن ما تفعله يتعلق بالقرية؟

كسّر بفوق غصن الشجرة مفرغاً غضبه عليها، فانتصبت آذان الحصانين.

ـ ليست العين فحسب؛ حتى اليد تخرج عن السيطرة. ألم تسمع ما حدث في(قَلَجْ) ذاك اليوم يا بامبت؟

ـ سمعت ـ أجاب بامبت كأنه كان ينتظر السؤال.

_ دانوا (دَغْومه خُوطاطه) في مجلس القرية بتهمة أنه أغار على القوزاق وأساء إلى السلام بين الفريقين. ولم يكف هذا بل سلموه إلى قوزاق بلدة إليزابيت قائلين: نضعه تحت تصرفكم فهو من أراق دمكم .

_ ماذا ؟ _ سأل بامبت بلامبالاة ظاهرية _ أقطعوا أصابعه وأعادوه إلينا؟

_ طبعاً _ تسرع بفوق بالجواب ناسياً نفسه _ لم يكفِ ما فعلنا بأنفسنا بل سمحنا للقوزاق أن يهينونا. الجنرال سيسوي الذي أرسلوه مكان فلاس وصفوا معاملته لنا بأنها ليست حسنة. عجيبة طباعنا نحن الأديغة: كل من يبتسم في وجهنا نظن أنه يُضمر لنا الخير. ما أسهل خداعنا! امدحْنا ولاطِفْنا، وكفى. لماذا لا تقول شيئاً يا بامبت؟ _ صاح بفوق غير أن من ناداه لم يكن يصغي إليه فضحك في سره.

كان بامبت الجالس يقشر عوداً يسمع ما يقال أمامه وإن تظاهر بعدم الإصغاء. ولم يكن أصمّ عن الهواء الدافئ الخفيف الذي يهب، ولا أعمى عن الاهتزاز الخفيف لأوراق الأشجار. كان معبر النهر أمام عينيه، وأهمّ من كل ما سبق: سيسور.

من يهتم الآن بـ "فلاسِكَ " و" سيسويكَ " و" خوطاطِكَ "؟ غضب بامبت في داخله. لم يبق إلا أن تتجاوز هؤلاء وتخبرني عن شواي الذي يتبع أثري ! أفضلُ من كل هذا أن نفكر مرة أخرى كيف نخطف سيسور. ليس صعباً اختطاف امرأة. أصعب ما في الأمر كيف تفرض الأمر الواقع عليها بعد اختطافها. ليست سيسور ممن تثير ضجة حولها. لا أخ عندها ولا أهل. تخدم عجوز آل سلطان الجنية، تكنس أرض غرفتها وتمشط شعرها وتغسل لها قدميها. لِتفرح إن تزوجها مثلي فتعيشَ سيدة بيت. لو عرفتُ أن قضيتي ستنجح لاعتنيت بنفسي قليلاً. ما يضير أن يتحقق أملي أخيراً بامرأة جميلة دافئة ؟ !

كسر بامبت طرف العود وقام:

_ ما الخطب؟ _ نهض بفوق أيضاً بسرعة.

_ احزم سرجك!

_ كان قلبي يحدثني بإخفاقنا اليوم _ شدّ بفوق الحزام مغمغماً واختبر السرج. وحين نظر باتجاه المخاض صرخ: _ انظر، ظهر المركب!

_ تأخرت في رؤيته! _ رماه بامبت بهذه الملاحظة وظهرُه إليه _ ليست العين وحدها؛ الإنسان عنده أذن أيضاً، وحدْسٌ. عندما سمعت صوت عجلة عربتهم ما كانوا خرجوا بعد من "باشك " انتبه: لا تنس ما سأقوله لك! لا تقسُ عليهم فتجعلَ من المسألة رجولة! ولا تؤذ عجوز آل سلطان!

_ على باب العربة شخص واحد. إما قايمت وإما حاج قسي. _ اختتم بفوق وهو يستقر على السرج _ ووراءه امرأة تلبس منديلاً،وآخر يلبس قبعة. إذن هما سيسور وخان جري. وأظن السائس هو قايمت.

_ كله تمام ولكن أقول لك ثانية: لا حاجة إلى عراك! في اللحظة التي تُسقط فيها السائس عن ظهر العربة سأخطف سيسور من العربة. امضِ! سنعترض طريقهم دون أن نُشعرهم بأننا على الطريق.

_ بامبت ما أشد ما جعلت من اختطاف هذه المرأة الصغيرة مشكلة!

لم يكن بامبت مهتماً بسبب السؤال.

ـ حين أحاذي جانب العربة الذي فيه سيسور، في هذه اللحظة، ستُسقط السائس؛ أفهمت؟

ـ فهمت.

ـ امشِ إذن!

لم يكن على الطريق الذي دُحل في بداية الصيف فارسٌ ولا راجلٌ إلا بامبت وصاحبه. لم تبدأ الشمس رغم ميلها إلى الغروب تمدّ دفئَها فوق الأرض أو وسْط الهواء. تنظر لوستان حبله من خلال الطبيعة الثقيلة غير بعيدة ولا قريبة. وعلى الضفة القوزاقية تبدو سطوح المراصد المسقوفة بالقش.

ـ نهارك سعيد يا قايمت! كنت أنوي أن أستشيرك في موضوع ما ـ استقبل بامبت العربة كأنه يبغي خيراً

ـ وأنت سيسور وأنت يا خان جري تقبّلا سلامنا!

ـ لينظر الله إليكم بعين الرضا! أسمعك ـ رد قايمت السلام.

ـ أصحيح أن القيصر الروسي أرسل إلينا بدلاً من ديسكاسي الممتاز شخصاً ما اسمه كودينيس ؟

ـ والله لا أعرف شيئاً ـ سمعت اسماً مشابهاً ولكن لا أعرف حقيقته. اسأل خان جري، هو يعرف أحسن مني.

ـ كان خان جري سيقول لنا ولكن لم يتعرفنا ـ هجم بفوق على قايمت ورماه عن العربة.

حين قفز خان جري من العربة سُمع صراخ سيسور:

ـ يا للمصيبة! خان جري، قايمت، جدتي؛ يخطفني!

قطع بفوق بالقامة حبال العربة ولحق ببامبت.

ـ اتركني يا بامبت! ما تفعله عيب. لن يغفر الله لك ـ كانت سيسور الملقاة على ظهر الحصان تتوسل وتصرخ وتحاول أن تمزق وجه خاطفها غير أن وجهها كان إلى الأسفل فلا تصل يدها إليه ـ لا تدعهم يخطفونني يا شواي، أين أنت؟!

ـ كفى يا سيسور، كفى يا حلوتي! لا ترهقي نفسك عبثاً! لم تفلت مني امرأة إلى الآن.

ـ ولكن لا تدمر حياتي، أنا لا أريدك.

ـ كثيرات ممن لم يحببنني رضخن.

توقف بامبت حين رأى بفوق لحق به وقال لمن صار إلى جانبه:

ـ كمِّم فمها من أجل ألا تحدث ضجة في الغابة، وكذلك يديها!

ـ ما الفائدة في أن تعولِي يا أختي الصغيرة؟ ـ سأل بفوق بعد أن ربط فمها وقيّد يديها ـ اقنعي بمن صرت من نصيبه!

قال بامبت:

_ ماعليك فعلُه الآن يا قغزج؛ هذه المهمة لا تتطلب شخصين؛ لذلك ارجع إلى طريقك، ولا تدخل القرية إذا أمكن خلال أسبوع. ولا توقِع نفسك بيد أحد. وإلى وقتها سأروِّض هذه الصبية.

نفض بامبت ثيابه بعد أن سيطر على المرأة المقيدة، وحصرها في حفرة رطبة مليئة بالعفونة وخرج. وقبل أن يغلق عليها سقف الحفرة صرخ:

_ أُمهلك إلى صباح الغد لتفكري.

وجلس متمهلاً على جانب الساقية الصاخبة. وبعد لأي ابتسم وهو يتذكر كيف قفز خان جري من العربة. وقذف الساقية بما تصل إليه يده من كتل من التراب تعبيراً عن عدم رضاه بحصوله على المرأة التي طالما اشتاق إليها. ثم شمر عن ساعديه وساقيه وتوضأ. ووقف على الغطاء الذي يحمي ظهر الحصان تحت السرج ليصلي صلاة العشاء. وبعد بضع ركعات دعا إلى الله:

_ يا إلهي اغفر لي إن أذنبت!

حين أقعى الحصان غير قادر على الاستمرار في الوقوف، في هذه اللحظة فحسبُ،استسلم بامبت للنعاس معتمداً على جذع شجرة. لا يتذكر أنام كثيراً أم قليلاً حين أجفله شخير الحصان _ كانت أشعة الشمس تتبدد بلون الشاي في أرض الغابة الباردة متخذة شكل أكف الكلاب. ووصل إليه الصوت الصادر من الحفرة فوقف:

_ ماذا يا سيسور؛ أتناديني ؟

_ اتركني أخرج يا بامبت !

_ إن كنت لطيفة معي هكذا فسأستجيب لك _ فتح باب الحفرة وأخرجها بمساعدته.

وحين صارت في الضوء فحسبُ اكتشفت سيسور أن ثيابها ممزقة وصدرها مكشوف وفخذيها.

_ يا مصيبتي! لا تنظر إليّ _ ارتمت على الأرض مديرة ظهرها.

_ ما الفائدة في أن تستحي مني الآن؟... لن تنفعي لأحد غيري بعد الآن إن كنت جميلة أم قبيحة. خذي، هذا كسائي غطي به كتفيك!

_ فُكّ يديّ! _ توسلت سيسور بصوت ألطف _ ولا تنظر إليّ!

_ حاضر يا حلوتي! _ فك يديها ناصحاً، مغلوباً بالماء الدافئ الذي ارتشق على وجهه، وألقى الكساء على كتفيها _ إن تقبّلْتِني هكذا فهو أفضل يا سيسور؛ ما الذي سنتنازعه بعد الآن؟

_ ابتعد يا بامبت! دعني أمشط شعري.

_ لا بأس يا سيسور _ تود المرأة أن تتزين أمام الرجل _ أيكفي أن أدير ظهري؟

_ ولماذا لا ؟ غير أن الأفضل أن تبتعد قليلاً عني _ لا ضرورة أن تبتعد كثيراً.

ابتعد بامبت منتشياً بلسان المرأة المتودد. وحين وقف على رأس الساقية التي كان يرمي فيها الليلة كتل التراب رمت سيسور الكساء عن ظهرها وأشهرت عليه القامة التي كانت تتصيدها، واختطفت البندقية المربوطة إلى السرج. والتفتت كذئبة مكتنزة الرقبة وقالت:

_ سأقتلك إن خطوت خطوة واحدة!

_ لم يخطر لي قط أن تفعلي بي هذا! لهذا يقولون: لا تثق بجنس النساء! _ ابتسم شاحباً من الإهانة التي ألحقتها به المرأة، وقال غير مصدق تماماً ما يحدث له: _ لا ذخيرة في هذه البندقية يا بيتمال؛ لماذا لا تسمعين الكلمة؟!

_ لِتكنْ فارغة! _ ألقت سيسور البندقية القصيرة في المستنقع وصرخت عليه وهي تتقدم نحوه شاهرة القامة: إن كانت روحك غالية عليك فادخل في الحفرة!

_ لا، لن أدخل! _ نظر بامبت فزعاً في وجه المرأة المهاجمة دون حياء أو خوف. وفي هذه اللحظة تماماً تخيل أن شواي انتصب وراءها عملاقاً. فارتجف صوته وهبط قلبه إلى قاع بطنه ونطق بصعوبة:

_ أحدث شيء لعقلك؟

فارقتْ بامبت قوتُه وارتجفت ساقاه وسقط وهو يتراجع في الحفرة أمام المرأة المستشرسة التي تَمَزَّقَ صدر قميصها. ثم وقف على قدميه وعبر إلى الجانب الآخر، وفي الضفة الأخرى للساقية.

لم تتوقف سيسور. وركض بامبت الحريص على حياته دون أن يتوقف عند مسألة المرأة المسلحة إلى عمق الغابة.

رجعت سيسور وعبرت الساقية وامتطت الحصان المسرج والقامة مشهرة بيدها.

حين وصلت سيسور إلى لوستان حبله ارتمت على الفراش وقد هاج في صدرها ما جرى لها، لا تعرف ماذا تقول ولا ماذا تفعل.

وفي اليوم نفسه استُدعيت قانتات على عجل من إيكاترينودار، فدخلت الغرفة التي تنام فيها سيسور دون أن تتوقف عند الأمراء الشباب الذين خفّوا لاستقبالها وفي طليعتهم خان جري. وقالت للمرأة المستلقية وهي تمر بيدها على جبينها الملتهب:

_ يا بنتي الصغيرة، ماذا جرى لك لحظة غبتِ عن ناظري؟

حين تعرفت سيسور صوت صاحبة اليد التي على جبينها صرخت وانهمرت دموعها.

_ أنا يا بنتي، أنا. ضبطت قانتات صوتها وإن كان قلبها يبكي _ ابكي يا صغيرتي، ابكي! فرّجي عن قلبك! وأنا سأَرْقيك؛ قفي يا بيكا ورائي وأنت يا خان جري!

نفَثَتْ قانتات ثلاث مرات في وجه سيسور وهي تتلو الأدعية، وكررت ثلاث مرات. وحُيِّل إلى قانتات أن جفني سيسور المحمرتين كفا عن الاختلاج. وقالت بصوت لطيف:

_ المسكينة نامت. _ يا بيكا يا كنتي أأخبرتم شواي؟

ـ أوصيتهم أن يخبروه ولكن لا أعرف إن وصلوا إليه.

ـ ليعثروا عليه أينما كان! لا دواء لهذه البائسة إلا شواي. وحين تذكرت قانتات أن خان جري واقف وراءها غيرت نبرتها: ـ شواي لا يقتربُ منا، يتجنبنا... لا يغفرْ لبامبت جريمته نحو هذه الفتاة! ـ يا ليت هذا " البامبت " القبيح يقع في يدي!

"كان يرافقه بفوق الذي كنت أربح منه الكعوب "كان بود خان جري أن يقول ؛ غير أنه استعجل الحديث وهو لا يدري لماذا غيّر الموضوع:

ـ انتبهي يا جدتي ستوقظين سيسور!

ـ نعم يا صغيري، نعم. لنمشِ ولنبتعدْ عنها! لا تتركوا البنت وحدها، كلفوا إحدى بنات الخدمة أن تسهر إلى جانبها!

وحين صارا على المصطبة لم يتمالك خان جري أن يكتم ما يهمه منذ البارحة:

ـ يا جدتي لا تؤاخذيني أنا وقايمت!

ـ ولماذا أؤاخذكما؟

ـ لم نستطع حماية سيسور.

ـ يا حسرتي. يكفيني أنكم ثلاثتكم نجوتم من الموت.

VII

لم يكن شواي يعرف بعدُ ما حدث لسيسور.

بالقياس إلى الخريف الماضي وربيع هذا العام كان شواي قد رجع مع بداية الصيف إلى اتزانه. وكانت إعادته لبانتالي إلى أهله ولقاؤه بخان جري من الأسباب. ومع أن الإهانة التي لحقت به تبدو كأن الزمن يعالجها لم يكن ينسى ما أشاعوه عنه بخصوص محمد جري، ولا نظرة قانتات المحتقِرة إذ ارتبط شرفه بالقضية. كان يتأمل أن تُقبل عليه الدنيا الثقيلة بخير وقد انتهت مشكلته مع آل سلطان من جهة، وحصل على نصيبه من الدنيا سيسور من جهة. وفي هذه المسألة يعضده باجقوه عمر وأغوي بشه ماف وتازه أديغ وسلطان خان جري.

وكأن بامبت بالنسبة إلى شواي انشقت الأرض وابتلعته.

قال شواي وهو يرشق وجهه بماء الساقية البارد مرهقاً من حر الظهيرة: يكفي كم انشغلت بمسائل القرية. وستستقر قضية الأديغة ـ القوزاق على نحوٍ ما وإن تركتها؛ سيتحاربون ثم يتصالحون، وبدأ الناس بعد فلاسوف يتحلون بالصبر والحِلم. ومع ذلك فما أتابعه مُهمٌّ لي ولشرفي ولإنسانيتي، وجوابه يتأمله الناس الذين وعدتهم بأن أكشفه لهم. غير أن العلاقات الأديغية ـ القوزاقية ـ التركية مشكلةُ المشكلات. أيُّ نوع من محرضي الفتن يعمل بينهم؟ من طرف الأديغة بامبت، ومن طرف القوزاق زابروين، ومن طرف الترك حسن باشا. وكلٌّ من هؤلاء تحيط به عصبة.

اتخذ شواي طريقه، وماء الساقية التي تلعب تحت الغابة الملفوفة بعَكَرِ بداية الصيف برّد قلبه ووجهه متردداً في المسألة التي يتابعها. أوقفه صوت حوافر الحصان الذي سمعه على الطريق، وحين استمع إذا بفارسه وحيد، وتعرف على الفارس الذي ظهر من المنعطف فاعترض طريقه:

_ ماذا يا بفوق؟

_ سلام عليكم يا شواي. _ سلّم عليه كأنه صديق عمره _ "من تأتي على ذكره واقف على العتبة" يا شواي _ الآن قبل لحظات خطرتَ ببالي.

_ وأنت في بالي من زمن بعيد. ولكن لم يخطر لي أن نلتقي هنا. آتي إليك فلا أجدك في البيت.

_ هذا حسب نيتك يا كبير.

_ لماذا أكذب عليك؟ ليست نية حسنة؛ غير أنها لا تمسّك، هناك من هو أهمُّ منك.

_ لو لم أكن مهماً لك ما طرقتَ بابي يا كبير _ أجاب بفوق معتداً وقال في نفسه:_ لا يعرف ما حدث لسيسور أمس _ أستمع إليك وأنا مستعد لتحمّل ما تحكم به عليّ.

_ صديقك بامبت غريمي.

_ وأنا لي عنده شكاوى كثيرة. ولكن ما علاقتي أنا بما كان بينكما ؟ لن أتهمه بما لم يقترفه. لم أسمع بامبت يتكلم عليك بسوء؛ اللهم إلا إن حاسبتنا على ملاحقتنا لكم في رحلتكم إلى قاي حبله. وإن كانت المسألة ذهابنا لمغازلة سيسور فليست المسألة جديدة عليك ولا عليّ.

_ لا أتكلم على هذا _ جزم شواي _ ولكن يجب أن أقابل بامبت.

_ لن أساعدك في هذا!

_ لن أحرجك إن كان هذا رأيك.

_ إن أذنتَ لي تابعتُ طريقي يا كبير.

_ لم أقطع طريقك؛ كان مجرد سلام.

مرّ كل منهما بالآخر متحفزاً بالسلاح، حذراً، دون أن ينظر في وجهه. قال بفوق في نفسه: والله هذا إنسان بائس على هذه البسيطة. مشغول حيناً بالأديغة وحيناً بالقوزاق وأخرى بالترك. طريقه حيث يقوده حصانه، لا يعرف ماذا يقول ولا ماذا يفعل. يعتاش حيث يحل ضيفاً. ما الفائدة في أن تشهر عليه سيفك؟ بامبت، لولا أنه يبالغ أحياناً في ظلمه أو يغدر دون أن تعرف ما حدث، إنسان ذكي وشجاع وخبيث. انتزع من شواي أمله الوحيد المتبقي سيسور دون عنف. لو كنت صادقته يا شواي _ كم مرة ترجّاك بل توسّل إليك _ لما حدث ما حدث.

أوقف بفوق حصانه فجأة:

_ يا شواي، قلت لي تريد مقابلة بامبت؛ سيكون عرسه خلال الأيام الثلاثة القادمة، يمكنك أن تأتي إليه.

ثم عجّل بحصانه وانصرف.

" مثلُك من يسمى بالثرثار يا عديم الإيمان " غمغم شواي وراءه مستاء مما حدث. ثم خاطب نفسه بعدما مشى مسافة: " لم يتفوه أمامي بما لا يقبله منه المسنون؛ سلّم عليّ واحترمني. إن أردتَ الحق فأنا من لا يضمر له الخير. لو كنت مكانه لربما ما قبلت. أبدى صبراً غير أن " ولْدَنَتَه " ضيعت كل معروفه. إن كان عرس بامبت فما العجيب؟ ابن بامبت البكر صار رجلاً. إن تزوج فهو خير. لحظة! من سيتزوج؟ أيمكن أن يكون بامبت ...؟ " لجم شواي الحصان الذي يركض على مهل. التفت ببراءة إلى الجهة التي يجري فيها بفوق الذي لم يعد وقع حوافر حصانه مسموعاً. وفي هذه اللحظة تذكر سيسور. وجرح التذكرُ القلبَ الذي كان مخلصاً حتى في أحرج المواقف. ونظر نظرة حزينة باتجاه لوستان حبله وباتجاه قلعة القوزاق إيكاترينودار.

أظن العريس ابنه، لا أظنه هو؛ نصح شواي نفسه. لو كان هناك خبر سيء يتعلق بسيسور لعلمت. أمس فحسبُ افترقنا أنا وبشه ماف. وكنا في قرية بامبت. بيته مغلق، والطريق الذي يعود منه عادة كان موضع رصدنا. ولم نسمع خبر عرس في القرية. وداره لا تزال على سوء رعايتها. كنت فزعت من أن يكون حدث شرٌّ لسيسور، ولكن يكفي لحمايتها الخوف من قانتات فهي تعادل وحدها ثلّة من الحرس، وقايمت وحاج قسي؟ وهما الآخران يرعيانها كأخوين كبيرين. لن يدعاها تخطئ، ولن يدعاها تفعل ما لا يجوز. وأنا واثق أنهما سيتصديان لمن يريد بنا شراً. ولكن مع ذلك لا يتورع بامبت عن شيء. لماذا بفوق يسافر وحده ليلاً إلى قريته؟ حياني وأنا أعرف أنه من أصحاب بامبت اللعين. وصرفته بسلام جاعلاً من نفسي قديساً بدعوى أنه عاملني وفق شرعة الأديغة. أستحق كل ما يحدث لي؛ فبحجة أني أتابع موضوع القوزاق نسيت نفسي. لا فائدة أن تعاديني قانتات أو أعاديها. سيكون من الأفضل أن نحسم موضوعنا أنا وسيسور في أثناء عطلة خان جري الصيفية قبل أن يغدر بنا أحد من نوع بامبت. وأنا ليس من اللائق أن أعيش أكثر من هذا وحيداً شاذَّ الوضع. ولن أدع الشك يطرق قلب سيسور. وهكذا أخدع بامبت وأجعله سهل القنص، وأفي أمام قانتات بما وعدت.

خرج شواي مع هذه الأفكار من الغابة ودخل سهلاً مكشوفاً يُحش فيه العشب. وبعدما مشى زمناً نظر إلى السماء شاعراً بثقل الحر على دماغه، فرأى فيها سرباً من النسور. وذكّره هذا المنظر في ذلك النهار الصيفي بمحمد جري فيما يذهبان إلى القرية التي يربى فيها خان جري اللذين كانا وسط السماء. وخيل إليه أنه يسمع من جديد ما قالاه تشبيهاً لهما بتركيا وروسيا، وبالأشرار الذين اعترضوهما في " شتوك ". قال شواي وذكرياته تملأ صدره ضيقاً: هذه هي الحياة يا محمد جري: النسور تحوم، والأشرار ناشطون، وأنا حيّ، وأولادك يتّخذون هيئة الرجال. والأديغة الذين كان قلبك عليهم ما يزالون يجهلون أي طريق سيختارون. يتخاصمون ثم يتصالحون. ينقض أحدهم ما يقوله الآخر. لا يتفقون على من هو الأعقل فيهم. ولكن لا أحد يحني رأسه للسيف حين يصل الأمر إلى اختبار الرجولة، إلى حماية الوطن،.

حين أوصله الطريق إلى القمة غير العالية وهو يحث حصانه من حين إلى آخر بالمهماز تعرف على الرجل الماشي على قدميه. ولحق به بعدما رآه ارتمى في دغل الخوخ البري.

_ توقف يا بامبت! يا عديم الإيمان. وصل إليه وصرعه بصدر الحصان.

_ ليس من الرجولة أن تصرع رجلاً أعزل! تحامل بامبت على قدميه.

_ أمن الرجولة أن تغمد القامة في الجريح المطروح أرضاً؟ _ قفز شواي من الحصان ولكم بامبت على وجهه فصرعه.

_ أمن أجل هذا كنت تريد قتلي؟

_ ماذا تعتقد إذن؟

استل شواي سيفه:

_ ادع الله، سأستل روحك انتقاماً لمحمد جري الذي قتلته. وسأبرئ نفسي بهذا مما اتهمتني به.

_ شواي، أرجوك باسم الله الكبير، باسم أولادي أتضرع إليك، ارحمني! أقبّل رجليك إن شئت. ولكن أبْقِ على حياتي. سأخدمك طوال حياتي ممسكاً لجام حصانك.

ضحك شواي غيرَ متحملٍ طريقة تضرع بامبت وقال:

_ أنت جبان، ليتني ما عرفتك !

_ ستعرف حلاوة الروح يا شواي _ قال بامبت معتقداً أنه أمسك طرف خيط من الأمل _ حين تكون في محلي. رحمة الله وثوابه كبيران، وأنا وأنت بأمره.

_ كم إنساناً قتلتَ واللهُ في قلبك؟

_ هؤلاء كفار.

_ أكان سلطان محمد جري كافراً ؟

_ وأنت كنت تقول إن من يقف مع القوزاق كافر. يا شواي لا تعتبرني مذنباً بسبب ما فعلت بمحمد جري! _ نظر بامبت إلى من يقف فوق رأسه وهو يقول: هاهو قلبه يلين وبغيُه يُفلّ، ولا أظنه مطلعاً على موضوع سيسور، وتضرع إليه بنظراته. _ لسنا أنا وأنت أحراراً في هذا، هذا موضوع يحكم فيه الله الكبير.

_ ما يُدريك أنت بشعور محمد جري القومي أيها الأهبل _ لفّ شواي الحبل الذي تُمسَك به الخيول على عنق بامبت _ من سفكتَ دماءهم واستفدت منها كفارٌ في رأيك. وأنا كنتَ تنوي أن تضمني إليهم.

_ ماذا تفعل بي يا شواي؟ صرخ بامبت الآن مسترجعاً شيئاً من شجاعته _ أتأخذني إلى الساحل فتبيعني هناك أم تسلمني إلى القوزاق؟ أفضل أن أموت على أن تقيدني!

_ هيه أيها الأسد! لن آخذك إلى الساحل ولن أسلمك إلى القوزاق. من سأسلمك إليه غيرُ هؤلاء!

"خذني حيث تريد ولكن لا تقتلني! "ضحك بامبت في سره مرتاحاً لما سمعه. ريثما نصل إلى حيث تأخذني سنصادف من في قلبه رحمة ما إن لم أكن في منتهى سوء الحظ. إلى أي جهة يريد أن يأخذني يا

ترى؟ إذا أنصتّ وأنت على ظهر الحصان ووجهك إلى الأسفل فكيف لك أن تعرف؟ لا يبدو من اتجاه رأس حصانه أنه يأخذني إلى جهة البحر. لا أظن أحداً في الدنيا عانى ما عانيته منذ أمس. أي امرأة منحوسة كانت من نصيبي! ولماذا صرفتُ بفوق؟ كل ما حدث لي جريرتي وأستحقه. ولكن ما يزال أمامنا طريق. ربما لن أكون ممن كرههم الله.

_ ماذا أيها المسخ! _ سأل شواي بعد مسافةٍ الرجلَ المرميَّ على عنق الحصان _ لماذا أنت اليوم على رجليك؟

تنهد بامبت ولم يجب، ثم غمغم بعد قليل:

_ يقال: " قليل الحظ يعضه الكلب ولو كان يمتطي جملاً " يمكن أن يحدث لك شيء من هذا. الليلة سرق مني لص تافه حصاني العظيم. ليس بفوق، لا تتهمه بما لم يفعل!

_ ولماذا أتهمه ؟ لم أر عليه اليوم شيئاً من هذا.

_ هل التقيتما ؟ ماذا قال لك ؟

_ سلَّم علي ،ومضى كلٌّ في طريقه.

_ هكذا؟ _ سأل بامبت ثم زفر شاعراً بالإهانة من سوء حظه، وشكر بفوق في سره على أن لسانه حريص.

_ غير أني لم أفهم ماذا قال لي بعدما افترقنا.

نظر بامبت إلى شواي بعين واحدة غير قادر على رفع رأسه:

_ وماذا قال لك؟

_ طلب مني القدوم لأن عرس بامبت سيكون بعد ثلاثة أيام!

_ ثرثار! _ قال بامبت فجأة ثم قال بعد قليل مبرئاً نفسه: _ لهذا يقال: لا تُفش أخبار أسرتك! بفوق ليس بعيداً على ما يبدو، ما يزال في محيطنا. وإن سمعني فسيساعدني؛ صرخ: _ يا للعجب أما من أحد في الجوار؟ يخطفونني! _ لطم شواي بظاهر كفه رقبة بامبت. وسد فمه بخرقة ملفوفة:

_ اصرخ الآن!

***

عندما دخل شواي بمن يحمله على ظهر حصانه كانت الشمس اقتربت من الغروب.

وكانت دار آل سلطان فارغة لا يتحرك فيها أحد.

وقف شواي عند الباب وهو على ظهر الحصان.

ركض خان جري إلى المصطبة مع إخوته لأنه أول من رآه. وخرجت قانتات وبيكا إلى المصطبة، وقايمت وحاج قسي وموالٍ آخرون.

ترجل شواي على مهل من الحصان، وألقى الرجلَ المقيَّد أمام قانتات.

_ ها هو القاتل الذي نبحث عنه يا قانتات، افعلي به ما تشائين!

نادت قانتات شواي الذي كان يخرج من الدار: مهلاً، شواي، توقّفْ!

لم تتحرك قانتات من مكانها: اليدان النحيلتان على العصا الفضية، والظهر النحيف والوجه النحيل والكتفان المتعبتان تفضح تراجُع صحتها في السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة. وقفت قانتات قليلاً تلقي نظرات باردة من فوق بامبت المكوَّم على الأرض على هيئة مربع. ثم صرختْ فجأة:

_ يا لك من شرير! خربت بيتنا! أكِلُك إلى الله _ اخضرّ وجه قانتات المتشنج أكثر، وتوجهت نحو خان جري وأخويه وعيناها تفضحان صعوبة ما تعاني من انفعالاتها: _ يا أولادي ادخلوا الغرفة، وأنت يا بيكا _ وانتظرتهم حتى دخلوا الغرفة. ثم قالت بصوت حازم لقايمت وحاج قسي وهي تهز العصا باتجاه بامبت:

_ ليغفر لي الله ما سأحكم به على هذا المجرم، وسيفهمني الرجال. وليعشْ بقية حياته دون نساء: اخصوه!

ثم استدارت ودخلت الغرفة.

VIII

_ من هؤلاء الفرسان الثلاثة يا ترى؟ _ طلبت قانتات مرتاعةً من خان جري الجالس معها على المقعد أن تنظر نحوهم ولو أنها تعرفت الأوسط فيهم.

_ قرم جري! _ قال عادل جري الذي كبر بصورة مفاجئة في السنوات الأخيرة، ونظر إلى جدته ثم قفز واقفاً.

_ لا خير وراء مجيء هؤلاء _ قالت قانتات دون أن ترفع يديها عن العصا الفضية مع أن ما يقلقها كان بادياً عليها. أظن أن والدة قرم جري الجنية ما تزال ترسل إلينا الرسل. مهلاً يا عادل جري! لا تسرعْ إلى استقبال من يقاضوننا فيتكبروا علينا!

_ أيكون قرم جري ما يزال يأتينا في دعوى أملاك ؟ _ احتدّ خان جري _ لا تغيري موقفك، يكفي ما قاسمهم والدنا، ونحن ما زال إخوتي الصغار في أول العمر، نريد أن نعيش.

_ طبعاً يا ولدي، لم يمض طويل عهد على اعتمادكم على أنفسكم _ كانت قانتات مرتاحة لحديث خان جري _ لم يكتفِ والدكم بمقاسمته بل أعطى أخاكم وأمه ما يساوي حصتين من حصصكم دون أن يسمع نصيحتي، محتجاً بأنه مرتاح لخلاصه منها. ولكنهم لم يقدّروا معروفه. أنت أخْفِ انفعالاتك؛ فمهما يكن فهو أخوك الأكبر، ويحمل اسم الأسرة. وأنا سأجيبهم حسب ما يقولون.

_ إن كان أخانا الأكبر فليحرص على إخوته الصغار! وليحرص هو على نفسه. وإن رفض عاملناه بمثل ما يعاملنا.

نهضت قانتات حين وصل الفرسان، وردت على تحية أكبرهم خال قرم جري ثم قالت:

_ تفضلوا إلى البيت!

_ والله لم نأت لنجلس طويلاً _ قال أكبرهم ولمح إلى أن لقاءهم لن يكون ودياً، وألقى نظرة على رفاقه.
_ إن كنتم لا تريدون أن تتفضلوا فأنتم أحرار، ولكن ألا يحمل ابن أختكم اسم أسرتنا ؟ ألم يعد ابنَ المحترم محمد جري ؟ ماذا يضيره أن يقترب منا ويسألنا عن حالنا وصحتنا ويكسب ودَّ إخوته الصغار ويقرّبهم إليه، هذا إن لم يقبل أن يعانقنا؟ يا حسرتي" الكلب أكلَنا!" تفضلوا إلى الداخل مهما كانت نواياكم! لن أسمع منكم على الباب . رجعت قانتات بسرعة ودخلت الفناء وتبعها الضيوف.
جلست قانتات مرتاحة في مكانها ريثما اتخذ الضيوف أماكنهم، ثم قالت لخان جري:
_ يا ولدي اذهب وأْتِ بأخويك !
_ ألا يزالون أطفالاً يا قانتات ؟ قال الخال.
_ لم يعودوا رُضّعاً بحمد الله. _ جزمت قانتات باختصار. وحين دخل سعيد جري وعادل جري الغرفة وجلسا إلى جانب خان جري قالت بصوت أهدأ: _ الآن أسمعك يا جامبولات!
_ تنفيذاً لوصية والده انتسب ابن أختنا قرم جري إلى الجيش حين أصبح رجلاً.
_ شكراً له إن لم يكن توجه هذا الاتجاه لفائدة شخصية _ قالت قانتات وهي تُجيل النظر في الأسلحة المعروضة على البساط الجداري الكبير.
_ لم يكن عند قرم جري مثل هذا التوجه، وليس عنده الآن. فإن كان الأمر هكذا، ولما كان خان جري أنهى الدراسة، على ما سمعنا، في مدرسة الجيش القوزاقي. ومن المقرر أن ينتسب إلى الجيش الروسي في الخريف القادم؛ ماذا يمكن أن نضيف نحن إلى ما قلته ؟
_ افهم كما تريد يا جامبولات! _ سرت ضحكة باردة على شفتي قانتات _ سامحني على مقاطعتك! أسمعك.
_ ليست الخدمة في الجيش حتى تحصل على رتبة ضابط سهلة. تحتاج إلى أملاك واضحة. إنه يحمل اسم أسرة المحترم. ساعده القيصر الروسي _ حفظه الله _ منذ توفي والده إلى أن بلغ الثامنة عشرة، ولكن هذه المساعدة انقطعت، وقد بلغ العشرين. وله مثل طموحات إخوته الجالسين بجانبك. وإمكاناتكم أكبر من إمكاناته. عندكم كثير من الأرض والغابات والأبقار. نطالبكم كما أسلفنا بأن يقاسمكم ما تجنون من فوائد من ميراث والده. ومن يقاضيكم ليست كنتكم السابقة يا قانتات بل قرم جري، هذا هو، الذي يأمل أن ينفتح له طريق الحظ السعيد. ومن أجل الا تظنوا أني وكيله أطلب منه أن يقول رأيه؛ قلْ أيها المحترم! أسمعنا دعواك!
لم يستغرب خان جري ما سمع. فقد كانت هذه دعواهم في هذا الربيع حين جاء ثلاثة ليس بينهم قرم جري، ولكنه كان ينتظر ما سيقوله أخوه من أبيه وما سيرتب به أموره. أما قانتات وسعيد جري وعادل جري فكان عندهم فضول لما سيسمعون، ولم يكونوا وحدهم فالفارس الثالث من الوفد كانت أذنه مشرعة لسماع الخطابات.

_ ماذا سأضيف يا خالنا إلى ما قلت؟ _قال قرم جري وهو ينظر من فوق رؤوس إخوته وعيناه لا تطرفان

_ ما قلته هو ما أوصتنا والدتي أن أقوله: ليتقاسموا معي!

_ نعم يا صغيري! _ أسرعت قانتات _ ألا يكفي كم مرة قاسمتمونا؟ ماذا بعدُ ؟

_ كنت صغيراً آنذاك؛ الآن قاسِموني ريع أملاك والدي!

كيف لم يبق في هذا الولد شيء منا ؟ صرخت قانتات من ألمها. لا يحمل من آل سلطان إلا الاسم. لم يتوجه إلينا شيء منه. يا لحُسنِ حظي أن لم يسمع أبوه شيئاً مما قاله! ما كان ليتحمله. أمه الثرثارة الجشعة "شكّلتِ العجينة كما تريد" . وكما يقال " اللسان الطويل يُخرج الحية من وكرها " وخاله لا يختلف عن أخته إلا في أنه يلبس قبعة. يشبهها في حاجبيه المعقودين وطريقة كلامه وضحكته ونظرته. لم يستطيعوا استثمار الذهب الذي أعطاهم إياه. ولم يصل منه شيء إلى ابننا. والآن إن لجؤوا إلى الشِرعة فسيكتشفون بأنفسهم أن قرم جري لم يقصر في شيء يعمله وسيكتشفون غباءهم وجشعهم، وسيصبحون سخرية للناس.

_ لم أتوقع أن تكلمني وتقاضيني بهذه الطريقة يا قرم جري! _ قالت قانتات بصوت ألطف _ أنا أخت جدك وأربي إخوتك الصغار. ما الضير في أن يردعك شيء ما عن موقفك؟

_ يكفي ما سُمْتِ أمي من عذاب! تستحقين كل ما يقال فيك!

_ يا قرم جري! _ اهتاج خان جري الذي لم يقل شيئاً إلى الآن _ لا تكلم جدتي بهذا الكلام الجارح! ولا تُهنها. إن لم يكن فيك إلا هذا القدر من الإنسانية فنحن لا نعرفك. ولا شأن لك بنا، ولست غريمنا. واهتاج أخواه الجالسان بجانبه يؤيدانه.

_ يا جامبولات يا خالي انظر إلى هؤلاء الأطفال كيف يتصرفون معي! _ ابتسم قرم جري وعبر وجهه عن سخريته. ونظر إلى الرجل المرافق لهم وإلى إخوته _ هكذا ربَّوكم وهم يدسّون ما تركه والدي المرحوم من أملاك في أفواهكم!

_ اترك إخوتك أيها المحترم _ قال جامبولات _ لن تحصل منهم على كلام مفيد.

_ أجئتم تقارعوننا بالكلام القاسي إن لم يتحقق ما جئتم لأجله يا جامبولات؟ قالت قانتات وهي تتكلف الصبر _ ليس هذا من طباع الأديغة! صحيح ما يقولون " العقل قليل حيث الصوت عال" ولكن إن لم نَنْسَقْ وراء هذا فهو أفضل لكم ولنا. يقولون: " لا تذهبْ تطلبُ شيئاً وليس في قلبك خير " ولذا لا فائدة في أي نقاش بيننا. يا لحظي العاثر! أين أذهب بك يا قرم جري؟ إن كنت ستسمع كلامنا فهاك ما سأقوله: لو قلت: أنا محتاج إلى حصانٍ جيد وتجهيزاتِه لأني تطوعت في الجيش ما كنت لأقبل أن يمنعه أحد عنك حتى لو طلبت إحدى عيني. لو أعلمتنا أنك تزوجت كنا جئناك لا بعربة ولا باثنتين ولا ثلاثة باسم آل سلطان. حين تحدث في حياتك مثل هذه الفرحة فأمامنا أعطيات كثيرة لأن الفرح فرح أسرتنا. أنا

راضية بانتسابك إلى الجيش الروسي، ليس تنفيذاً لوصية والدك فحسب بل لوصية جدك أيضاً. ولهذا سأجهز لك حصاناً وما يتبعه من عتاد وسلاح. وإن لم تنس إخوتك فلن ينسوك.

اسمعوا ماذا تقول هذه العجوز المرائية! احتد جامبولات في داخله. ما لم تقدمه إلى الآن إلى ابن اختي ستقدمه الآن. لو كنت مكانك أيها الولد البيتمال كنت فقأت عين من يكلمني بلسان معسول. إنها تحتفظ بكل ما جمع آل سلطان من ملك. ولم تسمح لأختي أن تبقى في البيت. وحرمت ابن أختي من نعمة الأب. تجلس في حضرتنا تقول لنا ما تريد دون خجل! يا ليتني عرفت أنها ستتصرف معنا هكذا لاصطحبت بفوق، هذا كان سيتواقح معها. وكان سيتهمها بما يعرف وما لا يعرف كرمى لبامبت. إن كانت ستعاندنا هكذا فلا شك أننا سنحتاج إلى بفوق!

حين انتهت قانتات من كلامها نظر جامبولات إلى ابن أخته، ولم يدع الآخر ينتظره.

_ لا يتوقف أمري على حصان وسرج _ أريد دون نقاش أن أقاسمكم ملك والدي.

_ يا قرم جري ويا جامبولات _ لم يُطق رفيقهما صبراً _ استمعت إليكما فلم أسمع كلمة مفيدة. لو عرفت أنكما تسعيان إلى مثل هذه المقاضاة ما سافرت معكما. سيعيب علينا كلامَنا من يسمعه.

_ نحن نسعى لتحصيل حقوق قرم جري يا أيوب، أي عيب يطولك أنت؟ سأل جامبولات وضحك؛ قلت لك تعال فمشيت معي من باب الصداقة، لم أجبرك!

_ هذه مسألة لا تستحق المقاضاة يا جامبولات. _ اكتفى أيوب بالابتسام ولم يُبد غضباً. ثم أردف بصوت هادئ: _ حتى لو أفحمتني بأني أنا من مشى معك فلن أقول ما لا تستحقه. لو كنا نجهل كيف تركتْ أختُك بيت زوجها لكان في الأمر ما يقال. لماذا تتهم محمد جري ظلماً؛ أعطى أختَك كل ما طلبتْ. ألم يعطها ما ترتّب عليه من أرض وغابات وأبقار ذهباً كما تريدون؟

_ وأنا لن أتهم من فارق الحياة بما لا يستحق. نعم كان أعطاها. ولكن ماذا تريد أن تقول بهذا؟

_ السيدة المحترمة قانتات، لا أفهم لماذا تقاضون آل سلطان. لما كانت قانتات وعدت بأن تقدم لقرم جري بمناسبة تطوعه في الجيش الروسي، وحين يتزوج، ما يترتب على آل سلطان فعليكم أن تقبلوا بهذا العرض وتشكروا. كنت أظن أننا جئنا لهذا ،وعلى ما يبدو أنكم صحبتموني بعدما غررتم بي. سامحيني يا قانتات لا أرى من اللائق أن أطيل أكثر من هذا.

_ شكراً يا أيوب _ نهضت قانتات كأنها هي الأخرى كانت تنتظر هذا الكلام، ونهض معها خان جري وأخواه _ تصرفتَ معي بنُبل ومروءة، وإذا كان الأمر هكذا فلا تؤاخذني أنت أيضاً، دعواكم لا أساس لها، ولن نتفق. أنتم ونحن انتهت قرابتنا منذ زمن بعيد. لم يبق بيننا حديث ولا عمل مشترك إلا موضوع قرم جري. هو ولدنا وفلذة من روحنا. وخان جري وسعيد جري وعادل جري إخوته الصغار. إن قال أصبحتُ راشداً فلأعدْ إلى أهلي فهو عيننا وروحنا، وسيكون كبير الرجال في بيت سلطان. وسيبقى في الجيش الروسي الذي انضم إليه.

_ امشِ يا ابن أختي! ما الفائدة في أن نبقى هنا _ نهض جامبولات دون أن يذكر اسم من ظن أنهم سيسلبونه إياه _ إن كانوا على استعداد لأن يفهمونا فقد قلنا ما علينا. وبما أنهم قالوا: لا، فنحن سنفعل ما علينا فعله.

***

لم يكن الضيوف نزلوا بعد من المصطبة حين قالت قانتات:

_ لن نهين أديغيتنا بالرد على هؤلاء. شيّعوه يا خان جري، مهما تصرفوا معنا يبق أخاكم الأكبر_ ونادت من لحق بالأخوين الأكبرين: _ توقف يا عادل جري؛ لا يجوز أن تلحق الأسرة بكاملها من لا يريدنا.

_ يا جدتي! _ توقف عادل جري على غير رضا.

_ نعم يا صغيري. أتتركني وحدي في البيت ؟! عد واجلس إلى جانبي كرجل! هذا ما جرى معنا يا ولدي "أتقف السحابة إن صفّرت لها أم يفهم الثور إن عاتبته؟! "

لم أدعِ الأطفال الذين تركهم لي المرحوم محمد جري، وبينهم قرم جري الذي قاضاني، يغيبون عن بالي يوماً. ربيتهم، أنشأتهم. وما حدث لي اليوم، وأنا التي تتأمل أن تعيش معهم شيخوخة سعيدة، عار. تألم قلب قانتات. أيُّ أسرة سيئة تلك التي كنا صاهرناها! لا عقل لكبيرهم ولا لصغيرهم. وابننا الكبير انتزعوه من دار والده وأخذوه إليهم فأفسدوا نشأته. لم يكن هكذا مدة إقامته بيننا. انظر ماذا فعلوا بالصبي الذهبي الذي كان مفعماً بالشفقة والدفء والقرابة! عجنوه بجشعهم. ولم يكفهم هذا حتى زودوه بقلب ذئب وأطلقوه علينا.

_ يا جدتي _ نادى عادل جري قلقاً من وجوم الجدة.

_ ماذا يا ولدي ؟ انتشلت قانتات نفسها من أفكارها.

_ لا تقولين شيئاً !

_ ماذا أقول؟ قالوا لنا ما قالوا !

_ لا تلومي قرم جري يا جدتي ! لا ذنب له.

_ ما الذي يجعلك تقول هذا ؟ سألت مستغربة ما تسمع _ وأنا هذا هو رأيي، ورّطوا قرم جري.

_ الذنب ذنب جامبولات _ قال بصوت أخشن _ لم يقل مَن اسمُه أيوبُ مثل ما قال جامبولات. _ لم يقل لأنه فهمنا _ دارت ضحكة دافئة على وجه قانتات _ هذا صحيح يا ولدي، ماذا نفعل بقرم جري؟ أظن خاله أفسد أخلاقه.

كان بود عادل جري أن يقول شيئاً، ولكن خان جري وأخاه اللذين دخلا الغرفة قطعا الحديث، ونظر نحو الجدة كأنه يقول لها: فيما بعد. واقترب منها.

جلس الأخوان على المقعد المقابل لقانتات مراعيين عمريهما.

ومن الغرفة التي دارت فيها المقاضاة وإن بدت هادئة بعد قليل، لم يختف الحزن الذي كان يملأ هواءها. وكان بادياً على نظرات الجالسين وعلى وجوههم: خان جري شاحب، وسعيد جري كئيب، وعادل جري يهز رجليه برتابة. ولا تزال أحزان آل سلطان تسكن في وجوم قانتات.

_ ماذا يا خان جري؟ _ أسقطت قانتات حِمْلَ الحزن _ أودّعتم قرم جري؟

_ نعم يا جدتي _ أجاب ولم يرفع رأسه.

_ أتعرفين يا جدتي ماذا قال لنا _ حاول سعيد جري أن يقول غير أن خان جري منعه.

_ ماذا يا حسرتي ألم يكفِ ما أهاننا به ؟ _ نظرت قانتات بعين ساخنة حزينة إلى سعيد جري _ ماذا قال لكم أيضاً ؟

_ لوكان يعرف ما سيقول... _ غيَّر سعيد جري مجرى الحديث وهو يلملمه _ "يطفر النهرَ راكباً الهواء "

_ في هذا المكان يا أولادي _ قالت قانتات بصوت أشد حزماً _ لا مجال للسر. إن فشا بيننا هذا السلوك، أعني كتمان الأسرار، تشتّت عقد آل سلطان الذي حماه أجدادكم طوال حياتهم. وقد شهدتم اليوم بداية شرخه. إن كنتم قادرين على أن تقولوه في حضرتي فلا تكتموه عني!

نظر سعيد جري نحو أخيه الأكبر الذي أذن له بعينه:

_ قال لخان جري: سأجعل ما درستَه، وما أنهيتَه، والملك الذي يبرز منه رأسك، وبالاً عليك!

_ هيه! صاحت قانتات، ثم اختتمت بصوت محطَّم: كيف استطاع فمه أن ينطق هذا ؟ أما توجّس الشر، أليس أخاه الأصغر؟

IX

لم يكن جامبولات وابن أخته قرم جري يريدان أن يُطيلا في أمد الموضوع الذي يدبرانه فاجتمعا في اليوم التالي وحدهما.

_ إن كنت لن تندم يا بن أختي _ كرر جامبولات مرة أخرى _ فأمامي يوم كامل، سأبدأ في الموضوع الآن، في هذه اللحظة.

_ وأنا سأذهب معك.

_ لا تُسمعني هذا !

_ ولماذا لا ؟ ألا تثق بي ؟

_ حسناً حسناً؛ اغضبْ ! _ ابتسم جامبولات وعيناه تلمعان _ يسرني أن تغضب أكثر فأكثر. ولكن لا ترجُني؛ لن أدعك ترافقني في هذه المهمة. لا أريدك أن تكسب ذنب أخيك المتنمر بيدك. حتى إن لم يحترموك ولم تحترمهم فأنتم من أب واحد.

_ ما تقوله أمي صحيح._ غضب قرم جري وجحظت عيناه _ لا يجوز أن يأتوا على ما تركه والدنا وحدهم. ليقاسموني! أأبقى فقيراً وهم أغنياء؟ هذا مستحيل!

_ وهذا ما نسعى إليه يا بيتمال فلماذا تصرخ؟ أما رأيت كيف تصرفت معنا عجوز آل سلطان الإبليسة؟ وكيف كان الجالسون ملتصقين بها يرموننا بنظرات عدائية ؟

تغير وجه قرم جري فجأة، ورقّت عيناه، وسرت على شفتيه ابتسامة دافئة خفيفة، وارتخت مفاصله. وبدت على نِظرته وجِلسته الراحة التي كانت نادراً ما تظهر. ونظر جامبولات في وجه ابن أخته عاجزاً عن تفسير التغير الذي طرأ عليه. وقبل أن يجد الفرصة ليسأله لان له غير مُخفٍ شيئاً من الألفة البادية عليه:

_ أما لاحظت يا جامبولات نظرة أصغرهم الحنونة ؟

قفز جامبولات من مكانه كمن وُخز بمسمار صدئ. كان يتساءل منذ طفولة ابن أخته، وهو يربيه مع أخته، عن الوقت الذي ستتحرك فيه عاطفته نحو أهله. وكان هذا الشعور يتحرك في أعماق صدره بارداً حين توجهوا إلى آل سلطان لمقاضاتهم، وحين انصرفوا غاضبين. وكان حريصاً على هذا لا ينساه وهم يكلمونه اليوم. ولهذا كان جامبولات يجدد السؤال عن الموضوع الذي كان يظن أنه انتهى.

" ألهبتَ رقبتي بسوط نديّ "وأنا الذي يقول إن ابن أختي لا تعوزه الرجولة. كان قلبه يغلي ولو أنه يهدئ نفسه. إن كنت متردداً في رأيك فلماذا تركتنا نقول ما قلنا؟ طباع أمك تظهر عليك. ولم تحِدْ عنك طباعُ قانتات ذات الوجه الحديدي التي جلسنا في حضرتها. ولا أرى فيك شيئاً من تصميم والدك وثباته. لم يتراجع عن الهدف الذي قتلوه من أجله. أفهم أن الصغير كان ينظر إليك بعين العطف، ولكن الآخرَين؟ أما كنت ترى نظرات الأكبر ذي الرأس المتطاول، والذي استقر في أملاك أبيه؟ يجب أن تبدأ من عنده انتهاء بذلك الصغير الذي ألانَ قلبَك فتفنيَهم دون أن تظهر على مسرح الجريمة، فتضع رجليك مرتاحتين في أملاك والدك. لا مخرج لك إلا هذا. ثق بي، لن أدعك تشتهي شيئاً، وسأنيلك، وأنت في بيتك،كل ما لم يخطر ببالك.لا أريد منك إلا أن تتحلى بالرجولة.

_ طبعاً انتبهت إلى نظرة ذاك الصغير _ خرج جامبولات من أفكاره المتناحرة _ والآخران؟ كانا ملتصقين بعجوزهما وكأننا ذهبنا لاختطافها!

_ لا أظنهما كانا ينويان شراً لي؛ أليسا أخويّ الصغيرين؟

_ لا أقول غير ذلك _ كان جامبولات يتهيّأ للغضب ولكنه تمالك نفسه واختتم بين العتاب والنصيحة:

_ غير أني أريد أن أقول: لستَ في موضعهم، ولستَ تنعم بالملك الذي ينعمون به.

_ ومع ذلك ألست راضياً عني يا جامبولات؟ _ ولم يفهم المسؤول سبب السؤال، ونظر قرم جري إلى خاله معبراً عن رضاه هو، وابتسم له:

_ أرضى عنك في أي ناحية؟

_ على أني نفذت تعليماتك بدقة أمام قانتات.

_ نعم من هذه الناحية، لم تسبب لي الحرج. ولكن لم أتوقع أن يصدر عن أيوب مثل هذا الموقف. صدق من قال " لا تصارع الدب معتمداً على رفيقك " _ تنهد جامبولات بحيث ظهر عليه أن أحقاده تهيج طباعَه، ثم صحا وأجاب ابن أخته: _ هذا الثبات على الموقف أريده منك أيضاً بعد المهمة التي سأشرع فيها اليوم يا قرم جري. الملك فوق كل شيء؛ يعرّفك على الناس وينقذك من المآزق، ويُبقي كل من يحبك ولا يحبك تحت جناحك. ويجب أن تقاسم إخوتك ولو كنت تحمل في قلبك الخير لهم. أتعرف إن لم تفعل هكذا ؟ لا تعتبرْ نفسك فارساً وإن كان عندك حصان مجهز. ولا تدع الناس ينظرون إليك على أنك تعتقد نفسك غنياً بما ليس في يدك، وتمشي على رجليك بلا حياء.

_ ولكن يا جامبولات، الملك الذي سيتلطخ بدماء إخوتي...

_ هذا ما تسأل عنه؟ _ لم يدع جامبولات ابن أخته يكمل كلامه _ أليس مَن فيه دمُك فيه دمي ودم أمك، وأتألم لمن تتألم له ؟ أنا لا أريد أن أبيدهم. أريد أن أخيفهم قليلاً فحسبُ فيعودوا إلى رشدهم. وعلى رأسهم قانتات اللعينة. وحسب ما يحدث سيتصرف معك إخوتك. ألا تتذكر كيف ارتعبت قانتات حين شرع بعض أعدائهم يقتلون مواشيهم ويحرقون محاصيلهم ويغرقون مراكبهم؟

_ ولكن أبي لم يتراجع أمام أعدائه يا جامبولات.

_ هذا كان أباك ! والأخرى من ؟ _ تعجب جامبولات مما يفكر فيه وأجابه بحذر: _ إنها امرأة، ليس من اللائق أن أقول إنها بعيدة عنك، عجوز سيطرت على ما ترك أبوك، أخت جدك. ولكن، كما قلتَ، لِتُقاسمنا! ولن نسيء إليها ما تبقّى من العمر. وسندعو لها ما عاشت. وإذا ماتت فكما يقال:" إذا كانت الأسرة كبيرة اتّسع القبر " سنواريها بحيث يحسدها من يحضر حنازتها. لا تخف أنت، لن أسبب الألم، بقدر الإمكان، لمن أنجبهم والدك. ولكن إن لم نتابع قضية ميراثك فسيسخر الناس منك، ويحمّلوننا نحن الذنب. ولذا كما قلت، ليس في الأمر مشاركة؛ لا أحد سيعرف إلا أنت وأنا.

سافر جامبولات، ومع أنه كان يعرف أن عيني ابن أخته مسمرتان إلى ظهره فإنه لم يلتفت إليه. ولكنه لم يتمالك نفسه أن التفت حين وصل إلى آخر السور وكأن أحداً يناديه.

هذا هو إذن، سرى دفء ناعم في أوصال جامبولات، وإن حان موعد زواجه فالبيتمال روحه وقلبه معلَّقان بي، ولا فرح عنده ولا أمل غيري. ما كان من ضير لو تركتُه يسافر معي، وهو كان يريد هذا. أنا أهذي الآن؛ كيف كنت سأصحب إلى بلاد الشابسغ من مَنحَه الجيشُ القوزاقي إجازةَ ثلاثة أيام؟ لا هو فكر في الموضوع، ولا أنا. نحن وإن لم نكن جنوداً في الجيش القوزاقي فبصعوبة... وهل الشابسغ عميان أم لا يسمعون الأخبار إن لم تكن تلبس زي الجيش؛ لن يقبلوا منه! وقبل كل هذا فهم يظنون أننا تصالحنا مع سكان القلعة المجاورة لنا، فيكشرون عن أنيابهم لنا؛ سيرمونك من على السرج ويمزقونك إرباً إرباً.

حين تخرج من دار (قراقوم) لا يبقى إلا شارعان ضيقان قصيران لتصبح على مشارف قرية (دوشابه). عبر جامبولات الشارعين دون أن يلتقي بأحد، وتوجه إلى الطريق الملتوي على المرتفع تاركاً على يمينه نهر

بشزة. لا أسهل من أن تجد نفسك على طريق الشابسغ إن كنت تعرف المعبر إليه. ولو لم يكن قْرَه قوه جامبولات خبيراً بطريق (حَجْرَتْ) السري لما ذهب إلى هذا الاتجاه.

ما إن دخل الغابة حتى فوجئ جامبولات بعربة الخلعت إحدى عجلتيها، وتعرَّف (مَشْلأقوه أيوب) الذي يفك الحبل من سطح العربة. قال جامبولات معاتباً نفسه: ليتني لم ألتق به! اصطدمت بجبيني بمن لي عليه أشد العتاب وأكره أن أراه. أفكر في أن أذهب إليه وأردّ له دين ذلك اليوم حين خذلني، ولكنه في موقف حرج. أهو في موقف أصعب مما وجدت نفسي فيه في ذلك اليوم؟ وافق الرجلُ غرمائي وتركني ومضى. من حسن حظنا وحظه أن فمه مأمون؛ فلم يبح بسرنا.

_ ماذا جرى لك يا أيوب؟ ترجل جامبولات.

_ هذا أنت يا جامبولات؟ قطع أيوب غاضباً الحبل الذي لم يستطع حله. واستدار بمنكبيه العريضين على مهل وابتسم: _ سيحدث معك مثل هذا إذا كنت جشعاً. وثقت بقوة الثورين فملأت العربة حملاً زائداً قشاً أخضرَ فسحقتُ إحدى العجلتين.

_ لا يجوز أن تقطع الحبل؛ ماذا تنوي أن تفعل؟

_ وماذا يمكن أن أنوي؟ سأزيح القش إلى مقدمة العربة وأعود متمهلاً.

_ وهذا ممكن، ولكن لن أدعك تفعله _ قال باختصار ورجع فركب :. سأسرع إلى القرية فآتيك بعجلة.

_ لا يا جامبولات! أنت مسافر.

_ ليس مهماً إن كنت مسافراً. أخبَرونا أن عمتنا متوعكة فقصدتها. سأوصل إليك العجلة في نصف ساعة.

_ حسن إذن! سأريح الثورين ريثما تعود. وأنا سأدخن لفافة.

قال أيوب وهو يحضِّر اللفافة بأصابعه الضخمة: لا أدري لماذا دخل قره قوه جامبولات، وهو الذي لا يخلو من إنسانية، في نزاع مع آل سلطان. لم يدَعْ محمد جري ابنَه الأكبر، خلال حياته، يحتاج إلى شيء من طعام ولباس وأملاك. ولا تقصّر قانتات إلى الآن في شيء. وحين انتسب قرم جري إلى الجيش القوزاقي قدمتْ له ما جعل القرية كلها تتعجب. وأنا ذهبت معهم، بغبائي، للمقاضاة. ولا أتذكر نفسي في موقف أحرج منه. ولا أؤاخذ قرم جري الذي ما كان يفهم ما يُقال له. كنت أرى عينيه خاليتين من المناكدة وإن لم يتراجع عن موقفه. لا أتهم جامبولات، ليس بسبب أنه رجع إلى القرية ليُحضر لي عجلة، وأخته هي التي لا أريد الكلام عليها البتة. ولدها الوحيد وأخوها الأكبر رهن أوامرها، تكلفهما بما لا يستحقان.

كان أيوب بدأ برمي شيء من حمل العربة غير أنه قرر ألا يقوم بالعمل نفسه مرتين، فجرب أن يرفع العربة بالمنكبين فرفعها فوق الأرض، وأمسك بها قليلاً ثم وضعها. ثم أنهى غير مهتم بما استطاعت قوته الجسدية: "كنت أنوي أن أعاتبه على حادث ذلك اليوم ولكن لماذا أتدخل في ما لا يعنيني؟ أجيبه إن سألني. لو كان جامبولات محتاجاً إليّ فقد مضت أيام على الحادثة. واليوم التقينا بالمصادفة "

رجع جامبولات والعجلة تميل بالجانب الأيمن الذي يحملها.

_ ما أثقلها! وأفلتَ العجلة.

_ الأفضل أن تكون متينة ثقيلة على أن تتحطم _ قلّب أيوب العجلة أمام عينيه ثم قرّبها إلى العربة. وسند العربة بظهره ورفعها عن الأرض: _ ضعها في مكانها يا جامبولات!

_ هذا ما تحتاجه _ وحين وضعها في مكانها ربت عليها مسروراً وسأل: _ وما حال العجلة الأخرى؟

_ أظنها صالحة.

_ دعنا ندخن لفافة يا أيوب!

_ إن لم تحتجّ على لذعها فأنا جاهز.

_ أتكون أشدَّ لذعاً من دنيانا هذه؟

_ وهذا صحيح.

يدخن الرجلان لفافتيهما،وكل منهما ينتظر الآخر حتى يفتح موضوع ذلك اليوم. ينفثان الدخان غير عابئين بالحموضة أوبالمرارة.

_ والله يا أيوب ليس دخانك لاذعاً، ولكنه يُقوّض القلب.

_ هذا مجلوب من مولدافيا دوبوسار. كان أحد أصدقائي القوزاق جلبه لي حين رجعنا من لوستان حبله في ذلك اليوم.

_ والله ليس سيئاً بالقياس إلى بُعد مولدافيا. حسناً إذن وأنا سأعود عمتي. وإن أمكن رجعت غداً.

_ مع السلامة يا جامبولات! وشكراً، بعثك الله إليّ لأجل العجلة. أفدتني جداً. سلامي إلى عمتك، وليهوِّنِ اللهُ مرضها!

_ شكراً أيوب. وسأبلغها سلامك. هي لا تنسى معزّة القرية التي ولدت فيها. تسأل المسكينة عن كل سكانها. وما إن تراني حتى تسأل عنك بالاسم. ولا أقبل شكرك لي على العجلة يا أيوب. إن لم ينفع أحدنا الآخر إلا بهذا القدر فحياتنا عبث. سأقول لك ما يهمني مادام الموضوع انفتح. لنعتبر الموضوع المقيت الذي سافرنا لأجله في ذلك اليوم وكأنه لم يكن!

_ إن كان من زرناهم سيفهمون فهذا حسن. وأنا مرتاح لمراجعتك نفسك.

_ ليس فقط راجعت نفسي بل أرسلنا إليهم موفداً.

_ هكذا! _ سأل أيوب والرضا بادٍ عليه _ أرى أن حرصك على من ينتسب إليهم قرم جري ذكاء منك.

_ نعم، نعم. فكرنا وقررنا. وأنت أتظن هذه المرة الأولى التي أعرف فيها حرص لسانك. أنا سعيد لأنك لم تحدّث أحداً في هذا. أراك بخير يا أيوب.

ما أسهل أن ترضي الإنسان إن كان فيه شيء من الأصالة. لم يكن جامبولات مشى بعدُ مئة خطوة حين التفت مبتسماً إلى صرير العجلة وراءه. كان حسناً أن لاقيت أيوب في هذا الموقف الصعب. ما كان على

ظهري من حِمل أزاحه عني معروفي. وأيوب وإن كان يبرئ نفسه لا أظنه إلا مثقَلاً ضميرُه بما فعله بي. أسمعت " أسجّل لك نوعاً من الذكاء أنك حافظت لقرم جري على أهله " أتظن أني خالطتهم بإرادتي مدفوعاً بالقرابة؟ سأجعل العجوز التي تسببت في شقاء أختي تتقيأ ما سعدتْ به؛ انتظرني فقط إلى أن أصل حيث يمّمْتُ. وسأدعها تتضرع إلى قرم جري إذ لن يبقى لها غيره.

***

غيّر جامبولات نواياه في الطريق.

حين صعد إلى المرتفع قال لنفسه: لن أجد مثل بامبت من هو مملوء بالغضب والحقد على آل سلطان فوجّه حصانه صوب " جنجه بسنه ".

بدت دار بامبت مثالاً على ما يؤول إليه أمر الدار والبلاد حين يهملهما الإنسان. تساقط الطين من جدران البيت، والجدار المتداعي لوى النافذة فتدلى مصراعٌ مُطبِقاً على الآخر. والزجاج المكسور حل محله قطعة من جلد الخروف. والدار والحديقة اكتظتا بالحشيش الكثيف الطويل. وانحل أحد المربَطين اللذين كانا مطروقين في زمن ما من قبَلِ الفرسان. ونبتت جانبهما أعشاب طفيلية قبيحة. وسقط نصف سقف القش من الإسطبلات. وتهاوى البابان الكبير والصغير. وربطة الذرة المعلقة بعمود المصطبة التهمت الطيور ما فيها من حبوب فالهواء يلعب بها الآن.

أيَّ مأساة أرى يا من خرب الله بيتك! صرخ جامبولات من أعماق قلبه. أراني التقيت بمن يصفونه " يد فارغة وشارب ممسَّد ". ما كنت لأصدق لو لم أر المنظر. ماجئت إليه وأنا أعرف ما أمرتْ عجوز آل سلطان أن يفعلوا به لو لم أكن مجنوناً ؟ ليتني رأيتك ميتاً يا بامبت لكان خيراً من أن يفعلوا بك هذا.

حين لم يلتق جامبولات ببامبت الهائم على وجهه سافر في اليوم نفسه إلى قرية مرجان وقابل بفوق. فسأله بعدما صرح له بما ذهب لأجله:

_ كم ذهبة ستعطيني؟

_ هذا يتبع ما ستفعله.

_ إن أحرقت محصولهم؟

_ ذهبة " أباس "

_ وثمن القتل؟

_ "من ثبّت عليك هذا النبز " بفوق" ثمنُه ذهبة "سومة "

_ هذا مقبول! سأكتم نفسه _ قال بفوق دون اهتمام، ثم سأل وعيناه تلتمعان: _ أعداؤكم هؤلاء كم عددهم ؟

_ بالإضافة إلى الإخوة الثلاثة: عجوز وكنتها، لماذا تسأل؟.

_ خمس سومات ذهبية ليست قليلة! _ سأبيدهم كلهم _ ابتسم بفوق.

ـ إن قَبلْت يا قغزج ـ نطق جامبولات اسمه الأصلي، ونظر نظرة حازمة إلى من يقف معه في الأرض الشائكة ـ اعتبرِ الذهباتِ الخمسَ في يدك. ولكني أقبل بأربعة منهم بدلاً من خمسة. وسأحتفظ بسومة، أحتاجها.

ـ ولماذا أربعة؟ ألا يمكن أن أقتلهم خمستهم؟

ـ لماذا أدفع سومة مقابل العجوز التي على حافة القبر والتي سترحل مع أول قتيل من أولادها؟ ـ غرماء رصاصك هم من سيصل إليهم الميراث: الإخوة الثلاثة، وأمهم.

ـ فهمت، فهمت! ـ جزع بفوق كأنهم يتراجعون عن ثمن الدم. وغمغم: ـ ومن قبلِ هذا لي دين على هؤلاء، وفي مقدمتهم قانتات بسبب ما فعلوه ببامبت؟ أما سمعتَ بالإهانة التي ألحقتْها ببامبت المسكين؟ لن أدعك تدفع شيئاً من أجلها، هذه الشريرة. لن أدعها تفارق الحياة على خير إلا أن أغرز فيها طرف القامة في فراشها.

ـ شكراً لك يا قغزج، فهمتني.

ـ لا داعي للشكر؛ ادفع ثمن أتعابي. ـ ضغط بفوق على أسنانه، وكعادته سحب مخاطه ـ سترى حين أقتل خان جري الثرثار إن لم يأخذها معه إلى الآخرة ؟! وإن حدث هكذا فستدفع لي إن لم يكن سومة كاملة فنصف سومة.

ـ ثق بي من هذه الناحية! أنا حاضر منذ الآن.

ـ وكم ستطلب مقابل ركوبك؟

ـ يكفي اليوم سومة واحدة. وكم المهلة؟

ـ قبل انقضاء شهور الصيف الثلاثة.

X

لم يكن مربط خيل آل سلطان يفرغ من الزوار وإن كان موسم الحصاد في ذروته.

بعد أن قاضاهم قره قوه جامبولات في موضوع الأملاك تحرص قانتات على أولادها وقد أنساها الخوف عليهم راحة النهار. تراقب كل من يأتي إلى الأبواب أو ينصرف عنها. والموالي الثلاثة يحرسون البيت في ليالي الصيف القصيرة. والكلب الشرس الذي لم تكن تتحمله في وقت من الأوقات فحوّلته إلى اتجاه المشغل رُبط الآن بأمرها إلى الباب.

لم تعد سيسور التي عادت إلى طبيعتها في الربيع تنام في الغرفة المنعزلة كما كانت تفعل في الخريف الماضي، بل في الغرفة التي تتوسط غرفتي قانتات وبيكا حيث كان سعيد جري وعادل جري ينامان. أما هما فقد انتقلا إلى الغرفة التي على يسار غرفة قانتات والتي يربض الكلب أمامها، ولو أن الغرفة قريبة من غرفة خان جري.

لم تكن قانتات تنسى مهما ابتعد الزمن أن جامبولات اصطحب قرم جري يوم جاء لمقاضاة الأسرة. فيظل المشهد ينتصب أمامها. والعجيب أن قرم جري تكلم بجفاء معها، ومع ذلك لا تشعر بالغضب عليه. بل جِلسة جامبولات ونِظرته وصوته العالي هي ما لم تكن تتحملها.

تصرخ قانتات من قلبها: لا، لا، لا أصدّق ما جرى. فمهما كان قلب قرم جري بارداً نحونا، ومهما وجّه إلى خان جري كلاماً جارحاً، فليس من الممكن أن يمد يده عليه. الفم الذي صدر عنه هذا الكلام هو فم ابننا غير أن الصوت صوتُ جامبولات. وعليّ أنا قسط من المسؤولية إذ أننا، متذرعين بأمه وخاله، أبعدناه عنا فلم ير منا شيئاً من لذة الدلال. ولم ندعُه وقت الحاجة إلى جلسة مصارحة وعتاب. لماذا لم أحرك ساكناً وقد مضى شهر كامل؟ كنت أستطيع قبل الآن أن أستدعي قرم جري وأحادثه. كنت أستطيع أن أبعث وراءه إخوتَه الصغار وعلى رأسهم خان جري الذي انتهره. غير أني محرجة من بيكا! أوقعنا أنفسنا في ورطة لم تكن على البال بحجة أننا لا نريد جرح مشاعرها. صحيح أننا غاضبون ولكن أين نذهب بقرم جري؟ لا يجوز أن نجعله يشتهي شيئاً، يجب أن نقدم له شيئاً ما. ولكننا لن نقاسمه أملاكنا كما يريدون، لن ندع أمه الوقحة وآل قره قوه يستولون عليهاحتى لوفاضت عن حاجتنا. إن لم أكن قادرة على أن أفعل هذا فما فائدة أن أكون أمينة على أملاك آل سلطان ؟... وشواي أين هو الآن؟ جعله ما حدث لسيسور البائسة يهيم على وجهه على نحو نهائي. يا ربي أنقّذ قايمت ورفاقُه ما طلبته منهم بخصوص شواي؟

_ يا سيسور أرسلي أحد الأولاد واستدعي قايمت أو حاج قسي، أياً منهما! _ نادت قانتات الجالسة على المصطبة.

_ قايمت وجماعته في الدِّراس الآن يا جدتي! _ أجاب نيابة عن سيسور عادل جري الذي ظهر من طرف البيت، ثم ملأ الحوض بقليل من الماء وهو يحتج _ إن لم أفعل أنا هذا فليس في الدار من يفعله!

_ لماذا تغمغم يا عادل جري؟ _ سألت قانتات ولو أنها مسرورة لما تسمع.

_ اليوم سيكون حاراً يا جدتي _ قال عادل جري بصوت أقرب إلى الرجولة والتعقل، وابتسم لسيسور _ أخاف أن يعطش الكلب.

_ أنا مسرورة لتذكرك هذا يا ولدي _ وافقت قانتات الصبي _ ولكن لا تتباهَ بمعروفك فلن يُسرّ الطرفان: الفاعل والمفعول لأجله. اسمع يا ولدي: برّدا لي أنت وسيسور أمام الغرفة. لم أر سعيد جري منذ الصباح، هو من كان يغرف لكم ماء بارداً من البئر.

_ سترين إذن _ أسرع عادل جري ناسياً أنه كان يسترجل قبل قليل _ خرج هو وخان جري إلى الفلاة، ولم يدعاني أصحبهما.

_ أهما وحدهما؟ قلقت قانتات.

_ معهما قايمت.

_ لا بأس إذن! _ قالت قانتات ثم غضبت _ ماذا يفعلان في البرية، تاركَين الدار فارغة؟

ـ أليس من الواجب أن يكون بين فلاحينا الذين يدرسون الحبوب أحدنا ؟ أجاب عادل جري بما لم تنتظره قانتات.

ـ يكفي أن يكون بينهم قايمت وصحبه.

ـ ولكن هؤلاء ليسوا منّا!

ـ يا عادل جري! ـ قلقت سيسور خادمة قانتات دون أن تفهم ما تسمع. ثم سرعان ما غيرت قانتات الموضوع: ـ يا سيسور أرسلي أحد من يرتدون قبعات إلى الحقول، ولْيعُدْ بخان جري وأخيه!

ـ إن أردت يا جدتي ركبت الحصان وذهبت أبلغهما.

ـ كفى يا عادل جري ـ يجب أن يكون في هذه الدار الواسعة غيرك لهذه المهمة ـ وحين ابتعدت سيسور عاتبت قانتات عادل جري: ـ لا تدعني أسمع بعد اليوم ما في قلبك نحو الموالي! هؤلاء، وإن لم يكونوا من أسرتنا، فكما يقال: "مَن هو أمام عينك صار مثل روحك "، أصبحوا منا.

ـ وشواي يا جدتي؟ ـ فاجأها عادل جري ـ إذن لماذا لم يعد يخالطنا؟

ـ كفى، فيما بعد، هاهي سيسور قادمة.

ماسمعتْه قانتات جعل قلبها يتلوى. وما حدث لسيسور البائسة جعل شواي يهيم. أفهم أن هذا صعب الاحتمال، إنه يخجل ولكنها ليست المسألة التي لا يمكن الاستسلام لها. سيعود بعد أن يفرّج عن نفسه. الناس يظنون أن السعادة تغمرنا، ولكن كثيرين نسوا أنّ "من حظه سيئ يعضه الكلب ولو كان على ظهر جمل ". وأنا تبيَّن من خطوتي الأولى أنني معدومة الحظ. والكنة الأولى التي دخلت بيتنا مزقت الأسرة ولم تتعايش معنا. ثم ظننا أن الله عوّضنا حيراً منها وانقضت المشكلة؛ فإذا بنا ننكب في محمد جري... شواي... سيسور... والآن لحق بهم قرم جري. وأين نأخذك أنت أيها المسكين ؟ لن نقابل معاملة أمك بمثلها ولن نتسافَهَ مع خالك، وسنعطيك شيئاً مما تستحق. ولكن لن أعطيك المزيد منتزعاً من إخوتك. لا تُعادِ إخوتك لهذا السبب! ولا تنظر إليهم شزراً، ولا تُسمعهم كلاماً لا غَناء فيه! ولا تجعل أعداءنا يخدعونك بهذه الحجة، و يشمتون بك. أنت وخان جري تكادان تقفان على أقدامكما، وأنا سأستمر في تربية أخويكما.

أحست قانتات بأن المصطبة بردت، وبان عليها رضاها عن سيسور وعادل جري، ومسرورة بهروبها من أفكارها استندت إلى العصا الفضية حيث تُريح كفَّيها اليابستين، وتوجهت إلى من لبَّيا لها طلباتها:

ـ كفى الآن، استريحا! ـ ولم تملك بعد لأْيٍ إلا أن تُفصح عما يقلقها: ـ بالي مشغول لعدم رجوع الولدين.

ـ ربما كان خان جري يعد لهم حبات المحصول حبة حبة! ـ قال عادل جري مفرّجاً عن ضيقه.

ـ يا عادل ـ لم تقبل سيسور ـ لا يقال مثل هذا الكلام في حق الأخ الأكبر.

ـ لماذا إذن لم يصحبوني إلى الحقول ؟

ابتسمت قانتات:

_ أفْضَلُ من أن تعاتبهم على مسمع منا؛ انظر! أترى، وأشارت برأس العصا:اربط عنقود العنب بالوتد!

_ إن كانت هناك مهمة من هذا النوع فأنا... _ نهض محتجاً.

_ طبعاً أنت يا ولدي؛ إن لم تكن أنت فمن غريمي؟ تنهدت قانتات بعمق، وخطر لها أن تذكر اسم قرم جري الذي يعكر صفو أفكارها غير أنها تمالكت نفسها وموّهت: _ ما العمل إذن؟ حين تكون كبير الأسرة ستكون غريم الجميع.

لم تستقر قانتات على المصطبة في الساعات التي غاب فيها خان جري وأخوه، ولا أمام الباب الصغير للفناء. ولما بدأت الشمس تتوسط السماء دخلت قانتات، واستدعت بيكا وقالت لها:

_ أنا مهمومة بتأخر الأولاد البيتمال. ولكن ليس لهذا طلبتُك. سأقول لك ما في قلبي نحو قرم جري. وأتمنى أن تقولي أنت أيضاً. لن أؤاخذك حتى لو قلت لي أقسى كلمة وأمرّها. أنت المسؤولة عن إدارة تركة محمد جري، لا أنا.

_ لا تقولي هذا يا سيدتنا الكبرى _ ارتعبت بيكا _ ليست إدارة الأسرة التي انضممت إليها من شأني بوجودك وإشرافك علينا. سامحيني؛ أسمعك!

_ شكراً يا كنة، أنت تشهدين اليوم على أني ماكنت مخطئة لأنك صرت واحدة منا. فطنتك عظيمة وإنسانيتك عالية. ولا يخفى أنك خرجت من أسرة محترمة. الآن فكرت من جديد في ما قلناه لأقرباء قرم جري فاقتنعت بأنه لم يكن عليّ أن أردّ على أسرة قَره قوه حسب مواقفها هي. من يعرف:" كل من جهزوا له مهداً سيجهزون له قبراً " متى حدث لي المقدور فسيبقى ميراث الأسرة ملكاً لرجالها الأربعة وأنت. وكلهم متساوون في الحقوق دون اعتبار لكبير. لا أقصد أن نوزعه اليوم بل حين يقفون على أرجلهم ويؤسسون أسرهم.

_ يا سيدتنا الكبرى، لِيُبقك الله فوق رؤوسنا مزيداً من العمر! ولكن منذ زمن بعيد كنت أفكر في ما قلتِه. مهما كانت علاقة قرم جري بي فما فكرت يوماً في حرمانه من حصته. لتثق إحدانا بالأخرى من هذه الناحية!

_ شكراً لك يا كنة! أزحت الصخرة التي كانت على صدري. قرم جري سيئ الحظ ولكن ماذا نفعل به؟

_ تنهدت قانتات وهي تهز رأسها، ثم كررت ماقالته على المصطبة قبلُ: _ ولكن لن ننتزع من حصص إخوته ونعطيه أكثر مما يستحق. ليست إعالة ابنة قره قوه مسؤوليتنا.

سُمع صوت خان جري وصحبه من الباب، ولامت قانتات من دخل إلى الغرفة:

_ يا ولدي يا خان جري، لستُ مرتاحة لتجوالك في البرية.

_ ما أشدَّ خوفك علينا في هذه الأيام الأخيرة ! _ قال مبدياً رجولته وقامته الفضية التي على يساره لجدته: _ لم نكن في مكان بعيد، انضممنا إليهم في أعمال الدراس.

_ حسنٌ أنكم شاركتم في الدراس، ولكن لا تركبوا في هذه الظروف السيئة إلا في وجود من هو أكبر منكم! _ أفصحت قانتات عما كان يقلقها وسألت عن شيء آخر: _ مارأي الموالي في المحصول؟

_ القمح ممتاز، والذرة ستكون كذلك.

ما أشد الشبه بين خان جري وقرم جري، إن لم يكن في طول القامة، ففي الوجه، اللهم إلا أن رأس هذا أميل إلى الطول! لاحظت قانتات سعيدة بهذا الاكتشاف. يشبهان الأب أكثر من الأم. بعد شهور الصيف، إلى وقت الالتحاق بالجيش في الخريف، سيتّخذ جسد خان جري قالب الرجولة. وسيلحق به أخواه قبل أن تجد الوقت للتفكير في الموضوع. مَن مِن هؤلاء سيعيلنا حين يكبر؟ لنستبعد قرم جري! أما هؤلاء الثلاثة فإن احتككتُ بهم وعاندوني أحياناً وعاندتهم فقد نشؤوا أمام عينيّ، ليسوا عديمي الرحمة، بارّون، جديرون بالثقة.

_ يسعدني أن الموالي امتدحوا الموسم يا ولدي _ أفاقت قانتات من أفكارها _ هنيئاً لمن اشتغل به ولمن اشتغلوا لأجلهم! وليكن طعاماً مباركاً، هو أملنا بعد الله.

***

لم تجر الأمور كما كان يتأمل بفوق.

بعدما اتفق هو وجامبولات، مرَّ أكثر من ست مرات أوسبع على حدود لوستان حبله، وتعرّف على الطريق، بل وعلى أشجار الغابة، واختبر الطرق السرية غير أنه لم يجد أي منفذ. كان الموالي العاملون في المحصول يملؤون الطرق ليلاً ونهاراً. وخان جري الذي يتربص به لم يكن يظهر، لا وحده ولا مع غيره.

اليوم في فترة تناول الشاي كان بفوق رأى خان جري فجأة على الطريق غير أن المكان لم يكن فيه نقطة ضعف، وكان الهدف بعيداً بحيث لا يصيبه أمهر الرماة، وكان يتوسط قايمت وحاج قسي. قال بفوق: ليس من السهل قَتْلُ مَن معه هذان الرجلان الضخمان حتى لو رجع ومرَّ من حيث أتربص به. ألا ترى هذا الذي لا يساوي شيئاً يحرسه رجلان ؟! لا يوقفانه على الجانب لأنه الأصغر بل وسطهما، لا يراعون أين يجب أن يقف الكبير والصغير. هكذا يعاملك الناس إن كنت مالكاً. إن كان أساسك متيناً فهذا ما يمكن أن يفيدك به. مهلاً، مهلاً؛ دعنا نحن أيضاً نمتلئ بشيء من المال! لتزيدوا ذهباتي على قدر رؤوسكم! أعرف يا صاحب الرأس المتطاول كيف أقتنصك من بين الذين فعلوا ببامبت المسكين ما فعلوا. سأجعلكم تنفرون إلى محصولكم المشتعل لا تلوون على شيء، و"من يحترق ملكه يغطِّ الدم عينيه" فأسوقك إلى مرمى بندقيتي أيها الشره!

اختار بفوق مكاناً أقرب إلى الطريق بعدما ترك الحصان في مكان يسهل تناوله منه. وأصلح وضع البندقية بين فرعي الشجرة، وتجول بعينيه متمهلاً حيث يجب أن يصوب. ثم رمى الخرقة المطلية بالدهن إلى القمح وأشعل فيها النار.

استنفرت النارُ التي ارتفعت على جانب الطريق المواليَ ــ تدافعوا راجلين وفرساناً، وجلبوا بالعربات سكك المحاريث التي ستقطع طريق النار. وكان بين الفرسان الأوائل ــ لم يخطئ بفوق فهو يفرك راحتيه فرِحاً ويدٌ على الزناد ــ خان جري. اقترِبْ مني، اقتربْ! أيضاً أكثر يا ذا الرأس الطويل. بقي ماذّاً يده زمناً يحضّر نفسه كما لم يكن يفعل حين كان يسدد الكعب الرئيس على الكعوب الأخرى. وهاهو الآن يضغط على الزناد، وها كتف خان جري اليمنى تصاب، وها خان جري ينكفئ على ظهر الحصان!

وريثما يكتشف الفلاحون الذين أعمتهم النار المتراقصة ما حدث لخان جري يقفز بفوق من الشجرة قائلاً " هاهي أول ذهبة لي، أنا من يكسُبها وأنا من يأكلُها! " ويضيع في الغابة.

XI

" الجرح يُشفى والحزن ينُسى "

كانت قانتاتُ هي التي أصابتها حقيقةً الرصاصةُ التي نَبَتْ عن كتف خان جري؛ فلا يلتئم جرحُها ولا تنسى.

صحيح أنه " إذا ضاق الصدر بحّ الصوت " اضطربت قانتات للهمّ الذي جاءها فجأة من حيث لا تحتسب، وأنهكها وحنى ظهرها. ولكن العَودة المفاجئة لشواي أثبتت أن المصيبة تحرُّك الرحمة في النفس الإنسانية.

حين صدرت أصوات فرح خان جري وصحبه من الباب، وسُمع صوت شواي، ودخل وراءه عادل جري، قالت قانتات وكأن شيئاً لم يكن، ويداها النحيلتان على مقبض عصاها الفضية:

ــ تعال يا شواي، تعال! يكفي أنك رجعت إلينا! اجلس أمامي ودعني أشبع من النظر إليك! وأنتم يا خان جري اجلسوا! ــ وقالت بعد برهة وهي تهز رأسها: ــ هذا هو يا شواي ما جرى لنا ــ ثم سألته: ــ ما أخبارك يا شواي؟

ــ لا بأس! أجاب شواي باختصار ــ كنت في بلاد الأبزاخ. وعرّجت على البسلني، وزرت أصدقائي القوزاق في فاسيورينسك.

ــ وماذا يقول الأبزاخ؟

ــ وماذا يقولون؟ فرحون بإبعاد فلاس عنهم.

ــ ما الذي كان يوصل فلاس إلى الأبزاخ؟ ــ قالت قانتات ثم اختتمت: ــ حقاً؛ أليسوا أديغة كذلك؟ مهمومون بما يهم الشابسغ. والبسلني؟ كيف أحوالهم؟

ــ لا بأس كذلك ــ ابتسم شواي بخفة ــ مشغولون بصراع البسلني ــ الأباظة ــ النغوي.. ويقلقون أحياناً من القرشاي الذين يهجمون أحياناً من الجبل.

_ ما العمل هكذا صارت أحوال الدنيا _ سيعودون وسيتفقون بطريقة ما إن لم يجابههم الغريب، يعيشون معاً طوال عمرهم.

_ وهؤلاء يجابهون (شانت قاله) وستافروبول.

_ كم نحن الأديغة متشابهون من الشمال إلى الجنوب مروراً بالوسط _ قالت قانتات وهي تنظر إلى خان جري نظرة حزينة _ أظن القبرتاي كالبجدوغ تعمّق تحالفهم مع الروس، ما الأخبار يا ترى في تلك المنطقة؟

_ وهؤلاء قطع عنهم الجنرال يرمولوف أسباب العيش. والقبرتاي، قيل لي، كالبجدوغ، متحالفون وغير متحالفين مع الروس.

_ وجيراننا القوزاق في فاسيورينسك؟ _ سألت أيضاً _ كيف تصرفوا معك؟

_ يقولون إن المجابهة الأديغية _ القوزاقية هدأت؛ فهم فرحون. وهم راضون عن ماتفييف وعنك وعني بشأن بانتالي، وأما باجقوه عمر فيعتبرونه من أهلهم. وقبل أيام زار هو وامرأته أسرة بانتالي.

_ الحمد لله على هذا، الحمد لله. الأفضل أن نكون أصدقاء ونتزاور على أن تتجابه ونتعادى. شكراً لبانتالي على رضاه عنا؛ أنا لم أفعل شيئاً مهماً في قضيته. نظرت قانتات نحو خان جري _ أظنه كبر وصار رجلاً.

_ بالقياس إلى العام الماضي حين زارك في إيكاترينودار فقد اتخذ هيئة رجل. ويتهيأ للالتحاق بجيش القوزاق في تشيرنومور في الخريف القادم.

كان بود عادل جري أن يساهم في الحديث لأنه ملّ من الجلوس، ولكنه فهم من نظرة خان جري إليه أن عليه السكوت. وحكّ كتفَه الضيقة بجدته ولكنها لم تفهمه. وتأمّل من سعيد جري أن يقف معه،ولكن الآخر لم يهتم به. فلم يستطع إلا أن يقول ما كان يود إسماعه لشواي:

_ يا جدتي شُفيت يد خان جري؛ لم تعد حمراء!

_ نعم يا صغيري شُفيت. هذا الجرح يقلقك أنت أيضاً , ولكن ما يهمني شيء آخر: مَن ذاك الذي كان حقده ينوي هذه المرة أن يفجعنا؟

_ يا جدتي _ استعجل عادل جري _ ليس قرم جري.

_ عادل جري! _ لم يقبل سعيد جري ما قال أخوه الأصغر.

_ أيعقل أن يضرب قرم جري أخاه الأصغر ضربة قاتلة ؟! _ وافقت قانتات الصبي، وقلقت _ إن شاء الله لا يحدث بينكما شيء من هذا القبيل _ هذا ما جرى لنا يا شواي، سمعت ورأيت بعينيك يا ولدي. فعلت خيراً بمجيئك فور سماع مصيبتنا. يا أولادي أود أن أتحدث أنا وشواي في موضوع ما، اتركونا قليلاً. يا خان جري _ نادته وقد اجتاز الباب : توقفْ. ها أنت يا شواي ترى ما يحدث لأسرتنا. قل لي رأيك في ما عليّ أن أفعله. أيمكن أن نعبر النهر ونعود من حيث أتينا إن كان الناس سيستمرون في هذا الموقف منا ؟

_ لن نفارق الأديغة ونذهب إلى مكان آخر. _ احتدّ خان جري _ إن كان أحدهم أطلق علينا النار من الغابة فلن نحيد عن الطريق الذي سار عليه جدنا، ولن نطفئ مصباحه. ولا تربطي قضية بامبت بموضوع جرحي.

_ أوافقك على ما قلت في بامبت _ جزم شواي.

_ لا تدعنا نسئ إلى قرم جري!

_ أنسيت ما قاله لك عند الباب في ذلك اليوم؟

_ نسيت يا جدتي _ لان صوت خان جري ولكن قانتات لم تدعه يكمل ما بدأه:

_ أتتناسى من قال لك: سأقتلك؟

_ قرم جري _ لان صوت خان جري أيضاً _ لن يكون قاتلاً لنا.

_ لا شيء يردع الإنسان حين يتعلق الموضوع بالملك _ قالت كأنها تحدّث نفسها ثم أردفت: _ ثم إنّ "المُلك كالندى، وروح الإنسان غالٍ"

_ كلام قانتات الجدة فيه شيء من الصحة _ شارك شواي حين وجد منقطعاً لحديثهم.

_ يا شواي، قرم جري أخي الأكبر. هو غيرُ بامبت وبفوق وجامبولات.

_ نعم إنه أخوك الأكبر، أين نذهب به يا حسرتي؟ ولكني لا أثق بآل قره قوه الجشعين.

_ هذا أمر مختلف.

تبادلت قانتات وشواي نظرات تقول: إنه لن يَسمح بأن نغتاب أخاه الأكبر، و"لن يسمح لذبابة أن تعضَّه ". كان شواي مرتاحاً لموقف خان جري الحازم، وكذلك قانتات. ولكن كون ما جرى له على طرف الطريق ليس من الرجولة، وكونه يستطيع أن يُدخل إلى بيت آل سلطان هذا الحزن كان يفهمه الأكبران سناً من ذاك الذي جرحوه. وهو يؤرقهما. وخان جري ليس بعيداً عن هذه الفكرة، غير أنه لا يريد أن يتصور أخاه يفعل هذا.

_ أفهم يا خان جري _ بدا من صوت قانتات أنها تتراجع عن موقفها _ أشاركك شكَّكَ... ولكن هذا لا يعني ألا نحمي أنفسنا _ ثم بصوت ألطف مع شيء من العتاب: _ نرى في خصومنا كثيراً مما لا نوافقهم عليه ولكننا لا نحاربهم لأجلها. لن نعبر نهر بشزة ولن نحيد عن طريق أجدادنا. فاطمئن يا ولدي! سنمد أيدينا إلى روح من يمد يده إلى عيوننا _ اختتمت بصوت أعلى.

_ الحق معك يا جدتي _ قال شواي تعقيباً على ما سمع _ ليتوقفْ قره قوه جامبولات عن موضوع أخته! ليست هذه طريقة لجمع المال. سأقابله في الأيام القليلة القادمة.

_ لا يمكن أن تحصل من قره قوه جامبولات على كلمة شرف. _ قالت قانتات _ ولكن كان بودي أن أتكلم إلى قرم جري مرة أخرى. المسكين جافيناه جداً بذريعة أمه. وبما أن أفكارنا نحن الثلاثة اتفقت

فسيخف حزننا علينا. وسنحرص على أنفسنا أكثر من أعدائنا. لست غير مهتمة بموضوعاتك يا شواي، أتمنى أن تطلعني عليها.

_ أموري أنا صارت واضحة. رجعت؛ ألا يكفي كم جافيتكم مصدقاً لكل ما قيل لي؟

_ يكفي يا شواي، يكفي يا ولدي. المكان الذي رجعت إليه هو بيتك ودارك و"نار موقدك". ونحن اشتقنا إليك. ولسنا وحدنا _ لاحظ خان جري من انقطاع الحديث أنه يدور على سيسور، ففكر أن يقوم ولكن ما قيل له أراحه _ اجلس يا ولدي، اجلس! هؤلاء الصبيان في مرحلة النشوء، وإن بقيت على رأسهم ترعاهم فهذا سيسعدني. شكراً لقايمت وحاج قسي والموالي الآخرين، ولكننا لا نقيسك إليهم. ربيت معنا كما سيسور. كان فرحنا فرحك وحزننا حزنك.

_ شكراً يا قانتات _ انكسر صوت شواي فجأة ثم عاد إلى طبيعته فقال: _ سأقول لك ولخان جري شيئاً في قلبي يخص أسرتنا: إن كنتم توافقونني فأنا أريد أن أتوجه نحو القوزاق والروس.

_ يا شواي! ارتجفت يدا قانتات على عصاها.

_ نعم يا جدة _ أجاب شواي وقد توقع ما ستسأل عنه قانتات: _ ليس اليوم، منذ زمن بعيد فكرت في هذا وقررت. احمرّت وجنتا خان جري، نظرت قانتات إلى شواي بحزن ولو أنها ارتاحت لما سمعت، وساد صمت في الغرفة. وخُيِّل للثلاثة أن الدار صامتة كذلك. كسرت قانتات قلق الجالسين:

_ ماذا سيكون مصيرنا إن فعلت هذا يا شواي؟ إن تركتنا وحدنا فأنت أملنا. أقنعنا أنفسنا منذ زمن طويل برحيل خان جري، وماذا سيقول الناس؟ _ لم تكن قانتات ترفع عينيها عنه طوال حديثها، ولم تدَعْ نفسها تنسى ما يشغل بالها، وأنهت بحديث غير موجه لأحد:_ وماذا سيحل بسيسور ياحسرتي؟

_ لماذا ستكونون وحدكم؟ قال شواي كلاماً يختم به الموضوع متجاوزاً سيسور:_ الجيش الذي سأنضم إليه على الضفة الأخرى لنهر بشزة فحسبُ. أستطيع زيارتكم أحياناً.

_ إن كان الجيش القوزاقي سيظل في سلام دائم فهذا حسن _ نظرت قانتات إلى خان جري بطرف عينها _ ولكن لا ثقة لي بالأديغةِ. والتركُ الذين يفتنون بين الأديغة والقوزاق حاضرون. ومن جهتنا عدد من هؤلاء المهووسين لم يعودوا يهدؤون في بيوتهم. ألا ترى ما فعلوا بنا من خلال خان جري؟

_ نانا _ قال خان جري بصوت غير عالٍ ولكنه حازم _ أنت تنقضين اتفاقنا؛ ألم نتفق على ألا نتكلم في موضوع الشر؟!

_ نعم، ولكن أتستشيرنا طريقة العيش يا ولدي؟ ألا تسمع ما يقول شواي؟ ليس سواءً أن تكون قريباً بقلبك من القوزاق وأن تكون في جيشهم يا شواي. فكِّرْ مرة أخرى في ما نويت! لا تخطئْ متخذاً منا قدوةً! نحن سرنا في هذا الطريق منذ زمن طويل. أخي الأكبر وابنه كانا ضحية هذا الطريق. ومن أين تعرف ما ينتظرنا؟ نحن ننفذ وصية كبير الأسرة؛ وأنت ماذا؟

تذكرت قانتات في هذه اللحظة تماماً الأخبار التي كان يرويها جدها؛ كانت آنذاك بين العاشرة والثانية عشرة. كان الجد في الخامسة عشرة، كما يروي، لم يتخذ بعدُ جسد رجل حين طردوهم من القرم متهَمين أن عواطفهم نحو الروس، وأنهم يخونونهم معهم، كما يتهمونهم الآن في بلاد الأديغة. وحين ظننا أننا تفاهمنا مع الأديغة وتقبّلونا سلك أخي الأكبر الطريق الذي لم يتسنّ لكبار الأسرة، طريق روسيا، وقُتل. وبوصيته شدّنا إلى هذا الطريق. المسكين محمد جري دفع حياته ثمناً لهذا... والآن دور مَن؟ أهو خان جري الجالس أمامي أم أخواه الصغيران أم أخوه الأكبر؛ لا سمح الله؟! إن شاء الله لا أرى مثل هذا فلن أتحمل!

_ لماذا يا جدتي تنفّرين شواي مما يريده في قلبه؟

_ لا أنوي مثل هذا يا ولدي. ليس ما نتحدث فيه موضوعاً سهلاً. لو كنا نعيش حسب كل ما يريده القلب... يجب على المرء أن يسأل عما لا يعرف. يقولون "من جرب كثيراً أَخبرُ ممن عاش كثيراً ". حين لا يجدون الطريق المستقيم للعمل يتشاورون لأن هذه هي العادة. سنتشاور في شأن شواي، لا أقول اليوم أو غداً؛ سنجد له مخرجاً. كان لي حديث آخر مع شواي يا خان جري.

تجلس قانتات صامتة ويداها على عصاها الفضية. تَسنّن كتفاها من الأعلى كما لم تكونا قبل زمن ليس بالطويل، وازرقّ وجهها، وزادت عيناها الضيقتان الكبيرتان ضيقاً، وتلونتا بالأصفر والأسود. فَهِمَ شواي أن حديثهما لن يكون ممتعاً.

_ سأسألك في أمر يا شواي _ قالت قانتات دون أن ترفع رأسها عن البساط المعلق على الجدار، ولا تُخفِ عني حقيقة ما في قلبك! لا حاجة إلى الحياء. حدَّثوني قبل أيام عن ذات منديل من فاسيوريسك؛ أصحيح هذا؟

_ إن كنت تتحدثين عن أنفيسكا فهو صحيح.

_ ألهذا تظل تتردد على فاسيورينسك؟

_ ليس الأمر على ما نقلوا إليك تماماً _ كان بوُدِّ شواي أن يبتسم ولكن لم يجده مناسباً _ لولا تلك الصبية لكنتُ متُّ في أرض الأسْر؛ بشفقتها وخبزها عشت واحتفظت بقوتي.

_ يا حسرة! _ لان سؤال قانتات _ رميتَ نفسك بنفسك في أسر القوزاق فعانيت... ثم تقول إنك ستتوجه إليهم؟ أيكونون سحروك بحيث لم تعد تملك قرارك؟! إن كنت ترتاب فقل لي؛ سأطلب من الشيخ أن يَرْقِيك فيفكّ سحرك.

_ لا، سامحيني _ خفض شواي رأسه واحمرّت وجنتاه، وقال كأنه مستاء: _ أنفيسكا مخطوبة لبانتالي، وقد اتفقت الأسرتان على هذا.

_ قل هكذا إذن يا بيتمال _ صاحت قانتات مرتاحة لما سمعت، ومتحفظة: _ تتركني أتكلم في موضوع لا شأن لي به!

ضحك شواي.

_ لا تضحك! سأقول لك شيئاً آخر... إن كنتَ ستطيعني فأنا واثق بك أنك ستفعل، لن أدعك تهجر سيسور... ما حدث لها ليس أسهل مما حدث لك. لا تلتفت إلى ما سيقوله الآخرون. أعرف كثيرين ممن حدثت لهم مثل هذه المشكلة وعادوا فأسسوا أسراً سعيدة _ بعد أن أنهت قانتات ما تريد قوله غيرت موضوع كلامها: _ لا أعترض طريقك في الجيش القوزاقي. فكّرْ مزيداً من الوقت! وانظر إليّ، ولا تنس حاجتي إلى من يسندني! إن صبرت سنة أو سنتين، بعد أن تؤسس أسرتك، سنرى ما يحدث.

مدّ عادل جري رأسه من خلل الباب:

_ لا تنظر من خلل الباب، تعال يا ولدي! هشّتْ قانتات للولد.

_ خدمُ الدار يريدون رؤية شواي يا جدتي.

_ مَن يا صغيري هناك؟ من لا يطيق الانتظار؟

_ جماعة قايمت.

_ أأرسلوك لتعود به؟

_ لا، بل خمّنت.

_ لا بأس هكذا _ سرت ابتسامة خفيفة على أطراف شفتي قانتات _ جعلتَني أتوهّم أن موالينا لم يعودوا يحترمونني. اذهب يا شواي إليهم، خالِطهم، قف في الدار واثقاً من أنني أسندك وأنني أعتمد عليك وأن هؤلاء الصغار في ظلك، وأفهمهم أنك رجعت! _ حين خرج شواي وعادل جري من الغرفة تنهدت بعمق وحدّثت نفسها: _ هكذا، كما كانت جدتي تروي:" إن طال عمرك رأيتَ العجب " _ وحين نظرت باتجاه النافذة كما لو أن أحداً ناداها فرحت لأنها رأت سيسور في الدار القريبة تقوم بأعمالها.

***

في صباح يوم صيفي لطيف رجع شواي وخان جري إلى الدار مستعجلين. نظرت قانتات الجالسة على المصطبة في وجهيهما بوجوم:

_ أجئتماني بخبر سار أم حزين؟

_ إلى أنابه _ قال شواي _ عند المندوب التركي يتدافع الفرسان الأديغة.

_ وماذا سيفعلون هناك؟

_ لمقاضاته!

_ ومن سيقاضون؟

_ ليقولوا لهم: لا تدفعونا إلى حرب مع القوزاق يا جدتي! _ نقل خان جري ما سمعه في القرية، ونظر إلى شواي كأنه يقول: قل لها وترجّها! ثم وضع كفيه على مقبض قامته.

ـ ما أعجب ما تقولان! أجاءت الفكرة من الأديغة أم عندهم عميل من القوزاق ؟سألت قانتات وأجابت نفسها بنفسها: ـ العميل قد يكون القيصر الروسي فإنه منع القوزاق من عبور نهر بشزة، فهدأت مناطقنا. شكراً لديسكاسي! تبين أنه رجل صامد؛ لم يتراجع أمام فلاسوف ولا يرمولوف.

ـ والذي أرسلوه بدلاً منه كودينيس، يقولون ليس سيئاً ـ وافقه شواي ـ وكذلك سيسوي الذي حل محل فلاسوف.

ـ وتعرف موضوعهم يا شواي! تعجّبت قانتات.

ـ سمعت القوزاق يتحدثون.

ـ يا شواي قل لجدتي إذن ـ لم يعد خان جري يتحمل المزيد من أسئلة الاثنين وأجوبتهما.

ـ ماذا يريد هذا الفتى أن يقول يا شواي؟ هناك مايقلقه جداً.

ـ كنا سنذهب أنا وخان جري إن أذنت لنا مع وفد قريتنا إلى أنابه لأن حسن باشا الذي يجمع الرسل إلى الأديغة ـ قال شواي هذا الرجاء الذي ما كان يجد الوقت المناسب له ـ قيل لنا إنه سيحاسبنا لأن وفاق الأديغة ـ القوزاق لا يروق له. ولذا سنرى ما يحدث، وإن اقتضى الأمر فلنا رأينا.

ـ لو كنت لابس قبعة لذهبت أنا أيضاً إلى الأتراك ذوي السراويل القصيرة وقاضيتهم ـ قالت قانتات وسكتت ـ ثم خرجت من أفكارها المتسارعة لتقول ـ أتقول خان جري؟! هل وصل خان جري إلى قضايا البلاد التي من هذا المستوى ؟!

ـ يا جدتي ـ بصوت لا رجاء فيه ـ سنكون معاً شواي وأنا. سأخالط رجال قريتنا الذين ذكروا له اسمي.

ـ أليس الطريق إلى أنابه طويلاً ؟ لا تزال غضاً.

ـ حين صحبت محمد جري لأول مرة في طريق ـ لم يتراجع شواي أيضاً ـ كنت في عمر خان جري، عمر الخامسة عشرة أو السادسة عشرة. حين تراك القرية مؤهَّلاً يجب أن تسافر.

ـ يا حسرتي يا شواي! كان ذاك زماناً آخر ـ تنهدت قانتات ـ في دنيانا اليوم يخرج من كل أجمة شرير. ثم ألا يجب على خان جري أن يذهب إلى بطرسبورج ؟ شكراً ليرمولوف؛ استجاب لرجائنا.

ـ لا يزال أمامي شهر كامل يا نانا ـ استعجل خان جري. ثم أنهى بصوت حازم: ـ وموضوع الأديغة الذي سنذهب لأجله ليس قليل الأهمية.

ـ هكذا ـ نظرت قانتات إلى خان جري قلقة وقد تجاوز ما سمعته درجة الاستغراب، ولكنها قالت وصوتها يشحب: ـ وأنت على طبع والدك. إن كان الأمر قد تقرر فماذا أفعل؟ رأي القرية رأيي؛ اذهبا! حين قلنا: صرنا في زمن استقرار، رجع الترك إلى سيرتهم. لا أعرف ما شأنهم بنا؟

ـ وسيسألهم زعماء الأديغة في هذا الموضوع الأخير بالضبط ـ وافق شواي قانتات.

حين ارتقى شواي وخان جري المرتفع القريب من أنابه تعجب الأخير من البحر الأسود الذي يراه لأول مرة، وتعجب أكثر من مئات الفرسان المجتمعين على البوابة الكبيرة ـ يبتعد البحر عن نظره بلون أزرق

واسع ويلتصق بالسماء. شمس الصباح تغلي فوق الشاطئ الرملي للضفة غير العالية التي لها شكل حدوة الحصان. وأوراق الأشجار المتساقطة الذهبية تتهامس بدعوة من ريح الخريف اللطيفة. ولا يتسع الهواء للضجيج الصادر عن السهل، ولحمحمة الخيول.

لم يبق طريق يمكن أن يوصلك إلى بيت الموفد التركي: من كل جهة الفرسان والمشاة باللون الأسود متجمعون. لا ترى العين إلا رؤوس الخيول وسروجها ولابسي قبعات وأكسية قصيرة، ولا مكان للانتظار عند حسن باشا إلا الحائط العالي المقابل للقلعة. ويخيل إليك أن هذا السور نفسه يمكن أن يهدّوه إن قفزوا معاً.

_ ما هذا كله؟ صرخ خان جري رغماً عنه.

_ أجفلت؟ سأله شواي؟

_ نحن كثيرون إن اجتمعنا.

ابتسم شواي:

_ أتود رؤية مربيك؟

_ أين مرجان؟ أرنيه!

_ بعد الصف الأول المؤلف من خمسة فرسان يتوسط مرجان الصف الثاني المؤلف من ثلاثة.

_ عرفته. والآخرون؟

_ إن لم أخطئ: توغوظقوه قازبك وأباته بسلني وشروخقوه توغوظ وأباته وبيخ بجانبهم. أما الآخران فلا أريد أن أخدعك: لا أعرفهما.

_ أحدهما الممسك برأس الحصان الملوي _ قال الفارس الذي بجانبهما: _ زانه قوه سفربي، زعيم من الناتخواي، والآخر أظنه من الأبزاخ تْسَيْ حاتربي، وآخر معهم أظنه زعيم الجمكوي بولَتْقوه.

حين ترجّل السبعة الذين يقودهم توغوظقوه قازبك بدؤوا بإدخالهم إلى القلعة. توقف الضجيج من كل اتجاه وكأنه لم يبق في الدنيا إلا همسُ البحر الأزرق والهواء اللطيف الخفيف. ولكن بعد قليل بدأ القلق يتصاعد شيئاً فشيئاً. وقلقُ الوقتِ الذي يمر بلا جواب يتثاقل في النهار الذي يسخن رويداً رويداً.

_ طال بقاؤهم هناك _ قال أحد الفرسان.

_ كيف مكثوا طويلاً ولم يمض نصف ساعة على دخولهم؟! لم يوافق فارس آخر.

حين رأوا قازبك على باب القلعة توقف الناس كلهم عن الكلام، ووقف قازبك على سرج الحصان ليُسمع صوته ورفع يده.

_ يا جماعة، لا نتفق مع حسن باشا!

_ ماذا يقول؟ صرخ عدة أشخاص.

_ يقول حسن باشا: السلطان عاتب عليكم لأنكم سالمتم قوزاق روسيا. أنتم ترتدّون عن إسلامكم، تتوجهون إلى المسيحية ! _ استراح قليلاً وأردف بصوت أقوى: _ والمضحكُ أكثر من غيره اعتبارُه لنا من رعايا تركيا! لم يسبق لأحد أن قال لنا مثل هذا، ولن نقبل منه هو_ حين استل قازبك قامته هزّ أكثر المجتمعين قاماتهم في الهواء تضامناً معه، وبعضهم لم يستل قامته، وآخرون أشاحوا بوجوههم _ أين كان الذين يقولون الآن: " أنتم لنا! " حين عاث القوزاق بأرضنا فساداً. إن كنا لتركيا وحرّضونا على الحرب فليعوّضونا أناسنا الذين قتلوا، وأملاكنا المنهوبة، وقرانا المحرقة، وغاباتنا المدمرة إن كانوا صادقين؟ هذا المكتوب[1] _ أراهم قازبك تلك الورقة الملفوفة _ فيه ما تكلم فيه كبارنا أمس واليوم. إن وافقتموني فسأرسله إليهم لأن مندوبي الفرسان الذين أرسلتموهم كلّفوني. ولكن إن كانت تركيا ستحاسبنا على ما فيها فلا يعتبروا أننا بعنا أنفسنا لهم وأننا مُلكهم.

مرة أخرى استل مئات من الفرسان قاماتهم تلمع، وارتمى تصارُخُهم في السهل، واصطدم بالجبال، ودمدم فوق البحر.

[1] كان قد تجمّع نحوُ أربعمئة فارس من الأديغة عند باب قلعة أنابه. كتب الأتامان ماتفييف في كتابه:...: كان الأديغة يفترقون جماعات ويتحادثون ويتشاورون في ما يجب أن يقولوا وأن يفعلوا. وما لم يكن يقبلونه هو قول الباشا: إن الأديغة لتركيا. وكان الاجتماع قد ردّ بهذا الجواب " مع أننا لم نقبل كلامكم فمنذ أن أقام الروس على ضفة نهر بشزة وأنتم تحرضوننا وتدفعوننا إلى قتالهم فعوّضونا عن أملاكنا التي كنتم السبب في فقدانها. هناك 25225 بين قتيل وأسير، و5000 حصاناً وستون ألف بقرة وأمتعة منزلية ثمينة و40000 قامة و30000 زنار ذهبي وفضي و45000 كساء قصيراً و250 مستودعاً للبارود، وثمن 136 قرية أحرقت، وحين رفض حسن باشا مطالب الأديغة أُرسل 11 مندوباً إلى القسطنطينية قبل أن ينفضّ الاجتماع. ولكن السلطان التركي رفض التحدث إلى فرسان الأديغة.

الكتاب الخامس

I

لم تستقبل سان بطرسبورج خان جري بوجه طلق.

ليس لأن الناس الذين خالطهم والعاملين في المدرسة الحربية الأولى عاملوه باحتقار ممزوج بالجفاء والاحتقار، بل المطرُ الخريفي البارد الذي لا نهاية له للبلدة الشمالية، والشمسُ التي لا تشرق هما اللتان لا تصرفان الملل الحزين عن الأمير الشاب. ولا تنسيانه الأيام اللطيفة في البلاد التي قدم منها، منذ طفولته في لوستان حبله، مروراً بالسنة التي قضاها بعد المدرسة في تفليس حيث درّسه يرمولوف في السنة التالية للمدرسة في إيكاترينودار.

لم يعد النهار الخريفي الرطب مشكلة؛ فهو في مسكن دافئ، يطعمونه ويكسونه. يأخذونه يوم الأحد إلى الحمام، ويعطونه يوم راحة إن كان يعرف مكاناً يذهب إليه. والكتب كثيرة، وبالإضافة إلى نقوده الكثيرة التي تسمح له بالتنقل أعطته جدته سومة ذهبية لم يصرفها بعد. دخل في الشهر الثاني من دراسته في بناء المدرسة العسكرية ولما يصله أي خبر من جهة أهله. كان قد أرسل ثلاث رسائل، وسيكتب الرابعة اليوم.

أمس، وأول من أمس، وفي الأيام السابقة، وإن رجعت شهراً إلى الوراء، منذ أن دخلت العربة التي ركبها إلى بطرسبورج، وإلى هذا الصباح، ما تزال السماء غائمة منيخة على الأرض، لا هي تمطر، ولا هي تثلج. والأشجار التي تجهز نفسها لاستقبال الشتاء تسد النافذة مسودّة مبللة، حزينة بلا أوراق، برِمة. وللسياج الحديدي،و لعمود الإنارة، وللطريق المرصوف بالحجارة،وللأحصنة المربوطة إلى العربات السريعة ولو أنها تراوح في مكانها المنظرُ نفسه. وقبة كنيسة إيساكيفسك الذهبية المستديرة التي لا تيأس في أي زمان تُظِلُّ المدينة. وكذا مسلة الأدميرالية.

كانت نانا تقول: إذا لم يكن القلب سعيداً لا يجاري صاحبه فأسطع الأيام نوراً وأكثفها ضباباً مضجرةٌ وثقيلة. لماذا أفقد الأمل ؟ أبعد خان جري رأسه فجأة عن النافذة وهو يلوم نفسه. إن استغرقت رحلتي من إيكاترينودار إلى هنا بالعربات التي تبدل الأحصنة عشرين يوماً فأجوبة رسائلي يجب أن تصل بين اليوم والغد.كان شواي يقول: " غنِّ عندما لا يجاريك قلبك، وإن قفز فلا تستحِ بل ارقص معه على رؤوس أصابعك. ليست الدنيا كلها مجبولة من أشعة الشمس، والإنسان جزء من هذا العالم. من الصعب أن تعرف كيف تتصرف معك الدنيا؛ أحياناً تعقد الأمور وأحياناً تحلها. ومن لم تحطِّم الحياة أنفه فلا فائدة من استقباله بالخير؛ لن يفهم حاله ". ما أخباره يا ترى؟ وأخبار سيسور ؟

ارتسم في عيني خان جري كيف هاجمه بامبت على ضفة نهر بشزة. عصر الألم قلبه محملاً نفسه المسؤولية رغم أنه كان عاجزاً ساعتها عن أن يفعل شيئاً. لم يكن بفوق يكبرني بأكثر من بضع سنين. ولو أني لم أكن

قادراً على مواجهة بامبت. كنت عرقلت بفوق ولو لم أغلبه. ولكن من كان يستطيع التنبؤ بنواياهما الشريرة ؟ لم أتصور يوماً من الأيام أن يعاملني بفوق هكذا. أكوام الكعوب كنت أعيدها له، ولما كان نهماً دائماً فما أكثر ما أعطيته من البَرَك الدافئ. خدعانا ! نحن ليست مشكلتنا مهمة بل مشكلة سيسور المسكينة، مع أني قد أكون ممن يقال فيهم " المغلوب لا يشبع من المصارعة" لو كنت أعرف ما أعرف اليوم لرأينا ما يحدث. ولكن لن أغفر لك هذا يا بفوق إن عشت.

أمرّ خان جري كفه،دون أن يفهم السبب، على الكتف الملتئمة التي لا تؤلمه. وتذكر أن أخاه الأصغر عادل جري كان يسأله أن يُريه جرحه، وأن أمه كانت تبكي في سرها. والتي كانت حاضرة في أثناء حزنه وأثناء فرحه، حتى في في ليالي نومه لا ينساها البتة هي قانتات. الآن فقط اكتشف خان جري أنه لا أمل له ولا سند غيرُها. حين كان في تفليس لم تكن تطرقه مثل هذه الأفكار، ربما لأنه لم يكن خارج حدود القفقاس ولا خارج سمائها، ولا فارق جبالها، ولا تزال شمسها تشرق عليه. قد يكون السببُ الآن بُعدَه عن عميدة الأسرة وعن رعايتها وعدم سماع نصائحها،لا يراها في أرض ولا في سماء. أيكون السبب أن مكان ولادة الإنسان يبقى دائماً مهده ووسادته وفراشه وغطاءه ومطعمه ؟ هذا صحيح ولكن يعيش الناس في هذه الناحية من الأرض أيضاً، وهذه الأمور نفسها هي عالمهم. لكل إنسان،على ما يظهر،نداؤه الذي ينبع منه والذي يلبيه. وهذا ما يبقيه حياً ويحزنه ويفرحه ويمشي به في العمر.

تخلص خان جري فجأة من أفكاره فنظر ثانية من النافذة: لا شيء إلا الجو الموحل الرطب. ورأى رجالاً ونساء لا يكترثون بالملل، مجهزين لمثل هذه الأجواء، يملؤون الشوارع، يدخلون المحلات التجارية ويخرجون حامين رؤوسهم بمظلات من لون المطر الأخضر _ الأسود. العربات المغطاة تذرع الشوارع ذهاباً وإياباً. الناس الذين لا يعرفون إن كان خان جري على سطح الأرض، أو كان الناس في قريته حزانى، يمرحون في الشوارع. ربما كان بينهم من في قلبه حزن ما أو هو نزِق أو غاضب؛ولكن من أين للفتي الأديغي أن يعرف هذا. ومن يعبأ به هو أيضاً؟

تنهد خان جري عميقاً ومد يده إلى القلم وقرر أن يكتب إلى جدته الرسالة الدورية. قال وهو يُكب على الورقة: مهما كان مللي ثقيلاً عليّ فلن أسبب لها الحزن،سيفارقني كمطر الخريف ؛ لن أكتب لها. ستتغير الدنيا مرات ومرات قبل أن تصل الرسالة إلى بلادنا، وأنا ستتغير حالي غداً أو بعد غد. وسأغني كما كان شواي يقول لي دائماً ولو أن قلبي لا يطاوعني. وسأرقص على أطراف أصابع قدميّ. هذه البلاد أيضاً معاش للناس، ولولا أن قلبي طاوعني ما أجبرني أحد على القدوم إليها " نانا يا نانا الجميلة الغالية، يا أمي، سيسور، شواي، سعيد جري، عادل جري... "كان قد بدأ كتابته بمن هم قريبون منه ولكن ريشته أوقفته، قال: لا يمكن ! ستشكّ جدتي فيّ، وأمي ستُفني نفسها وهي تبكي في صمت، سأرسل إلى جدتي فحسبُ.

" نانا ! _ كتب خان جري على ورقة أخرى بالروسية _ كما قلت في رسائلي الثلاث أقول لك مرة أخرى: جرت أموري بشكل جيد واستقبلني مدير المدرسة وضباطها والعاملون فيها كما لو كانوا يعرفونني طوال عمري. كابوستينكو إيغنات وأنا نقيم في غرفة واحدة، للغرفة نافذة كبيرة _ أكتب لك لأني أعرف أنه يقلقك: النافذة من طبقتين، وتغلق من الأعلى والأسفل... وداخلها نافذة صغيرة لا أصل إليها بيدي بعدُ. إيغنات يصل إليها براحة إذا وقف على رؤوس أصابعه. ولأن عندنا معجماً روسياً فرنسياً أقف عليه فأصل أيضاً، أفتحها وأغلقها. لا تقلقي؛ لا ننسى إغلاقها ليلاً، وسريري ملاصق للجدار الأيمن. نعم أقول لك لأنك ستسألين. والغرفة نرتبها نحن وننظفها بالتناوب، وضباطنا يُثنون على ترتيبنا صباحاً ومساء. صباحاً يوقظوننا في منتصف السابعة، لا أجد صعوبة في الاستيقاظ؛ اعتدت عليه في تفليس. ويجب أن ننام في منتصف العاشرة ليلاً. ونهاراً، عدا استراحة الأحد، ندرس أربع ساعات من الثامنة إلى الثانية عشرة. وبالإضافة إلى الدروس العسكرية، كما في تفليس، ندرس الحساب واللغة الروسية واللغة الفرنسية والجغرافيا والتاريخ والدين. لا تقلقي فنحن ستة:واحد من كلٍّ من القوموق أتى من القفقاس (من الداغستان)، من ناحيتنا، ومن الليزيغين ومن النغوي، والأديغة (قبرتاي ومن شركيسيا وأنا). وجهونا إلى دراسة الدين الإسلامي. ونرتبط بضابط شيخ.الأديغيان أكبر مني بحدود سنة. اقتُرح علي أن نعيش في غرفة واحدة غير أني لم أستطع أن أهجر إيغنات؛ أليس من ناحيتنا ؟ درسنا معاً في المدرسة القوزاقية وزابروين ينهرنا، وانتهينا من الدراسة معاً، أليس صديقي ؟ وقد تفهّم الأديغةُ أبناءُ جِلدتي موقفي. وهم يعاملونه بود كما يعاملونني، وينادونه بالصديق القوزاقي، وهو مسرور لهذا.

جفل خان جري لأنه لم يكن اعتاد بعدُ على صوت المدفع الرابض على المرتفع حيث مقر القيادة فأجبره أن يقطع كتابته. وابتسم، محاسباً نفسه ككل يوم، على هذا الشعور بالرعب، ولام نفسه قائلاً: أقطعت كل هذه المسافة وأنت لا تملك غير هذا القدْرِ من الشجاعة لتدرس في المدرسة العسكرية الأولى في روسيا ؟ !

سأروي لك يا نانا ما قطع رسالتي _ أكمل خان جري _ أتكلم على المدفع الذي يطلق في الساعة الثانية عشرة. الآن قبل قليل أطلق ولا أعرف ماذا يُطلق. يطعموننا في اليوم أربع مرات. لا تضحكي يا جدتي؛ تعرفين أني لا أحب الحليب، لا تسخري مني، ولكن لا يطعموننا لحم الخنزير. يحرصون علينا نحن الستة المسلمين _ قبل أيام وضع لي شاب سخيف قطعة من لحم الخنزير في صحن الحساء، ووصل خبر استنكار الضابط الشيخ والضباط الروس إلى مسؤول المدرسة فتسبب في مشكلة كبيرة _ كان خان جري يود كتابة الخبر إلى جدته غير أنه لم يره مناسباً. الطعام يزيد عن حاجتنا، وعندنا محل يبيعه وغيرَه. بدأت دراستي بشكل جيد. ولأنهم سألوني في الشهر الماضي عدة مرات فقد حصلت على (جيد) مرتين، وعلى (جيد جداً) كذلك. صحيح أن اللغة الفرنسية صعبة عليّ لأنها جديدة ولكني لا أتخلف عن زملائي فيها. وإيغنات عنده المشكلة نفسها. أفرحني الخبر الذي سمعته أمس، وسأرويه لك: كانوا يجمعون خمسة عشر شخصاً يريدون تعلم التركية والعربية (أخفى خان جري أنهم سيحتاجون إلى أمثالهم من أجل الحروب

القريبة مع الفرس والترك) فسجلت معهم. لغة النغوي لم تنسيني إياها فشكراً لك. واللغة العربية ليست قراءة القرآن غريبة عني ولو أني لا أعرف المعنى لأني اتبعتها في المدرسة ، وأظنها ستكون سهلة عليّ إن اجتهدت. والأعجبُ من كل هذا شيء آخر؛فقبل أيام استدعانا مسؤول المدرسة نحن الأديغة الأربعة ليعرف إن كنا نعرف لغتنا وصرَفَنا مسروراً وهو يقول: لا تنسوا لغتكم فقد نحتاج إليها يوماً ما. والمهم، لا أعرف، هؤلاء الذين جئنا إليهم يتابعون موضوعات كثيرة،وبعضها يمسنا. ويهتمون بأمور أخرى. الضباط الذين يدرسوننا التاريخ وموضوع الجيوش الأخرى لا ينفكون عن ذكر الإنجليز والفرنسيين والبولونيين، وأكثر من يأتون على ذِكرهم الفرسُ والترك. قبل أيام تحدث أحد أكبر ضباطنا سناً عن شعب الصين الذي يعيش شرقاً (هناك شعب وبلاد بهذا الاسم)، وعلى القرغيز جيرانِهم والفرس ــ الطاجيك، والأوزبيك والتركمان. لا أندم على مجيئي إلى سان بطرسبورج ولا على إقامتي في مبنى المعسكر. شكري لمن ساعدوني في هذا وعلى رأسهم ألكسي بيتروفيتش يرمولوف. ما أريد أن أكتبه كثير، وما في قلبي أكثر. لا مشكلة عندي، كل شيء بخير، وأنا بصحة جيدة. أتذكر هذا منذ وعيت. أتمنى ألا ينهار الوفاق الأديغي ــ القوزاقي. لست وحدي في هذا؛ يشاركني إيغنات فيه.

قفز خان جري من مكانه حين فُتح الباب فجأة، وقال له إيغنات ويداه وراء ظهره بصوت لا يتراجع:

ــ ارقص يا خان جري !

ــ يا إيغنات ! ــ احمرّت وجنتا خان جري وقد عرف أن رسالة وصلت من أهله.

ــ لا ترجُني بل ارقص لأعطيك ــ استدار إيغنات دون مجاملة، وجلس على الرسالة المطوية، ووضع أمامه المقعد الواطئ الذي سيستخدمه للإيقاع عليه ــ هيا إلى الحلبة، ارقص رقصة " الإيسلامي"![1]

ــ إيغنات أنت تذنب بحقي؛ لا تفعل بي هذا مع أول رسالة تصلني ! دعني أقرأ أولاً ثم أرقص لك.

ــ قلت لك إلى الحلبة ــ بدأ إيغنات يوقع على الحلبة لحن الإيسلامي، ويغني ما يناسب اللحن.

أسرع خان جري إلى أرض الغرفة، ورقص بمهارة مناوباً بين يديه ورجليه، ودار بضع مرات على نفسه، فأعطاه صاحبه الورقة التي اشتاق إليها. قلّبها مراراً ثم فضّ الورقة المطوية المختومة. وكذلك أخرج إيغنات الراضي بما فعله الورقةَ التي لم يجد الوقت لقراءتها.

ــ وأنت يا إيغنات أجاءتك رسالة أيضاً؟سأل خان جري دون أن يرفع عينيه عن الرسالة: ــ أهنئك !

انتظر إيغنات بفارغ الصبر أن يقرأ خان جري بضع أوراق، ثم لم يتمالك أن سأل:

ــ ما أخبار بلادكم ؟

ــ كلهم بخير ــ لم يرفع خان جري رأسه عن الرسالة ــ سلام وراحة، وأنت ماذا كتبوا لك ؟

ــ وبلادنا كذلك ــ يقولون بدأت أعراس الخريف القوزاقية.

---

[1] نوع من الرقصات الأديغية. المترجم

_ ما أكثر ما كتبت جدتي ! _ بحث خان جري عن بداية الأوراق الثلاث الممتلئةِ وجهاً وقفاً ، غير مكترث بما يقول صديقه، وبدأ يقرأ من جديد بعدما وجد البداية.

_ إن كنت انتهيت من القراءة تعال نلعب الشطرنج؛ سأدعك تغلبني اليوم.

_ لا تؤاخذني يا إيغنات؛ أريد أن أقرأ الرسالة مرة أخرى على مهل. اذهب والعب مع غيري. سأقرؤها وحدي مرة أخرى _ نظر خان جري بود إلى صديقه _ وإن أردت فانتظرني نذهبْ معاً. ولكن الأفضل ألا تفعل لأني لم أنته من كتابة رسالتي.

التفاهم مع الإنسان، بغضِّ النظر عن اللغة والدين واللباس، أصعبُ من التفاهم مع الدنيا.إن الإنسان الذي لا يتجاوز ذرة غبار في هذه الدنيا الواسعة المتنوعة، في غمرة عمله فطعامه، فحربه فحمايته نفسه، وانتصاره وهزيمته، مُرَكَّبٌ من أسرار لا حصْرَ لها يصعب معرفة بدايتها ونهايتها ولو كان يحيا حياة واضحة _ ومن الصعب أن تفهم كيف يتصرف في خلال الدقيقة الواحدة والساعة الواحدة والليلة والنهار، متناغماً مع نبض قلبه أو غير متناغم.

وخان جري من الصعب عليه وهو الذي في مقتبل العمر أن يخرج من نطاق الإنسان الواضح _ الغامض. ليس ما شهده من خير وشر قليلاً في السنوات الست عشرة التي عاشها في عالم الأديغة _ القوزاق، وها هي السنة السابعة عشرة في بطرسبورج. وباستثناء العزّ الذي عاشه في أسرته فالأحزان التي عاشها أكثر من الأفراح : القلق الذي كان يعيشه مربيه من أجله ضد الأشرار، وجثمان أبيه الذي حمله الحصان إلى البيت، وهروب شواي من البيت وغيابه، وطريقة العثور على بانتالي، والنكبة التي أصابت الأديغة في المستنقع وليالي القوزاق المريعة_ ومأساة سيسور والإهانات التي كان يلحقها به زملاؤه في المدرسة القوزاقية، ومجيء أخيه الأكبر لمقاضاة الأسرة، والكلمات الجارحة التي صدرت منه، والضربة التي كانت تهدف إلى قتله وإن لم يتسن لها أن تصرعه ، ويكفي الصراخ الغاضب لزابروين، والسحنات الكالحة لبامبت وبفوق وجامبولات، أن يمر كل هذا من أمام ناظريك ويؤلم قلبك ليس سهلاً. ومن يدري ما يخبئه له الزمن في عالمه الجديد.

ومع أن خان جري كان يحب إيغنات بلا حدود فقد قرأ من جديد رسالة جدته بمزيد من الهدوء عندما بقي في الغرفة وحده. ولم تكن قليلةً الكلمات التي كرر قراءتها مرات. وقرأ ما بين السطور خائفاً من أن تكون تخفي عنه بعض الأمور كما يخفي هو. "كل شيء في ناحيتنا بخير، الجو صاحٍ، والسلام سائد، والموسم وفير، والأسواق ملأى. والبضائع في أسواق التبادل مكدسة.والاختلاط بين الأديغة والقوزاق في تزايد وأشد أماناً " ولكن أيطول هذا الوضع أم لن يطول ؟ يسأل خان جري نفسه رغم ارتياحه إلى ما كُتب له، ويجيب مسلحاً بكل ما يظنه هو، وبما كان يسمعه في لوستان حبله وإيكاترينودار وتفليس. عامة الناس، كما تقول نانا، لا مشكلة كبيرة معهم، ولكن المتخصصين بالفتن من الطرفين كثيرون. وفي الشهرين اللذين قضيتهما هنا رأيت منهم بين من يدرسون معي وبين من يدرِّسوننا. هاهو أستاذ الجغرافيا النقيب

بوربورف ينادي الشاب الذي من القوموق شاريبوف أنور باسم " المواطن الأصلي المتمرد " لأنه لا يستطيع لفظ اسم المنطقة التي فيها جبل غيندوكوش. وما كان يقتصر على من جاؤوا من القفقاس بل الفصيلة كلها. كان بودي أن أقول له إنك غير مستقيم فتظاهر بأنه لا يراني. ولو لم ينبهني إيغنات بمرفقه لقلت له ما لا يسره. نحن،كما كان أبي يقول، لم نتحالف مع روسيا لنقاتلها ونتلقى منها الإهانة، ولا لتخدعنا، بل لأن نواياها نوايانا، وأفراحها أفراحنا، وأحزانها أحزاننا. أليس لهذا سلكنا طريق أجدادنا وآبائنا؟ أَوَ ليس لهذا السبب أيضاً جئت طالباً إلى المدرسة العسكرية في سان بطرسبورج ؟ لن أغفر لبوربوف إن عاجلاً أم آجلاً ما ألحقه بمن قدم من القوقاز من إهانة !

نظر خان جري من خلال النافذة. بدا له أن السماء السوداء _ الزرقاء صحت ربما لأن رسالة جاءته من بيته، ويجب أن يُضاف إليه تفريجه عن ضيقه بالإهانة التي ألحقها به النقيب الركن بوربوف. وبدت له وجوه الناس في الشارع طلقة، وعدد المظلات تناقص، و ازداد سقف كنيسة إيساكييفسك الذهبي المرتفع لمعاناً، و ازداد مرتفع الأدميرالية المدبب بروزاً بين السحب. والغرفة التي يجلس فيها واسعة ومنيرة، وأضحت دافئة، وأغصان الأشجار المتجمدة تنظر إليك بعيون أعمق رضاء.

مهلاً، مهلاً يا خان جري ! مد يده مرة أخرى إلى المكتوب: ماذا تكتب لي جدتي ؟ لم أكتب لهم في رسائلي إليهم ما يمكن استنتاج أي شك منه. ماذا تقول نانا ؟ ها هي هنا تقول: "كن حذراً في ما تفعل وما تقول، وفي اختيار أصدقائك الموثوقين. صادِقْ من يمكن أن تستفيد من عقولهم، وأودِعْهم آراءَك إن كنت تعتقد أن هذا العمل مفيد. ولا تناقشهم في ما هو غير ضروري، ولا تعطهم المجال ليناقشوك. وتجنَّبْ مَن لا خير في عقله، ومَن مزاجه متقلِّب، والمدخنين، والأشرار. واحترم مدرسيك الضباط الذين يعجبونك والذين لا يعجبونك. لا تقل ما لا يجوز أن تقوله، ولا تتحدث في موضوعات كثيرة ينقصْ احترامهم لك ! وليكن فمك محكم الإغلاق لتحافظ على أسرار الدولة فأنت تدرس في مدرسة عسكرية. ولا ترو لأحد ما يعلّمونه لك وما تسمعه فإنها ليست مسائل للشارع، ولا تكتبه لنا. كنت أسديت لك هذه النصائح قبل أن تسافر ولكن أذكّرك بها مرة أخرى "

"... ولا تكتبه لنا " جعلت هذه الكلمات رأسه ينتفض فعاد إلى رسالته نصف المنجزة، وبسرعة راجع ما كتبه من أخبار البلاد الأخرى، وأخبار الأديغة والصينيين، وغيرها، ووجهه يحمرّ ثم يُمتقَع. وشرع يشطبها بالقلم. ثم مزق الموضع الذي يسرد فيه أسرار المدرسة، وجلس قليلاً يعاتب نفسه ثم بدأ من جديد رسالته وهويقول لنفسه: لأجل هذا كانت نانا تقول لي " فكّر ثم تكلّمْ، وانظر ملياً ثم اجلس ! ". وبعد ما كتب بعض الوقت أنهى ما كان يشغله: " صحيح؛ من الأفضل أن تتأقلم مع الجماعة التي صرت جزءاً منها... لو كانت الرياح تجري بما تشتهي السفن..."

***

في صباح أحد من الآحاد في أواخر شهر تشرين الثاني صحا خان جري وإيغنات على أصوات أجراس الحداد تنطلق من الكنائس.

_ ماذا جرى ؟ انتفض خان جري من السرير وارتمى على النافذة وراء سرير رفيقه.

_ مات أحدهم _ قال إيغنات _ ليس مجرد " أحدهم " فالكنائس تتجاوب؛ أتسمع؟ والمعسكرات برمتها تنهض معاً من النوم.

_ ماذا ننتظر ؟ أسرع خان جري إلى بنطاله _ لنلبس !

وفي اللحظة نفسها سمع سكان المعسكر الجرسَ في غير موعده. والطلابُ الذين لا يعرفون ما حدث قفزوا من المهاجع. وتتالت أصوات الأبواب تنفتح.

_ سقط الثلج ! صرخ متعجباً إيغنات الذي رأى الثلج على الشجرة المقابلة للنافذة.

كان الثلج يتجمع بهدوء على الأرض غير عابئ بالخبر الحزين الذي تبثه أجراس الكنائس _ ويتكوم على السطوح ورؤوس الأشجار ورؤوس الأوتاد وعلى المصابيح المضاءة. والشوارع والجسور والزوايا ترتدي الأبيض. الثلج في كل مكان. ولم ينج منه إلا المسلة المتعالية على سان بطرسبورج.

دخل إلى الغرفة قوداينت أنزور وشاريبوف أنور:

_ لماذا أنتما واقفان ؟ سأل أنزور وأجاب دون انتظار جوابهما: _ توفّي قيصر روسيا !

_ ماذا تقول ؟ صرخ خان جري لِما سمع، وسأل كما يقول له قلبه: _ أحقاً مات قيصرنا ؟ إذن ماذا سيحل بنا يا إيغنات ؟ لم يكن سيئاً نحونا نحن الأديغة والقوزاق.

_ هيا ! الجميع يستيقظونْ _ استعجل الشابُّ القبرتايُ الآن.

***

رنت فوق روسيا أجراس إعلان الوفاة المفاجئة لألكسندر الأول قيصر روسيا في تاغانروغ في 19 نوفمبر عام 1825.

II

كل خبر ينبت له جناح، ولكن إذا تعلق هذا بالقيصر، فسرعان ما يخترق البلاد.

اجتاز الخبرالفراسخ الثلاثمئة التي تفصل تاغانروغ عن إيكاترينودار،وقبل أن يصل إلى سان بطرسبورج، وصل إلى قلعة القوزاق ضاماً ضفتي نهر بشزة، مثيراً ردود الأفعال المتناقضة بين السامعين.

كان الأتامان ماتفييف وكودينيس الذي أرسلوه بدلاً من ديسكاسي مهمومين بما سيحدث للبلاد بعد الخبر الفاجع وخصوصاً بمصير القوزاق مما جعل بديلَ فلاسوف سيسوييف ينظر إليهما بوجوم. تصايح زابروين وتابانيس وهما يفركان راحاتهما بالسرّ " لنر الآن كيف سيتصرف الأديغة ! " ولم يكن القوزاق المؤيدون لهما قليلين.

" يا مصيبتاه ! ماذا سيحل بنا الآن ؟ وكيف سيقيم خان جري في سان بطرسبورج، وكيف سيدرس فيها ؟ " جعل الخبر المفجع قانتات تصرخ. وأمثال توغوظقوه قازبك وشروخقوه توغوظ وغيرهما أثار موت القيصر قلقهم من جديد حسب تصورهم . وجعل الحدثُ السلمَ الهش الذي بين القوزاق والأديغة ينهار، وأثار من جديد روح الانتقام الذي لم يُنجز لخسائر الشابسغ في مستنقع قلشتوك والقرى المحروقة.

وكان باجقوه عمر وبادينكا سافيلي وأمثالهما من عامة الناس يقولون: " ما المشكلة ؟ عاش أجدادنا واشتغلوا وتحاربوا وتصالحوا حين كان لهم قيصر وحين لم يكن لهم. لن تقوم القيامة لموت القيصر، ولا يهمنا من يخلفه.سنزرع ونحصد ونربي ونعيش، وإن تحاربنا أحياناً فسنتصالح. ولكن الأفضل ألا تدخل الحرب بيننا. سنقبل بأي قيصر حتى لو كان على رأسه قرنٌ على ألا يدفعنا إلى الحرب والاقتتال "

لم تكن قانتات تجد ، وإن استلمت رسائل خان جري الثلاث وردت عليها ،ما يريح صدرها في البيت ولا في الدار ولا على المقعد المطل على الشارع. لم تعد مهتمة بالأخبار التي تولد في لوستان حبله من قبيل الإشاعات، ولا بما يأتي من الأماكن البعيدة ولا في البجدوغ ولا في المنطقة الأديغية كلها. كان قلبها وروحها في بطرسبورج المزدحمة، كما تتصور، حيث يقيم خان جري: " ماذا يفعل هذا الفتى الساذج في مدينة ليس لها قيصر ؟ " لم يكن هذا السؤال يفارق قانتات في طعامها اليومي ولا في صلاتها ولا في أحلامها التي لا تستغرق غمضة عين.

_ يا كنة تعالي لحظة ! _ نادت قانتات من داخل الغرفة، وحين لم تظهر من تناديها غمغمت: _ حقاً كرَّهْتُ الكنة نفسها، تتظاهر بعدم سماعي أو تختبئ في زاوية ما. يا كنتي؛ ألا تسمعينني ؟ لم تقع عيناي منذ الصباح على أي من الصبيين. يا سيسور، وأنت أين ؟ لا أحد في البيت. لست أنا المشكلة بل لأن البيت أقفر تماماً.

نظرت قانتات من النافذة المطلة على الدار فلم تقع عيناها إلا على الكلب المربوط الذي دس رأسه بين قائمتيه. وعناقيد العنب التي عانت من برد الخريف ومن حره معاً فأضحت سوداء _ صفراء تتدلى من العروق النحيفة، وبعضها يقع أرضاً، والأخرى تهتز مع النسيم الرقيق. وأوراق شجرتي الجوز في الفناء بلون البرونز ما تزال على الأغصان،ولكنها ستتساقط مع أول صقيع. وعرانيس الذرة في بساتين البيوت قُطفت، والأهراء الثلاثة المتجاورة امتلأت. واليقطينات متراصة أسفل كومة الحشيش.

قالت قانتات لنفسها: لن يذوق صغيري شيئاً من هذه ! يمكن تخزين الذرة والجوز، واليقطين سيصمد إلى الربيع، ولكن رزم عناقيد العنب التي أوصيت بتخزينها ستذبل في شهر. يا حسرتي؛ ليتني وجدت في هذه الأيام مسافراً إلى سان بطرسبورج أثق به ! كنت أرسلت معه كمية من الجوز وبضع رزم من العناقيد وسومة ذهبية رغم أنه يقول إنه لم ينفق شيئاً من السومة التي معه؛ ستأتي مناسبات ينفق فيها. لا أظن أنه لا يباع العنب والجوز في مدينته ولكن من أين يأتي بما هو ألذ وأشد بركة مما نبت في أرض جدك ! ليتني أطعمت "

أَسَدي " شيئاً من "الباستا والشيبس"[1] الساخنتين، وكذا شيئاً من اليقطين. يخبرني أن الجو ليس بارداً كي يطمئنني، ولكن، ولو لم أعش في تلك المنطقة، سمعت ديسكاسي عدة مرات يمدح شتاءهم ويذم شتاءنا المعكر[2] ليس هذا هو المهم؛ فهناك يعيش الناس، بل المهم هو موت من أحسن إلى أسرتنا، ولسنا وحدنا فقد استطاع مسالمة الأديغة والقوزاق. كيف سيتصرف معنا من سيخلفه؟ أيجعل أعداء الطرفين يشمتون أم يفجعهم؟

_ ياكنة، يا بيكا ! _ مرة أخرى نادت قانتات من داخل الغرفة _ ألست في البيت ؟ لماذا لا أسمع صوتك ؟ _ ابتسمت في سرها _ " أفهم أن طول عمري في حضرتك أتعبكِ، ولكنك أنت أيضاً ستكونين يوماً في موقع الحماة الحاكمة فلا تستعجلي، واعلمي أنها ليست تجربة حلوة كما يتصور من يجهلها. كنت سأرضى بما كتبه الله على جبيني لو تزوج شواي وأحد هؤلاء الفتيان الثلاثة وحضرت حفلة الرقص في عرسه. لم أعد أعرف ما أقول. لماذا ثلاثة ؟ محمد جري لن يرضى عني. آه يا قرم جري ! الثلاثة الآخرون ربيتهم، غرست فيهم أقوالي وأفعالي، وإلى الآن، أحياناً أخاف أن أدفعهم إلى أن يكرهوني إذ أفرض عليهم أن يروا العالم بعينيّ " _ يا سيسور لا أعرف إن كان صوتك هو ما أسمع، تعالي قليلاً !

_ أناديتني يا نانا ؟ اندفع عادل جري إلى الغرفة ورائحة السمك تفوح منه.

_ يا إلهي لم يبق غيرك في أسرتنا يفهمني _ أثنت قانتات على الأمير الشاب. تسمع شكواي. تفوه، تفوه! أي رائحة هذه التي تفوح منك ؟

_ كنا نصيد السمك يا نانا. _ أجاب عادل جري مسروراً.

_ مع من كنت ؟

_ كنا معاً سعيد جري وأولاد الموالي.

_ يا لَخوفي عليكم ! كيف كنتم على ضفة نهر بشزة دون إشراف الكبار ؟

_ وماذا في ذلك ؟

_ تعرف ما فيه حين تتجمع من جديد عصابة زابروين. ومن جهتنا أتظن جماعة بفوق نائمة ؟ اذهب واخلع ملابسك ليغسلوها ! لا أتحمل رائحة السمك منك. أين صيدكم ؟

_ أعطيناه لأولاد الموالي لأنك لا تأكلين هذا النوع من السمك.

_ وأنتم لا تأكلونه ؟

_ لماذا نأكل ما لا تأكلين ؟

---

[1] سبق تعريف الباستا. والشيبس طعام يُتَّخذ من طحين الذرة الصفراء أو طحين القمح المحمَّس المطبوخ مع الحليب أو الجوز، ومرقة الدجاج، يؤكل عادة مع الباستا. المترجم

[2] لأنه من غير روسيا. المترجم.

_ هكذا ! _ ابتسمت قانتات _ اذهب يا صغيري، اغسلوا أيديكم وأزيلوا رائحة السمك ! أنا يمكن أن أتحمل الرائحة بطريقة ما، غير أن أمك ستتأذى. أين أمك وسيسور؟ أناديهما فلا تسمعانني !

_ في الغرفة التي في أرض الدار، تعملان في الصوف.

_ ولماذا تعملان في ما هو من اختصاص الموالي ؟ _ سألت قانتات مستغربة ما تسمع، ثم أنهت بكلام جعل الأمير الصبي يبتسم: _ إن كانتا لا تعرفان ما تفعلان فلتجلسا إلى المرآة ولْتتزيّنا ! أخص سيسور بكلامي. هيا ناد لي أمك !

نظرت قانتات من النافذة. وحين رأت سعيد جري وقد تعرى إلى خصره،ووقف يغتسل في أرض الدارِ وشمسُ الخريف اللطيفة على ظهره، سرت فرحة دافئة على الوجه النحيل، وكذلك خلع من أرسلته قميصَه ليفعل مثل أخيه. يا إلهي احفظهما ! وليعيشا عمراً هانئاً على الأرض ! وليُسديا الخير إلى عرق الأديغة !

حين سُمع صوت الباب عاتبت قانتات من رأتها وهي مشتاقة إليه:

_ تعالي يا كنة، تعالي ! شوَّقتِني إليك طوال النهار.

_ يا سيدتنا الكبرى، كيف يكون " طوال النهار " ؟ قالت بيكا بصوت لطيف _ لم تمض ساعة على خروجي من عندك !

_ حتى الساعةُ كثيرة عليّ ! يا كنة كرمى لله انظري كيف يعتني الأخوان بنفسيهما. انظري كيف تبدو الرحمة والعطف من طريقة وقوفهما ومن حركات أيديهما. هكذا يجب أن تكون العلاقة بين من ولدتهما أم واحدة.

نظرت بيكا بعين دافئة مرتاحة ووجنتاها المتوردتان تشهدان على الطمأنينة التي شعرت بها مما سمعت من قانتات. ونظرت مرة أخرى عبر النافذة وهي تكتم حنينها إلى خان جري. قالت قانتات وقد اكتشفت حزن الأم:

_ هيه، هكذا يا كنة ! أذنبت بحقك، رمينا بخان جري الصغير إلى بلاد لا نعرفها بحجة أننا يجب أن نصنع منه رجلاً،ولا أدري ما سيحدث. ليست بتربوف هنا؛ أيُّ شَبَهٍ بينها وبين إيكاترينودار ؟ والناس الذين سلمناه إليهم نقول إنهم يشبهون جيراننا القوزاق، ولكن من يعرف كيف سيستقبلونه ؟

_ ليس في ما كتب إلينا ما يجعلنا نرتاب يا سيدتنا الكبرى.

_ أكيد _ جزمت قانتات، ثم سألت وهي تتفحص بيكا بعين الشك الخفيّ الحادة: _ أتظنين أنهم يسمجون له أن يكتب؟ يا ليتني كنت واثقة بأن قوتي تسمح لي لقررت غداً وسافرت إلى بطرسبورج.

_ لا سمح الله يا سيدتنا الكبرى ! _ صرخت بيكا وفزعت من صوتها _ لا تفكري في هذا، ليس هناك ما يستوجب هذا القلق.

_ ولماذا ليس هناك ما يوجب القلق ؟ _ رفعت قانتات رأسها دون أن تهز العصا الفضية التي تحت يديها ثم قالت بصوت هادئ: _ لماذا لا تكون البلاد التي بلا سلطان في غمٍّ ؟ أما سمعت أن جيراننا القوزاق يحصنون حدودهم بالرجال وبالسلاح ؟

_ ألانهم لا يثقون بضفة الأديغة ؟

_ كل دولة تضع جانباً موضوع الصداقات وما شابه في ساعات الشدة. كلٌّ يقدم مصالحه وشرفه وحريته. قيل إن حسن باشا كان قبل أيام في زيارة لأرض الناتخواي. وهؤلاء (الأتراك) يهجمون صوبنا كلما حدث خطب في روسيا. من الممكن أن كثيرين ممن لا تروقهم حالة الصفاء بين الأديغة والقوزاق نفّثوا عن مشاعرهم.

_ إن رجعت حالة الحرب من جديد أيتها السيدة الكبرى... _ نظرت بيكا في وجه قانتات واجمة دون أن تكمل كلامها، وانتظرت ما ستقول السيدة الكبرى.

_ هذا يتعلق يا كنة _ أجابت قانتات بعد انتظار متمهلة _ بالقيصر الجديد، ستتحدد بناءً على موقفه العلاقاتُ بين الأديغة والقوزاق.

_ ماكان يجب أن نرسل خان جري إلى هذا المكان البعيد ! _ هربت من الأم وساوسها، ثم انتبهت إلى نفسها: _ سامحيني أيتها السيدة الكبرى، لا أعرف إن قلت ما لا يجوز ؟

_ نعم قلتِ يا كنة ! _ ارتجفت يدا قانتات على العصا الفضية، وأضافت وعيناها على البساط الذي تُبِّتت عليه الأسلحة، وليستا على كنتها: _ ضعْفُ قلبك يا بيكا، أنت ونحن، يضر بالبلاد التي اختارها خان جري بقلبه، وبالأديغة الذين خرج منهم. لا تدَعي الأميرين الفتيين ومن يعملون في الدار يسمعون منك هذا الكلام ! _ وبعدما جلست مدة بجسد متين ووجه بارد اختتمت بكلام لا يخلو من الرحمة: _ إذن لماذا يقولون " المغضوب عليه من الله هو من أنجب ". اسمعي يا كنة _ قالت بصوت أبرد: _ السبب الذي استدعيتك لأجله شيء آخر: أنت وسيسور تعملان في ربط الصوف وغزله، وشواي جوال، تعرَّف على عجوز من الأبزاخ اسمه باجقوه فلم يعد يفارق فاسيورينسك.

_ ليس إلى الأبزاخ سافر شواي !

_ أعرف. أرسلته إلى المدينة بما كتبت لخان جري. لماذا لا يعود ؟ ربما شخص مثل شواي هو من جعلهم يقولون " أرسلَ الولد في مهمة ثم تبِعَه ! " يا كنة، ما نوايا شواي وسيسور ؟ ألا يرشَح إليك شيء من أخبارهما ؟

_ لا أخبار من هذا القبيل أيتها السيدة الكبرى ! وإن كان هناك أخبار فلن يطلعاك عليها.

_ كنت قد سمعت أنهما اتفقا على الخريف، وها قد كاد ينقضي، والشتاء على الأبواب. لا فائدة أن نقف منتظرين. لا تستطيع سيسور البائسة أن تُفصح _ ألا أراها أنا ؟_ هناك ما يقلقها. في الأحد القادم قوموا بجولة في المدينة لمعاينة الأقمشة وأغطية الرأس والملابس الداخلية والأحذية.لا تبخلي بشيء من أجلها يا

كنة ! وسأكلف من يقوم بالأمر نفسه لأجل شواي. أنا لا أعرف ما سيحدث لي غداً أو بعد غد. أكثيرٌ عليّ أن أرى يوماً ما فرحاً في دار آل سلطان ! ما يحزنني هو غياب خان جري. إن حدث أن سألتْكِ سيسور فأخبريها أنها ستكون كنتي وابنتي معاً !

ــ وإن شعرا بالحرج بسبب أنهما يقيمان في أسرة واحدة ؟

ــ لماذا ؟ أتخليا عن كونهما أديغة ؟ أنحن في القرية دون أهل وأقرباء ؟ ليأخذها شواي ضيفة على أي أسرة يريد![1] وسنعيدها إلى بيتنا حسب عاداتنا. وهو ليحلّ ضيفاً على أي صديق يريد ! وحين ينقضي العرس يعيدونه إلينا ــ نظرت قانتات نحو باب الدار كما لو أن أحداً ناداها، وجفلت لرؤية الفارسين القوزاقيين اللذين يترجلان عند مربط الأحصنة: ــ يا كنة ماذا يريد هذان القوزاقيان؟ أيكون حدث شيء لشواي ؟

ــ لا، أيتها السيدة الكبرى ! أحدهما هو بانتالي، والولدان أسرعا إليهما، وخفّ حاج قسي لاستقبالهما.

ــ هكذا ؟ رجع الدم إلى وجه قانتات ــ لا مشكلة هكذا. ادعوهما إلى غرفة الضيوف وحضروا لهما الطعام. وها هو موعد رجوع شواي.

لم يتأخر شواي عن الضيوف أكثر من نصف ساعة. وتوجه إلى حيث تجلس قانتات ولو أن عادل جري الذي هبّ لاستقباله أخبره بقدوم الضيوف.

ــ تأخرت كثيراً يا شواي ! لم تستطع قانتات إلا أن تنظر في وجه من يبتسم لها.

ــ التقيت في مركز البريد بمعارف لي من القوزاق فتحدثنا.

ــ وماذا يقول القوزاق ؟

ــ ليسوا مرتاحين إلى من صار قيصراً.

ــ إذا كان يقلقنا فلماذا لا يقلقهم ؟ إن كان الحاكم حصيفاً أراح الرعية، وأسّس لك علاقات بالناس. الحاكم رأس الدولة، تأتمر الدنيا بأمره. " يفنيك ما ليس لك به شأن، ولا تني تتحدث بما يقلقك " سنتحدث في هذه الأمور فيما بعد. اذهب وسلم على الضيفين. وحين تنتهون من حديثكم دعني ألتق بهما. سأتحدث إليهما قليلاً وأروّح عن نفسي. يا شواي يا ولدي ــ نادت من يخرج من الغرفة ــ أمَا سألتَ إذا كان وصل شيء من خان جري ؟

ــ أمَا وصلت رسالة منه أمس؛ فكيف ترِد اليوم أيضاً ؟

ــ لا أعرف يا حسرة !

فاضت من جديد هواجس قانتات. لم تترك موضوعاً دون أن تصل إليه بأفكارها وإن كانت عيناها مسمرتين على البساط الجداري الذي جمعت عليه الأسرة منذ عصور الأجداد مختارات من الأسلحة.

---

[1] كانت التقاليد تفرض ، واستمرت إلى وقت غير بعيد ، نزول العروس والعريس كلٌّ على حدة، ضيفين على أسرة أقارب أو أصدقاء، ريثما تنتهي مراسم العرس فيعود كلٌّ وحده في مراسم خاصة. المترجم.

وأينما سافر قلبها بأفكارها فالمكان الذي تعود إليه هو المدينة التي لم تطأها قدماها: سان بطرسبورج المدينة العظمى. تسير في الشوارع التي لم تعرفها، وتطرق أبواباً تتخيلها. وترى في كل ضابط شاب صِنواً لخان جري.

قالت قانتات: لا يجوز أن أقعد هكذا فقد تُشل حركتي ! شرعت تذرع أرض الغرفة متمهلة دون أن تعتمد على العصا الفضية. لم تصدّق الكنة ما قلته لها ولكني سأذهب إلى خان جري،لن أدعها تلومني. ولماذا "سأذهب " أليس في دار الإمارة الواسعة من يذهب معي ؟ سأصحب شواي وحاج قسي. لا حاجة لذكر سيسور إذ لا أخطو خطوة دونها. وليكن الفصل شتاء ! البرد يواتيني أكثر من الحر؛ يكفي أن ألبس جيداً. أعجيب أني هرمت ؟كانت المرحومة أمي أسنّ مني حين كانت تسافر إلى القرم مرتين في السنة الواحدة. ما كتبه الله على جبيني. والإنسان يولد في يوم واحد ويموت في يوم واحد. وبضع سومات ذهبية تكفي ذهاباً وإياباً. إن لم أفعل هذا لأجل ابني الصغير فماذا بقي لي أن أعمل لأجله في هذه الدنيا العارية ؟ سأزوره وأقابله وأجلس إليه،وسأقابل ضباطه، وسأتعرف على زملائه. سأفهمهم أن خان جري لم يسقط من السماء، وأن له أهلاً، وأنه ينتمي إلى الأديغة.

تتمشى قانتات على أرض الغرفة ورجلاها تكتسبان قوة من مسايرتها لأفكارها السريعة. وحين تصطدم فجأة بما تتوقعه ولا تستطيع الإفصاح عنه تصرخ من قلبها: إن رأيتُهم يحتقرونه ويهينونه فسأمسك بيده وأنتزعه منهم دون مراعاة لرجاء أحد ولو كان القيصرَ الجديدَ نفسَه.

صدر صوت من المصطبة، وحين رأت الضيفين القوزاقيين يدخلان إليها رجعت إلى سريرها نشيطة من تمشيها. وأصلحت غطاء شعرها الحريري، وأعادت راحتيها إلى رأس عصاها الفضية.

نهضت قانتات للضيفين منحّية العصا الفضية الرفيعة وخاطبتهما بالروسية بنبرة يظهر منها سرورها بلقياهما:

_ تفضلا يا ضيفينا العزيزين، تفضلا ! اجلسا. أنظر إليك يا بانتالي فأقول أيمكن أن يكون هو ؟ ما أشد ما كبرت هذه السنة يا ولدي ! أنت وخان جري من عمر واحد وإن لم تتساويا في الطول. وأظنه هو الآخر طال قليلاً في هذا الخريف. تعال يا بانتالي إليّ ! ذكّرتني بصغيري خان جري. دعني أمسح على رأسك ! _ وبعد أن مسحت على رأس الفتى القوزاقي ووجهه سألت وهي تعود إلى الجلوس: _ ما اسم رفيقِك الأكبر ضيفِنا ؟ عرّفني عليه !

_ هذا يا "كانيتات أسكد غريفنا"[1] ألكسي إيفانوفيتش، الأخُ الأصغر لأمي.

_ سررت بمعرفتك يا ألكسي إيفانوفيتش. استلمت قانتات المبادرة _ ما الأخبار في ناحيتكم ؟

نظر القوزاقي الأشقر الضخم إلى قانتات مبتسماً من خلال شاربيه الكثين وفي عينيه الزرقاوين الهادئتين شيء من الخبث:

[1] نُطْق غير سليم لاسمها " قانتات أسعد غريفنا " بلكنة الأجنبي. المترجم

_ الأخبار كثيرة، ولكن أسعد خبرٍ هو انتشار السلام هذه السنة خلافاً للعام الماضي.

_ هذا خبر سار يا ألكسي إيفانوفيتش. _ إن لم تكن وفاة القيصر تقلقهم قالت قانتات في نفسها، كانت تود أن تطرح هذا السؤال ولكن الضيف لم يدعها تكمل:

_ ما جئنا لأجله يا "كانيتات أسكد غريفنا "...

_ مهلاً، لحظة ! يا ألكسي إيفانوفيتش _ استلمت قانتات الحديث من الضيف _ إن لم تأتيا لسبب ملحّ فسنتطرق إليه لاحقاً. ليس من عادتنا هذا الاستعجال، أليس صحيحاً يا بانتالي ؟ أنت تعرف شيئاً من هذا.

_ نعم صحيح. _ أسرع بانتالي بموافقة قانتات باللغة الأديغية بسرعة وكأنه كان ينتظر هذا السؤال. وترجم لخاله الكلام مبتسماً له.

_ إن كان الأمر هكذا _ ابتسمت قانتات وهشّت لشواي الذي عنده فكرة عن الموضوع _ ابقيا إلى أن أسألكما، ليس كل يوم تزوراننا، لنأخذ راحتنا في الحديث ! حسناً ما أخبار أهلكما ؟ عسى أن يكونوا بخير.

_ إن كنت تسألين يا كانيتات أسكد غريفنا عن أقاربنا آل بادينكا فهم بخير. وقد أنجزوا أعمال الحقل والبستنة، وحرثوا أرضهم. وحصّلوا ما يكفي مواشيهم من العلف. ووقودهم للشتاء جاهز.

_ على ما تقول يا ألكسي إيفانوفيتش اشتغلوا مثل فلاحينا. أصلحوا شؤونهم. حسن، ليكن حلالاً!

_ إن لم تفارق اليد الأرض فلا يتعلق الأمر بالأديغة أو القوزاق؛ تكافئك بقدر ما تعتني بها.

_ صحيح _ امتلأت عينا قانتات بمزيد من الدفء وسألت بعد انقطاع وكأنها تطلب التفكير في ما قاله:

_ وأهلُكَ يا ألكسي إيفانوفيتش أهم بخير ؟

_ هم أيضاً بخير، يربّون، يعملون.

_ ليشمل الله برعايته كل من في قلبه الخير يا ألكسي إيفانوفيتش ! _ لم تنس قانتات ما يُهمها _ ما رأي الناس في نواحيكم في من سيتولى منصب القيصر ؟

_ يا أيتها المحترمة كانيتات أسكد غريفنا، حزنّا لوفاة القيصر، ولأننا سمعنا أن من سيحل محله هو نيكولاي فالقوزاق مهمومون بنواياه.

_ وهذا يُهمنا نحن أيضاً _ قال شواي الذي لم يساهم في الحديث إلى الآن.

_ على ما يبدو نحن وأنتم في موقف واحد؛ لنر ما سيحدث ! _ أنهت قانتات، ثم بعد وقفة سألت الضيف وهي تبتسم: _ والآن لماذا جئتم يا ألكسي إيفانوفيتش؛ أسمعكم _ وأنهت بشيء من العتاب وكأنها على اطلاع على الموضوع الذي سيتكلم فيه الضيوف مع شيء من الخبث: أظنكم أخبرتم شواي بالموضوع.

خفض بانتالي رأسه يغمره الخجل.

_ أخبرناه يا كانيتات أسكد غريفنا، ولكنه قال إن الجواب عندك. ابن أخي هذا سيكون عرسه السبت القادم. يسرنا أن تشرفونا، وقد أرسلنا خبراً إلى بلاد الأبزاخ، وسيكون أصدقاؤنا أسرة عمر ضيوفنا.

_ ليحقق الله الأمنيات الجميلة للذين تعاهدوا على الخير ! سررتماني. _ نظرت قانتات بعينين فرحتين إلى بانتالي الجالس مطرق الرأس خجلاً. وسألت كمن يلمّح إلى شواي: _ من المرشحة لتكون عروسكم ؟

_ إن كنت تعرفين إيفان كفيدوروفيتش كاشورا فهي ابنته. فتاة مهذبة ومن أسرة أصيلة. ونحن معجبون بها. ونتأمل أن تصبح جزءاً منا.

عصر خبر عرس أنفيسكا قلب شواي كما حدث له حين تلقى الخبر في الغرفة الأخرى مع أنه لم يكن يسمعه للمرة الأولى، ولكنه أخفى مشاعره.

_ طبعاً أعرف إيفان كاشورا _ أفصح صوت قانتات عن الاحترام الذي تُكنه لإيفان كاشورا _ إنه رجل ممتاز وحكيم، ومن أفضل الأسر التي أعرفها. كنت أتمنى لو حضرت فرحكم. كنت رأيت فيه كثيراً من معارفي. غير أني في حداد على من أنا كَنّتُهم فلن أستطيع الحضور. سأرسل إليكم شواي وصحبه. بلغوا فرحي إلى والد بانتالي ووالدته وإلى أقربائكم الآخرين. وبالرفاه والبنين للشابين العروسين.

بعدما ودع شواي الضيوف ورجع قالت قانتات بعد قليل وكأن الكلام غير موجه إلى أحد:

_ هم يؤسسون لسعادتهم وهم شباب، أما نحن فـ... ستحضرون عرسهم طبعاً يا شواي. اصحبْ قايمت وحاج قسي. ومن النساء يكفي أن تصحبوا سيسور، إنها مفخرة لكم. إياكم أن تذهبوا بأيد فارغة ! هم لا يقصّرون في مثل هذه المناسبات.سوقوا معكم ثوراً وعدداً من الخراف. وسنرسل مع سيسور بعض الأقمشة وأغطية الرأس وأشياء من لوازم المرأة.

III

لم يتسن لجثمان قيصر روسيا أن يبرد؛ كانت روحه ما تزال على الطريق وكذلك البلاد ونيكولاي الأول القيصر الجديد حين هزت الأحداث مدينة سان بطرسبورج حين هبت بعض القطعات العسكرية في وجه القيصر أمام مجلس الشيوخ في 14 كانون الأول عام 1825.[1]

" اليوم نفسه يشهد عرس أحدهم ومأتم غيره " ينطبق هذا المثل على خان جري ورفاقه وسكان بطرسبورج. ولكن اليوم الذي أجبرهم على نسيان السلطان لم يكن مثل سائر الأيام على الشاب الأديغي في المدرسة. كان ينتظر منذ الصباح بالساعة والدقيقة هذه اللحظة. ولم يكن وحده ففي يوم تنصيب نيكولاي الذي جاء بعد كونستانستين الذي رفض استلام الحكم،كان هو وإيغنات بين عدد من الشباب يمثلون زملاءهم، يساهمون في حفل التنصيب.

كان الصباح يكاد يفتح عينيه حين أفاق الزميلان:

---

[1] وهؤلاء المنتفضون احتجاجاً على تقلد نيقولا الأول الحكم بعد أخيه الأكبر كونستانتين الذي تخلى عن الحكم، وقُمعت كما في سياق الرواية والتاريخ طبعاً من قبل القيصر نيقولا نفسه،حملوا فيما بعد لقب الديسمبريين. المعجم الروسي.

_ أتنام يا خان جري ؟ صاح إيغنات.

_ لا، لا أنام.

_ ما الأمر ؟

_ ما يمنعك من النوم يمنعني؛ أننهض ؟

_ لننم قليلاً، إلى حين يقرع الجرس _ رجا إيغنات، وأضاف بشيء من الخبث: _ لنقل لزِيّنا الأديغي والقوزاقي: شكراً لكما !

اكتفى خان جري بالابتسام ولم يُجب.

_ لمَ لا تقول شيئاً يا خان جري ؟ لم يصبر إيغنات.

_ نحن الأديغة _ رد خان جري بما يشبه المزاح _ يجب أن تشكرونا، ماذا في زِيّك القوزاقي لتمدحه ؟ ألستم من لبس زينا ؟

_ نعم نحن _ لم يدعه إيفان ينتظر _ ولكننا أضفنا إليه شيئاً من عندنا.

_ أهو الغطاء الأحمر للقبعة والشريط الأحمر للبنطال ؟

_ ألا يكفيان ؟ _ رد إيفان ببراءة.

_ يكفي، يكفي، نحن مسرورون أن لم تغيروا فيه المزيد _ استسلم خان جري _ ماذا كنت تريد أن تقول قبل الحديث عن الأزياء ؟

_ لم يختارونا لأننا مهذبون وندرس جيداً فحسبُ، بل أظن أن جمال أزيائنا سبب اختيارنا.

_ أهو بوربوف النقيب من قال لك هذا ؟ كان ريفولد أوليغوفيتش لمح لي أمس كذلك.

منذ أن انتسب إلى هذه المدرسة،سأل إيغنات نفسه حزيناً: لماذا لا يطيق بوربوف خان جري ؟ ليس الشاب القوموقي شاريبوف أنور مُجِدّاً في الدراسة ولكن هذا لا ينطبق على خان جري. إنه لا يقصّر في شيء، متفوق على أقرانه. لا يبغض خان جري فقط بل كل من ينتمي إلى أعراقنا. وأنا أيضاً قال لي مرة حين كنا وحدنا " لماذا تصاحب هؤلاء العصاة ؟ " وحين لم أوافقه نظر إليّ شزراً كأني قلت له ما لا يجوز وفارقني. لماذا يقف بوربوف هذا الموقف نحو من ليس من قومه ؟

كان خان جري في اليوم الجديد الذي يُطلّ على بطرسبورج حين توقف الحديث قليلاً بين الصديقين يقارن بكل ما أوتي من تفكير بين القيصر الذي لم تقع عليه عينه وبين القيصر الجديد وإن لم يكن يسأل: كيف سيكون القيصر المنتظر. فعل ألكسندر الأول للأديغة ما فعله: أبعد الجنرالات الأشرار،وسرّح بعضهم من الخدمة؛ أينقض الأخ الأصغر ما فعله الأكبر ؟ أليسا أخوين من أسرة واحدة ؟ ولكن، كما تقول نانا، كل إنسان يتصرف بعقله هو. أليس هذا عجيباً إن فكرنا به ؟ من سيصبح قيصر روسيا لم يصل بعد إلى الثلاثين. يكبرني بتسع سنين أو عشر. ربما يكون من عمر النقيب بوربوف.

_ من ينهض أسرع ؟ ! _ ألقى خان جري اللحاف عنه وقفز. ورقص بعض الوقت بملابسه الداخلية على أرض الغرفة، ولم يتأخر إيغنات عن صديقه في الرقص. وبعد أن توقفا قال خان جري وهو يرتدي: _ لا تهتم ببوربوف ! سيقول الكثير، وإن عارضناه في كل مرة" سيجرحنا شوكه". كانت نانا تقول دائماً: "الفرخ أعقل من الدجاجة "؛ أتفهم مغزى هذا المثل ؟

_ الأصغرون سناً ليسوا مجانين إن لم يكونوا أعقل _ قال إيغنات وأردف: وقد حفظت قولاً مأثوراً آخر مما قالته جدتك " القرية كلها لا تُجنّ، والجماعة ليست كلها مجنونة ".

_ صحيح، إن كنت تقول هذا فنحن لا نتخذ من بوربوف محادثاً ولا نسمح له أن يفعل ذلك معنا. وسيظهر ما يُضمره لنا. الآن يقلدون الحُكمَ أخا القيصر الذي أتى بنا إلى هنا، سنخلص له، ولن نحيد عن العهد الذي قطعناه على أنفسنا ونحن ننخرط في الجيش. وسنصدق معهم إلى الأبد.

_ سنصدق معهم ! _ وافق إيغنات خان جري وقال كأنه يريد إقفال الحديث في هذا الشأن: _ سيكون الجو بارداً اليوم؛ تجمد زجاج النوافذ. انظر يا خان جري: ارتسمت سنابل القمح والأشجار على النوافذ، وهذه علامة خصب، صحيح ما يقولون من أن ما يرتسم على الزجاج ليلاً خلال سنة جدير بالتسجيل.

_ صحح ما قاله إيغنات، غير أنه رجع وفكر في الموضوع فأضاف: اليوم هو الرابع عشر من كانون الأول، وبقي على دخولنا في العام 1826 بضعة عشر يوماً. وسيتلو الربيعُ الشتاء، ويتلو الصيفُ الربيع..

_ أمَلَلْتَ يا إيغنات ؟ _ سأل خان جري بلامبالاة.فتح ساعة أبيه الفضية ونظر الوقت وصرح بما يقلقه مهملاً سؤاله: _ لم تتجاوز الساعة السابعة. وصباح النهار الشتائي ينفتح بكل تردد وخمول ومشقة.وفي نواحينا تعلو الشمس الآن الجبال والغابات، أما هنا فلا مكان لمثل هذه النوايا. أَسَقَطَ الثلج عندنا يا ترى؟ أبَرَدَ الجوُّ أم لا يزال دافئاً. أتَجَمَّدَ نهرُ بشزة أم لا ؟

_ ماذا جرى لك الآن ؟ _ ابتسم إيغنات _ ارتحلت إلى ديارنا تماماً. لا أعرف وضع بشزة، ولكنك تعرف أن نهر نيفا تجمد.

_ أريد أن أقول: الأفضل للأديغة والقوزاق ألا يتجمد نهر بشزة _ تنهد خان جري وعاد إلى توازنه، وما تزال الساعة الفضية في راحته فنظر مرة أخرى إلى الوقت. وذهب تفكير إيغنات إلى مكان بعيد وكأنه لا يسمع كلام خان جري.

يتعجب خان جري من أن النقيب بوربوف صار اليوم قائداً للضباط. وهذا أحد أسباب كآبته وإن أخفاها. لأول مرة يرى الطلاب بوربوف ريفولد أوليغوفيتش يلبس ثياباً أنيقة ويمتلئ وجهه بالقلق، ويشرد أحياناً، ويكتسي أحياناً بشيء من اللطف.

_ ما أشد زينة (ريفْ)[1] اليوم ! همس خان جري إلى مرافقه الشاب وهما يلجان شارع نيفا. وشخصت أمام عينيه قوات عسكرية مسلحة تتجه إلى الباب الأمامي لمجلس الشيوخ. ثارت هواجسه غير عارف سبب هذه التحركات. وبعد ما مشيا قليلاً أوقفهم جنود مشاة وفرسان مسلحون أقاموا حواجز على الطريق.

_ أين تذهب بالطلاب ؟ سأل الضابطُ الفارسُ الأكبرُ بوربوفَ.

_ إلى حيث سيتم تنصيب الإمبراطور.

_ لا تنصيب ! ثار الجيش لا يريد القيصر.

" وأخيراً ثار ! هذا خبر سارّ " صرخ بوربوف من قلبه.

_ عد بالطلاب الشباب أمر الضابط الأكبر بوربوفَ،وأضاف فوراً: _ إن كنت ستقف معنا بشخصك فتوجه إلى باب مجلس الشيوخ !

_ نعم أقف معكم ! _ لم يدعهم بوربوف ينتظرونه، ثم قال للطلاب: _ لا عمل لكم هنا، ما تزالون صغاراً في السن. اذهبوا، أكلف خان جري وإيغنات بقيادتكم.

وصل خبر القيصر الروسي إلى خان جري مرعباً. وهز رأسه المتطاول يريد أن يقول شيئاً. وتألم قلبه وهو يودع بنظراته بوربوف الذي يبتعد متخلياً عن الطلاب. ولم يعد إلى وعيه إلا حين ناداه إيغنات. ووجد أغلب الطلاب الذين معه غادروا المكان الذي أوقفوهم فيه. ولم يبق من الذين عهدوا إليه بقيادتهم إلا خمسة بمن فيهم هو نفسه _ قوداينت أنزور وكابوستينكا إيغنات وعبد الله شاريب وداور قلوبات.

_ يا إيغنات _ سأل خان جري دون أن ينسى تكليفه بالقيادة _ أين صار زملاؤنا ؟ هل تبعوا بوربوف ؟

_ لا _ أجاب إيغنات _ هاهم يركضون حيث ينتصب تمثال بطرس الأول.

_ لنذهب نحن أيضاً إلى هناك لنرى ما يحدث _ قال عبد الله شاريب.

_ يا شاريب ! صرخ خان جري. ثم استفاق فقال بصوت ألطف ولكنه يحمل نوع عتاب: _ أين ستذهب ؟ ما شأنك بمن لا يريدون القيصر ؟

_ لنذهب يا شاريب . ظهر قوداينت أنزور الآن _ لا يعني نظَرُنا إلى الجنود المتمردين أننا لا نريد القيصر. أنتم أحرار في الذهاب. واستدار فأضاف:_ اذهبوا، لا تقفوا هكذا ! سنراقبهم قليلاً ثم نعود.

_ لم أتوقع أن يكون نقيبنا هكذا _ غمغم خان جري مسمعاً زملاءه وتبع من ناداهم _ نقض عهده للقيصر _ لنذهب إن كان هذا رأيكم نلقِ نظرة عليهم، ونعود. سيَقلق قائد المدرسة غيرَ عارف ما حدث لنا.

---

[1] مرخَّم ريفولد. المترجم

ـ أتظن أنه لم يصفّ مع الجيش المتمرد ؟ ـ سأل داور قلوبات وهو يجري وراء من سبقوه. ألا ترى كل الجيش قد ثار.

ـ عند القيصر جيشٌ غيرُ هؤلاء ـ لم يقبل إيغنات ما سمعه.

ـ طبعاً عنده ـ وافق خان جري صديقه مسروراً ـ يكفي مَن في نواحينا !

لا يريدون القيصر، يطير خان جري مع أفكاره وهو يجري. ثم ماذا ينوي الجيش بعدُ ؟ من سينصبونه مكانه ؟ على ما يبدو نحن أيضاً ممن يحارب القيصر لأننا في عداد الجيش. كيف يتفق هذا والطلاب رجال القيصر؟ ! إنهم يدرّسوننا الإخلاص له ونوطيد سلطته ويربوننا عليهما، ويربطون البلاد كلها باسمه. ويغرسون فينا فكرة كونه مبعوث الله. ولكن أليس بين من يعلموننا هذه الأفكار بوربوف ؟ لم يذكره أمامنا ولو مرة واحدة بسوء. كلما نطق كلمتين وجّه الثالثة إلى القيصر. ليس ما فعله بوربوف اليوم بطولة؛ انضم إلى أعداء القيصر! مهلاً مهلاً ! ونحن ماذا سيكون مصيرنا إن خُلع القيصر ؟ أمثال بوربوف يكرهوننا، سيهاجموننا قبل غيرنا. لو كان يرمولوف في هذه المنطقة لسألته، أما الجنرال فلاسوف فلا؛ كان يتظاهر بأنه لا يراني حين يزورنا. الرجل الممتاز هو الأتامان القوزاقي ماتفييف ولكن من أين آتي به هنا ؟ أعرف إلى من أذهب ! كان قال لي قبل أن أتوجه إلى هنا. و كرر في ما كتب لي قبل أيام: ديسكاسي؛ لن أجد أفضل منه.

كان من المستحيل الاقتراب من تمثال بطرس؛ فقريباً منه وعلى باب مجلس الشيوخ والشوارع المجاورة تجمع الجيش. وعلى الجانبين مراقبون. كل ما تراه العين في أي اتجاه هو منظر القبعات. أما ذوات أغطية الرأس فنادرات.

ـ لنسمعْ يا إيغنات ما يقول هذان الرجلان ! ـ توقف خان جري.

كان رجل طويل القامة يُسمع آخرَ قصيراً بديناً:

ـ أترى هذين الجيشين اللذين يقف أحدهما بجانب الآخر ؟ في الأعلى جيش حرس موسكو، وفي الأسفل تظهر فرقة الوحدات الخاصة.وها هو الحرس البحري جاهز تماماً. ووراء تمثال بطرس خليط من الجيوش.

ـ إذن كأنه لم يبق جيش مناصر للقيصر ـ قال الرجل القصير بنبرة لا يُفهم منها إن كان راضياً أم غير راضٍ.

ـ ألا تري كل هذا الجيش الذي يجابههم على البوابة ؟ ولا يزال يخرج من الشوارع الأخرى المزيد. ويقال إنه يُستدعى من مناطق أخرى.

ـ أيمكن أن يهاجمهم ؟

ـ سيهاجمهم ما إن يتحركوا؛ لا أحد يتنازل لك عن سلطته !

ـ أنا مع مطالب المنتفضين ـ قال القصير وهو يقف على رؤوس أصابعه ـ ألا يكفي كم استعبد الأغنياءُ العمالَ البائسين ؟ !

نسي خان جري كلام الرجلين مع صوت الرمي الصادر من جهة بوابة مجلس الشيوخ والازدحام الذي سببه هذا القصف ، واختفيا كأن الأرض ابتلعتهما. وفي اللحظة نفسها جُرح الحاكم العام لسان بطرسبورج، وسُمع أنه قُتل.وتعالت بعدها أصوات القصف وصراخ الناس في البوابة. خرج خان جري وإيغنات من الحشد الفائر مسرعين وركضا إلى المدرسة غير عابئين برفاقهما.

بعد أن عاد طالبا المدرسة اللذان شهدا نهاراً بارداً ثقيلاً وأويا إلى الفراش قال خان جري:

_ لم أشفق كثيراً على الذين قُتلوا على بوابة مجلس الشيوخ والذين أُغرقوا تحت جليد نهر نيفا؛ ما رأيك أنت؟

لم يعلّق إيغنات.

_ أراك يا إيغنات تصامت؛ هل أنت نائم ؟

_ لا، الأفضل ألا تظلم الضحايا يا خان جري، حرام !

_ ألم تسمع ما كانت جماعة بوربوف تريد ؟ _ أزاح خان جري المخدة وجلس في الفراش _ أليسوا هم ظالمين ؟ أيسلبوننا أرضنا ويعطونها للفلاحين الذين لا أرض لهم ويحررونهم هكذا ؟ ! لماذا تضحك يا إيغنات ؟

_ لأن أسرتنا لا تملك ما يسلبونه منها _ ما نستثمره لا يتعدى ديسياتينين[1] .

_ ماذا تريد أن تقول بهذا ؟

_ لا أحقد على أحد بل أقول الحقيقة. لا نطمع،كما قال أبي، في أرض أحد. ومن وجهة نظر أخرى، كما يقول القوزاق، فأرض البلاد نحن أصحابها.

_ عجيب لم يكونوا يريدون القيصر ؟ _ لم يتراجع خان جري _ وعجيب كيف يريدون إزاحته من منصبه؟ ألم يقتلوا من جاء ناصحاً لهم ميلورادوفينك ؟

_ أوافقك في هذا، كيف تكون دولةً وليس لك سلطان ؟

_ صحيح يا إيغنات لا دولة بلا حاكم _ تذكر أنه ليس للأديغة سلطان فقال خان جري خجلاً _ اليوم فهمت أننا يجب أن نخلص لقيصرنا _ تنهد وقلبه باتجاه بلاد الأديغة، ثم قال لنفسه مُسمعاً صديقه:

_ سيقلق أهالينا إن سمعوا، سأخبرهم غداً بالتأكيد.

IV

السلام الذي كان قائماً بين منطقتي الأديغة وقوزاق نهر بشزة لم ينقضه أحد الآن ولو من قبيل القلق. ومع أن ذرائع تقويضه كانت في كل ناحية فالخطوة الأولى التي خطاها القيصر الجديد لروسيا نيكولاي الأول في ساحة مجلس الشيوخ في بطرسبورج، وكيفيةُ تهدئة عواقب هذه الحادثة، لم تكونا سهلتين.

[1] الديسياتين: وحدة مساحة تساوي 1.6 هكتار. المعجم

كانت تركيا العثمانية من بين الجهات المرتاحة لما حدث في البلاد من فتنة غير منتظرة. ولم تكن وحيدة فمعها انجلترا وحلفاؤها التي تقاوم توطيد روسيا نفوذها في ما وراء بحر قزوين. وفي سنوات 1812 _ 1813 قبل أن يهاجم نابوليون روسيا، وحين كان يحاربها، لم يكن الفرس والترك الذين غلبتهم روسيا بالترتيب راضين عن الهزيمة التي لحقت بهم. وكما كانوا يسمون أنفسهم " الدولتين المهانتين "، لم يكن عندهم همّ إلا التأليب على روسيا والتشجيع على شن الحرب عليها.

ولم تقف روسيا مكتوفة الأيدي ولا القيصر الروسي الجديد. وكان مفهوماً منهما علاقةُ ما يجري في شرق القفقاس بما يجري في شمالها، ومعنى ما يجري. وإذا رجعت ربع قرن إلى الوراء فإن شمال القفقاس التي لا تملكها روسيا كان الآن أكبر عثرة في طريق حماية (غروزي) التي تحالفت مع روسيا بإرادتها، وتوطيد حكمها هناك واستقرارها. وإن عبرتْ نهر الدون فأول ما تصطدم به كانت منطقة الأديغة غير المعروفة من روسيا، ابتداءً من البحر الأسود إلى حدود أرض الشيشان والداغستان.

إنَّ تغيُّر القيصرِ الروسي، والدمَ الذي سال في هذه المناسبة،سمحا لحسن باشا الذي وضعه الأديغة في العام الماضي في مأزق أن يرفع رأسه. ومنحته الحرب التي نشبت بين روسيا وفارس في هذا العام 1826 في الجانب الشرقي للدولة حجة ليقول وليفعل ما يشاء. وكان يعمل بجد، مسلحاً بخبثه وحذره، لتحقيق المهمة السرية التي أوكلتها إليه حكومته وهي تقويض السلام الأديغي _ القوزاقي.

قال حسن باشا الذي ينضح جسده بعرق الصيف: لا ينسى الإنسان أحزانه وأحقاده في سنة أو سنتين. حتى الجرح يعود ويؤلم صاحبه أحياناً بعدما التأم. بقيت نساء سقط أزواجهن، وأطفال فقدوا آباءهم. وهؤلاء لا فرق بين يومهم وغدهم. إن نوَّلتهم ذريعةً ما أو مَمسكاً فما أسهل أن تثيرهم !

يمسح حسن باشا راحتيه المبلولتين على وجهه الأحمر الممتلئ وعلى جبينه الناتئ كيقطينة.ولأنه جالس منذ مدة تحت الشجرة التي يلعب تحتها هواء دافئ،فاتحاً زراً إضافياً من قميصه الذي يبرز منه شعر صدره الأسود، فقد كان يرغب في النزول مرة أخرى في البحر؛ غير أنه تراجع أمام الشمس الحارقة. هاجمته أفكاره مرة أخرى وهو يُهوّي لنفسه بالمهواة الملونة النسائية التي يتحرج منها. _ لا يُبقي شيئاً لا يصل إليه. كان في إستانبول. وتذكر ما قاله له السلطان التركي مع شيء من الفوضى. وجلس في السراي مدة وقد اختلطت عليه النساء الصبايا اللواتي كنّ في حضنه. ورغم أنه منذ زمن بعيد لم يعد يجد متعة في الزوجتين الأولى والثانية من نسائه الأربع فقد ارتسمت في عينيه النساء الأديغيات.ونهضت من بينهن بسرعة المرأة الأديغية التي جلبها له بامبت قبل عامين بثلاث سومات ذهبية، وجعلته يتنهد سعيداً. لم يجد امرأة ترضيه أكثر منها بين النساء خلال خمس وخمسين سنة. كانت صبية جداً ولم تسمح له أن يمسها إلا بعد أكثر من شهر.ثم بالملاطفة وبالذهب الذي أهاله عليها تمكن منها في إحدى الليالي الطويلة. وبعد أن احتفظ بها في قلعة أنابه نصف سنة بعيداً عن الأنظار خوفاً من أن يلاحق أهل الفتاة أثرها أرسلها إلى امرأته الأولى. ثم استدعاها من إستانبول بعد سنتين.

_ انظر ! _ صفق حسن باشا براحتيه السمينتين فجاءه أحد حراسه _ هاتوا لي أصغر وصيفاتي بعد أن تكسوها كما أحب... _ ثم ضحك بصوت لم يسمعه مراسله _ سأروّح عن نفسي !

جيء إلى حسن باشا بامرأة شابة جميلة ترتدي ثوباً حريرياً شفافاً تبرز منه حلمتا نهدين مستديرين متينين وسُرَّةٌ، بل يمكن أن تلمح ما تحته في مكان أخفض. فسأل بلامبالاة ظاهرية وهو يمسح العرق عن جبينه بمنديل ناصع البياض:

_ أتشعرين بالحر يا خانية ؟

_ نعم يا شمسنا المنيرة.

_ وماذا إن كان الجو حاراً يا حلوتي ؟ لم تُسمعيني ما يُفرح قلبي.

أجابت خانية وقلبها يرتجف من كلماته ولو أنها اعتادت سماعها:

_ دِفْءُ قلبي نحوك أيها المبجل أحرُّ من الشمس !

_ أسعدتني يا خانية، أسعدتني _ بدا من صوت حسن باشا ومن لونه أنه مرتاح لها _ هكذا على المرأة أن ترضي الرجل. أكتشف فيك دائماً شيئاً لم أتوقعه. وترفعين أملي وتطيلين عمري _ وحين رأى الحارس صرخ: _ وأنت لماذا تقف يا عديم الإيمان، اغرب من وجهنا ! وأصحابك أيضاً !

وبعد ما انصرف الحراس سأل حسن باشا مرة أخرى بصوت لطيف:

_ ما رأيك يا حلوتي في ما قلت ؟

_ يا شمسنا المنيرة لا يجوز لأحد أن يطلع على ما بين الرجل والمرأة من أسرار !

_ من علمك هذا الكلام الجميل يا حلوتي ؟ _ سأل والنفاق غالب عليه.

_ كله من عندك يا شمسنا المنيرة !

ليس أسهل من خداع الرجل، قال حسن باشا وقلبه يتفتت ووجنتاه تفضحان. انظر ماذا تفعل بي حتى هذه الصغيرة. يمكنها أن تصرع أقوى الرجال في مجلسه، ويمكنها أن تنسيك أحب الناس إليك. كل النساء يشبهن القطة الماكرة يدفعنك إلى الجنون بأن يتمسّحن بك ويتلطفن ويوشوشن. فتصبح مطيعاً كالخاتم في الإصبع. لو استطعت أن أدسَّ هذه المنحوسة الصغيرة إلى حريم السلطان لاستطاعت أن تنسيه، ولو مرة، امرأتَه الأثيرة التي تقف دائماً حجر عثرة في طريقنا. ولكن أنا ؟ من أين آتي بامرأة تنفس عني وقت الحاجة،تمتعني متى أردت ؟ أسعدَني بامبت، لِيُسعدْه الله ! لن أكتفي بحجبكِ عن السلطان فحسب بل لن أدع عين لابس قبعة تقع عليك !

_ إن كان هذا رأيك يا حلوتي _ قال حسن باشا وهو يبتلع لعاب الشهوة _ حلّي حزامك وأسقطي عنك ثوب الحرير.

تفك خانية زنار الحرير متمهلة وهي تداعب الرجل البدين الجالس أمامها، ويبدأ جسد الأنثى العاري يظهر من خلال الثوب الذي ينفرج.

_ لا تستعجلي ! لا حاجة إلى أن تفتحي الثوب. نعم يا حلوتي، تسعدينني ببشرتك البيضاء الجميلة، تروّحين عن قلبي. سينفرج ثوبك من تلقاء نفسه. لا شيء يعز عليك مقابل ما تسعدين به قلبي وتخرجينني من وحدتي... الآن تعرّي وانزلي في الماء، وسأتبعك.

_ لا تنظر إليّ ! قالت خانية حين خلعت الثوب شاعرة بالإهانة لما جعلها تفعل.

_ لا أستطيع يا حلوتي، هذا المطلب بالذات... هذا أحد أفراحي.. _ لاحق المرأة العارية بلعنة الشهوة وقال لها:_ وأنت لا تنظري إليّ وأنا أنزل إلى الماء، لا أحب هذا !

" أفيك ما لم أره يا من لا حياء له ؟ " _ صرخت خانية من قلبها، ونزلت إلى الماء غير عابئة بالرجل الذي يتبعها مترجرجاً. ورغم دفء الجو والماء فقد سرت إلى جسمها برودة الجسد الضخم الذي يزحف نحوها.

وفي اللحظة نفسها صرخت:

_ من هذا الذي ينظر إلينا ؟

كان بامبت على الضفة غير العالية قريباً جداً منهما يسمع ما يقولان ويرى ما يفعلان.

_ يا عديم الإيمان، أي عيب تفعل ؟ تراخى حسن باشا جافلاً مما لم ينتظره؛ صرخ غاضباً على الرجل الذي أوقفه في منتصف متعته؛حتى إنه كان مستعداً لأن يرميه لو كان يحمل مسدساً _ اغرب عن وجهي!

" إن كانت المشكلة في رجولتي... ؟ ! " ابتسم بامبت بمرارة، وانصرف خافض الرأس.

_ ارجع ! _ سبح حسن باشا إلى حيث يقف بامبت ناسياً خانية _ لي حديث معك، هيا ائتنا بملابسنا!

قال حسن باشا لخانية وهو ينصرف ملقياً ثوبه العريض على كتفيه:

_ عودي إلى البيت !

سأل حسن باشا بجدية حين ارتاح تحت شجرة الجوز:

_ كيف حدث أن فاجأتنا ؟

_ لا تسألني عن طرقي السرية ! _ سرت ابتسامة حزينة على وجه بامبت الأسمر _ لن أكشفها. تعرف أني يمكن أن أدخل قلعتك ولو احتطت بمئة حارس. لندع الكلام في هذا ! ليس مهماً كيف وجدتك _ حديثكما قادني إليكما. لم أر ما لا يفعله الرجال والنساء، يا حسرتي أنا مَن حُرم منه.لم يكن في ما رأيت شيء عجيب باستثناء أن البحر كان فراشكما.

_ نعم يا بامبت. أفهم ما فعلوه بك. ومع ذلك كان الأفضل ألا تذنب بحقنا. كنت قلت لحرسي أن ينصرفوا عني وليس أن يحبسوا أنفسهم في الغرفة. _ تظاهر حسن باشا بالضحك _ لن تعدم في هذه القلعة من يفهم هذا. لا مشكلة، دعنا نسمع الأخبار. منذ زمن بعيد لم نسمع شيئاً عنك. أين كنت وكيف تعيش ؟ أما كنت في القبرتاي ؟ ماذا يقول هؤلاء ؟

لن يحدث في بلاد الأديغة ما لا يعرفه هذا الممتلئ بطنه شحماً. قال بامبت في قلبه. يهتم بالمكان الذي كنت وما يحدث فيه. لولا مصلحته لما آلم طرفَ ظُفْره من أجلنا. يجعلوننا نحارب مكتفين بفرك راحاتهم. ها أنت الآن في البحر تعبث مع صبايا الأديغة. تقول لي إني أذنبت بحقك.. أعرف ما تستحق _ طعنة واحدة فحسب ونتساوى ! ولكن لِمَ أفعل بك ذاك وأنا أحتاجك ؟ موعدنا في وقت آخر مع هذا !

_ والله يا حسن باشا لا أعرف كيف سأروي لك ما تسأل عنه _ قام بامبت من بين أفكاره وأحزانه _ القبرتاي في هرج ومرج، قلقون بسبب الحرب الروسية _ الفارسية، ربما لأنهم أقرب.

_ ونحن لسنا بعيدين عنها. تزكمنا رائحة حريقها حتى ونحن هنا. إن انتصر الروس هناك وصلوا إلينا نحن.

_ من " نحن " سأل بامبت _ أنتم أم نحن ؟

_ إن قلنا هكذا أيها الضيف مزقَنا الأعداء. لا تسمح لمثل هذه الأفكار أن تستولي عليك!

_ أتريد أن تقول إننا، الترك والأديغة، متحالفون ؟ لا يتوقف قلب بامبت الأديغي.

_ نعم أيها الضيف، نعم، نحن معاً ! ألسنا نعتنق ديناً واحداً ؟ أليس الله يُظلنا معاً ؟ أليست أقوالنا وأفعالنا واحدة ؟

_ أوافقك في موضوع الدين والله العظيم _ قطع بامبت خطاب حسن باشا _ ولكن " أقوالنا وأفعالنا وتحالفاتنا "كما يقول شاب من الأبزاخ صعب تمييزها حتى لو كنت قرأت " الكتاب ".

_ أتتكلم على تازه أديغ ؟ لن يصبح هذا إنساناً ! لا تصاحبه ! ستدمر نفسك مع من لا يعرف إلا الأديغة. حسناً _ ونظر نحو الغرفة _ هاتوا الغداء، ضيفنا وصل للتو من السفر _ وبعد لحظة صمت بينهما قال حسن باشا: _ لا أظنك جئت إليّ تتسكع؛ أفصح عما تريد !

_ كل ما في الدنيا جدير بإقلاقك. ولكن لا أستطيع أن أشغل رأسي بهمومكم السامية أنتم، مواطني الدول، مقلّباً النظر فيكم. أنا ألحق موضوعَ شخصي فحسبُ. لا تدَعُني الإهانة التي ألحقتها بي عجوز آل سلطان أهنأ بعيشي منذ سنة ونصف.

_ أفهم يا بامبت. ولكن كيف يمكن أن أساعدك في هذا الموضوع ؟

_ يكفيني أن تتفهمني. كان لي صديق اسمه قغزج وينادونه بفوق إن كنت تتذكر ؟

_ وكيف لا أتذكره ؟ ! رفع حسن باشا فجأة رأسه المغطى بالمنديل الصغير _ ماذا جرى له ؟ هل مات ؟

_ أبحث عنه منذ أكثر من شهر. ولا أجده في أي مكان.

هكذا ! ظننت أنك أتيتني بخبر مزعج. إن كان الأمر هكذا فلا تهتم، أنا أنتظره بين اليوم والغد. إنه شاب شهم مغامر. أنت حوَّلَك أعداؤك إلى شخص لم يعد يهمه شيء في الدنيا ولكنك لست وحدك فهم أعداؤنا أيضاً. إنه يستقل ما يراه في الدنيا ويعتبر ما يجده فيها حظاً. أديغ تازة الأبزاخي لا يساوي ظفراً من قغزج. لا أعرف يا بامبت إن كنت صادقت أديغ فأسيءَ إليك.

ـ والله ما قلتَه عن بفوق عجيب ! ـ ابتسم بامبت ثم أضاف بعدما تظاهر بأنه دقق التفكير: ـ ما الذي يجعل من تازة صديقاً أو صاحباً لي ؟ أصدقاؤه وشركاؤه في أفكاره آخرون: شواي وعمر وبشه ماف. ولكن إن كان ما أسمعْتَني عن بفوق صحيحاً فما كنت أصدّقه لو سمعته من غيرك؛ إنه أعجب من العجيب.

ـ لا أتحدث عن وهْمٍ. أفكاره وملاحظاته مهمة. وإن سألت عن شهامته فليس من الذين يتركونك وحيداً في الميدان. ولا أحاول مقارنته بمن ذكرتهم لي...ـ ثم أنهى بعد قليل مرتاحاً: ـ لن يقول أحد إني لم أتعامل معه في خلال السنة والنصف الماضية.

ـ يسرني ما تقول يا حسن باشا. إن كنتَ عقّلت صديقي الشاب... بقي فيه أيضاً شيء مما غرستُه فيه.

ـ يمكن أن يكون فيه شيء مما غرزتُه فيه ومما غرزتَه أنت. وسأل بهيئة لا مبالاة وهو يهوّي لنفسه: لا أظن أن سبب مجيئك إليّ هو بحثك عن بفوق فحسبُ. قل دون مقدمات !

ـ صدقت ـ ابتسم بامبت ـ ولكن ليس هذا وما تسببتْ لي فيه عجوزُ آل سلطان السببين الوحيدين. أنا مهموم بارتخائنا في موضوع القوزاق؛ ألا يكفي ؟ أنا جاءتني مصيبتي من تلك البلاد. وأنت لا يزال منظر إهانتك على ضفة نهر بشزة ماثلاً أمام عينيّ. غيّروا قيصرهم. وآن الأوان لنعرف ماذا ينوي لنا قيصرهم الجديد. سيسوقون بعض جيراننا القوزاق إلى حرب فارس. لا تظن أني وحدي صاحب هذه الأفكار. كثيرون مهتمون لهذا. ثم أظنك لا تعرف أن قوزاقيَّ آلِ سلطان خان جري عرّج على بيته وهو متجه إلى حرب الفرس. يقولون إنهم سيعقدون اجتماعاً كبيراً يوم الجمعة القادم في الشابسغ.

ـ أراك أيها الضيف مهموماً بأمور كثيرة ـ مع أن حسن باشا كان مرتاحاً لكل ما سمع فإنه قال متظاهراً بعدم المبالاة: ـ فهمت أن الشابسغ كانوا بحاجة في السنتين الماضيتين إلى أمثالك.

ـ في الشابسغ من هو أعظم مني رجولة يا حسن باشا.

ـ لا أقول العكس، بل أخبرك أنك واحد منهم. لا تتخلَّ طوعاً عما ينسبون إليك من رجولة. يكفي كم تركوك، بشكل لا يتناسب مع رجولتك، خلف الأدعياء. افعل ما تراه مناسباً دون التفات إلى الوراء ! أنا وأنت يا بامبت لا يعرف أحدنا الآخر اليوم فحسبُ، سأجد لك من يسندك ومن يذكرك بالخير؛ إذن لا تفكر ! ولا تكتمني القليل من الوساوس التي تعتمل في صدرك. وسأوصل إليك ما تحتاج من نقود. وسأقول لك شيئاً لم تنتظره فافهمني ! أعرف، وقد قلت لي هذا قبل قليل، أن من الصعب أن ينسى الإنسان الإهانة، وزماننا الآن ليس المهم فيه إهانة شخص بل إهانة الآلاف من الأديغة. أعرف أخبار خان جري آل سلطان. وتصلني أخبار عجوزهم وشواي وما يقولون وما يفعلون. ولكن هؤلاء ليسوا مشكلة الآن.حين يُنقض السلام الأديغي ـ القوزاقي، أتسمع أنه ليس لي سر أخفيه عنك، سترى أن من ألحق بك الإهانة سيُباد. وقد تقول لي: أين كنتَ لو لم آتِ إليك بشخصي ؟ ولكني أقول لك إن الموضوع ليس هكذا ـ منذ هذا الربيع كلفتهم أن يبحثوا عنك، وإن سألت قغزج أخبرك. وصلت في الموعد

المناسب للاجتماع الكبير للشابسغ المقرر يوم الجمعة. فشاركْ فيه ! وسيوافقك كثيرون لأن بين المجتمعين كثيرين تكلمت معهم. وسيكون بينهم من لا يوافقونكم. لا تتراجعوا ! ظهرت نوايا القيصر الروسي الجديد من تصرفاته الأولى؛ إذ لم يكفه الدم الذي سفكه في بطرسبورج[1] فبدأ بمحاربة الفرس. لا شك في أن من يحارب على هذا البعد لن يتورع عن احتواء الأديغة. فإن لم تُظهروا للقيصر رجولة الأديغة فسيتسلط عليكم تماماً. لم تحصلوا منذ مدة على فرصة مناسبة كاليوم إذ الجيش القوزاقي الآن في حالة ضعف.

ما أكثر ما طال حديثه ! كان يمكن أن يقول هذا كله في كلمة. ابتسم بامبت في سره وإن كان يهز رأسه متظاهراً بالإصغاء إليه. لم يكن هكذا قبلُ فماذا حدث له ؟ يبدو أن القيصر الجديد أرعبهم. هذه دولة عظمى قد تعرف ما لا نعرف. ولكن،كما قال توغوظقوه قازبك، لا تتعلق حريتنا بحريتهم. كان الأفضل من كل هذا الحديث لو سلّمتني هذا المال الذي تحدثت عنه.

_ أفهم يا حسن باشا. أفهم ما تريد قوله. ولكن كما يقال: " إن لم تثمر فالجدبُ " لو أعطيتني بضع سومات لأن أوضاعي الحالية ليست جيدة. ألا نخدم تركيا بما تريد ؟ !

_ هذا شأنكم أنتم، ما علاقة تركيا بالأمر ؟ _ سأل حسن باشا غير أنه تراجع عن كلامه متعجباً مما يطلب مجالسه: _ لا أكتم، لو لم يكن للترك مصلحة في بلاد الأديغة لما كنا نحن في أنابه. ولما استدارت روسيا إليكم، انظر ها هي الآن تحارب فارس وتسفك الدم !

_ وما شأني أنا بهؤلاء يا حسن باشا ؟ سرت ابتسامة ظالمة من بين أسنان بامبت الصفراء على وجهه الأجرد المستطيل. ثم تابع بصوت ناعم وحازم: _ لا تشكَّ في أن كلامك مقبول لدي بعد أن تضع النقود التي طلبتها أمامي !

_ سأعطيك نصف السومات الثلاث.

_ إن لم يكن بمقدور تركيا أكثر منها فأنا راضٍ.

سأل حسن باشا الخادمة التي جلبت المائدة:

_ أين خانية ؟

_ ما تزال عندك؛ لم تعد يا شمسنا المنيرة !

_ ها ؟ _ ارتعب حسن باشا _ لماذا لا تزال إلى الآن في البحر ؟ أخرجيها فوراً !

وما إن انصرفت الخادمة حتى مزق صوتها الشاطئ. وهبّ بامبت وحسن باشا إلى الضفة فرأيا الأمواج تروح وتغدو بالجثة العارية:

_ يا حسرتي ! ماذا جرى لك _ تساقطَ صوتُ حسن باشا.

[1] إشارة إلى ضحايا انتفاضة الديسمبريين. المترجم

كأن المرأة الصغيرة لم تتحمل الإهانة، قال بامبت، وأضاف ومنظرهما قبل قليل ما يزال في عينيه: لم أتجرأ يوماً على ما فعلتْ بنفسها.

V

ارتدى بامبت من الرأس إلى القدمين ملابس اشتراها من سوق (بْشِدَه). ولم يحرِم الحصان من السومة الذهبية التركية فأهداه سرجاً. وحين خرج من السوق وأصبح على طريق الجبل اختبر مقعد سرجه في غلوتين أو ثلاث.

هكذا يجب التصرف مع الأتراك ! ضحك بامبت في سره. لنخدعهم نحن أيضاً ولو مرة ! ولا يعطِني السومة والنصف التي تركتها عنده إذ وجدت حاجتي في السوق ! ولكن إن وقفتُ في وجه الاجتماع فلن أحيجك إلى ما يقال في موضوع القوزاق. وفي كل الأحوال لن أقف متستراً وراء قبعة أحد الحضور، سأساهم فيهم بكلامي وبفعلي.. ماذا تقول ؟ أسيسخرون مني قائلين: ليس إلا صاحب عُثْنون " سكسوكة " ؟ أآخذهم معي إلى مغازلة البنات وأنا أقول " أفي الدنيا من لا يلمزونه ومن لا يطلقون عليه إشاعة " ؟ حين عشتُ مع الهاربين من العدالة القبرتاي والبسلني لم يشكّ فيّ أحد، ولم أضعهم في مثل هذا الموقف. كما تَعرِض نفسك عليهم يحكمون عليك. أعجيب إن شاع خبري هنا ؟ وهذا يتبع من يذيع الخبر. إذا كان آلُ سلطان أعداءك فما أكثر ما يشيعون عنك ! من كان حاضراً إلا قايمت حين مدّ حاج قسي اللعين ملقطه بين فخذيّ ؟ فعلتُ خيراً إذ لم أقتل هذين القبيحين في غمرة غضبي لإهانتي؛ إذ كنت سأثير شكوك الناس.لماذا هِمْتُ على وجهي؟ لأن شواي كان يلاحقني. الآن أعادتني رجولتي شاهدةً على أني لا أحمل عاراً. همز بامبت حصانه بعقب رجله وحثّه بصفيره وصياحه.

حين وجد حصانه يجري على مرتفع أبنه كانت الشمس تتوسط السماء. وكان القادمون إلى المناسبة مجتمعين في طرف الغابة ليس قريباً ولا بعيداً، والناس مبعثرين في العراء دليلاً على أن الاجتماع لم يبدأ، والفرسان والمشاة يتوافدون من طرق مختلفة.

_ الله أكبر،...رسول الله... _ وصل إلى بامبت صوت المؤذن يدعو صلاة الظهر.

_ ماذا يؤخرك يا زعيم الخير ؟ _ قال له أحد الفارسين الآتيين من الخلف _ سيبدؤون اجتماع الشابسغ مع صلاة الظهر. إن كنت متوضئاً فاتبعنا !

لحق بامبت بالفارسين بين إدراك لهم وتأخر عنهم. وبعد ما مشى قليلاً انعطف باتجاه نهر أبنه. وجلس بجانب عجوز حلق شعره حديثاً يتوضأ. فخلع نعليه، وشمر عن ساعديه، ولمّ أطراف الكساء في النطاق.

قال العجوز بعدما توضّأا واستعدا للانصراف:

_ يا أخي الأصغر، ذاك البيت المسقوف بالقش بيتي.توضأت هناك غير أن الشيخوخة اللعينة مَسْكَنَة. نقضتُ وضوئي دون وعي؛ وأنت ؟ أظنك تأتي من مكان بعيد. من أين أنت يا أخي الصغير ؟

ـ أنا قادم من بعيد يا كبير ـ قال بامبت أظنني وقعت في يدي عجوز ثرثار ـ أنا من جنجه بسنه، وقادم من الغزو.

ـ قلت إنك من جنج بسنه ؟ أنت من بلد شروخقوه توغوظ، كنت أريد أن أسألك لماذا لا ترافقه؟ ولكن إن كنت قادماً من غزو فقد أغنيتني عن السؤال. شروخقوه توغوظ أحد الذين سيترأسون اجتماع اليوم. أراك تركب ؟ ألست أديغياً حتى لا تمشي معي هذه المسافة الصغيرة ممسكاً لجام الحصان؟ ألست أصغر مني ؟ ما اسمك يا أخي الأصغر ؟

ـ ـ إن كنت سمعت فأنا بامبت، شابسغ بامبت.

ـ يا للعجب، أيمكن ألا أسمعه ؟ صرخ العجوز ـ يا للحسرة جعلتني أخطئ في وضوئي.. لا بأس، لا نزال على ضفة النهر؛ ألستَ يا أخي الصغير من قالوا إن عجوز آل سلطان أمرت بخصيه ؟

ـ أنا إن كنت تصدِّق يا كبير.

ـ لو كنت أصدِّق لما سألتك. أكنتُ أدعك تقول عني:(نَشَمْقوه بَشْ)المجنون ؟ حين وصلَنا خبرُك ضحكنا فحسب ولم يصدّق أحد.

ـ شكراً يا بَشْ، افتديتني. سأنتظرك ريثما تتوضأ.

ـ يمكنك أن تنتظرني وإن لم تفعل فلن أعاتبك. سأعود حالاً يا أخي الصغير، ما أسرع ما أتوضأ !

هكذا ، قال بامبت في نفسه وهو ينظر بعين الرضا إلى العجوز الذي يتوضأ، يجلب إليك الناس العار. وهكذا يعيدون إليك اعتبارك. أنا هربت كالمجنون وقضيت وقتي إلى الآن أحل ضيفاً على من يخرج دخانٌ من موقده. أقول هذا ولكن لو لم أفعل لما أبقاني شواي حياً.يا ربي إن عثر عليّ في الاجتماع ؟ وماذا سيفعل شواي في اجتماع الشابسغ وهو العاجز عن حل مشكلات القوزاق ؟

ـ أقول يا بامبت ـ قال العجوز بعدما أنجز وضوءه: ـ ألا يجوز أن نصلي الظهر هنا ؟ أمن الضروري أن نذهب إلى هناك ؟

ـ ولماذا لا يصح يا بش ؟ هاهو الاجتماع يكاد يبدأ الصلاة.

ـ إذن ضع كساءك ! ونهض العجوز حذراً ـ سنصلي كأننا معهم وإن كنا بعيدين قليلاً عنهم. أنا لا يمكنني أن أنحني، ليغفر الله لي، لا تقلدني !

ـ أتكون الصلاة ثقيلة عليك يا كبير ؟

ـ لا، لا. قطع العجوز الخائف على سمعته كلام بامبت ـ لا تجعلني أخطئ في هذا، ولا تحمل إصري ! لست طريح الفراش ولا عاجزاً عن الحركة، لن أتخلف عن كل هؤلاء الرجال. وسأقف في حضرة الله طاهراً وإن صليت واقفاً.

حين أنهى نشمقوه بش صلاته قال وقد رجع إليه لونه:

_ الله تفهّمَني فسمح لي أن أنهي صلاتي. أتعرف ماذا يحدث لي يا أخي الصغير ؟ ربما لم يكن أحد يضبط حاجاته الطبيعية مثلي. ولكن حين يطعمونني شيئاً من اللحم مع مهروس الدُخن أو الذرة الصفراء يتحرك عليّ بطني.

_ ألا يمكن أن تتجنبهما ؟ سأل بامبت الذي يبحث بين أعشاب الضفة.

_ وأي عيشة سأعيشها إذن ؟ لا أستطيع أن أنظر إلى أي شيء يُصنع من الحليب دون أن يتحرك بطني. كرّهتُ عجوزي ومن معي في البيت حياتهم.

_ تعال يا بش قليلاً ! _ صاح بامبت وهو يخلع نبتة لها زهر أبيض غزير _ لا تيأس ! اشرب من مغلي هذه العشبة المرّة، زهرِها وجذرِها ! ستشفيك.

_ وهل تشفيني هذه ؟ !

_ الشافي أولاً الله ثم العشبة. نفعَتْني أنا أيضاً في وقت من الأوقات.

_ الله الذي لا إله غيرُه هو من ساقك إليّ يا بامبت. إن نفعتْني فليس في الدنيا ما أمسكه عنك. سأضيفك أنت وأصدقاؤك سبعة أيام بلياليها. وماذا تود أن أكرمك به قل لي !

_ بعد أن تستفيد منه يا بش، تعال؛ بدأ الاجتماع.

ماذا سأفعل في هذا الاجتماع ؟ فجأة دخل الشك قلب بامبت. سأذكّر بنفسي من نسوني، وسيتبعني من لا يعرفونني بنظراتهم. وأجعل خصومي يبتسمون ساخرين،وأعدائي يستنفرون سلاحهم. ماذا سينفعني بعد الآن الترِكُ والقوزاقُ والأديغة ؟ وهذا الذي معي لماذا أتركه يُصمُّني وأنا ممسك بلجام حصانه ؟ أيشتعل الموقد الذي أطفأتَ ناره إن رميتَ فيه جذع حطب ؟ ما الفائدة في أن أخالط هؤلاء وأحدهم ينقض كلام الآخر ؟ حين رأيت نفسي مع بعض المجرمين الفارين من البسلني تركتهم إذ لم أجد عندهم راحتي فيممت شطر القرشاي. كيف تندمج مع من لست من عِرقهم ؟ حتى حين توجهت إلى القبرتاي لم أرتح إليهم مع أني منهم. ومن رجعت إليهم ليسوا أحسن ممن لم أجد الراحة معهم. يعيشون دائخين لا يعرفون أين يديرون رؤوسهم.

_ أتريد أن تقول شيئاً يا أخي الصغير ؟ سأل بش.

_ لا يا كبير !

_ حسناً إذن، حصانك يتفاهم معي أفضل منك وإن كان أعجم. أما أنت فكأني أراك التزمت الصمت. حين أرى جمعاً كبيراً من الناس أصاب باليأس؛ لا بأس في هذا ولكن عندما أعود وأفكر فالأفضل أن تكون جمعاً من أن تكون فرداً فأفرح من جديد. إن أردت وإن كان سمعك ثقيلاً اقتربنا من زعمائنا. وإن لم توافق فما يزال سمعي حسناً؛ نقف هنا _ العجوز يقول ما يريد دون اهتمام بصاحبه _ انظر إلى زعمائنا؛ إن وجوههم وجوه أبطال، وأجسادهم قوية، ومصدر أمل.

حين دخل خورلوقوه مرجان ساحة الاجتماع سكت الجمع:

_ ليغمرْكم الله برعايته ! أفتتح اليوم، بعد استئذان كبارنا في السن، الاجتماع الكبير للشابسغ الذي أتأمل أن يكون شعاره الرجولة والفهم والتفاهم. _ بدأ المنادون يرددون صوت مرجان ويوصلونه للأباعد _ موضوع اجتماعنا اليوم قضية الشابسغ، وبمزيد من الاختصار: العلاقات بين الأديغة والقوزاق. كان بيننا في العامين الماضيين سلام رغم بعض الاصطدامات أحياناً. ومنذ الخريف الماضي أصبح لجيراننا القوزاق قيصر جديد. وما إن استلم الحكم حتى شن حرباً على فارس.ليس من واجبنا الكلام على ما يجري في بلاد لا ننتمي إليها،ولكن إن لم تكن نوايا الجار صافية فما أسهل أن يحاربك، أي أن يستخفَّ بك. وظهر أن بين زعماء مجامع الشابسغ آراء مختلفة في هذا الشأن؛ سنستمع إلى هؤلاء، وسنرى إن كانوا يستطيعون إقناعنا. أفتح ساحة الاجتماع لمن سيتكلمون، ولكن أذكّر مرة أخرى، كما اعتدنا في اجتماعاتنا، بأن المهلة الممنوحة للمتكلم هي من ثلاث إلى خمس رميات للقامة إلى الأعلى.

_ عندي سؤال أيها الزعيم المبارك، سأل أحد القريبين من الساحة.

_ تعال _ توقف مرجان الذي كان يغادر الساحة.

_ أنت تعرفني يا مرجان، ولكن سأعرّف الشابسغ بنفسي: اسمي قغزج، وأنا جار الزعيم الكبير مرجان _ لم يكن بفوق معنياً بالأصوات غير المرحبة التي تحوم فوق الحضور _ سؤالي يتعلق بتركيا، وأنت لم تأت على ذكرها. كيف ستكون علاقتنا بها ؟

_ انتهينا من موضوع الترك في أنابه العام الماضي. ولا شأن لنا بهم. تركيا وراء البحر. أما روسيا فإن الله جمعنا بها في جوار وإن كنا في جفاء، وأحياناً في مهاترة.

_ ليس هذا جواباً _ غمغم بفوق مُسمِعاً جيرانه.

_ لا تجعلونا نبدأ الاجتماع الكبير للشابسغ بالأسئلة ! _ دخل توغوظقوه قازبك إلى الساحة وهو يقول هذا _ إذ ستنشأ أسئلة على قدر أفكار المتكلمين. ويمكن أن نتفق وألا نتفق. أنا شخصياً لست راضياً عن القوزاق. وعدم الثأر لمن قُتل معي يؤرقني ليلاً ويحرمني الهدوء نهاراً. ولا يندر أن يعود الألم إلى جروحي من حين إلى حين. ولكن من لا يسمعُ أصوات التهدئة التي تصدر من كل كارثة أصابتنا يجب أن يفهم أنه يسدّ أذنيه بنفسه. لا تظنوا أن ما أقوله يدفعني إليه نوع من الضعف؛ فلم تُفلَّ قامة توغوظقوه ولا سيفه، ولا المِسَنُّ اهترأ. وإن كان بدر مني نحو أعدائنا نوع من اللين فالسبب واضح: تعرفون أن مآتمنا قلت في السنتين الأخيرتين. وفي عودة أهالي الضحايا إلى وعيهم، وازدياد الأعراس في قرانا من جديد، ما يدعو إلى التأمل. دعونا نتحلّم الآن أيضاً دون أن يعني هذا نسيان الحذر. لا يعجبني سلوك القيصر الروسي الجديد. وربما سنتأكد منه في المستقبل. وأما تركيا فهي التي لا شأن لها بنا البتة. ولا مِنّة لها علينا بالإسلام؛ففي البلاد الأخرى هذا الدين نفسه. وإن لم تتدخل تركيا مباشرة فتدخُلُها بنا عبر خان القرم كافٍ.والقوزاق، وإن لم يكونوا أصدقاءنا، فلْنضبطْ أنفسَنا ولْنصبرْ كما يضبطون أنفسهم. ولأنه " حيث يكثر الصخب يقل

العقل " فلننظرْ إلى المستقبل متحَلّين بالأدب. أختم كلامي بأنه مهما كان القرار الذي سيتخذه اجتماع اليوم فأنا معه.

لم يفوّت بامبت كلمة مما قال قازبك وإن كانت عيناه على بفوق. قال: أنا أعرف رأيه مسبقاً. والآن من سيتكلم ؟ أهو شروخقوه أم أباته ؟ يبدو من استعداد زانه سفربي أنه يريد الكلام. والأمير حاجمقوه لن يعود، وهو الآتي من بلاد البجدوغ، دون أن يتكلم. سيتكلم كثيرون ممن لا أعرف أسماءهم. ولكني غير معني بهم؛ لماذا أنا واقف هنا "بقبعة مرخاة على الجبين "؟ لستُ معنياً بأي قرار يتخذه الاجتماع. لو استطعت أن أُخرج بفوق من الاجتماع بطريقة ما لكان حسناً.

_ صحيح ما قيل " الناس لا يتراجعون عن نواياهم قبل أن يعبّروا عنها " _ دخل زانه قوه سفربي إلى الساحة _ سأقول ما يقلقني: لست جاهلاً بأمور روسيا وتركيا؛ خدمت في الجيشين، وانسحبت منهما لأني لم أر فيهما شيئاً حسناً. لن يليق بك الثوب الذي ليس لك، "لم تخِطْه لك أمك ". وكما لا يُشبعك ما لم ينبت في أرضك فكذلك الدول الغريبة لن تنفعك. لا أستطيع إلا أن أوافق توغوظقوه قازبك: لأنه ليس بين من حضروا الاجتماع من لن يسلّ سيفه؛ فلا نخلقْ لأنفسنا أعداء ! لنصبر ! ولكن، بالاستفادة من حالة السلم، لنترك أحوال الأمم الأخرى ولنفكرْ بأن تكون لنا دولة نحن الأديغة. وإن لم نتصرف اليوم هكذا فسيفوتنا القطار غداً، وسنضيع مشتتين بين تركيا وروسيا.لنؤسس دولة كالتي يحميها القوزاق والترك. وإن اتفقت القبائل الأديغية وساندَنا الناسُ فسنصبح دولة واسعة. وسيتردد من يطمع فينا ويعود إلى عقله. السلام ليس مع القوزاق فحسب بل بين القبائل الأديغية نفسها.

_ أسمعت يا أخي الصغير _ سأل بَشْ العجوزُ بامبت وهو يدفعه بمرفقه _ ما قاله زانه قوه سفربي؟

_ توغوظقوه وزانه قوه متفقان _ همس بامبت في أذن العجوز.

_ ومع ذلك فقد نظر زانه قوه إلى البعيد، وصل إلى الدولة الأديغية الكبيرة.

_ اسمع إذن ! _ ضحك بامبت _ ما سيقوله شروخقوه.

_ يا اجتماع الشابسغ الذي أدعو الله أن ينظر إليه بعين العطف ! _ بدأ شروخقوه _ استمعت إلى من تكلم قبلي فكان ما سمعته عجيباً. يقول مرجان الذي أكِنّ له كل احترام وتقدير إنه سيكون "بيننا من لهم آراء متباينة فلنرَ إن استطاعوا إقناعنا". وتوغوظقوه قازبك الذي كان سيفه وذراعه يوقعان الرعب في قلوب القوزاق كأنه ليس هو من تكلم؛ يطلب منا أن نتحمل. وزانه قوه سفربي يعلِّمنا كيف نؤسس دولة. والثلاثة، وإن كانت لي معهم صداقات بغضِّ النظر عن العمر، لا أوافقهم. لا أستطيع أن أساوي الترك الذين يدينون بالإسلام مثلنا بالقوزاق.وفي حال الضرورة فتركيا هي ملجؤنا. لا أتذكر أنه سنحت لنا فرصة ضعف للقوزاق كما الآن مع بداية الحرب الروسية _ الفارسية؛ إن نصف جيشهم غادر حدودنا؛ فماذا تريدون أفضل من هذه الفرصة أيتها الجماعة ؟

_ أتريدنا أن نحارب يا شروخقوه ؟ _ صرخ أحد الموالي من بين الرجال المحتشدين.

_ إن كنت تريد أن تثأر لدماء ضحاياك فعليك أن تحارب . أجاب شروخقوه دون اهتمام ثم تابع: ستقولون يوماً من الأيام: كان شروخقوه قد قال لنا ! _ لا تدعونا نتخلى عن تركيا بحجة أنها بعيدة ! لا يليق بنا، إن كنتم تتذكرون سلوكنا مع حسن باشا وتعرضه للإهانة على ضفة نهر بشزة من قبل الجنرال فلاسوف ونحن وراءه. إن لم نواجه القيصر الروسي فسيسلط علينا القوزاق وسيجعلهم يمزقوننا. لن يرتاح قلبي إن لم أقل لكم ما قلت.

_ وأنا عندي كلمة _ أعطى بفوق لجام الحصان إلى جاره وتقدم _ دعوني أتكلم باسم الموالي.لا أعرف إن كان الأمير الذي أتى من بلاد البجدوغ البعيدة سيتكلم... ولكن بما أني صرت وسط الساحة فلن أتراجع.

_ تكلم ولكن.. _ تقدم مرجان من بين الذين بجانبه _ في اجتماع الشابسغ لا نفرق بين الناس بل نراعي السن. إن كان الضيف (حَجَمْقوه) يريد الكلام فهذا شأنه. وهذا شأن الاجتماع وليس بتوجيهاتك. وبعد الآن لا تقفْ في ساحة الاجتماع بمثل هذه المقدمة يا جاري ! والآن تكلم، نسمعك.

_ لا تؤاخذوني يا اجتماع الشابسغ الذين أكنّ لهم الاحترام.لا أرى من المناسب أن أسمعكم صوتي، دَعْكُم من أن أقف في الساحة أو أتكلم فيها أو أرّبيكم. ولكن بما أنه أعطيت لي الكلمة..

_ قل ما تريد ! _ لم يتحمل أحد الحضور كلمات بفوق الجوفاء _ "لِيُلامسْ دَلْوُكَ سطح الماء !"

_ لن أقول كثيراً كما تتصورون _ قال بفوق وهو ينظر إلى المكان الذي صرخ منه الرجل وجزم بصوت قاطع: _ سيكون كلامي مثل ضربة سيف مرجان وتوغوظقوه، ولكني لست معهما، بل أوافق شروخقوه:

_ خرج بفوق غير مهتم بمن يوافقه أو لا يوافقه.ثم ركب وانسلّ من الاجتماع.

_ أراك تركب يا بامبت _ سأل بَشْ بامبتَ الذي قفز إلى سرجه.

_ لا يمكن أن أدع هذا الفارس يفوتني.

نادى بامبت الفارس الذي أمامه بعد ما مشيا مدة، خفف بفوق من سرعة الحصان واستدار:

_ أهذا أنت يا بامبت ؟

_ أنا، لا تقف !كيف خرجت هكذا من الاجتماع ؟ !

_ ما الفائدة في أن تبقى مع هؤلاء ؟ ألم تر كيف تصرفوا معنا أنا وشروخقوه توغوظ ؟

_ لا أظنهم سيفهمون مهما قلت لهم.

توغوظقوه وخورلوقوه وأباته كلهم جاؤوا إلى الاجتماع وقد قالوا ما قالوه، وفعلوا ما فعلوه وانتهى. أكنت تريدني أن أستمع إلى حجمقوه وجهِ القوزاق.حسناً ليس هذا مهماً؛ كيف تعيش يا بامبت ؟ انتحيتَ خلال سنتين وجعلتهم يتساءلون عن غيابك. وأنا وحدي هنا في أرض البجدوغ أثأر لك. اذهب إلى آل سلطان لتعزّيهم، عندهم مأتم عظيم: خان جري ذو الوجه المستطيل صرعته على صهوة حصانه برأس القامة.

ـ متى ؟ ـ أظنك لم تفعل هذا لأجلي فقط إن لم يكن فيه فائدة لك، ضحك بامبت في سره.

ـ أول من أمس. كنت جرحته في العام الماضي أيضاً. ولكن لم أدعه يفلت مني هذه المرة... وقد طعنني هو أيضاً، غير أني أزهقت روحه.

ـ يأتي عدد من الفرسان من أمامنا ـ قلق بامبت ـ لا شأن لنا بهم. لنوغل في الغابة فنتكلم على راحتنا

ـ أسرع الفارسان إلى منخفض الغابة الذي لا طريق فيه.

VI

الأصوات التي صدرت عند باب آل سلطان أجبرت قانتات على الخروج. وسُمع خان جري يتوسل إلى من يركبون:

ـ يا شواي ويا حاج قسي توقفا قليلاً. لا فائدة في ملاحقة بفوق لأنه دخل عمق الغابة. لن تجدوه. وجرحي لا يستحق هذه الجلبة. لا أريد أن يعرف أحد بالخبر.

ـ يا خان جري يا ولدي ماذا حدث لكم ؟ ـ صاحت قانتات قلقة من فوق المصطبة.

ـ لا شيء مهم يا نانا ! ـ ابتسم خان جري لجدته ولو أن جرحه كان يؤلمه قليلاً ـ بينما أنا أنزه حصاني تعلق بي أحد معارفي الفرسان، إن كنت تتذكرين هو بفوق الذي كنت ألعب معه لعبة الكعوب حين كنت عند الأتاليك مرجان.

ـ ماذا يريد ؟ ـ وكيف لا أتذكره ؟ كان بود قانتات أن تقول: كان يصاحب من دمر حياة سيسور، ولكنها تراجعت في حضور شواي.

ـ وماذا يريد ؟ يعيش حياته في دوّامة. انضم إلى من لا يغفرون لنا علاقتنا بالقوزاق.

ـ يا إلهي؛ ألم يحن الوقت ليكفُّوا ؟ ـ توقفت قانتات على المصطبة وقالت بصوت ألطف: ـ بعد العشاء مرّ عليّ يا خان جري، وأنت يا شواي.

حين بدا لخان جري أن قلقه على جدته انزاح عنه نظر إلى شواي براحة وفي نفس اللحظة انتصبت أمامه صورة أمه بيكا التي لا علم لها بما جرى، فبحث عن سعيد جري وعادل جري:

ـ أين الصغار يا شواي ؟

ـ ليس بعيداً.

ـ أهم وحدهم ؟ من معهم ؟

ـ خرجوا لاستقبال الأبقار مع قايمت.

ـ لا بأس إذن. لنذهب إلى سيسور ! سنفعل شيئاً بالجرح ولو أنه ليس خطيراً.

ولكن سيسور لم تكن في البيت.

ـ ليس هناك جرح كبير وجرح صغير. دعني أره يا خان جري.

_ لو لم تعترض جُعب الرصاص القامةَ لآذاني. _ فك خان جري أزرار الكساء فسقطت الخرقة الملوثة بالدم. وظهر الدم المتخثر النافذ من الخرقة. ودخلت سيسور الغرفة.

_ يا مصيبتي ! صرخت سيسور.

_ اسكتي يا سيسور ! _ قال شواي دون أن يلتفت _ لا تخبري أحداً. هاتي ماء ساخناً وقماشاً نظيفاً. واطلبي من حاج قسي أن يأتي بالدواء. أنت محظوظ يا خان جري. سترك الله، حمتك جعب الرصاص.

_ بعد الله، ليست الجعب فقط _ رجع إلى خان جري تماسُكُه، وسرت ابتسامة إلى الوجه الذي يعود إليه الدم _ لحظة طعنني بفوق تنحى حصاني. لولا أن عليّ أن أسافر غداً _ لم يسمح الحزن لخان جري أن يكمل حديثه فتنهد، ولم يقبل حاج قسي الذي كان يغطي الجرح بالأعشاب:

_ عن أي سفر تتحدّثُ ولما يُشفَ جرحك ؟

_ ألم نتفق يا حاج قسي على أنه لا جرح في جسدي ؟ _ قال شواي بسرعة. ونادى المرأة التي كانت تُخرج ماء الطشت من الغرفة: _ أليس كذلك يا سيسور ؟ وأنت يا خان جري كيف ترى نفسك؟

_ تنفستُ حين ضمدتم الجرح لولا أن الدواء يحرقه.

_ هذه إشارة جيدة _ نهض حاج قسي _ إذا أحرق الدواء الجرح فهذا يعني أنه ناجع.

دخلت سيسور الغرفة وبيدها قميص وكساء.

_ خذ، البسهما ريثما أخيط صدر كسائك.

لم يمكث خان جري وشواي طويلاً في أرض الدار بعد أن خرجا من غرفة سيسور. توجه شواي إلى الورشة ولو أنه لم يكن فيها ما يشتغله هناك. وبقي خان جري بعض الوقت في الفناء ريثما اعتاد على الألم، ثم توجه إلى الفناء الخلفي. توجه إلى شاهدة قبر والده ولمسه. وقرأ الاسم واسم الأسرة والدعاء المحفور بالعربية. ثم رفع راحتيه إلى الأعلى ودعا بالرحمة للأموات.

حين رأى أخويه الصغيرين واقفين إلى جانبه بأيد مرفوعة للدعاء كرر أدعيته شاعراً بالرضا.

_ يا أخويّ الصغيرين سعيد جري وعادل جري _ قال بعد أن انتهى من الدعاء _ حين أسافر غداً لن يبقى في دارنا لابسُ قبعة يحمل اسم الأسرة غيرُكما. كل من في هذه المقبرة حموا، كلٌّ بدوره وحسب إمكانه، أسرتنا. لنتعاهد دون ضجيج أو كلام كثير على أن نصدُق مع هؤلاء ومع الأحياء، في أي مكان كنا، وأن لا ننساهم.

وبعد أن خرج الإخوة الثلاثة من المقبرة خطر لخان جري خاطر ملحّ وهو أن يرى أمه التي لا يتاح له أن يراها كثيراً. فتجاوز غرفة قانتات الجدة وتوجه إلى غرفة أمه.

حين رأت بيكا ابنها الأكبر أزاحت الوشي الذي تعمل به من أمامها والفرح يسري على وجهها:

_ تعال يا ولدي، تعال يا صغيري ! الآن في هذه اللحظة شعرت بشوق جارف إليك. اجلس بجانبي وأرح قلبي. يا ولدي ما أشد شحوبك ! سألت خان جري ولونها هي الأخرى يشحب : أهناك ما يؤلمك أم تقلق لأمر ما ؟

_ وأنت يا أمي ما أسرع ما تفزعين ؟ _ ابتسم خان جري ثم ألقى نظرة دافئة عليها: _ لم أحمل إليك ما يزعجك، فقط مررت لأراك.

_ أيمكن أن تسافر غداً ولا تودعني ؟ إن لم نتصارح بما في قلبينا..

نظر مرة أخرى في عيني أمه الوادعتين، وتنهد وهو يرى أن معظم أحزانها لا أمل في شفائها.ولم يستطع أن يلجم السؤال الذي طفا على السطح فجأة:

_ يا أمي أأنت راضية عني ؟

_ ما الذي يدفعك أن تقول هذا يا ولدي ؟ نظرت في وجه ابنها وقد امتُقِع وجهها_ إن كان هناك ما يزعجك فقل لي؛ إن لم نقله اليوم فقد يفوت الأوان غداً.

_ لا شيء يُقلق يا أمي _ استعاد خان جري وعيه _ أسأل فحسبُ.

_ يا ولدي أعرف أنك لا تسأل للتسلية، قل لي !

_ نعم، ولكن ما الفائدة في الكلام على ما فات ؟

_ إن أطعتني يا ولدي فلن أدعك تقول هذا. إن فعلت خيراً فلا تندم، سيلاقيك في منعطف طريق ما وسينفعك. ولكن إن فعلت عن طريق الخطأ ما لا يجوز فعله فلا تتجاوزه، والتفِتْ إليه ولو كان صعباً، وتناسَه بفعل الخير. وإلا ما سَمَحَ لك أن تنظر إلى المستقبل. سيظل يلجمك دائماً. سألتني إن كنت راضية عنك؛ وأنا أقول: كيف أكون غير هذا ؟! ولكن سؤالك يقلقني.

_ ما سألتُ عنه يا أمي _ استعجل بالرد _ لا يحمل شيئاً خاصاً _ أيكون سلوكي طريقَ والدي يثقل عليك ؟

سألت بيكا ووجهها الأسيل الجميل يفقد نضارته:

_ أهي مسألة بدأت اليوم يا ولدي ؟

_ ليست مسألة اليوم، غير أن عدم استشارتي لك صارت تقلقني أكثر فأكثر. ولم يفُت الوقت بعد. أود لو أعرف رأيك في الطريق الذي سأسلكه غداً.

_ شكراً يا ولدي؛ هذه مسألة لا تتعلق بوقت معين. إن قلت لك إني موافقة على كل ما تقوله أو تفعله السيدة الكبرى فأنا أكذب عليك. لم أكن منذ اليوم الأول راضية على أي خطوة خطوتها لأن مصير والدك كان كارثة عليّ. ولم أتدخل في الموضوع لأنه، وأنا أعرف أن السيدة الكبرى لم تكن راضية تماماً،كان نذراً للأسرة كلها. واليوم إن كنتَ راضياً عما فعلتَ وقد أصبحتَ في سن الرشد أقول لك إني راضية أيضاً. اطمئن من هذه الناحية إن كان في قلبك شكٌّ ما.

_ بالنسبة إلى خيار والدنا _ قال وقد تغير قلبه وصوته _ أقول لك ليس عندي أي ريب، ليس لنا نحن الأديغة طريق آخر !

_ أدعو الله الأحد ألا يجعلك تندم على ما تقول وما تفعل. انفجر صوت بيكا، وهُرِعَ منديلُها إلى عينيها.

_ يا أمنا؛ ليتني ما رأيت منك هذا ! _ قال خان جري مرة أخرى بصوت أشد برودة.

_ نعم يا ولدي نعم _ عادت بيكا إلى رشدها _ ليست دموعَ مناكدة هذه؛ هذه دموع تشهد لك بأنك صرت رجلاً. أنا مسرورة.

_ شكراً يا أمنا، والآن عندي لك رجاء آخر، وقد وعدتني نانا به أيضاً وأنت عديني به: إن قرر أخواي الصغيران سلوك طريقي فلا تقفي أمامهما حجر عثرة ! ولا تجعليهما يندمان.

_ ما أشد ظلمكم لي يا ولدي ! عصر قلبَ بيكا ما سمعته، ثم أكملت بصوت أشد انكساراً:_ إن توجهتم ثلاثتكم نحو الجيش الروسي فمن يبقى لي أنا؛ والسيدة الكبرى لن تعيش إلى الأبد.

لان قلب خان جري كأنه لم يكن صاحب الصوت الحاد، وجعلته الكلمات الصادقة يقترب من أمه أكثر. ضمها إلى الجانب السليم من كتفه وانحنى عليها برأسه. وأراحت بيكا وجهها النحيل على جبين ابنها مستمتعة برقة ابنها الذي فاجأها بهذا العناق. وجلست بعض الوقت تمسح على ظهره متذكرة أيام طفولته.

نقض خان جري الدقائق العذبة للأم وولدها:

_ أفهم وساوسك يا أمنا، لا تؤاخذيني. لا داعي لليأس. لا تخافي علي ولا على إخوتي الصغار.لن نهمل دار والدنا إن انضممنا إلى الجيش الروسي. لا تشكّوا في أننا سنعود يوماً إلى دارنا ! قلت هذا لنانا وأقوله لك.

_ شكراً يا ولدي، ليحقق اللهُ أمانيكم ! أرضيتني وأرحتني. اذهب يا صغيري إلى السيدة الكبرى. أنا لن أملّ منك ولو جلست معي النهار بكامله. أرح قلب السيدة الكبرى ! واحذر أن ترى فيك ضعفاً وأنت على وشك السفر. ولا تظهر لها صلابة قلب بذريعة ادعاء البطولة، فهذه المسكينة ليست مثلي. لا أعرف كيف كنا سنعيش لولا رعايتها. توقف يا ولدي لحظة ! نادت بيكا ابنها المنصرف وهي تمد يدها إلى تحت الوسادة: _ دعني أطوّقك بهذا الحجاب ! سيفيدك حيث يممت. سيحميك _ كانت تريد أن تقول من "الرصاص " لكن الكلمة أبت أن تخرج من فمها _ من " العين الشريرة ".

_ ونانا قلّدتني مثل هذا الحجاب عشية سفري إلى بطرسبورج، وما زالت برقبتي. _ قال خان جري بطريقة لا يُفهم منها إن كان يريد الحجاب أم لا يريده _ وتذكر كيف تشاجر مع الشاب الذي سخر منه في العام الماضي وهو يدرس في المدرسة العسكرية حين سقط منه في الحمام.

_ ذاك يبقى في عنقك باسم السيدة الكبرى، وهذا باسمي. لا، احنِ رأسك؛ سأعلقه بنفسي. لا تخف يا ولدي لن أؤلم جرحك.

_ أي جرح ؟ _ نصب خان جري الرأس الذي خفضه شاعراً بالإهانة لافتضاح سره، غير عارف من سيتهم بإفشائه. وسأل وهو يدس الحجاب تحت القميص: _ من قال لك هذا ؟

_ يكفي يا ولدي ! لا تبالغ في اهتمامك بالأمر. لم يخبرني أحد.

_ ومن أين عرفت إذن ؟

_ قلب الأم لا يكذب يا ولدي. شككت بسبب تبديل كسائك فشهد لي كساؤك الآخر المرتيّ وحرصُك على صدرك. لا مشكلة إن لم يكن الجرح يؤلمك بشدة. ستتحمل هذا مادمت بقيت حياً. لا تدع السيدة الكبرى تشكّ! صحيح أنها تتكتم على كل ما يصيبها من وقت كارثة والدك ولكنها لا تجد اطمئناناً في البيت، ولا في أرض الدار. أنا حريصة عليها؛فكن أنت مثلي. إن جرى ذكر أخيك الأكبر قرم جري في أثناء حديثكما فتحلّ بالصبر لأنها ملوعة بسبب ما جرى للأسرة، وأفهِمْها أنك غير عاتب عليه. وعمك يتصرف معنا بالطريقة نفسها.

_ حسناً يا أمنا. اطمئني من هذه الناحية ! حين ذهبت إلى عمنا أسلان جري كان قد أسدى لي النصيحة نفسها. سمعت أن قرم جري ندم غير أن جامبولات هو الذي لا يهدأ. سأبحث عن قرم جري لأنه في عداد الجيش الذي سأنضم إليه. أليس أخي الأكبر ؟ ! لماذا نعيش أعداء ؟

_ نعم يا ولدي. طمأنت قلبي. لن ندعهم يقولون: الأم وابنها اعتزلا في الغرفة. اذهب وطمئن السيدة الكبرى !

ما إن تجاوز خان جري الباب حتى انفجرت بيكا بالبكاء. بكت زمناً وهي تكتم نحيبها براحتيها، وكتفاها تعلوان وتهبطان. ثم توقفت كما بدأت. ومسحت عينيها بمنديلها الأبيض، وسوّت وجهها بمرهم الزينة، واستأنفت تطريزها.

قالت بيكا في نفسها: خلال عشرين عاماً، باستثناء السنوات الثلاث التي سبقت إرساله إلى الأتاليك، لا أتذكر أني تكلمت مع خان جري هكذا. ووقتَها ماذا كان يمكن أن أقول له؛كنت أبتسم له بعيني وأعلمه الكلمات الأولى فحسب. وحين يحضرونه أحياناً من بيت المربي لم تكن السيدة الكبرى تتخلى عنه نهاراً أو ليلاً. لا أعاتبها على هذا السلوك فقد ربته وشحنته بروحها ودرّسته في القلعة القوزاقية وأقامت معه هناك. بل كانت ستسافر إلى بطرسبورج التي جاء منها الآن لولاي. تعاونا أنا وسيسور، وساندَنا شواي، فمنعناها من السفر في الخريف الماضي. ولولا توعُّكُ صحتها لما أطاعتنا مهما حاولنا. كيف ستتحمل السيدة الكبرى سفره غداً ؟ وأنا ؟ أليس ما في صدري قلب أم ؟ يا إلهي سهِّلْ طريقه فأرجعه حال وصوله ! ما فائدة سفره لنا ؟ افهمني يا إلهي؛ لا تقل إنكَ أعطيتَ ولدك للكفار ليحارب المسلمين ! لو كان الأمر بيدي لما سمحت له أن يخرج من داري، ولا أن يعبر نهر بشزة، ولا أن يتطوع في الجيش الروسي. ولكني لا أتهم السيدة الكبرى، ولا من كان حماي، بأنهما السبب في عجزي.لا أقول إنك غافل عما جرى لنا إن خيراً وإن شراً. رجائي الوحيد أن تنظر إلى ولدي بعين العطف وأن تحميه، وأن تحفظ لي حياة أخويه إلى أن

يصبحا رجلين. وأخوه الأكبر قرم جري، ولو أني لم ألده، يكفينا ما عندنا، أعده إلى أسرته سالماً. يا رب انشر المحبة بين الأديغة والقوزاق المتجافين. لِتدمْ المحبة في دار الإمارة خلافاً للسنوات الماضية ! ولْتوطِّدِ الأمن في أرضنا وأرض الأديغة؛ فعلى ماذا يختلفون ؟

***

لم يبق في دار الإمارة أحد ليس على رجليه في اليوم التالي رغم الوقت المبكر. كلٌّ يتابع عمله دون كسل. والعربة المجهزة على البوابة. قايمت في مكان السائس وحاج قسي يمسك بلجامي حصانه وحصان شواي، والصندوقان في مؤخرة العربة. والجميع بانتظار خان جري الذي سيخرج بين لحظة وأخرى لتوديعه إلى إيكاترينودار.

لا تصدر أصوات كثيرة من غرفة قانتات. وكما أن قانتات في كامل زينتها، فكذلك بيكا وسيسور كما أوصتهما البارحة في أجمل ملابسهما. وارتدى سعيد جري وعادل جري أحسن ما عندهما. وشواي على أهبة الاستعداد كما لو كان سيتوجه إلى عرس. يتميز خان جري من جميع من في البيت بزيه العسكري وكتافياته وجزمتيه العاليتين وقبعته.الرجال في مكانهم المناسب، وقانتات على السرير بيدها العصا الفضيةُ، وبيكا وسيسور فوق رأسها.

_ يا ولدي، يا خان جري ! _ بدأت قانتات دون استعجال بضع كلمات بصوت راسخ: _ أنا واثقة أنك ستنفذ ما قلته لك ليلة البارحة. تعرف إلى أين تمضي. وبما أنك تقول إنك مخلص لما تمضي إليه فليوجهك الله الأحد إلى طريق الخير ! ولْيُعِدْك إلى من فارقتهم بالسلامة. مصيرك مصير زملائك. احفظ الله في قلبك يحفظك. أعلِمْنا بما يجري معك منذ خروجك من إيكاترينودار لأننا بانتظار أخبارك. وإن صادفت قرم جري فأخبره على لساني أنه ابننا، وحبه مغروس في روحنا كما أنتم. يا كنة، يا سيسور نحن سنبقى في الغرفة، أما أخواه فليودّعاه إلى البوابة ! لن أكون مسرورة ممن تُظهر على نفسها الضعف في أثناء وداعه.

ودع خان جري جدته ووالدته وسيسور. وقالت قانتات حين خرج من الغرفة ومعه شواي وأخواه:

_ الآن اجلسا هنا ولا تحوجاني إلى مزيد من الرجاء ! لنجلس إلى أن نسمع صوت العربة !

ولم يجعلهم صوت العربة ينتظرونه طويلاً.

_ مع السلامة لِتعدْ إلينا بالخير. _ دعت قانتات إلى الله، وكررت بيكا وسيسور الدعاء نفسه كاظمتين عواطفهما.

رجع سعيد جري وعادل جري إلى البيت ونظراتهما الواجمة تكشف أنهما ودّعا أخاهما الأكبر إلى مكان بعيد.وتجاوزا أمهما وجلسا بجانب جدتهما التي كان يتلاشى في أذنيها صوت العربة التي تعبر نهر بشزة.

VII

يصدف أن تخلو دار الإمارة في بعض الأيام. وغالباً ما يكون هذا الهدوء بعد الظهر في أوقات استراحة قانتات. وينظم العاملون في الدار برامج أعمالهم حسب هذا الواقع.

واليوم في حين ترتاح قانتات في نهار خريفي حار،وإحدى نوافذ الغرفة الأربع نصف مفتوحة، وشيء من أشعة الشمس ونسيم لطيف ينفذان إليها.كانت قانتات مسترخية على السرير وعيناها مغمضتان غير أن أفكارها وهواجسها متجهة نحو تفليس حيث سافر خان جري، ونحو إيكاترينودار التي يدرس فيها سعيد جري وعادل جري، وكان الأخ الأكبر لهم قرم جري العسكري في الجيش الروسي الذي يخدم نواحي يريفان ــ تفليس يطفو على سطح هذه الأفكار فجأة؛ كانت تدعو له أن تَعْمى عنه الرصاصاتُ المصوبة إليه في الحرب التي يخوضها، نادمةً على ما جرى بينهما في عام مضى.

وبيكا التي تتسلى عن قلقها بالتطريز لم تكن خالية الذهن. تقلق على الولدين اللذين يحضِرونهما من إيكاترينودار كل يوم، كما تقلق على خان جري. تتلهف على الوقت الذي ستصل فيه عربتهما حين تميل الشمس للغروب. إنهما يكبران ويتطلعان إلى السنواتِ القادمةِ أمامهما، المختلفةِ عن اليوم والمستقبلِ القريب لأنهما يحتذيان مثال أخيهما الأكبر. ولن يُظلّهما جناح السيدة الكبرى باستمرار. ألا يكفي أنها هي الأخرى أمضت سِني عمرها على عتبة السيدة الكبرى محرومةً من الحرية ؟ ! وها هي الآن مهمومة بما سيكون عليه مستقبلهم. يمر بذهنها المصير المرتقب لآل سلطان الذين آثروا الانحياز إلى جانب الروس في هذه الدوّامة من الصراعات.

وليس موالي آل سلطان على رأي واحد كما يظن من لا يعرف حقيقتهم. ومع أن كلاً منهم يعيش حسب ظروفه فلا يمر يوم دون أن تخضّهم الحياة المفتقرة إلى الحرية وتصدم بعضهم ببعض. إنهم مهمومون بمصيرهم بصفتهم موالي خانات آل سلطان الذين ينظر الناس إليهم نظرة خاصة على أنهم موالون للروس. ويحدث "أن يعثروا بالحجر الذي يصيب قرون ثيران آل سلطان". أيُستثنى شواي وسيسور من هؤلاء ؟ تجلب لهما الحياة القلق والحزن ومع ذلك فالنهاية المرتقبة لعلاقتهما توتّر الدار والقرية. وأكثر من تهتم بالأمر سيسور. ومهما كانت قانتات عاقلة وحازمة فقد تاهت عاجزة بينهما. وبقيت سيسور في الميدان وحيدة وهي تظن أن كل من ينظر إليها محرومةً من الأمل يسخر منها. إن البؤس والحزن مضافاً إليهما عدم الإنصاف تعصر الإنسان وتُذله. ومع ذلك فإن قانتات وبيكا، وقد أحاطتاها بالعطف وأهل الدار ساندوها، جعلاها تتحمل العار الذي لحق بها. وحين رجع شواي كتمت ما يعتمل في قلبها، ولم تظهر أمامه بمظهر المحرومة من الحظ، ولم تظهر أمامه كذلك بمظهر من تتودد إليه وترائي. ولكن منذ خريف العام الماضي، بعدما رجعا من عرس آل بادينكا، بدأت تكتشف في نفسها أموراً كثيرة نحو شواي. لم تستطع أن تنسى كيف كانت أنفيسكا التي أقام لها القوزاق عرساً حافلاً تنظر نظرات صامتة معبرة إلى شواي، وكيف كان هو يهشّ لها. سنوها الخمس والعشرون تجعلها تجزع وكأنهم يسلبونها ما لا شك أنه من حقها، وتثير في نفسها أفكاراً متضاربة.

منذ زمن بعيد لم يتفق لسيسور أن جلست وقت الظهيرة دون عمل. ومنذ الصباح يداها عاجزتان عن أن تفعلا شيئاً، دون أن تعرف السبب. تجلس إلى الشباك المطل على الدار وقد سمّرها التفكير. أفكارها لا تخرج من دار الإمارة، مثلُها مثلُ قانتات وبيكا، لا تغادر شواي. وحين تقفز بقلبها نحو لوستان حبله وتتجاوز إيكاترينودار تصل إلى فاسيورينسك، أبعدِ ما وصلت إليه في حياتها، حيث جرى العرس، فتنتصب أمام عينيها ما رأت هناك.

فيمَ أنا أَقبحُ من أنفيسكا ؟ تسأل سيسور نفسها. ألأنني اختُطفت ؟ أفهمُ ما يعتمل في قلب شواي، أنّ السعي وراء امرأة ألحقوا بها العار لا يدعو إلى السعادة. يخجل الإنسان مما يقال في غيابه، وفي هذا لا ألوم شواي. في زمن ما كنتَ تُكِنّ لي الحب، كنتَ تغازلني. وبعدما جرحوا كرامتي تصاممت أمامي. لا ألومك على أنك لا تفهمني. تبذل قانتات وبيكا وحاج قسي جهوداً بلا جدوى. أتفهّم أن موضوعنا أنا وشواي لا يُحل بالإكراه. ولكن مهما جرى لي فلست أبشع من أنفيسكا الوقحة. لن أسمح لنفسي أن تتصرف كما تصرفتْ وهي التي صارت في عصمة رجل آخر. يا حسرتي يا بانتالي المسكين ! بدأتْ تجلبُ لك العار حتى قبل أن تؤسس أسرتك. واكتملت المأساة بكونك في الحرب. هذه المرأة لا تقيم وزناً لك. الرجل ما هو ؟ ما إن يقضي وطره حتى ينفض نفسه ويولّي كأن شيئاً لم يكن. أما المرأة فهي البائسة؛ ما إن تُلطَّخ بالعار حتى تبقى هدفاً لكل انتقاد. إن كان شواي يدفع تلك المرأة الشابة إلى الخطيئة فلا يجوز النظر مرة أخرى في وجهه. وإذا كان سيتصرف مع بانتالي هكذا فلماذا حرره من الأسر عند الأبزاخ ؟ وهو نفسه كان يجب أن يستقر لدى آل بادينكا. أين يُمضي شواي عندما يخرج بحجج مختلفة كل هذا الوقت إن لم يكن عند هذه الوقحة ؟ لن يقبل باجقوه عمر الذي يعتبر بادينكا ابنه بهذا الوضع ،ولن يسمح له بالاقتراب منه ثانية. وأغوي بشه ماف وتازه أديغ وغيرهما سيعيبون عليه. لا أظن قايمت وحاج قسي يعرفان ما لاحظتُه أنا على شواي وأنفيسكا في العرس. أما قانتات فلا علم لها مطلقاً. أأخبرها أم أُطلِع بيكا أولاً؟ هما امرأتان وأتوقع أن تفهماني.

ارتعبت سيسور من أفكارها البائسة. ومع أنها هي وشواي لم يتحادثا وجهاً لوجه في موضوع الزواج منذ تلك المصيبة فهي تلوم نفسها على تفكيرها في هذه الأمور. لا ترى من المناسب أن تقحم أناساً آخرين في مصيبتها. ابتعدت عن النافذة قائلة: لا سعادة في ما لم تستطع أن تقدمه لنفسك بل رجوت غيرك لأجله. كنستْ أرض الغرفة التي لا أثر لذرة غبار عليها. وأصلحت المخدتين على الأريكة اللتين لا تحتاجان إلى إصلاح. وخطر لها أن تغسل الستائر ولكنها فعلت هذا أمس وكوتهما وعلقتهما. نظرت إلى المكان الذي تستريح فيه قانتات عادة وهي تتمنى لو تكون استيقظت، ولكن المكان فارغ. والدار التي أرهقتها شمس الظهيرة فارغة؛ حتى القرية كلها كأنْ ليس فيها أحد !

في العام الماضي، قبل أن تتعرض للاعتداء، كانت قانتات أهدتها صندوقاً تتذكرها من خلاله. فتحت سيسور الصندوق، وفيما هي تعيد ترتيب أشيائها وقع في يدها غطاء الرأس الحريري المنقط فرمته كأنه

يحرقها. ثم عادت وأمسكت به. وحين مررته على خدها قائلة:" من أهداك إليّ لم يعد يعرف إن كنت ما أزال حية " تألم قلبها وانهمرت دموعها. وفي هذه اللحظة أرعبها صوت الباب فقفزت:

_ هذا أنت يا شواي ؟ _ مدت سيسور يديها إلى عينيها بحجة أنها تغلق الصندوق، ثم قالت وهي تدخل الغرفة الأخرى: الآن، لن أتأخر.

لم يطل غياب سيسور، أصلحت هندامها ورجعت. وقالت وهي تعود إلى وعيها لمن لا يأتي عادة إلى غرفتها وحده:

_ لماذا تقف يا شواي ؟ لماذا لا تجلس في الصدر ؟

_ لا مانع أن أجلس.

وقفت سيسور عند طرف الأريكة نحو الباب.

نقض شواي الوجوم بينهما:

_ لا أعرف كيف أقول لك _ بدأ شواي وتراجع، ثم قال: _ بدا لي حين دخلت الغرفة أنك كنت تبكين، لا أعتبرك من أصحاب القلوب الضعيفة.

_ لا أظن كل النساء كما يعتقد الرجال _ وأجابت نفسها وكأنها تنتظر ما سيقال لها، ثم أصلحت كلامها بصوت لين:

_ لأني كنت تذكرت المرحوم محمد جري، وخان جري.

_ نعم محمد جري ربّانا، وخان جري أخونا الصغير، ربي بيننا. يسعدني أن تتعاطفي معهما. ثم كيف حالك يا سيسور ؟

_ وكيف ستكون ؟ ! _ سرت ابتسامة خفيفة على وجه سيسور الأسمر الشاحب. ما نزال أحياء على ما تعرف. هاهي الظهيرة تعقب الصباح، والشمس تنحدر ليأتي المساء.

_ نعم هذا صحيح _ سَرّ شواي أن طرف الموضوع الذي لم يكن يستطيع الإفصاح عنه تحرّك _ هكذا يمر الوقت ويهرب العمر من الإنسان.

_ سأفتح الباب يا شواي _ قالت سيسور دون مناسبة.

_ ولماذا ؟

_ لم يكن من عادتك أن تأتي إلى غرفتي وحدك _ لن ندعهم يظنون أننا أغلقنا الباب على أنفسنا.

_ إن كان هكذا فافتحي. لا سِرَّ عندي أخفيه عنك ولا عن غيرك. ندمر مستقبلنا في غمرة خوفنا مما سيقول الناس؛ ألا يكفي كم تباعدنا ؟ !

توردت وجنتا سيسور وخفضت رأسها.

_ أراك لا تقولين شيئاً يا سيسور ! قلق شواي.

_ ماذا أقول ؟ أنت صاحب القرار يا شواي.

ـ قراري جاء بي إليك، وأود أن أعرف قرارك.

ـ كنت دائماً حاضرة لأجلك. ـ أفكرت يا شواي في ما حدث لي ؟

ـ لم يحدث لك شيء ـ قاطع شواي المرأة التي أجهشت بالبكاء ـ ابتداء من اليوم لا أريد أن يجري بيننا حديث من هذا النوع.

ـ شكراً يا شواي. ـ ارتجف صوت سيسور ـ إذن لي رجاء عندك: سيسرني أن تأتي في مساءٍ ما إليّ مع صديق لك حاملاً قرارك في حضرة من في دارنا ومن يسمعنا.

ـ ما أسهل تحقيق ما سمعت، ولكن موعدنا لا يجب أن يتجاوز الشهر الأول من الخريف.

ما إن خرج شواي من الغرفة حتى ارتمت سيسور بصدرها على الفراش فبكت حتى ارتوت الوسادة. ثم نهضت وقد نشط قلبها. وما كادت تغسل وجهها حتى سمعت نداء قانتات:

ـ يا سيسور، يا بنتي. يكفي ما حُرمتُ منه من هذا النهار الجميل ـ كانت قانتات واقفة على المصطبة ـ افتحي نوافذ غرفتي وهاتي شيئاً من الماء أبرّد به وجهي. الشمس انحدرت، وحان موعد عودة الأميرين الشابين؛ سأستقبلهما على المصطبة.

جلبت سيسور الإبريق والطشت، ثم سألتها بعدما استراحت:

ـ أكنت مرتاحة اليوم يا سيدتنا الكبرى ؟

ـ نعم يا بنتي نعم. لا أعرف ماذا جرى لي، لم أشعر براحة كما اليوم. ـ استقرت قانتات في مجلسها وثبّتت يديها على العصا الفضية: ـ وأنت يا بنتي؛ ماذا جرى معك ؟

خمّنت سيسور أن يكون عند قانتات شكٌّ في دخول شواي إليها في غرفتها فارتعشت، ولكنها كتمت انفعالها:

ـ وأنا غسلت وارتحت بعض الوقت.

ـ هكذا ! لم تصدّق قانتات ما سمعت ـ حسنٌ أن تستريحي ولكن لا أرى عليك شيئاً من الراحة.

ـ لا أعرف لماذا تقولين هذا أيتها السيدة الكبرى.

ـ يا صغيرتي يا بنتي؛ أما قلت لك أن تناديني " نانا " ؟ ! يسعدني هذا النداء. على الأقل أسمع صوتاً أنثوياً غيرَ صوت أحفادي يحبه قلبي وأذناي. لا تقلِّدي بيكا ! هي كنّة تطبق العادات الأديغية.

محظوظةٌ من الله مَن لها ولد. ناديني: " نانا " أرأيت بالمصادفة شواي ؟ آخر مرة رأيته كان الصباح.

ـ كان قبل قليل في أرض الدار، لا أظنه في مكان بعيد.

ـ ليتك ناديته لي !

نزلت سيسور من المصطبة، واقتربت من الجدار الفاصل بين دار الإمارة والورشة، ونادت:

ـ يا شواي، نانا تطلبك.

ـ حالاً ـ ظهر شواي من وراء البيت ـ ما الخطب ؟

_ يا بنتي _ قالت قانتات غير عابئة بشواي الخارج من وراء الجدار _ اذهبي وائتي لشواي بمقعد وطيء ومقص وصحن، والفَتَيان موعد عودتهما؛ سيأكلان هما أيضاً.

كانت قانتات تسعد جداً لرؤية شواي وسيسور بجانبها، وتحققت فرحتها اليوم. ولم يكن أمام عينيها إلا صورة شواي الواقف بثبات على المقعد وسيسور الممسكة بالصحن ولو أنها تتظاهر بعدم رؤيتهما. ولا كان في ذهنها غيرُهما.؛ يا ترى أأرى فرح هذين يوماً ما ؟ خلّفا سنوات وراءهما وأنا أدعو لهما. لا أعرف كيف أفتح الموضوع مع شواي البيتمال. والآن بعد ما جرى للفتاة ما جرى لم أستطع أن أعلم من شواي شيئاً مهما تودد إليه. وسمعت أن اللعين بامبت رجع إلى هذه الديار. سيتسبب لنا في مصيبة أخرى. لا شيء في الدنيا لا يفوت أوانه. عناقيد هذا الموسم ستنتهي كما عناقيد الموسم الماضي. بقيت أعاتب وألوم حتى لم يبق على لساني شيء من الحلاوة. والآن بعد ما جرى لسيسور لا أستطيع أن أطلب من شاب عازب أن يخلص لها ولا يطمع في غيرها. حين عادا من العرس في فاسيورينسك انتزعتُ من سيسور خبراً لا أعرف إن كانت نسيت ما حدث لها وتحاسب شواي على هذا الخبر. سأنتزع روحك يا سيسور إن فكرت في شواي بهذه الطريقة. لماذا سيتجاوزك شواي إلى فتاة قوزاقية ؟ ثم إنه لا يُفعل هذا بعروس جديدة، وإن سمعتُ أنه فعل فلن أقبل منه. يا حسرتي كم كنت صبية حين ترمّلتُ ! كنت في عمرك أذهب إلى المدينة مع المرحوم محمد جري، ولم يكن نادراً أن يغازلني بأعينهم وألسنتهم ضباط قوزاق غير أني لم أسمح لنفسي أن يخدعني أحد.

_ كفى يا شواي ! _ يكاد صحن العنب الكبير يكسر ظهر سيسور _ أشارت قانتات قلقة.

_ لم أعرف أن سيسور هشّة هكذا _ قفز شواي من على المقعد مبتسماً وأخذ منها الصحن وهما يتبادلان نظرة لا يفهمها غيرهما _ وعاتب قانتات ناسياً أنها جالسة: _ لم أعرف أني قطفت كل هذا؛ لِمَ لَمْ تخبريني ؟

_ الآن أصلحت الموقف يا شواي _ ظهر من صوت قانتات رضاها بما تسمع وترى _ لا أحد يفهم المرأة إن لم يفهمها الرجل _ هكذا كان والدنا يقول، وهكذا كان يعامل والدتنا. هذه النظرة إلى المرأة هي التي نحافظ عليها في البيت بكل طاقتنا. ولذا لا تنسيا أنتما أيضاً هذه العادة. هذا لا يتعلق بغنى أو فقر. والآن امض يا ولدي واستقبل أخويك، وأنت يا سيسور اغسلي لنا عنقود العنب، وخذي لجماعة قايمت حصتهم. ولا تحرمي الصبيين القادمين من المدينة.

حين بقيت قانتات وحدها على المصطبة لم تستطع إلا أن تفكر في شواي وسيسور اللذين اضطرتهما إلى التعاون في العمل. كانت طريقتهما في قطف العناقيد وتداولها ما تزال أمام عينيها.

قالت قانتات في نفسها: هذان ينويان أمراً ولكن لا أعرف موعده. ما كان أحسن أن يفعلا قبل أن يسافر خان جري. يهرب منه شبابه فلا يحضر أعراساً أديغية بسبب انشغاله بالدراسة. يشتاق إلى حفلات الرقص الأديغي. ومع ذلك لا أعرف أين تعلم الرقص إذ رقص مسروراً بالحفلة التي أقاموها بمناسبة قدومه

من بطرسبورج بكل تهذيب. ولماذا أسأل أين تعلم الرقص ؟ إنه مني ! لم تكن في جيلي فتاة ترقص في مهارتي وتهذيبي. أعتقد أن خان جري ورث منا هذه المهارات. هذه حال الدنيا: يفوت القطار جيلنا ليظهر جيل جديد. أتذكر طفولة شواي وسيسور كما لو كانت أمس. صدف أن أفرحاني وأقلقاني حيناً، وأغضباني أحياناً. والآن أفكر في مصيرهما. كلما التقى قلبان سادت الراحة البيت ولانت الدنيا وأنارت. فشكراً لك يا شواي إن كنت تجاوزت المحنة غيرَ عابئ بما يقوله الناس، ولْيُسعدْك الله يا ولدي ! _ كان خبر أنفيسكا قد غزا رأس قانتات في هذه اللحظة دون أن تعرف من أين جاء ولكن العربة التي وقفت على الباب ووراءها شواي وحاج قسي راكبَين طردت هذه الفكرة:

_ يا نانا أريد بشارة _ خرج عادل جري من العربة _ جلبنا معنا رسالة من خان جري !

_ ماذا كتب يا ولدي ؟

_ لو كانت الرسالة باسمي لقلت لك، ولكنها باسمك أنت !

_ تعرفان أنه ليس بيننا أسرار يا ولدي _ كانت قانتات مسرورة بما تسمع _ ولكن فعلتما خيراً بعدم قراءة ما ليس لكما. ياكنة أعطي أباسة[1] لعادل جري بشارة !

_ يكفي يا جدة ! _ نظر عادل جري نحو أخيه الأكبر واستعجل _ كنت أمزح معك. ما تأخذين منه وما تضمينه إليه لنا. خذي يا نانا رسالة خان جري.

_ لا يا ولدي لن أنقض عادتنا معك. تستحق البشارة حلالاً لك. وبالإضافة إلى قايمت وحاج قسي اللذين كانا يقومان بخدمة العربة كان بانتظار مضمون الرسالة التي بيد قانتات السيدة الكبرى بيكا وسيسور وشواي ومن عادوا به من المدرسة سعيد جري ومن بيده الأباسة عادل جري.

_ اسمعوا ما يكتب ولدي ! _ رفعت قانتات رأسها فجأة وقد غسل الفرح وجهها _ خان جري وقرم جري في الجيش نفسه وفي الحرب نفسها. يا إلهي ! لا أظن هذا حدث دون معرفتك.اشملهما بعطفك واحمهما، ولْيحْمِ الأخَوان أحدُهما الآخرَ !

_ هل التقى خان جري وقرم جري يا سيدتنا الكبرى ؟ سألت بيكا.

_ لا، لا يقول إنهما اجتمعا، أظنه عرف الوحدة التي ينتمي إليها قرم جري. لا تخافي ياكنة ! سيجده خان جري.

VIII

منظر الصخور التي تغطي قمم جبال الأرمن القاحلة بارد على نحو يؤلم القلب مع أن صباح الخريف دافئ. من بعيد تبدو يريفان المتناثرة على سفوح الجبال وفي الوهاد، وتبدو القرى الصغيرة المقابلة لها ومستراحات المواشي والكنائس المرتفعة. والهواء يفيض برائحة البارود، وأصوات المدافع والبنادق التي لا تنقطع تشهد على هذا. وصهيل الخيول المتجاوبة وصراخ الناس يصدران من جانبي الجبل البعيد والقريب. نسيم لطيف

[1] وحدة عملة تساوي 20 كوبيكاً. القاموس الشركسي

يهب من تحت وينكمش على نفسه، يصطدم برؤوس الأعشاب اليابسة التي تبزغ من شقوق الأحجار ثم يختبئ وراء الزوايا.

والشمس تنظر من خلف حوافّ الصخور في أعلى المرتفع وكأن ما يحدث في العالم قد زاد من حدتها.تنظر بوجه محمر وتتسلل إلى وسط السماء كضيف يستحي من تأخره. والنسور المسعورة من رائحة الدم تحوم في السماء بوجوه عابسة وأجنحة مبسوطة، وتنقض أحياناً كالرصاص.

المقاتلون المتجابهون يتوجسون من منظر النسور أكثر مما قد يحدث لهم في الغد.

_ ما أشد ما اعتادت علينا هذه النسور ! _ نفد صبر كابوستينكا إيغنات.

_ لسنا أهدافها _ ابتسم خان جري.

_ من إذن ؟ لمَ فوق رؤوسنا ؟

_ اسأل بانتالي يقل لك ! _ غمز خان جري بانتالي _ إنه أكبر منا عمراً؛ ليس ما شهده قليلاً.

_ بالتأكيد سأسأله _ لم يمهله ليسأل بانتالي _ إنها لا تريدنا برائحة العرق الفائحة منا _ تريد الأحصنة النافقة _ ضحك إيغنات.

_ كُفَّ عن هذا يا إيغنات ! لا تفكر في ما لا فائدة فيه. قال خان جري بصوت أعمق حزناً.

_ لا تظن أني أفكر في ما تحسب حسابه يا خان جري ! سحب إيغنات كلامه بسرعة _ منذ طفولتي لا أحب النسور لأنها كانت تخطف صيصاننا.

_ هكذا لا بأس ! أغلق خان جري الباب فجأة على الحديث الذي دار بينهم _ لنتكلم في موضوع آخر مادام العدو منحنا هذه الراحة !

بعد أن انتظر كلٌّ غيره ليتكلم وهم جالسون وراء الحاجز الصخري الذي تحتمي به خيولهم، تنهد بانتالي وقال:

_ منطقتنا أجمل جداً من هذه. ما أرض الأرمن هذه ؟ ! تتعثر فيتحطم أنفك، تزحف فتتهرأ ركبتاك، كل ما تراه حجر في حجر ! أي أرض جاؤوا بنا إليها لنحارب ؟ ثم لماذا نحارب على هذا البعد ؟ أنا أكبر منكما حقاً ولكنكما درستما، أقمتما في المدينة التي كان يقيم فيها أتامانا. ودرّسوكما في بطرسبورج، وقلّدوكما الكتافيات الذهبية. أتمنى لو تجيبانني.

_ ليس من عادة القوزاق أن يندموا على الطريق الذي مشوا فيه يا بانتالي سافيليتش، قال إيغنات.

_ ربَّوني على عادات القوزاق وأنشؤوني عليها، وإن نقضتها فلن يغفر لي أبي، وأكون أهنت المسنين من قومي. أتقول هذا لأنك تظنني نادماً يا إيغنات ؟

_ إن كنت لم تندم...

_ دعه يتكلم يا إيغنات، قطع كلامَ إيغنات صديقُهما الذي اكتفى إلى الآن بالاستماع.

ـ لا أقول ندمت أو لم أندم. ـ أكمل بانتالي ما يُهمُّه ـ سأقول لكما ما في قلبي. الحق أقول: كان الأفضل من أن نقطع كل هذه المسافة أن نبقى على الضفة اليمنى لنهر بشزة، ونحب بعضنا القوزاق والأديغة، ونحمي أرضنا وأرضهم من الأتراك؛ أليس هذا صحيحاً يا خان جري ؟

ـ ربما نعم وربما لا.

ـ إن أخطأت ـ أكمل بانتالي حديثه ـ سأصحح بنفس راضية كما يقول عُمَرُ الذي أعده بمثابة والدي. ألا تعرفان ما أحسن حصاني ؟ انتشلني من مخاطر كثيرة، ولم يعرّضني قطُّ للإهانة هنا؛ هذا الحصان أهداه لي عمر، وكان قلّدني هذا السيف وهذه القامة. أتعرفان من أهداني هذا المسدس ؟ إنه شواي ! وسرج حصاني الأديغي اقتنيته عن طريق عمر، وسترتي القصيرة خاطته لي بابونا التي هي بمثابة أمي.

ـ على ما يبدو يا بانتالي سافيلي ـ ابتسم إيغنات ثانية ـ أنت في الجيش القوزاقي، والأديغة هم من جهزوك؟!

ـ ليس إلى هذا الحد، لست غريباً عن الأديغة، ومن أرسلني إلى هنا معروف، قيصرنا الكبير. ولكني أكرر: لا أفهم لماذا أرسلونا إلى هذه المسافة الشاسعة.

ـ يحق لك أن تقول هذا لأنهم أبعدوك عن عروسك ـ هتف القوزاقي ذو اللحية والشاربين.

ـ يا بيترو كالينتش، ما تقوله فيه شيء من الصحة ـ أنفيسكا شابة ودافئة وما إن ذقت حلاوتها حتى ساقوني على هذا الطريق. ولكن لأني أفكر في ما هو أبعد مما تفكر فيه أنت، أظن أن حدود الدولة الروسية ليست عند الأرمن.

ـ لا تهتم بما ليس من شأنك يا بانتيوكا ! ـ وقف الشاب القوزاقي الضخم ـ لا نجهل، نحن سكان فاسيورينسك، أن أنفيسكا شابة وجميلة...

ـ ما قصدك بهذا يا بيترو ؟ سأل بانتالي مغلوباً بالقلق.

ـ أنسيت شواي الشركسي ؟

ـ شواي أخي الأكبر. اشتعل بانتالي غضباً.

ـ ألا يشتهي الأكابر عرائس أصاغرهم ؟ ! امش يا إيغنات نستقِ !

ـ يا بيتر كالنيتش ـ صرخ بانتالي وهو يثب وراء القوزاقي ذي المنكبين العريضين.

لجم حان جري وإيغنات بانتالي، ولم يلتفت بيترو.

ـ لأن جاره ينظر خِفية إلى " ليزاه " ـ دمدم بانتالي بعدما جلس قليلاً ـ يشفي غليله بي، لا يظنَّ أني سأغفر له هذه الإهانة !

ـ لا حاجة لهذا الكلام يا بادينكا بانتالي ـ نصحه إيغنات، ونظر إلى النسور التي لا تغيب عن السماء ـ كيف لنا أن نعرف ماذا سيحدث لنا اليوم ؟ ! الأفضل ألا تتشاجرا.

_ هو من بدأ، وإلا ما كان عندي مثل هذه الفكرة. _ قال بصوت من يهدأ، ثم أضاف بعد قليل: نحن من قرية واحدة وإن لم نكن جيراناً، نسكن في شارع واحد، لا ألومه. احسبا نفسيكما لم تسمعا ما قلت له و ما قال لي. لا داعي لهذا الحديث.

_ حتى لو توقفنا هنا عن تبادل العتاب يا بانتالي سافيليش _ قال خان جري الآن بصوت أبرد _ فسأقول لك أمراً أعتب عليك لأجله، وهو مرتبط بالسبب الذي أرسلونا من أجله إلى هذه البلاد، نحن الثلاثة _ أنت وأنا وإيغنات _ ليس في هذا الموضع مَن أحدُهم أقربُ إلى الآخر منا، لا أتخذ صديقاً كائناً من كان إذا لم يخلص للقيصر الذي أقسمنا له يمين الولاء. والإخلاص له يساوي الإخلاص للبلاد _ نحن شعبه، ونحن هاجسه وهمُّه، ونحن حُماته، وأيضاً إن كان لا بد من قوله: نحن قوزاقه.

_ يا خان جري ليس في كلامي أي خبث، كنت أتساءل فحسب إن كنتم عاتبين عليه لأنه وضعنا نحن القوزاق وأنتم الأديغة في وضع المجابهة.

_ لو كنا عاتبين على القيصر _ قطع خان جري كلام بانتالي _ ما ارتدينا، جدي وأبي وأنا، شارته، وما كنا سمحنا للأديغة الذين قلوبهم نحو الأتراك أن ينظروا إلينا باحتقار.

_ إن كنت تقول هذا يا خان جري _ تكلم بانتالي الآن بصوت أرزن _ فالأرض التي تطؤها أقدام أحصنة القوزاق هي أرضهم، ولهذا فلن نتراجع.

مع انتهاء بادينكا بانتالي من كلامه احتدت أصوات القصف والرمي المتجاوبة على سفوح يريفان. ومن الناحية الأخرى وفي السهل امتطى الفرسان خيولهم. واندفعوا بسيوفهم المشهرة نحو ظاهر المدينة.وقابل الفرسانُ الفرسُ والمشاةُ الجيشَ الروسي بصخب شديد.

نظر خان جري يساراً في غمرة جريه، ورأى كيف أصبحت الوحدة التي ينتمي إليها قرم جري إلى جانبه. فحثَّ حصانه بخليط من اللغة الأديغية والروسية متأملاً أن يسمعه أخوه. والتحم الفُرسان. وارتفع إلى عنان السماء صليل السيوف الفولاذية وضجيج الخيول المتحمسة وصراخ الرجال وأناتهم، فامتلأ الهواء بالرائحة السميكة للدم والبارود والعرق.

صرع خان جري الفارس الذي اعترضه، وترك وراءه غيره، وطرح آخر يجري على الأرض. وساعد إيغناتَ في قتل الفارس الذي كان يلاحقه. وسمعا صراخ بانتالي " أنحن الذين لسنا قوزاقاً ! " وجواب بيترو من مكان غير بعيد:" صحيح يا بانتالي صحيح نحن قوزاق " _ " اقتل المسلمين الأنجاس ! " " يا خان جري وراءك من يتصيدك " _ وطرح إيغنات نفسه في مواجهة الفارس الفارسي وصرعه بصدر حصانه. وقوزاقي آخر يقطع رأس الفارس الذي يهمّ بالقيام.

توقف العراك فجأة بحيث لا تدري أمضى زمن طويل على مبارزة السيوف أم زمن قصير، تاركاً الجرحى والقتلى في الساحة. وطارد خيالة القوزاق المنتصرون العدو المنسحب.وفي هذه اللحظة خيل لخان جري أن أحداً يصيح من خلفه، وحين التفت رأى أخاه الأكبر المتّكئ على حصانه القتيل ممسكاً بصدره:

_ يا قرم جري _ يا أخي الكبير ! _ ارتمى خان جري من الحصان ناسياً يده اليسرى المجروحة _ ماذا جرى لك؟!

_ لا شيء يا أخي الصغير ! _ قال قرم جري بصعوبة _ لم يحدث لي ما لا يحدث للمقاتلين. ربما كان الله كتب أن يحدث ما حدث. الله جاء بك إليّ يا أخي الصغير. ! ادفنّي كما يدفن الأديغة. أوصِ إخوتنا الصغار أن يُخلصوا لقضية والدنا. أنا راض عن نانا قل لها أن تسامح_... _ ولفظ روحه قبل أن يكمل جملته. وانفجر خان جري باكياً، كتفاه الضيقتان تختلجان، وأخوه الكبير في حضنه.

***

في اليوم الذي لفظ فيه قرم جري روحه، وفي ساعة إشعال مصابيح الخريف، ارتفع فوق لوستان حبله أصوات الاحتفال بعرس شواي وسيسور، وسُمع في مخاض نهر بشزة.

وحين زُفّ الخبر السار إلى قانتات دعت ربها:

_ ليجعلهما الله الواحد الأحد سعيدين ! ولْيُعدْ إليّ خان جري وقرم جري سالمين ! _ ثم أمرت بعد قليل:

_ أعيدوا غداً عروسنا من بيت مضيفتها، واستعدوا لحفلات الأيام السبعة.

IX

لا مكان لاختبار الإنسان أصْدقُ من ساحة الحرب !

ظهرت قوة خان جري وضعفه في حرب الفرس وفي حرب الترك التي لم تتأخر عنها كثيراً. لم يظهر عليه جبن في أقسى المواقف، وازدان صدره بالوسام الذي شهد على إخلاصه لقيصره وجزاء رجولته. وشرّفوه برتبة الملازم. ولقي رضى الجنرالين اللذين خدمهما مينشيكوف و بيروفيسك. وبعد الحربين ضموه إلى سرية الحرس الكائنة في بطرسبورج. ليست السنوات الثلاث طويلة في حياة الإنسان الوادعة ولكنها إن قسِّمت على أيام الحروب فالدقيقة منها تساوي كثيراً من الأيام والليالي. وإذا كانت سنو خان جري الإحدى والعشرون قليلة،فهي،بالقياس إلى ما عاناه، أكثر من عشرات السنين التي يعيشها الإنسان غير المحارب.

كان قد مضى عدة أيام على خان جري في الطريق القادم من تفليس إلى إيكاترينودار، تخللها الصحو والمطر والغيم والريح. وكحركات عجلات مَركبة النقل التي تتراوح بين الدعة والضجيج مرت بذهنه أفكار كثيرة. وكان ما يُهمه ثلاثة أمور: أخوه الأكبر الذي دفنه في أرض غريبة بعيدة، والعلاقات الأديغية الروسية، وكيف سيُستقبل في سان بطرسبورج.

ربما كان مقدَّراً أن تكون الأمور الثلاثة هكذا، قال خان جري وهو يهز رأسه مع العربة. توفي أخي فلا إمكان أن أغير في الأمر شيئاً، والأمر الثالث سيُحَلُّ على نحو ما؛ ففي الوحدة التي سأنضم إليها لا بد أن كثيرين مثلي. وإن أخلصت للقيصر وحان موعد تسريحي فلا شك سأسرّح يوماً ما، وأعتزل. غير أني لا

أجد مخرجاً من قضية الأديغة. فتركيا، إن عاجلاً أم آجلاً، حتى وإن رضخت لاتفاق أدريانوبول[1] ستعود وتعترض طريقنا يوماً من الأيام. ولا شك في أن اتفاق السلام الذي لم يشارك فيه الأديغة سيثير كثيراً من المشكلات في بلادنا. " إن أخذوا منا ما ليس لنا وهم يعرفون أنه ليس لنا فلماذا لا نعطيهم. وإن قدموا إلينا ما ليس لهم على أنه لهم فلماذا نفوّته ؟ " وقّع البلدان على ورقة وهما يعرفان أنهما يخدعان أحدُهما الآخرَ. فعلت الدولتان اللتان تجابهتا ليس مرتين أو ثلاثاً خلال مئة سنة ما فعلتاه، والأديغة الذين لا يعون شيئاً بقوا وحدهم أمام الناموس الذي هو عُدّتُهم.هل وصل هذا الخبر إلى الأديغة يا تُرى ؟ وإن وصل فكيف استقبلوه ؟

انتصبت أمام مخيلة خان جري اجتماعات الأديغة التي لا حصر لها: القامات المشهَرة تلتمع فوق الرؤوس، وأصوات الطلقات تدوي. وتكثر المهاترات في ساحاتها،والانقسامات بسببها. تذكّر كيف سأله قائد الجيش بوكروفسك: ماذا سيقول الأديغة في موضوع أنهم صاروا من حصتنا " وبدأ الآن يفكر من جديد في جوابه يومذاك، لا أندم على أني أجبته: " من جهة صحيح، ومن الجهة الأخرى غير صحيح ". عبرنا القرون التي عشناها يربطنا الشعور بأننا أديغة وجعلنا من هذا الشعور مَثَلَنا الأعلى ودولتَنا وسلطانَنا حتى وإن كنا بلا دولة وبلا سلطان. نعيش على أرضنا على اختلاف أصولنا، نعيش من الأزل على هذه الأرض وقد صارت القفقاس في دمنا، نقف على أرضنا وتظللنا سماؤنا، نتنفس هواءنا ونشرب من مائنا ونأكل خبزنا. من الصعب حماية حرية الأديغة في العصر الذي يتصارع فيه الروس والترك والإنجليز على أرض القفقاس، سيسلك كل منهم معنا السلوك الذي يرتضيه هو؛ ولماذا لا تلزم إنجلترا البعيدة كل البعد حدودها؟ ألا يكفيها ما نهبت من بلدان العالم حتى تصل إلينا ؟ ! صحيح ما كان يقول أبي: الأفضل للأديغة أن يتطلعوا عبر نهر بشزة من أن ينحازوا إلى الترك؛ في هذه الحال، وفي أسوأ الاحتمالات، كانوا سيبقون في حماية الروس. بالنسبة لأسرتنا حُسم هذا الأمر منذ زمن بعيد، وانضمت إلينا بعض الأسر، ولكن إن نظرت إلى الموضوع من خلال جملة المنطقة فقد تحول الأمر إلى سلعة تباع وتشترى؛ هذا ما أخذته على الجنرال بوكروفيسك على أنه خطأ.

_ خان؛ أتسمعني، خان جري ؟ ناداه إيغنات _ ما الذي يستغرق تفكيرك ؟

_ أقليل ما يمكن أن تفكر فيه يا إيغنات ؟ ابتسم خان جري لجليسه بوجه جامد _ نجونا من حربين، ودفنت أخي الأكبر وكثيراً من أصدقائنا في إحداهما.

_ لا يمكن أن تغيّر في هذا شيئاً _ تنهد إيغنات _ حيث هناك حياة هناك موت. كان من الممكن أن نحل محلهم. ليحمنا الله وليشملنا بعطفه ! ما كنت أفكر فيه هذه اللحظة هو الجيش الروسي الذي رأيته

[1] معاهدة سلام أنهت الحرب بين روسيا وتركيا. وُقِّعت في 14 كانون الأول عام 1829 أعطت الحق لروسيا في منابع الدانوب وعموم أراضي القفقاس من أرمينيا وأذربيجان إلى الشمال. مصادر

على امتداد الطريق من فلاديقفقاس حتى بروشنوكوب. حين كنا ماضين إلى تفليس لم يكن كل هذا الجيش على الطريق.

_ لا شيء مستغرب في هذا يا إيغنات؛ أتتذكر ماذا كان يقال لنا في الأكاديمية ؟ قل لي اسم المدينة الأولى الذي ذكرته !

_ فلادي قفقاس.

_ نعم صحيح _ صاح إيغنات _ فكّر في ما يعنيه هذا ! من أطلق هذا الاسم على المنعة الروسية ليس مجنوناً، بل نظر بعيداً[1]

_ لأنه ليس مجنوناً _ قال خان جري بنبرة لا تميزها: أيعجبه الكلام أم لا. لأنه ينظر إلى البعيد ويفكر في البعيد، أرسلَنا قيصرنا إلى المكان الذي نعود منه الآن. كسبنا حربين لروسيا ولو أننا خسرنا الكثير من الرجال. ولو لم نكسب إلا اتفاق أدريانوبول للسلام...

_ يا خان جري _ قاطع إيغنات صديقه _ أتعدّ الاتفاق الذي يشمل الأديغة انتصاراً ؟ ! حين يعرف الأديغة الخبر...

_ لن يقبلوا _ ردّ خان جري على صديقه _ ولكن ليس أمام الأديغة اليوم مخرجٌ غيرُ هذا. غير أني لا أعرف إن كانوا سيتفهمونه. لو اتفقوا مع روسيا دون حرب لحافظوا على كيانهم. هذا ما كان قاله لي الجنرال بوكروفسك _ كانت نظرة خان جري القلقة وهو لم يُنه كلامه متجهة إلى بلاد البجدوغ والناتخواي والأبزاخ والوبيخ. ولم يجد جواباً مريحاً في أيٍّ منها. وتذكر أنه كان ضمن الوفد الذي ذهب إلى مبعوث الترك في أنابه للمحاججة والمعاتبة.

قال خان جري: الأديغة الذين لا يريدون الترك لن يقبلوا بالروس كذلك، لن يسمحوا لأحد "أن يكسر جناح عصفورهم الطليق" كما كان المرحوم والدي وخورلوقوه مرجان وتوغوظقوه قازبك وحجمقوه باتمز وزانه قوه سفربي وآخرون يقولون. لن يحسب أحد في هذه الدنيا حسابك إن لم يكن عندك دولة؛ هذا ما أثبتته الحرب ضد الأتراك التي جرت هذه السنة.

سأل خان جري الذي اصطدم تفكيره بالجبل:

_ يا إيغنات أراك صمتَّ البتّة !

_ لماذا ؟ _ خرج إيغنات من أفكاره بسؤال _ ما يُهمّك هو ما أفكر فيه أنا أيضاً. حين كنا نحتل يريفان، أتتذكر ؟، عاتبتَ بانتالي وأنا وافقتك، ولكن تبيّن أن ما كان يحتج عليه في ما يخص الأديغة صحيح.

[1] نعني كلمة فلادي بالروسية الامتلاك، وعلى هذا فالمعنى: امتلاك القفقاس، كما فلادي فوستوك في الشرق الأقصى. المترجم.

أصبحت بلاد الأديغة ملك يدنا عرَضاً ونحن نحارب في البلاد البعيدة. ولكن لا أظن يا خان جري أن قضية الأديغة ستصبح سهلة علينا بهذا الشكل.

_ أتريد أن تقول: لا يعطى ما لا يُملَك، ولا يؤخذ كل ما يُعطى _ ابتسم خان جري ورفع رأسه المتطاول الجميل، والعينان الضيقتان الصغيرتان تلمعان. ولكن إيغنات لم يدعه يُكمل ما كان يريد أن يقوله.

_ هذا هو إن أعجبك أم لم يعجبك. لن أدعك تقول لي ما قلته لبانتالي.

_ حسب كلامك أنت تحب الأديغة أكثر مما أحبهم أنا _ هذا مستحيل _ قال خان جري بصوت قاسٍ.

_ إن كان هذا رأيك يا خان جري فأنت تخدع نفسك _ لم يتراجع إيغنات _ لم أقل لك إني أحب أمك أكثر مما أحب أمي إلا إن لم أكن قوزاقياً وكنتُ هجرت أهلي _ إن تألمتْ أمك أو حدث مكروه للأديغة فهذا لا يعني أني لن أتألم لهم ولن أقلق فأنا إنسان.

_ ومن أكون أنا إذن ؟ _ احمرّ خان جري _ ألم أعد أديغياً ؟

_ لا تعاند يا خان جري _ انطلق الشرر من عيني إيغنات الزرقاوين، ثم أضاف بصوت أهدأ: _ لا تتهمني بما ليس في قلبي، ولا تدعني أقول لك ما لا يجب. لن أقبل من أحد كائناً من يكن: سلطاناً، جنرالاً، ضابطاً، من عامة الناس، أن يهين قومي القوزاق. أنا مرتاح لإخلاصك لقيصرنا، وقد عبّرتَ عنه في ساحات الحروب، ولكن أحياناً، لا تؤاخذني، أتصورك تبالغ.

_ يا إيغنات _ سأل خان جري وفمه لا يتسع لاسم صديقه _ أأنت إيغنات إيفانوفيتش ؟

_ نعم، أنا، لم تخطئ _ ضحك إيغنات تغلبه السعادة _ لا حقد في ما قلت لك _ أنا وأنت، وإن لم ننتم إلى شعب واحد، كالأخوين؛ فماذا يكتم أحدنا عن الآخر ؟

لم يُخْفِ خان جري ما يقلقه وهو سعيد بما يسمع.

_ لا أقصد بكلامي ألا نخلص لقيصرنا الذي عاهدناه، نحن جنود، والجندي ينفذ ما أُمر به , ولكني مع ذلك مهموم بما سيكون مصير الأديغة.

_ تؤذي قومك وأنت تظن نفسك تُحسن إليهم؛ أليس كذلك يا خان جري ؟ قال إيغنات كأنه غير مبال بالموضوع.

_ الآن نفَذْتَ تماماً إلى ما في قلبي. إن قلت لك يا إيغنات ما لا يليق فسامحني وافهمني. بالنسبة إليّ هذه الضفة القوزاقية التي أنا عليها وتلك التي عليها الأديغة سِيّان عندي. حين دخلت بلادنا بدأ شعوري يتعمق بأني، بإخلاصي للقيصر، أؤذي الأديغة الذين هم قومي عَبْرَ اتفاق سلام أدريانوبول. ولكني مع ذلك لا أعدّ نفسي فعلت ما لا يجوز فعلُه. لماذا نخدع أنفسنا بأنفسنا كما كان يقول والدي. لا مصلحة لنا مع تركيا إن كنا نريد أن نعيش دولة مستقلة.

لم يُنه خان جري كلامه، ولم يسأله إيغنات عن سبب توقفه لأنه تفهّم ما يعتمل في صدر صديقه.

يهدّئ السائس القوزاقي العجوز من سرعة الأحصنة التي بُدِّلت عند بداية نهر لابا، والغبار الذي أسبله مطر الصباح الصيفي الضعيف يتناثر بخفة تحت عجلات العربة، والشمس تصعد من جهة الجبال الشرقية. وإذا التفتّ من مكان خان جري نحو نهر بشزة خُيِّل إليك أن بلاد الأديغة تنسحب من ناظريك كأنها تهرب من كفك. والقمم البيضاء البعيدة تسند السماء، ورائحة الخضرة تفوح من الغابات الفسيحة، والقطعان تسرح في البراري الواسعة، والقرى المتناثرة التي توزعها الغابة، وتلك الممتدة على ضفاف الأنهار، تبدو من جهة البجدوغ والأبزاخ.

هذه القرى لا تعرف ماذا يخفي لها الغد، تعيش في سلام لأنها لا تعرف أن الدولتين الروسية والتركية تقاسمتاها بموجب معاهدة؛ قال خان جري في نفسه واعتصر الألم قلبه. سيشعر قومي الذين لا تعرف قلوبُهم الخبثَ بالإهانة مما فعلوه بهم من وراء ظهرهم، وسيلجئهم إلى السلاح. ما تركيا ؟ ! فعلت بنا ما فعلت ثم نفضت يدها منا تاركة إيانا نتفاهم مع روسيا وإن لم تكن لها علاقة بنا يوماً من الأيام. وروسيا ليست الدولة التي يمكن خداعها بسهولة فقد نصَّت الوثيقة على اعتراف من تركيا بانتصارها تتحدى به أي معترض سواء من الأديغة أم من غيرهم. والأمر الآن متروك لتفاهم الطرفين الروسي والأديغي. وأظن بوكروفسك لهذا السبب قال لي: " في طريقك إلى بطرسبورج مُرَّ على قومك وقابلْ زعماء البجدوغ وادعُهم إلى الصلح معنا ! " لن أتكاسل عن مهمة والدي إن أطاعوني أم لم يطيعوني. سأكلمهم وسأقول لهم ما في قلبي.

ــ إن رجعت خمسين عاماً إلى الوراء أيها الضابطان المحترمان ــ بتر السائس القوزاقي العجوز أفكار خان جري ــ نمر الآن بالمكان الذي كان فيه مقرُّ الجنرال سوفوروف؛ إن شئتم أوصلتكم إليه.

ــ نعم أوصِلنا ! ــ قال خان جري مسروراً لأنه سيمر على ضفة نهر بشزة وستقع عينه على بلاد الأديغة.

اعتلت العربة نقطة التقاء نهري لابا وبشزة على الضفة العالية، وأشار السائس من مكانه بالسوط:

ــ يروون أن الجنرال سوفوروف كان يجابه الأديغة من هنا. كانت هناك أزمنة عجيبة أيها المحترمان؛ هاهم الأديغة: انظرا إلى كل هذه الغابات والبراري التي تلامس البحر الأسود وبحر كيرش يمتلكها هؤلاء اللصوص القَتَلة. وشاطئ بحر آزوف الجنوبي تحت سيطرة هؤلاء العصاة.

نظر إيغنات إلى العجوز نظرة استياء محاولاً ثنيه عن الكلمات المهينة للأديغة، وتنحنح:

ــ دعه يقول، دعه ! ــ ابتسم خان جري ــ لا يقول شيئاً من خارج قلبه.

الآن فقط فهم السائس القوزاقي العجوز ما يدور:

ــ لا أعرف إن كان الضابط المحترم من الأديغة. على ما أرى أنت في جيشنا. حسنٌ أنك أديغي وفي جيشنا. لا أقول ما يسيء. ما أكثر ما تَوَاجهنا ! وما أكثر ما قتلوا منا وقتلنا منهم ! كان عهد الجنرال سوفوروف هكذا، وكان عصر فلاسوف الرجل الممتاز أسوأ .

ــ والآن، هذه السنوات ؟ سأل خان جري.

_ العام الفائت وهذا العام بالقياس إلى الأعوام السابقة، وباستثناء بعض المناوشات أحياناً، كان بيننا سلام. نلتقي أكثر من ذي قبل عبر الأسواق ونتبادل البضائع. أما الآن فقد أهاجتهم الحرب التركية.

نظر خان جري إلى إيغنات نظرة قلق.

_ ما الذي لا يعجبهم ؟ سأل إيغنات وهما يركبان من جديد.

_ كيف تعرف دون أن تخالطهم وتحدثهم ؟ انظر إلى هذه القرية التي تبدو لك؛ ربما تسمى الحاتقواي؛ يأتي رجل من بلاد الأديغة إلى الجانب القوزاقي من نهر لابا فيحمل إليهم بعض الأخبار. الأديغة ينتمون إلى أصول متعددة. أنت من أي أصل تأتي أيها الضابط المحترم ؟

_ خان جري من بلاد البجدوغ _ أجاب إيغنات _ من أمراء آل سلطان، جده ووالده خدما في جيشنا.

_ سمعت، سمعت._ التفت العجوز الذي استقر في مكانه، وقال مرتاحاً حاثاً الأحصنة:

_ هؤلاء أصدقاؤنا، البجدوغ مقبولون مسالمون، يقولون إن العقدة هم الأبزاخ والشابسغ.

لم تختلف أفكار خان جري الصامت عن أفكار السائس، والهرج الذي كان متوجساً منه والذي يتحدثون عنه كان يقلقه أكثر كلما قطع المزيد من الطريق واقترب من قريته قائلاً في نفسه: ما أسرع ما تنتقل الأخبار! ثقُلت الشارات على كتفيه، و خُيّل إليه أن الوسام الذي يشهد على شجاعته في الحرب لم يعد يلمع ولا يفرح به كما في السابق.

X

حين بلغ خبر وصول خان جري إلى اجتماع أمراء البجدوغ ونبلائهم كانت عربة آل سلطان قد اجتازت للتو نهر بشزة.

دخل خان جري ساحة الاجتماع مع الفرسان الثلاثة الذين أرسلوهم إليه. وعندما ظهر خان جري للاجتماع الذي لا يضم إلا الأمراء ارتفعت أصوات مختلفة. وأوقف الأميرُ الأب حجمْقوه بالْمز الضجيجَ بإشارة من يده المرفوعة:

_ مرحباً بك أيها المحترم. حين سمعنا أنك وصلت إلى القلعة القوزاقية رأينا أن نستضيفك قبل أن تدخل دار الإمارة؛فلا تؤاخذنا ! وصلَنا خبر من طرف الروس _ الترك أقلقَنا؛ فقل لنا الحقيقة.

_ أيها المحترم _ قال نبيلٌ ليس بعيداً عن الساحة _ انظر إلى كتافية محدِّثك وقطعةِ الحديد المعلقة على صدره واعتبِرْه أجابك !

_ يا اجتماع الأمراء والنبلاء الذي أُكِنّ له الاحترام والتقدير _ والآن رفع الأمير الكبير حجمقوه يده ثانيةً _ لا تُقوّلونا ما ليس مطلوباً منا. لسنا لأول مرة اليوم نرى كتافيات آل سلطان. لا تهينوني أنا أيضاً لهذا السبب، ولا تحطّوا من قدْر المحترم الذي رجوته أن يتفضل إلى اجتماعكم. لا تتعجبوا من اختلاف آراء أمراء البجدوغ ونبلائهم على قدر عددهم، ولا من تكتلهم في جماعات. لم نجتمع اليوم من أجل أن ينقض أحدنا كلام الآخر، ولا من أجل أن يشعر من لا يؤخذ رأيه بالصَّغار. ولما كان الخبر المشؤوم الذي ثار في

إقليم الأديغة قد جمعنا فلْنتأكدْ من صحته ! لا تدَعونا نلجأ إلى القامة لحلِّ قضايا تحتاج إلى الزمن وإلى التفكير، تَحَلَّوا بالصبر ! أخبرْنا أيها المحترم بما تعرف عما يُهمُّ الأديغة، لا تكتم شيئاً عنا !

ـ إن كان اجتماع نبلاء وأمراء البجدوغ قد دعاني لهذه الغاية ـ ترجّل خان جري من الحصان واتخذ مكاناً وسط الساحة بثبات ـ أقول لكم إنه لا معلومات لديّ أكثر مما وصلكم، ولكني لست متأكداً من صدقها. إن كنتم تريدون معرفة رأيي فلا أحبّذ أن تكون بيننا أسرار. هذا ما أستطيع أن أقوله اليوم إن فهمتموني. والآن فكرة أخرى: إن كنا وقعنا بين دولتين فكما كان يقول والدي، الأفضل أن ننظر عبر نهر بشزة من أن نتطلع وراء البحر الأسود. يمكننا أن نرى من نواجهه على نحو أفضل. لا تؤاخذوني ! أنا ما زلت على الطريق.

استُقبِل خان جري حين دخل دار الإمارة بفرح وحزن معاً ! تجدد الحزن كما هي العادة على قرم جري الذي مضت سنتان على رحيله فبدأ اللقاء بدموع الحزن، وانتهى بدموع الفرح بالعائد إليهم سليماً.

ـ ما العمل إذن ؟ ـ تنهدت قانتات بعمق وقالت وقلبها يرتاح: ـ كان الله قدّر لقرم جري ما حدث؛ لا نستطيع أن نغير شيئاً في قدره. ليوجّهه الله إلى الخير حيث رحل ولْيُسكنْه الجنة. لا ألومه. يا ولدي أخبرنا إن كنت تعرف حقيقة الخبر المشؤوم الذي وصلنا عما دار بين الروس والترك بشأن الأديغة.

ـ الخبر الذي وصل إلى الأديغة صحيح ـ تنهد خان جري ـ ولكن لم أتوقّع قطُّ أن يتصرف الروس والترك هكذا بشأننا.وأنا ساهمت في هذا ودفع المرحوم قرم جري روحه. تورّط أناس كثيرون في هذا العمل غير السويّ. ما يحزنني هو أنهم لم يحسبوا حسابنا ولم يتصرفوا معنا بإنسانية. "توازعوا، على ما يبدو، كومةَ الحشيش التي حشّها أحدهم في البرية حيث كوّموها" وهؤلاء، على ما أراهم، لن يقفوا عند هذا الحد يا نانا.

ـ يا ولدي ـ جعل هذا الحديث قانتاتَ تستعجل، ونظرت إلى سعيد جري وعادل جري، والتفتت إلى شواي ـ أعبّرت عما يُقلقك ويجيش في صدرك في اجتماع الأمراء الذي دُعيت إليه ؟

ـ لا، لا تُقلقْك هذه الفكرة يا نانا ـ لم أغير شيئاً في مواقف أسرتنا، وخيّل إليّ أنهم تفهّموني. نظر خان جري نحو شواي وكأنه يقول: أتوافقني أكثر من الجدة ؟ ـ كلفوني في الاجتماع أن أكتب رسالة إلى القيصر وإن كنت لا أعرف نتيجتها.

ـ وما مضمونها ؟ سألت قانتات.

ـ استنتجت من الاجتماع أن الأمراء والنبلاء في البجدوغ يريدون مصالحة قيصر روسيا؛ وهذا ما رجوني أن أكتبه في الرسالة.

ـ هذا خبر جيد ونية حسنة ـ قالت قانتات بحيث لا يعرف السامع أهي فرحة أم قلقة. ثم سألت شواي: ـ ما رأيك أنت يا شواي ؟

في عام مضى، وفي موضوع مشابه، تذكّر شواي أنه تخاصم هو ومحمد جري، وتذكر الأيام والأشهر الثقيلة التالية. وفيما هو يبحث عن الكلمات التي تصلح أن تكون جواباً هادئاً ساعدته قانتات:

_ إن كان يصعب عليك ما ستقوله فليس ضرورياً، نحن لا نستطيع أن نتكفل بكل شيء.

_ ولماذا صعب عليّ يا نانا ؟ اتخذ الموالي في اجتماعهم الموقف نفسه الذي اتخذه أمراء الخمشي والذي يرفض ما فعله قيصر الروس وسلطان الترك بالأديغة. هذه المعاهدة ربما تسبب فتنة _ قال شواي _ نبتَ رفضُ الموالي في أطراف جدران الأسيجة، وفي المضافات.

_ وأنا توقعت هذا _ قالت قانتات، وأنهت بعد قليل بهزة رأس: _ ما العمل ؟ ما حمّلَنا الله حِمْلُنا. إن كان اجتماع الأمراء والنبلاء كلّفك يا خان جري وكانوا مستعدين أن ينضموا إلى نهجنا فلْنلبّ لهم طلبهم. ولكن، أتسمعون يا أولاد: ما قلناه في بيتنا _ أكدت قانتات على الحضور _ يبقى في بيتنا. ليست محاكمةُ تصرُّفِ الدولتين مسؤوليةَ أسرتنا. لا ننسَ أن خان جري ضابط روسي ! أتريد أن تقول شيئاً يا شواي ؟ أنت أكبر الحضور هنا يا ولدي.إن كان هناك ما لا يعجبك فقله !

_ ما قلناه في بيتنا يا نانا ليس حديثاً للقرية، سيبقى في بيتنا _ قال شواي _ أنا لم أمل لا إلى تركيا ولا إلى روسيا، اللهم إن لم يكن موقفي نحو الأخيرة قد تبدّل قليلاً في السنوات الأخيرة. صحيح أن من الصعب تقبُّل ما فعلته بنا الدول الغربية غير أني لا أقصد بهذا يا خان جري ألا تصدُق مع الدولة التي اخترتها بقلبك، ولا أن تمتنع عن تلبية رجاء اجتماع الأمراء والنبلاء. أنت الآن على مفرق طريق، ولا أريد بهذا أن أدفعك إلى تغيير طريقك.

_ شكراً يا شواي _ قال خان جري _ عبّرتَ عما في قلبي. لستُ راضياً عما حدث لنا نحن الأديغة، ولكني أفهم أن لا مخرج لنا غيرُه اليوم. كان تصرفاً جيداً لو احتذى كل الأديغة حذو أمراء البجدوغ ونبلائهم.

لم يعلّق شواي على كلام خان جري.

وسعيد جري وعادل جري يتبادلان نظرات الاستفهام.

نقضت قانتات الهدوء الثقيل:

_ هذه مأساة جديدة قامت بيننا نحن الأديغة... يا خان جري اذهب وخالط الموالي العاملين في الدار وسلِّم عليهم. وكما قلنا يا شواي لا حاجة أن نخبرهم بالكثير. يا سعيد جري أو أنت يا عادل جري، لم أر منذ الصباح ابن شواي؛ شوَّقوني إليه. ليأتِ به أحدهم إليّ ! أنت يا خان جري لحظة ! _ حين بقي الاثنان وحدهما في الغرفة قالت قانتات: _ لم تعجبني آراء شواي يا خان جري.

_ القلب الأديغي لشواي يا نانا _ ابتسم خان جري _ يصارع نفسه في صدره. لم يقل ما لا يجوز.

_ يا مصيبتي _ جفلت قانتات مما سمعت _ ألم يعد قلبك أنت أديغياً ؟

_ وفي قلبي يجري الصراع نفسه يا جدتي، ولكن ثقي أني لن أخطئ اتجاهي في المفترق الذي تكلم عليه شواي. أعجبني تصرف نبلاء الخمشي، وسأكتب رجاءهم إلى القيصر، وسأكون سفيرهم.

حين دخل سعيد جري ممسكاً بيد الطفل الأسمر ذي العامين، ووراءه عادل جري، مدّت قانتات أصابع الفرح إليه.

_ تعال يا ولدي تعال ! _ تعلق شواي الصغير بعنق قانتات _ أنت اشتقت إليّ يا صغيري. هل انتهيت من طعامك يا ولدي ؟ يا خان جري أعط " زَبْش "شيئاً من الحلوى التي وراء ظهري ! نعم يا صغيري نعم. إنه خان جري، ولدنا أيضاً، الأخ الأكبر لسعيد جري وعادل جري. هذا هو خان جري الذي كنت أحدثك عنه دائماً _ خطر لها أن تقول له " إنه الأخ الأصغر لأبيك شواي " ولكنها أمسكت لسانها _ انظر ماذا يفعل هذا الذي ما يزال طفلاً ! إنه لا يأخذ الحلوى منك، لا يثق بك بعدُ.

***

في 17 كانون الأول من العام نفسه، عام 1829، أوصل الجنرال بيروفسك إلى رئيس هيئة أركان الجيش الروسي ما كتبه خان جري باسم أمراء الخمشي ونبلائهم. وحين أعلموا بهذا الموضوع القيصر نيقولاي الأول أرسل رسالة مستعجلة إلى موفد روسيا إلى تفليس باسكيفيتش إيريفانسك، وأُرسِل معها خان جري.

أرسل الجنرال باسكيفيتش إلى إيكاترينودار أن يتأكدوا من صحة محتوى الرسالة وإن كان في نفسه مرتاحاً لها. وما إن وصل الجواب حتى استدعى إليه الملازم حان جري.

خُيِّل إلى خان جري أن سحنة قائد جيش القفقاس الطيبة تحمل شيئاً لا يسر، وإن كان استقباله له في اللقاء الثاني مشابهاً لترحيبه به في اللقاء الأول.

_ يسرنا ما كتبه إلينا أمراء البجدوغ _ قال باسكيفيتش _ إن صفُّوا إلى جانبنا فسيجدون صدقاً من ناحيتنا. نحن روس، ولسنا ممن يحنث بوعده. ما ساهمتَ به من قول وفعل في موقف قومك أيها المحترم أخبرني به الجنرال بيروفسك.ولو تصرف الأديغة الآخرون كما تصرف البجدوغ لرضينا عنهم؛ غير أنّ فهْم هؤلاء _ وإن كان مؤسفاً _ قاصر إلى الآن. لا يفهمون إلى الآن لماذا جئنا إلى القفقاس وجابهنا اللصوص الترك. لسنا في عجلة من أمرنا، نتأمل أن يفهموا. أما أنت فنحن راضون عنك، فهمُك عميق أيها الملازم. أثمّن ما اجترحت من بطولات في حروبنا ضد الترك والفرس. وأعرف أن أخاك الأكبر سلطان قرم جري سقط وهو يحارب ببسالة. أنت ما تزال شاباً، وأنا واثق أنك ستخلص لسلطان بلادنا روسيا _ حاول خان جري أن ينهض فلم يقبل _ اجلس، اجلس أيها المحترم ! أثق بك ولكن أريد أن أقول شيئاً فاحفظه في قلبك كما لو قاله لك أقرب الناس إليك. نحن لسنا بحاجة إلى حاكم على أمراء الخمشي سواء كنت

أنت أم غيرك. لا تصدّق كل ما قاله لك من طلبوا منك الكتابة ! ما أسهل عليهم أن يتركوك وحيداً في الساحة[1].

نهض خان جري وقد شحب وجهه:

ــ يا إيفان فيدوروفيتش المحترم ــ نطق اسمه غير ناسٍ أنه هو أيضاً أمير ــ إن كنت تتحدث عن زعامة أمراء الخمشي فأنا لم أكتب شيئاً غير صحيح، ولم أسجل ما لم يقولوه لي. لا يجوز أن يقال عني مثل هذا.

ــ أصدّقك أيها المحترم، أصدقك ــ نهض الجنرال باسكيفيتش أيضاً ــ أفهم مصدر حزنك. أنا شخصياً راض عن أدائك أيها الملازم. بإمكانك منذ الغد أن تسافر. حين تصل إلى سان بطرسبورج التي أُحبها سلّم لي عليها، بلّغها شوقي إلى صقيعها ونجوم سنتها الجديدة.

[1] في كتاب " المجموعة القفقاسية " الذي كتبه الأمير البجدوغ حجمقوه والذي نُشر عام 1910،وفي بابه العاشر سرد الخبر المتعلق بهذا الموضوع كما يلي: " حين سألوا أمراء الخمشي شهدوا أن سلطان خان جري هو من أنشأ رسالتهم، ولكنهم صرحوا بأنهم لم يقبلوا ترشيحه لنفسه أن يكون مسؤولاً عن الأمراء.

الكتاب السادس

في 10 شباط عام 1830حين رجع الملازم خان جري من الحرس القوزاقي لشيرنومور التابع لسرية القوزاق من تفليس لم يكن مضى ثلاثة أيام عندما أرسل إليه قائد الفرع الثالث من الجندرمة بنكندورف من مقر عمل القيصر يدعوه للحضور بسرعة.

لم يكن خان جري يسمع اسم أسرة بنكندورف للمرة الأولى. حين يعود إلى الوراء خمس سنين زمن انتفاضة الديسمبريين، يعرف خان جري أن قائد الجندرمة بنكندورف كان مخلصاً للقيصر ولم ينحرف عن إخلاصه يميناً أو يساراً. وحين قيل إن الانتفاضة هي من تدبير الضباط لم يُبدِ أي ليونة نحوهم. ولكن لم يتسنّ له أن يقابله أو يكلمه حين كان يدرس في الأكاديمية العسكرية، وخلال نصف السنة التي خدمها هناك في بطرسبورج.

لماذا يستدعيني بنكندورف ؟ أي شأن له معي ؟ _ نظر خان جري إلى الساعة وقلقه يهيج؛ لا يزال أمامه أكثر من ساعتين. لم يتكلم معي بعدُ في موضوع عملي الجنرال رئيس الأركان الذي أرسلني إلى الجنرال باسكيفيتش في تفليس. والآخر الذي لا أعرف من هو يرسل ورائي. أولُ من تعجب من الخبر هو قائد سريتي القوزاقية. ومع أني قلت له إني لا أعرف سبب استدعائه لي فقد سألني في تفصيلات كثيرة. ولكن ماذا أقول عما لا أعرف عنه شيئاً. حقاً لماذا يستدعيني قائد الجندرمة ؟ أقول لنفسي إني ارتكبت خطأ وأنا في طريق الذهاب والعودة إلى تفليس غير أني لا أعرف نفسي فعلت شيئاً من هذا القبيل. تكلم معي الجنرال باسكيفيتش جيداً، سأل عن أصلي واسم قبيلتي، وأين تسكن، إلى أدق التفصيلات. وحين كلمني ثانية بعد أكثر من أسبوعين لم يكن فيه ما يعيب سوى نظراته الخفية.

حين رأى كابوستينكا إيغنات وكاردوفسكا يعقوب على الباب اكتشف قلقَهما من نظراتهما الواجمة رغم فرحه بلقائهما، واكتشف أنهما مهمومان بما يهمه.

_ أحقاً استدعاك بنكندورف ؟ _ سأل إيغنات.

_ ما أسرع ما سمعتما الخبر !

_ لا خبر يخفى يا خان جري _ قال كاردوف يعقوب حامل العلم[1] الذي انضم إلى سريته بعد الحرب التركية. وابتسم واعتلال صحته بادٍ على وجهه الممتقَع:

_ قيل لي يجب أن أكون عنده في الساعة الحادية عشرة _ أجابهم بصوت حازم خان جري، ولكن قلقه ظهر من تتمة جوابه _ ولكن لا أعرف لماذا يحتاجني.

_ وهذا ما نقوله نحن أيضاً _ انخفض صوت إيغنات رغماً عنه _ لم يحدث لك مكروه على طريق تفليس؛ أليس كذلك ؟

---

[1] رتبة تعادل رتبة ضابط. المعجم الروسي

_ لا شيء من هذا.

_ لا أعرف إذن لماذا يستدعونك إلى الجندرمة _ نظر إيغنات نحو يعقوب.

_ كل هذا سيظهر بعد ساعة _ نهض خان جري بقوامه الممشوق المتين _ وكما يقال في بلادنا " لا شيء يقلق المخلصين للحرية "

لم يكفّ خان جري عن التفكير في سبب استدعائه إلى بنكندورف حتى وصل إلى الباب الحديدي الواسع. أدخلوه إلى الغرفة الواسعة التي يشعّ منها شيء من الحرارة وقد نسي وهو يمتطي الدرج الحجري الأبيض أنه أديغي وأنه يخدم في السرية القوزاقية وأنه ملازم وأنه يحمل وساماً على صدره. لم يكن في الغرفة التي بابها مفتوح على مصراعيه إلا مقدم جالس إلى جانب طاولة.

_ أيها الملازم خان جري _ نظر المقدم ذو الأنف والوجه الكبيرين إلى الساعة _ لا يزال أمامك بضع دقائق على الموعد. ما إن تحين الساعة الحادية عشرة حتى يدعوك الكونت ألكسندر كريستوروفيتش.

ابتسم خان جري في سره لأنه عاد إلى وعيه حين جلس على أحد المقاعد الثلاثة الذهبية اللون. وسمع من الجانب الآخر إلى اليسار حركة عقارب الساعة الكبيرة على الحائط، ورأى قفزاتها الناعمة. وفي السقف المصابيح الكبيرة الموصولة بالزجاج اللامع، والتي لا يمكن الوصول إليها من على أرض القاعة المرصوفة بالخشب، وشمعدانات النحاس التي تضم ثلاثيات من مصابيح الشمع على الجدران. وفي الموقد الجداري الذي على جانبيه مقعدان نارُ حطبٍ خفيفةٌ تدفئك ولا تدفئك. وصورة كبيرة للقيصر نيقولاي الأول تحتل الجدار المقابل للموقد،وستائر النوافذ الأربع تمسك أشعة الشتاء الشاحبة.

قال خان جري في نفسه: ليت نانا شاهدتني وأنا مدعو إلى مثل هذا القصر ! لم تكن تنهي وصفها لقصر الأتامان القوزاقي ماتفييف لأخويَّ اللذين ماكانا يفارقان الدار. إن كان مكتب قائد الجندرمة هكذا فكيف بمكتب القيصر ؟ ! وكما يقال " ما تراه العين يساوي الحياة " فمن الممتع أن يرى مقر القيصر , ولكن ليس جميع الناس محظوظين ليتسنى لهم هذا. أيكون قصر القيصر هادئاً كهذا ؟ وما هذا العمل الذي لا ينتهي والذي يغرق فيه المقدم رأسه ؟ يجب أن أعرف لماذا دُعيت إلى هنا. إنه غارق في الأوراق خافض الرأس ولن يجيبك إن سألته. لا أظن أمامي خيراً فجلوسي وعدم جلوسي سِيّان عنده. لو صحبتُك إلى حرب الترك أو الفرس لخِبرتُ كيف تتصرف هناك !

وفي هذه اللحظة تذكر خان جري بداية مشاركته في حرب الفرس، وارتسمت أمام عينيه الجوارح الحائمة في السماء، وسمع الكلمات الأخيرة لأخيه الأكبر قرم جري. وعادت إلى مخيلته صلبان شواهد القبور لضحايا الحرب باستثناء قبر أخيه المسلم.

وعلى رأس الساعة انتشل صوت الجرس الصادر من وراء الباب خان جري من أفكاره، ونهض المقدم وقال مسبَل اليدين:

_ تفضل أيها الملازم خان جري؛ ألكسندر كريستوروفيتش يدعوك إلى الدخول.

ما إن تجاوز عتبة الباب حتى تسمّر في مكانه. ولم يدَعِ الرجلُ الأشقر الكهل المعتدل بين السمنة والنحافة بعينيه الزرقاوين المخادعتين الذي استقبله مبتسماً له، لم يدع الملازمَ القوزاقي يكمل ما بدأه:

_ الآن أفهم أيها المحترم كيف أنت _ رحّب بنكندورف بخان جري وقاده إلى المائدة الواطئة المنتصبة قرب الموقد الجداري ممسكاً ذراعه اليسرى برفق _ أنت شاب متناسق القوام.لا يزال عمرك كله أمامك. وقد سمعت برجولتك في الحربين، وبإخلاصك لقيصرك ولدولتك، وها أنت الآن واقف أمامي. اجلس قبالتي مرتاحاً دون تكليف زائد. دعني أمتّع عيني بك وأفرح بمرآك. نُمِي إليّ أنك كنت في القفقاس قبل مدة وجيزة، وأعطوني فكرة عن الكتاب الذي أرسلتَه إلى أركان الجيش، وقد تصفّحه القيصر ولاقى قبولاً منه.

_ يا سموكم...

_ ألم نتفق على طرح التكليف الزائد بيننا ؟ ! _ لم يسمح بنكندورف لخان جري أن يكمل ما يريده _ خاطِبني بـ " ألكسندر كريستوروفيتش" فحسبُ، نحن وحدنا فأسمح لك بهذا. نعم أيها المحترم لا تتعجب فالقيصر هو أول من قرأ كتابك وقيّمه بما يستحق، وهو من أرسلك إلى المكلف بقيادة القفقاس الكونت باسكيفيتش. إن إيفان فيدوروفيتش باسكيفيتش راضٍ عنك مثلنا، وقد ردّ علينا بهذا المعنى.

قفز قلب خان جري لِما سمع؛ قال: على ما يبدو هؤلاء مطّلعون على جوابِ ما طلب مني أمراء الخمشي كتابته إلى القيصر. والجنرال باسكيفيتش لن يخفي عن هؤلاء البتة ما لم يخفه عني. والأفضل أن أروي بنفسي ما فعله بي قومي من أن يرويه لي بنكندورف. أظنه يتمتع بالرجولة والإنسانية والصدق، وأظنه سيثق بي. وكما تقول نانا " مهما أحكمت الكذبة فلا بد أن ينفرط عقدها، والصدق مهما ظننته غير متماسك فسيلتئم "

_ ولكن يا ألكسندر كريستوروفيتش _ قال خان جري _ أحرجني قومي الذين ظننت أني فعلت معهم خيراً.

_ وكيف ؟ _ سأل كأنه لا يعرف الموضوع _ أليس ما طلبوا منك كتابته صحيحاً ؟

_ صحيح أن أمراء الخمشي قالوا: سنصالح الروس وسنحالفهم، ولكنهم نقضوا وعدهم لي بأن أكون مسؤولاً عن البجدوغ.

_ أليس صحيحاً أيها المحترم أن أمراء الخمشي تعهدوا بمحالفتنا ؟ _ سأل الكونت بنكندورف، وخيل إلى خان جري أن عينيه الزرقاوين الذكيتين تلمعان.

_ لا ألومهم على هذا يا ألكسندر كريستوروفيتش. لم أكن المبادر إلى ما كتبت بل هم. ولأنهم قالوا لي: لسنا وحدنا بل سنحثّ أمراء الشيشان ونبلاءهم إلى مصالحته، ولأنهم قالوا لي إنهم سيزعّمونني كتبت وأنا أَنشُد الأفضل، وقلت: لا بد أن القبائل الأديغية الأخرى ستحذو حذونا.

_ وهؤلاء أتظنهم سيحالفوننا كأمراء البجدوغ ؟

_ أظن القبائل الأديغية الأخرى ستفعل هذا إن عاملناهم بإنسانية يا ألكسندر كريستوروفيتش.

ـ إن خدعك هؤلاء كما فعل الأولون أيها المحترم ؟ ـ ابتسم بنكندورف وسأل بصوت ألطف دون انتظار الجواب: ـ كيف تفهم شكل الإنسانية التي ينبغي أن نعاملهم بها ؟

ـ ليس عند قومي ما هو أغلى من حريتهم وأرضهم يا ألكسندر كريستوروفيتش. إن لم تنتقصهم من هذين وقدّرتهم تمكنت من معايشتهم وحُزت طاعتهم.

ـ أليس الأديغة أقواماً متعددة ؟ ـ سأل بنكندورف متسائلاً وهو يبتسم:ومن لا يعتدُّ بحريته وأرضه ؟

ـ الأديغة اثنتا عشرة قبيلة، وأكبرها الشابسغ والأبزاخ والقبرتاي.

ـ وهل القبرتاي أديغة ؟

ـ نعم، وإن عدت بضعة قرون إلى الوراء وجدتهم سكنوا بجانب بحر آزوف.

ـ والأبخاز ـ لم يدعْ بنكندورف خان جري يكمل ما بدأه بخصوص القبرتاي.

ـ والأبخاز يقولون إنهم كانوا في عصرٍ ما أديغة. لا نشترك في اللغة وإن اشتركنا في الحروف فإن لغاتنا تتمايز، ونفترق في الدين: نصفهم مسيحيون ونصفهم مسلمون.

ـ عندك اطّلاع على تاريخ الأديغة أيها المحترم ـ قال بنكندورف في نفسه: ليس مَن أمامي مجردَ أديغي متمرد؛ إنه ضابط مثقف متمرن، وتأمله بعين ثاقبة ـ ما سمعته سرّني.

ـ شكراً يا كونت على احترامك لي.

ـ يسرني أيها الملازم، يسرني ـ نطق بنكندورف رتبة خان جري لأول مرة، وأكمل متظاهراً باللامبالاة. ـ ولكن لا أعرف أين تعلمت كل هذا في سنيك الاثنتين والعشرين.

ـ في طفولتي علّمتني جدتي قانتات أسعد غريفنا ـ لم يكن خان جري بدأ الجواب على ما يحوم حوله السائل ـ وفي المدرسة التي درّسوني فيها في تفليس وفي سان بطرسبورج درسونا ما يتعلق بالأقوام الأخرى. ثم يا ألكسندر كريستوروفيتش لا أنسى ما كان يقوله مسنّو قومي: إن لم تعرف تاريخ قومك عشت حياتك أعمى أصم أبكم.

ـ شكراً أيها الملازم، شكراً أيها المحترم ـ قال الآن بنكندورف دون مراءاة ـ يسرني كثيراً أننا تعارفنا. وأنا واثق أنك لو صرت مسؤولاً عن الخمشي لما خدعتهم. على ما يبلغنا من استعدادات قومك لا أظنهم يحتاجوننا نحن وأنت. ـ سرَتْ على وجه قائد الجندرمة ابتسامة لا تكاد تَبين ـ ولكن سنراقب ما يجري. ما دعوناك اليوم لأجله أمرٌ آخر، دولتنا قادرة على التصدي لمن يقاومها ولكن الأفضل ألا نضطر إلى

هذا. ونظنك ستفيدنا في هذا. في العام الماضي لا بد سمعت أنهم شكلوا سرية جبلية قفقاسية لحماية القيصر[1] وفيها كثير من الأديغة، وقد يكون قائدها من أقاربك: الروتميستر[2] سلطان عزمت جري.

_ لا، لا قرابة بيننا. ولكني سمعت به.

_ إن وافقت أيها الملازم فسنضمك إليها.

_ إن كنتُ موضعاً لثقة سموكم. _ جعلته المهمة الجديدة التي لم تخطر له ببال يرتفع من مجلسه _ شكراً، الوقت الذي تحدده موعدٌ لي.

_ اجلس ! _ اجلس أيها الملازم _ لم يتحرك بنكندورف من مقعده الوثير. والوجه الظاهر من خلال الصُدغين المائلين إلى البياض هادئ، وكذا العينان الزرقاوان الخبيثتان من تحت الحاجبين الأشقرين غير الكثين هادئتان _ لست أنا أيها المحترم، لست أنا أيها الملازم _ ضغط على آخر كلمة _ من يثق بك، إنه قيصر روسيا العظمى. وأن تكون في حضرته وتكون حامياً لحياته أمر إلهي لا بشري. ودون أن تتفهم هذا وتوْدِعه في صميم قلبك لن تقدر على أن تكون مخلصاً لمبعوث الله. وقبل أن نقلّدك المهمة الجديدة فكرنا طويلاً، واختبرنا عدداً من بلادكم. ليس لأننا لا نجد من يناسبنا ومن يخلص لنا؛ ولكنك أنت أيها الملازم من فضّلناه على الجميع. نحن نعرف أن أسرتكم مخلصة لروسيا وأنكم مناصرون للقيصر، وقد بدا هذا من مصير جدك ووالدك وأخيك الأكبر. وظهر تفانيك في آخر حربين في القفقاس. نحن راضون عنكم، لا يجوز جحد معروف الإنسان وخصوصاً إذا كان نحو القيصر والدولة، ولهذا زَكّوك كلهم عند القيصر. ولكن لا تنس أيها الملازم أن القيصر هو من اختارك _ سأل بنكندورف خان جري وإن لم يُبدِ الأخير قلقه: _ أتريد أن تقول شيئاً أيها المحترم ؟ أسمعك أيها الملازم _ اختتم بصوت أقوى.

الآن فقط تأمل خان جري صورة القيصر المعلقة على الجدار الذي يجلس إليه بنكندورف، وقبل هذا حين كان قائد الجندرمة يكلمه لم تكن صورته المعلقة وراء القائد غائبة عن مرآه، ولكن خيِّل لخان جري الآن أن

---

[1] يكتب س. بيتين في كتابه "الحرس المستقل للقيصر المحترم": تألفت انتقاءً من جيوش متنوعة، ومِن هؤلاء مَن له تاريخ مميَّز، فألفوا منهم جيشاً خاصاً مستقلاً للحراسة. وبقي الأديغة يحمون قصره.

وفي عهد ولاية نيقولاي الأول بن بافل اختاروا من بين سكان الجبال الأديغة الأقوياء من أجل أن يخدموا في حراسة قصره. وألفوا منهم وحدة، وسموا هذه الوحدة: السرية الجبلية القفقاسية. وذلك عام 1828. وبأمر من القيصر المحترم، وفي شهر أيلول، عين قائد جبهة القفقاس جنرال الخيالة إيمانويل الروتميستر عزمت جري قائداً للتشكيل الذي جمعه في ستافروبول. وفي 2 أيار عام 1829 دخل إلى بطرسبورج عبر قلعة موسكو. وكان في التشكيل ثلاثة ضباط برتبة أوبير أوفيسير (ضابط مسؤول أول) وأفندي واحد، وستة طلاب حربية (ضباط صف)، وأربعون حامل سلاح، وثلاثة وعشرون مجنداً، و49 فارساً، وعربات بأحصنة. وخصوهم بثكنة سيفينوفسك.

وأصدر القيصر أمراً في شهر آب بوضع سرية الجندرمة والسرية الجبلية القفقاسية تحت قيادة بنكندورف.

[2] رتبة عسكرية ليس في العربية ما يقابلها، خاصة بضباط حرس القيصر. المؤلف.

القيصر نيقولاي الأول بعينيه المسمَّرتين عليه يسأله: أي إنسان أنت ؟ أسَتُخلص لي أم ستخدعني ؟ القيصر حاسر الرأس عريض الجبهة، واللحية والشوارب متناسقة غير كثيفة، والحاجبان الجميلان يعلوان عينين شِبهَ واسعتين. ولكن سحنته باردة وإن كانت جُعبُ الذخيرة الفضية والكتافيات الذهبية متناغمة. انتبه خان جري إلى نفسه وهو يقول: إنه حاكم البلاد كيفما يكن، يجب أن يغلب عليه طابع الحزم، ويضعف طابع اللين. ووجّه نظراته بسرعة إلى من يجلس في حضرته دون أن يقول شيئاً:

_ أود أن أعبر عن شكري للقيصر على الثقة التي أولانيها. سأخلص له وسأكرس حياتي لأجله _ حسم خان جري الكلام وقد مال بجسمه عن المقعد وإن لم يقفز عنه كما في السابق ثم أضاف بصوت لطيف:

_ لا أعرف يا ألكسندر كريستوروفيتش إن كان من المناسب أن يجتمع قائدان من الأديغة لسرية القفقاس؟

ربما لأنه لم ينتظر هذا السؤال تأمل بنكندورفُ الملازم، وبان على سحنته رضاه بما بلغته فطنة الملازم. ونحن لم ننس هذا الأمر، ابتسم قائد الجندرمة في سره. اختبرتُ بنفسي منذ تأليف هذه السرية ما كان يقوله صديقي الجنرال يرمولوف عن الأديغة " متمردون، فوضويون، محاربون، عشّاق للحرية، فطِنون وصادقون " لم يغب هذا الهاجس عنا، ولكن حين اختبرنا عناصر السرية في كل شيء اخترناكما أنتما. سلطان عزمت جري، كما أنت،ليس لمرة أو مرتين اختبرناه، وكذلك المحاربون الذين يدربهم.

_ ربما ما كنا لنتصرف هكذا لولا ثقتنا بالأديغة _ نهض بنكندورف من مقعده الوثير إيعازاً إلى أن حديثهما انتهى، وهبّ خان جري واقفاً بطريقة تجعلك تغبطه على خفته _ ولكن لا فرق عندنا بين من يخلصون لنا أيها الملازم. سيكون بابي مفتوحاً دائماً لأجلك، وسلطان عزمت جري الروتميستر عنده فكرة عما تحدثنا فيه. سينتظرك في السرية اليوم بدءاً من الساعة الرابعة عشرة، وأنا واثق أنكما ستتفقان.

تصافح الرجلان للوداع وفي تلك اللحظة فحسب انتبه خان جري إلى أن جدران الغرفة الواسعة وسقفها ونوافذها ومقاعدها والمصباحين المعلقين كلها مائلة للحمرة. وخيل إليه أن خديه كالمصباحين محمران، وكذلك قلبه. وما إن استدار خان جري حتى وصل إلى الباب الأحمر ذي المقابض المذهبة اللماعة وهو يلاحظ أن بنكندورف يتابعه بنظراته. وحين خرج من مقر الجندرمة واستقل العربة سأل خان جري نفسه مرة ثانية السؤال الذي كان يدور في رأسه: أكانت غرفة بنكندورف مائلة للحمرة أم خيل إليه ؟ وبعد لأي ابتسم بفتور كأنه وهو يسمع صوت العجلات أفاق من فكرةٍ مائلة للحمرة.

II

استقبل قائد السرية القفقاسية خان جري على عكس ما توقع:

_ عندي فكرة عن عملك أيها الملازم _ مرّ بعينيه على الورقة باستخفاف وقال بالروسية دون أن يدعوه للجلوس، وأضاف بصوت جاف: _ بإمكانك أن تباشر منذ الآن مهماتك.

_ أسمعك أيها الروتميستر. وقف ممشوق القامة استعداداً للكلام، وقال ملمحاً إلى عتبه على الروتميستر الذي لا يعيره نظره: وما هي هذه أيها المحترم؟

لم يرفع عزمت جري وجهه المستدير الثقيل، بل انتفض متلمساً لحيته وشواربه نصف السوداء ولمعت عيناه السوداوان، ونتأت كتفاه، وأجاب بلغة روسية وبصوت جاف:

_ اليوم، ومنذ هذه الساعة أيها الملازم _ تعلّمْ أن اللغة الأديغية لا تستعمل في السرية. أنت وأنا لم نعد أديغيين، نحن ضباط لقيصر روسيا العظمى.

_ أن نكون ضباطاً لقيصر روسيا أيها الروتميستر _ قال خان جري بخليط من الروسية والأديغية، وببطء:

_ لا يعني أننا لم نعد أديغيين. ولن يقبل القيصر الذي ألف هذه السرية منا هذا الكلام.

_ قائد السرية القفقاسية هو أنا _ لم يدع الملازمَ الواقف أمامه يكمل _ أوامري إليك أيها الملازم لا مفر منها ولا اعتراض عليها، أفهمت أيها الملازم ؟

_ فهمت أيها الروتميستر _ فهم خان جري أنه لا يجوز اعتراض هذا الرجل ذي الرقبة القصيرة والوجه الجهم، ومدّ جسمه، وأصدر صوت اصطفاق من قدميه آملاً أن يرفع إليه عينيه.

_ إن كنت فهمت فهذا حسن أيها الملازم _ رفع قائد السرية رأسه ونهض أمام خان جري متين القامة مرصوصها _ هذا أفضل لك. اسمع الآن ما يجب أن تفعله أيها الملازم _ اقترب منه ونظر في عينيه _ هذا الزي القوزاقي اخلعه منذ اليوم، وبانتظار أن يخيطوا لك زي السرية القفقاسية البس زيك الأديغي. وأمهلك أسبوعاً لهذا الغرض. تترك الشقة وتأتي إلى هنا. تعيش مع الجنود عيشة الخدمة العسكرية دون أن تميز نفسك. لا أتكلم عن اختلاف السرية القفقاسية عن بقية سرايا الحماية. نحن نأتي من شمال القفقاس التي لا يعرفها الروس. وأنظار بطرسبورج كلها مسلطة علينا. والسرية التي تضم ممثلي كثير من الأقوام _ الأديغة والشيشان والنغوي والقوموق والأباظة _ ليست قيادتها سهلة، وستفهم بنفسك هذا الأمر.

قال خان جري لنفسه: لم أجد في قائد السرية القفقاسية ما يعيب إلا منعه لي من الكلام بالأديغية وعدم سماحه لي بالجلوس في حضرته. أنا أيضاً فكرت في ما قاله لي. ولمح لي إليه بنكندورف. ولكن لم أتصور أن يستقبلني من يحمل اسم أسرتي هكذا. مهما يكن فأنا أيضاً ضابط، ألم أكن في الوحدة القوزاقية لحماية القيصر ؟ يتكلم معي كما يتكلم إلى صبي مذنب. لا أزال واقفاً أمامه منذ نصف ساعة. أفهمُ أنك أكبر مني عمراً ورتبة ولكنك تبالغ. وكنتُ مستعداً أن أغفر لك كل هذا لو لم تبالغ أيضاً في موضوع الحديث بالأديغية. أيكون نسي لغته واحتفظ باسمه فحسب ؟

_ أيها الملازم ننهي تعارفنا اليوم هكذا _ توقف الروتميستر الذي استأنف الدوران في أرض غرفته الكلام وقفة قصيرة _ غداً عندما تأتي بزيك الأديغي سأقدمك إلى السرية، والآن أنت حر، مع السلامة أيها الملازم.

لماذا يهتم بالزي الأديغي من لا يريد أن يتكلم بلغته ؟ وما إن مد يده إلى مقبض الباب وهو يقول هذا في نفسه حتى ناداه الروتميستر باللغة الأديغية:

_ لحظة يا أخي الصغير !

توقف خان جري كمن أطلقت عليه النار من الخلف، ونظر إلى الوراء ممسكاً بحيرة مقبض الباب:

_ سامحني يا خان جري على أني لم أعاملك حسب العادات الأديغية ! _ استقبله عزمت جري الآن وقد تبدّى روحه القومي. لا أعرف ماذا يحدث لنا عندما ننفصل عن قومنا. ربما لأني أنفذ ما قاله لي الجنرال إيمانويل حين جمعنا في ستافروبول، وكذلك حين دعاني إلى مكتبه الكونت بنكندورف...الحق أننا سنرى ما سيحدث، أظنني ورّطت نفسي بنفسي... وأنت أظنني جعلتك تأخذ عني فكرة سيئة.

_ لا تأخذْك وساوسُ من هذا النوع! _ قال خان جري محاولاً ألا يسبب الحزن للروتميستر،ثم أضاف: ما العمل إن كان مسؤولونا شددوا عليك؛ لم أعد ألومك. ولكن أينما كنا فمن الأفضل ألا ننسى لغتنا.

_ هذا ما أتقيد به حين أكون وحدي _ نظر الروتميستر إلى الملازم بوجه أكثر طلاقة.

_ وماذا تفعل وقتها ؟

_ أكلّم نفسي.

_ على ما يبدو _ ابتسم خان جري _ أصبحت هذه عادة لنا.

_ ما العمل ؟ من الطبيعي أن يحدث مثل هذا حين تكون بعيداً عن قومك. أعتقد أن الأديغيين الاثني عشر في سريتنا والجنود من الأصول الأخرى يهمسون بلغاتهم في سرهم... أسيء إليهم غير أني أنفذ توجيهات ألكسندر كريستوروفيتش بجلافة.

_ أود أن أعبر عن رأيي في مسألة اللغة إن سمحت لي يا عزمت جري _ رفع خان جري وجهه الجميل المريح _ ليست عندي فكرة عن الطريقة التي أكد بها عليك الجنرال إيمانويل والكونت ألكسندر كريستوروفيتش، ولكن كائناً من يكن فمن المعيب أن تقول لأحد أن يتخلى عن اللغة التي زوَّدَتْه بها أمه. أتوقع أنه يجري في هذه المسألة شيء لا نعرفه.

_ لم تدع نفسك تنسى لهجة البجدوغ أيها الملازم _ تجاهل عزمت جري كلام محدثه _ تعجبني طريقة حديثك.

_ وأنت لهجة الجمكوي التي تتكلمها نقية، ليقل كلٌّ ما يريد غير أنه لا شيء أمتع من أن تتحدث بلغتك. اسمع تمرين النطق هذا: " خيط حرير على حيط خليل... "

_ ماذا ماذا ؟ _ جعل التمرين الذي ذكّره بطفولته البعيدة يصرخ _ " تمتم تامر وت... "أفهمت ؟ أستطيع إن أردت أن أنطقه بأسرع من هذا دون أن أخطئ.

_ أصدقك يا عزمت جري، لغتك جميلة. كنت أود أن أدفعك إلى الخطأ ولو بحرف واحد لأنك لا تسمح لأحد أن يتكلم بلغته الأم في السرية غير أنك غلبتني.

_ أأنا من تخلى عن لغته ؟ ! _ ابتسم عزمت جري، ومد إليه ورقة سحبها من كومة الأوراق _ اقرأ هذه الورقة: في العام الماضي وقد مضى على إرسالنا إلى هنا ثلاثة أشهر في 29 آب عام 1829 أنشأها لنا ألكسندر كريستوروفيتش الذي أرسلك إلينا لتكون دليل عمل. وقد أرسل الورقة نفسها إلى ديميدوف قائد

جيش دفوريانسكا المقيم معه في مركز سيمينوفسكا.اقرأها بصوت عال، لا سرَّ فيها. إنها مرسلة إلينا جميعاً نحن عناصر السرية. لا إساءة فيها سوى أنه لم يذكر أمراً واحداً :

" إلى من يخدمون في سرية القفقاس: _ يقرأ خان جري ما في الورقة بصوت عالٍ _ لا تطعموهم لحم الخنزير. احرصوا على تقاربهم دون أن يسخر منهم النبلاء المحاربون، لا تلحّوا على التدريب على السلاح والنظام المنضم. بل ساعدوهم على أن يدربوا أنفسهم بأنفسهم في أوقات فراغهم. لا تعاقبوا من لا يطيع. وفي مثل هذه الحالات فالمسؤول عن عقابهم هو الملازم الثاني توغانوف.ولا تلحوا عليهم في تنظيف ملابسهم بأنفسهم، فمعهم خدم جلبوهم معهم لهذه الغاية. وإن اغتسلوا في النهار عدة مرات على عادتهم فلا تعاندوهم.لا تمنعوهم من أن يضعوا ملابسهم وأسلحتهم إلى جانبهم أثناء النوم. ولا تحاولوا منعهم من تقلُّد أسلحتهم؛ فتوغانوف سيعلمهم شيئاً فشيئاً ألا يفعلوا هذا. وهم أحرار أن يدخنوا خارج قاعات الدرس. والأفندي له الحرية أن يخالطهم في أي وقت شاء. لا يجوز لأحد قطع صلاتهم. وهم أحرار في امتطاء خيولهم في أوقات فراغهم. ولا تحاولوا منع المنتمين إلى أصول واحدة من الالتقاء. وعليهم أن لا يوجهوا أي كلام مسيء، لا إلى معلمي الدين الجبليين فحسب بل إلى النبلاء المحاربين أيضاً، ولا يحاولوا تغيير دينهم، بل عليهم أن يساعدوهم ويرعوهم. " وكلٌّ له الخيار في نوع فراشه " _ حين انتهى خان جري مما في ورقة التوجيهات نظر إليه عزمت جري، وتذكر ما نبهوه إليه دون أن يعرف من يتهم به.

كل شيء ممتاز. لا شيء يعيب، ولكن لم يأتوا على ذكر اللغة بخير أو بشر.

_ إذن أيها الملازم _ سأل الروتميستر بصوت مختلف _ لماذا تعتب عليّ؟ إن أردت سأذكر لك تمريناً آخر من تمارين النطق.

_ نعم أريد، ولكني لا أتراجع عما قلناه بشأن اللغة.

_ لست من قال أيها الملازم، بل أنت _ نهض الرائد وكأنه ليس ذاك الرجل الطيب الذي كان يلهو بتمارين النطق قبل قليل _ لست أنا من توجه إليه شكواك. هنا ننتهي من لغتنا الأديغية. مع السلامة، أنتظرك غداً.

أن تفارق الحياة الاعتيادية للمقاتلين وأيام الحرب الثقيلة والمخيفة، والناس الذين اعتدت عليهم إلى من لا تعرف من هم ولم تألفهم. ثم لو لم يكن في الأمر إلا طريقة استقبال قائد السرية الذي ستبقى معه ليلاً ونهاراً وستعمل معه... تغيّر مزاجه في تلك الساعة مرتين أو ثلاثاً _ لم يسمح له أن يرى وجهه، ولم يفتح له قلبه. وتمارين النطق ؟

لو لم أكن مجنوناً ما كان ينبغي أن أتكلم في أمر اللغة أمام رجل غريب. قال خان جري. منذ سنين، باستثناء بعض المرات التي وجدت نفسي فيها في البيت، لم أتكلم لغتي في السرية القوزاقية التي أخدم فيها، ولكن لم أنسها لهذا السبب. احتفظْ بها في قلبك، وفكّر بها، وأحياناً، في وحدتك، كلِّمْ بها نفسك بصوت عالٍ، وهكذا لن يُنسيكها أحد. حتى عزمت جري نفسه خدم أكثر مني في الجيش الروسي، ومع ذلك

فتمارين النطق تنهال من فمه، بَلْهَ أن ينساها. سواءٌ صدّقْنا إيغنات أم لم نصدقه فأنا أحياناً أرهق نفسي بوساوس لا معنى لها، وأسمح لأفكار ممنوعة أن تغزو رأسي، وأفني نفسي في شعور قومي لا طائل تحته. ماذا أقول الآن ؟ ليس من الشعور القومي ألا تعرف لغتك. غير أني لا ألوم عزمت جري على هذا لأنه قال لي ما قاله. السرية التي أتوجه إليها خليط من أعراق مختلفة؛ فبأي لغة يفهمهما جميعهم تتواصل معهم ؟ ليعرفوا ! ليعرفوا ! من هذه الناحية فإن لم أنفع فلن أضر أحداً. ولكن الأمراء الشباب هؤلاء لن تستطيع منعهم من التحادث بلغتهم. لم يكن يصدر من ثكنة فوج النبلاء في سيمينوفسك كلام بلغة غير لغتهم.

***

ـ كفى يا خان جري كلاماً في موضوعك ! ـ نقض إيغنات الهدوء الصباحي السائد في الغرفة ـ أينما كنا، كما تقول أنت، فمن سنخلص له هو هذا القيصر نفسه.ربما كان إرسالك إلى السرية الجبلية القفقاسية لفائدتك ولفائدتي. لا أظنك وحدك من تكلم إليه بنكندورف بشأن مهمتك، وأنت من اختاره ووثق به. لو كنت مكانك لاعتبرته نوعاً من حسن الحظ.

ـ أفهم يا إيغنات ما تريد قوله ـ نظر خان جري في وجه صديقه الذي يودعه، وهشّ له ـ وأنا فكرت في أشياء كثيرة، واستشرت الجنرال بيروفسك. ولم أكن أجهل أنه على اطلاع على المهمة التي اختاروني لها. حسنٌ أن يثقوا بك وحظ جيد. أخاف ألا أكون أهلاً لها فمن الصعب ترويض سرية فيها أعراق كثيرة ومع ذلك فأنت على علم بما في ناحيتنا شمال القفقاس وكيف تجري الأمور. ولو لم يكن إلا ما رأيناه في طريق عودتنا من حرب الترك... وإن كان الأمر يتعلق بأبناء قومي فهم، وقد حرّضهم الترك ـ الإنجليز، لا ينتهون من الاجتماعات التي يشيع فيها امتشاق القامات. وفي القبرتاي والشيشان والداغستان مثل هذه الفورة.

ـ أتحدثتَ في هذه الأمور إلى غيري ؟ قال إيغنات.

ابتسم خان جري.

ـ أطلعت الجنرال بيروفسك على بعض ما يقلقني. وكان بودي أن ألمح للكونت بنكندورف إلى بعض وساوسي ولكن نظرته منعتني.

ـ يا خان جري ـ خطف إيغنات الحديث: ـ أجُننتَ ؟... أمثال هؤلاء لا يفصحون عن أعماقهم، أتظن أنهم يمكن أن يفهموك ؟

ـ لا أظن. ومع ذلك قلت لفلاديمير ألكسندروفيتش بيروفسك. ومع أنه لامني، كما فعلت أنت، فقد خيّل إليّ أنه فهمني. أن تنفّس عن ضيقك أفضل من أن يبقى في صدرك كالحجر. وحين سألني ألكسندر كريستوروفيتش عما إذا كنت على اطلاع على تاريخ الأديغة أجبته بالإيجاب، وبأني سأتعلم ما لا أعرفه، فهمت أن رأيه فيّ تغير. وسأخبرك بما هو أعجب: إنه على علم بأني أجمع تاريخ الأديغة وتقاليدهم الاجتماعية.ولمح إلى أنه لا يجوز لي أن أنشر هذه المعلومات دون أن يقرأها. قال لي: نحن على علم بما

يكتب فيستوجيف _ مارلينسك، وبأشعار بوشكين[1] ولا تغيب عن رقابتنا كتابات الآخرين؛ فإن كنت تكتب شيئاً فلا تكتمه عنا !

_ ثم ماذا ؟ _ دارت حدقتا إيغنات في محجريهما حائراً في تفسير ما يسمعه _ بمَ أجبته ؟

_ وبم أجيبه ؟ _ ابتسم خان جري _ أنا لا أكتب شعراً... ولم أكن في عداد الديسمبريين، ولا علاقة لي بهم... وإن لم أعد إلى ذكر هذه الأمور فنحن لم نكن كالنقيب بوربوف، إن كنت تتذكر. نحن مخلصون لقيصرنا، والآن صرنا قريبين منه جداً ونحن حُماته. أنت من جهة السرية القوزاقية الخاصّة، وأنا من جهة السرية الجبلية القفقاسية؛ فلا حاجة أن يسألونا عما في قلوبنا. لو لم يثقوا بنا، أنت تفهم هذا دون أن أقوله، ماكانوا سمحوا لنا بالاقتراب من القيصر. ما يحزنني اليوم أمرٌ واحد: سيصعب علي يا إيغنات أن نفترق فلا تبقى لي علاقة بك ونحن في جيش واحد _ قفز خان جري فجأة وكأنه لم يكن في خِضَمّ هذا الحزن _ وداعاً يا إيغنات "مهما حصل لسرية الحرس فإننا مرة أخرى نؤكد إخلاصنا لمولانا القيصر " أضاف بالقوزاقية مبتسماً.

بالقياس إلى خدمته في سرية الحراسة الخاصة القوزاقية وجد نفسه منذ اليوم الأول في وحدته الجديدة في تعب لا نهاية له.

طوال نصف سنة لم يكن يمر يوم بل ساعة على خان جري، سواء قابل قائد وحدته أم لم يقابل، دون أن يتذكر مجابهته له في موضوع استعمال اللغة الأديغية في الحديث. ومع أنك كنت تسمع في كل مكان لغات الأديغة والشيشان والأوسيت والأنغوش والقوموق والأباظة والنغوي، فإلى جانب كل هذه اللغات كانت الروسية تسودهم عبر المترجمين فتسمح لهم بأن يتحادثوا ويخدموا معاً، ويتصالحون بها إن تخاصموا، ويأكلون معاً ويحزنون بها معاً في أوقات الكرب. ولكن من وجدوا أنفسهم في بلاد أخرى، وفي نمط حياة أخرى، فمهما كانت اللغة الروسية تساعدهم في العيش، كان كلٌّ يتكلم لغته مستمتعاً، ويراها جميلة، ويعتبر قومه أحسن الأقوام وأعلاها، ولا شيء يعادل تقاليده، ويعتبرها فوق الجميع. وإن مزح بعضهم معه أحياناً دون قصد فقال ما لا يجوز لجأ إلى سيفه، عادى من انتقده على طريقة حياته وعاداه بدلاً من أن يشكره. ولكن لماذا تتهم البريء ؟ لم يكن الجميع هكذا. ولكن من يغلب عليه المديح المتكلَّف ويتكبر حتى على قوم الذين ضموه إلى جيشهم من بين أولاد الأمراء لم يكونوا قليلين.ولم يكن حَمَلةُ أسلحة هؤلاء يعدون أنفسهم صغاراً.

ومهما كانت تقاليد الخدمة في الجيش الروسي صارمة دائماً بدءاً من الضباط وانتهاء بعامة الجند فقد كانت هذه التقاليد بالنسبة إلى من أتوا من شمال القفقاس ومن حياة الحرية أمراً لا بد منه فحسبُ. كانوا يعدون نهوضهم ونومهم مبكراً وتناولهم الطعام في أوقات محددة عاراً عليهم. وقد عمل قائدهم عزمت جري

[1] الشاعر الروسي الشهير الذي قضى عام 1837 في مبارزة بسبب شكه في علاقة زوجته ببارون فرنسي. مصادر.

طوال سنة على ترويضهم على الحياة العسكرية وعلى الإخلاص للقيصر الذي جمعهم والتضحية بالنفس لأجله إن دعت الضرورة. وطلب من الملازم الثاني توغانوف أسلان بيك، ومن خوت محمد الأفندي أن يساعداه. وفي نصف السنة التالي لم يألُ خان جري جهداً في هذا الشأن. ولم يفوّت اجتماعاً من الاجتماعين الشهريين دون أن يتكلم ويعمل. وليس هذا فحسبُ ففي الأشهر الثلاثة الأخيرة اجتمع بعدد كبير من الناس؛ كان يواسي المرضى ويلاطفهم ويتابع طلباتهم. وعلّم الأصحاء أن يتحلوا بالأدب والاحترام، وأعاد تذكيرهم بأنهم حماة القيصر وموضع ثقته. وكان في بعض المواقف نافعاً وفي بعضها بلا جدوى. غير أنه لم يندم يوماً على ما فعل.

في خلال السنةِ والنصف، تاريخِ تأليف السرية القفقاسية، مرّ على الجنود ما يسر وما يَحْزُن. لم يواتِ جوُّ بطرسبورج الرطبُ والشتاءُ البارد وغيومُ الصيف بعضهم فمرضوا، ومنهم من رجع إلى دياره، وثلاثة أو أربعة منهم ماتوا من أمراض الحنجرة فدفنوا في مقبرة النغوي الإسلامية. وكان منهم من تجاوز رتبته الصغيرة فرقّي إلى طالب حربية أوملازم ثانٍ. وقد أُهديَ من تفوقوا في التدريب أكثر من مرة في حضرة القيصر في برية ساريسن أسلحة وأموالاً. وطُرد من الخدمة أمثالُ شرلقوه ألقس الطالبِ الحربيّ، الخارجون على الأوامر الذين قاموا بأعمال شائنة من الخدمة، وأبعدوهم.

_ لم يحدث أن حزنت منذ وجودي في بطرسبورج كما لسلوك شرلقوه ألقس _ قال عزمت جري باللغة الأديغية لخان جري الملازم ومحمد أفندي الجالسَين في حضرته. ثم أضاف بعد قليل: _ لم يكن عديم الرجولة والإنسانية فلا أعرف ماذا حدث له.

كنا ننصح الشيشان والأباظة فإذا بالأديغي يسبب لنا الخزي[1].

_ كأن الله كان قدر لنا هذا _ قال الأفندي _ ابتعدت عنهم في تلك الليلة فقط فحدث لنا ما جعل المدينة بأسرها تسخر منا.

_ لم يحدث لنا خير... _ تنهد خان جري معرباً عن استيائه مما حدث. _ جلب العار على نفسه وهو يظن أنه يخلص لرجولته وتقاليده الأديغية نحو النساء. ولكن قيل إنه كان في المسرح من أدرك أنه لا يفهم

[1] تحت عنوان في مسرح ألكسندرينسكا، في كتاب " الحرس الخاص بالقيصر الأعظم " يكتب س. بيتين ما حدث _ في المقاعد الأمامية كان يجلس حامل العلم في السرية القفقاسية شرلقوه ألقس ومعه عدد من أصدقائه المرحين. لم يكن شرلقوه وجماعته يقبلون أن تُقتل إحدى النساء الممثلات في المشهد. وكانوا يوجهون كلمات جارحة إلى الممثلين. كان بود شرلقوه أن يحمي تلك الممثلة ويتزوجها. وحين بدأ أصحابه الصاخبون يوجهون أبذأ العبارات إلى الممثلين أوقفوا العرض وأسدلوا الستائر. وحين سمع القيصر بهذا التصرف الشائن أكد عليهم: " بعد أن تكفوا يد شرلقوه بشهر سرحوه من السرية وأعيدوه إلى القفقاس.

_ أتذكرون ما قاله ألكسندر كريستوروفيتش عن شرلقوه ولو أنه سرحه من الخدمة ؟ أضاف بالروسية: " كان ذنبه أقل من ذنوب رفاقه"

وفي اللحظة نفسها صدرت أصوات صراخ من جهة الفناء، وأصوات عدة طلقات مسدسات. وحين خرج الضباط الثلاثة من الغرفة مسرعين كان الخبر الذي قابلهم به الدخان المنبعث من سبطانة الملازم الثاني توغانوف أِشدَّ مأساوية من الخبر الذي كانوا يتحدثون فيه.

_ يا سموكم ذبح حامل السلاح ومباييف رفيقه بحجة أنه أكل لحم خنزير ، فقتلناه حين قاومنا.[1]

III

لم يكن خان جري بحاجة إلى ما يحدث في إقليم الأديغة من أخبار. كان كل ما ترسله قانتات مرتين شهرياً أخباراً: لم تكن تقتصر على الحياة في دار الإمارة. وفي سياق حديثها في هذا الموضوع كانت تخبره بما يحدث في القرية وفي البجدوغ، وما يجري في الشابسغ والأبزاخ، ما يقوله القوزاق وما يفعلونه،وكأنها لا تقصد إخباره بها. وكان ما يرسله إليه سعيد جري وعادل جري من إيكاترينودار عجيباً. لم يكن في رسائلهما المكر الذي تداري به الجدة أخبار الأديغة _ القوزاق.

والجريدة التي تصدر في بطرسبورج المختصة بشمال القفقاس، وما تطبعه الجرائد لم يكن قليلاً. ولم يكن جنود السرية محرومين من أخبار مناطقهم. فبالإضافة إلى ما كان يجري الحديث عنه في السرية كانوا كثيراً ما يأتون بها إلى خان جري ليقرأ لهم ما هو مكتوب بالروسية أو العربية إن لم يجدوا من يترجم. وليس لأنه لم يكن في السرية من يعرف القراءة غيرُ النقيب الشاب؛ فالروتميستر عزمت جري والأفندي خوت محمد والملازم الثاني توغانوف كانوا ماهرين في هذا. ولكن خان جري كان يتفوق عليهم بإنسانيته وقوة لغته وطبيعته. وهو موضع ثقة أكثرهم ولا يخالفون أمره. وكان قدوة لهم. وكان أمل من يمرض منهم، ومن يحدث له مكروه ومن يساوره اليأس، وحاميهم.

وخان جري نفسه لم يكن يخدم في الجيش ولا يعيش حياته غير محتاج إلى شيء، ولا غير مشتهٍ شيئاً أو مفتقراً إلى شيء. ولكن إن كان عملُ الخير يغلب عليه فمن الواضح لكل إنسان أنه ينسى حاجاته الشحصية على نحو لا مرئي ولا ملحوظ. وكان أعجبُ ما يتعجب منه جنود السرية طريقتَه في الخدمة وإخلاصه للقيصر بعكس ما يوحي به صغره في العمر. وكان بينهم، وإن لم يصرحوا برأيهم بوضوح، من لا

[1] كان حاكم القفقاس يكتب إلى بنكندورف: هذه المأساة التي جرت صدّقت رأيي القديم في الشيشان. منذ أن تألفت السرية الجبلية القفقاسية لا يخلو سلوك هؤلاء من التمرد، وهم بسبب مزاجهم العصبي وصعوبة لجمهم يسببون كثيراً من الصعوبات لقادة الجيوش. ولهذا أظن أن الشيشان لن يقبلوا في حرس القيصر، بل أرجوهم هذا. والذين ينتمون إلى أسر عريقة أو من يملكون عدداً من القرى لا يختلطون بهؤلاء. وأنا من جهتي سأعمل سراً كل ما من شأنه التخلص منهم في التشكيلات العسكرية.

يعجبه هذا، ومن يعدّه مبالِغاً فيها. وكان من بين هؤلاء شرلقوه الذي أساء السلوك في المسرح قبل سنة فسرحوه من الخدمة وأعادوه إلى القفقاس. ولكن، كما يحدث دائماً في الحياة، ولأنه لا يبقى مكان العدو خالياً بل يحل محله عدو آخر، فسيصدر منه ما لم يُتوقع منه البتة.

وكانت قانتات بين مَن أسّس لخان جري موقعاً قوياً في السرية وإيماناً بما كانت تكتبه من نصائح لا تنتهي،ووصايا أمه التي بدأت تراسله في نصف السنة الأخير، وطريقة دراسة أخويه،وإخلاصه للقيصر، ومساندة الكونت بنكندورف له، ورعاية أمثال الجنرال بيروفسك له. وربما كان صبر الروتميستر عزمت جري على خان جري سببُه الموقف الممتاز لقادة الجيش من الأخير؛ فبين سلوكه معه هذا الشتاء وسلوكه في الخريف الماضي ما بين السماء والأرض.

اليوم يوم أحد. وهو يوم لطيف من الأيام القليلة التي تنجو من رطوبة أيام بطرسبورج ورياحها وغيومها. والأشجار التي بللها المطر الناعم البارد الذي لم يتوقف طوال أسبوع كامل توقظها الشمس، وتجفف الشوارع المبلطة بالحجر، وتُوقف الأعشاب النائمة على أطراف الطرق على أطرافها، وتدفع الناس إلى المقاعد على ضفة نهر النيفا. وتسمع في كل مكان أصوات الضحكات السعيدة.

خان جري وحده، وما تزال ساعة كاملة على موعده مع إيغنات.لا يندم على خروجه المبكر، رجع إلى المكان الذي سيلاقي فيه إيغنات بعدما قام ببضع جولات على الضفة. ولكن لم يبق مكان على المقعد الذي كان عليه قبل قليل. عليه صبايا شابات قد يكنّ طالبات مدرسة ثانوية يثرثرن ويتضاحكن. وخان جري، وإن تجاوزهن بقامته الممشوقة متظاهراً أنه لا ينظر إليهن، عرف أن نظراتهن تلاحقه من الخلف. زاد في شدِّ قامته، وارتفعت كتفاه غير عارف ما يحدث له. وأصلح وضع الزنار الفضي والقامة اللذين ليسا بحاجة إلى إصلاح. وكان على وشك أن يلتفت إليهن لولا أنه لا ينسى كونه من حراس القيصر.

قال خان جري: الوسطى أقرب للقلب من اللتين على جانبيها. ما أعجب نظرتها ! كأنها تريد أن تقول لي شيئاً. إنها بيضاء الوجه طويلته،سوداء الشعر، ليس لها ملامح روسية. أين رأيتها ؟ أتكون تشبه إحدى بنات قريتي ؟ أأعود وأنظر إليها مرة أخرى ؟ ما أشد ما تأخر إيغنات !

توقف خان جري بعدما مشى مسافة، وجلس على المقعد الفارغ أمامه على الضفة دون أن يلتفت، متجهاً إلى النهر. ولم يملك نفسه أن نظر نحو البنات وإن حاول تجاهلهن. التقت النظرات " لم تلتفت الوسطى ! " قال في نفسه.

النهر الذي يلتقي بالبحر متموجاً بين الضفتين الحجريتين هو من لا يبالي بأحد. والشمس كأنها تسخر من كسله تضحك من وسط سماء الخريف.

يقول خان جري وهو ينظر من فوق النهر: ما أشد اختلاف العالم الذي وقعتُ فيه عن عالمنا! ليس بين الفصول: الربيع والخريف والصيف ما يسعدك غيرُ مثل هذا النهار الاستثنائي المشرق. كلها دائمة العبوس. الشتاء أَسعدُها، دنياه مضيئة، لولا البرد، نظيفة، والسماء زرقاء عالية،والثلج الجديد يحتج على وطء

الأرجل له. لا يعني هذا انعدام العواصف الثلجية الدوارة؛ فهي تحجب العالم، والهواء يصفِّر، وتنفض أغصان الأشجار وتقارب قممها وتخضها. وتُجمِّد نهر النيفا، على قوته، في ليلة ونهار. لا أقول إن بلادنا دون شتاء وإن نهر بشزة لا يتجمد، غير أنها في كل الفصول أَطلقُ وجهاً. وألطف هواءً ومطراً وعواصفَ ثلجية. يا تُرى أي أحداث تجري في بلادي غير ما يكتبون إليّ ؟ لا أظن أن الأديغة الذين حضرت اجتماعهم في العام الماضي وأنا عائد من عند باسكيفيتش في تفليس سيرضخون لفكرة " أعطوكم إيانا، أنتم ملكنا ". يكفي كيف تَصنَّع شواي الصمم ! لا أستطيع أن أنسى نِظرته إليّ. وكيف تصرف معي أمراء ونبلاء الخمشي ؟ ! أنا بكل براءة نفذت لهم ما طلبوه مني، لا أعرف من لمح لهم ومن خطر له، ربما الأمراء أنفسهم... أنا ما كنت محتاجاً إلى شيء. كان بودي أن أدعو قومي إلى الطريق الذي أسلكه دون إراقة الدماء. والكونت باسكيفيتش، حتى لو هشّ لي، لم يكن يريد أن يفهمني. ماذا كان قال لي بلسان معسول ؟ " لا تثق بأمراء الخمشي،لا أنت ولا نحن بحاجة إلى الزعامة التي تريد ممارستها عليهم "كما تريدون. أنا فكرت في ما هو أحسن فحسب ولم أكن أبحث عن فائدة شخصية، غير أن فكرتي كانت مخرجاً جيداً للطرفين. ووالدي كان في فترة ما يتمنى أن تأتي الفكرة من الأديغة دون أن يقولها الترك، وهذا ما دفع حياته لأجله. أنتم إلى الآن لا تعرفون حقيقة الأديغة.

قطعت أصوات ضحكات البنات اللواتي كنّ جالسات على المقاعد الخشبية أفكار خان جري.نظر وابتسم، كانت الفتاتان الجالستان على الطرفين هما من تضحكان. لم تكن الضحكة لتحوم حول الفتاة الحنطية ذات الشعر الأسود الجالسة في الوسط ممسكة كتاباً. " والآن لم تنظر " _ قال خان جري، وتذكر شيئاً مما أرسلته إليه أمه قبل أيام: " احترم نفسك وكن حذراً، لا تفرّط بنفسك، ولما كانت نساء القوم الذين تعيش بينهم مختلفاتٍ كثيراً عن نسائنا، حُرّاتٍ في ما يقلن ويفعلن، ومعتقداتُنا وتقاليدنا لا تتفق، فمن يدري إن أغوتك إحداهن، فلن تواتينا. ونحن مِن هُنا أعينُنا على ابنة أمير من الجمكوي، لا أعرف ما ستقول، ونانا موافقة "

هشّ خان جري مرة أخرى مسروراً بما تذكّر " من يا ترى الفتاة التي يلمّحون إليها ويخفون عني اسمها. يخافون عليّ أن أندمج تماماً في المجتمع الذي أعيش وسطه... وقبل هذا، حين دخلت القرية عائداً من تفليس، كان شواي لمح لي إلى مسألة الزواج... وشواي نفسه ؟ نانا تغمغم وترفع صوتها بالعتاب أحياناً،وستقول له وإن كانت الآن عاجزة، هذا إن لم تكن قالت له. لن تقبل منه _ إنه يسمح للناس، القوزاق والأديغة، أن يذكروه بالسوء في موضوع أنفيسكا. يا حسرتي يا سيسور يا أختي الحبيبة ما أسوأ حظَّكِ ! ليس عندك من يسرك إلا نانا وطفلك.ليست نانا وحدها، إن كان الخبر صحيحاً فأنا أيضاً لن أقبل "

لجمَتْ ضحكاتُ الفتاتين الذكيتين العائدتين إلى المقعد متضاحكتين أفكار خان جري. وسألته الفتاة ذات الوجه المدور والعينين الواسعتين:

ـ أأنت أديغي يا ترى ؟ ـ وأضافت بسرعة: ـ أسألك لأننا اختلفنا أنا وماريا.

ـ ومن ماريا ؟ ـ سأل خان جري وعيناه نحو الفتاة الحنطية الوجه التي تركتاها على المقعد، وقال في نفسه: "ما أشد عجرفتها ! لم تنظر إلى الآن"

ـ ليست ماريا تلك؛ ها هي، وأنا ـ ليودميلا. هل اسمك روسلان ؟

ـ لا، اسمي غير هذا ـ نظر خان جري مرة أخرى نحو الفتاة التي لا توليه نظراتها.

ـ تانيا، تاتيانا ! ـ نادت ماريا ـ تعالي ـ ألا تأتين إلى هنا !

ـ لماذا نزعج الفتاة المتكبرة ؟ ـ قال خان جري وابتسم لهما ـ أنا رجل، وإن وافقتماني ذهبنا نحن إليها.

ـ لا، لا نوافقك ! ـ قالت ليودميلا فجأة ـ أليس هكذا يا ماريا ؟

ـ كما تريدين يا ليودميلا !

ـ حسناً لتجلس وحدها ! والآن إن لم تكن روسلان فقل لنا اسمك أيها الملازم !

ـ إن كنتما تتحدثان عن " روسلان وليودميلا " في كتابات بوشكين فهذا شرف لي. كنت أفضل هذا، غير أن اسمي هو خان جري.

ـ أوه ! صاحت ماريا ـ اسم جميل، اسم لا يشيخ.

ـ ألم أقل لك إن الملازم خان جري ـ نطقت ليودميلا اسمه كما لو كانت تعرفه طوال عمرها ـ آتٍ من القفقاس. ربحت الرهان منك يا ماشينكا. جهزي نفسك. يا تانيا، تانيوشكا تعالي إلى هنا!

ـ لا تظني أن كل من يحمل هذا الاسم يأتي من القفقاس.ـ أجابته الفتاة الرشيقة التي ترتدي قبعة سوداء منخفضة رقيقة. وأضافت بصوت أرقّ: ـ نغوي القرم يحملون هذا الاسم، تذكري مؤلف بوشكين " نوافير باخشيسارايسكا[1]، أليس صحيحاً أيها الملازم ؟

لم يقبل خان جري ما قيل له، وإن كان ما سمعه سرّه، لأن تعيير بفوق له، وكذا القبائل الأديغية الأخرى كان يجرحه، وكأن أحداً يسلبه أصله الأديغي الذي يعتز به.

ـ ذهبت بعيداً، لم تصل إلى القفقاس.

ـ ألم أقل لك يا ماشينكا إن الملازم من القفقاس ؟ ـ فرحت عينا ليودميلا الواسعتان وفتحت الكتاب الذي في حضنها ـ أنت من المعنيين بهذا الكتاب؛ اسمعوا: " الأديغي محاط بالسلاح، السلاح يسره ويرتاح به. ويلبس قميصاً من الجلد،ويحمل حبلاً من ذنب الخيل وبندقية، وسواء كان يعمل أم يستريح فسيفه رفيقه الأزلي. " ألم يصح توقعي أيها الملازم ؟ قل: لماذا أنت ساكت ؟

ـ لا أعرف ما هو الرهان ـ تأبى خان جري في الكلام ـ ولكنك لم تخطئي.

قفزت ليودميلا الفتاة القصيرة الممتلئة ذات الوجه المدور:

---

[1] قصر في بطرسبورج. المترجم

_ ألم أربح منك الرهان يا ماريا ؟ تعالي يا تانيا إلى هنا بسرعة ! لا تدعينا ننتظرك ! نفذي ما ربحته منك؛ خان جري أديغي؛ أليس كذلك أيها الملازم ؟

_ قلت هذا، لم تخطئي.

_ ماريا، ماشينكا، لماذا أنت واقفة ؟ تعالي قبّلي وجنتي خان جري !

جعلت المفاجأة خان جري يستعجل:

_ مهلاً، مهلاً، هذا لا يليق بي ولا بكنّ.

_ يا لودميلا ! _ نهضت تاتيانا من المقعد الآخر _ إن كنتما مزحتما فهذا لا يليق، الناس يراقبوننا.لا تحرجوا الملازم! أنا منصرفة _ ومضت بقامتها الرشيقة الجميلة والعنق الطويل فوقها وقبعةٌ من نوع (شليابا) سوداءُ واسعة مزينة وصدرية سوداء منسجمة مع كل ما تلبسه. وتبعتها الفتاتان الأخريان. التفت إيغنات إلى الوراء متسائلاً عن سبب انصراف الفتيات على هذا النحو. ثم سأل خان جري بابتسامة خبيثة:

_ بأي شيء أزعجت هؤلاء الجميلات اللواتي غادرنك أيها الملازم ؟

_ رأيتَهن جميلات لأنك لم تمعن النظر إليهن أيها الملازم. _ ردّ خان جري على رفيقه بدعابة. ثم صارحه بما جرى: _ تجادلن لأنهن لا يعرفن من أي عرق أنا. كن يتمنين أن تقبّلني من خسرت الرهان منهن.

_ إذن أأحزنتهن يا خان جري لهذا السبب ؟ ! تعجب إيغنات مما سمع.

_ أأجلب العار على نفسي من أجل قبلة على الوجه ؟ ! أرأيت الفتاة الحنطية التي كانت بينهما ؟

_ وكيف لا أراها، هي التي تملك عنقاً متعجرفاً كالإوزة. هي من كنت ألتفت إليها. إنها جميلة، أظنها من النوع الذي يقول لك: انظر إليّ من بعيد !

_ لن تقول أصدق من هذا ! _ لم تقترب منا ولم تلتفت إلينا. جلست متكبرة. لا أعرف ما الذي لم يعجبها: أأنا أم مزاح رفيقتيها. نهضت فانصرفت. والأخريان تبعتاها وهما تلتفتان. ثم ما أجمل أسماءهن ! إحداهن، إن لاحظتها تلك الشقراء اسمها ماريا، والأخرى ذات الوجه المستدير ليودميلا.

_ والثالثة ؟ _ لم يدع إيغنات صديقه يكمل كلامه.

_ إن كنت ترغب في معرفة اسمها فسأقول لك، ولكن من أين تلتقي بها ثانية ؟ نادِها " تاتيانا " فربما رجعت إليك ركضاً. _ ابتسم خان جري والألم يعصر قلبه نوع عصر وإن كان يمزح ظاهراً.

_ أتريدني أن أفعل ما لم تستطع فعله أنت ؟ لم تدعِ الفتيات الرائعات ينتظرنني. إنهن جميلات ودودات، ولكن ما العمل ؟ لسن لنا... امشِ؛ لماذا نقف ؟ ربما التقينا بهن في مكان آخر.

ما حدث لإيغنات وخان جري هو كمن لا يمد يده وراء من يهرب من يده ولا يبحث عما سقط من يده _ لم تقع عيناهما على من كانا يبحثان عنهن دون مبالاة. ولكن الخبر الذي حمله إيغنات جعلهما ينسيان البنات.

_ حسب ما تقول يا إيغنات _ خرج خان جري بعد قليل من أفكاره _ البولونيون يناهضون قيصرنا.. ماذا ينقصهم ؟ إنهم في حضن القيصر، يفعل لهم ما يريدون، يمنحهم مقومات الحياة.

_ لا أعرف. هذا ما يقولونه. لا أظن أن من لا يحتاج إلى شيءٍ ما لا يبحث عنه... إنها حلاوة الحرية يا خان جري _ قاطع صديقه كلامه:

_ اسكت يا إيغنات ! ليس لأول مرة أسمع هذا الكلام. _ تعثر خان جري واختتم بكلام بعيد عن النفاق وترداد الأقاويل وإن كان ما يجري في بلاد الأديغة يثقل عليه: _ لا أعد الحرية التي تقصم وحدة البلاد حلوة... لن يُسمح لمن يثير البولونيين كالجنرالين كلوبيسكا وسكريجينيسكا، ورومارينو وكريوكوفيسك اللذين معهما أن يتذوقوا طعماً للحلاوة. من الأفضل ألا نتحدث في أمثال هواة الحرية هؤلاء. ولكن كل من يقاوم قيصرنا، كائناً من يكون، كما اتفقنا كلانا، عدونا . " والأديغة أيضاً ؟ "كان بود إيغنات في هذه اللحظة أن يسأل ولكنه لجم نفسه بصعوبة. وقال مبرئاً نفسه:

_ أقول ما سمعت فحسبُ، لماذا أقول ما لا نفع فيه !

***

كما تتوزع السنة على أربعة فصول فساعات النهار والليل تتوالى متمهلة، سعيدة حيناً، حزينة أخرى، هادئة وقلقة. وحياة الإنسان وأحداث الدنيا مرتبطة بتعاقب الساعات واختلاف الأوقات. أحياناً عاقلة، وأخرى ترمح. وأحياناً يجر بعضها بعضاً كالعجلات التي تُدهورِ أولاها سائرَ عجلات العربة. بعض العجلات يصرخ وبعضها يئنّ. كل ما يجري في الدنيا باستثناء الرعد والفيضان، بما فيها النار والزلزال، يعود إلى شقاق الناس وتحاسُدهم. وخبثهم وكذبهم وجرائمهم.

إن الملك والصراع والفقر والعمل وكرسي الملك، وحتى حسدُ الماشي للراكب أسبابٌ للصراع الإنساني. وتختلف أنماط الحكم في الدولة باختلاف فطنة الحكام وأفكارهم.

ليست أحداث الوعي القومي في بولونيا وليدة اليوم. فهذه الوعي بدأ زمن الهيمنة القومية الروسية ولا سيما بعد الانتصار على نابليون، منذ عهد القيصر ألكسندر الأول، مروراً بعهود أراكجيفي وكلينميخلي.

وكما في دستور الدولة كان لبولونيا مجلس نيابي وجيش وقضاء خاصان. ولكن حين تكلم ألكسندر الأول في المجلس النيابي لم ينفذ لا هو ولا قائد الجيش الذي أرسله إليهم كونستانتين المعظم، ولا المندوب السامي للقيصر زاينجيك وعودهم بمنح البولونيين حريات واسعة. وقد ظهرت نتائج هذه الأخطاء وغيرها خلال السنوات الثلاث أو الأربع الأولى من حكم نيقولاي الأول. كانت البلاد على وشك الانفجار إن لم يكن اليوم فغداً أو بعد غد. ولم يكن خان جري يعرف هذه الأمور.

ومع أن خان جري ندم في أعماقه على ما قاله لإيغنات في الشأن البولوني فإنه لم يعترف بخطئه مأخوذاً بعزة الإثم. إن الإخلاص للقيصر مهما بدر منه من سلبيات هو فوق كل شيء بالنسبة إليه. وحين ينتصب

القيصر بصداره المزرر بإحكام، وجبينه الواسع،وصدره العريض، وعينيه الواسعتين الهادئتين في أفكاره يبدو كالأقنوم الذي لا حاجة به إلى شيء.

أفهم ما كان يريد أن يقوله لي إيغنات بخصوص البولونيين. قال خان جري في سره وهو على شارع نيفسكي عائداً إلى بيته. في العام قبل الماضي بدءاً من زمن الحرب ضد الفرس ومروراً بالحرب ضد الترك لم تفارق كلمة الحرية فمه. لا تتظاهر بأنك تتلهف على مصير الأديغة أكثر مني. هدِّئ قوزاقك يهدأِ الأديغة. وليس الأديغة مثاليين كما تتخيل. ولو لم يكن من مثالبهم إلا ما فعله بي أمراء الخمشي ونبلاؤهم لكفى. استاء باسكيفيتش وبنكندورف والقيصر نفسه من تصرفهم. أنا أريد أن أحسن إلى قومي الأديغة وهم يجلبون لي العار. ألا ترون كيف يحترمونني في الجيش الروسي ؟ والفتيات اللواتي تعرفن عليّ اليوم بمبادرة منهن. إن عشت مع زملائك بإخلاص لهم تفهموك وتفاهمت معهم. هؤلاء لم أجد بينهم من عنده تفرقة عنصرية باستثناء النقيب بوربوف. مهلاً، مهلاً! ما الذي لمح لي إليه الكونت باسكيفيتش في العام الماضي؟ أظنني أسأت إلى إيغنات دون ذنب منه. حسناً فعلت معه فكما تقول نانا: في هذا العالم الرديء لا يجوز أن يجري ما في القلب على اللسان.

لفتت العربة السوداء التي توقفت على طرف الشارع انتباه خان جري فرفع رأسه فجأة. وتعرف على بنكندورف الذي فتح الباب وناداه:

_ أهذا أنت أيها الملازم ؟ أراك في هذا اليوم الجميل وحدك !

_ أعود إلى بيتي بعدما استرحت قليلاً _ قال خان جري وقد جمدته رؤية من لم ينتظره البتة حتى غار صوته.

_ إن أردت مرافقتي فاركب أيها الملازم. تعال، تعال ! وأنا وحدي، أستريح _ حين صار خان جري في العربة دون أن يدري كيف حدث هذا، في هذه اللحظة فحسب، فهم أنهم أجلسوه على يسار الكونت بنكندورف. وأضاف الكونت إلى كلامه: _ أنا أيضاً أحب أن أستريح أحياناً. نهارُنا، كما ترى، يشرح القلب، لم يدعْني جماله أبقى في البيت ولا في المكتب. وأما أوراقي التي لا تنتهي فلم تمتد إليها يدي. وأنت أيها الملازم كيف أمورك ؟ أنا مرتاح لاستقرارك في الحرس. كنت واثقاً بك في هذا الشأن، وقد نِلْتَ رِضاي. ووجود أمثالك من الضباط ذوي الفطنة والفهم بين حرس القيصر وحماته يمنحني كثيراً من الرضا والراحة. ولا أخفي عليك أني منذ انضممتَ إليهم شعرتُ بالاطمئنان.

_ شكراً يا سموكم على ثقتكم بي وتثمينكم لي.لن أقصر في شيء من حق قيصرنا الغالي ولا دولتنا. وأنت يا ألكسندر كريستوروفيتش _ نطق خان جري اسم الكونت وقد هدأ _ لن أسبب لك الحرج.

_ شكراً أيها الملازم، شكراً يا خان جري _ قال بنكندورف بصوت ألطف، وهشّ له _ إن كنت ستخلص للقيصر وستكون أملاً للبلاد فاعتبر نفسك أرضيتني إلى الأبد. أيها الملازم تعال إن كان عندك وقت، ذاك هو بيتي، سنشرب الشاي في فنائي الخريفي. وإن دعت الحاجة رفعنا ما هو أهمّ من الشاي.

_ الشاي ممتاز _ ابتسم خان جري _ ولكن الآخَر لا خبرة لي فيه.
_ ماذا أسمع أيها الملازم ؟ _ ظهر الاستحسان في صوت بنكندورف وإن تعجب مما سمع.
_ لم أذق الخمر في حياتي يا سموكم ولم أدخن.
قال بنكندورف في سره: ترددت طويلاً في إلحاق المحترم ضابط الحرس القيصري ولكن تبين أنه كما أريد ولم أخطئ في ترشيحه. ونظر نحو خان جري بعين زرقاء حذرة فيها شيء من الدفء واللامبالاة. وبالإضافة إلى ما كان قاله له بيروفسك وباسكيفيتش، تذكر بنكندورف جواب ديسكاسي حين سأله قبل أيام عن خان جري. ليس كل الناس ذوي التربية الممتازة متشابهين، ولكن لا يخفى أنه رُبي في أسرة فيها احترام وتهذيب. وكان بارزاً في صفوف السرية القوزاقية التي ضممته إليها. ولكن شيئاً واحداً لا أفهمه: في بلاد الأديغة التي ينتمي إليها نشأت فتنة لا نهاية لها بعدما انتصرنا على الأتراك. يقولون لنا: الأتراك لا شأن لهم بنا، وأنتم لا نريدكم. ليسوا جميعهم طبعاً،فها هو خان جري وأمثاله يقفون إلى جانبنا. إنْ عملْنا مع هؤلاء وجعلناهم يفهموننا فلا شك أنهم سيفيدوننا في مشاريعنا في شمال القفقاس. سنحقق لهم ما يريدون ونحن نعمل معهم. وسنرضيهم وسنسمح لهم أن يعيشوا حياة رغيدة،ولكننا لن نُطمِعهم في زعامة أقوامهم وهو ما كتبه إلينا خان جري نفسه. إن منحت كل قومية في شمال القفقاس حكماً ذاتياً فكأننا دخلنا القفقاس دون نوايا. والغروزين والأرمن والأذربيجانيون، وإن قالوا إنهم يقفون معنا، لن نستطيع حكمهم فالحرية حلوة على أي شعب، صغيراً كان أم كبيراً.وهذا لا يجوز أن يعلَمه أحد بل أن يشمَّ رائحتَه. فالبولونيون لا ينسون إلى الآن أن القيصر ألكسندر الأول وعدهم بأن يمنحهم دولة كما الليتوانيون. والآن بدؤوا يناصبون القيصر العِداء ويثيرون لنا مشاكل نحن في غنى عنها. وينوون تغيير نظرة أوربا إلينا.
ومع أن بنكندورف كان على علم برأي خان جري في الخمر فقد كان الإناء الجميل الذي فيه الشراب الأبيض جاهزاً أمامهما بعد كأس الشاي الثانية.
_ قال بنكندورف: أنا سعيد بقلقك على ما يحدث في بولونيا نتيجة مشكلة الحُكم.ولكني لا أعتقد أنك مطلع على تصرفات الأديغة في نواحيكم. ليس البجدوغُ قومُك بل الشابسغُ والأبزاخ هم الذين يعلنون رفضهم لنا، وكذلك الوبيخ. لا أعرف إن لم أنطق أسماءهم على نحو صحيح.
_ صحيح يا سموكم _ أمسك خان جري بلبِّ الموضوع _ ولكن هناك أعراقاً أديغية أخرى غير هؤلاء. وأنا أعرف شيئاً مما يحدث بينهم. يكتبون الأخبار إليّ. ليس إقليم الأديغة كما نتصور. لا يفهم الكثيرون أن الأديغة الموزعين على قبائل متفرقة يجب أن يتعايشوا على تفكير واحد، والذين لا يريدون أن يفهموا هذا ليسوا قلائل.
_ حسب ما تقول يا خان جري _ ابتسم الكونت الذي احمرّت وجنتاه من كأسي الشاي _ هم كالليتوانيين والبولونيين.

_ إذا أخذنا شمال القفقاس كوحدة، فلو لم يكن إلا الأديغة، لوجدت هؤلاء الذين ذكرتهم مقبولين بالنسبة إليهم. في ناحيتنا، لا أعرف إن كنت أستطيع نقل الفكرة إليك يا ألكسندر كريستوروفيتش، للأديغة قول مأثور " القبر واسع حيث أبناء العِرق كثيرون "

_ أخمّن ما تريد أن تقوله أيها الملازم _ قال بنكندورف دون أن يتخلى عن طلاقة وجهه المتكلفة وإن تغير لون وجهه. وذكّره بشجاعة المحارب الروسي _ كان الفرس والترك يخيفوننا بهذا ولكنك خبرت بنفسك أنهم لم يحققوا شيئاً؛ بل أصبح إقليم ما وراء القفقاس كاملاً بيدنا؛ فأين يذهب شمال القفقاس ؟ ! أنا واثق من خضوعه أخيراً. ظهر في نواحيكم زعيم اسمه زانه قوه سفربي، أتعرفه ؟

_ لا أعتقد أن أحداً في إقليم الأديغة لا يعرف زانه قوه سفربي _ أجاب خان جري متمهلاً قائلاً في نفسه: وتعرف هذا أيضاً ؟ _ إنه من أمراء الشابسغ. إنسان مهذب. كان ضابطاً في الجيش الروسي في عهد غودوفيتش إن لم أخطئ. ورحل إلى تركيا وخدم في جيشها مدة. واجتمعت به بضع مرات ولكن لم نتحادث. كان والدي هو من يعرفه جيداً. ولم يندر أن تكون علاقاتهما بين الصلح والعداء.

_ والآن هو عدونا اللدود. يثير الشابسغ، ويقال إن شروخقوه وتوغوظقوه تحالفا معه.

_ هذا خبر سيء يا ألكسندر كريستوروفيتش _ ظهر قلق خان جري من صوته _ هؤلاء يستطيعون إثارة مشكلات في الإقليم نحن في غنى عنها.

" أأنتم أم نحن من لا نحتاج إلى مشاكل ؟ " كان بود الكونت بنكندورف أن يسأل خان جري غير أنه وجد السؤال غير لائق به ولاسيما لضابط لا يثق به فيثير شكوكه؛ فغيّر كلامه:

_ لا داعي للقلق أيها الملازم، خَبِرَ الجيش الروسي مواقف كثيرة من هذا القبيل. سنلقن البولونيين العصاة الدرس المناسب وسنعرّفهم قدرهم. وقومك الأديغة، وكن واثقاً بما أقول، ليسوا كلهم زانه قوه ولا توغوظوقوه ولا شروخقوه؛ بينهم كثيرون من أمثالك، سيفهموننا. تكلموا أكثر إلى عناصر السرية وشجّعوهم أن يكتبوا إلى ذويهم ! والأفضل، وإن لم تختبروهم، أن تكونوا على علم بما في قلوبهم. حدثّوهم وأفهموهم نية القيصر في إقامة سلام في شمال القفقاس. أنتم حماة القيصر وموضع ثقته. هذه القضايا في السرية مسؤوليتك أنت يا خان جري. ومهما حدث، خيراً أم شراً، لا تكتم ما يحدث في السرية، أعلِمنا. أنت أيها الملازم بين أوائل من يثق بهم القيصر.

_ شكراً يا ألكسندر كريستوروفتش. لن آلُوَ جهداً، سأخلص للقيصر _ ثم أضاف بعد قليل بصوت واثق: _ وذاك الذي قلت فيه: " لا تكتمه " فهمته ولكن لا يحدث مثل هذا في سرية حماية القيصر _ ما أنا راضٍ عنه أيها الملازم _ ابتسم بنكندورف _ سأكرر، يسرني، ولكن ما لا يرضيني لا أكتمه _ وأضاف بصوت يتجه إلى البرود: _ وصلت إليكم الفتنة البولونية أسرع مما يجب. ولأن عناصرَ السرية حماةُ القيصر وموضعُ ثقته فمن الأفضل ألا ينشغلوا بما ليس من شأنهم. لا أتكلم على السرية الجبلية أيها الملازم، بل عن أحد أصدقائك الضباط في السرية القفقاسية، أتتذكر اسمه ؟ من قالوا لي هو ؟

خطر كابوستينكا إيغنات لخان جري فتغير لونه. ولكنه لم يُبِن على نفسه الانفعال وإن انتصب أمامه الجدال الذي دار بينهما اليوم.

_ عندي أصدقاء كثيرون من الضباط في السرية القوزاقية يا ألكسندر كريستوروفيتش؛ فإن ذكرت اسمه تذكرته.

_ إن كنت تقول هذا _ ابتسم الكونت بنكندورف دون خبث _ فمن سأقول اسمه صديق حميم لك، ومن نواحيكم.

_ إن كنت تتحدث عن الضابط كابوستينكا يا سمو القائد _ خفض خان جري صوته خجلاً من ارتفاعه: _ إن كان إيغنات إيفانوفيتش فهو صديقي جداً، ونحن أخوان وإن لم تلدنا أم واحدة. أرجوك يا ألكسندر كريستوروفيتش ألا تصدّق أحداً مهما قال لك. إن كنت تثق بي فثق به. إنه مخلص للقيصر وقد كرّس حياته للوطن.

_ أنا مرتاح لكلامك وواثق بك أيها الملازم. لا حاجة أن تترجاني، ولكن أوصه باسمي أن يحفظ لسانه.

***

كان قد مضى على لقاء خان جري المحترم بالكونت بنكندورف شهر ونصف حين توجّب على نحو مفاجئ أن تمضي السرية القفقاسية الجبلية مع حرس الجندرمة فتتخذ طريق بولونيا باتجاه مدينة فيلينوس[1] كان خان جري قائد المجموعة الأولى من السرية القفقاسية التي اتجهت في 9 كانون الأول. والمجموعة الثانية الخارجة من بطرسبورج في 3 كانون الثاني بقيادة عزمت جري.

IV

وصلت المجموعة التي يقودها خان جري من السرية القفقاسية إلى فيلنوس بعد ظهر يوم 17 كانون الثاني عام 1831.

لم يدَعوا الجيش الذي ينتمي إليه خان جري يقيم طويلاً في مدينة كوفنو. في البداية أرسلوهم إلى جيش أفغوستو ثم إلى لومزا في 10 آذار. قائد الحرس المعظم ميخائيل بافلوفيتش دمج المجموعة التي يقودها خان جري في جيشه واصطحبها إلى الطريق المؤدي إلى وارسو.وفي 24 نيسان، غير بعيد عن موقع أوسترولينكو، في بلدة غلينكي، التقى مقاتلو خان جري بسرية بولونية فكان أول قتال لهم في بولونيا؛ قتلوا منهم سبعة دون أن يصاب أحد من جماعة خان جري. وأَسر أنزور حتال وقويشرقوه بْغَتَر رقيباً، وقادوه إلى قائد وحدتهم البارون أوستن ساكين.

أخبرهم الأسير أن الجيش البولوني آتٍ من بارانوف إلى قرية فيربانت. فكمن للجيش البولوني قائدُ جيش المشاة العقيد غيمبيس، واعترضهم في عمق الغابة فرسان الوحدة التي يقودها خان جري.

[1] عاصمة ليتوانيا إحدى جمهوريات البلطيق. المترجم.

كان اليوم الربيعي لطيفاً لا يوحي بمأساة. والطبيعة تتجلى بأصوات مختلفة على سطح الأرض. والهواء الناعم يداعب رؤوس الأعشاب الغضة. والغيوم الكسلى التي لا تلحق إحداها الأخرى تنفي عن السماء الملل. والغابة التي يكمن فيها خان جري وجنوده تصفّق أوراقُ أشجارِها المختلفةِ الألوان الوليدةِ بعضُها لبعض. وأشعة شمس الظهيرة تلعب تحت الغابة مشكلة ما يشبه راحات الأكُفّ.والأمواج السريعة للنهر الجاري قريباً من خان جري تنثر مياهاً فضية. والعصافير تتنادى بأصوات مختلفة.

ولكن خان جري، وإن كان يسمع كل هذا ويحس به في نفسه كان ما ينتظره ويتنصت إليه شيئاً آخر. يقول لقودايْنَت وَلْجَرْقوه، ويؤكد لنغومه شوره[1] :

_ لا تأخذْكم الحماسة، ولا تعرضوا أنفسكم دون داعٍ إلى السيوف والبنادق !

_ يا خان جري يا أخي. _ ينظر إلى وجهه نغومه شوره بوجه طلق _ لا تقلق ! أتظنها المرة الأولى التي نُشهر فيها سيوفنا ؟ ! لا تفكر في ما ليس ضرورياً ! ليس قيصر روسيا فحسب، بل سيحتاجنا الأديغة أيضاً. أنت اكتب لهم، وأنا سأخترع لهم الحروف التي سيكتبون بها. يكفي ما قرأناه بغير لغتنا !

_ إن كنت تتحدث عن القرآن يا شورا _ يرتعب وَلْجَرْقوه _ فقف أمام الله وادعه أن يغفر لك.

_ لا تقلق يا ولجرقوه، منذ زمن بعيد أدعو إليه ولكنه لم يلبّ دعائي.

_ يا شورا ! لا يقال مثل هذا _ توجس ولجرقوه شراً مما سمع _ ادع إلى الله في حضرته، والأفندي خوت لن يقبل منك هذا !

_ يا ولجرقوه، يا أخي ! _ أجابه شورا يغلبه دفء الصداقة _ ألن تسمع كلامي مرة واحدة ؟

_ مهلاً، مهلاً ! كفى، لا تتخاصما ! _ نصحهما خان جري وابتسم لهما. تذكر أنه صار صديقاً للشابين في العام الماضي، بعد نحوِ ثلاثة أيام من التحاقه بالسرية القفقاسية.

كان الاثنان التحقا في تلك الأيام أيضاً بالسرية؛ قال خان جري في قلبه. وبعد أن طاف بي عزمت جري ومعه خوت أفندي وتيغانا كانا أول من صارا من محدثيّ.ومسألة الدين التي قامت بينهما اليوم ساعة جابهْنا العدو هي التي جمعتنا آنذاك. كانا احتكما إليّ ظناً منهما أني أفندي السرية. ولكن حين أفهمتهما أن التباساً حدث بيني وبين الأفندي خوت لم يتراجع نوغمه عن مزاحه الخبيث معي ومع ولجرقوه، ولم يتراجع عن موضوع تعليم القراءة والكتابة، وهذا موقفه الآن. ليس لأنه لا يعترف بالدين ولا يثمّنه _ فصلاته ووضوؤه ودعاؤه متتابعات، وهو يقرأ القرآن بصوت جهوري جميل. ولكن ولجرقوه لا يقبل منه أن يجمع الكتب المكتوبة بالروسية في مكان واحد مع الكتاب الذي أنزله الله من السماء. قبل أيام أراني بضعة حروف صممها لكتابة الأديغية. ومرة، قبل أن نسلك طريق بولونيا، كان بنكندورف قال لي " نغومه

[1] (1794 _ 1844) له " حكاية العرق الأديغي " نُشر في استانبول وأنقرة بين عامي 1977 _1980. كتاب الأديغة المماليك: محمد حفأزه منشورات نالتشيك. إلبروس 1994

شوره، بدلاً من أن يعمّق علمه باللغة الروسية، ينشغل بابتكار الحروف التي تكتب بها اللغة الأديغية؛ فانتبِهْ إليه، ولا تَدَعْه يُدخلنا في ما لا نريده ". ولماذا لا نحتاج إلى من تصل فطنته إلى مثل هذه القضايا. ليس الأديغة فقط بل كل الأقوام التي لا تستعمل لغتها تحتاج إلى مثل هذا. وإن استطعتُ فسأساعده، دَعْكَ من أن أعرقله. وولجرقوه إن كان يؤمن بالله فليحتفظ بإيمانه في قلبه وليمارس دينه فسيجد فيه فرحاً وراحة.

اقتلعت أصوات البنادق الصادرة من الريف المواجه للغابة خان جري من أفكاره. أكد على مرؤوسيه وهو يركب:

_ لا تستعملوا السلاح دون إذني، لا تطلقوا النار !

لا تدور الحرب كما يشتهي كل إنسان. ثم إن أضيف إلى هذا الأمرِ الغاراتُ المفاجئة تَشَتَّتَ الجيش وصعبت عودته إلى وعيه. وهذا ما حدث للمشاة الخمسمئة البولونيين؛ فقد قابل فرسانُ خان جري بالسيوف الجنودَ المتراجعين من كمين العقيد غيمبيس مطلقين النار معاً.

لا يسمع خان جري إلا خليطاً من اللغة البولونية والروسية والأديغية وأصوات صهيل الخيل. يُسقط البولونيين الهاربين ذعراً بصدر الحصان، ويصرعهم بضربة سيف. وشورا وولجرقوه وبَغَتْ وآخرون تصلّ سيوفهم، وصدور أحصنتهم تحارب.

ينظر خان جري فيرى ولجرقوه راجلاً يمسك السيف بيد والقامة بيد.يقف وسط الأعداء شامخاً. يُهرع شورا فارساً إلى الأعداء الذين أحاطوا بوَلْجَرْقوه، وينادي صديقه:

_ ولجرقوه، ها أنا قادم إليك !

ولكن ولجرقوه يقول شيئاً آخر وهو يصرع الأعداء:

_ وهذا كافر أزهقت روحه. وأنت أيضاً الحق به باسم الله لأنك كافر. _ أوقف رمح العدو المسدَّد من الحلف ضربة السيف الثالثة لولجرقوه. وما إن التفت إليه حتى فاجأه بطعنة خرقت قلبه فصرعته. قفز شورا الذي قتل القاتل من ظهر الحصان غير أن نفَسَ صديقه كان قد انقطع.

لم يكن خان جري مكترثاً بالدم النازف من اليد اليسرى الجريحة ولكن الرصاصة الثانية التي كسرت ضلعه أسقطته من ظهر الحصان.

***

صحيح ما يقال عن أن جرح الشباب يلتئم بسرعة. التأم جرح خان جري في أقل من شهر ونصف وكأنه لم يجرح. وطوال هذه المدة لم يرتدْ مشفىً ولم يترك جنوده وحدهم يوماً. لم تكن له حجة في نفسه، ولم يكن يريد خداع الجنود المسؤول عنهم.

اصطحبوا خان جري إلى قائد سرية الجندرمة للحراسة شيميرمان، سأله رئيس الأركان:

_ كيف تسير أمورك أيها الملازم ؟

إن كان الأمر يتعلق بشخصي أيها القائد _ ابتسم خان جري في سره _ لا بأس، لا شكوى عندي.

ـ وجروحك ؟

ـ لا أحس بمثل هذه الجروح.

ـ هذا حسن، وأعده من مناقبك.

" أي استجواب عمله هذا معي ـ قال خان جري في نفسه ـ لا تماطل في مصارحتي بما استدعيتني لأجله" !

ـ وما أخبار جنود سريتك المرعبين للعدو ؟

ـ هم جاهزون لأي مهمة ! ـ أجاب باختصار.

ـ السبب الذي استدعيتك لأجله أيها الملازم هو إبلاغك أخباراً حسنة. الأول، وهو ما أعتبره مفخرة لي، هو تكليفي من قبل ألكسندر كريستوروفيتش المبجل تبليغ فرسانكم واحداً واحداً برضاه عن أدائهم. والثاني: بما أن كونستانتين بافلوفيتش المبجل سيذهب من بيلوستوك إلى سلوني فقد كلفكم بمرافقته وحمايته. وفيما خان جري ينفذ المهمات الكثيرة التي كُلفت بها وحدته رافق المبجل كونستانتين بافلوفيتش في الطريق إلى نواحي مينسك[1]، وقد وصلوا إليها في 20 أيار. وبعدما استراحوا فيها يومين توجهوا إلى فيتيبسك. وحيثما توجهوا كان فرسان الوحدة حريصين على ولي العهد؛ إذ كانوا يسبقونه بعدة فراسخ، ويستطلعون المكان[2].

لم يرافق خان جري وجنوده كونستاناين أكثر من شهر. فقد أصيب المبجل بالكوليرا التي كانت انتشرت في فيتيفسك التي وصلوا إليها في 3 تموز. وفارق الحياة بعد أيام دون استجابة لأي علاج. وبعد أيام راح تامبي قونْشَه قُوَه أيضاً ضحية هذا المرض.

[1] عاصمة جمهورية روسيا البيضاء = بيلاروسيا. المترجم

[2] من بين البطولات الكثيرة التي اجترحها خان جري في طرقات بولونيا يكتب س. بيتين في كتابه " في 16 من شهر تموز قرب كوفنو جابهت فصيلة خان جري جيش المشاة وشتته من الجانبين دون أن تتوقف، واضطرتهم إلى الانسحاب. وقد قتلت الفصيلة 50 من الأعداء بالسيوف، وأسرت اثنين من الضباط و40 جندياً. ورغم أن خان جري جرح في صدره فإنه لم ينسحب وهزم كل من لاحقه وجابهه وأجبره على التراجع من أمامه.

وفي أشهر الصيف التالية، في أواخر آب، وبعدما احتلوا وراسو، وخلال تطهير إقليم بولونيا من الأعداء،وريثما يعود إلى سان بطرسبورج في شباط عام 1842 لم تدخر السرية جهداً. وحصلت على صيت رائع في القتال وسُجل لها هذا الصيت[1].

كان الجميع من جنود وضباط، وعلى رأسهم خان جري في نشوة الفرح بالمكافآت والأوسمة التي حصلوا عليها من القيصر بمناسبة النصر الذي أحرزوه في بولونيا. ولم يكن يخطر لهم أن ما كان يفعله الجيش الروسي في بلادهم شمال القفقاس كان مشابهاً لما كان يفعله في بولونيا.

V

كان واضحاً الفصامُ الذي طرأ على علاقات عزمت جري وخان جري، وإن لم يتحدثا في الموضوع وجهاً لوجه خلال التقاء فرعي السرية لمدة ثلاثة أشهر، وحين رجعوا على الطريق. وكان الأفندي خوت والملازم تيغانا يتوجّسان هذا ولكنهما أخفيا شكهما. لم يكن رجال السرية، وبينهم نغومه شوره بفطنته، صُمّاً ولا عُمياً عما بين قائدَي السرية. لم يكن المحاربون العائدون منتصرين معنيين كثيراً بالحديث في هذا الموضوع ــ كانوا مسرورين برُتبهم وميدالياتهم والنصرِ الذي أحرزوه في الحرب.

يختلف الناس في عقولهم وأفكارهم كما يختلفون في أشكالهم. يحمل الإنسان ما دام على قيد الحياة سرَّه وعلنه مفصَّلين على نمط حياته. وليست المواضع التي يرفعه فيها هذا النمط من الحياة قليلة، والمواضع التي ينزل به فيها أكثر. ومن الناس من يفارق الحياة غير واثق بأحد ليتقاسم هذه الأسرار معه بحيث لا تدري أعاشوا حياتهم أم لم يعيشوها. وهناك من لا قيود على ألسنتهم ينفّرون منهم الناس بسبب وبلا سبب.

---

[1] يرسل العقيد مرافق القيصر أورلوف حول إنجازات بعض عناصر خان جري إلى الكونت بنكندورف: " أود أن أرسل إليك أخباراً طيبة عن بطولات الفصيلة الأولى من السرية الجبلية القفقاسية، وأنا أحقق أمنيتي بسرور: في الأول من أيار في نواحي فيربونت وفي الحرس في 7 تموز في جبال بانارسكا، وفي 16 منه غير بعيد عن مدينة كوفنا أبدى عناصر السرية الجبلية المنضوون في جيشي بطولات عظيمة. وفي الأماكن التي تكون فيها الحرب على أشدها حين يظهر الأديغة كانوا رعباً للأعداء. يتمتع الأديغة بالرجولة والأدب والإنسانية. وأنوّه بالملازم خان جري لتمتعه بهذا المزايا. وأود أن تبلغ القيصر ببطولات فصيلة هذا الضابط.

في كتاب " الحرس الخاص بالقيصر الأعظم "يكتب بيتين: نتيجة الرجاء السابق رُفّع خان جري الملازم إلى روتميستر. وأعطوا عزمت جري رتبة عقيد وللأفندي خوت رتبة رائد، ورُقّي الطلاب الضباط إلى رتبة ضابط حاملِ علمٍ في جيش الخيالة. وأعطوا للقب حملة السلاح لقب طالب كلية حربية.ومنحت ميداليات ذهبية للطلاب الضباط سلطان قاز جري وإينال غابيكوف وتختمشه أنزور و لافشه سعيد و كاناييف قسي، وحملة السلاح قوشرقوه بغت و أنزور حاتو و وقازانش ونغومه شوره ودولت جري و سلطان سحت جري و كراموف كيزيل بيك و أتاجوقوه أنزور وقويشرقوه أبو بكر وبسيه حاتو أو صي لهم بميداليات. ومكافأة على إسهامهم في احتلال وارسو بميداليات لعزمت جري وأيدمر الروتميستر الركن. وتوغانوف أسلان بيك و بيدس محمد جري و مشوسلت وقوجوخ و وتومالي الطالب الضابط و بيسونغوروف ودالوف موتليف وخوت و غوج و باتباتوف و مورزاييف و ولوباييف وأكاييف و تاكاييف و ميشخوج...

والعقيد عزمت جري والروتميستر خان جري، وإن كانا من عرق واحد، يعيش كل منهما مسيّراً أموره حسب فهمه وفطنته وقدرته.المروءة طريقُ مَن يتصف بها، لا تتعلق بأمير أو مولى، ولا بمسن أو شاب. ليس إنكاراً للطريق الذي سلكه المسن أو انتقاصاً من احترامه ولكن لا يقاس الاحترام الموجه إلى الأصغر بحسب عمره. والناس يقابلون الإنسان بما عمله إن كان صغيراً أم كبيراً.

لم يكن لخان جري هَمٌّ خلال سحقهم لحرية البولونيين وسفكِهم دماءَهم دون رحمة على أرضهم إلا تنفيذُ رغبات القيصر دون التفات إلى شيء آخر. بل إن الاحتقار الذي أولاه للشعب الذي أرسلوه لقتاله استمر في صدره وهو عائد إلى بطرسبورج. ولولا نغومه شوره لكان من الممكن ألا ينسى هذا الشعور على الطريق الشاق الذي استمر أكثر من شهر.

بعد الرحلة الشاقة غضب خان جري على نفسه بنفسه. لماذا أفكر في هذه الأمور وقد رجعت إلى فراشي الدافئ بدلاً من أن أنام وأستريح. انتهينا من الحرب وتركنا البولونيين خائفين من أن يرفعوا رؤوسهم حيث نكون أو لا نكون، وبددناهم شذر مذر في أرضهم. مهلاً، مهلاً، إلامَ لمح لي نغومه شوره قبل أيام ؟ كان قال لي: " لا يجوز أن نجتر انتصارنا في بولونيا فلا نتكلمَ في غيره، لا ننس أن مثل هذه المأساة تجري في ديارنا وأنها ستقوم في أرضنا مستقبلاً. ما يُدريك ما سفَكَ يرمولوف في بلاد القبرتاي ؟ ". وكان وافقه بَدس ممت. أيجوز الكلام بحق ألكسي بيتروفيتش بعد كل أفضاله علينا؟ ! كان وسيلتنا إلى دخول المدرسة ودراستنا وراعياً لنا. والآن نحن ضباط القيصر العظيم. دعْكَ من هذا؛ مبعوثُ الله إلى الأرض وثق بنا ووضع حياته بأيدينا. يحقق لنا ما نريد، مطمئنٌ لأننا حماته. ورعى أمورنا مدة حربنا في بولونيا، ولم ينس البطولات التي اجترحناها.إن فكرنا على هذه الطريقة فحربنا كانت عبثية.وتركنا فيها محاربينا. وألقاب طالب حربية وملازم، ورُتَبُنا وأوسمتنا وجرحانا عبثٌ. ما كان على القبرتاي أن يقفوا في وجه يرمولوف. جرى لهم ما جرى للبولونيين.

إذا رجعت نصف ساعة إلى الوراء فإن خان جري الذي حطّ عصا الترحال متعباً لا يريد شيئاً فارتمى في الفراش كانت عيناه تلمعان في الغرفة الشتائية المظلمة ولم تغمضا. وبدلاً من أن يرتاح ويستيقظ ليوم قادم هادئ كانت أفكاره المتلاطمة تسبب له أسئلة تصدع الرأس. وإذا رجع سنتين انتصب أمام مخيلته اجتماع أمراء الخمشي الذين ورّطوه في مشكلة غير منتظرة،وتذكر ما قالوه لبنكندورف. وما لم يكن يغيب عن ناظريه إن فتحهما أو أغمضهما هو ملامح شواي وعدم اتفاقه مع الاجتماع. والآن ينظر إلى الأخبار التي تُكتب له من لوستان حبله نظرة أخرى.وإن بدأ يجيب عليها انتصبت أمامه أسئلة مفاجئة.

لا يجوز تجاهل كل ما يقوله نغومه شوره كلياً فلا يستبعد أن يكون بينها شيء صحيح. يسأل خان جري نفسه، ثم فجأة يثور غضبه: _ الكذب يتضمن شيئاً من الصدق، والصدق يمكن أن يتضمن شيئاً من الخداع، وهذا يتبع طريقة تفكيرك وموقفك من الموضوع. صحيح ما تقوله جدتي من أن الأديغة القبرتاي وأديغة منطقتنا ليسوا متشابهين. ولماذا تذهب بعيداً ؟ أنا وعزمت جري، رغم أننا من منطقة واحدة فإن

التفاهم بيننا ينتقض شيئاً فشيئاً. كنا فرِحنا حين جمعْنا،وخلال عام كامل،شمل السرية المقسومة إلى قسمين دون إرادتنا، ولكن نشأت بيننا أمور كثيرة غير متوقعة. ورغم أننا كنا في حرب واحدة فقد تسللت إلينا مسألة من أُثني على بسالته في الحرب أكثر من الآخر. ليس ذنبَنا أنّ المعارك التي خاضتها وحدة عزمت جري كانت أقل مما خُضنا، بل ذنب الذين خططوا للمعارك. وحتى نحن لم نكن من الذين احتلوا وارسو، ولم يمنحونا أوسمة على هذا. حقاً لماذا وافق بَدسْ مَت، وإن لم أكن انتبهت في ذلك اليوم، نغومه شوره ؟ أيخاف أن يتصرفوا في نواحينا كما تصرفوا حيث كنا ورجعنا منه.هذا مستحيل ! يجب أن يتصالحوا لأن أي حرب بما فيها حرب بولونيا لا تجلب الخير. إنها تجلب المأساة الأبدية لكل إنسان. لا أبرّئ البولونيين في سلوكهم مع قيصرنا، ما كان عليهم أن يثوروا إن لم يكونوا يبحثون عن الشر. لا، لا؛ لا يجوز أن نسمح للأديغة أن يفعلوا مثل هذا.

إذن ماذا سيفعلون ؟ وأيَّ مخرج سيجدون ؟ نبع من صدر خان جري سؤال مفاجئ آخر. ثم صارت الفكرة التي ما كان ينساها جواباً لها: _ إقليم الأديغة بحاجة إلى سلطان حتى ولو أهانني أمراء الخمشي في منطقتي، وحتى لو لم يقبل وقتها من صرت معهم. وسيختار طريقه تبعاً لشعوره القومي وفطنته وفهمه. لست أحتاج إلى أن أفكر في الجهة التي سأتجهها ولا أن أسأل عنها لولا أن باسكيفيتش وبنكندورف لم يفهماني وهما يتفقان على فكرة: " لا أنت ولا أنا نحتاج إلى هذا ". لنفرض أن الأديغة لم يصالحوه ؟ كان والدي ومرجان يقولان: لا شيء دون مخرج؛ بل إن هذه الفكرة لا تفارق لسان شواي، وجدتي كانت توافقه دائماً، وكانت أمي وسيسور تفرحان. وقايمت يدير رأسه وحاج قسي يبتسم، وعادل جري كان من يكشف ما يفعله أيٌّ كما يريد. وسعيد جري هو من يخفي أي انفعال. ما أخبار هؤلاء يا ترى ؟ سأل خان جري مسروراً عمّن خطروا بالبال. وفيما هو يستعرضهم واحداً واحداً غرق في النوم.

يرى خان جري حلماً: لا يستطيع تمييز المكان الذي هو فيه. ينتصب في حلمه كل ما كان يقلقه ويُهمه قبل نومه. عزمت جري يقف أمامه برتبه اللماعة، يعاتبه، يترجاه، يهمس له، لا يعجبه سلوكه نحوه. يهمُّ أكثر من مرة أن ينهره غير أنه يكظم غيظه. وحين يختفي من أمامه قائد سرية الجبليين القفقاس يواجه خان جري راجلاً والسيف بيده العديد من الفرسان البولونيين. يصرع خمسة فرسان غير أنه يلاحق السادس، والآخر يقول له: ما الذي جاء بك إلى هنا، إلى هذا المكان البعيد؟ لا يقتله، ولا يفهم لماذا بقي البولوني بلا صدار ولا قميص ولا قبعة. _ يجلده بالسوط على الظهر العاري، ويُسقطه بصدر الحصان، ولكنه ينهض من جديد. يناديه نغومه شوره ويصرخ قوداينت ولجروقوه. لا يميز الجهة التي تصدر منها الأصوات وفي غمرة الجري يقفز في نهر، وحين يسبح إلى الضفة الأخرى دون أن تجرفه الأمواج يرى شورا وولجرقوه واقفين يسخران منه بدلاً من أن يمدا له أيديهما ويقولان له " ألم ننصحك ألا تدخل في غير أرضك وألا تحارب فيه ؟! ". وفي اللحظة التي يهمّ فيها أن يقول لشورا: "ما الذي جاء بك إلى ناحيتنا؟" ينهض من هذا المكان زابروين القوزاقي، ويختفي ولجرقوه ويخرج من النهر كابوستينكا إيغنات بسيف مُشهَر،

وينحني عليه ليضربه. وعزمت جري يبتسم له ولكن لا يساعده. وحين يغطس في الماء يظهر على ضفة النهر أمراء الخمشي الذين تراجعوا عن اتفاقهم معه،زانه سفربي و توغوظقوه قازبك وشروخقوه توغوظ وأباته بسلني، وحجمقوه باتمز برأس حصان يركبه بفوق الذي يجر بامبت ذيل حصانه، فيرتمي الجميع على الضفة،ويغطس تحت الماء وهو يسمع شواي ومرجان، وإن لم يرهما في كل هذا الجمع، يقولان له: " لا تقترب منهم ! ولا تسمح لهم أن يقتربوا منك، اسبح إلى الضفة الأخرى "يصرخ والماء يملأ فمه ثم يبصقه: " الآن أفهم أن باسكيفيتش وبنكندورف خدعاني، وأمراء الخمشي بلا وجوه، لم يعد عندهم لا رجولة ولا صدق. لم يوصلا رأيي إلى القيصر ولم يُفهماه إياه. سأذهب إلى القيصر الذي أخلص له. أين أذهب خارج الأديغة، القيصر سيفهمنا !

انقلب خان جري مدفوعاً بالرعب، وفيما يظن نفسه يجتاز النهر رأى نفسه في بيت ابنة أحد الأمراء. وكأن شواي وبفوق وبامبت معه في الغرفة، ورجلٌ آخر بدين من شكل حسن باشا جالس إلى الموقد، وهو جالس بهدوء قرب الباب معلِماً إياهم أنهم يغازلون الفتاة لأجله. ولا يميز إن كانت الفتاة التي يغازلونها أديغية أم روسية لأنها تلبس خليطاً من الملابس؛ الجانب الأيسر بكامله من الرأس إلى القدم زي أديغي، والجانب الآخر ثوب قوزاقي من قماش شفاف. لماذا يظهر الصليب الفضي من صدرها وهي فتاة أديغية من الجمكوي، الابنة المدللة للأمير بولتْقوه. من المعيب أن تجلس الفتاة بصدر مكشوف أمام لابسي القبعات. مهلاً، مهلاً ! من هذه ؟ أهي أنفيسكا ؟ أم هي تاتيانا الفتاة التي لم تحترمني على ضفة النيفا. أأنت أنفيسكا أم تاتيانا ؟ يقفز خان جري مرتعباً من حلمه على صوت قانتات القلق الذي لا يعرف من أين أتى " ألم نتفق على ألا تغازل امرأة من غير قومنا ولا تتزوج منها ؟ " ويجلس فاركاً عينيه غير عارف مع من كان وماذا جرى له. ويفرح حين يعود إلى وعيه بأنه عاد إلى دنيا أخرى غير التي كانت في حلمه.

لم يكن خان جري يريد أن يقضي في الفراش مزيداً من الوقت رغم أنه كان متعباً من رحلة الليلة الفائتة ولم يجد الوقت إلى الآن ليستريح. أشعل المصباح، والساعة هي السادسة فحسب. كان الوقت مبكراً بالنسبة إلى صباح بطرسبورج، ولكنه كان الموعد المناسب لضابط في الجيش. وكان هناك توجيه بأن يستريح الجنود إلى الظهر لأنهم سافروا طوال الليل.

يذرع خان جري أرض الغرفة عاقداً يديه وراء ظهره كأنه الأتاليك مرجان؛ لا يستطيع تأويل حلمه. لا يزال كل ما رآه أمام عينيه، وما قالوا له في أذنيه. ولكنه لا يذكر شيئاً مهماً في كل ما مر عليه.

ربما كان تعب الطريق وراء أضغاث الأحلام هذه؛ نصح خان جري نفسه. لا عجب في أن ترى مثلها بعد الإرهاق. حتى الثور ينهار على ركبتيه حين يتعب، ونحن نلاحظ هذه الظاهرة على أحصنة عرباتنا. لم يظهر ضعف على محاربينا. وهذه رجولة يستحقون الشكر عليها إذ لم يخزونا أمام قيصرنا.ولم نسمح لأحد من رفاقنا القوزاق أن يسخر منا.ولكن نانا كانت تقول " الضيق الذي في القلب لابد أن يفضحه الحلم عاجلاً أو آجلاً ". على ما يبدو فإن الهموم التي عشتها كل هذه السنوات هاجمتني هذه الليلة. وما

المشكلة في هذا ؟ أأكون عدت من بولونيا بذنب... _ جعله السؤال المفاجئ الذي غزا الرأس يتسمر في مكانه على أرض الغرفة. ولكنه برّأ نفسه بحجة سريعة: _ أتكون الحرب من أجل البلاد والقيصر ذنباً؟ ولماذا كانت أنفيسكا في بيت آل بولت ؟ ولماذا كانت الأميرة ابنة آل بولت تنظر إليّ بوجه تاتيانا المتكبرة التي لم تتنازل أن تتعرف عليّ. وفوق كل هذا كان قيصرنا ضمن هذا الحشد ! _ سأل خان جري نفسه وضحك.

توجه خان جري مبكراً إلى مقر السرية لا يريد أن يبقى في الغرفة أكثر من هذا. وتبين أن عزمت جري سبقه.

_ ماذا أيها الروتميستر؛ أحرمك مراسلي من النوم ؟ هل انتشلك من فراش الضباط الوثير ؟ أليس كذلك ؟

_ سأله عزمت جري بالروسية مبدياً له عدم الاهتمام به.

_ لم أر مراسلك، جئت بنفسي _ أجاب خان جري بالروسية، ثم سأله بالأديغية: هل حدث بيننا في الصباح الباكر ما يُقلق ؟ هاهما الأفندي خوت والملازم توغانوف قادمان.

_ أحقاً جئت بنفسك ؟ _ رفع عزمت جري إليه عينيه الحمراوين ولم يغير لغته الروسية _ إذن لا تتظاهر أيها الروتميستر بأنك لا تعرف شيئاً !

_ لا داعي لأن تغضب يا عزمت جري؛ أقول لك الحقيقة.

_ الذي لا داعي له هو لغتك الأديغية _ أجاب الآن مشدداً على روسيته _ أنت والطالب الحربي نغومه شوره أصبتما بالهوس من وراء لغتكما الأديغية. علّما الروسية للمحاربين وللتلاميذ الجدد ! لا تظنا أنكما أتقنتماها ولا حاجة لتعميق معرفتكما بها ! هذا أولاً. وسأقول لك شيئاً آخر لأني بدأت الموضوع: أنا قائد السرية القفقاسية الجبلية. لم تكن أنت ولا جنودك الذين كنت تقودهم وحدكم من حارب في بولونيا، جنودي الكثيرون لم يكونوا مكتوفي الأيدي هناك. حتى إن لم يكن غيرُ احتلال وارسو فإن جنودك لم يشموا رائحة بارودها. لا تَنْغَرَّ بكونِ بعضِ رؤسائنا يبتسمون في وجهك ! ولا تنخرط فيهم دون داعٍ ! ولا تسمح لهم أن يمدحوك بما لا تستحق ! ما لم يكاشفوني به، أنا قائد السرية، أنت تستلُّه منهم يوماً بيوم.

_ أيها المحترم تتهمني بما ليس ذنبي._ جعل الحديث لغة خان جري الروسية تتفتق _ أنت تعبث بشرفي كضابط، تطؤه !

قطع الحديثَ العدائي الصاخب بين قائدي السرية دخولُ خوت وتوغانوف. قال عزمت جري وكأن شيئاً لم يكن بينهما:

_ تفضلا أيها المحترمان ! ما استدعيتكم لأجله الآن _ نظر القائد نحو خان جري _ هو إبلاغكم ما أعلموني للتو. بما أن قيصرنا الذي نحن حماته لم يجد الفرصة، بسبب تأخرنا ليلاً، لتهنئتنا بالسلامة وكنت أخبرت القائد أورلوف باستحالة الوصول عند غروب الشمس إلى بطرسبورج ولكنه لم يقبل مني. واليوم اجتماعنا الساعة 14،ولذلك يجب على الجنود أن يكونوا جاهزين من الساعة 13 باللباس الرسمي

وبالبنادق دون ذخيرة، وبالسيوف والقامات لماعة. إن كنتم فهمتم المهمة التي كلفتكم بها فاعملوا على نجاح استقبال تهنئة القيصر. انصرفوا الآن، وأنت أيها الروتميستر _ صاح وراء خان جري دون ذكر اسمه _ أكلفك بالحرص على انتظام صيحة النصر" هورا" من قبل الجنود وطلاب الحربية وحملة الأعلام،وكذلك أن تكون صفوف الخيول منتظمة. وأكلفك بتفتيش كافة الأسلحة النارية، وأنا سأختبر بنفسي السرية قبل الساعة 13، وسأقيّم تنفيذكم لواجباتكم القيادية.

خرج خان جري من الغرفة ولحق بزميليه الضابطين وهو يقول في نفسه:" منذ إعادة توحيد السرية، وطوال الطريق واليوم والبارحة، لا أعرف ماذا جرى له ! "

في الموعد المحدد، وفي المكان المحدد، كانت السرية القفقاسية في الصفوف، وباللباس الأنيق، يرتدون قبعات واطئة زرقاء الأعالي. وجعب الرصاص ذات الفوهات البيضاء الست عشرة موزعة على الجانبين تبدو على مقدمات الصدارات التي بلون أعالي القبعات. والزنانير الفضية تتدلى أطرافها على الجانبين تضغط على الخصور الدقيقة. وهم يتقلدون المسدسات والسيوف والبنادق بطريقة غير نافرة. والأحصنة تزدهي بسروجها وأرسانها.

شمس الشتاء غير الدافئة تطل من أعالي السماء دون أن تسمح للغيوم البيضاء الخفيفة باحتجازها، والثلج المتجمد الذي يغطي الريف المقابل لنهر تارانكوفسكا الصغير يلمع بلون السمك، وهواء الظهيرة الخفيف البارد يجعل ملابس المحاربين والخيل تلتمع، والنهر المتجمد المتصامّ يبتعد إلى جانب الغابة السوداء وهو يلومهم على عدم إيلاء مرآته أنظارهم.

استعدت السرية التي تغطيها أنفاس الجنود وأصوات مناخير الأحصنة لاستقبال القيصر العظيم القادم بحراسة السرية القوزاقية. وخرج القيصر من عربته المكشوفة ذات الحصانين الكستناويين. وركب الحصان الأزرق المقدم إليه. ووقف وراءه عدة فرسان على بعد بضع خطوات منه بينهم بنكندورف الذي يتقدم حصانه على أحصنة الآخرين قليلاً.

كما يحدث لخان جري كلما رأى القيصر العظيم المكلف بحمايته، وإن لم تكن المرة الأولى التي يراه فيها، خفق قلبه في صدره. ولكنه تمكن من إحلال رباطة جأشه محل رقة حبه له. وكان لا يزال متأثراً بالكلمات الجارحة التي وجهها إليه عزمت جري هذا الصباح،وإن لم يكن يراه،لأنه يتقدم السرية بخمس خطوات كما ينص النظام العسكري.

_ تحية للقفقاسين الجبليين الشجعان! _ ناداهم القيصر نيقولاي الأول بصوت ثخين هادئ معتداً بسلطانه.

_ نتمنى الصحة لعظمة الإمبراطور. هورا، هورا، هورا ! _ ارتجفت السماء من صوت الأتراب.

_ أهنئكم بالوصول سالمين يا فرساني الجبليين _ قال القيصر بصوت دافئ ! بالعودة سالمين إلى بيوتكم، إلى وطنكم.نحن راضون عنكم في خدمتكم. أثبتّم ولاءكم وإخلاصكم للعرش الروسي ولعظمته الإمبراطورية في القتال ضد الغزاة البولونيين. أبديتم جرأة ورجولة في أقاصي الدولة الروسية.

نقدِّر مآثركم الحربية وسنكافئها خيراً بالكلام وبالفعل. المجد للجبليين القفقاسيين، لحراسي. الخلود للذين سقطوا في سبيل الدولة العظمى.

مرة أخرى دوّت هتافات النصر الثلاثة في الفضاء. وأشعر عازفو الأبواق بانتهاء مراسم استقبال القيصر بهذا. ونظر القيصر بعينيه الباردتين الزرقاوين إلى الفرسان ريثما يقتربون منه دون أن تطرف عيناه.

في هذه اللحظة لم يكن أحد، باستثناء بنكندورف الواقف أمامه، يعرف أن قيصر روسيا الذي امتدح الناس الواقفين والمنتمين إلى أعراق مختلفة من شمال القفقاس،كان قلبه هناك، مهموماً بعدم نجاح سياسته في إقليم الأديغة.

_ أين " خان جري –ك " إذن يا ألكسندر كريستوروفيتش ؟ سأل القيصر وهو يترجل من حصانه ويركب عربته.

_ استدعوا الروتميستر خان جري بسرعة ! _ أمر بنكندورف وهو ينظر إلى حيث وقفت عربة القيصر ريثما يسلك الأخير طريقه.

وحالاً وصل خان جري إلى القيصر ووقف ملصقاً يديه إلى جانب خصره النحيل ناسياً ما كان يُهمه.

_ أأنت خان جري البطل ؟ _ مد الإمبراطور له يده، فمسها خان جري بشفتيه الدافئتين ثم اعتدل كما كان _ ما كنت أعرف أنك شاب جميل القوام هكذا. كم عمرك أيها الروتميستر؟

_ أنا في الخامسة والعشرين أيها المعظم.

_ أصحيح أن على جسدك ثلاثة جروح رغم صغر سنك أيها الروتميستر ؟

_ نعم أيها المعظم _ خفض خان جري رأسه خجلاً من امتداح القيصر له.

_ هذه مفخرة، هذه مفخرة ! _ قال القيصر وسأل بنكندورف: _ ألست أنت يا ألكسندر كريستوروفيتش من أخبرني بأنه أبدى بطولات عظيمة في حربنا ضد الفرس، وضد الترك ؟

_ بلى أيها المعظم. وقد حصل في هذه الحروب على أوسمة ثمينة.

_ أبدى الروتميستر خان جري إخلاصه لدولة روسيا ببسالته وبجروحه. ويستحق وسام ستانيسلاف من الدرجة الثالثة. ولذلك أكلفك يا ألكسندر كريستوروفيتش بإعداد الالتماس اللازم له. وأرسِلوه إلى ذويه شهراً ليستريح وتُشفى جروحه. وداعاً أيها الروتميستر...، ليُحِطْك الله برعايته ! _ اتخذت العربة القيصرية طريقها مسبوقة ومتبوعة بالحرس القوزاقي.

لم يسأله عزمت جري عن سبب استدعائه إلى حضرة القيصر إلى أن وصل إلى موقف السرية، ولكن حين بدأ موعد افتراقهما يقترب سأله باللغة الأديغية رغم صعوبة الموقف عليه:

ـ لم تقل لي أيها الروتميستر سبب استدعاء القيصر لك !

ـ ماذا أقول لك أيها العقيد إن لم تسألني ! ـ ابتسم خان جري وأجاب بالروسية، وأجابه بنفس الطريقة اللامبالية التي وجه بها السؤال إليه: ـ سأل عني، وأوصى بمنحي شهر استراحة أذهب فيه إلى أهلي ـ وكتم موضوع الوسام.

ـ ها ـ ابتسم عزمت جري وهو بين أن يلجم حصانه ولا يلجمه ـ إذن في كل الأحوال ليس لأنك محظوظ، يتحقق لك ما تتمنى ـ ثم حثّ حصانه بقسوة وانصرف.

VI

ليس قليلاً، حين تكون على سفر، ما يجلبه دوران عجلات العربة الناعمة وأصوات حوافر الحصان وتعاقب الليل والنهار من أفكار. وحين يُضاف موضوع القيصر إلى مجموع أفكاره فالحياة تصبح لذيذة سواء كانت ثقيلة أم خفيفة، والقلب الشاب يتوثب.

لم تأت استراحة الشهر الممنوحة لخان جري من تلقاء نفسها وإن كانت مفاجئة. فهي نتيجة إخلاصه للقيصر وتعب الخدمة وجروحه، وليس أنّ ما يتمناه يتحقق له،كما ضمّن عزمت جري كلامه المر إليه.

لا ألومك يا عزمت جري، قال خان جري يتنصت على صوت العربة. فإن كنت تتهمني بما لم أفعل اكتسبتَ ذنوبي فأنا أخدم القيصر لوجه الله فحسب. ولا أقول إنك أنت لست مخلصاً له. فأنت منذ سنين كثيرة تحت لوائه. وتنفذ ما يريده ويثق بك. ولسنا وحدنا بل معنا كل المحاربين الذين يمثلون شمال القفقاس والذين وضعوهم أمانة في أيدينا. فهؤلاء مثلُنا لم يُجبروا على أن يصبحوا حماة للقيصر. ولم يجبرهم أحد على ارتداء الرتب الروسية، ولا على محاربة البولونيين الذين رجعنا للتو من قتالهم. هذا صحيح ومع ذلك فقد أخضعَ القومَ الذين صرحوا برفضهم له بقوة السلاح.

ارتسمت أمام عيني خان جري صور القرى المحروقة والمدن المهدمة والجثث على الشوارع وأفواه المدافع المتشققة وجثث الأحصنة المنتفخة. وانتفض من أفكاره فجأة دون أن يفهم لماذا انضم إلى هذه الصور كلمات ترحيب القيصر به أمام السرية الجبلية القفقاسية، وفي هذه اللحظة وخزه الألم في الضلع اليسرى التي انكسرت في الحرب البولونية. وزاد السائس على هذا:

ـ ماذا جرى لكما يا صاحبَي الوجهين البولونيين فتنتفضا ؟ ـ ابتسم خان جري وهو يتأمل ظهر السائس القوزاقي ذي اللحية والشوارب السوداء الممسك باللجام بيديه ـ وهذان يحسدان النبلاء الأحرار.

" أسمعت ؟ سأل خان جري نفسه. ـ حتى السائس قلق لما حدث في بولونيا. وينفث غضبه على أحصنته. لا، من المعيب أن يخطر لك السؤال عن مشروعية ما فعلنا. فمن يحاول تقسيم البلاد وتهديمها يستحق أي معاملة يلقاها، ولا ذنب في هذا. وأنا أوافق القيصر في ما قاله لنا. وكما لمح لي ألكسندر كريستوروفيتش، وبحذر شديد، قبل أيام من سفري، إن قرر القيصر اقتحام بلاد الأديغة وأمر بأن نسلك

مع الأديغة ما سلكناه مع البولونيين؟ لن يوصل الأديغة الأمور إلى هذا الحد، والقيصر نفسه سيلجمه شيء ما. حتى لو لم يكن في الأمر غير أفضال هذه السرية فلن يدعهم يرفعون السلاح في وجه قومهم. "ابتسم خان جري وهو يسخر من أجوبة أسئلته. ثم سأل السائس قاصداً تغيير موضوع أفكاره:

ـ لماذا أيها الصديق القوزاقي تساوي أحصنتك بالبولونيين ؟ بِمَ سيؤذيك هؤلاء ؟ إنهم بعيدون عن نهر الدون.

ـ حقاً أيها الضابط المحترم. بالقياس إلى روستوف ونوفوشيركاسك وتاغانروغ فبولونيا بعيدة، والأخرى ليس قريبة، ولكن أراضي بيتربورج وكوفين وآزوف و فارشاف وإيزمائيل وإيكاترينودار وستافروبول وتفليس ويريفان من أراضي روسيا العظمى. وهي ممزوجة بدمنا وعرقنا، وقبور شهدائنا فيها.

ـ ومن أين تعرف أنت كل هذا ؟

ـ أنا قوزاقي أيها الروتميستر ـ قال السائس مرتاحاً إلى كونه قوزاقياً ـ أنا حامي روسيا الدولة العظمى. إن لم أعرف هذه الأماكن فما جدوى حياتي ! كنت في رأي البولونيين الذين تجاوزوا حدود قيمتهم الحقيقية قوزاقياً فارغ الرأس. لا أستطيع أن أقول إن سيفي كان قد صدئ. أفهمناهم أنها غير مثلومة. وأفهمنا أوربا التي تساندهم. أنظر إلى كتافياتك اللماعة أيها الروتميستر فأشك ـ لا تؤاخذني ـ أنك حاربت في بولونيا. لا تؤاخذني، أستفيد من حقي باعتباري أسنّ منك.أخمن أنك ابن أمير قفقاسي غني. أأنت شيشاني أم أوسيتي ؟ في شمال القفقاس أقوام كثيرة من نوعك تعثر بهم في الطريق إن كنت راكباً أم راجلاً. ولكني أعرف الشراكسة، وقد استللت سيفي مرات كثيرة على ضفتي نهر بشزة اليمنى واليسرى.كثيراً ما عرّفناهم قدْرهم وإن لم نصل إلى ما فعلنا بالبولونيين.

ـ على ما يبدو ـ قال خان جري حانقاً ولكن كاتماً انفعاله: ـ حاربت في بولونيا، في أي جيش كنت ؟

ـ كنت في سرية خالي الجنرال فلاسوف. إن كنت شيشانياً أم كنت شركسياً فلا بد أنك سمعت اسم ميخائيل غريغوروفيتش. بالنسبة إلى الشركس كان مثل الصاعقة حتى أهانه القيصر الكسندر الأول.

ـ سمعته في بولونيا ـ لم يدعه خان جري يكمل حديثه عن فلاسوف.

ـ أحاربت في بولونيا ؟ تلفّت السائس على عجل.

ـ الآثام التي ارتكبها الجنرال فلاسوف في إقليم الأديغة ـ ابتسم خان جري ـ أعرف أن القيصر نيقولاي الأول غفرها له فأعاده إلى الجيش وأشركه في حرب بولونيا. ولكن من لا أعرف اسمه هو أنت،كان حسناً أن نتعارف، أنا خان جري الروتميستر في السرية القفقاسية المستقلة لحماية القيصر.

ـ أأنت خان جري ؟ ! ـ أوقف السائس القوزاقي العربة ـ سمعنا كثيراً الثناء عليك أيها المحترم في بولونيا. لم أتوقع قطُّ أن أُقلّك في عربتي. أظنك سمعت ما فعلنا بالشابسغ في مستنقع قلاوس حين كنت في نواحي إيكاترينودار مع خالي. وكنا نسمع اسم أسرتكم كثيراً. الدنيا مركبة على نحو عجيب. ومررنا بأزمنة عجيبة؛ حاربنا معاً في بولونيا فيا بعد. أنا اسمي ستيبان بوكيش، واسم أسرتي كوبريانوف. رجعت إلى الدون حاملاً

لقب قائد المئة. وكما تراني في شيخوختي انخرطت في البريد على أمل أن أكسب شيئاً من النقود وأن أتسلى. إن كنت تريد أن تعرف أخبرتك لماذا أخاطب أحصنتي بالبولونييَن اللعينين، _ حصلت على هذه الأحصنة مقابل جروحي.

" أما غنمت شيئاً حين كنت تستل سيفك في إقليم الأديغة " ألحّ السؤال على خان جري ولكن ما كان من المناسب اتخاذه محدثاً لثرثرته بصوته العالي. لم يتقبل ما قاله بشأن الأديغة وإن ارتاح إلى أنهما حاربا معاً في بولونيا. ولو كان الأمر بيده لما أتاح له الفرصة ليأتي على ذكرهم. شعر خان جري بالعار لأن ما عده القوزاقي كوبريانوف مأثرة له كان يتعلق بالأديغة.

صرخ خان جري من قلبه: مهلاً، مهلاً ! كيف يحدث هذا: حين يُهان قومك تستهجن الإهانة، في حين تعد إسكات صوت حرية الأقوام الأخرى مأثرة لك، وتقبل منهم الرتب والأوسمة، وتُمنَح استراحة في بيتك؟ إن حدث كل هذا، كما روى القوزاقي الربعة الجالس أمامي، لقومك ؟ كلِّف هذا القوزاقي بمثل هذا، واسمح له، لا أعرف ماذا...؛ ألا ترى كيف ساق الحصانين من بولونيا ؟ الله أعلم بما اقترف هذا في بلادنا. مع أني أرتدي الزي الأديغي الذي يرتدي تقليدَه هو أيضاً فما أكثر ثرثرته! إن أطلقت هؤلاء على راحتهم فلن يتورعوا عن شيء لا يفعلونه بك؛ فمن أعطاهم هذه السلطة ؟

استفاق خان جري من أفكاره محملاً نفسه الإثم حين انتصبت أمام عينيه صورة القيصر. كانت أمواج الدون الخضراء _ السوداء تمر بتراخٍ تحت الجسر حيث تجري عربة البريد لتبديل الأحصنة. وهنا، كما في نهر بشزة،حيث يسافر، تقفز الأسماك من هنا وهناك، وبعض الصيادين على الضفاف يجلسون في مراكب موثقة إلى الشاطئ. وصياح الطيور البيضاء الخفيفة يتعالى، ترتمي فوق الماء ثم ترتفع.

ما إن وطئت حوافر الأحصنة الضفة اليمنى للدون حتى نادى كوبريانوف القوزاقي الجالس خلفه وهو الذي ما كان يقول شيئاً إلى الآن:

_ أيها المحترم ها قد دخلنا القفقاس، سلّم عليها !

_ نعم _ قال خان جري بعد قليل مهنئاً نفسه: هذه أراضينا حقاً؛ هواؤها مختلف وشمسها وسماؤها _ وقفز بقلب فرح إلى لوستان حبله التي ما تزال تبعد حوالي 300 فرسخ. وفي لحظة غرقه في أفكاره الجميلة قاطعه كوبريانوف القوزاقي:

_ صحيح ما يقولونه عن الذئب: مهما أطعمته يظل يحن إلى الغابة.

ألهب الكلام وجنتي خان جري. وغم أنه ضبط نفسه فقد خانه صوته:

_ أيها القوزاقي... كوبريانوف ! أنت تتناسى أنك خرجت عن حدودك اليوم.

لم يرد القوزاقي بشي بل حثّ حصانيه البولونيين.

وبعد ساعة ونصف تقريباً، وبعد الظهر ظهرت باتاييسك من بعيد. كان خان جري متلهفاً إلى الوصول إلى محطة تبديل الأحصنة. ليس لأنه تعب على الطريق بين تاغانروغ وباتاييسك بل لأنه لم يعد يطيق رؤية

القوزاقي الربعة. وما عاد يتحمل أصوات حوافر الأحصنة البريئة ولا أصوات العجلات. وأشد ما عكر مزاجه هو أداء السائس المشوه للأغنية القوزاقية الجميلة. حثه قلبه أكثر من مرة أن يناكده بغناء عالٍ، غير أنه لم ير من اللائق أن يُسمِع من لا إنسانية عنده.

إنهم يكرهوننا، ولا يطيقون رؤيتنا. هز خان جري رأسه بحزن صامت. قابل كلماتي البريئة بقول مأثور روسي جارح. ما الذي أسأنا به إليهم ؟ ! إن كانوا يقولون لي هذا فماذا يمكن أن يقولوا لغيري. لا أتذكر أن أحداً أهانني حين كنت أخدم في السرية القوزاقية... أنسيت زابروين ؟ صرخ سؤال بصوت آخر من صدر خان جري. أحاول أن أصبر ولكن أين نذهب ؟ لم نحتل أرض أحد، ولا سلبناه أرضه، ولا حاربنا فيها. مهلاً، مهلاً خان جري ! ماذا تقول ؟ أأنت هذا ؟ لا تقل ما لا يجوز قوله ولا يناسب مقامك من أجل كلام سخيف من قوزاقي كث اللحية والشاربين. أسلوب العيش لا يميز بين الأقوام المختلفة. ولا يحدث ما نريده. إن كنت ستسمح لمثل هذه الأفكار أن تغزو رأسك فلماذا اتجهت جهة من لن يفهموك؟ وقومك كم مرة لمحوا لك بها ! ومع ذلك لا تستطيع إلا أن تتألم لهم وتقلق عليهم. أتتذكر أنك كتبت لأمراء الخمشي ؟ هذا الجالس أمامك ليس مذنباً. إنه واحد من أصحاب القلوب الغيرى القلقين على القوزاق.

كان فناء البريد الواسع لمدينة باتاييسك مزدحماً رغم أن الوقت هو وقت هدوء الظهيرة. العربات تدخل وتخرج بسرعة. وكان مشرب الشاي الذي تفوح منه رائحة الطعام يجتذب الجائع، ويودّع الممتلئ إلى طريقه. وبعض الثمالى المحمَرّين من الشرب يجلسون في جماعات صغيرة. وأكثر الرواد، باستثناء بعض التجار، ضباط محاربون.

ومن الناحية الأخرى يجلس ضابطان إلى جانب امرأة في ملابس الحداد. وأعلى منهم تجلس امرأة أكبر عمراً لا تملك دمعها وتطعم فتاة وصبياً صغيرين. وقريباً من باب المطبخ ضابط مسن نعسان يجلس إلى مائدته، وأمامه إبريق وكأس نصف فارغة. وقريباً من النافذة ترتفع أصوات عدد من السائسين القوزاق المرحين.

لولا أن خان جري لم يذق منذ الصباح في تاغانروغ إلا الشاي لما دخل إلى هنا حتى لا يرى منظر المرأة في ثياب الحداد، ولا الأطفال. ثم رأى كوبريانوف بين القوزاق الصاخبين يروي لهم ما يضحكهم.

توقف خان جري على العتبة وهو يقول: ما أكثر المحاربين هنا ! أخرج ساعة أبيه الفضية من جيبه ونظر إليها كي لا يُطلع الجالسين الذين يرقبونه،ما عدا السكران الجالس وحيداً والنساء، على ما يضطرم في قلبه. فتح الساعة وأغلقها دون استعجال. من أين يأتي كل هؤلاء وإلى أين يعودون ؟ وهاتان المرأتان ورفاقهما واضح أنهم في حالة حزن. والآخر ؟ في العام قبل الماضي حين كنت عائداً من تفليس إلى بطرسبورج كان مُبَدَّل أحصنة باتاييسك موحشاً. وانظر الآن: ليس كلام قوزاق كوبريانوف الجارح معي دون اعتبار لرتبتي دون أساس ! رغم أني من ضباط القيصر وأني على أرضي فأنا الوحيد الغريب بينهم.يتأملونني كأني سقطت

من كوكب آخر. على ما يبدو تظهر أمور جديدة كثيرة في منطقتنا لا أعرفها. والمرأتان الحزينتان والأولاد والضابط الكسير الكتف كلهم يشهدون على أن في الجو شراً. والقوزاق الصاخبون الآخرون ؟ والضباط الآخرون ؟ والمرأة الشابة التي مع الضابطين أين رأيتها ؟

ـ أحضر لي بسرعة طعاماً من اللحم ـ قال خان جري للنادل وقد جلس إلى مائدة مستقلة ـ والأفضل لحم مهر.

ـ حالاً، ألن تدفئ نفسك بكأس ؟

ـ لا، فقط كأس شاي.

أضحكت الكلمةُ التي وجهها إلى خان جري أحدُ القوزاق الجالسين إلى النافذة الحضورَ. ولكن ما إن وصل لحم المهر والشاي إلى الروتميستر وتجاهل هؤلاء ومد يده إلى الطعام حتى وصله كلام كوبريانوف الساخر:

ـ احذر أيها المحترم فربما خلط طهاتنا لحم الخيل بلحم الخنزير... كل شيء ممكن عندهم !

ـ لا يا ستيبان لوكيش ـ يصحح أحد الجالسين معه الكلام: ـ حضّر طهاتنا ما يرغب فيه الشراكسة وهو لحم الخيل الذي تفوح منه رائحة العرق الكريهة فطبخوه له بدهن الخنزير.

تضاحكت عُصبة القوزاق بصوت أعلى. ورفع الضباط الذين سمعوا الكلام المهين رؤوسهم. ونظرت المرأة الشابة التي ما كانت ترى أحداً إلى الآن نحو الضابط المهان متوجسة مما قد يجري.

ـ من ؟ وأين الشراكسة ؟ ـ هب الضابط السكران النعسان إلى مسدسه واقفاً.

وقالت المرأة المسنة شيئاً بالفرنسية لرفيقها ونهضت مسرعة من المائدة. وأسرعا خارجين بالأطفال من المكان.

استمر خان جري يأكل وقلبه يغلي. شرب بضع رشفات من الشاي دون الاهتمام بحرارته أو برودته، وأخرج منديله دون ذاك الذي على الطاولة. ومسح فمه على مهل ثم وضع ثمن الغداء في الصحن ووقف على رأس القوزاق الساخرين:

ـ يا كوبريانوف أنت المحرض على الإهانة التي ألحقتموها بي، باسم قوزاقك، وعلى مسمع من رواد المحل ارجُني أن أغفر لك الإساءة التي ألحقتها بي !

ـ وإن لم أرجك ؟ ـ ابتسم كوبريانوف دون ذرة من خجل.

ـ إن لم تفعل ـ قال خان جري بصوت غير عال ولكنه حازم وهو يسحب المسدس ـ سأقتلك هنا كما يُقتل الذئب العائد إلى الغابة.

هب كوبريانوف واقفاً وهو يستل سيفه، ووقف إلى جانبه ذاك الذي سخر منه في موضوع لحم الخيل والرجل المحمر الآخر. أما الرابع فاختبأ تحت الطاولة.

ـ والآن، مرة أخرى يا كوبريانوف القوزاقي ـ ارتفع صوت خان جري ـ أنتظر أن تنفذ ما طلبت منك.

لم يظهر على وجه كوبريانوف القاسي أي نية على أن ينفذ ما طلب منه بل وقف شاهراً سيفه. ولم يكن هناك شك في أنه لو كان بيده مسدس بدلاً من السيف لأطلق النار. وقال مرة أخرى لخان جري ساخراً حاد النظرات:

_ ما أكثر من رأيت من الشراكسة ذوي الأنوف السائلة من أمثالك! _ وحين مد كوبريانوف السكران يده ليقلب الطاولة أطلق خان جري طلقة باتجاه السقف، وصرخ على القوزاقي:

_ يا كوبريانوف قائد المئة القوزاقي: الطلقة الثانية ستكون في جبينك !

_ أيها المحترم ! _ هبت المرأة الشابة الحزينة ورفاقها ووقفوا بين خان جري والقوزاق _ واجتمع كل من في المطعم بمن فيهم الطهاة.

_ أيها القوزاقي المحترم _ قالت المرأة السمراء الرشيقة بصوت حازم: _ أنظر إليك فأراك أسنّ من كل هؤلاء فأخجل من سلوكك. أنت مصدر الفتنة. ولا ذنب للضابط في السرية الجبلية القفقاسية لحماية القيصر. ارجه حالاً أن يغفر لك الإساءة التي ألحقتها به !

حين تأمل خان جري باهتمام المرأة الشابة من خلال الشبكة الخفيفة التي تغطي وجهها عرف المرأةَ الحنطية الرشيقة الشابة التي رآها يوماً على ضفة نهر النيفا. فأعاد مسدسه بسرعة ناسياً الموقف الحرج الذي فيه والإهانة التي أُلحقت به.

_ تاتيانا... أهذه أنتِ ؟ _ لم يتمالك خان جري من الصراخ _ سامحيني لا أعرف اسم أبيك... كنت سمعت اسمك وأنت بين صديقاتك إن كنت تتذكرين. لم تُتح لي الفرصة لمعرفة اسم أبيك.

_ تاتيانا كونستانتينوفا أيها المحترم _ قالت المرأة وتوجهت إلى القوزاقي: _ لماذا ما تزال واقفاً ؟ ارج المحترم أن يغفر لك !

_ نحن القوزاق حين نجتمع نحب المزاح، مزحنا مع الشركسي لأن المسلمين لا يأكلون لحم الخنزير.

_ المحترم خان جري ليس مجرد شركسي _ لم يقبل النقيب الواقف إلى جانب تاتيانا كونستانتينوفا _ خان جري ضابط في الجيش الروسي، ومن السرية القوزاقية المستقلة لحماية قيصرنا العظيم. لا يمكن أن تهينه.

_ لا تُكمل يا أليكس _ لم توافق تاتيانا _ أتظن أن القوزاقي كوبريانوف يفهم هذا ؟

_ لست مجرد قوزاقي ! _ انفعل القوزاقي وضبط نفسه بصعوبة أمام المرأة:_ أنا قوزاقي قائد مئة وقد خدمت وطني.

_ أتسمع يا أليكس ؟ إنه يفهم ولكن الحقد يُفجّره.

_ عبثاً يا مدام _ قال كوبريانوف وقد خلت عيناه من أي بارقة خجل _ عبثاً تحمي الشركس والشيشان، من هم لتحميهم ؟ أظن أن أحدهم هو من تسبب في ارتدائك ثوب الحداد.

_ لا شأن لك يا قائد المئة بالمأساة التي حدثت لي. انخفض صوت تاتيانا قليلاً _ قد يكون واحداً مثلك من لم يجعل الشركسي الذي قتل زوجي يتعايش معنا _ أكِلُ أمري إلى الله في شأنكم، قالت الأرملة الشابة

للقوزاقي وهي تصلح نقابها.ونظرت نحو خان جري وكأنها تقول: ما ذنب أبناء قومك ؟ وقالت بصوت ناعم: _ لماذا نقف هنا أيها الروتميستر ؟ تعال يا أليكس نخرجْ من هنا ! وأنتم أيها القوزاق المحترمون فكّروا في ما تقولون، وعُوا على أنفسكم !

_ اغفري لي يا تاتيانا كونستانتينوفا، لا تؤاخذيني على مناداتي لك وأنت خارجة ! أعزيك بوفاة زوجك، ويحزنني أكثر أن المأساة جرت في إقليم الأديغة. أرجوك باسم قومي الذين فعلوا هذا به أن تغفري لنا _ على ما يبدو أن الجيش الروسي دخل نواحينا، تألم قلب خان جري.

_ أعُدُّ ما جرى لي خلال سنواتي العشرين إهانة أيها الروتميستر.. _ قالت تاتيانا التي تلبس قفازات رقيقة لخان جري الذي قبّل يدها. _ جرى ما جرى، كان الله قدّره، لا ألوم أحداً. ولكن يصعب أن أتقبل وفاة زوجي ولم يعش إلا ستاً وعشرين سنة.

_ يا مدام ! _ نادى الضابط الثمل ذو الشعر الأشقر من يخرجون من مشرب الشاي _ كيف لا تلومين أحداً؟ لو كنت تحبين زوجك ما قلتِ هذا ! أين خان جري الذي تذكرين اسمه ؟ هاتوه إليّ! نحن حاربنا الشيشان والشركس وحشرات أخرى غيرهم، وسنحاربهم وسنقتلهم. ولن نسمح لهم بالإقامة على أرض لا يستحقونها. دعونا فقط نصل إلى إيكاترينودار حيث القوزاق !

كلمات الحقد التي وقعت على ظهر خان جري الرفيع المتين جعلته يلتفت.ولكنه تبع المرأة يضغط على أسنانه كاظماً غيظه مقدّراً أنها من فورات السُكْر قائلاً في نفسه: من هذا الضابط الذي صرعته الخمر فانفلت لسانه من عقاله ؟ ما أشبهه بالنقيب بوربوف ؟ ولكن هذا ملازم ثانٍ وبوربوف نقيب، وشعره أبيض تماماً. وأقول: الصوت صوته، ولكن كيف تميز صوتاً استنفدته الخمر ؟ _ تذكَّرَ كيف ترك بوربوف طلاب المدرسة الحربية على الشارع.

VII

في السنوات الثلاث التي تلت اتفاق أندريانوبول للسلام تجري أحداث كثيرة في إقليم الأديغة ليست في مصلحة أهله، بل هي مدعاة للفرح عند القوزاق فتدعوك إلى التأمل.

يُخيل إلى خان جري منذ وصوله إلى لوستان حبله أن أصوات الأديغة قليلة يغلبها خليط أصوات الروس _ القوزاق. والجيش الروسي الذي عبر نهر بشزة لم يتوقف في أرض البجدوغ بل يمّم شطر البحر الأسود لا يميز نهاراً من ليل. ويمكن أن تستنتج من تدفق هذه الأعداد المتتالية ومن كثرة الجرحى المخلَين من الجبهة عُنْفَ المقاومة التي يبديها الشابسغ. ولا ينكر الجنود الروس وضباطهم الأمر، ولا يجيبون بوضوح عما يفعلونه. والضباط الأعلى رتبة يجيبون " لم تعودوا من ملك تركيا حسب اتفاق سلام أندريانوبول بل أعطوكم إيانا فصرتم من رعايا روسيا ". والأديغة يجيبونهم " لا نعرف المدينة التي تذكرون اسمها، ولا إن كان هناك اتفاق سلام. نعرف فقط أن هناك دولة اسمها تركيا كما روسيا، ولسنا مَلابسَ حتى تعطينا تركيا أو تبيعنا لأحد، لسنا مواشي، ولا علاقة لمن يبيعنا أو يشترينا بنا، ولا يجوز لأحد أن يمنح نفسه هذا الحق".

يَعدُّ الأديغة الذين عاشوا أحراراً طوال عمرهم الأمر إهانة. وأعظم استياء عندهم هو عدم معاملتهم بإنسانية.

خلافاً لما اعتاد عليه خان جري في الحياة العسكرية من الاستيقاظ المبكر، فكما جرى أول من أمس وفي الأيام الثلاثة السابقة، لا يزال في الفراش الوثير الذي مدته له أمه بيكا. ومع أنه يُحس من الغرفة المظلمة أن ضوء الربيع لم ينوِ بعدُ البزوغ من الجبال الشرقية فإنه ينصت إلى ما يجري في الفِناء. ولأن الديكة أطلقت للتو نداءها الثاني فإن أفكاره تبتعد دون أن يقف في طريقها شيء وتخرج من لوستان حبله، ومن أرض البجدوغ، وتعبر إلى الشابسغ والوبيخ والأبزاخ والجمكوي. وحين تعود مسرعة إلى الضفة العالية لإيكتاترينودار لا تقف عندها بل تجوب بولونيا وبطرسبورج. وتصل إلى ما حدث له في مُبَدَّل الأحصنة في مقر بريد باتاييسك.

كان يتعجب من التقائه بتاتيانا في مشرب الشاي في باتاييسك، هذا اللقاء الذي كان أبعد من الحلم، والذي لا يستطيع أن يجد له سبباً وهو الذي بحث عنها في شوارع بطرسبورج وفي الأماكن الأخرى التي يرتادها الناس في المدينة، والتي لم ينسها طوال إقامته في بولونيا، أكثر من تعجبه من الإهانة التي كاد القوزاق يلحقونها به. ما الفائدة من أن تستذكر صدامك مع القوزاق السُكارى فتشغل نفسك؟_ ابتسم خان جري _ لولا تاتيانا كونستانتينوفا لأرديت القوزاقي كوبريانوف بالطلقة الثانية. وكما قالت تاتيانا التي فُجعت بزوجها، فبدلاً من أن نعرّف القوزاق المتجاوزين حدودَهم قَدْرَهم نتركهم يقولون ما يجري على ألسنتهم، وندعهم يمدون أصابعهم إلى أعيننا. لم يكف ما فعله فلاسوف وهو في بلادنا بل يقول لي ما على لسانه دون اعتبار لرتبتي. إذا كنت ابن أخت فلاسوف فكيف تتجاوزه لتصبح شخصاً آخر ؟ ورغم أن هناك من لم يقبل بما فعله القيصر ألكسندر الأول بفلاسوف وبتسليمه لقوزاق الدون ليقرروا مصيره فانظر كيف مد القيصر نيقولاي الأول يده إليه وكلفه بأن يقود جيشاً قوزاقياً مجهزاً ويعبر به الدون وينشره في بولونيا. وما أكثر الفظائع والمذابح التي ارتكبوها هناك. مهلاً، مهلاً ! غضب خان جري على نفسه بنفسه، _ ألم تكن أنت أيضاً في بولونيا ؟ أَوَ لم تحارب فيها ؟ أوَ لم تُمنح وساماً هناك ؟ لن يسمح القيصر لفلاسوف أن يفعل في نواحينا ما فعله في بولونيا. لا يجوز أن تدخل الحرب إلى أرضنا. البولونيون ثاروا في بولونيا وصرحوا للقيصر برفضهم له. ومن يقبل منك هذا ؟ ! والأديغة إذن ؟ ماذا يجري هنا ؟

مرة أخرى انتصب أمام عيني خان جري مركز تبديل أحصنة البريد في باتاييسك. لا يزال منظر تاتيانا بملابس الحداد والمرأةِ المسنة التي أمسكت بيد الطفلين ونظراتِها العدائية إليه أمام ناظريه. رأى بعينيه كيف كانت تاتيانا كونستانتينوفا تنقل جثمان زوجها إلى بطرسبورج. شيعها إلى أن خرجت من باب المركز وقلبه يتألم وكأنه يتحمل قسطاً من مسؤولية موته. والمرأة الأخرى على من كانت أعلنت الحداد؛ على ابنها أم على أخيها أم على زوجها ؟ ولماذا تصطحب الطفلين ؟ والمقدم ذو الشعر الأشقر الذي كان نائماً على المائدة بصدره ماذا كان يقول من ورائنا ؟ أهو اسمي؟ كان قد سقط على المائدة... أمثال هؤلاء وأمثال

كوبريانوف هم الذين يكرهوننا. ولكن ماذنب القيصر الذي يريد أن يحمينا من الفرس والترك والإنجليز؛ دعْكَ من أمثال بامبت وبفوق والأشرار الآخرين في نواحينا ؟ ! ليسوا كلهم أبرياء طبعاً فكلٌّ يحمل نصيبه من الاعوجاج. لم أفهم ما تريده مجموعة الموالي الذين قابلوني قبل أيام. لا يقولون إنهم سيحاربون ولا سيصالحون. وإن فكرت اكتشفت أنه في إقليم تازه أديغ، ولو أنهم لا يريدون هذا تماماً، يقف الناس هذا الموقف. وخُيِّل إلي أن شواي وبشه ماف يميلان إليهم. يتظاهر أمراء آل حَجَمْقوه بأنهم يؤيدون السلام مع الروس ولكنهم يقولون شيئاً أمامي ويقولون غيره أمام عامة الموالي. وإن اتجهت إلى الشابسغ فموقف مرجان الذي رباني وأباته بسلني ووبيخ من روسيا مقبول. ولكنهم لا يجدون وسيلة للتفاهم مع توغوظقوه قازبك وشروخقوه توغوظ. وزانه سفربي الذي سافر إلى استانبول ليتأكد من موضوع إعطاء الأتراك، وهم الذين لا شأن لهم بالأديغة، الأديغةَ للروس، ولماذا يجب أن تعطينا إليهم، يقول أتباعه: لن نلقي السلاح قبل أن يعود أميرنا. ويؤيدهم في إقليم الوبيخ جَراندوقوه برزج؛ لزموا الصمت في غابات الأبزاخ قائلين " هؤلاء لا يستطيعون أن يمسونا أو يدخلوا أرضنا ". والجمكوي والمخوش والبسلني والأباظة لا يستطيعون أن يحددوا موقفاً من موضوع سلام البجدوغ أو عدم سلامهم مع الروس؛ فهم في حيرة. والقبرتاي ؟ وهؤلاء يعمل يرمولوف على إخماد حركتهم فهُم بين بين، ومهمومون بما يحدث في أرض أبناء قومهم الآخرين.

حين تخطر على بال خان جري أفكار سيئة بخصوص نيقولاي الأول وهو المكلف بحمايته، ينقلب على جنبه الآخر محاولاً نسيانها. ولكن حين تتوالى هذه الأفكار متصارعة يلقي اللحاف عنه بحركات قاسية ويقوم من فراشه معنِّفاً نفسه، محاولاً تبرئة من يستحق الإدانة، باحثاً له عن مسوغات. ثم يلبس ويقف بجانب النافذة مصالباً يديه وراء ظهره دون أن يشعل المصباح.

جانب الجبل الشرقي المقابل لخان جري يضيء وإن كان البيت والفناء مظلمين. وتطلق الديكة نداءها الثالث كأنها فرحة باليوم الجديد. وتجاوب ديكة لوستان حبله وديكة باشكا.

ينصت خان جري فيسمع أصوات الديكة في كل مكان فيفرح بها. كلها متشابهة في لوستان حبله وبولونيا وبطرسبورج ووارسو وإيكاترينودار وتانروغي. ولا فرق ظاهراً بينها في بلاد الفرس وبلاد تركيا. وكذلك نباح الكلاب وزقزقة العصافير.والناس، وإن اختلفت لغاتهم، يتشابهون في ضحكهم وبكائهم وأنينهم وحزنهم. وكلهم يقتاتون من الحبوب نفسها، ويولدون بنفس الطريقة، وكلهم يملكون البنية نفسها وإن اختلفت ملابسهم. وكل الناس كما يولدون بنفس الطريقة يرحلون في الطريق نفسه حين تحين ساعتهم. ما الذي يحدث لنا إذن في عالمنا ؟ اليوم اشتاق خان جري إلى أن يدخن رغم أنه لم يفكر فيه حتى في أعسر سنوات عمره. بحث في جيوبه كمدخن مدمن ولما وجد القداحة التي كان قد تركها فوق النافذة أشعلها بيدين خفيفتين. وشمّ الدخان المنبعث من طرف العود ريثما اكتمل اشتعاله. ثم لام نفسه " ما الذي حدث لي الليلة حتى أتصرف هكذا بلا وعي ؟ إن عرف من جئت لأجلهم أني أدخن عاتبوني مع أن أحزاني ليست بلا مسوّغ. ماذا كان يقول والدي ويربيني عليه مرجان ؟ الصبر فوق كل شيء ! وما كانت تقوله لي نانا في

صغري لا أدري لماذا كان شواي يقوله قبل أيام لقايمت وحاج قسي إذ لم أستطع أن أمسك طرف الموضوع الذي كان يقلقهم. ولما سكتوا حين رأوني لم أجد من اللائق أن أسألهم، وهم أسنُّ مني، عما لا يستطيعون حله "

استولى النوم على خان جري حين جلس على حافة السرير،دون إرادة منه، بعدما أعيته أفكاره المتلاطمة عن الوقوف بجانب النافذة، غير عارف كيف استطاع أن ينسحب من عالم الأديغة. وبعد أقل من ساعة أيقظته تربيتة على كتفه:

_ هذا أنت يا زبش ؟ سأل خان جري الصبي الذي بين الخامسة والسادسة _ ما أبكر ما استيقظت! إن كنت تبكر في الاستيقاظ هكذا فستصبح محارباً ممتازاً.

_ أمثلَك يا خان جري ؟ _ سأل الصبي كأنه كان ينتظر هذا السؤال.

_ مثلي أو أحسن، أنا راضٍ.

_ لا أريد أن أكون مثلك، أنت مع القوزاق؛ حسم زبش الصغير النقاش.

_ ها ! _ تعجب خان جري مما سمع _ من علّمك هذا ؟

_ لا أحد _ أجاب الصبي بنفس الصوت العالي _ كتافياتك هي كتافيات القوزاق نفسها.

سأل خان جري الصبي الذي ارتمى في حضنه وهو يربت على رأسه ويبتسم له وإن كان كلامه جرحه:

_ إن كان رأيك هكذا فهل لاحظت اختلاف الزي القوزاقي عن زينا ؟

_ هذا ليس زي القوزاق _ أجابه زبش بصوت حاد يظهر منه الاستياء _ لبسوا زينا وقبعتنا، ثم ها هم يحاربوننا.

_ عجيب ما تقوله... أظن أحداً قال لك هذا الكلام !

_ لم يقل لي أحد _ لا يغير زبش موقفه _ سمعت أبي وحاج قسي وقايمت يتحدثون في الورشة _ قال قايمت إنهم غطَّوا أعلى قبعتنا بالأحمر فحسب.

_ هذا صحيح _ وفيما خان جري يتعجب من رسوخ ما حفظه الصبي في عقله صرعته الكلمات الأخيرة تماماً:

_ ومع ذلك أنت معهم _ وكأن عملاً هاماً ينتظر زبش الصغير _ سأذهب إذن وأنتظر أبي، هو غائب منذ ليلة البارحة. نانا تحتج،وأمي مهمومة.

في المكان الذي أرسلوني إليه للاستراحة مشكلات كثيرة، قال خان جري وعيناه على الباب الذي خرج منه الصبي. حقاً لا حرب إلى الآن في بلاد البجدوغ غير أن الجيوش المجهزة التي أرسلت إلى الجبال أثارت حروباً ومشكلات في بلاد الشابسغ والبحر الأسود. ومن الصعب تمييز صادق الأنباء من كاذبها. كلٌّ يلوي عنق الخبر كما يريد ويعيد صياغته. إن صدّقت ما قاله لي الأتامان زافوداسكا الذي حل محل ماتفييف فإن الجيش الروسي دخل إقليم الأديغة حامياً لاتفاق السلام في أندريانابول. لم يطلقوا طلقة في بلاد البجدوغ،

ولم يُشهر سيف. يحرصون على حياة الناس ولم يتسببوا في سقوط ورقة يابسة. لماذا إذن، حتى زبش الصغير لا يواجهني بما سمعه من كلام الكبار فقط ؟ لو لم يكن يقلق قلبه الصغير ما كان قال لي ما قاله. لم أعد أستغرب آراء شواي وأغوي بشه ماف وتازه أديغ في شأن ما يجري في بلاد الأديغة. ما لم أفهمه هو ما قاله قايمت وحاج قسي اللذان صارا من عداد أسرتنا في الورشة ونَقَلَه الصبي. ربما لهذا السبب قالت لي نانا البارحة: أفكر في أن نعود إلى الضفة اليمنى لنهر بشزة. لا، لا يا نانا لا تسمحي لهذه الشكوك في الأديغة تغزو رأسك.

اليوم كلام قيصر روسيا ليس مثل كلام سلطان الترك وإن كان الوضع في بلادنا مقلقاً. اختبرته بنفسي مرتين وثلاثاً، وهو ينفذ وعوده. رجعت ذكرى اجتماع أمراء الخمشي إلى أمام عينيه وابتسم.

لا ألوم أمراء الخمشي ونبلاءهم حتى لو أهانوني في حضرة القيصر فهم نفذوا كلامهم دون أن يثيروا فتنة في بلادنا. وهم يكتمون عدم رضاهم عما يحدث عندنا، ولكن الشيشان ؟ والشابسغ والناتخواي والوبيخ والجمكوي ؟ حتى لو قالوا إنهم هدؤوا يبقى الأبزاخ والمخوش والبسلني والأباظة. حين قلت لألكسندر كريستوروفيتش إنه إن تمّ إفهام الأديغة اتفاق سلام أندريانوبول دون حرب، باللين، أجابني: " ماذا تعني بهذا ؟" انظر ما يحدث لنا الآن. بدلاً من الكلام المعقول نسوق جيشنا مجهزاً إلى أرض الأديغة. إن كنا نقول: سنُخضع من لا يريدنا بقوة السلاح... لا أعرف وقتها، لا يمكن أن ترهب بهذا الأسلوب أبناء قومي الذين عاشوا حياتهم للحرية. لم يحارب الأديغة خلال آلاف السنين بلاداً أخرى، والآن يُخشى أن يتغير هذا. لم يكن غزو الجيش الروسي للأرمن والكُرج دون أساس، ولقّنوا الفرس والترك درساً. وخلّفنا وراءنا في هذه الحرب أخي الأكبر قرم جري وآخرين كثيرين. وحربنا في بولونيا لن نُدان عليها فهي جزء من روسيا. والأديغة ؟ بالقياس إلى حروبنا في الفرس والترك وبولونيا فالمسألة الأديغية مختلفة. لا يمكن لقومي أن يفهموا قولك: الترك أعطوكم إيانا ! لو كنت مكان الروس لوجدت طريقة أخرى لمعاملة الأديغة دون الوثوق بالأتراك... ألم تر كيف تصرّف الشابسغ ؟ أرسلوا موفداً إلى تركيا يستقصي الحقيقة غير واثقين بروسيا التي تنوي الخير لهم. لنرَ كيف يستقبلون سفربي! وبأي خبر سيعود؟ لا يجوز أن نسمح للترك بخداعنا، ليس الأديغة فقط بل الروس أيضاً.

تذكر خان جري الكلمات التي قالها له الجنرال بيروفسك " لتنظّفْ لنا تركيا شرق البحر الأسود ولا نريد منها شيئاً آخر " " ولكن إقليم الأديغة لم يكن يوماً جزءاً من الدولة العثمانية " " لا يهمنا إن كان جزءاً أم لم يكن، هذا مجرد كلام. ما كُتب في وثيقة السلام ووقّعت عليه الدولتان بالنسبة لنا وللأتراك لا يجوز الخروج عنه، ومهمة إقناع الأديغة بهذا مهمتنا جميعاً. وابتداء من اليوم أعلِمْ أهلك وأقرباءك الأديغة هذا الأمر حين تختلط بالأمراء والنبلاء والفلاحين. وإن تأملوا منك أن تتزعمهم فلا ترفض طلبهم. لا تظنَّ أننا قبلنا بسرعة فكرة أن الترك منحوكم إيانا لولا أن لنا في إقليم الأديغة من نتأمل فيه من أمثالك ! وسلطاننا، وإن كان ما يزال شاباً، بعيدُ النظر،وأنت من عمره، ليكنْ قدوة لك ! "

أفاق خان جري من ذكرياته كأنها أرعبته، وقال في نفسه: لو أنهم رأوني أهلاً لزعامة إقليم الأديغة لنظرتُ إلى الأبعد لأني أديغي ولا يمكن إلا أن يتألم قلبي لهم. ولو لمحوا لي بمثل هذا الأمل لكان كافياً، لا يعطيني الطرفان مثل هذا الأمل. وأمراء الخمشي ونبلاؤهم ألا يحتمل أن يكون ما فعلوه بي سبباً لحذر باسكيفيتش وبنكندورف مني ؟ كأنهم لم يقولوا لي إلا ما سأصبحه. ولكنهما مع ذلك قالا لي: حين تذهب إلى بلدك للاستراحة لا تلازم بيتك ! خالطِ الناس، قابلْ أصدقاءنا وأعداءنا وأفهمهم ماذا سيكون وضعهم عندنا، وأفهمهم أن عليهم أن يقطعوا أملهم من تركيا. وفي هذه الأمور كأني أثق بألكسندر كريستوروفيتش. ولكنه يكتم عني إدخال الجيش الروسي إلى إقليم الأديغة، ولو لم أر هذا بعيني ما صدّقت. لحظة ! أي جانب تركي انقطع عنه أمل الأديغة ؟ لماذا أوفدوا إذن زانه سفربي إلى تركيا ؟ من أجل التحري عن علاقة الأديغة باتفاق السلام الروسي ــ التركي. لو سألوني أنا بدلاً من أن يرسلوه إلى هذا البعد لأخبرتهم بحقيقة الموضوع... كانوا سألوني في اجتماع أمراء الخمشي ونبلائهم، ولكني بحجة أني لا أريد أن يكون الخبر السيئ أول ما أذيعه لم أصارحهم بما أعرف. والآن ؟ مضى أكثر من أسبوع على عودتي، لم يدعوني إلى أي اجتماع كما دعوني سابقاً وأنا على الطريق. ولم تزرني أي مجموعة من الرجال لتهنئتي على الوصول بالسلامة. ولكني لم أهمل قومي لهذا السبب. الموفدون من تركيا خرجوا من أرض الشابسغ فقط، وإقليم الأديغة ليس الشابسغ فقط فهناك أعراق أخرى. كما كان والدي يقول " ستجد أشياء كثيرة لا تعجبك في الطريق الذي اخترته فأخلصْ لما اخترته بقلبك ! " روسيا الموزعة على زعامات كثيرة اتحدت في دولة واحدة؛ فلو تصرف الأديغة كما تصرف الروس لما حدث لنا ما يحدث اليوم. ولكن لم يفت الأوان بعدُ. أفضل من أن تتكلم مع زعماء الأعراق المختلفة واحداً واحداً أن تبحث في فم من جمعهم، حينها ستجد كلاماً. لم يفهم أمراء الخمشي ونبلاؤهم هذا. والمتوقَّع الآن، سواءٌ أراد الأديغة أم لم يريدوا، هو أن تنصّب عليهم روسيا زعيماً واحداً يخضعون له، كما أن الكونت باسكيفيتش يحكم في ما وراء القفقاس. والأفضل أن يكون من قومنا كائناً من كان.

ــ يا زبش، يا صغيري لماذا أنت وحدك على الشارع في هذا العالم الغير المأمون ؟ أنقذ نداء قانتات خان جري من أفكاره ــ يا سيسور يا كنتي أدخلا الصبي إلى أرض الدار !

ــ صباح الخير يا نانا ــ صعد خان جري إلى المصطبة التي تقف عليها قانتات.

ــ أنت يا ولدي ؟ ــ التفتت قانتات فرحة بمن تسمع صوته. ثم نصحت من يُدخلون زبش الدار ممسكين بيده: ــ يا صغيري يا زبش لا تقف وحدك مع الفجر على الطريق كأنك مطرود من البيت.

ــ من سيطردني يا نانا من الدار ؟ قال زبش فجأة: ــ أنتظر والدي الذي لم يعد.

ــ بديهي ألا يطردك أحد من الدار يا ولدي ــ وافقت قانتات موقف الصبي بحيث تُنسي سيسور موقفها المحرج ــ سأطرد من دار الإمارة، أنا قبل غيري، من ينوي بك هذا ــ ثم لم تتمالك أن تقول له: ــ اذهب

وأفطر ولا تشغل بالك بما ليس من شأنك. يا إلهي ما أشبهه بعادل جري في طفولته! قالت وراء الصبي ــ أحرج سيسور المسكينة أمامنا !

ــ منذ أن جئتُ لم أر على وجه سيسور مشروع ابتسامة باستثناء فرحها باستقبالي، كأنها نُهبة لحزن ما ــ قال خان جري.

ــ نعم يا ولدي نعم. ــ قالت قانتات بعد قليل وهي تنظر نحو واجهة الدار التي قادوا منها الصبي وتنهدت: ــ لستَ مخطئاً في ظنك. أمك كتوم لذا لن تخبرك بأخبار شواي وسيسور، ولن تسبب لهما الحزن. لم يحدث أن عجزتُ عن فهم طباع شواي كما الآن.

ــ أهي مسألة قومية أم أسرية ؟ سأل خان جري خجلاً من الشق الثاني من السؤال.

ــ أنت تعرف موقف شواي من قضية الأديغة كما أعرف يا ولدي ــ وأنتما تكلمتما، ونحن كذلك. ولا أدين تصرفه حسب فهمه للقضية وإيمانه بها. نحن نعيش في وقت يصعب فيه التمييز بين الصادق والكاذب. ولكن الأصعب هو فهمُ ما يحدث لسيسور وشواي. إن كنت تريد أن تعرف فاسأل أمك؛ إنها أدرى بأحزان سيسور المسكينة. لا يليق بي أن أتكلم على سلوك شواي، سيرويه لك قايمت أو حاج قسي. حين يأتي الأحدُ من كل أسبوع، موعدُ البازار، يترك شواي عديمُ الإيمان أسرته اللطيفة حزينةً حائرة، ويعبر النهر. ولكن إن أطعتني يا ولدي لا أريدك أن تتدخل في أمور أسرة شواي. ما العمل ؟ يأكلني حزن سيسور وابنها الصبي. لا أعرف، على كل حال، اسأل حاج قسي. ربما تتفاهمون أنتم الرجال أفضل. ولكن إن لم يتوقف هنا ؟ ماذا حدث له ؟ أيصل إلى حد الموت على تنورة امرأة قوزاقية ؟ ! قالت قانتات وتوجهت إلى الغرفة معتمدة على العصا الفضية. ثم هتفت إلى الخلف: تعال يا ولدي إن لم تملَّ مني نكمل حديث البارحة.جاء دورك أنت. حين تعود إلى حيث كنت ستتغنج لك امرأة ليست من قومنا فتغريك، ها قد مضى أسبوع وأكثر على مجيئك ولم تتحرك لأجل الموضوع الذي أوصيت أمك أن تفاتحك به. جعلت كيلي يطفح ــ دخلت قانتات الغرفة تغمغم، ولحق خان جري بجدته يفكر ويضحك في قلبه على موضوع أسرة شواي الذي فتحوه له وعلى موضوع زواجه هو الذي لمحت إليه أمه قبل أيام على نحو موارب.

VIII

اتخذ خان جري حاج قسي مرافقاً، وركب الطريق مشغولاً بموضوع أسرة شواي أكثر من موضوع زواجه هو. ربما ما كان خان جري ليسافر بهذا الإلحاح لولا أنه رأى بأم عينيه شواي وأنفيسكا يتبادلان الدلال والغنج كعروسين في سوق لابا الذي يقام يوم الأحد. كان يأمل في أن يصارح أنفيسكا بما يمنعه فارقُ السن أن يقوله لشواي في البيت، ويجد سبيلاً للتفاهم بينهما.

إن أحرجنا أنفيسكا أعدنا شواي إلى وعيه _ لا يزال خان جري يفكر في الموضوع الثقيل الذي لا يفهم منه الكثير _ وأرحنا سيسور ونانا وأمي، ووضعنا حداً للأخبار التي تتوالد في القرية وخارجها. ما حدث بين الشخصين المتزوجين عيب عند الأديغة وعند القوزاق. ثم، كما تقول نانا: لماذا تموت على تنورة امرأةٍ زوجُها في الحرب ؟ ماذا حدث ؟ وبالنسبة إلى أنفيسكا على شواي أن يحترم نفسه ! لا يجوز. ليست سيسور المرأةَ التي تبدَّل بها غيرُها. وأنفيسكا لا تُعاب، كأنها محممة بالحليب، عيناها ورجلاها وخصرها. كبرت في السنوات الثلاث أو الأربع الأخيرة حتى ليصعب تعرفها. زاد جمالها جمالاً. كل ما تلبسه جميل من الجزمة الصفراء الملفوفة على الساقين ذات الرباط المضفور الطويل، إلى غطاء الرأس الملون المتدلي على منكبيها. ومع أن الجو لم يكن حاراً جداً فالشعر بلون الفحم مضفور على الرأس الحاسر. وشواي ؟ حين يرى الرجال امرأة لا يعرفونها يبدؤون بالتودد إليها بعيون جاحظة. لو لم أر سلوكك الشائن في ذلك اليوم لكان أفضل يا شواي. منذ طفولتي لم ألحظ عليك خفة عقل كالتي رأيتها في ذلك اليوم. ماذا فعلت بك أنفيسكا ؟ أسحرَتْك ؟ كيف تساويها بزوجتك ؟ ! لا تظن أني أنحاز إليها فكما أنها مثل أختي فأنت مثل أخي. لو أوقفت إلى جانبك عشراً من أمثال أنفيسكا لما سمحتُ لك أن تقارنهن بسيسور من حيث جمالها وسلاسة طبعها وإنسانيتها.

أيها المحترم _ قطع حاج قسي أفكار خان جري _ ألم يكن من الأفضل الاحتفاظ بكتافياتك ؟

_ ماذا يا حاج قسي ؟ _ سأل خان جري رفيقه الأكبر مع أنه فهم أصل السؤال _ لماذا تقول هذا؟

_ لا أعرف ما ينويه القوزاق لنا.

قال خان جري بعد قليل:

_ ألسنا نحن البجدوغ والقوزاق في سلام ؟

_ والله لا أعرف يا محترم، هذا سهل في الكلام، ولكن ما حدث بيننا خلال سنين طويلة كثير... ربما لهذا السبب حين جئت إلى نهر بشزة لجلب الماء امتشق قوزاقي على الضفة الأخرى سيفه.

_ وأنت ؟

_ وكيف أقبل بالإهانة ؟ أريته قامتي _ سرت ضحكة محدودة على وجه حاج قسي الغليظ ثم أكمل ووجهه يربَدّ: _ لو لم يُظهر لي سيفه لربما ما أريته قامتي... ما أصل هذا التحدي بيننا ؟ أهو العتب أم عدم الاحترام أم الحقد ؟ ماذا نتنازع ؟ ألأنني كنت أملأ الخزان الخشبي بالماء ؟ هذا الماء يكفي الجميع إلى يوم الدين. على ما يبدو ليست هذه هي المشكلة أيها المحترم. ألا تسمعني ؟

_ أسمعك، أسمعك يا حاج قسي _ طفت على سطح الأفكار للتو الكلمة التي رماه بها كوبريانوف في طريق تاباييسك _ كنت تذكرت شيئاً فشردت.

_ المشكلة أيها المحترم لا تتعلق بقضية الأديغة _ القوزاق. العتب والحقد وعدم الاحترام عيوب كل الناس. ولا أقول إننا نخلو من عيوب أخرى. ظلم الإنسان _ أيها المحترم _ إن عرف أنه يغلبك يُنسيك ظلم

الوحوش. ثم غمغم بعد قليل مُسمعاً الأمير وكأنه يبرئ نفسه: _ ثم نقول: نحن البجدوغ والقوزاق تصالحنا... لأننا نسمح لجيشهم أن يعبر أرضنا ونحن مطأطئون رؤوسنا.

بعد كلمات حاج قسي الجارحة ضحك بصوت أبحَّ كمن يريد تمويه كلامه. ونظر خان جري إلى رفيقه نظرة دافئة، والآخر لم يتركها دون جواب كأنما كان ينتظرها:

_ لا تؤاخذني يا خان جري ! _ نطق اسم الأمير بدفء _ لا تعُدَّ ضحكتي نوعاً من الجنون. لسنا نحن البجدوغ والقوزاق في صلح كما نظن. إن اعترضَنا عدد من أمثال ذلك القوزاقي السخيف فكيف نُفهمهم أننا في حالة سلام ؟ أقول: لو كانت كتافياتك عليك لحمتْنا.

_ ألهذا ضحكت ؟ قال خان جري دون اهتمام بموضوع الحديث، ولكنه لم ير من المناسب تجاهُل الموضوع. كان باستطاعتي أن أحملها، لا أخجل منها ولا أخاف. منذ وصلت لبست زياً أديغياً بدلاً من لباس الضابط لأريح كتفيّ؛ ألسنا بشراً دون كتافيات روسية ؟ ! لا خوف ! ثم لماذا لكل إنسان لسان ؟ ليتكلم به ويسأل وينادم. النظرات اللطيفة والصوت الناعم، حتى لو لم تعرف اللغة، تجعلك مفهوماً عند الآخرين وتساعدك على التفاهم معهم. ولذلك انسَ قلقك !

_ والله هذا صحيح ! _ اقتنع حاج قسي _ ولكن لا أعرف إن كانت هذه التي نذهب لأجلها، هذه التي سحرت شواي، ستفهمنا؛ فالنساء القوزاقيات يتمتعن بحرية زائدة نحو أزواجهن وغير أزواجهن.

_ أعتقد أنها ستفهمنا _ ولم يتجاوز ما كان يتوجس منه ولو أن الكلمات ثقيلة عليه _ طبعاً فيهن شيء من هذا. ولكن لا أظنهن جميعهن هكذا.

انتصبت أمام عينيه في تلك اللحظة، دون أن يسمع جواب حاج قسي، لقاؤه الأول بتاتيانا كونستانتينوفا على ضفة نهر النيفا، ثم في مشرب الشاي في باتاييسك. شحن منظر المرأة في ثوب الحداد قلبه ألماً وهي التي لم ينسها في السنة والنصف الأخيرة، والتي يودُّ إن قابلها اليوم أن يتقرب إليها،وإن تكبرت عليه، كما في اللقاء الأول. ومرت أمام عينيه صور البنات البشوشات اللاتي تقرّبن إليه عبر أشعار بوشكين. أين هن الآن يا ترى ؟ ربما تعرف تاتيانا كونستانتينوفا الجواب، وإلى أي جهة اتجهن ؟ ومن كان زوج تاتيانا التي ترملت في سن العشرين ؟ لم تكن رتب الضباط المرافقين لها صغيرة. والذي كانوا ينقلون جثمانه ؟ لم أر من اللائق السؤال عنه؛ ليس ضابطاً صغيراً. أَتَرَكَ أطفالاً ؟ لولا ملابس الحداد لما تغير فيها شيء من رؤيتي الأولى لها.

_ أقول فقط لأن حزني على سيسور أجبرني _ يكرر حاج قسي كلامه _ أفهم أن ليست كل نساء القوزاق بلا شرف، ولكني لا أجد مسوِّغاً لسلوك أنفيسكا وشواي، ويجب أن نضع حداً لهما. لا تؤاخذني أيها المحترم أنا أكبر منك عمراً، ما سأقوله لك قد لا يكون لائقاً بي ولكن...

_ أسمعك، أسمعك يا حاج قسي _ نظر خان جري الخارجُ من أفكاره نحو الكبير.

_ المهمة التي كلفتني بها والدتك وسيسور _ أكمل حاج قسي بصوت حازم _ سأقولها لك: لا بد أن تسافر إلى آل بولت في بلاد الجمكوي، الأسرة التي خطبوا ود ابنتها تنتظر نواياك.

لم يتكلما المزيد في موضوع النساء على طريق فاسيورينسك وإن لم يُحب خان جري. وكان طريق القوزاق هادئاً خلافاً لما توقّع حاج قسي. وحين اقتربا من ناحية باشكا جهة اليمين، وكذلك حين اقتربا من فاسيورينسك، كان الفرسان القوزاق الذين يصادفونهم والراجلون والممتطون عربات يستقبلونهم بحركة ترحيب من الرأس فحسبُ ولا يسألونهم لماذا سلامكم، وماذا تريدون؛ فلا ينظرون إليهم شزراً. وكل الناس الذين قابلوهم مرتاحو الوجوه وإن انشغلوا بأعمال الربيع.

بعد أن رحّب بهما فارسان قوزاقيان على مدخل فاسيورينسك لم يتمالك حاج قسي أن غمغم:

_ هؤلاء القوزاق ليسوا بالسوء الذي نظنهم عليه !

اكتفى خان جري بالابتسام ولم يعلق.

كان بيت بادينكا حَمِيْ أنفيسكا هادئاً، وباب الدار وباب البيت مغلقين. ابتسم حاج قسي قائلاً: هذا الكلب الأزرق العجوز هو من عضّ مؤخرة بامبت. نبح في وجههما بضع مرات ثم عاد واستلقى في الموضع المشمس بجانب الجدار. وكان بيت جيرانهم آلِ كاشورا، أهلِ أنفيسكا، كذلك، ولم يكن في الجوار من تسأله عنهم.

_ أين صار هؤلاء ؟ راقب خان جري _ أظن مجيئنا بلا فائدة.

_ والله لم يخطر لنا هذا على بال أيها المحترم _ ضحك حاج قسي من أعماقه ضحكاً ثقيلاً _ أتظن هؤلاء مثلنا في موسم الأعمال الربيعية ؟ إنهم في حقولهم. وهناك سنجد الفتاة المسكينة؛ رجالهم ونساؤهم في العمل.

وفي هذه اللحظة سُمع صوت عربة مسرعة، وخرجت العربةُ التي تُقلّ أنفيسكا من المنعطف فجأةً. وحين رأت الفارسين الأديغيين على باب بيتها في الهاجرة جفلت ووقفت على باب الدار دون أن تخفف سرعة الحصان. والآن فقط عرفت أحد الفارسين:

_ هذا أنت يا خان جري ؟ ! _ رمت أنفيسكا اللجام وقفزت من العربة وهي تحني قامتها البديعة. ثم توقفت بوجه مرتعب: _ يا مصيبتي ! هل جلبتَ لي خبراً سيئاً يتعلق ببانتالي ؟ أهو بخير ؟

_ نعم بخير يا أنفيسكا إيفانوفا _ ضم خان جري إليه المرأة التي ارتمت في حضنه قائلاً: ما أشدَّ ما أفزعتُها ! _ عدنا من بولونيا معاً، ومُنح وساماً من القيصر نفسه تقديراً لشجاعته. ويسأل عنك وعن طفله وعن أهله،ويبلغكم سلامه.

_ الأجدر بالقيصر بدلاً من أن يمنحه وساماً _ رجعت أنفيسكا وضمت خان جري _ أن يعيد إلينا "بانتاليَنا"، أملَنا، روحنا الوحيد ! وأنا وابني " لِيشْك " نشتاق إليه، وكذلك أمه وأبوه مشتاقان إلى ولدهما الوحيد؛ ليرسلْه إلينا !

_ لا تلومي القيصر يا أنفيسكا إيفانوفا _ قال خان جري بصوت فيه عتب ناعم ولكنه ثابت _ يقوم بانتالي بواجبه نحو وطنه، ولكن ثقي بأنه سيعود قريباً في موعد لا يتجاوز الصيف القادم.

_ أسيعيده في الصيف ليحارب الأديغة ؟ ! _ صرخت أنفيسكا بدلاً من أن تفرح.

_ يا أنفيسكا... أنفيسكا إيفانوفا اطمئني ! _ لان صوت خان جري ثم قال ما يتوجس منه: _ القيصر لا يحارب الأديغة بل سيُفهمهم موقفه. من يقول مثل هذا الكلام ناس سيئون؛ لا تسمعيهم!

_ أيكون شواي سيئاً ؟ ! _ لم تقبل أنفيسكا ما سمعتْ، ثم صححت وكأن الإهانة موجهة إليها: _ ليس شواي سيئاً لأنه يقول الحقيقة.

_ عجباً ! ماذا تقول هذه المرأة ؟ سأل حاج قسي بالأديغية وهو يلجم حصانه حين سمع اسم شواي وإن لم يكن يفهم ما تقول أنفيسكا. ثم أضاف مغمغماً: _ كن حازماً معها !

_ لا أقول إن شواي ليس صادقاً _ أضاف خان جري متجاهلاً كلام رفيقه _ ولكن الأفضل عدم الحديث في أمور غير مؤكَّدة.

_ ليس شواي وحده _ لم تغير أنفيسكا موقفها _ كذلك قوزاقنا.

_ حقاً؛ ماذا تقول بشأن شواي ؟ _ احتدّ حاج قسي ثانية، وألحَّ دون اعتبار لكونه مرافقاً لابن الخان: _ أكِّدْ عليها ألا تتعلق بشواي !

_ لماذا يظل يكرر شواي، شواي ؟ _ سألت أنفيسكا، ثم استعجلت وعيناها الجميلتان تستديران في محجريهما: _ هل حدث مكروه لشواي ؟

_ لا يا أنفيسكا ! شواي بخير، يذكر رفيقي اسمه لأنهما صديقان _ لن أقول لها ما جئنا لأجله، وإن قلت فلن تتفهّمنا بشأن شواي الذي اسمه على لسانها أكثر من زوجها المسكين، ولن نتفق معها. ولكن سألمح لها بطريقة تفهمها: _ إنه يربي ابنه ويحب زوجته ويدللها _ حين رأى وجنتي أنفيسكا تحمرّان أسرع إلى جيبه وقد تذكر: _ نسيت ! هذه السومة الفضية أرسلها معي لكم بانتالي سافيليفيتش، نحن ذاهبان إلى مكان آخر يا أنفيسكا إيفانوفيتش ولذا سنركب طريقنا. بلِّغي سلامنا إلى أهلك وأسرتك. وسأُطلِع بانتالي على أخباركم الطيبة حين أعود إلى بطرسبورج في أواخر الشهر، وسأبلغه حبكم له وشوقكم إليه.

_ بهذه السرعة ؟ _ سألت أنفيسكا وهي تضع السومة في جيب الصدار _ ألن تشرّفانا في البيت ؟ نحن بانتالي سافيليفيتش وهو نحن، هو أملنا،آلَ بادينكا، وهو سندنا. بلّغه حبي وشوقي، لا أخجل أن أقول هذا في حضرتك.

_ توقفْ لحظة أيها المحترم ! _ امتطى حاج قسي حصانه _ لا تستعجل يا خان جري، أريد أن أُفهِم هذه المرأة غير الحميدة أني لم آت دون سبب.

_ لنمشِ يا حاج قسي لنمشِ ! يكفي ما قلت لها إن كانت تريد أن تفهم._ ارتعب خان جري مما سمع.

خرج الفارسان اللذان التفت إليهما بعض القوزاق الفضوليون خبباً من فاسيورينسك، وعبرا الضواحي دون أن يتبادلا كلمة واحدة. غير أن حاج قسي لم يُطق صبراً:

_ أيها المحترم ! أسمِعْتَني يا خان جري ؟ لا أظن هذه المرأة الشابة فهمت سبب عتابنا لها _ ودون أن ينتظر جواباً أكمل: _ أظننا تدخلنا بين عاشقين وأذنبْنا بحقهما... هذا السلوك الوحيد يا إلهي هو الذي لا يعرف تمييزاً بين الأقوام. أنت لا تقلْ شيئاً. سأقول أنا ما في قلبي وسننهي الموضوع هنا. وبالنسبة لهذا الموضوع تحديداً حين استجمعت كل رجولتي وكلمت شواي حاججني بطريقة جارحة. أمثال هذه المواضيع لا يجوز التدخل فيها. عيب، حرام. ولا تجني منها إلا " الزعل ".

_ لماذا جئت بنا إذن يا كبير ؟ ! سأل الفارس الذي بجانبه خجلاً مغلوباً بعتاب ناعم.

_ ماذا يقال ؟ _ أجاب حاج قسي بعد قليل: _ الخير يطيل عمر الإنسان دون الشر. اعتددْنا ظانين أننا سنحقق شيئاً مهماً ولكننا خدعنا نفسينا فنحن بلا حَول.

_ ومع ذلك تقول لي: كن حازماً معها ! _ ضحك خان جري في قلبه.

_ والله لم أكن عادلاً _ بعد قليل جزم حاج قسي، ثم قال وهو يتنهد: بما أن الموضوع انفتح فسأكشف لك أيها المحترم شيئاً من أسراري: لم يكن مضى على زواجي ثلاث سنوات، وأنا مأخوذ بالرقص في أعراس القرية والتسلي فيها، سقطت بلا شعور في حب فتاة. لا تسألْني؛ لم تكن من قريتي. كم عانيت من حبها حتى كدت أفقد عقلي ! أنا نفسي لم أكن مشكلة بل المسكينة التي عندي في البيت والتي منحتني روحها. هذه الفتاة ذات العينين الحادتين التي أتكلم عليها يحيط بها الآن تسعة أطفال. لم يكن بقي الكثير حتى يتخبطني الشيطان من المس لولا أن انتبهت إلى نفسي وعدت إلى وعيي. هذه هي الحقيقة: عندما يدور رأسك تظن أن الدنيا تدور معك وليست هي التي تدور بك دون إرادتك.يا أيتها الدنيا المشؤومة ماذا أذنبنا بحقك حتى لا تعايشينا بهدوء ؟ وهذه ستكون نهاية من نفني أنفسنا لأجلهم. غير أن هذا لا يعني ألا تحترم نفسك يا خان جري.

كان تفكير خان جري، وهو يسمع الخبر الذي أهاج حاج قسي، لا يستوعب شيئاً منه لأنه في مكان آخر. كان مهموماً بزيارته المرتقبة إلى بلاد الجمكوي حيث فتاة آل بولت المرشحة لأن يتزوجها. ولكن روحه كان في بطرسبورج حيث اتجهت المرأة التي قابلها في مشرب الشاي في تاباييسك.

***

كانت شمس الربيع تستقر وراء الجبل حين صار خان جري ورفيقه على الباب الكبير.

ابتسمت قانتات التي كانت على المصطبة لخان جري وقالت له:

_ الحمد لله على السلامة يا ولدي. لا تحرم نفسك من منظر الغروب؛ كنت تحبه في طفولتك.

ـ ولا أزال يا نانا ـ نظر في وجه جدته بفرح شبه مخادع. ومع أنه كان يرى في وجهها منذ جاء للاستراحة معالم الهرم، ومع أن قلبه تألم لها، فإنه لم يدعها تلاحظه ـ وحين تشرق الشمس يا نانا تسعدني أيضاً، تمنحني أملاً.

ـ نعم يا ولدي؛ همُّ الليل يُفني الإنسان وأملُ النهار يُسعده ـ ثم سألته بعد قليل دون إفصاح: ـ ما الأخبار حيث كنتما يا ولدي ؟ أطلتما الغياب.أقابلتما من يجب مقابلته ؟ حسناً حسناً يا ولدي حررتماني من هذا الهمّ وسنرى الآن ما يحدث. وأنت يا ولدي كان عندك ضيوف كبار.

ـ ومن أتاني في غيبتي الوحيدة عن البيت ؟

ـ وجوه الشابسغ ـ بان على وجه قانتات سرورها بما وصل إليه خان جري ـ ما إن خرجتما ـ وحسناً فعلتُ بعدم طلبكما. إن كانا يريدانك أتيا مرة أخرى. توغوظقوه قازبك وأباته بسلني، قالا إنهما سيعودان مرة أخرى بعد ثلاثة أيام، أي يوم السبت.

ـ وما الذي يقلق الشابسغ ؟

ـ كل ما حولهم يُقلق يا ولدي؛ هذه الأوضاع السيئة. لم ينتهوا من حديثهم عن بلادهم خلال الساعات الثلاث التي جلسوها معي. مهمومون بسبب عدم عودة من أرسلوه إلى تركيا. يقولون الجيش الروسي ينهبنا ونحن مكتوفو الأيدي.

ـ وبِمَ أنفعهم في هذا ؟

ـ لا أعرف يا خان جري. لا تقل هذا ! لو لم يكونوا محتاجين إليك لما تجشموا عناء المجيء من الشابسغ.

ـ إن كنت تتذكرين يا جدتي فقد كان أمراء الخمشي ونبلاؤهم أيضاً محتاجين إليّ. ومع ذلك خدعوني !

ـ يا خان جري يا ولدي أفهم استياءك، ولكن لا تدعْ مثل هذه الأحقاد تأكلك في هذا الزمن العصيب على الأديغة؛ اخدمهم بما تستطيع !

ـ أفهم يا نانا ـ زفر خان جري ـ ألا ترين أننا لسنا مستقيمين ؟ بدلاً من أن يستشيروا بقية الأديغة ويتفقوا على رأي واحد انظري إلى أين أرسل الشابسغ موفدهم. الأديغة ليسوا محتاجين الآن إلى حروب ومناحرات. إن لم يضغطوا على عواطفهم وينصحوا أنفسهم ويفكروا فيها فأنا خائف أن ينساقوا في طريق خاطئ.لا أعرف ماذا يتأمل هؤلاء من تركيا ؟ إن أطاعوني فأنا أعرف طريق النجاة.

***

يمكنك حتى لو كنت كفيفاً أن تميز كم مرة تتغير سماء الأديغة يومياً.الشابسغ يحررون أيديهم المربّطة، في كل يوم يعقدون اجتماعات عديدة لمجابهة مشاريع روسيا نحوهم دون أن ينسوا استياءهم من تركيا، مخفين هذا الاستياء مؤقتاً. وهؤلاء، وإن لم يقف معهم البجدوغ المسالمون، يستميلون آخرين من غير البجدوغ: أرسلوا رسلهم على عجل إلى نواحي الأديغة، بل إلى نواحي الشيشان والداغستان، ويرسلون أخباراً إلى الأبخاز.

من الصعب تجنب الارتياب في الحرب حتى لو لم تكن عمّت إقليم الشابسغ. متى ستحدث ؟ اليوم ؟ غداً ؟ بعد غد ؟ أم الشهر القادم ؟ فجّرت الأحزان والهموم خان جري رغماً عنه. جئت للاستراحة، لا يجوز أن أمنح استراحة لرتبتي الروسية ! قبل أن يُشهر الجانبان الروسي والأديغي السلاح أحدهما على الآخر، ولم يفت الوقت بعدُ. كأن زعماء الشابسغ فهموني،حتى لو تجاهلوا الأمر، حين لمحت لهم إلى عتبي عليهم بسبب إرسالهم زانه سفربي إلى تركيا. ولكني لاحظت عليهم قلقهم لعدم عودته.سأعود وأجتمع بالجنرالات الكونت بنكندورف وبيرفسكا وستريكالوف، وسأستشير ديسكاسي وسأتصرف حسب إرشاداتهم.

حين ذهبوا بالروتميستر الذي دفعته قضية الأديغة إلى ركوب طريق بطرسبورج، إلى بلاد الجمكوي على عجل لخطبة ابنة آل بولت، وعلى علم من قانتات، كان من جملة ما قالته له: " لو نزعت رتبتك الروسية _ القوزاقية،ورجعت إلى صفوفنا لكنت حققت لك، ليس مشاركتك الحياة فقط، بل وقفت معك في كافة أفكارك وخططك " تنهد خان جري وهو على الطريق تتقاذفه أفكاره قلقاً من عدم رجوع زانه سفربي من تركيا. ولكن، لا الشابسغ ولا خان جري، كانوا يعرفون ماذا جرى له في تركيا.

***

حين رافقوا زانه سفربي إلى باب السلطان محمود الثاني استقبلهم الحارس المسلح وسلمه إلى مسلح آخر في غرفة أخرى، وبهذه الطريقة وصل إلى الغرفة الثالثة.

كانت الغرف التي خرج منها والتي دخل إليها تشرح الصدر. الزخارف على الجدران مطلية بماء الذهب، والستائر البيضاء تكاد تلامس الأرض المبلطة بقطع صغيرة من الخشب اللماع. وعلى مصراعي الباب رجلان مسلحان، وغيرَ بعيد عن النافذة على مدخل الباب يجلس مسلح آخر، وعلى يساره شابٌّ أشد تسليحاً. ومقابل هؤلاء، وراء الجدار الفاصل، يقف مسلحان عبوسان.

حين أشار أحدهما إلى سفربي أجابه بالتركية أن الأديغة لا يتخلون عن قاماتهم فلاقاه الثاني رافضاً هذا الجواب.

وقف الرجل الذي كان جالساً قبالتهما لا يقول شيئاً وأَسكتَ المسلحَين، ودلف إلى السلطان ولم يتأخر بل أشار إلى الجنود أن يتركوه يمر، وإلى سفربي أن يدخل.

كانت الغرفة التي دخلها كبيرة حتى لَتصيب القلب بالإحباط. الجدران مغطاة بالمطرزات الذهبية وأرض الغرفة صفراء فاقعة. والرجل الأسمر ذو الوجه المستدير البدين كأنه يقول له: أترى ما أضخمني! أتفهم أن بلادي بلا حدود ؟جالسٌ نحو الجدار الآخر يكسو وجهَه شاربان أسودان كثّان، والرتب على الكتفين، وأزرار الصدار من الذهب، والأوسمة المصوغة من الذهب والفضة تغطي الصدر.

وقف سفربي قبل أن يصل تماماً إلى موضع جلوس السلطان، وحياه بتحية خفيفة من الرأس ويده اليمنى على الصدر فأومأ إليه السلطان بالجلوس.

وجلس سفربي.

حين بقي الاثنان وحدهما في القاعة عاد سفربي إلى وعيه، قال لنفسه: أظن هذا الرجل يعرف شيئاً عن مسألة الأديغة، وبوده أن يقول لي شيئاً. سأقول له، مهما تصرف معي، إن ما فعلوه بالأديغة ليس صحيحاً. جرى ما جرى ولن يفعلوا بنا أكثر مما فعلوا. سأسمع ما يقول، وسأعزف على لحنه. ابتسم سفربي للسلطان رغم أن قلبه كان يغلي من تصرفه مع الأديغة، واستقر على كرسيه متسلحاً بالصبر.

قال السلطان:

_ أستمع إليك أيها الضيف.

_ أنا موفد من الأديغة، واسمي زانه مُحَمْ جَري[1]

_ معروفٌ جَدُّك محم جري، صدِّقني _ لم يدعه السلطان يكمل كلامه _ لم تنسه تركيا. والآن أخبرني بحقيقة نوايا الذين أرسلوك إلينا _ مدّ السلطان ورقة قيصر روسيا إلى سفربي: هذه الورقة تتضمن نوايا الروس نحوكم، وتتعلق بك أيضاً _ هذا كتاب سري أيها الضيف.

_ لا أبحث عن معرفة سر واضح يا سلطان الترك المعظم.

_ أليس من الأفضل أن تعرفوا نوايا أعدائكم ؟ _ لم يمد السلطان يده إلى الورقة التي أعادها إليه سفربي _ يسرني أن يكون هذا موقفَك من أسرار الدول، ولكن أود أن يبقى سرنا الآن بيننا.

تصفّح سفربي الرسالة التي تقلّ عن صفحتين، وأعادها قبل أن يقرأ ما يتعلق به وكأنه غير مهتم. وجلس الرجلان ينتظر كل منهما من يبادر إلى الكلام.

قال سفربي في نفسه: ما أسرع ما وصل خبرنا إلى بطرسبورج ! ألا ترى في الرسالة " الشابسغ أرسلوا أمير الناتخواي زانه سفربي بن محم جري موفداً إليكم. وبما أنه خدم في جيشكم ابحثوا له عن ذريعة واحجزوه عندكم ريثما ننتهي من ترتيب أمورنا في بلاد الأديغة. وإن طلبتم خدمة مقابلها فسنجيبكم بما يتفق ومصالحنا "

_ لم تعلّق على ما قرأته أيها الضيف ؟ _ تبيّن أن السلطان على عجلة من أمره أكثر من سفربي.

_ وبِمَ أعلّق ؟ لن ينوي عدوك خيراً لك.

_ وهل الأديغة أعداء للروس ؟

_ نحن لم نُعادِ أحداً. الآن أشهر الطرفان رماحهما، ووجب علينا أن نتحارب.

_ لا أعرف إذن ما يجري _ تظاهر عدة دقائق بأنه يفكر، وأكمل: _ حين كنا نحضّر وثيقة القرار كانوا يقولون جادين: إن الأديغة يقفون معنا منذ زمن بعيد. وحين تكون مغلوباً ألا تعرف كيف تجري الأمور ؟ لم يقبلوا منا إلا أن نسجل هذا في الوثيقة.

_ الأديغة عاتبون عليكم في ما فعلتم يا سلطان الترك المعظم. _ قال سفربي بوضوح.

---

[1] محم هو تصرُّفٌ بالاسم العربي محمد. المترجم.

ـ نعرف أن الأديغة عاتبون علينا، ولكنا لسنا نحن من دخل أرضهم بل الكفار. لن يقول أحد في التاريخ إن الترك سلبوا الأديغة أرضهم. سأكمل ما دمت بدأت: لما كانت تركيا اضطرت إلى توقيع اتفاق صلح مع روسيا، فنحن لا نملك الحرية في أن نتحدث في شأنكم ولكن قلوبنا معكم، سنساعدكم سراً. لسنا وحدنا بل ربما دول أخرى أيضاً. لا تتراجعوا ! سنمدكم بمساعدات من السلاح والبارود والمدافع بقدر ما تجابهون روسيا. ولْيعرفْ من يجب أن يعرف كلامي هذا دون أن تكون لي علاقة ظاهرة به. اللهُ أملنا. لا ننسَ هذا ! ليس الأديغة وحدهم؛ الشيشان والداغستان يجابهون الكفار. والآن سأحقق رجاء القيصر بشأنك. زانه سفربي كان في الجيش التركي وكان يحمل رتبة أمير حرب. منذ الغد ستعود إلى الجيش التركي. ونحن لا نعرف إن كنت مهتماً بقضايا الأديغة أم لم تكن. وإن اضطررنا أن نتصرف معك بسبب من يتعقبون أثرك فلا تعتب علينا !

لم يتوقع سفربي البتة أن تنتهي قضية الأديغة التي جاء لأجلها هذه النهاية. ومهما قال له هذا الجالس أمامه اكتفى بالابتسام له ولم يثق به. وكان أكثرُ ما آلمه قراره أن يُبقيه في تركيا، ولكن أخفى مشاعره وقال للسلطان:

ـ على ما يبدو فإني جئت بنفسي ووقعت في الفخ الذي لم أنتظره !

الكتاب السابع

I

أزاح الخبر الذي انتشر في السرية الجبلية القوزاقية وساوس خان جري. وحين أبلغوه باستقالة عزمت جري من عمله وتكليفه هو مكانه حزن دون مراءاة. ولما كان من أبلغه هو بنكندورف قال له بحزم حين نظر إليه حزيناً:

ـ يجري كل شيء كما قررنا نحن يا خان جري. لا نتصرف إلا بأوامر القيصر العظيم، ولا نكلفك إلا بما قرره لك فأثنِ عليه، وأخلص، واحمه، ولا تنسه !

ـ أنا أخدم قيصري ودولتي بإخلاص ـ وما وصل من مدح القيصر إلى خان جري رفع معنوياته.

ـ أصدّقك أيها المحترم، ولأن بنكندورف نهض، فهم خان جري أن المقابلة انتهت. ولكن الكونت أكمل:

ـ الأمر الذي صدر بشأنك سيصل غداً في الساعة الثامنة إلى قيادة السرية. وعزمت جري مطلع على الموضوع. وحين سئل عمن يرشحه لقيادة السرية كنتَ أول من رشحه أيها المحترم. ولا أظنه كان يجهل رأينا ـ وبنظرة ماكرة أكمل: ـ لنمضِ يا خان جري ! ـ أمسك بذراعه ومزح معه وهو يشيعه إلى الباب: ـ أظن أن ما كلّفوك به جعل رأسك يدور نوعاً ما.

ـ لا يا سموكم ـ أسرع خان جري بالقول وكأنهم سيسحبون منه التكليف: ـ أقف على قدميّ بثبات.

ـ هذا حسنٌ أيها الروتميستر ـ توقف بنكندورف دون أن يترك ذراعه ـ يسرني أني لم أسمع منك غير هذا حتى لو على سبيل المزاح. الجهة التي كنا أعدناك إليها (لم يقل " شركيسيا "، منذ أن أصبحا صاحبين لا يتذكر أنه خرج من فمه مثل هذا)[1] لا أسأل عن استراحتك، ونحن على معرفة بالأحداث الجارية هناك، ولا نلوم من يصرح برفضه لنا. وكما يروَّض الحصان الجامح على تقبُّل السرج فهؤلاء سيعتادون علينا طوعاً أو كرهاً.سيكون من المفيد أن تبلغني بما شاهدت بعينيك وبرأيك في ما يجري، وبطرق تقريب قومك إلينا، فهو خير من أن نعتمد على الأقاويل المتناقضة؛ فمهما كنت مخلصاً لنا فهؤلاء قومك، ولن تستطيع إلا أن تتألم لهم وتهتم بأمرهم. وسنتحادث بعد أن تستريح بعض الوقت.

ـ يا سموكم ألكسندر كريستوروفيتش ـ توقف خان جري عند الباب ـ ثقْ بي !

ـ واثق أيها المحترم، واثق ـ أجاب على السؤال الذي كان بودِّه أن يسأله إياه: ـ أنا كما أثق بنفسي أثق بضباطي. وأنت تحديداً لا أقارنك بأحد. مع السلامة يا محترم ـ ابتسم له متأملاً إياه بعينيه الحادتين الزرقاوين، وأتبعه بكلام دافئ: ـ منذ اليوم ابحثْ عن كتافيات جديدة !

حين خرج من بيت قائد الجندرمة تهدلت كتفاه، وخيل إليه أن يديه ورجليه خرجت عن سيطرته، دون أن يدري كيف،بدلاً من أن يطير فرحاً بالأخبار الجديدة. ونظر إلى السماء وكأن عبء القلب الضاغط ينزل

[1] الأقواس من المؤلف

منها. سماء الشمال صافية وهادئة لولا مِزَقٌ باهتة من الغيوم، والشمس تنحدر مضيئة سماء الجبل. ولما كان المطر الذي هطل ظهراً قبيل أن يتجه إلى بنكندورف نظّف الهواء فهو خفيف ولذيذ. ولكن ما تلمحه العين لا يسعد القلب، فلا عزم في أعضائه كعجوز بلا حَول.

ماذا جرى لي ؟ كما لو أنهم قتلوني ورموني ! غضب خان جري على نفسه. لا يألو ألكسندر كريستوروفيتش جهداً لصالحي، واليوم لم ينقل إليّ إلا أخباراً سارة. ما الذي ينقصني ؟ أمن السهل أن يعينوك قائداً للسرية التي تحمي القيصر ؟ لن تسع الدنيا جدتي إن أرسلت لها هذا الخبر. أظنها تتأمل الشمس من عتبة بيتها كما أفعل الآن. ما أخبار بلادنا الآن يا ترى ؟ ظن أمراء الشابسغ أني رجل مهم فجاؤوا مرتين لمقابلتي. وما عيّرتني به ابنة بولت ؟ وماذا يختلف ما قالته لي أنفيسكا بخصوص بانتالي ؟ وزبش الصغير ؟ أنا هنا فرح بمنصبي الجديد... لم أستطع مع ذلك أن أكاشف بنكندورف الودود معي إلى هذه الدرجة بالأحزان التي عكرت استراحتي.

حين نظر خان جري إلى الشمس المتكاسلة فوق سماء الجبل خيل إليه أنها هي الأخرى حزينة. تذكر خان جري الحلقة الحديدية التي سقطت من محيط الخزان الخشبي والتي كان يدحرجها في دار الأتاليك، والحلقة التي صنعها له حاج قسي في الورشة والتي كان يصيد بها كعوب بفوق. وتذكر الأطفال الذين كانوا يجتمعون مساء في المرجة المقابلة لدارهم، وأخبار مضافات الكبار وأقوالهم المأثورة وحكاياتهم وأحاجيهم و"جوامع كَلِمِهم"،والحكايات التربوية، والأساليب المتنوعة لتربية الأحصنة على تنوع أعراقها، والحياة المثالية لأبطال الحروب... حين أرسل لي بنكندورف أني كُلّفت مكان عزمت جري نسيت هواجسي القومية. هذا هو مبلغ رجولتي على ما يبدو ! أُجابِه الرصاصَ، وأُجابِه السيف المشهر، وأتفانى من أجل العمل والسمعة الحسنة... ومع ذلك لم أجرؤ أن أسأل بنكندورف عن سبب تسريح عزمت جري !

أفهم أن أحوال الدنيا متناقضة كتعاقب الليل والنهار، قال خان جري في نفسه. لا ألوم عزمت جري. يجب أن يكون غروبُ أيامه أضعفَه. الشمس حين تأوي إلى مغربها تشرق غداً من الجبل الآخر، ومن لن يشهدوا ثانية هذا المشهد هم من أرداهم الرصاص والسيوف. وهذه الأسلحة لا تميز بين أديغة وروس وترك... ما الأخبار في منطقتنا يا ترى ؟ أظن أن العربات التي تنقل جثامين قتلى الطرفين تتزايد. الأفضل ألا نتورط في هذه المآسي... لماذا لم أقل هذا لبنكندورف ؟ !

إذا رجعنا ثماني سنوات، لام نفسه وهو يتذكر الدم والبارود الذي تجمّع أمام بوابة مجلس الشيوخ ثم برّأها. ووصل إلى ضفة نهر نيفا دون أن يعرف كيف، وتوقف بعدما تمشّى زمناً عند المقعد الذي تعرف على الفتاتين وهو جالس عليه. وثبتَ أمام عينيه أكثرَ من الفتاتين اللتين قرأتا له أشعار بوشكين الفتاةُ الثالثة التي كانت تنقل جثمان زوجها تاتيانا كونستانتينوفا. والمرأة الكهلة الأخرى التي معها طفلان، والضباط الحزانى المرافقون لها. ووقف الضابط الذي شبّهه ببوربوف كخلفية لكل هؤلاء والذي كان في منتهى السكر ورأسه على الطاولة، وذكر كوبريانوف المتورد الذي شهر سيفه.

خطرت له مرة أخرى وعلى نحو مفاجئ تاتيانا كونستانتينوفا. لو عرفتُ أني سأعثر عليها لنفعتها ونصحتها ولو لم يكن بيدي الكثير مما أقدمه لها. ولماذا لا أستطيع أن أقدم لها ؟ الأرملة تحتاج إلى الكثير؛ وإن رجوت ألكسندر كريستوروفيتش من أجل المرأة الروسية التي لا أعرف من هي فسيسُرَّ كثيراً. ولكن أين هي؟ كان عليّ أن أسألها حين التقيت بها في مطعم باتاييسك أين أجدها. وكيف كنت سأسأل امرأة في غمرة هذه المأساة العظيمة ؟ ! أيكون ألكسندر كريستوروفيتش قفز عن أخبار المنطقة التي عدت منها قائلاً " فيما بعد " لأنه لا يثق بي ؟

لجم هذا السؤال خان جري، ونهر نفسه عن الأفكار التي راودته: لو كان ألكسندر كريستوروفيتش الإنسانُ القريبُ من القيصر لا يثق بي لما عمل على إسناد هذا المنصب إليّ،بل لما سمحوا لي بالاقتراب منه. لا أعرف ماذا أقول ؟ يجب أن أشكره ولكني أسمح لشكوكي أن تغلبني. والأديغة الذين أنا منهم والذين أفني نفسي لأجلهم يتنازعون على من هو الأعقل والأكبر،لا يعرفون إلا الغيبة والغيرة. يعيشون على البسيطة يعض بعضهم بعضاً ويمطّ شفتيه للآخر، ويتشاجرون. ولماذا أذهب بعيداً ؟ في مقدمتهم عزمت جري، كل هذا يمكن أن تراه وتسمعه في سريتنا. وأنا ؟ وأنا كيف أخرج من قومي، وأين أذهب ؟ فضحتني الأفكار المتلاطمة التي غزت رأسي هذه الساعة. حسناً ليس الأديغة وحدهم: القوموق والشيشان والأباظة وغيرهم الذين كانوا يخدمون معنا أهُمْ أحسن ؟ أفسِحْ لنا خللاً يمكن أن ترى منه عيوننا لا نتركْ شيئاً لا نفكر فيه. كل الأقوام الصغيرة شغوفة بهذا.

اليوم، الليلة، الآن، حتى لو كان خان جري لا يود مقابلة القائد السابق للسرية. كيفما استقبله، وليقل له ما يريد، فلن يأكل خان جري ولن يقتله. مصباح عزمت جري مضاء؛ لم يستطع تجاوزه.

استقبله عزمت جري بوجه طلق وزي أديغي كامل:

_ تفضّل يا خان جري، تفضل! لم يمهل ضيفه حتى يستقر: _ كنت أنتظرك ولو كنت لا تريد لقائي الليلة. لا يا خان جري. لا ألومك، الأمر لا يتعلق بي وحدي بدءاً من عامة الناس وانتهاء بالقيصر، يجب ألا ينسى كل إنسان أنه سيأتي يوم ينهي فيه خدمته. ولذا، أنا أفرح بالمهمة التي أوكلوها إليك، فأنت بالقياس إليّ ما تزال شاباً في أول عمرك. وبما أن الحزن يسكُت حيث الفرح فمن يعرف متى يحدث هذا يوماً ما؟ أحب أن أحثّك على أن تفكِّر كيف ستكون نهاية خدمتك. لا أغِير منك، ولكن مع شيء من الحسد أغبطك على شبابك. إن أردنا الكلام تبعاً للزمن الذي نعيشه يا أخي الصغير فأنت متعلم ومتدرّب. نعم،نعم يا خان جري لا تقاطعني ! ليس الليلةَ فقط فكرتُ في ما أقوله لك. دعني أقول ما في قلبي. عبء الزمن الذي أحمله على كتفيّ مهما واسيت نفسي لم يقدّره أحد لي.أنت، بما أنك من نتاج العصر الحديث، أقول لك " مع السلامة " داعياً لك أن تعيش وقَدَمُ حصانك ثابتة وأفكارك عميقة. وألا تنخدع بكل ما تراه عيناك لأن العين خادعة أحياناً، بل فكِّرْ في كل ما تراه.

_ شكراً يا عزمت جري _ قلت لي كلاماً كثيراً ينضح عقلاً _ لم أتوقع أن تستقبلني بهذا اللطف.

_ ولماذا يا خان جري ؟ _ سأل عزمت جري باسماً.

_ لم أعرف خلال خدمتي معك سنتين ونصفاً أن قلبك نظيف نحوي بهذا الشكل.

_ لا أكتمك _ لم يغير عزمت جري الموضوع _ كان بيننا شيء من سوء التفاهم _ لم أقل لك سوى أن تتخلص مما لا يعجبني فيك، لم أتآمر عليك.

_ وحين كلّمني القيصر ؟_ بان حزنه عليه مرغماً.وسأل وهو يتظاهر بالمسكنة، ثم موّه بسرعة: _ لا ألومك يا عزمت جري؛ لم تقل لي ما يسوؤني.

_ في كل ما تعرفه عني _ ضحك عزمت جري بصوت ثخين متقطع _ لا أتذكر أني تصرفتُ معك أسوأ من تلك المرة. وبما أنني بدأت فسأكمل: سأكرر لك شيئاً مما قلته لك في ذلك اليوم.

_ دعني أقلْ لك أنا _ ضحك خان جري بسبب رجائه، ومع ذلك لم ينتظر الإذن من الكبير فسرد ما أحزنه دون إهمال شيء من التفصيلات؛كنتَ قلت لي " دون أن أعني أنك محظوظ، يتحقق لك كل ما تريد " ففهمتُ ما تقصد غير أنك ظلمتني في هذا.

_ حفظتَ أقوالي جيداً في قلبك _ ابتسم عزمت جري _ ما العمل ؟ من الصعب تخليص الإنسان من عيوبه. الإنسان يبقى في قلبه ما هو محزن أكثر مما يبقى السارُّ. إن كنت تعتقد أني ظلمتك فقد أفهمتني تلك الكلمات أنها كانت مشحونة باحتدادي وهيجان قلبي. والآن، وكما أتخيل، سأفصّلها لك: كنت كوّنت عنك في السنة الأولى فكرة أنك تتملق الضباط الكبار، تلتمع في عينيك رُتبُهم الذهبية. تتصاغر أمامهم عند الحاجة وعند غيرها. توافقهم في كل ما يقولون ويفعلون أكثر مما ينبغي. تحب المديح وتستمتع به.كنت ظننتك هكذا، ولكن لا أعرف،ربما أخطأت. أخشى أن كلماتي في تلك الأيام كانت مُرة، ولا تزال.

_ لا أعتب عليك مهما حدث _ تنهد خان جري واحتارت عيناه العسليتان بلون العيدان الغضّة. ثم، ولو أن ما سمعه لم يعجبه، " لا تعدمُ أنك وجدت فيّ شيئاً من هذا " قال في نفسه _ وأنا حدث أن فكرت في أقوالك أحياناً. وحين ذهبتُ إلى بلاد الأديغة لم تفارقني. وحين رجعت لم أكن أعرف ما ينتظرني.إن كان المقصود إخلاصي للقيصر الذي توجهت إليه بكلامي... وإن كان ثقتي ببنكندورف وثقته بي... ولكن لا أعرف لماذا لم يسألني عما يجري في المكان الذي رجعت منه _ لم يستطع إلا أن يقول ما يقلقه طوال اليوم.

_ القيصر الذي نخلص له أنت وأنا وكل من في السرية يا خان جري لا أريدك أن تُدخل في رأسك أي شك نحوه. ولكنّ في ما قلتَ أخيراً حول قائد جيشنا كثيراً مما يدعو إلى التفكير. ولكني لا أظنه يتصرف دون علم القيصر. الأفضل أن نحذر.

" ماذا يريد هذا الرجل أن يقول لي مهموماً بمستقبلي، يذمني حيناً ويمدحني حيناً، يحذرني من قادة البلاد " اهتاج خان جري ولكن لم يمهله محدثه:

_ يا خان جري لماذا نحن جالسان هذه الليلة دون مائدة ؟ ! افتح الزجاجة لنحتفل بمنصبك الجديد وبتقاعدي.

_ سأفتح _ وافق خان جري _ ولكني لا أشرب.

_ أعرف بعدك عن الشراب وعن التدخين وعن النساء _ ضحك عزمت جري.

_ على ما يبدو تعرف أعدائي. _ سرت ضحكة صغيرة على وجه خان جري._ ماذا يقال: الله يبتليك والناس يعيّرونك... ولكني لا أعدّ ما ذكرته من جملة عيوبي.

_ وأنا أعدها من محاسنك _ لم يغير عزمت جري كلامه _ ولكن حين تكون ضابطاً روسياً فإن عدم التدخين وعدم الشرب، دعْك من موضوع النساء، يحرمانك من المناسبات، ويجعلان الناس ينظرون إليك كغراب أبيض. وأنا في بداية خدمتي في الجيش الروسي، ومادمت لا أسايرهم في ما يعملون كانوا ينظرون إليّ النظرة نفسها. هؤلاء إن لم تعلم تقاليد اختلاطهم، بل شتائمهم ومسباتهم، وإن لم يؤمنوا أنك صرت منهم، لن يتقبلوك مهما كنت مهذباً ومهما كان مبلغ علمك. إن هددوك بقبضاتهم فأرِهم كيف تحطم أنوفهم. وإن مدوا أيديهم إلى مسدساتهم فقابلهم بمسدسك. أنا لا أتكلم في أمور لم أختبرها. لا تثق بأحد بل بنفسك ! _ هيا ارفع معي الكأس، لن تضرك، ستقول يوماً ما إن عزمت جري هو أول من سقاني !

قرر خان جري ألا يسمح للرجل الهائج أمامه ألا يسخر به وإن لم يكن يريد الشرب فرشف من الخمر، ثم زاد الجرعة.

_ ماذا ؟ _ سأل عزمت جري بعدما شرب الكأس بسرور_: ألم تعجبك ؟

_ والله لا أعرف، لم أنسجم معها، تفوح منها رائحة عناقيد العنب.

_ بديهي أن تفوح منها رائحة أصلها، ستفهم هذا أكثر حين تشرب الكأس الثانية. لم يُدخل قيصرنا وبنكندورف الخمر إلى القفقاس ومولدافيا والقرم عبثاً. ارفع الكأس وتحلَّ بالشجاعة أيضاً معها. من أجل عملك الجديد ليكون خيراً عليك وتندمج في محيطك، ليكونوا صادقين معك ولا يخدعوك سنشرب هذه الكأس.

ربما بسبب أنهما تكلما في موضوع منصبه الجديد _ ومن لا يحب المديح ومن لا يُلينه ؟ ! _ تجرأ خان جري وشرب الكأس.

_ الآن أرفع: رجولة، إنسانية _ امتدحه عزمت جري وقد هيّجه الشراب، وأضاف إليه شيئاً من العتاب:

_ أنجلس وأنا أشرب وأنت تراقبني ؟ املأ الكأس من جديد !

_ سأملؤهما _ قال خان جري وقد امتلأ نشوة _ ولكني لن أشرب غيرها !

_ الآن تقول هذا _ ابتسم عزمت جري مسروراً بتجاوب قائد السرية الشاب الجالس أمامه _ سنرى ما يحدث بعد قليل.

ماذا ينوي لي هذا الرجل فيُلحَّ على إسكاري ؟ _ سأل خان جري نفسه. ربما لأنه لا يطيق حلولي محله يلمّح لي متظاهراً بمدحي بما فيّ من عيوب وما ليس فيّ. منذ اليوم الذي وضعت فيه قدمي على الطريق الذي اختطّه لي والدي وجدّي لا أعرف نفسي قلت أو فعلت شيئاً من خارج قلبي. لا أقول إن كلامك ونصائحك تخلو من الخير، سيكون بينها ما سأفكر فيه وما سيقلقني. ولكن كيف يدخل موضوع قيصرنا وبنكندورف في الناس الذين أُخلص لهم ؟ خلال الساعة التي جلسناها أتى على ذكرهما، بشبه لا مبالاة، مرتين. لماذا لا أثق ببنكندورف ؟ لم يقل لي إلا ما هو لمصلحتي. يقول لي: لا تشرب في حين أنك تحرضني كي أشرب. إن كانت مشاعرك نحوي خيّرة، وإن كنت تقدّرني، فلماذا تهيّجني على من تحقد عليه كمن ينطح الجبل بجبينه ؟ إن كانت المشكلة أني قلت لك: لم يسأل الكونت عما يحدث في منطقتنا، فسيسأل عنها يوماً ما، وسأُطلعه على ما يعجبني وما لا يعجبني.

_ إذن لماذا أنت جالس هكذا يا خان جري ؟ املأ الكأسين !

_ لا ! سأقف عند هذا الحد _ ومثلما أخبر الكونت حين شرب الشاي عنده باكتفائه عن طريق قلب الكأس قلبها. ونهض بطريقة لفتت انتباه المضيف: _ كفانا سهراً.

_ أقلت لك ما يعيب ؟ سأل عزمت جري غير عارف سبب نهوض ضيفه.

_ لا يا عزمت جري ! لا يخطرْ لك مثلُ هذا ! أمامنا غداً يومُ عمل.

_ والله أنا أيضاً لست بلا عمل غداً _ نهض عزمت مثقلاً ببدنه السمين _ سأتابع بعض ما تبقّى أمامي من مهمات لأني مسافر بعد غد إلى ديارنا.

_ أتعود إلى القفقاس بهذه السرعة ؟

_ لا أفهم ماذا تقصد بالقفقاس، إنها واسعة _ ابتسم عزمت جري _ لا شك أني سأعود إلى إقليم الأديغة _ أنت ابتسم لك الحظ اليوم ولكني انتهيت من زمن بعيد. منذ اليوم الذي منحك فيه القيصر استراحة شهر. من يخدم في الجيش وأسرتُه في مكان آخر فما أسهل ما يجهّز نفسه ! إن كان رأيك هكذا فلتصبحْ على خير ! سنلتقي مرة أخرى. لن أتخذ طريقي من سان بطرسبورج وحيداً كأني مطرود _ بدا على لون عزمت جري وصوته أن ما يقوله،وإن كان يبتسم، ثقيل عليه.

_ يا عزمت جري يا كبير _ صرخ خان جري عند الباب على العادة الأديغية وهو مشفق على من يقف أمامه، ولكن بدا عليه شيء من المراءاة رغماً عنه _ ليس مثلك من يُلجئونه آخر الأمر إلى التضرع ! سأجعل السرية بكاملها تودعك.

II

في ربع القرن الذي عاشه خان جري نجا من ثلاث حروب، ومرت عليه أهوال كثيرة، والصراعات التي كابدها كثيرة،ولكن طريقة عيشه وخدمته لم تكونا توحيان بمثل هذه المعاناة. إنه ممشوق القامة بحيث تغبطه

إن كنت مسناً، وتنافسه إن كنت شاباً. وجهه طلق ودود، رشيق الحركة، يعرف كيف يصادق وكيف يعاشر الناس. يقود السرية بطريقة أنْسَتِ الجنودَ قيادةَ سلفه عزمت جري.

حين تكون شاباً وأنت في السلطة وأمورك ميسورة فالشهر ليس شيئاً بالنسبة إلى عمر الإنسان؛ قال خان جري لنفسه. ولكن يصدف أن يكون اليوم الواحد يعادل قرناً. إلى الآن لم يتوقفوا عن الحديث عن اليوم الذي انتصر فيه نابوليون، وعن اليوم الذي انكسر فيه. لم يكن تجاوز الخامسة والثلاثين حين أصبح إمبراطوراً. وقيصرنا كان في الثامنة والعشرين حين انتفض عليه الديسمبريون. وحين أعاد ماكيدونسك الوضع إلى سابقه كان شاباً. ولم يكن عمر باسكيفيتش حين استلم قيادة الجيش وولوه القفقاس بالإضافة إلى شمال القفقاس كبيراً بالقياس إليّ. ولذا لا ترتبط الشهرة والرجولة بالعمر فالأمر منوط في النهاية بالعقل والشجاعة مع شيء من الظروف المواتية طبعاً. كان عزمت جري قال لي " إنك تتقرب إليهم أكثر مما ينبغي وتتصاغر أمامهم " غير أنك لا تستطيع الارتقاء دون عقل. حتى لو كنت واثقاً تماماً بعقلك فمن دون مساعدة من بعضهم ودعمهم لك يصعب عليك صعود السلم. ومن هذه الناحية، والحمد لله، لا يليق بي أن ألوم الجميع كما يفعل عزمت جري. أموري ميسورة، ولولا الأحداث في إقليم الأديغة... ألم يأْنِ لهؤلاء وللأديغة أن يعودوا إلى رشدهم ؟ ! كأن ألكسندر كريستوروفيتش نسيني فهو يكتم أخبار إقليمنا. أمس، وأنا أبدّل حراس القيصر، قابلته غير أن لقاءنا اقتصر على إيماءة رأس باردة دون أن يقول لي كلمة. لم تكن هذه عادته، من يدري ماذا يجري ؟ ربما لم يكن منشرح الصدر !

نفد صبر خان جري فنهض واتجه إلى النافذة.

السرية في ساحة المشاة. اليوم استراحة الخيول. والجنود يتتابعون في أرتال، وتوغانوف أسلانبك والأفندي خوت على جانبه وسط العشب الوليد. وكأن رجلاً مهماً سيأتي لاختبارهم فالجنود يخدمون باهتمام بقامات ممشوقة وفي حركات أقدام متناسقة.

من هذا الذي يثير كل هذه الضجة ؟ _ ابتسم خان جري، وقال: لا بد أن هذا صوتك، وحين أمعن النظر فيه تعرَّفَه: إنه قاز جري[1] الذي أتى في الشهر الماضي، في الأيام الأولى من أيار، من البسلني ومنحوه منذ زمن قريب لقب الضابط حامل العلم. إنه يبدي نشاطاً ويبرهن على نشاطه برتبته. وهو يكتب كما أنتم وأنا. لا أعرف أين تعلم الروسية؛هو أمهر منا فيها مشافهة،ويكتب بها أفضل منا ! ولا يعرف ألكسندر كريستوروفيتش إلى الآن أن قاز جري يكتب. ولكن من سيخبرونه حاضرون. ولماذا ؟ إنه لا يكتب ما يعيب؛ سأكلف أحدهم أن يبلغه سراً، وسأتعرفه كما عرّفت شورا عليه. ولكن المسكين لم يأت من إقليم الأديغة بأخبار حسنة. أيمكن للبسلني والأباظة والنغوي والقرشاي أن يتركونا ؟ وأين يذهبون؟

[1] (1807 _ 1863): كاتب مهم أفرد محمد حفأزه له ولكاتب آخر فصلاً في كتابه: الأديغة المماليك ص 113، بعنوان: الكُتّاب الأديغة الأوائل. نالتشيك إلبروس عام 1994)

إنهم غير راضين عن تصرفات القيصر. إن لم تكونوا راضين، لا يزال أمامكم متسع من الوقت، فتفكَّروا وتشاوروا في ما بينكم وقرِّروا مصالحته ورشِّحوا له رجلاً تطيعونه. وهذا الرجل يجب أن يكون موضع ثقة القيصر أيضاً،لا ثقتكم فحسب. يا ليتني تكلمت الآن أمام اجتماع واسع للأديغة ! سأُطلع ألكسندر كريستوروفيتش الكونت بنكندورف على نيتي، وإن لم يفهمني فلن أتوقف عنده؛ فهناك من هو أعلى منه. ولكن قبل أن تُشهر نفسك ينبغي أن يظهر في إقليم الأديغة زعيم يسندك بأفضل من زعماء البجدوغ.

انتظرْ إذن إلى حين يخطر للأديغة الهائجي النفوس مثلُ هذا ! صرخ خان جري من قلبه متألماً. هذا يحتاج إلى استطلاع. من الصعب أن تجد شخصاً موثوقاً من الطرفين المتجابهين يحترمان كلامه. ليس لي هنا إلا بيروفسك وديسكاسي. أقول بيروفسك، ولكنه من بين الذين يطبّلون لانتصارات الجنرالات الروس في الحروب داخل البلاد وخارجها.وهو منذ سنين اختبرني بالأمراء والنبلاء البجدوغ، وحين لم ينجح الأمر تخلى عني.لم أكن أريده أن يرجو عني وأن يحميني، لم أكن مضطراً إلى هذا، ما كنت بحاجته هو كلامٌ فيه أفكار وشكوك. كان قد أكرم ضيافتي مذكّراً إياي بحروب الفرس والترك والبولونيين وأثنى عليّ وصرفني. لا يجوز معاتبة من في الجيش ولو عاتبت بيروفسك، ولو لم أعرف بنفسي لما قلته: هؤلاء محاربون محترفون، يحبون تبديل الرتب، أما رافائيل أفغوستينوفيتش فهو القريب من وساوسي.هو بدوره يبقي على العلاقة معي واعداً بالجواب خلال أيام، وهو حذر جداً. أفهم أنه حين تكون معنياً بالقضايا الدولية فلست كمن يخدم في الجيش، يجب الحذر في ما تقول وما تفعل غير أني لا أفهم مواعيده؛ كان قد قال لي: حين ترجع من سفرك إلى أهلك ستتكلم في قضايا الأديغة. وحين أخبرته بعودتي أجّل لقاءنا أسبوعاً. والعجيب أنه يقول " سنتكلم في قضايا الأديغة " وليس في قضايا الروس _ الأديغة. وبما أننا كنا اتفقنا على الاجتماع في الأسبوع القادم فسأرى كيف سيسلك معي. وموعده الأخير حدده لي بعد إخباره بما جرى لزانه سفربي. كان أوحى إليّ بأن لا علم له بالموضوع غير أني لم أصدقه.

دلف قاز جري مرحاً في المساء إلى غرفة خان جري بعدما انتهى الدوام العسكري، وسأله بالطريقة الأديغية:

_ يا أخا الأديغة؛ أليس لي الحق بعد الدوام في أن أكون حراً في حضرتك ؟

_ الحرية تعني أشياء كثيرة _ ابتسم خان جري _ هذا يتعلق بسلوكك، البولونيون أيضاً رغبوا في الحرية. كانوا عازمين على تقويض الدولة غير أننا منعناهم من مرادهم. الخدمة العسكرية لا تميز ليلاً من نهار، يجب أن تكون مستعداً دائماً.

_ فهمت، فهمت _ أجاب قاز جري بلهجة البسلني على عجل _ لا ضرورة أن تضيف شيئاً.. ومع ذلك أطلب منك بشارة.

_ أي بشارة ؟

_ لا أطلب الكثير، يكفيني كوبيك واحد.

ـ وأي خبر هذا الذي لا يساوي إلا كوبيكاً ؟ !

ـ لا تقل هذا ! أنت لا تعطي الكوبيك حقه، إنه يساوي دجاجة كاملة.

ـ حسناً، لنقل إنك حصلت على كوبيك؛ فماذا تفعل بالدجاجة ؟

ـ سأشمر عن ذراعي وأطهوها لك.

ـ وسأضيف إليه كوبيكاً آخر إن رافقته بالباسته.

ـ هذا سيكون أجرة جيدة، ولكني أطلب منك البشارة.

ـ قل لي يا قاز جري؛ أرأيتني تراجعت عن وعدي ؟

ـ ألا تترجى ؟ هذا أمر مختلف: " تاتيانا (ك)" اكتشفت بيتها واسم أسرتها.

ـ ماذا تقول ؟ ! جعل الخبر خان جري اللامبالي إلى الآن بما يسمع، جعله ينتفض، وينهال عليه بالأسئلة:

ـ من أخبرك،؟ وما اسم أسرتها ؟ وأين بيتها ؟

ـ خذ ! هذه الورقة فيها كل شيء. وسأقول لك من الذي عثر لي عليها: هذا الذي لا يعجبك: أندريه نيكولايفيتش مورافيير.

ـ ومن أين يعرفها ؟

ـ لولا أن أندريه نيكولايفيتش يعرف هموم أتباع الديانة المسيحية لما ألّف الكتب من أجلهم. ثم تقول لي: لا تُكثر من الاتصال معه !

تذكر خان جري وهو يضع الورقة في جيبه النُزُل الصغير حيثُ مشربُ الشاي في باتاييسك. وشخصت لعينيه كل المشاهد التي فيها تاتيانا كونستانتينوفا. وكان منظر الحداد أشدها رسوخاً في ذاكرته.

ـ أقلتَ شيئاً يا قاز جري ؟ سأل خان جري منتفضاً من أفكاره، غير أنه رجع إلى من جرى ذِكرُها له: ـ لا أقول إن أندريه نيكولايفيتش كاتب سيء ولكني أخاف أن يحبِّب إليك الدين المسيحي أكثر مما ينبغي.

ـ ثم سأل فزعاً من الخاطرة المفاجئة: ـ أيعرف أندريه نيكولايفيتش و تاتيانا أحدهما الآخر ؟ وكيف دلَلْتَه عليها؟

ـ سمعت أنه يسجل أنساب الضباط الذين سقطوا في القفقاس. فلما ذكرت له اسم تاتيانا كونستانتينوفا، ورويت له أنها جلبت جثمان زوجها هذه السنة، وكيف التقيتَ بها، استخرج من كتاباته اسم زوجها ونسبه، وعنوانها، ودوّن كل المعلومات في هذه الورقة. ولا تظنَّ أني توقفت في هذه المسألة عند هذا الحد. بل سألت عنها واستدللت على بيتها وعرفت كيف تعيش.

ـ أدخلت بيتها ؟

ـ ولماذا أدخل بيت أرملة لا تعرفني ؟ طلبت من جارتها العجوز أن تخبرني.

ـ ثم ماذا ؟

_ وماذا سيكون ؟ تاتيانا كونستانتينوفا هي الابنة الوحيدة للكونت سيدنيفسكا كونستانتين نيكولايفيتش. وكانت زوجة النقيب المتوفى. ولم يعيشا معاً أكثر من نصف سنة. وفيما عريسها يحارب في جيش ريابينينا فيلياميتوف قتله الشابسغ قريباً من أبنه. والآن تعيش وحدها ولا تزال في ملابس الحداد. وإن كنت تود لقاءها فأنا حاضر منذ هذه اللحظة.

_ لا، لا ! _ صرخ خان جري كأنهم يسلبونه ما كان مفقوداً وعثر عليه، وحين انتبه إلى نفسه شعر بالخجل _ بأي حجة سنزور الأرملة الشابة ؟ ! وماذا إن قالت لنا إن أقرباءكم الأديغة فجعوني؟

_ إن قابلتنا هكذا _ بردت نظرات قاز جري في هذه اللحظة _ ألا تعرف بِمَ تجيبها ؟

_ أعرف، أعرف... _ قال خان جري فجأة، ثم بصوت هادئ ناصح: _ نحن ضباط روس، الأفضل ألا نتعلق بأي مسألة من هذا النوع... عندنا أرامل مثلها في نواحينا أيضاً.

_ أليس هذا ما أفكر فيه أنا أيضاً ؟

_ فكر إن أردت ولكن لا تُسمع أحداً هذا الكلام !... حسناً يا قاز جري _ غيّر خان جري موقفه: _ متى وجدت هذه المعلومات ؟ ولماذا لم تخبرني إلى الآن ؟

ابتسم قاز جري بطريقة ماكرة:

_ هذه المعلومات حصلت عليها البارحة في وقت متأخر جداً. لم أشأ أن أسبب لك الأرق... فكرت أن أخبرك صباح اليوم ولكن ألست أنت من يقول إن مقتضيات الخدمة فوق كل شيء ؟ ثم ألا تعرف نغومه شوره، كم هو متعلق بالخدمة ؟ نصَّبْتَه قائداً علينا يحبس عنا الهواء طوال النهار.

_ لا ترو أخبار تاتيانا لأحد !

_ وأنت ألم تُخبر شورا ؟

_ ما أخبرتَ به شورا وما استودعتَه في الصندوق سيّان. إن لم تكن رويت لصديقك الكاتب مورافييف ؟!

_ لا أريد أن تنظر إليّ هذه النظرة يا صاحبي !

_ حسناً إذن !

_ ليس أندريه نيكولايفيتش على هذه الدرجة من السوء التي تتصورها _ غمغم قاز جري قائلاً لنفسه، مُسمعاً صاحبه دون حقد.

حين بقي خان جري وحده في الغرفة لم تدعه أفكاره يرتاح حتى صلاة العشاء. ظل في الغرفة المظلمة يذرع أرضها. وجلس مدة على المقعد الوثير وذراعاه معقودتان على صدره. ثم نهض ووقف إلى النافذة لأياً يغبط الأضواءَ القريبة والبعيدة المتلامعة، والأفكارُ المتناقضة تثور في صدره. وحين أضاء المصباح وتوضّأ،فوقف على سجادة الصلاة، لم يكن في ذهنه إلا الورقة التي في جيبه. ولم ينسها إلا حين وقف في حضرة الله ودعا إليه. أنسيها أم كتمها في الصدر ؟ أيُّ هشاشة هذه التي تُفقدني السيطرة على نفسي ؟ غضب خان جري على نفسه. ماذا جرى لي الليلة حتى فقدت احترامي لنفسي ؟ أأقتل نفسي على" تنورة إحداهن" كما

قالت نانا في موضوع أنفيسكا ؟ بأي نظرة سينظر إليّ أصدقائي ؟ أأعجز عن لجم قلبي ؟ هذا عيب! شكراً يا قاز جري، تفهمتَ لهفتي وما كنت لتقصِّر حتى لو لم أرجُك. لم تألُ جهداً. ليس لأني لا أثق بك، ولكني أشك في أن تحتفظ بالسر حتى وإن أحسنت إليّ. ونغومه شوره ؟ إنه يكبرني كثيراً. والأفضل ألا يعرف عني مثل هذا.

أمسك خان جري الرسالة التي أتت من البيت قبل أيام قاصداً إبعاد أفكاره الثقيلة. ثم وضعها بعدما مرّ عليها مرة أو اثنتين لأنه لاشيء فيها لا يعرفه. تذكر في هذه اللحظة زانه سفربي غير أنه غاب عن الذهن بسرعة خلافاً لما كان في السابق، فأنزل كتاب بوشكين من الرف، وبدأ يبحث عن قصيدة " أسير القفقاس" وفي هذه اللحظة ارتسمت أمام عينيه الفتاتان اللتان فتحتا مثل هذا الكتاب وهما على مقعد في ضفة نهر النيفا. وظهر من بينهما الفتاة التي كانت ترفض الظهور أمامهما.

تحلَّ بالصبر ! لا تجلب لنفسك العار ! أمسك خان جري الرسالة قليلاً ثم ركنها. أتناسى ما أكّدت عليه أمي ونانا بشأن النساء. ما العجيب في أن لا تكون المرأة من غير جنسك ؟ ألا تعايشك لأنها تتكلم لغة أخرى ؟ أهو الدين ؟ غير أن الرحمة لا تميز بين الأديانِ، والأعراقُ كالشمس التي لا تعرف تمييزاً بين البلدان، وبين الفقراء والأغنياء. هي بالنسبة إلى بعضهم دافئة وعادلة، ومخصبة للأعراق، وبالنسبة إلى غيرهم مذنبة وباردة بخيلة. لم أعجز عن فهمِ ما لمّحتما به إليّ، غير أن ابنة آل بولت لا تصلح لي.لا أقول إن كلماتها التي جابهتني بها تخلو من الصحة. لو تفهّمتني تبعاً للموقف الذي أنا فيه لعددتها لها نوعاً من الفطنة. ابنة آل بولت معتدة بجمالها وفطنتها، قتلتني دون حاجة إلى سيف أو مسدس، وأهانتني إهانة لا أستطيع ابتلاعها. أكره أن أصرّح بهذا الكلام ولكن في أي شيء تتخلف نساء المنطقة التي أخدم في جيشها عن ابنة آل بولت ؟ ليتني دعوت بولت يوماً إلى الاحتفالات التي يقيمها القيصر وزوجته ! لكان نسي ابنته والمرأة التي ولدتها له ! إلى جانب تاتيانا،رغم أنها أرملة وفي الحداد،لن تجد تلك التي عيّرتني برتبتي مكاناً لها إلى جانبها. ولكن، خرج الصوت من صدره وكأنه ليس له: أنسيت أنها ثَيِّبٌ وأرملة ؟ وما العجيب في ألا تكون بِكراً ؟ نهض فجأة وخرج مسرعاً وهو يلبس صداره.

كانت مصابيح البيوت في أوجها رغم أن الوقت متأخر جاوز العشاء.وكانت نجوم السماء تؤازرها. والهواء البارد اللطيف يرفع نفسه عن الأرض.وأصوات العربات والسائسين تُسمع من بعيد ومن قريب.

على ضفة نهر النيفا، وعند حديقة الأشجار الصيفية، لا تتسع السماء الواسعة لأصوات الناس المرحة لأن الغد يومُ عطلة.

أوقف خان جري أول عربة صادفته، وقال للسائس:

_ امض إلى شارع ليتينا، البناء الثاني عشر _ تأكَّدْ من رقم البناء تحاشياً للخطأ. ولمح للسائس إلى عدم خبرته بالمكان المقصود: يفترض أن يكون في زاوية الشارع.

_ إن كانت قريبتك تنتظرك أيها الروتميستر المحترم فلا بأس. أوصلك راكباً حتى دون أجر _ امضِنَّ يا أرجلي السريعة ! وأردف السائس ملتفتاً: _ ولكنهم لا يعطوننا الشوفان دون مقابل.

ذكّر غناءُ السائس خان جري بما كان يسمعه في طفولته من أغان للنغوي كان يترنم بها والده فارتفع رأسه فجأة، وسأل شارداً بلغة النغوي:

_ أأنت تتري ؟

_ نعم أنا تتري _ التفت السائس العجوز _ وهل أنت تتري أيها الروتميستر ؟

_ لا، أنا أديغي، لست تترياً !

_ ظننتك نغوي لأنك تكلمت بلغتهم.

_ سألتك لأني أعرف بضع كلمات فحسب.

ثم أجاب مَن في عرقه شيءٌ من دمه بلطفٍ أكثرَ:

_ يسرني أن تكون أديغياً حتى لو لم تكن نغوي. سمعت جدي يتكلم كثيراً على الأديغة بخير. أصحيح أن الجيش الذي تنتمي إليه يشن عليكم حرباً ؟ أراك لا تعلّق بشيء على ما أقول أيها الروتميستر، قال السائس بعد قليل.

_ لا أعرف إن كانت حرباً _ ندم خان جري على اتخاذه السائس الذي لا يعرفه محادثاً _ ليس سراً أن جيشنا في القفقاس، لا عجيب في هذا. لا تدعنا نتكلم في مواضيع غير ضرورية !

_ إن كانت لا تهمك فأنا من لا تهمني البتة. نحن عملُنا الجلوسُ في كرسي القيادة وحثُّ الخيل _ عجّل السائس بالخيول وجلس وكأن شيئاً لم يحدث، وعاد يترنم بأغنيته، غير أنه كان واضحاً أن الجمال غاب عن لحنه.

إن رجعت نصف ساعة فإن القلب الذي ضاق الصدر به فأرغمه على الخروج إلى الشارع في الليل قد صغر الآن. والعربة التي يجلس فيها ضاقت عليه. والنجوم تنظر إليه بلا مبالاة من سماء الشمال. وأغنية السائس وما فيها من تعابير الحب ثقلت على القلب. وكفت حوافر الخيول عن التناغم.والعجلات لا تكاد تدور.

ما لمح به إليّ السائق صحيح ولو قلت له إنه لا ينبغي أن يتحدث في ما لا يجب الحديث فيه. غضب خان جري على نفسه. نحن نسكت وهناك ما يمنعنا من الكلام ولكن ماذا تفعل بهؤلاء ؟ أيمكن أن تغلق أفواههم ؟ يعرفون ما يجري في البلاد، يميزون البريء من المذنب دون حاجة إلى مناكدتهم. وبصائرهم تمتد إلى أبعد من مقاعد عرباتهم. ألم تسمع جوابه المبطن ؟ إنه مهموم بقضية الأديغة وهو في شوارع سان بطرسبورج. ربما لأني أخبرته بأني أديغي، ولو لم أقل له أصلي بوضوح فإنه يعرف شيئاً مما يحدث في نواحينا ويقلق له. ليس هو وحده؛ قبل أيام أوقفني عجوز روسي على ناصية شارع، وأظنه من أنصار الديسمبريين، وشرع يلومني على ما يحدث في نواحينا. وحين لم أوافقه قال لي " رتبتك أعْمَتْك ". هذا السائس النغوي

الخبيث سخر مني قائلاً: " إن كان الموضوع لا يهمك فأنا من لا يهمه البتة ! " في الوقت الذي أبحث فيه عن إحدى الأرامل؛ ما الذي أبحث عنه ؟

_ أوقِفِ العربة ! صاح خان جري بالسائس.

_ لم نصل بعد أيها الروتميستر ذلك هو البناء الثاني عشر.

_ الوقت متأخر، أعدني إلى حيث ركبت معك !

_ أنت صاحب القرار أيها الروتميستر، كما تريد _ قال السائس الجملة الأخيرة بلغته.

_ لمن قلتُ إنني لست من النغوي ؟ كُفَّ عن الغناء بهذه اللغة !

_ ألست حراً في غنائها في قلبي ؟ رد السائس على الكلمات الجارحة، وحثّ الحصانين.

_ توقف حالاً ! صرخ خان جري غاضباً على السائس. خذ هذا ثمن علف أحصنتك، واحتفظ بالباقي !

_ لماذا أنت غاضب أيها الروتميستر ؟ بما أننا أنا وأنت من الأقليات مزحت معك واثقاً بتعاطفك. إذن كيف سيفهمنا سكان هذه المدينة أصحاب البلاد وكيف نتفاهم معهم ؟ !

_ أنت مخطئ ! _ حتى لو سميت رتبتي فإنك لم تفهم _ أوقف خان جري العربة التي كانت تجري إلى جانبه.

III

أفرح خان جري خبرُ إيفاد أباته بسلني مع الفتيان للدراسة في المدرسة الحربية بناء على رغبة القيصر. ولكن حتى لو لم يكن على علم بما حدث للرجل الشابسغ العنيف إلا عن طريق الأقاويل فقد تعجب من قبوله بمثل هذه المهمة.

كل ما جرى لأباته بسلني في الشابسغ سببُه أخوه الأصغر وبيخ. وإن تعمّقْتَ فالذنب على الضابط الروسي نوفيسك. وإن استقصيت فالبداية من المرحوم والده قمجري.

حين استوطن القوزاق أرض الأديغة يمين ضفة نهر بشزة كان بين الطرفين بضعة رجال يخونون طمعاً بالمال رغم أن الطرفين كانا متجابهين يتنافسان على الاستقامة والقوة.وبين الشابسغ كان أباته قمجري ممن له أسرار مع القوزاق.

ارتبط الرجل بالقوزاق قائلاً " ما العيب في أن تخبر القوزاق أن عدداً من الأديغة سيغيرون الليلة عليهم فيُفزعوهم ويردوهم وتنتزع منهم هكذا سومةً ؟ " فأصبحَ غنياً ريثما كبر ابناه. ولم يكن هو كارهاً للإغارة ولكنه لم يكن يخبر القوزاق حين يكون في عداد المغيرين. وكان مستقيماً مع قومِه، وشجاعتُه واضحة. وحين يكتشفون طريق المغيرين ويطاردونهم كان يقول " ربما بينهم واحد من أمثالي " فيشكُّ في جميع رفاقه. وحين شرع ابناه يتخذان إهاب الرجال بدأ يتحلى بمزيد من الصبر. ولما صارا رجلين يتبنى الناس أقوالهما وأفعالهما، ولا علاقة لهما بالقوزاق، وصارا في عداد البارزين في المجتمع الأديغي، المخلصين للقضية الأديغية

كفّ أباته قمجري عن التطلع إلى ما وراء النهر،واعتزل عمله معتقداً أنْ لا أحد يعرف سره. فكيف تفهمُ قولهم " اسلك طريق والدك القديم، وحافظ على صديقه القديم ؟ "

كيفما كان قلب أباته وبيخ الأديغي فقد اكتسب طبع والده منذ عامين متخلياً عن ميزات أخيه الرجولية. حين اكتشفه القوزاق وأغروه بالمال، وإن كانت ضربة السيف لا تقع على سابقتها تماماً، دار بمسؤول الجيش الروسي في الإقليم الأديغي من القفقاس نوفيسك الذي يرتدي زي مولى أديغي، متعامياً ومتصاماً،بدءاً من بروشنوكول مروراً بأنابه وانتهاء ببيتاغورسك.

وحين دخل الجيش الروسي أرض الشابسغ بعد مدة غير طويلة من ذلك الحدث كان أول من شكّوا فيه هو وبيخ. وظهر شهود على شكوكهم. وأثار هذا السلوك الخياني كل الشابسغ، وهجموا على آل أباته فهرب الأصغر، وألقي القبض على الأكبر بسلني.وقيدوه وألقوا به في الخندق، وكان أحد المسنين الذي زار بسلني قد قال له حاقداً: "كنت تريد أن تأكلنا ولكنك كنت نسيت أن الذئب النهم يقع أخيراً في الحفرة " أجاب بسلني العجوز "ولأنك لا تملك إلا عيناً واحدة بدلاً من العقل آمنتَ بهذا " _ ولكن كان بين الشابسغ من لم ينس رجولة أباته بسلني: فعملوا على إطلاقه. غير أنّ أعداءه رجعوا واعتقلوه، وحين لم يقبلوا منه أن يحاكموه أمام محكمة شرعية تبتّ في شأنه لم تخذله رجولته هذه المرة أيضاً، فأردى ألدّ أعدائه وهرب للمرة الثانية رغم الحراسة المشددة والقاسية عليه. وفهم بسلني أن الزعيم الذي أشاعوا عنه مثل هذا الخبر السيئ لا يمكنه أن يعيش في بلاد الشابسغ، فتوجه بأسرته إلى قوزاق إيكاترينودار حيث سبقه أخوه الأصغر.

" لو كانت حياة الإنسان تجري كما يشتهي !..."_ جعلت الأفكار الكئيبة خان جري يزفر _ انظر الآن: في المكان الذي تحرق فيه نار الحرب أرض الأديغة يقود بسلني فتيان الأديغة إلى المدرسة الحربية ليكلف بتربيتهم قيصر الروس الذي ما أطاقه يوماً . على ما يبدو فإن قولهم " لا تفعل الشر منتظراً الخير " صحيح. وأنا ؟ كيف أرى نفسي إذن ؟ أقول هذا ولكن كيف أقارن نفسي ببسلني ؟ طوال حياة أسرتنا نحن في الجيش الروسي. والأديغة الذين كان مرجان يتحدث عنهم إذن ؟ ولقب " النغوي " الذي كان ينبزنا به بفوق وبامبت ؟ ونسبي ؟ أنا أستمد شجاعة من وقْعِ هذا الاسم غير أنه ضرني أحياناً. ألأني مهموم بما عيرني به السائس التتري ؟ هذا موضوع لا يمكن تجاهله. ولا تخلو الحقيقة مما لا يعجبك. لا يعني حَمْلي نسباً من القرم أني من النغوي. لماذا إذن مهموم بأصلي الأديغي ؟ ها أنا لا أعرف ماذا يجري في نواحينا ! وأباته بسلني له قلب أكثر " أديغية " مني ومع ذلك جعلهم، بإرادتهم أو بدونها، يتخذونه موفداً. لا تنقطع رسائل جدتي وأمي وإخوتي الصغار ومع ذلك لا أظنهم يكتبون لي الحقيقة العارية. والأيام التي يستقبل فيها القيصرُ قائدَ الجيش الروسي الكونت شيرنشيف تزداد باستمرار، والكونت بنكندورف لا يفارق بابه. وعدد الضباط المرسلين إلى القفقاس يزداد... مهلاً، مهلاً، لا تستعجل ! ما حال بسلني الذي سيجيؤني بالنبأ اليقين ؟ لم أره في السنوات الأربع الأخيرة. وحين رجعت إلى بيت أهلي لم أسمع عن

الأخوين ما يسوء من قبيل أنهما لجأا إلى القوزاق. أنا أبخع نفسي لأني في الجيش الروسي غير أن من المحزن أن تحُالِف الروس على طريقة الأخوين أباته. لو لم تكن الحرب دائرة في إقليم الأديغة لما كان هناك شيء يدعو إلى السعادة أكثر من أن تكون موضع ثقة سلطانك وحاميه، وما كنت لأهتم بكل ما يهمني. لو لم تكن مجنوناً لما أفنيت نفسك في عناد قومك وهياجهم. وإن قلت هذا لنفسي فما قاله لنا الجنرال بوربوف في الكلية الحربية صحيح " نهض خان جري، وقبل أن يجد الفرصة ليهدأ قلبه جعله صوت العربة ينظر من خلال النافذة.

لم يتعرف خان جري الرجل المتوسط المتين المرتدي زي الأديغة. يحاول أن يشبهه بأحد عناصر السرية القفقاسية ولكن ليس في السرية من يشبهه هيئة وعمراً. ممشوق القامة بعكس ما يوحي به عمره، ورأسه منتصب وخطواته واثقة، والقامة غير الكبيرة المعلقة بالزنار الفضي لا تهتز. ثم صرخ وقد تعرف من كان بدأ يشك فيه:

ــ انظر من أرى ! أهذا أنت يا بسلني ؟ ! هُرع لاستقباله خارج الغرفة ــ أهلاً بك يا بسلني ! ألصق وجهه المحلوق حديثاً بلحية العجوز وعانقه بحرارة.

حين ابتلّت لحية بسلني قال لخان جري وهو ينتزعها منه:

ــ كفى يا خان جري ! ألست رجلاً يا ولدي ؟ ــ ورغم أن عيني بسلني كذلك أجهشتا بالبكاء فقد كظم انفعاله ومزح معه: ــ أظن لحيتي الخشنة وخزت عينيك. لا أدري إن بان عليّ أيضاً شيء من الضعف. هيا يا خان جري مُرهم أن يُنزلوا من العربة الحلوياتِ التي أرسلتها لك جدتك. حسناً، حسناً؛ قانتات ووالدتك وأخواك وزوجة شواي وقايمت وحاج قسي، كلهم بخير. أما شواي فسنتكلم في شأنه فيما بعد ــ وحين رأى أن كلامه غيّر لون خان جري أضاف: ــ لا، لا، هو أيضاً بخير وفي أحسن حال. لا أدري يا خان جري ماذا أقول ولكن رغم أننا في حالة صراع فقد جئتك بأحد عشر فتى نشيطاً. لا أعرف إن كانوا إليك ــ أضاف بعد قليل: ــ جئت بهم إلى القيصر، لم يتعبوني في الطريق الشاق الطويل، اعتنوا بأنفسهم، لم يبك أحد منهم؛ أسعَدوني !

ــ أين هم يا بسلني ؟ ــ سأل خان جري متظاهراً بأنه لا يشم روائح الصناديق التي يحملونها إلى الغرفة.

ــ لا تقلق على الفتيان ! وصلنا في الفجر فسلمناهم إلى المدرسة. كان برفقتنا ثلاثة ضباط روس. وهؤلاء أطعموا الفتيان وهيؤوا لهم مكان النوم. وبالإضافة إليّ هناك مربيان مع الفتيان. لا داعي للقلق. حمانا الله الكبير من مخاطر الطريق. اسمح لي أن أتوضأ يا خان جري حتى لا تفوتني صلاة الظهر.

ــ ألا تتناول شيئاً من الطعام؛ وصلت للتو !

ــ لا، لا وقت لنا، وأنا لست نهِماً. تناولت صباحاً قطعة من الجبن المدخن، وهي تكفيني طوال النهار. ليس هذا موضوعنا، أريد أن أسألك أتصلي لله العظيم أم نسيت دينك ؟

ــ لا يا كبير، لم يخطر لي مثل هذا إلى الآن !

_ حسنٌ. من يعرف ؟... توضّأ إذن وقف إلى جانبي !

لولا أنّ شعْر بسلني ولحينه تشعّثا قليلاً في بضع السنوات التي غاب فيها عن ناظري لقلت إنه لم يتغير فيه شيء رغم تجاوزه الستين. تركيبه الجسدي، وسرعته في الكلام، وعيناه السوداوان. الرأس المستدير تعلوه جبهة معتدلة. وكساؤه بلون الحشيش اليابس، والقبعة المناسبة له تطوي تحتها الأذنين. والأنف شبه المرتفع منسجم مع حواجب غير كثة. وفي عينيه شيء من الخبث، وتبثان فيك دفئاً محبباً. لا تمل منه حتى وإن لم يتحدث غيره. يزن كلامه قبل أن يخرج من فمه ويشحنه أفكاراً، ويقدِّر نفسه. بديهي أن عدم انسجامك مع القوم الذين وهبتهم قلبك وروحك أكثرُ من مأساة. حتى لو فارقت الحياة وانحلت عظامك في التراب فلن ينسوا هذا الاسم المهين إلى أن يفنى نسبك. وحتى بعد أن ينقرض أصلك سيبقى في قريتك، وسيولد فيها، من لا ينسى هذا الاسم. حين يظهر في الأسرة خائن أو جبان يشبهونه بك، وستبقى بينهم دمغة لم تصنعها يد.

جفل خان جري كأنه يعني بأفكاره شخصه هو. ونهض نافد الصبر حتى إنه لم ينتظر ماء الوضوء ليجفّ، مستعجلاً الوقوف على سجادة الصلاة، ثم وقف إلى يسار ضيفه.

نهض بسلني عن السجادة لحظة شروع خان جري بالركعة الثالثة. واقترب من النافذة. ووقف يتأمل الأبنية الكبيرة في القريب والبعيد. لمح إلى اليسار، وعلى مسافة أبعد، قبة مدببة بلون ذهبي. فهِمَ أنها تشبه الكنيسة القوزاقية التي في إيكاترينودار. وكان الأنسب ألا يراها ولا يتذكرها بعد ما انصرف من أمام الله، وفي الدقيقة نفسها التي يصلي فيها خان جري.

قال أباته بسلني: اغفر لي وارحمني يا ربي ! لا أظنني لمحتها دون علمك، وبدون علمك ربما ما كان والدي ليتصرف سراً. وبعد سنوات كثيرة تصرف أخي الأصغر كما والدي. أنت تعرف أن لا علاقة لي بهما. اتهمني أبناءُ قريتي والأديغةُ ظلماً بَيْدَ أني أعرف نفسي. ولكن كيف أُفهِم أبناء قومي الذين لا يثقون بي ؟ ليِّن قلوبهم لي ! ولا تدَعْهم يتهمونني بما لم أفعل ! لا تدعهم يتكلموا عليّ بالسوء! أفهم أن اتخاذي من هذه البلاد ملجأ ليس صحيحاً. ما أعجب ما استقبلنا به السلطان التركي حين أوفدونا إليه؛ فقد أصمّ أذنيه عن مطالبنا ! لماذا لم يعاملنا إخوتنا في الدين بشيء من الإنسانية ؟ والآن ها نحن جئنا بفتياننا المسلمين إلى بلاد المسيحيين ! أنا واثق أن هؤلاء لن يتخلوا عن قوميتهم ولا عن دينهم.وكنا قبلُ مستائين من أن خان جري الواقف في حضرتي اختلط بهؤلاء في طفولته، ولكنهم لم ينزعوا قلبه ولم يلتهموه ولم يذُبْ فيهم.

" ما أطول صلاة مضيفي ! " قال بسلني والتفت إلى خان جري، وكأن الآخر سمعه فقال بسلني له:

_ أحسنت يا خان جري ! لم تنس قوميتك ولا دينك في المدينة التي تكثر فيها الكنائس والتي رماك الله إليها _ وأضاف بين الجد والمزح: _ بالنسبة إلى صلاتي فأنت تبالغ فيها.

ـ بعد أن أنطق الأدعية بالعربية ـ وكأن خان جري ينتظر هذا التعليق: ـ أدعو إلى الله باللغة الأديغية أيضاً.

ـ ماذا أسمع في شيخوختي ! ـ صرخ بسلني بصوت يقدّر قيمة صاحبه وإن تعجّب مما سمع وسأل: أيعرف الله الأديغية ؟

ـ الله يفهم أي لغة تدعوه بها، يقول القرآن، وكانت نانا تقوله لي. غير أني أقول لك الحق: لا أريد أن أنسى لغتي.

ـ أحسنت يا خان جري ! ـ قال الضيف من أعماقه وإن ابتسم ـ أنت بالمقارنة بي أديغي حقيقي.

ابتسم خان جري ولم يعلق على ما سمع.

في اليوم التالي، وبعد الإفطار، سأل أباته بسلني:

ـ لم تسألني يا خان جري وأنا الذي سهّرتك طوال الليل: لماذا هربنا، أعني الأخوين أباته ؟

ـ ليس لأني لم أحزن لما حدث لكم يا بسلني ـ أضاف خان جري بعد قليل: ـ إن أردتَ الحقيقة، سواء أكنتَ بريئاً أم مذنباً، ففي أسرتنا اعتدنا على هذا. من البؤس أن يصفك قومك بالخيانة.

ـ ما الذي يجمع بيننا وبينكم ؟ ـ تنهد بسلني بثقل ـ أنتم تتصرفون علناً مهما قيل فيكم... نحن... والله لا أعرف كيف أقوله.

ـ أفهم يا بسلني ـ استعجل خان جري، مشفقاً على ضيفه، قائلاً في نفسه: لم يكن من المناسب أن نتكلم في هذا الصباح الخريفي الجميل في هذا الموضوع، ولكنه لم يغير موضوع الحديث غير السار الذي بدأ: ـ من الصعب المقارنة بين أباته البطل وأباته الخائن. ليس سهلاً على أصدقائكم وعلى أعدائكم تقبّل هذا. لو لم يكن في سلوك وبيخ أسرار ورشاوى لكان أفضل. ما الفائدة في أن تركض وراء ما فات. لماذا نحن في الغرفة في هذا الصباح الجميل يا بسلني ؟ امضِ معي؛ لن ندع استراحة الأسبوع تمر سُدى. سأنزهك في المدينة قبل أن تقابل من ستقابلهم. صحيح كما يقول توغوظقوه قازبك: حتى لو لم يكن عندنا بيوت جميلة من الحجر فنحن لم يقذفونا إلى الدنيا بشوكة خشبية، ولم نهبط من السماء.

في اليوم الأول، وخلال طوافهم به في المدينة، لم يكن أباته بسلني يعلق كثيراً على ما يرى.وحين ناما، خلافاً لليلة الأولى، لم يتكلم إلا مرتين أو ثلاثاً من خلال الباب المفتوح. ما حدث لآل أباته في السنين الماضية، والذي كان يقلقه أمس، والليلة، واليوم، ولم ينته الحديث فيه مع مضيفه،أجاب عنه فجأة وهما يجتازان بوابة مجلس الشيوخ:

ـ أفكر يا خان جري الآن في ما فعله بنا وبيخ أخي الأصغر فلا أبرئ والدي المرحوم من قسط منه. ما حدث ليس خيراً، مأساة عظيمة. ولكن لي فيه أيضاً حصة من الخطأ. حين رأيت في بيت وبيخ الضابطَ نوفيسك وأطلعني على مراده فما أملاه عليّ شعوري القومي لا أستطيع إصلاحه: ليتني صفعت أخي أمام ضيفه على ذنبه !ولكن من كان يعرف إن كان وراء هذا السلوك الشائن رشوة ؟ قلت له مؤكداً " إن

كنت وعدته أفلست أديغياً، ألست رجلاً فنفِّذْه حتى لو غامرت بروحك! ولكن لا تَعُد بعد الآن إلى مثل هذه السخافة " هذا يا خان جري ما جناه عليّ تكلُّف الشعور القومي، والخطأ الذي تسبب لي فيه.

" أهو خطأ أم شيء لا تعرفه داخل قلبك ؟ "كان بود خان جري أن يسأل من يجلس إلى يمينه ولكن لم يجد الفرصة ليقول ما لا يراه مناسباً؛ قال بسلني:

_ حقاً يا خان جري منذ البارحة نمر بجانب النهر العظيم ولا تقول لي اسمه؛ أوقف العربة لحظة _ وفي هذه اللحظة صدر من جهة قلعة بيتروبافلوفسك طلقة المدفع التي تشير إلى الساعة. نظر بسلني نظرة ماكرة إلى خان جري وغنى بصوت محبب وهو ينزل من العربة: _ " في بتربوف المدينةِ الكبيرةِ يطلقون المدفع الكبير".[1]

---

[1] " ماذا تفعل ؟ " يكتب خان جري تحت عنوان " أخبار أباته بسلني ": _ شرب من الماء البارد براحتيه، وحين بدأ يصبه على وجهه صرختُ به: " ماذا تفعل ؟ " قال بسلني مرحاً معتداً بأنه رأى البلاد التي لم يدخلها أحد من قومه والتي تروى عنها أخبار كثيرة: " مهما كان والدي معروفاً من الناس، ومهما كانوا يُثنون عليه فإن أحداً من الكبار الذين خرجت منهم لم يشرب من ماء نهر نيفا "

كان لرفيقي، طوال وجودنا في المسرح، هيئةُ من ليس مسروراً بشيء. تعجبت من هذا وسألته عن عدم حماسته لما يرى " أتعجب من كل ما رأيت لأني لم ألاق مثلها في أي مكان. ولكني أحرص على إخفاء هذا الإعجاب عن الروس، وإلا اعتبرونا خارجين من الكهوف. وربما ظنونا لا نعرف شيئاً"

وفيما أنا أحقق لبسلني رجاءه بكل سرور كنت أريه أشياء عجيبة من العاصمة. كنا مرة في زيميريا أفوريس (اسم مكان) ولكننا لم نكن وحدنا فقد كان معنا من عناصر السرية عشرون ممن تصدر عنهم أصوات إعجاب عالية حين يرون الأحجار الكريمة كالألماس والياقوت. بسلني وحده لم يكن يتعجب من شيء. دخلنا القاعة التي فيها صور الشخصيات، وسأل بسلني للتو عن سبب جمعها. وأنا أشبعت فضوله، فقال بحماسة " ما أحسن هذا ! " صحيح أن كثيراً من الجنرالات ماتوا، وأن آخرين هرموا، أولاد الراحلين يتأملون صور آبائهم إذا جاؤوا إلى هنا فرحين، ويرفع هذا من معنوياتهم.ويتذكرون الأعمال النبيلة التي قام بها المسنون فيشعرون بالسعادة.ابتسم بسلني:" نحن _ المسنين _ نحب الحديث عن الماضي، ولن يثني علينا أولاد المستقبل. " _ إن كنت تعرف _ فكَّرَ قليلاً: نحن الأديغة، أقسم أنهم أشجع من في الأرض، وفي الوقت نفسه أبعدهم عن التفكير: هؤلاء لا يجبرهم أحد على الذهاب إلى الحرب. يستعجلون مجابهة الأهوال. يحاربون بإرادتهم ويموتون. وجرحاهم لا يحصلون على أي مكافأة. وقتلاهم لا أحد يتعهد أسرهم. إن لقبوهم بالشجعان كان هذا مكافأتهم. ومن أجل هذه الكلمة وحدها يهجمون على الموت المحقق. والأقوام الأخرى لها وضع مختلف: هؤلاء يؤمرون، ويُجبرون على الذهاب إلى الحرب. وبسبب المكافآت التي يتلقونها يتحول الجبناء منهم سريعاً إلى شجعان. أمراؤنا الذين على صدورهم شارات عسكرية يقولون بافتخار: نحن في الخدمة ! إنهم يخدمون لمصالحهم الشخصية فحسبُ "

سألت رفيقي كيف سيروي ما شاهده من عجائب في الأكاديمية فأجاب: " سبق أن فكرت في هذا عدة مرات، وقررت ألا أقول شيئاً، لأن كل ما رأيناه صعب جداً أن يُروى، وحتى إن رويته فلا أحد يصدّقك. ولذا فالأفضل ألا نقول شيئاً. بالنسبة للشباب هو أمر حسنٌ ولكن المسنين لن يكونوا راضين "_ أنا لمحت له راغباً في رأيه في ما اعتبره جيداً." سأقول لهؤلاء _ أجابني بسلني _ إن كل سكان بتربوف يحترمون الآخرين غير أن الشخصيات الكبيرة معسولو الألسنة أكثر من

IV

ماطل ديسكاسي في موعده حتى الخريف. واليوم غيّر موعد الأربعاء إلى يوم السبت. قال خان جري: وليته لا يؤجله إلى يوم آخر. لا ألوم الكسندر كريستوروفيتش، اكتفى بالقول: إننا سنسمع أخبار البلاد التي أتيت منها، ولم يعطني موعداً محدداً. والآخر لا أعرف ماذا جرى له؛ يغير لي الموعد مرتين أو ثلاثاً في الشهر. بالإضافة إلى أنه لا يسألني ماذا أريد، وهذا يُقلقني، ولم أرجه أن يشاركني قلقي. في السابق حين كنت طالباً حربياً، وحين كنت في الحرس القوزاقي، وحين أعادوني إلى السرية الجبلية القفقاسية،لم يتصرف معي رافائيل أفغوستينوفيتش كما في الشهر المنصرم. كان يقابلني، ويسأل عما يجري في منطقتي. وصدف أن دعاني إلى بيته وأضافني. ولم يندر أن عاتبني قائلاً: إنك لا تأتي وحدك ولا تسمح لنا برؤيتك. والآن، إذ أنا في حاجة ملحّة إليه، يضيّع وقتي بحجج مختلفة. الوقت يمضي، وأمثال السائس النغوي يسخرون مني. نانا حريصةٌ عليّ حذرةٌ، ولكن أخبار المنطقة تظهر من رسائل أخويّ رغم أني أطلب منهما ألا يكتبا صراحة. هذان لا يفهمان أن رسائلهما تُراقب، ما يزالان شابين. لو كانت عندنا كتابة باللغة الأديغية، وهذا ما يحلم به نغومه شوره، لنصحتهما ألا يفعلا هكذا.

غيرهم. مقابلة الزعامات التي هنا أسهل من مقابلة كُتّابهم (السكرتاريا) " ضحكت، فقال " أقسم أنه صحيح " وضحك بدوره.

كان بسلني مرح الطبيعة يحب المزاح الذكي و النكات.لم يكن يعفي منها نفسه ولا غيره. ولكن مزحاته كانت عنيفة. وإذا تكلم على إنسان لا يحبه قسا عليه. وفي السنوات الأخيرة كان أكره الناس إليه من يسميهم بالأمراء ذوي الشارات العسكرية على الصدور.

وفي اليوم التالي حين ذهبنا إلى (تسارسكا سيلوم) حكى بسلني كل ما يُثقل على قلبه، ويُقلق عقله الحاد، ولا يريد أن يأخذه معه إلى مسقط رأسه ولا يريد أن يأخذه إلى قبره.

الكلمات التي كنت أترجمها وهو في مكانه كانت مفخرة لمن يقولها. أنصت إليها الكونت بنكندورف بحذر، وحين أخبره الكونت بأن هناك أملاً في عدم تجاهل طلبه اطمأن بسلني تماماً. اصطحب الكونت بسلني وصحبه إلى ديفوريس، وكان من حسن حظهم أن قابلوا القيصر هناك. ورأوا هناك أسرة القيصر.وتحدث القيصر إلى بسلني.يا إلهي هذا العجوز الفَطِنُ صاحبُ النوايا الطيبة كان محظوظاً. التهب في قلبه الدافئ إيمانه بإمكان تحقق طموحاته البعيدة "

جاء اليوم الذي سيغادر فيه بسلني بطرسبورج إلى القفقاس، وقد ودّعته إلى سريندا روغاتكا. وتبيّن فيما بعد أن هذا المكان شهد آخر لقاء بيننا.

ظهيرة أحد الأيام كنا نلعب الشطرنج، في بطرسبورج ربيع عام 1837. دخل أحدهم الغرفة " يقال إن رسائل وردت من القفقاس، وينعون أباته بسلني " حين سمعت الخبر الذي آلمني تركت اللعب وتأملت: يا إلهي: ما أشد ما خُلق الإنسان بائساً ! إنه يجمع في رأسه الأحداث الهامة، وينتظر الدقيقة التي ستتحقق له فيها تلك الآمال. ثم ماذا ؟ مات ! ماتت أحلامه الواضحة ومن كانت تنتصب في رأسه الأعمال الرائعة التي يجب أن ينفذها! "

حين فكر خان جري في الكلمات الأخيرة وجدها مُضحكة: سيجدون في هذه المدينة الكبيرة من يقرأ لهم بهذه اللغة التي أتكلم عليها. ولكن كان الأفضل ألا تثور بيننا هذه الشكوك وتسود الصراحة بيننا. لا يتعلق الأمر بقومية صغيرة أو كبيرة، حين لا يثق الناس والأقوام المختلفة بعضهم ببعض، فإن نهاية العالم تقترب كما تقول نانا. إن لم نتراحم ولم يحرص بعضنا على بعض فستحرقنا نار الحقد والظلم، وستمحونا عن سطح البسيطة. ولن ينجو منها صاحب رتبة أو فلاح أو فارس أو راجل أو جالس على سريره...

رفع خان جري رأسه وقد أفزعته الأفكار المفاجئة معاتباً نفسه على مثل هذه الهواجس المتشائمة في اليوم الذي يحرس فيه عند باب القيصر. وبهدف أن ينسى أخرج ساعة الجيب وفتحها متحاشياً النظر إلى الساعة الفضية الكبيرة.

كان بقي على موعد مجيء القيصر نيقولاي الأول إلى المكتب ساعة كاملة. وبالإضافة إليه يقف ضابطان يحملان شارة الركن، وأصغر منه رتبة على جانبي الباب. وعلى الباب نفسه يقف اثنان برتبة روتميستر متساويان في الحجم. وهناك قريباً من النافذة، حيث لا شيء إلا طاولة كبيرة عليها محبرة وقلم، موظفٌ للقيصر رشيقٌ يمسح أظافره واحداً واحداً بمنديل ناصع البياض. ويراقب الوقت بين فينة وأخرى من الساعة الكبيرة وراء الزاوية.

وخان جري ملتصق بجانب الطاولة على أهبة الاستعداد للقيام حال ظهور القيصر. والآن هو هادئ وكأنه شخص آخرُ غيرُ الذي كان قبل قليل نُهْبةً للأفكار المزعجة. وهو حاضر لأن ينفذ فوراً كل أمر يصدره إليه القيصر الذي سيراه في تمام الساعة العاشرة عند الباب، وحاضر لأن يستقبله بوجه طلق وإخلاص.

ليتني أريت نانا كيف يشرّفنا القيصر العظيم بقدومه ! قال خان جري في سره، وأشعّتْ عيناه بالفرح الدافئ، وسرى الفرح على أطراف شفتيه. ليت أمراء البجدوغ والقوزاق والموالي ألقوا عليّ ولو نظرة واحدة.

سُمِعَتْ أصوات أقدام على مدخل الباب. وظهر قيصر روسيا العظيم على العتبة. وقفز مَن في القاعة، بمن فيهم خان جري، على رؤوس أصابعهم. ومطّ الواقفون أجسادهم.

_ صباح الخير أيها المحترمون _ حيّاهم القيصرُ ولم ينتظر جوابهم بل دلف إلى الباب الذي فُتح له. ولكنه توقف بسرعة والتفت إلى الخلف. وسأل الروتميستر: _ أأنت خان جري ؟ كيف حالك مع خدمتك وعملك ؟

_ كله تمام يا قيصر روسيا العظيم _ مدّ خان جري جسمه وأجاب : شكراً لك على ثقتك، أخدم مخلصاً لقيصري ووطني.

_ أنا راض عنك أيها الروتميستر، راض. ولم أنتظر منك جواباً آخر. اليوم أمامنا، أنت وأنا، عمل مشترك لأجل البلاد. نعم، نعم، سنعمل معاً من أجل بلادنا. هذا ممتاز ومدعاة للفخر _ دخل القيصر دون استعجال، وبقامة مشدودة،والأرض تشعر بثقله إلى مكتبه. وأُغلق عليه البابُ الأبيضُ الكبير ذو المقابض الذهبية.

مع أن الباب الكبير الموصد للقيصر كان متصامّاً بأسرار الدولة وبالقلق المخيف فإن الكلمات القصيرة الدافئة التي سمعها خان جري بأفضلَ من سائر الواقفين كانت ما تزال عالقة بروحه وقلبه. حتى لم يعد يرى الناس الذين معه في الغرفة ــ إنه يقف أمام دولة روسيا، يغبطونه ويدللونه ويَغيرون منه. ومع أنه واقف على باب الدولة العظمى فإن أفكاره تتموج بين بولونيا و سيبيريا والقفقاس.

هذا بديهي فقد أفرحت الثقة التي نهضت في شخص خان جري قلبه من الأعماق. غداً وبعد غد والأيام القادمة والسنين سنعمل معاً أنا والقيصر من أجل إيماني بدولتي وقيصري وإخلاصي. سأعمل كما تأمر، سأسألك أمراً واحداً: بما أن أحداً هنا لا يعرف أبناء قومي كما أعرفهم أرجوك أن تكون حذراً في أقوالك وأفعالك في إقليم القفقاس،لا تطلب منهم أن يرضخوا. أن تقول لهم: " لنتفقْ على كلمة سواءٍ ولْنتعايشْ " خيرٌ من أن ترهبهم.

تأمل خان جري الطبيعة غير المشمسة قاصداً أن يسهو عن الموضوع. اليوم وغداً، كأن الطبيعة تودع الربيع فتمطر ولا تمطر. غير أن اختفاء الشمس لا يمنع قبة كنيسة إيساكييفيتش المذهَّبة ولا مقابض أبواب القيصر ولا الزخرفات الجدارية والسقفية أن تلمع.

المكان الذي ينعم بالشمس، فرِحَ خان جري، هو إقليمنا. إنها الآن، وقد أشرقت من وراء غابة الرعد الفسيحة، فوق رؤوس أشجار الجوز العملاقة، تنثر أشعتها الذهبية بحيث تنسيك ما أراه هنا. وأظن نانا على المصطبة، وأمي تباشر تطريزاتها، وسيسور ؟ هي تروح وتجيء بين جدتي وأمي. وزبش الصغير يجد ما يشغل وقته، يلهو بالسلسلة الحديدية أمام الباب، أو يلعب بالكعوب، أو يتبع حاج قسي وجماعته مثرثراً معهم. وشواي ؟ لم أكن راضياً عن شواي، ولكن ألا يكون قد تقبّل بعض ما قلته له بشأن أنفيسكا ؟ أما بانتالي فقد نقلته بفضل ألكسندر كريستوروفيتش مشكوراً إلى الجيش القوزاقي في شيرنومور ليعيش قريباً من أنفيسكا. حبذا لو انتهت قضيتهما دون أن تصل إلى حد المشكلة.

انتشل صوت الجرس الصادر من وراء باب القيصر خان جري من أفكاره البعيدة. كان ينوي أن ينهض ظناً منه بأنه هو المدعوّ غير أنه انتبه إلى نفسه بسرعة، وكتم قلقه: " ماذا يريد يا ترى ؟" إن كان يحتاجني فسيبلّغ صاحبَ الرأس المطرق الذي كان ينظف أظافره والذي دلف إليه قبل قليل. ولو لم يكن يحتاجني لما قال لي " اليوم عندنا عمل مشترك لأجل الدولة ". شكراً له فأينما رآني لم ينكرني. بل يُبرزني من بين رفاقي. بديهي أن أهبَّ إلى العمل الذي يدعوني إليه معه لأجله ولأجل الوطن. لو حدّثتني وحدنا لقلت لك قناعاتي في موضوع الأديغة. ليس قيصرنا بالإنسان الذي لا يفهمك. إن لم يكن يفضُل أخاه الأكبر ألكسندر الأول فليس أقل منه شأناً. كان موقف القيصر الذي أخلص له والدي من الأديغة جيداً ولو لم يفعل إلا ما فعله بالجنرال فلاسوف، ولجْمَه القوزاقَ. ولم يكن ما حققه قليلاً، وإن كانت إنجازاته قليلة، فكما يقال: إنه كان ابن عصره. لا يتوقف سحق قائد عسكري مدلل مثل نابليون في بلادك، واحتلال مدينة باريس على حصان أبيض، وإجبار الناس على تقديم الاحترام لك عند مستوى الرجولة والحظ.

والقيصر الذي أعمل معه اليوم هو ابن عصري. الحظ لا يأتي من نفسه بل يجلبه الإنسان لنفسه. وطبيعة الحظ متنوعة جداً: منه ما يأتي سراً، وما يأتي مفاجئاً، وما يأتي بالإقدام ,وليس قليلاً ما يَدخل فيه سفك الدم ورائحة البارود. لا، لا، لا أدين قيصرنا على ما فعل أمام بوابة مجلس الشيوخ. صارعهم لأنهم يصارعونه. مهلاً، مهلاً، هل قَوْلُهم له: لا نريد حكمك، هو ما لم يقبله ؟ ألهذا قتلهم وأعدمهم ؟ إذن البولونيون ؟ الأديغة والشيشان والداغستان يقولون: لا نريدكم ! أسنجبر هؤلاء أيضاً على الامتثال ؟ ليتني رويت لقيصرنا إلحاح الأديغة على حريتهم والإهانة التي ألحقتها تركيا بهم ومعاملتنا لهم! يُخيَّل إلي أنه سيفهمني وسأحثه على التفكير. يكفي ما أرقنا من دماء وما جنينا من ذنوب ! أقول هذا ولكن أيُّ ذنب في أن تحمي وطنك وقيصرك ؟ ! يقولون " لا تتحرك قشة دون ريح " نحن _ قبائل الأديغة _ الأفضل أن نراجع أنفسنا دون عناد. لماذا لا نتمتع بالاستقامة ؟ ما الذي يجعلنا نتمتع بها ؟ أظنني فهمت الآن فحسب ما كان يقوله مربيّ مرجان: " تفكير الأديغة ما يزال محدوداً ".

وقف خان جري ذاهلاً حين انفتح الباب. أعلمه الخارجُ من عند القيصر مُخفياً سخريته به في قلبه بوجهه الطلق الخبيث، أنه لا حاجة إلى خان جري. ولم يجلس خان جري مبدياً لهم أن نهوضه لم يكن بدون سبب، بل اقترب من الساعة مفهماً إياهم أنه ليس غريباً عن القصر. واختبر إن كانت الساعة التي في جيبه والساعة الجدارية متوافقتين.

قال خان جري لنفسه: ولو مضى على مجيء القيصر إلى مكتبه ساعتان ونصف ففي هذا الوقت استقبل وزيرين: وزير الحربية الكونت شيرنشيف، وقائد الجندرمة الكونت بنكندورف. ربما لو لم يكن مسؤوله بنكندورف عند القيصر لما تخيل أنه سيُستدعى إلى المكتب. ليس في سان بطرسبورج من هو أقرب إليه من هذين اللذين وراء الباب، ولا في كل البلاد. ولن يتأخر اجتماعهما عن الغد _ ليس ديسكاسي، والجنرال بيروفسك الذي شهد معه حربين، وكابوستينكا إيغنات، ونغومه شوره، وقاز جري، والتي كان عندها البارحة تاتيانا كونستانتينوفا بعيدين عن قلبه؛ غير أن هذين...

من يعرف علامَ يتكلمان منذ أكثر من ساعة ؟ قال خان جري وفي قلبه كثير من الأفكار. ليس سهلاً قيادة دولة عظمى وتطويع أمة اجتمعت فيها أقوامٌ كثيرةٌ متمايزةٌ في تقاليدها وطرائق تفكيرها بدءاً من اللغة، مروراً بما يأكلون وما يلبسون وما يغنّون، وانتهاء بأديانهم. ليس قليلاً ما يتجابه من هذه التنوعات. البولونيون والليتوانيون والفنلنديون والسيبريون، ثم وها نحن مشغولون بشعب الكيفا[1] انضم إليهم الأديغة. أتظن أنهما لن يتكلما على الأديغة إن تناول حديثهما شمال القفقاس ؟ أيعقل إذن ألا يحتاجوني ؟ إن لم أُستدعَ الآن فليس بعيداً، بعد قليل.ربما لهذا السبب قال لي القيصر " اليوم عندنا عمل مشترك من أجل وطننا " _ والآن، مهلاً: تذكر خان جري: كما في المرات السابقة: في هذه اللحظة يتحدثان عن

[1] منطقة في أوزبكستان. مصادر

القفقاس، شمال القفقاس، وحين ينتهيان من موضوع شمال القفقاس سيصلان إلى موضوع الأديغة. ما إن تعبر نهر الدون وتصل إلى إيكاترينودار وستافروبول، وما يحاذيهما من أرض.. ثم الأوسيت،والشيشان والداغستان. وزير الدفاع شيرنشيف ماذا قال له يا ترى ؟ مهلاً، لماذا تريد أن تعرف كل شيء: ما يحسن أن تعرفه وما لا يجوز ؟ _ سأل خان جري نفسه خجلاً نوع خجلٍ مما يعتمل في داخله _ من العار ألا أفكر في هواجس قومي وإن كنت قريباً من هذين في قلبي. يمكن أن تعرف مما يردني من رسائل من ناحيتنا ومن كلامهم المليء بالصراع الخفي أن الأوضاع ليست جيدة. والذي لم يستوعب ما نصحتُه به وأكدتُ عليه هو عادل جري، وستتسبب كتاباته في طرده من الجيش القوزاقي.

ما إن سُمع صوت باب القيصر حتى رفع خان جري رأسه. وشد الجميع قاماتهم للكونت بنكندورف الذي ظهر على الباب.

_ أيها العقيد سلطان _ قال قائد جندرمة البلاد بنعومة، دون أن يتوقف كما القيصر، بل في غمرة سيره الناعم _ أحتاجك غداً؛ تعال إلى مكتبي في الساعة العاشرة !

_ حاضر أيها القائد _ قال للكونت بنكندورف الذي خرج من الغرفة دون انتظار الجواب. سأصل في الوقت المحدد _ وبعد قليل سأل خان جري نفسه: " ماذا جرى له ؟" بعدما رشحني للمنصب الجديد لم يفتح وجهه لي. ولم يعد يسمح لي أن أتأمل وجهه. لماذا يفعل هذا ؟ لا أذكر نفسي قلت أو فعلت ما لا يجوز. وإن قلت: لسبب يتعلق بالسرية، فعناصرها مخلصون للقيصر. وإن اتهمت عزمت جري فقد ودعناه راضياً عنا جميعاً وراضين عنه. لا أعرف، لا أعرف ماذا حدث له. إن لم يكن الأمر متعلقاً بي أو بمن يخدم معي فلْيتصرف كما يشاء ! ولن أهتم لأجله، ولكن...

***

ظل خان جري عاتباً على نفسه عدة ساعات حين رجع من لقائه بالكونت بنكندورف.

هذه نتيجة عدم الحذر، قال لنفسه معاتباً إياها على الوساوس التي هاجت في داخله نحو رئيسه. ما أسهل أن تشك في الإنسان وتتهمه ظلماً.ماذا كانت تقول لي نانا:" يجب أن تغربل ما يُداخِل القلب من شكوك، ثم تقيس ما يبقى منه عليك إلى بعضه، فتطبق على حياتك ما فيه استقامة وحقيقة" وكانت هذه الكلمة من أصوب كلمات شواي. خيل إلي أنهم استغنوا عني ولم يعودوا يثقون بي لأنهم كفوا عن الابتسام في وجهي. ليست هذه طبيعةً صحيحةً فيّ. وإن لم أتخلص منها سببتْ لي العثرات.

حين دلف خان جري إلى الغرفة لم ينتظر ألكسندر كريستوروفيتش أن يكمل تحيته بل استقبله بوجه طلق، وقال له وهو يخطو به على أرض الغرفة ممسكاً بساعده:

_ أنا سعيد يا خان جري لمسير خدمتك على نحو حسن، ولإخلاصك للثقة التي أودعت فيك، وعلى تربية جنودك على هذه المبادئ. ليس هذا الكلام من عندي بل من القيصر العظيم. أثنى عليك أمس، وكنتُ سعيداً بثنائه؛ فماذا يبتغي الضابط الروسي أعظم من هذا ؟ !

_ شكراً يا ألكسندر كريستوروفيتش !

_ أنت من يستحق الشكر. لا يصفونك بما لم تجنه يداك. والآن دعوتك لهذا السبب: لنجلسْ هنا حتى نتكلم بمزيد من الارتياح. وسأقول لك حالاً ما يُقلقنا: لا تجري أمورنا في إقليم الأديغة على ما توقّعْنا. ليس من السهل التحدث إلى أعراق كثيرة؛ ما يقوله أحدهم ينقضه الآخر. أتُضمر لك تركيا الخير وقد هزمتها ؟ أظنها خدعتْنا في موضوع الأديغة... ربما لم نكن مستعدين للذين دخلنا أراضيهم بموجب معاهدة أندريانوبول للسلام؛ كبارُهم وصغارهم لا يتقبلون منا عبارة " أعطَونا إياكم " فيقابلوننا بسلاح مُشهر. وقادة الجيوش الذين كانوا متخاصمين بالأمس تصالحت أسرهم وقراهم وأصولهم. يُخيل إليّ أن هناك طريقين إلى مقاربة القضية الأديغية دون أن يعني هذا انعدام غيرهما، وأن نفكر في هذه البدائل. إن القيصر العظيم وجّه جهده إلى منع سفك الدم في إقليم الأديغة، وتوجيه الأمور إلى الأحسن.

" ما أعجب أن يتكلم إليّ الكونت ألكسندر كريستوروفيتش كأني واحد منهم حقيقة ولست أديغياً. والحق أني منهم لأني ضابط عندهم فأين يذهبون بي ؟ " قال لي قيصرنا العظيم: " عندنا عمل مشترك من أجل الوطن " وكرر هذا التعبير... ولكن مع ذلك... ما أتعسنا نحن في إقليم الأديغة !

بين الذين أقاموا حاجزاً من الجليد بيننا وبين قلوب الأديغة الجنرال فلاسوف والجنرال يرمولوف وآخرون. ويُنشر كذلك العداءُ بين الأديغة والقوزاق.يكفي توغوظقوه قازبك وشروخقوه توغوظ، وأضيف إليهما الضابط السابق في جيشنا زانه سفربي... وقام في نواحي الوبيخ دَغومْقوه جَرانْدوقوه. ويأتي إلى الأبزاخ موفدون من الشيشان والداغستان.

"الكونت مطلع جيداً على ملف الأديغة، ويذكر أسماء زعماء القبائل مع أنسابهم، غير أنه لم يذكر أن زانه سفربي أُحتُجز في تركيا بل أبرز أنه كان ضابطاً روسياً. أأكون أنا المقصود بهذا التلميح ؟ لماذا لم يذكر أن زانه سفربي كان ضابطاً تركياً ؟ "

_ فيما نحن مرتاحون لإخضاعنا تركيا _ ابتسم الكونت دون حماسة _ إذا بانجلترا تفعل بنا الأسوأ؛ تبثُّ عملاءها بين الأديغة تحت لَبوس التجار.

_ أبدون معرفة الترك ؟ _ استغرب خان جري ما سمع.

_ هكذا يزعم الترك... _ ابتسم الكونت الآن لخان جري ابتسامة أعمق وأضاف: _ ولذا يا خان جري عندنا طريقان إلى مقاربة الأديغة سأطلعك عليهما، ولم نعتمد أياً منهما. والآن نفكر بما يناسبنا أكثر، نحن والأديغة، لأن الوقت ليس في صالحنا: الطريق الأول هو إخضاعهم بالسلاح. والثاني إقناعهم باللين واندماجهم بنا.

_ الطريق الثاني أفضل يا سموَّكم _ استعجل خان جري بالحكم.

_ أهذا رأيك أنت أيضاً يا خان جري ؟

_ نعم يا ألكسندر كريستوروفيتش.

_ إذن عندي رجاء لك يا خان جري. منذ أن تعارفنا فهمت أنك مطلع على تاريخ الأديغة والجبليين الآخرين ونسمع أن عندك كتابات تتعلق بهم، وتجمع معلومات تتعلق بإقليم الأديغة. حبذا لو أخذتها إلى القيصر خلال شهرين، والأفضل خلال ستة أسابيع.

_ عندي كتابات متنوعة تتعلق بالأديغة إن كان هذا سيفيد قيصري. ولكني لا أظنها مكتوبة بلغة روسية جيدة.

_ لا تقلق لهذا يا خان جري ! _ قال بنكندورف بصوت هادئ مشجِّع _ سأعرفك على " قائد شرطة " اللغة الروسية. وستنجز لنا هذا العمل بمساعدته _ أمسك قائد جندرمة روسيا الورقة وكتب فيها بضع كلمات ومدها إليه: _ خذها؛ فيها اسم المرسلة إليه والمكان وموضوع الطلب؛ أتريد أن تقول شيئاً يا خان جري ؟

_ ليس ما يتعلق بمحتوى الورقة فلا شك في أني سأنفذ ما فيها، وسأباشر العمل فوراً. ولكن إن سمحت لي أريد أن أدلي برأيي.

_ أسمعك أيها العقيد _ موّه بنكندورف الصوت الجاف الذي صدر منه فجأة بنوع من الدعابة:_ " عقلان خير من عقل واحد "كما يقال يا خان جري؛ إن كان للكلام لبٌّ فقد يفيد.

_ إن كنتم تريدون حل المسألة الأديغية سلمياً يا ألكسندر كريستوروفيتش فإن عينتم لهم مسؤولاً، لا أعرف الآن كيف يسمّى، فأنا أعتقد أنهم سيغيرون اتجاههم إلينا.

_ أَ تقصد مِثْلَ باسكيفيتش المقيم في تفليس ؟ _ سأل بنكندورف متظاهراً باللامبالاة، مغيراً قلبه البارد إلى وجه طلق.

_ لا أقول: مثله إلى هذا الحد... يمكن أن يرتبط به أو يرتبط بكم مباشرة. ولكني أعتقد أنه سيتفاهم أكثر مع الأديغة ويمكنه أن ينفذ مزيداً من الأعمال. ومثلُ هذا الإنسان يا سموّكم لا يجوز أن نجعله ينسى أنه قريب منا بمشاعره أو أننا نرسله من عندنا، دون أن يُظهر على نفسه.

" إلى أين وصل هذا ؟ _ ابتسم بنكندورف في سِرّه _ لا يزال ينظر إلى أبعد من بلاد البجدوغ. هكذا نكون حاربنا الأتراك عبثاً سنين طويلة. ونكون طمحنا في سواحل البحر الأسود وضحينا بأناسنا وأموالنا في سبيلها، ونكون هيّأنا للأديغة دولة مستقلة يفارقوننا ساعة يكفّون عن رضاهم عنا... لا يكفي أن تلبس شارتنا فزانه سفربي الذي دفعْنا التركَ إلى احتجازه كان يحمل تلك الشارة ومع ذلك لم يتفهمنا أخيراً. نحن إن ابتسمنا في وجهك فما يدريك ما في قلوبنا. ولماذا تحتاج إليه... سواحل البحر الأسود نحن نحتاج إليها أكثر من الترك والانجليز، وسنستغل كل ما يمكن أن يفيدنا في هذا. وإن لم تخضعوا فلا شيء في العالم يوقفنا.غير أن تنفيذ ما كلفوك به بأقصى سرعة أفضل من أن تسمح لأفكارك أن تصدع رأسك. ولكن إن كانت مثل هذه الأفكار في رأسك فقد أرضيتنا إلى الآن؛ بَيْدَ أني لا أعرف كيف سيكون موقفك منا مستقبلاً ".

_ فطنتك ممتازة يا خان جري _ نهض بنكندورف مبتهجاً وكأنه قيلت له معلومة كان يجهلها. ونظر العقيد الذي هب واقفاً معه في عينيه السوادوين الصافيتين _ لا تخلو فكرتك من العمق، سنفكر فيها. ولكن لا تتجاوز المدة التي حُدِّدتْ لك في مهمتك. لا تبخل بالمعلومات التي ستحضّرها للقيصر: عاداتِ اختلاطهم، أفراحِهم، مآتِمهم، أغانيهم الفرحة ومراثيهم، وطعامِهم ولباسهم، ربما إن أخذناهم باللين كما تقترح فلن نتوه بينهم،وأنهارهم وغاباتهم وجبالهم وطرقاتهم كما تعرفها. وتجنّبِ الخطأ في ما لا تعرف. قل لي إن كنت تحتاج إلى معاون. لا تخجل ! مع السلامة يا خان جري _ ولأن ما تكلمنا فيه يتعلق بالدولة فليبقِ بيننا. الشخص الذي أرسل إليه الورقة معك لا تثق به تماماً ولو أنه قريب. ومن سميته " مسؤول أديغي " أظهِره بطريقة ما في ما تكتب باعتباره فِكْرَتَك.

ثق بي في هذا الأمر ! ابتسم خان جري في قلبه وهو يرى الوقت ليعرف كم بقي على موعده مع ديسكاسي. لن أدنّس ما أخلصت له سابقاً والآن. من الأفضل أن أحمي شرف الضابط في المناسبات التي أحب والتي لا أحب،وإن لم أنس أني أديغي. لم يعد من الضروري مقابلة ديسكاسي الذي ماطل معي في موعده إلى الآن. ولكني لن أنقض الموعد من طرفي. وهو ليس دون أخبار، وحتى لو لم أقل له ما في قلبي تماماً فكما يقال: طرف الخبر يجر معه مئة خبر؛ فربما أجد عنده فكرة ما.

***

لم يجد خان جري في ديسكاسي ما كان يتوقعه منه.

الليلة، كما في الليالي السابقة، لم يقابله بجفاء: الطاولة عامرة بالمأكل والمشرب. ووجه المضيف طلقٌ، وينطق من حين إلى آخر كلمات أديغية. ولا يبخل بالطعام المنتقى. وربة البيت تتعامل معه دون تكلف؛ فباستثناء المرتين أو الثلاث التي سألتْ فيها عن طلباتهما لم تزعجهما طوال الساعتين اللتين استغرقهما الاجتماع.

وكان ديسكاسي على عادته في هذه المناسبات يسأل عن أصدقائه الأديغة والقوزاق، ويتظاهر بأن لا علم له بالتطورات الجارية هناك.

حين ودعوه بترحيب لا متناهٍ ضحك خان جري في قلبه على الرجل البدين الطلقِ الوجهِ: " أيها الخبيث مع أنك كنت تتحاشى الحديث على احتجاز زانه سفربي في تركيا فما أعرفه عن الموضوع ليس أقل مما تعرفه أنت. نال زانه ما يستحقه، لا تذهب إلى أعدائك موهماً نفسك أنهم أصدقاؤك. الذين أنا معهم أناس أيضاً. ليسوا كما تتخيلونهم تماماً. ما قاله ألكسندر كريستوروفيتش، الرجلُ الثاني في الدولة بخصوص الأديغة كان الأفضلُ أن تسمعوه أنتم لا أنا.إنهم يفكرون في ما هو الأصلح للأديغة، وما اقترحته لم يستبعده ".

V

حين أدخلوا خان جري في الغرفة الرحبة المنشرحة استقبله نيكولاي إيفانوفيتش غريش الذي وُجِّهَت له ورقة ألكسندر كريستوروفيتش كأنهما صديقا العمر.

_ تفضل يا خان جري، صحيح أني أعرف أن أباك اسمه محمد جري غير أني أعرف أن الأديغة لا ينادون أحداً مع اسم أبيه. لن ننقض تقاليدكم بحجة أننا سلافيون روس. اسمي نيكولاي إيفانوفيتش، وهذا _ أشار إلى الرجل الرشيق الذي نهض من مقعده الوثير: فلاديمير بيتروفيتش بورناشيف، يمكنكما أن تتعارفا. هو عامل مجدٌّ في جريدة " ابن الوطن ". ولا يتوقف عند هذا الحد بل يعمل أيضاً في جريدتي " نحل الشمال". قلمه حاد. تجد عنده كل شيء، وهو ماهر في الرقص كما في الكتابة. أتعرف ماذا يسمونه؟ راقص الفالس الذي لا يُقهر ؟ لا أظن أن في بطرسبورج امرأة جميلة أو فتاة مدللة لم يراقصها. ستصبحان صديقين، ولا أمدحه في وجهه فهو رجل ممتاز ولن تستطيع إلا أن تصادقه. إن كنا لم نُتعبك يا خان جري فخذ راحتك واجلس معنا دون كلفة كأنك في بيتك. دعنا نتأملْك ونفرح بك.

_ شكراً يا نيكولاي إيفانوفيتش _ جلس خان جري على المقعد العريض بقلب مرتاح ووجه طلق والأوراق تحت إبطه.

_ أعط ما تحملُه لفلاديمير _ قال نيكولاي لضيفه _ نحن على اطلاع على سبب توجيهك إلينا. تعرّفْ يا فلاديمير على كتابات خان جري وابدأا بالعمل غداً. وأنا سأراجعها فيما بعد. تعال الآن يا خان جري؛ سمعت ألكسندر كريستوروفيتش يذكر اسمك بالخير ويُثني على خدمتك. وأنا على اطلاع على رضا قيصرنا العظيم عنك وعلى عثوره عليك. إن أردت الإخلاص للقيصر فعليك أن تكون هكذا.

_ لا آلو جهداً يا نيكولاي إيفانوفيتش، أنا مخلص لقيصرنا بقلبي وعقلي _ قابل خان جري كلمات الترحيب بمثلها _ وأنا راض عن ألكسندر كريستوروفيتش. ومنذ اليوم الأول لتعرفه عليّ يرعاني ويحرص عليّ،ولم يهملني. يدربني على الأعمال العسكرية الشاقة ويحضّرني لها.

_ صحيح. كلامك صحيح يا خان جري _ وافق غريش ضيفه بوجه طلق خالٍ من الرياء _ كأنك تتكلم من قلبي. بعد قيصرنا المعظم _ ليُدم اللهُ قائد دولتنا على رأسنا _ فأفكار ألكسندر كريستوروفيتش بشأن الدولة عميقة.وقلبه مستقيم ونظرته بعيدة. ونحن يصدف أن يُخيَّل إلينا أحياناً أنه يؤنبنا، وأحياناً يمدحنا. ولكن إن أردت الحقيقة فأنا عندي ثناء صغير: أحب الرجال الأقوياء الصادقين الذين لا يتخلون عنك في الساحة. إنه رجل نقي يفوق الرجال، أعرف أن الأفكار التي طرحتَها عليه في قضية أبناء قومك الأديغة في ذهنه. ونحن لن نألو جهداً. وسنستجيب لرجاء الرجل العظيم الكونت بنكندورف.

قال غريش في نفسه: وإن لم نتكلم على أفكار الرجل وفطنته فلا أظن بنكندورف أخطأ في اختيار الضابط الأديغي الذي أرسله إليّ. في جِلسته ونِظرته وطريقة استماعه شيء مما ليس في طبعهم. لا يخفى أنه نشأ في أسرة مهذبة، وأنه معني بطريقتنا، نحن الروس، في التعامل. ومع ذلك فمن الصعب التكهن بموقف هؤلاء في المستقبل.إن سمحنا لأنفسنا بالشك فمن المعيب أن يراودك الشك في سلوكه في حروب الفرس والترك والبولونيين.ومع ذلك فقد انتفض من أفكاره كأن الكلمات الأخيرة أجفلته: _ وأنت يا فلاديمير بيتروفيتش لماذا لا تقول شيئاً ؟ أظن ما تتصفحه مُثيراً.

ـ نمط الحياة الذي لم تعتد عليه، مثلَ ما خلْف الجبال التي لا تعرفها، عجيبٌ دائماً يا نيكولاي إيفانوفيتش. يقول خان جري إنه لا يتقن اللغة الروسية غير أني لم ألحظ هذه الشكوى في كتابته. غير أننا لن نحرج ألكسندر كريستوروقيتش ولا ضيفنا خان جري أمام القيصر.

ـ شكراً يا فلاديمير بيتروفيتش ـ كان خان جري مستعداً لما سيقول ـ أنا حاضر في أي وقت تشاء وإن لم تكن كتابتي كما تقول تماماً، ولكن الأفضل ألا نؤخر الموعد ـ لمح إلى الموعد الذي حدده له بنكندورف وإن لم يذكره بالاسم.

ـ أنا حاضر من هذه اللحظة ـ قال بورناشيف ـ ولكن من الأفضل أن أقرأ كتاباتك كي أعرف كيف أتعامل معها.

ـ وكم سيستغرق هذا ؟ ـ سأل خان جري والقلق بادٍ من سؤاله ـ ليس لأني أريدك أن تستعجل ولكن لا يجوز أن نسوف الموضوع.

ـ من الغد إن أمكن.

ـ أعتبر ما حددته موعدي ـ دقَّقَ، كما اعتاد في الخدمة العسكرية ـ بعد الدوام نشتغل ثلاث ساعات معاً، ويوم الأحد بكامله.

ـ مهلاً، مهلاً ! ـ استعجل غريش بوجه مراءٍ ـ لا تنسوا اجتماعاتي يوم الخميس بهذه الحجة ! أظنك سمعت يا خان جري اجتماعاتي يوم الخميس.

ـ سمعت يا نيكولاي إيفانوفيتش ـ أجاب خان جري ـ سمعت أنك تجمع أشخاصاً مثقفين كثيرين فاحترت كيف أنخرط فيهم، ولم أجد نفسي مناسباً.

ـ أتسمع يا فولديمار، يا فلاديمير بيتروفيتش، ما يقول خان جري ؟ لا يستطع الضابط الروسي الشجاع أن يخالطنا ! ـ ضحك غريش بصوت ناعم ـ لم أعرف أن قلبك الأديغي جبان هكذا يا خان جري ـ إذن ليس كل ما كتبه بوشكين في شأنكم صحيحاً، نثمّنُه ونقدِّرُه عبثاً.

ـ يقولون إن بوشكين يكتب عن الأديغة مبالغاً في امتداحهم غير أن كتاباته لا تخلو من الصدق. عنده كلام كثير عبّر فيه عن القلب الأديغي. بوشكين شاعر حقيقي ذو قلب روسي ويتمتع بالشفقة.

ضحك غريش مرة أخرى بنعومة.

ـ ألم يقل فيكم بوشكين ما لا يجوز ؟

ـ لم يقل فينا ما يُهيننا، بل ما يَزيِنُنا ويرفع من قدرنا.

ـ إذن من الذي كتب " ارضخي أيتها القفقاس؛ يرمولوف قادم ! " ؟ سأل بورناشيف غير مُظهر على نفسه اهتمامه بردِّ فعل خان جري.

ـ يا فولديمار ! ـ رفع غريش يده متظاهراً بالمزاح: ـ أنت ماهر في الرقص غير أنك لا تتقن اللحن، تجنّبْ كل ما يمكن أن يتسبب في احتكاك بينكما خوفاً من أن تتجافيا قبل الشروع في العمل.

_ لا أوافقك في هذا يا نيكولاي إيفانوفيتش _ لم يكتم خان جري نِظرته _ كنت سمعت من جدتي التي تقيم في القفقاس قولاً مأثوراً " الصدق يعود ويقف وإن ظننت نفسك صرعته، والكذب يسقط أمامك وإن نصبته "

_ ماذا ينطبق من هذا القول المأثور على ما قاله فلاديمير بيتروفيتش ؟

_ يمكنك أن تقارن معاني تلك السطور بطرفي العصا.

_ كيف ؟ التفت إليه غريش بونارشيف.

_ البلدان اللذان عبر كاتب هذه السطور عما في قلبيهما ليسا لعرق واحد بل فيهما أعراق كثيرة. بالقياس إلى روسيا ففي القفقاس عشرات الأعراق، وبين هذه الأعراق من سيرضخ ومن لن يرضخ. وعلى سبيل المثال،ربما ليس بسبب الاسم الذي ناداهم به بوشكين في شعره، فالكرج (الجورجيون) والأرمن رضخوا.ومن ناحية باكو (عاصمة أذربيجان) يبدو أن الترك السلاجقة صمتوا. ولكن شعوب شمال القفقاس بمن فيهم الأديغة فأنتم تعرفون ما يجري لنا. مهما عزفنا لحناً حلواً أو لحناً مريراً فالصدق والكذب متجاوران في نواحينا.

_ كيف يمكننا أن نفصل بينهما إذن ؟ _ فهم خان جري أن عيني نيكولاي إيفانوفيتش بردتا وإنْ ألان صوته.

_ هذا أصعب ما في الأمر يا نيكولاي إيفانوفيتش _ سرت ضحكة صغيرة على شفتي خان جري وضحك على نفسه وعيناه تحملان شيئاً من اللوم قائلاً: لماذا ورّطت نفسي في مواضيع مزعجة، ولكنه أفصح عمّا يقلقه _ كان من ربّاني في طفولتي مرجان يقول لي " الصدق فيه شيء من الكذب، والكذب لا يخلو من شيء من الصدق، والرجل من يتعرف جذرهما ". لم يكن يقبل مني أن أقول: الصدق صدق والكذب كذب. بل يقول: فكّر حتى تصدع رأسك، لا شيء لا يمكن أن تفر منه إلا الموت، أما الصدق والكذب فليس في الدنيا صدق أو كذب يستحيل عليك التفاهم معه.

قال غريش في قلبه: حقاً لم تُخطئ يا ألكسندر كريستوروفيتش، من أرسلته إليّ ليس ضابطاً أبله، ليس كما يقول القلائل الذين يدخلون القفقاس مجرد أديغي متمرد. لا فرق بين حذره وعلنه. لا أظنه يقول ما في قلبه وإن كان وجهه طلقاً. أيمكن أن يكون تعامُلُه مع قيصرنا ومع بنكندورف بهذه الطريقة ؟ لا أعرف إن كنت أظلم من رأيته لأول مرة وإلا ظننتُه أفرط في الثقة بنا.ما المعيب في ما قاله لنا ؟ ألأنه لا يصرح بعيوب الأديغة ؟ وما حاجتنا إلى من فيه مثل هذا العيب ؟ لماذا نسمح، كما يقول الكونت بنكندورف، لمن يثير أفكاراً كثيرة، بأن يعيد تربيتنا ويصدع رؤوسنا ؟ نظن أن من يخلص للقيصر يخلص للدولة، أما القياصرة فيأتون ويرحلون، وكلٌّ يأتي مع مؤيديه ويرفعهم معه.

_ أكوني أديغياً أم كوني من القفقاس هو موضوع حديثنا يا نيكولاي إيفانوفيتش ؟ _ سأل خان جري حين انقطع الحديث مراجعاً أفكاره.

ـ افهمْ كما يقول لك قلبك يا خان جري. تكلمنا على ما يقلقنا وإن لم يكن كما نريد تماماً.ولكن يبدو لي أنك أنت وفلاديمير بيتروفيتش ستجدان حديثاً مشتركاً أكثر مما معي. لا تتخاصما، كما كان مربيك يقول، لا تُنسونا أن التعايش يتضمن شيئاً من الصدق وشيئاً من الكذب. أدعوك بكل سرور يا خان جري إلى اجتماع الخميس المقبل.وَعَدَنا بوشكين بزيارتنا، ستتعارفان ـ وكان بوده أن يقول له: إن بولغارين أيضاً سيحضر ولكنه تناسى الأمر.

ـ وسنعرّفك على النهِم كيرلوف ـ رفع بوروناشيف رأسه عما كان يقرؤه وقال بلهجة لا يُدرى أهي مزاح أم جد.

ـ يا فولديمار، يا فلاديمير بيتروفيتش، اخشَ الله ! اخجل من إيفان أندريفيتش !ـ لامه غريش ـ العجوز كيرلوف يحب الطعام وليس أكولاً ـ وضحك الثلاثة كأنما كانوا ينتظرون هذه المعلومة ـ نحن يا خان جري نعرف إيفان أندريفيتش، ولكن لماذا أنت تضحك ؟ ـ تعجب غريش.

ـ سامحني يا نيكولاي إيفانوفيتش ـ تأمل خان جري بوجه طلق وجه مضيفه ـ من في سان بطرسبورج لا يعرف إيفان أندريفيتش ؟ وأنا أيضاً ضحكت من حبي له.

***

صار خان جري أكثر قرباً من تاتيانا كونستانتينوفا في بداية الخريف الأخير من سنوات ترمُّلها الثلاث. قضى السنة الأولى منها في البحث عنها، وسلبها منه الحداد في السنة الثانية، وفي الصيف الماضي دار بها مرة واحدة بالعربة في شوارع المدينة ثم أوصلها إلى باب دارها.

في مساء يوم ما من أواخر أشهر الصيف الثلاثة؛ هما على فراش وثير عريض، ليس كما قبل قليل يخجل أحدهما من الآخر،رغم أنهما يعرفان في قلبيهما وروحيهما لماذا حدث هذا. والمصباح الذي كان يعرف حبهما الخفي، والذي أطفأاه بنفخة واحدة أشعلاه الآن على جانب الأريكة. الظلام الشفاف الهادئ يهيمن على الغرفة، والجسدان المرتاحان اللذان أخمدا نار الحب متقابلان. والرأسان البارزان من اللحاف الذي يسترهما ولا يسترهما يكادان يتلامسان، والأيدي متضامّة. لا صوت يُسمع في الغرفة إلا صوت المصباح الخفي الذي يحرق نفسه بشعلة وحيدة. الصور المعلقة على الجدار الآخر لا تكاد تبين في الظلام. ومن بين هذه الصور واحدة فقط يخجل منها خان جري وتُشعره بالعار، ولو استطاع لطلب من تاتيانا أن تنقلها من المخدعِ، موضعِ الحب، إلى الغرفة الأخرى. ولكن ما العمل ؟ ما ليس في يدك سهلٌ أن تسرقه وما هو في يدك صعبٌ. وطّن خان جري نفسه بصعوبة على هذه الصورة، ولا يزال إلى الآن يغار، وإن كان هذا ذنباً، من ريابين الذي سقط في معركة مجهولة الاسم ضد الأديغة.

والآن، كما رجاها في مرة سابقة، يريد أن يطلب من تانا أن تنقل الصورة غير أنه لا ينسى أنها لم تقبل. كانت قالت له " لتبقَ معلقة ! ليس لأني لا أحب زوجي،كان وكنت شابين... إن عرف أني لست

وحيدة فسيرتاح حيث هو أكثر. فعلت واجبي نحوه لأن الله قدّر له هذا المصير. استمر حدادي لأجله سنتين، ولم أسبب له أي موقف يشعره بالحرج... ولو لم تظهر أنت فجأة في حياتي لصبرت سنة أخرى "

كان خان جري يود ألا يفكر في مثل هذه الأفكار على السرير الذي ارتاح عليه القلب والروج والجسد غير أنه لم يستطع. " ما هذا ؟ كيف ستجيبه ؟ سأل نفسه بنفسه. الرحمة والخجل وعدم احترام النفس لها أجوبة غير أن الضيق الذي يُفقدك السيطرة على نفسك لا يستشيرك؛ كيف تجابهه؟ أكان ما بيننا أنا وتانا قبل قليل حباً أم ترويحاً عن النفس ؟ إن كان الثاني فاحتفظت بها عبثاً في قلبي وبحثت عنها أربع سنوات.

وتاتيانا ماذا في قلبها وكيف تنظر إلى ما جرى ؟ كيف نعرف هذا ؟ لو كشف كل إنسان سرّه لأكل الناسُ بعضهم بعضاً. من المذنب بيننا ؟ لو كانت النار التي اشتعلت بيننا تحتمل الذنب والبراءة لربما كنت أول من احترق بها. وإن لم يكن هكذا فلماذا قالت لي تاتيانا في اليوم الأول " لو لم تظهر في حياتي ! " على ما يبدو فقد أسأت إلى شواي وأنفيسكا جاهلاً حالي... "

ومع أن تاتيانا كانت مسترخية مغمضة العينين فقد كانت أفكارها تعصف بها. ليس لأنها كانت تحسد نفسها على ما فعلته باختيارها إذ لم يبدأ هذا الحدث بها ولن ينتهي بها؛ لا يمكن إلا أن يحدث هذا بين رجل وامرأة. قد يكون هذا،بعد الشمس،سببَ استمرار الحياة، ولو لم يبق في الوجود غيرهما فستبدأ الحياة من جديد، وسيدفعان الترح والفرح إلى الأمام. تقول تاتيانا " ماذا جرى لي وماذا أفعل بنفسي في حين لم تجف دموع حزني بعد... _ لو لم أكن أحب "نيقولي" لما فضلته على خُطّابي الكثيرين وتزوجته.. بقيت أرملة وأنا دون الثانية والعشرين؛ فكيف سأكمل حياتي ؟ وماذا ينتظرني في المستقبل ؟ أهذا الذي يجري الآن هو مصيري، أسيكون هذا نمطَ حياتي مستقبلاً ؟ ليمحقِ الله الأديغة الذين سلبوني " نيقولي"؟ لماذا ولأجل من دخلنا أرضهم ؟ ومع ذلك فإن بوشكين وبيستوجيف يمدحان من يحاربوننا ! ويقال إن كاتباً اسمه ليرمانتوف ظهر الآن أيضاً، وإن لم أقرأه. ما شأننا بالأديغة الذين يدمرون مستقبل أمثالي من النساء، والأمهات،والنساء في سن الزواج ؟ أقول هذا ولكن أليس هذا الذي ينام معي على هذه الأريكة منهم ؟ استعادت تاتيانا وعيها ونظرت نحو خان جري خجلة من نجواها. برّأت نفسها بأول ذريعة: هذا من جيشنا، يناصرنا، ونَدبته لا تزال على ذراعه اليسرى، وصدره وجانبه الأيسر مليئان بالندوب.لا،لا، خان جري واحد منا، ضابط روسي... وحتى إن كان هكذا فماذا أفعل ؟ " تنهدت تاتيانا ولكنها لم تقل شيئاً لخان جري.

_ أأنت نائم يا خان ؟ سألت تاتيانا بعد قليل.

_ لا يا تانيا.

_ ولا تفكر في شيء ؟ !

_ ولماذا ؟ _ استدار خان جري نحو تانا والتقت شفاههما بنعومة _ ليس في ذهني غيرك.

_ أعلى نحو حسن أم سيئ ؟

_ لا يُسأل الحلو: أأنت حلو. وأنتِ ؟

_ لن تصدّقني إن قلت لك: أنت مُرٌّ، وإن قلت أنت حلو زُهيتَ بنفسك عليّ _ ضحكت تانا _ ولكن سأقول لك شيئاً كان في قلبي إلى الآن: أتتذكر مشرب الشاي في باتاييسك ؟

_ أتذكره كما لو اليوم وإن مر على الذكرى ثلاث سنوات.

_ لو انتبهتَ لعرفتَ أني لم أكن أطيقك في تلك المناسبة.

_ أفهم ومع ذلك حميتِني من القوزاق !

_ لأنك كنت وحيداً بيننا.

_ ولماذا كنتُ وحيداً ورتبة الضابط على كتفيّ ؟ !

_ لا أظن رتبتك كانت ستلجم القوزاق الذين كنت في مواجهتهم.

_ هذا صحيح _ زفر خان جري _ لم أكن لأتراجع حتى لو كانوا سيقتلونني _ لا يليق أن يُهان أحد في ما يتعلق بأصله. والأديغة يدفعون حياتهم في سبيل هذا.

_ حجزت بينكم رغم الحداد الذي كنت فيه لأني كنت أعرف هذا. لولا أنا لتركوكم يقتل بعضكم بعضاً. ألم يكن على أحدنا أن يفصل بينكم ؟ هذا الموقف نفسه تحتاج إليه كل دولتين في حالة نزاع.

_ أتعتبرين أن للأديغة دولة مستقلة ؟ _ هربتْ من خان جري الفكرةُ التي كانت تقلقه منذ جاء ولا يستطيع الإفصاح عنها.

_ يا خان جري _ ضمت تاتيانا الوسادة التي رفعت عنها رأسها إلى صدرها العاري _ كيف يستطيع فمك أن يفوه بهذا ؟ ! أتفكر أنت أيضاً في الأديغة بهذه الطريقة ؟ ليس ترتيب مستقبل الأديغة من شأني _ تلبس الآن المرأة ثيابها مديرة ظهرها، وخان جري يفعل الأمر نفسه مستعجلاً _ قتلوا زوجي وسببوا لي المأساة. ولكن سأصارحك بما في نفسي في هذا الشأن: إن لم يكن لهؤلاء دولة فكيف غزوتموهم بجيشكم؟ من له أرض فله سماء وشمس. ينشؤون عليها ويعملون ويدفنون موتاهم، حتى لو لم يكن عندهم سلطان ومجلس شيوخ، فهم يعيشون كما تملي عليهم عاداتهم وتقاليدهم ونظامهم الخاص.

_ يا تانيا، يا تانيوشا _ جلس خان جري إلى جانب المرأة التي تلبس مسروراً لما سمع منها، وأمسك بساعدها _ أرجوك ارتاحي ولا تدعي الأمر يحزنك ! أنا أيضاً منهم.

_ لا أتصورك واحداً منهم _ نظرت تاتيانا إلى خان جري بعينين تشعان برودة _ أنت أصلك وشبيهك هو من تقف على بابه وتحميه ! أفهِمْه هو... وإن لم تكن قادراً على مواجهته شفهياً فلمِّح إليه في ما تكتب له! _ وبعد قليل أضافت وهي تجمع شعرها في أعلى رأسها: _ سامحني يا خان جري إن قلت لك ما لا يجوز، لم أكن أقصد إهانتك !

اتّجه خان جري بعربة سريعة إلى بيته محتاراً في تفسير ما جرى له، وإن كانت المرأة الشابة اعتذرت إليه، دون أن تفارقه صورة القيصر الذي عيروه به، ولا صورة المرأة التي عيرته، مراجعاً الكتابات التي سيعمل مع بورناشيف فيها.

وفيما هو يخلع لباس الحرس القيصري قال في نفسه: " نقول إن الأديغة لهم أرض ولهم الشِّرْعةُ التي نسميها (أديغة خابزه). ولكن أي إرادة قومية واحدة لدينا تجعل تفكيرنا موحد اللب، ولا تجعلنا نفترق بعد أن نجيب على صيحة النجدة " " مارج ! "، ما تجعلنا نعيش بقلب أديغي واحد ؟ ! حين كان والدي والأتاليك مرجان وتوغوظقوه قازبك وزانه سفربي وشواي وديسكاسي يتكلمون في هذه الموضوعات لم أكن أفهم. وفي آخر مرة زرت فيها ناحيتنا ضحكت حين سمعت أنه حتى تازه أديغ مهموم بهذه الأمور ! ولكني فهمت هذه الفكرة جيداً هنا في روسيا. حقاً أن " البَلَسان يزهر، وكلٌّ يرجع إلى أصله أخيراً "كما يقال. لا عجيب في هذا. كل امرئٍ مهمومٌ ببلاده وأصله ونفسه. لأجل هذا كانت نانا تقول: "إن لم تصدم بأنفك ما تلحقه فلن تحس بحلاوته" ليس الأمر أني لم أُشِرْ في كتاباتي إلى شيء مما لُمِّح لي إليه هذه الليلة، وقد ركزت على هذا الموضوع في الفصل الرابع.

حين انتهى خان جري من خلع ملابسه استمر جالساً على مقعد منخفض عميق ريثما هدأ قلبه. ثم أمسك القلم ثم أكمل مقدمة الكتاب الذي يوجهه للقيصر[1]...

---

[1] طوال إقامتي في بطرسبورج،كانت الخدمات التي أقدمها بخدمتي العسكرية تعطيني أملاً في أن أصبح شاهداً على ما يفعلونه من أمور إيجابية للقفقاس. هذا من جهة، ومن جهة أخرى لأني أعرف الإقليم الأديغي معرفة ممتازة. يكلفني رؤسائي الكبار بمهمة غالية وهي أن أطلعهم على أحوال تلك البلاد. ولكني واثق تماماً بأنه مع محاولة إطلاع رؤسائي على الوضع بأفضل ما يمكن، من أن كثيرين من المثقفين سيستغربونها لأن أوربا لا تكاد تعرف شيئاً عن أحوال البلاد التي يعيش فيها هذا الشعب وعاداتِه ونُظُمِ حياته،. وفي الوقت نفسه سيحتاج إليها المثقفون الذين يريدون تطويع القفقاس باللين،والقادة المثقفون. كتبت ما كتبت ليس بقصد الشهرة بل لإعطاء صورة صادقة عن عرق الأديغة دون إهمال شيء من التفصيلات.

لا أعرف إن كانت كتاباتي ستنشر يوماً، في غمرة طباعتي لما أكتب دون توقف عند المقدمة وقبل الوصول إلى التفصيلات التي يجب شرحها، لا يسعني إلا أن أشير إلى بعض النواقص.

لما كنت لا أعرف قواعد اللغة الروسية لم أثبّت "كتاباتي" كما صدرت عن قلمي الضعيف. أصلح رفيقاي كتابتي الروسية، وأنا راض عنهما من كل قلبي. وإن كان ما أكتبه من أحداث يفتقر إلى الوضوح، وحتى لا يلوم القارئ رفيقيّ، رأيت من واجبي الإعلان عن عدم مسؤوليتهما عن هذا العيب. وحين كانا يصححان لم يكونا يضيفا شيئاً إلى ما كتبت؛ ولذا فالمواضع العسيرة الفهم والنواقص مما ينتبه إليها القارئ مسؤوليتي وحدي.

ما يتعلق بالجغرافيا والمعارف استفدت مما كتب دييو وبرونيفيسك دون تدخل فيها.

لم أقتبس الكتابات التي نقلت بلغة المؤلف من كتابات أخرى ونسبها إلى نفسه.فإن اهتم مسؤوليّ الكبار بما أكتب باذلاً فيها الجهد والوقت اعتبرت اهتمامهم معروفاً يُسدى إليّ. كانت نيتي الأولى والدائمة هي الحصول على رضا المسؤولين. ولم

VI

في مساء الخميس، وفي الموعد، توقفت عربة خان جري على باب غريش، وكانت العربات الخالية المنصرفة عن الباب أكثر من القادمة. وبالإضافة إلى العربتين المنتحيتين جانباً تقف عربة صفراء، ويمد السائس يديه إلى الداخل علامة على أن شخصاً ثخيناً سيخرج منها، غير أنه يتعثر غيرَ عارف كيف يمسك مؤخرة الرجل الثقيل البارزة من سترة سوداء،والذي هم بالنزول مديراً ظهره.

قال خان جري لسائسه مخفياً رغبته في الضحك:

ــ لن ننتظر هذه العربة، يمكنني أن أترجل هنا. ارجع إليّ في الساعة العاشرة،وهذه أجرة الذهاب، واحتفظ بالباقي.

ــ شكراً أيها العقيد ــ أومأ السائس احتراماً له ــ أنا مستعد أن أنتظرك طوال الليل مقابل هذه الأجرة.

نظر خان جري نحو العربة الواقفة على الباب، وابتسم السائس وهو يعود إلى مجلسه، وقال دون حقد:

ــ إنه إيفان أندرفيتش كيرلوف. خمّنته من العربة التي انهارت تحت ثقله. إنه سمين حتى لَيستحق إشفاقك. ومع ذلك لا يفوّت أي خميس لهؤلاء. وهو يكتب أشعاراً كوميدية. مساء سعيداً مرحاً ! سأعود في الوقت المحدد.

ليس هناك أمة لا يظهر فيها أشخاص بدينون سواء كانت الأديغة أم الروس أم البولونيين. ولكن كيرلوف كتلة من الشحم الخالص. القبعة الأسطوانية السوداء المنتصبة ترفع القامة المنهارة قليلاً. والرقبة الثخينة القصيرة يخفيها شعر أبيض مسبل.والكرش تمنع دفتي السترة من الالتقاء.

الوجه الممتلئ المائل إلى الطول، والجبين العريض بالنسبة إلى الشعر، والحاجبان الخاليان من أي شيب، والعينان الزرقاوان الحادتان، كل هذا لائق بالوجه الموحي بالطيبة.

ــ على ما أراك أنت شاب طيب. أظنك تأتي إلى ندوة غريش الخبيث ــ وابتسم كيرلوف كما لو أنه نسي شيئاً.

ــ نعم يا إيفان أندريفيتش، وأنا مدعو إلى أمسية نيكولاي إيفانوفيتش.

ــ أنظر إليك، دعني أمسك ذراعك، بالقياس إليّ متناسق القوام رشيق، وهكذا يجب أن يكون مظهر الضابط. أنا أعرف قليلاً عن الجيش، والدي كان ضابطاً، وأخي في الجيش. وخلافاً لعمرك فأنت لست مجرد عقيد فالبند الفضي على ذراعك اليمنى يشهد بأنك مرافق للقيصر من حرسه. أنت ضابط كبير وشخصية مهمة.

يحدث أن أهملت المهمة التي كنت أنفذها للقيصر وإن لم أجد الوقت أحياناً. وسيقى إيماني المطلق بهذا مصدر راحة واطمئنان لي.

ـ شكراً يا إيفان أندريفيتش على هذا الانطباع عني. ولكن شتان ما بينك وبيني ! أنا أخدم في السرية الجبلية القفقاسية.

ـ قل لي اسمك، عرّفني بشخصك إذن. لا تتوقف، لا تتوقف، قدماي ما زالتا تحملانني جيداً خلافاً لما يوحي به مظهري. ما اسمك يا صديقي ؟

ـ خان جري يا إيفان أندريفيتش.

ـ أوه ! اسمك يدوي كطلقة مدفع. من أي عرق أنت ؟

ـ أنا أديغي.

ـ هذا أعجب شيء ! ـ توقف كيرلوف قبل أن يصل إلى الدرج الابيض بخطوة. وتأمل خان جري بعينيه الزرقاوين شبه المبلولتين ـ لأول مرة أتعرّفُ أديغياً. امضِ، امضِ ! أنا لا أعرف عنكم غير أنكم مقاتلون وطلاب حرية. بوشكين هو المتعمق في أخباركم. قالوا إنه سيأتي إلى الندوة. وما سمعته وتعرفته عجيب. " عِشْ قرناً وتعلَّمْ قرناً" هذا ما جعلهم يصفون إيفان أندريفيتش بالهرم ـ يقول كيرلوف لنفسه، ويتعجب: ـ على ما أرى يا صديقي الطيب أنت أديغي وتخدم في جيشنا وتحمي قيصرنا !

اكتفى خان جري بالابتسام دون جواب.

وسأل كيرلوف:

ـ وأنت يا صديقي الصغير أتكتب الشعر ؟

ـ لا يا إيفان أندريفيتش. أنا مشغول بتاريخ الأديغة وأنماط حياتهم الاجتماعية.

ـ هذه مفخرة، ظننتك ممن يكتبون الشعر.

ـ لا يدعوني قلبي إلى كتابة الشعر.

ـ هكذا ؟ ! لم آخذ عنك هذا الانطباع. إن كنت تقول هذا فالأفضل أن تتحرك كما يملي عليك قلبك. البحث في تاريخ قومك وأسلوب عيشهم مدعاة للفخر. أنا أسلي نفسي أحياناً بالأشعار الهزلية. بعضهم يراني موفقاً فيها، والذين يجرحونني ليسوا قليلين. لنمضَ، لن نشغل أنفسنا بهذه الأمور: الكلب ينبح والجمل يسير.

استقبلهما بورناشيف في الغرفة الأولى غير مهتم كثيراً بكيرلوف، موجهاً أكثر اهتمامه إلى خان جري:

ـ تفضلا، تفضلا ! بعدما تجاوزت الساعة السابعة قلقت من تأخرك يا خان جري لأن التأخر ليس من عادتك. نهارك سعيد يا إيفان أندريفيتش، أقدم لك سلطان خان جري.

ـ العقيد وأنا ـ لم يدع كيرلوف مضيفه يكمل كلامه ـ تعارفنا. إنه ضابط يتمتع بالاحترام. أعجبت به جداً. أنا يا أصدقائي الشباب سأستريح الآن في هذه الغرفة. ويسرني أن ترسل إليّ يا فلاديمير بيتروفيتش إلى هنا شراباً حلواً أو كأس شاي مع شيء من الإدام. أنتم ما تزالون شباباً ولا تعرفون شيئاً عن الهَرَم، أما أنا فيقلقني، يقول لي " لا تنسني ! ". من جاء من الضيوف يا فلاديمير بيتروفيتش ؟

_ كلهم جاؤوا.

_ أنا غير مهتم بالجميع _ جلس كيرلوف مغمغماً بما لم يعجبه _ أجاء ألكسندر سيرغيفيتش بوشكين ؟

_ حان موعد وصول بوشكين. وفادييه بياني ديكتوف بولغارين هنا.

لاحظ خان جري أن وجه كيرلوف تغير حين سمع باسم هذه الأسرة.

" لماذا استاء من اسم أسرة بولغارين المؤلَّف على نحو ساخر وموزَّى _ قال خان جري، ثم حضر إلى ذهنه شيء سمعه منذ زمن يتعلق بهذا الكاتب؛ تذكر أنه قرأ شيئاً كتبه بيلنسكي _ تذكر أن بوشكين كان يحمل معه مقطوعة مخطوطة ساخرة من هذا الاسم، وأن الضباط كانوا يضحكون لها. وكان الأعجب من كل هذا أنه رأى بولغارين على باب الكونت بنكندورف ثلاث أو أربع مرات _ نحن السرية الجبلية تحت أمرة بنكندورف؛ غير أن بولغارين الكاتب ماذا كان يفعل على بابه ؟ ربما كان في الأمر شيء لا أعرفه. نطق بورناشيف اسم بولغارين على نحو جميل، ولكنه لم يذكر لي اسمه خلال عملنا المشترك... حقاً لماذا أنا مهموم بعلاقات هؤلاء الناس مادمت أنفذ العمل الذي تأمله القيصر مني ؟ ولكن... "

كانت المشاجب في القاعة الأولى تنوء بملابس الخريف من معاطف الفراء الفاخرة للسيدات، إلى معاطف الرجال المتنوعة،والقبعات، إلى العصي المشربة بالفضة والذهب. والأحذية المتنوعة مصفوفة في أرض الغرفة.

ابنا غريش الأكبران ألكسي ونيكولاي يستقبلان الضيوف في قاعة المدخل الكبيرة. ويصل إلى خان جري من خلال الباب المفتوح صوت نسوي جميل مع صوت البيانو.

حين انتهت المرأة التي كانت تعزف مع أغنيتها على البيانو اجتذب التصفيقُ المرح خان جري إلى القاعة. وكانت المرأةُ التي ترد على تحية الجمهور بهزة رأس أولَ من لمحها خان جري. ومع هزة رأسها تساءلت: من هذا العقيد الشاب ؟ ولم تكن المغنية الشابة ذات القوام الرشيق التي كانت تنظر خافضة رأسها وحيدة في هذا التساؤل[1].

---

[1] في أحد أيام الخميس على ما أتذكر _ يكتب ف. ب. بورناشيف في جريدة زاريا عام 1871: _ حلّ خان جري ضيفاً على نيكولاي إيفانوفيتش. ضيف غريب، إنسان يقتحم وجهك. بين المجموعة الكبيرة التي كان يغلب عليها لابسو المعاطف الفاخرة ومعاطف الفراء ظهر فجأة شاب ممشوق القامة،معتدلها، طلق الوجه، صغير الرأس، مائل إلى السمرة، عيناه العسليتان تنضحان بالأفكار، شاربان رماديان صغيران، والشعر بلون الفحم محلوق قصيراً. كان هذا الشخص الداخل إلى بيت غريش لا ينقصه النشاط ولا الطيبة. شيء ما كان يشدك إليه. وفي ملامح وجهه وسلوكه نوع من الحزن والخجل. لم يكن يعرف الخوف. كان الشرر ينبعث أحياناً من عينيه المشحونتين بالأفكار، ولكن هذه الشرارات لا تعبر عن غضب بل عن قوة. كان يرتدي زي السرية الجبلية القفقاسية. الكساء الأزرق الجميل مزنر بزنار فضي. وعلى الصدر جعبة الطلقات، ويرتدي رتبة ضابط في الحرس. وعلى قبة القميص المستديرة زينة من الفضة. والقميص الأزرق المطرز يتناسب مع الكساء. والبند الفضي يتدلى من كتفه الأيمن.وكان هذا يدل على أنه مرافق للقيصر،وعلى القبة الصغرى

تجاوزت الساعةُ السابعةَ بنصف ساعة. واجتمع في بيت غريش نحوُ خمسين شخصاً. ولا يزال الضيوف يتوافدون. ويتبادلون الترحيب والابتسامات. والبيت الكبير مضاء بمصابيح خفية. وعلى الطاولة الكبيرة في الصالة تعرض الإصدارات الجديدة، وعلى الطاولات الأخرى في الزوايا سماورات ونُقولٌ (مازة) جافة، وزجاجات شمبانيا. ضيوف الخميس يجلسون في مجموعات حسب علاقاتهم. يشربون الشاي ويتبادلون أنخاب الشمبانيا. وتُقرأ الأشعار وتروى الأخبار المضحكة. يتفاخرون ويتضاحكون، ويتخاصمون ويتصالحون. وأمثال كيرلوف نوادر. مخادعون، مسترخون، آذانهم مفتوحة، متفرغون لكؤوس الشاي.

يلتفت خان جري نحو بورناشيف وهو لا يدري سر غياب غريش عن كل هؤلاء الناس. فيهمس له الآخر وقد عرف سر قلقه:

_ حان موعد وصوله. هو الآن في النادي الإنجليزي. انظر؛ أترى بولغارين ؟ فاديه فينيديكتروفيتش (بولغارين) مرشح لعضويته فهو قلق لهذا. إنه ذاك الرجل النحيف ذو العينين الباهتتين المرتدي معطفاً من الفراء. يجلس دون جاذبية بحواجب بيضاء إلى جانب سينكوفسك. امش نسمع ما يقولون. لنقترب منهم! سينكوفسك ماهر في اللغات. يتقن العربية والتركية. وسمعت أنه يتعلم الأديغية. سأعرّفك الاثنين.

تعرف خان جري على بولغارين لحظة دخوله القاعة وإن لم يقدموه له. وكان بِوُدِّ المغنية أن تقرّب إليها خان جري وهي ترفع كأسها له، بَيْدَ أن بورناشيف سحب خان جري غير عابئ برغبتها إلى حيث قرر.

ودون اهتمام بسينكوفسك وبولغارين كان الكاتب كوكولنيك والرسام ياننك يلعبان الشطرنج. كان كولكوفنيك ضخم الجثة عريض الوجه كأنه قُدّ بالقدّوم. أما ياننك فكان أحمر الأنف والوجه ما يدل على أنه غاوي شُربٍ. وينادون ياننك بالاسم الذي سماه به غريش:" بياننك "، أي: السِتّكِير.

يروي بولغارين سينكوفسك محاولاً الخروج من قلقه:

_ انتظر لحظة يا أوسيب إيفانوفيتش ! لنر كيف يلعب بياننك الشطرنج. أتعرف ماذا فعل هذا الرجل حين شرب قبل أيام عشر كؤوس من الشمبانيا ؟ قال لغريش: " انظر يا نيكولاي إيفانوفيتش كيف يجب أن تشرب الشمبانيا ! " ثم سكب ما تبقى من الكأس العاشرة على رأسه الأصلع. قال له نيكولاي إيفانوفيتش: " أوافقك، ولكن كان الأفضل أن تسكب الكأس في بطنك، لا على رأسك الفارغ " ها، ها، ها ! ما أعجب أن تسكب الكأس الفارغة على الرأس الفارغ!

أجاب ياننك مبتسماً ببراءة دون أن يعير اهتماماً إلى ما سمع، ودون أن يرفع رأسه عن رقعة الشطرنج:

للقميص وسام ستانيسلاف وآنا على شكل أشرطة وهو ما كان يمنح للمسلمين. بالإضافة إلى ما قد يكون صور شخصيات مسيحية مطموسة الوجوه على ريشة القيصر وقبعته. من كان هذا الشاب الأديغي الوسيم عقيد الحرس القيصري، كان خان جري.

_ لا أتهم غريش بالكذب، ففيه شيء من الصدق وإن كان مراً، ولكن لأن بين عقليكما،أنت فادييه فيغلياربن،وغريش، ما بين السماء والأرض فلا ألومك مهما لمحت لي. وسأقول لك ما هو أعجب: كيف نفهم أن ليسنكوف يبيع صورتك بعدما وضعها محلَّ صورةٍ مطبوعة بالحجر لكلاّب فرنسي اسمه بيدوك ؟ ها ها ها !

_ لعن الله ليسنكوف ! _ صرخ بولغارين بصوت مبحوح، ثم قال لسينكوفسك: _ صحيح أن ليسنكوف عمل معي مثل هذا المقلب، ولكني أرسلت له أمراً بالتوقف عن بيع صورتي.

وفي هذه اللحظة دلف الابن البكر لغريش إلى القاعة وأعطى لبولغارين الورقة التي تتضمن انتخاب فادييه فينيديكتورفيتش عضواً في النادي الإنجليزي.

أبلغ بولغارين بالبولونية الخبر إلى سنكوفسك وقد بدا عليه الفرح. وقبل أن يجد الوقت للفرح توقف غريش في المكان الذي يقف فيه كوكولنيك و يانينك و البارون روزين وياكوفليف الأحمرُ الوجهِ القصيرُ وأرتيشكوف وآخرون.

_ على ما يبدو يا نيكولاي إيفانوفيتش فقد أُنتُخبتُ بالإجماع في النادي الإنجليزي، حقاً ؟ _ سأل بولغارين مُسمعاً الجميع الخبر السار.

_ نعم، كما يحدث أحياناً فقد منحوك " بالإجماع " _ مزح غريش مع زميله في العمل وأضاف باسماً: _ إن أردت الحق يا صديقي القديم فأنا الوحيد الذي منحك صوته، ألا يمكن أن تفهم من هذا أن الجميع منحوك ؟

تضاحك يانك الرسام والبارون روزين وآخرون. وتظاهر كوكولنيك بأنه يتأمل رقعة الشطرنج.وضحكت امرأتان تقفان في مكان بعيد بصوت حاد. نظرت كاترينا إيفانوفا أخت غريش إلى النساء شزراً، وكذلك إلى أخيها. والتي كانت صامتة البتة هي زوجة نيكولاي بربارا دانيلوفنار.وأما ابنتهما الكبرى صوفيا فابتسمت هي وخان جري وهي تنظر نحوهم. وبدأت المغنية العزف على البيانو.

بحث بولغارين عن قبعته عازماً على الانصراف.

_ فادييه إلى أين تذهب ؟ استعجل غريش _ لماذا انصرفت ؟ الآن ينتهي النادي من لعبة الورق وينضم إلينا شاعرنا العزيز الكسندر سيرغيفيتش بوشكين. يا أليشا ويا كوليا اطلبا من عمتكما أن تبرّد لنا الشمبانيا.

لم يقبل سينكوفسك الانصراف مع بولغارين:

_ لماذا أنصرف كأني أختبئ من بوشكين ! أود رؤية شاعرنا الحبيب، وأود أن أقول له بضع كلمات.

وفي هذه اللحظة دخل من كان الجميع بانتظاره: بوشكين[1].

_ هذا هو "بولغارين (ي)" يا ألكسندر سيرغيفيتش _ قال غريش الممسك بقبعة فادييه. كان ينوي الاختباء منك. ولكن كما ترى أجلسته. لن أسمح لكوسيجكين وفيغلياريين[2] أن ينصرفا دون أن يتصالحا

_ أنا بوشكين _ قال بوشكين بوجه عابس نوعاً ما. وبولغارين هو بولغارين. لا شيء يتشابه فيه كوسيجكين وفيغلياريين في نمط حياتنا وسلوكنا. لذا، وفيما نحن نحتسي الشمبانيا، لماذا نُقحم بوشكين وبولغارين في ما لا شأن لهما به ؟ لا أرى نفسي قبيحاً جداً كما يراني. ولكن عليه أن يفهم أنه يحارب تحت ألوية مختلفة. الحق أنه ليس في قلبي حقد على فادييه فينيديكتروفيتش، ولكن كنت أتمنى لو لم تذكّرني صورة فيدوك التي اشتريتها اليوم من بائع الكتب ليسينكوف بملامحه. يا لَباعة الكتب عندنا ! لا يقررون إلا ما يفيدهم. ثم إن لقاءنا أنا وفادييه فينيديكتوفيتش اليوم كان خيراً.بما أني كنت بدأت أكتب لجريدة تصدر في موسكو شيئاً من ذكرياتي كنت أتمنى أن أسأله عن أمر ما، ولأوريست ميخائيلوفيتش سوموف علاقة بهذا الموضوع: إن كنت تتذكر بعد 14 ديسمبر كنت أود أن أعرف كيف أوقفوه ثم أطلقوا سراحه[3]أظنك مطلعاً جيداً على هذه الحكاية يا فادي فينيديكتوفيتش.

خائفاً من المشكلة التي يمكن أن تنجم من خلال المزاح بين بوشكين وبولغارين في الأمسية الأدبية أعطى غريش مساعدَه الأدبي قبعتَه. وفيما بولغارين لم يتجاوز الباب بعدُ قال غريش فجأة شاعراً بأنه لم يقدِّم خان جري للمساهمين في أمسية الخميس، وبهذه الحجة:

_ أيها المحترمون ! لم أقدم إليكم بنفسي ضيفنا الليلة. هاهو خان جري، أديغي محترم معروف. ضابط في جيشنا، سمعته ممتازة. وما على صدره من أوسمة تشهد له بالشجاعة وإن لم أقدمه إليكم. مخلص لقيصرنا

---

[1] فجأة، ودون أن ينتبه إليه أحد دخل الرجل غير الجسيم _ يتذكر بورناشيف _ كان شعره الأجعد الطويل مشعثاً أسود رمادياً. وشعر سوالفه يغطي وجهه الشاحب، يرتدي سترة قصيرة قرميدية اللون. ويمسك بيده اليسرى قبعة ناعمة مطوية. في وجهه شيء غير مألوف يُذكِّر بالإنسان الهجين من العرقين الأبيض والأسود. كان أنفه أفطس قليلاً، وشفتاه حمراوين قانيتين عريضتين. وأسنانه التي يُبديها الضحك بيضاء ناصعة. كان هذا من ينتظره غريش: ألكسندر سيرغيفيتش بوشكين.

[2] هما لقبان للمعابثة أعطاهما غريك إلى كل من بوشكين وبولغارين، وتعنيان الأحول أو المائل، والكلمة الثانية من أصل بولوني. مصادر

[3] ذهب الكاتب المعروف و. م. سوموف إلى بولغارين قاصداً المزاح معه. تظاهر بأنه هرب من قلعة بيتروبافلوفيسك ورجا بولغارين أن يحميه. وكما يروى فإن بولغارين حبس سوموف في بيته وبحث عن طريقة لحماية صديقه. والبوليس الذي حضر بعد ساعة اقتنع بأن سوموف مزح مع بولغارين. ولكنهم يروون أنهم لم يغفروا لسوموف مزحته لأنه حُبس بسببها في القلعة ثلاثة أيام.

العظيم، وموضع ثقته، وحامٍ له. مشغول بتاريخ قومه وعاداتهم ونُظُم حياتهم، بقصد تقريبهم منّا. نقول له: تفضل، ونحن معك !

صفق كل الذين التفتوا إليه معاً. وحاولت عازفة البيانو مواكبة التصفيق بعزفها.

_ برافو أيها الشركسي ! _ صرخ بوشكين وهو يرفع الكأس.

جلبت صوفيا ابنة غريش الكأس لخان جري، فابتسم سينكوفسك، واقترب من خان جري:

_ أأنت أديغي ؟ سأل بالأديغية.

_ نعم أديغي _ أجاب بالأديغية متعجباً مما سمع.

_ أأنت شركسي ؟ سأل بالتركية.

_ أنا شركسي. أجاب بالتركية.

_ أأنت شركس؟ سأل بالعربية.

_ نعم أنا شركس. أجاب بالعربية مبتسماً.

اسأل ضيفنا الذي استحق كل هذا الثناء إن كان يعرف البولونية يا بارون برامبورس !

_ أأنت شركس؟

_ نعم أنا شركسي، يمكنني أن أؤلف بعض الجمل بالبولونية. _ أجاب خان جري مزاح بوشكين بمزاح مماثل وكأنه يعرفه طوال عمره.

_ برافو أيها الشركسي ! _ تعجب بوشكين مما سمع، وقال لسينكوفسك: _ الآن يا أوسيب إيفانوفيتش يكفي ما فهمه ضيفنا الأديغي من إتقانك عدة لغات. أظن أن ما يعرفه خان جري من لغات ليست أقل مما تعرف. ونحن محتاجون إلى هذا الأديغي. وليس قليلاً ما كتبتُه بشأن الأديغة. ولكن منذ زمن بعيد سمعت اسم هذا الضابط المحاط بكل هذا المديح وكنت أتمنى لقاءه.

بدأت عازفة البيانو التي انتشت من الشمبانيا تغني بصوت عال شعر بوشكين:

" الأديغي مدجج بالسلاح

وهذا يُسعده ويمنحه الثقة.

يلبس قميصاً من جلد الحيوان.

ويحمل حبلاً مجدولاً وبندقية ".

_ برافو أيتها العازفة ! _ ظهر على بوشكين السرور بما سمع _ تقرئين شعري جيداً، شكراً. ولكني أنا صاحب هذا الضابط الأنيق الآن، ولستِ أنتِ يا مدام،(بالفرنسية في الأصل) فاغفري لي، حتى لو كنتُ مجرد طالب حربي _ ضحك بوشكين بصوت حاد _ سأسرقك من بين هؤلاء نحو المقعد الوثير في تلك الزاوية. هاتوا لنا شمبانيا باردة. وحين استقرا في المقعد سأله بوشكين بنظرة مخادعة ولكنها دافئة:_ ألست

أنت الذي لم يعجبه السطر القائل في " السيد الجذاب ": " أيها الأديغي الشجاع استسلم ! ها هو يرمولوف قادم"؟ إن كان هذا صحيحاً وأنت الذي قال هذا فأنا كاتبه.

_ لا حاجة يا ألكسندر سيرغيفيتش لكل هذا التعليق _ ابتسم خان جري وقال بصوت حازم: _ أنا من لم يعجبه هذا السطر !

_ لا يجوز إجبار المرء على ما لا يعجبه. ولكني أحب أن أعرف رأي القفقاسيين الصريح في كتاباتي.

_ أفهم يا ألكسندر سيرغيفيتش، أقول لك لِمَ لم يعجبني: ربما ما كنت توقفت عند هذا السطر لو كان موجهاً إلى شخص معين. أنا أحترم ألكسي بيتروفيتش يرمولوف. وأحترم شجاعته. ولكن أن تُخضع لشخص واحد القفقاسَ الذي يضم أقواماً كثيرة دون اعتبار لشيء، وأن تسوقه إلى شخص واحد يخيل إلي، ولا أدري إن كنت مخطئاً، ظلمٌ شديد.

" ما أعجب ما قال لي ! " _ تعجب بوشكين في قلبه مما سمع _ هذا الأديغي الجالس أمامي والحامل رتبتنا العسكرية العالية إنسان مفكر. ما قاله لي، لا أتحدث عن أصدقائي، لم يقله لي ألدُّ أعدائي بمن فيهم فيازيمسك. وحتى الناقد بيلنسكي لم ينتبه إلى هذه السطور. كيف يحدث هذا ؟ إذن يحتمل هذا السطر الذي كتبته بكل اعتقادي ومن كل قلبي تأويلين. إن هذا السطر يعبر عن فكرين مختلفين لمن يكتب، ولمن يُكتب له "

_ نعم، نعم يا خان جري، أيها العقيد _ قال بوشكين ما هو قريب من القلب ولكنه لا يوافقه _ قد يكون في ما خطر لك شيء من الصحة، هذه فكرتي أنا. وأنا كاتبها. " إن كان ضابطنا عنده مثل هذه الأفكار الممتازة فما الذي يحدث في إقليم القفقاس الآن ؟ أيُحتمَلُ أننا لا نفهم الأديغة الذين نكتب لهم ونقول كما نظن ؟ ألم يسمع ما قلت فيهم من مديح، مزيحاً إياه جانباً، متوقفاً عند السطر الوحيد حريصاً على شعوره القومي بالحرية ؟ ليس الأديغة الهمَّ الوحيد لهذا الرجل،إنه مهموم بالقفقاس كلها. ونحن لسنا بعيدين عنه، لقد قربناه إلينا ووثقنا به وأنشأناه فكيف يحدث هذا ؟ وأي جواب يستحقه ؟ " سأل بوشكين نفسه محتاراً ولكنه أزاح السؤال دون استعجال: _ أقرأت " سهل أتجغويا " ؟ قاز جري هو من كتبها. كتبها بروسية ممتازة يحسده عليها كثيرون ممن لغتهم الأم الروسية. وقد طبعناها بسرور.

_ قرأت يا ألكسندر سيرغيفيتش _ قال خان جري مسروراً بامتداحه لقاز جري _ وسرنا رأيك فيها وأعطانا دفعاً معنوياً.

_ أأنت وقاز جري أقرباء أم اشتراك في النسبة ؟

_ من جهة انتمائنا البعيد إلى " القرم "، ومن جهة النسب " جري "، ومن جهة تفكيرنا _ ابتسم خان جري _ ومن جهة دمنا الأديغي فنحن أقرباء.

_ والدم الروسي يا " غِيري " ؟ سأل بوشكين بعين مخادعة حادة ناطقاً الاسم بلكنة روسية.

_ لن أدّعي ما ليس في عِرقنا يا ألكسي سيرغيفيتش _ ابتسم خان جري للشاعر المشهور _ ولكن إن وقفنا مع روسيا وعاشت في قلوبنا فسيكون دمها فينا.

_ شكراً هذه مفخرة لك. أنا أسألك عن أمر آخر: أنت شاب ورشيق ومتناسق...

_ أفهم يا ألكسندر سيرغيفيتش. لم أفكر في هذا. ما يزال العمر أمامي.

_ وهذا صحيح. يجب أن يكون الإنسان حراً. يولد في فرح ثم يفارق الدنيا مع العويل. لنرفع هذه الكأس نخب الحرية !

_ لحرية من سنوجه الكأس يا ألكسندر سيرغيفيتش،لحرية شخص أم لحرية شعب ؟ _ سأل خان جري معتداً بهذا القدر من الثقة التي تنمو بينهما.

_ يا سيّد أنظر إليك فلا أراك مجرد روسي، أنت أديغي ماكر _ غمز بوشكين خان جري وعيناه مملوءتان بالدعابة _ أنت مخيف أكثر من هذا الـ" فيلغلياري ن "؛ أرفع هذه الكأس لحريتنا نحن الاثنين. ولكن إن حدث وانتقدتَ كلامي فكما قلت لك، بما أني أنا الكاتب، لم يحدث أن ندمت على مافعلت أو قلت. وإن كان رأيك هذا فوجّه النخْب إلى الحرية التي تريد _ قال بوشكين بسرعة وهو يضع القدح الفارغ: _ احذر ها هو فيلغلياري ن قادم نحونا. _ غيّر بوشكين موضوع الكلام بسرعة _ كنا سنطبع في جريدتنا إحدى كتاباتك بعد استئذان الكونت بنكندورف[1]، لا كما فعل قاز جري الضابط حامل العلم.

VII

العام 1836 الذي كان يحاول التشبث بموقعه من خلال خريف مبلول العقبين غلبه العام الجديد بثلوجه البيضاء. وغمر من العام المهزوم _ باستثناء أفراحه _ أحزانَه، وشوارعَه غير النظيفة، وأشجارَه العارية، وآمالَ الناس الخائبة، و الحدائقَ نصف المجنية، والقبورَ المحفورة حديثاً.

والسنة الجديدة التي يتحدثون عنها والتي لم تصل بعد،ولو أن السنة القديمة كانت تقسو عليها في سان بطرسبورج بأيامها الصقيعية الأخيرة، فالوجوه الطافحة كانت تفرح بها، وتسبب للخالية منها الرعشة وهي تغمغم قائلة إن الشتاء يستعجل علينا في تكبره، و تسألها أن تحقق لهم ما يتأملون.

لم يبدأ الاختلاف في المعيشة اليوم. الأمر نفسه، منذ خُلق العالم، كما في أيامه المشمسة، وفي غيومه المرعبة، وفي طرقاته المشؤومة، وفي أمطاره الكارثية، هو في حياة الناس الذين تغلي دماؤهم على الأرض،

[1] بعد أن طُبع "سهل أتاجغويا" يكتب الكونت بنكندورف إلى بوشكين مشدداً، مذكراً إياه بالأمر القيصري عام 1834: الآداب التي يكتبها من يخدم في الجيش ومن يعمل في البلاد المجاورة ومترجماتهم مهما كان تاريخ الكتابة لا يحق لهم طباعتها إلا بموافقة رؤساء الأقسام والأركان والمسؤولون " ما كتبه قاز جري الضابط حامل العلم الذي أشرنا إليه كان عليّ أن أراجعه، ومسؤول مكتبي لم يقدَّمه إلينا قبل النشر.

وفي حياة الذين تشققت شفاههم. هذا كان، وسيكون. لا يهمها إن اشتهيتها أم حسدتها. الحياة تمضي. القادر يغتني، واليائس يحرث باطن الأرض.

كانت بيوت سان بطرسبورج وشوارعها ومطاعمها ومشاربها فارغة من الناس حتى إنك لا تراها في الضباب رغم أن عشية رأس السنة كانت باردة بلا هواء. وفي حدود الساعة التاسعة ظهرت العربات والزحافات المجهزة جيداً التي تجرها الأحصنة النشيطة في المدينة التي تستعد للسكون تنبعث من زوايا الشوارع تدخل ساحة دفورسوف وتسرع إلى باب القصر الشتوي. والناس الخارجون منها، بغضّ النظر عن مواقعهم الاجتماعية في الحياة، وعن أسمائهم وعن رتبهم العسكرية، يملؤون المداخل بألعابهم التي يشارك فيها الرجال والنساء. و ليسوا قليلين الذين من بين هؤلاء لا يعبؤون بما حولهم فيصيبهم البرد. والرجال العازبون أمثال خان جري الذين يغبطون من معهم نساءٌ يخرجون من زحّافاتهم ومن عرباتهم. ويتجهون متجنبين أن يعرفهم أحد إلى القصر الكبير المتلألئ.

وفي جانب من القصر الشتوي الكبير، من جهة نهر نيفا، لا يخلو مدخل سفراء الدول من الناس. وهؤلاء يغلب عليهم، بصفتهم أغراباً، احترام النفس والوقار. ولكن يظهر عليهم أيضاً أفراح العام الجديد الذي سيحل بعد بضع ساعات وآماله.

لم يكن خان جري الذي ذهب إلى احتفال القصر الملكي وحيداً في قلبه وإن كان بلا رفيق.وريثما خلع معطفه في القاعة الفسيحة الأولى التي لم تكن جديدة عليه، وكما اتفقا، بحث عن تاتيانا بعينه وقلبه. كان يختلس النظر إلى الباب وإن تشاغل بترتيب شعره الكستناوي وشاربيه. وما إن قال في نفسه " هذا موعد وصولها إن لم تصل فعلاً، وابن عمها المقدم رغم أنه يهوى الشرب أكثر مما ينبغي صادقٌ نحو ابنة عمه التي هي كأخته " حتى رأى في المشلح المقابل تاتيانا يساعدها أحدهم في خلع معطف الصوف الأزرق المبطن بالفراء. وبوشكين المحاط ببضعة أشخاص لا يعرفهم واقف مهملاً زوجته وإن لم يكن يحدّثهم بالكثير. كان بوده إلقاء التحية على بوشكين ولكنه تصبّر لأن زوجته ترافقه. ولفته النداء:

_ يا خان جري، أيها المحترم المنير _ اقترب منه ألكسندر سيدنفسك بجسده الضخم وقد بدت عليه علائم الشرب _ أين ضعت في هذه الأمسية ؟ نحن ننتظرك في الشارع... هناك يشرب الضباط الشمبانيا فيعبثون... امضِ، بسرعة. ها، هذا بوشكين ؟ ! _ نظر سيدنفسك نحو الجهة التي ينظر إليها خان جري. وضحك ضحكة لم يكن يريدها ظاهرة _ معه زوجته الجميلة ناتاليا نيكولاييفنا، همس سيدنفسك في أذنه: _ هيا انهض ! سنكون أحراراً في أن نحييها ونحدّثها حين يوعز القيصر بالرقص. وذاك هو البارون العجوز غيكيرين مع ابن زوجته قد جاء، ها، ها، ها.

_ يا ألكس، يا ألكسي ريخاردوفيتش _ لم يقبل خان جري طريقة ضحك المقدم سيدنفسك _ لا يجوز التصرف بهذا الشكل هنا. تعال هدّئ نفسك بالشمبانيا !

_ نعم، نعم يا سيد. فهمت. أعدك ألا أتجاوز القليل الذي تتجرعه أنت.

تلبس تاتيانا كونستانتينوفا الثوب الأبيض الجديد اللماع الذي فصّلته من أجل احتفال القيصر. والإيشارب الأسود الذي أُسدل طرفاه على الكتفين منسجم مع الحذاء الأسود. وتبدو أرشق مع الثوب الملفوف على جسدها حتى الخصر. والثوب المنفوش من الأسفل ينسجم مع الشعر المرفوع. والملقط الأبيض ــ الأسود المصنوع من الصدف والقرطان المرصَّعان بالأحجار الكريمة، والخاتم المرصع كذلك بها، كلها تنسجم مع الأزرار المستديرة على وجه الحذاء.

لم يكن خان جري يرى الثوب للمرة الأولى ولا الثانية. حين أرته في البيت الثوب المخيط حديثاً كان هو ومن ترتديه جميلين حتى ليبهران البصر. ولكن تانا أجمل هذا اليوم، وأشد سحراً. ولم تكن لتضيع في وسط النساء الشابات والمسنات اللواتي تقف بينهن، ولا الضباط ذوي الرتب الذهبية.

ــ أنتِ اليوم أجمل من جمالك الاعتيادي، أخاف أن يسلبوكِ مني ــ همس لها وهو يقرع بكأس تاتيانا كأسَه التي لم يرشف منها إلا رشفتين أو ثلاثاً.

ــ وأنتَ اليوم، كما في كل يوم، تلمع من بينهم ــ ردت تاتيانا على همسه بالهمس ــ اطمئن من جهتي، أخاف عليك أنت ــ ثم قالت له وهي تضع الشفتين اللتين دقّأتهما الخمر على أذنه: ــ إن وافقتني فلن نبقى معهم بعد حلول العام الجديد إلا حوالي الساعة، ستفعل كما يفعل الأديغة: تخطفني من بينهم وتعيدني إلى بيتي.

ــ بكل سرور ــ همس لها خان جري ــ ولكن هذه ليست طريقة الخطيفة عند الأديغة. الشاب يأخذ الفتاة إلى بيت أهله أو بيت أحد أقربائه، وليس يعيدها إلى بيتها.

ــ ما كان أحسن أن تتحلى بمثل هذه الرجولة الأديغية... ولكن ليس عندك هنا بيت تُنزلني فيه.

ــ ولماذا ليس عندي ؟ ــ مزح معها ــ ألن أجد في بطرسبورج العظيمة بيتاً ؟

ــ أنت مخطئ يا حبيبي، مخطئ ــ ابتسمت تاتيانا مرة أخرى لخان جري بخبث، ونظرت نحو ألكسي الجالس على المقعد المقابل يشرب الويسكي ــ سان بطرسبورج ليست مدينتك، ولا روسيا بلادك، بيتك وبلادك هما المكان الذي جئت منه.

ــ تاتيانا !

ــ نعم يا صديقي...ــ ابتسمت له بدفء ــ ولكن سنتكلم على هذا فيما بعد... سينضم إلينا القيصر الآن.

رجع المحتفلون برأس السنة إلى الجدار، وكلٌّ محتفظ بمكانه في الترتيب، وبينهم البوابة الواسعة التي سيخرج منها القيصر مصحوباً بزوجته. والكونت بنكندورف والكونت شيرنشيف، ووجهاء آخرون، والوزراء تجمعوا في جانب. وفي الجانب الآخر اجتمع سفراء الدول. وقطع أغنيتَهم المغنون الجالسون على المنصة الواقعة على يمين البوابة. وانفتحت البوابة الكبيرة المطلية بالذهب والفضة، والمزخرفة بالنقوش. وظهر القيصر نيكولاي بافلوفيتش وزوجته ألكسندرا فيديروفنا إلى يساره. وحنى كل مَن في القاعة رؤوسهم إشارة احترام.

حين أجلس القيصر زوجته بدأت رقصة الفالس السريعة. ووقف نيكولاي الأول دون أن يدخل الساحة تماماً ونظر حواليه. وافتتح السنة الجديدة برقصة مع أقرب النساء إلى مكانه. وبعده بدأ المحتفلون ينزلون إلى الساحة يفتلون بحذر أزواجاً، والذين لا يرقصون يقفون جماعات في الزوايا أو يجلسون بالملابس السوداء، والخدم يدورون بكؤوس الخمر يرتدون قفازات بيضاء. وتُطلق الأوراق الملونة اللامعة على رؤوس الراقصين الذين يتضاحكون ويعيشون سعادة مشتركة. رقص خان جري وتانا أكثر من مرة معاً.والآن يرقصون مع المازوركا الفالسَ السريع، ويقول خان جري لتاتيانا:

_ انظري ! ما يزال القيصر يراقص ناتاليا نيكولاييفنا... والعجوز غيكيرين ودانتيز لا يرفعان رأسيهما عنهما... أين بوشكين ؟ يا حسرتي يا ألكسي سيرغيفيتش بوشكين يا أيها العقل العظيم للأدب الروسي! أصحيح ما يُشاع عنك أم كذب ؟ والروح الوحيد للروس كيف استطعت أن تفعل هذا ؟ _ تقول تاتيانا في قلبها ثم بعد قليل تلفت نظر خان جري غير راضية بما ترى: _ انظر؛ هاهو دانتيس يراقص ناتاليا نيكولاييفنا... امش يا خان جري ! لا أتحمل رؤيتهم.

_ أنا حاضر منذ هذه اللحظة لأسرقك منهم... ولكن ألم نتفق على ما بعد رأس السنة ؟

_ أيها العقيد المحترم _ لفت نداء الروتميستر خان جري إلى الوراء _ الإمبراطورة تدعوك إلى رقصة!

صحب خان جري الإمبراطورة إلى الساحة التي أخلاها الراقصون، وسألت ألكسندرا فيدوروفنا وهي ترقص:

_ كيف تسير أمورك يا مرافق القيصر؟ ألا تخدم بكل إتقان ؟ أسأل عنك أحياناً فيُثني عليك القيصر العظيم.

_ شكراً لك يا ألكسندرا فيدوروفنا !. أموري على ما يرام. وأؤدي خدمتي بإخلاص في حضرة قيصري العظيم.

_ وما أخبار الشركس في نواحيكم أيها المحترم ؟ خُيِّل لخان جري أن صوت الإمبراطورة الناعم اكتسى الآن مزيداً من الجدية.

_ يمكن أن أقول إنه لا تأتيني أخبار من تلك الناحية يا سموّكم _ لم يستطع خان جري أن يفصح عما في نفسه تماماً _ لا أظن الأمور جيدة حسب ما أسمع هنا.

_ حقاً أيها العقيد صحيح، الشراكسة لا يريدوننا، يقاومونا _ مَن هذه المرأة الشابة التي كنت تراقصها ؟

_ هي سيدنيفيسكايا ريابينيا.

_ أهي ! كنت أعرف أباها الكونت كونستانتين مازيبوفيتش، كان رجلاً طيباً، وكان عنده أملاك كثيرة في بولونيا وهنا. على ما أسمع قُتل زوجها على الجبهة الشركسية... كيف تعرفت إليها أيها العقيد ؟

_ كانت حمتني من مجموعة من قوزاق روستوف وهي تنقل جثمان زوجها من القفقاس _ كان كلام خان جري صحيحاً غير أنه اختتمه بكذبة: _ ومن ذلك الوقت لا أجحد معروفها. حافظتُ على صلتي بها.

_ أهكذا أيها العقيد ! _ لم يُبد خان جري على نفسه انفعالاً ولو أنه خيل إليه أن كلام الإمبراطورة تشع منه البرودة _ إن كان قومك لا يطيعون فلن ينساك من قتلوا زوجها. هذا نمط من الحياة، وربما لهذا قال الفرنسيون: " سي لا في"[1]

سمع خان جري من ورائه بعدما صحب الإمبراطورة إلى مكانها وحيا الإمبراطور برأسه:

_ شركسيك شاب يا نيكول _ قالت الإمبراطورة بالفرنسية _ راقصتُه عدة مرات في حفلاتنا فاكتشفت أنه صاحب عقل وتهذيب. يرقص جيداً ويتكلم بطلاوة.

_ هكذا يا عزيزتي ! ويخدمنا نحن _ كانت فرنسيةُ الإمبراطور مختصرة.

حيا خان جري، وقد لاحظ أن المشاركين في الحفل يرمقونه، بنكندورف وشيرنشيف وبعض الوزراء. وحيا برأسه زوجة بوشكين ناتاليا نيكولاييفنا، وإن لم يكن يعرفها معرفة وثيقة، كُرمى لزوجها، مبرزاً إياها من بين رفيقاتها المرحات. ثم رجع إلى مكانه.

قدم العام الجديد الذي ينتظره المحتفلون وبأيديهم كؤوسهم. وبدأ الجميع يعدون دقات الساعة الاثنتي عشرة. ومع الدقة الأخيرة رفع القيصر كأسه وقال:

_ أدعو لكم أن يكون العام الجديد عام 1837 عام خير عليكم وعلى البلاد. وأهنئكم !

وارتفعت أصوات قرع الكؤوس. ودعا كلٌّ بقلبه ولسانه أن يكون العام الجديد عام خير عليه. وتعانق من لا يعرف بعضهم بعضاً. ورسموا إشارة الصليب. وتبادلوا القبلات. وتصايحوا.

ويقرع خان جري وتاتيانا الكأسين ويتضاحكان، وتقول الأنثى:

_ بما أن الجميع، من يعرف بعضهم بعضاً ومن لا يعرفون، يتبادلون القبلات فلن أعترض يا حبيبي الشركسي إن كنت تنوي شيئاً من هذا.

_ إن لم أهنئ أختي الوحيدة في رأس السنة _ يقترب سادنيفيسك أليكس مردداً ورأسه يدور به _ وأنت أيضاً يا خان جري، فمن أهنّئ ؟

إن كان في حفلة رأس السنة أحد لم ينتش بالشراب فهو خان جري. لم يشرب هذه الليلة على عادته في الحذر. كانت الكأس بيده ملأى وإن قرعها آخرون.

إن لم تسكر رأيتَ الكثير وسمعت ! رأى خان جري فجأة من كان يبحث عنه طوال الحفلة: كان بوشكين مع زوجته يقفان بين الأقربين إلى القيصر. ورفع إليه الكأس بما يعني التهنئة، وأظهر له أنه فرّغ الكأس فقابله بوشكين بالإشارة نفسها.

_ يا خان جري؛ عجيب ما رأيت؛ فقد شربتَ كأساً كاملة ! _ صرخت تاتيانا: _ إن تداعت ساقا أسدنا الشركسي... !

---

[1] هذه هي الحياة، بالفرنسية. المترجم

_ أنا وبوشكين يا تانيوشا تبادلنا الأنخاب من قلوبنا، وتبادلنا الكلمات والتهاني.

_ حسناً فعلت يا خان جري ! لو رأيته لرفعت له أنا أيضاً كأسي. ليس هناك شيء لا يستحقه هذا الشاعر الروسي العظيم. يتهمونه ظلماً بما لا يستحق. يشيعون عنه أموراً سيئة.

بدأت الموسيقا وبدأ الراقصون يتوافدون إلى الساحة وهمست تاتيانا لخان جري:

_ لنمش !

_ ألم تطلبي مني أن أخطفك من بينهم ؟

_ نعم، نعم، ولكننا سنسرق بعضنا _ نحن الاثنين _ بالتوافق.

_ وأليكس ؟ _ سأل خان جري باحثاً عن ذريعة لعدم ترك الاحتفال.

_ وأليكس يعرف، لم يشبع أخي الأكبر بعدُ رغم الكؤوس المترعة _ ابتسمت تاتيانا مشفقة على ابن عمها، ثم سألت بحاجبين رفيعين عاليين: _ ألا تحدثك نفسك بمفارقتهم أم تريد أن تراقص الإمبراطورة من جديد ؟ غداً وبعد غد _ أتمت بصوت ناعم _ ستجد الوقت لقيصرك ولبنكندورفك ولشيرنشيفك ! وكما كان أبي يقول: ستجد نفسك مللت منهم.

أوقفت تاتيانا العربة حين وصلت إلى ضفة نهر نيفا:

_ لنتنزه قليلاً على الضفة يا خان جري !

_ ألن تبردي يا تانيوشا ؟

_ لا، أنا مسرورة القلب. أريد أن نمضي بعض الوقت معاً على الضفة.

قال خان جري للسائس:

_ اسبقنا !

أتتذكر يا خان جري هذا الموضع ؟ _ توقفت تاتيانا _ رأيتك ورأيتني لأول مرة عند هذا المقعد. كم عاماً مرّ على هذا ؟ ذهبت أفراحي وأحزاني مع تلك الأعوام. والآن التقينا من جديد في هذا الموضع. كأنما كُتب هذا على جبيننا. قبّلني بقوة، بقوة، محطماً قلبي !

_ يا تانا، تانيوشا؛ لنذهب إلى البيت !

_ لا ! هنا، وفي البيت.

الكتاب الثامن

I

مهما يحافظِ النهر على قوامه ويفضْ ماؤه تبقَ ضفافه، ويرفدْ نهراً آخر أو يضعْ في البحر. وتمضي حياة الإنسان، بل تجري، دون أن تلتفت إلى ما يحدث خلفها، تنتظر ما سيجري وتستعجله، وتربي الحياةُ كما تريد من سيفعل الأحداث القادمة ومن سيرتبها.وعلى الوقت الذي فات أن يميز أمثال هذه الأمور.

ما فعلوه ببوشكين في بلاده لن تفهمه روسيا الآن. ولا ما يجري في القفقاس، بل فيما بعد. لا يتذكر أحد أنه سعِد بعمل أداه مرغماً.

" وأنت يا خان جري ؟ " _ مهموماً بالسبب الذي استدعوه لأجله على عجل إلى عاصمة القيصر سأل نفسه بنفسه _ كيف سنتفق الآن أنا وأنت ؟ في أي يوم بل في أي سنة، بل في أي قرن سأترك خيري وشري ؟ وأيهما ؟ السنوات العشر ليست كثيرة. ولكنها كثيرة بالقياس إلى ما عانيت. قال لي القيصر، ليس بعيداً في منتصف نيسان الماضي. كتاباتي أرضته وهو راض عن خدمتي العسكرية؛ لماذا يستدعيني إذن الآن ؟ أخمن أنه يتعلق بأمور السرية؛ غير أنها كلها بخير؛ فالفتيان الذين جاء بهم أباته بسلني أذكياءُ نشطاءُ واندمجوا بالذين سبقوهم. وماذا بعد ؟ أيكون الأمر يتعلق بقاز جري ونغومه شوره ؟ بعدما تدخل الكونت بنكندورف في أمورنا كفّا عن إرسال كتاباتهما إلى أي جهة، وعن إطلاع أحد عليها. ليس تدخُّل ألكسندر كريستوروفيتش في أمور الكتّاب صحيحاً تماماً. فالأديغة يجب أن يكون عندهم كُتّاب يكتبون عن نمط حياتهم وتاريخهم ومستقبلهم. وقد كتب في هذا الشأن كارامزين وجوكوفيسك وبوشكين "

خرج خان جري من أفكاره متألم القلب حين جرى ذِكرُ اسمِ بوشكين. العربة السريعة تقرّب حاضرة القيصر وهي تعبر صباح الربيع المتأخر. وتحكي أوراقُ الأشجار المخضرة والأعشاب الزاهية وزهور البراري والطيور المتراقصة اقتراب الصيف. ومع أن السماء ترنو إلى الأرض بوجه أبيض مشرق إلا أن الأفكار التي تتسارع إلى الرأس تُنذر بالشتاءِ البارد القادم والعواصفِ الثلجية. ومأساةُ بوشكين ومأساةُ الناس الكثيرين المتجمعين وطريقة كفكفتهم دموعهم،كل هذه تنتصب أمام عيني خان جري. ولم ينس عتاب بنكندورف له قائلاً " ما كان عليك أن تقحم نفسك في ما لا شأن لك فيه "

لهذا يقول الناس " الخاسر هو من يموت _ تنهد خان جري _ والذي يبقى يعيش ". وبوشكين مات.وكذلك أباته بسلني. كم من الطرفين يسقط في الحرب ولا أسمع بهم ! في ما كُلِّفت بكتابته للقيصر، إن كان القيصر، على ما قال، راضياً عنه، أبيّن في ختام الفصل الرابع كيف يمكن أن يتقرب إلى قومي على نحو أفضل، وأضع أمامه كيفية ترتيب هذه المسألة إن استمع إليّ. ربما لهذا السبب يستدعيني القيصر الآن. ولا أعرف إن كان هناك سبب آخر. كيف لي أن أعرف ما في رأس هذا القيصر العظيم ؟ ! "

مرت بجانبه عربتان رباعيتا الأحصنة مسرعتين فاضطرتا عربة خان جري إلى إفساح الطريق أمامهما.

_ العربة الأولى للكونت بنكندورف _ قال السائس _ والثانية ليست غريبة عني ولكني لا أعرف لمن. يبدو أنها عربات متينة متقنة، والخيول كذلك.

حين هدأ الغبار أكد خان جري:

_ والثانية عرفتها، عربة شيرنشيف.

" هما أيضاً مدعوان من القيصر _ قال خان جري، ووثبت إلى قلبه فكرة مباغتة _ لا أعرف إن كان حدث في البلاد مكروه ما... وماذا سيحدث ؟ لا أعرف؛ فهم يتدافعون إلى القيصر دون وعي. لو لم يكن وراء هذا التحرك المفاجئ إلا المصيبة لتوقف الكونت بنكندورف فأنا مأمور عنده. ولو فعل هذا لما خسر شيئاً؛ فكثيراً ما أنزلني من العربة التي أستقلها وأركبني عربته. والكونت شيرنشيف. ولكن من أنا بالقياس إليهما؟!"

_ أسرع ! _ قال للسائس _ لا تتأخر عنهما !

كان هذا في 25 أيار عام 1837.

في قاعة فسيحة من القصر الإمبراطوري يجتمع ثلاثةٌ رابعُهم القيصر: الكونت بنكندورف والكونت شيرنشيف وسلطان خان جري.

_ قبل أن أتكلم في القضية التي استدعيتكم من أجلها _ قال القيصر للكونت بنكندورف والكونت شيرنشيف _ إن وافقتماني يا ألكسندر كريستوروفيتش وألكسندر إيفانوفيتش أحب أن أسديَ معروفاً من قلبي وبضمير راضٍ مني. ومن سأقلده معروفي أيها المحترمون هو من دعوته إلى حضرتكما خان جري قائد السرية الجبلية القفقاسية المحترم سلطان مرافقي[1] .

نهض خان جري بجسم ممشوق متين وشدَّ قامته وعيناه تلمعان:

_ يا إمبراطور روسيا العظيم المشرق !

_ نعم، نعم، أيها العقيد _ قال القيصر مسروراً لنهوض الضابط بهذه السرعة _ شكراً لك، أنا واثق بك، تفضل بالجلوس !

قال الكونت بنكندورف في نفسه " ليته لم يصدِّق كلام القيصر فلم يجلس " ماذا وجد القيصر من شيء مهم في المرافق الشاب المنتمي إلى الشراكسة المتمردين ؟ _ ولم يتحمل الوزير شيرنشيف ما سمعه ورآه _ اسمح لي فقط وأنا سأحطم هؤلاء ! ما يقوله فيلمينوف صحيح: " الثقة بهؤلاء واستعجال ساعة موتك البعيدة سِيّان "

_ كما قلت لكما مرة أيها المحترمان _ أكمل القيصر كلامه _ قرأنا ما كتبه خان جري، وحاز إعجابنا، وأطلعنا على مختلف جوانب حياة الشراكسة. ونصب أمام أعيننا إقليم الأديغة كما لو كنا نعرفه طوال

[1] يقصد الضابط المسؤول في حراسة القيصر. المؤلف.

عمرنا. فلم يخيب العملُ ظنَّنا بل حقق ما تأملناه. ومثل هذا العمل يستحق وساماً من أوسمتنا. وحين ينتهي العمل الذي شرعنا به كما نبتغي سنحدد موعد منحه. أما الآن فأود أن أسدي معروفاً لممثلي ــ حين نهض القيصر العظيم، نهض، ليس أقل مما فعل خان جري قبل قليل، كلٌّ من بنكندورف وشيرنشيف ــ هذا الخاتم الذهبي أقدمه تذكاراً لممثلي. والإمبراطورة ألكسندرا فيدوروفنا تقول لك شكراً. يا خان جري أيها العقيد مُدَّ إصبعك الوسطى سألبسك إياه بنفسي. وهو منسجم مع كتافياتك الذهبية ومع البند الخاص بالمرافق، ومع أوسمتك التي على صدرك.

ــ شكراً يا إمبراطور روسيا المنير. ــ قال خان جري وهو يشير إشارة احترام،ويده التي تحمل الخاتم الذي تبدو عليه " الفصوص "اللماعة الغالية مسبلة ــ يسعدني دائماً أني في خدمتك.

ــ والآن أيها المحترمون تفضلوا بالجلوس ــ كانت نفحةٌ باردة تشع من عينيه الزرقاوين وإن لم يكن هو يحس بها ــ سنتكلم الآن فى الموضوع الذي جمعتكم لأجله. ولكني سأطلعكم قبل هذا على ما عزمت عليه. سأزور القفقاس قبل نهاية هذا الخريف. أود أن أطّلع بنفسي على سير قضايانا الروسية هناك. يقلقني ما يحدث في السنوات الماضية الأخيرة في شمال القفقاس. كنا مهمومين بالشيشان والداغستان فإذا بأمورنا لا تجري على نحو حسن في إقليم الأديغة أيضاً. وفيما نقول إننا انتصرنا في الحرب الماضية على الترك وأخضعناهم من جهة البحر الأسود وغيرها إذا بهم يعملون من وراء ظهرنا مدعومين بالإنجليز. عاتبناهم بضع مرات وأكدنا عليهم ولكنهم يكذبون علينا ويحنثون بوعودهم. وقد أمرت وزيري المختص أن يحرص على قضايا بلادنا الخارجية في أوربا كلها، وليس في تركيا فقط. وألححت عليه أن يعمل من أجل ألا تتحالف الدول التي سميتها له مع فرنسا ألدِّ أعدائنا. أنوي، في طريقي إلى تفليس، الاختلاط بشراكسة البحر الأسود. وفي طريق العودة سأعرّج على فلاديقفقاس وسأزور الشراكسة الذين يسكنون الشرق. ولتحقيق نواياي أعلق أهمية كبيرة على الوفد الذي سيرأسه خان جري المرافق الشركسي المحترم للقيصر. وسيتعلق عمله بطريقة توجُّه الشراكسة إلينا. ليس سكان هذه المنطقة الذين قلوبهم نحو روسيا قلائل. ولا يعني هذا أنه ليس بينهم من لا ينسى إلى الآن تركيا. وفي رأي خان جري أن أخطر شيء وأن ما سيشعل الحرب أكثر وينشرها، هو أن غالبية الشراكسة لا يريدون لا تركيا ولا روسيا. والآن نسمع يا ألكسندر كريستوروفيتش ما ستكون مهمة الوفد المتجه إلى هناك.

ــ في القفقاس، وخصوصاً شمال القفقاس، وعلى نحو أخص مهماتنا في الغرب يا إمبراطور روسيا العظيم ــ بدأ ألكسندر كريستوروفيتش دون استعجال كلاماً جافاً ــ وقد أطلعتَنا عليها مرة أخرى جيداً، وستفيدنا هذه المعلومات في إحراز تقدم لقضايا دولتنا في هذا الاتجاه. ووزير الخارجية، كما قلتم، إن ركّز نشاطه على الشرق القريب من أوربا، ولم يتلقّ الأديغة مساعداتٍ، فإننا نستطيع إخضاع شراكسة الغرب بأسهل من الشيشان ــ الداغستان، وإن اقتضى الأمر استعمال القوة. غير أن الأفضل عدم الوصول إلى الخيار الأخير. وقد اخترنا الوفد السري الذي سيترأسه خان جري تبعاً للأخبار غير السيئة التي تردنا من إقليم

الأديغة، وحضّرنا له كل احتياجاته. وقد تكلمنا إليكم قبل دخولنا قاعة الاجتماع على سلوكه هو ومرافقيه،وصولاً إلى المصاعب المنتظرة أمامهم، معددين من سيفيدهم ومن لن يفيدهم. وبالإضافة إلى نفقات الوفد الشخصية جهزنا الثلاثين ألف سومة التي سيحملونها. وإن ظهرت قضايا أخرى في اجتماعنا فأمامنا مهلة بضعة أيام يمكن أن نناقشها خلالها.

ــ النقود، نأذن لك أيها المحترم ــ قال القيصر ــ أن تتصرف فيها كما ترى؛ فلا تبخل بها. قدّم الهدايا لمن تثق به ومن لا تثق. وإن رأيت الظرف مناسباً أعطهم نقوداً؛ وإلاّ فاشترها لهم. شجّعهم على قبولها. وأنت أدرى أين تُبرز اسمنا وأين لا تُبرز. لن تستطيع إخفاء كونك ضابطاً للقيصر الروسي فارو لمن يسألك أحوالَ خدمتِك وخدمةِ السرية القفقاسية الجبلية، وأطلِعْهم على دراسة الشباب الصغار في المدرسة الحربية هنا. ولكن قدّم قبل كل شيء كونك شركسياً من قومهم. وإن نسيناك أنت، فكما تُبرز في كتابك، فلا تنس أنت، وإن كنت لا تستطيع أن تكتب صراحة، أنهم يستطيعون الاحتماء به، وحاجتَنا إلى حياة السلم. وأفهمهم أننا لا نفكر إلا بالسلم. وإن زرتكم بعد أن تحققوا إنجازاً جيداً فستشهد كلماتي بصحة ما قلتم لهم. وسأجعلهم ينظرون ويفكرون في الأبعد. وإن لم يكْفِ ما معك من النقود لسبب ما فلا تنس أن روسيا ليست فقيرة في هذه الأبواب من النفقة. والآن نسمعك يا ألكسندر كريستوروفيتش.

ــ نوافقك يا قيصر روسيا العظيم.والشركسيُّ المحترم خان جري ــ قال بنكندورف مرتاحاً ــ ليحرصْ على هذه المهمة. ولا شك في ثقتك فيه. وخان جري على دراية بطريقة مجابهة السلوك المخادع للعملاء الذين نشرهم الإنجليز في إقليم الأديغة على هيئة تجار: جيمس ستانيسلاف بيلر العامل في جريدة " مورنينغ كرونيكل " وجون لونغفوتر.وكيف يجابه الشراكسة هذه الحالة وما يجب أن يفعله خان جري في هذا الصدد. والموفدون إلى إقليم الأديغة بالإضافة إلى خان جري مرافقِ القيصر هم يا قيصرنا المنير: الروتميستر بَدِسٍ محمد جري، وتيغانه أسلان بك، والطالب الحربي شرلوقوه، وحامل السلاح قوداينت. وسنعين الروتميستر فيرفسك معاوناً لرئيس الوفد. وحين يصلون إلى إيكاترينودار نتأمل من الروتميستر مْغُرْقوه بْشه قوي أن يساعدهم. كما أرسلت كتاب توصية إلى أتامان الجيش القوزاقي المفوض في شيرنومور زافادوفسك لمساعدة الوفد.

ــ والآن نسمعك يا ألكسندر إيفانوفيتش ــ توجه القيصر إلى الكونت شيرنشيف ــ أطلِعنا على ما فعلت في هذه المسألة.

ــ لم ندع شيئاً لم نفكر فيه يا إمبراطورنا العظيم. أرسلت خطابات سرية إلى تفليس وستافروبول وإيكاترينودار لمساعدة موفدينا. وكتبت بنفسي إلى الجنرال فيليامينوف وأفهمته الموضوع. والجنرال

فيلياميتوف وخان جري مرافق القيصر ، وإن لم يلتقيا، يعرف أحدهما الآخر. وقد أرسلت له بمعرفتك كتاب خان جري في ربيع العام الماضي. وقد قرأه[1] وأتوقع أنهما سيجدان ما يتحدثان فيه وما سيعملانه.

معاً حين يلتقيان. والروتميستر بافل ألكسندروفيتش فريفسك أهل للثقة. ليس لأنه معاوني يا إمبراطوري العظيم بل لأنه مقاتل تجد فيه الصدق والشجاعة _ سرت ابتسامة خفيفة على شفتي شيرينشيف وهو ينهي كلامه _ فلم يتعارف خان جري والبارونُ فريفسك اليوم ،بل بدأ تعارفهما من حرب الفرس والترك وبولونيا.

_ يُغبَط الإنسان على مثل هذا التعارف _ كان يظهر في صوت القيصر دفء ناعم وإن كانت عيناه باردتين. _ هما شابان. أمامهما عمر كامل ليُبرزا إمكاناتهما أمامنا في بلاد روسيا.ولذا برعاية الله ورحمته ننهي عملنا اليوم. مع السلامة أيها المحترم _ نهض الثلاثة مع نهوض القيصر _ ليسهّلِ الله آمالنا ولْيُحققها لنا ! أطلعوني كل شهر على أخباركم.

***

لم يفهم خان جري صعوبة المهمة التي أوكلها إليه القيصر إلا ليلة سفره. لم يكن يجهل في نفسه أن هذا سيحدث يوماً ما. وقد تجدد تجنبُّه التفكيرَ عن طريق اختلاق أشياء أخرى يفكر فيها عند تاتيانا سيدينيفسك ريابينينا.

---

[1] يكتب فيليبسون في مذكراته التي نشرها في جريدة " الأرشيف الروسي " عام 1883: "كانت الأخبار التي أُبلِغُها إليه أيام الثلاثاء قصيرة دائماً. ولكن حين دخلت يوماً إلى مكتبه حاملاً المصنف انتظرته عدة دقائق لأنه كان مستلقياً على الأريكة ويداه خلف رأسه على عادته، وحين نهض نظر إلي دون لين وقال: " ليس اليوم موعدك يا عزيزي " وقبل أن أذكّره بأن اليوم هو الثلاثاء خرج أ. أ. فيلياميتوف من الغرفة الأخرى. وسمعت صوت نشر خشبٍ* (ملاحظة من المترجم: ربما لأن فيلياميتوف كان مولعاً بالنجارة كما سنقرأ فيما بعد). انتظرته في مكتب المعاونين قليلاً ثم دخلت إليه ثانية حين رجع فيلياميتوف إلى مكتبه. وبعد ما كان يذرع أرض الغرفة ناظراً أحياناً بطرف عينه إلى ما معي سألني نافد الصبر وعدم الارتياح بادٍ عليه: " لماذا يا عزيزي جلبت لي اليوم هذه الكمية الكبيرة ؟ " وهنا فقط استعجلت " هذا أيها المحترم الغالي ما كتبه مرافق القيصر العقيد.. خان جري للنشر في ما يتعلق بوضع اليد على القفقاس. وقد أرسله وزير الدفاع لتصفحه _ قال القيصر :هذه ثرثرة فارغة، ضعها يا عزيزي.سأتصفحها " فوضعت المصنف حيث يكتب. ثم رأيته بعد أكثر من عام وقد غطاه الغبار. وهكذا لم ير هذا العدد إلى مماته "

لم يكن الأمر كما كتب فيليبسون. ففي 14 إبريل _ نيسان عام 1836 كان الكونت فيليمينوف قد كتب جواباً مختصراً إلى وزير الدفاع " أنت أيها المحترم، حسب ما أمرت، في ما يتعلق بتنظيم عملية تطويع الجبليين القفقاسيين، كتبت باختصار في 3 آذار رأيي في كتابات خان جري. أحتاج إلى وقت طويل للإشارة إلى كل الأخطاء ولا فائدة كبيرة فيها. وتوقفت فقط عند المقاطع التي يتحدث فيها عن رأيه في ضرورة استعمال اللين دون سفك الدماء. (رقم الملف...)

لم يكن يعرف بأمر سفر الوفد السري إلا هو وفريفسك بالإضافة إلى الثلاثة الكبار. ولم يبلّغ هو بفمه فريفسك إلا إذا كان الكونت شيرنشيف أبلغه، ليس لأنه لا يثق بصديق تمتد صداقته إلى سنوات بعيدة _ كان يود أن يكلمه الوزير بشخصه، لا هو. طريق القفقاس بعيد، وسيجدان موضوعاً للحديث حين يتركان بطرسبورج وراءهما. " من يعرف إن كان الكونت شيرنشيف بداعي مناكدة الكونت بنكندورف _ أعرفهما متجابهين وإن مارسا عملاً واحداً وتبادلا الابتسامات _ قد ألحقه بنا خصيصاً"

_ يا خان كم أنت حزين هذا المساء ! _ سألته تاتيانا _ أهناك ما يقلقك ؟

_ لا، كله تمام.

_ لا تقول الحقيقة يا خان جري،أنت حزين.

_ أنا مسافر غداً يا تانيوشا.

_ إلى أين ؟ _ نظرت تاتيانا إليه بوجه مرتعب كأنها كانت تنتظر خبراً مشؤوماً، وصرخت والدموع تسيل من عينيها: _ أتراهم يرسلونك إلى القفقاس؛ إلى عند الشراكسة ؟ ! _ أفْلَتَ منها ما يقلقها.

_ لن أغيب طويلاً يا تانيوشا... سأعود في ظرف شهر أو شهرين _ إلى الخريف موعد زيارة القيصر _ كتم عن تاتيانا التي ارتمت على صدره باكية أنه سيجول في إقليم الأديغة.

_ لن أدعك تذهب، لن أتركك !

_ تانا، تانيوشا ! إنما أذهب إلى ديارنا !

_ لا، لا، ليس إلى دياركم. هناك حرب تدور، سيقتلك أبناء قومك الشراكسة _ بدأت كتفاها الضيقتان تنتفضان وهي ترثي زوجها السابق، ومن تخشى عليه الآن.

II

بعد أن ظل موفدو القيصر خمسة عشر يوماً على الطريق عبروا بحر آزوف عند تامان، ووصلوا إلى إيكاترينودار في الظهيرة الحارقة يوم 14 حزيران.

لم يُبالغوا في الفندق بالاهتمام بخدمة المسافرين، ودون أن يتلكؤوا في الغداء وصل خان جري وفريفسك في الوقت المحدد الساعة الثانية إلى زافادوفسك أتامان جيش شيرنومور.

ما إن رأى الأتامانُ الضيوفَ الذين كان ينتظر وصولهم من بطرسبورج على الباب حتى نهض بعنقه الطويل ووجهه الحليق وشاربيه الرفيعين وجبينه العريض وقوامه الممشوق، مؤدياً تحية إلى القيصر الذي أرسل الوفد. ورحب بهما وعيناه الذكيتان تفضحان قلقه الخفيف:

_ أهلاً بكما أيها المحترمان ! انتظرتكما أمس واليوم. كيف كانت رحلتكما ؟ ألم يعجبكما الفندق الذي اخترناه لكما. الخيول والعربات والحرس جاهزون في أي وقت. تصرّفْنا حسب ما كتبوا لنا. إن كان هناك ما تحتاجان إليه مستقبلاً فأخبرانا. لن نقصّر في شيء. سنحقق رغبة قيصرنا العظيم دون أي انتقاص. أهنئك على منصب ممثل القيصر يا خان جري.

" ما أكثر ما يثرثر ! لم يكن هكذا حين خدمنا معاً في الجيش. " ضحك خان جري في نفسه غير أنه أجاب باختصار:

_ شكراً أيها الأتامان ! كل شيء على ما يرام. لا نحتاج حتى الآن إلى حرس قوزاقي. ولكن أرفِقْ بنا، على علم من قيصرنا العظيم، المقدمَ مْغُرْقوه بشه قوي.

_ سيكون جاهزاً يوم تريد. يا مرافق قيصر روسيا. _ قال الأتامان الآن دون تكلف ولكن بحذر.

_ اعتبِرْني طلبته اليوم يا نيقولاي ستيبانوفيتش ! _ أنهى خان جري بنبرة أكثر لطفاً.

_ المقدم مغرقوه في أبنه، سأرسل وراءه حالاً، وسيكون هنا صباحاً.

_ أرسل وراءه، ولكن لا تطلب حضوره _ تدخل فريفسك في الحديث لأول مرة _ نحن سنذهب إلى تلك الناحية خلال أسبوع. أرسل إليه أن ينتظرنا !

_ حسناً.

_ الأسبوع موعد طويل يا بافل ألكسندروفيتش _ قال خان جري محاولاً عدم تجاوز المهلة التي حددوها لهم _ الأفضل أن نسافر من الغد. يجب أن نقابل الجنرال فيليامينوف ألكسندر ألكسندروفيتش. أطلِعْنا يا نيقولاي ستيبانوفيتش على مهمات روسيا التي ننفذها في إقليم الأديغة لأننا يجب أن نعرف حسناتها وسيئاتها، ها نحن نصغي !

" ما أشد ما يتواقح معي "شركسيُّ الأمس ! " _ قال الأتامان والغيظ يأكل قلبه. ولكن لما كان يعرف مَن كلَّف هذين الجالسين أمامه كتم غيظه _ والروتميستر فريفسك يبدي خشونة شديدة، ويجامل الشركسي ! ليتك وقعت في أيديهم لنرى ماذا يفعلون بك... يطلب مني أن أضعه في صورة الوضع هنا ! لو كانت أوضاعنا جيدة لما أرسلوكما.هذه ليست سان بطرسبورج. سنرى ما بإمكانكما فعله ! ثم إنه توقف في الفندق ولم يصل إلى قريته التي تراها من وراء نهر بشزة. لا يفكر بزيارة أهله والاطمئنان عليهم. أي قلب في صدره ؟ ! "

_ لا أكتمكما أيها المحترمان، سأقول لكما الحقيقة: لا تجري مهماتنا الروسية في إقليم الأديغة كما تأملنا وتوقعنا. لست مطلعاً جيداً على أخبار القبرتاي والبسلني، سيخبرونكما في ستافروبول. في نواحينا ليست الأحوال جيدة. الشابسغ والناتخواي خرجوا عن طورهم. صبروا حتى يعود زانه سفربي من تركيا. ولكن عندما انتشر بينهم خبرٌ مَفاده أن لروسيا ضلعاً في عدم عودته استلّوا قاماتهم على نحو حاسم. وبدأ الوبيخ والأبزاخ يتحالفون معهم. و قبيلة حاكوف الجبلية لا تهدأ البتة. وقد أسهمت بشخصي في هذه النزاعات الدموية أكثر من مرة. قبل أيام كان عندي غريغوري إيفانوفيتش فيليبسون رئيس مكتب الجنرال فيليامينوف وحدّثني عن مواضع اشتباك كثيرة.

_ ماذا سنسمي ما يحدث في إقليم الأديغة ؟ _ قاطع خان جري الأتامان القوزاقي. ثم سأل بطريقة أوضح: _ أهي حرب أم مجابهات واشتباكات ؟

_ لماذا أخفي عنكما أيها المحترمان، هناك حرب دموية، وأنتما لا تجهلان هذا الوضع. ولكن بعض الشراكسة المتمردين يواجهوننا، لماذا نسمي ما يجري بمجابهات _ اشتباكات؟ _ خاف الأتامان في نفسه قائلاً: _ لا أعرف إن كان ما كشفته لن يعجبه.

_ لو أن الشراكسة، بصفتهم شعباً جابهونا كلهم لسميناها حرباً؛ شئنا أم أبينا _ واختتم خان جري سؤاله الواضح بما لا يمكن منه فهم ما في قلبه: _ لا يجوز اعتبار الشابسغ _ الناتخواي وحدهم إقليم الأديغة.

_ نعم، نعم، يا خان جري، أنت أقرب إلى الصواب _ وافقه الأتامان _ البجدوغ مسالمون، والجمكوي والمخوش يتصبرون، والأبزاخ والوبيخ ينتظرون ما سيحدث ولو أنهم يعلنون الحرب أحياناً.

_ هذه المواقف أحسن لنا _ قال فريفسك _ ونحن أُرسِلنا إلى هنا من أجل ألا تتوسع المواجهات الروسية _ الشركسية. أوفدنا القيصر العظيم لننقل نواياه الحسنة ورغبته في العيش بسلام مع الأديغة. وحتى الشابسغ _ الناتخواي الذين لا يضمرون لنا الخير سنزورهم مع هذه النوايا الحسنة، وسنكلمهم فيها.

_ وسنعرض أمامهم مشاريع باسم قيصرنا العظيم ليفهمونا _ أضاف خان جري إلى كلام من سمَّوه معاوناً له.

_ حسنٌ إن فهموكم _ ابتسم الأتامان وقد خفّ حقده _ ولكن لا أظن .

_ لماذا نحن جالسون هنا أيها الضباط المحترمون _ نهض الأتامان بقامته القوية الممشوقة، وأوسمتُه على صدره تتلامع مع أصابع الطلقات على صدره، ومع كتافياته الذهبية، مزيَّناً بسيفه وقامته ومسدسه، وبكل ضخامة _ تنتظرنا المائدة في الغرفة الأخرى. وسنتبادل نخبَ ترحيبٍ قوزاقي. ونستأنف حديثنا.

نظر فريفسك إلى خان جري، وحين فتح الأخير ساعة جيبه " أنسيت اتفاقنا ؟ لا وقت لدينا " أشار إليه بهذا المعنى. وانتشر اللحن الرفيع من الساعة في أرجاء الغرفة.

_ نعم، نعم، لا وقت لديك، فهمت _ قال فريفسك لخان جري، كان مستغرِباً صبره على زيارة قريته طوال الحديث، وكان لدى الأتامان الفكرة نفسها وإن لم يُفصح عنها _ لم تر أهلك إلى الآن. لن نطيل جلستنا يا خان جري. إن لم تكن تحب الغوريلكا القوزاقية والأشربة الأخرى _ نظر إليه بحنان.

_ لا بأس أن تتأخر زيارتي إلى القرية ساعة _ قال خان جري الذي يفسحون له الطريق وراء الأتامان بكل هدوء نفس، غير أنه قال بنفاد صبر في قلبه: _ لا نزال في المساء، وأمامنا ليلة كاملة.

كانت مائدة أتامان شيرنومور القوزاقي عامرة بأطعمة نظيفة جافة ليس بينها لحم الخنزير. ولم يكن إلى جانبها ما تجلس عليه إلا أن تأكل واقفاً.

_ طلبت تحضير هذه المائدة السريعة مراعياً استعجال موفد إمبراطورنا العظيم. _ قال الأتامان وهو يصب الغوريلكا في الكؤوس _ إن رغبتم في الجلوس فهناك مقاعد. أرحب بكما أيها المحترمان من جديد. أدعو لكما أن تتحقق أمانيكما، وأن يكون قدومكما خيراً علينا وعليكم. أرفع الكأس متمنياً أن تتحسن العلاقات الروسية _ الشركسية فيتوطد السلام بيننا. ثم أردف غير عابئ بإعادة خان جري الكأس دون أن

يشرب منها مكتفياً بلمسها بشفتيه، ماضغاً قطعة من الخيار المخلل: ــ لم أر من المناسب أيها المحترم أن أقدم أخبار أهلك على الأخبار الأخرى لأني فهمت أنك تَعدُّ المهمة التي كُلِّفْتَ بها أسمى من كل شيء آخر. كلهم بخير، في سلام، وفي صحة جيدة. وأخواك الصغيران، وأظنك تعرف، عادل جري يحضّرونه في ستافروبول للالتحاق بالسرية الجبلية، وسعيد جري عند الكونت باسكيفيتش، في عداد حرس الفيلد مارشال.

ــ وجدتي قانتات أسعد غيريفنا، ووالدتي ؟ ــ لأول مرة خلال هذه الساعات القليلة الأخيرة بدا متلهفاً.

ــ منذ أقل من شهر، وبمناسبة إقامة معرض تجاري في إيكاترينودار تحادثنا. وبالقياس إلى السنوات التسعين التي يقال إنها عمرها لا تزال متينة بهيئتها وتفكيرها. وقدّمتْ إليّ امرأةً رشيقة ودوداً على أنها كنتها، وكان معها صبي. أما أخبار والدتك فلا أعرفها. يجب أن تكون بخير، لم أسمعهم يقولون إنها معهم. وأنا لم أسأل. ولكن إن أردت الحق ــ أضاف الأتامان وقد حولت الكأس الثانية لونه إلى الأحمر: ــ نحن نحمي دارَ الإمارة التي لكم وإن كانت على المعبر، وكلَّ نبلاء قرية لوستان حبله، ولذا فالجميع بخير، وفي سلام.

ــ أتسمع يا بافل ألكسندروفيتش ؟ ــ قال خان جري منتشياً بهذه الأخبار: ــ يمكنني أن أذهب إلى أهلي اليوم، الأتامان مطلع على كل شيء، ويحمي كل شيء. لنرفع كأساً على شرف مضيفنا، تفضل واخطب !

ــ من أجل أن يتمتع الأتامان المحترم نيقولاي ستيبانوفيتش ــ قال فريفسك ــ بصحة جيدة، ومن أجل أن يتحقق كل ما يريده أرفع هذه الكأس.

قال خان جري:

ــ وأنا أضيف: من أجل أن يترقى في رتبته، ومن أجل أن يُبقي على الخير بين القوزاق والشراكسة.

ــ لا أعرف ماذا سيحل برتبتي، فهذه مسألة بيد الله والقيصر ــ أفرغ زافادوفسك الأتامان الكأس. ثم عض قطعة المخلل مستمتعاً بصوت القضم وقال: ــ ولكننا نعمل من أجل السلام المطلوب بين القوزاق والشراكسة لولا أن الإنجليز والأتراك يعملون سراً بيننا. شابسغ البحر الأسود يهيجهم إنجليزيان. وتصلنا أخبار تفيد أن القادمين من نواحي الشيشان والداغستان يثيرون الأبزاخ ــ وبدا جلياً أن الكأس الثالثة حررت لسان الأتامان ــ والبجدوغ أيها المحترم، كنت قررت أن أخفي عنك، ليسوا مسالمين تماماً كما يُخيَّل إلينا؛ بينهم من لا يطيقوننا. ولماذا نذهب بعيداً: والد الصبي الذي كان يرافق قانتات أسعد غيريفنا، شواي، يحاربنا مع الشابسغ في بلادهم. هذه هي الحال... وسأقول لك خبراً أشد إزعاجاً: أتتذكر بانتالي ابن بادينكا ؟

ــ وكيف لا أتذكره ؟ ! كنا معاً في الجيش،وحاربنا معاً ــ وضع خان جري الكأس من يده ــ ماذا جرى لصديقي ؟

ـ رحل بانتالي عن الدنيا. قُتل عند" أبنه "في هذا الربيع، وقاتِلُه هو شواي. ويقال إنه رغم ما حدث فإنه ما زال يحوم حول أنفيسا أرملة المرحوم... هكذا تجري الأمور... لماذا نحن واقفون ؟ لا يزال أمامنا وقت. سنأتي بالمقاعد ونكمل جلستنا.

ـ لا يا نيقولاي ستيبانوفيتش ـ قال خان جري شاعراً بالألم المفاجئ يعصر قلبه ـ نحن لا نزال على الطريق. ويجب أن يستريح بافل ألكسندروفيتش. بعد أن نُمضي نهار الغد عندنا سننطلق إلى جيلينجيك آدربي حيث يقيم فيليامينوف. وأنت على علم بمن سترسل إليهم خبر وصولنا إلى هنا، فأخبرهم !

ـ من تقصده يا مرافق إمبراطورنا العظيم ـ قال الأتامان وقد اختفت علامات الشرب من على وجهه على عادته كلما وجد نفسه في موضع حرج ـ ما إن سمعت بوصولكم حتى أخبرت بطرسبورج ـ وأنهى بعد فاصل قصير: ـ ما كان يجب أن أروي لكما حكاية بانتالي القوزاقي وشواي الشركسي.

ـ لا تهتم يا نيقولاي ستيبانوفيتش. كنت أتوقع أن يعادينا شواي، ولو أنه أخ لم تلده أمي. ما جرى للمسكين بانتالي مؤسف أكثر من أي أمر آخر. كنت أعده أخاً كشواي تماماً. ونجونا من ثلاث حروب خضناها معاً. لست أجهل أن الحياة ظالمة بفرحها وترحها، ومع ذلك...

***

حين ركض الفارس الصبي إلى باب الدار معلناً قدوم خان جري اندفع كل من في الدار. وتبعهم من سمع من أهل القرية.

ولما رأى خان جري قانتات التي حنت ظهرَها عشراتُ السنين متوكئةً بكفيها اليابستين على مقبض العصا الفضية قفز إلى مصطبة البيت مغلوباً بقلب مضطرب بعدما أبعد عنه من تجمع حوله، وعانقها ومسح خديها الرقيقين بيديه وقبلهما.

ـ أحسنت يا ولدي ! الآن اتخذت هيئة رجل. هذا خير، رأيتك مرة أخرى. أبعدت قانتات خان جري عنها وتأملته وابتسمت في وجهه ـ تعال يا ولدي، منذ زمن بعيد لم أسمع شيئاً من أخبارك. وحين وصلت إلى الباب توقفت ونادت: يا بيكا، يا سيسور، اطلبا من حاج قسي وقايمت أن يبحثا بين المواشي عن مهر نظيف وعن خروف سمين.

III

همّان يُفنيان خان جري: أولهما أن جدته، خلافاً للسنين السابقة مريضة بلا دواء. والثاني ما كان يُهمه وهو في بطرسبورج على باب القيصر ولا يستطيع البوح به، ويراه الآن في إقليم الأديغة بأم عينه.

العربة السوداء المجهزة جيداً تجري باتجاه ساحل البحر الأسود الذي تظهر فيه جبال بيضاء القمم يتبعها ثلاثة فرسان في صباح صيفي ناعم وهي تخرق السهول الملأى بالمواشي، تصعد التباب غير العالية وتنزل، يمر إلى جانبها مشاةُ الجيش الروسي، وفرسانُ القوزاق، والمدافعُ على العربات ذوات العجلتين، والعرباتُ التي تنقل الجرحى من المعارك التي لا اسم للمكان الذي تجري فيه إلى الآن.

قال خان جري في نفسه: رغم أن الشمس الدافئة تبتسم للعين فإن كثيراً من المظالم الخفية تكمن في العالم منتظرةً اللحظة التي يعثِّرونك بها. ولكنّ مَن في قلوبهم مثل هذه النوايا لا يستترون، ينتصبون أمام عينيك سعداء مفتخرين كأنهم يقولون لك: انظر ماذا سنفعل بك ! ماذا يمكن أن أفيد نانا في شيخوختها، وهي التي ربتني ؟ هي وأنا زماننا زمان صعب. لا أزال محتاجاً إليها ولو لبضع سنين، الشيخوخة مأساة لا علاج لها. إلى مَن أحمل همومي وأفكاري إن فقدت نانا ؟مَن يعطيني أجوبة شافية ؟ المكان الذي أرسلوني إليه لا أرى فيه ما يسر إلا المناظر الجميلة. وهذا المكان يفسده في كل ناحية أصوات الغرباء _ الجيش والسلاح _ أين الأديغة ؟ الشابسغ والوبيخ والناتخواي والأبزاخ والأباظة يحاربون، ولكن أين البجدوغ المسالمون ؟ هاهي القرى الأديغية على طرفي الطريق الحربي المؤدي إلى الشاطئ كأن الجيوش الروسية أرعبتها: تقابل إحداها الأخرى غير أن كلاً منها تنظر إلى الأخرى شزراً.من مواقدهم الصباحية يتصاعد الدخان، ومن دورهم أصوات الكلاب وصياح الديكة، وقطعانهم ترعى في أطراف قراهم.

_ ما أجمل طبيعة إقليم الأديغة هذا الذي دخلناه ! _ قال فريفسك فجأة فقطع أفكار خان جري _ انظر إلى هذه السهولِ الفسيحة والتباب المتدرجة، والجبالِ المتراصة ذات القمم البيضاء،والقرى المتقابلةِ، والسماءِ الزرقاء الصافية فوقها، والشمسِ تلاطفها من سمائها. وأظن أمواج البحر الأسود الذي أمامنا تهمس لهذه الطبيعة الحنون. أرض الأديغة قومِك أرضٌ خلقها الله لنفسه يا خان جري.

_ نعم، نعم. وافقه مع أنه كان يفكر في موضوعات أخرى. ودون فاصل طويل، وكأنه يعيد التفكير، أضاف دون أن تفهم من كلامه مَن مِن الطرفين المتجابهين يحمّل المسؤوليةَ: _ ليت طبيعةَ الأديغة الجميلة وجدت سلاماً مناسباً لها !

_ وأنا كان في ذهني الفكرة نفسها... حرام ألا تشهد مثلُ هذه الزاوية من الجنة سلاماً. ومن لا يفهمْ هذا فهو عيب عليه وعِصْيان. _ ثم تذكر فريفسك أن جليسه أديغي فتظاهر بإصلاح كلامه: _ لا تؤاخذني يا محترم، ليس لأني أنسى أن الأرض التي نحن فيها أرضُ قومك، ولا تظنَّ أني أبرّئ قومي... منذ حرب الفرس التي تعارفنا خلالها، وبعد عشر سنين، أراك واحداً حقيقياً منا، حزنُنا حزنك، وفرحُنا فرحك...

_ نعم، نعم. وافق خان جري رفيقه مرة أخرى ولو أنه بدأ في السنة الأخيرة يقارب الموضوع أحياناً من زاوية أخرى، وذكّره بالمهمات التي أرسلوه لأجلها _ من أجل هذا السلام أرسلَنا القيصر العظيم. ليس من الضروري حين تثق الدولة بك أن تكون أديغياً أو روسياً لترفع من شأنها في العالم. انظر: ها هو نابوليون إمبراطور فرنسا فارق الحياة وهم يلقبونه بالكورسيكي[1]. وكولومبو، وهو إيطالي من جَنَوا،اكتشف أراضي جديدة عابراً بحار العالم، فجلب لإسبانيا التي عمِل لأجلها ثناء عظيماً وكنوزاً. وكاترين الثانية...

[1] لأنه من جزيرة كورسيكا. المترجم

_ خان جري، أيها المحترم، لماذا تروي لي هذه الأحداث ؟ _ استلم البارون فريفسك دفة الحديث منه _ إن ظننت أن قلبي داخَلَه شكٌّ ما فأنت مخطئ. لا أريد أن يسمع القيصر الذي أولانا ثقته هذه الأفكار السلبية. سأقول لك الواقع: أكّد عليّ وزيري الجنرال الكونت شيرنشيف أن أنفّذ أي مهمة توكِلها إليّ دون جدال.وبغضِّ النظرِ عن هذا فلن أستطيع عدم احترام القيصر والكونت بنكندورف. ولهذا يا خان جري إن صدر منا كلام لا يعجبنا فانسه ! تنفيذنا للمهمة الكبرى التي أُرسلنا من أجلها يتوقف على الثقة المتبادلة بيني وبينك.

_ هذا لا يحتاج إلى مزيد من الإيضاح أيها البارون _ حسم خان جري الموضوع دون أحقاد _ أنت وأنا موفدان للدولة التي أرسلتنا، ومحاربان لأجلها.

_ نعم يا خان جري، لا مهمة لنا هنا غيرُها _ وافقه فريفسك وإن كان قلبه بارداً نحوه مخفياً مشاعره. وقال بسرعة كعادته كلما وجد نفسه في مأزق: _ ولكن ليقلْ كلٌّ ما يريد. لا يمكن صرْعُ الصدق بالكذب.أرض الأديغة جميلة وطلقة _ كان يريد أن يضيف " بالقياس إلى هذه الأرض لا قيمة لأرضِ الفرس الوعرةِ التي سفكنا الدم فيها، ولا لأرض بولونيا غير المستثمرة جيداً. والأتراك والفرنسيون والإنجليز ليسوا بلا عقل حتى يطمعوا فيها بلا سبب " غير أن الكلمات التي تراشقا بها قبل قليل جعلته يعض طرف لسانه _ الناس الذين تقرّبوا إليّ أمسِ واليوم، حتى الصِّبْيانُ، أفهموني كثيراً مما كنت أجهله، وجعلوني أنظر إلى الموضوع بعين أخرى. والآن ما أكثر ما سأكتشف من أمور لا أعرفها ! ليقلْ كلٌّ ما يريد. لو لم يكن في الأمر إلا الأقوال المأثورة التي ترجمْتها لي جدتك قانتات أسعد غريفنا _ " ما تراه العين يساوي الحياة " هذه حكمة كاملة. أنا لست نادماً على السفر إلى بلاد الأديغة حتى لو لم يتحقق ما نسعى لأجله.

_ ما قلتَه الآن غيرُ جائز يا بافل ألكسندروفيتش _ ابتسم خان جري بوجه لطيفٍ ولو أن صوته حازم، وهاجم طبعُه الشكّاك قلبَه _ كنت أفضّل ألا أسمع هذا الكلام في اليوم الذي وطئتَ فيه أرض الأديغة لأول مرة. ولكن رغم ذلك قد يشفق القلب على الصريع _ كان شيء مما يظل يطرحه خارج ذهنه دائماً يعصر قلبه رغم حذره.

_ ما لن أقبله أبداً أيها المحترم هو كلامك الأخير _ استعجل البارون فريفسك _ إن كنت تقصد بالمغلوبين الأديغةَ فليس الأمر هكذا. وهم يقاومون روسيا العظمى مثيرين انتباه العالم، يحمون أرضهم وحريتهم. صحيح، لا نخلو من مقاربات مختلفة للمسألة...

_ يا صديقي العزيز بافل ألكسندروفيتش _ سأل خان جري برقّةٍ غيرِ مسبوقة _ أتتذكر، قبل أن نبدأ مهمتنا، اتفاقَنا على ألا نتكلم في ما لا يعنينا ولا نتجاوز مهمتنا ؟

_ أتذكّر كما اليوم، لا أسمح لنفسي أن أنساه.

_ لماذا ننقضه إذن ؟

ـ ولكن ألسنا على الطريق أيها المحترم ؟... أليس الأديغة من يقولون " انصبْ سُلّماً للطريق، فأسمِعْنا خبراً ما ! "

ـ أنت تعرف شيئاً عن الأديغة أيها الإنسان الطيب البارون ـ هشّ خان جري مرتاحاً لما يسمع. لم يكلفوك عبثاً بمتابعة موضوعهم.

ـ في البداية الشكر لك على هذه المعرفة. حفظتُ في قلبي ما علّمتني إياه في بطرسبورج، وما رويته لي على الطريق إلى القفقاس.قرأت ما كتبه بستوجيف مارلين وبوشكين، ولاقت كتاباتهما قبولاً مني. ثم الشكر لمن أولانا ثقته ووضع خطانا على هذا الطريق قيصرِنا. بِمَ يمكن أن أصفه إلا بالخير ؟ حين ترافق شخصاً في طريق ستخطر لك أفكار لم تخطر لك قطُّ، وستقوم هذه الأفكار بينكما. كيف يمكن تجنُّبُ الحديث في الموضوع الذي يُهمك ؟ هذا لا ضرر فيه.

ـ وهذا صحيح، ولكن لا تنسَ أني أديغي !

ـ يا ممثل القيصر العظيم..يا سموّك. لو لم تُذكِّرني بأصلك، صدّقني،كنت نسيته.

البارون فريفسك والمحترم خان جري في عمر واحد. تلقّى الطفلُ البارونُ تربية ممتازة لأنه ولد في أسرة ثرية ومتنفذة. وبفضل قرابته للكونت شيرنشيف ضُم إلى الجيش في سن مبكرة، وأنهى الدراسة في مدرسة الضباط والحرس. وساهم في حرب الترك والفرس، ثم في مواقع كثيرة في شمال القفقاس. والآن هو عضو في الوفد المرسل إلى إقليم الأديغة بصفته معاوناً لوزير الدفاع الروسي ومساعداً أول لخان جري. وليس جاهلاً جداً بأمور الأديغة كما يدّعي. ومع أن رتبة خان جري أعلى، ومهمته أيضاً، فإن مهماته السرية ليست أقل أهمية من مهمات خان جري العلنية،وهذا ما يُخيَّل لرئيس البعثة خان جري. بدأ خان جري يفهم هذا الأمر في بطرسبورج، ووجد نفسه في أكثر من موقف ينظر بعين الريبة إلى تلك المهمات. وجعلته النظرات المتبادلة بينه وبين أتامان القوزاق يجدد شكه. والآن سؤالٌ إثرَ سؤال...

" من المعيب أن تشكَّ في من يتجشّم معك مشاقَّ الطريق ـ لام خان جري نفسه ولكنه لا يستطيع إلا أن يتساءل: لماذا يجب أن يكتب كلٌّ تقريره مستقلاً إلى القيصر ووزير الدفاع ؟ وماذا يُستنتج من هذا ؟ أيكون الأمر عدم ثقة بي ؟ أكانوا يسمحون لي أن أجلس في مجلس واحد مع رؤوس روسيا الثلاثة لو لم أكن موضع ثقتهم ؟ أكانوا يتركون البارون يقف نصف نهار على الباب قبل أن يسمحوا له بالدخول ؟ لماذا إذن طلب القيصر منا أن نكتب له في الشهر مرتين أو ثلاثاً، ووافقه شيرنشيف ؟ حين سألت ألكسندر كريستوروفيتش عن الموضوع لأني لم أجد من المناسب أن أسأل في حضرة القيصر أجابني: سيكتبُ كلٌّ وحده لأنه مَن يدري ماذا يمكن أن يحدث في هذا الطريق الطويل ؟ الأفضل على ما يبدو ألا نكون في عربة واحدة. أفكر فأجد أن شيئاً ما يجري لمهمتي... أظنني تسرّعت في قبول المهمة معتدّاً بها. حَسَنٌ أن أحمل السلام إلى قومي وإن أصبحت بعيداً عنهم في تفكيري وفي نظرتي إلى الحياة. وفي الكتاب الذي حملته إلى القيصر يظهر هذا التفكير. لم يكن ليجعلني رئيساً لكل الذين أَرسلَهم لو لم يقرأه، لو لم

يعجبه،ولو لم يجد فيه ما يهمه هو، ولما وجدني أهلاً لخاتمه الغالي، ولما ناداني بالحارس الأديغي. وسواءٌ صدّقت نغومه شوره وأضرابه أم لم أصدّق فأنا والله ساذج أثق بمن يفعل خيراً معي، وبمن يتآمر عليّ.ولكن مع ذلك لا أصدق كلام فريفسك " لو لم تذكّرني بأنك أديغي كنت نسيت " ولماذا قالت لي نانا ": الضابط الروسي الذي أرفقوه بك قد لا يكون سيئاً، ولكن احذره! "

_ أأفهموا المقدمَ مْغُرْقوه الموعدَ الذي يجب أن ينتظرنا فيه يا ترى ؟ _ انتشل سؤال فريفسك خان جري من أفكاره البائسة.

_ أليس الأتامان هو الذي كلَّفْناه بهذا ؟ ألم يعد الفارس الذي بلّغه ؟

_ قال إنه عاد.

_ وماذا إذن ؟

_ لا أدري، ليس لسبب مهم، لأن أمامنا ما يقلقني. ما رأيك في مغرقوه؟

_ إنسان كتوم وقور، ومخلص لنا.

_ وما قرابته بالأديغة ؟ أعني أيسمعون كلامه ؟

_ هذا عائد إلى الناس الذين يكلمهم _ ابتسم خان جري _ لا تتوقعْ أن يستقبلوا كل من يحمل رتبة روسية كما استقبلونا أمس في قريتي. وليس كل من كانوا على مائدتنا البارحة ورفعوا الأنخاب متشابهي النوايا. وليسوا قليلين من جاؤوا لتسقُّط الأخبار. أضف إلى ذلك أن هؤلاء من قريتي ومن جوارها، من الذين يسمَّون بالبجدوغ المسالمين. سنقابل في أرض الشابسغ التي سندخلها بعد ساعات وضعاً مختلفاً. يا بافل ألكسندروفيتش يا صديقي الطيب، مرة أخرى، لا تؤاخذني، لنبتعدْ عن الكلام في ما ليس من شأننا، أظننا نقضنا اتفاقنا.

_ لا يا محترم، لا أوافقك. _ فضح صوتُه استعجالَه _ مهمتنا الأولى أن نعرف من يعادي من أوفدَنا ومن يصادقه. وسيكون هذا جواباً لآمالنا _ قال فريفسك في نفسه: لماذا يحاول إبعادي عن قضايا الأديغة مع أنها هدفنا الأول. وتذكر كلاماً سلبياً قاله له الكونت شيرنشيف.

حين خرجا من أرض البجدوغ إلى أرض الشابسغ انتصب أمام عيني خان جري ورفيقه عالم آخر.القرى المحروقة مهجورة، لا بشر ولا كلاب. والإسطبلات مهدمة، والآبار متداعية، والريح تنثر رماد المواقد، والمراعي خالية، والأشواك غطت الأراضي الخصبة. ولا يُسمع صوت عصفور شارد في غابة الشابسغ التي يعبرونها. اعتصر الألم قلب خان جري؛ فكمْ صحبوه من هذا الطريق إلى مربيه مرجان، وكم أعادوه إلى البيت منه ! وحين تعبر الغابة ترتقي هضبة الشابسغ تبدو القرية التي أمضى فيها طفولته، وسيبدو نهر أبنه. أيكون منظرها كمنظر القرى الأخرى التي مرّ بها ؟ إذن المسكين مرجان ؟ سقط قلب خان جري _ في جميع الأحوال فيليومينوف ظالم. إن صدقت هواجسي في مرجان فبأي عين سأنظر في وجه فيليامينوف ؟ لم نتصرف هكذا في بولونيا، كان من يحمل السلاح فحسبُ هو من يُقتل على حمْلِه السلاحَ.ولم نكن

نحرق القرى. يجب أن يُكتب كل هذا إلى القيصر. كيف يصالحك من تمارس عليهم هذه المظالم ؟ ما إن نصل إلى جيلينجيك حتى أكتب للقيصر كل ما شاهدت. أأنا أمْ بافل من يُستحسن أن يكتب إليه ؟ يمكن أن أكتب أنا، غير أنهم قد يصدّقون بافل أكثر مني.

في اللحظة التي همّ بها خان جري أن يبوح لفريفسك بالألم الذي يلوي قلبه خرج من قلب الغابة اثنا عشر فارساً أديغياً شاهرين السلاحَ. ثم انقسموا قسمين وحاصروهما من الأمام ومن الخلف.

_ ما كان علينا أن نستغني عن حراس الأتامان القوزاق _ قال فريفسك.

_ اطمئنّ يا بافل ألكسندروفيتش ! _ قال خان جري وهو ينهض في العربة. وقال بصوت عالٍ للمرافقين الثلاثة الذين شهروا أسلحتهم: _ ضعوا أسلحتكم ! _ ثم استدار إلى من اعترضوه _ نهاركم سعيد أيها الأديغة _ ودون أن يهتم بالذين يجيبون إجابات غير متسقة سألهم: _ من أكبركم؟

_ ماذا ستفعل بكبيرنا ؟ _ سأل أحد الواقفين في الخلف بصوت ليس غريباً عليه.

_ سأوجه إليه ما يستحقه الكبير من التحية وسأسأله.

_ أأنت هذا النغوي الذي طبقت شهرته الآفاق ولا نرى شخصه، من لم نتعرف عليه ؟ !

_ يا قغزج بفوق _ سمع صوتاً أنثوياً رفيعاً من أحد الواقفين في المقدمة _ اسكت يا عديم الإيمان، ألا تستحي ؟ احترم مَن أمامك؛ ألست أديغياً ؟ ولا تحرجنا نحن أمام الضيوف. أنزِلوا أسلحتكم ! مرحباً خان جري نحن نعرف أن القيصر الذي لا يطيقنا أرسلك موفداً إلى إقليمنا.ولكن لم نتوقع أن نجتمع هنا. سنرى ما يقدمه إلينا أصحابك لأن توجيهات كبارنا هي ألا نتعرض لمبعوثي السلام، هاهو الطريق مفتوح أمامك!

" ألا يزال بامبت حياً ؟ _ قال خان جري _ على ما يبدو لم يحقق شواي عهده. أتكون مأساة الأديغة صالحَتْهما ؟ ربما، لا يمكن التكهن بما يفعل هؤلاء "

_ أيها النغوي ! _ صاح بفوق وراء العربة _ إن كنت تريد أن ترى مربيك مرجان للمرة الأخيرة فهو راقد في البيت وحيداً. وسترى ما فعل قومُ مَن يجلس إلى جانبك بقريتنا الكبيرة، وكان مغُرقوه بين هؤلاء. ولكن إن تراجع كبارنا عن تعليماتهم فاعرف أننا سنجدك أينما كنت.

_ ماذا يقول هذا ؟ _ سأل فريفسك الذي على وشك الصحو.

_ يقول لي، باسم الكبار، مع السلامة. _ ابتسم خان جري كاتماً انفعاله.

" سمعتُ احترام الأديغة لكبارهم، وصدف أن صدّقتُ ولم أصدق، ولكن ما رأيته بأم عيني الآن يفوق العجيب. هؤلاء الذين فعلنا بهم كل ما فعلنا، ومع أننا أعداؤهم فقد خلّصْتَنا منهم بفضل شِرعة أوامر الكبار في السن" _ كان بوده أن يُسمع خان جري فكرته فكتمها في صدره خوفاً من أن يغترّ بها _ مع أن هؤلاء ليس عندهم دولة محددة، ولا يتبعون نظاماً اجتماعياً معيناً. نتذرع بأنهم متمردون، عُشّاقُ حرية، ومجموعات بشرية متنافرة، فننتقص من شأنهم،ونظلمهم ظلماً يعجز اللسان عن وصفه. هذه الأفكار لا يجوز أن أُسمعها لجليسي، وهو المسكون بالهواجس الشريرة كما أظن "

في هذه اللحظة كان خان جري مهموماً بالنظرة الأخيرة التي سيلقيها على مربيه مرجان أكثر من اهتمامه بأمور البلاد كلها.

وتجنباً لرؤية قرية مرجان التي كانت تلمع دائماً على ضفة نهر أبنه في أوقات جمال الطبيعة وفي أوقات بشاعتها أوقف خان جري العربة على باب البيت الوحيد الباقي على ضفة النهر، والمطلّ على القرية التي زالت من الوجود.

رأى خان جري "مرجاناً" آخرَ غير الذي لا يمكن أن تخمّن أنه كان جسيماً في يوم من الأيام،ممدداً على أريكة خشبية.

نهض ابنا الأتاليك للضيوف. ورفع العجوز جفنيه بصعوبة إلى من يضع راحته على جبينه. وسأل وابتسامة خفيفة على شفتيه الشاحبتين:

_ هذا أنت يا ولدي ؟ مرحباً يا خان جري... كيف وجدت طريقاً إليّ في هذا العالم المضطرب ؟ يا ولد، نادى ابنه الأكبر بصوت أعلى قليلاً: ناولني طرف الحبل، ليس من اللائق أن أبقى ممدداً أمام ضيوفي.

حين حاول خان جري مساعدة مربيه الذي جلس في الفراش بعون الحبل المربوط إلى السقف قال له مرجان:

_ ما لا يعينني الآن هو ظهري البيتمال، أما يداي فلا يزال فيهما شيء من القوة. ضع الوسادة وراء ظهري. آه، حسناً، حسناً. بحمد الله لست إلى الآن جثة. لو بقيت على حالي لكان أفضل لي ولمن أَشْغلهم. لا تقفا احتراماً لي، اجلسا ! _ انتظر ريثما استجمع شيئاً من قوة وأضاف: _ أنت ترى بعينيك حالي فأسمعني أخبارك ! ورفيقك صاحب الرتبة العالية يجب أن يكون ضابطاً مهماً؛ عرّفني عليه!

روى خان جري أخباره باختصار للعجوز الذي يحوم ملاك الموت فوق رأسه، وأطلعه على إرساله إلى إقليم الأديغة، وقدّم إليه فريفسك.

_ حسناً يا ولدي _ ترك مرجان طرف الحبل _ سمعت حديثاً كثيراً عنك. ووجدت نفسي في مواقف يذكرونك فيها بالخير _ وأخرى كأنما يعيرونني فيها بك. حتى لو لم أكن أنوي تربيتك لأجل من انضممت إليهم... لو كانت الأمور تمشي كما تريد.. أنا راضٍ عنك أينما كنت لتحلّيك بالصدق. ستفهم إن كان هذا خيراً أم شراً في المستقبل فحسبُ.ها أنت ترى بعينيك ما جرى لقريتنا الكبيرة. يحرقوننا، يقتلوننا، يحشروننا إلى الجبل. لولا أن ضابطاً روسياً شاباً وسيماً رقيق القلب أمرهم أن يحملوني لمتُّ في فراشي ولأحرقوا إسطبلي... ماذا قلتَ ؟ أقلت إن القيصر سيزورنا في الخريف ؟ ماذا سيفعل هنا ؟ سيشكر فيليامين صاحب الوجه الأحمر القبيح على أنه يفني شعبنا، وسيمنحه وساماً؛ أليس هكذا.. _ ثم استجمع قواه بزفرة قوية وأضاف: _ قل لرفيقك ألاّ يؤاخذني على صوتي العالي، وترجمْ له مأساتنا !

IV

كما تَجمع أطباقُ المائدة الناس، فالقفقاس الواقعة بين أوربا وآسيا تجتذب بموقعِها الجغرافي وجمالِها الطبيعي وخصبِها الجميعَ إن كانوا رحّالة أم دولاً ممن لهم نوايا مختلفة. وكانت القفقاس إحدى الجهات التي اتجهت إليها أطماع روسيا بعدما قد تخلصت من قرون استعباد النغوي _ المنغول ورجعت إلى وعيها بقلبها وشعبها بدءاً من عهد إيفان الثالث. البراري الواسعة المقابلة لضفة نهر بشزة اليمنى والتي لا تحيط بها العين فيحصرها الخيال تنتهي إلى بحر قزوين، ثم تختفي تحت جبال الداغستان الصخرية العارية، ثم تبدأ من الداغستان تاركة وراءها الشيشان والأوسيت، متعرجة عبر السهول الأشد خصباً، بدءاً من القبرتاي والأديغة، مفرقة حيناً، وجامعة أخرى بين القرى على الضفة اليسرى لنهر بشزة وأنهار أخرى من قرى البسلني والأباظة والمخوش واليجرقواي والحمكوي والأبزاخ والحاتيقواي والبجدوغ والنتخواي والشابسغ والوبيخ، إلى الأرض الجنة التي تنتهي إلى البحر الأسود وبحر آزوف، باتجاه الجنوب الشرقي من نهري الفولغا والدون اللذين كان الأديغة يسمونهما منذ القدم بـ (إيندل) و(تينَرْك)،كل هذا المسطَّح هو ما يسمى باسم إقليم الأديغة.

والأقوام الروسية المتعددة التي هربت باتجاه السهل الواسع الواقع على الضفة اليمنى لنهر بشزة في اتجاه الجنوب القبلي لنهري إيندل وتينرك، والذين يسميهم الروس أنفسهم باسم "الجوالين"، والذين مُقامُهم حيثما حلوا، كانت تعيش هناك. وكان الجوالون الذي يهربون كلما تقلص نفوذ حلفائهم النغوي في روسيا يكثرون هناك، يتجمعون في أسر لا تعمل إلا في الحِرابة والسرقة. وهؤلاء سماهم النغوي بـ: قايساق، أي: القوزاق.

وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر يظهر اسمان لفرعين من القوزاق.ويؤلَّف كل منهما جيشاً جمهورياً مستقلاً جنوب تينر والدنييبر. و في القرن السادس عشر، وهم يتوغلون في شمال القفقاس في مصب نهر سونجي في نهر تيرك، أسس قوزاق غربينسكا قلعة صغيرة هي مدينة تيرك. وفي بداية القرن الثامن عشر حين تُهزَم الانتفاضة القوزاقية التي يتزعمها بولافين في (تين) ينزل جيش نيكراسوف القوزاقي والأسر المرافقة على امتداد نهر بشزة، و يعيش هناك إلى عام 1740 إلى أن يهاجر إلى تركيا، وبعد مرور نصف قرن على هذا، وبتأثير من قائد الجيش بوتمكين، يُهجّرونهم من أوكرانيا. وفي عام 1793 يُسكِنون قوزاق زابوروج الذين يتزعمهم شيبيغير و غولوفات في الضفة اليمنى باتجاه الغرب في إقليم الأديغة. وبعد مرور عشرين سنة على بداية القرن التاسع عشر يُحاصِر قوزاق بشزة وقوزاق تيرك إقليم الأديغة بسلسلة قلاع، بدءاً من ستافروبول في الشيشان، مروراً ببحر آزوف. وفي هذا الوضع، واعتماداً على اتفاق غيوغيفرسك الذي كانت عقدته مع غروزني، احتلت روسيا القفقاس وما وراءها. وبدأت تجابه الفرس من جهة والترك من جهة. ومنذ اندحار جيش نابوليون عن روسيا بدأ الجيش بقيادة يرمولوف عام 1817 يتوسع في القفقاس. وبعد ما سفك دماء القبرتاي اجتاز نهري أراغفي وكورا وجبال تيرك غوت _ غوت، وانطلق عبر

الطريق الوحيد المؤدي إلى تفليس إلى بويين ــ غروزنيشيسك. وعند منبع نهر تيرك في الجبال أمر يرمولوف ببناء قلعة وسماها فلاديقفقاس.

كان هناك أسباب كثيرة تجعل روسيا خلال قرن كامل على عجلة من أمرها لاحتلال القفقاس. فابتداء من النصف الثاني من القرن السابع عشر لم تكن روسيا المسيحية مرتاحة لانتشار الإسلام ورسوخها سواء بالحرب أم بالإقناع. وكان رجالات الدولة قلقين من أن انتشار الإسلام هذا سيحرم روسيا من طرف خصب من طرفي الجنة.وكانوا يتصرفون سراً و علناً بما يتناسب مع هذه الظروف.

وإذا كانت المسيحية تأتي إلى القفقاس من جهةِ الشمال،جهةِ روسيا، فإن الإسلام كان يأتي من جهتين: إيران وتركيا. ومع أن الإسلام كان قديماً في غروزي وأرمينيا فإنه لم يَسُدْ فيهما. واحتفظ الأديغة بخليط من الوثنية والإسلام والمسيحية دون أن يتعمقوا في أيٍّ منها. ولكن تركيا كانت قد بدأت تتغلغل فيهم من جهة قلاع أنابه وسجيق وسوخومي وبوتي، وتتدخل فيهم بالقول والفعل والدين.

ثم تراجعت تركيا بناء على اتفاق سلام أدريانابول، وتخلت عن إقليم الأديغة الذي لا تملكه لروسيا. وثبّتت روسيا هذا التخلي كتابةً على سبيل الافتخار. ولكن العهد الذي سعت فيه روسيا أكثر من أي وقت سابق إلى امتلاك شمال القفقاس، وعلى نحو خاص إقليم الأديغة، كان بعد سنة من انتهاء الحرب على بولونيا. واعتبر القيصر نيقولاي الأول الخطة التي رسمها الفيلد مارشال باسكيفيتش مناسبة له[1].

ومع أن الجنرال فيليامينوف كانت له ملاحظات على خطة الماريشال باسكيفيتش، ومع أنه كان ينتقدها سراً وعلناً، ويرسل خطته هو أكثر من مرة، فبناء على التوجيهات[2] المرسلة إليه بنى سلسلة من القلاع في أليكسيفيسك وأفيبس و إيفانو ــ شيبسكه و أولغينسك و أبنه ونيقولايفيسك و كارادينسك وميخائيلوفيسك الواقعة جميعها في بلاد الشابسغ.

---

[1] يكتب غ. ي. فيليبسون في مذكراته "كان فيليامينوف سلّم في عام 1835 الخطة التي تُحتل بها أرض الأديغة الذين يعيشون في غرب القفقاس.وكانت أحسنَ خطة، ولكن كان ظاهراً عليها كثرةُ الحسابات. وتقضي ببناء قلاع على نهر إيل وعلى الأنهار الكبيرة التي تصب في نهر بشزة، وتتخذ قواعد انطلاق للوصول إلى تخوم جبال شمال القوقاز باتباع السهول النهرية، وتطهير تلك السهول. وبهذا تُضيّق وسائل العيش على من يسكنون الممرات الضيقة باتجاه الجبال الجنوبية ما يضطرهم إلى الاستسلام. واعتبر القيصر نيقولاي بافلوفيتش كل هذه التفصيلات على قدر من الصحة. ولكنه لم يعطه الضوء الأخضر. " لأن إخضاع الأديغة في هذه السنة له نتائج سلبية ".وفي السنة نفسها استلم فيلميانوف توجيهات القيصر " من أجل ترهيب الجبليين في البداية يجب أن يُعرَّفوا قدرهم جيداً "

[2] "كان باسكيفيتش قد رسم الخطة التي تحتل بها روسيا غرب القفقاس وهو في وارسو عام 1832. وهي أن يُشقَّ طريق من كوبان باتجاه غيلينجيك مباشرة، وتبنى قلاع على هذا الطريق، وحين تصبح القلاع جاهزة ترسل عشرة جيوش صغيرة انطلاقاً منها باتجاه الغرب، ويُحشر الأديغة إلى أنابه والبحر ويبادون إن لم يستسلموا. ثم يفتح طريق ثان يلاصق الطريق الأول ولكن باتجاه الغرب أكثر ويصل إلى منبع نهر بشزة، ويُنظَّف ما بين الطريقين أو يُحتلّ "

ولد فيليامينوف في أسرة روسية عريقة. ولقي تنشئة جيدة. وقرأ في شبابه كتباً كثيرة، وكان ماهراً في الكتابة بالفرنسية.وانخرط في الجيش شاباً في سلاح المدفعية.وساهم بشجاعة في معركة أوستيرليست[1]. وكان قريباً من يرمولوف وبنكندورف بقلبه وفكره وصداقته. ونادراً ما يقع في الخطأ لمهارته في الحساب وعقلانيته. وربما بسبب أسلوب العيش هذا كان عديم الاكتراث بالناس وعديم الشفقة وعديم الإحساس بالألم[2] ومع أن فيليامينوف كان يقدّر القيصر فإنه لم يكن يهمل الديسمبريين الذين يرسلونهم إليه في الحرب. كان يحرص عليهم ويلبي مطالبهم.

ولما كان فيليامينوف يلازم الجنود مهما كانت خطورة الموقف غضّ هؤلاء الطَّرْف عن ثقل ظله وتفرُّده بالرأي وجلافته، فتحاشوا أن يتصفوا بالجبن. كانت مجموعة من الجنود القوزاق تحرس عربته السريعة ذات الأحصنة الثلاثة. وإذا حدث أن وجدت العربة صعوبة في تسلق الجبال أو اختراق المستنقعات كانوا يتبادلون حمل هذا العجوز الجسيم على أكتافهم حتى يوصلوه مبتغاه.

اليوم لطيف صاحٍ في صيف الجبل خلافاً للأيام الرطبة السابقة بحيث ينسيك المعركة الدامية التي دارت بالرماح أول من أمس في سهل بشادا وخسر فيها الطرفان أكثر من مئتي رجل. ولا يسمع صوت طلقة مدفع أو بندقية. وتكتشف وجود هواء خفيف من تهامس أوراق الأشجار.والشمس تنظر بحذر من طرف الجبل، وترتقي على مهل. وتفاجئ رؤوس الأشجار المنتصبة.

ــ سيكون الجو في الجبل خانقاً اليوم يا ولدي ــ رسم فيليامينوف بكل فتور إشارة الصليب بعدما انتهى من الطعام، وتابع برأس ثقيل مطرق وكأنه يكلّم شخصاً آخر غير فيليبسون المعاون: ــ أنا حزين للطريقة التي قتل فيها الجنرال ستيفان.لم نستطع أن نحميه يا ولدي. هذا ما يحدث لنا في حرب باسكيفيتش المرتجلة. قيصرنا يستعجلنا لإنهاء الحرب، ولكن شراسة مقاومة الأديغة تزداد كلما توغّلْنا. لا أعرف من أين يأتي من لا يملكون إلا السيف والقامة والبندقية بمثل هذه القوة.

ــ عند الأديغة الأحجار والطرق المقطوعة بالحواجز والطرق السرية يا سموّكم ــ أدلى فيليبسون برأيه.

ــ وهذا ليس مهماً يا ولدي، ولكن يحدث في هذه المسألة شيء آخر. أتتذكر سحْق نابوليون في روسيا يا بني ؟ لن نسمح لهم بأن يفعلوا بنا مثله هنا. غير أن هؤلاء يحاربون في أرضهم، يحمونها... وقيصرنا العظيم... ــ غمغم مرة أخرى ــ باسكيفيتش مدعوماً بالوصوليين يدفعنا إلى الاستعجال. نعم، نعم يا ولدي مهما كان الحمل ثقيلاً فسنخلص لقيصرنا العظيم ولن نخالف أمره.

من بعيد، على مسافة غلوة حصان، ارتفع صوت المؤذن على مرتفع بشادا.

---

[1] عام 1805 كرّست انتصار نابوليون على النمسا وروسيا. المترجم

[2] "كانت قسوته ووقاحته تصلان إلى الظلم المطلق. وفي أثناء السفر كان يأمر بأن يُجلد أمامه بالسوط أو بالعصا من يُذنب. كان يجلس مرتاحاً على الطبل ويحدد لهم مدة الجلد. ويكلّم آخرين إلى أن تنتهي المدة. وفي مرة ونحن نتغدى قال بشأن أحد الأشرار: ماذا إذن ؟ يجب أن يخصص له جلود ثلاثة من الإنجليز "

_ الأديغة سيصلّون _ قال قائد جيش (التينغينسك) العقيد كاشوتين.

_ لا يا عزيزي _ نظر العجوز فيلياميتوف إلى ساعته، انقضى وقت صلاة الصبح عندهم. وبقي على صلاة الظهر ساعتان.

_ ربما يدفنون موتاهم _ ساهم قائد جيش القبرتاي الميجر جنرال بيرياتينسك في الحديث.

_ لا، لا يا عزيزي، أنت مخطئ _ قال فيلياميتوف ولا يزال مطرق الرأس: _ أنت تبرهن على جهلك بأمور الأديغة. الأديغة لا يحتفظون بالجثمان طويلاً[1]. الأكيد أنهم دفنوهم أمس إن لم يكن أول من أمس حين استلموهم. أظن وراء أذان الشيخ أمراً آخر.أتسمعون ماذا أضاف من جديد ؟ إنهم يستنفرون مقاتليهم إذ وجدوا ثغرة إلينا. أين هو بولتينين قائد جيش نافاغينسك ؟كيف يسمي نفسه على قولكم ؟ قال كاشوتين مبتسماً:

_ "مسؤولية المتوحش أقل من مسؤولية رفاقه ".

_ استدعوا إليّ حالاً العقيد بولتينين _ قال فيلياميتوف وهو يرفع رأسه الثقيل بنبرة لا تعرف أتعبر عن فرح بما يرى أم عدم رضا: _ ها هو العقيد بوليتينين قادم كأنه سمعني. أصحيح يا عزيزي ما يشاع من أنك تمدح نفسك شعراً ؟

_ لا، يا سموّكم _ نظر بولتينين إلى الحضور بعين ساخطة، وابتسم قليلاً: _ مجرد إشاعات، أيعقل أن أمدح نفسي ؟

_ ولكن لا يتحرك العود إن لم يهب الهواء، يا عزيزي.

_ يحدث هذا أحياناً. حين أكون في مزاج حسن، إن كنت ستعدها نقيصة عليّ. يحدث أن أمزح مع نفسي.

_ أمام الرصاصة، وأمام الرمح، وتحت ضربة السيف، لا أعد المزاح نقيصة أيها الغالي. هذا جزء من الشجاعة الروسية. ولكن أتسمع هذا الصوت الأديغي الآتي من المرتفع يا عزيزي ؟

_ ليس أسمعه فحسب يا سموّكم _ قوي صوت بولتينين _ جاء استطلاعنا من تلك الناحية. وكنت قادماً إليك لأخبرك بأحوالنا. اجتمع عدة مئات من الأديغة على المرتفع. ولا يزالون يتوافدون من القرى الأبعد. ونصبوا لنا كمائن في عدة مواقع.

_ أسمعتم أيها المحترمون ؟ _ سأل فيلياميتوف متظاهراً بعدم الاكتراث متأملاً قبعته القديمة. ثم قال لنفسه وهو يعبس بوجهه الأحمر: _ هذه القبعة لا تليق بي أمام من يراها. حان وقت تبديلها. فيما بعد، فيما بعد يا غريغوري إيفانوفيتش _ قال لفيليبسون ورفع رأسه بسرعة خلافاً لعادته البتة _ من أجل هذا أيها المحترمون قلت لكم إن الجو في الجبل سيكون اليوم ثقيلاً. بعد ما حدث أول من أمس سنصيح في الجبل

[1] معلومة تخالف ما يُعرَف عنهم وينتقدهم عليها بعضهم . وربما في المعارك تجنُّباً لتحلل الجثث فحسب: المترجم

بالصفارة كما ينادي المسلمون " الله أكبر ". الآن دون إهدار الوقت، سنهاجمهم من جهات مختلفة ولو لم يكن عندنا إلا طريق واحد. بيرياتينسك من اليمين وكاشوتين من اليسار، ومدافع بريمير على الطريق الوحيد المؤدي إلى الجبل ــ وابتسم لبوليتينين وغمزه ــ من أجل ألا يُجرح للمرة السادسة، ومن أجل ألا يغيب عن الوعي للمرة الرابعة، ومن أجل ألا يُحرج سندعو له مرة أخيرة. ستفتح الطريق لمدافع بريمير ببندقية مزودة ورمح مشهر أيها العقيد، الله معكم. سأكون أمامكم أيها المحترمون. أبلغوا مقاتليّ الشجعان بالأمر. أين قوزاقي قطّاعو الرؤوس الجزارون ؟

كما في الأيام والأشهر والسنين الماضية، تحرك الجيش الروسي في جبال الأديغة، جنح جيش التينغيسك جهة اليسار، وجيش القبرتاي إلى اليمين. وتابع نافاغينسك موضوع المدافع.وركب حماة الجنرال فيليامينوف خيولهم، وسبق بعضهم رئيس جيشهم، وحماه آخرون من الخلف. وانتشرت كتيبة الهندسة في الغابة أسفل الجبل. وفي أقل من ساعة ملأ دوي المدافع وأزيز الرصاص وصهيل الخيل وصراخ المقاتلين سهل بشادا. وامتلأ الجو برائحة البارود. وبدأت تفِدُ أوائل القتلى والجرحى.

مضى نصف النهار، ولم يحتل جيش فيليامينوف إلا الطريق الأول المفخخ، وكان الحاجز الثاني أصعب. لم يكن الأديغة يعرفون التراجع. وحين يطلقون نار البنادق لم يكونوا يضيعون الوقت في تلقيمها ثانية بل يهجمون بالسيوف والقامات مرددين " اللهم انصرنا على الكفار ! " مرتلين الأذكار والأدعية، فيتصدون للجنود الروس الذين يصعب عليهم ارتقاء الجبل. فيقتل بعضهم بعضاً ويخنق. ولم يكونوا يكتفون بإطلاق البنادق على الجنود الذين يدفعون المدافع بل يدحرجون عليهم الصخورَ التي تسحق من تجد في طريقها، والأشجارَ ذات الأغصان الشائكة، ويرمونهم بالسهام.

وحين يقترب وقت الظهيرة يقلق فيليامينوف على مصير المعركة:

ــ وثبة أخرى فحسبُ ! الأديغة تتلاشى قواهم. وحين نحتل الحاجز الثاني ينفتح طريقنا ونملك قمة المرتفع.

ــ لا أعرف ماذا جرى للأديغة ؟ ــ يقول بيرياتينسك ــ لم أرهم مثل اليوم يحمون قمة المرتفع.

ــ يحمون قراهم يا عزيزي، قراهم.

ــ لا قرى في هذا الاتجاه ! يا جنرال فيليامينوف ــ يقول فيليبسون ــ الأديغة يحمون غابة بطم.

ــ لم يفهم جنود بولتينين، إنها نظيفة حتى كأنها شفافة. يحمونها من كل الجهات.ــ قل للجيش باسمي أن يوقف إطلاق النار. ولكن أكِّد عليهم ألا يتراجعوا. "الصباح رباح ". أخلوا القتلى والجرحى من أرض المعركة. خذوا الإصابات الخطيرة إلى غيلينجيك، وادفنوا القتلى !

ــ قبور المسيحيين يا سموّكم ــ استعجل احد القوزاق ــ سيعبث بها المسلمون.

ــ أخوّفك الأديغة ؟ أتظننا عاجزين عن احتلال التبّة أيها القوزاقي ؟ سأل فيليامينوف المحارب القوزاقي بنبرة لا تدري أهي لوم أم غضب، وأجابه: ــ كن واثقاً بأننا سنحتلها غداً قبل أن تشرق الشمس،

وسيرتاح المسيحيون فوقها. ادفنوا الشهداء الأبطال قبل أن تغيب الشمس، وادعوا لهم أن يغفر الله لهم ذنوبهم إن كان عندهم.

باستثناء ساعة واحدة نعس فيها لم يغمض فيليامينوف جفنيه في ليل الصيف القصير. وما إن انبلج الفجر حتى قابل جيشه، وقابل الفرسانَ القوزاق الثلاثة المرسلين إليه من غيلينجيك، وقال لهم:

_ لا شك في بطولتكم وفي احتلالكم قمة المرتفع. حارِبوا وقيصر روسيا العظيم في قلوبكم، والله حاميكم. برهنوا على رجولتكم، ولا تسببوا لي الحرج.وسأكافئ بالمال كل من يأتيني برأس أديغي.

ومن الفجر إلى ما بعد الظهيرة دارت معركة أعنف من معركة اليوم السابق، وانتهت باحتلال المرتفع.

اقترب فيليامينوف على ظهر فرسه من الجنود الذين يحملون من اللحية رأساً أديغياً أو رأسين، وتوقف وسط غابة البلوط التي يتجاوز عمرها القرن، وأشجارها مقلّمة بعناية، في ساحة منيرة، ورغم أنه لم يفهم سبب تضحية الأديغة بكل هذه الأرواح في سبيلها فقد قال دون نية في الترجل:

_ ما هذا ؟ أهذا ما لم يكن الأديغة يسخَون به ؟ !

_ هذا يا سموكم _ قال العقيد كاشوتين _ بما أن نُصُب الأديغة الوثني هو شجرة البطم فهم يقدسونها إلى الآن رغم اعتناقهم الإسلام. يفضلونها على حياتهم.

_ نعم، نعم يا ولدي _ قال فيليامينوف دون أن يبدي حقيقةَ ما في قلبه _ هذه أصنام الأديغة... حمَوها دون خوف على أرواحهم. كم من الأماكن المقدسة من هذا النوع في إقليم الأديغة ؟ _ سأل نفسه " نحن يجب أن ننتهي من الحرب هنا، ويجب أن نجبر الشيشان والداغستان على المصالحة " أجاب نفسه. ثم أشهر سوطه للأديغة الذين تيبست أجسادهم وهم يحتضنون أشجار البطم: _ هؤلاء !

_ أرواح هؤلاء يا سموكم _ قال بولتينين مبتسماً ناظراً إلى القوزاق _ ستطير إلى ربهم الإسلامي.

_ ربما يا ولدي، ربما..._ كرر فيليامينوف مرتين بنعومة، ثم أصدر أمراً بصوت قاسٍ: _ اجتثوا كل أشجار البطم، لا تُبقوا أياً منها[1]!

احتفظوا لي منها بواحدة قوية جميلة، سأرسلها إلى الأكاديمية العلمية _ وهؤلاء الذين وعدتهم بالمكافأة أعطُوا كلاً منهم عشر سومات على كل رأس[2].

---

[1] يكتب فيليبسون في مذكراته " في اليوم الثالث انتقلنا من قمة أندربي ووصلنا إلى قمة بشادا. حاربَنا الأديغة بشراسة في المراعي والفسحات داخل غابة البلوط. وتبيّن أن البلوط إله عزيز على الأديغة. كان الأديغة يمارسون طقوساً وثنية منذ القِدم، وكانت أشجار البلوط في حالٍ جيدة جداً. وداخل إحداها كانت صخرة كلما نمت الشجرة أحاطت بها من كل الجهات حتى أحكمت الطوق حولها. كان يُخيل إليك أن عمر الشجرة لا يقل عن مئتي سنة. أمر فيليامينوف بقطع الشجرة، ثم قطع الجزء الذي يتضمن الصخرة. وكان يريد إرسال هذه القطعة إلى أكاديمية العلوم.

[2] "كانت تبدو عدة قرى من بعيد _ يتذكر فيليبسون _ بدأ تبادل إطلاق النار من البنادق. واشتد في مكان واحد. قال لي فيليامينوف الذي كان يسير بحصانه غير مبالٍ: " اذهب يا ولدي إلى هناك وأوصِ مطلقي النار ألا يطيلوا هذا

V

رجع فيليامينوف إلى غيلينجيك راضياً بكونه نصب قلعة ميخائيلوف في طريق طوابسه في مواجهة الأديغة، ولو أنه قُبر كثيرون من المقاتلين الروس في جبال أدربي وبشادا وسهولها ومرتفعاتها خلال شهور الربيع ــ الصيف الثلاثة، ليستعد للهجمة الثانية. وقد أرسل الخبر السار إلى مكانين غير عابئٍ بارتقائه طريق الجبل: " إلى سانت بطرسبورج إلى القيصر العظيم، وإلى سيرنشيف وزير الدفاع " وقد كتب التقرير بيده بعناية وراجعه، ولما أعاد صياغته بعناية فائقة صاح بصوت حاد على غير عادته إلى الخارج:

ــ أين أنت يا غريغوري إيفانوفيتش ؟ خذ يا عزيزي، الآن، دون أن تتذرع بتأخر الوقت أرسله حالاً إلى بطرسبورج. دعهم يفرحوا. لماذا تقلّبها يا ولدي ؟ أترى فيها عيباً ؟

ــ الرسالة الثالثة ــ يا ألكسندر ألكسندروفيتش ــ قال فيليبسون بحذر شديد ــ لا أراها بينها.

ــ صحيح ! لماذا يحتاجها باسكيفيتش صاحب الرأس الفارغ خلافاً لرتبته العالية ؟ إنه لا يصغي إلينا، أملى على القيصر إرادته هو. لو وافقني على موقفي من قضية الأديغة لما تخبطنا خمس سنين في هذا الإقليم، ولكنّا هرسنا الأديغة منذ زمن بعيد بين فكي الجيشِ القادم من أبخازيا وجيشِنا نحن، ولكُنّا اقتطعنا جزءاً من البحر الأسود... انظر ماذا يحدث لنا الآن ! كنا أخضعنا الجمكوي والبسلني والمخوش والأباظة، كنا أخضعنا الإقليم كله منذ زمن بعيد. ما الفائدة من الكلام في هذا الموضوع يا عزيزي بعدما جرى ما جرى ؟ إن كان رأيك هكذا فاكتب له أنت ! ولكن لا ضرورة لأن تخبره قبلهم فيُسبلَ جفنيه ويرسل الخبر إلى القيصر. انتظر أسبوعاً ثم أرسل له. لا تدع أحداً يدخل إليّ؛ أنا سأستريح.

وكعادته حين يفكر نام فيليامينوف على ظهره. وأسند رأسه براحتيه. وأسبل جفنيه كي لا تتعب عيناه من التأمل في السقف المنخفض. وارتاح تحت إبط البحر دون أن يسمع غير أصوات الأمواج الناعمة. وكانت أصوات شكوى الطيور تعكّر تفكيره وكأنها تذكّره كيف أمر قبل أيام بإبادة غابة البلوط.

هذا هو إذن ! لام العجوز فيليامينوف نفسه بنفسه. القيصر الشاب يحثُّه أترابه الشباب. ما يحمينا الآن هو الأوسمة التي كوفئنا بها على إخلاصنا للوطن فحسب. لا أستبعد أن تكون هذه الأوسمة نُسيت. من يتذكر سوفوروف وكوتوزوف إن لم نأت نحن على سيرتهما ؟ ويرمولوف سحبوه من هنا منذ أكثر من عشر سنوات. وهو الآخر يُنسى. أليست له إنجازات ؟ من سيتذكره ؟ أهو الكونت باسكيفيتش أم البارون روزين ؟ هؤلاء يقدرون أنفسهم أكثر مما نفعل نحن.الكونت بنكندورف وحده هو من بقي بجانب القيصر

الشغب. وإن عاند أعداؤنا فليقتلوهم برؤوس الرماح " وفي المساء بدأ إطلاق البنادق المتبادل يخمد، كانت القرى تحترق، وأحاط المقاتلون بالتل الكبير الذي منح القرية اسمها. وفي هذا اليوم قُطعت رؤوس بعض جثامين الأديغة ولُفّت بالقماش. ومنح فيليامينوف كلَّ من جاء برأس عشرَ سومات. وكان يرسل الرؤوس إلى الأكاديمية العلمية... وقد جعلني منظر رماح القوزاق التي تحمل الرؤوس أشعر بالاشمئزاز والهياج.

من المسنين... والمبعوثان إلينا من سانت بطرسبورج ؟ المحترمان خان جري والبارون فريفسك ما يزالان شابين. لماذا يضايقني هذا العصفور هكذا ؟

_ يا عزيزي غريغوري إيفانوفيتش، ما قصة هذا العصفور يغرد لي باللغة الأديغية فيصمُّني ؟

_ كلما أبعدناه عن الشجرة رجع إليها أيها القائد.الآن كلفت الجندي زابوغا بتولي أمره.

وفي هذه اللحظة سُمع صوت العصفور.

_ أتسمع ؟ _ غضب فيليامينوف ثم هدأ قليلاً: _ ألا تعرفون كيف تتصرفون مع العصفور يا عزيزي ؟ اصرعوه بطلقة واحدة، وعلقوه بطرف الوتد كما فعل الجنرال زاكس برؤوس الأديغة؛ هذا العصفور المزعج ! أصغى الجنرال العجوز لأياً بعدما سمع صوت الطلقة. ولما انقطع صوت العصفور رجع إلى أفكاره، قال: لن تجري أموركم في شمال القفقاس بسهولة كما تريدون. بالقياس إلى المقاومة التي يبديها الأديغة، إن أردنا الحديث عن الأقوام الأخرى، دعك من موعد زيارة القيصر في هذا الخريف، فلن تستطيع إخضاعهم حتى لو جمعت عليهم روسيا بأكملها ولا في خمسين سنة. يحمون كل موطئ قدم من أرضهم بأرواحهم. لم نقطع خمسين فرسخاً من الجبل منذ الربيع في أربعة أشهر. نسيطر على ما يحميه جنودنا من القلاع القريبة فحسب. أما ما تبقّى من البشر والمسالك الجبلية والغابات؛ حتى هذا العصفور الذي أمرت بصرعه،فكلهم أعداء. أخي الأكبر إيفان الذي كان بصحة جيدة والذي كانت سيبريا الغربية كلها بإمرته مات هماً... ولا أسأل عن صحتي.حين قال لي القيصر " اذهب إلى شمال القفقاس وحُلّ مشاكلنا هناك، واستشرت يرمولوف، لم أستطع الرفض رغم علمي بأن أخي غير مرتاح لهذه المهمة. وأختاي المسكينتان وهما تظنان أنهما تعيلان نفسيهما وترعى واحدتهما الأخرى بقيتا بلا زواج كما أنا. ما أخبارهما يا ترى ؟ آخر مرة كتبتا لي كنت في ستافروبول قبل أن آتي إلى هنا. حين يزورنا القيصر ويرجع سأذهب إلى مسقط رأسي (تولا)، سأزور أختيّ والمواضع التي قضيت فيها شبابي... غير أني لا أستطيع أن أفهمَ الأديغة... ليس مقتلَهم وهم يحتضنون أشجار البطم. بل مع علمهم أنهم لن يستطيعوا الانتصار علينا يخترقون مئة جندي مسلحين ويسدون بأجسادهم فوهات المدافع وهي تطلق. ويرمون بأنفسهم من الجبل فيصرعون في طريقهم عدداً منا. أي سلوك هذا ؟ وماذا تسميه ؟ وكيف نسرّع إجبار الإقليم على السلام ؟ استغرق فيليامينوف في النوم بلا شعور وقد أرهقته أفكار الطريق.

قُبيل الظهر من اليوم التالي، نقلت عربةُ الثيران المنتظرةُ فيليامينوف من البيت. من العربة المنتصبة التي لها عجلتان كبيرتان يظهر بروزان مستقيمان مصقولان جداً، ومن قطعة البلوط الكبرى تظهر حجارة مقطعة.

_ لماذا لم تحرصوا على الحجارة يا عزيزي ؟ ! سأل فيليامينوف السائس بحيث لا تدري أيلومه أم يعنّفه.

_ الحجر أيها الباشا _ أجاب السائس على عجل _ قطع الأخشاب.

_ يبدو الحجر من مظهره ناعماً يا عزيزي.

ـ لا يظنَّ سموّك هكذا ! ـ تدخّل الجندي زابوغ وهو يقرع الحجر بحرف كفه ـ هو صلب كالصوان، ربما لأنه مسقي بنسغ البلوط.

ـ صحيح، صحيح يا عزيزي. ولماذا ليس في القطعة الخشبية الأخرى قطعة حجر ؟

ـ حملناها معنا لأننا نعرفك تحب النجارة، وندعك تلهو بما يريد سموكم.

ـ كذا يا عزيزي ! إذن ضعوها في منشرتي. والأخرى يا غريغوري إيفانوفيتش ضعها في أول مركب منطلق إلى فيدوسيا. وأرفقها بكتاب يوصلها إلى الأكاديمية. وليبحثوا في أسرار ممارسات الأديغة المتنوعة.

بعد يومين أو ثلاثة من هذه الحادثة وصل خبر إلى فيليامينوف، والقطعة الخشبية المرسلة إلى فيدوسيا تكاد نصل.

ـ أين تجمّع الأديغة قلت لي ؟ سأل فيليامينوف العقيد بولتينين.

ـ عند الأشجارِ الأصنامِ التي قطعناها أيها القائد.

ـ وماذا تفهم من اختيار هذا المكان يا عزيزي ؟

ـ يقفون وهم يرون مرعى الأصنام الفارغ.

ـ ولماذا لم يجتمعوا في المرعى على عادتهم ؟ـ ابتسم فيليامينوف ـ أحُرِّمت عليهم ؟

ـ حسب الأخبار التي جاء بها جواسيسي، يرجون الحماية من الله بسبب عجزهم عن حماية أرضهم، بعدما لعنتهم آلهتهم.

ـ لأن عندهم آلهة أكثر مما ينبغي ـ غمغم فيليامينوف وكأن أحداً غيره لم يسمع. ثم سأل بعينين محمرتين:

ـ كم شخصاً هم ؟ وما نواياهم ؟

ـ حوالي عشرة آلاف بين فارس وراجل. يقولون: سنحارب، سنحمي أرضنا وأطفالنا ومسنينا. ولكن سيقابلك وفدهم قبل هذا.

ـ وماذا يريدون أن يقولوا لي ؟ رفع فيليامينوف حاجبيه الأحمرين،ثم أصلح الموقف وقد انتبه إلى مبالغته في رد الفعل: ـ نعم يا عزيزي، يريدون مقابلتي ومحادثتي... الملاعق والمغارف التي صنعتها من شجرهم المقدس سنسقيهم بها حساء لحمٍ محرم على المسلمين إن لم يكن ثقيلاً عليهم.

تضاحك الجالسون من قلوبهم أو من خارجها، وأكمل فيليامينوف دون أن تبدو عليه ملامح ابتسام:

ـ إن قرروا القتال فلست من يجب أن يقابلوه إذ لن يلقوا منا خيراً. ليقابلوا أولاً موفدَي قيصرنا العظيم ولْيتشاوروا ! ولكن لا أظن هؤلاء الأديغة الذين تتحدثون عنهم قادرين على الاستمرار في اجتماعهم طويلاً. سينسلّ كلٌّ إلى بيته بعد أن ينتهوا من التهام الخراف التي حملوها معهم على صهوات خيولهم.

تضاحك الجالسون ثانية. ووافقهم فيليامينوف، ثم جزم باختصار:

ـ لا يعني هذا أيها المحترمون أن تجلسوا مكتوفي الأيدي ـ ليس اليوم تعرفون لأول مرة عبادتهم للأوثان. استنفِروا الجيش ولا تتهاونوا !

لم يتصرف الأديغة كما توقّع فيلياماينوف. وحين سمع أن الموفدين الخمسة للرجال الذين دام اجتماعهم أسبوعاً كاملاً وصلوا إلى ضواحي غيلينجيك تفقّد فيلياماينوف ثيابه مرة ثانية، والأسلحة التي لم يكن يحب أن يتقلدها: القامة والسيف والمسدس، أصلح وضعها وإن لم يكن بها عيب. وتفقد لحيته وشاربيه. وفيما هو يفكر في كيفية استقبالهم والتحدث إليهم ذرع أرض الغرفة يغلبه الخمول. ثم توقف عند إحدى النوافذ الثلاث ينظر بارتياح إلى البحر الذي لا تعلوه الآن موجة غاضبة ولا مركب.

ــ وصل موفدو الأديغة أيها الباشا ــ قال فيليبسون للجنرال المدير ظهرَه وسأله: ــ أنطلب منهم نزع أسلحتهم يا ألكسندر ألكسندروفيتش ؟

ــ يا عزيزي ــ التفت بصعوبة بعنقه الثخين وظهره المكتنز المتراصّ ــ ليحملوها ! وأنا أيضاً أحملها كما ترى. هل الخمسة كلهم موفدون ؟

ــ يقولون هذا يا باشا، واثنان منهم من معارفك.

ــ ومن هما ؟

ــ توغوظقوه قازبك وشروخقوه توغوظ.

ــ هذان من معارفي القدامى، ومَن الآخرون ؟

ــ لا نعرف عنهم شيئاً. وهم شباب جداً بالقياس إلى الاثنين السابقين. أظنهم من الذين برزوا بين الأديغة في السنتين أو الثلاث الأخيرة. أحدهم ربما لا يتجاوز العشرين.

ــ أدخلهم !

أُدخل توغوظقوه وشروخقوه لابسين ثياباً نظيفة وجديدة جداً. وسلطان شواي وأغوي بشه ماف ثياباً أقدم، ووراءهم تازه أديغ، إلى الجنرال.

تبادل الطرفان ترحيبين مختصرين. وجلسا متقابلين، ووقف تازه أديغ تاركاً مقعداً فارغاً وراء الأكابر سناً. وحين أشار له فيليبسون إلى المقعد الفارغ قال له بالأديغية:

ــ عليّ أن أبقى واقفاً في حضرة الأكابر سناً.

وترجم المقدم مغرقوه ما قاله دون أي نقص.

قال توغوظقوه قازبك مخفياً انفعاله:

ــ ما جئنا من اجتماع الأديغة إلى من نحترم رجولته وشيب لحيته وشاربيه فيلياماينوف لائمين أو مؤنبين أو لنعيد تربيتك. وإن وافقني رفاقي فسأقول لك أمراً لا يعجبني: لا أرى من المناسب أن يجلس بيننا ذلك الخائن مغرقوه ــ وافق زملاؤه بإيماءة رأس ــ لو صرفتَه من أمامنا، لا تؤاخذنا، لَسرَّنا. ترحِمْ له يا عديم الإيمان !

ابتسم فيلياماينوف الذي سمع ما ترجمه مغرقوه.

ــ سيكون المقدم مجرد مترجم.

ـ إن أردت أن ترضينا فنحن لا نقبل به مترجماً. وإن وجدتم صعوبة في فهم لغتنا فنحن نعرف شيئاً من القوزاقية. وبيننا من يتقن لغتكم. شواي سيترجم للطرفين.

ـ إن كان رأيكم هكذا ـ قال فيليامينوف متمهلاً ـ فمن جهة سألبي رغبة الوفد وسنستغني عن ترجمة مغرقوه، أنا من يقرر هذا , ولكن من جهة أخرى هناك ما ليس من سلطتي: لا أستطيع أن أهين ضابطاً روسياً في حضرتكم؛ سواء أكان يستحق أم لا يستحق. ليبقَ معنا حتى لو لم يساهم في الحديث ! ونحن نقبل مترجمكم.

ـ لا أعرف إن كانت هذه رغبتنا يا جنرال.. ترجِمْ له يا شواي مشيراً إلى أنك كنت أسيراً لدى القوزاق سابقاً ـ توقّف توغوظقوه قليلاً ثم أضاف: شكراً لك على تلبية رجائنا. الوقت الذي سنتكلم فيه على مغرقوه لا يزال أمامنا. ها هو ما جئنا لأجله اليوم يا جنرال: ادّعيتم بكتاب مزوّر أن السلطان التركي وهبَنا لكم. فدخلتم أرضنا بموجبه وأسستم القلاع دون أي وجه حق، وهو عارٌ. لم نكن يوماً ملكاً لتركيا فتهبَنا لكم.ولم يكن صحيحاً أن تأخذنا روسيا منهم. صارت حياتنا، نحن الطرفين، مستحيلة طوال السنين التي وطّنوا فيها القوزاق على ضفة نهر بشزة. وبدلاً من أن تنشروا بيننا السلام،فبذريعة مكر الأتراك وراء البحر، وتسميتِنا بالجبليين المتمردين، تحتلون أرضنا المستقلة، وتحرقون قرانا، وتحوّلون الأراضي الخصبة إلى مزارع للشوك، وتدحلون أماكن الحشيش، وتنهبون مواشينا وبيوتنا، وتدَعون أطفالنا ومسنينا ونساءنا نهباً للموت جوعاً. وأنت شخصياً أيها الجنرال لن نغفر لك أمرك بقطع الأشجار المقدسة من المكان الذي يبتهل فيه الأديغة إلى الله.وهذا يشهد أنك لا تؤمن بإله، وتتحمل وزر ما تفعل. ولذا يؤكد عليك الاجتماع الأديغي أن تسحب جيشك من أرضنا، وتبعد قلاعك، وتقيم على الضفة الأخرى لبشزة فتعيش معنا في سلام. وإن لم تقبل فإن إقليم الأديغة بكامله يعلن الحرب عليك ـ ودون انقطاع طويل أضاف ـ والآن أيها الجنرال نسمع جوابك للوفد الأديغي.

وفيما كان شواي يترجم كلام توغوظقوه كان فيليامينوف يبتسم في سره، وكان يفكر في الملاعق والمغارف التي صنعها من شجر البلوط، وأوضام الخشب التي يُقطَّع عليها اللحم، وفي دفع جيشه باتجاه (طوابسه)، وفي سلب مزيد من أراضي الجالسين في حضرته. ولم يكن ليصغي بعقله إلى شكاواهم. ولم تتغير سحنة وجهه الشاحب إلا حين طلب توغوظقوه الجواب، فصعد قليل من الدم إليه علامةَ استيائه مما سمع.

ـ أيها الوفد الأديغي المحترم ـ ظهر الابتسام الآن على وجهه ـ جوابي على كلامكم سيكون مختصراً ـ أنا جنرال عند القيصر الروسي العظيم، ولن أستطيع أن أحيد عن أوامره قيد شعرة. خيّبتم أملي اليوم؛ فبدلاً من أن تصالحونا تثيرون شكاوى ضدنا وتتهموننا بكلمات قاسية. بما أني أنتظر الموفدين الذين أرسلهم إليكم القيصر برئاسة سلطان خان جري، وقد يصلون في أي لحظة، أستطيع أن أجمعكم بهم.

مع أن أعضاء الوفد الأديغي كتموا رغبتهم في الضحك مما سمعوه،فقد فهم فيليامينوف الموقف، وصدّق عليه توغوظقوه:

_ إن أرسل قيصرك موفديه إلى ناحيتنا فهم أدرى بمن يقابلونه أيها الجنرال. بلّغناك المهمة التي كلّفنا بها المؤتمر الأديغي الأعلى. وإن لم تفهمنا، فكما قلنا لك، فلا تراجُعَ عن موقفنا. سنحمي أرضنا !
حين نهض الأكبر نهض وراءه أصحابه.

***

شهوداً على صحة قول الجنرال " ربما يصل موفدو القيصر الآن " ما إن صعد الوفد الأديغي الذي جادل فيلياميتوف جبل غيلينجيك حتى وصل وفد خان جري وأُدخل إلى الجنرال.
" من حسن الحظ أنهم لم يجتمعوا بوفد الأديغة عندي إذ ما شأني بهم " _ ما إن رأى فيلياميتوف وجوه ضيوفه حتى سُر. ولكنه قال لهم مع ذلك:
_ لو عرفت أنكم ستصلون هذه اللحظة لطلبت من موفدي الأديغة التريث. لم يمض أكثر من نصف ساعة على ولوجهم الغابة.
_ من هؤلاء ؟ _ نظر خان جري في وجه الجنرال مخفياً أسفه لعدم مقابلتهم ولو أنه لا يعرفهم، وليكونوا من يكونون. ونظر نحو المقدم مغرقوه وكأنه يقول له: ربما أنت أدرى بهم، وعرّف فريفسك بعينيه أنه كان محتاجاً للقاء هذا الوفد.
_ الأكبران _ قال فيلياميتوف بلامبالاة ظاهرة: هما من لا يتركان الشابسغ يعيشون في سلام: المجرمان توغوظقوه قازبك وشروخقوه توغوظ، والآخرون لا أعرفهم. لم يبق في ذهني شيء من أسمائهم أو أنسابهم... جادلوني متناسين الجنرال الذي يجلسون في حضرته _ ابتسم فيلياميتوف بوجه أحمر كالح،انصرفوا مهددين. اسحب جيشك من أرضنا ! اعبر به نهر بشزة ! وإلا سحقناكم. وأكدوا عليّ ! _ والآن بدا عليه من ابتسامته وصوته سخريتُه منهم. _ لا أعرف كيف ستناقشونهم أنتم؛أما أنا فلم أستطع أن أحصل منهم على جملة مفيدة. ماذا قلت لي أسماء الثلاثة الآخرين يا عزيزي ؟ _ سأل المقدم مغرقوه.
قال خان جري في نفسه " لم يكن الأمير الناتخواي زانه سفربي بينهم، يبدو أنه لا يزال في تركيا، لا يسمحون له بالمغادرة "
_ والثلاثة الآخرون يا سموكم _ قال مغرقوه بشيء خفي من الخبث _ هم من معارف ممثل القيصر خان جري: سلطان شواي وأغوي بشه ماف وتازه أديغ.
حين سمع خان جري اسم شواي جرى شيء ما لقلبه،ولكنه كتم انفعاله غير مخفٍ أنه صديق حميم لأحدهم:
_ الموفدون الذين ذكر سموكم أسماءهم _ توجه خان جري إلى فيلياميتوف _ الخمسة، باستثناء تازه إلى حد ما، معارفي جداً. وسلطان شواي وأنا نشأنا في دار إمارة واحدة. وهو بمثابة أخي الأكبر.
_ نعم، نعم، يا سموكم، يا ممثل القيصر العظيم، سلطان شواي _ وقال له اسم أحد الذين ادعى قبل قليل أنه " لم يبقَ في ذاكرته " ونسبه بشكل دقيق _ بمثابة أخيك الأكبر، وهو مع أعدائنا وإن قلت إنكما

ربيتما في دار واحدة _ نظر البارون فريفسك إلى الجنرال نظرة لا تميزها أهي نظرة مودة أم عداء. وأصلح الآخر موقفه وإن تعمّد ما قاله قبل قليل:_ نعم، نعم يا خان جري يا عزيزي. أنت ومغرقوه والآخرون كلكم ضباط في جيشنا.

_ نعم نحن رفاق , ليس مجرد انتماء إلى جيش واحد _ أجاب خان جري وقد أمسك بلبّ التلميح ولكن دون عصبية أو غضب: _ نحن مع قيصر روسيا العظيم قلباً وقالباً، نحمي شرف الوطن.

_ نعم، نعم يا مرافق القيصر _ أصلح فيليامينوف موقفه لأن خان جري تكشّف عن شخص لا يتوقعه وهو الذي يقول كيف يستعد لي هذا الغلام الوصولي الصغير الذي ما يزال أنفه يسيل _ أنا لا أشك في إخلاصك لقيصرنا العظيم وثقته بك. وإن سمع صديقي العزيز الكونت ألكسندر كريستوروفيتش بنكندورف ووزيري الكونت ألكسندر إيفانوفيتش شيرنشيف فسيلومانني. قلت هذا لأن سلوك الوفد الأديغي معي وتّريني. نعم يا غريغوري إيفانوفيتش يا عزيزي، لماذا لا تدعو ضيوفنا إلى الغداء ؟

_ شكراً يا ألكسندر ألكسندروفيتش _ قال خان جري _ لم تمض ساعة على تناولنا الغداء في قرية سمز _ ونظر نحو فريفسك _ كان حسناً لو التقينا بالوفد الذي كان عندك.

_ ليس أسهل من مقابلة هؤلاء إن كانوا يرغبون _ قال فيليامينوف غير مستغرب ما سمع _ ما يزال مؤتمرهم الأعلى منعقداً منذ أيام ليس بعيداً من هنا. ولكن لا أعرف إن كنتم ستقابلونهم دون إخبار مسبق.

_ إنهم بشر وإن كانوا أعداء _ قال خان جري وهو ينهض، وتبعه فريفسك، وحين سمع خان جري الجنرال يأمر بإرسال عدد كبير من الحراس معهما اعترض: _ لا حاجة أيها القائد، سنزور أعداءنا وحدنا مادامت نوايانا سلمية.

_ إذن مع السلامة أيها المحترمان _ نهض فيليامينوف وابتسم في سره وهو يقول: ما أشدَّ اعتدادهما بنفسيهما ! _ سأنتظركما مع العَشاء أو بعده قليلاً.

VI

خلال أسبوع كامل حتى وصلا إلى غينيلجيك، وخلال تطوافهما في بلاد الشابسغ والناتخواي، التقى خان جري وصحبه باجتماعات وقرى ومضافات ومسافرين منفردين ومجموعات من فرسان متجهين إلى الحرب، ومع ذلك لم يسمعوا في القضية التي يتابعانها إلا رأياً واحداً:" نحن لم نهاجم أحداً ولم نسلب أحداً أرضه. ولأنهم يسلبوننا بعدما أحاطونا بالجيوش الغريبة، فمن يمد يده إلى عيوننا نمد أيدينا إلى روحه "

كان بين من قابلناهم من نظر إلينا بعين الرضا ومن نظر بعين السخط، ومن لم يعبأ بنا. تتدافع الأفكار في رأس خان جري مثلما يخبط الحصان في الطريق الجبلي. لم يقل لنا أحد: " من يهتم بالأمر الذي تتابعونه ؟ " ولم يكن المقاتلون الروس الذين لا يثقون بنا يكتمون، في غياب ضباطهم، رضاهم بمهمتنا. والأديغة لا يُعرضون عمّا نقول لهم، بل ما قاله الجنرال فيليامينوف لوفد توغوظقوه هو ما لم يكن يغيب عن كل فم

كبيراً كان أم صغيراً. ولكن قيصرنا لم يوكل إلينا مهمة نقل جيشنا إلى الضفة الأخرى للنهر. مهمتنا الأولى هي تشجيع الأديغة على أن يصبحوا جزءاً من روسيا، وإلقاء القبض على بعض المحرضين الإنجليز هنا. والمهمتان ليستا سهلتين غير أننا لن نألو جهداً.

سأل مغرقوه بشه قوي خان جري باللغة الأديغية حين تقدمهما البارون فريفسك ومرافقوه الثلاثة:

_ هاجمتنا جماعة توغوظقوه، وأحب أن أُسمعك أيها المحترم ما يقلقني منذ أن رحلوا هذا الصباح.

_ هذا الذي ذكرت نسبه أليس له اسم يا بشه قوي ؟ سأل خان جري بصوت مسموع لأنه،وإن لم يكن من بين الذين يستقوون برجولة الأمير الشابسغ، فإن عدمَ احترام هذا الرجل الشجاع الشهير الذي يحمي حرية أرضه،وعدمَ احترام رفاقه،دعا خان جري إلى إفهام رفيقه بوضوح تام استياءه.

_ وكيف لا يكون لتوغوظقوه اسم ؟ اسمه قازبك _ أجاب المقدم مغرقوه في البداية ببراءة لأنه لم يفهم السؤال، ثم فهم لب سؤاله، غير أن خان جري لم يدع له مجالاً للتفكير.

_ إن كان هكذا فلا بأس. أسمعك يا بشه قوي؛ ما الذي يقلقك منذ الصباح ؟

_ والله لا أعرف كيف أقول _ لِمَ يسأل هذا السؤال ؟ إنه لا يعرف ماذا كان ينوي هؤلاء الأوغاد أن يفعلوه به. أزعجوني بقدر ما يستطيعون. وإن لمْتهُم فلن يفهمني خان جري بل سيهينني ثانية، قال مغرقوه في نفسه. ثم وجد بسرعة مخرجاً: _ أوكلوا إلينا مهمة ثقيلة.

_ ضعفتَ بسرعة يا بشه قوي وأنت "تكاد تضع قدمك اليسرى في الركاب ولم تجد الفرصة بعد للركوب"

_ لامه خان جري وهو يفكر في طريقة تعبيره لمغرقوه عن استيائه _ حين طلبت بنفسي من بنكندورف إدراج اسمك في جملة وفد السلطان كنت أنظر إليك نظرة أخرى، ولكني الآن غير راض عنك.

_ ما ذنبي أيها المحترم ؟ شدّ اللجام _ بِمَ أسأت إليك ؟

_ لنمضِ ! _ صاح خان جري وراءه دون أن يتوقف _ رحل المرحوم مرجان وهو عاتب عليك.

_ وا أسفي أيها المحترم ! _ كنت أتوقع أن تعيّرني يوماً ما بهذا.

_ لولا أن الضابط الروسي الشاب منعك لهجمت على مرجان أحد حكماء الشابسغ المعدودين لتخنقه في فراش مرضه.

_ لم أكن أجهل أيها المحترم أن خورلوقوه مرجان كان رجلاً حكيماً،ولا أنه كان مربيك _ مع أن مغرقوه كان يكظم عواطفه فإن خان جري كان شاعراً بصوته المتعالي. وجعلته الجملة التالية يرفع رأسه فجأة: _ لا تنسَ أن خورلوقوه حرّض الناس واستعداهم علينا قائلاً: استقامة الشابسغ وحصافة عرق الأديغة !

_ نظرتُنا إليه غيرُ نظرة الأديغة إليه.

_ ألم نعد أنت وأنا من الأديغة أيها المحترم ؟ _ تظاهر مغرقوه بالمزاح: منذ زمن بعيد أعرف أنك لست أديغياً بل من النغوي _ لأنك صرت قريباً من القيصر الروسي... كيف يتصرف معي هذا الرجل _ ولأنه ما كان عنده إمكان آخر فقد اكتفى بتعنيف نفسه.

_ هذا يتبع القلب الذي تنطق به يا بشه قوي.

_ سأقول لك إذن إن هؤلاء الذين نذهب إليهم لا يعدّوننا أديغة. وأنا عيروني بكل فظاظة في حضرة فيلياميتوف. شكراً له لأنه لم يسمح لهم بإهانتي. وأنت إن لم تحقق لهم مطالبهم فسيفعلون بك ما فعلوا بي.

_ سنرى _ حثّ خان جري الحصان، وقال لمن خلفه دون حقد: _ من حسن حظك يا مغرقوه أني لم أكن حاضراً لحظة هجمت على المسكين مرجان بالرمح؛ لو حدث هذا لكان أحدنا جلب على نفسه العار إلى الأبد. هذه هي الحقيقة. إن قلت لي اسم هذا الضابط الروسي الشاب فسأشكره إن كان ما يزال حياً. لنُسرعْ فنلحقَ برفاقنا !

أيُّ نوع من البشر آلُ سلطان هؤلاء، سواءٌ صدّقنا كلام الأديغة والقوزاق أم لم نصدق ؟ يستغرب مغرقوه بشه قوي ما يسمع. لا يدري كيف يفسر تصرفات هذا الضابط المدلل من قبل القيصر الذي يخلص له. ماذا يقول؟ لا يريد أن يكون قريباً من الأديغة ولا بعيداً.وكيف تفهم هذا الموقف الأخير؟ كيف تكون إذن مرافقاً للقيصر العظيم وحاميه ؟ يُحتمل أن أمراً نجهله يحدث في هذه القضية. حين قررنا الانطلاق همس لي فيلياميتوف: لا يجوز تركه لحظة خارج الرقابة ! ليته لم يورّطنا في ما لم يخطر لنا قطُّ ونحن نسايره بحجة أنه مبعوث القيصر. أعجيب إن كان هذا اللعين خورلوقوه مربّيك في زمن ما ؟ لو لم يكن في سيرته غيرُ إهانته للرجل الرائع أباته بسلني حين سافرا معاً إلى تركيا لما جاز أن تبقيه حياً. يقول لي: من حظك أني لم أكن حاضراً عند خورلوقوه؛ إذن ما كنت نجوت مني ! يهين رتبتي العسكرية الرفيعة. أيعرف البارون فريفسك معاون وزيرِنا بنوايا هذا الرجل ؟ منذ ساعتين نحن معاً، لا أعرف، ألعجرفةٍ منه أم لبرودة طبع، لم ينبس ببنت شفة. لا يمكن أن تعرف ما في رأسه إلا أن تدخل فيه. ليت رائحة القيصر كانت تصل إليّ، ولو لم أكن قريباً جداً منه ! كان يكفيني، بدل أن تكون أنت القريب منه ! لم نعرف أين بطرسبورج، دعْكَ من حماية القيصر، ونحن مشغولون بالخدمة مع القوزاق وتأييدهم ! وفوق هذا كله يقول لي " حين اقترحت اسمك في الوفد كنت أنظر إليك نِظرة أخرى ! "

رغم خطورة أن تسير في الغابة الجبلية، ومهما كمن الخطر وراء أشجارها، وحواف حجارتها،وأجماتها الكثيفة، ومنعطفات طرقها، ومفارقها، فإن ما تراه العين جميل بحيث يأسرك وينسيك أن هذه اللوحة الجميلة تستتر على مواجهات الناس وسفك الدماء. لا يُسمع إلا أصوات العصافير التي تجفل على حافة الطريق، وعلى مسافة منها، من وقع حوافر الأحصنة الحادة. والفراشات الملونة التي تحيا مع بداية النهار وتموت في نهايته تحطّ على أزهار الحشائش، وتتجاوز الطريق. والنسيم اللطيف يفرق على أعلى الجبل أصوات تساقط الماء من الشلالات. تنصب الأحصنة أحياناً آذانها، ومع أن كل فارس يسرح في أفكاره الخاصة فلا أحدَ غافلٌ عما حوله.

" ما أجمل هذا المكان؛ إنها جنة الله على الأرض ! " صرخ فريفسك في قلبه وإن كان كل ما تراه العين يخفي خطراً ما _ ما إن يصعدوا قمة تلك التبة حتى يظهر البحر الأسود وتصلك رائحته. تركيا عدوتنا

الأزلية تقيم على الشاطئ الأديغي. صحيح أننا أسكتناهم بالرماح الروسية غير أنه لا يجوز الاطمئنان إليهم. إن لم نحتل كل الساحل الشرقي للأديغة ولم نتحصن فيه فستتحرك تركيا مرة أخرى وستثير هؤلاء الأديغة، ولن تدعنا ننعم بالهدوء. نزعم أننا أجبرناها على الانكفاء في زاويتها بورقة سلام فمن أين جاء العميلان الإنجليزيان إذن ؟ هما،على ما روى المقدم مغرقوه،في الناحية التي نذهب إليها، وهما مدعوان إلى اجتماع الأديغة. وقد وصل الخبر إلى القيصر وأقلق رجالات الدولة. قطعت سفننا الجانب المطل على تركيا بحيث لا يستطيع أحد القدوم من هناك؛فكيف وصلا إلى إقليم الأديغة ؟ يقال إنهما جلبا للأديغة أربعة مخازن خشبية للبارود وأربعة مدافع وعدداً من البنادق؛ فكيف يحدث هذا؟ إنجلترا تنوي التسلل إلى إقليم الأديغة متسترة بتركيا المهزومة. إن فكرنا في إحراق بلادهم أو إغراقهم في البحر... لا، لا ! لا يجوز أن نتخلى عن هذه الأرض لأحد !"

_ مكان جميل يا بافل الكسندروفيتش،يا سموكم، مكان جميل _ قال الرائد تغانه أسلان بك للعقيد فريفسك وكأنه عرف فيمَ يفكر؛ فأخرجه من أفكاره _ ولكن أوسيتيا من جهتنا، ربما لأني خُلقت فيها، تبدو لي أجمل ! لو لم يكن إلا جبل قازبك ذو القمة البيضاء! دعكَ من صخبِ نهر تيرك في مضيق داريال، ونسورِها الحوّامة، وقطعانِها، وقممها الصخرية المتقابلة، لما فضلت عليها أي مكان في العالم _ قال "بالفم الملآن" على الطريقة الأوسيتية.

_ ناحيتكم جميلة أيضاً كنت فيها _ تعجبني، ولكن...

_ لا، لا يا بافل ألكسندروفيتش _ قطع تغانه حديث فريفسك _ لا تضف " ولكن ". على أوسيتيا أتكلم، لن أصدق إن قلت لي إن في العالم مكاناً أجمل.

_ نعم، أوسيتيا جميلة غير أنكم لا بحر عندكم. حسم فريفسك النقاش بما في قلبه.

_ أفحمتني بهذا _ ورجع تغانه إلى وعيه وإن ناص صوته لحظة _ عندنا طريق فوينا _ غروزين وإن لم يكن عندنا بحر.

وتضاحك الفرسان.

كل قوم _ ابتسم خان جري واعتصر الألم قلبه، لهم مَهلكة ما. وإن لم يعرفها أعداؤهم وجدوا لهم نقطة ضعف أخرى. نِظرتي إلى الأديغة، وإن لم يحترمها فيلياميتوف،هي أنه لا يجوز الانجرار وراء نواياه الحربية. إن وافقني القيصر على رؤيتي لقضية الأديغة، وبمساندة ألكسندر كريستوروفيتش لي، فما أهمية موقف فيلياميتوف ؟ ! إن تحدثت إلى الرجال الحكماء من أمثال توغوظقوه قازبك بين الشابسغ والأبزاخ والجمكوي والقبائل الأخرى ففهموني وفهمتهم وصالحتهم جميعَهم، بصفتهم ممثلي إقليم الأديغة، بالقيصر، فسيحافظ الأديغة على كيانهم. وسنعيش تظللنا دولة روسيا العظيمة دون أن يجرؤ من لا شأن له بنا على التدخل في أمورنا. وسنلحق بهم في كل مناحي الحياة وتنظيم شؤون الحكم، وسنحقق أمنياتنا، ونعمل من أجل مصالحنا. ما شأن الأتراك والإنجليز بنا ؟ وبدلاً من أن يجيب على السؤال الذي وُلد في صدره سأل

كأن شيئاً آخر عصره " ماذا يريد إذن هؤلاء الذين أنا معهم ؟ " ولكن الفرسان الثلاثة الذين خرجوا فجأة من وراء المنعطف وتسمروا في أماكنهم لم يدعوا له الفرصة ليفكر. وناداه أكبرهم الذي يتوسطهم:

_ يا زعيم موفدي القيصر خان جري، المؤتمر الأعلى ينتظركم فاتبعونا !

ما إن قطع الفرسان نصف الغلوة حتى سُمع من ناحية مرتفع بشادا،حيث السهل الأديغي، أصوات جلبة الناس وتجاوب همهمة الخيول وتبادل إطلاق البنادق. استولى القلق مما ينتظرهم على قلبه، وقفزت الأسئلة إلى الرأس دون إجابات.

_ أحضِرْ موفدي القيصر الروسي ! _ يُبلغ كلُّ منادٍ على طرف صخرة المناديَ الآخر.ويتناثر الخبر أصداءً في مضيق الجبل.

الناس يملؤون المرعى حتى لا تجدُ فيه موطئ قدم.والأحصنة تحيط بهم لتكون تحت تصرفهم عند الحاجة. وبين كل عدة فرسان يظهر الحراس الذين يتوسطونهم. وفي صدر المجلس على التبة وسط المرعى عدد من كبار المؤتمرين. ويظهر من بعيد إن نظرت من فوق رؤوس القوم إلى حيث تحب الشمسُ الانحدار، وراء الأحصنة المصطفة، حيثُ يبتهلون إلى الله، المرعى الذي لم تبق فيه الأشجار المقدسة ينظر إليك باستعطاف.

أوصَلوا موفدي القيصر إلى التبة حيث صدْرُ المؤتمر والناس يتراصّون مفسحين ممراً للضيوف.

تبادل الطرفان التحية دون المصافحة بالأيدي، وخرج توغوظقوه قازبك من بين الكبار ورفع يده اليسرى وقال بصوت هادئ قوي مسموع ممن خلفه:

_ أيها الأديغة المتحَدُّون للموت، يا من جعل الله يومكم مئة ! يا من حماكم الله من الموت على أيدي الروس والقوزاق ! وصل موفدو القيصر الذين انتظرناهم أمس واليوم. أنتم على علم بما قلنا وقال لنا الجنرال النهّاب فيليامين. والآن لنسمعْ بكل أدب واحترام ودون انفعال موفدي قيصر بلادهم العظمى. وبين أعضاء الوفد هنا روسي وأوسيتي، والأربعة الآخرون يحملون اسم الأديغة وينتمون إلى أمة قيصر الروس. لولا أن جيش الدولة المجاورة لنا يحتل أرضنا ويحاربنا وينهب أملاكنا لما قلت كلمة جارحة واحدة. ولكن موفديه، كائنين من كانوا، ضيوفنا، ولذا سنتصرف معهم كما يملي علينا ناموسنا الأديغي وتقاليدنا. ولو أن قيصر روسيا زارنا لاستقبلناه، رغم أنه ينهبنا،كما نستقبل هؤلاء لأننا بشر.قُلْ لنا يا خان جري بن محمد جري ماذا ينوي لنا القيصر الذي أوفدك إلينا؛ أطلعْنا على حقيقة الأمر ! والآن ترجم للاثنين اللذين لا يفهمان لغتنا يا مغرقوه،لك الحرية في ما تريد أن تقول _ تراجع توغوظقوه بقامته المديدة إلى الصف الذي خرج منه.

خرج خان جري من بين رفاقه بكل ثبات، ووقف أمام المئات الذين ينظرون إليه نظرات عدائية صارّين على أضراسهم، وأيديهم على مقابض قاماتهم. "كيف سأخاطب هؤلاء الرجال الثائرين؟ هل يفهمونني؟

_ ضعف خان جري فجأة كما لم يحدث له حتى في أصعب المواقف. لا أرى في عيون القريبين مني

والبعيدين خيراً، كأنهم جميعَهم مستعدون لخنقي. أين شواي ؟ لا أظن بينهم من هو أقرب إليّ بروحه وقلبه. ومن هذا ؟ أغوي بشه ماف ! وهو الآخر ينظر إليّ بحدّة كحربة سكين. وإلى أسفل منه يقف بامبت. وإلى جانبه بفوق... وشواي إذن ؟ من هذا الرجل الأشقر ذو الوجه المتطاول دون ملامح أديغية،ويرتدي زياً شركسياً نظيفاً، ولكن كأنه غير معتاد عليه. أيكون الإنجليزي بيل ؟

_ يا مؤتمر الأديغة، يا أيها الكبار الذين أُكِنُّ لهم الاحترام والتقدير ! _ استعاد خان جري في هذه اللحظة قواه واستشعر في جسده القوة _ أفهمُ الموقف الذي أنا فيه. ولولا أني مقتنع بالطريق الذي اختطه لي أجدادي _ لا يعُدَّه أحدٌ عاراً عليّ ! _ لما استطعت الاستمرار في التعامل مع من أخدم معهم، ولما استطعت المجيء إلى حيث أوفدوني. لا تظنوا أني لم أكن أديغياً ولم أعد كما يخيل إلى بعضكم بسبب الوضع الصعب الذي أنتم فيه. وكما تتألم قلوبكم وتهتم وتقلق، فكذلك قلبي.

_ لا حاجة بنا إلى قلبك الأديغي ! حتى الكلب يقرف من أكله _ صرخ أحدهم من بعيد.

_ اختصر موضوع بعثتك ! _ وافقه شخص آخر، وارتفعت جلبة في المؤتمر.

رفع توغوظقوه قازبك يده وهدّأ المؤتمرين.

_ العمل المهم الذي أوفدَنا من أجله قيصرُ روسيا _ أضاف خان جري وكأن أحداً لا يعاكسه ولكنه يتفهّم ما يقاطعونه لأجله _ لا حاجة إلى إطالة الكلام فيه. إن أردتم الاختصار فالقيصر يَودُّكم ويتمنى ألا تحاربوا جيشه وألا يهلك الناس بينكم وبينه. ويَعِدُكم بوقف النزاعات الأديغية _ القوزاقية. ووقفِ سفك الدماء وإحراق القرى.

_ ليسحبْ جيشَ فيليامين الأبرص من أرضنا ! صرخ رجل آخرُ الآن.

_ ودون هذا لا نأملُ خيراً.

وقف توغوظقوه الآن إلى جانب خان جري وقال له بصوت لا يسمعه غيرُهما:

_ لا تُفسِد الاجتماع أيها الشابّ ! اختصر كلامك !

_ هذا الخريف _ أضاف خان جري _ سيزوركم قيصر روسيا العظيم نيقولاي الأول. وأنا واثق من تنفيذه لوعوده التي أذكرها لكم. ثِقوا أنتم به ! فكِّروا وتحلَّوا بالصبر ! لا تتخذوا من الجنرال فيليامين عدواً ولا تجعلوه يتخذكم.ليس في قلبي لكم إلا الخير إن فهمتموني ووجدنا تفكيراً مشتركاً. والآن أنهي كلامي.

قال قازبك قبل أن تدب الفوضى في الاجتماع:

_ أيتها الجماعة !لا يخلو موفدو القيصر من النوايا الطيبة، والخريف ليس بعيداً. سننتظر قيصر روسيا إن كان سينفذ وعوده. ولكننا لا نتراجع عما قلناه لفيليامين وطلبنا إبلاغ قيصره به. لن نطلق طلقة واحدة إلى حين يزورنا. وإن أهمل مطالبنا فسنواجهه حتى لو لم يبق غيرُ رجل واحد من الشابسغ !

_ سنواجهه ! _ دوى صوت المؤتمرين وصليل قاماتهم على المرتفع.

ـ والآن شكراً أيها الشابسغ ـ أضاف قازبك إلى كلامه: ـ عودوا إلى قراكم بكل أدب ودون استفزازات، وكونوا مستعدين لتلبية نداء " مارج ! " ـ مع السلامة ! نحن ـ الواقفين في صدر المؤتمر ـ سيكون لنا كلام أكثر صراحة وتفصيلاً مع الوفد.

حين بدأ المؤتمرون ينصرفون، راكبين وراجلين وبدأ المرعى يفرغ من الناس شيئاً فشيئاً، وطوال نقاش الأكابر وحدهم أكثر من ساعة، وحين حان وقت سفرهم، كان خان جري قلقاً على غياب شواي دون أن يعرف سببه . قال: " أين هو ؟ لماذا يختبئ عني ؟ لماذا يتجنبني ؟ بيد أنه لم يجد من اللائق السؤال عنه.

وفيما يبحث عن شواي لمح خان جري الرجلَ الأشقر ذا الوجه الرقيق المرتدي زياً أديغياً وهم يودعونه على حصانه، ودلّ عليه فريفسك بإشارة من عينه، ولمغرقوه بإيماءة رأس. غير أن شواي الذي يتلهف لرؤيته لم يظهر.

ـ ثم ماذا بعد أيها المرافق ابن خان ـ سأله توغوظقوه مركّزاً على الكلمات الروسية مبتسماً بشيء من الخبث ـ لماذا تأكل بعينيك هذا الفارس الذي يصطحبونه ؟ لن نكتم عنك أصله وإن لم نعرّفك عليه. جاءنا من إنكلترا البعيدة. تاجر غني، لا يحوِجنا إلى السلاح. ومعه صحفي من جريدة انجليزية. ويخالطنا ويزورنا ويساندنا آخرون غيرهما. ليعرفْ من جئتَ من طرفهم أننا لسنا وحدنا، وأن الدول التي في قلبها رحمة تقف معنا !

ابتسم خان جري وكأنه غيرُ عابئ بما لمحوا به إليه، وقال للأمير الشابسغ:

ـ إن أردت الحق يا قازبك لم تحزر سبب قلقي: غياب شواي، هو وأنا، تعرف أنت بلا حاجة إلى الشرح، من بيت واحد، لا أعرف سببه.

ـ ها أنا يا خان جري ـ لفتَ الصوت الأليف رأس خان جري ـ أنتظر ريثما تنتهي من محادثة كبيرنا ـ صافحه، ثم نفد صبره على ما يعتمل في قلبه فعانقه بحرارة. نظر الجميع بعضهم إلى بعض: الحاضرون، والذين ركبوا الطريق، والوفد المستعد للسفر، ومن يعجبه، ومن لا يعجبه.

***

ربما، لأن الفرسان الأديغة أوصلوا أعضاء الوفد إلى أن صاروا في ضواحي غيلينجيك، لم يتكلموا في موضوعهم.

حين بقي الموفدون وحدهم قال فريفسك بعد تمهل:

ـ ليس ما كلفونا به سهلاً.. ـ ثم أضاف وهو يهز رأسه: ـ لا أظن المسألة الأديغية كما نتخيلها في بطرسبورج. شواي الذي تعتبره أخاً والذي عانقك أخيراً كان يبحث عن الإنجليزي، ولم يكن عابئاً بلقائك ـ كان بودّ خان جري التعقيبُ على الكلام الذي ما انتظره غير أن فريفسك أوقف همسه: ـ ما الذي لمح به إليك توغوظقوه قازبك حين سادت الفوضى المؤتمر ؟

_ قال لي ألا أتراجع، ولم يقل ما لا يليق _ وجد خان جري جواباً سريعاً. وقال لنفسه: هذا الرجل لا يثق بي !

VII

لم يكن قد بقي من المسألة الروسية _ الأديغية ما هو سرٌّ،وما يمكن أن تخفيه إن لم تتحدث فيه. كما تنتصب قمة الجبل أمام العين سواء أكانت قريبة أم بعيدة فقد كانت المسألة الأديغية تحت السماء من خلال مراسلاتِ الزعماء السرية _ العلنية، وتصادمِ الخيول في المعارك، وصليلِ السيوف والقامات، والتلاحمِ بالرماح، والقصفِ المدفعي، وأنينِ الجرحى، وأصواتِ المناحات التي تهزّ عواطف أغلب الذين يسمعونها،وليسوا قليلين من لا يعبؤون بها، ومن لا يسمعها يبرئ نفسه من الاهتمام بها. والمحرضون في كل مكان.

كان خان جري متلهفاً للخروج من الجبال المختلطة بالغابات وقد ترك قلبَه وفكره حيث كان قبل قليل. ولم يكن فريفسك ولا الآخرون يخشون أن يحدث لهم مكروه على الطريق. ولم يكن ليفضِّلَ شيئاً على ألا يرى ما رآه بأم عينه، من الطرفين المتواجهين، في الأيام القليلة الماضية.

" لماذا أقول: الطرفان المتواجهان ؟ " _ سأل خان جري نفسه وقلبه يتألم. من الذي أغار على الأديغة ؟ نحن أم غيرُنا ؟ من أحرق القرى والأراضي الزراعية ومنابت الحشيش ؟ ومن عبث بأماكنهم المقدسة ؟ من حمل إلى الآلاف وإلى الشباب الموت والحزن قبل الأوان؟ أليست جيوشنا هي التي لا يوقفها أي شيء ؟ أعرف أن قومي الأديغة فيهم أمور يستحقون عليها العتاب والنقد، ولكن كيف تقنعهم بإرادتك وحدها، وهم يقولون لك: لا شأن لك بنا ولا لنا بك. حربنا ضد الفرس والترك بالقياس إلى حربنا ضد الأديغة مختلفة جداً؛ لا أقول هذا لأني أديغي، لأن دماً أديغياً يسري في عروقي، ما أشد الاختلاف بين سلوكنا في بولونيا وسلوكنا هنا ! هناك حاربنا مَن حمل السلاح في وجهنا ولم نحرق القرى والمدن. لم نكن نقول لهم " نريد أرضكم فحسبُ ولا نريدكم عالة علينا "

خرج خان جري من أفكاره خجلاً منها نوعَ خجلٍ، معتبراً إياها غير لائقة ولو لم تكن الكلمات التي يحملها إليه القلب دون داعٍ. كان النهار الذي لا يُنسيه أن الفصل صيفٌ تشتد حرارته مع ارتفاع الشمس.والناس الخارجون من هواء الجبال النقي، والخيول،يدركون من رائحة المستنقعات أن بلاد البجدوغ ليست بعيدة. والنسور تتصارع في السماء الزرقاء الفاتحة. وأحياناً تنقض على الأرض بأجنحة ملتصقة بأجسادها. وسرعان ما ترتفع عنها.

أفهمُ أن ما يخطر لي لا يجوز أن أقوله لأجد. ينصح خان جري نفسه. وينظر جهة فريفسك الوسنان في العربة المكشوفة. ويفكر في الفرسان الذين يتبعونهم. هذا الجالس بجانبي هو من لا يجوز أن تخبره، بل أن تجعله يشك. ومن لا يجوز أن توحي له بأي شك بحجة أنه منا ويتفهم مأساتنا هو المقدم في الجيش القوزاقي مغرقوه بشه قوي. يكلمني بلسان معسول طامعاً في القليل من المال الذي معي، ويوشوش لي حين

نبقى وحدنا،ولكني أظنه من عيون فيليامينوف. لا أثق به. وجدت عذراً ممتازاً لعدم اصطحابه إلى القبرتاي: ليُلقِ القبض إن استطاع على الإنجليزيين اللذين يؤلبان الأديغة ! لا أعرف إن كنت تركت له من مال الرشاوى أكثر من اللازم. نظر إليّ حين طلبت منه أن يوقّع إيصالاً بما قبض كأنه يقول: ألا تثق بي؟ لم يعجبه، ولكن لماذا أبذّر مال الدولة بحجة أننا من قوم واحد ؟ هذه هي الحال؛ صحيح أن الأديغة هائجون ضد الروس؛ غير أنه بالإضافة إلى الترك، تغلغل الإنجليز والفرنسيون بينهم محرضين. والإمام شامل أرسل نائبه حاج محمد إلى الأبزاخ. أفكر في أشياء غير ضرورية ولكن ألا ترى ما يحدث ؟ أظن أن علينا دخول هذه الناحية. والأديغة لم يفهموا هذا جيداً. وكيف يفهمون ونحن لم نتصرف معهم بحكمة وإنسانية صحيحتين. ليس الآن كان يجب أن يرسلونا إلى هنا بل منذ زمن بعيد، سنةَ انتهت الحرب ضد تركيا. بل كان الأفضل قبلها بمدة كافية.والآن بعدما سفكنا خلال السنوات القليلة السابقة الدم... ما العمل؟ لن نألو جهداً وإن كان الحمل ثقيلاً. إلى الآن كنت مخلصاً لقيصري وسأبقى بقدر الإمكان.والآن، ونحن في القبرتاي، وريثما نذهب إلى البسلني، وريثما نخاطب قبائل متعددة من الأديغة، وريثما يأتي القيصر إلى إقليم الأديغة هذا الخريف، لا أعرف إن كان الطرفان سيلتزمان باتفاقهما.

_ أتعرف فيم أفكر يا خان جري ؟ _ قال فريفسك دون أن يفتح جفنيه _ كيف كان الأديغة يتعاملون ويكرمون الإنجليزي الذي لا يعرفون عنه شيئاً.وخيّل إلي أنهم يكرمون غيره ويدورون به.

خطر لخان جري أن يقول له: " وأنت ألم يدوروا بك ويحرسوك ويكرموك ؟" ولكنه صبّر نفسه:

_ ونحن لا نستطيع أن نقول إنهم لم يكرمونا ولم يدوروا بنا، ولكن...

_ ولكن _ ابتسم فريفسك وأخذ منه طرف الحديث، ولكنهم أفهمونا أنهم لا يكنون لنا الود.

_ صحيح يا بافل ألكسندروفيتش _ غيّر خان جري نفسه بسرعة _ حزرتَ ما كنت أريد قوله.

_ على ما يظهر يا خان جري _ ابتسم فريفسك مع شيء من الخبث _ لم ينس الأديغة تقاليد استقبالهم للضيوف وإن لم يكّنوا لنا الود.

_ لا يمكن أن تلومهم على هذا _ أجاب خان جري على سلوكِ البارون وتصنُّعِه الضحكَ _ لم يسمحوا لأنفسهم بنسيان تقاليد الضيافة، ولكن لا تدعْنا نبالغ في امتداح قومي. يحدث أن ينقضوها، وطريقة نقضها واضحة.

_ وكيف ؟ _ لم يملك فريفسك نفسه أن سأل.

_ الأديغة يحمون من يستجير بهم على عتبة الباب، أو لمن يقتحم المضافة مهما كان عداؤهم له.ولا يسمحون بإهانته. ويقدمون له الطعام والدفء مادام في كنفهم.وما إن يودعوه إلى ظاهر القرية حتى تعود العداوة ويشهرون عليه سيوفهم.

_ لم يفعلوا بنا مثل هذا على ظاهر جبل بشادا. وحتى عندما أوصلونا إلى قرب غيلينجيك. وقد تجاوزنا بسه فابه[1] ونكاد نصل إلى البجدوغ ولم يتعرض لنا أحد. لا أعرف إن كانوا يودعوننا سراً _ ثم جعلته هواجسه يقلّب النظر حواليه.

_ لا تسأل عنه _ ضحك خان جري _ يودعوننا من جانبي الطريق سراً. لا شك أنهم سيوصلوننا إلى حدود قرية لوستان حبله.

_ الحق أني كدت أنعس لشعوري بالأمان. شكراً لهم، التزموا بكلامهم دون أن يُظهروا أنفسهم لنا خلافاً لما توقعت منهم. أتمنى ألا ينقضوا هدنة الأشهر الثلاثة بين توغوظقوه قازبك والجنرال فيليامينوف.

_ بمن منهما لا تثق أيها العقيد ؟

_ أتعرف يا خان جري ؟ _ قال فريفسك بعد قليل _ يصعب تحديد أحد الطرفين.. ولكني سأقول ما أنا على علم به أكثر: لا أعرف من الأديغة إلا أنت وعناصر السرية الجبلية.لم يسبق لي أن خالطتهم عن قرب كما قبل أيام.كانوا كلهم في نظري، ولا تؤاخذني، أتراكاً. ولكن يا خان جري، هؤلاء المتمردون الذين لم أرهم شغوفين إلا بالحرية، ذوو العواطف الثائرة، لا أظنهم سيفهمونك أو يسالمونك بأي وجه بشوش قابلتهم _ سنرى الآن كيف أنك لن تتحمل ما عرّضت لك به. وسنرى كيف تكظم مشاعرك دون أن تسمح لها بالانفجار؛ قال في نفسه.

" وأنا يا بارون لست بعيداً عن شكوكك؛ لم تُضِف شيئاً إلى معلوماتي، قال خان جري في نفسه"

ثم أضاف:

_ كيف تقارن بين فيليامينوف المثقف الحضري وتوغوظقوه قازبك الجبلي المتمرد الأمي المفتقر إلى الثقافة والتأسيس.الأول ربيب الجيش القيصري الذي خاض حروباً لا حصر لها خلال قرنين أو ثلاثة. إن له طريقةَ قتال أخرى، ورجولةً و فطنة وحيلة من نوع آخر. أنا فهمت ثقتك به منذ زمن بعيد وإن لم تعبّر عنها. ولكن، كما يقال عندكم " اختبر من تثق به " فحالما نصل إلى إيكاترينودار يفضَّل أن نكتب هذا من طرفنا، معتمدين على ما قلناه لفيليامينوف، إلى وزير الدفاع شيرنشيف لإصداره إلى فيليامينوف على شكل أمر فوري. أنا أعدك بإخبار ألكسندر كريستوروفيتش، وأنت تعرف إلى من سيبلِّغ. وإن لم نتصرف هكذا فإن المهمة التي كُلِّفنا بها يا بافل ألكسندروفيتش ستصبح عسيرة الحل. ومهما تصرف من وصفتهم بالأديغة المتمردين، ومهما انخدعوا بالإنجليز، فالأفضل أن يتحلى فيليامينوف بالصبر.

_ من هذه الناحية أنا واثق بفيليامينوف، لولا المؤتمر الأديغي الذي حضرناه... _ كرر فريفسك ثانية رأيه، ولم يتناس ما يُقلق خان جري: _ سأرسل حالما نصل إلى إيكاترينودار ما قلت لي.

---

[1] المياه الدافئة. والمكان الآن منتجع طبي قريب من نالتشيك. المترجم

_ ألن نقف ولو أربعاً وعشرين ساعة في القرية ؟ _ سأل خان جري صاحبه متعجباً وإن لم يكن من قلبه تماماً.

_ لا يا خان جري، اذهب إلى بيتكم، واتركني بحالي _ لم يقبل فريفسك _ وقبْلَ هذا دعوناك إلى السفر قبل أن تهنأ بلقاء أهلك. وكنتَ قلت إن جدتك متوعكة.ابق مع أهلك قرابة الأسبوع لتطفئ شوقك إليهم.وأنا سأرسل من إيكاترينودار كما اتفقنا، وهكذا سنتخذ طريقنا إلى القبرتاي مرتاحي القلب والنفس. وطريقنا طويل، أكثر من ستمئة فرسخ.

_ كنت أقترح أن نصوغ رسالتنا إلى بطرسبورج عندنا في البيت. ثم إنك أيها العقيد لم تفكر في مهلة الأسبوع التي تتكلم عليها. نحن على طريق سفر، ونقوم بمهمة للدولة. ولأن شواي وعدني أن يوافينا إلى البيت، فإن جلسنا معاً الليلة أمكننا أن نأخذ طريقنا إلى القبرتاي غداً أو بعد غد على أبعد احتمال _ قال خان جري مرتاحاً لأنه سيبقى وحده _ سآتي إلى إيكاترينودار مساء غد،وإن كنتَ حاضراً سافرنا فجراً.

_ أكيد سأكون حاضراً. إن نفذنا ما تكلمنا عليه فماذا نفعل في إيكاترينودار ؟

_ وهذا صحيح، ولكن أيها العقيد أضف اسمي تحت الخطاب الذي سترسله إلى بطرسبورج فمن يدري ماذا يحدث على الطريق؛ واحتفظ بنسخة منه.

_ ما كان هناك حاجة إلى هذا الكلام يا ممثل إمبراطورنا العظيم. لا يكفي أن يُذكر اسم أسرتك فحسب، بل سأكتبه باسمك نظراً لمنصبك في المهمة _ قال فيرفسك لنفسه: ما أعجب ما يفكر فيه هذا، لم يكتف بإضافة اسمه بل يطلب نسخة أخرى ليقرأها فيما بعد.إن لم تثق بي فأنت حر.وأنا أيضاً لا أثق بك كثيراً. ولكن لا يزال أمامنا ستافروبول وبيتاغورسك ونالتشيك؛ من الصعب أن تعرف كيف سنتشارك الطريقَ والمهمةَ دون ثقة متبادلة.

_ حسناً، شكراً أيها العقيد، أفهِمِ الجنرال فيليامينوف باختصار رجاءنا للسلام. ثم اكتب اسمك أيضاً يا بافل ألكسندروفيتش.

كان وقع حوافر الخيول التي تجر عربة فريفسك ما يزال مسموعاً في القرية حين أسرع خان جري إلى غرفة قانتات.

_ أجئت يا ولدي المنير ؟ رفعت قانتات جسمها قليلاً عن السرير معتمدة على عصاها الفضية _ ما أخبار من جئت من عندهم ؟ أقابلتَ شواي يا ولدي ؟ اجلسْ قبالتي يا ولدي وأسمِعني أخبار الأديغة.

_ لا شيء يسرُّ يا جدتي _ مع أن خان جري لم يكن يريد أن يُطلع على أخباره السيئة جدتَه التي ظهرت عليها الشيخوخة بوضوح،لم يستطع إلا أن يقول لها السرّ الذي في نفسه، والذي ما كشفه لأحد، والذي لا يجد إليه مدخلاً ولا مخرجاً _ لا يتركون وسيلة إلا يستعملونها مع الشابسغ والناتخواي. يقتّلونهم ويحرقون تجمعاتهم السكنية.

_ ألم يعد في الشابسغ والناتخواي عقل و رجولة ؟ وبعد قليل هزت رأسها مع الكلام دون أن تعرف إلى من تتكلم ومن تلوم _ كنتُ خمّنتُ أن يحدث هذا، أوْصلوا الوضع إلى شفا الهاوية باشتباكاتهم ومناوشاتهم... لا، لا يا ولدي، أنت لا ذنب لك.

_ لا أستطيع موافقتك على كل ما تقولين يا جدتي _ تظاهر خان جري بالابتسام لها _ لماذا ننسى أنّ لمِا أشارك في مسؤوليته أساسٌ أبعدُ ؟

_ على ما يبدو يا ولدي _ قالت قانتات متمهلة تشعره بنظراتها الحارة _ صرنا في موقف نلوم فيه كبارنا.

_ مثل هذه الأفكار تغزو الرأس يا جدتي. ولكني أفهم أن من السهل نبش الماضي.

_ شكراً يا ولدي.

_ الآن فقط بدأتُ أفهم الخطأ الذي وقع فيه الأديغة... إن تناولنا رجالنا واحداً واحداً فهم لا تنقصهم الرجولة ولا العقل. ولكن التفكير الأديغي ليس له من يلجمه ويوجهه، ليس عندهم فكرة تجعله صوتاً أو نية واحدة.لم أكن أفهم حين أسمع مرجان يتكلم في هذا الموضوع. ما الفائدة الآن في أن نتكلم فيه الآن؟ حين يفلت منا رأس الحصان نحاول اللحاق بذنبه!

_ يا ولدي، ما أتعسني ! أي حديث متنافر يقوم في رأسك؟ _ صرخت قانتات بصوت حاد صعب عليها، ورأى خان جري كيف تهتز العصا الفضية بين راحتيها الرقيقتين، وآلم قلبه. ولكن جدته أنهت بصوت أضعف _: لا تفكر في مثل هذه الأفكار ! إن كنت تظن أن جدك وأباك وأنت أخطأتم... فلأنكم بين من أفلتوا رأس الحصان من أيديهم، لا تفعل كما شواي البيتمال، أنا لا أؤاخذه. لا تنس الموضع الذي أنت فيه ! ما يعده رفاقك عاراً عليك لن يعده الأديغة أنفسهم رجولة منك. سيضحكون منك !

_ أنتِ مخطئة في ظنونك فيّ يا جدتي _ قال خان جري والدم يعود إلى وجهه الشاحب . أفضل أن أموت قبل أن أفعل هذا. ولكن بما أني أعدّ المهمة التي أوكلوها إليّ هي المخرج الوحيد للأديغة، فالروس لن يخرجوا من القفقاس مهما كلفهم، فلماذا نغمض عيوننا عن الواقع فنخرب بيوتنا بأنفسنا؟ وسأنفذ مهمتي في إقليم الأديغة من هذه الناحية.

_ أهناك أمل يا ولدي ؟

_ سفْكُ الدم الذي مارسه فيلياميتوف بين من خالطتهم لم يسمح لي أن أرى أي أمل.ولكن ريثما يأتي القيصر إلى هنا، وريثما نحلل القضية الأديغية، قررنا أن نحافظ على السلام الذي حل بين الطرفين.

_ نعم، نعم _ قالت قانتات بعد قليل مع هزة رأس حزينة _ من الصعب مخاطبتهم برؤوس الرماح. على ما يبدو أن ما سيرويه لنا شواي من أخبارٍ صحيحةٌ. كيف تصرف معك شواي يا ولدي ؟ منذ وقت طويل لم يزرنا.

كما اتفق خان جري وشواي ففي المساء نفسه التقيا في البيت وقت إشعال أضواء البيوت.

الأخوان المحاطان بفرح الأسرة جلسا معاً طوال الأمسية دون نسيان الأكبر والأصغر مكانَ كل منهما في المجلس. ولكن حين بقيا وحدهما بدا للاثنين أن جفاء لم يكن سابقاً ظهر بينهما؛ فقد جلسا ينظر أحدهما خلسة إلى الآخر، ولا يعرفان من يبدأ الحديث.

دخل إلى الغرفة الصبي زبش الذي طالت قامته مع أعوامه الأحد عشر أو الاثني عشر. ووقف إلى جانب الباب مستعداً لتلبية طلبات الأكبرين.

_ ادخل يا زبش ! لا تقف إلى جانب الباب . نادى خان جري.

_ لا يا خان جري لن أقاطعكم كثيراً _ قال زبش مضفياً على شخصه شيئاً من الرجولة، وأكمل سؤال جدته: _ أحب أن أعرف أخبار المكان الذي جئتم منه.

_ ماذا قلت ؟ _ سأل شواي مستغرباً.

_ لا عجب في هذا يا شواي _ نادى زبش كما اعتاد في الأسرة أباه باسمه _ لست وحدي، بل قايمت وجماعته وحاج قسي وكل الجيران يودون معرفة ما يجري؛ وذلك لأنه يقال إن القوزاق يرمون الأديغة في البحر.

_ بحمد الله لا شيء من هذا يا ولدي _ أجاب شواي ابنه جواباً واضحاً.يحمون أنفسهم إلى الآن. ويظهر أنصار لنا، ولأن خان جري أخبرنا أن القيصر بشخصه سيزورنا في الخريف فإن وفى فيليامين الأبرص بوعْدِه وَفَينا نحن أيضاً. ولكن إن خدعونا لا يلومونا !

_ إن كان هكذا فلا بأس ! _ لمعت عينا زبش السوداوان الصغيرتان، ونظر نحو خان جري.

_ نعم، نعم يا زبش،ما قاله لك أبوك صحيح. أجاب خان جري وقد فهم نظرة الصبي _ لن نسمح لأحد أن يرمي الأديغة في البحر. قل هذا لمن يقلقون.

حين خرج زبش من الغرفة زفر خان جري.

_ هذا بديهي. الصبي ينخرط في شؤون الرجال... لا أعرف الطريقة التي سنقارب بها موضوعنا.

_ هناك طريقة واحدة يا خان جري. وهو ما أخطرتْ به قيادةُ المؤتمر فيليامين وما سمعتموه أنتم. إن أردت كررته عليك.

_ ولماذا ؟ _ أسقط الجواب غير المنتظر قلب خان جري في هاوية.وقال في نفسه: لا يمكن التفاهم في أي موضوع مع من يتكلم بهذه الطريقة. ولكنه لم يتراجع: _ ما لم أقله في المؤتمر الأديغي لن أكتمه عنك: أنتم تفهمون، دون حاجة إلى أن أقول لكم، أن القيصر لن يسحب جيشه من القفقاس.

_ لماذا أرسلك أنت إذن ؟ ولماذا سيأتي هو في الخريف ؟ إن كان يريد أن نتصالح ونتعايش فأنتم مخطئون يا أخي الصغير. قبل أن تدخلوا أرض الأديغة الحرة كان عليكم أن تفكروا في ما يجب أن تفعلوا. أتقولون:سنتصالح وسنتعايش بعدما خلعتم الباب ودخلتم عنوة ؟ _ أعاد شواي خان جري الذي ما كان

يجيب شواي بل يتابعه بعينين لطيفتين ذكيتين، أعاده إلى وعيه:_ اغفر لي يا أخي الصغير، أظن عواطفي الهائجة تقوّلني ما لا يجوز. لنتكلمْ في موضوع آخر مادمنا اتفقنا ألا نحمل السلاح إلى الخريف.

_ هذا كلام مستقيم يا شواي _ ابتسم خان جري للوجه الملتحي _ أليس كل ما في الدنيا يستحق الكلام عليه ؟

تكلم خان جري وشواي نصف ساعة دون التطرق إلى موضوع الحرب وموضوع القوزاق.ولكن شواي تنهّد عميقاً وكأنه عرف ما يُقلق خان جري هذه الليلة:

_ كنا تعاهدنا ألا نتكلم على القوزاق ولكن لا بد أن أصارحك بشيء مما ينهكني؛ وفي هذا الموضوع لا أعرف غيرك يمكن أن يفهمني. أفكر في أن أضع تحت تصرف الله وأنا أصلّي ما جرى لي، فأخاف ألا يفهم حزني بحجة أني ندمت. حين لمحت بمأساتي إلى صديقي أغوي بشه ماف أجابني بأن الكافر لا ذنب له فيُغفرَ،لا تفكر في هذا!سيحاسبونك في الدار الآخرة وهم يفتحون لك باب الجنة.لا أعرف كيف أعالج سوء حظي.

_ أسمعك يا شواي.

_ أتكلم على حكايتي أنا والمرحوم بانتالي. مال رأس شواي الثقيل رغماً عنه _ وهزه وهو يتنهد: لا أظنك لم تسمع،ولكني لا أعرف لماذا لا تسأل. لن أخجل منك ولو أنك أصغر مني. أذنبت بحق أنفيسا وسيسور دون أن أدري. وما حدث لي في النهاية مؤخراً مأساة.

_ سمعت بوفاة بانتالي ولكن لا أعرف ما حدث بينكما. سأمر على فاسيورينسك ونحن في طريقنا إلى القبرتاي؛ أود أن أعزي بوفاته ولو مضت سنة عليها.

_ نعم يا خان جري، مُرّ عليهم! _ رفع شواي رأسه ثم أضاف بصوت منكسر:

_ أنا لا أستطيع أن أفعل هذا. كان البيتمال مثل أخي الأصغر. أتعرف ماذا تفعل في الحرب حين تكون غاضباً ؟ من أين كان لي أن أعرف أنّ من قفز من ورائي كان بانتالي ؟ وهو أيضاً لم يعرفني.وإلا أكُنّا نتفانى ونحن مفتّحا الأعين ؟ ! أقول هذا غير أني قد أكون المذنب. لا أنسى نظرة بانتالي وكلماته الأخيرة. " سلبتَني (أنفيستي) وقتلتَني ". في كلماته ما هو صحيح وما هو غير صحيح يا خان جري. منذ زمن بعيد لم أكن رأيتها. ربما بعدما ذهبتَ مع حاج قسي لتأنيبها. أكنتُ أقتل بهذه السهولة زوج مَن تربي طفلاً في عمر ابني ؟ من يغفر لي ذنبي ؟ من يفهمني ؟

كان خان جري في بطرسبورج بقلبه ولو أنه يسمع كلام شواي ويوافقه بحركات رأسه. كان وجه تاتيانا سيدنيفسك _ ريابينينا أمام عينيه. كان لديه ما يفكر فيه غير ما يسمعه.

***

في يوم ما وقد ذهب شواي إلى سوق طرف نهر لابا صدمته امرأة بكتف قوية ونهرته دون أن تتوقف:

_ هل بعدما يتّمت ابني تشتري حذاء لابنك ؟

ولما نظر إليها غاضباً فطرت أنفيسكا التي التفتت إليه قلبَه. فنقد البائع ثمن الحذاء وانطلق وراء المرأة فاتحاً طريقه بين الناس بمرفقيه.

الكتاب التاسع

I

منذ يوم وصوله إلى إيكاترينودار خيل إليه أن الأيام الاثني عشر التي قضاها بين الشابسغ والناتخواي ثقيلة كأنها اثنا عشر شهراً.

قابل الكثيرين، سراً وعلناً، في المضافات والاجتماعات، أفراداً ومجموعات، غير أنهم، وكأنهم يؤيدونه في كلامه، كانوا يعودون إلى نقطة بداية واحدة: " لا يمكن أن يسود السلام بيننا في حين يعيث فساداً في أرضنا جيشُ الذين أرسلوك ". وحين أضيفَ إلى هذا قولُ شواي له " إنهم يخدعونك وتخدع نفسك" فهم خان جري أن مهمته لن تنجح في الشابسغ ــ الناتخواي. كان قلبه في منطقة القبرتاي، راضياً بشهر الهدنة المؤقتة إلى حين وصول القيصر،يتأمل أن يتفهموه هناك وتنجح مهمته على نحو أفضل.

وربما لهذا السبب لم يدخل إلى (بروشنه أوكوبي)، بل مرّ تاركاً على يساره ستافروبول حيث يخدم أخوه الأصغر سعيد جري في الجيش،متجهاً نحو القرى المتناثرة على نهر (وارب).

ــ أظن إقليم القبرتاي أهدأ ــ قال الروتميستر فريفسك.

ــ لم نصل بعدُ إلى القبرتاي.ــ خرج خان جري من أفكاره.

ــ أتثق بمن نذهب إليهم ؟

ــ أيها البارون فريفسك ــ لم يكن في ضحك خان جري وفي سؤاله أي سوء تفاهم ــ أأنا من يعلّمك في هذا الموضوع ؟ ألست من كان يقول أمس في المضافة: لا أمل كبير فيهم، ويكتمون ثقتهم وعدمها ؟ ألم يكن معك المسنون بلحاهم البيضاء الجالسون،والأصاغر عمراً الواقفون على جانبي الباب، يوافقونك هازّين برؤوسهم ؟

ــ نعم، وهذا ما يدفعني إلى الظن بأن الحال أهدأ هنا. ولكنْ مَن قال فيما بعد إن الشرق متداخل كالخيوط الرفيعة ؟ أياً كان القائل فالمضمون واضح: لا تصدق كل ما ترى وما يقال لك !

ــ لا يتوافق ما في القلب مع هزة الرأس على ما يبدو.

ــ لا أستطيع أن أحكم بهذا على طريقة استقبال من نطرق أبواب مضافاتهم وعلى طريقة إعداد موائدهم. ولكني أظنهم لا يفصحون عما في قلوبهم.

" أنقول لهم نحن ما في قلوبنا ؟ ــ لام خان جري نفسه حين حاول أن يتفق مع شواي سراً على طرد بعض الإنجليز الذين يتغلغلون بين الشابسغ أو اعتقالهم. آلمَ قلبَه ما كان سمعه من شواي: " إن كان بثمن أو بدونه، ولو لم نكن نعرف تماماً ما في قلوبهم، فإنهم يقاسموننا أحزاننا. وبدلاً من أن أحمل إليك رؤوس من يعينوننا بالكلام وبالسلاح أفضِّل أن يحملوا إليك رأسي " يا حسرتي يا شواي، ليتك لم تقل لي هذا ! إن لزم الأمر فلا شكّ أنهم سيُرفقون رؤوسهم برأسك. ولكن من سيدفعونه إلى تنفيذ هذا ؟ أأنا أم فريفسك أم مُغُرْقوه ؟ كان الأفضل كما قال لنا القيصر حين دعانا " لو دفعنا مضيفيهم إلى فِعلِ هذا لانتصرنا عليهم " بكّر شواي في الغضب لهذا السبب ولكن كيف كنت أدفعه إلى فعله وأنا أعرف أنه لن يوافق ؟ النقود التي كنت سأدفعها لشواي والتي أباها بحزم ما كان ليجدها في أيٍّ من طرقات الجبل. وحتى لو لم يكن راغباً في تلطيخ يده كان يستطيع تكليف غيره بها. أخشى أن أتكفل بنفسي تلك المهمة إن لم يستطع مغرقوه تنفيذها. كان شواي مستعداً لإرسال رأسه إليّ فداءً للذين يخفون الإنجليز "

_ لا تدعْنا نأخذ موقفاً سلبياً من الذين نأكل على موائدهم! لننجز عملنا ونحن نهش لهم ويهشون _
وأضاف بعد قليل مخفياً باطن الكلام: _ ليس أسهل من خداع الأديغة بشرط ألا تسلبهم حريتهم وأرضهم.

" ليس قومك كما تصوّرهم أنت تماماً.. ابتسم فريفسك. تذكَّرَ حكاية الضابط نوفيسكا والأخوين أباته قبل سنين _ لا أستطيع أن أنفي مساهمة بعض القبرتاي فيها زمن يرمولوف... أنا مهموم أكثر بعدم نجاح مهمتنا في بلاد الشابسغ والناتخواي. أنا يمكن أن أنجو من الموضوع بطريقة ما، أنت من سيتورط فيها أمام القيصر. من أجل هذا أقول:" لا تجبر قدميك على ارتداء الحذاء غير المناسب " حين دعاك القيصر ركعتَ له من شدة فرحك ولم تُفهمه أن قومك العصاة لن يرتدعوا بالكلام اللين. ما يقوله فيلياميتوف صحيح: لا يجوز إلقاء السلاح أمام الأديغة ! ليس من اللائق أن تدع هؤلاء الأقوام المتنوعين المتمردين يحتفظون بكل هذه الأراضي الخصبة والغابات الشاسعة والجبال البيضاء والقمم التي عاشوا فيها أكثر مما ينبغي دون أن يقتل بعضهم بعضاً. ومع ذلك فرفيقي هذا لا مانع عنده أن تنصّبه زعيماً عليهم. يظهر هذا من كلامه رغماً عنه وإن لم يفصح عن تلك الرغبة. ويلمّح إليه بحذر في ما يكتب إلى القيصر. هؤلاء إن ألّفوا دولة مستقلة فسينكدون عيشتك وإن عاملتهم كجار مخلص. ولن تستطيع إخضاعهم ولو أصبحت سلطاناً عليهم. أظن أن الله قدّر علينا أن نتكفل بحل قضيتهم، وإلا ما كانت أفكارنا وأسلحتنا اتجهت صوب القفقاس، ولما دفعنا أرواح الآلاف من جنودنا في حروبنا الكثيرة مع الأتراك. ولكنا عرّفنا الفرس بقيمتهم..."

_ وهذه كانت نظرتي إلى الأديغة يا خان جري _ خرج فريفسك من أفكاره _ ولكنهم ينظرون إلى الأبعد. يجابهون الجميع رغم افتقارهم إلى دولة مستقلة. أتتذكر أنهم لمحوا لنا بقولهم " إن لم يكن عندنا دولة مستقلة تجابهكم الآن، فبعد أن هاجمتمونا، فهمنا أننا يجب أن نؤسس دولة مستقلة في الوقت الذي نريده، ولذا يمكننا أن نحقق هذا "

_ كما تقول جدتي _ ابتسم خان جري من خارج قلبه _ ليس الآن كان يجب أن يعرفوا هذا " كمن ينفخ في الماء من أحرقه الحليب.. " لو تصرفوا هكذا لما طمعت في أرضهم تركيا، ولكان موقفهم من روسيا مختلفاً.طبعاً إن الدول كثيراً ما تحاربت وتنازعت على الأرض وتبادلت المهاترات.

" اعرفِ الآن من أين تمسك بهذا الرَّجُل ! _ سأل فريفسك نفسه _ إن قلت له رأيي في ما لمح إليّ به كشفت عن عدم الثقة المتبادلة، وهو ما نحن في غنى عنه، نحن الاثنين، ولما يمض شهر على بدء مهمتنا. سيفهمني الكونت شيرنشيف، وسيسمعني الكونت بنكندورف مبتسماً، ثم يحمي نفسه برييبه. ويتركهم يطحنونني... لست أنا من يجب أن يُفعل به هذا، بل أحد الفرسان الثلاثة الذين ورائي. ويمكن أن يكون تغانه أسلان بك، والأجدر أكثر من الأوسيتي هو بَدِسْ مَتْ جري، ولكن لا أعرف كيف أتفاهم معه.. مهلاً، مهلاً لا يزال أمامنا الوقت.

_ اتفقت أفكارنا يا خان جري. كانت في ذهني اللحظة. أيُّ حكيم قال: "الأفضل أن أبقى حراً متمرداً على أن ألزم نفسي بدولة "؛ أتتذكر ؟

_ كثير من الرجال قال كلمات سديدة تتعلق بالحرية. ولكن من الصعب تذكر أسمائهم. لماذا نصدع رؤوسنا بمن لا نتذكر اسمه ؟ _ مزح خان جري مع جليسه _ ولكن حبذا لو لم يذكر كلمة التمرد !

_ ماذا أيها العقيد؟ نظر إليه فريفسك بخبث وأجاب مازحاً: _ أتتطيّر من كلمة التمرد ؟

_ ولماذا أتطير ؟ ابتسم له خان جري _ إن تعلق الأمر بالحرية فأنا أريدك أن تخفف من ذكر التمرد لأني أعدّك من الحكماء.

_ هكذا ! _ أتقبّل ملاحظتك يا خان جري _ لم يُظهر فريفسك على نفسه الاستياء مما وُجِّه إليه بطريقة لطيفة فغيّر الموضوع: _ تخدّرت أرجلنا وأجسادنا؛ لنركبْ أيها العقيد !

_ إن كنت تريد إعادة الحركة إلى أعضائك فاركبْ. أما أنا فأريد أن أغفو قليلاً على أصوات العجلات.

حين بقي خان جري في العربة خلا بأفكاره لا يزعجه شيء. ومع كونه قلقاً من مصير مهمته في القبرتاي فقد قفز قلبه إلى بطرسبورج وانتصبت أمام عينيه تانيا مُنسيةً إياه السريةَ التي خرج منها، ومن هو مرافق له، ومن يرقبه دائماً بقوله وفِعْلِه الكونت بنكندورف. حين تفكر في من تشتاق إليه، وخصوصاً إن كانت امرأة، فإنها تتمثل لك باستقبالها البشوش وبملابسها وتسريحة شعرها وبأقراطها وقلادتها. أما صورة تاتيانا فلم يكن في عيني خان جري أيٌّ منها. بل كانت صورتَها حين أخبرها أنه سيسافر إلى القفقاس، فانفجرت بالبكاء وركضت إلى الغرفة المجاورة، ورسمت إشارة الصليب أمام الإيقونة التي في الزاوية جاثية على ركبتيها. وخلال عشرته الطويلة مع الروس كانت المرة الأولى التي نسي فيها خان جري أنه مسلم، كان مشفقاً على المرأة الجاثية؛ يراها جميلة، ويراها أملاً.

"كيف تعيش تانيا يا ترى ؟ _ نظر خان جري إلى الساعة _ لا تزال في فراشها الوثير إذ لا تكاد الساعة تبلغ العاشرة. ربما حضّروا لها القهوة. وهي، أتراها تذكرني كما أذكرها ؟ كنا اتفقنا على أن تراسلني إلى إيكاترينودار، ولكن لم يصلني شيء منها إلى الآن. وكنت أخبرتها حين خرجنا من بطرسبورج في أول محطة لتبديل الأحصنة. وبعدها لم أنسها في تاغانروغ. ويوم وصلنا إلى إيكاترينودار أخبرتها. وصباح اليوم الذي ركبنا فيه طريق القبرتاي أسرعتُ إلى مركز البريد... لماذا لا تكتب هي ؟ أقول ربما هي مستاءة مني لسبب ما، ولكن لم يحدث بيننا خلال سني تعارفنا أي سوء تفاهم إلا رحلتي إلى هنا. وقد ودّعتْني مقدِّرةً أني أقوم بمهمة لصالح الدولة رغم معرفتها بأنها مهمة ثقيلة وخطيرة. أتكون متوعكة أم في مشكلة ما ؟ سأكتب إلى قاز جري طالباً أن يتقصّى أخبارها كي لا ألومها وهي بريئة قبل أن أقابل قائد الجيش القفقاسي المستقل البارون روزين لأنه لم يبق لنا الكثير لنصل إلى بيتاغورسك. لا أسهلَ من اتهام الإنسان ظلماً فلماذا أسمح للشكوك أن تغزو رأسي. لم أقابل في حياتي إنساناً أطيب منها وأسهل تفاهماً معها وفهماً لك منها. لا، لا، لن أقبل لها ما لا أقبله لنفسي. ربما في الموضوع شيء لا أعرفه؛ كيف نفهم هذا ؟ حسنٌ أن تطرق

رأسَك الشكوك وأنت معتدٌّ دائماً بنفسك. من البؤس أن تفني رأسك في عدم الثقة. لا ثقة لي برفاقي، ولا بمن أرسلوني، ولا بمن أُرسلتُ إليهم. لا، لا أستطيع أن أقول هذا على قيصري العظيم.الحق كله على من يضللونه، يعثّرونه بسبب خوفهم منه. وبما أن من يتمتع بالقوة عنده نقطةُ ضعف، فهم يستفيدون منها مكثرين من امتداحه ووصفه بالفطنة، وليست قليلةً الأخطاء التي يتسببون له فيها. لم يعُد الخريف الذي سيرى فيه القيصر شمال القفقاس بعينيه بعيداً. سيظهر وقتها إن كان في آرائي التي جمعتها له حول موضوع الأديغة " ثرثرةً بلا معنى وافتخاراً بالنفس "كما يقول فيلياماينوف. أنوي أن" أوقف المطحنة الحجرية التي قذفوا في قلبها الأديغة "، وأقرّب إلى روسيا الأديغةَ السُّذَّجَ روحاً وقلباً،وليس عندي طموح في أن أكون زعيماً للأديغة.لن أجرّ الأديغة إلى طرف تركيا، أنا أقرّبهم من روسيا. أيَّ عيب يرى في هذا فيلياماينوف وباسكيفيتش وشيرنشيف ؟ نعم أفهم أن الجنرالات يحاربون،ولن يهدأ لهم بال إن لم يشموا رائحة الدم وتصدأْ رُتَبُهم.

انتصب أمامهم غير بعيد، وغير قريبٍ،وإلى اليسار، جبل (قامه) وهو يخز السماء بقمته المدببة. وما كاد خان جري ينظر إليه حتى حاذاه فريفسك على صهوة الحصان قائلاً:

ــ مررنا يا سموكم على يميننا بقرية من قرى " الغري "[1]

ــ نعم، نعم، أراها، أتود أن تحل ضيفاً على إحدى مضافاتها ؟

ــ لا، بل خفتُ أن تكونوا تجاوزتموها لأن اسمها " غري "!

ــ لو انتبهتَ أيها البارون للاحظتَ أننا مررنا بقرية من هذا النوع على يسارنا غيرَ بعيد في السهل. ليس بيني وبينها معرفة إلا أن اسمها يطابق نصف اسمي. ولكن ربما يكونون من بقايا جيش خان القرم الذي غزا بلاد القبرتايِ الأديغةِ قبل قرون،ولم يعودوا إلى بلادهم، أو من بقايا خان" باتي". من يعرف أيُّها أقرب إلى الحقيقة، وقد تكون هناك روايات أخرى.أعرف فقط أنه ما من إنسان ولا قرية ولا قوم ولا بلاد إلا له تاريخ وأخبار.وهذا الجبل المدبب الوحيد الذي اعترض طريقنا والجبال الخمسة الظاهرة أمامنا لها أسماء أديغية أيها البارون، وتتعلق بها تواريخ عجيبة. اطلبْ منهم أن يقربوا إليّ حصاني إذ سأركبه أنا أيضاً كالجبال.

كانت الشمس قد خيمت فوق بيتاغورسك للتو حين دخلها جماعة خان جري. وبدلاً من أن يستمتعوا برؤية البيوت المتناثرة في السهل غير العميق توقفوا كي لا يقطعوا الطريق أمام حشد من المشيعين القوزاق. وحين خلع فريفسك قبعته، ولو أنها ليست عادة أديغية، خرج خان جري من العربة حاسر الرأس مبدياً احترامه للميت بهذه الطريقة. وترجل الفرسان وراءهم .وبدلاً من جثمان واحد مر اثنان.

تألم قلب خان جري متابعاً النعشين، وسأل القوزاقي العجوز:

---

[1] يقصد: جري، بلكنته الروسية. المترجم

_ من تشيعون اليوم ؟

_ قوزاقيان من عندنا يا سموكم _ توقف العجوز كأنما ليكسب استراحة، ومسح العرق من جبينه باليد التي يحمل بها قبعته _ أمس قتلهما آل يَطَقوه القبرتاي، أحدهما روتمستر من قوزاق بشزة.

_ أتعرف اسم أسرته ؟ سأل مدفوعاً بالقلق.

_ كابوتسينكا يا سموكم.

_ إيغنات كابوتسينكو ؟ صرخ خان جري وقد امتُقِع لونه.

_ نعم؛ أتعرفه ؟

جرى القوزاقي العجوز يعرج وراء خان جري الذي وثب من مكانه، وأكّد فريفسك على رفاقه، وقد فهم ما جرى، أن ينتظروه على جانب الطريق.ولحق بالذين صاروا على باب المقبرة. وحين دخل خان جري قال له بصوت حزين:

_ كابوتسينكا إيغنات... كنا أصدقاء منذ طفولتنا، كان بمنزلة أخي.

_ يا سموكم _ صرخ العجوز الأعرج على أثر خان جري عاجزاً عن اللحاق به _ كان كابوتسينكا صديقي أيضاً. كان رجلاً طيباً ذا شهامة. سأدعو الله أن يُدخل إيغنات كابوتسينكا إيفانوفيتش الروتمستر الجنة، والقبرتاي والشراكسة إلى جهنم. هؤلاء هم الشراكسة؛ لو عرفتم كم نكرههم !

نظر فيرفسك نحو العجوز كأنه يقول له أن يغلق فمه. وحين أبى السكوت توقف وقال له بصوت متكسر:

_ يا والدنا، لا يدْعون في المقبرة مثل هذا الدعاء؛ توقف !

_ ألا تسمع يا سموكم! أنا أدعو على المسلمين الشراكسة.

_ كُفَّ عن هذا ! لا تثرثر _ همس فريفسك بصوت أنعم للعجوز _ هذا عقيد الحرس القيصري هو الحارس الممثل لقيصرنا، وهو من الشراكسة.

_ عجباً ! توقف العجوز فجأة على رجله الخشبية _ ماذا تقول ؟ ! أنا ظننته من رجالنا القوزاق الممتازين... الشركسي يحمي قيصرنا ؟ ! أنا ناقم على المسلمين ولا شأن لي بالشراكسة. وأنا حامٍ للقيصر.. أنت ترى أيها الروتمستر، ضحّيت برجلي في حرب الفرس.إذن أيها الروتمستر سأزور قبورنا، ليست بعيدة من هنا.

وقف الأتامان على رأس التابوتين المكشوفين أمام القوزاق الحاسرين وأبّن القتيلين بأجمل الكلمات. وتكلم على ريعان شبابهما الضائع. وتكلم اثنان غيره، ثم سأل إن كان هناك من يريد الإسهام في التأبين فتوسّط خان جري الساحة شاحب اللون، ووقف عند نعش إيغنات. نظر الجميع إلى العقيد الذي لا يعرفون من هو، وتبادل الذين فهموا من الشارة الفضية المطرزة على صدره أنه ممثل القيصر نظرات الاستغراب:

_ أيها القوزاق المحترمون ! _ قال خان جري _ لا تستغربوا أن يطلب العقيد الذي لا تعرفونه الكلام، ويتوسط الساحة لمشاركتكم حزنكم. نحن قادمون من بطرسبورج في مجموعة، وكنا عند قوزاق نهر بشزة، وقد

التقينا بكم في مصيبتكم بالمصادفة ونحن في طريقنا إلى القبرتاي في مهمة. غير أن المأساة التي التقينا بكم خلالها مأساتي أنا أيضاً بقدر ما هي مأساتكم. الروتمستر الركن الذي تدفنونه اليوم _ اختنق خان جري بالدموع ولكن عاد بسرعة إلى حاله _ كابوتسينكا إيغنات وأنا، إيغنات إيفانوفيتش وأنا تعارفنا قبل حوالي عشرين عاماً في إيكاترينودار. ثم درسنا في المدرسة العسكرية بطرسبورج وتخرجنا معاً. وحاربنا معاً الفرس والترك والبولونيين. كنا كالأخوين وإن لم تلدنا أم واحدة ولم ننتم إلى عرق واحد ولا إلى دين واحد. كنت قادماً إلى حيث تخدم متشوقاً فرحاً بأني سأقابلك. يا إيغنات لم يمهلني قَتَلَتُك يوماً واحداً " _ كان بوده أن يعتذر منه " قَتَلَتُك من أبناء قومي فلا تؤاخذني !" غير أنه ابتلع الاعتذار _ كان في ذهني الكثير من الوساوس أشاركك فيها، يا أخي... ولكن ربما كان الله قدر لنا هذه النهاية. يا إيغنات لن أنسى أبداً أنك أخي. كنت إنساناً طيباً صافي القلب ، سليم الطوية، مشحوناً بالرجولة والرحمة. لتكن الجنة مثواك ! لمس خان جري رأس إيغنات صديق أرض الأديغة، وانصرف يمسح الدموع التي لم تعد تطيعه.

***

بعدما قضوا ليل الصيف القصير في بيتاغورسك، وصل عند الظهيرة خان جري وصحبه برفقة البارون روزين قائد الجيش القفقاسي المستقل إلى قلعة وُرُخ.

في اليوم التالي جمعوا نخبة من أمراء (القبرتاي الكبيرة) ونبلائهم في القلعة الروسية، وأبلغهم خان جري بالزيارة المرتقبة للقيصر العظيم إلى القفقاس في الخريف ورغبته في لقائهم. ودعاهم إلى المؤتمر الموسع الذي سيعقد خلال ثلاثة أيام، في 19 حزيران، في نالتشيك.

II

كانت أرض القبرتاي تنعم بالسلام نسبياً بالقياس إلى حال الشابسغ _ الناتخواي _ الوبيخ، والأبزاخ، والبسلني والجمكوي والمخوش، على ساحل البحر الأسود. لم تكن ترى فيها ما يذكرك بالحرب أو يوجّسك منها. ربما لم يخلُ الأمر من مناوشات سرية أو علنية في القبرتاي الكبرى والقبرتاي الصغرى بين الأديغة وقوزاق بيتاغورسك وقوزاق بروكلادن. ولكن إذا أخذنا القبرتاي كلها كوحدة فإنك كنت تتخيلها أرض سلام،وإن كان انكماشهم وتحفظهم الخائف المخيِّم فوق رؤوسهم يدعوك للتفكير أحياناً.

كان خان جري مهموماً بما يحدث في الناحية التي خرج منها أكثر من اهتمامه بنالتشيك حيث يتجه.

" ماذا يحدث يا ترى للسلام الهش الذي اتُّخذ برفع الأيدي دون تدوين والذي دفعناهم إليه ؟ " إن تحلى الطرفان بالرجولة والفطنة إلى حين زيارة القيصر فلم ينقضوا تعهدهم ولم يفتنا تحقيق أملنا فهو خير. ستجد دائماً الوقت للضغط على الزناد وسحب السيوف والقامات، والجروح تندمل. بما أن المأساة تأتي من الطرف الذي يقل الصبر عنده والفطنة، ويكثر نقض العهود والتراجع، فأنا أدينه مهما كان قريباً مني بقلبه وروحه. اتجاه توغوظقوه قازبك، ولو أنه يضم كثيراً من المتهورين، هناك سبب يدعو إلى غفرانه لهم: إنهم يحمون أرضهم ويعدّون غيرَهم هو من جلب الحرب لهم. وليس فيليامينوف جاهلاً لهذا ولكن الجنرال ينفذ

مهمته.ونحن ؟ أنحن أفضل من فيليامينوف، والبارون روزين الذي كان معنا، والذين ذكر لنا القبرتاي الذين قابلناهم أمس في قلعة وَرُخ أسماء أسرهم ستال وكوريلو وتارانوفسك وكوسيريف وضباط بريدبرادوف؛ دَعْكَ من يرمولوف الذي لم يكن في هذه الأماكن ؟ فنحن رُسُل قيصر روسيا العظيم لنا هدف واحد ومستعدون عند الحاجة إلى امتشاق السلاح ولو لم نحاربهم ولو لم نسفك الدم الأديغي. وإن لم نحقق له المهمة التي كلفنا بها فماذا يحدث ؟ ألا يجب أن يكون أحدهم كبش الفداء ؟ لا أظن أن فيليامينوف والآخرين الذين أرسلونا يحتاجون إلى السلام في إقليمنا.لا تخدعوا أنفسكم أيها الأديغة... مهما كنتم أبطالاً فلن تستطيعوا الانتصار على العرق القوي الذي يغزوكم. عودوا إلى وعيكم قبل أن يدمروكم. ليس هناك عرق مجنون بكامله، ولا الجماعة كلها مجنونة، يا زعماء الأديغة !

رفع خان جري رأسه منتعشاً بدفء الصباح الصيفي الجميل.ورأى كأن أوشحه مافه[1] ينتصب بقمته البيضاء على يمين العربة. ومع أنه رأى أوشحه مافه حين تجاوزوا بروشنه أوكوب، وحين وصلوا إلى بيتاغورسك،وحين اقتربوا أمس من قلعة ورُخ،وصباحَ اليوم أكثرَ من مرتين أو ثلاث، فكلما نظر إلى قممه البيضاء الهادئة حدث شيء ما لقلبه،وانتصب الارتياح والضيق في صدره دون أن يفهم السبب. "كن فأل خير لي في أعمالي، وخاصة ما كلفوني به في شأن الأديغة، يا جبلنا المبارك ! _ صاح خان جري فجأة الآن، وكما كان يفعل في الأيام الأخيرة _ كفاك إطلالاً على مآسي القبرتاي الأديغة، ومآسي من تركْنا من الأديغة وراءنا ! ألقِ الخير في قلوب من سأقابلهم اليوم، ومن سيجتمعون في مؤتمر الغد، وأعِدْهم إلى وعيهم !" أقول هذا، ولكن، وإن تظاهر هؤلاء بلوم بعض الضباط الروس، فإني أرى قلوبهم نحو الروس أليَنَ. هذا في القبرتاي الكبرى.والقبرتاي الصغرى ؟ هؤلاء كيف سيتصرفون معي غداً في مؤتمرهم الموسع ؟

سأل فريفسك وكأنه فهم ما يُقلق خان جري:

_ لا أعرف يا خان جري إن كان الأفضل أن ندخل في القبرتاي الصغرى خلال نصف يوم كما فعلنا في القبرتاي الكبرى.

_ وأنا كنت أفكر في هذا أيها الروتمستر _ قال خان جري: كيف عرف ما في نفسي ؟ _ الذنب ذنبنا فقد قبلنا بسرعة الطريق التي خطها لنا البارون روزين.

_ صحيح يا خان جري _ قال فريفسك بكثير من الاحتراس، ثم أضاف بعد فاصل دون أن تدري أيقصد نفسه أم زميله _ لا يجوز الاستعجال في قضايا الدولة. صحيح أن مهلتنا قصيرة. أظنك تكلمت اليوم وأمس جيداً مع زعماء القبرتاي... _ يُفترض أنهم كانوا يوافقونك فقد كانوا يهزون برؤوسهم.

_ أُعوِّضُ الأخطاء التي ارتكبناها عند الشابسغ _ الناتخواي _ ابتسم خان جري.

_ وكيف أخطأنا ؟

---

[1] الاسم الذي يطلقه الأديغة على الجبل الشهير إلبروز، أحدِ أعلى جبال العالم، ويعني بلغتهم: الجبل المبارك. المترجم

_ راجعت نفسي وأظننا لو قابلنا الكبار ذوي الكلام النافذ، والصغار الذين يطيعونهم، قبل أن نلج المؤتمرات الصاخبة لكان أفضل.

_ أفهم ما يُقلقك _ أفلت من فريفسك الآن ما يريد قوله _ كان مؤتمر البشادا الذي حضرناه مزدحماً جداً؛ بل علينا أن نفرح لأننا خرجنا منه سالمين. لا يزال أمام عيني النظرات الحادة لتوغوظقوه قازبك وجماعته. ولولا أنت، ألم تسمع ما فعلوه بسيسيانوف، لاستلَّ من كنت أقف في مواجهتهم روحي.

_ أنت مخطئ إن تصورت أن الأديغة ظلَمَةٌ بلا تقاليد. _ ضحك خان جري وهو يقول: ألا ترى ما يُكِنُّ في نفسه ؟ أنا لا أثق في فيلياميتوف، وهو لا يثق بجماعة توغوظقوه قازبك، ثم سأل بصوت متراخٍ فيه عتاب: _ هل المهمة التي كلفتني بها الدولة التي نعيش كلانا من أجلها أصغر من الرتبة التي شرّفك بها أيها البارون ؟ فهمت يا بافل، فهمت _ لم يدع فريفسك يكمل ما بدأه _ لا ألومك على ما يقلقك، ولا تفهمْ جوابي إهانة لك ! أنت وأنا لا يمكن الفصل بيننا حتى لو لم تلدنا أم واحدة. تربطنا أفكار قيصرنا. ولكني لا أظن من المناسب أن تعد اختلاف وجهات نظرنا عيباً _ بعضهم يناسبه الحَر، والآخرُ البرد. هيا قل لي كيف تدين الإنسان في هذا الاختلاف ؟

_ أوافقك في الموضوعين دون جدال أيها العقيد _ سأل فريفسك بخبث وإن سحب كلامه بسرعة: _ أليس الأفضل أن نقابل الناس في القبرتاي الصغرى كما فعلنا في وارب العليا والقبرتاي الكبرى؟

_ أوافقك في هذا _ لم يدعه خان جري ينتظر الجواب . ولكني أريد أن أُطلعك على أمر يتعلق بالقبرتاي الصغرى لا تعرفه. ولولا البارون روزين لكان الأفضل أن ندخل بضع مضافات هناك ونأكل من العصيدة البيضاء والنقانق المقلية الطازجة مع " باستا "الذرة الصفراء. ولكن، لأن مهمتنا أسمى من الطعام الذي نتناوله، فإن من سنقابلهم في القبرتاي الصغرى من أمراء وأعراق متنفذة لن ينافسونا في مهمتنا.

_ ما الذي يجعلك تقول هذا ؟ _ ظهر من وجهِ فريفسك وسؤالِه فرحُه._ أبينهم معارف لك؟ أأرسلت إليهم؟

_ لم أطأ مجلسهم؛ دَعْكَ من أن يكون لي مَعارفُ بينهم !

_ كيف تؤمّل فيهم إذن ؟ _ إن قارنتم أنفسكم بنا فأنتم الأديغة محظوظون. لم يستطع البارون فريفسك إلا أن يصرخ في قلبه، تعدّون بعضكم أقارب بعض حتى لو لم تلتقوا، وما إن تلتقوا حتى تتفق أفكاركم وتلتقي آمالكم.

_ سواءٌ أكنتُ أعرف أم لا أعرف يا بافل ألكسندروفيتش _ ضحك خان جري دون خبث، تذكّرَ ما قاله هو والبارون قبل أيام وهما في بلاد البجدوغ، في موضوع الأديغة _ أظنك لا تزال تتصور أن الأديغة كلهم ينحدرون من أم واحدة وأب واحد. أنت مخطئ يا أخي. لو كانوا هكذا، مع عدم إنكاري اختلاف الإخوة والأخوات، لما نظر الأبزاخ والبجدوغ كلٌّ إلى الآخر بعين الريبة، ولما سخر الناتخواي والشابسغ بعضهم من بعض، ولما تنافر الوبيخ والأبخاز بكل استطاعتهم، ولما سخر البسلني والأباظة، متناسين العلاقة

بينهم من أنفسهم، من تنافس الجمكوي والمخوش على الرجولة. ولا تظن أن القبرتاي الكبرى والقبرتاي الصغرى لا يتنافسون، ولم يكتفوا بالتناحر على من الأكبر ومن الأصغر، مختلفين على كل موضوع يتنافسون على مَن الأعلى. ولو لم تكن هذه الخلافات بيننا لكانت لنا دولة منذ زمن بعيد. المؤتمِرون القادمون من القبرتاي الصغرى قلوبهم نحونا ونحو روسيا منذ زمن طويل، منذ عهد إيفان الكبير. ويُفترض أن يأتي الرائد بيكوفيتش شيركيسك زعيماً على الوجهاء من تلك الناحية. من الأفضل أن تعيش مع الأمل؛ أليس هكذا يا بارون ؟

_ هذا كلام لا غبار عليه يا خان جري، لا يخلو مما يسبب الاستياء وإن لم تجب عليه. كنت مطلعاً نسبياً على توجه القبرتاي الصغرى نحونا. ولكن في زمن يرمولوف ألكسي بيتروفيتش،منذ عشر سنين فقط، حدثت مآسٍ كثيرة في القبرتاي، فأخاف أن يكون حدث تغيُّرٌ ما في قلوب القبرتاي الأديغة ؟ أتتذكر في المضافة التي كنا فيها البارحة حين كنت تسجل معاني الأغاني القديمة التي كنت تطلبها منهم، أظن إن لم أخطئ أنها كانت تتضمن كلمات جارحة بحقنا كانوا يوجهونها إليك. وخُيِّل إلي أنهم لمحوا لي أيضاً ببعض الكلمات الروسية التي أقحموها فيها.

_ صحيح يا بارون لم تخطئ. ربما كانوا قالوا لنا ما نستحق وما لا نستحق لو لم تثنهم آداب الضيافة.ولكن ألم تلاحظ أن الكبار لم يكونوا يقبلون ما يوجهه بعض الواقفين إلى جانب الباب ؟

_ وكيف لا ألاحظ ؟ وقد اضطَّروا اثنين ممن نفد صبرهم إلى مغادرة المضافة.

_ هذا يا روتمستر ما يجعلني أقول إن مهمتنا ستنجح في القبرتاي.

_ لو كنا بدأنا هنا عملنا على هذا النحو لكان أفضل أيها العقيد.

_ نعم؛ الخبر كالهواء يصل إلى الناس بهبة واحدة. ولكن سيكون في الاجتماع من لا يوافق الطرفين. غير أنه لا شك أن من سيساندوننا أكثر.

قال فريفسك بعد مدة ليست بالقصيرة:

_ يجب أن نرسل إلى بطرسبورج دون إهمال تفصيل كل ما سبق من معلومات:من يقفون معنا، ومن لا يقفون مع أحد، ومن يعادوننا من هذا النوع.

_ إن كان هناك تعليمات من هذا النوع فأرسل _ قال خان جري دون اهتمام _ وهكذا سيكون الأفضل أن تخبر من أصدروا الأمر كيف تصرف معنا اجتماع بشادا وطريقة قتال فيليامينوف.

_ كنت أرسلت هذا يوم رجعت إلى إيكاترينودار _ قال البارون معتداً بما فعل، وناسياً نفسه نوعاً ما: _ ولا تهتم بوصول الرسالة _ " ماذا كنت تريدني أن أعلق على الجنرال فيليامينوف الذي لا يعجبكم " أضاف في نفسه.

" من حسن حظي أني لم أبح لك بمحاولتي مع شواي في شأن الإنجليز " فرح خان جري بالكتمان الذي يتحلى به.

حين دارت العربة منعطف طريق بخسان وجرت قليلاً ظهرت من بعيد بين الأشجار قلعة نالتشيك، ولكن كانوا بحاجة إلى بعض الوقت ليصلوا إليها. وكلما اقتربت القلعة زادت هموم خان جري. لم يعد قلبه في الشابسغ، ولا في وارب، ولا في بيتاغورسك، ولا في القرى التي دُعوا فيها إلى الترجل. ومع أنه كان مستعداً للقاء الناس الذين سيجمعهم في نالتشيك فمن يدري كيف سيتصرف معه الأديغة، وكيف ستجري أموره. هو مهموم بأجوبة الأسئلة المحتملة. وحين يضاف إلى هذه الهموم موضوع صحة جدته قانتات يجد نفسه رجع إلى القرية؛ فيعصر الألم قلبه. يدعو لها أن تعيش سنتين أو ثلاثاً، أو إن لم تستطع، إلى أن ينهي المهمة التي كلفه بها القيصر، لتدعمه وليُظِلَّه طيفُها. ومهما حاول نسيانها طفت على سائر أفكاره:

_ حين تخرج من نالتشيك يبقى على فلاديقفقاس حوالي مئة فرسخ.

_ أسيأتي الروتمستر الركن تغانه بممثلي قومه الأوسيت من كل هذه المسافة ؟ سأل فريفسك كمن كان ينتظر.

_ ولماذا ؟ ما إن تعبر بسه غونسو، وتتجاوز قرية شمتحاله، وغيرَ بعيد عن ليسكانجي،حتى تصل إلى موطن الأوسيتين _ الديغور. غير أني لا أعرف إن كان قد حضّر أحداً ليتكلم.

_ ثِق بالروتمستر أسلان بك أيها العقيد، وبالإضافة إلى تحضير متكلمين فقد اتفقنا على تحضير من سيهتفون من بين الجمهور مؤيدين. ولذا أعطيناه مالاً.

_ أنا واثق بالروتمستر. الأوسيت لَسِنون، ويعرفون كيف يجدون ما يقولون. ولكن كان الأفضل من كل هذا أيها البارون أن يقف الناس معنا دون أن نهبهم مالاً.

_ لو حدث هكذا لكان أفضل، ولكُنّا وفرنا على الدولة أموالاً، ولكن كما يقال: _ ابتسم فريفسك راضياً من كل قلبه _ "لا يتحرك إلا أن تُدهن له"

ظهرت أشجار نالتشيك متمايزة،واستُقبلوا على طرف قرية قَنْج من قِبل خمسة يلبسون زي الجيش، وثلاثة يرتدون الزي الأديغي. وبعد أن داروا بالضيوف قرية قنج التي يسميها الروس قرية فولنه وقدموا لهم غداء متأخراً رافقوهم إلى نالتشيك.

قدّم خان جري وفريفسك في ذلك اليوم وفي العشية أسئلة كثيرة تتعلق بحياة القبرتاي والبلقار أمام قائد جبهة القبرتاي كوروتكوف في مكتبه بنالتشيك، وبحضور ضباطه. واختلط ما يعجبهم بما لا يعجبهم. وسألوا عن دين الإسلام فيهم. وعرفوا تعداد كل من القبرتاي والبلقار. ولكن كان فوق كل شيء موقفُ الناس من الروس سراً وعلناً.

في 18 حزيران التالي لوصول موفدي القيصر للسلام إلى نالتشيك وصل بيكوفيتش شيركاسك الرائد مترئساً كبار قبرتاي الصغرى. وأحضر الروتمستر الركن تغانه أسلان بك الأوسيت.

في 19 حزيران افتتح خان جري بنفسه اجتماع القبرتاي الصغرى الذي كان يقلقه:

_ أيها المحترمون الذين أقدّرهم، ممثلي الأسر المتنفذة وزعماء القرى _ خاطب خان جري الاجتماع بلهجة البجدوغ _ أفتتح اجتماعنا اليوم داعياً لكم أن تعيشوا ويصبح يومكم مئة يوم، وعامكم مئة عام، وأن تعيشوا شيخوخة هنيئة مع أطفالكم وأهاليكم، وترِينَ عليكم الرجولة دائماً، وترى فطنتُكم البعيدَ وتُنجيكم من الخطأ _ وسرعان ما تحول خان جري إلى الروسية كمن ارتكب خطأ: _ لا أكتم عنكم قلق قيصر روسيا الذي أرسلَنا إليكم مهتماً بما يجري في شمال القفقاس وإقليم الأديغة والشيشان والداغستان، ومانحاً لكم احترامه وتقديره. ظل الأديغة في هذا الجانب طوال عمرهم خلال القرون الثلاثة الأخيرة إلى جانب روسيا. تحملوا معاً السراء والضراء. تذكروا كيف كان التركي المؤلِّب يرسل إليكم جيوش خانات القرم لمحاربتكم. تذكروا كيف أرسلتم فرسانكم تطلبون النجدة من إيفان غروزن، وسخوتم له بأجمل فتياتكم وأذكاهنّ فأصبح نسيباً لكم. وإكراماً لهذه القرابة ظهر بين أمراء القبرتاي كثيرون من قادة القلاع. وهذا الواقف إلى جانبي الرائد بيكوفيتش شيركاسكا سليل هؤلاء. وإن أردنا الكلام على رجولة القبرتاي فلا تنسوا أن أول من أصبح جنرالاً في عهد إيفان غروزن في روسيا كان من عندكم.

_ ما تقوله لنا أيها المحترم _ صاح أحد الوجهاء القادمين من القبرتاي الكبرى _ صار من الماضي، لماذا لا تتحدث لنا عن المآسي التي سببها لنا يرمولوف.

لم يتوقف خان جري عن الكلام رغم سماعه ما لمح به المعترض.

_ من يفعل خيراً يجد خيراً. لا تدعونا ننس معروف روسيا وطريق العلاقات الطيبة التي عبرنا بها القرون. ليس الجحود من طبع الأديغة. سيمر الإنسان في الدنيا بأحوال كثيرة. ولكن إن تناولنا تاريخ قوم من الأقوام فإنه يمر بتجارب يستمد منها الفخر وأخرى يخجل منها.وبتعبير آخر: ليست قليلةً المراحلُ التي يدنِّس فيها نفسَه، والأخرى التي يطهِّرها فيها. أحدكم عيّرني باسم يرمولوف، من المعيب مقاطعة الإنسان وهو يتحدث. ولكني لن أتجاوز سؤاله وكأنه أفزعني، ولذا سأجيبه: قيصر روسيا العظيم لا يجهل أن يرمولوف بالَغَ في القسوة معكم أنتم والشيشان والداغستان. إنه، بعد الله، يعرف كل شيء ويرى ويرعى. أليس لهذا السبب ربما سحب يرمولوف من القفقاس ؟

" والذين أرسلوهم إلينا الآن هل هم أحسن من يرمولوف ؟" _ غمغم الشخص الذي نطق اسم الجنرال قبل قليل، ولم ير من المناسب تجاوز العتاب الأديغي الذي أسمعوه إياه، والصراخ من جديد _ هذا المتكلمُ رغم أنه شاب بالقياس إلى من هو في حضرتهم نبيهٌ بما يتناسب مع رتبته العسكرية. أتسمع ما يقول ؟ يلومنا ويعاتبنا في الوقت الذي يدين ويحمي فيه يرمولوف."

_ وبالمناسبة فالغارات الجماعية ليست من طباع الماضي القريب فينا _ كان صوت خان جري قوياً ولو أنه هادئ _ وليست قليلة الغارات التي اغتنينا منها وتلك التي جلبت علينا المصائب. الأفضل ألا تطمع في ما ليس لك، ولا تدعَ أحداً يطمعُ في ما لَكَ. إن نعشْ مع القرى المجاورة والمحطات والأقوام الأخرى ونتعايش مع الدولة الروسية،ولو أن من الصعب التغلب على الحمية العصبية التي نتصف بها تماماً بل نكظمها في

بواطننا، فسنحافظ على كياننا دون أن نفسح المجال لمن يجلبون الخراب لأقوامهم. لا يجوز لنا أن نتبادل نظرات الكراهية، نحن الأقوام التي تعيش في شمال القفقاس، بل على مستوى القفقاس كلها. تركيا التي كنا وجهنا إليها صفعة قوية قبل سنوات ترفع رأسها مجدداً بتأييد إنجلترا وفرنسا. وإيران تتسلل إلى أذربيجان والداغستان والشيشان. وهناك لا يكف مشعلو الفتنة الإنجليز الذين دسوهم بين أديغة البحر الأسود باسم التجار. ولأن بعض هؤلاء ينوون التوجه إلى القبرتاي فلا تدعوهم يخدعوكم مهما تصرفوا معكم ووعدوكم ولا تتكتموا عليهم. وسنكافئ بالمال من يجلب لنا رؤوس أعدائنا أمواتاً أم أحياء بدل أتعابهم. والآن سأزف إليكم خبراً ساراً إكراماً لمن اهتم بالموضوع وقدّركم وأرسلَنا إليكم، وهذه البشرى قادمة من قيصر روسيا: خلال هذا الخريف، قيصرُنا كلِّنا نيقولايُ الأول سيكون في إقليمكم ليتعرف على حياتكم، وليقاسمكم همومكم وهواجسكم،وليحدثكم ويستشيركم في موضوع طريقة الحكم الخاص بإقليمكم.

_ القفقاس كبيرة، وفيها أقوام كثيرة تعيش في مناطق متناثرة _ لم يستطع الرجل الأشقر القصير الذي كانت تلجمه التقاليد الأديغية إلا أن يصرخ _ كيف سيصل إلينا قيصر روسيا ؟ ونحن لسنا مقصرين في خدمته والتفكير في كيفية إقناعه بمشكلتنا.

_ قيصر روسيا العظيم يفي بوعوده _ لم يتجاوز خان جري المتحدث كما فعل مع سابقه _ لا تشكّوا في أن يفي بوعده. لستُ مفوّضاً أن أعِدَكم بأنه سيقابلكم في مثل هذا المكان ومثل هذا الوقت. ولكن لا أشك في أنه سيقابل، بالإضافة إلى موفدي تفليس، موفدي شمال القفقاس بمختلف أعراقهم. لنفكِّرْ كيف نعيش في سلام إلى الخريف القادم والشهر الذي سيشرفنا بقدومه، وإلى ما بعد عودته إلى بطرسبورج !

تحدث بعد خان جري ممثلون للقبرتاي الكبرى والقبرتاي الصغرى والأوسيت وقادة بعض القرى. ورغم أن مؤيدي روسيا كانوا أكثر فإن مفنِّدي كلامهم لم يكونوا قليلين. وكان بينهم من لا يؤيد أحد الطرفين،ويرى أن لا علاقة لروسيا أو تركيا بنا، وأننا يجب أن نعيش مستقلين كما عاش أجدادنا. غير أن هؤلاء كانوا متناسين تقاليدهم مهتمين بالصراخ ومقاطعة المتحدثين بدلاً من أن يعبروا عن آرائهم.

حين تكلم بيكوفيتش شيركاسك أنهى كلامه عارضاً بتفصيل ما جاء من أجله مندوبو القبرتاي الصغرى:

_ أوافق معظم المتحدثين في اجتماعنا اليوم: نحن القبرتاي كنا طوال عمرنا حلفاء لروسيا وسنبقى. بلِّغوا باسم اجتماعنا تقديرنا إلى من يحترمنا وأرسلكم إلينا قيصرِنا العظيم.

نظر خان جري خلسة إلى فريفسك كأنما يقول له إن هذه تصلح خاتمة للاجتماع. ولكن أعطيت الكلمة إلى أَسْتيمر حاج قُودابَرْد الذي رفع يده لأنه كان محضّراً منذ زمن ليتكلم باسم الأسر المتنفذة:

_ قبل أن أتكلم لي سؤال إليك أيها العقيد،يا من أدعو له أن يجعل يومه مئة. حين قال أستيمر سليل الأسرة المتنفذة، نظر خان جري، ولم يفهم الموقف، نحو الرائد شيركيسك الذي حضّر الرجل للكلام، غير أنه أخفى عدم ارتياحه وكأنه خائف من إفساد المتحدث الاجتماع _ ما أخبار أبناء جِلدتنا الأديغة في منطقتكم والذين وضعهم الجنرال فيليامينوف في وضع صعب للغاية ؟

_ كنا في تلك الناحية قبل أن ندخل أرض القبرتاي أيها الكبير المحترم. بموجب المهمة الموكلة إلينا من قيصرنا على مستوى الدولة والتي جئنا من أجلها علينا أن نؤسس السلام بين الأديغة الذين من قومنا وبين جيوش الجنرال فيليامينوف _ لم يستطع خان جري أن يصارح مستمعيه بعدم ثقته بما قاله.

_ لا بأس هكذا. هذا خبر سار ! _ رغم احترام أستيمَرْ حاج قودابَرْد لنفسه ورغم وقاره فقد خانه صوته فصاح: _ منطلقاً من ثقتي بإنسانية قيصرنا ورحمته سأقول في حضوركم ما عندي نحوه من الكلام أيها الجمع الخيِّر: لو أسعفني الحظ في أن أرى بعينيَّ قيصرَنا العظيم لطلبت أن يصحبوني ولو إلى أبعد مكان متجاهلاً شيخوختي؛ أمّا وقد رعانا بعين العطف وقرر أن يأتي إلى ناحيتنا فأنا مستعد للسفر إليه على رجليّ.

***

مع أن خان جري اعتبر مهمته ناجحة في القبرتاي، فبعد عدة أيام قضاها هناك، ترك لوقت قصير تغانه وفريفسك المكلفين بموضوع الإنجليزي " التاجر "، وأعاد رفاقه الأديغة إلى طريق الأبزاخ الخطير.

نعس خان جري دون إرادته في غمرة أفكاره وهواجسه. وفي هذه اللحظة انتفض كأن أحداً صرخ عليه. كان قلبه ينبض بلهفة وسرعة. وشمل جسمَه الخوفُ الخفي البارد الذي لا يعرف سببه.تلفّت بقلبه نحو الذين تركهم في القبرتاي.ثم انتقل إلى نواحي الشابسغ والأديغة الآخرين.ثم بدا له أن المصطبة التي كانت تقف وتجلس عليها جدته فرغت. عجز خان جري عن تحمل العربة فركب الحصان. ولكنه لم يهدأ على السرج. لم يكن ليفضل شيئاً على أن يصل في دقيقة إلى قريته وإلى بيته.

III

بعد أن تحادث في المنزل الرجلان المتقاربا القلب اللذان لم يبق بينهما أسرار أصبح شواي مهموماً: من جهةٍ حمايةُ الإنجليز الذي كُلف بحمايتهم، ومن جهةٍ أخرى السلامُ الذي لا أساس موضوعياً له بين الطرفين المتواجهين. وإليهما أضيف ذنْب بانتالي، وحب أنفيسكا،والدَّين الذي عليه لبامبت. ثم مهمة خان جري القيصرية. لو أن الرجلين اللذين نشأا في بيت واحد لم يكونا في ضفتين متقابلتين لربما ما وجدا نفسيهما في موقف كهذا.

كلٌّ يجري في الدنيا إلى الغاية التي خطها القدر على جبينه؛ هذا بالنسبة إلى شخص واحد. غير أنّ من يحافظُ على حياة شعب كامل أو يدمرها هم عدد من الأشخاص. ولكن، قال شواي في نفسه، وهو ينظر إلى الظهر المتين لجيمس الذي كان يستحم في نهر بشادا: حتى لو كان سيدمر حياتنا فليس عندنا إلى الآن شخص قادر على تجميع أفكار الأديغة سواء أكان أميراً أم لم يكن.بلاد الأديغة كعربة قديمة يجرها اثنا عشر ثوراً لا تعاوُن بينها[1]. كل ثور وهو يجر ما يستطيع في طريق أعوج ينشز سراً وعلناً ويحرن. وقد فهمت سبب قوة تركيا وروسيا في السنوات الأخيرة: الحكام يُخضعون بلادهم. وكما يقول توغوظقوه قازبك: قطيع

[1] إشارة إلى القبائل الاثنتي عشرة التي تؤلف الأمة الأديغية

المواشي له راعٍ، ونحن الأديغة نعيش حياتنا، دون لجام، نركض حيث يركض حصاننا نبحث عن مغنم، وكل من يحاول أن يجمعنا نتخذ منه عدواً. قلوبنا كالريح التي تهب حيث تشاء،موعدها حين تثور، وهدوؤها قليل.

انتفض شواي من أفكاره وقد خيل إليه أنه يسمع صوت تكسُّر سِكِّينٍ. وحين التفت بسرعة إشهار القامة لم يظهر لعينيه ما يشك فيه. ولكن تكرار صوت تكسر الخشب جعله يفكر، وسأل تازه الذي على الضفة:

_ ماذا يا شواي ؟ أهناك خطبٌ ما ؟

_ وأنت أتسمع شيئاً ؟

_ كأني سمعت ما تسمعه صباحاً وقبيل الظهيرة والآن.لا أدري إن كان أحدهم يتبعنا طوال النهار. ثم أضاف: _ ربما كانوا عيون مغرقوه وفيلياميتوف. لا شيء يتورع عنه جماعة مغرقوه.

تذكر شواي ما لمح إليه قبل أيام خان جري من ثمن لرؤوس الإنجليز فقال:

_ يتناقلون خبراً عن ثمن رؤوس ضيوفنا. ولكن أظن أن المهمة لن تصل إلى القوزاق.

_ ولماذا ؟ أتراهم عديمي الشجاعة أيها الكبير؟

_ لماذا أتهم القوزاق بما ليس ذنبهم ؟ ولكن قيل إن من يطمعون في ثمن الرؤوس حاضرون عندنا.

_ أتعرف من حدد أثمان رؤوس الإنجليز الذين نحرسهم يا كبير ؟ لم ينكر تازه أنه يعرف من حدّثه بشأن أثمان الرؤوس وإن لم يكشف له اسمه. غير أنه سمع جواباً لم ينتظره:

_ سأقول لك من يحدد أثمان رؤوس الإنجليز: خان جري _ حسم شواي الجواب كأنه كان ينتظره، ونظر إليه بعين حادة: _ وأنت إن كنت تعرف غيره فأخبرني !

_ لم أسمع غيرَ من ذكرت يا كبير !

_ لماذا تسأل إذن ؟ أتريد اختباري ؟ _ سأل شواي، وقال مُسمعاً تازه مغمغماً لنفسه _: أبقي في الدنيا من لم يخزني بشوكه ولم أكن سبباً في حزنه ؟ _ ثم أنهى بصوت أرقَّ: _ المسكين بانتالي كانت نهايته على يدي... وبهذا فجعتُ أيضاً المسكينين باجقوه عمر وبابونه.

_ لا تؤاخذني يا شواي _ سأقول لك الحقيقة _ تنهد تازه أديغ بثقل: _ بانتالي، ولو لم أعرفه، حين سمعت بما جرى له حزنتُ، لست وحدي، بل القرية بأكملها. لا يستطيع الناس إلى الآن أن ينسوا تأثيره على عمر وبابونه، ولا أعرف كيف أُفهِمك؛ لحقا خلال شهر بابنهما الذي لم يلداه. أفهمك يا شواي، لا أدينك. ولكن مع ذلك...

_ وماذا بعد ذلك ؟ _ جعل الصوت المفاجئ لشواي الإنجليزيين اللذين كانا يستحمان في النهر بيل ولونغفورت، وأغوي ينصبون رؤوسهم. ثم قفز الصوت من الضفة وتبدد في الغابة _ الجبل.

قال تازه بصوت جافٍّ عاجزاً عن فهمِ ما لُمِّح به إليه:

_ لا أفهم كلامك الجارح أيها الكبير !

_ اغفر لي يا صغير _ وعى شواي إلى نفسه بسرعة _ عدم صبري أمامك... كنت أذرُّ الملح بنفسي على جرحي، ما جعلني أصرخ ألماً.

_ ماذا حدث لكما أنتما الاثنين ؟ _ صرخ أغوي بشه ماف من الماء _ انزلا إلى الماء وابتردا !

_ اذهب يا أديغ ! إن كنت تريد النزول إلى الماء. لا أؤاخذك، سامحني _ لاطف شواي مَن غضِبَ عليه _ تبعاً لسلوكي معك، لو لم يكن ماء الجبل بارداً لوجب عليّ الغطس في الماء كما تشفّى مني بشه ماف... " ولكن مع ذلك " لو رجاني أي إنسان كان لما استطعت أن أقبل ما لا يعجبني" وفي الوقت نفسه، ولأنك لستَ ممن يتراجعون عن كلامهم فسأسمعك ولو كانت فيها نهايتي؛ فأكملْ !

_ يسرني أننا _ الاثنين _ ليس فينا هذه الطبيعة السيئة. وربما هذا ما يقرّب بيننا يا كبير. أصارحك بأني كنت أود أن أقول لك إن حماية الإنجليز التي كُلِّفنا بها لا تعجبني. جميل أن تخدم الضيوف وتلبي طلباتهم، وهذه من عادات الأديغة، ولكن ليس هذان من النوع الذي نفتح له أبواب مضافاتنا. أتتذكر ما حدث للأخوين أباته ؟ أنت تعرف دون حاجة إلى الإعادة رأيي في عالَم الأديغة. لا أريد أن يُدخِلوا غرباء إلى أرضنا. ومن فعل بنا هذا هم جماعة الأبزاخ الخارجون عن طورهم. جاءهم نائب للشيخ شامل اسمه حاج محمد فصاروا يعدونه نبياً. نحن الأديغة مغرمون بأن نستقبل الغرباء ونُقحمهم بيننا ونصبح خدماً لهم.

_ المهم ألا يطمعوا في نسائهم وخيولهم... أليس هذا ما تريد قوله ؟

_ وهذا جزء مما أريد أن أقوله يا كبير. ولكني أريد أن أمدَّ نظرك إلى أبعد من هذا: أرضنا ! _ علا صوت تازه دون إرادته، ثم اختتم بكلام ألطف: _ أسألت الإنجليزي لونغفورت ماذا يريد من كل هذه الكتابات؟

_ ولماذا أسأله بدلاً من أن أشكره، وأنا أعرف أنه ينشر في جريدته ما يتعلق بمأساة الأديغة.

_ ستستاء مني مرة أخرى يا شواي، ولكن بما أننا بدأنا الموضوع فلن أُنهيه. ألا يكفي ما كتبوا بشأن بلادنا ووضعوه أمام قيصر روسيا ؟

_ وإلامَ تريد أن تصل بهذا السؤال ؟

_ نفرط في الثقة بمن هو منا، وبالغريب.

" اسمعْ بِمَ يعيرني هذا ! " اهتاج شواي غير أنه لم يكتم ما شك فيه:

_ إن كنت تقصد بـ" من هو منا": خان جري، أخي الأصغر فلا تتراجع ! قل لي اسمه صراحة إن كنت رجلاً !

_ أفضِّل أن نتجابه بالقامات المسلولة على أن أسمّي العدو. ولكن بما أنك نطقت اسم من تسميه أخاك الأصغر، فالله شاهدي، وإن كان هذا في ذهنك أيضاً...

_ لا تهتم بما في قلبي أنا ! قفز شواي من الصخرة.

وفي هـذه اللحظـة دوت طلقتـا بندقيـة في الغابـة علـى ضـفة النهـر، ونبَتـا عـن سـطح المـاء حيـث يسـبح الإنجليزيان. فأسرع شواي وأطلق في الغابة باتجاه مصدر الصوت.وفعل أديغ مثله.

_ كأنهم يقتلون ضيوفنا ! _ كان أغوي بشه ماف وحده من يعود إلى الضفة سابحاً.

كان بيل أول من طفا على الماء غير بعيد عن الضفة التي يدور حولها شواي وصخبه. وأسفلَ منه ، عند الصخرة المستديرة، ظهر لونغفورت بكامل صحته.

_ المهم أنكم سلمتما. كدنا ندنس أنفسنا بالعار حيالكما.قال شواي _ البسا حالاً، وأنت يا أديغ لا تغفل، احتفظ ببندقيتك جاهزة !

ريثما وصلت جماعة شواي مساء إلى قرية ياندار لم يتكلموا بجدية في ما جرى لهم على الطريق كأنهم اعتادوا يومياً على مثل هذه الأحداث , وقضوا الوقت يتبادلون الحوار والأخبار.

وحين بقي شواي وأغوي وحيدين في الغرفة سأل أغوي من الظلام عما كان يفكر فيه نهاراً:

_ ما الموضوع، إن لم يكن سراً، الذي كنتما تختلفان فيه اليوم بحدّة أنت وأديغ ؟

_ وماذا أخفي عنك يا بشه ماف _ لم يكن شواي مسروراً لإخراجه من أفكاره غير أن جوابه كان مختلفاً:

_ ألا تعرف طبيعة تازه ؟ يهتم أكثر مما ينبغي بما ليس ضرورياً... ما لا ينتهي منه هو موضوع بامبت.

_ وما الذي أوصلَه إلى هذا الموضوع متجاوزاً إياك ؟

_ أليس هذا ما لا أقبله أنا أيضاً ؟ يقول لي إنك لم تفِ بنذرك بشأن بامبت !

_ لم يقل لك ما لا تستحق !

_ والله أنتما عجيبان _ ابتسم شواي _ ما الفائدة الآن في مناكدة بامبت ؟

_ أتقول هذا الآن ؟ استغرب بشه ماف ما سمع.

_ ما جدوى أن تقتل من صار صوته نسائياً ؟ ما كنت أنوي فعله به قدّره الله عليه. ليعشْ حياته ومن يعرفُه يسخر به ،ومن لا يعرفُه يسأل عنه.

لم يكن هذا ما يتكلم عليه شواي.كان ما يقلقه أمراً آخر: كان أصل الموضوع هو الحديث الذي جرى بينه وبين تازه أديغ على ضفة النهر. ومع أن موضوعه كان ما يصيب الأديغة الآن فمن الممكن التمييز بين نمطين من التفكير مختلفين بوضوح. لم تقتصر الموضوعات على موفدي الإنجليز، ولا على جماعة خان جري، ولا على الجنرال فيليامينوف، ولا على الأتراك المرائين، ولا على مبعوثي الداغستان، ولا على الأديغة الذين يقفون إلى جانب هذا الطرف أو ذاك. ومع أن شواي لم يكن راضياً منذ اليوم الأول عن سلوك خان جري فقد أحزنه ما يعيّرونه به وكأنه المسؤول الوحيد عن النار التي تحرق الأديغة. وزاد على هذا الإنجليزُ ومن أطلقوا عليهم النار، وبعض الشكوك. ولم يكْفِ هذا أيضاً بل ثار من جديد موضوع بامبت الذي لم يكمل شواي معالجته.

" إذا كنت فرحاً بتازه أديغ بصفته أحد الشبان العقلاء الذين انضموا إلينا _ قال شواي من قلبه ناسياً النوم، ونظر إلى الزاوية التي ينام فيها بشه ماف، وأنصت. أظنه يتكلم كثيراً في موضوعات لا شأن له فيها. إذا حاولت تحليل قضية الأديغة فلن تفهمها حتى بالمِنْدل. ليس ما نحتاج إليه اليوم هو النمائم والمهاترات. نحتاج إلى أفكار تلحمنا وتضم شملنا بدلاً من الأفكار المشتتة، وهذا ما يجب أن يصدر عن رجل حكيم واحد أو اثنين. ولْيكونوا ثلاثة أو أربعة أو خمسة. والثلاثة كثير إذ سيختلفون على من هو أحكمهم وأقواهم فيتحالف الاثنان ضد الثالث ويتآمران عليه. وهذا هو ما فعله أمراء الخمشي بخان جري. ولكن أمّه ولدته رجلاً فلم يتراجع بل علت رتبته وصار أقرب إلى قيصر روسيا الذي ترتعد له الأرض. بل جاء إلى إقليم الأديغة حيث تتكسر شفرات السيوف وتُختبَر الرجولة والإنسانية، والضباط الروس مجبرون على احترامه، محاطاً بكوكبة من الفرسان الحماة. لو أن رجلاً حكيماً كخان جري تقدّمَنا لربما نجونا، نحن الأديغة، من المصيبة ولكننا سيئو الحظ، ولربما لم يستطع الترك وخان القرم وروسيا ومعهم القوزاق أن ينهشونا. ما العمل ؟ صدق من قال: " الكلب يعض حتى راكب الجمل ". لم يُكتب على جبيننا مثلُ هذا الحظ. ولن يحدث لنا خير ونحن يغتاب بعضنا بعضاً. ألم تسمع ما يقوله حتى تازه في شأن خان جري الرجلِ المحترم ؟ ! لا يتعلق الأمرُ بالعمر. حين لم نقدِّره نحن ولم نعرف قيمته. وضع نفسه في خدمة قيصر روسيا. أتظن يا أغوي أن مهمة خان جري ستتحقق له ؟ سأل شواي صديقه قاصداً أن يقاسمه هواجسه وهمومه.ثم سأله ثانية: لماذا لا تقول شيئاً يا بشه ماف ؟ هذه طبيعة أغوي بشه ماف ! غمغم شواي. قال ما يريد، ونحن نظن أننا مهمومان بأمر واحد، ثم استسلم إلى لامبالاته الأزلية. أفهمُ أننا مررنا بأيام صعبة، وقطعنا طرقاً شاقة. لنفرضْ أن بشه ماف غير مهتم بمهمة خان جري ولكن لا أجد من المناسب وصفه إلى هذا الحد. ما حاجته إلى ثرثرة أديغ... ولكن لو جعلَنا نتكلم في موضوع الذين أطلقوا النار علينا اليوم! ينامان ما إن يلامس رأساهما الوسادة. أنا من يهتم بكل شيء ولا ينجو من كل ذم. لا يستحق تازه الوصف بالثرثرة غير أنه سيتفوه بأشياء عجيبة إن أرخيت له الحبل. لا يثق بالإنجليز ولا بخان جري ! نَمْ يا شواي، نم ! لا تدع الأفكار المؤذية تغزو رأسك ! كيف يمكنني أن أكره خان جري ؟ أعجيب إن كان الوضع وضْعَ حرب ؟ نام شواي فجأة مقلّباً الأفكار دون أن يستطيع الإجابة على السؤال الصعب كما يريد.

لو كانت الدنيا تجري كما يشتهي المرء !... جاءه صباحه بثلاثة أحداث مشؤومة: لأن الأول هو رجوع تازه أديغ إلى الأبزاخ دون أن يسأله، ولأنه لن يعود، فحين سمع الخبر لم يُبدِ حزنه. والثاني نقْضُ فيلياميتوف للهدنة. والثالث هو الذي جعله يتخذ طريق لوستان حبله فوراً.

***

ليتني ألقيت على جدتنا نظرة أخيرة قبل أن تفارق الحياة !... قال شواي لبشه ماف أغوي الذي لحق به كي لا يدعه يسافر وحده _ أيكون خان جري ما يزال في القبرتاي ؟ ستافروبول ليست بعيدة فيمكن أن يستدعوا منها عادل جري،غير أني لا أعرف كيف سيخبرون سعيد جري في تفليس البعيدة؟

_ تفاءلْ بالخير يا شواي ! لا أظن قانتات على درجة السوء التي تتخيلها. لِنجتزْ من جهة غابة (فه بابه) فنصلَ إلى لوستان حبله قبل الظهر. إن كان رأيك هكذا فتماسكْ ! ستافروبول ليست بعيدة، وخان جري لن يظل في القبرتاي إلى الأبد.

وفيما الفارسان يجتازان الغابة على الطريق الضيق، متجانبين حيناً ومترادفين أخرى، أجبرهما صوت إطلاق نار على التسمُّر في مكانهما. وسُمع أنين وصراخ، ولجأ فارس يركض وراءه حصان مسرج دون فارس إلى الغابة.

_ هذا الفارس لا ينوي خيراً _ وجّه شواي حصانه نحو مصدر الصوت _ توجّس شراً من بندقية الرجل _ ارجع يا بشه ماف، ليس الفارس مشكلة.

رأى شواي ورفيقه الرجل المستند إلى شجرة ممسكاً بكلتا يديه الجانب النازف منه، وسرعان ما عرفاه:

_ إلهي الأحدُ ساقكما إليّ _ قال بامبت الذي كان يتأوه بصوت رفيع _ قدِّموا لي خدمة ! هذا أنت يا شواي ؟ ! صرخ بامبت حين عرفه _ ما الذي ساقكما إليّ ؟ _ يا حسرتي يا شواي ! قال بامبت بصعوبة ثم همس: قتلَني من لم أتوقع أن يفعل بي هذا: بفوق ! وأنا الذي كان يخشى أن تكون نهايته على يديك... وسلبني ما جمعت في حياتي بالدم والعرق.

_ توقفْ ! لحظة ! لا تتكلم كثيراً _ قال أغوي بشه ماف بنبرة لا تعرف أهي نبرة غضب أم نُصح.

_ لو أني أشفقت على جرحك يا شواي كما تفعل الآن بجرحي لما فارقتُ الحياة على هذا النحو. سامحني!

_ لستُ غريمك في مثل هذا الموضع _ حسم شواي النقاش _ أتركك وذنوبَك لله !

_ يا إلهي ! وهوى رأس بامبت.

أسبل شواي جفني بامبت، ونهض.

_ وماذا سنفعل به ؟ سأل بشه ماف.

_ سندفنه _ خطّ شواي حدود القبر بنصل القامة _ ثم بدأ يحفر جاثياً على ركبتيه _ أنت احفرْ من الجانب الآخر يا بشه ماف. لن نجاريه حتى لو عاش كالكلب الغدار، لن نترك جثته للهوامّ.

IV

مرّت أمام عيني خان جري أحداث كثيرة خلال هذين الشهرين. حضر مؤتمراتٍ كثيرة في إقليم الأديغة تفاهم مع أعضائها، ومؤتمراتٍ لم يفهموه فيها. وقضى ليالي أرقٍ كثيرةً في مضافات مختلفة. اعترضه أخيارٌ وأشرار. مهما قال للناس ومهما قالوا له لم يحصل من أكثرهم على جواب واضح في القضية الأديغية _ الروسية.

كثيرة هي المؤتمرات التي كانت تستمر من يوم إلى ثلاثة، والتي ينقضون فيها ما قيل في غيرها. تنعقد ثم ينفرط عقدها. وكانت ليالي المضافات الطويلة والاجتماعات التي لا تنتهي إلى شيء شبيهة بالأفكار الأديغية المشتتة المتصارعة.

من أنابه في الشابسغ إلى نالتشيك في القبرتاي قطع خان جري إقليم الأديغة، غير أنه لم يجد جواباً للمسألة التي يتابعها. ومع أن ما رأى في القبرتاي وسمع يرضيه تقريباً فقد أحس أن الناس يخفون في أعماقهم نوعاً من عدم الثقة. وحدث له الأمر نفسه في نواحي البسلني وبينجيج الكبرى وبينجيج الصغرى وأعالي وارب وأعالي نهر بشزة. وفي شأن الموضوع المهتم به فإن الأباظة _ النغوي _ القرشاي، الأصدقاء _ الأعداء، كانت تدخل بينهم مناحرات قومية بسبب المتعصبين لقومياتهم،المتنازعين على الصدارة، فيجد صعوبة في كيفية التحدث إليهم، ويسلك مسلك الحذر. ولكنه لم يقصّر، مهما سببوا له من إزعاجات وقلق، في إبلاغهم المهمة التي أُرسل من أجلها.

" هذا ما يحدث لك إن لم يكن عندك دولة _ قال خان جري في نفسه دون أن يشخص لعينيه السهل الضيق الذي يعبره _ والمأساة هي أن الأديغة المشتتين لا يفهمون هذه المسألة.... الأعراق التي لها أمراء همُّها هو حصول أمير قريتها أو ناحيتها أو أسرتها على وضع متميز دون اهتمام بشؤون البلاد. والأبزاخ والشابسغ لا يُسمعونك إلا اجترارهم للمساواة واللاطبقية فيهم. والقبرتاي، وأنا أظن أنهم يعيشون معزولين في شبه استقلال على مدخل القفقاس، أفاجَأ بأنهم يتناحرون بين قبرتاي كبرى وقبرتاي صغرى. حتى في الأحزان يختلفون على رأسهم وعلى السيادة. أخجل أن أقول هذا ولكن أيُّ نوع من البشر نحن ؟ ماذا نتنازع ؟ ما الذي لا نستطيع تقاسمه بيننا ؟ الرجولة ؟ غير أن الرجولة لا تُتقاسم ! الجبن ؟ _ هذا لا أحد، إن تمتع بالرجولة أم لم يتمتع،يقبله على نفسه... ماذا إذن ؟ أرجو ألا يكون الحسدُ والغيرة بدأا من عند الأديغة !

خرج خان جري من أفكاره لائماً نفسه على الخواطر السيئة نحو قومه. ونظر نحو بَدس الجالس بجانبه وسأله:

_ كيف رأيت البسلني يا ممت جري ؟

_ ليسوا سيئين _ أجاب بدس الروتميستر دون استعجال. لا غبار على تقاليدهم القومية وعلى ضيافتهم. ولكني لم أرهم فتحوا لنا قلوبهم في مهمتنا.

_ إذن وافقتني في ما كنت أفكر فيه. لا يعرفون من نحن فلا يفتحون لنا قلوبهم.ثم أضاف خان جري بعد قليل:

_ كيف لا يعرفون أيها المحترم ؟ ! لم نقل لهم ما يثير قلقهم.أجبنا على كل ما سألوا عنه.غير أننا لم نستطع أن ندفعهم إلى قول ما نريد صراحة. ما لا أفهمه أيها المحترم هو نظام الأمراء _ النبلاء الذي ننتمي إليه

أنـت وأنا؛ في المضـافات يقولـون شـيئاً، ويسـكتون في مضـافات المـوالي، أو يثرثـرون دون معـنى ويتركـون الساحة.

_ لم تظلم الأمراء _ النبلاء في ما قلت _ ابتسم خان جري _ لا شك أنهم يخدعونك وهم يبتسمون لك ويحدقون في عينيك. ألا تتذكر، قبل أقل من شهر، حين رجعنا من مؤتمر الشابسغ قال لنا أمراء البجدوغ ونبلاؤهم: سنقف معكم، وسنخبركم خلال عشرة أيام تقريباً. ثم سحبوا كلامهم.

_ أتذكر أيها المحترم _ ليس نسيان قلة الرجولة سهلاً. وقبل الآن ببضع سنين أتتذكر ماذا فعلوا بك؟

_ ألحق بي أمراء الخمشي مثل هذه الإهانة ,غير أني لم أحقد عليهم.كنت أجَدَّ شباباً في تلك الأيام، متهوراً. كيف يقولون " في ساعة الشدة يمكن أن تمد يدك حتى إلى النار "

_ هذا صحيح، يقال: " من يتلق إهانة يجد وقتاً للانتقام "

_ يقال، ولكن أيها المحترم لم يدَعوا لي الفرصة إلى الآن للانتقام. إن أردت الحق يا ممت جري أنا واثق بالبجدوغ. هؤلاء يطلَق عليهم " قوم السلام "؛ عند الضرورة يصفّون إلى جانبنا. من يصعب إرضاؤهم هم الأبزاخ الذين نتجه إليهم. يدَعون النائب الذي جاءهم من الداغستان يخدعهم.إذن أريد أن أسألك أيها المحترم سؤالاً مركزاً: ما رأيك في الأمة الأديغية كمجموعة واحدة؟

" أي سؤال يطرحه عليّ هذا الرجل ؟ وكيف سأجيبه ؟" لم يعرف بدس سبب توجيه السؤال إليه _ يقول حيناً البسلني وحيناً الأبزاخ. وحين كنا مسافرين إلى القبرتاي لم يكن ينفك عن طرح هذه الأسئلة. وكان بوده مقابلة أديغة منطقة مَزْدَك[1] المسيحيين.لم نصل إليهم. عدنا من القبرتاي وهو يسأل عن نمط حياتهم وكيفية ممارستهم دينهم. يعمل في تنفيذ المهمة المكلَّف بها من القيصر. وأحياناً ينسى المهمة التي أُرسل لأجلها، فيهتم بكل ما في المجتمع من إيجابيات وسلبيات، من تقاليد الاختلاط المجتمعي والأعراس والمآتم والحكايات والأحاجي والقصص والأقوال المأثورة. والآن لا يكفي سؤاله عن تفصيلات القبائل والفروع الأديغية فيطلب مني أنا تقييمها في مجموعها. الأديغة بالقياس إلى الأقوام الأخرى يمكن أن تقول فيهم كل ما تستطيع. والأعجب من كل شيء هو أن أي شيء تقوله ينطبق عليهم. ولكن يخيّل إليّ أن ما يعيشون لأجله ثلاثة: الرجولة والحرية والتنافس على الصدارة؛ فأيَّها تريد مني أن أقول لك ؟ ويمكن أن أضيف إلى ما قلت شيئاً آخر ينبغي أن تحفظه جيداً؛ فمن يستطيع أن يعرف إلى أين يصل خليطك الأديغي _ النغوي المرائي ؟ ألم تكن تسمع وقْعَ نسبك على البسلني _ النغوي، فيرحبون بك، وتسري الفرحة على وجوههم ؟ أتريد أن تجرني إلى حديث على قومي الأعزاء فتتخذه مثلبة عليّ ؟ "

[1] تعني:الغابة الصماء، مشهورة بكثافة أشجارها، ولا يزال سكانها مسيحيين. المترجم

ـ ليس سؤالك سهلاً أيها المحترم ـ قال ممت جري ما فكر فيه: ـ في سنواتي الأربعين التي عشتها وأكثر أقول لك ما في نفسي: حين نقول " الأديغة " فهذه التسمية تشمل كثيرين. وإن وافقتني فلا علامة فارقة للأديغة إلا الرجولة والحرية.

ـ أوافقك لأني لا أظن قوماً في العالم دون نواقص أيها الروتمستر. إن شجاعة الأديغة وعشقهم للحرية أظهرتهما مجابهتهم للروس والأتراك. ولكن سامحني فقد فهمت الآن أني لم أطرح السؤال على نحو صحيح ـ يقلقني افتقارنا إلى دولة تتخطى علاقاتهم الداخلية، وهذا مصدر جهلهم وضعفهم. كنت أنوي أن أحفزهم على التفكير في الموضوع ولو أنه تأخر طرحه. أفهم أن روسيا تقابل عدم تلبية مطالبها بالنار متصامّة عمّا عداها،ولكن هناك أساليب أخرى لإسماعهم صوتك. لاينسَ كل عرق من البشر، مهما وجدت نفسها في مواقف صعبة،أن لغته تتضمن كلمة السلام،ولو نشأت في مكان فيه جذور للقبول والرفض. كان الفرنسيون أنفسهم أُجبروا على الركوع ومع ذلك نهضوا. ولماذا نذهب بعيداً ؟ هاهي تركيا التي كانت رفعت اليدين مستسلمة ترفع رأسها الآن، وقبل أن تُشفى من ألم الإهانة التي لحقت بها تُثير الأديغة وتأتي بالإنجليز إلى ديارهم وتنشر الكره بينهم. وكل هذا يعود إلى عدم الاتفاق وإلى الافتقار إلى الدولة. وليس هذا فحسبُ أيها المحترم ـ جعل الحزن خان جري ينتفض ـ أفهمُ إن إنشاء دولة حيث تعيش قبائل وأعراق متعددة أمر صعب، ولكننا، ولو اختلفت لهجاتنا، من أصل واحد. ما الذي نتنازعه ؟ وما الذي لا نستطيع التنسيق فيه؟ أفكر فأرى أن ما لا نستطيع تقاسُمَه هما الزعامة والحرية، وهما يحرماننا من تأسيس الدولة.

ـ كيف يا محترم يمكن أن تفهم هذا ؟

ـ ماذا يجيبنا أغلب الأمراء ـ النبلاء الذين نقابلهم؟ في ناحيتنا لا مانع لديهم من الاتجاه نحو روسيا، غير أنهم مهمومون بما سيكون عليه وضع الموالي الذين تحت سيادتهم. وكما تقول جدتي " إذا رفعتِ الأكثريةُ العصا فالهواء المنبعث منها يصلك ولو كنت فارساً ".

ـ لما تقول مغزىً أيها المحترم، غير أن الشابسغ والأبزاخ دون أمراء، كلهم من الموالي.

ـ نعم، نعم. اقتربتَ الآن من رأس الفكرة التي تقلقني يا ممت جري. هذان العرقان اللذان ذكرتهما هما أكبر الأعراق. والبجدوغ والجمكوي والمخوش والبسلني، وإن أضفت إليهم الحاتيقواي والأَدَمَي واليجروقوه فتعدادهم جميعهم لا يساوي نصف الشابسغ أو الأبزاخ.

ـ ثم هؤلاء معتدّون بحريتِهم وغيابِ الأمراء عن مجتمعهم ـ أكمل بدس بعد قليل: ـ لا أعرف؛ أيمكن اعتبار ما يقودك إليه حصانك حرية ؟

ـ صحيح أيها الروتمستر ليس كل فارس حراً. لهذا قلت إن الأمراء والنبلاء، ولو كانوا على صهوات الخيل، لا يحققون أهدافهم. أريد أن أعبّر عن حاجتنا في المستقبل إلى دولة بدلاً من التناحر. أي نوع من الدولة هذه ؟ لا يهمني أن تكون دولة أمراء ـ نبلاء أم دولة موالٍ. فربما تمنع ما يحدث لنا اليوم نحن الأديغة.

"كأن زعيمنا يفقد الأمل... _ قال ممت جري لنفسه غيرَ حاقد ولكن بشيء من الرعب . هذا الشاب رغم أنه أصغر مني كثيراً فكما يقال " ما تراه العين يساوي العمر ". ما رآه واصطدم به ليس قليلاً، ولا يجوز اعتبار تغيرات رأيه في المسألة الروسية _ الأديغية عيباً. لو لم يكن واثقاً بي لما فاتحني بهذه الموضوعات. لا أظنه ينفّس عن ضجر الطريق فحسب... كل ما نراه حيث نذهب وكل ما نسمعه يدفعك إلى مثل هذه الآراء. الحق أنك لا تستطيع إلا أن توافق خان جري. كان يجب أن يكلفونا بهذه المهمة قبل أن يدخل الجيش الروسي إقليم الأديغة؛ فبعد سفكِ الدمِ تهيجك رائحة الدم وتقطع طريق الخير بينك وبين الطرف الآخر. ومن هذه الناحية هناك نصيب من الصحة في ما يقول الشابسغ والأبزاخ. سهلٌ إدخال الجيش إلى أرض غريبة ولكن إخراجه صعب. ربما يفهم ممثل القيصر في هذا الأمر أكثر مما أفهم فقد كان أقرب إلى من أعدّ لهذه المهمة. غير أن العجيب هو أني لم أسمعه مرة واحدة يلمّح بسوء إلى القيصر الذي كان سبب هذه المأساة. مهما قيل في خان جري، ومهما شكّوا فيه، فأنا أراه رجلاً أديغياً حقيقياً يتحلى بالرجولة والرحمة والفطنة والصدق. صحيح أنه ليس أديغياً كل من يحمل اسماً أديغياً، هذا لا يعني أن تعيش معهم أو لا تعيش. يا ربي هل تقاسَمَ خان جري همومه القومية مع مغرقوه ؟ ومتى ؟ وأين ؟ لا أظن. فمنذ اليوم الأول الذي اقترحني فيه مرافقاً كان يُفهمني أحياناً أنه قريب مني قلباً ولو أننا لم نتحادث كثيراً. غير أني لا أعرف ماذا ستكون فائدة هذه الأفكار "

مع أن ما يقلق خان جري وما يفكر فيه هو نفس ما يفكر فيه بَدس الروتمستر فقد كان متعلقاً بنفسه وليس بقضايا الأديغة وحدها. والواقع أنه قلق لعدمِ نجاح المهمة التي أوكلوها إليه، ولما رآه خلال شهرين، وعدمِ جدوى كل النشاطات التي أسهم فيها." عند الضرورة، هذه ليست مهمتي " يقول لنفسه. "كثيرون من أمثالي ماتوا دون أن تتحقق أهدافهم؛ فإن بقي شرفي، سواءٌ أكان شرفاً أديغياً أم شرف ضابط روسي، نظيفاً فلن أجوع " ربما مع معرفتهم استحالة نجاح المهمة أرسلونا على سبيل الرياء والخديعة. ما الفائدة الآن في أن تلحق الرصاصةَ بعدما خرجت من البندقية ؟ أصابت هدفها وسال الدم. ربما لهذا لم يكن فيلياماينوف مهتماً بما أقول له أو أكتب إليه. أيعقل أن يكون الكونت شيرنشيف والكونت بنكندورف جاهلين بالوضع. والقيصر العظيم ؟ لن يفعل بي هذا من أخلصت له عمري ! ماذا أقول ؟ أفكر في ما لا يجب أن يخطر لي. أكان يرسلني لو لم يكن واثقاً بي ؟ من يود إشعال الحروب وسفك دماء قومه؟ والأديغة لا يودون ذلك. مَن إذن أول من خطا خطوة نحو الحرب ؟ ليس كونُ الأديغة السباقين غريباً؛ دخلنا أرضهم فلم يقبلوا. والآن مهما قلنا لهم يفقؤون عيوننا بهذا الجواب: ألا تخجلون أنتم ومن أرسلكم ؟ نعم، نعم. أقحمونا هنا قائلين: موعد انتهاء المهمة هو عندما تجدون الطريق مقطوعاً "

_ أفكر في قولك: لا يهم إن كانت دولةَ أمراء _ نبلاء أم دولة موالٍ، فلا أوافقك الرأي في دولة الموالي _ كرر الروتمستر بدس ما كان يُهمه _ أنا نبيل وأنت أمير فإن تركنا القيادة للموالي اقتلعنا جذورنا بأيدينا يا محترم.

_ إن توقفت عن أن تكون أديغياً اقتُلعت _ غمغم خان جري تحت شاربيه موجهاً الكلام لنفسه ولرفيقه. ثم أضاف بصوت أعلى: _ ندمر أنفسنا ونحن مشغولون بالأمير والنبيل والمولى. الموالي يُفنون أنفسهم بسبب رجولتهم العلنية والخفية. نقول: ليس عند الشابسغ أمراء يا ممت جري، ولكن الناتخواي ومن تنتمي إليهم أليسوا فرعاً من الشابسغ ؟

_ أين نذهب نحن الناتخواي والجان إن تبرّأنا من أصلنا الشابسغ ؟

_ أليس الأمير زانه سفربي من الناتخواي ؟

_ أحسنت ! ناتخواي. احتجزوا الرجل الممتاز في تركيا دون أن ينوّلوه مراده. كان مرشحاً أن يصبح زعيماً حقيقياً للشابسغ.

_ وجماعة توغوظقوه قازبك ؟

_ لا أتكلم على توغوظقوه قازبك وشروخقوه توغوظ وخورلوقوه مرجان وأباته بسلني. ومع أن قازبك وتوغوظ يعادياننا فهما رجلان. ومرجان وبسلني لا يفتقران إلى الرجولة. كانا_ يرحمهما الله حيث حلاّ _ حكيمين. ما تصرفا به حين ذهبا إلى تركيا على العادة الأديغية ولم يعجبني هو اختلافهما على من سيتزعم الأديغة. ومن حسن حظنا أن الأمر جرى على هذا النحو فقد كانا سيجراننا نحو تركيا.

_ أليس من حالفناهم أيها الروتمستر وجلبوهم إلى هنا مثلَنا ؟

_ أفحمتني في غمرة تعاطفي وحرصي على الأديغة. ولكن كنت أعرف زانه سفربي، وكنا في جيش روسي واحد. أضر بنا عناد العقيد روزديفيتش فسرّحنا. هو رجل بمعنى الكلمة، حكيم، لا يسمح لك بالتفوق عليه.

_ لا يفتقر (فْأه زَجْقوه تسي) الذي وجَّهَنا للحديث مع الأسر الأبزاخية المتنفذة، ومع الموالي الممتازين، إلى الرجولة. إنه رجل حكيم. يقدرونه جداً في الأبزاخ. يهيئون له الحصان فيركب ممسكين بلجامه، ويرجّلونه. أضافنا أياماً كثيرة وأكرمَنا واحترمنا وأصغى إلينا، غير أنه لم يتقبل شيئاً مما قلنا. وحين غضب أخيراً قال لنا: إصبعي الوسطى في است... ! كما قلت أنت "كانوا سيجروننا نحو تركيا " للذين أرسلوكم وثبّتوا أنفسهم في أرضنا. لا أعرف، لا أفهم ما يجري لنا... من الصعب التنبؤ بما سيكون عليه موقف جماعة تازه أديغ في الأبزاخ السفلى.

_ هذا الذي تأتي على ذكره تازه، يقال لم يكن يريد شيئاً. يقولون إنه يميل أكثر نحو الموالي.

_ أعرف خبره _ قال بعد انقطاع قصير _ هو صديق لشواي. إن كان تازه يستطيع إقناع الأبزاخ السفلى فلن نحتاج إلى مضيف آخر أفضل. وإن حدث واحتجنا إلى شواي استدعيناه. وفي طريقنا من قاي حبله سنعرّج على الجمكوي.

كان الوقت مساء صيفياً متأخراً حين ولج خان جري وصحبه إلى قاي حبله. وسرعان ما اصطُحب الضيوف إلى باب تازه أديغ.وتناقشوا في ما بينهم في اختيار المضيف والكلمات التي سيجري تبادلها. وجيء لهم بالعشاء المستعجل الأول إلى المضافة:

_ ما الأخبار في ناحيتكم يا أديغ ؟ سأل خان جري بعد أن تناول بضع لقمٍ دون أن يفهم سحنة المضيف الباردة.

_ مأساة الأديغة هي هي في كل مكان أيها الضيف _ أجاب تازه. وقال في نفسه: الضيف لا يعرف أن جدته توفيت. من حسن حظي أني لم أعَزّه؛ كيف أُطلِعه ؟ جاري المرحوم عمر هو من كان خبيراً في هذه المواقف. ومع ذلك فأنا مجبر. سأحضّره للخبر السيئ _ لا أظنكم رجعتم إلى بلاد البجدوغ يا خان جري.

_ مررنا على البسلني في طريقنا من القبرتاي فقضينا وقتاً في الأبزاخ. والآن عندك يا أديغ. فإن جمعتنا بالموالي هنا فسنمر على الجمكوي _ فجأة علا نبض خان جري وسأل: _ لماذا تسأل عن البجدوغ ؟ أهناك خبر منهم ؟

_ لا... ! _ أخفى تازه ما كان يقلقه وغيّر به خبراً آخر، سواء أكان خان جري يعرف أم لا يعرف بوفاة جدته: _ لم يلتزم الجنرال فيليامينوف بوقف النار. ورجع إلى محاربة الأديغة.

_ ومتى جرى هذا ؟ أعاد خان جري اللقمة التي رفعها، ونظر نحو الروتميستر بدس كأنه يلومه.

_ إن لم يكن قبل عشرين يوماً فقبل أسبوعين.

_ ما أسوأ ما فعل ! كذبوا علينا _ تنهد خان جري وهو يهز رأسه مع تعبيره عن أسفه.

بعد قليل قال تازه:

_ لا أظنك تعرف أن جدتك مريضة جداً يا خان جري.

_ حين سلكنا طريق القبرتاي كانت متوعكة _ ثم صرخ بقلب متألم: متى سمعت الخبر ؟

_ أمس أو أول من أمس.

_ لا بد أن أصل الليلة إلى البيت _ نهض خان جري من المائدة، ونهض من كانوا لا يعرفون بوفاة قانتات. ونهض تازه الذي حضر الجنازة ليركبَ مع ضيوفه، فيحضِّرَ ضيفه للخبر على طريقه إلى قريته.

V

_ يا ولدي يا خان جري أين أنت ؟ _ رفع خان جري رأسه عن القبر فجأة وقد خيل إليه أن الصوت الذي جاء من المصطبة هو صوت جدته قانتات. وفي هذه اللحظة رجع إلى وعيه. ولكنه، وقد نسي أن الصبي زبش يقف إلى جانبه،داهمته أفكاره الثقيلة.

_ يا للمصيبة ! رجع ووقف ثانية على قبر السيدة الكبرى قبل أن يبزغ الفجر _ سألت بيكا سيسور بعدما أشارت إلى الفناء الخلفي للدار. كانت السيدة الكبرى،جعل الله مثواها الجنة، تقول " ما صنعوا

مهداً لأحد إلا حفروا له قبراً " فلا تدعِ المصيبة تشلّ قلبك. ليت خان جري لا يحدث له مكروه. يا سيسور نادي أحد المعتمرين قبعات في الدار ليبعده عن القبر.

رجعت بيكا إلى الغرفة وقد أوهنتها الأيام الثلاثة التي قضاها ابنها في البيت، تبحث بكل وسيلة عما يخفف حزنه وقد بدأت تتفهم المهمات الخاصة بالرجل، والأخرى الخاصة بالنساء التي تنتظرها.

حين وصلت بيكا إلى باب غرفة السيدة الكبرى قانتات همّتْ بالتوقف دون إرادتها. غير أنها استجمعت قواها ووجدت طريقة ما للسير. وحين استقرت في غرفتها لم تجد الاطمئنان _ لم يكن خان جري يفارق ذهنها. وكان عادل جري الذي رجع إلى ستافروبول وعينه إلى الوراء ما يزال منتصباً أمام عينيها. وكانت قلقة من عدم حضور سعيد جري الذي أرسلوا له الخبر.

قالت بيكا: ليت خان جري كان معنا في المأتم مثلما كان عادل جري أصغر الأشقاء، وتحمل عبء مسؤولية الأسرة. ربما لو كان معنا ما ثقلت عليه المأساة إلى هذا الحد. صحيح ما يقال إن مشاركة كثير من الناس مأساتَك تخفف عنك الحزن.لم يجرب خان جري مثل هذا الموقف. كنا أرسلنا الخبر إلى القبرتاي ثم البسلني غير أنه لم يكن بعيداً. كان يتابع أمور الدولة في الأبزاخ وهو يرى قريته ولا يعرف ماذا جرى في دار أبيه القديمة. ومن هناك، ومن الشابسغ والناتخواي والجمكوي وإيكاترينودار وباشكا وفاسيورينسك وانتهاء بالقوزاق، جاء المعزون. حتى لو كنا نتذمر خفية من السيدة الكبرى _ ليرحمها الله _ فإن حكمتها كانت تتعدى البجدوغ إلى الكثيرين فيحترموننا. بعد محمد جري، حين خلت الدار من أمير،كان ظلُّها علينا.أقول هذا ولكن دنيا الأديغة تحترق الآن، ولا أعرف مصيرنا. وإن بقينا في الوسط لا من هنا ولا من هناك ؟ ! أملنا الوحيد عند الضرورة هو شواي. غير أنه هو الآخر مغلق القلب . ليس قليلاً ما نلقاه منه نحن والمسكينة سيسور. نحن لسنا مشكلة إن لم تتعكر العلاقة بينه وبين خان جري. لا أعرف إذن، لن أعلق أملي بأحد.

بيكا التي ما كانت تحس بينها وبين نفسها بأن لها سنداً،والتي كانت لا مبالية، لا تعرفها الآن أهي كنةٌ أم أمٌ، أنهضتها الأحزان التي ثارت في وجهها فدفعتها إلى قرب النافذة _ لا يزال ابنها خان جري والصبي زبش على القبر. وحين رأت خان جري يمسح الدموع فتحت النافذة نافدةَ الصبر، ولكنها نادت بحذر:

_ يا خان جري، يا ولدي تعال إليّ لحظة ! _ وأغلقت النافذة بسرعة. ماذا أفعل بهذا الابن البيتمال؟ لن أحاول أن أنسيه جدته ولكني لن أسمح للحزن أن يفنيه وأنا مكتوفة اليدين. نظرتْ نحو الباب وكأن ابنها غاب يوماً كاملاً في الفناء الخلفي للبيت: _ تعال يا ولدي واجلس بجانبي. وأنت يا زبش قل لأمك أن تأتينا بالفطور إلى هنا.

_ وأنا سآكل معكما _ فاجأها زبش وقد فهم أنها تريد منه الانصراف.

_ لا بأس أن تأكل معنا يا ولدي غير أني أريد أن أقدّم الفطور لخان جري وحده؛ إن لم يكن يسوؤك!

_ ولماذا يسوؤني يا بيكا ؟ قال زبش كرجل ودون أن يُشعرها بامتعاضه، ثم أضاف وهو يفتح الباب: _ وسيسور حين تريد أن تكلّم أبي في موضوع خاص تطلب مني هذا الطلب رغم أني كنت كاتم أسرار نانا جدتنا.

_ يا زبش يا ولدي _ استعجلتْ بيكا حين لاحظت على وجه ابنها النحيف استياءه مما طلبت من الصغير _ لا تؤاخذني ! أرجوك ارجعْ؛ سنأكل ثلاثتنا معاً.

_ ولماذا أؤاخذك، ولماذا ترجينني ؟ _ أجاب زبش بصوت أهدأ _ لا عيب في ما طلبتِ. نتكلم أنا وسيسور حين نبقى وحدنا في الغرفة في أشياء كثيرة. سأمر على ورشة حاج قسي وأساعده.

_ ما أشدّ ما يذكّرني، ولو أن آل سلطان لم يلدوه، بعادل جري في صباه _ قالت بيكا لحظة أصبح زبش وراء الباب محاوِلةً تمويهَ تصرُّفِها معه _ إن قارنتَه إلى أبيه شواي فهو ينشأ حساساً، ألم تسمع ما يردّ به علينا وإلى مبلغ فطنته ؟ كأن ما قلتُ لزبش لم يرق لك يا ولدي !

_ لا فرق بين كبير وصغير يا أمي _ قال خان جري في لحظة انقطاع ضيقه _ ليس حسناً أن تطلب من إنسان أن يغيب عن وجهك. لم تكن نانا تسمح لنا بمثل هذا.وإن فعله أحد استنكرته.

" الميت يذكرون فضائله لا مثالبه" _ ابتسمت بيكا في سرها مخفيةً ما يحدث لها _ هناك أمور كثيرة في هذا البيت لم أعرفها. إن كنت تقول هذا فمن يهتم لحزني ؟ لأحتفظْ به ! لن أبوح به. ولكن إن أفلت مني دون إرادتي فلا تؤاخذوني فأنا إنسان. كثيراً ما صادفت السيدة الكبرى في مواقف تُظهر قوة شخصيتها وحكمتها. كانت ترعاكم أنتم وأباكم. كانت حازمة مع سيسور وشواي وبقية الخدم والموالي، ولكني لن أتهمهما بغير ذنبها بحجة أنها لم تسمح لي بتولي مسؤولية البيت. عاشت إلى آخر عمرها مشحونة بالفطنة والصدق. وكما كانت تتمتع بالحنان الأنثوي تمتعت بكثير من الحزم. لا، ليس لأني أسترجعُ ما فعلتْ ببامبت اللعين.ولكن بعد ذلك، ولحسن الحظ أن شواي وهو يأبى أن يوسخ يده بدم بامبت، ناب عنه بفوق، اللعين عاش عمراً طويلاً جداً بعد ما أمرت الجدة بخصيه. ما لست راضية عنه شيءٌ آخرُ كثيراً ما قررت أن أقوله لمحمد جري حين نخلو ولكنه لم يكن يقبل: ماذا تحمل لنا الآن الضفة اليمنى لنهر بشزة ؟ وماذا ستحمل لنا في المستقبل ؟ لن أكشف لخان جري عن هواجسي. لن أجعله يخطئ في الطريق الذي عليه الأسرة إلى الآن؛ ولْيحدثْ ما يحدثُ ! وولداي الآخران ماذا أُقرر بشأنهما ولو أصبحا ضابطين روسيين ؟ أفضلُ قرارٍ هو أن تعيش دون أن تتدخل في شيء:تأكل من إنتاجك وتنمّي ثروتك، تفرح إذا رجع من خرج من بيتك وتحمد الله على سلامته. ولكني أعرف، كما الناس، أن الأسرة التي روحي مغروس فيها لا تمتلك هذه القناعة، وهذا مصدر خير وشر معاً عليها. وهذه الأسرة التي صرت ركناً لأولادي فيها لا مكان لي أتركُهم وأذهب إليه في آخر عمري."

_ نعم يا ولدي نعم _ خرجت بيكا من أفكارها _ كانت جدتك السيدة الكبرى حكيمة. ربّتنا جميعنا، ودعمت شواي وسيسور ليقفا على أقدامهما. اشترت بدنياها حب الأطفال وتربيتهم في حجرها _

انكسر صوت بيكا وأنهت بصوت مرتاح بعدما رجعت إلى طبيعتها: _ أنا مرتاحة إلى أنك تحب جدتك أكثر مما تحبني ولو أني أنا من ولدتْك. ولكنّ كلَّ حي إلى زوال، مات أبوك وجدُّك، وهما يعيشان من خلالكم، ويتذكرانكم بالخير، وأنتم لا تنسوهما. اصبرْ على فقدان السيدة الكبرى، ونحن لسنا بمنجاة من هذا المصير؛ فلا تُفْنِ نفسك !

_ شكراً لك يا أمي من أجل جدتي _ تنهد خان جري _ أعرف أنها رحلت راضية عنك. لا أكتمك أني لم أصادف في حياتي مَن فهمتْني مثلها وفهمتُها، وأجابتني على همومي إجابات مريحة. كانت أماً لي وأباً وجدة وجداً. لا أقصد أنك كنت غريبة عن همومي وأفكاري ولكنك كنت أبعد، اغفري لي يا أمي. أعرف أنك عشت هذه السنين لا تستطيعين التعبير أمام جدتي عن حبك لي، عن أن روحك وقلبك مغروسان فيّ _ بالنسبة إلي، أقولها لك ثانية، كانت فوق الجميع.

لا أستطيع أن أغفر لنفسي أنها رحلت وأنا أؤجل عودتي يوماً بعد يوم دون أن أودعها وأسمع نداءها.

_ نعم يا ولدي _ قالت بيكا دون أن تُبدي إشفاقها على ابنها _ كانت آخر كلمة للجدة موجهة إليك. صحيح ما يقولون " الميت انتهى أمره، والحي يعيش " دعنا نفكر كيف ستستمر حياة آل سلطان ؟ والجدة تبقى في قلوبنا ونقيس أعمالنا بما كانت تنصحنا به في حياتها. سأصبح سندك الأمومي ولو أني لست في مرتبة الجدة ولا أعرف الكثير من مهمتك السياسية. هل ستبقى معنا لبعض الوقت ؟ كيف تسير أمورك ؟ كنتُ لمحتُ لبدسْ مَت جري إلى أمورك قبل أن يسافروا فاكتفى بالابتسام ولم يقل لي شيئاً. لو لم يكونوا مستعجلين لأقاموا معك مدة وخففوا عنك حزنك. قوِّ قلبك يا ولدي وقل لي ما يشغل بالك. أنت تلاحق أعمالاً على مستوى الدولة. تصلني أخبار من لا تعرف أيعادونك أم لا يعادونك، رغم أني لا أفارق دار الإمارة. إن كنت قادرة على مساعدتك فستنفس عن همومك. أتتذكر الحكاية التي كانت ترويها الجدة الكبرى عن الحماة الشرسة والكنة ؟

_ أتذكّر، وتنهد ثانية.

_ لهذا أقول لا تخزّن همومك في صدرك !

دخلت سيسور إلى الغرفة بالفطور. وحين رفعت الغطاء القماشي الأبيض النظيف عن شاي القالق الكثيف والبرك الساخن عبق الجو برائحة طيبة. ووضعت أمامهما قدحين من خشب البقس. والملاعق والمناديل بجانبهما.

_ أين زبش ؟ _ سألت بيكا مع أنها كانت قررت أين سيأكل _ لا أرى حصته على المائدة.

_ وما حاجتكما إلى هذا المتمرد يا حماتي ؟ _ قالت سيسور، رغم سعادتها بما سمعت، مبدية عدم جواز أن تمدح الأم أولادها._ رشف بضع رشفات من الشاي، وهُرِع إلى ورشة حاج قسي والبَرَكُ في يده.

_ ولماذا لم ترسلي إلى الحداد بضع قطع من البرك ؟ _ سألت آنفةً أن تذكر اسم حاج قسي ولكن بشيء من العتاب.

_ أكان ذلك العنيد يقبل إلا أن أرسل البرك إلى حاج قسي _ قالت سيسور مصرة على ذكر اسم الحداد _ وأضافت مرتاحة رغم اغتيابها ابنها الصغير: حمل الصينية محتجاً على أن ما في الصحن قليل.

_ ولماذا ؟ ألم يبق في دار الإمارة إلا الحداد ؟ _ صرخت بيكا فجأة، ولكنها سرعان ما عادت إلى رشدها فتراجعت وهي تنظر نحو خان جري: _ نعم طبيعي أن يتحلى بطيبة أبيه وشجاعته منذ هذه السن... مهما فعلتَ به _ قالت بصوت أنعم دون أن تعرف إلى مَن تُوجّه الكلام _ لا شيء يمكن تغييره فيه... ولكن لن ندعه يُفلت منا كأبيه... والسائسون ومنظفو روث الخيول الآخرون أأطعمتهم ؟

_ تقصدين قايمت ؟ _ سألت سيسور مرة أخرى عمّن لم يُذكر اسمه _ أأطعِمُهم قبلكم ؟ _ قالت ببراءة في نفسها" ربما كان هذا السلوك منها هو ما كانت تكتمه خلال هذه السنين الطويلة، فظهر في الشهر الذي غابت فيه السيدة الكبرى ما إن تبوأت سدة الإمارة ".وخرجت متعجبة.

_ لا تدع الطعام يبرد يا ولدي، كلْ ! _ قالت وهي تزيح كأس الشاي لخان جري الذي يتعجب مما يسمع دون أن يقول شيئاً.

_ وأنت يا أمي ألن تأكلي ؟ _ قال دون اكتراث، غير أن جوابها لطّف القلب الذي كان يظهر فيه شيء غير سار:

_ متى أكلت أمامي فكأني أكلت أنا أيضاً لأني نسيت الزمن الذي كنت أطعمك فيه.

" أنت لا تستطيعين الإفصاح عما تريدين قوله غير أني أفهم _ قال خان جري في نفسه مستاء من أن أمه تحاول الآن احتلال مكان جدته، وأن هذه الحالة الجديدة تُضاف إلى مشاكل مهمته التي لا ينحل شيء منها _ صحيح ما يقال من أن المصيبة لا تأتي وحدها. لا أعرف إن كانت أمي بطِرت من فرحها بنوالها ما كانت تشتاق إليه. إنها تأنف أن تنطق أسماء الموالي الذين شاخوا في دارنا. وتذم شواي بما تريد تحت ستار امتداحه، وتُتبعه بابنه الصغير. ومن لم تصل إليه حتى الآن هي سيسور. كل مشكلة يمكن أن تحدث في داخل الأسرة أو في دار الإمارة ستتخذ من سيسور مبدأ لها. وهذا ما لن يقبل به شواي ولا الموالي ولا غيرهم، وأنا من لن يقبل البتة. أفهم، أفهم يا أمي أن حِمْل الأسرة عليك منذ أن رحلت جدتنا، ولكن لا تنسي أنك إن بدأت التكبر على القواعد التي أسستنا جدتنا عليها فستتعثر أسرتنا من الخطوة الأولى. أنتِ من ولدتْني وأرتْني حلو الحياة ولو أنك لم تربيني في حضنك وأنت تطعمينني روحك، غير أنك، ولستِ مسؤولة عن هذا، أذقتني كذلك مرّها. يرضيني قولك " سأكون سندك الأمومي ولو لم أكن كالجدة " ولكن أين أجد مثل جدتي حين تتعقد الأمور "

_ يا خان جري، يا ولدي لم تجبني على سؤالي. فاجأتنا سيسور بمائدتها البسيطة... أستبقى هنا لبعض الوقت ؟ كيف تجري أمورك _ كررت بيكا أسئلتها.

_ سأبقى بضعة أيام ريثما يعود رفاقي من القبرتاي. يأتي إلى تعزيتي من سمع بعودتي. ولكن عليّ أن أذهب غداً إلى إيكاترينودار.

ـ بديهي أن تذهب إن كنت مشغولاً. حين جاءنا الأتامان زافادوفسكا لتعزيتنا سأل كثيراً عن أخبارك.والذين كانوا مهتمين بها هم الضباط الروس الثلاثة الذين أرسلهم الجنرال فيليامين مع مغرقوه للتعزية.

ـ وما هَمُّ مَن لا حياء في وجوههم، الذين نقضوا السلام مع الأديغة ؟ ـ انتفض خان جري حين سمع اسم فيليامينوف مع أنه كان يكظم شعوره أمام أمه.

ـ يا خان جري، كفاكم محاولة مع هؤلاء الشابسغ والأبزاخ الذين لا يسمعون الكلمة. ولا تقحموا القبرتاي والبسلني في موضوعنا. دعوهم في ركنهم معزولين مرتاحين.

ـ يا أمي ! رفع فجأة وجهه الممتقَع.

ـ لماذا يا خان جري يا ولدي ؟ ـ نظرت بيكا في وجه ابنها دون أن تظهر عليها علائم ألم في صوتها ونظرتها ـ تنظر إليّ بوجه شاحب ؟ أ لأنك تعدّني قلت ما لا يجوز ؟ لا يا ولدي، لا تأخذ عني مثل هذا الانطباع. ما أزال في عقلي. ولكن أخاف أن يكون بانتظارنا ما يسلبوننا به عقولنا. إن كنا نحن البجدوغ صالحْنا القوزاقَ فما الذي لا يعجب الشابسغ والناتخواي؟ ولماذا خرجوا عن الحد ؟ حين تَضطرون هؤلاء إلى الرضوخ فالقبائل الأديغية الصغيرة سترفع راية الاستسلام.

ـ أأساء إليك أحد يا أمنا ؟ ـ سأل خان جري أمه بلطف ولكن بحزم أيضاً.

ـ لا، لماذا تسأل ؟

ـ لأن نانا لم تكن تطرح مثل هذه الآراء ـ نهض خان جري بهدوء محترماً نفسه وأمه.

ـ ماذا يا ولدي ؟ ـ سألت بيكا وهي تعود إلى وعيها الآن ـ أفهمت من حديثي أني أتكلم بسوء على جدتك السيدة الكبرى ؟

ـ لا يا أمنا. أنا كان بودي أن أؤسس السلام في بيتي وفي كل إقليم الأديغة. سامحيني، أريد أن أتنزه قليلاً.

حين بقيت بيكا وحدها في الغرفة نهضت فجأة. وحين نظرت إلى النافذة المطلة على الفناء الخلفي رأت ثانية خان جري بجانب القبر الذي جف هذا الصباح ترابه. غمغمت كاظمةً غيظَها كما لم تفعل أول مرة " إن لم تربّي ابنك الذي ولدتِه ولم يتيحوا لك أن تلاطفيه بالكلام فسيكون هذا سلوكه معك... إنه لا يساويني بالعجوز التي لم تلد قطُّ ولم تذق حلاوة الأمومة، والتي قضيت عمري تحت نيرها؛ فمن منا مات ومن يحيا ؟ "

***

في اليوم التالي، وكما قال خان جري لأمه، طلب منهم إيصاله إلى إيكاترينودار. لم يكن يريد أن يقابل أي إنسان، سواء أكان من أصدقائه أم لم يكن. كان يفتح بأصابع مرتجفة ما سُلِّم إليه من رسائل تاتيانا التي لم تفارق القلب منذ الساعة التي غادر فيها بطرسبورج إلى هذه الدقيقة التي يقضيها في مركز البريد.

VI

هناك أناس يحترقون غيظاً في سرهم إن لم يتحقق لهم ما يريدون. يشفون غليلهم في معارفهم وفي البعيدين عنهم وهم يعرفون في أنفسهم هذا السلوك أو لا يعرفون.ثم يبدؤون في البحث عن ذرائع، وهم يشرحون صدورهم بتبرئة أنفسهم مما لم يستطيعوا إنجازه. وكما يقال: "المغلوب لا يكتفي من اللعب، ومن يُغرقونه في الماء ينتشل نفسه، ومن يصرعونه يرفع نفسه نكاية بالأعداء ". ولكن هناك من يصرعونه فلا ينهض، ومن يَرْقُونه فلا يفيق. وهناك من لا يبالي مهما ترجيته،ومن على آذانهم غشاوة فلا يسمعون.و ليس قليلاً ما يجري للإنسان في طريق الحياة من أفراح ومآس منذ الصرخة الأولى التي يستهل بها حياته إلى الحشرجة الأخيرة فيها.

ليس خان جري أيقونة. كان ابنَ عصره فقد اكتسب من عالمه الذي ولد فيه رحمتَه وظلمه، ونورَه وظلمته، وبراءتَه وذنبه، ودفئَه وبرودته، وفطنتَه وغباءه. ومهما فعلت به وغيّرت لسانه،ومهما بدلت تفكيره، حتى لو كان يعيش من ورائهما، فلن تستطيع حمله على أن ينسى أصلَه الذي ولد معه، وصوتَ العِرق الخفي الذي يهمس في داخله.وهو، حتى لو حاول أن ينتشل نفسه من الصدق، لن يستطيع مادام روحه حياً، ومادامت ذكريات طفولته تعيش حتى في أنفاسه الأخيرة.

خلافاً للسنين الأخيرة التي ابتعد فيها عن الأديغة بقلبه وأرضه وأمنياته ونواياه، ففي الأشهر الثلاثة التي زار فيها ناحيته أصبح يفكر،واعياً ما يفعل، في ما لم يكن يقبل أن يفكر فيه سابقاً، وفي جمال الأرض التي اختارها من العالم. ويلوم نفسه ويدينها. وفي سره كان يسرد على قيصره الذي يخلص له ما كانت تمارسه الجيوش والجنرالات ولاسيما فيلياماينوف من فظائع. ويتأمل منه أن ينتقم في الخريف من المذنب.

الرسائل التي بعثتها إليه تاتيانا، والتي تفطر كل واحدة منها القلب أكثر من غيرها، والتي تزخر بكلمات الحب التي لا تستطيع أن تكتم شوقها إليه، شحنت صدر خان جري راحة ولهفة. ومع أنه كان قد استسلم شيئاً فشيئاً إلى واقع فقدان جدته فإنه لم يكن ينسى يوماً أنه بقي بلا ملجأ أو محدِّث يحمل إليه بالإضافة إلى حبه الصامت أفكارَه ووساوسه. ويعتقد أنه لم يبق له أقربُ من تاتيانا. جابهت بنفسي الوضع الذي كانت تقول فيه نانا " إذا انكسرت دعامة البيت هوى السقف ". تنهد خان جري بتأثير حزنه. أنت يا نانا من كانت تقول " ليس هناك من لا يموت " ولكنك لم تنتظريني ريثما أعود من القبرتاي. وقيصر روسيا العظيم سيزورنا في غضون شهر تقريباً. وباستثناء القبرتاي والبسلني ــ وهؤلاء لا أثق بهم تماماً ــ لم يؤمِّلني أحد ممن حادثتهم في ناحيتنا. حين تبحث عن ذنْب فستصطدم بالكثير، ولكن كل شيء يعود في النهاية إلى خبث فيلياماينوف. اتّهمَ الأديغةَ بالخبث الذي يمارسه هو. والأديغة ليسوا براء من كل ذنب. لا ينفكون يرددون، في المقام المناسب وغير المناسب، عبارة: " أجْلوا جيشكم إلى ما وراء نهر بشزة ! ". أفهم أن ما حدث للأديغة يشحن قلوبهم غيظاً ,ووقعت عليهم المأساة، ولكن ما الذي يجعل فيلياماينوف متلهفاً إلى العودة إلى السلاح ؟ ربما لأنه لن يستطيع مقابلة القيصر في زيارته بإنجاز. وأنت يا تانيا لا تصدقي الخبر الذي يتناقلونه في بطرسبورج: " في هذا الخريف مع قدوم القيصر إلى القفقاس

ستنتهي الحرب في إقليم الأديغة ". كما يقال " إن مبعث الحرب، مصدر الشر، هو بيضة وحيدة " فإن بدءها سهل غير أن إنهاءها يكلف الكثير من الدموع.ثم يا تانيا، اغفري لي، كنت وعدتك أن أعود في غضون شهر تقريباً بَيْدَ أن الأمور هنا غيرُ ما توقعت. ولكن، بما أنك تسألين، عن إحدى حِكَم جدتي _ أنت لا تعرفين إلى الآن أني فقدتها _ فسأريحك: " ليس كل من يذهب إلى حفلة الرقص يرقص، وليس كل من يذهب إلى الحرب يُقتل " شكراً يا تانيوشا على عدم نسيانك لي. ليست أمور منطقتنا جيدة من ناحية الحرب والحرب المضادة. ولا تشمتي بألدّ أعدائي إن كلفوه بما كلفوني به.

كان بود خان جري ألا يخبر تانيا بوفاة جدته ولكنه حين راجع ما كتب وجد أن حزنه ظاهر في الرسالة مهما اختار لها من الكلمات. وحين أمسك بها ليمزقها أعادها والكلمات التي يوجهها لمن يحبُّ تحرق أصابعه، والصوت الناعم الصادر من صدره يلومه. غير أنه أمسك القلم بسرعة وأضاف أسفل الرسالة: " تاتيانا اغفري لي، على ما يبدو الآن، ولو أنك في مكان بعيد، لا أظن أنه بقي لي في الدنيا إنسان غيرُك يفهمني. لا أستطيع أن أخفي عنك حزني العظيم فقد رحلت جدتي... مضى على وفاتها أكثر من شهر. وأشدُّ ما يحزنني هو أني لم أحضر لحظة وفاتها. تعرفين ماذا كانت جدتي لي إذ كثيراً ما حدثتك عنها. تهاوت أعمدة سمائي يا تانيا. ليتكِ كنتِ إلى جانبي اليوم... ولكن كما كانت جدتي تقول:" الميت يبكونه، والحيُّ يعيش " سنعيش بعون الله. وستكون قضايانا فوق كل شيء. الوداع "

_ أريد أن أسألك إن لم أقطع أفكارك _ صاح زبش من الباب قبل أن يتاح لخان جري مراجعة ما أضافه إلى الرسالة.

_ وماذا أيضاً يا زبش ؟ _ سأل خان جري بفتور.

_ من هم الجيغيت ؟

_ هم فرع من الوبيخ _ الأديغة.

_ هكذا إذن !

_ هؤلاء ضحك عليهم صاحبك فيليامينوف الأبرص.

_ وكيف ؟

_ وكيف لي أن أعرف ؟ حاج قسي هو من يعرف؛ أأستدعيه ؟ لمعت عينا زبش السوداوان الصغيرتان الماكرتان مُضفيتين على شخصه طابع الرجولة.

_ لا، أنا سأمر بعد قليل على الورشة.

حين قرأ خان جري الرسالة ثانية أحس في نفسه براحة افتقدها في الأيام القليلة الفائتة، ربما لأن ما باح به إليها شرح صدره. لم يكن يريد أن يفكر في غيرها ولكن المهمات التي تنتظره تحتاج إلى التفكير. لم يكن يجهل منذ اليوم الأول أن المهمة التي تنتظره صعبة، غير أنه حين اصطدم بالواقع فهم أن مهمته مستحيلة مهما كانت فطنته ومهما سَلِمت نواياه،فالمتجابهون يتصايحون بحيث لا يفهم أحدهم الآخر، بل لا

يسمعه. وأضيفت إليها الحربُ الاستباقية لفيليامينوف. والسفن الروسية منتشرة على طول ساحل الوبيخ، ولا يدَعون ناحية الأبزاخ تنعم بالراحة.

" ماذا حدث ؟ " صرخت وساوس مختلفة الآن من بين أفكار خان جري ــ في شهر قدوم القيصر لماذا يتلهف الناس إلى الحرب بدلاً من السلام، في الوقت الذي نجري في كل مكان من إقليم الأديغة ناصحين وموصين بالصبر رغم أنهم يقتّلونهم. من الممكن أن شيئاً لا نعرفه دخل في الموضوع. أيكون ما يبلّغونه لفيليامينوف غيرَ ما يبلغونه إليّ ؟ ! لماذا لم يجيبوا إلى الآن على ما كتبت لفيليامينوف وشيرنشيف، بل إلى القيصر نفسه، بشأن كيفية تحقيق استقرار الأديغة في أرضهم ؟ أعرف أن فيليامينوف لم يعجبه ما كتبت، ولكنه ليس هو من يدير شؤون البلاد، ففوقه وفوق شيرنشيف وزيرِ الدفاع يقف القيصر. أتأمل منه أن يفهمني ويجد مخرجاً من الأزمة التي وقع فيها الأديغة "

أمسك خان جري بالرسالة التي كان يفكر فيها وقلّب الصفحات التي تتضمن مقدمة مختصرة وأربعة وخمسين فصلاً. أعاد قراءة بعض الفصول مدققاً النظر فيها، وسأل نفسه " ما الخطأ في هذه الأفكار؟ إن كنا نريد أن يسالمنا الأديغة ويعايشونا فعلينا أن نخاطبهم خطاباً واحداً من اللسان والقلب. حين تكون في وضع المجابهة يجب، بلا جدال، أن يتنازل أحد الطرفين عن شيء ما. لم أكن أريد أن أقول هذا، وهو أنه لا يمكن بالقوة إجبار الأديغة على التخلي عن حريتهم التي عاشوا عمرهم لأجلها، غير أن فيليامينوف يجبرني على قوله. كل شعب، وإن لم يعجب الآخرين، له نظام علاقات اختاره بنفسه ويعيش به ويعمل وفقه. لا يمكن لزعماء روسيا أو تركيا أو أي دولة أخرى بتْرُ حياتهم الطبيعية بعبارة " أعطَونا الأديغة "! بل من العيب أن تنسيهم إياها. لا مشكلة في تولية أحدهم زعيماً عليهم، ومثل هذا الزعيم لا يجوز أن يكون بعيداً عن روسيا. وإن فهمَنا كما يفهم قومه فلن يحدث سوء تفاهم بين الطرفين ــ ثم لا أطلب أن يتمتع هذا الكيان بالاستقلال التام. فليكن مرتبطاً بحاكم القفقاس في كل ما يتعلق بالإقليم إن لم يكن ببطرسبورج مباشرة. غير أنه سيكون من الصعب التفاهم في دولة تفتقر إلى العدالة.إن من الصعب أن تبحث في روسيا عن مخلصين للقيصر بين الأديغة "

ــ يا زبش، ابتعدْ عن النافذة، لا تزعج خان جري ــ حين نادت سيسور الصبيَ الواقف على العتبة خرج خان جري من تفكيره وقال لمن يسند جبينه إلى الزجاج:

ــ نسيت، الآن، حالاً !

سأل الصبيُّ الذي كان ينتظره على المصطبة:

ــ ما الذي كنتَ غارقاً في التفكير فيه ؟ لم تنتبه إليّ حتى نادتني سيسور.

ــ أقليلٌ ما يمكن التفكير فيه ؟ ابتسم خان جري.

ـ لو كان حاج قسي يفكر إلى هذا الحد ـ غمغم زبش ـ لبرَد حديدُه المحمّى ـ ثم قال وهو يقف على يسار خان جري: ـ أتعرف ماذا كانت تقول الجدة عن العمل الذي لا تقوم به بسرعة وحماسة: يفقد لذته.

ـ هكذا ؟ ـ سأل خان جري مسروراً بذكر جدته ـ إن كان كلامها موجهاً إليّ فقد جعلتُك تنتظرني أكثر مما ينبغي، أعرف أني مخطئ، أنت لم تقصّر في شيء.

ـ كما يقول حاج قسي: الخبر غير جيد ولذا يقلقني ـ أبرز زبش ما يزعجه على طريقة الرجال ومع شيء من اللوم ـ إن كنت لا تعرف تصرفات القوزاق السيئة فلماذا أرسلك القيصر ؟ يا حاج قسي احكِ له أخبار الجيغيت من (حاكوف).

ـ ما أعنفك اليوم يا زبش ! ـ ابتسم خان جري.

ـ لماذا في رأيك قالوا: " أوامر الأطفال أقوى من أوامر السلطان " يا حاج قسي ـ وافق خان جري زبش.

ـ والله صحيح يا محترم. ـ شهد حاج قسي بكلام مأثور على ما ألزموه به " لا تحك خبراً في حضور طفل ". ولكن ما علاقة زبش بالأطفال ؟ بالقياس إلى أترابه صار رجلاً. ـ ثم أصلح موقفه بسرعة: ـ قبل أيام حين ذهبنا إلى (ديشابه) لتشييع جثمان جامبولات، خال قرم جري، سمعت هذا الخبر ولا أعرف مدى صحته: حين أخضعوا إحدى القرى بالسلاح طلبوا منهم أن يحلفوا على وثيقة صلح، وحين لم يجدوا نسخة من القرآن جعلوهم يُقسمون بأيديهم على كتاب للكفار. هذا ما يُقلق زبش فيطلب مني إعادة روايته[1] ... ليس ما أرويه عجيباً إلى جانب إرسال رؤوس الأديغة إلى بطرسبورج ـ أنهى حاج قسي خبره بتنهيدة قصيرة.

ـ أسمعت يا خان جري ؟ قال زبش بإدانة واضحة من صوته.

ـ يا زبش ! ـ لم يقبل حاج قسي ـ اذهب والعب !

---

[1] "كان يجب تعليم رجالنا الراشدين... كيفية إجراء العهود يكتب ج. س. فيليبسون: في هذه اللحظة ظهرت مشكلة كبيرة وهي عدم توفر نسخة من القرآن يُقسم عليها الجيغيت المسلمون. ثبت أن أحد الضباط عنده نسخةٌ من مجموعة قصص ساخرة لكيريلوف، شبيهةٌ بنسخة القرآن المخطوط التي كان يحملها الشيخ، في وساختها وحجمها. كان كتاب كيريلوف في محفظة جلدية خضراء لها عِلاقة من القماش من اللون نفسه، وإلى عصا معقوفة. كان الجيغيت يأتون واحداً واحداً إلى هذا القرآن المزيف ويقسمون. وكان يدير العملية كلها العجوز الكسيح الممسك بالعصا. وحين يقتنع العجوز بصحة القسم يقول للرجل: صحيح، كفى !

لم تكن معرفتنا بأنسابهم آخر ممسك لنا عليهم. كان معي هدايا لكل أسرة من هذا الفرع، وكان عدد من مُنحوا هدايا يزيد على المئة. كان يجب أن ترى كيف كان هؤلاء المتمردون ينظرون إلى الهدايا من الذهب والفضة والحرير والجلد. لم يكن شخص واحد فقط بينهم من يفكر في ذبحنا والاستيلاء على أملاكنا. كنت أنطق بأسماء الأسر التي ستمنح الهدايا بصوت عالٍ، وكلما نطقت اسماً من تلك القبيلة المتمردة استغربوا كيف أعرفهم جميعهم وأنا الذي لم يرهم في حياته.

ـ هذه هي النتيجة ! ـ قال زبش براحة أكبر وقد بدا أنه تشفّى بأحدهم. وأنهى حديثه بكلام مُرٍّ لم ينتظره الرجلان: ـ سألعب وسآتيكما برأس قوزاقي !

ـ ارجعْ يا زبش ! ـ صاح خان جري وراء الصبي ـ لا تقل مثل هذا ! لا تنس قولهم:" المزاح ينتهي بجدع أنف "

ـ إن كان هذا رأيك يا خان جري فسأطيعك اليوم وأتسلى بحلقات عادل جري الحديدية.

ـ ألا تسمع ما يقول هذا الذي ما يزال طفلاً ؟ ! ـ صاح وراءه ثانية.

ـ حين غاب عادل جري وصحبه عن الدار صرنا نمزح معه ونبدي تعجبنا من سلوكه، فتحول ولداً عاقاً كما ترى.

ـ عادل جري لم يكن في طفولته أحسن منه. ظل يضحك على جدتنا قائلاً لها: أنا ذاهب إلى نهر بشزة لقتال القوزاق فتنهره. والآن يخدم في جيش القوزاق. لم يتوقف نهر بشزة عن الجريان رغم أن الدنيا تغيرت في كثير من نواحيها منذ طفولتنا. ومع أن عالم الأديغة ليس في مكان واحد فمنذ وعيتُ لم يخفّ حملهم.إن صحّ ما رويتَ فلماذا نتعجب من كلام زبش ؟ إنه مدعاة للسخرية وللبكاء معاً. ليس المدانون من فعلوا هذا وحدهم بل من فُعل بهم أيضاً. نتباهى في المواقف غير المناسبة وندَعُهم يخدعوننا حيث لا يجب. نستميت من أجل أرضنا فنفني أنفسنا من أجل الرجولة. وندمر حياتنا من أجل الحرية التي يجب أن نلجمها.

ـ على ما يبدو، لا تؤاخذني يا محترم ـ لم يملك حاج قسي إلا أن يسأل: ـ أنت تسوّغ أن نركع أمام كل من يهاجم أرضك وقريتك وأسرتك وحريتك الأزلية؛ أتعد هذا الركوع رجولة ؟ !

ـ ليس إلى هذا الحد ! ـ انكسر صوت خان جري رغماً عنه، ولكنه رجع إلى حاله: ـ هناك أفكار ووسائل كثيرة تحافظ بها على كيان قومك. تركيا وإيران ليستا دولتين صغيرتين ولا تفتقران إلى الرجال والسلاح ومع ذلك رضختا للقيصر الروسي.

ـ وجدوا وسيلة للتفاهم بسرعة لأنهم أعادوا إليهم ما سلبوهم.

ـ ماذا قلت ؟ ماذا قلت ؟ ـ سأل خان جري في غير غضب.

ـ إن لم تؤاخذني يا محترم فسأقول لك رأيي في هذه المسألة: بما أننا ندين بدينين مختلفين نحن ومن احتل أرضنا فلن نتفق ولن ننسجم. ألا تسمع ما يتهمنا به القوزاق ؟ يسموننا بالمسلمين الكفار ونحن نسميهم بالكفار. ومع أن تركيا الشريرة كانت تعرف أننا لن نتفق فقد منحتْنا لهم على ما أعتقد. لا أظنك يا محترم تسمع ما أقوله للمرة الأولى.

ـ لم تخطئ يا حاج قسي ! ـ بقيت أقول " شواي الأكبر ثم أتعجب من زبش الصغير ,وهذه أول مرة أسمع من موالينا في هذه الدار رأياً كهذا !"

_ إن أسأت إليك فسامحني يا محترم... لستُ وحدي، كل البجدوغ يفكرون بهذه الطريقة وإن لم يستطيعوا الإفصاح.

_ ولماذا أؤاخذك إن صارحتني بما يُهمك ؟ سنرى ما يحدث، لا شيء غير الموت لا حل له ! _ أعاد خان جري قطعة الفحم التي لوثت أصابعه إلى النار، وخرج من الورشة.

***

مع أن خان جري كان يحمّل فيليامينوف مسؤولية إخفاقه في مهمته فقد بدأ الوقت الذي يهرب منه يوماً بيوم يُفهمه أن المسألة أبعدُ من فيليامينوف، وأنها تأتي من بطرسبورج، وأن الأديغة الذين يُضمر لهم الخير، لهم أخطاؤهم.

أعجبُ شيءٍ، قال خان جري لنفسه وهو يتمشى على شاطئ البحر، أن الطرفين المتجابهين لا يرفضان رفضاً قاطعاً، ولكن دوي المدافع وصليل السيوف يمنعانك من سماع كلمة السلام التي على شفاههم؛ أهذا نفاق أم تجاوز للحدود ؟ أم الاثنان معاً ؟ لم أكن أصدق جدتي حين تقول إنّ الخير يحتوي على الشر فهما متجاوران. لا مَفَرَّ،على ما يبدو، من التعقيدات الخفية للحياة، يجب أن تتعثر بها، ليس مرة أو اثنتين، لتحس بها، ويجب أن يُكسَر أنفك وتمتلئ بالرعب. وأنا ماذا؟ رغم أني ساهمت في الحروب، ورغم أني جرحت... فإني نشأت مدللاً منذ طفولتي وكل مطالبي مستجابة. ثم اختارني الكونت بنكندورف إلى أن قدمني للقيصر وجعله يثق بي، وإلى حين أوفدوني إلى قومي، سارت حياتي في طريق مستقيم...والآن ماذا حدث لي ؟ مهلاً ! إذن بمعرفةٍ ممن أرسلوني، ومعرفةٍ مني لنفسي، أظنني أخسر نفسي من أجل الأديغة الذين أنا منهم. كل إنسان، صدق من قالوا، بغضّ النظر عن أصله، لا حدود لحِيَلِه وظلمه لتحقيق هدفه. إن كنت تستطيع مجابهة العدو، فكما تتقاذف هذه الأمواج الحصى، تَشَفَّ منه إن انتصرت عليه، واسحقه تحت قدميك وشتّت شمله.

صحا خان جري من أفكاره وقد خيل إليه أن أحداً ناداه لحظة استقرت شمس الخريف الحمراء الكبيرة فوق خليج غيلينجيك. وفي هذه اللحظة شخصت أمام عينيه لحظات تأمله هو وجدته غروب الشمس. وتذكر أن قانتات الجدة كانت تقول: " شمس الأديغة تغيب وراء جبال الأديغة " فعصر الألم قلبه.

ما في تلك الناحية هو تركيا ولم تبق البتّة جبالٌ للأديغة. _ استمر خان جري في نزهته مضيفاً هماً آخر إلى همومه الثقيلة. لا، لن أدع لهذه الفكرة أن تدخل رأسي.إن أنا عاديت فيليامينوف فلن أستطيع الانتصار عليه ولن يجلب لي إلا الضرر. لماذا، وأنا ضابط روسي، وأعرف أنه بلا فائدة، أجعله ينظر إليّ على أني أجامل الأديغة، وهو لا يثق بي منذ البداية رغم كوني موفد القيصر، ولم يسأل طوال ثلاثة أيام عن مجرى أعمالنا. أنا وفريفسك وتغانه _ مغرقوه جانباً _ يعدّنا ضباطه.مرة واحدة فقط قال متظاهراً بعدم المبالاة " أنا مطلع على أعمالكم ". إن كان يتوقع مني أن ألمح له بأنه نقض السلام فليرتحْ ! فريثما يصل القيصر العظيم الذي سأضع أمامه المسألة صراحة إلى غيلينجيك لن ألمح له إليه، دعكَ من ذكره !

ـ يا محترم أنت ابتعدت كثيراً !

لفت الصوت الذي سمعه من ورائه خان جري.

ـ ماذا يا مغرقوه ؟ أتخاف أن أعود إلى قومي الذين أنا منهم ؟

ـ من تسميهم " قومك " لا يتورعون عن شيء.

ـ ارتحْ أيها الروتميستر فهم لا يحتاجوننا، لا أنت ولا أنا.

***

استدعى فيلياماينوف خان جري بعد العشاء، وقال دون مقدمات:

ـ استدعيتك أيها العقيد.

صحح خان جري بسرعة مُفهماً إياه أنه تجنّب عمداً لقباً أعلى له:

ـ ممثل القيصر.

ـ نعم، نعم يا مرافق القيصر العظيم. لم أتجنب اللقب عن سوء نية. ـ أصلح فيلياماينوف موقفه مبتسماً في سره ـ سبب استدعائي لك هو ضرورة اجتماعك بزعماء قومك ثانية.

ـ ولأي سبب يا سموكم ؟

ـ نحتاج في الشهر الذي سيزورنا فيه القيصر ولو إلى بضعة أيام من السلام في نواحي ساحل غيلينجيك. لن نترجاهم بل سنؤكد عليهم. سنفتح لهم أبوابنا إن جاؤوا إليه طالبين السلام. ولكن إن لم يقبلوا فأنت ترى بعينيك حجم الجيش الروسي الذي حشدناه هنا، وهم يعرفونه. سنزحف عليهم ونبيدهم صغاراً وكباراً. سنحمي كل خطوة يخطوها القيصر. ليفهموا أنهم لن يستطيعوا الاقتراب منه عشرة فراسخ ! طوال هذا الشهر سيحرس مقاتلونا كل شجرة كي لا يسمحوا حتى لذبابة عضوض أن تمر. هذه مهمة أكلفك بها. والآن ما كنت أريد أن أقوله شيء آخر: سمعت أنك اتهمتني بخرق السلام ولذا أذكّرك بأننا لم نأت إلى هنا للنزهة.أنت تعرف، كما أنا، أن الحرب لا تميز بريئاً من مذنب. ولذا فلنتحدّث عن موضوع آخرَ غيرِ المذنب والبريء !

ـ شكراً يا ألكسي ألكسندروفيتش ـ نادى خان جري الجنرال فيلياماينوف باسمه دون أن يُظهر ابتسامه في سرّه ـ على أنك ذكّرتني بالحروب الثلاث التي خضتُها. ولا يزال أمامنا موعد للتمييز بين المذنب والبريء فلن نعيد الحديث فيه. والموضوع الآخر، موضوع زيارة القيصر وحمايته، هو مهمة كبرى ليست لنا فحسبُ بل للأديغة، فهم وإن حاربناهم، يؤجلون أمنياتهم إلى ذلك اليوم، وأنا واثق من أنهم سيتحلَّون بالشهامة. أما المهمة التي كلفتني بها الآن فليست من مهامي الموفد لأجلها إلى القفقاس. ومع ذلك، متفهماً أنه لا يليق بمن طالب بالسلام مرة أن يطالب بها ثانية، وخاصة إن كنت ممن نقضه، ورغم أنك تستطيع تكليف أحد ضباطك الأحدث سناً بها، فلأنك تأمل مني سألبي طلبك كرمى للقيصر العظيم. متى سيأتي قيصرنا العظيم ؟

_ لا أحد غير الله يعرف _ مع أن فيليامينوف يعرف حتى الساعةَ التي سيصل فيها فقد كتمه. ثم، وكأنه أعاد الثقة به، أجابه: لا أظنه سيتجاوز هذا الشهر.

VII

رغم أن اليوم المقرر لوصول القيصر العظيم لم يكن يعرفه إلا بضعة أشخاص فقد كان الجميع باستثناء البحر والأديغة مستعدين له.

قبل يوم من وصول القيصر إلى غيلينجيك في ظهيرة 21 سبتمبر_ أيلول عام 1837 هبت ريح البورن[1]، رغم أن الجو كان دافئاً، من الجبال البعيدة بضع غلوات حصان من جهة الشمال. كانت الريح تلهث وتئن وتصرع من تجد في طريقها وتسحقه، وتُشيع الفوضى في كل مكان من البحر،فيفور الماء فيه وتلعب بالأمواج وترفعها وتهوي بها، ويتردد نداؤها في الوادي، وتطير فوق رؤوس الأشجار. ثم تنقض على سطوح المراكب بقوة أعظم.

مع أن ريح البورن كانت تتوقف فجأة مع المساء كما بدأت فقد ظلت تعصف محطمة كل شيء. ولا تُبدي أي علامة على أنها ستهدأ.ورغم أنها تعصف في ناحية غينيلجيك الضيقة فقد كان الضباط والجنود يؤدون مهامهم العسكرية، يقاومون الريح المجنونة: يتأكدون من متانة الحبال الممسكة بالعقد الكتانية،ويحرسون مستودعات الطعام والذخيرة. وعدد من القوزاق يضمون إليهم أحصنتهم من أعنّتها. وأصوات الضباط تُخضِع الجنود دون اعتبار للخطورة التي هم فيها. ونُثار ما يتحطم في هبات الريح يتطاير في الهواء.

الجنرال فيليامينوف الذي من عادته أن يخلع لباسه العسكري فور عودته إلى البيت يقف في زيه، إلى النافذة المواجهة للبحر، وإلى جانبه مسدسه وسيفه وقامته، وعلى رأسه قبعة قديمة مثبّتة بقوة. كفّ الآن عن القلق على ضباطه الذين أعطاهم تعليماته خلال الساعتين الماضيتين دون انقطاع، ولم يعد معنياً بما يحدث الآن للجيش ولا بما يمكن أن يحدث له. فالجيش مسمَّر بقوة إلى الأرض بل همُّه قيصر روسيا العظيم الذي حبسه الإعصار على البحر.

" من حسن حظنا أن سفينة القيصر لم تصل اليوم. رحِمْتَنا يا ربِّ وفهمت موقفنا _ مع أن فيليامينوف لم يكن متحمساً لارتياد الكنيسة وممارسة الشعائر الدينية فقد دعا إلى الله ورسم إشارة الصليب، ولم يستطع إلا أن يفكر في الإسلام دين الأديغة.حتى في أثناء تلاوته الصلوات المسيحية _ أظن أن إله المسلمين وأنبياءهم يلعنوننا...أيكون اللهُ حمّلني وِزر خان جري لأني لم أكشف له عن موعد وصول القيصر _ ابتسم وهو يلطم شاربيه الكثيفين وأنفه الضخم _ أن تهدّئ قومك المتمردين أفضل من أن تهتم بما ليس ضرورياً. مع أننا استعرضنا سلاحنا وشجاعتنا أمام دول كثيرة في كل الجهات فنحن لا نستطيع أن نأخذ التزاماً ممن لا دولة لهم. هذا الموفَد ذو الرتبة المنفوشة، والذي لا أعرف من أين جاء، معتدّ بنفسه، لا يرى

[1] عاصفة شهيرة في القفقاس. مصادر

نفسه صغيراً. يريد أن يعلّمنا دون أن يرى تعديات قومه، يعدّ كل خطوة نخطوها معتبراً إياها عدواناً. يريد أن يصبح سلطاناً عليهم بشهادتنا نحن... ثم ؟ أظن أنه سيبتر ساقيك إن حققتَ له هدفه. أَفضلُ له أن ينفذ المهمة التي أوكلها إليه القيصر من أن يجمع الحكايات والنوادر[1]... كأن الريح تهدأ... نعم، نعم. إنها تخفف من صفيرها ودويّها وتنهدها. غداً يوم سنرى القيصر في الخليج. يا ربي العزيز اِفهَمْنا فأرِنا بقلوبنا وجه خريفك اللطيف، واجعل مَقْدَمَ ضيفنا خيراً علينا ! " ثم رسم إشارة الصليب ثلاث مرات.

كان الجو مقبولاً في اليوم التالي 22 أيلول سبتمبر بالقياس إلى اليوم السابق رغم أن الريح لم تهدأ تماماً. بذل الجيش كل جهده لإصلاح ما خربته ريح البورن في خليج غيلينجيك ــ كل الذين نجوا من الطبيعة الشريرة من ضباط وجنود، ممن كُشف لهم عن تاريخ وصول القيصر، لم يكونوا يرفعون عيونهم عن البحر الذي لم يهدأ بعدُ. ولكن سفينة القيصر لم تظهر لا صباحاً ولا ظهراً. وبعد الظهر حين بدأت الريح التي تقلقهم تشتدّ لاحت سفينتا القيصر[2]. رسم رفاق خان جري غير المسلمين إشارة الصليب علامةَ ارتياحٍ.

---

[1] إشارة إلى مهمة شخصية كان يقوم بها خان جري خارج مهمته الرسمية. المترجم

[2] يكتب فيليبسون " بعد الظهر يوم 22 أيلول رأينا السفينتين اللتين أقلّتا القيصر نيقولاي الأول وحاشيته. وصل القيصر بصعوبة بالغة إلى ضفة غيلينجيك وكان معه ابنه الذي سيكون ولي عهده الأمير الكبير ألكسندر، والكونت أورلوف، والأمير مينشكوف وآخرون كثيرون. وبسبب أن النار اشتعلت في مستودع البارود القريب من مقصورة القيصر لم تكن ليلتهم بهيجة إذ كان خطر انفجار البارود ماثلاً في كل لحظة. وقد أقنعوا القيصر فصار عليه أن يخرج في موعد أبكر مما كان متوقعاً من القلعة ويتجه إلى المعسكر.

ألحّ فيليامينوف أن يتجهز الضباط والجنود بالسلاح واللباس على الوجه الأمثل... وكُلِّفت أربع فرق من مشاة قوزاق البحر الأسود بالحماية. تراصَّ الجنود في نسق واحد ووجوههم نحو الريح. حين وصل القيصر حمل الهواء قبعات أكثر الجنود. صاح الجميع: " هورا " فكانت الريح تملأ أفواههم المفتوحة بالغبار والرمل والحصى الناعم.

فهِم القيصرُ أنه لن يستطيع استعراض الجنود راكباً فترجّل،وفعلنا نحن مثله. ولم تتح الفرصة للجيش للاستعراض. كان الهواء قد مزق الأكواخ التي كانت في المخيَّم الذي دخلوا إليه باستثناء كوخ فيليامينوف وغرفتين صغيرتين لتناول شاي القالمق. وحين دخل القيصر إلى الكوخ وشرب الشاي أمر بجمع الجنود. كان يود توجيه كلمة طيبة إلى الجنود الذين يرونه لأول مرة والذين يأتون من كل الجهات ويسرعون إلى الأماكن المحددة لهم. بعضهم يلبس الزي العسكري، والآخرون معطفاً رسمياً أو كساء ما،وبعضهم لا يلبس هذا ولا ذاك. اقترب الجنود من الباب الذي يقف فيه القيصر وولي العهد، وكان وسط الباب عدد من الضباط، وكنت أنا على مسافة خطوتين من القيصر وإلى جانبي الميجر جنرال لينغين. كان من المفروض أن يكون القيصر قرأ الكتاب الذي جهزناه نحن. سأل القيصرُ لينغينَ: أين مستنقعات أَشَووف كوَفِج ؟ لم يكن العجوز لينغين سمع بالاسم فقلت له على عجل: إنها نحو سفح الجبل الشمالي. كان الناس يزيدون غير أن الريح العنيفة تمنعك من الكلام. سأل القيصر وهو تحت الشجرة: أين "زابوغا كونون(كم) " الذي كان الضابط الأصغر لفوج القبرتاي، كنا نوّهنا به لاجتراحه بطولة منذ زمن ليس بالبعيد. صدر صوت قوي من فوق رأس القيصر جواباً لسؤاله: " أنا هنا يا سموّ الإمبراطور " أمره القيصر بالنزول من الشجرة. وحين قفز قبّل القيصر رأسه وقال له: " أوصلْ هذه القبلة إلى أصدقائك لحُسن خدمتهم مع ثنائي عليهم " فانقض زابوغا على قدم القيصر فقبلها.

وأصمّت صيحة النصر " هورا " التي ارتفعت عدة مرات خليج غيلينجيك. وجاوبتها السفن التي سمعت هذا الصوت والتي تدخل فزِعة من الريح.

حين حاذت السفينة التي فيها القيصر وسفينة المؤن الشاطئ مسرعتين عجّلتا بالابتعاد إلى عرض البحر.

_ أليست أرض الأديغة صديقة لكم كما نحن أيها الجنرال ؟ إن كنتم أنتم تحاربون الأديغة فما ذنبنا نحن ؟

_ ابتسم القيصر مع شيء من المزاح المبطن ودون حقد. سأل القيصر فيليامينوف. وحين رأى المرافق بين المستقبلين لم يُظهر على نفسه عدم رضائه عنه: _ هذا أنت يا خان جري ؟ _ أمسك بذراعه وصحبه إلى فيليامينوف الواقف إلى يساره ملقياً في قلبه بعضَ الرعب. أنا مرتاح للقائنا في أرضك الأديغية. وسيريحنا أكثر أن ينسى زعماؤكم الحرب ويصالحونا، ويصبحوا من رعايانا. نحن لن نسلب الأديغة الجبليين لغتهم ولا دينهم ولا عاداتهم. بل سنجعلهم يقتدون بالأقوام المتطورة مثلنا في تربيتهم وثقافتهم. انظروا ما أجمل طبيعة بلاد الأديغة المتمردين ! ما أغناها بالغابات الجبلية والبحار ! ثم ننسى ما أمام أعيننا ونشتاق إلى نيسّا وشفيساريا والألب وإيطاليا ! أليس صحيحاً يا ألكسندر ألكسندروفيتش ؟

_ نعم يا قيصر روسيا العظمى ! _ وافقه فيليامينوف _ نحن نعيش هنا بفضل أفكارك الذكية المنيرة. وراء هذه الجبالِ المتراصةِ آلافُ الفراسخ من الأراضي الخصبة.

_ متّع ناظريك يا وريثي _ أكمل وهو يكلّم ابنه ولي العهد. هذه الأرض أعطانا إياها الله ورآنا أهلاً لها. وموفدي شاهدي على هذا.نحن لم نأت إلى هنا للحرب والنهب. نصالح من يصالحنا ونعادي من يعادينا. من أجل مجابهة تركيا عدوتنا الأزلية نحتاج إلى هذه الجبال وهذه الأرض. ودونها لن نستطيع كبح جماح أعدائنا المسلمين. أين جماعتك الأديغة يا خان جري ؟ أهم هؤلاء المتجمعون على رؤوس التلال ؟

_ لا يا قيصر روسيا العظيم ! _ أجاب فيليامينوف بدلاً من خان جري _ هؤلاء هم القوزاق الذين يحمون حدود بلادك.

_ أين هم الأديغة الذين من أجلهم قطعت كل تلك الأرض والبحر ؟ _ توقف القيصر وصوته يكتسي مزيداً من الحزم ؟

_ وراء القوزاق يا إمبراطور روسيا العظمى _ نظر فيليامينوف نحو خان جري _ هؤلاء الواقفون على ذاك المرتفع الحادّ لابسين قبعات شعثاء.

_ متى ستجمعونني بموفدي الأديغة ؟

_ اتفقنا الليلة مع الجمكوي أن يصلوا غداً قبل الثانية عشرة _ قال فيليامينوف ثانية.

كان الأديغة على رؤوس التلال المجاورة. وكانوا ينظرون مدهوشين مما لم يروا له مثيلاً. كان عليهم أن يخافوا من معسكرنا ولكن يجب إنصافهم: لم يضايقونا طوال مدة إقامة القيصر. ومع أنهم واثقون من أن المحادثات لن تأتي بنتيجة مهمة، وأن موفديهم سيعودون بهدايا قيّمة، فلم يرسل زعماء الأعراق أي نوع من الموفدين...

بدأت الرياح تهدأ في المساء. وقضى القيصر ليلته في السفينة. وفي الصباح عرّج على بوتي، ثم ذهب إلى تفليس "

_ حددتَ لهم موعداً مناسباً جداً، وإلى حينه سألتقي بالجيش وأرحب بمقاتليّ الأبطال _ قال القيصر ثم راجع عقلَه وسأل: _ ألا يلتزم الأديغة بوعودهم ؟

_ لم يبدر منهم مثلُ هذا يا قيصر روسيا العظيم _ استعجل الآن خان جري، ثم أضاف: _ ربما يقصد قائد الجيش ألكسي ألكسندروفيتش أن الأديغة لا يتفقون أحياناً.

_ إن كان بين الأديغة عدم اتفاق _ ابتسم القيصر والرضا بادٍ عليه _ فهو أمر جيد لنا. إن كان فيهم مثلُ هذا العيب كما يقول الكونت بنكندورف ألكسندر كريستوروفيتش فهيجوهم. وكلما أثرتم التناحر بينهم كان لصالحنا. سيأتون، لن يغيروا رأيهم. هؤلاء محتاجون إليّ حاجةَ راكب البحر إلى الماء. إن أتوا قابلناهم باحترام وناقشناهم. وإن لم يأتوا فسنجد في القفقاس من نقدم إليهم الهدايا القيصرية النفيسة التي جئناهم بها. أينما اتجهتَ لقيت من يقبل بها. كنا توقعنا أن تتوقف الريح في المساء، ولكن ليتها لا تشتد الليلة. تصبحون على خير أيها المحترمون ! نحن، قائدَ الجيش ألكسندروفيتش وأنا، أريد أن نتحادث وحدنا. أمامنا غداً نهار كامل.

رغم أن خان جري كان مستاء من أن القيصر لم يتخذه من محدثيه فقد خرج من الجمع مخفياً استياءه شاكّاً في السبب، ورجع إلى مكتبه تتقاذفه الأفكار المتناقضة " لم يعد يثق بي،لم يعودوا بحاجة إليّ _ في أي يوم وفي أي مكان أخطأت ؟ ومن أخطأ ؟ أنا أم هم ؟ " ظل يفكر ويسأل نفسه دون أن يترك للقلب الذي تعب في هذا اليوم الثقيل فرصةً للراحة. فاستغرق في النوم بصعوبة في منتصف الليل.

في الفجر أيقظ خان جري طرقٌ قوي على الباب، وحين جرى إلى النافذة والمسدس المحشو بيده، رأى ألسنة اللهب تلعب بها الرياح من مستودع الأسلحة غير البعيد من مقر القيصر. وحين اختلط بالإطفائيين وحَمَلة البارود سارع إلى إبعاد القيصر عن الخطر بعدما فهم أن الخاطرة التي سارعت إلى ذهنه غير صحيحة؛ فالأديغة لا علاقة لهم بالنار.

وحين كانوا يطفئون النار، وحين اجتمع بالجيش، وحين التقى بمجموعة الجنود وحدهم، لم تكن أنظارهما تلتقي؛ دعك من أن يتحادثا، رغم أن القيصر لم يكن يبعده عن المهمة التي يستحقها. لست جاهلاً سبب جفاء القيصر اليوم أكثر من البارحة، يقول خان جري. إن عرف فيليامينوف أن أموره ستُحلّ فلن يلتفت إليك. ربما كان فيليامينوف تشفّى مني مساء أمس بحضور القيصر. ولكن ألا يجب أن يسألني القيصر عن المهمة التي أوفدني لأجلها ؟ لست وحدي بل فريفسك أيضاً لا يعرف تفسيراً. الليل طويل وقد يكون تحدّث إلى فريفسك. لو حدث مثل هذا لما كتمه عني بَدِسْ ممت جري. كنت أكّدت على قودانت ألا تغيب عينه لحظة عن فريفسك. ثم إنه لم يبق على موعد وصول موفدي الأديغة إلا ساعة. ألا يمكن أن نتحادث في مجرى اللقاء بينه وبينهم ؟ هؤلاء لا يصالحوننا، ولكن من يحترمون أنفسهم هم من سيمثلونهم. أيمكن ألا يأتوا إثر مناقشتهم لنا قبل أيام ؟ لن يفعلوا هذا، وإن فعلوا فهم مخطئون. وكما كان يقول مرجان: " مهما كان المرء عدوك رأيت نفسك في عينيه إن نظرت فيهما وهو يراك، لأن العينين مرآة النفس"

نظر القيصر إلى ساعة الجيب:

_ مضت خمس دقائق على موعد الاجتماع _ ثم أطبق الساعة بعصبية _ سكان البلاد لم يحترموني أنا وبلادي. كان على هؤلاء أن يقفوا على بابي، ليس خمس دقائق بل خمس ساعات _ ثم،وكأنه مُحرج ممن يجلسون في حضرته، تذكّر وقال لخان جري: _ على ما يبدو يا موفدي هؤلاء ليسوا بحاجة إليّ ولا إليك. إن لم يندموا هم فلن نندم نحن يا أيها العقيد.

_ هذا هو يا قيصر روسيا العظيم _ قال فيلياماينوف الذي سمع ما كان ينتظره _ لأجل هذا لا أثق بالأديغة في هذه الناحية من شابسغ وأبزاخ ووبيخ. من يكرمون الأتراك والإنجليز لا يفهمون إلا القوة والسلاح.

_ تقول هذا يا سموكم، ولكن _ قال خان جري لفيلياماينوف نافد الصبر مُسمِعاً القيصر _ إن تناسينا أن الذين اعتادوا على أصوات المدافع والبنادق لن يستطيعوا سماع صوت آخر فسيبقى الطرفان متجابهين.

_ ما يقوله موفدي لا يخلو من الحقيقة، وهاهو العقيد فريفسك يوافقه بهزة رأس _ قال القيصر. ثم أضاف بنبرة ألطف وأخبث _ ولكن يُخيَّل إليّ أيها المحترمون أنكم تبالغون في المعنى الذي تعطونه لكلمة " حرب " ما لا يفهمه الأديغة هو أننا لم نأت إلى هنا بقصد الحرب. في هذا الصباح، حسب الخبر الذي أرسله إلينا أحد مراسلينا _ كان واضحاً من نظرة القيصر إلى فيلياماينوف أن الأخير هو مصدر الخبر _ لم يرُقْ لهم أني لم أستقبلهم أولاً، بل قابلت قبلهم جنودي الأبطال. وأنا أيضاً تحدث أمور كثيرة في ساحلنا الروسي لا تعجبني، غير أن هذا لا يجب أن يؤدي إلى انعدام السلام هنا. ولهذا السبب يجوب الموفدون الذين يترأسهم خان جري المنطقة، ولهذا أيضاً قطعت كل هذه المسافات لأصل إلى هنا. لو أفهمني الأديغة الموضوع لقمت بواجبي. أنتم شهودي وترونني رأي العين، انتظرتهم وتوقعت مجيئهم ولن يلوم كلُّ هؤلاء الذين يسمعون الخبر القيصرَ الذي لم يألُ جهداً في ما يستطيعه.أنتما يا موفدَيّ للسلام، أتأمل منكما مزيداً من الاهتمام باجتماعَي فلاديقفقاس وستافروبول. إن رأي روسيا في سلام القفقاس فوق كل شيء. مهما تصرف معكم أي شعب فلا تنسوا هذا ! وإن راجع هؤلاء الذين انتظرناهم، بالمصادفة، أنفسهم فجاؤوا مستعجلين فلا تردّوهم. قرّبوا لي سفينتي ! ولا نقابلْ سلوكهم بمثله ! الوداع أيها المحترمون _ ودّعهم القيصر مخفياً امتعاضه _ في طريق عودتنا من تفليس سنجتمع مرة أخرى بإذن الله في ستافروبول أو فلاديقفقاس. وأنت يا خان جري لا تلم أبناء قومك فهؤلاء سنعيد إليهم الوعي يوماً ما، شاؤوا أم أبَوا.

" لا تظن الأديغة الذين تأتي على ذكرهم يشبهونني " لام خان جري نفسه وقد زهد في كل شيء من هذه الدنيا، ولام نفسه ناظراً إلى القيصر الذي يشيعونه، وناظراً باحتقار إلى فيلياماينوف الذي يودعه.

حين اتخذ طريقه صباحاً قال ولي العهد ألكسندر الذي سيأتي إلى إقليم القفقاس حاملاً لقب القيصر بعد أربع وعشرين سنة لأبيه القيصر العظيم:

_ أنت مستاء رغم أنك تخفي مشاعرك يا قيصر روسيا العظيم.

_ لستُ بخير يا ولي عهدي، أنت اكتشفت هذا _ قال القيصر نيقولاي وعيناه الزرقاوان مسمَّرتان على البحر _ رأيتَ كيف تصرّف معنا الشركس المتمردون... من يدري ؟ قد يكون سلوكهم هذا صحيحاً بالنسبة إليهم ! الأتراك ينافقون معنا، والإنجليز يقرّبون أعداءنا. هم، دون أن يتذكروا سلوكهم، يكشفوننا أمام نهّابي العالم. يحدث ما لم ننتظره فيما كنا نتوقع أن تكون أسهل منطقة في الشمال القفقاسي. أظننا خُدعنا بحروبنا السهلة في تركيا وإيران. حين سحبتُ من هنا الجنرال يرمولوف بعدما أقام عشرين سنة وأباد الناس والأملاك، آخذني كثير من الناس، ولكنك ترى ما يحدث لنا. والكونت باسكيفيتش الذي كنت أتوقع منه أن يحسم الحرب في سنتين طالت معه الحرب سنين كثيرة. لو لم تدخل حرب بولونيا في الموضوع...

_ ولكن _ لم يقف ولي العهد مع باسكيفيتش الذي يغمره والده بالدلال _ مضت خمس سنوات على صلح بولونيا...

_ ليس سهلاً أن تخوض حرباً لخمس سنين. جنرالاتنا لا همَّ لهم إلا أن يرفعوا رؤوسهم ورتبهم، ثقيلو الحركة مثل فيليامينوف. تذكَّرْ كيف تظاهر بالصمم حين طلبت منه أن يحضّر أنساب الجنود الديسمبريين، ولا سيما الضباط، لأعفو عنهم. ثم يقول: إن مرافقي يريد أن ينصِّب نفسه زعيماً على الأديغة فيغتابُه لي. أفهمُ أنه لا يجوز زرع مثل هذه الفكرة بين الشراكسة المتمردين الذين يحاربوننا _ أجاب القيصر بسرعة على السؤال الذي وجّهه ولي العهد بعينيه _ سبق أن قلت لك لماذا أوفدت مرافقي إلى هنا، وأقوله لك الآن. ليس خان جري إلا الوجه المسالم الذي خطر لي أن أرسله إلى الشركس بشرط ألا يقول لهم إنه سينصّب نفسه عليهم. وإن ماطلناهم بهذه الفكرة، وفي الوقت نفسه أسكتنا العالم بها، فسنبقى معهم حتى تستقر أمورنا على حالٍ ما، سواء في شهر أم نصف سنة.

طلب القيصر من ابنه أن يدير سفينته نحو القرم، وتوجه هو إلى بوتي. كان لا يزال على تكدُّر مزاجه رغم أن العربات والأحصنة والحرس في استقباله، وليس بانتظاره أفراح كبيرة[1].

[1] " لم يحقق وجود القيصر في القفقاس ما كان يتوقعه، وترك في نفسه أثراً سلبياً " يكتب فيليبسون _ فيما هو يجتاز جورجيا،حيث جيش الكُرج، رأى في الغابة أول محارب يُظنّ أنه من المتمردين. كان يرتدي ثياباً بالية تذكّرك بثياب المحارب وقبعته. وحين سأله القيصر أجاب بأنه قضى ثلاث سنوات يرعى خنازير قائده العسكري، وقبلها خمس سنوات مع من يحضّرون الفحم. أغاظ هذا الكلام القيصر؛ كان يجب أن يُعلموا القيصر أنه قبل أن يمارس العقيد مهمة قائد الجيش كان في سلوك أمير داديان كثير من السلبيات. وحين وصل إلى تفليس أمر بنزع رتبة المرافق داديان وتسليمه إلى المحاكمة. وحين خرج من تفليس باتجاه الجبل وهو يرى كل هذه السلبيات أسرعت الخيول بالعربة التي يمتطيها هو والكونت أورلوف فانقلبت في المنعطف الضيق، فسقط القيصر على حافة المنحدر الجبلي غير أنه لم يتأذّ كثيراً.

لم يُقِم القيصر طويلاً في تفليس، ولم يكن قلبه يحدّثه بالإقامة. في ساعة متأخرة من مساء 13 أكتوبر تشرين الأول جاء القيصر نيقولاي إلى فلاديقفقاس. وفي اليوم التالي استقبل بالترتيب موفدي أمراء ونبلاء القوموق والشيشان والبالقر والقبرتاي والأوسيت.

كانوا يقدّمون في الحديث الكلامَ في السلام الذي يريدونه وكأنهم كانوا متواطئين. ووضعوا أمام القيصر، معددين أمنياتهم، مطالب قومية كثيرة. ولماذا لا يكون القيصر كريماً بما ليس له ولم يكسبه بعرق جبينه ؟ قال لهم " " اسمعوا كلامي ونفّذوه، واحملوا الموالي على مسالمتنا وطاعتنا، واعتبروا كل مطالبكم تحققت ".

ووجد الطرفان حديثاً دون أن " يحترق لحم أحدهما أو يسودَّ سيخُه "

لم يمض غيرُ ثلاثة أيام على اتفاق سلام القيصر _ الأمراء _ النبلاء في فلاديقفقاس حتى حضّر خان جري لقاء مماثلاً في 18 أوكتوبر في ستافروبول، فأجرى لقاء أمراء ونبلاء البسلني والنغوي والأباظة والقرشاي والجمكوي بالقيصر. كان اجتماعاً مماثلاً للذي جرى في أوسيتيا فكلّ المتحدثين كانت لهم شكاوى كثيرة. ولمحوا للقيصر، وإن لم يذكروا الأسماء، إلى ظلم ممثليه وقادة جيوشه ودورهم في استفزاز الناس للثورة. وقالوا صراحة إنه يجب أن يحضر من يفهم لغتهم ليستطيعوا التعبير بلغاتهم. " ليست أول مرة أسمع فيها هذه الشكاوى... كانت أفكارَ خان جري مرافقي وهو في بطرسبورج " _ رغم أن القيصر كان يقول هذا في نفسه فقد كان يكظم غيظه ويحلل ما يسمع ويركّب. هؤلاء لا نحترمهم ولا نعدهم بشراً، غير أن في كلامهم صحة. يعرفون منا أموراً كثيرة يعادوننا لأجلها. نجابههم ونحن نزعم أن ما كان لهم طوال عمرهم هو لنا، ثم نقول: لا يريدوننا ! مهلاً، مهلاً ! أيُّ رحمة في غير وقتها تغزو رأسي ؟ ! " من يقول إن عرش الحاكم مركَّب من الظلم والرحمة ؟ ما فعلوه بوالدي بافل الأول... إلى الآن بعد أكثر من ربع قرن لا يستطيعون فهمه. يجب أن تكون روسيا إمبراطورية عظمى. لا حاجة لأن ترحم من لا يريدنا. السلطة توطَّد ولا تُمزَّق. لا ينس من يُعِزّون أنفسهم لنا هذه الفكرة ! وليعرفْ في نفسه من غذّى فيهم هذه الفكرة.

***

لا تفكّرْ في غير أمور السلام الشركسي يا ممثلي، وأنت تعرف قصدي !

الكتاب العاشر

I

الميت يذكرون حسناته لا مثالبه !

لم يكن خان جري يريد أن يأتي على ذكر فيليامينوف الذي رحل عن الدنيا، لا بخير ولا بشرّ. منذ أن تعارفا من خلال الرسائل حتى اليوم الذي تقاربا فيه، وإن لم يكونا صديقين، لم تنشأ ضرورة للكلام على الشخص الذي سيموت اليوم أو غداً، الشخص الذي عسّر حياته وحياة الأديغة، والذي لم يدع خان جري يحقق المهمة التي كلفه بها القيصر. ولكن ما العمل حين تخلو إلى أفكارك ؟ لم يبق إنسان لم تُفنِه أو تطِرْ به هذه الأفكار.

وحين رجع القيصر إلى بطرسبورج، وفي شتاء العام التالي، غيّر كثيرين من قادة الجيوش التي كانت تحارب في القفقاس. ولم يكن من حصلوا على أوسمة قليلين. ووجد القيصر مهمات مختلفة للبارون روزين ولأركان الجيش فادكوفيسك وقائد جيش القوات الخاصة فرولوف ومساعده فون ــ دير ــ فوكوفوين، وآخرين، فسحبهم من القفقاس. والعقيد داديان جرّدوه من رتبته وخفضوا رتبته إلى جندي عادي. ولم يكن من المستبعد أن يغير الجنرال ليوتونانت فيليامينوف لولا أنه كان مريضاً جداً. وفي منتصف الشتاء كلِّف الجنرال

ليوتونانت غولوفين بقيادة الجيش الروسي المستقل في القفقاس، والجيش الروسي في جورجيا، وسموا العقيد الركن تروسكين مسؤولاً. وأرسلوا بعد مدة قصيرة الجنرال ميجر رايفسك قائداً للجيش الأول على ساحل البحر الأسود. وغُيِّر كثير من قادة الجيوش المستقلة في الشيشان والداغستان. وبعد زيارة القيصر للقفقاس كان أسوأ ما حدث للأديغة هو أن الحرب ازدادت اشتعالاً.

حياة الإنسان مركَّبة من أمور مختلفة. ومن الصعب معرفة ما سيجابهك منها. وفيما كان الناس يتوقعون عزل فيلياميتوف من مهمته وإحالته على التقاعد، رضي القيصر عنه، فقلّده وسام ألكسندر نيفسك المرصع بالأحجار الكريمة. وأرسل له طبيباً مشهوراً هو شيرينغ.

" حسنٌ أن تفيد الإنسان إن كان مريضاً أو في ضائقة _ تذكّر خان جري زيارته لفيلياميتوف في مرضه _ ليس شماتة لأن المرض ينهش جسمه، وليس بسبب الوسام الرفيع، مهما كانت علاقتنا فقد مارسنا عملاً واحداً، كلٌّ من زاوية فهمه له، وأكلنا من مائدة واحدة. لولا مأساة الأديغة لهنّأته بالوسام. مهلاً، مهلاً ! أكنتَ تهنئه لو منحوه على محاربة أقوام آخرين ؟ ما العمل ؟ ما مُنِحتُ أنا يذكّرني بأهوال حروب كثيرة فأستمد منها العزم.ومنصب موفد القيصر ورتبتي وزيي من أين جاءت ؟ الأمر كما كان مرجان ونانا يقولان:" لولا أنهم جدعوا أنفه لما فكر في الآخرين !" قبل أن تحاسب غيرك حاسب نفسك على شرورك فتفهمَ شرّ كل إنسان ! "

ريح الربيع المتأخر تصفّر في ستافروبول وتدور في أزقتها الضيقة، وتخرب البيوت المسقوفة بالقش والقصب. وتجعل عوارض دلاء الماء الخشبية تئنّ، وتتلاعب بالعصي المربوطة بها.وتتناثر قطرات المطر التي تحملها الريح على زجاج النوافذ، ثم تنحدر متلوية كمزاج خان جري المعكر.

" مضى الشتاء مبكراً كأنْ لم يهطل الثلج فيه _ رجع خان جري إلى تفكيره _ لو تأخر ملاك الموت عن فيلياميتوف شهراً آخر لكان أفضل للأديغة، ولأقام الجنرال رايفيسك ممتّعاً نفسه ومدللاً إياها في كيرش أو فيودوسي.والجنرال تروسكين الذي دمّره وزير الدفاع شيرنشيف بسبب نفَجه لا يزال إلى اليوم لا يجرؤ على أن يتفوه بكلمة في ستافروبول. ربما لم يبق في المدينة،بدءاً من الضباط، ومروراً بالجنود، فسائسي العربات، انتهاءً بالغسالات المساحات، من لم يروِ له الجنرالُ أن زوجته هي ابنة زوجة الأمير المتنفذ كوراكين، ولم يبق من لم يحدّثه عن جمالها. حسنٌ أن يثرثر مزيداً من الوقت فالربيع الرطب ما يزال، وحياة الأديغة يمكن أن تطول وتستقر... وسيطول في جهنم عذابُ فيلياميتوف الذي مات في بداية الربيع "

الكلمات الشريرة التي غزت رأس خان جري جعلته ينهر نفسه. زاد المطر عنفاً رغم أن الهواء غدا لطيفاً. ومزاليج النوافذ المربوطة تشكو أسْرَها.

تذكر خان جري أنه زار الجنرال قبل وفاته بأيام. ليس هناك من موت جميل؛ ولكن الأفضل ألا ترى نهاية كنهاية هذا الرجل. الجنرال الذي كان بديناً قبل المرض حتى لَيعجزُ عن حمل نفسه كانت كل أعضائه استسقت بالماء: وجهٌ منتفخ ضخم لا ترى فيه أنفاً أو شفتين... وحين يتخفف الجسم من بعض الماء يعود

إلى وعيه. ولما كنت ذهبت في ذلك اليوم بالمصادفة فابتسامته لي التي لا تعرف أهي خير أم شر لا تزال أمام ناظريّ بعد شهرين. وحين رجاني أن أقرأ له كتاب" جول بلاس " ليتسلى عن وجعه قال لي دون مناسبة بعد أن قرأت له بضع صفحات " لا ذنبَ لنا أنت وأنا في ما حدث للأديغة يا عزيزي" ولما سأله الضابط أولشيفسك قبل الموت أن يستدعي له بابا الأرثوذوكس ليغفر له الله خطاياه أجاب " سبق أن استغفرت ربي ولن ينفعني البابا بشيء ".لا أتحامل عليه غير أنه كان ظالماً. ورحل عن الدنيا بعذاب شديد. ولا أريد أن أصبح مثل هؤلاء. ولا أستطيع أيضاً أن أدعو له بالخير حيث رحل. بقي في قلبي ظلمُ فيلياماينوف، ولكن أهو الوحيد الحامل رتبة جنرال والذي وطئت قدمه أرض القفقاس ؟ والذي لا يزال ؟ كلُّهم، بمن فيهم أنا، فرّختهم دجاجة واحدة، ومن عش واحد. ما أعجب الجملة التي رماها إليّ مَن ودعناه إلى السفينة في خريف العام الماضي،وبعدما أكّد على الكلام الذي قاله لهم " لا تفكر بغير قضية سلام الشركسِ قومِك " ! لو لم تكونوا تنوون ممارسة الخديعة في إقليم الأديغة لربما كان السلام قائماً فيه منذ زمن بعيد. لم يكن شعوري نحوك من هذا النوع بل كانت رغبة في افتدائك.

رفع خان جري رأسه فجأة مرتعباً من أفكاره وأسئلته وإجاباته. وحلّ ظلام الليل في الغرفة كما في القلب. ولم يعد يُحسّ بتوقف الهواء أو المطر وسكوت مزاليج النوافذ عن الصرير. ولم يكن يريد إشعال المصباح، ولم يكن يسمع رنين جرس الكنيسة وصداه. " الرجل الوحيد الذي تبيّن لي أنه إنسان حقيقي هو من لم أكن أثق به البتة، البارون فريفسك _ أضاف خان جري إلى أفكاره _ لا ألوم بَدِسْ ولاتَغانه شرولؤوق. وماذا تقول في مغرقوه بشه قوي ؟ هو الآخر يشبهني، لن يفهم سبب حياته قبل أن يحطموا أنفه. ولا يتعلق الأمر بشخص الإنسان وحده.وبالنسبة لي فالشكر للبارون فريفسك لأنه فهمني. وقف إلى جانبي حين فهم أن أقوالي وأفعالي في سبيل مصالحتهم بالأديغة لا قيمة لها في بطرسبورج، ولا يجاب على رسائلي. وكتب مرات إلى شيرنشيف وأدلى برأيه إلى القيصر دون خوف. الوحيد الذي لم يكتب إليه هو الكونت بنكندورف... لولاي لكتب إليه أيضاً فأنا كتبت له وشكوت. وما حدث لي عجيب وأنا أظن أنه الوحيد الذي سيفهمني ويساندني، فلا أكتب له ما في قلبي بصراحة. حين يُسمح لي بالعودة إلى بطرسبورج لن يبقى إلا ألكسندر كريستوروفيتش آخذ إليه شكاواي.وتانا ؟ مَن غيرُ تانا أقرب إليّ بالروح والقلب في بطرسبورج ؟ ! ما أخبارها يا ترى ؟ ستمضي غداً خمسة أسابيع على انقطاع رسائلها. حين قلت لها قبل أن آتي إلى هنا إني سأعود خلال شهر أو شهرين اصطدمتُ، وها قد مضت سنة على وجودي هنا، بكثير مما حذّرتْني منه. ولكن لم أكن حراً وقتها في مصيري. كنت فخوراً بالمهمة التي أسندت إليّ، فجريت بسرعة إلى طريق الخديعة الذي لم أكن أعرف عنه شيئاً، والآن بقيت في ستافروبول المدينةِ الصغيرة القذرة: استدعَوا رفاقي، وأنا لا أستطيع العودة "

أجفل صوت الباب خان جري:

_ أتنام أيها المحترم ؟ _ سأل الصوت المختفي في الظلام حذراً.

ـ لا يا إسماعيل، غفوت على الكرسي فحسبُ، ما الوقت الآن ؟

ـ وقتُ صلاة العشاء تماماً ـ أشعل قودانت إسماعيل المصباح ـ ماء الوضوء والطشت والعشاء كلها جاهزة.

ـ وأنت يا إسماعيل هل انتهيت من الصلاة ؟ سأل خان جري برقة.

ـ لم أجد وقتاً بعد يا محترم.

ـ لنتوضّأ إذن ـ قال خان جري مرتاحاً للخاطرة المفاجئة ـ ولنصلِّ جنباً إلى جنب!

ـ إن كان هذا رأيَك ـ أنعش الكلام الذي سمعه إسماعيل قلبَه ـ فماء وضوئي جاهز الآن.

وقف خان جري وإسماعيل أمام الله مع مراعاة ترتيب السن. كان دعاء خان جري يختلف عن دعاء إسماعيل في أمر واحد: لم يعد يريد شيئاً من الدنيا إلا أن لا يُدان بالعيب الذي سيلصقونه به.

دعا خان جري قودانت بعد الصلاة إلى العَشاء.

ـ جلستُ معك يا محترم على موائد كثيرة هذه السنة، ولم تكتم عني سرَّك وعلنك. لم تقل أنا أمير وأنت مولى. عاملتني حسب تقاليدنا. شكراً.ولكن مادمنا نحمل رُتَبَنا فتقاليد الخدمة لا تسمح بهذا، فلا تدعني أخطئ ـ لم يجلس قودانت.

ـ ربّاكم بَدسْ وتغانه جيداً ـ ابتسم خان جري.

ـ هما وأنت وأنا كلنا ربّتنا الخدمة العسكرية.

ـ ألم تكن رتبنا على أكتافنا حين كنا نجلس على موائد الأديغة ؟

ـ لا أتذكر أننا خالطنا الأديغة ورتبنا على أكتافنا.

ـ ومع ذلك تقول إن السرية تنتظرنا !

ـ والله وأنا فقدت حماستي بعدما رأيت من أفعالهم في الشابسغ والناتخواي... ما العمل ؟ أقسمنا فهل نحنث ؟ متى سنعود يا محترم إلى بتربف ؟

ـ أنحن أحرار في أنفسنا ؟ هذا يتعلق بوزير الدفاع والقيصر.

ـ ألم تعد لبنكندورف علاقة بنا ؟

ـ وهل اشتقت إليه ؟

ـ ولماذا ؟ سأتصرف كما تأمر.

ـ حتى لو قلت لك: ضع رتبتك ؟

ـ هذا يتعلق برتبتك يا محترم ـ قال قودانت ثم سأل ـ هل سنقيم بعدُ وقتاً طويلاً في هذه المدينة القوزاقية القذرة ؟

ـ نحن عملنا ما علينا... مهما كتبتُ إليهم طلبوا مني أن أسأل القائد المحلي للجيش، وتجنبوا جواباً واضحاً. لو كانت هذه الأوامر تصدر كما في السابق من القيصر أو شيرنشيف لما كانت هناك مشكلة.

إنها تأتيني من قادة من المستوى الأدنى لا أعرف عنهم شيئاً. الضابط الذي حل محل فيلياميتوف غرابّير وأنا تكلمنا طويلاً قبل أيام في الموضوع. وحين وضعت الكتابات التي كتبتها أمامه قال لي: بعد أن أتقرب إليهم أكثر سأكلمهم وسأبذل جهدي لتعود إلى بطرسبورج في الوقت المناسب، وسنرى ما ستكون الأوامر. من يعرف الوقت الذي يستغرقه هذا ؟ ربما يريدون منا أن نكلم الأديغة مزيداً من الوقت في موضوع السلام ــ أوكل إليّ غرابير مهمات جديدة ــ ابتسم خان جري: سنخالط المخوش المقيمين مقابل الأبزاخ، وكذلك الجمكوي والبسلني.

ــ والأباظة ؟

ــ وأين نذهب بالأباظة والنغوي والقرشاي ؟ ــ ونظر إلى إسماعيل بخبث ــ اعتن بملابسك الأديغية وأبعدْ رتبتك الروسية !

حين بقي خان جري وحيداً في الغرفة جلس يراجع ما قاله.كان فيليبسون معاون فيلياميتوف قال له: زرني حين تشعر بالملل. ولكنه قرر ألا يذهب إلى أي مكان.

ــ ما الفائدة في معاشرة هؤلاء ؟ ــ قال خان جري ــ لن تسمع إلا ما يؤلم قلبك. ليس قليلاً ما يتحدثون عنا بسوء متناسين أني أديغي. وإن قلتَ شيئاً أو شكوت شكّوا فيك وإن لم يُظهروا على حالهم. غريغوري إيفانوفيتش وقع في مشكلة فهو مهموم بما ستكون عليه معاملةُ قائد مجموعة الجيوش المستقلة في المستقبل في القفقاس وقائد جيشِ البحر الأسود غرابّيه، ومعاملةُ من سيكون في إمرته رايفسك.كان يودّ أن يسمعني هذا ويصدع رأسي، ولكن ما علاقتي أنا بهذا الموضوع ؟ لو أعادوني إلى بطرسبورج واختفى عن ناظري ما أراه هنا لابتعدت قليلاً عن مأساة الأديغة ! وكيف ؟كيف لا يتألم قلبك الأديغي إن كنتَ أديغياً وتعرف ما يفعلون بهم ؟ قلب المرأة أشدُّ تأثراً من قلب الرجل؛ من حظك يا جدتي ــ ليوجّهكِ اللهُ إلى الخير حيث صرت ــ أنك لم تري المأساة بعينيّ وبأحزان قلبي. أتشعران يا أبي وجدي بأن قضايا الأديغة لم تحلّ كما كنتما تتأملان ؟ ليست المشكلة في الإنسان بصفته الشخصية، ولا في معدته. التفكير الذي في الرأس في ما يتعلق بموضوع الأصل لا يدع لك مجالاً للراحة مادمت على قيد الحياة.سامحوني ياكبارنا ! ــ نهض خان جري وشرب من الروم الذي شُغِف به في نصف العام الماضي. ولكنه حين شعر بخطئه صرخ إلى الخارج وهو يسكب ما في الإبريق:

ــ يا إسماعيل، أبعدْ هذا ! جعلني أخطئ في صلاة العشاء، عليّ أن أتخلى عنه.

ــ لا تشرب يا محترم؛ ما ينتجه هؤلاء حرام !

كان خان جري قد أبعد إبريق الروم نصف الملآن بحركة قاسية من مرفقه؛غير أن طعم الحلاوة كان قد دبّ في أعضائه ورقق قلبه وجرفه إلى آمال حب بعيد.

" تحقّقَ يا تانيا ما كنتِ تحذرينني منه ــ حطمتِ المرأةُ التي نهضت من بين نظرات خان جري قلبَه ــ وحدث أن تعثّرتُ ببعضها.أتوقع ألا أبقى هنا أكثر من شهر أو شهرين مع أني لا أعرف ما ينوون لي. إن

كنت تتذكرين فقد وعدتك في بداية سفري أن أعود في مثل هذه الفترة. خدعوني أنا ولكنهم لم يتمكنوا من خداع قلب الأنثى فيك. لا تؤاخذيني على أني طلبت منك بضع مرات ألا تأتي. لو لم أكن في الجيش، لو كنت حراً بنفسي، لرجعت إليك منذ زمن بعيد. لو استطعت أن أكتب لك ما فهمت في نواحينا وما لم أفهم... ماذا سترين في منطقتنا التي ليس فيها فرح أو أمل ؟ ثم ليس في مثل قفقاس اليوم،حيث تهيج أحزان المرء من جديد، كنت أود رؤيتك. ورغم ذلك ربما ما كنا التقينا لولا نار الحرب... ماذا أقول ؟ أحدث لي مكروه ؟ " نهض خان جري عاجزاً عن الاستمرار في الجلوس، ولم يكن بقي على المائدة إبريق الروم الذي ينفّس عن الهموم.

***

الأرض جميلة في أرض المخوش أيامَ الانتقال من الربيع إلى الصيف.

غابات الجمكوي المرتفعة الواسعة تبتعد نحو نهر لابا في حين تبقى جبال الأبزاخ البيضاء تشتعل في الجنوب الغربي. وهناك في يينجيج الصغرى، جهةَ رؤوس أنهار يينجيج الكبرى، يبدأ من البسلني سهلُ (مامرقوه) وغاباتها. المراعي تلعب مع أشعة الشمس الملونة لعبة "الغمّيضة" مبعثرة قرى الأباظة، فينتهي السهل عند حدود المخوش.

أرض المخوش مريحة تشرح النفس بالقياس إلى الأسبوعين اللذين قضاهما خان جري وصحبه في الجمكوي، دون أن يتركوا مكاناً لم يزوروه أو يترجلوا فيه لبعض الوقت. وحين رجع مودعو الضيوف واختفوا وراء المنعطف وضاعوا وراء التبّة المستديرة لم يكن يُسمع في سهل مامرقوه إلا وقعُ حوافر الفارسين المتجهين إلى البسلني.

_ انظرْ هناك يا محترم ! كانت الأشجار تتناقل سحابة بيضاء تائهة.

_ وها هي نصف سحابة أخرى هربتْ من الأشجار فعرّجت نحو السماء _ تنهد خان جري _ كيف لا يؤلف من أمامهم مثلُ هذه الطبيعة الجميلة الحكاياتِ ولا يتحولون إلى رواة لها وكيف لا يغنّون ؟ !

_ ما أكثر ما يعرف العجوز الكفيف ذو اللحية البيضاء الذي قابلناه أمس يا محترم ! وما أكثر ما أملى عليك ! ما أجمل غناءه مع الربابة الأديغية التي أوتارها من ذنب الخيل! والله يا محترم جعلتَه يشرح صدورنا. وإلى الآن لا يزال صوته الحبيب في سمعي. لا أتذكر أني قابلت مثل هذا العجوز الفطِن منذ دخلنا إقليم الأديغة.

_ أما أنا فأتذكر _ قال خان جري _ عجوزاً من الشابسغ موائماً بين سيفه وغنائه. قُتل في العام الماضي على سفوح بشادا. أتاليكي مرجان كان عجوزاً حكيماً. ما أجمل ما روى من أقوال مأثورة وتمارين للنطق ! توفي المسكين. وأُبلغت بأسماء عدد من المسنين الحكماء بين الأبزاخ الذين نتجه إليهم. كان حسناً لو قابلتهم وهم على قيد الحياة قبل أن أعود إلى بطرسبورج _ ثم، بعدما مشيا زمناً، أضاف خان جري

بصوت منكسر: _ نظن أن في المخوش سلاماً وهدوءاً غير أن الحرب ستصل سريعاً إليهم وإلى اليجرقواي والأبزاخ.

وكأن قودانت خاف أن ينسى ما خطر له فاستعجل:

_ وأمس في مضافة الجمكوي، وما سجلتَ في العام الماضي في البجدوغ والشابسغ؛ ماذا تنوي أن تفعل بكل هذا ؟

_ سألتني ماذا سأفعل به ؟ _ سأل خان جري ثانية، ثم قال دون البحث عن بداية المأساة، وكأنه كان ينتظر السؤال: _ أتتذكر كيف أمسك القيصر بساعدي وهمس في أذني ونحن في غيلينجيك ؟ إن كنت تتذكر، وبما أنك سألتني عن نواياي، فلن أخفي عنك، قال لي: لا تبتكرْ للأديغةِ الأبجديةَ التي يكتبون بها لغتهم والتي لم يعرفوها إلى الآن ! ولا يخطرْ لك أن تفتح لهم مدارس ! ولا تفكر في ترجمة القرآن لهم ! مسنّونا، كما ترى، يرحلون إلى الآخرة بأمراض مختلفة وبسبب البؤس؛ ألا ينبغي لأحدنا أن يدوّن حِكَمَ هؤلاء ؟ !

_ بلى يا محترم، أوافقك، لا يجوز أن يبقى مسنونا دون " ولاة عهد ". على ما يبدو، لن يسمح لنا من نحميهم، إن استطاعوا، أن ينبت من الحشيش ما يكفي لإطعام ثورين. يجب أن نبقى أميين ونخرس في حين يغنون هم. يا محترم إن لم تؤاخذني فلي سؤال آخر: في العامين اللذين جمعني الله فيهما بك أراك شخصاً مثقفاً وحكيماً وصاحب عِلم واسع، وتتكلم الروسية والتركية والعربية بطلاقة وتكتب بها؛ فلماذا لا تكون سلطاناً على الأديغة ؟

_ يا قودانت إسماعيل، يا من أدعو له بنماء أصله ! ما أشد ما تُسعدني اليوم ! _ أوقف خان جري حصانه يغلب عليه صياح مازح _ عدد كبير من الأديغة هم سلاطين جاهزون؛ أيحتاجون إلى سلطان ؟ ! هيا ! الأفضل من كل هذا هو أن نجري بحصانينا قليلاً _ قال المحترم الذي يعدو حصانه عدواً سريعاً: _ نحن الأديغة فاتنا منذ زمن بعيد موعد إنشاء دولة. إن كنت تحفظ أغنية قديمة فهاتها لتحضن القلب الأديغي الهائج.

_ إن شاء الله أنا أديغي فلماذا لا أحفظ ؟ _ بدأ قودانت إسماعيل الأغنية: " يا للحسرة ! الرعد يدوي في طوابسه، والدم يُسفك في جووبغوه " يا للحسرة ! ردد خان جري معه من أعماق قلبه.

II

لمعان النجوم ليس واحداً.

والناس الذين يرونها مختلفون.

يحتاج احترام إنسان والوثوق به إلى وقت طويل. ويتعلق هذا بموقفه روحاً وقلباً من قومه ومن الأقوام الأخرى.

وبهذا المقياس لا تستطيع أن تحكم على حياة خان جري بأنها كانت عبثاً سواءٌ بآماله في حياته، وبكرمه وأعماله الخيرة، وبحياته الشفوق. حين بدأت تثور أسئلةٌ حول كبار آل سلطان السالفين، وحول روسيا التي أخلصوا لها، أسئلةٌ أديغية صريحة، واصطدم بها شخصياً وتعثّر بها، بدأ يفكر في دواء لاستعادة وعيه. غير أن شفاء كل مرض يختلف تبعاً للشخص الذي يصاب به ولصبره.

كان خان جري يود أن يعود إلى بطرسبورج قبل أن يتمكن منه المرض الأديغي الذي أصيب به في بلاده، ليس لينساه إلى الأبد؛ بل يريد أن يتخذَ من الكونت بنكندورف شريكاً له في ظنونه، فيقابلَ عن طريقه القيصر، فيرويَ له شكاواه، متناسياً ما كان لمح به إليه في الخريف الماضي حين جاء إلى هنا، ليجد لنفسه ولهم شفاء، إنه يتأمل أن يستقبله كما في السابق ويتفهم موقفه قائلاً في نفسه " لو سمحوا لي أن أكلمه كما أريد لأطلعته على الحقيقة ولأفهمته ما يجري "

لا يجوز الثقة بالجنرالات، قال خان جري في نفسه ثم لامها وهو يشعر بثقل اللوم. هؤلاء ليسوا وحدهم بل أنا أيضاً منهم، هم الذين يتأملون الارتقاء برتبهم. حين جاء قيصر روسيا العظيم كان محاطاً بمن له شأن له بالموضوع ومن لا شأن له. فلم نستطع محادثته. استطعنا هذا في فلاديقفقاس،ولكن ضاع الوقت ونحن مشغولون بقضايا أمراء القبرتاي والبلقار والأوسيت التي لا نهاية لها. وفي الطريق لم يكن هناك مجال لمحادثته إلا أن تركب معه عربته، وهذا ما لا يجرؤ عليه أحد إلا زوجته ألكسندرا فيدروفنا فلم أتمكن من الاقتراب منه. وكذلك لم يتركوا الكونت أورلوف والكونت مينيشكوف وحدهما حتى مدة شهقة واحدة. وكان أعجبُ شيء إليّ أخيراً حُماتَه: رغم أن أكثرهم من جنودي فقد تظاهروا بأنهم لا يعرفونني. وأحياناً حين يكونون وحدهم ينظرون إليّ بودٍّ وبشاشة. لا ألومهم بل أراها ميزة لهم فالقيصر واحد ونحن كثيرون. وهكذا يجب أن يتصرفوا معه.

وفي هذه اللحظة تذكر خان جري خليج غيلينجيك، ورياح البورن العاصفة، ونار الليل، وحراس القوزاق على الجبال،ومن خلفهم الأديغة على حوافها. كان على موفدي الأديغة الحضور إلى الموعد ولكن لم أستطع إقناعهم. كان الأفضل أن تطيعوني، لا أن تسمحوا للإنجليز والترك والفرنسيين بخداعكم. لو فهمتم ما في قلبي وسمعتم كلامي دون اعتبار لرتبتي لوجد كل طرف منا سنداً في الآخر. حققتم لفيلياميتوف ما يريد ــ لم تتصرفوا بروح أديغية مع القيصر الذي طرق بابكم. أفهم أن سلوككم لم يكن دون مسوّغ، ولكن، حتى أَشَقُّ المواقفِ لا تعدم طريقةً لمقاربتها. يخيل إليّ أنكم انجرفتم وراء رجولة زائفة دون تفكير في العواقب. وسواء كانت المشكلة منكم أم من الجنرال الذي مات فلا أخلو أنا نفسي من العتب عليكم لعدم احترامكم للقيصر الذي أهنتموه بعدم اهتمامكم به. وربما كان التجرُّؤ الزائد للأمراء الذين نصحتهم، بالإضافة إلى السبب السابق، هما وراء عدم اهتمامه بي في ستافروبول. وما قاله لي وهو يركب السفينة لا يفارق أذني حتى بعد مرور سنة كاملة. لم أدَعْهم يقولون له ما لا يليق، ولم يُجبني بما لا أستحق. الحق أني لا

أندم على ما طلبت منهم إبلاغه إياه،ولا ألومه على رده. ولكن،كائناً من كان، حين تتعلق المأساة بالقوم فليست مسألة شخصية. الأفضل أن تتفق على رأي واحد.

في أواخر أيام الخريف الناعمة خيّل إلى خان جري أنه يسمع وقع حوافر خيل فرفع رأسه متوجساً أن يكونوا من أمراء البسلني والأبزاخ والمخوش الذين أفرطوا في لقاءاتهم به في نصف العام الأخير، دعكَ من الجمكوي. فأنصت فلم يسمع شيئاً ففرح. حين رجع خان جري بفكره إلى المولِيين القصاصين اللذين أتياه قبل شهر ابتسم. أحدهما كان ثرثاراً، والآخر كان شخصاً ممتازاً. الثرثار منهما _ الذي يتحذلق في لغته الأديغية _ كان من الأباظة، والآخر الصموت كانت أمه من النغوي وأبوه من البسلني. كان خان جري راضياً عن الاثنين بغضِّ النظر عن طبيعتيهما. عذوبة اللغة الأديغية تتناثر من الأباظي، وحكمة القصص على شفتي ابن المرأة النغوي. قال خان جري: الموالي يقدّرون ما تقدمه إليهم خلافاً للأمراء والنبلاء الذين يستقلون أعطياتهم. الأولون لا يكتمونك ما لا يعجبهم فيصارحونك به ويسمعون كلامك؛ والآخرون ما أكثر ما ملؤوا بيتي في تلك الأيام صخباً مطالبين بالمال. وقودانت إسماعيل شاهدي، والأفضل ألا أتذكر تلك الأيام. لم يكونوا مرتاحين لتوقيعهم على إيصالات بالمبالغ المدفوعة لهم، وكانوا يعتبرون ما أعطيه إياهم قليلاً، بل يطلبون مني عدَّه. أنا ألوم مَن هناك جهةَ الشاطئ لأنهم لم يستقبلوا القيصر... لا، لا أريد أن أقارنهم بتوغوظقوه قازبك أو شروخقوه توغوظ أو بولتقوه جامبولات أو زانَقوه سفربي أو دغومقوه جراندوق أو وَجَبش بليج أو الأمير حاجمقوه. ومع ذلك فلو ضغطوا على مشاعرهم وتحلَّوا بالرجولة والصبر كما كان مرجان يقول " من يتلقَّ إهانة يجد وقتاً لأكل الرأس " فقابَلوا القيصر قبل أن ينوي ما نواه لكان مصدر أمل لهم. ما الفائدة في أن أرمي نفسي بين الطرفين وحيداً ؟ ما يحدث لي عجيب كما يقولون " معروفي يرتدّ شراً عليّ،وجاري عدوي ". الفريقان عاتبان عليّ يحمّلانني مسؤولية عدائهما وعجزهما عن التفاهم. على ما يبدو أنا الوحيد الذي كان عاجزاً عن فهم الإخفاق المسبَق لمهمتي السلمية.

تألم الجانب الأيمن من صدر خان جري فجأة فأجبره على أن ينتفض رافعاً يده اليمنى، وخيل إليه أن التشنج أمسك بأصابع يده اليمنى. وحين تصبب جبينه عرقاً أفلتها. لم تكن المرة الأولى التي يصيب فيها هذا المرض جانبه الأيمن. تصوّر أنها بدأت معه في اجتماع المؤتمر الأديغي في بشادا، ولو على نحو أخف، ولكنه تجلّد. كان أخفى عن فريفسك، غير أن الحالة نفسها جاءته في أثناء دفن كابوستينكا إيغنات وجرت معه في بيتاغورسك.وقبل أيام، وهو يكتب في قضايا الأديغة لغرابيه، خيل إليه أن الندبة التي رجع بها من بولونيا تؤلمه. والآن شحب لونه وغسل العرق جسمه. أمسك بحافة المقعد الذي يجلس عليه ليختبر يده، وضغط عليها وحركها بسرعة وهزها، وحين قال لنفسه: لماذا حبست نفسي في الغرفة ؟ رأى أخاه الأصغر عادل جري على الباب.

_ تعال يا عادل جري، تعال ! كنت في هذه اللحظة أنوي أن آتي إليك _ استقبل خان جري أخاه بوجه باشٍّ _ ما أشد ما تأخرت ! اقتربت الظهيرة.

_ أتيتك بخبر سار يا خان _ قال لأخيه الأكبر بدلاً من الجواب.

_ أي خبر؟ _ سأل خان جري وهو يبسط أصابع يده اليمنى ويقبضها _ أبقي في الدنيا خبر جيد ؟ أيتعلق بعودتي إلى بطرسبورج ؟

_ لا يا خان جري _ قال نادماً على تأخيره الخبر لمعرفته بوضع أخيه الأكبر _ بل بذهابي أنا إلى بطرسبورج. الأربعة المختارون من أجل سريتك القفقاسية الجبلية يحملون اسم أسرتنا _ سأل وقد تجاوزت شكوكه درجة التعجب: ألا تعرف بالموضوع ؟ ظننتك أنت من اخترنا. ألم تعد قائد سرية حماية القيصر؟

_ لم يصلني إلى الآن مثلُ هذا الأمر يا أخي.

_ أتنتظر الورقة ؟

_ لا، لا أنتظر.

_ وماذا إذن ؟

_ تابعت القضايا الأديغية هنا _ ظهر الحزن على خان جري وإن ابتسم في سره _ أكتب إلى القائد الجديد لجيشنا، ليس رجلاً سيئاً، ألتقي به، وكذلك لا أدعُ شيرنشيف يشعر بالملل _ أشكو أحياناً إلى الكونت بنكندورف. ولا أدع القيصر ينسى أني أنفّذ هنا مهمته، ولكن لا أعرف ماذا حدث منذ الشتاء إذ أن من يجيبني جنود عاديون لا أعرفهم، يربّونني، يعلّمونني ماذا يجب أن أقول وأفعل! وهؤلاء ليسوا المشكلة يا أخي. يسرني أنهم ذكروا اسم أسرتك، وعلى ما يبدو لم ينسونا بعدُ... غير أنه من حسن حظي أن اسم أسرتك لم يأتوا به إليّ، فلأجل ألا أدعهم يقولون: اختار أخاه الأصغر،كنت اقترحت اسماً آخر مكانك. ما جرى أحسنُ لي ولك.

_ أتخاف على نفسك أم عليّ يا خان ؟ سأل عادل جري بشيء من الاستياء وشيء من المزاح.

_ أخوك موفد القيصر _ يهشُّ لأخيه الأصغر فرحاً باختياره _ إن لم يخترك عقيد السرية أفلا تخدم رافعاً رأسك ؟ وأنا سأكون حراً معك أكثر.

_ لا تتواضع ! افرحْ بما تحقق لك يا خان جري ! لا أفضّل شيئاً على ما بلغته. حتى قائد جيشنا لم يحمل لقب موفد القيصر رغم أنه جنرال.

_ ربما من حسن حظ غرابيه أنه ليس موفد القيصر _ قال خان جري وأضاف: _ لم تفهم ما لمحت به إليك. حين تجد نفسك في بطرسبورج، ليس فيها فحسبُ، بل في أي مكان آخر، توخَّ الحذر في كلامك وأفعالك.ليس هناك ما تغبطني عليه إلى هذه الدرجة... متى قيل لكم أن تسافروا ؟

_ يوم الثلاثاء.

_ بهذه السرعة ؟ ! لو عرّجت على قريتنا وزرت أهلنا ! أنا آخر مرة كنت عندهم في بداية الخريف.

_ لا تؤاخذني يا خان جري ! لا أحب أن أدخل إلى القرية، ليس لأني لا أريد أمي وأهلي، بل لأن رتبتي صدمةٌ لعيون من يرونني. وحتى من دونها لا يوفّرون شيئاً ضدنا. مهما فعلت لصالح الأديغة فلن يفهموك.

_ مثل هذا الكلام يا عادل جري _ تحمّل خان جري ما سمعه ولو أنه آلم قلبه _ لا يجوز.
_ وأنت هل فهموك ؟
_ وهل فهمناهم نحن ؟ _ سأل خان جري أخاه مع شيء من الحزن، وقال له مخفياً الألم الناجم عن التشنج في يده اليمنى: _ لأجل هذا أقول: حين تسلك طريق بطرسبورج احذر من أقوالك وأفعالك... أفهم ما تريد قوله... فيما بعد، فيما بعد. اِمشِ ! سنتغدى في أحسن مطعم في المدينة، ونتكلم المزيد في أمورنا.

***

في عام 1837 بدءاً من الصيف، بقي خان جري وحده في قضايا الأديغة المشوَّشة، واشتدّ الألم في السنة التالية بكاملها، تاركاً قلبه نهبة للآلام الممزوجة بالصَّغار، مفنياً نفسه فيها، فكانت هذه الآلام والتشنجات هي التي هاجت عليه في أيام الخريف وفي شتاء العام الجديد 1839الذي كان بلا ثلوج بل اكتفى بالصقيع. ولكن عدم وصول كتاب إعادته إلى بطرسبورج كان أشد عليه من مرضه.
مضت أشهر الشتاء الثلاثة القاسية، ومضى من الربيع شهره الأول الرطب.وأعقبه الشهران التاليان.
حين يخيل إليك أن شيئاً من الشك يدخل في العمل الذي تقوم به بطيبة سريرة وصدق وإنصاف وبراءة فإن أقوى الناس، حتى لو حممته بالحليب، تبدأ موضوعات كثيرة جديرة بالتأمل تغزو رأسه. لم تكن هذه الأفكار جديدة على خان جري.ليست قليلةً المسائلُ التي أقلقته ودعته إلى التفكير في خلال هاتين السنتين. أكثرُ الأديغةِ، حتى لو كانوا تجاوزوا الوضع الذي يسمح لهم أن تناقشهم أو تُقنعهم برأيك أو يفهموك، فعل خان جري معهم ما بوسعه أن يفعل. وما يريده الآن أمر واحد: ألا تزال زعامات بطرسبورج تريده أم لا ؟ لماذا يماطلون في الإجابة على ما كتبه غرابيه ؟
لا أريد إلا أن يخبروني بما ينوون لي، خيراً كان أم شراً، قال خان جري. ما الذي طلبوه مني ولم أنفذه ؟ أيريدون مني أن أقول لهم إن سلوككم مع الأديغة ليس صحيحاً ؟ لا فائدة في أن أنتظرهم. سأعالج نفسي وأهتم بها. متى قال لي طبيبي في بيتاغورسك أو جيليزنوفوردسك أن أذهب إليه فسأذهب. إن لم أفعل الخير لروسيا فلم أسئ إليها. ولا أذكر في نفسي أني نافقتهم في موضوع الأديغة. وإن قلتم: لا فسأتجه إلى مسقط رأسي في غريفينسك دون أن أعود إلى لوستان حبله؛ فمن يسيء إليّ هناك ؟ يا ربي كيف وضعُ عادل جري حيث يخدم ؟ أرسل إلي رسالة أو اثنتين خلال نصف السنة. سعيد جري أنا راضٍ عنه، أظنّه يشبهني فلا تنقطع رسائله، ولا يحيجني إلى أخبار تفليس.
ما إن جاء الصيف حتى سافر، بإذن من الجنرال غرابيه، إلى المياه الدافئة في بيتاغورسك، دون انتظار شيء. غير أنه لم يستطع إكمال أسبوعين هناك، لا لأن مقصده لم يكن دواء لمرضه، فقد رجع مهموماً بما سيأتيه من بطرسبورج أكثر مما يحدث في ستافروبول.

قضى خان جري في ستافروبول شهري الصيف والنصف بصعوبة، يحوم حول الجنرال غرابيه، ويخجل إن قابله أن يسأله في قضيته. وذهب ثانية في منتصف الخريف إلى بيتاغورسك، حتى لو بذريعة أن لا يراه أحد في ستافروبول، مدركاً ضرورة أن يتلقى العلاج. وما مضت ثلاثة أيام على سفره حتى أعاده الخبر الذي أرسلوه إليه.

ـ لم ندعك تستريح أيها العقيد ـ حين استقبله الجنرال غرابيه هاشّاً فهِم خان جري أن هناك خبراً ساراً ـ ما إن خرجت من هنا حتى وصلَنا كتاب شيرنشيف وزير الدفاع متضمناً ضرورة عودة موفد القيصر العظيم إلى بطرسبورج.

ـ من يجب أن يعيدني إلى بطرسبورج هو القيصر؛ فما علاقة شيرنشيف بالموضوع ؟ ـ سأل خان جري مدفوعاً بالحميّة، متناسياً أنه يقف أمام قائد الجيش.

ـ أنت تنسى يا محترم أنك بقيت هنا بأمر شيرنشيف وزير الدفاع حين استدعى القيصر رفاقك القدامى في الخريف قبل الماضي ـ ابتسم الجنرال غرابيه.

ـ نعم يا سموكم ـ رجع خان جري إلى وعيه وقال بدفء: ـ شكراً يا بافل كريستوروفيتش، فهمتني. يسعدني أن أعمل معك.

ـ لا شكر في هذا يا محترم ! ـ ابتسم الجنرال غرابيه بوجه طيّب، ثم اختتم بصوت فيه شيء من المصانعة:

ـ أنا عملت ما عليّ، وأنت متروك لك كيف تتعامل مع من ستعود إليهم... لا، لا يا محترم ليس لأني سمعت عنك خبراً سيئاً بل لأني مطَّلِع على بعض أخبار مجموعةِ أركانِ شيرنشيف، وكرِ الجرذان.

***

كان قرار عادل جري بعدم الدخول إلى قرية لوستان حبله موضع استياء من أخيه الأكبر، غير أنه حتى لو كان يود القيام بزيارة خاطفة، فقد اتخذ طريقه إلى بطرسبورج في 1 تشرين الثاني 1839 دون المرور بلوستان حبله بحجة الوقت.

III

من السهل أن أدخل بك البحر، ومن الصعب أن أُخرجك منه.

ما رآه خان جري في هذين العامين في إقليم الأديغة وما فعله، وما كتموه عنه، وكيف خدعوه فيهما، كلُّ هذا كان أمامه مهلةُ تسعة عشر يوماً[1] ليعيد التفكير فيه. منذ الخطوة الأولى التي خطاها خان جري بمهمة السلام في شمال القفقاس، وعلى نحو خاص في منطقته هو، حتى اللحظة التي ركب فيها العربة عائداً إلى بطرسبورج، كان ما شَخَصَ من جديد أمام عينيه كثيراً. فإن رجع فجأة المرض الذي أضعف جنبه الأيمن هذا الربيع ناشراً الخدر في رجله وفي أصابع يده، تاركاً في الرأس طنيناً، منسياً إياه ما كان يفكر فيه من مآس، خرج منه كومض البرق. وحين يعيده مثلُ هذا الوقت القصير إلى وعيه كان سؤال واحد يقوم في

[1] هي مدة الرحلة إلى بطرسبورج. المترجم

صدره وقد عاف كل شيء في هذه الدنيا الحية: " إن شلّ المرضُ بضربة واحدة جنبي فأي نفع يبقى لي في هذه الدنيا ؟ "

رغم أن خان جري كان يتأمل أن تنحل آماله الخفية الشائكة التي لا يجد وسيلة لمقاربتها في بطرسبورج حيث يتوجه،فإنه كان يفهم على نحو أعمق أنه كلما قرّبت عجلات العربة المسافة إلى حيث يقصد تَركَ قلبه في إقليم الأديغة. وكانت أعماله المعقدة أصلاً تزداد تعقيداً مع مرور الأيام والليالي. كان له ثلاثة يمكن أن يفهموه في جميع الأحوال إن أبلغهم آماله إلى بطرسبورج: الأول القيصر نفسه، والثاني من رفع من شأنه أول مرة من وحدته العسكرية الكونت بنكندورف، والثالث ؟ من سيكون غيرَ البارون فريفسك الذي يُكِنّ له الفرح والصدق. والأمل الأخير لخان جري ؟ هذا اسمه مصون في صدره ولم يكشفه لأحد ولم ينطق به. من بقي في الدنيا يفهم عليك أحزانك إن شكوتها إليه ؟ سأل خان جري نفسه _ لم أجد إلا نانا. وأتاليكي المرحوم مرجان لم يكن شخصاً سيئاً. لا أريد المقارنة بينهما ولكنهما كانا قادرين على حكم أي بلاد. ثم رحلا في أحرج الأوقات. الأم صحيح أنها ولدتك، ولكن ليست كل الأمهات متشابهات. ماذا قالت لي أمي في أصعب ظروفي؟ ألقت اللوم على الشابسغ والأبزاخ والوبيخ الذين يدافعون عن أرضهم وحريتهم... أفهم ماذا كانت تريد أن تقول، غير أنه لا يجوز مقابلة المصلحة الشخصية بمصالح الآلاف.لا تعتقدي يا أمي أن من طأطؤوا الرؤوس قد رضوا بما أجبروا عليه ! ولكن لا أوافق على العناد الأديغي الذي لا يعرف التراجع. حماية العرق لا تحتاج إلى الرجولة فحسبُ. لا أرى عدم استقبال ممثلي الأديغة لقيصر روسيا حين جاء إلى غلينيجيك بحجة أنهم يعادون فيلياماينوف تصرفاً صحيحاً، ولا أعده رجولة. لا أقول هذا لأن القيصر الذي أرسلني استاء مني لأول مرة بسبب هذا التصرف... ماذا يقول المبدأ الأديغي ؟ " إن كانت حياة من يستجير بك تتوقف عليك فلبِّ نداءه ولو كانت نهايتك في تلبيته " ربما كان هذا هو بالضبط ما شدّنا كأسرة نحو روسيا، وربما كان هذا النداء هو ما جاء بي من بطرسبورج إلى إقليم الأديغة. وحتى لو لم أحقق شيئاً فأنا أعود إلى القيصر مخلصاً لإنسانيتي، مبرّئاً ذمتي نحو شرفي... سنرى ما يحدث "

_ أتوقع أن نصل إلى بطرسبورج بعد الظهر _ قال قودانت إسماعيل الذي لا يحب الملل.

_ وما أدراك أننا سنصل في هذا الوقت ؟

_ طريقة جري الأحصنة يا محترم _ أجاب إسماعيل مرتاحاً إلى أنه استطاع دفْع خان جري إلى الكلام _ هذه أحصنة من بتربف، حين تعود إلى موطنها تسرع من تلقاء نفسها، استمعْ لحظة ! هاهو السائق يغني رغم مشاق الطريق.

_ أظن هذا _ نظر خان جري من خلال النافذة وهو يصغي _ والمطر صار خلفنا، والمكان الذي نعبره مغطى بالضباب.وستظهر قريباً فيرخنه روغاتكا... على ما أراك يا إسماعيل أنت أيضاً اشتقت إلى بتربف.

ـ والله يا محترم ليس تماماً. من ينتظرني في بتربف ؟ ! إن سألتني هل اشتقت إلى أصدقائي في السرية فالجواب نعم. ولكن ـ تنهد قودانت إسماعيل ووجهه يشحب وقطع الكلام الذي كان على لسانه.

سأل خان جري:

ـ ما الذي لا تستطيع قوله يا إسماعيل ؟

ـ دون نية سيئة يا محترم ـ قال قودانت بعد قليل ـ ولكن قلبي ليس حيث نعود.

ما سمعه خان جري جعله ينتفض: " على ما يبدو فما في قلبي هو في قلبه أيضاً، لم نتشاور ولم نتناصح فمن أين هذا التخاطر ؟ " نعم، نعم لست وحدي من يملك مثل هذا القلب على ما يبدو. وبَدس كذلك في إحدى المرات، في يومٍ كان سيعود فيه إلى بطرسبورج قال لي الكلام نفسه. واستاء مني لأني تظاهرت بعدم سماعه. ولكن من يمكن أن يعرف شعور أقرب الناس إليه في مثل هذا الموضوع ؟ كنت أفهمته أني لن أشاركه هذا الحديث، ربما أصبت في سلوكي أو أخطأت. ولماذا لم يشاركني مغرقوه إلا مرة في مثل هذا الحديث ؟ ! كان مغرقوه مشغولاً بميتة فيليامينوف، وليس بمأساة الأديغة. والآن يحوم حول أتامان القوزاق زافادوفسكا، لا همَّ له إلا أن يتقرب إلى غرابيه فيترفع إلى عقيد. ما قاله اليوم قودانت كلام محلّل ومقيس، ربما لأنه يرى بعينيه ما يحدث للأديغة ويحس بها. أليس مغرقوه من الذين يذْرُون رماد المأساة بأقدامهم ؟ وبيكوفيتش شيركاسكا ؟ كيفما فكرت في نفسي لم أتجاوز هؤلاء ولم أذهب بعيداً ". عاد إلى وعيه وقلبه يصرخ. ورفع رأسه فجأة وسأل:

ـ أمضى زمن طويل على تحوُّل قلبك با إسماعيل ؟

ـ منذ دخل الجيش الروسي أرض الأديغة.

ـ وكيف انتسبت إذن إلى السرية الجبلية ؟

ـ سأخبرك يا محترم: والدنا، رحمه الله حيث حلّ، سواء كتم الخبر أم أعلنه الناس، كان عنده صديق قوزاقي من الذين عبروا نهر لابا يدعو والدي بالصديق. وكنت أصحب والدي إلى هناك أحياناً على حصانه. توصلت إلى مرحلة تأليف بعض الجمل بالقوزاقية والتفاهم معهم، وكان هذا بعدما كبرت، وفارق والدي الحياة. بدأ رجال قريتي يأخذونني معهم إلى الأسواق، وفي ظنهم أني أُجيد القوزاقية،فأعمل مترجماً لهم. وفي مثل هذه الحالة يا محترم، لا أنكر أنه كانت لي فائدة فيها ـ ابتسم إسماعيل بوجه غليظ ابتسامة بريئة منفّساً عن ضيقه برواية قصته ـ فعشت وأنا أجمع بعض المال وأُفرِح والدتنا التي تحثني من خلال أصدقائي على الزواج. ولكن كما يقال " إن ساء الحظ عضّك الكلب وأنت على ظهر الجمل " ماتت وبقيت وحيداً وأقاربي قليلون؛ فما العمل ؟

ـ ألم يكن يأتي إلى قريتكم لصوص ليليون من القوزاق ؟ ـ سأل خان جري مقابل سؤال إسماعيل.

ـ طبعاً كان عندنا، أليسوا هم من لم يتركوني ؟ صحبوني مرتين ولكني تمنّعت في الثالثة.

ـ ولماذا ؟

_ لا إنسانية في فعل الشرّ. ليس من الرجولة أن تسلب ما ليس لك، وربما تَرافَق السلب بالقتل. وحين ذاع في قريتنا خبر السرية الجبلية كنت أول مقبول فيها بصفتي أعرف شيئاً من الروسية، وربما راعوا موقفي من القوزاق. والحق أني لم أكن غير راغب فيها.

_ ومع ذلك تقول إن قلبك ليس حيث تسافر الآن.

_ أقول يا خان جري لأني لم أر حيث كنا شيئاً صحيحاً _ حين نفّس إسماعيل عن صدره مما يقلقه عاد إلى وعيه _ إن كنت قلتُ ما لا يجوز يا محترم فلا تؤاخذني.وبما أني بدأت الحديث فلن أكتمك، راقبتك خلال سنتين دون أن أتدخل في عملك، ولكن لا من أوفدك إلى أرض الأديغة، ولا من أُوفِدتَ إليهم،يثقون بك.

آلم الحديث خان جري، وخيل إليه أن الإصبع التي تحمل خاتم القيصر آلمته وحدها فجأة. وذكّرتْه الندوبُ التي على جسمه بنفسها.

_ ما يجعلني أقول هذا يا خان جري _ تظاهر بأنه لم يلاحظ تغيُّر وجه المحترم فأكمل: _ ليس لأنك إنسان سيئ أو لا كفاءة لك...

_ حسناً؛ فهمت؛ لنتوقف عن هذا الحديث ! _ أوقفه عن الكلام، ونبّهه مرضه الغادر من خلال إصبعه الخدِرة _ افرحْ بعودتنا إلى سريتنا فقد صرنا في ضواحيها !

_ صحيح والله _ أخفى قودانت انفعاله سواء أعجبه أم لم يعجبه كلام خان جري _ أصبتُ في توقُّع وصولنا إلى بطرسبورج بعد الظهر. الشمس مشرقة، والسحب تتبدد.. _ لم يعجب كلامي المحترمَ؛ انفعل كأن أحداً لا يثق به جالس معنا. أنت حرٌّ في ما تقول وتفعل أما أنا فلم أقل لك ما يسوؤك. لا تصارحني بما في قلبك ولكن لا تظنَّ أني أُطلعك على غير ما تتوقع. من أسباب دمارنا نحن الأديغة عدم الثقة هذه.

" لو كنت حراً لقلت لك كل ما في قلبي، لا أُبقي منه شيئاً " صرخ خان جري في قلبه وهو ينظر من خلال نافذة العربة كي لا ينظر في وجه خادمه. ثم أبعد رأسه عن زجاج النافذة واستلقى على المقعد الوثير مغمض العينين _ لماذا تهتم بما ليس من شأنك مع علمك بما يتصارع في رأسي من أفكار فتثيرَ قلبي أيضاً؟ أتظنني الآن فحسبُ عرفتُ أن من أرسلني ومن أُرسلتُ إليهم ليسوا بحاجة إليّ؟ ربما كتب الله عليّ هذا العبء فحمّلني إياه. عندي لحظة وصولي إلى بطرسبورج ثلاثة فقط يمكن أن أشكو إليهم. الاثنان لا حاجة لذِكرِ اسميهما، وقبل لقائهما سألتقي بتانيا إذ لا أظن أحداً يفهم الرجل أكثر من قلب المرأة. لماذا لا تفهمني أمنا إذن ؟ أقول هذا ولكن أكلّمتُها بائحاً بأحزاني كما كنت أفعل مع نانا ؟ عندما قررت أن أفعل هذا أحبطتني بكلامها على الشابسغ والأبزاخ، وكانت تتناسى أسماء الموالي العاملين في الدار. ولو لم تحرجني فتدفعني إلى الزواج قبل أن أعود إلى بطرسبورج لربما اتفقنا. من يفكر في هذا العالم القبيح بالزواج ؟ ألا تنتظرون نهاية هذه القضية التي نسعى لحلّها ؟ ! كل يوم تتسع الحرب في إقليمنا، وما ينقص من الجيوش الروسية يُعوَّض بالمزيد. نعم سأذهب مباشرة إلى تانيا، سأحمل إليها، لا أحزاني فحسبُ، بل حبي الذي

صبّرته طوال سنتين. ليقلْ كل إنسان ما يريد غير أني فعلت في حضرة سيسور ما لا يجوز، مرة واحدة فقط حين قالت لي ونحن في لوستان حبله " قد تكون لك فتاة معينة في بطرسبورج " ما كان عليّ أن أخفي عنها تانيا. مهما قلت فسيسور بمثابة أختي الكبرى،والكذب عليها كالكذب على نفسي. وما أفعله بحق تانيا ليس صحيحاً. أعجيب إن كان لها زوج في ما سبق ؟ أيمكن أن أقضي العمر مخفياً هذا السر ؟ ها هو قاز جري يعرف ! ولكن ليس من الإنسانية أن أُظهِرها كتسلية إذ ليست هذه هي الحقيقة "

_ وصلنا إلى بتربف يا محترم. قال قودانت.

_ بهذه السرعة ؟ ! فتح خان جري النافذة _ لماذا لم تُخبرني إلى الآن ؟

_ قلت سيعرف حين نطأ الطريق الممهد في المدينة فلم أشأ إزعاجك.

ليس القيصر هو أول من خطر لخان جري حين ألقى نظرة على المدينة، ولا الكونت بنكندورف، بل تانيا التي شخصت لعينيه منسية إياه أحزانه.

ما إن وصل خان جري إلى مقر السرية القفقاسية الجبلية ودخل غرفته حتى دخل وراءه قاز جري وحضنه:

_ الحمد لله على السلامة يا خان جري؛ طال غيابك !

_ لو كنت سيد نفسي يا قاز جري... _ غمغم بكلام يُفهم منه عدم رضاه بتغييبه، ثم سأل بسرعة: _ وأنتم كيف أموركم ؟ والسرية ؟

_ كلهم بخير لولا أننا كنا قلقين على غيابك؛ ما أخبار منطقتنا ؟

_ كيف أُفهِمك ما تسأل عنه ؟ _ ابتسم خان جري متحفظاً في الجواب _ إن كنت تسأل عن أهلك فقد زرتهم بضع مرات، هم بخير، يسألون عنك، مشتاقون إليك. وليس في قريتكم إلا أخبار الموتى والقتلى والمواليد الجدد. ولكن لا يمكن ادّعاء أنهم غير مهمومين بما يحدث في الإقليم. وعمك الأكبر كان في عداد الأمراء الذين تحدثوا إلى القيصر دون إظهار شخصه، وبحكمة؛ أعجبني جداً باحترامه لنفسه وباحترام القيصر له. ومن الناحية الأخرى ماذا أقول ؟ ربما نقل إليكم رفاقي السابقون: الشابسغ والأبزاخ لا يتراجعون، والوبيخ والحاكوف يجابهون السفن الروسية على الساحل... لماذا لا يظهر تغانه أو بَدس ؟ _ وجد خان جري ذريعة جديدة لتجنُّب الحديث في ما لا يعجبه، وكذا نغومه شوره، والفِناء خالٍ ؟

_ مهلاً، مهلاً أيها العقيد، لا تستعجل ! _ ابتسم قاز جري له فاضحاً سرَّه _ هؤلاء سيجتمعون حالاً. ما نسمعه هنا أن القيصر راضٍ عن عملكم في إقليمنا. وقد حصل الروتمستر بدس، وتغانه أسلان بك والعاملون معهما على هدايا مالية قيّمة. والروتمستر فريفسك دعمه الوزير لرتبة عقيد. العقيد فريفسك هو أول من أخبرنا بعودتك هذا الشهر. وهناك أخبار بحصولك على هدايا قيمة من شيرنشيف وبنكندورف.

" بدلاً من أن يمنحوني هدايا _ قال خان جري مستغرباً ما سمع _ كان الأفضل لو أجابوني على الكتب التي كنت أرسلها دون أن يطلقوا عليّ غيرهم بطرق ملتوية... عجيب أن قاز جري لا يأتي على ذكر تانيا! أأسأله ؟ لا ! غير ممكن. سأزورها حالما يحل المساء "

دخل بَدس فجأة إلى الغرفة ووقف باستعداد أمام قائد السرية الجبلية القفقاسية، وقال له بالروسية ويده ما تزال في وضعية التحية:

_ الحمد لله على السلامة يا عقيد ! كل السرية بانتظارك في ساحة التدريب لتلقي عليها التحية. ثم هجم على خان جري وعانقه وكرر ترحيبه بالأديغية وقال: ما أشد ما اشتقنا إليك !

حين هدأت عناصر السرية الذين رجع إليهم قائدهم هرب من المهنئين الآخرين وطلب من إسماعيل تجهيز العربة، ثم مع حلول الظلام، أن يوصله إلى شارع ليتين حالاً .و أمره أن يرجع في منتصف الثانية عشرة، وصرفه.

العجوز صاحبُه الذي فتح الباب أفزعه ما رأى فصرخ على غير عادته ومَن في الطابق الثاني يسمعه:

_ هذا أنت يا خان جري ! انتظرناك هذا الخريف وانتظرناك. ولما قطعنا الأمل من عودتك هدّأنا نفوسنا. يا تاتيانا كونستانتينوفا، يا نوري، عندنا ضيف عزيز؛ خان جري رجع !

رغم ارتياحه لترحيب العجوز لم ينشغل به، ولم يشأ أن يضيّع الوقت أمام المرآة، وتوقف فجأة وهو يتسلق الدرج المزين ببساط جداري كأن أحداً ناداه. وحين نظر إلى الأعلى رأى تاتيانا في رأس الدرج تلبس ثوباً صباحياً من الأطلس يزيد خصرها دقة، وإحدى ضفيرتيها على صدرها.

_ مساء الخير يا تاتيانا ! _ وبدلاً من أن تبادله الترحيب بقلب يكاد يقفز من مكانه رأى وجه تاتيانا الشاحب.

_ مساء الخير خان جري !

_ ألست فرِحة برجوعي يا تانيوشا ؟ توقف خان جري على بعد درجة واحدة منها وقد برد قلبه.

_ بلى يا خان جري !

_ إن كنت فرحة يا تانيوشا فها أنا قد عدت !

_ إن رجعت يا خان جري فلن أسمح لك أن تعود ثانية إلى حيث كنت _ ارتمت تاتيانا على صدر خان جري وقد فقدت زمام قلبها. وشرعت تقبّل وجنتيه وكتفيه قائلة له: _ ما أشد ما عانيت في هاتين السنتين، وما أكثر ما ذرفت من دموع ! يكفيني أنا القفقاس. أتفهمني يا خان جري ؟ لن أسمح لك أن تعود ثانية إلى هناك.

_ أفهم يا تانيوشا، أفهم. وأنا أظن أن من تعنينهم لم يعودوا بحاجة إليّ. يتأمل خان جري عيني من اشتاق إليها ويُطرِق دون أن يعترف بذنبه.

نهض خان جري في اليوم التالي وقد نام جيداً وارتاح قلباً وروحاً، وحلق ونظف جسمه وملابسه وتناول فطوره بشهية.

وقف أمام المرآة وهو يتهيأ للقاء شيرنشيف. وفيما هو يهمُّ بتسريح شعره ضرب التشنج يده فجعله يرتجف، وفيما المشط يسقط من يده وصلت النوبة إلى رجله؛ فجلس طويلاً يدلك فخذه وكاحله وحين رفض التشنج أن يُفلت رجله أمسك بالورقة والقلم[1] .

IV

كعادته كل مرة دون أن يدع اليأس يغلبه، ودفعهما بيد واحدة.

" انتظار الموت أصعبُ من الموت نفسه "

تذكر خان جري في أيام مرضه كثيراً من المرات كلمات خورلوقوه مرجان الأخيرة. وكلما فكر في مرضه شخص لعينيه منظر الأتاليك العجوز الذي كان فقد قوته حين زاره هو وفريفسك؛ فنهض واستوى على سريره ويده النحيلة القوية ممسكة بالحبل المربوط إلى العمود لائماً نفسه على انتصار الجزع عليه.

" وهل عشتُ بقدر ما عاش مرجان فأفكرَ في الموت ؟ يذرع خان جري أرض الغرفة بانتظار وصول العربة معاتباً رجله اليمنى الخدرة فيضغط عليها ويحمّلها ثقله.ـ أنا ما تزال أمامي مهمات كثيرة. أعجيب إن كان القيصر وجّه لي كلاماً جافاً ؟ لو لم يكن مهموماً بأمرٍ ما لما تصرف بهذه الطريقة. تصرُّفٌ واحد فقط لو لم يتصرفه: لو لم يسمح للجيش بمواجهة الأديغة بسلاح مشهر ! والأديغة ينخس أحدنا الآخر ويتآمر عليه. ونهيج أنفسنا كما كانت تقول نانا " لا يظهر فينا زعيم يعيد إلينا الوعي، يجعلنا نراجع أفكارنا، يزرع فيها الصدق والإنصاف " ما قاله الأديغة للقيصر في ستافروبول كان يجب أن يعرفوه منذ زمن بعيد وليس الآن. حتى إن لم تر ما أمامك فالأفضل أن تفكر فيه قبل أن تعثر به. لا، لا، كما يقولون " من هو على الضفة ماهر في التجذيف " فالحديث بسوء عن الأديغة واغتياب نفسي سواء. على ما يبدو إن كبار أسرتي، أسرة سلطان، ما كانوا اختاروا طريقاً. ودون أن يفكروا في ما سيحدث بعدهم اتخذوا وجهتهم، وأنا من يدفع الثمن. نعم حُطِّم أنفك في الطريق الذي اختاره أجدادك. و"كما ينفخ في الماء من أحرقه الحليب" أصبحت الآن حكيماً. نهر خان جري نفسه، ووصل إلى سمعه صوت عجلات العربة.

لم تكن العربةَ التي انتظرها فهذه التي وقفت أولاً هي عربة فريفسك.

ـ أهذا أنت يا بافل ألكسندروفيتش ! ـ تعانق الرجلان ـ كنت أنوي مفاجأتك اليوم، من أخبرك برجوعي ؟

ـ سان بطرسبورج مدينة كبيرة ولكن الأخبار تطير فيها بسرعة ـ قابله فريفسك بالمزاح وقال: ـ إن كنت تعاتبنا ظناً منك بأننا نسيناك فأنت مخطئ يا محترم. حتى لو كنتَ مريضاً فلا يبدو عليك. أهنئك يا خان

[1] كتب خان جري إلى شيرنشيف في 20 نوفمبر تشرين الثاني: في 14 من الشهر الجاري حين وصلت إلى بطرسبورج لم أستطع المثول أمامك رغم شوقي الشديد إلى وجهك المشرق بسبب المرض. سأوافيك حتماً في وقت لاحق بما أنجزت من أعمال.

جري. لا يا محترم، لا، لم أسمع بمرضك من خلال الأخبار، بل هو مذكور في ما كتبتَ للوزير ألكسندر إيفانوفيتش. هو من أرسلني لعيادتك.

" لا أظن هذا الماكر الخبيث صدّق ما كتبت له " ابتسم خان جري في قلبه وقابل السؤال بجواب مناسب:

_ شكراً لألكسندر إيفانوفيتش على سؤاله عني. وقد رتبت كتاباتي التي سآخذها إليه.وسأوصلها اليوم أو غداً.

_ لا تستعجل على كتاباتك يا خان جري؛ الصحة قبل كل شيء.

_ أيها البارون بافل ألكسندروفيتش ألستَ من قال لي إنه لا يبدو عليك علائم المرض ؟ _ اختتم خان جري كلامه بنبرة بريئة يظهر فيها مودته له: _ ليس وزير الدفاع وحده، استطيع أن أواجه أي إنسان وأكلمه. ليست هذه مشكلة. وكما كانت جدتي تقول، وأنت حين كنت في نواحينا " لا يمكن مسايرة الجميع "كيف أشغالك أنت ؟ نعم، نعم أنظر إليك فأهنئك: بدّلت رتبتك إلى الأعلى. وازداد وزنك. ومسرور في داخلك. كل هذا يسرني وكأني من حصل عليه.

_ شكراً يا خان جري. أصدّق أنك لا تقول شيئاً من خارج قلبك.ولكن _ تغيّر لون فريفسك _ لن أكتمك ما يعتمل في صدري ولم أقله لغيرك؛ فهمتُ حين كنا في شمال القفقاس، وخصوصاً في إقليمكم، أن مأساة غيرك لن تسعدك.أحمل معي فرحي وحزني وأنا أفكر في نفسي ثم أنهرها. مهما قلتَ لهم، حتى لو فتحت لهم صدرك وعرضت قلبك، فكل من يعمل في قيادة الجيش من النوع الذي لا يفهمك.

_ بافل، يا بافل ألكسندروفيتش...

_ مهلاً يا خان جري، لا تقاطعني _ اعترض فريفسك يد خان جري _ دعني أكمل ما أريد قوله. أنا فكرت في هذه الأمور وفي أحزاني سنتين. لا، لستُ ديسمبرياً ولست متآمراً من عملاء القيصر. ولست من الانقلابيين. لا تَخَفْ مني مهما سمعت. وأنا واثق أن كل ما نقوله سيبقى بيننا. وقد فهمت هذا في إقليم الأديغة ورأيته في رسائلك. وأنا من كان يفضّ رسائلك، ولا سيما رسائلك إلى وزير الدفاع. ولا حاجة للسؤال عن إخلاصك للقيصر والوطن واستعدادك لافتدائهما عند الحاجة. ولكن من المعيب اغتياب القيصر الذي تُخلص له واغتياب الجنرالات الآخرين. لا تعجبني طريقة استيلائهم على القفقاس الشمالي بما فيه إقليم الأديغة. لو لم أر بعيني وأُساهِمْ بسلاحي، ولو لم أشهد على مآسي الأبرياء لما قلت هذا.

نهض خان جري وأغلق الباب الموارَب، وقال وهو يتهم نفسه ويشعر بالخجل:

_ ومع ذلك فأنا منذ اليوم الأول لم أثق بك.

_ كنت أخمّن هذا... ولكن أنا ؟ _ ابتسم فريفسك وقال: _ سأقول لك متى جعلتني أفكر لأول مرة في عدم ثقتك.

_ ربما طلبي منك إبقاء نسخة مما ترسل إلى الوزير.

_ لا _ قال بوجه ماكر _ قبل هذا.

_ أيكون طلبي منك إطلاعي على ما ترسل إلى بطرسبورج، سواء كانت مذيَّلة باسمي أم لا ؟

_ لا أيضاً، قبل _ ضحك فريفسك _ لا أقول إني لم أجد في هذه المواقف ما يدعوني للشك، ولكن بعد ما حدث كتبتُ في إيكاترينودار دون علمك وأرسلت ورقتين للوزير. لم يكن في الرسالة الأولى إلا أني لم ألاحظ عليك ونحن في الطريق أي ملاحظة سلبية في موقفك من روسيا والقيصر... والثانية تتعلق باستقبال الأتامان القوزاقي زافادوفسك.

_ وبعدها ؟ سأل خان جري محاولاً الضحك.

_ ما سألتَ عنه لا نستطيع الإجابة عنه دون النبيذ الذي جئت به من ناحيتكم _ مزح فريفسك.

_ إسماعيل ! صاح خان جري إلى الخارج، ثم قال مادّاً رأسه من خلل الباب: هات الصندوق الخشبي الصغير وكأسين. ضيفنا مشتاق إلى النبيذ الأديغي.

_ هات، هات، لا تنظر إلي هكذا ! _ قال بالأديغية _ لن أذوق أنا قطرة واحدة. ولا تَفكَّ الحصان من تحت العربة !

_ ما الذي لا يعجب إسماعيل "؟ _ ما سمعه فريفسك بالأديغية أدخل في قلبه شيئاً من التوجُّس.

_ حريص على صحتي _ أجاب ضاحكاً _ أيعمل عبثاً عندي ؟

_ أحرجتك بالنبيذ على ما يبدو وأنا أعلم بمرضك _ قال فريفسك وأضاف بسرعة _ لن أبقى طويلاً عندك، يجب أن أعود إلى مكتبي.

_ لا حرجَ في ما قلتَ مازحاً _ لم يقبل خان جري ما سمع _ بمناسبة اجتماعنا في بطرسبورج لن أدعك تخرج من غرفتي دون أن نرفع نخباً. ارفع كأسك يا بافل ! حتى لو كانت أحزاننا كبيرة فقد اجتمعنا من جديد ونحن بصحتنا. لتقوَ صداقتنا ! نخب روسيا والقيصر، ونهض خان جري: لنرفعْ هذه الكأس !

" ما أعجب هذا الإنسان ! _ قال فريفسك في نفسه بعدما احتسى النبيذ _ يقول لي لن تخرج من غرفتي قبل أن نرفع نخب القيصر وروسيا اللذين جلبا المأساة التي لا حدود لها إلى قومه الذين يخلص لهم، وروحه معلقة بهم دون الاهتمام بمرضه، ومتجاهلاً أنه لا يجوز أن يشرب. يرفع الكأس لهما واقفاً. فكيف تفهم هذا السلوك ؟ لو كنت مكانه لما أوليت هذا الاحترام والتقدير لمن جلبوا الكارثة لقومي. الآن تماماً بُحت له بكل ما في قلبي دون إخفاء شيء. أفلا يثق بي بعد كل هذا ؟ لا أعرفه اليوم، ليست قليلةً الصعابُ التي كابدناها في شمال القفقاس وإقليم الأديغة.خضنا معاً مواقف صعبة. أقول: أفكاره السرية والعلنية متلاصقة، وأخشى أن أظلمه، فبالإضافة إلى أني أكلت على مائدة آل سلطان، حادثت عجوزهم قانتات ومواليهم في دارهم. ولي علاقة بعادل جري الذي انضم في العام الماضي إلى السرية الجبلية، وسعيد جري الذي يخدم في تفليس. وأخوهم الأكبر الذي قتل في حرب الفرس كنت بين الذين دفنوه في أرض الغربة

ولو أني لم أكن أعرف خان جري وقتها جيداً. وكما يقول قائد الجيش فمن الصعب الوثوق بمن حول الكونت بنكندورف، يربيهم بحيث" يحتفظون بالماء في أفواههم "

بعد مدة وقد رتبوا أخبار بطرسبورج سأل فريفسك:

ـ لم تعرف يا خان جري متى اكتشفتُ لأول مرة أنك لا تثق بي ؟

ـ إن كنت تذكر ـ ابتسم خان جري في نفسه قائلاً: ما أشد لجاجة هذا الرجل ! ـ في ربيع العام قبل الماضي حين دُعينا إلى حاضرة القيصر، وبتعبير أدق: على مدخل قاعة القيصر. وعلى نحو أقرب: حين انصرفتما شيرنشيف وأنت في عربة واحدة؛ ألم أُصِب ؟ ضحك خان جري دون مجاملة.

ـ حين تكون معاوناً لقائد الجيش يصدف أن تكون معه في عربة واحدة. ولكنك لم تخطئ حين حددت باب قاعة القيصر، حين صحبوك وراء بنكندورف وشيرنشيف إلى عند القيصر، وبقيت أنا على الباب، حزنت كما يحزن من أقفل أمامه باب الجنة. هذه أحداث سالفة يا خان جري بُحت بها في دَرْجِ الكلام؛فأي فائدة منها الآن ؟ حان وقت انصرافي،سيرسل ألكسندر إيفانوفيتش في البحث عني.

ـ ألم تقل إنه على علم بقدومك إليّ ؟

ـ نعم، يعرف , وقلت لك إنه كلفني أن أبلغك ترحيبه بك. أصحاب القبعات العالية، وإن لم نبلغهم أحياناً،وهم شوكة في أعيننا، نقول فيهم ما لا يجوز لأننا اعتدنا على هذا؛ فألكسندر إيفانوفيتش ليس إنساناً سيئاً لولا أن حاشية الجنرالات المحيطة به تفسد أخلاقه.حسناً أريد أن أرفع كأساً على الواقف مع انصرافي: أرفع هذه الكأس من أجل ألا تتوسع الحرب في شمال القفقاس وتنتهي قضية الأديغة بالسلام، وتتقدم أعمالك.

ـ هذا لا يتعلق بنا يا بارون؛ فوقنا من هم أعلى منا.

ـ نعم، نعم. هم فوقنا، ولكن ألسنا أحراراً في أن ندعو إلى الله ونتبادل الأنخاب ؟

ـ نعم نحن أحرار، ولكن بعد الله لا أحد يمكنه أن يسلبنا إياها.

ـ لن تقول أصدق من هذا ولكن آمل أن يبقى كلامي إليك بيننا يا خان جري.

ابتسم خان جري وسأل الضيفَ المنصرف:

ـ ألستَ واثقاً بي يا بافل ؟

ـ أكنت ائتمنتك على أسراري لو لم أكن واثقاً ؟

ـ هذا حق. ولكن اغفر لي ـ لن أستطيع إلا أن أسألك يا بافل ألكسندروفيتش ـ أوقفه خان جري بين دفتي الباب:. لماذا اليوم بالذات، خلافاً للسنوات الكثيرة التي نعرف فيها بعضنا تبوح لي اليوم بما في قلبك نحو الأديغة ؟ أ لأني أديغي ؟

ـ أيها المحترم خان جري ـ أبعد فريفسك يده فجأة عن مقبض الباب كأنما أحرقته وقد بدا من وجهه الممتقّع تألُّمه مما سمع ـ لو عرفتُ أن هذا هو رأيك فيّ لما فتحت لك قلبي !

ارتجفت يد خان اليمنى على مرأى من فريفسك،ولكن دون أن يفهم سببه،وتشنجت أعصاب ساقيه وفخذيه، وقال لضيفه وهو في هذه الحالة ناسياً نوبته الخاطفة:

_ سامحني يا بافل ! لم أقصد الإساءة إليك. حين بقيتُ في إقليم الأديغة بعدكم بين الجنرالات غولوفين ورابيفسك وتروسكين من جهة،وبين بولتقوه وشروخقوه ودغومقوه وزعماء ووجهاء أسرة تسي، صرتُ حساساً للإهانة. ومن حسن حظي أن الجنرال غرابيه هناك، وهنا في مكتب الخدمة أنت. كنتما بجانبي. لن أسمح لك أن تخرج من غرفتي وبيننا أي سوء تفاهم. هات يدك يا أخي !

أفهمك يا خان جري، أفهمك _ مد فريفسك يده راضياً _ وأنا لم آت إليك لأسبب أي إشكال بيننا. اغفر لي أنت أيضاً ما أسمعتك من كلامي. أريد أن أعرّف الناس، كما أعرفك، أنك أديغي صادق كما أنك ضابط روسي مخلص. أفهمُ أنك بين نارين. ولأني أعتبر موقفك هذا رجولة، وإن لم أعرف كيف أفيدك، فقد صرتُ أقرب إليك بقلبي. وكما يقول أبناء قومك الأديغةُ، عشاقُ الحرية، ففرحُك فرحي وحزنُك حزني. تركتك بخير يا خان جري ! أنتظرك غداً في المكتب العسكري عند شيرنشيف. احرصْ على صحتك فما يزال أمامك كثير مما يجب أن تخدم به قومك؛ وهذا أهم شيء !

لم يكن خان جري ليترك النافذة ولو أن عربة فريفسك اختفت وراء المنعطف. رفع قودانت المائدة، ودخل الغرفة وخرج. وفي المرة الثالثة سأل المحترم ذا المزاج المعكَّر:

_ أأجهِّز العربة ؟

_ لا، الآن سأخرج من الغرفة _ قال خان جري الذي خرج فجأة من بين أفكاره، وسحب ساعة أبيه الفضية من جيبه وفتحها. أشارت الساعة بأغنيتها الناعمة إلى وقت الظهر. ومع أنه كان لا يزال على موعد الكونت بنكندورف ساعةٌ كاملة فقد ترك النافذة على عجل ونظر في المرآة، ونفض الغبار عن كتفيه، وأصلح وضْعَ رتبه الذهبية، وتأكد من أن شارة ممثل القيصر تتدلى على نحو مستقيم من صدره، ولاطف أطراف سترته بأصابعه الدقيقة، وشدّ الحزام الذي كان من البداية في وضع صحيح، وأوثق إلى جانبه مسدسه وسيفه وقامته.

" أستحقُّ كل ما يقال لي _ غضب خان جري على نفسه وهو يتفقد زيَّه الأنيق من خلال المرآة _ حين قال لي بافل: لا أعرف إن كنت تنوي الذهاب إلى مكان ما أو أعطّلك عن عملك كذبتُ عليه فقلت: لا، كنت أنوي الذهاب إلى مقاتليّ أفراد السرية هنا. أهذا سلوك صحيح ؟ لا أزال أعامله بحذر لا حدود له. وقد لمح لي به فيليامينوف ورابيفسك مرة. وكان توغوظقوه قازبك يقول لي معاتباً: لا تُصارحُنا بحقيقة ما في قلبك، سواء أكنا وحدنا أم في جماعة؛ فكيف نثق بك ؟ سنرى كيف كنتم ستتصرفون لو كنتم أنتم في موقفي، لو وقفتم أمام الكونت بنكندورف، لو كان هو من ربّاكم "

وكأن من يراه في المرآة لم يكن هو بل شخص آخر يتجسس عليه،ابتعد خان جري معاتباً نفسه ناصحاً إياها.وركب العربة محادثاً نفسه: " احذرْ يا خان جري، حين تفقد التحكم في صبرك سترتكب أمام الناس

المثالب، وسيغلبك مرضك وتبقى وحيداً في الساحة، يهزك من ينفخ عليك " ولم تفارق هذه الفكرة رأسه حتى وصل إلى مكتب الكونت بنكندورف.

لم يتغير شيء في القصر العالي الفخم الذي لم يضع فيه رجله منذ سنتين. كل شيء على حاله، اللهم إن لم يغيروا بعض سطوح التوتياء، وإن لم تتهرّأ بعض درجاته الحجرية. ربما كان العقيد الشاب الجالس على باب قائد الجندرمة من جيله، وصورة القيصر والمصابيح والبوابة الواسعة، كلها على حالها. وما إن دخل ممثل القيصر الغرفة حتى نهض له العقيد، ونظر إلى الساعة وقال له مرتاحاً لوصوله في موعده:

_ ألكسندر كريستوروفيتش في انتظارك !

لم ير خان جري في الغرفة التي دخلها أي تغيير إلا الشيب زاد في شعر ألكسندر كريستوروفيتش، كما زادت الأوسمة النفيسة على صدره، وغدا وجهه أنحف عن ذي قبل، ومِشيته أضعف. استقبله كما في الماضي بوجه بشوش:

_ تفضَّلْ، تفضل يا خان جري _ يسرني رجوعك. أنظر إليك يا محترم فأراك صرت في هيئة الرجولة. وهذا هو التغير الوحيد عليك. لا، شاب شعر صُدغيك. صحيح يا خان جري أنك تبتسم لي غير أرى حزناً في عينيك. أفهم وأعرف مهامك، تعبتَ كثيراً في نواحيكم، ولا عجب في هذا _ حرب ! نعم، نعم. لم يبق في الموضوع سرٌّ. تجري الحرب ويُسفك الدم في هذا الجانب وذاك، غير أننا راضون عنك، لا نستطيع أن نتهمك بالتقصير في العمل في ناحيتكم.

_ شكراً يا جنرال _ تسمّر خان جري أمام الكونت مسبَل اليدين _ أرى ما أنجزتُه قليلاً لا كثيراً. لم أستطع يا ألكسندر كريستوروفيتش، حيث كنت،إقامة سلام بين الطرفين.

_ عن أي طرف منهما رضاك أقل أيها العقيد ؟ سأل وهو يذرع به أرض الغرفة وقد أمسك بساعده كما كان يفعل في الماضي.

_ سأقول ما في قلبي، ولن أخفيه يا ألكسندر كريستوروفيتش. لست راضياً عن أحد منهما.

_ الأخبار التي تصلنا كانت تقول إنك تنحاز إلى قومك وتقلق عليهم._ قال الكونت بنكندورف بلا مبالاة. وتوقف وعيناه الزرقاوان تخرقان عيني خان جري. ثم غيّر سحنته فجأة إلى البشاشة: _ ولكن ما كنت أصدقها. كان في ما يشيعه أعداؤك شيء من الصدق. لا تستغرب يا خان جري، ولا يخطرْ لك شيء آخر ! ليس فريفسك الذي كان عندك صباحاً، إن لم ينفعك فلم يضرك. ولم أكن أثق به كثيراً لأنه من أتباع شيرنشيف. تبيّن أن البارون فريفسك منصف لك. وأنا راض عنه. متى ستقابل وزير الدفاع ؟ _ سأل بصوت أجشّ.

_ لم أجد من اللائق مقابلته قبل مقابلتك.

_ أعرفك يا خان جري، أعرفك _ فرح الكونت دون أن يستطيع إظهار فرحه. واختتم باختصار: لا حاجة لأن تقابله. ألست تحتفظ بإيصالات النقود التي أنفقتها، أما حضّرتَها ؟

_ نعم، وبجانبها 900 سومة متبقية.

حين سمع الكونت بنكندورف بموضوع النقود ابتسمت عيناه من تحت حاجبيه الخفيفين معبراً عن ارتياحه لعدم طمعه فيها. ثم بعد انقطاع قصير قال بحيث لا تدري إن كان في كلامه شيء من المزاح:

_ أغْنيتَ بهذه التسعمئة سومة وزيرَ الدفاع الذي لا ينفك يحتاج إلى المال. أعِدْها إلى مسؤوله المالي باليد.

توقف الكونت بنكندورف ثانية قليلاً: _ المرجع الذي يجب أن تسلِّمه نتيجة مهمتك إن كانت ناجحة أم لا هو شخص آخر: قيصر روسيا العظيم. وأنت ستتصرف تَبَعاً لرضاه عنك وتقييمه لعملك.

_ ولكن يا ألكسندر كريستوروفيتش _ أرعبته المشكلة التي لم ينتظرها _ لا سلام حيث كنت.

_ لا تلمْ نفسك ولا تُفْنِها ! كلمة السلام لها معان كثيرة. أنت عملت أكثر مما في طاقتك _ توقف لحظة ثم أكمل: _ لا تكتم حين تقابل القيصر أنك فهمت صعوبة إنشاء السلام في مجتمع لا يعرفه.

_ متى سيستقبلني القيصر العظيم ؟ _ سأل خان جري وقد عاد إليه شيء من شجاعته وتقديره لنفسه.

_ لا أقول اليوم ولا غداً. هذا يتعلق بقراره.ولكنه كان قد سأل عن موعد وصولك إلى بطرسبورج. فكِّرْ في ما يمكن أن يسألك عنه، وحضِّر نفسك للإجابة. وسأطلعك على أمرين هما ما أعرفهما كُرمى لمشاعري الودية نحوك، ولا يجوز أن يعرفهما غيرُنا: الأول: عدم استقبال ممثلي الأديغة له في غيلينجيك، والثاني أنه اعتبر حديث الأمراء إليه في ستافروبول بلا قيمة. ولذلك احذر أن تلمِّح له إلى إمكان تنصيب حاكم من الأديغة عليهم قبل أن يضعوا السلاح ويصالحونا؛ دون أن يعني هذا أننا لن نعود إلى مناقشة هذا الموضوع حين تنتهي الحرب في ذلك الإقليم، وندخل في تفاصيل السلام. ربما ؟ من يدري ؟ قد تكون أنت مرشَّحاً!

_ شكراً يا ألكسندر كريستوروفيتش، تخدمني بما لم يكن والدي ليخدمني به لو كان حياً. تغمرني بمعروفك واستقامتك، وأنا أتقبلهما. ولكن الموضوعين اللذين ذكرتَهما لي أفضى بهما إليّ قيصرُنا العظيم ونحن في شمال القفقاس، واحترمتهما.

_ هكذا ؟ ! _ سأل الكونت دون أن يبدي عدم معرفته بما سمع، مستغرباً عدم إطلاع القيصر له على ما جرى، معاتباً في قلبه من لم يُطلعه، متظاهراً بعدم المبالاة._ هكذا سهّلتَ مهمتنا. ولكن هذا لا يعني أن لا تكون مستعداً لشيء حين تقف في حضرة القيصر العظيم؛ فأنت لا تحمي بهذا وجهك فحسبُ بل وتحمينا، وتحمي سريتك الجبلية التي تقودها. كل هذا حسنٌ أيها العقيد. والآن اجلس هنا _ جلسا إلى الموقد الكبير المحفور في الجدار العالي _ سأسألك عن أمر آخر: كيف صحتك ؟ ما أشدُّ ما يُقلقك ؟

_ ربما جروحي يا ألكسندر كريستوروفيتش. أحياناً يؤلمني جانبي الأيمن _ أخفى خان جري الخِدر الذي يهيمن على رجله ويده.

_ على قولك يا خان جري جروحك تنتكس... هذا لا يجوز. سأطلب من أمهر أطباء بطرسبورج معالجتك حين تقرر. لا تُخْفِ شيئاً ! _ وشدد على هذه الكلمة _ لا يُداوى المرض بالتحمل والصبر، بل بالطبيب الخبير.

_ شكراً يا ألكسندر كريستوروفيتش... لا أشعر بخطورة في وضعي الصحي _ كتم خان جري الآن أيضاً مرضه، واختتم بسؤال مازح: _ أبقي في هذا العصر شاب أو عجوز لا يؤلمه شيء ؟ !

هز بنكندورف رأسه بسبب ما سمعه:

_ لا مزاح مع الصحة ! ولكن إن كان رأيك هكذا فاستأنف عملك في السرية _ نهض الكونت، ثم صاح، وقد تذكّر أمراً مُلِحّاً، وراء من خرج: _ نسيتُ يا خان جري في غمرة الحديث في قضايا البلاد أن أعزيك بوفاة جدتك. ومثل هذا الواجب يجب تأديته ولو متأخراً. حزنّا حين سمعنا الخبر، وأسفنا لعدم تمكنك من حضور الجنازة لانشغالك بقضايا البلاد. ليوجّهها الله إلى الخير حيث حلّت وليغمرها برحمته ! كنا نسمع أنها امرأة حكيمة. نحن راضون عنها لأنها لم تعبأ بمن تحالف مع تركيا فلم تقف حجر عثرة في طريقكم. ومثل هذه التصرفات الحميدة لا تنساها روسيا.

_ شكراً يا ألكسندر كريستوروفيتش. لم تكن جدتي مجرد امرأة حكيمة بل كانت تتحلى بالثبات والفطنة والصبر. لا أظن أحداً غيرَنا يعرف بما سببنا لها من مصاعب. غير أني أحزن لأنها كانت تتفاءل بالمستقبل فرأتْ بعينيها المأساة التي كانت ترتعب منها _ قال خان جري دون حقد ودون تلميح، واختتم بحزن لا تحفُّظَ فيه: _ كانت جدتي أهمّ سندٍ لآمالي في الحياة، وحين تعقّدت أموري ووجدت نفسي في أحرج موقف فقدتُ تلك الدعامة الوحيدة.

" ونحن إذن ؟ " كان بوُدِّ الكونت بنكندورف أن يسأل خان جري، غير أنه لم يستطع الإفصاح كأن أحداً دفعه دفعة لطيفة بمرفقه.

V

عشية اليوم الذي سيحل فيه العامُ الجديد عام1840 اتّضح المرض الذي كان خان جري يخفيه: ارتجفت موسى الحلاقة على خده، وفيما هو يوقف نزيف الجرح الخفيف خدِرت رجله ثم تشنجت. بقي أمام المرآة لأياً دون حراك، والصابون على وجهه، متأملاً أن يدع التشنج رجله _ لم تتحسن ولم تسؤ _ ترك المرآة بحذر وجلس على المقعد الوثير. أفلت التشنج يده اليمنى التي يدلكها باليسرى، غير أنه كان قد فقد الإحساس برجله.

" أخشى أن يكون أمري انتهى هنا... _ غزت رأسَه الكلماتُ التي لم يكن يجرؤ على النطق بها منذ مرضه ولكنه نهر نفسه: _ ما الذي جرى لي حتى يتملكني اليأس ؟ أهذه المرة الأولى التي يهاجمني فيها مرضي ؟ لا داعي لليأس إلى الآن إن شاء الله، لا يزال قلبي ينبض، ولا يزال عقلي سليماً، ولايزال تفكيري صافياً. وأنفِّذ توجيهات الطبيب الذي كلفه ألكسندر كريستوروفيتش بحذافيرها.وأبعدت كل ما كان يقلقني فلا

أحتفظ في قلبي إلا بالخير. لا أعرف ما حدث لي فقد جرت أموري على نحو جيد في الشهر الذي عدت فيه إلى بطرسبورج. أقول: ربما مكتب عملي ؟ ولكن بفضل الكونت بنكندورف والبارون فريفسك أخذوا أوراقي دون انتظار، ولم يعلّقوا عليها بسوء. ويتابع ألكسندر كريستوروفيتش موضوع لقائي بالقيصر... كنت أستطيع مقابلة القيصر هذه الليلة في الاحتفال؛ كانت ألكسندرا فيدروفنا ستطلبني إلى الرقص.من حسن حظي أن مرضي أنذرني قبل الحفلة.. لو داهمني هناك لجلبت لنفسي العار أمام تانيا وأمام الآخرين.. ما العمل الآن؟

ـ يا إسماعيل ! نادى خان جري إلى خارج الغرفة، وقال له لما دخل: ـ احلق لي حلاقة ممتازة، لا أعرف ماذا حدث ليدي ـ أخفى حاله أيضاً عن خادمه، ولمس يدَه التي رجعت إلى طبيعتها دون الاهتمام برجله ـ كانت قد خدرت قليلاً.

ـ لم يأت هذا في وقت مناسب يا محترم وأنت تستعد لمخالطة الناس ـ قال إسماعيل بلهجة فيها شيء من اللوم ومزيد من التفكير، حزيناً لما سمع من الخبر الذي انتشر في السرية، وأبى أن يصدّقه؛ فمن يعرفُ بوضع خان جري إن لم يعرف هو ؟ ـ سامحني يا محترم أنت تهتم بما ليس ضرورياً... ليس قليلاً ما عانيتَ من آلام مما يعتمل في صدرك في شأن الأديغة. لم تقصّر في شيء وإن لم يصدقوا فليسألوني أنا ! فعندي ما أقول لهم. أعجيب أن تخدم في الجيش الروسي ؟ هاهو زانه سفربي يخدم في الجيش التركي !

ـ موضوع زانه سفربي مختلف يا إسماعيل؛ دعنا من الكلام على هذا الرجل الممتاز الذي احتُجز في تركيا. لا عدالة عند تركيا، ولا عند روسيا !

ـ هكذا ؟ ـ رفع إسماعيل الموسى عن خد خان جري وسأل بسرعة، وبرّأ نفسه: ـ أنت أدرى بهذا، ونحن ماذا؟... سامحني يا محترم، أنا بعيد عن موضوعات الدولة.

ـ كيف تكون بعيداً يا إسماعيل ـ مزح خان جري مسروراً بعودة الوعي إلى رجله ـ وأنت من حماة القيصر العظيم ؟

ـ أليس هذا ما يمنعنا من أن نقول ما نريد ؟ ولكن أنت يا محترم اهتمَّ بنفسك دون أن تقلق لأشياء أخرى!

ـ بأي حجة أهتم بنفسي ؟

ـ لا تؤاخذني، سأقول لك هذا أيضاً ـ تلعثم إسماعيل قليلاً فحكّ رأسه: ـ كيف أقول هذا ؟... كما أن أمراء الأديغة وأمراء الروس يعتنون بأنفسهم أريدك أيضاً أن تفعل هذا.

ـ على ما يبدو يا إسماعيل ـ في اللحظة نفسها رجعت الحركة إلى رجل خان جري ـ لم أعد أميراً أديغياً، ولا تشبّهني بالأمراء الروس؛ فما أصلي ؟

_ لا تظنَّ يا محترم أني لا أعدّك أميراً أديغياً لأن ميولك نحو روسيا؛ هكذا أكون أتّهمك بما ليس من ذنبنا. لا جعلني اللهُ أرى نفسي مثل أمراء شيركاسك الذين حالفوا روسيا حيناً فنصّروهم ! أريدك أن تجمع بعض الثروة كما يفعل الأمراء والجنرالات والضباط الأدنى منك رتبة.

_ حسب رأيك نحن هنا لجمع المال _ ضحك خان جري مخفياً انزعاجه مما سمع.

_ لا أستطيع أن أقول هذا عنك يا محترم , ولكن بالنسبة إلي لو لم تكن لديّ مثل هذه النية لما جئت إلى هنا. أنا جمعت شيئاً من المال يكفيني إن عدت إلى مسقط رأسي. ألا يطعموننا ويكسوننا ويدفعون لنا أجرنا... بما أني بدأت هذا الموضوع فسأسمعك شيئاً من أمنياتي يا خان جري. وآمل أن تساعدني.

_ أنا طريقة جمعي للمال مختلفة يا إسماعيل. لم تقل شيئاً خطأ ولكن... _ لم يُظهر خان جري الألم المفاجئ لقلبه _ ولكن إن أردت الحقيقة فلكلٍّ طريقته في كسب ماله. لم أتوجه إلى روسيا لأن ما تركه لي أجدادي لا يكفيني. وربما كان في سلوكي شيء لا أفهمه أو خطأ ما , وصدف أن اتهموني بما ندمت عليه. لست نادماً على أني لم أتجه إلى تركيا، بل نحو روسيا.

_ مع ما يفعله بنا من نخدم معهم يا محترم ؟ !

_ نعم يا إسماعيل، نعم. "لا تُعادِ جارك حتى لو عاديت قرية كاملة". من المعيب أن تعلق آمالك على من لا تعرف من هو. وهذا الجار هو من سيصل إليك وقت الحاجة قبل غيره، وهو من سيمد إليك يد المساعدة. نحن الأديغة انتكبنا بفعل افتقارنا إلى دولة وبسبب حريتنا التي لا ضابط لها. وهذا السبب نفسه هو من يودي بنا إلى هاوية لا عودة منها.

_ يا محترم ما أمرَّ كلماتك وما أقساها ! _ نظر إسماعيل إلى خان جري نِظرة بائسة.

_ نعم، ليس في كلامي ما يُستغرب، ليس فيه إلا ما يؤلم. ماذا يمكنك أن تغير فيه ؟ لم تبدأ المصيبة من عندنا ولن تنتهي بنا. كلُّ قومية صغيرة لا تعي نفسها في الوقت المناسب ينتظرها هذا المصير. من البديهي أن يصرع القوي الضعيفَ، وهذا ما يحدث لنا اليوم. ما يُدريك ما سيحدث في المستقبل ؟ ولن نستطيع مخالفة كبارنا المعاصرين. ثم إن قلبي يحدِّثني أن الأديغة لن يجدوا السعادة في الدولة التي يضمونهم إليها بإرادتهم أو بغيرها... الأديغة الأحرار الذين يثمنون الحرية منذ الأزل _ قال خان جري وهو يهز رأسه ويتنهد ناسياً أنه ليس وحده: _ كان الأفضل أن تفكروا في دولة تلجؤون إليها وتضمكم بدلاً من أن تغترّوا بجبالكم البيضاء القمم وغاباتكم الفسيحة وسهولكم الخصبة وأمواجكم المتلاطمة، وتتبادلوا الأنخاب وتتباهوا بأنفسكم، وأحياناً يشي بعضكم ببعض فتتقاتلون. ثم تجلسون في المضافات التي تشبه صدور قمصانكم غير المزررة فتتغنون بالبطولة وتذمون الجبن.

_ والله صحيح يا خان جري ! _ قال إسماعيل فجأة دون وعي.

_ ماذا قلت ؟ سأل خان جري بصوت عالٍ وهو يعود إلى وعيه _ لم أقل شيئاً، ولم تسمع شيئاً يا إسماعيل.

ـ نعم، نعم يا محترم، لم تقل شيئاً، ولم أسمع شيئاً ـ حسم قودانت الموقف باختصار كما اعتاد في مثل هذه المواقف.

ـ قل لي إذن ما الذي تتأمله مني ؟

ـ بعد ما سمعته يا محترم لن أقول شيئاً طوال عمري.

ـ لن أحرجك إن كان سراً، ولكن إن كنتُ أستطيع أن أفيدك فقل؛ لم يعد بيننا عدم ثقة.

ـ أيمكن ألا أثق بك يا محترم ؟ أنت أملي الوحيد هنا ـ قال إسماعيل ثم تراجع ـ يأتي الوقت الذي حددته يا محترم، وعربتي جاهزة. ثم توقف فجأة عند الباب: ـ إن كان هذا رأيكَ فليتك توسطت لي ليمنحوني لقب الضابط حامل العلم. لن أنسى لك هذا المعروف ما عشت، وستكون قريتي كلها راضية عنك.

ـ وماذا تفعل بالضابط حامل العلم؟

ـ أحتاج إليه... في ناحيتنا، على ضفة لابا وبشزة، يقال إنهم يمنحون الأراضي التي طُرد منها الأديغة لمن يحمل لقب ضابط، أأخدم في الجيش الروسي عبثاً ؟

ـ ماذا قلت ؟! جعل الحديث خان جري يصرخ، ولكنه أجاب وقد نبّهه مرضُه: ـ أستطيع أن أساعدك في اللقب يا إسماعيل. ولا أقول إنك لا تستحقه، ولكنك قتلتني بقصة الأرض التي أضفتها إليه. وهكذا لا فائدة في كل ما قلناه وفي كوننا أديغة. ألستَ من قال إنك لا تريد أن تغتني على حساب فقر أحدهم ؟

ـ بلى يا محترم ـ راوح إسماعيل عند الباب :فهمت... " الماشية تجبرك أن تترجل من الحصان " ما كان يقوله والدي واجهته اليوم... ليت لساني قُطع قبل أن يخرج هذا من فمي.

ـ إن كنت فهمت يا إسماعيل فهذا جيد ـ قال خان جري وقد أشفق الآن على خادمه ـ ولكن لا تُسمعني بعد الآن مثل هذا الكلام، سأدخل إلى الغرفة الأخرى، سأحتاجك بعد قليل.

نهض خان جري حريصاً على رجله. وبدأ يتمشى على أرض الغرفة " لا، لم يعد فيها أي عيب، وخرج ـ أستطيع أن أعتمد عليها وأشعر بأصابع قدمي، وتطاوعني ركبتي وما حولها. أأذهب إذن إلى حفلة القيصر؟ إن فعلت فسأرى الأصدقاء الذين اشتقت إليهم خلال سنتين. وسأصحب تاتيانا التي انتظرتني كل هذه المدة إلى ما بين الناس. يوم واحد خلال السنة يستقبل فيه القيصر الناس. وسيكون الضيوف نخبة بطرسبورج. رأيت القيصر في القفقاس، ولكن التي لم أرها خلال سنتين هي ألكسندرا فيدروفنا القيصرة. أتراها ترقص كما في الماضي مُحافظة على رشاقتها ؟ إن سألتْني عن أوضاع الأديغة فأنا أعرف الآن ما أجيب به. وإن قابلت القيصر نفسه فربما أخبرني بموعد استقباله لي. وما طلبه مني إسماعيل ؟ يريدني أن أساعده في الحصول على لقب حامل علم فيحصل على ما يسلبونه من الأديغة. أقول: عقله لا يستوعب الموضوع غير أنه لم يعد شاباً، يصغرني بثلاثة أعوام فقط. وليس مجنوناً ولم يتجنبه العقل.ليس اليوم، قال هو نفسه، نبتت في رأسه هذه الفكرة، ولكن يجب أن تغفر له لأنه رجع إلى وعيه فاحترم نفسه. مهلاً، مهلاً !

ماذا أقول ؟ قبل أن تحاسب غيرك حاسبْ نفسك ! أليس جدي ووالدي، بسبب تحالفهما مع الروس، أُقطعا وراء نهر بشزة ديسياتينات كثيرة[1]. وهذه أيضاً كانت يوماً أراضي للأديغة الذين أُجبروا على النزوح فاجتازوا إلى الضفة الأخرى. ألوم إسماعيل وأُحرجه ولكنه في الحقيقة لا يتكلم في موضوع لا يعرفه.

خُيِّل لخان جري أنه يسمع صوت عربة. هاجمته أفكاره مجدداً لأن الدار كانت خالية " أأذهب إذن إلى حفلة القيصر ؟ " وإن صرعني المرض وأنا بين الناس الصاخبين المرحين، أو خلال محادثة القيصر لي، أو مرافقة القيصرة، أو أنا أرفع كأساً مع تاتيانا؟ لا، لا، لن أذهب إلى أي مكان، لن أفضح نفسي أمام أصدقائي أو أعدائي " أمسك خان جري القلم والورقة بسرعة: " تانيا سيكون رضاي عنك بلا حدود إن عرفت أن ما أكتبه لن يحزنك. صدّقيني وافهميني، انتظرت مثل هذه الليلة وأنت في قلبي وأمام ناظري. ولكن ما العمل ؟ الله لم يحقق لي أمنيتي. أنا متوعك، لم أشكُ طوال عمري إلى أحد، ومعارفي يعلمون هذا وأنتِ أيضاً. حسب وضعي اليوم، لا، لا، لا تفكري في شيء سيئ. لا خوف عليّ. لا أستطيع حضور أمسية قيصرنا العظيم. حين نلتقي سأشرح لك تفاصيل مرضي المفاجئ، أظنه من عقابيل جراحي. لا تغيبي عن الحفلة. تزيني وامرحي وتحملي من أجلي، لا من أجل غيري. بعد أن يخطب قيصرنا، حين حلول السنة الجديدة، حين ترفعون الكأس، تذكّريني ! سنرى السنة الجديدة معاً في نظراتنا إليها.سندعو إلى السنة الجديدة ألا نفتقر إلى السعادة والفرح والحظ. أنا نفد صبري إلى موعد لقائنا القريب. وداعاً، أعانقك بحرارة ولطف. وأمسّ شفتيك الحلوتين الحارتين.تانيا لم يكن من الضروري أن أقول لك هذا _ أضاف إلى آخر الرسالة _ لا أشك أن فطنتك ستستوعب هذا الأمر. كان بودي ألا يعلم أحد بتوعكي. أخبري كل من يسأل عني أني في حالة حداد ".

أرسل خان جري رسالته مع قودانت إسماعيل وهو يلوم نفسه على سلوكه ويندم عليه.

وحين انصرف إسماعيل من أمامه كان قد خيل إليه أن صدره ارتاح،ولكن قلبه لم يكن في الغرفة الخالية. ولو عرف عادل جري الذي سأله أن هذا سيحدث لما تركه. ولم يكن مضى زمن طويل على خروج قاز جري ونغومه شوره وبدس ممت جري وتغانه أسلانبك... "ما أقسى أن يصطادك المرض وأنت لم تعش أكثر من اثنين وثلاثين عاماً، وفي الوقت الذي يختاره هو ! _ يلوم خان جري نفسه ويهز رأسه معاً _ ثم لو كنت تعرف أي جزء من جسدك سيصيب، وفي أي وقت لما كانت هناك مشكلة. لو عشت ما يعيشه الإنسان عادة ! ليس عدلاً ما يجري لي الآن في الوقت الذي ستنحل فيه أموري. أفضّل أن يأخذني مرضي على أن يتركني مُقعَداً. ماذا استفدت مما تحقق لي ؟ لست ممن أسس أسرة، لم أربِّ من يخلِّد اسمي. أخدع تانيا عبثاً، لا أستطيع مصارحتها بحقيقة حالي. ومع علمي بمعرفة ألكسندر كريستوروفيتش بأخباري لم أستطع أن أجيبه على سؤاله. وكتمته عن فريفسك. بل لم أصارح به أخي وهو الوحيد الذي ولدته أمي في

[1] سبق تعريفه، وهو وحدة مساحة تساوي 1,6 هكتار. المترجم

هذه المدينة الكبيرة. إن هدّني المرض... أفكر في نفسي فأقول: من أنا ؟ لم يبق عندي طموح في أن أصبح مثل أخويّ المنفتحين بقلبيهما وروحيهما. إذن أُخلقت من طين أم من عجين أم من تراب ؟ "

فتح خان جري الساعة الفضية ونظر إلى عقاربها دون أن يستمع إلى الأغنية الصاخبة التي تصدر منها. أصوات البنادق الصاخبة تشير إلى أن ليلة رأس السنة الجديدة تجاوزت العاشرة. وفي الغرفة المجاورة تُسمع أصوات آنية إسماعيل الذي أرسله قبل ساعة إلى تانيا " أيكون سلّم البواب العجوز ما أرسلتُه إلى تانيا ؟ قال خان جري وارتسم أمام عينيه ترحيب العجوز دائماً به، ومنظر تانيا البشوش في أعلى السلم الحجري، فعصر الألم قلبه _ مع من يا ترى ستذهب إلى الحفلة ؟ لولا أن أليكس شغوف بالشراب لهان الأمر. لو وقعت تانيا في مجموعة محترمة لكان حسناً. الاحتفال بالسنة القديمة التي يودعونها في أوجِهِ الآن، ويتبادلون قرع الكؤوس والابتسامات ويرقصون... أنا واثق من أن تانيا ستحترم نفسها، الخوف من الجنود الخفاف الذين يلاحقونها بحجة " سأراقصك وسأبعث فيك السرور ". حين أكون معها لا أحد يمازحها مزاحاً سخيفاً. لا،ما كان يجب أن أرسلها وحدها، أكان يحدث لي ما لا يحدث لغيري من الناس ؟ ! كان من الممكن أن ننسحب بهدوء عند أدنى شك. ولكن لو استولى عليّ المرض أمام تانيا ؟

توقّع أن يكون صوت العربة الصادر من جهة البوابة الكبيرة صوت عربة قاز جري أو شورا أو عادل جري؛ غير أن المفاجأة كانت ظهور تاتيانا على الباب. تعجبت المرأة التي ملأت الغرفة بعطرها مما ترى:

_ يا خان، يا روح قلبي؛ أأنت هذا ؟! ظننتك في الفراش، ماذا جرى لك ؟

_ يا تانا لماذا جئت إلى هنا ؟ _ ما يراه أفرحه من داخل قلبه _ أما كان يجب أن تكوني في حفلة القيصر؟

_ وكيف كنت أذهب من دونك ؟ نفد صبري حتى عرفت مرضك، أأنت مريض أم أزعجك أحدهم؟ لا تكتم عني !

_ حالاً يا تانا، حالاً؛ أعطيني معطفك !

_ لا، لا، لن أخلعها. لا يناسبنا _ لا أنت ولا أنا _ موقع عسكري،سواء كنا مرضى أم أصحاء، ولا يؤاخذْني زملاؤك في العمل، لن أدعك تستقبل العام الجديد هنا. لم أرك في مثل هذه الحالة منذ تعارفنا. اِمضِ ! لن أدعك هذه الأمسية في هذه الغرفة سواء استطعتَ أم لم تستطع.

_ اطمئني يا تانيا، لم يزعجني أحد. إن طلبت مني الانطلاق فأنا جاهز. ولكن لن أستطيع مرافقتك إلى حفلة القيصر، ولن أستطيع أن أشرح لك هنا السبب. سأطلعك لاحقاً على المرض الذي يلجمني.

_ إذن لنمضِ إلى بيتي، لم يبق على السنة الجديدة إلا ساعة واحدة.

***

رغم أن خان جري لم يُطلع غيرَ تانيا على مرضه الذي يتكتم عليه فقد أُشبع الخبر الذي خرج من مقر السرية في الشهرين الأولين من العام الجديد اجتراراً. بقي خان جري في المشفى العسكري ثلاثة أسابيع

فقط، والخبر الذي يقول إن أمهر أطباء بطرسبورج، بمن فيهم طبيب القيصر، عالجوه وفحصوه، وأوصوا بمعالجته في كيسلوفودسك أو بيتاغورسك أو جيليزنوفودسك، خبر أكيد.وحين سمعت تانيا بالخبر لم تتصرف كما فعلت قبل سنتين، وهذا ما سرّ خان جري وسهّل عليه سفره وشجعه عليه، ولكن ما عجّل لقاءه بالقيصر هو الطلب الخطي الذي رفعه الكونت بنكندورف.

خلافاً لاستعداد خان جري لهذا اللقاء، وللقلق الذي عاناه أياماً وشهوراً، استقبله القيصر بلطف أكثر مما في لقاءاته السابقة. ومزح معه وهو يُثني عليه:

_ أراك يا خان جري في مظهر ممتاز كما لو أن العامين الثقيلين الماضيين يخافان أن يؤثرا فيك. كأن أطباءنا سببوا لك المرض لأنهم لا يعرفون رجولتك كما نعرف نحن. ما رأيك يا ألكسندر كريستوروفيتش؟

_ الحق معك يا قيصرنا العظيم _ أجاب الكونت بنكندورف باختصار.

نعم، نعم مرافقي يتمتع بالرجولة والثبات. أنا واثق أنك ستشفى من مرضك أيها العقيد. أنت تجاوزت مواقف أصعب. روسيا الدولة العظمى تحتاج إليك وراضية عما فعلت لأجلها، وتتأمل منك إنجازات أعظم.

_ شكراً يا قيصر روسيا العظيم _ شدّ خان جري قامته في حضرة القيصر _ أنا مخلص لك في حياتي.

_ شكراً لك أنت أيضاً على إخلاصك لي يا عزيزي. لا تنسى روسيا من أحسنوا إليها، تقدّرهم وتثمّن أعمالهم غالياً. استقبلناك اليوم لنشكرك على إنجاز ما كلفناك به. أفهم ما يدور في خلدك هذه اللحظة. أنت وأنا لم نقصّر مع أبناء قومك ولو لم يطيعونا.حين سافرت إلى القفقاس كان بين رعايانا وغيرِهم من قال: إن قيصر روسيا العظيم لم يحقق أهدافه. ولكن هؤلاء مخطئون جداً. نحن عملنا واجبنا، لا أدري كم تطول الحرب، غير أننا أفهمْنا العالم كله أنه لا شك في أن القفقاس لنا. لم تقصّر في واجبك كسفير للسلام،وقد خصصناك بهذا السيف الفضي اعترافاً بمهمتك وذكرى لها.

لحظة تناول السيف من القيصر نظر نحو الكونت بنكندورف لأنه كان يعرف أنه لا يجوز، حسب تقاليد القوزاق، إلا أن يدفع فيه ولو ثمناً رمزياً. فقال بنكندورف:

_ لا تنقض التقاليد أيها العقيد، هات ولو كوبيكاً واحداً !

أخذ القيصر قطعة الكوبيكات الخمسة وهو يضحك، وقابله بمزحة:

_ لم يفرغ كيس المال تماماً ولو أن سيف الفضة أغلى من خمسة كوبيكات. سمعت أيها العقيد أنك مسافر إلى بسه فابه (بيتاغورسك) فلترافقك السلامة ! عد إلينا معافى رابط الجأش قوي الروح.

ما إن صار خان جري وراء الباب حتى قال القيصر:

_ هذا الذي أُرسلُه إلى دياره أيمكن أن يضرنا بين الناس الذين يعود إليهم يا ألكسندر كريستوروفيتش، أفكرت في هذا ؟

_ نعم فكرت أيها القيصر العظيم، العقيد الآن لا نفع فيه، لا لنا ولا لغيرنا.

ـ كما يقول شكسبير: "المغربي فعل فعله، فلا حاجة لنا إليه "؛ أهذا ما تريد قوله ؟

ـ لا يا قيصر روسيا العظيم، ليس إلى هذا الحد؛ غيّر الكونت بنكندورف وضعه سريعاً، ووافق القيصر بوقفة قصيرة: ـ هذا أيها المحترم العزيز، الأمير الأديغي الذي ربيناه معاً، ولو أنه لا يملك إلا الحزن، فعل فعله، وما يجب علينا نحن فِعلُه في المستقبل كثير. ولكن هذا لا يعني أن نهمل العقيد في المستقبل، ولا أن ندعه يفعل في إقليم الأديغة ما لا يناسبنا. أخبرت عنه غرابيه، وكلّمت فريفسك هنا قبل أيام.

ـ شكراً يا كونت ! ـ رقّت عينا القيصر وقد أعجبه ما سمع.ثم اشتعل فجأة كالنار: ـ القفقاس الشمالي فيه أعراق من البشر على عدد الحصى التي فيه، لا يجوز أن نعِدهم بالدولة المستقلة التي لم يسمعوا بها إلى الآن. لم أسمع خلال ألف فرسخ قطعتها هناك إلا هذه الكلمة.

VI

" حفنة من تراب الوطن الذي ربّيتُ فيه خير من جبل من الذهب في وطن غريب "

حين أصبح خان جري على مشارف بحر آزوف، ودخل إحدى المضافات خطر له هذا القول المأثور الذي حكاه توغوظقوه قازبك، فقال للسائس:

ـ أوقف العربة !

مشى خان جري بعض الوقت أمام العربة كمن يبحث عن طريق.ثم انحرف قليلاً إلى اليمين فدخل السهل الذي تخلّص لتوه من صقيع الشتاء إلى بداية الربيع. من بعيد تبدأ الجبال المتراصة البيضاء من أسفل نهر لابا فتنتهي عند أوشحه مافه ناحية القبرتاي، غاطسة في الموج أحياناً، مقسمة القفقاس إلى قسمين. الغابات المتنوعة تزحف على سفوح الجانب الأيسر، تختفي في السماء الشرقية غير عابئة بالمراعي والأرضِ الزراعية والقرى الأديغيةِ القديمة والقرى العماليةِ القوزاقية الحديثة والأنهارِ الصغيرة والكبيرة.

ليست بداية ربيع حارة ولا باردة، غير أن الخضرة تنجم من كل بقعة من الأرض كأنما تسخر ببقايا الثلج المفتت في الزوايا الظليلة. وقصب المستنقعات التي يكاد يستحيل الخروج منها وهو لا يعرف كيف يروي أسرار العام الفائت وأحزان العام الحالي، وكأنما يشكو إلى هذا اليوم الذي لا يهب فيه الهواء، يثير فيك الشفقة بنظراته الباهتة. أحياناً تتقافز العصافير، وأكوام التراب التي كوّمتها المناجذ[1] تبرز كالتلال هنا وهناك. وأشجار البرقوق البري المائلة للسواد تتهيأ لطرح ثمارها.فتمثل للعين في أجمات كثيفة. والشمس التي ترتفع في السماء لا تميز بين شجرة وأخرى فتقطر أضواءها الحنونة بالعدل بينها.

نظر خان جري نحو الجبال التي تسبح فوقها بعض السحب الباهتة المتناثرة: هاجمت نوبة من الألم قلبه. عصر كومة التراب التي بيده. ثم كرر، وهو يحس بدفء التراب، القول المأثور " حفنة من تراب وطني خير من جبل من ذهب وطن غريب " وتنهد:" ما أخبار قازبك ؟ألا يزال حياً يا تُرى ؟ لم أجد بين زعماء الشابسغ أشجع منه وأحكم ولا أعلم.وزانه سفربي ؟ لو لم يُحتجَز في تركيا، ولو لم يُشيعوا عنه أخباراً لا معنى

[1] جمع خُلد : دويبة عمياء تحفر تحت الأرض وتعيش . المترجم

لها، واحد ممن كانوا ينفعون الأديغة في هذه المرحلة، يتمتع بالفطنة والحكمة. شجاعة توغوظقوه قازبك وحكمة زانه سفربي وعلمه لو اجتمعت في الشابسغ لربما ما حدث لهم ما حدث. أخاف أن أكون واحداً ممن مشوا في طريق زانه قوه غير المعبَّد دون وعي منهم. لا، لا أقول إني سأترك الجيش الروسي كما تركه زانه قوه، لا أريد أن يحدث لي هذا، لا، بل لا أجد من اللائق طريقة تركِه هو وابنه (قَرْبات). أعجيب أن تصرفوا مع الأب وابنه تصرفاً سيئاً ؟ وأنا أيضاً فعلوا معي هذا كثيراً ولكن لم أسمح لنفسي أن تخطر لها هذه الفكرة. ألستُ ألطّخ نفسي هادماً أهدافي ؟ !

لا يزال خان جري يتقدم نحو الجبال ذات القمم البيضاء ضاغطاً بمزيد من القوة على حفنة التراب.

_ أين يذهب هذا العقيد المحترم ؟ _ سأل السائس القوزاقي الكثُّ اللحية والشاربين إسماعيلَ _ هناك في الأجمة الكثيفة يحوم الأديغة الأشرار _ حين قفز إسماعيل من العربة دفعه ما سمعه من السائس أن ينظر شزراً إليه: _ ماذا ينوي هذا الرجل ؟ أيريد أن يلتحق بقومه ؟

_ لا تنطق بهذا الهراء ! _ نهر إسماعيلُ السائسَ القوزاقيَّ.

جلس خان جري على جذع الشجرة المقطوعة وكأنه سمع تلميح القوزاقي. " ما الذي أقوله ؟ وما الذي أذهب إليه ؟ مع من أقف إن اقتربتُ من الجبال التي تدوي فيها المدافع وتصلّ السيوف ؟ القول المأثور بالنسبة إليّ كسيف ذي حدين.يقتلني أيُّ حدٍّ أوجهه إليّ،ويحرقني، ويدفئني. ولدت في الأرض التي أخذت منها هذه الحفنة، وخطوت فيها خطواتي الأولى، وسمعت فيها أول حرف أديغي ونطقته. وجدتي وجدي وأبي كلهم ولدوا هنا، وفارقوا الحياة وهم يقاسمون هذه الأرض أفراحهم وأتراحهم، فارتاحوا في مقابرنا. ولكني قضيت في البلاد التي أقول فيها " جبل من ذهب " أكثرَ سنواتي الاثنتين والثلاثين. وربَّوني فيها وأسسوني. وتحقق لي فيها ما لم يتحقق لأترابي. وقرّبني قيصر أكبر ممالك العالم، وخصني بأغلى هداياه دون أن يتذرع بأني لست من قومه. أمّا رتبتي فكثير من أبناء قومه يحسدونني عليها.ما أغلى شيء على المرء ؟ روحه ؟ قال لي " أثق بك من هذه الناحية فاحمِني" فأمّنني على حياته. وإلى الآن، وبعد سنوات من معاشرته لم أحِدْ قيد أنملة عن رغباته. لم يحدث أن نسيته إلا هذا اليوم، وهذا عيب ".

رفع خان جري رأسه فجأة كأنه سمع دوي مدفع، ونظر نحو البحر من فوق القرى التي أحرقت فأضحت فلاة واسعة. فعصرت قلبَه مآسي الأديغة التي شهدها العام الماضي وما قبله. " لو كان بإمكانك أن تنسى غداً آلام قومك ومن هم في دمك... ! تنهد خان جري _ لا ضيرَ في احتقار من ساهم في إبادة شعب، سواءٌ كان القيصرَ أم غيره، وما كنت لأقبل هذا السلوك حتى من قومي. ما أمَلي ؟ وماذا أعمل لأجلكم يا من يستغيثون في أرضهم ؟ اغفروا لي، بقيت سنتين بين نار الجنرالات الموكلين بقتالكم وبين ناركم، ولأني أعرف في نفسي أني لم أكن منصفاً معكم فأنا مذنب في كل ما يفعلونه معكم حتى لو لم تكن يدي على الزناد كما أيدي زملائي، ولو لم يكن السيف في قبضتي. ربما تقولون: لماذا لا تقول هذا للقيصر الذي

تحميه ؟ فعلت الكثير أمامه وفي غيابه ولو لم أكلمه صراحة. وجازاني مفهماً إياي أني لست حراً في شيء وإن لم يُهنني.

فقد خان جري السيطرة على أحزانه فتهافت قلبه وقد أحس بالإهانة من كونه صغيراً ويائساً حتى لو كان غيره يظنه كبيراً فاغرورقت عيناه. فعاد إلى وعيه في هذه اللحظة. توقّفْ عن تبكيت نفسك؛ حتى القيصر نفسُه لا أظنه حراً تماماً؛ فهؤلاء الجنرالات لن يدَعوا لك حرية ! ماذا كانت نانا تقول: " لا تمد يدك إلى المطحنة التي تدور؛ ستقطع يدك ". " رحى الحرب التي أطلقوها على ذرا القفقاس يصعب إيقافها. ولكن مهما كان قياصرة الروس ظالمين فهم بعيدو النظر، لا همَّ لهم إلا تقوية بلادهم وتوسيع رقعتها. وأنا حين قررت أن أجمع زعماء الأديغة ليتناقشوا في أمور قومهم لم أستطع طوال سنتين ".

_ أيها المحترم كساؤك دون بطانة، سيؤذيك البرد _ ناداه إسماعيل _ والسائس القوزاقي قلق.

_ التفت خان جري، وسأل وهو ينهض:

_ أليست أصواتَ مدافع تلك التي تصدر من وراء الجبل ؟

_ أنصت إسماعيل:

_ أنا لا أسمع شيئاً يا محترم؛ أيكون صوتَ الرعد ؟

_ من لم يشهد حرباً يصعب عليه التمييز بين دوي المدافع ودوي الرعد _ ابتسم خان جري برقة لخادمه وهو يمتطي العربة.

وانفجر غضب إسماعيل رغماً عنه.

_ لا تحكم عليّ بالجهل إلى هذا الحد يا محترم ! _ ثم أضاف بعد قليل وهو يزفر: _ إن طلبت مني أن نذهب إلى حيث نميزهما فأنا جاهز.

_ سامحني يا إسماعيل، لم أقصد إهانتك. الضيق والتوتر يجعلانك تنطق بكثير من الترهات. اعتبرني قصدت نفسي بما سمعت !

_ لماذا يا خان جري تتهم نفسك بما لا تستحق؛ أأنت من لم يشهد حرباً ؟!

_ شهدت يا إسماعيل، شهدت... _ تنهد خان جري بعمق _ ما الفائدة في أن أحمي ذهبَ بلادٍ غيرِ بلادي؟ _ ضحك خان جري _ ألم تسمعهم يقولون " حفنة من تراب الأرض التي ربَّوك عليها خير من جبل من الذهب في أرض غريبة ؟ "

_ وكيف لم أسمع يا محترم ؟ _ صاح إسماعيل فاقداً زمام نفسه _ كثيراً ما سمعت مُسِنّينا يقولونه في المضافات، ولكن لم أفهم مغزاه إلا حين ابتعدت عن قريتي. لم أعرف أنك مهموم بمثل هذه الأفكار

_ هذا ما حدث لنا اليوم أنت وأنا يا إسماعيل.

_ تَبَعاً لما تقول يا محترم _ ضحك قودانت خلسة _ نحن مثل من " لا يعرف طعم العسل إلا من ذاق لسع النحل ".

ـ وهذا قول أديغي مأثور قيّم كنت أسمعه في طفولتي من أتاليكي المرحوم مرجان. ولكن لا أعرف لماذا لم أحفظه ـ ربما كان هذا سبب إخفاقي، غمغم خان جري في نفسه، ثم أصلح وضعه ـ لا يعني هذا يا إسماعيل أن نقول ما نريد، نحن تحت راية روسيا، سنظل أوفياء لعهدنا أمام القيصر العظيم.

ـ إذن يا محترم ـ لم يكتم إسماعيل ما في قلبه وإن ابتسم ـ جُرحُك جرحي، لن أخذلك. ولكن مادمت معك فقط. ثم كما يقال "كل بيت رِجلُ بقرة وبيتي من ذهب "[1] أنا حر في ما أفعل حين أعود إلى بيتي. ما يفعلونه بنا غيرُ مقبول... لا تؤاخذني يا خان جري لن أعود معك إلى بطرسبورج لأني أنهي خدمتي في الخريف... وإن أبيتَ فسأقوم بما تأمر على أنه فرض من الله. لستُ مديناً لهم بشيء ولا هم مدينون. شكراً لك، اهتممتَ بالموضوع فجعلتَهم يدفعون لي مسبقاً. سأشتري حصاناً وسلاحاً ممتازين كي لا أخجل ممن أعود إليهم.

ـ ولماذا تعود إلى بطرسبورج ؟ ! ابتسم خان جري لخادمه راضياً عنه.

ـ ابتداء من ساحل البحر يا أيها المحترمان أسمعكما ـ التفت القوزاقي الأشقر دون نية سيئة ـ لا تؤاخذاني، لا أسمع منكما إلا قعقعة لسانيكما.

ـ اسمع ماذا يقول هذا ؟ ـ قال إسماعيل بسرعة.

ـ لا تشاكسْه ! هؤلاء لا يعترفون إلا بلغتهم ـ نصح خان جري خادمه ثم مزح مع السائس ـ هذا يعود إلى الآذان القوزاقية المنصتة.

ـ وهذا صحيح ـ التفت القوزاقي بوجه أشقر باشٍّ ـ لا تظنوا أني أعادي الأديغة إن علّقتُ على لغتكم

ـ نحن نسخر بالفلاحين الروس ظانين أنه لا أجمل من " لغتنا الأوكرانية ". أعرف بعض الكلمات الأديغية من صديقي إبراهيم في طفولتي. هو من قضى في مستنقع قلاوس رحمة الله عليه ـ وبعد أن رسم إشارة الصليب أضاف: ـ اسمعا إذن بِلُغَتكما: تفضلْ، مع السلامة، بنت، قرية؛ أنطقتُها على نحو صحيح ؟

ـ جيد جداً ـ امتدح خان جري الشاب القوزاقي ـ نطقتها بلسان أديغي صحيح.

ـ اسمع، اسمع هذا الهذر ! ـ ندم إسماعيل على سوء ظنه في القوزاقي، وسأل: ـ ما اسمك ؟ ونحن كان عندنا صديق قوزاقي على معبر نهر لابا. أنا اسمي إسماعيل.

ـ أأنت إسماعيل قودانت ؟ عندك اسم وشهرة ممتازان سهلا النطق. أنا اسمي أكيم دروبنكو، إن سألت عني أي إنسان في إليزابيتنسك دلّك على داري وإسطبلاتي. أما العقيد المحترم فلا حاجة إلى ذكر اسمه.من لا يعرف المحترم خان جري مرافق القيصر العظيم ؟ !

ـ على ما تقول يا أكيم ـ ضحك خان جري محاولاً إخفاء عدم ارتياحه لما سمع ـ الجميع يعرفونني، وكل من يعرفني يقول عني ما يشاء.

---

[1] عبارة لا يُقصَد بها معناها الحرفي بل تقال عند افتراق رفاق اللعب. المترجم

_ إن شئت الحق أيها المحترم _ التفت دروبنكو وهو يضحك _ لا بد أن يحدث شيء من هذا، وهذا مثلُ الأذن التي عيّرتني بها _ هذا يتبع القائل، ليس الأديغة وحدهم أيها العقيد، بين القوزاق من يغتابونك. وهؤلاء مثلُ الأديغة، ما يقوله أحدهم ينقضه الآخر.

_ وأنت ؟ أنت من أي طرف ؟ سأل خان جري الشابَ البدين المدير ظهرَه.

_ أنا ماذا أيها العقيد المحترم ؟ قلت لك ما في قلبي وافهموا كما تريدون.ولكن إن أردتم حالاً فأي مهمة خطيرة للسائس إلا حيث يتوجه رأس حصانه، وجَّه الخيل بطرف السوط،كل ما نتكلم فيه لا قيمة له. الناس يقضون في المعارك، أسرعا يا حصانيّ ! أسرعا ! إن أردتما غنيت لكما الأغنية القوزاقية التي كان يحبها إبراهيم. " شُدُّوا الجياد إلى العربات أيها الفتيان ! " غنى دروبينك بضع كلمات بصوت منخفض، وحين رأى مستنقع قلاوس يقترب كفّ عن الغناء. وفي لحظة رجوع كلٍّ من الثلاثة إلى خواطره الخاصة توقفت العربة كأن الخيل تسمّرت في المكان من تلقاء نفسها، وقال دروبنكو: " وصلنا إلى قلاوس التي انتكب فيها الأديغة، لا تدَعونا نمر دون أن نصلي لأجلهم "

وقف أديغيان وقوزاقي واحد على ضفة المستنقع، دعا خان جري وإسماعيل للأموات بأيدٍ مرفوعة، وإلى اليمين صلى دروبنكو لمن غرقوا ولمن أغرقوهم على السواء، ورسم إشارة الصليب.

بعد ما انتهى الثلاثة من صلواتهم كانت أفكار خان جري، وإن تخففت قلوبهم نوع تخففٍ، كالعجلة الدائرة رجعت فاستوطنت الرأس. يقلقه المرض الذي لا يجد علاجاً له، وطبيعة المهمة التي تنتظره، وكيفية عودته إلى بطرسبورج، وإن رجع فكيف سيستقبله معارفه فيها بمن فيهم تانيا، وماذا سيقول للأديغة الذين سيخالطهم. " ليت الأديغة كانوا مثل تانا ! _ مثلت لعينيه تانيا، فرحتُه والسندُ الوحيد في حياته الآن. همس لها بقلب رقيق: _ مهلاً، مهلاً يا روح قلبي، بعد عودتي من بسه فابه، إن رجعت معافى إليك، فسأعود وقد فهمت الكثير، ولن أدع شيئاً يُفنيني كما كنت تنصحينني. أقول هذا ولكن أُنظر هذا التلميح الخبيث من الفتى القوزاقي دروبينك ! حتى القوزاق، دعك من الأديغة، بينهم من ليس راضياً عني وإن كنت حليفاً لهم !"

_ يا خان جري _ نادى دروبينك إلى الخلف، وأصلح وضعه بسرعة: _ سامحني على طريقتي الفظة في محادثتي لك بسبب طبيعتي كشِغِّيل. ليس في قلبي خبثٌ أيها العقيد المحترم. ولكني تعجبت وأنت تصلي على ضحايا المستنقع بالطريقة الإسلامية. ما سمعناه هو أنك اعتنقت المسيحية !

_ ألم تسمعوا باعتناقي دين بوذا ؟ !

_ لم يبق إلا هذا ! _ غمغم إسماعيل.

_ ومن بوذا ؟ _ سأل الفتى القوزاقي.

_ صاحب الدين المنتشر في آسيا.

ـ وهل هناك مِثْلُ هذا الدين ؟ ـ استغرب دروبينك ـ كنت أظن أنه ليس في العالم إلا ديننا المسيحي ودينكم الإسلامي. لا بأس، ليكن بوذا أيضاً، لن يؤذونا ! من يضرنا نحن، سامحوني يا أصدقائي الأديغة، هم الأتراك. وأظنهم يدفعونكم أنتم أيضاً إلى الخطأ ـ أسرع دروبينك فرسم إشارة الصليب.

تبادل خان جري وإسماعيل النظرات.

ـ لماذا إذن رسمت إشارة الصليب يا أكيم ؟ سأل خان جري.

ـ من يعرف أيها المحترم إن قلتُ ما لا يقال ؟ ـ قال دروبينك كالنادم. ثم أضاف: ـ أمي أيضاً تقول: لا تتدخل في شؤون الله. أحياناً أطيعها غير أني لا أستطيع إلا أن أقول ما في قلبي. حسناً، افرضوا أني لم أقل شيئاً، ولم تسمعوا.

" ونحن بشرٌ مثلُك ـ ابتسم خان جري في قلبه ولو أنه فهم ما في قلب الفتى. لن نستطيع هذا، ولو لم يبق شيء إلا اتهموني به فإن ما لم أنتظره البتة هو أن أغير ديني الإسلامي... لن أستطيع هذا أبداً ! إذن كيف سنعيش أنا وتانا معاً ؟ أللحب دين ؟ إن كان الحب يأتي من الله فلن يفرق بين إنسان وآخر، غير أن الحب الذي خلقه الله بين كل رجل وكل امرأة هو أسمى الأديان. اغفر لي يا إلهي إن كنت على خطأ !

ـ لا تظنوا أني أتكلم كثيراً أيها الأديغة الأعزاء ! ـ صرخ دروبينكو فجأة دون أن يلتفت ـ لم أقل لكم بعدُ أعجب خبر: قلاعُ لازاريف وفيليامينوف ونيكولايف وميخائيلوف كلها دمرها جماعتكم الأديغة؛ تحرر الساحل كله.

ـ يا أكيم ـ لم يُظهر خان جري على صوته لهفة ـ أصحيح ما تقول ؟ !

ـ أصحُّ من الصحيح! أيها العقيد المحترم ـ لم يكتف دروبينك بالقول بل تطاير الفرح من وجهه ـ لم يبق للروس إلا أنابه وغلينيجيك. أحقٌّ إذن ما فعله أصحابكم، ما فعلناه بالأديغة إذن ؟ احتلّوا الساحل بالسفن، ومن الطرف الآخر يقال إن هناك مَحْلاً شديداً. الأموات من المسنين والأطفال كثيرون... من يعرف ما سيحدث غداً إلا الله ؟ هذه أحداث اليوم السارة جداً للأديغة، والمحزنة للروس.

حين صمت خان جري صمتاً مُطبقاً نبّهه إسماعيل:

ـ بالنسبة لنا نحن ليس هذا خبراً جيداً.. ولكنه مفرح للأديغة.

ـ ونحن ألم نعد من الأديغة يا إسماعيل ؟

ـ لا، لم أقصد هذا، ولكن لأعرف تعليقك على الخبر فحسبُ.

ـ وبِمَ أعلق ؟ ـ تنهد خان جري ـ المأساة الكبرى التي سيجلبها انتصار الأديغة تصدع رأسي بالقلق.

ـ إلى أين أصحبكما أيها المحترمان ؟ ـ سأل الفتى: إلى إيكاترينودار أم إلى قرية النبلاء ؟

ـ إلى القرية ـ إن أوصلتنا إلى لوستان حبله كنا من الشاكرين.ـ قال خان جري بعد قليل.

ـ بكل سرور ـ حثّ دروبينك الخيل مسروراً بما سمع ـ سنصل إلى لوستان حبله حالما نعبر نهر بشزة. لا يجوز أن نعادي البجدوغ المسالمين بحجة أن الشابسغ هزمونا على ساحل البحر. ثم إن أراضي البجدوغ

صارت منذ زمن بعيد أراضيَ روسية. لو كان الشابسغ والأبزاخ وأعراقكم الأخرى كالبجدوغ... أسرعي أيتها الخيل! نُقود الأديغة الذين يخدمون في جيشنا ليست قليلة، سيكونون كرماء معنا !

ــ اِسمع يا محترم هذا القوزاقي، لا أعرف أيمزح معنا أم يسخر بنا ؟ ــ امتُقع وجه إسماعيل ــ يمدحنا حيناً ويذمنا حيناً.

ــ اتركه ! ــ ابتسم خان جري دون أي انفعال ــ لا يقول إلا ما نستحق. لا يزال بانتظارنا من سيرمينا بكلمات أقسى، فروّض نفسك ! ــ يا ربي ما أخبار شواي ؟ أيمكن أن يكون تازه وأغوي أيضاً حيين ؟

ــ طار قلب خان جري نحو أهله وأقربائه وقد غلب القلقُ الفرحةَ التي جلبها انتصار الأديغة على الساحل.

لم يخرج خان جري من لوستان حبله إلا مرة واحدة خلال أسبوعين. ولولا أنه صحب إسماعيل أول من أمس إلى إيكاترينودار ليتخذ طريقه إلى الجمكوي، ولولا أنه أخذ ما كتبه إلى تانيا إلى البريد، لكان قرر ألا يخطو خطوة خارج القرية.

دخلت بيكا بخطوات خفيفة حذرة إلى غرفة خان جري:

ــ يا ولدي، ظننتك تستريح بعد عودتك من المدينة... ما أعجب أن تحبس نفسك في الغرفة في هذا اليوم الربيعي الجميل ! وسيسور صارت ثقيلة الحركة والفطنة، هذه المرأة الرشيقة صارت عجوزاً مع شواي !

ــ سيسور على حالها يا أمي ــ قال خان جري دون أن يرفع رأسه عن الورقة التي يتصفّحها ــ ثم سأل وقد نسي ما يخجل الأبناء أن يقولوه في حضرة الأمهات ــ: ماذا يا أمي ؟ ألا يزال شواي يعاشر غيرها ؟

ــ بالغتَ في صراحة سؤالك يا ولدي ! ــ لم تستطع بيكا إلا أن تُفصح أمام ابنها عن أنها امرأة وأم وكبيرة للأسرة، ولكنها لم تنتظر الجواب: ــ المسكين شواي فقد عقله في غمرة الحماسة للأديغة. لا يبرح أرض الشابسغ. كانت آخر مرة زارنا فيها في بداية الربيع يطير فرحاً بانتصارهم. ليتك رأيته يا ولدي كم كانت عيناه تلمعان ! لم يعد هو نفسُه مشكلةً، بل يجر زبش إلى هذا الطريق المهلك.

ــ هذا هو ــ ابتسم خان جري ــ إن كان لزبش مثلُ هذا القلب فسيكون من الصعب لَجْمُه. سأكلمه. ظننت أن شواي يزعجكم بعلاقته بأنفيسكا.

ــ يا حسرتي يا ولدي! أنفيسكا التي تتكلم عليها، منذ بداية خريف العام الماضي إلى صيف هذا العام، ما أشد ما اعتادت علينا ! تسألنا أين شواي ؟ أنتم تخفونه عني. ألم تحاول أن تزوره في ساحة الحرب ! والقوزاق أيقبلون هذا السلوك ! وكم جلدوها بالسوط، وكم أعادوها !

ــ والآن ؟ والآن ماذا ؟ ــ أزاح خان جري أوراقه وقد فهم أن لا أخبار سارة.

ــ ما الفائدة في الكلام على الميت ؟... بعضهم يقول إنها ألقت نفسها في الشتاء في حفرة داخل الجليد فأغرقت نفسها في نهر بشزة... مهما حدث فالمرأة التعيسة رحلت تاركة ابن بانتالي المسكين يتيماً. يا ولدي ما أشد ما آلمك ما رويتُ لك فامتُقعَ لونُك ! وأنا التي تقول إننا ارتحنا بغيابها.

_ لسنا نحن من ارتاح يا أمي... _ تنهد خان جري وليس في كلماته عتاب أو اتهام _ رحل بانتالي وأنفيسكا، هذا لن نستطيع تغيير شيء فيه؛ غير أني حزين لأن السبب في موتهما كان شواي.وشواي ما ذنبه ؟ الذنب كله ذنب بامبت.

" نعم تقولون هكذا فتتألمون لمن لا يجوز أن تتألموا لأجلهم _ لم تتقبل بيكا ما سمعت وإن كتمت انفعالها أمام ابنها _ سيخسر الأديغة مستقبلهم من وراء المهووسين بالحرية من أمثال شواي "

_ نعم يا ولدي، كانت السيدة الكبرى،ليرحمها الله حيث حلّت، تقول: _ غيرت بيكا موقفها بسرعة: " ما لا خيرَ في أوله لا خيرَ في آخره " _ هذه الأوراق أفكر أن أسألك فأنسى؛ ما هي ؟ _ هذه ؟ _ ماطل خان جري مفكراً في الجواب أظنها الأوراق التي سأبقى بها بين الأديغة يا أمي.. حين أذهب إلى نواحي بسه فابه وأرى كيف ستجري أموري هناك، وربما لن تطول إقامتي في بطرسبورج.

_ ماذا يا ولدي ؟ والآن إلى أين سيرسلونك ؟

_ لم يبق في الدنيا مكان أذهب إليه متجاوزاً لوستان حبله قريتي. سأتفرغ لهذه الأوراق.

_ أحان وقت تقاعدك ولما تولَد ؟ ! _ لم تقبل بيكا ما سمعت وأجابت بنبرة رفض: _ ماذا ستفعل بكل هذه الأوراق السخيفة ؟ لا تحبس نفسك في الغرفة لأجلها ! اذهب إلى المدينة، زر الأتامان زافادوفسك، خالط الناس ! الواجب الأهم، وقد تجاوزت الثلاثين، لا يزال أمامك، ولا ضرورة لأن أصرّح بها...نحسد من عنده أحد يدرج على رجليه على أرض الغرفة... أفضِّل هذا الكتاب الكبير الجميل على الأوراق التي تدلّلها. _ بعدما قالت بيكا لابنها ما تريد غيرت الموضوع كمن تقول: أنا قلت ما عليّ وأنت اعمل ما عليك ! _ ما أجمل خياطته وجلدته !

_ هذا يا أمي كتاب يشهد على منح القيصر لي رتبتي. أفكر فأقول: إن لم يضرنا، نحن الأديغة، فلم ينفعنا. سألتِني عن اسمه ؟ " بخصوص إقليم الأديغة " وجاء إلى جانب رتبتي العالية هذا الخاتم الذهبي النفيس.

_ إن ندمت على ما فعلت فماذا سيكون مصيرك يا ولدي ؟ بان قلق بيكا من سؤالها.

_ ما مصيري ؟ مصيري مصير الأديغة !

_ مهما فعلتم ومهما قدمتم لأجلهم فقد انتهى أمر الأديغة الذين لم تتمكنوا من حملهم على طاعتكم.

_ يا أمي لا تقولي ما ليس من شأنك ! _ رفع خان جري صوته ثم صحا حالاً: _ سامحيني يا أمي لم أشأ الإساءة إليك... ألا ترين ما يحدث لنا نحن الأديغة ؟

_ إن قلتَ هذا بشأنك _ طفح الكيل ببيكا _ فماذا سيحلّ بأخويك ؟

_ لا تخافي عليهما _ نهض خان جري وجلس إلى جانب أمه _ إن كانا في صحتهما فهما الآن رجلان؛ أيمكن لهؤلاء الأديغة الذين أخسر نفسي لأجلهم أن يعودوا يوماً إلى وعيهم ؟

_ لا أظن، هؤلاء الذين يجترّون انتصارهم الوحيد متى سيصحون ؟

_ لا سند للأديغة في العالم كله. تركيا وانجلترا تخدعانهم. حاولت أن أُفهِمهم أن من المستحيل الانتصار على روسيا الدولة العظمى فلم يفهموني... ومع ذلك ألست أديغياً ! ألا يتألم قلبي لأجلهم؟... حسناً أنا يفوتني منظر الغروب _ أسرع خان جري كالأطفال إلى النافذة _ وزبش يراقب المنظر واقفاً على الباب ويتساءل: لماذا لم يدْعُني ؟

_ توقف يا ولدي لحظة ! _ عوّدتك السيدة الكبرى على هذا ولكنهم يعتقدون أنه فأل شر. أبعِدْ زبش، لا تدعْه يراقب المنظر !

_ ماذا تقولين يا أمي ؟ كانت نانا تقول: ستستريح الشمس الليلة وتشرق غداً على الأديغة. ولم تكن ترى في غروبها شراً. إنّ حُمرتها الخفيفة وجمالها الناعم يؤلفان حكاية لا يُملّ منها _ خرج خان جري من الغرفة مسرعاً، مخفياً آلام رجله الخَدِرة.

VII

" يتغير منبع النهر ويبقى النهر " يتذكر خان جري هذه الحكمة كلما نظر إلى أي نهر.

حين كان يحارب في الفرس وتركيا وبولونيا، وحين كان ينفذ مهمة السلام في إقليم الأديغة عبر خان جري كثيراً من الأنهار. وكلما عبر نهراً تذكر هذه الحكمة، لا لأنه كان يهتم بالأمر أكثر مما ينبغي فيستسلم للأفكار اليائسة بل كانت تأتي إلى الذهن فجأة ثم تختفي دون أن يدري كيف؛ أبدون أثر ؟ إن غيّر النبع نفسه، وإن بقي النهر...

_ لِيفِضْ أو لِيغِضْ ! ضفتا النهر هما الأفكار التي تتقابل ولا تلتقي إلى الأبد.

بِم يشبّه خان جري إذن نهر نيفا ؟ أتظل ضفةُ النهر التي رأى فيها أول مرة وجه تانيا، النهر الذي شهد امتلاء قلبه لأول مرة بالرحمة والرقة. أتظل الضفةُ ذكرى لا تنتهي أمام عينيه ؟

" من أين نسترجع سنوات الطفولة ؟ _ تنهد خان جري وهو يتأمل نهر بشزة الذي يجرّ نفسه بقوة هادئة _ هذه أمنية كل إنسان , ما كان أحلى عهد الطفولة ! وما كان أمرحها ! والآن ماذا ؟ أظنني صدمت بجبهتي ما كانت نانا تقول لأجله: إن كنت تريد أن تثمِّن حياتك ولا تنحرف عن طريقك سواء أكان مستقيماً أم معوجاً فعليك أحياناً أن تراجع ما مشيته.متى لم ألتفت في سنواتي الاثنتين والثلاثين ؟ يخطئ من يظن أن طريقي كان مستقيماً دائماً بفضل رتبتي وقربي من القيصر. لا أكتم أني كنت مخلصاً دائماً للطريق الذي اخترته؛ إن قيل: اركبْ ركبت، وإن قيل: ترجّلْ ترجلتُ... والآن ؟ أظنني الآن لا أنفع أحداً. لا ألوم الأديغة، أستحق كل ما يقولونه فيّ. والروس لا يفلتونني إلى البعيد منذ سنتين، ولا يقربونني إليهم. ولا أفهم سلوك الكونت بنكندورف أخيراً معي في بطرسبورج: لا ينفك يتحدث عن مرضي وكأنه مرضُه هو. أنا لست مريضاً ! إن كنت متوعكاً العام الماضي بعض التوعك _ كان عليّ ألا أكتب إلى شيرنشيف، كانت هذه الرسالة أصل كل هذه العواقب فأنا الآن سليم. الجنرال سكوبيليف ذو اليد المقطوعة ألّف كتاباً وهو في الجيش، وكوتوزوف كان بعين واحدة. وتوغوظقوه قازبك، وقد عرِج في الحرب،

فارق الحياة وهو يحمي شرف الأديغة. أنا مازلتُ شاباً. وبدلاً من أن أكون على صهوة حصاني وأشهر سيفي أجلس إلى ضفة النهر أنتظر يائساً سمكة أصيدها "

حين التأمت أفكار خان جري المشتتة رفع رأسه فجأة وتلفّت في كل اتجاه كما اعتاد أن يفعل في السرية فلم يجد في ضفة النهر المزروعة بالصفصاف أحداً غيره.

السماء الباهتة التي حممتها الحرارة تُطبق على الأرض بفتور، والريح الخفيفة تنقل هنا وهناك لفح الشمس، وتحرق أطراف الأعشاب وتُذبِل أوراق الأشجار. والعصافير تلتجئ إلى الزوايا الظليلة. ومع أن الأسماك تقفز أحياناً إلى السطح فإن صنارة خان جري لا تهتز.

" الحَرُّ الذي لا يعرف التمييز أنهك ضفتي النهر، ضفة القوزاق العمودية، وضفة الأديغة المسطحة. قال خان جري وهو يطل على إيكاترينودار. ثم راجع نفسه مبتسماً: _ أبقيتْ الآن ضفةٌ أديغية ؟ الضفة التي أنا عليها تتجاوز أبنه إلى غيلينجيك صارت ضفة قوزاقية. لماذا إذن لا يزيلون هذه المِنَع القوزاقية العالية من على جانبهم ؟ إذا لم يعد بأيدينا نصف أرض البجدوغ وأطراف أرض الخمشي والشمال الغربي من الشابسغ فلماذا هذه المنع التي تفقأ العين ؟ ! على ما يبدو ليست أمورنا جيدة كما نتصور تماماً.إذا كان الأديغة قد نجحوا في تدمير بعض المنع الروسية في شتاء العام قبل الماضي حين أرسلني الكونت بنكندورف إلى هنا للعلاج؛ فالآن ؟ على ما روى أتامان القوزاق زادوفسك عاد الجنرال راييفسك والعقيد فيليبسون إلى وعيهما على شاطئ البحر الأسود.والجيش الذي جمّده غرابيه في خريف العام الماضي نشره من أنابه إلى غيلينجيك. والأديغة تراجعوا بحكمة شديدة. لازاريف سيطر على البحر خلافاً للسنوات الماضية، ويحرق القرى الأديغية بمدافع السفن. الأديغة يتأملون أن تساعدهم تركيا وإنجلترا، ولكن مضت سنوات كثيرة على هذا الوعد. وإن لم تتسببا في الأذى فلم تنفعا... أنا أعرف ما يجب أن يفعل الأديغة. " تنهد خان جري طويلاً وأعادته فرحة ذهابه غداً أو بعد غد إلى إيكاترينودار لاستلام رسائل تانيا.

" المنبع يتغير والنهر يبقى " أعاد خان جري التفكير دون أن يعرف كيف ولماذا.وسأل نفسه: _ صحيح أن النهر يبقى وإن غير النبع مكانه، ولكنْ ما على الضفتين اللتين هي أفكار تتقابل ولا تتلاقى؟ ماذا تنوي لي هذه الفكرة التي التصقت بي كذبابة صيفية لجوج ؟ النهر يجري، والعمر يمضي. والضفاف المتهدمة تنجو. ترى إحداهما الأخرى مهما كان نوع النظرات وتشتاق ولا تلتقيان. أليس الغد أو بعده موعداً مبكراً لتفقد بريد تانيا؟ بين بطرسبورج وإيكاترينودار مسيرة شهر. بريد الجيش أسرع بفضل تبادل الأحصنة ليلاً ونهاراً. حين كانت بطرسبورج تحتاجني، دعك من مهمة القيصر، ما يأتي من شيرنشيف وبنكندورف كان يصلني في أسبوعين. والذين كانوا يعطونني أسرار ألكسندر كريستوروفيتش لم يصدف أن فعلوا هذا مرة دون أن ترتجف أيديهم وينظروا إلي بحزن. والآن ماذا ؟ رغم أني ما أزال أحمل شارة مرافق القيصر ورغم أني قائد السرية التي تحرس قيصر روسيا العظيم، بقيتُ رهن أتامان القوزاق الذي كان يرتجف أمامي في ما مضى. لم يعد مَن في بطرسبورج بحاجة إليّ. على رِسلك ! أنا أعاتب الناس الذين لم يفهموني ولكن ما ذنب تانا ؟ لم

أترك وسيلة عذاب في السنتين الماضيتين لم أُذِقها إياها. تقول لي " اترك الجيش الذي استهلكوك فيه، افهمني، وارتحْ! " ما الذي لا أفهمه يا تانيا ؟ فهمت جيداً ماذا يريدون. غير أني لم أستطع أن أنتزع السبب من أفواههم صراحة. هؤلاء ليسوا بحاجة إليّ بل إلى دمية أديغية.

ارتفعت من بعيد أصوات أجراس كنائس إيكاترينودار. وانتشر في لوستان حبله صوت الأذان كأنه يعاكس الأجراس.

" نعم هذان هما نداءا الدينين المختلفين يتنازعان بين ضفتي النهر. قال خان جري وهو يتهيأ للوضوء. وبعدما أنهى صلاة الظهر، وقد غلبته الفكرة التي تلحّ عليه، يتأمل الماء ولا تزال التقوى تسيطر عليه مع دعائه: ــ ثم تقولين لي يا تانيا: استقِلْ من الجيش واستقِرَّ في بطرسبورج ! من البديهي أن أخرج من الخدمة يوماً ما، ولكن لا أعرف كيف سأعيش في بطرسبورج ؟ هاهو عزمت جري لم يُقم يوماً واحداً معنا. مع أنه رُفِّع إلى رتبة جنرال بمجرد مغادرته للمدينة... هم يحتاجوننا كيفما تعاملوا معنا. ربما لهذا السبب أرسلوني إلى ناحيتنا لمدة سنة دون أن يعفوني من منصبي. نعم، نعم، لولا ثقتهم فيّ لسرحوني من الجيش. ندمت على أني لم أوافقك حين قلت لي: " في الخريف سآتي إليك في إيكاترينودار أو ستافروبول حيث لا يرانا أهلك ". لا تلوميني يا تانيا، اتخذت موقفاً دون تفكير. لم أكن أريد تذكيرك بالكارثة التي دمّرتك في نواحينا. لسنا سعداء في شمال القفقاس حيث وُلدنا حتى دون أن تأتي إلينا. وماذا أفعل أنا في بطرسبورج ؟ ربما لو لم أكن أكتب عن الأديغة؛ ألست أديغياً ؟ إن لم أستطع أن أنفعهم من جهة فإن نفعتهم في ناحية أخرى فربما عوضت ما سببته لهم من الأذى. أنا أديغي حتى لو لم يعجبهم انحيازي، ولو لم يفهموني. لم تسمحي لنفسك إلى الآن أن تنسي أصلك البولوني وديانتك الكاثوليكية حتى لو وُلدت في روسيا، و لو ربَّوك في أجمل مدينة، ولو أصبحت بطبيعتك وتفكيرك مُلْكاً لها. ومهما غفرتِ لي لم تغفري لي أني حاربت في بولونيا.بل تجعلينني أتخيل أن الندوب التي عدت بها من هناك كأنما أنا الذي تسبب بها بيده. أنا، متأملاً الأفضل، لم أستطع مصارحتهم بأن سلوكهم معنا غير صحيح. ولكن من كان يدري أن قومي سيكونون قصيري النظر ؟ "

لم تكن الشمس التي لم يعد الظل يمسكها لتسمح له بالاستمرار في جلسته. وفيما هو يتهيأ للانصراف لفته صوت حوافر خيل.

ــ ماذا يا زبش؛ هل اشتقت إليّ ؟

ــ جاءك ضيوف. ــ ترجل زبش عن الحصان.

ــ أأبوك معهم ؟ لفّ خان جري صنارته بهدوء.

ــ أرسل معهم ترحيبه بعودتك.

ــ افرح يا أخي الصغير حتى لمجرد خبر من شواي ! على ما تقول فالضيوف جاؤوا من الناحية التي فيها أبوك. أبينهم من أعرفه ؟ ما أندر كلامك اليوم يا زبش.

_ لا يعجبني ضرب بفوق لي بحجة أني صديقك، ولا تقبل به سيسور. أعجيب إن كنتما في طفولتكما تلعبان معاً لعبة الكعوب ؟ !

_ هذا حق _ أخفى خان جري عن زبش ابتسامته _ ولكن مع ذلك لا يليق بك أن تطرد أحداً من مضافتك يا أخي الصغير.

_ ستدفع حياتك يوماً ما ثمناً لأخلاقك الأديغية يا خان جري _ قال زبش دون مناسبة.

_ نعم يا زبش ؟ ! _ صرخ خان جري بسبب ما سمع وأجاب راضياً: _ أفضل أن أدفع حياتي ثمناً لأديغيتي على أن أموت في زاوية لا يعرفني فيها أحد.

_ أقول هذا يا خان جري لأني أرى أن بفوق ليس حسن الأخلاق _ وغير زبش موضوعه بدون اهتمام ظاهر وتكلم في ما يقلقه: _ أعطيك حصاني إن لم تعترض على أنه بلا سرج _ لم يخطر لي أن آتيك بحصان مسرج. لم أكن لأعبأ ببفوق لولا أن شروخقوه توغوظ مع الضيوف.

_ ماذا يا أخي الصغير _ ابتسم خان جري _ ألا يمكن أن نركب نحن الاثنين على الحصان العاري؟

_ لا أعرف.. لا أريد أن يراك الضيوف ولا أهل القرية على حصان عار. لماذا أُعطي ذريعة لمن لا يودوننا أن يقولوا فينا ما ليس مناسباً ؟

_ من فينا يا أخي الصغير سيضحي بحياته للأديغية ؟ _ أمسك خان جري بعرف الحصان وقفز إلى ظهره ضاحكاً _ هات يدك، نحن نعود من صيد السمك فحسبُ؛ أليس كذلك ؟

_ لا، لا. لا يمكن أن أجلس أمامك يا خان جري، مُدَّ قدمك لأجلس وراءك.

لمح زبش لخان جري حين دخلا القرية وهو وراء الظهر الدافئ للأمير:

_ حاج قسي وقايمت مهمومان بنوايا ضيوفك.وبيكا تعبر عن استيائها، فقد زاروك خلال الأشهر القليلة التي أنت فيها هنا ثلاث مرات. تقول: ماذا يريدون ؟ لماذا لا يدَعونك وشأنك ؟

" أنا أعرف ماذا يريدون، جاؤوا من أجل الجواب:_ أجاب خان جري على ما يعرف، غير أنه لم يستطع من جهة أخرى إلا أن يفكر:_ ماذا ينوي شروخقوه توغوظ الذي كان يرسل إليه الوفود فأتى بشخصه اليوم ؟"

الضيوف جالسون تحت دالية العنب. وتوغوظ وحجمقوه جالسان في صدر المائدة التي عليها عناقيد العنب واللبن الرائب البارد. ويقف بفوق على يمين حجمقوه معتداً بنفسه، لابساً قبعة من قماش أبيض غالٍ، خلافاً لقبعات الآخرين المصنوعة من اللباد. ويقوم حاج قسي وقايمت بواجبات الضيافة. وباستثناء النساء اللاتي كن يتلصصن من فتحات النوافذ لا ترى في الدار من ترتدي غطاء رأس.

_ أهلاً بالضيوف _ رحب خان جري، دون مصافحة، بالضيوف الذين نهضوا لأجله.

_ تفضل، تفضل ! _ لم يذكر الحاج اسم الأمير _ لا بأس إن لم أنهض لأجلك. إن كان أصحابك أنسوك فأنا سأذكّرك: حين ينهض الجالسون إلى المائدة يجب أن يبقى أحدهم جالساً. لا ينهض الجميع

عن رزق الله العزيز. والآن تفضلوا بالجلوس _ توجه الحاج إلى الموالي الخدم: _ عودوا إلى أعمالكم مادام أميركم رجع. وأنت أيضاً يا ولدي _ وأشار إلى زبش _ أثبتَّ نشاطك وحققت طلبنا. نحن سنتكلم في موضوع خاص.

_ يا حاج، يا من أدعو له أن يجعل الله يومه مئة _ لم يقبل شروخقوه توغوظ الكلمات الأخيرة التي سمعها _ لا تدعْنا نكسب الذنب أمام رجال الأديغة،نحن اليوم لم تعد بيننا أسرار لأننا في وضع حرج. إن كان الولد على شاكلة الأب فلا يجب أن نهين بيننا ابن رجل أديغي كشواي في حضوره. ابق يا ولدي، لا تنصرف!

_ إن أذنتَ لي ياكبير _ قال زبش وهو يقترب من خان جري مسروراً _ سأبقى في خدمة المائدة.

_ حسناً، حسناً يا ولدي ! _ رقت عينا توغوظ السوداوان _ أحسنت يا ولدي، ليحفظك الله لأبيك؛ تعالَ وأنت يا حاج تكلمْ ياكبيرنا العزيز، لن نوارب في موضوع زيارتنا.

_ المائدة الأديغية يا توغوظ ذات ثلاث قوائم. ونحن هذه ثالث مرة نأتي فيها إلى صاحب المائدة خان جري. نريد منه، بوصفه أديغياً ومسلماً، إن كان مؤمناً بالله العظيم الذي يبتهل إليه الناس، ولا يبتهل هو إلى أحد، أن يضع يده على القرآن الكريم الذي أنزله لنا من السماء، فيفصِح للأديغة الذين نحن سفراؤهم عن حقيقة ما في قلبه. هاتوا الكتاب وضعوه أمامنا !

_ نعم، نعم يا حاج _ وافقه بفوق _ ليس الأديغة وحدهم بل كل المسلمين. باسم الشهداء والأموات، وليس آل سلطان، مضيفونا، بدون شهداء أو أموات، وليس بينهم من لن يبدّل دنياه بالآجلةَ.

_ يا قَعْزَج ! _ ناداه توغوظ باسمه الحقيقي بما يُفهم منه أنه غير موافق على هذا الكلام.

_ نعم، نعم يا توغوظ، لن أخالف كلامك.

_ إن كنتم تظنون أنكم ستعرّفونني على إسلامي بوضع القرآن أمامي أو عدمه فأنتم مخطئون يا ضيوفي. أنا أعيش عارفاً في نفسي أني أديغي ومسلم. وفي الخدمة العسكرية. وإن كنتم تظنون أني نادم على هذه الخدمة فأنتم تخدعون أنفسكم. لم يخلق الله من لا يخطئ ومن لن يموت. ولكن لم يصدف أن نسيت أصلي أمام من أخدم معهم يوماً.ولم أُخفِه. ولم يخل الأمر من مواضع أُكرمتُ فيها وأخرى أُهِنت. ولكنه عصر نهاية الأديغة...

_ أنت تطيل الكلام يا محترم، تطيل _ قاطع الحاج كلامه بلطف _ ما تزال أمامنا مهام كثيرة. يجب أن نجتمع بالأبزاخ والجمكوي والبسلني.

_ ولكن في العصر الذي يتهدد الفناءُ الأديغةَ _ تابع خان جري كلامه _ لا يحدثني قلبي أن أغير اتجاهي إلى أي مكان آخر. الاتجاه الذي تجرون إليه الأديغة، اتجاه تركيا هو ما أرفضه البتة _ المكان الذي يجب أن نتشارك فيه أفراحنا وأتراحنا _ بدا من لون خان جري أن الأزمة عاودت قلبه _ هو أرضنا وسماؤنا وحياتنا الحرة.

_ تأخرت جداً في التفكير في هذا _ ابتسم شروخقوه توغوظ ونهض _ لماذا إذن جررتم حلفاءكم إلى أرضنا؟

_ والآن أسألكم السؤال نفسه عن الترك _ نهض خان جري مع ضيوفه _ ولكن لا ننسَ أننا في موقف يَبين فيه البريء من المذنب، والآن لم يفت الوقت بعدُ، لنعدْ إلى وعينا، ولنُعد التفكير في أمورنا!

_ لنمض يا توغوظ، لنمضِ ! _ قال الحاج ضامّاً القرآن إلى صدره _ سَحَرَه الكفارُ، لم يعد سيدَ نفسه، ممن لعنهم الله، لن تحصل منه على موقف.

_ يا حاج ! _ صاح قايمت وراء العجوز النازل من على المصطبة _ أعد إلينا مصحفنا !

_ هذا هو ؟ إن كنتم تظنون أن إسلامكم سيُحمى بهذا، اغفر لي يا إلهي، خذه، خذه ! _ وما إن ركب الحاج حتى أطلق، بحيث لا تعرف أهذا هو الذي كان جالساً بكل هدوء، على خان جري هذا التهديد: سنرى يا عديم الإيمان إن كانوا سيسمحون لك بالحياة محتفظاً بالوجه الكافر والوجه الأديغي _ النغوي !

***

في عام 1842 رغم أن أشهر الحر انقضت ودخلت أشهر الخريف اللطيفة لم يبق لخان جري راحة أو طمأنينة، بل بالعكس كانت ليالي أرقه وأيام قلقه في ازدياد.الحرب الروسية القفقاسية تنتشر في إقليم الأديغة. والشابسغ والناتخواي والحكوف والوبيخ الواقفون في وجه الغزو الروسي جرّوا بذرائع مختلفة الأبزاخ والمخوش والجمكوي والبسلني إليهم. وعلى ضفاف لابا، وفرزه، وفرّ، وشحه كواش، اشتعلت حروب دامية.

كلما سمع خان جري خبراً من أخبار الحروب شعر بقلبه يُجرح محمّلاً نفسه المسؤولية. وإذا أضيف إلى هذا ما يرميه به بعض من يقابله من الأديغة والقوزاق من كلمات قاسية لم يعرف أين ينأى بنفسه.

" أأنا من بدأ الحرب في القفقاس فيتهمونني بها ؟ !_ يوقف خان جري الكتابة وينهض، وكما يفعل في أوقات الضيق يذرع أرض الغرفة عاقداً يديه وراء ظهره _ بعضهم يعيرني بزيي الأديغي، والآخر تفقأ عينَه رتبتي الروسيةُ... ماذا تريدونني أن أفعل ؟ " لا تخرج ولا تُقم ولا تدعْني أدخل البيت وأنت فيه " أهذا ما تريدون ؟ ما قالوه لي مساء أمس في (تغرغوي).. من حسن حظي أن شواي كان معي في المضافة، وإلا لربما تسببت في مصيبة بعيدة عن طبعي بحق المولى الذي أهانني، وكان الخبر المقيت قد انتشر على ضفتي نهر بشزة. حين قال لي " جئتَنا بالقيصر الروسي ممسكاً بيده وجعلته يدمر حياتنا " لم يبق في المضافة من يحميني إلا شواي. لا أقول إننا تركنا المضافة دون غضب وحَرَد، كان شواي قد فهم أني لا يجب أن أقيم أكثر من هذا في المضافة التي أُهنت فيها.ولكن ونحن عائدون، شككت، وإن لم نعد إلى هذا الموضوع في الطريق، أكان شواي مستاءً حقاً مما عيروني به.

توقف خان جري عند النافذة الخلفية للغرفة. وألقى نظرة على مقبرة آل سلطان.ونظر إلى ما وراء بعض الشواهد. وتوقف عند شاهدة قبر قانتات المجاور لقبر أبيه. " هذا يا نانا _ تألم قلب خان جري بحيث لا

يمكن الصبر على الألم، وارتعشت يده اليمنى بضع مرات _ ما يحدث لنا... أنا مَن يحمّلونه وزر الطريق الذي اختطته الأسرة. ليس لأني نادم على عِيشة آبائي ولا عيشتي،ولكن مع ذلك، أظنني صرت كمن قال " معروفي انقلب نحساً عليّ، وجاري صار عدوي "... لم أمسك بيد أحد وآتِ به إلى إقليم الأديغة. كان بودي، كما كنت تقولين، أن أقيم السلام بين الطرفين. ولم ألتحق بالجيش الروسي لأضرَّ بالأديغة وأستأصلَ الشجرة التي تفرعت منها.ولم أكن جاهلاً بأننا نضيع بين روسيا وتركيا. وحين قرر القيصر الروسي زيارة القفقاس كنت كتبت "العريضة " التي كلفوني أن أضعها أمام القيصر دون أن أدري أنها ستكون السبب في مثل هذه المصيبة وليس في قلبي إلا الخير. كنت وقتها شاباً... لو كان تفكيري يصل إلى ما أعرف الآن وإلى ما اصطدمت به، ولو لم يقفوا عثرة في طريق آمالي، ولو لم يتصرف معي الطرفان بنوع من الرياء والمداهنة... لا، لا. لا أقصد أني كنت توجهت إلى تركيا مُزيحاً من حالفتهم. ليقلْ أي إنسان في حقي ما يريد، لولا ما سبق لدشّنت في بلاد الأديغة الأساس لوحدة الأديغة.والآن في العصر الذي اقتلعوا فيه أساس آمالي لم يبق لي إلا ما كتبت بالروسية من أفكار أديغية على هذه الأوراق. إن حافظ بني قومي يوماً ما على كيانهم فسأجعل الناس يتحدثون عنهم من خلالها"

ترك خان جري النافذة وأمسك القلم وكتب على العمل الذي أنجزه " دين الأديغة وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية " ووضعه بجانب العمل الذي سماه " الحكايات الأديغية ".

مزح خان جري مع زبش الذي دخل الغرفة:

_ لماذا لم يظهر والدك منذ الصباح ؟ ألا يزال نائماً ؟

_ شواي، برفقة فارسين _ كان ما سمعه زبش مدعاة للضحك _ خرج إلى الريف منذ وقت طويل. قال إنه سيتفقد قطاف الذرة الصفراء فاصطحب حاج قسي وقايمت.

_ هكذا ؟ _ نظر خان جري إلى زبش مسروراً بنموه في نصف العام الأخير وتطوُّرِ فهمه واكتسابِه طبائع الرجال.

_ لأنك كما تقول بيكا: أنت تحرم نفسك من الصباح الجميل مرهقاً نفسك بالأوراق.

_ والله لن تنطق أصدق من هذا ! يا زبش _ ابتسم خان جري _ أوافقك على أني أحرم نفسي من الصباح الرائع، ولكنك مخطئ في حق أوراقي. لو قلت لي إنها سبب حياتي لكنت مسروراً.

_ لا أعرف إذن لماذا تظل بيكا تدمدم ؟ _ تمتم زبش.

_ لأن أمي تشفق عليّ _ إن لم تقل لي: لن أدعك تعود إلى بطرسبورج دون أن تتزوج لأن الخريف أقبل فلتغمغم كما تشاء ! قال خان جري بقلبه ثم أضاف: _ والله فعلتَ خيراً بإبعادي عن الكتابة. لا بد أن أزور إيكاترينودار.

_ إذن ستلبس زيك القوزاقي !

ـ ليس ضرورياً ـ مع أن خان جري تظاهر بعدم الاهتمام بتعليق زبش فقد أجابه بطريقة مفهومة: ـ ولكن لما كان لا بد من لقاء الأتامان زافادوفسك فالأفضل أن ألبس زيي العسكري.

كان خان جري متلهفاً للوصول إلى البريد ولو أنه اتخذ مقابلة الأتامان ذريعة. ذهب إلى المدينة أول من أمس وفي الأسبوع الماضي دون أي سبب إلا البريد ـ منذ شهرين انقطعت رسائل تاتيانا.فإن لم يصله اليوم أيضاً شيء فلا يدري إلى أي خاطر من خواطره سيركن.

استقبل مسؤول البريد العجوز خان جري بوجه طلق:

ـ جاءتك رسائل، أيها العقيد المحترم، جاءتك رسائل.

حين فتح خان جري البريد الذي انتظره، ليس في مكتب البريد، بل إلى جانب حصانه المسرج. دوّخت الكلمات التي أعقبت الأسطر الأولى رأسه." إلى الآن، ورغم ما أكتب من كلمات صعبة عليّ، فأنا أحبك.وأنت عزيزي وهواي. ولكن لن أستطيع أن أصبر على مزيد من بعادنا. لم تزد أيام السعادة منذ تعارفنا قبل أكثر من خمس سنين على بضعة أشهر. أفهم أنك لست حراً في نفسك كما أنا حر في نفسي. ولا ألومك على هذا. وما يجب أن تستبعده من ذهنك تماماً هو ما تقوله عن توعكك. ليت جميع النساء كان عندهن رجال أقوياء ولطيفون مثلك ! أبكي وأنا أعرف أني أقتلعك من قلبي. وأمسح دموعي. أعرف في نفسي كوني سعيدة الحظ وسيئته معاً. أنت تفهم، وإن لم أقل لك، متى بدأ سوء حظي ـ ناحيتكم هي نفسها التي حولتني إلى سعيدة الحظ، أنت. كما أنك سيئ الحظ من بين الأديغة، ربما أنا أيضاً قدّر الله أن أكون سيئته فيهم... ما أزال شابة. وجدت نفسي في موقف يجب أن أفكر فيه في مصيري، وإن كنت أنت تظن أن تصبح سعيداً في ناحيتكم فسأدعو الله لكما، وأنا أغبط من ستكون لك وأحسدها، ولن أقف بينكما.سامحني يا خان. لم أكن أريد أن أسبب لك الحزن... "

وقف خان جري مدة ممسكاً طرفي السرج ثم انتبه إلى نفسه. جعلته ضرورة مقابلة الأتامان يحثّ الحصان فوراً. دخل الباب دون توقف عند الحراس القوزاق.

نهض الأتامان وقد تفهّم لهفة خان جري وحزنه، وصرف ضابط الشرطة القوزاقي الجالس مقابله.

ـ اجلس أيها العقيد المحترم ـ قال زافادوفسك، ثم خاطبه بما كان تعمّد نسيانه: يا مرافق القيصر العظيم.

ـ شكراً يا أتامان.

ـ يخيل إليّ أن أمراً ما يقلقك يا خان جري !

ـ لا شيء مهماً يا نيقولاي ستيبانوفيتش ـ ضغط خان جري على قلبه وهو يصحو ـ غير أني أود أن أعود إلى بطرسبورج.

ـ أتعود قبل أن تنتهي استراحة السنة ؟ إن فعلتَ هذا فماذا سيقول رؤساؤنا ؟

ـ إن لم أكن حراً في نفسي فاكتبْ لهم، وأنا سأكتب. لن أستطيع العيش هنا أكثر من هذا.

_ نعرف أن الأديغة الذين يحاربوننا في الجبل يترددون عليك، ونعرف ماذا يقولون. إن كانوا سبب ضيقك فسنمنعهم من الاقتراب منك. سننقلك إلى إيكاترينودار.

" أنا لا أعرف غير أن القوزاق، كالأديغة، يُحصون كل خطوة أخطوها " _ ابتسم خان جري في قلبه وأجاب:

_ لماذا أختبئ في إيكاترينودار ؟ إن كنتم سترعونني فسأبقى في قريتي معتبراً إياها حِصني.

رجع خان جري إلى لوستان حبله وقد صعب عليه أن بني قومه وضباطه لم يعودوا يثقون به. وما إن دخل الغرفة حتى دفعته الضجة التي ارتفعت في الدار إلى فتح النافذة، فوصلت إليه شكوى زبش بقميص ممزق وأنف نازف.

_ لن يهددوا خان جري بعد الآن من وراء ظهره؛ أعجيب أن مزقوا قميصي ؟ وأنا لم أقصّر، أدميت أنفَي الولدين.

_ يا زبش، يا ولدي _ تمسح بيكا على رأسه _ قل لي من الذي يسيء إلى كرامتنا، من هم ؟ _ ألا يكفي ؟ ماذا جرى حتى يهددنا الأديغة والقوزاق ؟

_ من القرية الأخرى، لن تَصِلي إليهم... _ لم يقبل زبش الإفصاح عن أسمائهم متكلفاً الرجولة.

_ اذهب إذن واغسل _ يقول شواي لابنه _ كُفّوا عن الشجارات. إن كنا نحن نتقاتل فيما بيننا فكيف سننتصر على أعدائنا !

ابتعد خان جري عن النافذة وقد جرحته كلمات شواي " أنا من لا يكفّ الكبير والصغير عنه، الأولاد ليسوا مشكلة، فحتى الكبار لم يفهموا ألمي " ما أعجب ما رماني به القوزاقي الضخم الأفطس حين خرجت من عند زافادوسك: " أتستطيع أن تنتزع من صدرك قلبك الأديغي وإن حملت رُتَبنا؟" إن لم تكونوا تفهمون إلا هذا لم يفهمني الطرفان اللذان عشت من أجلهما: الأديغة والقوزاق " وما إن حاول خان جري الجلوس على السرير وهو يتذمّر حتى اختلجت أعضاؤه، فسقط والنار تحرق قلبه، ونطق كلماته الأخيرة وهو يختنق بها" لم يفهمني أي من الطرفين، لا هؤلاء، ولا أولئك "

استقبل شواي بعد الظهر أغوي بشه ماف وتازه أديغ اللذين ترجلا عند البوابة. وكان زبش يتبع أباه لابساً قميصاً رمادياً نظيفاً.

كان الضيفان جالسين تحت العريشة لأن الجو صاحٍ. وفاحت بعد قليل رائحة البَرَك و(الشلامه[1]) التي تعدهما سيسور. وجلس حاج قسي وقايمت يرحبان بالضيوف، ومن لم يتخلّ من بين الأمراء عن استراحة الظهيرة هما خان جري وبيكا؛ في حين كان الموالي على أقدامهم في الخدمة.

[1] سبق التعريف بها، طعام يُتَّخذ من العجين المخمَّر أو غير المخمر المقلي بالزيت. المترجم

ـ ربما كان خان جري يستريح ـ قال تازه ـ كان بودنا أن نراه قبل أن ننطلق في طريقنا.
ـ خان جري رجع من المدينة تواً ـ نظر شواي نحو الغرفة ـ ليس من عادته أن يستريح في النهار ـ اذهب يا ولد وانظر إن كان يكتب، وأخبره أن عندنا ضيوفاً.
وحالاً رجع زبش ممتقّع الوجه، وقال لشواي الذي استقبله متلهفاً:
ـ يا أبي، خان جري ممدد على أرض الغرفة !
هبّ شواي إلى الغرفة، ولكنه لم يلبث أن نادى من العتبة:
ـ تعالا يا حاج قسي وقايمت !
وما لبثت بيكا أن مزّقت البيت عويلاً، وصعد قايمت شاحباً إلى المصطبة:
ـ المحترم خان جري... مات !ـ افتحوا البوابة الكبيرة على مصراعيها إيذاناً بان لدى آل سلطان مأتماً، والباب الصغير ادفعوه إلى أحد الجانبين !

***

سحابة الضباب الخريفي منيخة على القرية لا تتحرك. ويبرز من بين قبور آل سلطان المتراصفة القبرُ الجديد. التراب الأسود المفتت ألّف تلة صغيرة. والشاهدتان الخشبيتان بلون الأرض السوداء تبرزان من طرفي القبر، وشواي وابنه يقفان إلى جانبي القبر مطأطئي الرأس.
ـ قل: آمين يا زبش ! ـ رفع شواي يديه، ففعل الولد مثله، ودعا شواي بصمت وشفتاه تختلجان فحسب "خان جري يا أخي الأصغر؛ ليفتح الله لك طريق الخير، ولْيجعلْك في عداد المسلمين الذين سيفتح لهم باب الجنة! ليُضاعف اللهُ حسناتك وليغفر سيئاتك ! أدعو إلى الله تعالى من أجلك " ـ وبعدما يمسحان وجهيهما بأكفهما يتوجه شواي إلى ابنه:
ـ الآن يا زبش ودّع أمك ! رجال الأديغة ينتظروننا في ساحة الحرب. لا حياة لنا غيرها...
كان قد بقي على نهاية الحرب الروسية ـ القفقاسية اثنان وعشرون عاماً وسبعة أشهر وخمسة وعشرون يوماً.

انتهت